

دولة الإسلام في الأندلس

تأليف

محمد عبد الله غنيان

العصر الأول - القسم الأول

من الفتح إلى بداية عهد الناصر



الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

رقم الإيداع : 90/8988

الترقيم الدولي : 4-082-505-977

مطبعة المكنى
المؤسسة السعودية بجمع
٢٨ شارع الباسية - القاهرة ٤٨٢٨٥١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

تصدر اليوم الطبعة الرابعة من كتاب « دولة الإسلام في الأندلس » ، وقد أتيج لنا بعون الله وتوفيقه ، أن نكمل تاريخ الأندلس منذ بدايته إلى نهايته ، وأن تظهر عصوره الأربعة على النحو الآتي :

العصر الأول - ويشمل تاريخ فتوح إفريقية والأندلس ، وعصر الولاة ، ثم تاريخ الدولة الأموية الأندلسية منذ قيامها في ظل الإمارة ، ثم قيام الخلافة الأموية ، وانحلالها على يد الدولة العامرية ، ثم انهيارها وسقوطها ، وبدء قيام دول الطوائف الأندلسية : ٢٢ - ٤٥٠ هـ (٦٤٣ - ١٠٥٨ م) .

وهذا العصر ، هو الذى تقدمه اليوم إلى القارئ في طبعته الجديدة .

العصر الثانى - « دول الطوائف » ، ويشمل تاريخ الأندلس منذ قيام دول الطوائف الأندلسية ، فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، حتى سقوطها على يد المرابطين فى أواخر هذا القرن : ٤٢٥ - ٥٠٢ هـ (١٠٣٣ - ١١٠٨ م) .

العصر الثالث - « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس » ويشمل تاريخ هاتين الدولتين المغربيتين العظيمتين ، منذ بدايته حتى نهايته ، وتاريخ الأندلس الكبرى فى ظلّهما ، ثم انهيارها عقب انهيار سلطان الموحدين فى الأندلس ، فى أوائل القرن السابع الهجرى : ٥٠٠ - ٦٦٨ هـ (١١٠٦ - ١٢٦٩ م) .

العصر الرابع - « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين » ، ويشمل تاريخ مملكة غرناطة آخر دول الإسلام فى الأندلس ، منذ قيامها حتى سقوطها ، ثم تاريخ الأمة الأندلسية المغلوبة تحت نير اسبانيا النصرانية ، بعد أن غدت طائفة الموريسكيين أو العرب المنتصرين ، وما نزل بها من محن التنصير المغصوب ، ومختلف ضروب الاضطهاد المفجعة ، حتى إخراجها نهائياً من

الأراضي الإسبانية ، وذلك في بداية القرن السابع عشر الميلادي : ٦٣٥ -
١٠١٩ هـ (١٢٣٧ - ١٦١٠ م) .

وقد أتيج لنا إلى جانب هذه العصور الأربعة من تاريخ الأندلس ، أن
نصدر في نفس الوقت مؤلفاً خاصاً عن الآثار والنقوش الأندلسية الباقية ، في
شبه الجزيرة الأندلسية ، وذلك بعنوان « الآثار الأندلسية الباقية ، في اسبانيا
والبرتغال » .

وتشغل هذه العصور الأربعة تسعة قرون من حياة الأمة الأندلسية ، زاخرة
بالأحداث والعبر والمآسي المشجية ، لم نأل جهداً في سردها ، وتحليلها ،
وإسنادها إلى مصادرها الوثيقة .

وقد أنفقت في كتابة هذه العصور الأربعة ، من تاريخ الأمة الأندلسية ،
خمس وعشرين عاماً ، قمت خلالها بست عشرة رحلة في اسبانيا والمغرب ،
لم أدخر خلالها وسعاً في البحث والتنقيب ، وتقصى مختلف المصادر والوثائق ،
ودراسة المخطوطات العربية ، والوثائق القشتالية ، في مختلف مواطنها .

ولقد كان لهذا التجوال المتكرر ، في ربوع الأندلس القديمة ، والزيارات
المتعددة للقواعد الأندلسية الداهية ، ولاسيما القواعد الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية ،
وبلنسية ، وشاطبة ، ومرسية ، وسرقسطة ، وطليطلة ، وبطليوس ، وماردة ، وأشبونة ،
وباجة وغرناطة ، وألمرية ، ومالقة ، وغيرها ، وهذه الدراسات المستفيضة
لآثارها ونقوشها الأندلسية الباقية ، وهذه المشاهدات لطبائع الإقليم ، والبقاع ،
والأوساط التي حلت فيها الأمة الأندلسية ، وعاشت عدة قرون ، ووضعت أسس
حضارتها العظيمة - كان لذلك كله في نفسى أعمق الآثار ، وقد أمدنى بكثير من
الحقائق والفكر الجديدة .

وأود أن أنوه هنا ، بأنه فضلاً عن استيعاب المصادر القشتالية واللاتينية
القديمة ، والمصادر الغربية الحديثة ، إلى جانب المصادر العربية المختلفة العامة
والخاصة ، قد أتيج لي أن أنفع بكثير من المصادر المخطوطة الهامة ، مما عثرت
عليه خلال بحوثي في المجموعات الإسبانية (ولاسيما مجموعة الإسكوريال ومجموعة
أكاديمية التاريخ) ، والمجموعات المغربية في الرباط وفاس ، وأن أنفع في
هذا القسم من تاريخ الأندلس ، بوجه خاص ، بثلاث قطع مخطوطة نادرة

من مؤلف ابن حيّان القيم في تاريخ الأندلس ، وهو كتاب «المقتبس في تاريخ رجال الأندلس» أو «المقتبس في أخبار أهل الأندلس» .

القطعة الأولى - وتشمل حوادث سنى ١٨٠-٢٣٢ هـ ، أعنى عصرى الحكم ابن هشام وعبد الرحمن بن الحكم ، وتقع فى نحو مائة صفحة (ص ٨٨ - ١٨٩) من القطع الكبير ، وهى عبارة عن بداية السفر الثانى من كتاب «المقتبس» ، ويرجع الفضل فى انتفاعى بهذا القسم ، إلى صديقى العلامة المرحوم الأستاذ لطفى بروفنسال ، وكان قد عثر عليه فى مكتبة جامع القرويين بفاس ، وقد اختفى الآن هذا القسم ولا نعرف مكان وجوده .

القطعة الثانية - وهى تأتى مباشرة بعد القطعة الأولى ، وتشمل حوادث سنى ٢٣٣ - ٢٦٧ هـ ، أعنى بقية عصر عبد الرحمن بن الحكم ، ومعظم عهد ولده الأمير محمد ، والبوادر الأولى للثورة الكبرى ، وتقع فى ٩٥ لوحة أعنى مائة وتسعين صفحة من القطع الكبير ، وهى عتيقة بالية كثيرة الخروم ، متساقطة الحوافى ، مكتوبة بخط أندلسى قديم ، وقد كتب فى نهايتها «كمل السفر الثانى بحمد الله تعالى ، يتلوه الثالث ، مبتدأ نجوم عمر بن حفصون كبير الثوار بالأندلس» . وهى تحتوى على تفاصيل ومعلومات هامة عن بلاط قرطبة وأحواله فى هذا العصر ، وعن الصقالية والوزراء والعمال . وقد عثرت على هذه القطعة فى مكتبة جامع القرويين بفاس ، وحصلت منها على صورة فتوغرافية ، وانضعت بها منذ الطبعة الثالثة من الكتاب انتفاعاً عظيماً ، وذلك بالرغم من صعوبة المراجعة فى هذه المخطوطة البالية^(١) .

ويتلو هذا القسم المخطوط الذى يشتمل على السفر الثانى من «المقتبس» ، السفر الثالث ، الذى قام بنشره المستشرق الإسباني الأب الأوغسطينى ملشور أنتونيا عن مخطوطة المكتبة البودلية بأكسفورد (باريس سنة ١٩٣٧) ، وهو يشتمل على عهد الأمير عبد الله بن محمد ، وحوادث الفتنة الكبرى من سنة ٢٧٥ إلى سنة ٢٩٨ هـ ، قبيل عهد الناصر بعامين .

القطعة الثالثة - وهى تتعلق بأعظم اكتشاف من نوعه من كتاب «المقتبس» ،

(١) وقد قام صديقى الدكتور محمود على مكى أخيراً بتحقيق هذه القطعة ونشرها ، وسوف تظهر قريباً .

وهو العثور على « السفر الخامس » منه المتعلق بعهد عبد الرحمن الناصر .

إن هذا الاكتشاف يتعلق بأعظم قطعة مخطوطة عثر بها البحث حتى اليوم من هذا المؤلف الكبير . وقد تم العثور عليها منذ أعوام قلائل بين موجودات الخزانة الملكية بالرباط ، وقد كان من حسن الطالع أن أتيج لنا الاطلاع عليها ودراسة محتوياتها دراسة وافية .

وهي عبارة عن جزء ضخيم من كتاب « المقتبس » يقع في مائة وخمسة وثمانين ورقة كبيرة تضم ٣٧٠ صفحة ، ولا يحمل المخطوط عنواناً لأنه ناقص من أوله . ولكن لا يصعب على من يعرف منهج ابن حيان التاريخي وأسلوبه النقدي ، ومصادره التي يقتبس منها ، أن يدرك لأول وهلة أنه أمام جزء كبير من المقتبس . ومن جهة أخرى ، فإنه مما يقطع بصحة هذا الاستنتاج ، ما قرأناه في حوادث سنة ٣٢٧ هـ ، عن موقعة الخندق ، من قول المؤلف خلال حديثه عن قتل من المسلمين في الموقعة « وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والحشودة ، فافترطنا فيهم إلى جدنا حيان الأمل طريقة أبا سعد مروان بن محمد بن حيان رحمه الله » .

ويضم هذا المجلد الضخم السفر الخامس من كتاب « المقتبس » ، وذلك حسبما ورد في ختامة . وهو يتعلق جميعه بعصر عبد الرحمن الناصر . ومن ثم كانت أهميته البالغة ، بيد أنه مع ضخامته لا يشمل عصر الناصر كله ، وهو يبدأ من سنة ٣٠٠ هـ وينتهي في سنة ٣٥٠ هـ . بل تنقص هذا السفر الخامس من « المقتبس » في البداية نحو ستين صفحة ، وهو يبدأ بحوادث سنة « سبع وثلاثمائة » ، وينتهي بحوادث سنة ٣٣٠ هـ وإن كان يتناول أحياناً بعض الحوادث التي وقعت قبل ذلك أو بعد ذلك حتى سنة ٣٤٠ هـ .

والمخطوط قديم ، ومكتوب بخط أندلسي جميل ، ولكنه لا يحمل تاريخ كتابته (١) .

وقد قضينا في دراسة هذا المخطوط والنقل منه فترات طويلة ، وانتفعنا

(١) هذا وقد كتبت عن هذا الاكتشاف بحثاً مفصلاً ، نشر بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد في المجلد الثالث عشر (سنة ١٩٦٥ - ١٩٦٦) . ثم ألفت بعد ذلك عنه محاضرة بالإنجليزية بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن في ربيع سنة ١٩٦٧

بمحتوياته أعظم انتفاع ، فى هذه الطبعة الرابعة من كتابنا ، وما نقلناه منه يرى الضياء لأول مرة .

وتوجد إلى جانب ذلك قطعة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان فى مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة كوديرا) ، تقع فى ١٣٦ صفحة صغيرة ، وتشتمل على حوادث سنى ٣٦١ - ٣٦٤ هـ ، وهى أواخر عهد الخليفة الحكيم المستنصر بالله ، وتحتوى على معلومات هامة عن الشؤون المالية والإدارية فى هذا العصر .

فإذا ذكرنا بعد ذلك كله ، ما نقله الكتاب والمؤرخون اللاحقون مثل ابن بسام صاحب الذخيرة ، وابن عذارى صاحب البيان المغرب ، وابن الخطيب ، فى الإحاطة ، وأعمال الأعلام ، والمقرى فى نفح الطيب ، من الفصول والشذور العديدة ، من تاريخ ابن حيان ، أدركنا أننا قد ظفرنا فى الواقع بقدر كبير ، وربما بمعظم محتويات هذا التاريخ العظيم الجامع ، الذى يعتبر بحق من أقيم مصادر التاريخ الأندلسى ، وأكثرها اتزاناً ، وأقواها من حيث الروح التحليلية والنقدية ، ولا سيما فيما يتعلق بحوادث سقوط الخلافة الأموية ، وأوائل عهد الطوائف ، وهو العصر الذى أدركه ابن حيان وعاش فيه ، وشهد أحداثه المثيرة ، وترك لنا عنها أبدع الصور وأقواها .

ونكتفى بهذه الإشارة إلى المصادر المخطوطة ، وهى عديدة ذكرت فى مواضعها ، وكذلك المصادر الأخرى من عربية وقشتالية وغيرها ، فقد ذكرت كذلك فى مواضعها ، وسوف نثبتها جميعاً فى نهاية الكتاب فى ثبت خاص .
وأما المصادر والنصوص والوثائق اللاتينية والقشتالية ، فقد راجعت معظمها فى مدريد ، فى المكتبة الوطنية ، وقسم المحفوظات التاريخية ، وكذلك فى مكتبة معهدنا المصرى بمدريد ، وهى تضم مجموعة نفيسة من مصادر التاريخ الأندلسى .

* * *

ولا بد لى أن أكرر هنا ما سبق أن ذكرته فى مقدمة الطبعة الأولى ، وهو أنى بذلت فى كتابة هذا المؤلف الذى يمزج فيه تاريخ الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية ، جهداً خاصاً لتمحيص الروايات والنصوص العربية والإفرنجية ، واستخراج الرواية الراجحة ، وتكوين رأى مستقل مهما يكن هذا رأى

ومما تجدر ملاحظته أن تاريخ الأندلس كتاريخ الحروب الصليبية ، يمتاز في كثير من الأحيان بتباين واضح بين الرواية الإسلامية والرواية النصرانية ، وقد تتأثر هذه الرواية أو تلك ، بالموثرات القومية أو الدينية ؛ ولكن الرواية الإسلامية فيما يتعلق بتاريخ الأندلس ، تبدو على العموم أقل تحاملاً ، وأكثر دقة واعتدالاً . وأما الرواية النصرانية فكثيراً ما يشوبها الإغراق والتحامل ، وينقصها الإنصاف والدقة . ويرجع ذلك إلى أن الروايات النصرانية الأولى ، التي كتبت عن تاريخ اسبانيا المسلمة ، كانت من تصنيف بعض الأخبار المتعصبين ، وإلى أن مؤرخي اسبانيا المحدثين ، لبثوا حتى أواخر القرن الثامن عشر يكتبون تاريخ اسبانيا من ناحية واحدة ، ويرجعون إلى المصادر النصرانية دون غيرها ، ويحتملون كل بحث أو تنقيب في المصادر العربية ، وذلك بالرغم من أن تاريخ اسبانيا المسلمة يشغل أعظم مكانة في تاريخ اسبانيا في العصور الوسطى ، ويكون صفحة من أجد صفحاته . وقد نعى النقد الإسباني الحديث نفسه هذا المسلك على مؤرخي اسبانيا النصرانية ، فثلاً يقول العلامة المستشرق الإسباني جاينجوس في مقدمة ترجمته لكتاب نفح الطيب : « إن ماريانا وأكابر المؤرخين الإسبانين تحذوهم عاطفة بغض قومي عميق ، أو نزعة تعصب ديني ، أبدوا دائماً أبلغ الإحتقار لمؤلفات العرب .. فكانوا يرفضون وسائل البحث التي تقدمها لهم الوثائق التاريخية العربية الكثيرة ، ويهملون المزايا التي قد تترتب على المقارنة بين الروايات النصرانية والإسلامية ، ويؤثرون أن يكتبوا تواريخهم من جانب واحد . وقد ترتب على هذا الروح الضيق الذي يطبع كتاباتهم أثر واضح . ذلك أن تاريخ اسبانيا في العصور الوسطى ، ما يزال بالرغم من كل ما أفاض عليه النقد المحدثون ، معتركا من الخرافة والمتناقضات » .

وقد أرسل العلامة جاينجوس هذه الصيغة منذ نحو قرن . ومع ذلك فإن فريقاً من المؤرخين والمفكرين الإسبان ، ما زال حتى عصرنا يعتبر تاريخ الأمة الأندلسية صفحة بغيضة من التاريخ القومي ، وأن القضاء على الأمة الأندلسية وعلى حضارتها إنما هونصر قومي باهر ، وأن مطاردات ديوان التحقيق المروعة لبقايا الأمة المغلوبة ، إنما هي عمل إنقاذ وسلام . وينسى هذا الفريق أو يتناسى كل المزايا ، وكل الجهود الإنتاجية ، وكل التراث الحضاري ، وكل التقدم الإنساني الذي

حققه المسلمون في اسبانيا ؛ بل نجد في العصر الحديث عالماً إسبانياً مثل المستشرق سيمونيت ، يبرر ، بل ويمجد العمل الوندلى الذى ارتكبه الكردينال خمينس مطران طليطلة ، بجمع الكتب العربية من المسلمين بعد سقوط غرناطة بقليل ، وقد بلغت زهاء مائة ألف أو تزيد ، والاحتفال بإحراقها أكداً في ميادين غرناطة ، لكي تحرم الأمة المغلوبة بذلك من غذائها الروحى والفكرى .

على أن البحث الغربى الحديث ، استطاع أن يستدرك كثيراً من شوائب هذا النقص ، الذى يكتنف تاريخ اسبانيا في العصور الوسطى ، فدرست الكتب والوثائق العربية منذ أوائل القرن الماضى ، وتبوأ المصادر الإسلامية مكانها إلى جانب المصادر النصرانية ، وترجم البعض منها إلى اللغات الأوروبية ، وظهرت طائفة كبيرة من الكتب والبحوث النقدية بمختلف اللغات الأوروبية ومنها الإسبانية ، تكشف للغرب عن كثير من الحقائق المتعلقة بتاريخ الأندلس ، وأحوال المجتمع الإسلامى في اسبانيا ، وتكشف بالأخص عن القسط البارز ، الذى ساهمت به المدنية الإسلامية بالأندلس ، في بناء الحضارة الإسبانية الحديثة ، وحضارة عصر الإحياء الأوروبى .

هذا وقد راعيت في سائر فصول هذه القصة الأندلسية المشجية ، أن أسلك سبيل التبسط المعتدل ، بعيداً عن الإيجاز المخل ، بعيداً في الوقت نفسه عن الإسهاب والتفاصيل الكثيرة ، لإمادعت إليه المناسبات الهامة أو المواقع الحاسمة ، حربياً خلال ذلك كله على أن أبرز الحوادث والشخصيات والصور في إطارها النقدى ، الذى تدعّمه الوثائق والنصوص والقرائن ، بعيداً كل البعد عن التأثير بالعاطفة أو الأهواء أو الانجهاات القومية أو الدينية من أى نوع ، وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت في ذلك ، إلى تأدية رسالة الحق والصدق والاعتدال ، في كتابة هذه الصفحات المشرقة المؤسية معاً من تاريخ الأمة الأندلسية .

وقد حرصت إلى جانب تاريخ اسبانيا المسلمة ، أن أكتب في نفس الوقت تاريخ اسبانيا النصرانية ، فاستعرضت منذ البداية نشأة المملكة النصرانية الأولى ، ثم تاريخ الممالك النصرانية اللاحقة ، ثم تناولت تاريخها تباعاً في عصورها المتعاقبة ، وعנית بعد ذلك بتتبع أحداث المعركة الأبدية المضطربة ، التى نشبت بين الأندلس المسلمة ، وبين هاته الممالك النصرانية ، وهى التى غدت فيما بعد محور التاريخ الأندلسى

كله ، ثم تحولت من جانب اسبانيا النصرانية إلى ما يسميه المؤرخون الإسبان « معركة الاسترداد » La Reconquista ، وانتهت إلى نتيجهها الطبيعية المحتومة ، أعنى إلى القضاء على دولة الإسلام فى اسبانيا .

وهذه الطبعة الجديدة من « دولة الإسلام فى الأندلس » تتضمن بعض الإضافات والنصوص الجديدة ، التى استطعنا أن نقتبسها بالأخص من « السفر الخامس » من تاريخ ابن حبان ، وهو الذى يتضمنه مخطوط المكتبة الملكية الذى سبق ذكره ، وقد كنا لحسن الطالع ، أول من وفق إلى مراجعته والانتفاع به . وقد نقلنا منه كثيراً من النصوص والوثائق الهامة ، ولا سيما كتاب الناصر عن فتنة ابن مسرة ، وكتابه عن موقعة الخندق ، وغيرهما من الوثائق الرسمية التى ترى الضياء لأول مرة فى البحوث الأندلسية . كما تتضمن هذه الطبعة فصلين جديدين ينشران لأول مرة ، الأول عن نظم الحكم والأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية فى عصر الإمارة والخلافة ، والثانى عن الحركة الفكرية الأندلسية .

هذا إلى ما تتضمنه هذه الطبعة أيضاً من النصوص والتعليقات الكثيرة ، المستمدة من المصادر النصرانية والقشتالية ، وهو أثر من آثار المراجعة المستمرة التى عكفت عليها فى مدريد ، خلال رحلاتى المتوالية إلى شبه الجزيرة الإسبانية .

ولقد تمتيت فى ختام مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، أن يكون صدوره « بداية مشجعة تبعث إلى اهتمام الباحثين بهذه الصفحة المحيطة من تاريخ الإسلام فى الغرب » . وإنه لما يدعو إلى الغبطة ، ما يلاحظ من تقدم الدراسات الأندلسية وانتعاشها فى العهد الأخير ، وذلك سواء فى ميدان الكتابة والتصنيف ، أو ميدان نشر الآثار الأندلسية المخطوطة ، وهو نشاط تساهم القاهرة فى قسميه بأوفى نصيب .

محمد عبد الله عريان

القاهرة فى المحرم سنة ١٣٨٩
الموافق مارس سنة ١٩٦٩

الكتاب الأول

فتوح العرب

في إفريقية والأندلس وغاليس

وعصر الولاة في الأندلس

٢٢ - ١٣٨ هـ : ٦٤٣ - ٧٥٥ م

الفصل الأول

فتوح العرب في إفريقية

الصراع بين الدولتين الإسلامية والرومانية . اتجاه الفتوح الإسلامية نحو الغرب . غزو برقة . جرجير حاكم إفريقية الروماني . موقعة سبيلطة وهزيمة الروم . فتح سبيلطة عقد الصلح . إفريقية وقت الفتح الإسلامي . أحوالها في ظل الحكم الروماني . انتقالها إلى الدولة الشرقية . فتحها على يد الوندال . كلمة بربر . مدلولها . إستعادة الدولة الشرقية لإفريقية . ضعفها وانحلالها . وقف الفتوح العربية واستئنافها على يد الدولة الأموية . موقعة حصن الأجم . إفتتاح سوسة وحصن جالولاء . ولاية عقبة بن نافع الفهري لإفريقية . إفتتاحه لأقطار المغرب . بناؤه لمدينة القيروان . ولاية أبي المهاجر الأنصاري . ولاية عقبة الثانية . مسيره ثانية إلى المغرب . ثورة البربر وقيام كسيلة بن لمزم . هزيمته للمسلمين واستيلائه على القيروان . ولاية زهير البلوي . زحفه على القيروان . مقتل كسيلة وإفتتاح القيروان . هجوم الروم من البحر على برقة . هزيمة العرب ومقتل زهير . مسير حسان بن النعمان إلى إفريقية . غزو العرب لقرطاجنة واستيلائهم عليها . فقدم إياها ثم استردادهم لها . ثورة البربر وقيام الكاهنة . القتال بين العرب والبربر . هزيمة العرب . ارتدادهم إلى برقة . عود حسان إلى غزو المغرب . انصراف البربر عن الكاهنة وهزيمتها . تنظيم حكومة إفريقية وتجديد القيروان . عزل حسان وولاية موسى بن نصير . نشأة موسى وحياته الأولى . الخلاف على تاريخ توليته لإفريقية . عود البربر إلى الثورة . هزيمتهم وسحق ثورتهم . فتح موسى لطنجة . لاية طارق بن زياد لها . إنشاء موسى للأسطول . غزو العرب لجزائر البليار وصقلية وسردينيا .

كان الصراع الذي نشب بين الدولة الإسلامية الناشئة ، وبين الدولة الرومانية الشرقية ، يضطرم حينما تبسط الدولة الشرقية سلطانها . وكانت بسائط الشام مهاد المعارك الأولى بين الدولتين ، وكانت أول قطر غنمته الخلافة من أراضي الدولة الرومانية ؛ ثم افتتح العرب مصر بعد الشام ، وهي أيضاً ولاية رومانية ، وكان إفتتاحها في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، على يد عمرو بن العاص ، وذلك في المحرم سنة عشرين من الهجرة (ديسمبر سنة ٦٤٠ م) . ولما كانت مصر تتصل من الغرب بأملاك أخرى للدولة الرومانية هي الولايات الإفريقية ، فقد كان من الطبيعي أن يتخذ العرب مصر قاعدة لإفتتاح إفريقية ، توطيداً لسلطانهم في مصر

والشام ، وإتماماً لسلسلة الفتوحات الغربية . غير أن تقدمهم نحو الغرب كان مخفوفاً بمشاق وصعاب لم يألفوها في فتوحهم الأولى ، فقصوا زهاء نصف قرن في معارك عنيفة مع الروم (الرومان) والبربر ، وأصيبوا إلى جانب انتصاراتهم ، بأكثر من هزيمة شديدة ، وواجهوا عدة ثورات محلية عنيفة ، وانهار سلطانهم الفتي غير مرة ، قبل أن يستقر نهائياً في إفريقية .

وبدأ العرب فتوحهم في إفريقية عقب افتتاحهم لمصر مباشرة . ففي سنة اثنتين وعشرين من الهجرة ، أعنى بعد افتتاح مصر بنحو عامين ، سار عمرو ابن العاص غرباً إلى برقة ، فافتتحها وصالح أهلها على الجزية ، ثم افتتح طرابلس (أو إطرابلس) بعد أن حاصرها شهراً ولجأ سكانها إلى سفنهم في البحر ، ولكنه تركها بعد اغتنام ما فيها^(١) . وفي خلافة عثمان توغل العرب في قفار إفريقية . وفي سنة سبع وعشرين (٦٤٧ م)^(٢) سار عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي خلف عمرأ في ولاية مصر إلى إفريقية في نحو عشرين ألف مقاتل^(٣) ، وسارت معه حامية برقة بقيادة عقبة بن نافع ، وكان عمرو قد ولاه على تلك الأنحاء^(٤) . وقصد الغزاة بادئ بدء إلى طرابلس وهي يومئذ أعنى وأمنع ثغور إفريقية^(٥) .

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (طبعة لجنة ذكرى جب) ص ١٧١ ، وأبو الفداء (مصر) ج ١ ص ١٦٤ ، وابن الأثير (مصر) ج ٣ ص ١٠ .
(٢) هذه هي رواية ابن عبد الحكم (ص ١٨٧) وهي أقدم رواية . ويوافقة البلاذري ، وهو معاصر له تقريباً ، ولكنه يضيف إلى ذلك أن هناك رواية بوقوع هذه الغزوة سنة ٢٨ هـ ، وثالثة بوقوعها سنة ٢٩ (فتوح البلدان - مصر - ص ٢٢٦) . ويضع الطبري تاريخ هذه الغزوة في سنة ٢٧ هـ متفقاً مع ابن عبد الحكم والبلاذري (مصر ج ٥ ص ٤٨ و ٤٩) . ولكن ابن الأثير يضع تاريخها في سنة ٢٦ هـ (ج ٣ ص ٣٣) .

(٣) فتوح مصر ص ١٨٤ .

(٤) فتوح البلدان ص ٢٢٤ .

(٥) يطلق العرب اسم إفريقية على الأقطار الواقعة شمال هذه القارة دون مصر . وذكر ياقوت في معجمه أن حد إفريقية من برقة شرقاً إلى طنجة الخضراء غرباً ، وعرضها من البحر إلى الرمال التي في أول السودان (معجم البلدان في مقال إفريقية) . وتقدم إلى ثلاثة أقسام : الأولى ، إفريقية ويمتد من حدود مصر الغربية إلى شرق الجزائر ، والثاني المغرب الأدنى ويشمل قطر الجزائر تقريباً ، والثالث المغرب الأقصى ممتداً من غرب الجزائر إلى المحيط ، ويشمل إقليم مراكش وطنجة . وكانت كلمة إفريقية تطلق أيضاً في المصور الوسطى بمعنى أخص على إقليم تونس وما يليه .

ولكن الروم تقدموا إلى لقاء المسلمين في مائة وعشرين ألف مقاتل^(١) بقيادة جريجوريوس أو جرجير حاكم إفريقية الروماني^(٢). وتختلف الرواية الإسلامية في أمر جرجير هذا ، ويقول البعض إنه كان من الفرنج ، وليس من الروم ، وإنه كان ملك الفرنجة في إفريقية ما بين طرابلس وطنجة ، وإن سيطله كانت دار ملكه . والحقيقة أن إفريقية كانت في ذلك الحين ولاية رومانية ، تخضع لقيصر (إمبراطور) قسطنطينية ، وكان جرجير أو جريجوريوس حاكمها من قبل الإمبراطور . على أن حاكم إفريقية الروماني ، كان يتمتع وقتئذ بكثير من الإستقلال ، نظراً لضعف السلطة المركزية في عاصمة الدولة الشرقية . وهكذا كان شأن جرجير ، فقد كان حاكماً يأمره في ولايته . ولما علم العرب بتحرك جرجير ، تركوا حصار طرابلس وساروا إلى لقاء الروم ، ونشبت بين الجيشين مدى أيام معارك شديدة في ظاهر سبيطة (سوفيتولا) بالقرب من أطلال قرطاجنة القديمة ، وهي عاصمة إفريقية يومئذ ، فهزم الروم هزيمة شديدة ، وقتل قائدهم جريجوريوس ، وأسرت إينته (٢٨ هـ - ٦٤٨ م)^(٣) . ثم حاصر عبد الله سبيطة ، وافتتحها وخرّبها ، وبث جيوشه في تلك الأنحاء حتى قفصة . ثم عقد الصلح مع أهلها على أن يؤدوا الجزية . وقضى في تلك الغزوات خمسة عشر شهراً . ولكنه لم ينشئ في البلاد المفتوحة حكومة جديدة . ولم يتخذ بها قاعدة إسلامية . ثم عاد إلى مصر بعد أن أنشأ حامية في برقة وأخرى في زويلة^(٤) .

ويجب قبل أن نمضي في الكلام على افتتاح إفريقية أن نذكر كلمة عما كانت عليه أحوالها وظروفها وقت الفتح الإسلامي . كانت إفريقية منذ زوال قرطاجنة القديمة ، في أوائل القرن الثاني قبل الميلاد إلى أوائل القرن الخامس بعده ، ولاية رومانية تخضع لسلطة رومة أولاً ، ثم بعد سقوطها لسلطة قسطنطينية أو الدولة

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٢٤ - Gibbon : Roman Empire, Ch. LI,

(٢) ابن خلدون - كتاب العبر - ج ٦ ص ١٠٧ .

(٣) روى ابن عبد الحكم أن ابنة جريجوريوس وقتت بعد أسرها في نصيب رجل من الأنصار ، ولكنها انتحرت أثناء الطريق (فتح مصر ص ١٨٥) .

(٤) ابن عبد الحكم ص ١٨٣ .

الرومانية الشرقية ؛ ولما غزت القبائل الجرمانية رومة واستولت على معظم أقطار الدولة الرومانية الغربية ، نفذ الوندال إلى غاليا أو غالييس (جنوبي فرنسا) ثم إلى اسبانيا ، واستقر الوندال حيناً في جنوبي إسبانيا في ولايات الأندلس ، التي سميت يومئذ باسمهم « فانداليتا » Vandalita أو فاندلوسيا Vandalusia أي بلد الوندال (١) .

وكان البربر أو سكان إفريقية ، قبل الفتح الروماني ، يدينون بالوثنية ، ولكن رومة استطاعت منذ أوائل القرن الرابع ، أن تفرض النصرانية على معظم القبائل . ويقول لنا ابن خلدون من جهة أخرى ، إن القبائل البربرية كانت وقت الفتح الإسلامي تدين باليهودية ، وإنهم تلقوها منذ أقدم العصور عن بني إسرائيل عند استفحال ملكهم لقرب الشام وسلطانهم ، وكان من هؤلاء قبائل جبل أوراس وملكهم الكاهنة (٢) . وكان الفتح الروماني شديد الوطأة على القبائل المغلوبة ، وكانت النظم الإدارية والمالية التي فرضتها عليهم رومة غاية في التعسف والشطط ، مع ما يقتزن بها من اقتضاء الضرائب والمغارم الفادحة ؛ فكان البربر يتوقون إلى التخلص من نيرها ، وقد نزعوا فعلاً إلى الثورة في عهد الإمبراطور تيودوسيوس في أواخر القرن الرابع ، ونادوا بأحد زعمائهم ملكاً عليهم ، ولكن الثورة أخفقت وأخذت . ولما انتقلت إفريقية إلى سلطان قسطنطينية بعد سقوط رومة ، كانت قد اضمحلت ثروتها ، واضطربت نظمها ، ومزقتها الخلافات الدينية ، وضعف سلطان الدولة عليها ، وكثر الخوارج من الحكام والزعماء المحليين . وفي أوائل القرن الخامس ، عبر الوندال البحر من اسبانيا إلى إفريقية ، بقيادة ملكهم جنسريك ، وافتتحوها في سنة ٤٢٩ م ، وعاونهم البربر (٣) حباً في التخلص من نير رومة . ولكن الوندال عاثوا في إفريقية أعما عيث ، وخربوا المدن والمنشآت

(١) سوف نفصل في حاشية لاحقة أصول هذه التسمية وفقاً لختلف الروايات .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧ .

(٣) يطلق العرب كلمة « البربر » على سكان « إفريقية » أعنى من برقة إلى المحيط ، وأصل التسمية هول . ولكن المحقق أنها كانت موجودة قبل الفتح الإسلامي بعصور بعيدة . وترجعها الرواية اللاتينية إلى أقدم العصور . فكان يطلقها اليونانيون القدماء على الأمم ذات اللغات واللهجات المعقدة بوجه عام وحيثما وجدت ، وعلى الأمم الغربية عن لغة اليونانيين وحضارتهم . وكان يطلقها الرومان على شعوب الإمبراطورية خلا إيطاليا وولاياتها ، ثم انتهوا إلى تحديد معنى الكلمة بإطلاقها على القبائل =

الرومانية ، واستقروا سادة في البلاد المفتوحة مدى قرن ، عانى البربر فيه أمر ضروب العسف والطغيان . وفي سنة ٥٣٤ م بعث يوستنيان ، إمبراطور (قيصر) الدولة الشرقية قائده الشهير بليزار يوس إلى إفريقية على رأس جيش ضخم فافتتحها وحطم سلطان الوندال وأجلاهم عنها ؛ ومن ذلك الحين عادت إفريقية إلى سلطان الدولة الشرقية ، وظلت كذلك حتى الفتح الإسلامي .

وكانت إفريقية يومئذ في حال يرثى لها من الانحلال والتفكك ، يسود الاضطراب نظمها وإدارتها ، وتمزقها الأهواء والمطامع والفتن ؛ وكانت عصور من الطغيان والجور والمصادرة قد عصفت بمواردها ، ولكن الثروات كانت مع ذلك تتكدس في بعض الثغور والمدن ؛ وكانت الدولة الشرقية قلما تعنى بإصلاح هذه الأقطار أو إعداد وسائل الدفاع عنها ، وإنما كانت ترى فيها قبل كل شيء مورداً للكسب على نحو ما قدمنا ، فكان البربر على استعداد للتخلص من هذا النير المرهق ، ومعاونة الفاتحين الجدد .

ولكن العرب شغلوا حيناً عن متابعة الفتح حينما عصفت ريح التفريق بالخلافة الإسلامية ، ونشب الخلاف بين علي بن أبي طالب ، الذي ولى الخلافة على أثر مقتل عثمان ، في مستهل سنة ٣٥ هـ (٦٥٥ م) ، وبين خصمه ومنافسه القوى معاوية بن أبي سفيان وإلى الشام ، واضطربت ثورة الحوارج التي كادت أن تززع أسس الدولة الإسلامية الناشئة ، وشغلت الجزيرة العربية بضعة أعوام ، بتلك الحوادث والفتن الداخلية . وكان مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في رمضان سنة ٤٠ هـ خاتمة هذا النضال المؤلم ، فألت الخلافة إلى معاوية ، وقامت الدولة الأموية في الشام لتفتتح في تاريخ الإسلام عصرأ جديداً .

وكانت الدولة الأموية ، تتشع إلى جانب ثوبها الخلافي ، بأثواب الملك

= المتوحشة أو المعادية خارج الإمبراطورية بأسرها . ثم حرقها العرب عنه الفتح عن اللاتينية وأطلقوها على الأمم والقبائل التي تسكن إفريقية (خلا مصر) راجع (Gibbon. ibid, Chap. LI (note) ويقول ابن خلدون في أصل هذه التسمية ، إن أحد ملوك التبابعة العرب لما غزا المغرب وإفريقية ، ورأى هذا الجبل من الأعاجم ، وسمع رطانتهم تعجب من ذلك وقال ما أكثر بربركم فسموا بالبربر . والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة ، ومنه يقال بربر الأسد إذا زار بأصوات غير مفهومة (كتاب العبر ج ٦ ص ٨٩) .

الإمبراطورى ، وهكذا قدر لها أن تكون منشئة الإمبراطورية الإسلامية الكبرى . وما كادت تستقر الأمور الداخلية ، حتى نشطت سياسة الفتح مرة أخرى . وكانت الخلافة فى نفس الوقت الذى تسير فيه جيوشها نحو الشمال وتقرب من عاصمة الدولة الشرقية ، تتجه ببصرها نحو الغرب ، حيث كانت فتوحها فى إفريقيا ما تزال بحاجة إلى التوسع والتوطد . وهكذا وجه معاوية عنايته إلى إتمام فتح إفريقيا . وكان الروم قد عادوا إلى الأرض المفتوحة عقب انسحاب العرب ، فعاد إليها الجور والإرهاق ، وأثقل كاهل البربر بما فرض عليهم من الأعباء والمغارم الجديدة ، فاتصل زعمائهم بالعرب واستحثوهم إلى العود واستئناف الفتح . فى سنة ٤٥ هـ (٦٦٥ م) سار معاوية بن حُديج التجيبى^(١) إلى إفريقيا وهزم الروم عند حصن الأجم ، وتفرق الغزاة فى مختلف الأنحاء ، فسار عبد الله ابن الزبير إلى سوسة وافتتحها ، وافتتح عبد الله بن مروان حصن جالولاء ، وافتتحت عدة أخرى من البلاد والحصون .

وفى سنة خمسين (٦٧٠ م)^(٢) قام العرب بأعظم فتح فى إفريقيا بقيادة عقبة ابن نافع الفهري . وكان عقبة جندياً عظيماً ، خبيراً بتلك الأنحاء والمسالك ، وكان يتولى قيادة حامية برقة منذ فتحها ، فاختره الخليفة (معاوية) لولاية إفريقيا ، وبعث إليه بعشرة آلاف مقاتل ليتم فتحها . فجاز عقبة وهاد برقة ، وتوغل غرباً حتى المغرب الأقصى ، وافتتح جميع العواصم والثغور الإفريقية تباعاً ، وهزم جيوش الروم والبربر فى مواقع عديدة ، وتوغل فى مفاوز المغرب الأقصى ، ثم

(١) وذكر بعض المؤرخين أن معاوية بن حديج كان فى ذلك الحين والياً على إفريقيا (ابن الأثير ج ٣ ص ١٨٤) ، وذكر البلاذرى أنه وفى بعد ذلك على مصر سنة ٥٠ هـ ، وأنه هو الذى بعث عقبة بن نافع إلى إفريقيا (ص ٣٢٧) ، وذكر الطبرى أن معاوية بن حديج وفى مصر وعزله معاوية عنها سنة ٥٠ هـ (ج ٦ ص ١٣٤) . ويضع ابن الأثير تاريخ ولاية ابن حديج لمصر فى سنة ٤٧ هـ . على أن صاحب النجوم الزاهرة الذى عفى عناية خاصة بتعداد ولاية مصر يقول : إن حاكم مصر من سنة ٤٥ - ٤٨ هـ هو عقبة بن عامر الجهنى (النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٣٠) ، وإن الذى لها بعده هو مسلمة بن مخلد الأنصارى ، واستمر فى ولايتها حتى سنة ٦٢ هـ ، وفى ولايته وقع فتح إفريقيا الكبرى .

(٢) هذه هى الرواية الراجحة ، ولكن ابن عبد الحكم يضع تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٤٦ هـ .

أنشأ مدينة القيروان لتكون عاصمة للولاية الإسلامية الجديدة ، وحصناً للدفاع عنها ، وقاعدة لرد الروم والبربر .

ولم يمض قليل على قيام عقبة بذلك الفتح الكبير ، حتى عزله والى مصر مسلمة بن مخلد الذى جمع له معاوية بين حكم مصر والمغرب^(١) ، وولى مكانه على إفريقية أبا المهاجر الأنصارى ، فلبث فى ولايتها عدة أعوام لم تقع فيها حوادث تذكر . ثم عزل أبو المهاجر وأعيد عقبة سنة ٦٢ هـ فى بدء خلافة يزيد بن معاوية . وكانت البلاد المفتوحة ما تزال تضطرم بعوامل الخروج والثورة . وكان الروم والبربر كلاهما يترقب الفرص ، ولكن عقبة شغل عن توطيد الدولة الفتية بفتوحات جديدة ، وعاد فاخترق المغرب إلى أقصاه ، ووصل إلى ساحل المحيط هذه المرة . وهنا تقول الرواية العربية ، إن عقبة لما انتهى إلى المحيط دفع فرسه إلى الماء حتى بلغ نحره ، ثم قال : « اللهم إني أشهدك أن لا مجاز ، ولو وجدت مجازاً لجزت »^(٢) .

ففى ذلك الحين ثار البربر بقيادة زعيم لهم يدعى كسيلة بن لمزم^(٣) كان قد اعتنق الإسلام وحالف العرب ثم تغير عليهم ، وانضمت إليه جموع كثيرة من الروم والبربر ، وانتهاز فرصة تفرق المسلمين فى مختلف الأنحاء ، وانقض بجموعه على جيش عقبة ، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة هزم فيها المسلمون ، وقتل عقبة وجماعة من القادة (سنة ٦٢ هـ) وزحف كسيلة على القيروان واستولى عليها ، وارتناد حاكمها زهير بن قيس البلوى بقواته القليلة إلى برقة ، وكادت بذلك تذهب دولة العرب فى إفريقية .

ولما تولى الخلافة عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ هـ) اعتزم أن يعمل لاستعادة إفريقية ، فولى عليها زهير بن قيس البلوى ، وكان منذ سقوط القيروان يتولى الدفاع عن برقة ، وأمدّه بجيش ضخم ، فزحف زهير على القيروان سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ م) والتقى على مقربة منها بجيش كسيلة ، فهزم البربر بعد معركة شديدة

(١) يضع ابن عبد الحكم تاريخ هذا العزل فى سنة ٥١ هـ ، ويقول الطبر إنه وقع فى سنة ٥٠ هـ (ج ٦ ص ١٣٤) .

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٩٩ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٤٢ .

(٣) هذه هى تسمية ابن عبد الحكم (ص ٢٠٠) وابن خلدون (ج ٦ ص ١٠٨) ولكن ابن الأثير يسميه كسيلة ابن كرم .

قتل فيها كسيلة وكثير من أصحابه ، ودخل زهير القيروان وترك فيها حامية للدفاع عنها ، وفرق جنده لإخضاع الثوار في مختلف الأنحاء . ولكن الروم انتهزوا فرصة توغل المسلمين غرباً ، وأمدهم قيصر قسطنطينية^(١) بأسطول من صقلية ، فنزلوا في قرطاجنة ثم زحفوا على برقة في جموع عظيمة ، وعلم زهير بتلك المفاجأة ، فارتد للدفاع عن برقة ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة هزم فيها المسلمون ، وقتل زهير ومعظم ضباطه ، وذهب المغرب من قبضة المسلمين مرة أخرى .

وكان وقع هذا الخطب شديداً في حكومة دمشق ، وكانت تشغل يومئذ بمحاربة ابن الزبير وصحبه الخوارج عليها ، فضت أعوام أخرى قبل أن تتمكن من العناية بشئون إفريقية ، فلما انتهت الثورة وقتل ابن الزبير ، وجه عبد الملك عنايته إلى استعادة إفريقية ، فولى عليها حسان بن النعمان الغساني سنة ٧٣ هـ^(٢) (٦٩٢ م) وسيره إليها في جيش ضخم كان أعظم قوة سيزتها الخلافة إلى إفريقية ، فاخترق حسان برقة وقصد قرطاجنة عاصمة إفريقية الرومانية ، وكانت لاتزال في يد الروم ولم يغزها المسلمون بعد لحصانتها واتصالها بالبحر ، وقربها من صقلية حيث كانت ترسل إليها الأمداد بسرعة ، فحاصرها بشدة ثم اقتحمها واستولى عليها ، ولكن الإمبراطور سير إليها جيشاً بقيادة حاكمها يوحنا ، يعاونه أسطول من صقلية ، وقوة من القوط أرسلها ملك اسبانيا القوطي الذي أزعجه اقتراب العرب من بلاده ، فانسحب العرب وارتدوا إلى القيروان ، حتى إذا جاءتهم الأمداد أعادوا الكرة على قرطاجنة ، وهزموا الروم والقوط هزيمة شديدة ، ففروا إلى سفنهم ، وخربت قرطاجنة وهدمت حصونها القوية . ثم سار حسان غرباً وهزم الروم والبربر في عدة مواقع ، واستعاد الإسلام سلطانه فيما بين برقة والمحيط^(٣) .

وعاد حسان إلى القيروان لينظم جيشه . وكان البربر والقبائل الجبلية قد

(١) كان إمبراطور قسطنطينية في ذلك الحين يوستينيان الثاني ، ٦٨٥ - ٦٩٥ م .

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٠٠ ؛ ولكن ابن الأثير يضع تاريخ توليته في سنة ٨٧٤ .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٣ ، ومعجم ياقوت تحت كلمة قرطاجنة ، وكذلك : Gibbon :

ibid., Chap. I

اجتمعوا منذ مقتل زعيمهم كسيلة ، في مفاوز المغرب الأقصى ، تحت لواء امرأة من قبيلة جراوة يعتقدون فيها السحر والكهانة وتعرف بالكاهنة^(١) ، وكانت تقيم ملكها في جبل أوراس . فسار حسان لقتالها وخرجت إليه بجموعها ، فالتقيا عند نهر نيني ، ونشبت بينهما موقعة هائلة هزم فيها العرب هزيمة شديدة ، وقتل منهم جمع كبير ، وارتد حسان إلى برقة . وسارت الكاهنة شرقاً حتى قابس واستولت على كثير من البلاد والحصون ، وبسطت سلطانها على معظم إفريقيا مدى خمسة أعوام . ولبت حسان في برقة حتى أمده عبد الملك بالجنود ، فزحف على المغرب ثانية سنة ٧٩ هـ (٦٩٨ م) ، ولم تر الكاهنة وسيلة لوقفه إلا أن تحول البلاد إلى خراب بقلع ، فهدمت جميع المدن والحصون ، وأحرقت جميع القرى والضيايع الواقعة في طريق المسلمين ، ولكن ذلك لم يثن حساناً عن عزمه ، فتابع سيره حتى أقاصى المغرب في وهاد ومفاوز صعبة . وكان البربر قد سثموا نير الكاهنة وعسفها ، فهرع الكثير منهم إلى حسان يطلبون حمايته ، وتفرقت جموع الكاهنة ، وأدركها المسلمون بجبل أوراس فزقت جموعها وقتلت . واستأمن البربر على الإسلام والطاعة ، وأن يمدوا المسلمين بأثني عشر ألف مقاتل . وولى حسان جبل أوراس ابن الكاهنة بعد أن استوثق من طاعته ، ثم عاد إلى القيروان بعد أن سحق كل مقاومة وقضى على كل نزعة إلى الخروج والثورة^(٢) .

ولبت حسان بن النعمان بإفريقية حيناً ، ينظم شؤونها العسكرية والإدارية والمالية ، وينشئ الدواوين ويرتب الخراج والحزبة ، ويوطد سلطان الحكم الحديد في الثغور والنواحي . ثم جدد مدينة القيروان وأنشأ بها المسجد الجامع^(٣) ، ولبت

(١) ويسميا ابن خلدون دهايا بنت ماتية بن تيفان (ج ٦ ص ١٠٩) ويسميا بعض المؤرخين الأوربيين دامايا ؛ راجع *Aschbach : Geschichte der Omajjaden in Spanien. B. 1.21*

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٠٩ . وفي روايته من حيث التاريخ شيء من التناقض ، فهو يورخ غزوة حسان الأولى وفتح قرطاجنة بسنة ٧٩ هـ ثم يورخ حرب الكاهنة للمرة الثانية بعد أن يذكر أنها لبثت تحكم إفريقيا خمسة أعوام بسنة ٧٤ هـ - ولعل هذا تحريف في النقل أو الطبع ، إذ يقتضى أن يكون هذا التاريخ طبقاً لرواية ابن خلدون هو سنة ٨٤ هـ . ولكن ابن عبد الحكم وهو أقدم رواية وثيقة يورخ غزوة حسان الأولى بسنة ٧٣ هـ ويورخها ابن الأثير بسنة ٧٤ هـ - وينقص رواية ابن عبد الحكم عن مقتل الكاهنة تاريخ هذه الواقعة (ص ٢٠١) .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ ، وابن عبد الحكم ص ٢٠١ .

في منصبه حتى توفي عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) فخلفه ابنه الوليد بعهد منه ، وولى عمه عبد الله بن مروان على مصر ، فعزل حسائناً عن ولاية إفريقية ، واختار لولايها موسى بن نصير اللخمي ، وكانت إفريقية تابعة لمصر في شؤون الحكم والولاية كما بينا . وكانت ولاية موسى بن نصير لإفريقية سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) .

ويجب قبل أن نمضي في الكلام عن حوادث إفريقية ، أن نقول كلمة عن الرجل الذي قدر أن يحوز الإسلام على يديه لأول مرة إلى القارة الأوروبية ، وأن يكتب فيها صفحة من أجد صفحاته . كان موسى بن نصير من أعظم الزعماء والقادة الذين وجهتهم الخلافة إلى الغرب . ومع أن الرواية الإسلامية تنبع حياته بإفاضة منذ ولايته لحكم إفريقية ، فإنها لا تقدم إلينا عن نشأته وحياته الأولى تفاصيل شافية ، شأنها نحو كثير من زعماء الإسلام في القرن الأول من الهجرة . بيد أننا نعرف مع ذلك أنه من التابعين ، وأنه ولد سنة ١٩ هـ في خلافة أمير المؤمنين عمر ، في قرية من قرى الجزيرة ، أو بوادي القرى في شمالي الحجاز على قول آخر . وأما عن نسبته ، فتقول الرواية إنه ينتسب إلى بكر بن وائل ، وإن أباه نصيراً كان ممن سباهم خالد بن الوليد في موقعة عين التمر (سنة ١٢ هـ)^(١) . وقيل إنه ينتسب بطريق الولاء إلى بني لحم ، وإن أباه نصيراً كان على حرس معاوية بن أبي سفيان . ثم كان وصيفاً لعبد العزيز بن مروان فأعتقه^(٢) .

وأما عن حياة موسى الأولى فلا تذكر الرواية سوى القليل . وكل ما نعرفه منها أنه تقلب في بعض المناصب الحربية والإدارية الهامة ، قبل أن يعهد إليه بحكم إفريقية ، وأنه قاد بعض الحملات البحرية في عصر معاوية بن أبي سفيان ، وغزا قبرس وغيرها من الجزر القريبة^(٣) . وفي بعض الروايات أن عبد الملك بن مروان حينما ولى أخاه بشراً على البصرة في سنة ٧٣ هـ ، وكان يتولى قيادة الجند

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٢ ، و « أخبار مجموعة في فتح الأندلس » ص ٣ ، وأبو الهامس في النجوم الزاهرة (مصر) ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٧٦ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٠٩ ، والبلاذري في فتوح البلدان ص ٢٣٢ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢٥ .

بمصر ، ندب موسى بن نصير لمعاونته ، وكان يومئذ بمصر في خدمة أميرها عبد العزيز بن مروان صديقه وحاميه ، وأن موسى لبث وزيراً ومستشاراً لبشر أيام ولايته للبصرة . فلما وليّ الحجاج حكم العراق في سنة ٧٥ هـ ، اتهم موسى باختلاس أموال البصرة ، ولم ينقذه من بطش الحجاج سوى تدخل عبد العزيز ابن مروان ، وكان قد وفد يومئذ على الشام بأموال مصر ، وهرع إليه موسى مستجيراً به . ثم عاد موسى إلى مصر مع عبد العزيز بن مروان ، ولبت بها يتبوأ لديه أسمى مراتب النفوذ والثقة حتى عين حاكماً لإفريقية^(١) .

وتختلف الرواية في تاريخ ولاية موسى بن نصير لإفريقية اختلافاً بيناً ، فالبعض يقول إنها كانت في سنة ٧٨ أو ٧٩ هـ في عهد عبد الملك ، ويقول البعض الآخر إنها كانت في سنة ٨٦ أو سنة ٨٩ هـ في عهد ابنه الوليد^(٢) ، ونحن نؤثر الأخذ بالقول الثاني لأنه أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث في إفريقية ، ولأن معظم الروايات تجمع على أن حسان بن النعمان والى إفريقية لبث على ولايتها حتى وفاة عبد الملك ، وقد توفي عبد الملك في شوال سنة ٨٦ هـ . وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد توفي قبل ذلك سنة ٨٥ هـ ، وندب عبد الملك ولده عبدالله أميراً

(١) وردت هذه التفاصيل في كتاب « الإمامة والسياسة » المنسوب لابن قتيبة . ومع أن هذه النسبة يحيط بها كثير من الشك ، فإن الكتاب يتضمن كثيراً من الأخبار والتفاصيل المفيدة عن رجالات الإسلام في عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية (راجع الكتاب المشار إليه - طبع مصر - ج ٢ ص ٦٠ وما بعدها) . وقد اعتبره المستشرق الإسباني جاينجوس *Gayangos* قديماً وصحيحاً ، وإن كان يشك في نسبته لابن قتيبة لعدة أسباب وجيهة ؛ وانفتح به المستشرق الألماني فايل *Weil* ، والمستشرق الإيطالي أماري *Amari* . ويرى دوزي أن الكتاب غير قديم وغير صحيح ، وأنه يحتوي على أخطاء تاريخية وروايات خيالية غير معقولة ، وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون ابن قتيبة صاحب هذا التصنيف الضعيف ؛ ويرى المستشرق هاماكرو ويوافقه دوزي أن هذا الكتاب وأمثاله من الكتب التاريخية الحماسية (مثل الكتب التي نسبت للواقدي) ، قد ألقت أيام الحروب الصليبية لبث الحماس في نفوس المسلمين ، وتذكيرهم بمجد أسلافهم وبعدهم بالخارقة . راجع دوزي :

Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne au moyen âge ; V.I. p.21

(٢) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم (ص ٢٠٣) ، ويقبضه صاحب كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٦٢) ، وابن الأبار في الحلة السيرة (ليدن ص ٧٠) ، والحميدى في جذوة المقتيس (مصر ص ٣١٧) ، والنجوم الزاهرة (ج ١ ص ١٨٨) ، ويقول بالثانية ابن الأثير (ج ٤ ص ١٤٤ و ٢٠٦) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ١٧٦) . وابن عذارى في البيان المغرب (ج ١ ص ٢٣)

على مصر ، فدخلها في جمادى الآخرة سنة ٨٦ هـ قبيل وفاة أبيه بأشهر قلائل . وعزل عبد الله ، حسان بن النعمان عن ولاية إفريقية ، واختار لولايتها موسى بن نصير . وكانت ولاية موسى لإفريقية على أرجح الأقوال في سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) .

وكان موسى بن نصير قد اختبر مفاوز إفريقية من قبل ، وسيره عبد العزيز ابن مروان في سنة ٨٤ هـ إلى برقة ، فافتتح درنة وسبي من أهلها جوعاً غفيرة . وكان البربر لا يزالون على اضطرابهم وتمردهم ، يتحينون الفرصة للثورة كلما سنحت . فما كاد موسى يلى الحكم حتى نزعوا إلى الثورة شأنهم عند كل تغيير في الحكم ، ولكنهم أخطأوا تقدير عزم الحاكم الجديد وصرامته . وسرعان ما سمحت الثورة في كل ناحية ، ومزق موسى جموع الثوار بيد من حديد ، ودوخ هوار و زتانة وكتامة و صنهاجة وغيرها من القبائل البربرية القوية ، ثم سار إلى طنجة وهي آخر معقل اعتصم به الثوار ، ولم يكن غزاها العرب بعد ، فافتتحها ، وولى عليها جندياً عظيماً هو طارق بن زياد اللبني ، وأثنى في مفاوز المغرب الأقصى ، وطهرها من العصاة والمتأمرين ، وأحرز في تلك الغزوات من الغنائم والسبي ما لا يحصى ، واستمال إليه وجوه القبائل ، وحشد في جيشه آلافاً من البربر المسلمين ، واهتم بنشر الإسلام بين البربر اهتماماً عظيماً ، فأقبلوا على اعتناقه وذاع بينهم ذبوعاً كبيراً ، وهبت ريح من الأمن والسكينة على البلاد المفتوحة .

وكان الروم (الرومان) بعد أن أخفقوا في الحرب البرية ، ويثسوا من استرداد إفريقية ، قد لجأوا إلى غزو الثغور ونهبها ، فابتنى موسى داراً عظيمة للصناعة (بناء السفن) على مقربة من أطلال قرطاجنة ، وأنشأ أسطولاً ضخماً لحماية الثغور . وكان العرب قد بدأوا غزواتهم البحرية الأولى في تلك المياه قبل ذلك بعدة أعوام ، وسير موسى ابنه عبد الله في السفن إلى الجزر القربية فغزا جزائر البليار (الجزائر الشرقية) وكانت يومئذ من أملاك ملك اسبانيا القوطي ، وافتتح مَيُورقة ومِنُورقة (٧١٠ م) ولكنه لم يكن فتحاً مستقراً^(١) . وسارت

(١) تعرف هذه الغزوة بغزوة الأشراف لكثرة من اشترك فيها من أكابر المسلمين . وورد في كتاب « الإمامة والسياسة » أن هذه الغزوة التي قادها عبد الله بن موسى كانت خاصة بصقلية لا بميورقة (ج ٢ ص ٧٣) .

حملات بحرية أخرى إلى صقلية وسردانية وعاثت في ثغورها ، وعادت مثقلة بالسبي والغنائم . وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمالي إفريقيا كله في البر والبحر ، ولم يبق من ثغوره بيد النصارى بعد افتتاح طنجة سوى ثغر سبتة^(١) الواقع في نهاية البحر الأبيض المتوسط شرق طنجة ، وكانت يومئذ من أملاك اسبانيا ، ويحكمها زعيم من القوط أو الفرنج يدعى الكونت يوليان . وكانت سبتة قد استطاعت لمنعتها الطبيعية ويقظة حاكمها ، أن ترد هجمات العرب ، رغم مجاورتهم لها من الجنوب والغرب ، وكان موسى يتوق إلى افتتاح هذا المعقل الحصين . على أن مشاريعه في الفتح لم تكن تقف عند سبتة بل كانت تجاوزها إلى ما وراء ذلك البحر الشاسع ، الذي عرف العرب كثيراً عن شواطئه الشرقية والجنوبية ، ولكنهم لم يعرفوا بعد شيئاً أو لم يعرفوا سوى القليل عن شواطئه الشمالية والغربية : أجل ، كان موسى يتوق إلى افتتاح ما وراء ذلك البحر من الممالك والأمم المجهولة .

(١) ومقابلها الإفرنجي هو Ceuta

الفصل الثاني

إسبانيا قبل الفتح الإسلامي

أصل القوط . نزوحهم من الشمال إلى الجنوب . عبورهم نهر الدانوب . يهزمون الإمبراطور ديسيوس . هزيمتهم على يد الإمبراطور قسطنطين ثم الإمبراطور فالنس . زحف الهذن على القوط . دخولهم في طاعة الإمبراطور . ثورة القوط في عهد هونوريوس . زعيم القوط أاريك . عقدهم الصلح مع الإمبراطور واندماجهم في الجيش الروماني . استقرارهم في غاليس . قاليا أول ملوكهم . تيودريك الأول يعاون الدولة في محاربة آتيلا . تيودريك الثاني يفتح إسبانيا من يد الوندال . قيام مملكة القوط في إسبانيا . اعتناقهم للنصرانية . إسبانيا وقت الفتح الإسلامي . المجتمع الإسباني . استئثار القوط بالسيادة والثراء . نفوذ رجال الدين . بوُس الشعب وانحلال الجيش . ركون القوط إلى الرفاهة والدعة . يهود إسبانيا . اضطهاد الكنيسة لهم وإرغامهم على التنصير . محاولتهم للثورة والمبالغة في إرهابهم . ملك القوط وتيزا والحوارج عليه . تفرق المملكة ونشوب الثورة . مقدم العرب إلى شواطئ الجزيرة . محاصرة العرب لسبته . زعيم الثورة ردرريك . الحرب بينه وبين وتيزا . مقتل وتيزا واستيلاء ردرريك على الملك . الكونت يوليان حاكم سبته والخلاف في شأنه . الاتفاق بينه وبين وتيزا على الاستنجاد بالعرب . قصة فلورندا ابنة الكونت يوليان . أقوال الرواية الإسلامية في شأنها . إنكار الرواية الإسبانية لصحتها . ما يرجحها في نظر التاريخ .

كانت إسبانيا^(١) في الوقت الذي امتد فيه سلطان العرب إلى الشواطئ القرية منها ، وإلى الجزر المجاورة لها ، خاضعة لنير القوط . وكانت قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون كإفريقية ، ولاية رومانية تخضع لسلطان رومة . فلما اضمحل سلطان رومة ، وغزتها القبائل البربرية الجرمانية في أوائل القرن الخامس الميلادي ،

(١) لا يستعمل العرب اسم « إسبانيا » للإشارة إلى شبه الجزيرة المعروفة بهذا الاسم ، وإنما يطلق العرب اسم « الأندلس » على شبه الجزيرة كلها (راجع الروض المطار - مصر - ص ١) . وفي بعض الروايات العربية أن التسمية نسبة لملك من الرومان اسمه إشبان بن طيطش غلب الأفارقة على ملك الأندلس ، وباسمه سميت إشبانية . وذكر بعضهم أن اسمه أصهبان فعرف . وأنه هو الذي بنى إشبيلية ، وأن « إشبانية » كانت تطلق على إشبيلية التي كان ينزلها إشبان هذا . ثم غلب الاسم بعده على الأندلس كله ، فالعجم يسمونه إشبانية (نفع الطيب عن الرازي ج ١ ص ٦٧) . وذكر ابن حيان أن الإشباقين ينسبون إلى إشبان وفسر منشأهم بخرافة دينية (نفع الطيب ج ١ ص ٦٩) . ولم تنفرد الرواية الإسلامية بذكر « إشبان Espan » هذا ولكن تذكره أيضاً رواية ألفونسو العاشر القشتالية ، فتقول لنا انه ابن أخ الملك هرقل ، وأنه هو الذي عمر جزيرة قادس واتخذها مقراً له . راجع :

اقتسمت هذه القبائل أملاك رومة الغربية ، واستولت على إيطاليا وفرنسا واسبانيا وكانت اسبانيا من نصيب القوط .

والقوط هم إحدى هذه القبائل أو الشعوب البربرية . التي هبطت من شمال أوربا ، وقوضت صروح الإمبراطورية الرومانية . وتقول الأساطير القديمة إنهم نزحوا من اسكندناوة ، وهي زواية يؤيدها كثير من القرائن والشواهد . ويذكر المؤرخ تاسيتوس أنهم كانوا منذ ظهور النصرانية إلى أواخر القرن الثاني ، يسكنون شواطئ البلطيق الجنوبية ، وأن قبائل عديدة من الوندال كانت تسكن على ضفاف نهر «أودر» . وهناك من المشابهات بين القوط والوندال ، في الدين والعادات والأخلاق والتقاليد ، ما يدل على أنهما يرجعان في الأصل إلى شعب أو جنس عظيم واحد . وفي عهد الإمبراطور اسكندر سيفروس (٢٢٢ — ٢٣٥ م) ظهرت طلائع القوط في ولاية «داسيا»^(١) الرومانية ، وأغارت على بعض مدنها ، وكان هذا نزوحهم الثاني حيث استقروا عندئذ في إقليم «اليوكرين» . وفي عهد الإمبراطور ديسيوس عبروا نهر الدانوب وخرّبوا ولاية ميزيا^(٢) الرومانية ، ثم تقدموا إلى قلب البلقان ، فسار ديسيوس لقتالهم ولكنه هزم ومزق جيشه (٢٥٠ م) وسار القوط إلى اليونان فعاثوا فيها وخرّبوها . ولم ينقطع عيشهم حتى نشط الإمبراطور قسطنطين الكبير لقتالهم ورد عدوانهم ، فحاربهم في عدة مواقع وهزمهم هزيمة شديدة ، وردّهم إلى أقاصى داسيا (سنة ٣٢٢ م) وفرض عليهم شروطاً فادحة . ثم حاربهم الإمبراطور فالينس قيصر قسطنطينية وهزمهم في سنة ٣٦٩ م . وفي سنة ٣٧٥ م زحف الهون من المشرق على القوط ومزقوهم ، ففروا إلى ضفاف الدانوب واستغاثوا بالإمبراطور وطلبوا الدخول في طاعته ، فأجابهم إلى ذلك ، واستقروا حيناً في ولاية تراقية ، ولكنهم ثاروا مراراً من جراء قسوة الحكام الرومانيين وعسفهم^(٣) .

وفي عهد الإمبراطور هونوريوس ، قام القوط بثورة أعظم وأبعد أثراً بقيادة زعيمهم «الاريك» ، وخرّبوا تراقية واليونان ، ثم عبروا إلى إيطاليا

(١) كانت ولاية داسيا تقع في شرق حوض الدانوب وتشغل مكان رومانيا والمجر .

(٢) كانت ولاية ميزيا تقع في وسط البلقان وتشغل مكان بلغاريا الحديثة .

(٣) Gibbon, Ibid. Chap X, XIV & XXV

وافتحوا رومة ونهبوها (سنة ٤١٠ م) . ولكن زعيمهم ألاريك توفى في نفس هذا العام فارتدوا إلى الشمال . ثم عقدوا الصلح مع الإمبراطور ، واندمجوا في الجيش الإمبراطوري ، وقاموا بقمع الثورات المحلية في غاليا أو غاليس^(١) (جنوب فرنسا) وشمال إسبانيا ، ثم استقروا في أواسط فرنسا وجنوبها ، فيما بين نهري اللوار والشارون ، واتخذوا تولوز (تولوشة) عاصمة لهم . وأقطع الإمبراطور ملكهم « فاليا » حكم هذا القطر ، وقامت بذلك مملكة قوطية تابعة للدولة الرومانية . وعاون القوط الدولة على محاربة الوندال والآلان والسوايين^(٢) ، وعاونها بالأخص ملكهم تيودريك الأول ولد ألاريك ، على هزيمة آتيلا التتري وبرابته الهون في موقعة شالون (سنة ٤٥١ م) . ثم عبر خلفه وأخوه تيودريك الثاني إلى اسبانيا ، لانزاعها من الوندال والسوايين المتغلبين عليها ، مشروطاً على الدولة أن تحتفظ بما يفتحه من اسبانيا لنفسه ولعقبه . وحارب الوندال والسوايين وهزمهم (سنة ٤٥٦ م) ، وافتتح اسبانيا ما عدا ركنها الشمالى الغربى (جليقية) ، الذى استعصم به الوندال حيناً . ولم تأت نهاية القرن الخامس حتى ملك القوط شبه الجزيرة كلها ، وامتد ملكهم من اللوار إلى شاطئ اسبانيا الجنوبى . ولكن الفرنج غزوه من الشمال ، وأجلوهم عن فرنسا فى أعوام قلائل ، فاستقروا فى اسبانيا ، واتخذوا طليطلة دار ملكهم ، ووضعوا لمملكهم الحديدية نظاماً وقوانين خاصة ، تتأثر بروح الحضارة والأنظمة الرومانية ؛ وكانوا أيضاً قد اعتنقوا النصرانية منذ أواخر القرن الرابع ، كما اعتنقها الوندال وغيرهم من الشعوب البربرية ، التى تقاسمت تراث رومة وأملاكها . ولبت القوط زهاء قرنين سادة لإسبانيا حتى الفتح الإسلامى^(٣) .

(١) هكذا يسميها ابن الأثير . ويسمىها البكرى ، « بلاد غاليس » وهو اسمها الرومانى :

La Gaule

(٢) ويبدى ابن خلدون دقة فى تسمية هؤلاء البربر ، فيسميهم « القندلس والآبيون والشوايون »

(ج ٢ ص ٢٣٥) .

(٣) يقدم المؤرخون المسلمون عن تاريخ اسبانيا قبل الفتح الإسلامى روايات غامضة أكثرها خرافاً . ولكن بعضها يقترب من التاريخ . فابن الأثير مثلاً يشير فى روايته عن القوط إلى غزوه لمقدونية ومحاربة قسطنطين الأكبر لهم . ثم يذكر زعيمهم « أريق » (ألاريك) وكيف غزا رومة ، وكيف استقر القوط أولاً فى غاليس (أى غاليا) ثم انتقلوا إلى اسبانيا . غير أنه يذكر ثبت ملوكهم -

ولنعرض بعد ذلك إلى حالة اسبانيا وقت الفتح . كانت المملكة القوطية تجوز دور انحلالها قبل ذلك بآمد طويل ، وكان المجتمع الإسباني يعاني صنوف الشقاء والبؤس ، وقد مزقته عصور طويلة من الظلم والإرهاق والإيثار . ولم يكن القوط في الحقيقة أمة بمعنى الكلمة ، فإنهم لم يمتزجوا بسكان الجزيرة ، ذلك الامتزاج الذي يجعل الغالب والمغلوب ، والحاكم والمحكوم ، أمة واحدة . بل كان القوط يستأثرون بمزايا الغلبة والسيادة ، وينعمون بإحراز الإقطاعات والضيايع الواسعة ، ومنهم وحدهم الحكام والسادة والأشراف . أما سواد الشعب الأعظم ، فقوامه طبقة متوسطة رقيقة الحال ، وزراع شبه أرقاء يلحقون بالضيايع ، وأرقاء للسيد عليهم حق الحياة والموت . وإلى جانب السادة والأشراف ، يتمتع رجال الدين بأعظم قسط من السلطان والنفوذ ؛ ذلك أن القوط كانوا أتقياء مؤمنين رغم خشونتهم ، وكان للأحبار عليهم أهما تأثير ، وقد استطاعوا أن يوجهوا القوانين والنظم ، وأن يصوغوا الحياة العقلية والاجتماعية ، وفقاً لمثل الكنيسة وغاياتها . ثم استغلوا هذا النفوذ في إحراز الضيايع وتكديس الثروات ، واقتناء الزراع والأرقاء . وهكذا كانت ثروات البلاد كلها تجمع في أيدي فئة قليلة ممتازة من الأشراف ورجال الدين ، اختصت بترف العيش ومتاع الحياة ، وكل نعم الحرية والكرامة والاعتبار .

أما الشعب فقد كان في حالة يرثى لها من الحرمان والبؤس ، يعاني أمر ضروب الظلم والعسف والإرهاق ، ويُخصّص وحده دون الطبقات الممتازة ، بأعباء المغارم والضرائب الفادحة ، ومشاق العمل ، والسخرة في ضيايع الأشراف والأحبار ، وتسلبه فروض العبودية والرق ، كل شعور بالعزة والكرامة . ولم يكن الشعب كما قدمنا سوى كتلة مهیضة من طبقة فقيرة وسطى ، ومن جمهرة من الزراع شبه الأرقاء والأرقاء ، ومع ذلك فقد كان يقع عليه إلى جانب هذه الفروض والمغارم

— في كثير من التحريف والخلط (ج ٤ ص ٢١٢ و ٢١٣) . وقال ابن حيان بعد أن ذكر أصل اسم اسبانيا « وغلب على هؤلاء الإشبانيين من عجم رومة أمة يدعون البشتولقات (الوندال) وملكهم طلويس بن بيطه وذلك من بمث المسيح . ثم دخلت عليهم أمة القوط » (نقله المقرئ في نفع الطيب ج ١ ص ٦٩) . وأقرب الروايات إلى الصحة هي رواية ابن خلدون ، فهو يقول متفقاً مع الرواية اللاتينية : « إن القوط قد امتلكوا القطر الأندلسي لمعين من السنين قبل الإسلام . بعد حروب كانت لهم مع اللطينين ، حاصروا فيها رومة ثم عقدوا معهم السلم على أن تنصرف القوط إلى الأندلس » (ج ٤ ص ١١٦) .

الفادحة ، عبء الحرب والدفاع عن الوطن . وكما أن الجيوش الرومانية كانت وقت ظهور الإسلام ، قد فقدت وحدتها وروحها القوي وقوتها المعنوية ، لتكوينها من الرعايا الأجانب والمرزقة ، فكذلك كان الجيش الإسباني منذ العهد الروماني ، قوامه الزراع شبه الأرقاء واليهود . فلما حل القوط في اسبانيا وذاقوا نعم السلم ، بعد مشاق التجوال والغزو ، وتبوأوا مراكز الغلبة والسيادة ، اعتمدوا في الدفاع عن ملكهم الحديد على هذا الجيش ، الذي تموج صفوفه بجاعات مضطهدة نائمة على سادتها . « ولاريب أن شبه الأرقاء كانوا في الجيش أكثر بكثير من الأحرار ، وهذا ما يعنى أن الدفاع عن الدولة كان يعهد به إلى أولئك الذين يوثرون مملأة العدو على الذود عن ظالمهم»^(١) . أما القوط أنفسهم فقد فقدوا منذ بعيد خلاصهم الحربية القوية ، وركنوا إلى حياة النعائم والدعة ، وفتت في عزائمهم وشجاعتهم نعمة الجو وترف العيش ، ولم يعودوا بعد أولئك الغزاة الأشداء الذين أخضعوا رومة ، وتوغلوا فيما بين الدانوب والمحيط ، « بل كان خلفاء الأاريك يحتجبون بصخور البرنيه غارقين في سبات السلم ، لا يعنون بتحسين مدينة ، ولا يعبأ شبابهم بتجريد سيف»^(٢) .

وكان يهود الجزيرة كتلة كبيرة عاملة ، ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل ، يعانون أشنع ألوان الجور والاضطهاد . وكانت الكنيسة منذ اشتد مساعدتها ونفوذها تحاول تنصير اليهود، وتتوسل إلى تحقيق غايتها بالعنف والمطاردة . ففي عصر الملك سيزبوت^(٣) فرض التنصر على اليهود أو النفي أو المصادرة ، فاعتنق النصرانية كثير منهم كرها ورياء (سنة ٦١٦ م) . ثم توالى عليهم مع ذلك صنوف الاضطهاد والحن ، فركنوا إلى التآمر وتدبير الثورة ، وتفاهموا مع إخوانهم يهود المغرب على المؤازرة والتعاون . ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها (٦٩٤م) . وكان ذلك في عهد الملك إجيكا ؛ فقرر أن يشتد في معاقبتهم ، واجتمع مؤتمر الأحرار في طليطلة للنظر في ذلك ، وأجاب الملك إلى ما طلبه ، وقرر معاقبة اليهود باعتبارهم خوارج على الدولة يأتمرون بسلامتها ، ولأنهم ارتدوا

(١) Dozy : Histoire des Musulmans de L'Espagne (1932) Vol. I. p. 269

(٢) Gibbon, ibid, Chap. LI.

(٣) ويسميه ابن الأثير ، سيفوط (ج ٤ ص ٢١٣) .

عن النصرانية التي اعتنقوها من قبل ؛ وقرر أن ينزع أملاكهم في سائر الولايات الإسبانية ، وأن تحول إلى جانب العرش ، وأن يشردوا ويقضى عليهم بالرق الأبدي للنصارى ، وأن يهبهم الملك عبيداً لمن شاء ، وألا يسمح لهم باسترداد حرياتهم ما بقوا على اليهودية ، وأن يحرر أرقاؤهم من النصارى ويمنحون بعض أملاكهم ، وأن ينزع أبناؤهم منذ السابعة ويربون على دين النصرانية ، وألا يتزوج عبد يهودي إلا بجارية نصرانية ، ولا تتزوج يهودية إلا بنصراني^(١) . وهكذا عصفت يد البطش والمطاردة باليهود أيما عصف ، فكانوا قبيل الفتح الإسلامي ضحية ظلم لا يطاق ، وكانوا كباقي طوائف الشعب المهيضة يتوقون إلى الخلاص من هذا النير الجائر ، ويرون في أولئك الفاتحين الذين يتركون لهم حرية الضمائر والشعائر مقابل جزية ضئيلة ملائكة منقذين^(٢) .

هكذا كانت حال اسبانيا حينما افتتح العرب إفريقية واقتربوا من شواطئ الأندلس . وكان على عرش اسبانيا يومئذ الملك وتيزا^(٣) خلف الملك إجيكا وولده . وكان يحكم مملكة مزقها الخلاف وشعباً أضناه العسف . وتحمل بعض الروايات الإسبانية القديمة على وتيزا ، وتصفه بأنه كان ملكاً خليعاً فاجراً ، مغرقاً في شهواته ، وأنه كان على رأس بلاط منحل وضعيع الخلال . ويقول البعض الآخر إنه كان بالعكس ملكاً فاضلاً حسن السيرة ، وافر الحكمة والعدالة ، وإنه عمل على رد المظالم وإقامة العدل^(٤) . والمرجح المتداول ، أنه أحسن السيرة في بداية عهده ، ورد إلى اليهود سابق حقوقهم وامتيازاتهم ، ولكنه حاول أن يحد من سلطة الأشراف والأجبار ، وأن يجمع السلطة في يد العرش ، فسخط عليه الأشراف ورجال الدين ، ودبروا لإسقاطه ثورة بعد ثورة ؛ ولكنه أخمدها

(١) راجع كتاب « تاريخ لانجدوك » *Histoire de Languedoc* ، تأليف الراهب Dom Vissette (الطبعة الجديدة ج ١ ص ٧٥٠ و ٧٥١) ، وهذا المؤلف موسوعة ضخمة من ستة عشر مجلداً ، ويشتمل على وثائق وتفاصيل هامة عن تاريخ اسبانيا قبل الفتح الإسلامي ، وغزوات العرب الأولى لإسبانيا وفرنسا .

Dozy : Hist. : V. I. p. 268 (٢)

(٣) ويسميه العرب « غيطشة » .

(٤) يقول بالرواية الأولى سيستيان السلمني ورددريك الطليلي ، ويقول بالرواية الثانية إيزيدور الباجي ؛ ويوافقه في هذا ابن عذارى المراكشي (البيان المغرب ج ٢ ص ٤) . وراجع :

Dozy : Recherches, V.1 p. 16.

جميعاً ، وهدم جميع المعاقل والحصون الداخلية لكي يحطم سلطان خصومه ويجردهم من وسائل الدفاع والمقاومة ، فلم يزدحم البطش والهزيمة إلا ظمأً إلى الخروج والثورة . وكان في مقدمة خصومه الذين يخشى بأسهم دوق تيودوفريد الذي نفاه أبوه الملك إيجيكا إلى قرطبة ، فزاد على ذلك أن سمل عينيه مبالغاً في النكاية به ، وحاول أن يفعل ذلك مع بلاجيوس ولد فاغيلا دوق كانتابريا ، ولكنه استطاع الفرار من نقمته^(١) . وكان الشعب من جهة أخرى يرزح أبداً تحت نير الجور والإرهاق ، فكان عرش القوط يرتجف فوق بركان مضطرب من السخط . وتقول الرواية النصرانية إن الزعماء الناقمين انتهبوا فرصة اقتراب أسطول إسلامي من جنوب اسبانيا ورفعوا لواء الثورة ، وإن وتيزا استطاع أن يرد هذا الأسطول وإن تيودومير قائد الأسطول القوطي هزم المسلمين في معركة بحرية كبيرة وذلك في سنة ٧٠٨ م^(٢) . وكان العرب كما قدمنا قد طوقوا أسوار سبتة معقل القوط في الضفة المقابلة من البحر ، وأمد وتيزاً حاكمها الكونت يوليán بأشجع جنده ، فانتهب خصومه فرصة ضعفه في الداخل ليدبروا الثورة مرة أخرى . وقاد الثورة عندئذ زعيم جرىء هو رُدريك ابن دوق تيودوفريد الذي سمل وتيزاً عينى أبيه ، فكان يحفره باعث الانتقام أيضاً ، وكان يتزعم حزباً قوياً ، والتف حوله رجال الدين والأشراف والأسر الرومانية ، فجمع جيشاً كبيراً ونادى بنفسه ملكاً . ووقعت بين الفريقين حرب أهلية شديدة . وهنا تختلف الرواية فيقال إن وتيزا قتل في هذا النضال وخلص الملك لمنافسه ، وفي رواية أخرى أن رُدريك ظفر به وسمل عينيه انتقاماً لأبيه ، ويقال أيضاً إنه ارتد إلى إحدى الولايات الشمالية وامتنع بها حتى وفاته . ويختلف المؤرخون كذلك في تاريخ ولاية رُدريك الملك ، فيقول البعض ، ومنهم رُدريك الطليطلى ، إنه تولى سنة ٧١١ م ، وحكم مع وتيزا قسماً من اسبانيا ، وإنه لما توفي وتيزا في سنة ٧١٣ م ، استأثر بالحكم مدى

(١) Dom Vissette : ibid, V. 1. p. 756

(٢) أورد هذه الرواية إيزيدور الياجى Isidorus Pacensis وتلقبها المؤرخ الألماني يوسف أشباخ في كتابه *Geschichte der Omajaden in Spanien* (ج ١ ص ٢٦) . والظاهر أن المقصود هنا هو الحملة البحرية التي جهزها موسى بن نصير بقيادة ابنه عبد الله سنة ٨٩ هـ (٧٠٨ م) وهي المعروفة بغزوة الأشراف . ولكن المسلمين لم يهزموا عندئذ في أية موقعة بحرية ، وقد غزوا جزائر البليار كما قدمنا .

عام آخر حتى فتح اسبانيا ، ويقول إيزيدور الباجي ، إن ردرريك ظفر بالعرش في أواخر سنة ٧١١ م وأنه لم يحكم قبل الفتح سوى عام واحد^(١) ، وفي الروايتين تحريف ظاهر ، ولا بد أن ردرريك ولي الملك قبل سنة ٧١١ ، إذ كان فتح العرب لاسبانيا في صيف هذا العام نفسه . وعلى أى حال فإن المعركة استمرت مدى حين بن ردرريك وولدى وتيزا ، وهما إيثا وميزبوت يعاونهما عمهما أوباس^(٢) أسقف طليطلة وإشبيلية ورأس الكنيسة ، والتفت حولهما رجال الدين وكل أنصار الحكم القديم . وكان ردرريك قوى الجانب وافر الشجاعة والعزم ، فاستطاع أن يخذل الثورة في كل ناحية ، واستتب له الأمر حيناً ، ومع ذلك فقد بقي عرش القوط مضطرباً يهتز في يد القدر ، وكان الخطر يجمع في ناحية أخرى :

ذلك أن خصوم ردرريك اتجهوا بأبصارهم إلى خارج الجزيرة . وكان الكونت يوليان حاكم سبته والمضيق ، محط أنظارهم ومساعدتهم . وقد اختلف في أمر الكونت يوليان اختلافاً بيناً ، فالروايات العربية القديمة كلها تشيد بذكره ، وبالدور العظيم الذي أداه في الفتح ، وينكر وجوده بعض أكابر المؤرخين الإسبان مثل ماسدى وغيره ، لأن ذكره لم يرد لأول مرة إلا في روايات القرن الثاني عشر . على أنه مما يعزز إجماع الرواية العربية ، إشارة إيزيدور الباجي ، صاحب أقدم رواية إسبانية عن الفتح ، إلى شريف نصراني كان يصحب موسى في كل غزواته . كذلك تختلف الرواية في صفة الكونت ، فيقال إنه لم يكن تابعاً لملك القوط ، وإن سبته كانت في ذلك الحين ما تزال تابعة لقيصر الدولة الشرقية ، ولكن حاكمها الكونت رأى لبعدها وعزلتها أن يستظل بحماية اسبانيا^(٣) . على أنه يبدو من أقوال الرواية العربية ، وهي في نظرنا أقوى وأرجح ، أن الكونت يوليان كان قوطياً إسبانياً ، وأنه كان يرتبط ببلاط طليطلة بصلات وثيقة . وتؤكد الرواية العربية

(١) Dom Visette : *ibid*, V. 1. p. 756 وذلك نقلاً عن Rodericus Tolétanus

Isidorus Pacensis , *Chronicon*

(٢) يسمى ابن القوطية أولاد وتيزا كما يأتي : المند . ورملة . ثم أرطباس . ولعل أرطباس هو أوباس . ولكن صاحب « أخبار مجموعة في فتح الأندلس » أصبح وأدق فهو يسميها شيرت وأبة باعتبار أنهما اثنان فقط (ص ٨) .

(٣) Dozy : *Recherches* : V. 1. p. 60-65, Hiet : V. 1. p. 270

بعض التواريخ النصرانية المتأخرة ، فيقول لنا ردرىك الطليطلى ، ولوقا التطيلي ، إن الكونت يوليان كان حاكماً لسبته ، وهى يومئذ من أملاك العرش القوطى ، وإنه كان رجلاً شجاعاً ، ولكنه كان مغامراً منتقماً ، وإنه كان من أقارب الملك قامبا^(١) . ويقول لنا ألفونسو العاشر فى تاريخه العام إن الكونت يوليان كان من أكابر الأشراف الذين يرجع أصلهم إلى القوط ، وإنه كان قريباً للملك وتيزا^(٢) . ولما نشب الخلاف الداخلى حول العرش ، انضم الكونت إلى أنصار الحكم القديم وأنصار الملك وتيزا . وكان غنياً شديد البأس ، كثير الأتباع والجند ، يعتصم بالبحر ، بعيداً عن سلطة العرش ، ويقبض على مفتاح اسبانيا بحكمه لسبته والمضيق . وكان من خصوم الحكم الحديدى يخشى عواقبه على مركزه وسلطانه . فاتصل به إينا وتيزا وباقى الزعماء الخوارج ، واستقر الرأى على الاستنجاد بالعرب جيران الكونت ، وهذا هو التعليل التاريخى للتحالف الذى عقد بين يوليان وموسى ابن نصير وانتهى بفتح العرب لإسبانيا . ولكن الرواية — والرواية الإسلامية بنوع خاص — تقدم إلينا تعليلاً آخر ، فتقول لنا إن يوليان كان يعمل بدافع الانتقام الشخصى أيضاً . فقد كانت له ابنة رائعة الحسن تدعى فلورندا أو كابا ، أرسلها إلى بلاط طليطلة جريباً على رسوم ذلك العصر ، لتلقى ما يليق بها من التربية بين كرائم العقائل والفرسان ، فاستهوى جمالها الفتان قلب ردرىك فاغتصبها وانتكع عفافها . وعلم الكونت بذلك فاستقدم ابنته إليه وأقسم بالانتقام ، ونزع ردرىك ذلك العرش الذى اغتصبه . فلما نشبت الحرب الأهلية بين ردرىك وخصومه ، والتجأ هؤلاء الخصوم إليه ، رأى الفرصة سانحة للعمل ، ولم ير خيراً من الاستنصار بالعرب ومعاونتهم على فتح اسبانيا .

والرواية الإسلامية نجتمع على قبول هذه القصة والأخذ بها ، مع أخذها فى الوقت نفسه بالعوامل السياسية التى ذكرناها^(٣) . ولكن الرواية النصرانية تتردد

(١) Camille Julian : *Histoire de la Gaule* p. 727

(٢) Pr. *Crónica General* (Ed. Pidal) Vol. I. p. 307

(٣) يتناقل المؤرخون المسلمون هذه القصة منذ أقدم العصور ، فقرأها فى رواية ابن عبد الحكم الذى كتب تاريخ فتح الأندلس بعد وقوعه بنحو قرن فقط (أخبار مصر وفتوحها ص ٢٠٥) . وذكرها ابن حيان مؤرخ الأندلس (نقله نفح الطيب ج ١ ص ١٠٩) ، وابن القوطية القوطى « اقتتاح الأندلس » (ص ٨) — وهو يصف يوليان بأنه كان تاجراً من تجار المعجم لا حاكماً لسبته ، ويعمل =

في قبولها ، وتنكرها معظم الروايات الإسبانية الحديثة ، وتعتبرها أسطورة صاغتها الأغاني والقصص القديمة . وهكذا نجد ماريانا وماسدى أعظم مؤرخي اسبانيا في مقدمة المنكرين لصحتها . ويذهب البعض الآخر مثل مونتيخار وغيره إلى أبعد من ذلك ، فينكر شخصية الكونت يوليان ذاته ، ويعتبرها شخصية خيالية ، ويعتبر القصة كلها خرافة وأسطورة فقط^(١) . ويقول كوندى إن اسم كابا (فلورندا) ووصيفتها أليفا وكل أشخاص هذه الرواية تدل على أن القصة كلها إنما هي خرافة موريسكية^(٢) اشتقت من الأساطير والأغاني العامة التي كانت ذاتة بين المسلمين والنصارى^(٣) .

وإنكار الرواية الإسبانية لمثل هذه القصة معقول ظاهر الحكمة ، فهي تأتي الاعتراف بواقعة تسجل خيانة الوطن على نفر من زعماء اسبانيا الأوائل ، وهي خيانة كان من أثرها أن افتتح العرب اسبانيا وحكمها الإسلام قروناً طويلة . على أننا لا نجد في القصة ما يبعث إلى إنكارها ، فوقعها ممكن معقول في مثل الظروف التي كانت تجوزها اسبانيا يومئذ ، من خلاف في الرأي ، وتنازع على السلطة ، وانحلال أخلاق واجتماعي . ولسنا من جهة أخرى نلمس في الرواية الإسلامية أثر الاختراع . فليس ثمة ما يدعو إليه . وليس من المعقول أن تخترع الرواية الإسلامية قصة مفادها أن المسلمين لقوا في فتح اسبانيا معارضة لم يتوقعوها ، وأن هذه المعارضة سهلت لهم سبل الفتح ، ولعلمهم لم يقدموا بدونها على الاضطلاع به ، أو لعلمهم كانوا يتعرضون للإخفاق والفشل . هذا إلى أن بعض الروايات الإسبانية القديمة ، ومنها ما هو قريب من الفتح ، يشترك مع الرواية العربية في سرد قصة فلورندا والأخذ بها .

= وقوع الفتح بخروج أولاد وتيزا وخيانتهم . وكذا صاحب أخبار مجموعة (ص ٥) . وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٣) . وابن خلدون (ج ٢ ص ٢٣٦ وج ٤ ص ١١٧) . وعبد الواحد المراكشي في «المعجب» (ص ٦) . وابن عذار المراكشي في «البيان المغرب» (ج ٢ ص ٨) . وصاحب الروض المعطار في «وصف جزيرة الأندلس» المنشور بالقاهرة ١٩٣٧ (ص ٧) .

(١) راجع الهامش في : Aschbach : ibid, I. p. 28

(٢) نسبة إلى الموريسكيين Moriscos أو العرب المنتصرين ، وهم بقية الأمة الأندلسية المغلوبة بعد سقوط غرناطة (١٤٩٢ م) وانهاء دولة الإسلام في الأندلس .

(٣) Historia de la Dominación de los Arabes en Espana (٣)

فمن ذلك ما ورد في رواية إيزيدور الباجي الذي عاش في أوائل القرن الثامن ، وما ذكره رديك الطليطلي في روايته ، من أن الكونت يوليان ثار لاعتداء رديك على ابنته أو زوجه ، واعتزم أن ينتقم لنفسه بدعوة العرب إلى فتح اسبانيا ، وهي قصة ردها أيضاً التاريخ العام الذي وضع بأمر الملك ألفونسو العالم في أواخر القرن الثالث عشر^(١). ففي هذه الروايات الإسبانية النصرانية كلها تأييد لهذه القصة الشهيرة . كذلك يختلف النقد الأوربي الحديث في أمر هذه القصة ، ف يرى البعض أنها أسطورة لا يصح الأخذ بها ، ويرى البعض الآخر أنها معقولة لا أمر للاختراع فيها^(٢) . ونحن مع هذا الفريق نرى قصة فلورندا حادثة طبيعية معقولة ، ونرى في إجماع الرواية الإسلامية على تدوينها دليلاً خيراً على صحتها . ومهما كان من أمر يوليان ، ومهما كان من بواعث غضبه ونقمته على مليكه ، فقد كان تدخله أكبر عامل في تذليل فتح المسلمين لشبه الجزيرة الإسبانية ، والقضاء على مملكة القوط .

Pr. Crónica General ; Vol. I. p. 307, C. Julian, *ibid*, p. 757 — (١)

Gibbon, *ibid*. Chap. LI (Note)

(٢) قال الفيلسوف جيبون في تعليقه على تلك القصة : « طالما كانت أهواء الملوك يطعمها الجورح والعبث . ولكن هذه القصة المعروفة ، وإن كانت روائية في ذاتها ، لم تؤيدها الأدلة الكافية ، وتاريخ اسبانيا يقدم من بواعث المصلحة والسياسة ما هو أليق بتفكير السامي القديم (يريد الكونت يوليان) Gibbon, *ibid*, LI . ويسخر فولتير في تاريخه العام من القصة ويقول : « إن الاغتصاب صعب التنفيذ صعب التدليل ، فهل يتحالف الأخبار من أجل فتاة » . ولكن المؤرخ المستشرق دوز يروي القصة ويأخذ بها في شرح حوادث الفتح Dozy : *Histoire V.l.p.271* وكذا يرويها ويأخذ بها المستشرق كاردون في كتابه : *Histoire de l'Afrique et de l'Espagne p. 65* .

الفصل الثالث

فتح اسبانيا

المفاوضة بين موسى بن نصير والكونت يوليان . استئذان موسى للوليد في الفتح . فكرة يوليان وأصحابه في استدعاء العرب . حلة تمهيدية إلى الجزيرة الخضراء . حملة الفتح . طارق بن زياد . عبوره إلى الأندلس واختراقه للجزيرة الخضراء . تأهب ردرريك ملك القوط لملاقاة العرب . مكان اللقاء بينهما . موقعة شذونة أو وادي لكة . تفرق الجيش القوطي . هزيمة القوط ومقتل ردرريك . الخطاب الذي ينسب إلى طارق والشك في صحته . هل أحرق طارق سفن الحملة . اللقاء الثاني بين القوط والعرب في إستجة . هزيمة القوط الثانية . زحف طارق على طليطلة . إفتتاح قرطبة وغرناطة ومالقة . معاونة اليهود المسلمين . إفتتاح تدمير وعقد الصلح مع أميرها . طارق يحترق الأندلس . كلمة أندلس وأصلها . استيلاء طارق على طليطلة . اختراقه قشتالة وليون وجبال أستورية . عوده إلى طليطلة . موسى وموقفه من الفتح . أوامره لطارق . يقود حملة جديدة إلى اسانيا . استيلاؤه على شذونة وقرمونة وإشبيلية . حصاره لماردة وإفتتاحها . غضبه على طارق ثم عفوه عنه . سيرهما إلى الشمال وإفتتاحهما لسرقسطة وطركونة وبرشلونة . سير طارق إلى جليقية . موسى يحترق البرنيه ويفوز سبانيا . إفتتاحه لأربونة وقرقشونة ووادي الرون . مشروعه في اختراق الأمم النصرانية شرقاً إلى مقر الخلافة . إعتراض حكومة دمشق . سيره لإخضاع جليقية . استدعاؤه وطارق إلى دمشق . بواعث هذا الاستدعاء . إفتتاح عبد العزيز بن موسى لبلنسية وبلجة . معاهدته مع تيودمير . إشبيلية عاصمة الأندلس . إستخلاف موسى لولده عبد العزيز . سفره وطارق إلى المشرق . ما أصاب المسلمون من غنائم الأندلس . مصير موسى واختلاف الرواية في شأنه . وفاته وخلاله . مصير طارق . مصير الكونت يوليان والأمراء المحالفين للعرب . سارة القوطية وحفيدها المؤرخ .

في الوقت الذي كانت شبه الجزيرة الإسبانية تجوز فيه هذه الحوادث والأزمات الخطيرة ، كان العرب قد أتموا فتح المغرب الأقصى ، واستولوا على ثغر طنجة ، وأشرفوا على شواطئ الأندلس من الضفة الأخرى من البحر ، ولم يبق لإتمام فتح إفريقيا سوى ثغر سبتة الذي يقع مقابل طنجة في الطرف الآخر من اللسان المغربي . وكانت سبتة قد استطاعت لمنعتها وسهر حاكمها الكونت يوليان ، أن تحبط كل محاولة لأخذها . وكان موسى بن نصير يتوق إلى إفتتاح هذا الثغر المنيع ، وتطهير إفريقيا من البقية الباقية من العدو . وبينما هو يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنية ، إذ جاءته رسالة من الكونت يوليان نفسه يعرض فيها

تسليم معقله ، ويدعوه إلى فتح اسبانيا، وجرت بينهما المفاوضة في هذا المشروع الخطير . وتختلف الرواية في أمر هذا الاتصال ، فيقال إن موسى ويوليان اتصلا بالمراسلة ، وقيل لهما اتصلا بالمقابلة الشخصية ، وإن الكونت استدعى موسى إلى سبته ، وهناك وقعت المفاوضة بينهما . وقيل أخيراً لهما اجتماع في سفينة في البحر^(١) . وعلى أى حال فقد استجاب موسى لدعوة الكونت ، واهتم بمشروعه أعظم اهتمام ، وكان قد وقف على أحوال اسبانيا وخصبها وغناها ، واستطاع أن يقدر أهمية مثل هذا الفتح ، وجليل مغامته ومزاياه ، فلما علم من يوليان وحلفائه ما تعانيه اسبانيا من الخلاف والشقاق ، وما يسودها من الانحلال والضعف ، ورأى مما يعرضه يوليان من تسليم سبته وباقي معقله ، وتقديم سفنه لنقل المسلمين في البحر ، ومعاونته بجنده وإرشاده ، أن الفوز ميسور محقق ، كتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأمر المشروع ، فكتب إليه الوليد أن يختبره بالسرايا ، أعني بالحملات الصغيرة بادية بدء ، والأيزج بالمسلمين إلى أهوال البحر ، بيد أن المسلمين كانوا قد خاضوا قبل ذلك غمر المعارك البحرية في هذه المياه ، وغزوا صقلية وسردانية ، ثم غزوا جزائر البليار (الجزائر الشرقية) كما قدمنا ، وكان البحر الذى يفصل بين إفريقيا والأندلس مجازاً ضيقاً سهل العبور .

ولبت موسى حيناً بطنجة يهئ عُدّة الفتح . والظاهر أن يوليان وحلفاءه لم يقصدا بدعوة موسى أن يمتلك العرب اسبانيا ، وأن يحكموها ، بل كان مشروعه أن يستعينوا بالعرب على محاربة المغتصب وإسقاطه ، واستخلاص الملك لأنفسهم . وكان اعتقادهم أن العرب متى امتلأت أيديهم بالأسلاب والغنائم ، قفلوا إلى إفريقية . وهو فرض معقول يؤيده سير الحوادث في اسبانيا ، فقد كان الخوارج على ردريك يقصدون إلى انتزاع الملك من يده . وتحقيق أطماعهم بالحلول مكانه . أما الفرض الآخر - وهو أنهم كانوا يقصدون بالفعل تسليم وطنهم إلى العرب - فعناهم أنهم كانوا يعملون للقضاء بأنفسهم على مشاريعهم وأطامعهم ، وهو ما يصعب قبوله وتعليله^(٢) ، والظاهر أن موسى بن نصير كان من جانبه

(١) راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦ .

(٢) قدم ابن الأثير في روايته ما يفيد صحة الفرض الأول (ج ٤ ص ٢١٤) . وكذا صاحب =

يؤكد ليوليان أنه لا يقصد بالغزو سوى مجد الفتح وكسب الغنائم ، وأنه لا ينوى إنشاء دولة مسلمة فيما وراء البحر . ونزل موسى على نصيح الخليفة في اختبار الفتح الحديد بالسرايا ، وبدأ مشروعه بمحاولة صغيرة ، فجهز خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس ، بقيادة ضابط من البربر يدعى طريف بن مالك ، فعبروا البحر من سبتة في أربع سفن قدمها يوليان ، إلى البقعة المقابلة التي سميت جزيرة طريف باسم قائد الحملة ، وذلك في رمضان سنة إحدى وتسعين (يولييه سنة ٧١٠ م) ، وجاست الحملة خلال الجزيرة الخضراء بإرشاد يوليان ، فأصابته كثيراً من الغنائم ، وقوبلت بالإكرام والترحيب ، وشهدت كثيراً من دلائل خصب الجزيرة وغناها ، ثم عادت في أمن وسلام ، وقص قائدها على موسى نتائج رحلته ، فاستبشر بالفوز ، وجد في أهبة الفتح .

وفي شهر رجب سنة اثنتين وتسعين (إبريل سنة ٧١١ م) جهز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثي ، وكان يومئذ حاكماً لطنجة كما قدمنا^(١) . ومن الغريب أن الرواية الإسلامية لا تحدثنا عن فاتح الأندلس بشيء قبل ولايته لطنجة ، بل إنها تختلف في أصله ونسبته ، فقيل هو فارسي من همدان ، كان مولى لموسى بن نصير ، وقيل إنه من سبي البربر ، وقيل أخيراً إنه بربري من بطن من بطون نفزة ، وهذه فيما يظن أرجح رواية ، وهي رواية يؤيدها صاحب البيان المغرب ، بإيراد نسبة طارق مفصلة . ويبدو منها أن طارقاً تلقى الإسلام عن أبيه زياد عن جده عبد الله ، وهو أول اسم عربي إسلامي في نسبه ، ثم ينحدر مساق النسبة بعد ذلك خلال أسماء بربرية محضة حتى ينتهي إلى نفزة ، وهي القبيلة التي ينتمي إليها^(٢) .

« أخبار مجموعة » (ص ٨) ، والمقرئ (ج ١ ص ١٢٠) . ومن جهة أخرى فإن البحث الحديث يؤيده ويرجحه . راجع دوزي : *Dozy : Hist. V. I. p. 272* ، وأيضاً جيبون حيث يقول : « يظهر أن الكوفت لا يستحق وصفت الحيانة والخسة والندرة مطلقة ، فإن التاريخ لم يثبت أنه كان يريد تسليم بلاده للعرب . وإنما كان مشروعه أن يستعين بهم على قلب الحكومة وإسقاط رددريك حتى يكون له في حكومة هو منشؤها مكانة أسمى » *Gibbon : ibid. Chap. LI. (note)*

(١) يقول صاحب البيان المغرب إن ولاية طارق لطنجة كانت في سنة ٨٥ هـ (ج ٢ ص ٢٨) ، ولكن الظاهر أنه ولها بعد ذلك ببضعة أعوام .

(٢) راجع البيان المغرب (ج ٢ ص ٦) وفيه ترد نسبة طارق هكذا : — طارق بن زياد ابن عبد الله بن ولغو بن ورفجوم بن نيرغاس بن ولهاص بن يطومث بن نفزا ؛ وراجع أيضاً نزهة =

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية التي يسوقها إلينا صاحب كتاب «الإمامة والسياسة» وصفاً لشخص طارق خلاصته أنه كان «رجلاً طويلاً أشقر ، بعينه قبل أى حول وبیده شلل»^(١) . فإذا صححت هذه الرواية ، فإنها يمكن أن تقدم إلينا دليلاً آخر على انتهاء طارق إلى الجنس البربرى . فالبربر حسبنا شهدنا من التجوال فى بعض ربوعهم بالمغرب ، يكثر بينهم الطول والشقرة :

وكان طارق جندياً عظيماً ظهر فى غزوات المغرب بفائق شجاعته وبراعته ، وقدر موسى مواهبه ومقدرته واختاره لحكم طنجة وما يليها ، وهى يومئذ أخطر بقاع المغرب الأقصى وأشدّها اضطراباً ، ثم اختاره لفتح الأندلس . فعبر البحر من سبتة بجيشه تبعاً فى سفن يوليان القليلة ، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التى ما زالت تحمل اسمه إلى اليوم أعنى جبل طارق ، وذلك فى يوم الإثنين الخامس من رجب سنة ٩٢ هـ (٢٧ إبريل سنة ٧١١ م)^(٢) . واخترق طارق المنطقة المحاورة غرباً بمعاونة يوليان وإرشاده ، وزحف على ولاية الجزيرة التى كان يحكمها تيودومير القوطى عامل ردرىك واحتل قلاعها ، بعد أن هزم شرادم من القوط تصدت لوقفه . وبادر حكام الولايات المجاورة بإخطار بلاط طليطلة بالخطر الداهم . وكان ردرىك يشغل يومئذ بمحاربة بعض الخوارج فى الولايات الشمالية ، فهرع إلى طليطلة شاعراً بفداحة الخطر المحيى بعرضه وأمته ، وبعث قائده إديكو لرد العدو حتى يستكمل أهبته . ولكن طارقاً هزمه ثم اخترق بسائط «الفرنثيره»^(٣) معتزماً السير صوب عاصمة القوط .

وكان رُدرىك أو رذريق أو لنريق كما يسميه العرب^(٤) أميراً شجاعاً وافر المقدرة والعزم ، ولكنه كان طاغية يثير بقسوته وصرامته حوله كثيراً من البغضاء

= المشتاق للشرىف الإدريسى حيث يقول إنه بربرى من زناته (طبع رومة ص ١٧٩) ، وكذلك ابن خلدون (ج ٤ ص ١١٧) ، والمقرى (نفع الطيب ج ١ ص ١١٩) .

(١) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧٤ . ونقل إلينا المقرى ما يفيد أن طارقاً كان ضمن الهامة ، وفى كنفه الأيسر شامة (ج ١ ص ١٠٧) .

(٢) المقرى (ج ١ ص ١١٩) ، والبيان المغرب ؛ وهناك خلاف على الشهر الذى عبر فيه طارق .

(٣) الفرنثيره La Frontera ، هى المنطقة الوسطى والغربية فى المثلث الإسبانى .

(٤) ويسميه الواقدى باسم آخر هو «الأدرينوق» ؛ راجع الطبر ج ٨ ص ٨٢ .

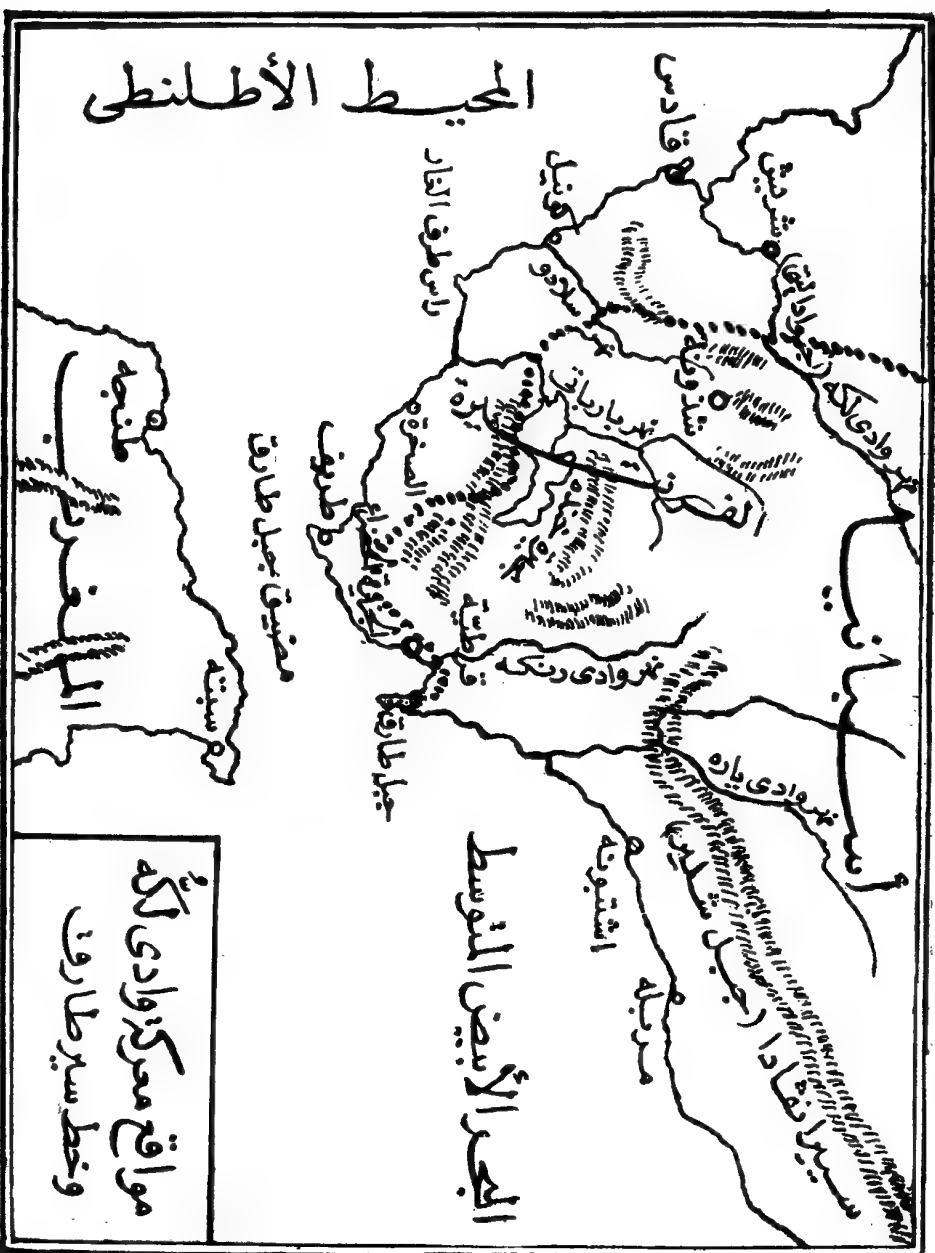
والسخط^(١) . وكان عرشه يرتجف فوق بركان من الخلاف ، وكانت إسبانيا قد مزقت شيعاً وأحزاباً ، يتطلع كل منها إلى انتزاع السلطان والملك ، وكان أهم هذه الأحزاب وأقواها حزب العرش القديم الذى يلتف حول ولدى وتيزا (غبطشة) . ومع ذلك فقد اعتصم القوط حين الخطر الداهم بنوع من الاتحاد ، واستطاع ردريك أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة ، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم ، فاجتمع للقوط يومئذ جيش ضخم تقدره بعض الروايات بمائة ألف^(٢) ، ويقدره مؤرخ أندلسى متأخر بتسعين ألف^(٣) ، وسار ردريك نحو الجنوب للقاء المسلمين ، وكان طارق قد وقف على أمر هذه الأبهة العظيمة ، فكتب إلى موسى يستنجد به ، فأمدّه بخمسة آلاف مقاتل ، فبلغ المسلمون اثني عشر ألفاً ، وانضم إليهم يوليان في قوة صغيرة من صحبه وأتباعه .

كان القوط أضعاف المسلمين ، وكان المسلمون يقاتلون في أرض العدو في هضاب ومفاوز شاقة ، ولكن قائدهم الجريء تقدم إلى الموقعة الحاسمة بعزم . فكان اللقاء بين الجيشين في سهل الفرنتره Frontera على ضفاف نهر وادى لكّه أو وادى بكه . وقد اختلف البحث الحديث في تحديد المكان والنهر الذى يحمل هذا الاسم الذى تورده الرواية العربية . فذكر البعض أنه هو نهر «جواداليتي» Guadalete (وادى لكه) الذى يصب في خليج قادس على مقربة من مدينة شريش ، وأن اللقاء حدث على ضفته الجنوبية شمالي مدينة شذونة . وذكر البعض الآخر ، وهى الرواية الراجحة فيما يزي البحث الحديث ، أن اللقاء قد حدث جنوبي بحيرة « خندة » Janda الصغيرة المتصلة بنهر بارباتى Barbate الصغير

Cardonne : ibid. p. 62 (١)

(٢) راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٤ ؛ والمقرئ ج ١ ص ١٢٠ . ويقدره في مكان آخر بسبعين ألف (ص ١١٢) . ويأخذ جييون بهذه الرواية فيقدر جيش القوط بتسعين ألف أو مائة ألف (الفصل الحادى والخمسون) . ولكن ابن خلدون يقدره بأربعين ألف فقط ، وهو في نظركم أقرب إلى المعقول (ج ٤ ص ١١٧) .

(٣) هذه هى رواية على بن عبد الرحمن بن هذيل صاحب كتاب « تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس » وهو من كتاب القرن الرابع عشر الميلادى (مخطوط بالإسكوريال رقم ١٦٥٢ دير نبور - لوحة ٤٨) وهو مؤلف فريد في بابيه يتحدث عن الجهاد والمغازى وللصوائف والقروسية وأحوالها وقروطها . وبه نيز تاريخية مفيدة . وقد نشره المشرق مرسية .



الذى يصب في المحيط على مقربة من رأس « طرف الغاز »^(١) وأن الرواية العربية تقصد هذا النهر بما تورده من إسم وادى لكه أو وادى بكه . ففي هذا السهل الصغير الذى تحده من الجنوب سلسلة من التلال العالية ، وعلى ضفاف بحيرة خنده ونهر « بارباتى » تلاقى العرب والقوط ، والإسلام والنصرانية ، وذلك فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢ (١٧ يولييه سنة ٧١١ م)^(٢) . و فرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة شغلت بالمعارك البسيطة . وفى اليوم الرابع التحم الجيشان ونشبت بينهما معركة عامة . وظهر ردريك وسط الميدان فى حلل ملوكية فوق عرش تجره الخليل المظهمة ، وهو منظر يثير سخرية الفيلسوف جيبون ولاذع تمكه إذ يقول : « ولقد ينجح الأريك (مؤسس دولة القوط) عند رؤية خلفه (ردريك) متوجاً باللائىء ، متشحاً بالحرير والذهب ، مضجعا فى هودج من العاج »^(٣) . واستمرت المعركة هائلة مضطربة بين القوى النصرانية الضخمة ، وبين القوة المسلمة المتواضعة نحو أربعة أيام^(٤) . ولكن الجيش القوطى كان رغم كثرته مختل النظام منحل العرى ، وكان يقود جناحيه إيفاً وسيزبوت خصما ردريك^(٥) ،

(١) يقول دوزى إن هذا النهر يحمل اليوم اسم سلاдо Salado (ج ١ ص ٢٧٣ هامش) وهو خطأ لأن هذا الإسم يطلق على نهر آخر يقع شمالى نهر بارباتى . ويسميه ابن القوطية « وادى بكه » (ص ٧) . وراجع : الأستاذ لى بروئيسال : *Histoire de l'Espagne Musulmane* (١٩٤٤) p. 15 & 16 . والهامش .

(٢) تجمع الرواية الإسلامية تقريباً على أن الموقعة كانت فى ذلك التاريخ . ولكن ابن حيان مؤرخ الأندلس يقول إنها كانت فى السابع من ربيع الأول سنة ٩٢ هـ (المقرى عن ابن حيان ج ١ ص ١١٦) ولعله ينفرد بهذا الخلاف .

(٣) تشير معظم الروايات الإسلامية إلى هذا المظهر ؛ فيقول الطبرى نقلا عن الواقدى : « فزحف الأدرينوق فى سرير الملك ، وعلى الأدرينوق تاجه وقفازه وجميع الخلة التى كان يلبسها الملوك » (ج ٨ ص ٨٢) ، والمقرى (ج ١ ص ١١٢) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٢) ، وابن عسارى (ج ٢ ص ٩) .

(٤) قال الرازى : « كانت الملاقاة يوم الأحد اليكين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهما إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوال . ثم هزم الله المشركين فقتل منهم خلق عظيم أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة بتلك الأرض ، قالوا : وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجل قدره ، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدرنها فى أصابعهم ، ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس » (المقرى ج ١ ص ١٢١) .

(٥) أخبار مجموعة (ص ٨) .

وتتكون صفوفه من أتباعهما وأتباع حلفائهما من الأمراء والزعماء الناقمين ، الذين تظاهروا بالإخلاص وقت الخطر ، وكلهم يتحين الفرصة للإيقاع بالملك المغتصب^(١) ، فكانت الحيانة تمزق جيش القوط شرمزق . واستأل يوليان والأسقف أوباس وهما في صف المسلمين كثيراً من جند القوط ، وبثا بدعائيهما في الصفوف الموالية لردريك كثيراً من عوامل الشقاق والتفرق ، فأخذ كل أمير يسعى في سلامة نفسه . وتمكن الجيش الإسلامي على ضالة عدده ، بجلده وثباته واتحاد كلمته ، من جيش القوط ، فلم يأت اليوم السابع من اللقاء حتى تم النصر لطارق وجنده ، وهزم القوط شرمزيمة ، وشتموا ألوفاً في كل ضوب . أما ردرريك آخر ملوك القوط ، فقد اختفى عقب الموقعة ، ولم يعثر له بأثر . ويقول إيزويلدور الباجي إنه بقي في ميدان الحرب حتى قتل مدافعاً عن عرشه وأمه . وتقول بعض الروايات النصرانية الأخرى إنه فر عقب الهزيمة على ظهر جواده ، ولكنه غرق في مياه النهر . وتميل التواريخ الإسلامية إلى تأييد هذه الرواية ، وتقول لنا إن ملك القوط مات غريقاً ، وإنهم عثروا على جواده وسرجه الذهبي ، ولم يعثر إنسان بجثته . وتزعم بعض الروايات النصرانية أيضاً أن ردرريك استطاع أن يلوذ بالفرار ، ولكنه قتل بعد ذلك ، أو أنه فر إلى بعض الأديار في البرتغال وترهب ، وعاش متكرراً حيناً من الدهر . وينفرد صاحب كتاب الإمامة والسياسة بين المشاركة برواية أخرى ، وهي أن طارقاً ظفر بجثة ردرريك ، فاحتز رأسه وبعث بها إلى موسى بن نصير ، وبعث بها موسى إلى الخليفة ، ويتابعه في هذه الرواية كاتب أندلسي هو صاحب كتاب تحفة الأنفس الذي تقدم ذكره^(٢) . هذا إلى روايات كثيرة أخرى . ولكن المرجح في هذه الروايات كلها هو أن ردرريك فقد حياته في الموقعة التي فقد فيها ملكه ، وأنه مات قتيلاً أو غريقاً على الأثر^(٣) .

(١) ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٤) والمقرئ (ج ١ ص ١٢١) ودوزي (ج ١ ص ٢٧٢) .

(٢) راجع كتاب الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧٥ و ٧٦ . ووردت هذه الرواية في كتاب تحفة الأنفس في المخطوط المتقدم ذكره (لوحه ٤٨) .

(٣) راجع في نصير ردرريك ، C. Julian: Histoire de la Gaule p.750-Gibbon, ibid ، وراجع من المصادر الإسلامية : ابن الأثير حيث يقول إنه غرق في نهاية الموقعة (ج ٤ ص ٢١٤) . والمقرئ حيث يقول إنه رمى بنفسه مختاراً إلى النهر ، وقد ثقلته الجراح (نفع الطيب =

هكذا كانت موقعة شذونة التي دالت فيها دولة القوط ، بعد أن لبثت زهاء ثلاثمائة عام منذ قيامها في غاليس ، وعُثم الإسلام فيها ملك إسبانيا . وتحيط الرواية الإسلامية حوادث الفتح بطائفة كبيرة من الأساطير والقصص التي لا يستطيع المؤرخ أن يقف بها^(١) . بيد أنه يجدر بنا في هذا المقام أن نذكر ما تعرضه الرواية من أن طارقاً خطب جنده قبيل نشوب المعركة الحاسمة ؛ كما أنه يجدر بنا أن نورد نص هذا الخطاب الشهير الذي ينسب لفتح الأندلس ، والذي يعتبر نموذجاً بديعاً من الفصاحة والحماسة الحربية وهو :

« أيها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم . وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللثام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ربحكم وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم ؛ فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألفت به إليكم مدينته الحصينة ؛ وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالمولت . وإن لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعاً فيها للنفوس ، أبداً بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالألفة طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فاحظكم فيه بأوفى من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات في الدر والمرجان .

(ج ١ ص ١٢١) . وقال ابن الأبار في الحلة السيرة إنهم عثروا على جواد ردرىك وسرجه من ذهب وزبرجد وإحدى نعليه وغاب شخصه ، فما وجد حياً ولا ميتاً (ليدن ص ٣١) . وهذه هي أيضاً رواية صاحب « أخبار مجموعة » (ص ٦) . وقال ابن عذارى إن ردرىك احتفى ولم يعرف له موضع ولا وجدت له جثة ، وإنما وجد له خف مفقوض ، فقالوا إنه غرق وقالوا إنه قتل (ج ٢ ص ١٠) ؛ وتردد بعض التواريخ الغربية هذه الرواية (كأى جوليان في تاريخ « غاليس » ص ٧٥٨) . ونقول بعض الروايات الإسبانية إنه فر إلى مغار ناسك ، والبعض الآخر إنه ألقى حياً إلى بحر ملهى بالأقاصى حيث صاح : « وإنها تلهم الجزء الذى ثقلته بالخطايا » (جيبون الهامش في الفصل الحادى والخمسين) . (١) راجع رواية ابن عبد الحكم عن فتح الأندلس (ص ٣٠٤ وما بعدها) فقد نقلها بعض هذه الأساطير ، ولكن المقرئ يستوعب الكثير منها نقلًا عن مختلف الروايات (نفع الطيب ج ٦ ص ١١٤ وما بعدها) .

والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم الملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظكم منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى وليُّ إيجادكم على ما يكون لكم ذكرآ في الدارين . أيها الناس : ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ، إن حملت فاحملوا ، وإن وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال ، وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنبيه حتى أخاطله وأمثل دونه ، فإن قتلت فلا تنهوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا ، فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وتولوا الدبر لعدوكم فتبدلوا بين قتيل وأسير . وإياكم إياكم أن ترضوا بالذنية ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة ، والراحة من المهنة والذلة ، وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة ، فإنكم إن تفعلوا ، والله معكم ومفيدكم ، تبوءوا بالخسران المبين ، وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين ، وهأنذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملي » (١) .

ويشير صاحب كتاب تحفة الأنفس إلى خطبة طارق في قوله : « لما التقى العرب والقوط ، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال ، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة ، فقام يعظهم ويحضهم على الصبر ويرغبهم في الشهادة ، وبسط في آمالهم » ، ثم يورد نص الخطبة (٢) .

ثم تنوه الرواية الإسلامية بما كان لهذا الخطاب من أثر فعال في إذكاء همم المسلمين وشجاعتهم وثقتهم ، ودفعهم إلى طريق النصر والظفر .

على أنه يسوغ لنا أن نرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق ؛ فإن معظم المؤرخين المسلمين ، ولاسيما المتقدمين منهم لا يشير إليها ، ولم يذكرها ابن عبد الحكم

(١) هذا ، وما ينسب لطارق أيضاً من قصيدة قالها في الفتح :

ركبنا سفينةً بالجهاز قصيرا	عسى أن يكون الله منا قد اشترى
فنفوساً وأموالاً وأهلاً بجنة	إذا ما اشتبهنا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا	إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرنا

(٢) كتاب تحفة الأنفس وشار أهل الأندلس ؛ المخطوط المتقدم ذكره لوحة ٤٨ .

ولا البلاذرى ، وهما أقدم رواة الفتوحات الإسلامية ؛ ولم تشر إليها المصادر الأندلسية الأولى ، ولم يشر إليها ابن الأثير وابن خلدون ، ونقلها المقرئ عن مؤرخ لم يذكر اسمه ؛ وهى على العموم أكثر ظهوراً فى كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين . وليس بعيداً أن يكون طارق قد خطب جنده قبل الموقعة ، فنحن نعرف أن كثيراً من قادة الغزوات الإسلامية الأولى ، كانوا يخطبون جندهم فى الميدان ؛ ولكن فى لغة هذه الخطبة ، وروعة أسلوبها وعباراتها ، ما يحمل على الشك فى نسبتها إلى طارق ، وهو بربرى لم يكن عريقاً فى الإسلام والعروبة . والظاهر أنها من إنشاء بعض المتأخرين ، صاغها على لسان طارق مع مراعاة ظروف المكان والزمان .

وتشير الرواية الإسلامية فى هذا الموطن إلى واقعة أخرى جديدة بالتأمل والبحث ؛ وهى واقعة قد يغلب عليها لون الأسطورة ، وإن كانت مع ذلك تعرض علينا فى ثوب التاريخ الحق ؛ تلك هى واقعة إحراق السفن التى نقل عليها طارق جيشه من الشاطئ الإفريقى إلى شاطئ الأندلس . ونحن نعرف مما تقدم أن الكونت يوليان هو الذى قدم السفن التى ركبها العرب إلى الأندلس فى بعثتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف بن مالك ، ثم فى حملتهم الغازية بقيادة طارق . وهنا تذكر الرواية أن طارقاً ما كاد يعبر بجيشه إلى الشاطئ الأندلسى ، حتى أمر بإحراق السفن التى عبر عليها جيشه ، وذلك لكي يدفع جنده إلى الاستبسال والموت ، أو النصر المحقق ، ويقطع عليهم بذلك كل تفكير فى التخاذل والارتداد . فما مبلغ هذه الرواية من الصحة ؟ إن جميع الروايات الإسلامية التى تحدثنا عن فتح الأندلس لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة ، ولا تذكرها الرواية الإسلامية إلا فى موطن واحد ؛ فقد ذكر الشريف الإدريسى فى معجمه الجغرافى « نزهة المشتاق » عند الكلام على جغرافية الأندلس ، أن طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس^(١) ، وقد نقلت بعض التواريخ النصرانية المتأخرة هذه الرواية عن الإدريسى فيما يرجح ؛ وفيما عدا ذلك فإن جميع الروايات الإسلامية تمر عليها بالصمت المطلق .

وقد يقال إن فى الخطاب المنسوب إلى طارق ما يؤيد صحة هذه الرواية ،

(١) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (المختصر) ، طبع رومة ، ص ١٧٨ .

فطارق يستهله بقوله : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ... » ، وفي ذلك ما يمكن أن يحمل على أن الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى الشاطئ الإفريقي ، أو بعبارة أخرى قد جرد من السفن التي حملته في عرض البحر إلى اسبانيا ؛ ولكننا رأينا أن هذا الخطاب لا يمكن الاعتماد عليه من الوجهة التاريخية ، كوثيقة بعيدة عن شوائب الريب . ولو صح أن طارقاً ألقى في جنده مثل ذلك الخطاب ، فقد نجد تفسيراً لأقوال طارق في أن السفن كانت ملكاً للكونت يوليان ، وفي أنها لم تكن تحت تصرف الغزاة في جميع الأوقات .

ومع ذلك كله فإن رواية الشريف الإدريسي عن واقعة إحراق طارق للسفن ليست من الأمور المستحيلة ؛ وهي عمل بطولة يتفق مع بطولة فاتح الأندلس ، على أنها تبقى عرضة لكثير من الريب ، فقد دوت لأول مرة في القرن الخامس الهجري . أعني بعد فتح الأندلس بأكثر من ثلاثة قرون ، ولم تؤيدها أية رواية إسلامية أخرى^(١) .

وعلى أثر الواقعة الحاسمة التي غلب فيها الجيش القوطي ومزق ، ساد الرعب على القوط ، فامتنعوا بالحصون والجبال ، وقصدوا إلى الهضاب والسهول . وذاعت أنباء النصر في طنجة وسبتة وما جاورهما من أراضي العدو ، فعبّر إلى الجيش الفاتح سيل من المجاهدين والمغامرين من العرب والبربر . وزحف طارق بجيشه شمالاً . وكانت بقية الجيش القوطي قد اجتمعت عند إستجة لتحاول رد الجيش الفاتح ، فالتقى الجيشان هناك ثانية ، وهزم القوط مرة أخرى ، ولم يبق إلا أن يستولى الفاتحون على المدن والقواعد الحصينة واحدة بعد الأخرى .

وكان يوليان وأصحابه إلى جانب المسلمين ، يُعاونهم بالنصح والإرشاد كما قدمنا ، ففي إستجة وضعت خطة السير ، وتقرر أن يسير طارق بنفسه إلى طليطلة عاصمة المملكة القوطية ؛ وأرسل طارق مغيثاً الرومي مولى الوليد بن

(١) يقدم لنا التاريخ الحديث مثلاً هديماً للفاتح الذي يحرق السفن التي عبر عليها جيشه لكي يقطع على جنده كل تفكير في الرجعة والارتداد ، هو مثل المكتشف الإسباني هرناندو كورتيث فاتح المكسيك . فقد أمر هذا الفاتح الشهير ، حينما أشرف على شواطئ المكسيك مستكشفاً فاتحاً في سنة ١٥١٩ م . بإحراق سفنه التي قدم عليها جيشه من اسبانيا . ومن الغريب أن يكون بطل هذا الحادث إسبانيا ، وهو ما يحملنا على الظن بأنه قد تأثر في عمله بالمثل الذي يقسب لطارق فاتح الأندلس .

عبد الملك إلى قرطبة في سبعمائة فارس ، فاقتحم أسوارها الحصينة واستولى عليها دون مشقة ، وأرسل حملات أخرى إلى غرناطة وإلبيرة ومالقة ، فافتتحت مالقة وفر سكانها إلى الجبال ، ثم لحق جيشها بالجيش المتجه إلى إلبيرة وغرناطة ، فحوصرت غرناطة قليلا وفتحت ، ثم فتحت إلبيرة . وكان اليهود يعاونون المسلمين في كل هذه الفتوح ، فكان المسلمون يضمون إليهم في كل مدينة من المدائن المفتوحة حامية صغيرة لحفظها . ثم سار المسلمون بعد ذلك شرقاً نحو ولاية مرسية ، وكانت تسمى يومئذ تيودمير (أوتدمير) باسم أميرها ، وقاعدتها مدينة أوريولة ؛ وكان تيودمير جندياً كبيراً ، وافر العزم والبأس ، فالتقى بالمسلمين ونشبت بينه وبينهم معارك شديدة هلك فيها معظم رجاله ، فارتد إلى أوريولة ، وامتنع بها ، وعرض النساء ، حسبما تقول الرواية ، على الأسوار في اثواب الرجال إيهاماً بكثرة جنده ، واستطاع بثباته وجلده ، أن يعقد الصلح مع المسلمين بشروط حسنة أنقذت بها مدينته من السبي والحزينة^(١) .

وسار طارق في بقية الجيش إلى طليطلة مخترباً هضاب الأندلس^(٢) وجبال

(١) ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) . والبيان المغرب (ج ٢ ص ١٣) . وسنورد فيما بعد نص

هذه المعاهدة .

(٢) يطلق المؤرخون والجغرافيون العرب كلمة « الأندلس » على شبه جزيرة إيبيريا المكونة من إسبانيا والبرتغال (ياقوت في معجم البلدان تحت كلمة لأندلس . والروض المطار ص ١) . وتطلق في الرواية العربية أيضاً على إسبانيا المسلمة ، التي كانت عقب الفتح تشمل كل إسبانيا ما عدا جالقية وولايات جبال البرنيه . ولكن « الأندلس » تطلق في العصور المتأخرة وفي الجغرافية الحديثة على ولايات الأندلس الواقعة في جنوبي إسبانيا بين نهر الوادي الكبير والبحر ، وبين ولاية مرسية وإشبيلية ؛ وما زالت « الأندلس » *Andalucia* تحتل في تقسيم إسبانيا الإداري الحاضر نفس هذه المنطقة . والرواية العربية تطلق هذه التسمية بصور مختلفة فعقول مثلاً إنها سميت أندلس باسم أول من سكنها من قديم الزمان وهم قوم من الأحاجم يقال لهم أندلوش (نفح الطيب ج ١ ص ٦٧) . ويقول ابن الأثير إن النصراني يسمون الأندلس لإشبانية باسم اشبانس أحد ملوكها ، وهذا هو اسمها عند بطليموس (ج ٤ ص ٢١٢) . ولكن ابن خلدون يقدم لنا تعليلاً أدق فيقول إنها سميت « الأندلس » باسم « قندلس » ولعلها قندلس ، ومن الواضح أنه يقصد القندال أي الوندال (ج ٢ ص ٢٣٥ في تاريخ القوط) . ويقدم لنا الفكرى خلاصة دقيقة لهذه المسميات الجغرافية التاريخية فيقول في وصفه لجزيرة الأندلس ، « إن اسمها في القديم إباريه *Iberia* من وادي إيريه ، ثم سميت بعد ذلك باطقة *Baetica* ، من وادي بطى وهو نهر قرطبة . ثم سميت لإشبانية من اسم رجل ملكها في القديم كان اسمه إشبان . وقيل سميت بالإشبان سكنوه في أول الزمان على جرية النهر وما والاها . وقال قوم إن اسمها هو في الحقيقة إشبانية *Hisperia* =

ميراً مورينا (جبل الشارات) التي تفصل بين الأندلس وقشتالة ، بإرشاد يوليان وأصحابه . وكان القوط قد فروا منها نحو الشمال بأموالهم وآثار قديسيهم . ولم يبق بها سوى اليهود وقليل من النصرارى ، فاستولى طارق عليها ، وأبقى على من بقى من سكانها ، وترك لأهلها عدة كنائس ، وترك لأخبارها حرية إقامة الشعائر الدينية ، وأباح للنصارى من القوط والرومان اتباع شرائعهم وتقاليدهم ، واختار لحكمها وإدارتها أوباس مطرانها السابق وأخا الملك وتيزا . وتابع طارق زحفه شمالاً ، فاخترق قشتالة ثم ليون فى وهاد ومفاوز صعبة ، وطارد فلول القوط حتى أسترقة ؛ فلجأت إلى قاصية جليقية واعتصمت بجبالها الشاخة . وعبر طارق جبال أستوريش (أستورياس)^(١) واستمر فى سيره حتى أشرف على ثغر خيخون الواقع على خليج بسكونية (غسقونية) فكان خاتمة زحفه ونهاية فتوحاته ، ورده عباب المحيط عن التقدم فعاد إلى طليطلة حيث تلقى أوامر موسى بوقف الفتح . وكان ذلك لعام فقط من عبوره إلى اسبانيا .

وقد اختلف المؤرخون فى تعليل البواعث التى حملت موسى على أن يصدر أوامره إلى طارق بوقف الفتح ؛ فقيل إن موسى لم يكن يتوقع كل هذا الفوز لقائده ومبعوثه ، فلما وقف على مبلغ فوزه وتقدمه ، تحول إعجابه به إلى حسد وغيرة ، وخشى أن ينسب ذلك الفتح العظيم إليه دونه ، فكتب إليه ألا يتقدم

من إشبرش وهو الكوكب المعروف بالأحمر . وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش من الذين سكنوها . والأندليش هم الوندال **Vandals** . (أبو عبيد البكرى فى جغرافية بلاد افريقية والمغرب طبعة دى سلان) . وهذا هو التعليل الذى يأخذ به دانفيل **Danville** إذ يقول إن الاشتقاق مأخوذ من كلمة فاندالوسيا **Vandalusia** أى بلد الوندال ، (نقله جييون عن كتاب مالك أوربا فى هامش الفصل الحادى والخمسين) . وهذا ما يقرره الفزيرى أيضاً فى معجم مخطوطات الإسكوريال

(Bibliotheca Arabico - Hispana Escorialensis II, p. 237)

(١) وهنا تذكر الرواية العربية أن طارقاً انتهى إلى مدينة المائدة خلف جبال أستوريه فاستولى على مائدة سليمان بن دا د ، وهى خضراء من زبرجد حافاتها منها وأرجلها ثلثائة وخمسة وستون . ويقال إن هذه المائدة عنهما الرومان من المشرق أو بيت المقدس فى بعض غزواتهم ثم نقلوها إلى رومة ، فنشئها القوط حين افتتحوا رومة ، ثم أحرزها العرب عند فتح اسبانيا . وذكر ابن الأثير أن أحد ملوك اسبانيا فى عهد الوندال غزا بيت المقدس وأحرز المائدة (ج ٤ ص ٢١٢) . وذكر صاحب الروض المططار ، كما ذكر بعض مؤرخى الإفرنج ، أن هذه المائدة هى من فنانس ملوك القوط ، وأن العرب عثروا بها فى كنيسة طليطلة وهو أقرب إلى المعقول . (الروض المططار ص ٥) .

حتى يلحق به ، ويتوعده بالعقاب إذ توغل بعد بغير إذنه^(١) . ولكن البعض يعلل غضب موسى على طارق ولحاقه به ، بأن طارقاً خالف الأوامر الصادرة إليه بألا يجاوز قرطبة أو حيث تقع هزيمة القوط^(٢) . وهذا تعليل حسن يتفق وما أثر عن موسى من الحيطة والحذر ، فقد ينكب المسلمون إذا توغلوا في أراض وممالك مجهولة . على أن ذلك لا يمنع من أن يكون للغيرة أثرها أيضاً في نفس موسى وفي تصرفه . وعلى أي حال فقد عبر موسى البحر إلى اسبانيا في عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر ، في سفن صنعها خصيصاً لذلك ، بحفزه شغف الفتح بالرغم من شيخوخته ، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان ، وذلك في رمضان سنة ثلاث وتسعين (يونيه سنة ٧١٢ م) . وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شذونة^(٣) ، ثم سار إلى قرمونة وهي يومئذ من أمنع معاقل الأندلس ، فاستولى عليها بمعاونة يوليان وأصحابه . وقصد بعدئذ إلى إشبيلية أعظم قواعد الأندلس . فافتتحها بعد أن حاصرها شهراً . ثم سار إلى ماردة وحاصرها مدة ، وقتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين في كمين دره النصرى . وانتهت بالتسليم في رمضان أو شوال سنة أربع وتسعين ، على أن تكون أموال الغائبين والكنائس ، غنيمة للمسلمين دية لمن قتل منهم . وقصد موسى بعدئذ إلى طليطلة فالتقى بطارق على مقربة منها وكان قد سار إلى استقباله . فأنبه وبالف في إهانته ، وزجه مصفداً إلى ظلام السجن بتهمة الخروج والعصيان ، وقيل بل هم بقتله أيضاً^(٤) . ولكنه ما لبث أن عفا عنه وردّه إلى منصبه^(٥) .

(١) هذه هي رواية ابن عبد الحكم (ص ٢٠٧) ، وصاحب أخبار مجموعة (ص ١٥) ، وابن القوطية (ص ٩) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٧) ، وابن حيان مؤرخ الأندلس (نفع الطيب ج ١ ص ١٢٦) ، وبغية الملتبس للضبى (ص ١١) ، والحميدى في جذوة المقتبس (طبع مصر) ص ٥ .

(٢) البيان المغرب (ج ٢ ص ١٥ و ١٨) .

(٣) Medina Sedonia ، ويسمى ابن الأثير مدينة السليم (ج ٤ ص ٢١٥) . ولكن شدونة أو شذونة تسمية أكثر ذيوماً .

(٤) ابن عبد الحكم (ص ٢٠٨) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) ، والمقرئ في نفع الطيب (ج ١ ص ١٢٧) ، والحميدى في جذوة المقتبس (ص ٦) .

(٥) ينفرد ابن عبد الحكم برواية عن إطلاق سراح طارق ، هي أن طارقاً استجار بمنفى الروم وكان عائداً من الأندلس إلى المشرق ، ووعدّه بمائة عبد إذا هو أبغ أمره إلى الوليد بن عبد الملك ، فقام منيف بالرسالة وبأذر الوليد بالكتابة إلى موسى أن يطلق سراح طارق ويتوعده إذا أساء إليه . =

ووضع الإثنان خطة لافتح ما بقي من إسبانيا . ثم زحفا نحو الشمال الشرقى واخترقا ولاية أراجون (الثغر الأعلى) وافتتحا سرقسطة وطركونة وبرشلونة وغيرها من المدائن والمعاقل . ثم افترقا الفاتحان ، فسار طارق نحو الغرب ليغزو جليقية ، وليتم القضاء على فلول القوط . وسار موسى شمالا فاخترق جبال البرنيه (جبال البرت أو البرتات أو الممرات)^(١) ، وغزا ولاية لانجدوك أو سبمانيا التي كانت تابعة إذ ذاك للملك القوط ، واستولى على قرقشونة (كاركاسون) وأربونة (ناربون) . ثم نفذ إلى مملكة الفرنج وغزا وادي الرون (رذونة) حتى مدينة لوطون أولودون (ليون) ، فاضطرب أمراء الفرنج وأخذوا في الأهبة لرد الغزاة ؛ ويقال إن المعارك الأولى بين العرب والفرنج وقعت في تلك السهول على مقربة من أربونة^(٢) .

وهنا فكر القائد الحريء في أن يخترق بجيشه جميع أوروبا غازياً فاتحاً ، وأن يصل إلى الشام من طريق قسطنطينية ، وأن يفتح في طريقه أمم النصرانية والفرنجة كلها . وهو ما يجمله ابن خلدون في تلك العبارة القوية : « وجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية ، ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس ، ويخوض ما بينها من بلاد الأعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم ، مستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة »^(٣) . وكان موسى يقدر تنفيذ مشروعه العظيم بجيش ضخم يقتحم البرنيه ، يؤيده من البحر أسطول قوى ، فيبدأ بافتتاح مملكة الفرنج ثم يقصد إلى مملكة اللومبارد^(٤) في شمالي إيطاليا ، فيخترقها فاتحاً إلى رومة قاعدة النصرانية ، فيفتتحها ويقضى فيها على كرسي النصرانية . ويتابع سيره بعدئذ شرقاً إلى سهول الدانوب ،

= وحل منيت هذا الكتاب إلى الأندلس ، فأفرج موسى عن طارق ورده إلى منصبه (ص ٢١٠) . وذكر الطبري أن طارقاً تبرأ موسى فرضى عنه وقبل منه عذره (ج ٨ ص ٩٠) .

(١) البرت أو البرتات محرفة عن الاسبانية **Puerta** ، ومعناها الباب . وسميت الجبال بهذا الاسم لأنها تحتوي على خمسة أبواب أو ممرات طويلة كانت تستعمل للعبور والغزو . وسنعود إلى تفصيل ذلك . أما تسميتها بجبال البرانس فهو خطأ جغرافياً حسبما نوضح بعد .

(٢) ابن حيان مؤرخ الأندلس (نقله المقرئ في ففتح الطيب ج ١ ص ١٢٨) ، والبيان المغرب (ج ٢ ص ١٤) . ومعظم الروايات على أن موسى وقف في زحفه عند أربونة .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٧ ، ونفتح الطيب ج ١ ص ١٣٠ .

(٤) في الجغرافية العربية بلاد البربر أو أنكبردية .

مشخناً في القبائل الجرمانية التي تسيطر على ضفافه ، ثم يحترق أراضي الدولة البيزنطية حتى قسطنطينية فيستولى عليها ، ثم يعبر إلى آسيا الصغرى قاصداً إلى دمشق فيصل بذلك أملاك الخلافة الإسلامية فيما بين المشرق والمغرب من طريق الشمال ، كما اتصلت من طريق الجنوب^(١) .

ولم يك ثمة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم ؛ فقد كان الإسلام يومئذ في ذروة الفتوة والقوة والبأس ، وكانت جيوشه تفتحم أرجاء العالم القديم ظافرة أينما حلت . وكانت أمم الغرب من جهة أخرى يسودها الضعف والانحلال ، وكانت مملكة الفرنج وهي أضخمها وأقواها يمزقها الخلاف والتفرق ، وقد بدأ العرب غزوها بالفعل . ولم تستطع النصرانية أن توحد جهودها لرد الإسلام ، ولم تقم فيها زعامة قوية تجمع كلمتها وتنظم قواها في جبهة دفاعية موحدة . ولم تكن أوروبا في ذلك الحين سوى مزيج مضطرب من الأمم والقبائل المتنافرة ، تمزقها المطامع والأهواء المختلفة . فكان الإسلام يستطيع غزوها وفتحها . ولم يكن حلماً وإغراقاً ما تصوره موسى بن نصير واعزمه . ولكن سياسة الإحجام والتردد التي اتبعها بلاط دمشق نحو الفتوح الغربية ، والتي كادت تحول دون فتح اسبانيا ، أودت بذلك المشروع البديع ، وكتب الوليد بن عبد الملك إلى موسى يحذره من التوغل بالمسلمين في دروب مجهولة ، ويأمره بالعود ، فارتد موسى مرغماً آسفاً ؛ ولكنه تمهل في العود حتى يتم إخضاع معاقل جليقية التي اعتصمت بها فلول القوط ، ويظهر اسبانيا بأسرها من كل خروج ومقاومة ، فاحترق جليقية واستولى على معظم معاقلها ، ومزق كل قوة تصدت لمقاومته ، ولم يبق من النصارى سوى شراذم يسيرة اجتمعت حول زعيم يدعى بلاجيوس أو بلايو ، ولجأت إلى قاصية جليقية ؛ وبينما كان موسى يتأهب للحاق بها وسحقها ، إذ وصله كتاب آخر من دمشق يستدعيه وطارقاً ، ويأمرهما بتعجيل العود : ولعل أقوى البواعث التي حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما نمي إليه من خلاف موسى وطارق ، وخوفه أن ينتهي هذا الخلاف ، بتفرق كلمة المسلمين ونكبتهم في تلك الأقطار

(١) Cardonne : *ibid.* V.f.p. 96—97 . ويقول الفيلسوف جيون تعليقاً على هذا المشروع إنه تمكن مقارنته بخطة ثراديتيس ليفتح ما بين القرم ورومة ، أو خطة قيصر ليفتح المشرق ثم يعود من طريق الشمال . ويفوق هذه المشاريع جميعاً مشروع هانيبال الذي نفذ بنجاح عظيم (الفصل الحادي والخمسون) .

الحديدة المجهولة التي افتتحوها^(١) . أو لعله خوف الوليد أن يفكر موسى بما عرف من طمعه ودهائه ، في الاستقلال بذلك الملك الحديد النائي ، وهو أفضل تعليل يقبله النقد الحديث ويرجحه . وربما كان من هذه البواعث أيضاً ما بلغ الوليد عن وفرة الأموال والتحف التي اغتنمت من الأندلس ، وخوفه أن تمتد إليها يد التبيد . ومهما كانت العوامل التي دفعت الوليد إلى استدعاء فاتحي الأندلس ، فلا ريب أنه كان خطراً على مستقبل الإسلام في اسبانيا . ذلك أن هذه الشرازم النصرانية الصغيرة التي نجت من المطاردة واعتصمت بصخور جليقية ، لم تلبث أن نمت وقويت ، وكانت منشأ المملكة النصرانية التي قامت في الشمال ، ولبثت قروناً تكافح دولة الإسلام في اسبانيا حتى انتهت بالقضاء عليها .

وفي ذلك الحين كان عبد العزيز بن موسى قد افتتح منطقة الساحل الواقعة بين مالقة وبلنسية ، وأخذ الثورة في إشبيلية وباجة ، وافتتح لبله وغيرها من المعاقل والحصون ، وأبدى في معاملة البلاد المفتوحة كثيراً من الرفق والتسامح ، والاعتدال في تطبيق الأحكام وفرض الضرائب . ولنا في معاهدته مع تيودمير خير شاهد باعتدال السياسة الإسلامية ولينها وتسامحها . وإليك نص هذه المعاهدة ، حسبما نقله إلينا الغزيري في معجمه ، نورده نموذجاً للوثائق السياسية الإسلامية في عصر الفتح :

« نسخة كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى لتدмир عبدوش - بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد العزيز إلى تدмир ، أنه نزل على الصلح ، وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه ، ولا أحد من النصاري عن أملاكه . وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ، أولادهم ولا نسائهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحرق كنائسهم ما تعبد ونصح ، وأن الذي اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن ، أوريوالة وبلتلة ولقنت ومولة وبقسرة وأنه ولورقة . وأنه لا يأوى لنا عدواً ، ولا يخون لنا أمناً ولا يكتم خبراً علمه . وأنه عليه وعلى أصحابه ديناراً

(١) لم توضح الرواية الإسلامية أسباب هذا الاستدعاء . ولكن الغزيري نقل في معجمه عن بعض أوراق مخطوطة في الإسكوريال في سبب الاستدعاء هذه الفقرة : « ولما علم الوليد بن عبد الملك ما حدث لطارق بن زياد وموسى بن نصير من الخلاف بعث فيهما فانصرفا إلى المشرق » . ويعتقد الغزيري أن الأوراق التي عثر بها ونقل منها هذه الفقرة إنما هي من تاريخ الرازي لقرائن ذكرها .

كل سنة ، وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط طلا ، وأربعة أقساط خل ، وقسطى عسل ، وقسطى زيت ، وعلى العبد نصف ذلك . كتب في أربع من رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة . شهد على ذلك .. الخ ^(١) . واتخذ موسى بن نصير أهبته للعود إلى دمشق نزولا على أوامر الخليفة . فنظم حكومة الأندلس قبل رحيله ما استطاع ، وجعل حاضرتها لإشبيلية ^(٢) لاتصالها بالبحر وكانت حاضرتها أيام الرومان ، واختار لولايتها ولده عبد العزيز ، واستخلف على المغرب الأقصى ولده عبد الملك ، كما استخلف على إفريقية عبد الله أكبر أولاده . وفي شهر ذى الحجة سنة خمس وتسعين (أغسطس ٧١٥ م) قفل راجعاً إلى المشرق وطارق معه ، وفي ركبته من نفيس التحف والغنائم ما لا يقدر ولا يوصف ، ومن أشرف السبي عدد عظيم ^(٣) .

(١) نقل الغزيرى هذا النص في معجمه عن بعض مخطوطات الإسكوريال ، وقرنه بترجمة لاتينية (Casiri : ibld. V II. p. 105)

هذا وقد أورد لنا العزرى نصاً آخر لهذا الأمان في كتابه « ترصيع الأخبار وتنويع الآثار » ؛ على نفس المدن السبعة ، جاءت شروطه على النحو الآتي : « ألا يقدم ولا يؤخر لأحد من أصحابه بسوء ، وأن لا يسبون ، ولا يفرق بينهم وبين نساءهم وأولادهم ، ولا يقتلون ولا تحرق كنائسهم ، ولا يكرهون على دينهم ؛ وأنه لا يدع حفظ العهد ، ولا يحمل ما انعقد ، ويصحح الذ . فرضناه عليه ، وألزمناه أمره ، ولا يكتمنا خبراً علمه ، وأن عليه وعلى أصحابه غرم الجزية من ذلك على كل حر دينار .. الخ » ثم يلي ذلك شهود هذا الأمان (راجع « نصوص عن الأندلس » وهي عبارة عن أوراق منقولة من كتاب « ترصيع الأخبار » ومنشورة بعناية الدكتور عبد العزيز الأهواني ، وصادرة عن معهد الدراسات الإسلامية بمطبعة - ص ٤ و ٥) .

(٢) اقتبس العرب اسم « إشبيلية » من اسمها اللاتيني « Hispalis » ، ثم حرف الإسبان هذا الاسم إلى « سبيليا » Sevilla ، وهو الذي يطلق عليها في الجغرافية الحديثة .

(٣) تفيض الرواية الإسلامية في وصف ما أصابه المسلمون في الأندلس من الغنائم الجليلة والسبي الذي لا يحصى . وتقول إن موسى بن نصير حمل إلى دمشق من التحف والذخائر من الذهب والدر والياقوت والزبرجد ما لا يقدر ؛ منها مائدة سليمان السالفة الذكر ؛ وأما السبايا فيقال إنه حمل منها ثلاثين ألفاً ، بينهم مئات من أشرف القوط واليه صفاء المختارين ، من ذو الشباب النض والجبال الباهر ذكوراً وإناثاً . وذكر ابن القوطية أن موسى بن نصير عاد ومعه من أبناء الملوك والعجم أربعمائة ، على رؤسهم تيجان الذهب وفي أوساطهم مناطق الذهب (ص ١٠) . ونقل المقرئ عن بعض المؤرخين أن العرب وجدوا في طليطلة حين فتحوها من الذخائر والأموال ما لا يحصى ، فن ذلك مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الكريمة ، ووجد فيها ألف سيف ملوكي ، ومن الدر والياقوت أكيال ، ومن أواني الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف (نفع الطيب ج ١ ص ١٣٥ و ١٣٦) .

وقد اختلفت الرواية العربية في مصير موسى بن نصير ، واختلفت الرواة في أمر لقاءه بالخليفة ؛ فقليل إنه وصل إلى دمشق قبل وفاة الوليد بن عبد الملك ، وقدم إليه الأخماس والغنائم ، فأكرمه وأحسن إجازته ، وقيل بل وصل عقب وفاة الوليد وارتقاء سليمان بن عبد الملك أخيه عرش الخلافة ، وأن سليمان غضب عليه ونكبه^(١) . على أنه يمكن التوفيق بين القولين أعني وفود موسى على الوليد ابن عبد الملك ثم نكبه على يد سليمان . وهناك ما يرجح لدينا أنه لحق بالوليد قبيل وفاته ، فإن ابن عبد الحكم وهو أقدم رواة فتوح الأندلس ، يقول لنا إن موسى بن نصير مر بمدينة القسطنطينية في أواخر شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين في طريقة إلى دمشق^(٢) . وقد توفي الوليد في منتصف جمادى الآخرة من هذا العام أعني بعد وصول موسى إلى مصر بأكثر من شهرين ونصف . ولما كانت مسافة السفر بين القسطنطينية ودمشق لا تتجاوز في هذا العصر بضعة أسابيع ، فإن الوقت كان يكفي لمقدم موسى على الوليد قبل وفاته بأسابيع . على أن الرواية من جهة أخرى تكاد تجمع على أن سليمان سخط على فاتح الأندلس ونكبه . ذلك أن موسى وصل إلى الشام والوليد في مرض موته ، فكتب إليه سليمان ولي العهد أن يتمهل في السير ، رجاء أن يموت الوليد بسرعة ، فيقدم عليه في صدر خلافته بما يحمل من التحف والغنائم الكثيرة ، فأبى موسى وجد في السير حتى قدم والوليد حي فسلم إليه الأخماس والغنائم . ثم توفي الوليد بعد ذلك بقليل مستخلفاً أخاه سليمان على كرمى الخلافة . فغضب سليمان على موسى ، وزاد في حقه عليه ، ما قدمه في حقه طارق ومغيث من مختلف التهم^(٣) . وفي الحال أمر ، بعزله واتهمه وبنيه باختلاس مقادير عظيمة من المال والتحف ، وقضى عليه بردها ، وبالغ في إهائته وتعذيبه ، ثم ألقاه إلى ظلام السجن . واستجار موسى بصديقه يزيد بن المهلب من نعمة سليمان ، وكان من أخصائه وذوى النفوذ عنده ، فيروى أن يزيداً

(١) يقول بالرواية الأولى ابن عبد الحكم (فتوح مصر ص ٢١١) ، وصاحب كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٩٣ و ٩٤) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ١٨١) . ويقول بالرواية الثانية ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٦) ، والحميدى في جنوة المقتبس (ص ٦) ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٨) .

(٢) فتوح مصر ص ٢١١ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٢٩ .

قال له : « لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس وأعرفهم بمكائدهم الحروب ومداواة الدنيا . فقل لي كيف حصلت في يد هذا الرجل بعد ما ملكت الأندلس ، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار ، وتيقنت بعد المرام واستصعابه ، واستخلفت بلاداً أنت اخترعتها ، وحصل في يدك من الدخائر والأموال والمعاقل ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنك في يد من لا رحمك . ثم إنك علمت أن سليمان ولي عهد وأنه الولي بعد أخيه . وقد أشرف على الهلاك لاحتماله ، وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التهلكة ، وأحققت مالكك ومملوكك » . وما زال يزيد بسليمان حتى عفا عن موسى ، وأعفاه من الغرامة الفادحة التي قضى بها عليه ، ويقال بل عفا عن حياته ، ولم يعفه من الغرامة ، وإن موسى استطاع أن يفتدى نفسه ببعض ما فرض عليه ، وإن سليمان عفا عنه بعد ذلك^(١) ، وأقر ابنه عبد الله على إفريقية وابنه عبد العزيز على الأندلس . وتبالغ بعض الروايات فتقول إن سليمان أصر على معاقبة موسى وتغريمه . حتى كان يطوف أحياء العرب مع حراسه ليسأل بعض المال ليفتدى نفسه ، وإنه لبث على تلك الحال حتى توفي في منتهى البؤس والذلة بوادي القرى في شمال الحجاز حيث ينسب مولده ، وذلك سنة سبع وتسعين^(٢) .

بيد أنه لا يوجد ما يبرر الأخذ بمثل هذه الرواية المغرقة . والصحيح المعول عليه أن سليمان عفا عن موسى ، وأقاله من محنته ، وتوفي موسى بعد ذلك بقليل في سنة سبع وتسعين (وقيل في سنة تسع وتسعين) وهو في طريقه إلى الحج مع سليمان ، وقد جاوز الثمانين من عمره .

(١) هذه هي رواية ابن عبد الحكم (فتوح مصر ص ٢١٣) . وهي رواية يؤيدها البلاذري (فتوح البلدان ص ٢٣٠) .

(٢) يراجع في مصير موسى بن نصير : فتوح مصر (ص ٢١١) ، وأخبار مجموعة (ص ٢٩ و ٣٠) ، وابن القوطية (ص ١٠-١١) ، وابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٦) ، والمقرئ عن ابن حبان وابن يشكوال والحجاري ، (نفع الطيب ج ١ ص ١٣٤ و ١٣٥) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ١٨١) ، وكذلك كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٣ و ٩٦) . هذا ويبدى المستشرق دوزي ريبه في صحة الروايات والقصص التي قبلت عن مصير موسى بن نصير ، ويقول إنه لا يوجد ثمة ما يبررها ، لأن موسى كان يتمتع بحماية يزيد بن المهلب صديق سليمان وصاحب النفوذ لديه ، ويستشهد برواية البلاذري التي أشرنا إليها ، وأيضاً برواية مؤرخ نصراني معاصر هـ إيزيدور الباجي (Dozy, Hist, V. I. p. 134—135)

هذا ما تردده الرواية الإسلامية عن مصير موسى بن نصير . ومهما كان من الأمر ، فإن فاتح الأندلس لم يلق الجزاء الحق ، بل غمط حقه وفضله أشنع غمط ، وأبدت الخلافة بهذا الجحود والنكران ، أنها لم تقدر البطولة في هذا الوطن قدرها ، ولم تقدر عظمة الفتح الباهر الذي غنمته على يد رجلها وقائدها . وكان موسى بن نصير من أعظم رجال الحرب والإدارة المسلمين في القرن الأول للهجرة . وقد ظهرت براعته الإدارية في جميع المناصب التي تقلدها ، كما ظهرت براعته الحربية في جميع الحملات البرية والبحرية التي قادها . على أن هذه المواهب تبدو بنوع خاص في حكمه لإفريقية ، حيث كانت الحكومة الإسلامية تواجه شعباً شديداً المراس ، يضطرم بعوامل الانتقاص والفتنة ، وإذا كان موسى قد أبدى في معالجة الموقف وإخماد الفتنة كثيراً من الحزم والشدة ، فقد أبدى في الوقت نفسه خبرة فائقة بنفسية الشعوب ، وبراعة في سياستها وقيادتها . وكان موسى فوق مواهبه الإدارية والعسكرية ، غزير العلم والأدب ، متمكناً من الحديث والفقه ، عالماً بالقلك ، مجيداً للنثر والنظم . غير أن هذه المواهب والحلال البديعة كانت تشوبها نزعة قوية إلى الطغيان والبطش ، وشهوة الحقد والحسد^(١) .

ولمى موسى بن نصير يرجع الفضل الأول في عبور الإسلام إلى أوروبا من الغرب وقيام دولته فيها ، بعد أن اخفقت محاولته في العبور إليها من المشرق عن طريق قسطنطينية . ومع أن سيل الفتح الإسلامي رد غير بعيد في سهول بلاط الشهداء ، فإن الإسلام استطاع مع ذلك أن يستقر في إسبانيا قروناً ، يهر بضوء مدينته الزاهرة جميع الأمم الأوروبية في العصور الوسطى .

* * *

هذا ما كان من شأن موسى ومصيره ، فإذا كان مصير طارق ؟ هذا ما تمر عليه الرواية الإسلامية بالصمت . وكل ما هنالك أنها تشير إلى ما كان من نية سليمان بن عبد الملك في تعيينه والياً للأندلس مكان موسى ، وكيف عدل عن ذلك حينما وقف من مغيب الرومي فاتح قرطبة ، على ما كان يتمتع به طارق في الأندلس من عظيم الهيبة والنفوذ ، وذلك توجساً مما قد يجيش به من أطماع ومشاريع نحو ذلك

(١) نفع الطيب (ج ١ ص ١٣٣ و ١٣٤) .

القطر النائي من أقطار الخلافة^(١) : وقد كان مغيث يحقد على موسى وطارق منذ الفتح ويسعى إلى منافستهما والإيقاع بهما ، وكان لوقيعته ومساغيه ضدهما أكبر الأثر في استدعائهما إلى دمشق . وإذا كانت هذه الرواية لا تاقى ضوءاً كافياً على مصير طارق ، فإنها قد تسمح لنا مع ذلك أن نعتقد أن طارقاً لم يلق مثل المصير الحزن الذي لقيه موسى ، وأنه بالعكس قد استقبل في بلاط دمشق استقبالا حسناً ، وربما أحسن الخليفة فوق ذلك إثابته ، بدليل أنه فكر في تعيينه والياً للقطر الذي ساهم في افتتاحه بأعظم قسط .

ولكن الرواية الإسلامية لا تحدثنا بعد ذلك عن طارق بشيء ، ولا تذكر لنا أين ومتى توفي ، بل تسدل على نهايته حجاباً عميقاً من الصمت^(٢) .

وليس في وسعنا إزاء هذا الغموض الذي يحيط بسيرة طارق أن نتحدث عن صفاته وخلاله ، وكل ما نستطيعه في هذا الموطن هو أن ننوه بخلاله العسكرية الباهرة ، التي ظهرت بوضوح في حروب المغرب وفتح الأندلس ، وهو بهذه الحلال يتبوأ مكانته بين أعظم الفاتحين المسلمين .

أما مصير الكونت يوليان الذي مهد لفتح الأندلس ، فلم تشر إليه الرواية الإسلامية . وفي بعض الروايات أنه عاد بعد الفتح إلى سبتة وأقطع ما حولها من الأراضي ، وقلد إمارتها جزءاً خداماته . ولكنه بقي نصرانياً هو وبنوه الأقربون ، ثم دخل عقبه في الإسلام بعد ذلك . وتقول الرواية الكنسية الإسبانية إنه قتل بيد مواطنيه في معركة نشبت بينه وبينهم ، أو أنه قتل بعد ذلك بأعوام في ولاية الحر الثقيبيد العرب لرية في ولايته . وتقول هذه الرواية أيضاً إن العرب أعدموا ابني وتيزا وأفراد أسرته لمثل هذا السبب^(٣) . وهذا ما تنفيه الرواية الإسلامية وتؤكد عكسه . فالمصادر الإسلامية تجمع كلها على أن العرب أحسنوا معاملة إيضا (أو إيبا) وسيزبوت ابني وتيزا وعمهما أوباس ؛ فأما أوباس فقد عين كما تقدم مطراناً لطليطلة ، وأقطع إيضا وسيزبوت ما كان لأبيهما من الضياع .

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٥ .

(٢) ولا نعرف مصدراً لما يقوله السيد أمير على من أن طارقاً لقي نفس المصير التمس الذي

قبل إن موسى لقيه وأنه مات في فقر وضعة : History of the Saracens p. 122

(٣) Crónica General ; Vol. II. p. 324. Cardonne : ibid.. V. I. p. 85 —

Gibbon, ibid. Ch. LI — Scott : Moorish Empire, V. I. p. 259

ثم توفي إيشا أكبر الأخوين بعد ذلك بأعوام عن ابنة تدعى سارة وولدين صغيرين ، فاغتصب سيزبوت ميراثه وضياعه ، فبادرت سارة بالسفر مع أخويها إلى دمشق ، وشكت عمها إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فأنصفها وقضى لها برد ميراث أبيها ، وبعث بذلك إلى والى الأندلس أبي الخطار الكلبي . وتزوجت سارة في دمشق من سيد عربي يدعى عيسى بن مزاحم ، ورزقت منه بولدين هما إبراهيم وإسحاق . ثم عادت مع زوجها إلى الأندلس ، وأحرز ولداها مكانة ممتازة . وإليها ينتمى نسب ابن القوطية القرطبي المؤرخ ، نسبة إلى لقبها العربي وهو سارة « القوطية » (١) .

(١) تضطرب معظم الروايات العربية في ذكر أبناء وتيزا ، فتقول إنه ترك ثلاثة بنين وتسميهم المنذ ورملة وارطباس . والظاهر أن الخطأ في اعتبارها أوباس (ولعله هو أرتباس) ابنا لوتيزا . والمنذ هو إيشا ورملة هو سيزبوت . (راجع فتح الأندلس لابن القوطية ص ٥ و ٦) . والمقرى (ج ١ ص ١٢٥) ، ولكن صاحب « أخبار مجموعة » يقرر أنهما اثنان . ويسميها ششرت وأبة ، وهو تعريب حسن للاسمين (ص ٨) ، وكذا ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٣) .

الفصل الرابع

إسبانيا بعد الفتح الإسلامي

(١) آثار الفتح الإسلامي . سياسة العدل والتسامح . أذوال النقد الغربي الحديث في ذلك . الحرية الدينية . المجتمع الإسلامي الجديد . عناصر الضعف فيه . العرب والبربر والمولدون . الخصومة بين اليمنية والمضرية . أسباب هذه الخصومة . رأى ابن خلدون في تعميلها . الخصومة بين العرب والبربر . أثر دعوة الخوارج في إذكائها . (٢) الأقاليم الأندلسية الجديدة . تفرق القبائل في المدن المختلفة . منازل البربر في شبه الجزيرة . ولاية عبد العزيز بن موسى . تنظيمه للحكومة الجديدة . زواجه بأرملة رديك . التوجس من سياسته . مقتله . بواث هذه الجريمة . ولاية أيوب ابن حبيب اللخمي . نقل قاعدة الحكم إلى قرطبة . ولاية الحر الثقي . قمعه للمنازعات والفتن . غزوه لاسبانيا وافتتاحه لقواعدها . محاربه لثوار الشمال . الإضطراب في قرطبة . ولاية السمع بن مالك . فصل حكومة الأندلس عن إفريقية . فكرة عمر بن عبد العزيز في جلاء المسلمين عن الأندلس . إصلاحات السمع ومنشأته . غزوه لاسبانيا . زحفه على تولوثة .

- ١ -

كان فتح الإسلام لاسبانيا فاتحة عصر جديد ، وبدأ تطور عظيم في حياتها العامة وفي نظمها الاجتماعية . وقد كانت لعهد الفتح كما رأينا ترزح في غمر مرهقة من الجور والعسف ، وكانت أقلية باغية من الأمراء والنبلاء تسود شعباً بأسره وتستغله أشنع استغلال ، وتفرض عليه رسوم الرق والعبودية ، وتستبيح منه كل الحريات والحرم . فجاء الإسلام ليقضي على ذلك كله ، وليحمل نعم العدل والحرية والمساواة إلى الناس جميعاً ، وليعطى كل ذي حق حقه ، وليقمع البغي والظلم . وبالرغم من أن العرب شغلوا حيناً بتوطيد الفتح الجديد وتوسيعه ، فإنهم استطاعوا في أعوام قلائل أن يقيموا عناصر الشرو والفضى ، وأن ينظموا إدارة البلاد المفتوحة ، وأن يبنوا في الجزيرة روحاً جديداً من العزم والأمل ، فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة بعد ركودها ، وهبت ريح من الرخاء والدعة ، على مجتمع أضناه العسف والفاقة مدى عصور .

قضى الفتح على سلطان الطبقات الممتازة ، فتنفس الشعب الصعداء ، وخف عن كاهله ما كان ينوء به من الأعباء والمغارم . وفرض المسلمون الضرائب

بالمساواة والاعتدال والعدل ، بعد أن كان يفرضها حكم الهوى والجشع ، وأمن الناس على حياتهم وحررياتهم وأموالهم . وترك الفاتحون لرعاياهم الجدد حق اتباع قوانينهم وتقاليدهم ، والخضوع لقضائهم وقضائهم ، واختاروا في معظم الأحوال لهم حكاماً من أبناء جنسهم ، يعهد إليهم بسن الضرائب المطلوبة ، والإشراف على النظام والسكينة . أما في شأن الدين وحرية العقائد والضماير ، فقد كانت السياسة الإسلامية مثلاً أعلى للتسامح . فلم يظلم أحد أو يرهق بسبب الدين أو الاعتقاد ، وكان أداء الجزية هو كل ما يفرض على الذميين من النصارى أو اليهود ، لقاء الاحتفاظ بدينهم وحرية عقائدهم وشعائرهم ، ومن دخل الإسلام منهم سقطت عنه الجزية ، وأصبح كالمسلم سواء بسواء في جميع الحقوق والواجبات . ونرى في هذا الموطن أن نقدم طائفة من الأقوال والآراء التي يعلق بها المؤرخون والنقادة الغربيون ، على سياسة الفتح الإسلامي وآثاره في إسبانيا . يقول العلامة المستشرق رينهارت دوزي :

« لم تكن حال النصارى في ظل الحكم الإسلامي مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانت عليه من قبل . أضف إلى ذلك أن العرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح . فلم يرهقوا أحداً في شئون الدين . ولم تكن الحكومة — إذا لم تكن مفرقة في الدين — لتشجع إسلام النصارى ، إذ كانت خزانة الدولة تخسر بإسلامهم كثيراً . ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل ، بل حمدوا للفاحين تسامحهم وعدهم ، وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنجة ، وانقضى القرن الثامن كله في سكينته ، وقلماً نشبت فيه ثورة . كذلك لم يبد رجال الدين في العصور الأولى كثيراً من التذمر ، وإن كانت لديهم أكثر البواعث لذلك . وهذا ما تؤيده روح الرواية اللاتينية التي كتبت سنة ٧٥٤ في قرطبة ، والتي تنسب لإيزيدور الباجي ، فإن كاتبها رغم كونه من رجال الدين ، يبدى نحو المسلمين من العطف ، ما لم يبداه أي كاتب إسباني آخر قبل القرن الرابع عشر » . ويقول دوزي عن آثار الفتح الاجتماعية : « كان الفتح العربي من بعض الوجوه نعمة لإسبانيا . فقد أحدث فيها ثورة إجتماعية هامة ، وقضى على كثير من الأدواء التي كانت تعانيها البلاد منذ قرون .. وحطمت سلطة الأشراف والطبقات الممتازة أو كادت تمحى ، ووزعت الأراضي توزيعاً كبيراً ، فكان ذلك حسنة سابعة ، وعاملاً في ازدهار الزراعة إبان الحكم العربي . ثم كان الفتح عاملاً في تحسين أحوال الطبقات المستعبدة ،

إذ كان الإسلام أكثر تعصيداً لتحرير الرقيق من النصرانية ، كما فهمها أحبار المملكة القوطية . وكذا حسنت أحوال أرقاء الضياع ، إذ غدوا من الزراع تقريباً ، وتمتعوا بشيء من الاستقلال والحرية » (١) .

ويقول الأستاذ لاين بول : « أنشأ العرب حكومة قرطبة التي كانت أعجوبة العصور الوسطى ، بينما كانت أوروبا تتخبط في ظلمات الجهل ، فلم يكن سوى المسلمين من أقام بها منائر العلم والمدنية » .

« ما كان المسلمون كالبرابرة من القوط أو الوندال ، يتركون وراءهم الخراب والموت . حاشا ، فإن الأندلس لم تشهد قط أعدل وأصلح من حكمهم . ومن الصعب أن نقول أنى اكتسب العرب تلك الخبرة الفائقة بالشئون الإدارية ، فقد خرجوا من الصحراء إلى الغزو ، ولم يفسح لهم تيار الفتح مجالا يدرسون فيه إدارة الأمم المفتوحة » (٢) .

ويقول المستشرق الإسباني جاينجوس : « لقد سطعت في أسبانيا (الأندلس) أول أشعة لهذه المدنية ، التي نثرت ضوءها فيما بعد على جميع الأمم النصرانية . وفي مدارس قرطبة وطليلة العربية ، جمعت الخدوات الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن أشرفت على الانطفاء ، وحفظت بعناية . وإلى حكمة العرب ، وذكاؤهم ، ونشاطهم ، يرجع الفضل في كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها » (٣) .

وقال المؤرخ الأمريكي سكوت : « في أقل من أربعة عشر شهراً ، قضى

(١) Dozy : Histoire, V, II, p. 277—278 . ويذكر دوز من جهة آخر أن الفتح أعقبته فترة من الفوضى نهب فيها المسلمون عدة أماكن ، وأحرقوا عدة مدن وشققوا بعض الأشراف ، وقتلوا الأطفال بالخناجر ، ولكن الحكومة العربية قمت في الحال هذه الفظائع (ج ٢ ص ٢٧٥) . ويندد من جهة أخرى بقضاء العرب على حرية الكنيسة ، واستئثارهم بتكوين المجالس الدينية ، وتعيين الأساقفة وعزلهم . ثم يقول إن العرب بعد أن توطد سلطانهم ، كانوا أقل احتراماً للمعاهدات المعقودة (ج ٢ ص ٢٨١) . ونقول نحن إن دوزي لم يعتمد في سرد هذه الفظائع إلا على الرواية النصرانية وهي متحاملة مغرضة تحمل طابع المبالغة ، خصوصاً فيما يتعلق بقتل الأطفال . أما تنديده بقضاء العرب على سلطة الكنيسة فليس مما يمكن تبريره ، لأن سياسة الفتح المستنيرة ، وبواعث توطيد دعائم الدولة الجديدة ، تقضى بأن يأخذ الغالب بزمام كل السلطات في البلد المفتوح .

Lane - Poole : The Moors in Spain, Ch. I (٢)

P. Gayangos : History of the Mohammedan Dynasties in Spain V. I. (٣)

p. VII & VIII

على مملكة القوط قضاء تاماً ، وفي عامين فقط وطدت سلطة المسلمين فيما بين البحر الأبيض المتوسط وجبال البرنيه . ولا يقدم لنا التاريخ مثلاً آخر اجتمعت فيه السرعة والكمال والرسوخ بمثل ما اجتمعت في هذا الفتح... وقد كان المظنون في البداية أن الغزو إنما هو أمر مؤقت فقط . ولم يتوقع أحد أن يكون احتلال البلاد دائماً . فلما استقرت الجماعات المستعمرة ، وفتحت الثغور لتجارة المشرق ، وأقيمت المساجد ، أدرك القوط فداحة الخطب الذي نزل بهم . ولكن اعتدال حكماهم الجدد خفف من ألم الهزيمة . وكان دفع الجزية يضمن الحماية لأقل الناس ، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاوّل شعائره دون تدخل ، كما يسمح للملحد أن يجاهر بآرائه دون خشية المطاردة ، والأخبار يزاوّلون شئونهم في سلام : أما أقوال الكتاب النصراني التي ينسبون فيها للعرب أفظع المثالب ، فهي محض مبالغة أو افتراء» (١) .

أجل ، لم يك ثمة ما يدعو لأن يعتبر الفتح الإسلامي لاسبانيا كارثة قومية يفرغ لها الشعب ويأسو ، بل كان كل ما هنالك بالعكس يدعو إلى اعتباره نذير الخلاص والأمل . ألم يكن شعار الفاتحين التسامح والعدل والمساواة ؟ لقد كان تسامح الإسلام نبزاً يشع بضوئه المنقذ في هاتيك المجتمعات التي أضناها الإرهاق الديني ، ولم ير الإسلام بأساً من أن يستقبل النصراني واليهود إلى جانب المسلمين في مجتمع واحد ، يسوى فيه بينهم في جميع الحقوق والواجبات ، ولم ير بأساً من أن تقوم الكنائس والبيع إلى جانب المساجد ، ألم يكن ذلك أبداع وأروع ما في سياسة الفتح الإسلامي ؟ لقد كانت حرية الضمائر والعقائد والفكر ، وما زالت منذ أقدم العصور ، أثنى ما تحرص عليه الشعوب الكريمة وتذود عنه .

فإذا ذكرنا أن هذا التسامح الذي أبداه الإسلام نحو الأمم المغلوبة ، وهذا الاحترام لضمائر الناس وعقائدهم ، وهذه الحرية التي تركها لهم في إقامة شعائهم ، إنما جاءت بعد عصور طويلة من الاضطهاد الديني ، اتخذت فيها مطاردة الضمائر والعقائد أشنع الأساليب والصور ، استطعنا أن نقدر ما كان لذلك الانقلاب من

(١) Scott : *ibid.*, V. I. p. 260 & 264 . وينوه باحث أمريكي حديث آخر هو الدكتور Lea بتسامح العرب والمسلمين خلال العصور الوسطى ، وترفعهم عن الخصومات الدينية ، وينفص الأجناس أو التفرقة بينها . راجع : *History of the Inquisition in Spain V. I. p. 356*

أثر عميق في نفسية الشعوب المغلوبة وعواطفها ، وما كانت تحبو به حكم الإسلام من التأييد والرضى .

ويبدى كثير من العلماء الإسبان أنفسهم مثل هذا التقدير ، والإشادة باعتدال السياسة الإسلامية وآثار مصلحتها المستنير . ذلك أن العرب تركوا الشعب المغلوب دون مضايقة ، يحيا حياته الخاصة في نظمه وتقاليده . وهذا ما يسلم به المستشرق سيمونيت ، بالرغم من كونه من أشد العلماء الإسبان تحاملا ، فهو يقول لنا « إنه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية ، فإن النصارى الإسبان احتفظوا في ظل الحكم الإسلامى بنوع من الحكومة الخاصة ، واحتفظ الناس بأحوالهم القديمة دون تغيير كبير ، وفيما يتعلق بالتشريع ، فلأنهم قد احتفظوا في باب النظم الكهنوتية بقوانين الكنيسة الإسبانية القديمة ، واحتفظوا في الناحية المدنية بالقوانين القوطية أو قانون التقاضى "Fuero Juzgo" ، يخضعون لها في كل ما له علاقة بحكومتهم . وهي حكومة بلدية محلية ، وما لم يكن يتعارض مع القوانين والسياسة الإسلامية »^(١) . وفيما يتعلق بالناحية النظامية يقول العلامة ألتاميرا ، إن أغلبية الشعب الإسباني الرومانى والقوطى بقيت في ظل حكم المسلمين محتفظة بروسائها (وهم الأقطاط أو الكونتات Condes) وقضاها وأساقفتها وكنائسها ، وبالجملة بقيت محتفظة بما يشبه استقلالها المدنى الكامل . وقنع الولاة بأن يفرضوا على النصارى المحكومين الضرائب الشرعية »^(٢) .

ويقول المستشرق كارديناس : « إن الفضل يرجع إلى تسامح الولاة والأمراء الأوائل ، في أنه خلال العصور الأولى من الحكم الإسلامى ، كان الشعبان — المسلمون والمستعربون (النصارى) — يعيشان جنبا إلى جنب عيشة حرة » . « واستطاع المستعربون في ظل الحكم الإسلامى أن يحتفظوا باستقلالهم ، ولغتهم وعاداتهم وقوانينهم ، وأحيانا بأساقفتهم وكونتاتهم ، وأن يسهروا على صيانة الفنون القوطية التى كان العرب أنفسهم يقتبسون من أساليبها »^(٣) .

D. Francisco J. Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (١)

(Madrid 1897) V. I. p. 106.

R. Altamira y Crevea : Historia de Espana y de la Civilizacion (٢)

Espanola (Barcelona 1900) T. I. p. 217.

O. Almagro y Cardenas: La Cultura Arabigo—Sevillana (Sevilla 1894) (٣)

ونكتفى بما تقدم من أقوال المؤرخين والمفكرين الغربيين في الإشادة باعتدال السياسة الإسلامية وتسامحها . وفي أقوالهم أبلغ رد على ما ينسبه بعض الأخبار والعلماء المتعصبين لحكم المسلمين ، من ضروب التعصب والطغيان المدني والديني .

غير أن هذه الدولة الجديدة التي أنشأها الإسلام في اسبانيا ، كانت تحمل منذ البداية جراثيمة الخلاف الخطر . وكان هذا المجتمع الجديد الذي جمع الإسلام شمله ومزج بين عناصره ، يجيش بمختلف الأهواء والنزعات ، وتمزقه فوارق الجنس والعصبية . كانت القبائل العربية ما تزال تضطرم بمنافساتها القديمة الخالدة ، وكان البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش ، يبغضون قادتهم وروءاءهم العرب ، وينقمون عليهم استئثارهم بالسلطة والمغانم الكبيرة ، واحتلالهم لمعظم القواعد والوديان الحصية ، وكثيراً ما رفعوا لواء العصيان والثورة . وكان المسلمون الإسبان وهم « المولدون أو البلديون »^(١) محدثين في الإسلام ، يشعرون دائماً بأنهم رغم إسلامهم ، أخط من الوجهة الاجتماعية ، من سادتهم العرب . ذلك أن العرب رغم كون الإسلام يسوى بين جميع المسلمين في الحقوق والواجبات ، ويمحو كل فوارق الجنس والطبقات ، كانوا يشكون في ولاء المسلمين الجدد ، ويضنون عليهم بمناصب الثقة والنفوذ ، هذا إلى أن العربي في الأقطار القاصية التي افتتحها بالسيف ، لم يستطع أن يتنازل عن كبرياء الجنس ، التي كانت دائماً من خواص طبيعته ، فكان مثل الإنكليزي السكسوني يعد نفسه أشرف الخليفة^(٢) . على أن الخلاف بين العرب أنفسهم كان أخطر ما في هذا المجتمع الجديد من عوامل التفكك والانحلال ، فقد كانت عصبية القبائل والبطون ، ما تزال قوية حية في الصدور ، وكان التنافس على السلطان والرياسة بين الزعماء والقادة ، يمزق الصفوف ويجعلها شيعاً وأحزاباً ، وكانت عوامل الغيرة والحسد تعمل عملها في نفوس القبائل والبطون المختلفة . وأشد ما كانت تستعر نار ذلك الخلاف والتنافس بين اليمنية والمضرية ، وذلك لأسباب عديدة ترجع إلى ما قبل الإسلام . منها أن الرياسة كانت لعصور طويلة قبل الإسلام في حمير وتبّع ، أعظم القبائل اليمنية ، وكانت لهم دول ومنعة وحضارة زاهرة ، بينما كانت مضربدوا متأخرين يخضعون لحمير ويؤدون

(١) ابن القوطية - افتتاح الأندلس - ص ٣٠ .

(٢) Ameer Ali : Ibid., p. 118

الجزية لهم . وكان بينهما خصومات وحروب مستعرة طويلة الأمد ، إذ كانت حمير تعمل للاحتفاظ برياستها وسلطانها ، وتجاهد مضر في سبيل استقلالها وحريتها . ولنا في « أيام » العرب ووقائعها المشهورة ، أمثلة رائعة من هذا التضال . قال ابن خلدون : « واستمرت الرياسة والملك في هذه الطبقة الثمانية أزمنة وآماداً ، بما كانت صبغتها لهم من قبل ، وأحياء مضر وربيعة تبعاً لهم — فكان الملك بالحيرة للخم في بني المنذر ، وبالشام لغسان في بني جفنة ، ويثرب كذلك في الأوس والخزرج . وما سوى هؤلاء من العرب فكانوا ظواعن بادية وأحياء ناجعة . وكانت في بعضهم رياسة بدوية وراجة في الغالب إلى أحد هؤلاء . ثم نبضت عروق الملك ، وظهرت قريش على مكة ونواحي الحجاز ، أزمنة عرفت فيها منهم ودانت الدول بتعظيمهم . ثم صبغ الإسلام أهل هذا الجليل ، فاستحالت صبغة الملك إليهم وعادت الدول لمضر من بينهم ، واختصت كرامة الله بالنبوة بهم ، فكانت فيهم الدول الإسلامية كلها ، إلا بعضاً من دولها قام بها العجم اقتداء بالملّة وتمهيداً للدعوة ^(١) . وهكذا أسفر النضال لظهور الإسلام عن تحول في الرياسة ، إذ انتهت إلى قريش زعيمة المضرية ، بعد أن لبثت عصوراً طويلة في اليمنية ، وانقلبت الآية ، فأصبحت المضرية تعمل على الاحتفاظ برياستها ، واليمنية تتجاهد في انتزاعها منها . وكانت مسألة اللغة أيضاً من أسباب ذلك الخلاف . ذلك أن لسان حمير ، كان أصل اللغة العربية التي اعتنقها مضر ، وأسبغت عليها آيات باهرة من الفصاحة والبيان ، ونزل بها القرآن الكريم على النبي القرشي المضرى ، فكانت اللغة من مفاخر مضر ، تغار عليها وتحافظ على سلامتها ونقاها ، بينما فسدت لهجات القبائل الأخرى بالاختلاط وضعف بيانها . وفي ذلك يقول ابن خلدون : « ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها ، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وتميم . وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وأباد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة ، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم ^(٢) . أضف إلى هذا وذاك ما كان بين الفريقين من تباين شديد

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٣٩ و ٢٤٠ .

(٢) ابن خلدون ج ١ (المقدمة) ص ٤٨٧ .

في الطبائع والخلال ، مما كان يذكي بينها أسباب النفور والتباعد . وقد كان الإسلام مدى حين عاملاً قوياً في جمع الكلمة ، وتوطيد الصفوف ، وتلطيف أسباب الخصومة ، ولاسيما في شبه الجزيرة العربية . ولكن ما كاد ينقضي العصر الأول ، حتى هبت كوامن الخصومة والنضال من مرقدتها ، وعادت تعصف بوحدة المجتمع الإسلامي ، وكان هذا الخلاف أخطر وأشد في الأقطار القاصية التي افتتحها الإسلام ، ففتحت أمام القبائل والأجناس المختلفة ، التي تعمل معاً تحت لوائه ، مجالا واسعا للتنافس والتطاحن . وكان هذا هو بالأخص شأن المجتمع الإسلامي المضطرب المتنافر ، الذي قام عقب الفتح في اسبانيا .

وكانت إفريقية وهي أقرب قطر إسلامي لإسبانيا ، وتتبعها حكومة الأندلس من الوجهة الإدارية ، تفيض أيضاً بعناصر اضطراب خطيرة . فقد نزع إليها الدعاة الخوارج منذ أواخر القرن الأول ، وذاعت مبادئ الخوارج الثورية بين البربر بسرعة ، لحدائثة عهدهم بالإسلام ، وتعددت نحلهم وطوائفهم ، واشتد الخلاف والجدل فيما بينهم ، وفسد من جهة أخرى ما بينهم وبين العرب من علائق الإخاء والمودة ، وكثر نزوعهم إلى الثورة . وهذا ما يصفه ابن خلدون في قوله : « ثم نبضت فيهم (أى البربر) عروق الخارجية ، فدانوا بها ، ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ، وتعددت طوائفهم ، وتشعبت طرقها من الإباضية والصفورية . وفشت هذه البدعة ، وعقدتها رؤوس النفاق من العرب ، وجرت إليهم الفتنة من البربر ذريعة الانتزاء على الأمر ، فاختلفوا في كل جهة ، ودعوا إلى قائدتهم طغام البربر ، تتلون عليهم مذاهب كفرها ، ويلبسون الحق بالباطل فيها ، إلى أن رسخت فيهم عروق من غرائسها . ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمر العرب » (١) . واشتد تحريض الخوارج على حكومة الأمويين في إفريقية ، بعد أن أخفقوا في مقاومتها في العراق ، وتوالت الثورات والحروب الأهلية حيناً . وكان لذلك كله صداه في اسبانيا ، وخصوصاً بين البربر الذين يتألف منهم معظم الجيش ، فاضطرب أمر الحكم والنظام في الأندلس ، وذكا الخلاف بين الزعماء والقادة على نحو ما قدمنا ، ولبثت حكومة اسبانيا العسكرية مدى حين عرضة للخروج والثورة ، وذهب ضحية الفتنة جماعة من الحكام والزعماء كما نفصل بعد .

على الفاتحون عقب الفتح بتنظيم شئون الحكم والإدارة ، فقسمت اسبانيا على ضوء تقسيمها القديم أيام الرومان والقوط ، في المبدأ ، إلى أربع ولايات كبيرة على رأس كل منها حاكم محلي يعينه الحاكم العام ، ويُسئل أمامه مباشرة عن أعماله وشئون إدارته . أما حاكم الأندلس أو واليها العام ، فكان تعيينه في المبدأ راجعاً إلى حاكم إفريقية يختاره بموافقة الخليفة .

وكانت الولاية الأولى تشمل إقليم الأندلس ، الممتد بين البحر المتوسط ونهر الوادي الكبير ، وما يلي هذا النهر حتى نهر وادي أنة أو وادي يانة ، وأشهر مدنها قرطبة ، وإشبيلية ، ومالقة ، وإستجة ، وجيان . وتشمل الثانية جميع اسبانيا الوسطى ، من البحر المتوسط شرقاً إلى حدود البرتغال غرباً (لوزيتانيا) ، ثم إلى نهر دويره (دورو) شمالاً ، وأشهر قواعدها طليطلة ، على نهر تاجه ، وقونقة وشقوبية ، وبلنسية ، ودانية ، ولقنت ، وقرطاجنة ، ومرسية ، ولورقة ، وبسطة . وتشمل الثالثة جليقية ولوزيتانيا (البرتغال القديمة) ، وأشهر قواعدها ماردة ، ويايرة ، وباجة ، وأشبونة ، وقلمرية ، ولك ، وأسترة ، وشلمنقة وغيرها . وتمتد الرابعة من نهر دويره إلى جبال البرنيه (جبال البرت أو الممرات) على ضفتي نهر إيره (إيبرو) ، وغرباً إلى جليقية . وأشهر قواعدها سرقسطة ، وطرطوشة ، وطركونة ، وبرشلونة ، وأرقلة (أرجل) ، وبلد الوليد ، ووشقة ، وببشتر وغيرها . ولما اتسع نطاق الفتوح الإسلامية شمالاً ، أنشئت ولاية خامسة شمال جبال البرنيه شاملة لأربونة ، ونيمة (أونومشو) ، وقرقشونة ، وبزيبه ، وأجده ، وماجويلون (أومقلون) ، ولوديف^(١) .

ففي هذه الولايات والقواعد الجديدة تفرقت القبائل والعشائر المختلفة ، فنزلت قبائل دمشق بكورة قرطبة ، وحصص بإشبيلية ولبلة وأنحائها ، وقنسرين بجيان وأنحائها ، وفلسطين بشنونة والجزيرة وريه ومالقة وأنحائها ، وقبائل اليمن بطليطلة وأراضيها ، ونزل الفرس بشريش وأحوازاها ، والعراقيون ، بكورة إلبيرة (غرناطة) .

(١) يقدم لنا أبو عبيدة البكر في وصفه للأندلس تفصيلاً لهذا التقسيم ، ويسميه تقسيم قسطنطين . وهو يقوم على تقسيم اسبانيا إلى ست وحدات إدارية ، تقترب في أراضيها مما ذكر . (راجع الروض المطار - الترجمة الفرنسية ص ٢٤٦) .

والمصريون بتدمير وماردة وأشبونة وأراضبها ، واستقر الحجازيون بالقواعد الداخلية^(١) .

وأما البربر فقد نزل أغلبهم بالأطراف الغربية في نواحي ماردة وبطليوس وأراضى البرتغال ، ونواحي الثغر الأوسط شمالى طليطلة فيما وراء نهر التاجه ، وفي بعض أنحاء الثغر الأعلى ، وفي قطاع قونقة والسهلة ، ونزلت أقليات منهم بين القبائل العربية ، بنواحي شاطبة ولقنت ، وفي أحواز شنونة وأراضى القرنطرة^(٢) .

ويلاحظ من الناحية الإقليمية ، أن القبائل العربية قد احتلت معظم البقاع والوديان الحصبة في شبه الجزيرة ، وأن البربر نزلوا أو بعبارة أخرى أنزلوا بالعكس في معظم الأقاليم والهضاب القاحلة ، ولم يحتلوا من البقاع الحصبة سوى القليل . وقد كان هذا التقسيم المحجف للأقاليم المفتوحة عاملاً آخر في ازدياد الشقاق بين العنصرين الفاتحين - العرب والبربر - . وسرى فيما بعد كيف كان استقرار البربر في تلك الأطراف الوعرة النائية ، من العوامل التي شجعتهم على تحدى السلطة المركزية ، ورفع لواء الثورة من آن لآخر .

وقد ذكرنا أن موسى بن نصير قبل رحيله إلى المشرق في شهر ذى الحجة سنة ٩٥ ، اختار ولده عبد العزيز لولاية الأندلس ، فكان أول ولايتها من المسلمين ، وأنه استخلف ولده عبدالله في ولاية إفريقية ، وأن سليمان بن عبد الملك أقر هذا الاختيار . ففضى عبد العزيز بن موسى في ولايته زهاء عامين غنى فيهما بتحصيل الثغور ، وقمع الخروج والعصيان ، وافتتح عدة أماكن وحصون ، وأبدى همه في تنظيم الحكومة الجديدة وإدارتها ، وأنشأ ديواناً لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها ، لتوافق مشارب الرعايا الجدد ، ولتجمع حولها كلمة المسلمين من مختلف القبائل ، وشجع الزواج بين العرب والإسبان ، وتزوج هو بالملكة إيجلونا^(٣) أرملة رديك ملك القوط ، واختار في إشبيلية عاصمة ، الأندلس

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ .

(٢) يقدم لنا ابن حزم في كتاب « الجمهرة » بياناً مفصلاً عن القبائل والبطون البربرية التي نزلت في شبه الجزيرة ، والنواحي التي نزلت بها . راجع « جمهرة أنساب العرب » (القاهرة) ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

(٣) ويسمى العرب « إيلة » أو أم حاضم . وقال الواقدي ، ونقله ابن عبد الحكم ، إنها كانت ابنة رديك لا زوجته (أنساب مصر ص ٢١٢) ، وكذا ورد في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٢) .

الحديدة ، دير « سانتا روفينا » ليكون مقاماً له ولزوجه ، وفيه أجريت أول تعديلات على الطراز العربي ، ووفد عليه المهاجرون من مصر والشام والعراق وفارس ، فأحبوا بالجزيرة سبل الزراعة والصناعة والتجارة . ولكنه لم يستطع أن يوفق بين مختلف القبائل ، ولا أن يهدئ من فورة الجند . هذا إلى ما ثار من ريب حول مقاصده ونياته ، بانقياده إلى زوجه ، واتخاذة نوعاً من رسوم الملك ، حتى قيل إنه تنصر ، وقيل إنه كان يبغى الملك ويسعى إليه بتحريض زوجه ، ويعمل للاستقلال بإسبانيا^(١) .

وهذا ما يراه المستشرق سيمونيت ، إذ يقول إن عبد العزيز بن موسى كان يدبر مشروعاً يرمي إلى الاستقلال بإسبانيا ، وإلى أن يؤسس مملكة أو إمارة مستقلة فوق أنقاض المملكة القوطية ، وقد كان مما يدفعه إلى هذا العزم ، فضلاً عن طموحه الشخصي ، تحريض زوجه ليجلونا ، التي كانت تضطرم رغبة في استرداد تاجها القديم ، وأسباب أخرى تتعلق بالسياسة العليا . ولم يكن يخفى عليه أن سلطان خلفاء المشرق ، غداً قاصراً عن أن يسيطر على هذا القطر الغربي ، الذي كان سكانه الوطنيون أقل انحطاطاً من الأمم الأخرى التي فتحتها المسلمون ، والذي كان يقدم إلى الفاتحين بعدده وحضارته مزية عظيمة^(٢) . وبالرغم من أنه ليست لدينا أدلة حاسمة على مشروع عبد العزيز بن موسى في الاستقلال بإسبانيا ، فإنه يبدو ممكناً ومعقولاً في الظروف التي كانت تجوزها إسبانيا يومئذ . وعلى أي حال ، فإن خصومه شنوا عليه وعلى تصرفاته دعاية قوية انتهت بالثورة ، فوثب به جماعه من الجند على رأسهم وزيره حبيب بن أبي عبدة الفهرى ، وقتلوه أثناء صلاته بأحد مساجد إشبيلية ، وذلك في رجب سنة ٩٧ (يناير ٧١٦م) ، وبعثوا برأسه إلى دمشق . ومن المرجح أن يد الخلافة لم تكن بعيدة عن هذه المؤامرة ، وأن سليمان بن عبد الملك هو روحها والمحرض عليها ، فمن المعقول أن يتوجس سليمان رية من عبد العزيز ومقاصده ، بعد الذي أنزله بأبيه موسى ، وأن يرى التخلص منه وسيلة لتأمين الخلافة على سلطانها في ذلك القطر الجديد . وفي اهتمام

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٨ . وراجع C. Julian : *ibid*, p. 778

(٢) F. J. Simonet : *Historia de los Mozarabes de Espana*, Vol. I, p. 147

الحناة بإرسال رأس القتييل إلى دمشق اتهام واضح للخليفة . وقد عزل سليمان ، عبد الله بن موسى بن نصير عن إفريقية ، في نفس الوقت الذي قتل فيه عبد العزيز ، وهو ما يؤيد هذا الفرض أيضاً . والواقع أن أكثر من رواية إسلامية وثيقة يلقى تبعه هذه الجريمة على سليمان ، ويتهمة البعض صراحة بأنه مدبرها ، بل لقد ذهب بعضهم إلى القول بأن سليمان لم يكتف بأن حمل الحناة إليه رأس عبد العزيز ، وأنه عرضها على أبيه موسى زيادة في إيلاسه والتشفي منه^(١) ، على أن سليمان لم يعد من الرواة من يرثه من ارتكاب هذه الجريمة ، فقد ذكر لنا صاحب « أخبار مجموعة » أن سليمان أسف لمقتل عبد العزيز ، أو بعبارة أخرى أنه برى من تبعه مقتله ، وهي الرواية الوحيدة من نوعها ، وهي رواية ظاهرة الضعف^(٢) .

وعلى أثر مقتل عبد العزيز ، اتفق الزعماء في إشبيلية على تولية أيوب بن حبيب اللخمى ، وهو ابن أخت موسى بن نصير ، وكان عاقلاً صالحاً ، فهذأت الخوارج نوعاً ، ولبت في ولايته ستة أشهر نقلت خلالها قاعدة الحكم من إشبيلية إلى قرطبة باتفاق الجماعة^(٣) . ثم أقاله محمد بن يزيد الذي خلف عبد الله بن موسى في ولاية إفريقية ، وعين لولاية الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي ، فقدمها في ذي الحجة سنة ٩٧ في جماعة كبيرة من وجوه إفريقية . وأنفق الحر صدر ولايته في قمع الفتن والمنازعات التي كانت قائمة بين العرب والبربر ، ولإصلاح الجيش ، ومطاردة الخوارج والمعتدين من الجند ، وتنظيم الإدارة وتوطيد الأمن ، وكان صارماً جائراً شديد الوطأة . ثم سار نحو الشمال في جيش ضخم ليستعيد المدن والحصون الشمالية التي غزاها المسلمون من قبل ، فعبّر جبال البرنيه واخترق ولاية سبمانيا^(٤) أو لانجدوك في ربيع سنة ٧١٨ (٩٩٩ هـ) ، وكانت مدن سبمانيا قرقشونة

(١) راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٢ و ٢١٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٢ و ٢٣ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٨ ، وابن العوطة (ص ٤١) وهو صريح في أن سليمان هو الذي دبر الجريمة وعهد بتنفيذها إلى جماعة معينة من الجند ، وابن خلدون وهو صريح أيضاً في أن الجريمة تمت بتحريض سليمان (ج ٤ ص ١١٨) .

(٢) راجع أخبار مجموعة ص ٢٢ .

(٣) وهناك رواية أخرى في أن الذي نقل قاعدة الحكم إلى قرطبة هو الحر الثقفي . راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤ و ٢٥ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٦ .

(٤) سميت كذلك لاحتوائها على المدن السبعة أربونة وقرقشونة وأجدة وبزييه ولوديف وقيمة وماجويلون .

وأربونة وبزيبه ونيمة تابعة لمملكة القوط ، وكانت تخلفت عن الطاعة بعد أن غزاها المسلمون لأول مرة بقيادة موسى بن نصير على نحو ما قدمنا . فافتتحها الحر واستولى عليها ، وتابع زحفه حتى ضفاف نهر الجارون . ولكنه اضطر أن يعود أدراجه ، إذ علم أن النصارى في منطقة ناغار الجبلية (نبره أو بلاد البشكنس) ، قد نظموا حركة مقاومة خطيرة ، وأن الأمور قد اضطربت في قرطبة . وكان النظام قد اختل ، وعادت المنازعات والدسائس تعمل عملها ، في تقويض الأمن والسكينة ، فأنفق الحر حيناً آخر في قمع الفتنة ، حتى عزله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، في منتصف سنة مائة لقسوته وصرامته ، واضطراب النظام في عهده ، فكانت ولايته سنتان وثمانية أشهر ، سادت فيها القلاقل والفتن .

واختار عمر بن عبد العزيز لولاية الأندلس السَّمْنَح بن مالك الخولاني . وقرر أن تكون الأندلس ولاية مستقلة عن إفريقية تابعة للخلافة مباشرة ، لما رآه من أهميتها واتساع شئونها ، وكانت إلى ذلك الحين تابعة لعامل إفريقية وإليه تعيين ولايتها . ويقال إن عمر بن عبد العزيز فكر في إخلاء الأندلس وإجلاء المسلمين قاطبة عنها ، لانقطاعهم بها ، وعزلتهم فيما وراء البحر عن باقي أقطار الخلافة ، فقيل له إن المسلمين قد تكاثروا بها واستقروا ، فعدل عن مشروعه . « قالوا وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل ، فإن مصيرهم مع الكفار إلى بوار إلا أن يستنقذهم الله برحمته »^(١) . وقدم السَّمْنَح إلى الأندلس في رمضان سنة مائة (إبريل سنة ٧١٩) مزوداً بنصح الخليفة في أن يتبع الرفق والعدل ، وأن يقيم كلمة الحق والدين . وكان السَّمْنَح حاكماً وافر الخبرة والحكمة والعقل . فقبض على زمام الأمور بحزم وهمة ، وبادر بقمع المنازعات والفتن ، وإصلاح الإدارة والجيش . وخمس جميع أراضي الأندلس التي فتحت عنوة ، أعنى مسحها وقرر عليها الخراج بنسبة الخمس .

ويقول لنا العلامة ألتامبرا ، فيما يتعلق بتوزيع أراضي الأندلس ما يأتي :

« وقد ترك الفاتحون للإسبان الذين أسلموا أو خضعوا ، سواء أكانوا جنداً

(١) أورد هذه الرواية صاحب البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٥) ، ونقلها المقرئ عن ابن حيان مؤرخ الأندلس (ج ٢ ص ٥٦) ، وأشار إليها ابن الأثير أيضاً (ج ٥ ص ١٨٢) .

أم نبلأ - حقوقهم في ملكية أملاكهم كلها أو بعضها ، مع فرض ضريبة عقارية عليهم مشابهة للخراج هي (الجزية) ، على الأراضي المزروعة والأشجار المثمرة ، واتبعت هذه القاعدة نحو بعض الأديار ، كما حدث في الامتياز الذي منح لمدينة « قلُمرية » ، وأبيع لهؤلاء الملاك فوق ذلك حرية التصرف في أملاكهم ، وهو حق كان وفقاً للقوانين الرومانية القديمة مقيداً أيام القوط . وأما ما زاد عن الخمس في الأراضي التي استولى عليها الفاتحون ، فقد وزع بين الرؤساء والجنود ، وبين القبائل التي يتألف منها الجيش .

« وقد روعى في توزيع الأراضي أن تخصص الولايات الشمالية ، وهي جليقية وليون والأسترياس للبربر ، وأن تخصص الولايات الجنوبية ، أعني الأندلس للقبائل العربية . وكان يفرض على العمال الملازمين siervos من القوط ، الذين يشتغلون بزرع الأرض ، أن يدفعوا للسيد أو القبيلة المالكة ثلثي أو ثلاثة أخماس المحصول . وكان من أثر ذلك أن تحسنت أحوال المزارعين ، كما أنه أدى في نفس الوقت إلى تقسيم الملكية وتمزيق الملكيات الكبيرة . كذلك تحسنت حال العبيد ، لأن المسلمين كانوا يعاملونهم بأفضل مما كان الإسبان الرومان والقوط ، ولأنه كان يكفي أن يدخل العبد في الإسلام ليغدو حراً » (١) .

وأنشأ السمع قنطرة قرطبة الشهيرة ، على نهر الوادي الكبير ، تحقيقاً لرغبة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وأبدى في جميع أعماله حزمًا ورفقًا وعدلاً ، فالتف الزعماء حوله ، وخبت الفتنة وهدأت الخواطر ، واستقر النظام والأمن .

وكان السمع فوق كفايته الإدارية جندياً جريئاً وقائداً عظيماً . فلما انتهى من مهمة التنظيم والإصلاح ، تأهب لاستئناف الغزو ، وتوطيد سلطان الخلافة في الولايات الجبلية ، والقواعد الشمالية ، التي لم يستطع أن يتم إخضاعها الحر الثقي . فزحف على لانجدوك (سبانيا) في أواخر سنة ٧١٩ م في جيش ضخم ، وفي جماعة كبيرة من وجوه الزعماء والقادة ، واخترق جبال البرنيه من الشرق من ناحية روسيون ، واستعاد أربونة وقرقشونة ومعظم قواعد سبانيا وحصونها ، وعاث في تلك الأنحاء ، وشتت كل قوة تصدت لمقاومته . ووقعت هذه الغزوة

الشاملة في سنة ٧٢٠ م (١٠١١ هـ) . ويقول إيزيدور الباجي إن العرب اجتاحتها يومئذ غاليس القوطية كلها وجميع قواعد سبتيانيا^(١) . ثم اتجه السماح بعد ذلك نحو الشرق ليغزو مملكة الفرنج الجنوبية أو أكويتين ، وزحف توأ على قاعدتها تولوشة (تولوز)^(٢) ، وبدأ بذلك النضال بين العرب والفرنج في بسائط غاليس قوياً رائعاً .

(١) Dom Vissette : ibid. V. I. p. 781

(٢) ويسبها ابن حذاري طرسونة (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥) وهو تحريف ظاهر لأن طرسونة كانت من أعمال تطيلة في شمال شرق الأندلس (راجع معجم ياقوت) .

الفصل الخامس

غاليس بين العرب والفرنجة

(١) مملكة الفرنجة . نزوحهم من الشمال إلى فرنسا . كلوفيس أول ملوكهم . كلوتير الثاني . داجوبرت . نمو مملكة الفرنجة . ضعف سلطان العرش . الزعماء المحليون . محافظ القصر . الأسرة الكارلية . نفوذها وتقدمها في الرياسة . المعارك الأهلية . قيام إمارة أكويتين . بين دي هرشتال محافظ القصر . حفيده تودفالد يخلفه . ولده كارل مارتل ينتزع السلطة لنفسه . الدوق أودو أمير أكويتين . السمع يغزو إمارته . موقعة تولوשה ومقتل السمح . (٢) انتخاب عبد الرحمن الغافقي للرياسة . إخاده للفتنة في الشمال . ولاية عنبسة بن سحيم الكلبي . رد الأندلس إلى حكومة إفريقية . سير عنبسة إلى الشمال . غزوه لسبتانيا . استيلاؤه على قرقشونة . غزوه لوادى الرون . تفاهم أودو مع المسلمين . أقوال إيزيدور الباجي . كين الفرنجة لعنبسة ومقتله . تتابع للولاة على الأندلس . عزرة بن عبد الله الفهري . يحيى بن سلمة الكلبي . عثمان بن أبي نعمة الخثمي . حذيفة بن الأحوص القيسي . الهيثم ابن عبيد الكلابي . اضطراب شؤون الأندلس . غزو الفرنجة لمواقع المسلمين . اجتماع فلول القوط في جليقية . إصلاحات الهيثم . عبوره إلى سبتانيا . غزوه لوادى الرون وهرجونية . ولاية محمد ابن عبد الله الأفحمي . ولاية عبد الرحمن الغافقي الثانية . مواهبه وخلاله . بوادر الثورة في الشمال . منوسة حاكم الولايات الشمالية . نموض شخصيته . أطباعه ومشاريعه . تفاهمه مع أودو دوق أكويتين وتحالفه معه . اقترانه بلامبيجيا ابنة الدوق . ارتياب عبد الرحمن في موقفه وتصرفاته . إرساله جيشاً إلى الشمال . فرار منوسة ومقتله وأسر زوجه . مخاوف أودو . تأهب عبد الرحمن للغزوة الكبرى . سيره إلى الشمال . زحفه إلى مدينة آرل واستيلاؤه عليها . اختراقه لأكويتين . موقعة الدردون وهزيمة الفرنجة . استيلاء عبد الرحمن على بوردو . سيره ثانية إلى وادى الرون . استيلاؤه على ليون وبيزانسون وصانص . زحفه غرباً نحو أتلوار . أقوال الفيلسوف جيبون .

— ١ —

يجدر بنا قبل أن نمضي في تتبع الغزوات الإسلامية لتلك الأنحاء ، أن نقول كلمة عن مملكة الفرنجة تمهيداً لما سيجيء من لقاء العرب والفرنجة وتطور العلاقات بينهما . كان الفرنجة (أو الفرنك) شعبة من القبائل الجرمانية استقرت منذ أواخر القرن الخامس للميلاد ، بين نهر الرين والبحر في إقليم فلاندر وما إليه (البلجيك الحديثة) ، ثم على ضفاف الرين الوسطى والموزل . وفي نهاية القرن الخامس كان زعيم هذه القبائل أمير شجاع مقدام يدعى كلوفيس بدأ حكمه في مدينة «تورني» .

وفي سنة ٤٨٦ م غزا شمال فرنسا وانتزعه من يد الحاكم الروماني سباجريوس ، وكان قد أقام به دولة مستقلة ، ثم حارب قبائل « الألمان » القاطنة شرق نهر الرين ، وافتتح أراضيها حتى بافاريا . وفي سنة ٥٠٧ م حارب كلوفيس القوط ، وكانوا قد استقروا كما قدمنا في القسم الجنوبي من فرنسا المسمى بغاليا (أو غاليس) وقتل ملكهم ألاريك ، واستولى على الأراضي الواقعة ما بين اللوار والبرنيه ، عدا ولاية سبمانيا (لانجلوك) التي بقيت في يد القوط . واعتنق كلوفيس النصرانية وأذاعها بين قبائله الوثنية ، وجعل باريس مقر ملكه الشاسع ، وبذا قامت مملكة الفرنج القوية أصل فرنسا الحديثة . وتابع أبناء كلوفيس وخلفاؤه من بعده سياسة الفتح ، وافتتحوا بروجونية وأواسط ألمانيا وشمال إيطاليا : ثم وقعت الحرب الأهلية حيناً بين أمراء الفرنج الذين اقتسموا تراث كلوفيس ، حتى جاء كلوتير الثاني سنة ٦١٣ م فبسط سلطانه على غاليس كلها (فرنسا)^(١) ، واستأنف الفتح لإخضاع باقي الإمارات الفرنجية الواقعة شرق الرين . وسار ولده داجويرت في أثره ، وجمع كلمة الفرنج تحت لواء واحد ، وغلبت سلطة الفرنج على ألمانيا الغربية ثانية ، وهذبت النصرانية التي جاهد في إذاعتها الفرنج بين هذه القبائل المتوحشة ، كثيراً من خشونتها ، وقضت على كثير من رسومها الوثنية .

ولكن داجويرت كان آخر ملك من الفرنج الميروفنجية — أسرة كلوفيس^(٢) — استطاع أن يقبض على زمام السلطة المركزية بيد قوية . ذلك أن نظام الإقطاع والعشائر ، كان يسود هذه المملكة الشاسعة ، وكانت جمهرة من الأمراء والدوقات والكونتات تتقاسم السلطة في مختلف الولايات والأنحاء ، وكلما ضعف سلطان العرش اشتد نفوذ أولئك الزعماء المحليين .

وكان أولئك الزعماء قد استطاعوا خلال العصور المتعاقبة ، أن يحدوا تبعاً من سلطة العرش ، وأن يحوزوا لأنفسهم كثيراً من الامتيازات والسلطات ، فلما جاء كلوفيس استطاع بعزمه وصرامته ، أن يقبض على السلطة المركزية بيد قوية ، وأن يبسط على مملكة الفرنج كلها سلطاناً مطلقاً ، واستطاع بعض خلفائه

(١) تطلق كلمة غاليس في الرواية الإسلامية على جنوبي فرنسا ، وهي تعريب حسن لكلمة La Gaule أو Gaulla (راجع ابن الأثير ج ٤ ص ٢١٣) . وتسمى فرنسا أيضاً في الجغرافية العربية بالأرض الكبيرة .

(٢) The Merovingians ، نسبة إلى مؤسس أسرته الملك مرفيج جد كلوفيس .

حتى داجوبيرت أن يسيطروا مثل هذا السلطان حيناً . ولكن خلفاء داجوبيرت كانوا رجالاً ضعاف الخلال والعزائم ، ينغمسون في نعيم الترف والملاذ ، فضعف سلطان العرش ، وانهارت السلطة المركزية القوية التي كان يقبض عليها ، واسترد الأشراف والزعماء المحليون استقلالهم وامتيازاتهم . هذا إلى أن ما استطاع العرش أن يحتفظ به من السلطات ، امتدت إليه سلطة جديدة في القصر ذاته ، هي سلطة محافظ القصر . وكان هذا المنصب في المبدأ متواضعاً ، ليست له أية صفة سياسية أو إدارية ، تقتصر مهامه على النظر في شئون القصر المنزلية ، ولكنه غدا منذ أوائل القرن السابع ، أعنى منذ أخذت سلطة العرش في الضعف ، منصباً هاماً ، يتولاه رجال أقوىاء يتطلعون إلى السلطان ، وتوازروهم عصبية الأسرة والثروة ، وأصبح بمضى الزمن أهم مناصب الدولة السياسية والإدارية ، يستأثر صاحبها بكل السلطات الحقيقية ، وإليه منتهى الأمر في أخطر شئون الدولة ، يباشرها باسم العرش ومن ورائه ، ولا يباشر الملك إلى جانبه غير رسوم الملك الإسمية ، ويلتف حوله الزعماء والأكابر ، ويباشر في معظم الأحيان سلطة الملك الحقيقية ، خصوصاً إذا كان الملك طفلاً قاصراً ، فهو عندئذ يغدو الملك الحقيقي باسم الوصى أو النائب .

وكانت الأسرة الكارلية^(١) القوية قد اختصت بهذا المنصب الخطير ، منذ عهد الملك داجوبيرت ، وأخذت تهدد بنفوذها وقوتها مصير الأسرة الميروفنجية الملكية . وكانت أقوى بطون الفرنج في أوستراسيا (مملكة الفرنج الغربية) ، تملك ضياعاً شاسعة ما بين نهري الرين والموز وتزعم جماعة النبلاء ، وترعاها الكنيسة لنفوذها وسلطانها ، ويمنح زعيمها محافظ القصر لقب « دوق الفرنج » ، تنوبها برياسته وسلطانته ، الذي أصبح فوق سلطان العرش . وكان انحلال الأسرة الميروفنجية وانهايار سلطانها على هذا النحو ، سبباً في تفرق كلمة الفرنج وانحلال الإمبراطورية الفرنجية الشاسعة ، وتطلع الزعماء إلى الاستقلال والرياسة ، أسوة بما انتهى إليه محافظ القصر ، فاضطربت الحرب الأهلية حيناً بين الفرنج في أوستراسيا والفرنج في نوستريا (الفرنج الشرقية) ، وأسفر هذا الصراع عن استقلال ولاية أكوتين في غاليا الجنوبية ، وكذا استقلال معظم الولايات الألمانية ، برياسة طائفة من

(١) Carolingians أو Carolingians ، نسبة إلى أعظم ملوكها كارل الأكبر أو الإمبراطور شارلمان .

الأمراء الأقوياء . ثم آل منصب المحافظ في أواخر القرن السابع إلى أمير مقدم جرىء من الأسرة الكارلية ، هو بين دى هرشتال ، فحارب الفرنج الحوارج في فريزيا وسكسونيا وبافاريا وأخضعهم ، ولبت محافظاً للقصر يحكم مملكة الفرنج في الشرق والغرب بقوة وعزم ، مدى سبعة وعشرين عاماً ، ثم توفي سنة ٧١٥ م موصياً بمنصبه لحفيده الطفل تودفالد ، ولد ابنه جريمولد الذي قتل قبل وفاته . وكان لبين ولد آخر من زوجته « ألفايدة » ابنة راتبود زعيم فريزيا الوثني ، هو كارل (أو شارل) مارتل ، تركه أبوه قتي قوياً في نحو الثلاثين من عمره ، وكان من الطبيعي أن يكون هو محافظ القصر بعد وفاة أخويه الكبيرين جريمولد ودروجو . ولكن بين تأثر بتحريض زوجه الأولى « بلكتروود » وأوصى بالمنصب لحفيده ، فكان محافظ القصر طفلاً هو تودفالد ، يحكم مكان الملك الميروثنجي وهو طفل أيضاً ، بواسطة بلكتروود التي عينت وصية على حفيدها . وكان أول ما فعلت بلكتروود أن قبضت على كارل مارتل ، وزجته إلى السجن لتأمين شره ومنافسته . ولكن أشرف أوستريا ساءهم أن تتولى الحكم امرأة . فثاروا ونادوا بأحد زعمائهم « راجنفرد » محافظاً للقصر ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وهزم حزب بلكتروود ، فارتدت مع حفيدها إلى كلونية ، وقبض راجنفرد على زمام الحكم . وفي تلك الأثناء فر كارل مارتل من سجنه ، والتف حوله جماعة من أنصار أبيه ، وحارب النوستريين ، فاستغاث راجنفرد بالدوق أودو أمير أكويتين القوي ، فلم يغنه ذلك شيئاً ، وانتهى كارل بأن هزمه ومزق قواته ، واضطره إلى التسليم والصلح . أما بلكتروود فقد عقدت الصلح أيضاً ، ونزلت عن كل حقوقها . وغداً كارل منذ سنة ٧٢٠ م محافظاً للقصر لا ينازعه منازع ، يحكم جميع الفرنج في أوستراسيا ونوستريا^(١) .

هكذا كانت مملكة الفرنج حينما عبر المسلمون إلى غاليا أو غاليس (فرنسا) لثالث مرة بقيادة السمع بن مالك ، وغزوا ولاية سبتمانيا القوطية ، واستولوا على قواعدها ، وزحفوا على مدينة تولوشة (تولوز) عاصمة أكويتين . وكان أودو

(١) راجع في تاريخ مملكة الفرنج ونشأتها وعصر الأسرتين الميروثنجية والكارلية :

Hodgkin : Charles the Great, وكذلك Zeller : Histoire de l'Allemagne Ch. VII

Ch. II & III

حقوق أكويتين أحد أعضاء الأسرة المبروفنجية ، أقوى أمراء الفرنج في غالبا وأشدّهم بأساً . وكان أثناء الاضطراب الذي ساد مملكة الفرنج ، قد استقل بأكويتين وبسط حكمه على جميع غاليس الجنوبية ، من اللوار إلى البرنيه ، والتف حوله القوط والبشكنس (النافاريون) ، وأخذ يطمح إلى انتزاع ملك الفرنج أو ملك أسرته ، ويعد العدة لقتال كارل مارتل المتغلب عليه . ولكنه اضطر أن يشتغل عن مشروعه برّد خطر العرب الداهم .

استولى السّمع على سبتمانيا وأقام بها حكومة إسلامية ، ووزع الأراضي بين العرب والسكان ، وفرض الجزية على النصاري ، وترك لهم حرية الاحتكام إلى شرائعهم ، ثم زحف نحو الغرب ليغزو أكويتين كما قدمنا ، فقاومه البشكنس والفسقونيون سكان هذه الأنحاء أشد مقاومة . ولكنه مزق جموعهم وقصد إلى تولوشة . وكان الدوق أودو قد جمع في تلك الأثناء جيشاً ضخماً وسار لرد العرب ، وعلم السّمع بذلك فارتد عن مهاجمة تولوشة ليلقي جيش الدوق رغم تفوقه على جيشه في العدد . والتقى الفريقان بظاهر تولوشة ، ونشبت بينهما معركة هائلة سالت فيها الدماء غزيرة ، وكثر القتل في الجيشين ، وأبدى المسلمون رغم قتلهم شجاعة خارقة ، وتراوح النصر حيناً بين الفريقين . ولكن السّمع سقط قتيلاً من فوق جواده ، فاختل نظام الفرسان المسلمين ، ووقع الاضطراب في الجيش كله ، وارتد المسلمون إلى سبتمانيا بعد أن فقدوا زهرة جندهم ، وسقط منهم عدة من الزعماء الأكابر ، وذلك في التاسع من ذى الحجة سنة اثنتين ومائة (٩ يونيو سنة ٧٢١ م)^(١) .

وعلى أثر مقتل السّمع اختار الجيش أحد زعمائه ، عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي للقيادة العامة ، فارتد عبد الرحمن إلى الجنوب توّأ ، وأقرته « الجماعة » والياً للأندلس ، حتى يأتي الحاكم الجديد . فلبث في منصبه فترة وجيزة ، ولكنه استطاع خلالها أن يخمّد بؤادر الخروج التي ظهرت في الولايات الجبلية الشمالية ،

(١) يضع كوند وهو ينقل عن مصادر عربية إسبانية لم يبينها ، تاريخ الموقعة في سنة ١٠٢ هـ (Conde : ibid. I. p. 72) . ولكن المصادر العربية التي بين أيدينا تجمع كلها على أن الموقعة كانت سنة ١٠٢ هـ (نفع الطيب عن ابن بشكوال وابن حيان ج ٢ ص ٥٦ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٨) . ومعظم المصادر الفرنجية على أن الموقعة كانت سنة ٧٢١ م (١٠٢ هـ)

متفقة بذلك مع الرواية الإسلامية . راجع Dom Vissette : ibid ; I. p. 781 & 784

وأن يستبقى الجزية على أربونة وغيرها من قواعد سبانيا . ولبت يحمد الفتن ،
ويصلح الأمور حتى قدم عنبة بن سحيم الكلبي ، الذي اختاره بشر بن صفوان
الكلبي والى إفريقية ، والياً للأندلس . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد جعل
الأندلس ولاية مستقلة كما قدمنا ، تتبع الخلافة مباشرة . ولكن خلفه يزيد بن
عبد الملك لم يقر هذا التعديل ، فعادت الأندلس تابعة في إدارتها لإفريقية كما كانت .
وقدم عنبة بن سحيم الكلبي إلى الأندلس في صفر سنة ١٠٣ . وأنفق حيناً في تنظيم
الإدارة ، وضبط النواحي ، وإصلاح الجيش ، وإعدادة لغزوات جديدة . وفي
أواخر سنة ١٠٥ هـ (أوائل سنة ٧٢٤ م) سار عنبة في الجيش إلى الشمال غازياً ،
وعبر جبال البرنيه^(١) مرة أخرى ، وغزا سبانيا التي فقد المسلمون كثيراً من
معاقلها ، مندهزيمة تولوشة ، واستولى على قرقشونة ونيمة وما بينهما من القواعد ،
وارتد القوط عن مخالفة الفرنج إلى مخالفته . وتابع زحفه شمالاً في وادي الرون
ونفذ إلى برجونية حتى مدينة أوتون فغزاها وخربها (أغسطس سنة ٧٢٥ م) ،
ثم غزا مدينة صانص . وخشي أودوق أكوئين أن يهاجمه المسلمون مرة أخرى ،
فسعى إلى مفاوضاتهم ومهادنتهم . وبسط المسلمون سلطانهم قوياً في شرق جنوبي
فرنسا . وفي ذلك يقول إيزيدور الباجي : « كان نجاح عنبة راجعاً إلى الحرأة
والبراعة ، أكثر منه إلى القوة والكثرة . وكان لينه ورفقه وحسن معاملته للسكان ،
عاملاً في تقوية سلطان الإسلام في جنوبي فرنسا » . ولكن قضى نكد الطالع أن
ينكب المسلمون مرة أخرى . فلن عنبة حين عوده إلى الجنوب ، داهمته قبل
أن يجتمع إليه جميع جيشه ، جموع كبيرة من الفرنج ، فأصيب أثناء الموقعة التي
نشبت بجراح بالغة توفي على أثرها ، وذلك في شعبان سنة ١٠٧ هـ (ديسمبر سنة
٧٢٥) ، فارتد الجيش إلى الداخل ، وعاد الاضطراب إلى الجزيرة مرة أخرى .

(١) يحسن بنا أن نشير هنا إلى أن بعض الكتاب والباحثين يسمون جبال البرنيه خطأً بجبال
« البرانس » . ذلك لأن جبال البرنيه تسمى في الجغرافية العربية حسبما قدمنا بجبال البرت أو البرتات .
أما جبال « البرانس » فهي سلسلة أخرى من الجبال الإسبانية ، تقع شرقي ماردة ، وجنوبي طليطلة ،
وهي التي تعرف في الجغرافية الحديثة بجبال المعدن Sierra de Almaden ، لوقوعها على مقربة من
مدينة « المعدن » . وسميت في الجغرافية العربية « بالبرانس » نسبة لقبيلة البرانس البربرية ، التي
كانت تنزل في الأندلس على مقربة من هذه الجبال (راجع البيان المغرب - ٢ ص ١٤٣ و ١٦٣)
حيث يشير إلى الحملات التي جردت لمقاتلة الثوار في منطقة جبال البرانس) .

وتوالى على الأندلس مدى الأعوام الخمسة التى تلت وفاة عنبسة ، سنة ولاية أولهم عزرة بن عبد الله الفهرى^(١) ، الذى تولى قيادة الجيش عقب وفاة عنبسة ، فلبث فى منصبه شهرين فقط . ثم يحيى بن سلمة الكلبي ، ولاه بشر بن صفوان عامل إفريقيا ، فقدم الأندلس فى شوال سنة ١٠٧ ، وامتد حكمه عامين ونصف لم تقع فيهما حوادث أو غزوات تذكر . ثم توفى بشر بن صفوان ، وخلفه فى ولاية إفريقيا عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ، فولى على الأندلس عثمان بن أبى نسعة الخنعمى ، فقدمها فى شعبان سنة ١١٠ ، ولبث فى منصبه ستة أشهر فقط ثم عزل ، وخلفه حذيفة بن الأحوص القيسى فلم تطل ولايته سوى أشهر أيضاً ، فخلفه الهيثم ابن عبيد الكلابى أو الكنانى ، ولاه أيضاً عبيدة السلمى عامل إفريقيا ، فقدم الأندلس فى المحرم سنة ١١١ هـ . وكان تتابع الولاة على هذا النحو سبباً فى تفاقم الخلل والاضطراب فى شئون الجزيرة ، وتفاقم الخلاف بين الزعماء والقبائل . وكان تخلف المسلمين عن الغزو من جهة أخرى مشجعاً للفرنج على مهاجمة القواعد الشمالية ، مشجعاً للخوارج من القوط والبشكنس على تنظيم قواتهم . وكان أخطر أولئك الخوارج شرادم القوط التى بلحات كما أسلفنا إلى قاصية جليقية ، واجتمعت هناك حول زعيم يدعى بلايو أو بلاى ، ولم يعن الولاة بتتبعها والقضاء عليها ، إما احتقاراً لشأنها أو لوعورة الجبال التى امتنت بها ، ففى أثناء اضطراب الشئون وانشغال الولاة ، كانت هذه الشرادم تنمو وتشتد داخل هضابها النائية ، وكانت هى نواة هذه المملكة النصرانية القوية التى نشأت سرعاً ، واشتد ساعدها ، حتى غدت قبل قرن تنافس الإسلام وتنازعه سيادة اسبانيا .

فلما ولى الهيثم حاول أن يجمع الفوضى ، وأن يرد النظام . وكان الهيثم حازماً قوى العزم ، ولكن صارماً شديد الوطأة ، فطارد الشعب والفوضى بشدة ، واضطهد معظم الزعماء والمخالفين له فى رأى ، وبالأخص اليمنية ، وتبع كثيرين منهم بالسجن والمطاردة ، وقاد حملة ضد « منوسة » وهو حسباً نوضح بعد زعيم بربرى غامض الشخصية ، كان حاكماً لمنطقة الأسترياس وظهرت منه أعراض التمرد ، ولكنه لم يوفق إلى القضاء عليه . ثم سار فى الجيش إلى الشمال ليجمع

(١) يرى بعض المؤرخين أن عزرة لم يكن من ولاية الأندلس ، أو أن ولايته كانت غير رسمية (المقر عن ابن بشكوال ج ٢ ص ٥٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦) .

أعراض الثورة التي بدأت في الولايات الحبلية ، وليستأنف الغزو ؛ فعبّر البرنيه ، واخترق سبتانيا إلى وادى الرون وغزا ليون (لوزون) وماسون^(١) وشالون الواقعة على نهر الساوون ، واستولى على أوتون وبون ، وعاث في أراضي برجونية الجنوب . ولكن هذا الفتح الكبير لم يكن ثابت الأثر ، فقد أدى اختلاف القبائل وتمرد البربر إلى تفكك الجيش الفاتح ، وإلى تخلف المدن المفتوحة عن قبضة الفاتحين . فعاد الهيثم إلى الجنوب ، ولم يلبث أن توفي بعد أن حكم الأندلس مدى عامين ، فاخترت « الجماعة » مكانه محمد بن عبد الله الأشجعي حتى يعين الوالي الجديد^(٢) ، فلبث في منصبه شهرين ، حتى عين عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي والياً للأندلس ، عينه عبيدة بن عبد الرحمن السلمي والى إفريقية بمصادقة الخليفة هشام بن عبد الملك في صفر سنة ١١٣ هـ (إبريل سنة ٧٣١) ^(٣) فكانت ولايته الثانية . وكانت ولايته الأولى سنة ١٠٣ هـ على أثر مقتل السمح كما قدمنا . وكان عبد الرحمن جندياً عظيماً ظهرت مواهبه الحربية في غزوات غالبا ، وحاكماً قديراً بارعاً في شئون الحكم والإدارة ، ومصلحاً كبيراً يضطرم رغبة في الإصلاح ، بل كان بلا ريب أعظم ولاية الأندلس وأقدرهم جميعاً . وتجمع الرواية الإسلامية على تقديره والتنويه برفيع خلاله ، والإشادة بعذله وحلمه وتقواه^(٤) . فرحبت الأندلس قاطبة بتعيينه

(١) ليل ماسون هي التي يسميها ابن عذاري منوسه (راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧) .
(٢) يقدم كوندى رواية أخرى عن مصير الهيثم ، فيقول إن أمر عصفه وجوره نهي إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ، فانتدب محمد بن عبد الله الأشجعي للتحقيق معه . فلما تحققت صحة التهم المنسوبة إليه عزله وسجنه وصادر أمواله ، وأطلق الذين اعتقلهم ظلماً . ويقول كوندى أيضاً إن الأشجعي هو الذي اختار عبد الرحمن الغافقي لولاية الأندلس ، لما تحققت من شجاعته وحزمه بتفويض لديه من الخليفة . **Conde. ibid. V.I.p.81** . ويأخذ دوزي بهذه الرواية (**Hist.V.I.p.137**) . وكوندى يستقى روايته من بعض المصادر العربية الإسبانية ، ولكنه لا يبين هذه المصادر . على أن المصادر العربية التي أماننا تجمع على أن ولاية الهيثم اختتمت بوفاة ، وأن الأشجعي خلفه باختيار الجماعة (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨ من ابن بشكوال ، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٩) .

(٣) تختلف الرواية الإسلامية في تاريخ ولاية عبد الرحمن ، فيقول الضبسي إن تعيينه كان في حدود سنة ١١٠ هـ (بغية الملتبس رقم ١٠٢١) ، وكذا ابن بشكوال (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦) . ويقول ابن عذاري إنه كان في صفر سنة ١١٢ (ج ٢ ص ٢٨) ، وابن حيان إنه كان في صفر سنة ١١٣ (نفح ج ٢ ص ٥٦) . وهي أرجح رواية فيما نعتقد وبها أخذنا لاتفاقها مع سير تواريخ الولاة المتقدمين .

(٤) راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٦ ، ٢١٧ و بغية الملتبس رقم ١٠٢١ ، والحميدى في جذوة الملتبس ص ٦ و ٢٥٥ .

وأحبه الجند لعدله ورفقه ولينه ، وجمعت هيئته كلمة القبائل ، فراضت مضر وحمير ، وعاد الوثام نوعاً في الإدارة والجيش ، واستقبلت الأندلس عهداً جديداً . وبدأ عبدالرحمن ولايته بزيارة الأقاليم المختلفة فنظم شئونها ، وعهد بإدارتها إلى ذوى الكفاية والعدل ، وقمع الفتن والمظالم ما استطاع ، ورد إلى النصرارى كنائسهم وأملأهم المغصوبة ، وعدل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالعدل والمساواة ، وقضى صدر ولايته في إصلاح الإدارة ، ومعالجة ماسرى إليها في عهد أسلافه من عواجل الاضطراب والخلل . وغنى بإصلاح الجيش وتنظيمه عناية خاصة ، فحشد الصفوف من مختلف الولايات ، وأنشأ فرقاً قوية مختارة من فرسان البربر ، بإشراف نخبة من الضباط العرب ، وحصن القواعد والثغور الشمالية ، وتأهب لإحجاد كل نزعة إلى الخروج والثورة^(١) .

وكانت الثورة في الواقع توشك أن تنقض في الشمال ، وبطلها في تلك المرة زعيم مسلم هو حاكم الولايات الشمالية . فمن هو ذلك الزعيم الثائر ؟ إن الرواية الإسلامية تلزم الصمت إزاء شخصية هذا الزعيم ، وإزاء الحوادث التي اقترنت باسمه . وكل ما هنالك أن صاحب البيان المغرب يقول لنا في حديثه عن ولاية الهيثم بن عبيد الكنانى « وهو الذى غزا منوسة »^(٢) . ثم يردد المقرئ هذه العبارة في قوله مشيراً أيضاً إلى الهيثم « وغزا أرض منوسة فافتتحها »^(٣) . ويبدو لأول وهله من استقراء هاتين الإشارتين القصيرتين ، أن « منوسة » تنصرف فيما يرجح إلى المكان ، ومنوسة قد تكون مدينة « ماسون » وهى التى غزاها الهيثم ضمن ، غزواته في أرض فرنسا . ولكن معظم الروايات النصرانية والفرنجية المعاصرة ، تحدثنا في نفس الوقت عن شخصية زعيم مسلم يدعى Munuza « منوزا » أو Munez « مونز » ، وهو كما يبدو مطابق لاسم « منوسة » ، وتسرد لنا سلسلة من الحوادث الهامة التى اقترنت باسمه . وفي موطن واحد فقط تقول الرواية النصرانية إن منوسة كان زعيماً نصرانياً من زعماء منطقة الأسترياس ، وأنه كان حاكماً لمدينة خيخون^(٤) . ولنسلم نحن بهذه المطابقة بين الإسمين ،

(١) Conde ; ibid V. I. p. 82 & 83

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ١٠٩ .

(٤) Crónica General ; Vol. I. p. 319 & V. II. p. 324

فقول إن منوسة ، كان وفقاً لأقوال هذه الروايات النصرانية والفرنجية ، زعيماً مسلماً يحكم بعض ولايات البرنيه الغربية وسبتانيا فيما وراء البرنيه باسم حكومة الأندلس ، وذلك حوالى سنة ٧٢٥ إلى سنة ٧٣٠ م^(١) . وكان الدوق أودو أمير أكويتين منذ اجتاحت المسلمون أراضيه ، ورأى خطر الفتح الإسلامى يهدد ملكه يسعى إلى مهادنة المسلمين والتقرب من حكومة الأندلس ، ويحاول فى نفس الوقت أن يجمع الحلفاء من حوله لمقاومتها إذا اقتضى الأمر . فلما تولى منوسة حكم الولايات الشمالية . وهى تجاور أكويتين من الشرق والجنوب ، سعى الدوق إلى التفاهم معه . وكان منوسه كما تصفه الرواية النصرانية المعاصرة ، زعيماً قوى المراس ، كثير الأطلاع ، نافذ الهية فى هاتيك الوهاد ، ولم يكن على اتفاق مع حكومة الأندلس . ذلك أنه كان من أقطاب البربر الذين عبروا الأندلس مع طارق بن زياد^(٢) ؛ وقد سبق أن شرحنا عوامل الخلاف بين العرب والبربر ، وكيف حقق البربر على العرب لاستئثارهم بمغانم الفتح والرياسة . وعلى ضوء هذه التفاصيل ، نعود فنتساءل من يكون « منوسة » ؟ هل يكون هو عثمان بن أبى نسعة الخثعمى الذى ولى إمارة الأندلس قبل ذلك بثلاثة أعوام حسباً قدمنا ، ولم يطل أمد ولايته سوى أشهر قلائل ؟ وهل يكون اسم « منوسة » Munuza تحريفاً نصرانياً للقب « نسعة » العربى ؟ إذا صح أن منوسة كان زعيماً بربرياً كما تصفه الروايات النصرانية المعاصرة ، وهى وحدها مصدر التعريف عنه ، فيكون من المشكوك فيه إذن أن يكون منوسة ، هو عثمان ابن أبى نسعة الخثعمى والى الأندلس^(٣) . ذلك أن عثمان بن أبى نسعة كان زعيماً

(١) ويقول ألتاميرا إن « منوسة » Munuza هو الحاكم البربرى الذى تركه موسى ابن نصير فى غيخون فى منطقة الأسترياس وكان حاكماً لمدينة أوفيدو ، وأنه أى منوسة قد اضطرب عقب فشله فى القضاء على بلايو الزعيم القوطى ، وهزمته فى موقعة كوفادونجا أن يحتل منطقة الأسترياس . راجع : Altamira : ibid, T. I. p. 221—223

(٢) هذه هى رواية إيزيدور الباجى وقد نقلتها بعض الروايات النصرانية المتأخرة ؛ راجع Dozy: Histoire, V.I. p. 160 et notes و Dom Viscette : ibid, V.I. p. 794 & II. p. 129

(٣) كنت من قبل أعتقد كبعض الباحثين أن « منوزا » (منوسة) هو تحريف لاسم ابن أبى نسعة ؛ وأنها اسمان لشخص واحد . وهذا ما يقوله فى الواقع يوسف كوندى (V. I. p. 80) . ولكن أصبحت بعد الذى قرأته من مختلف التفاصيل والتعليقات التى أوردتها الروايات النصرانية المعاصرة ، وبعد مقارنتها بأقوال الرواية الإسلامية عن ابن أبى نسعة ، أشك فى صواب هذا رأى . والمرجح كما يبدو من مختلف الشروح المتقدمة أن منوسة كان فعلاً من زعماء البربر المتمردين على حكومة قرطبة .

عربياً ينتسب إلى خثعم إحدى البطون العربية العريقة^(١) ، ولم يفز بإمارة الأندلس في تلك الفترة سوى زعماء العرب ، ولم تسند إلى أحد من البربر . هذا إلى أن الرواية الإسلامية تقدم إلينا عن مصير عثمان بن أبي نسعة رواية أخرى غير التي تقدمها إلينا الرواية النصرانية عن مصير «منوسة» ، فهي تقول لنا أن ابن أبي نسعة ولى الأندلس في شعبان سنة ١١٠ هـ (٧٢٨م) واستمرت ولايته خمسة أشهر أو ستة ثم عزل ، وانصرف إلى القيروان فأت بها^(٢) . أما «منوسة» فقد مات محارباً ، ومات قتيلاً كما سنرى .

وعلى أى حال فقد تفاهم دوق أكويتين ومنوسة ، وقوت المصاهرة بينهما أواصر الصداقة والتحالف . ذلك أنه كانت للدوق ابنة رائعة الحسن تدعى لامبجيا (أو منينا أو نوميرانا على قول بعض الروايات) فرآها منوسة أثناء بعض رحلاته في أكويتين أو أنه أسرها في بعض غاراته عليها . تقول الرواية : «وكانت لامبجيا أجمل امرأة في عصرها ، كما كان منوسة أقبح رجل في عصره ، وكانت نصرانية متعصبة ، ولكن أطماع الوالد غلبت على كل شيء ، فارتضى مصاهرة الزعيم المسلم» .

وكما يحيط الغموض بشخصية منوسة ، فكذلك يحيط بشخصية لامبجيا وظروف زواجها من الزعيم المسلم ، فتقول الرواية مثلاً ، إن منوسة بعد أن أسر لامبجيا ، وشغف بها حباً وتزوج بها ، حمل بتأثيرها ونفذها على محالفة أبيها الدوق ومناوأة حكومة الأندلس ، وتقول أيضاً إن ابنة الدوق أكويتين التي تزوجها منوسة لم تكن لامبجيا التي اشتهرت بفائق حسنها ، بل كانت أختها «منينا» التي كانت من قبل زوجة لفرويل القوطي أمير أستورية ، كما تورد لنا غير ذلك من الأنباء والتفاصيل التي يقع معظمها في حد الأساطير^(٣) .

وهكذا اجتمعت عوامل الحب والسياسة لتوثق عرى التحالف بين الزعيم المسلم وبين الدوق أودو . وكان أودو ، فضلاً عما يهدده من خطر الغزو الإسلامي ، يخشى بأس خصمه القوى كارل مارتل زعيم الفرنج ، وكذا كان كارل مارتل

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٣٩ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨ .

(٣) راجع خلاصة الروايات النصرانية والفرنجية في م.سوعة Bayle V. IV والتعليقات .

ينقم على أودو نفوذه واستقلاله بالجنوب ، وقد غزا بالفعل أكويتين غير مرة وهزم أميرها . فكان أودو في الواقع بين نارين ، يخشى الفرنج من الشمال ، والعرب من الجنوب . وكانت جيوش كارل مارتل تهدده وتعيث في أرضه (سنة ٧٣١) في نفس الوقت الذي سعى فيه منوسة إلى مخالفته ، والاستعانة به على تنفيذ مشروعه في الخروج على حكومة الأندلس ، والاستقلال بحكم الولايات الشمالية . وقد رأى منوسة اكتساباً للوقت وكمثلاً لحقيقة مشروعه ، أن يسبغ على مخالفته مع الدوق صفة هدنة عقدت بينه وبين الفرنج ، ولكن عبد الرحمن أمير الأندلس ارتاب في أمر الثائر ونياته ، وأتى لإقرار الهدنة التي عقدها . وعندئذ كشف منوسة القناع ، وأعلن الثورة ، فأرسل عبد الرحمن إلى الشمال حملة قوية بقيادة ابن زيان لتأديب الزعيم الثائر ، والتحوط لسلامة الولايات الشمالية ، فاستعصم منوسة بمواقعه الجبلية ، وتحصن في عاصمة إقليمه « مدينة الباب »^(١) ، الواقعة على منحدر جبال البرنيه ، وكان يظن أنه يستطيع أن يتحدى الجيش الإسلامي ، وأن يعتصم بالصخر ، كما اعتصم به الزعيم القوطي « بلاجيوس » (بلايو) ولكنه كان مخطئاً في تقديره ، فقد نفذ ابن زيان بجيشه إلى مدينة الباب ، وحاصر الثائر في عاصمته ، ففر منها إلى شعب الجبال الداخلية ، فطارده ابن زيان من صخرة إلى صخرة ، حتى أخذ وقتل مدافعاً عن نفسه ، وتحطمت أطماعه ومشاريعه (١١٣ هـ - ٧٣١ م)^(٢) ، وأسرت زوجه الحسنة لامبجيا ، وأرسلت إلى بلاط دمشق ، فاستقبلها الخليفة (هشام بن عبد الملك) بحفاوة وإكرام ، وزوجت هنالك من أمير مسلم لا تذكر لنا الرواية اسمه^(٣) .

(١) واسمها بالعثمانية **Ciudad de la Puerta** ، وقد كانت تقع على أحد ممرات البرنيه وتسمى أحياناً « بويكاردا » .

(٢) تمر الرواية الإسلامية على هذه الحوادث كلها بالصمت كما قدما ، ولا تذكر لنا أي تفصيل أو ملحّة تلقى الضياء على شخصية منوسة ؛ ويوافق دوزي على أن منوسة **Munuza** هو اسم للزعيم البربري المتقدم الذكر . راجع : **Dozy : Histoire V.II. p. 129 & note** ؛ وكذلك **Lévy-Provençal : Hist. de l'Espagne Musulmane (1944) p. 43 & note** .

(٣) **Dom Vissette : ibid, I. p. 764** . وتحيط الرواية سيرة لامبجيا وزوجها بكثير من القصص الخيالية الشائقة ، التي اتخذت فيما بعد مستقلاً لخيال بعض الشعراء والكتاب . غير أن معظم هذه القصص لا يخرج عن حد الأساطير .

هذا ، وهناك في شأن «منوسة» وزوجه رواية أخرى ، أوردتها الخبر ماريانا كبير مؤرخى إسبانيا ، فقد ذكر أن منوسة كان زعيماً نصرانياً اختاره المسلمون لحكم المنطقة الواقعة غربى البرنيه ، ولكنه كان صارماً يشدد في معاملة النصارى ، وأنه كانت للدون بلاجيوس زعيم جليقية القوطى أخت بارعة الحسن ، شغف بها منوسة حباً ، ولكن بلاجيوس لم يوافق على زواجهما منه ، فاحتال منوسة ، وبعثه في مهمة إلى قرطبة ، وأسر الأميرة أثناء غيبته وتزوج بها قسراً ، فأسر بلاجيوس وأخته هذه الإهانة ، ولبثا برقبان الفرص حتى استطاعت الأميرة فراراً من أسرها وسارت مع أخيها إلى جبال جليقية حيث اعتصم بلاجيوس مع أنصاره ، وأعلن الخروج والثورة ، فأخطر منوسة حكومة قرطبة ، فأرسلت حملة لتأديب الثائر بقيادة «علقمة» . ولكن بلاجيوس استطاع مع أنصاره القلائل ، أن يعتصم بشعب الجبال ، فارتد المسلمون منهزمين ، وقتل علقمة ، وارتاع منوسة لفوز خصمه ، وخشى انتقام مواطنيه ، فحاول الفرار إلى الجنوب ، ولكنه وقع في يد شرذمة من الفلاحين النصارى فقتلوه ، ويضع ماريانا تاريخ هذه الحوادث في سنة ٧١٨ م^(١) .

ولكن رواية ماريانا هذه ظاهرة الضعف ، أولاً لأنه ليس بمعقول أن تعهد حكومة الأندلس المسلمة بحكم ولاية من ولاياتها إلى زعيم نصرانى . وثانياً لأن هذه الرواية تخالف في مجموع تفاصيلها كل ما كتبه الروايات المعاصرة عن شخصية منوسة ، وعن مصاهرته لأمرأكوتين . وثالثاً لأن تاريخ هذه الحوادث متأخر عن التاريخ الذى يعينه ماريانا بأكثر من عشرة أعوام .

ولما قتل منوسة ، وانهارت مشاريعه ، ورأى أودو ما حل بحليفه ، واستشعر الخطر الداهم تأهب للدفاع عن مملكته ، وبدأ الفرنج والقوط في الولايات الشمالية بالتحرك لمهاجمة المواقع الإسلامية . وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام لمقتل السمح وهزيمة المسلمين عند أسوار تولوشة ، ويتخذ العدة منذ بدء ولايته لاجتياح مملكة الفرنج كلها . فلما رأى الخطر محدقاً بالولايات الشمالية ، لم يربدا من السير إلى الشمال ، قبل أن يستكمل كل أهبطه . على أنه استطاع أن يجمع أعظم جيش سيره

(١) Mariana في تاريخ إسبانيا العام - الترجمة الفرنسية ج ٣ ص ٥ وما بعدها .

المسلمون إلى غاليس (فرنسا) منذ الفتح . وفي أوائل سنة ٧٣٢ م (أوائل سنة ١١٤ هـ) سار عبد الرحمن إلى الشمال متحرراً ولاية أراجون (الشجر الأعلى) ونافار (بلاد البشكس) وعبر البرنية من طريق بنبلونة ، ودخل فرنسا في ربيع سنة ٧٣٢ م ، وزحف توالاً على مدينة آرل الواقعة على نهر الرون ، لتخلفها عن أداء الجزية ، واستولى عليها بعد معركة عنيفة ، نشبت على ضفاف النهر بينه وبين قوات الدوق أودو . ثم زحف غرباً وعبر نهر الجارون ، وانقض المسلمون كالسيل على ولاية أكويتين^(١) ، يشخون في مدنها وبساتنها ، فحاول أودو أن يقف زحفهم ، والتقى الفريقان على ضفاف نهر الدردون ، فهزم الدوق هزيمة فادحة ، ومزق جيشه شر ممزق . قال إيزيدور الباجي : « والله وحده يعلم كم قتل في تلك الموقعة من النصارى » . وطارد عبد الرحمن جيش الدوق حتى عاصمته بوردو (بردال) . واستولى عليها بعد حصار قصير^(٢) ، وفر الدوق في نفر من صحبه إلى الشمال ، وسقطت أكويتين كلها في يد المسلمين . ثم ارتد عبد الرحمن نحو الرون ككرة أخرى واخترق الجيش الإسلامي برجونية واستولى على ليون وبزانسون^(٣) ، ووصلت سرياته حتى صانص ، التي تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط . وارتد عبد الرحمن بعد ذلك غرباً إلى ضفاف اللوار ليتم فتح هذه المنطقة ثم يقصد إلى عاصمة الفرنج^(٤) .

(١) كانت إمارة أكويتين في ذلك الحين تمتد بين نهر الرون شرقاً وغلبيج غسقونية (يسكونية) غرباً ، وبين نهر اللوار شمالاً ونهر الجارون جنوباً ، وتشمل من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبيرجور وسانتونج وبواتو وفنده وجزءاً من أنجو .

(٢) Dom Vissette : Ibid, I. p. 795

(٣) وهي مسقط رأس الشاعر الفرنسي الأشهر فكتور هوجو .

(٤) يقدم المستشرق كاردون شرحاً آخر لسير عبد الرحمن ، فيقول إنه زحف أولاً على آرل وحاصرها فبادر الكونت إلى إنجادهما ، فلقبه عبد الرحمن وهزمه وأجأه إلى الفرار ، ثم عبر عبد الرحمن نهر الجارون واستولى على بوردو . وكان الكونت قد جمع جيشاً جديداً وحاول رده فهزم مرة أخرى ، ثم اخترق عبد الرحمن بيرجور وسانتونج وبواتو وهو يشن في تلك الأنحاء حتى انتهى إلى تور Cardonne : Hist. de L'Afrique et de L'Espagne-I-129 ولكن عبد الرحمن اقتحم وادى الرون أيضاً كما بينا ، وقد شرحنا سيره طبقاً لجميع الروايات مجتمعة ، وطبقاً للمواقع الجغرافية التي تتعلق بهذه الغزوة . وقد يكون أن عبد الرحمن لم يسر بنفسه شمالاً نحو برجونية ، ولكن الجيش الإسلامي اقتحم هذه الأنحاء بلا ريب .

وتم هذا السير ، وافتتح نصف فرنسا الجنوبي كله من الشرق إلى الغرب ، في بضعة أشهر فقط . قال إدوارد جييون : « وامتد خط الظفر مدى ألف ميل من صحرة طارق إلى ضفاف اللوار . وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربي اسكتلندا . فليس الرّين بأمنع من النيل أو الفرات ، ولعل أسطولا عربياً كان يصل إلى مصب التيمز دون معركة بحرية ، بل ربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن في معاهد أكسفورد ، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة » .

الفصل السادس

بلاط الشهداء

معركة الإسلام والنصرانية . تحول هذه المعركة إلى سهول فرنسا . العرب والفرنجة على أطلال الدولة الرومانية . حلول الفرنج في فرنسا . خواص المجتمع الفرنجي . انحلال عصبية بالاستقرار . تفككه وتناfreه . خطر القبائل الجرمانية الوثنية . الدولة الإسلامية . انتظامها وتماسكها . تفرق الفرنج . سيل الفتح الإسلامي . عبد الرحمن النافق وجيشه . كيف يصوره الشاعر سوفى . اختراق عبد الرحمن لفرنسا . موقف الدوق أودو . كارل مارتل محافظ القصر . تمهله في لقاء العرب . ما تقوله الرواية في ذلك . التجاه أودو إلى كارل . مسير كارل للقاء الدرب . اجتياح العرب لأكوتين . أين التقى العرب والفرنج . هجوم المسلمين على مدينة تور . وصول الفرنج إلى اللوار . ارتداد عبد الرحمن إلى ما وراء النهر . حالة الجيش الإسلامي . وفرة غنائه وخطرها على نظامه . بدء القتال . الممارك المحلية . المعركة العامة . مهاجمة الفرنج لمعسكر الغنائم . ارتداد الفرسان المسلمين لحمايته . اختلال نظام المسلمين . مقتل عبد الرحمن النافق . الذعر في الجيش الإسلامي . رجحان كفة الفرنج . افتراق الجيشين . الخلاف في القيادة الإسلامية . تقرير الانسحاب . ارتداد المسلمين إلى الجنوب . توجس كارل مارتل . أقوال الرواية الكنسية . مبالغتها في التقدير والتصوير . وصفها لحوادث اللقاء الحاسم . صمت الرواية الأندلسية . وصفها لحوادث الغزوة الإسلامية . وصفها للجيش الإسلامي . حديثها عن الموتعة الحاسمة . أقوال المستشرق كاردون . تحفظ الرواية الإسلامية ومنز هذا التحفظ . بلاط الشهداء . لون الموتعة الدينى . أقوال المؤرخين المسلمين عنها . موقف الرواية النصرانية . مبالغتها في تصوير هزيمة المسلمين وتقدير خسائهم . ما يدحض هذا الإغراق . إحجام الفرنج عن مطاردة العرب . خسارة المسلمين بمقتل عبد الرحمن . النقد الحديث وبلاط الشهداء . كيف يتوه بأهميتها في خلاص النصرانية من سلطان الإسلام . تأملات .

أجل ، كان اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب على وشك الوقوع . وكان اجتياح الإسلام للعالم القديم سريعاً مذهشاً ، فإنه لم يمض على وفاة النبي العربي نصف قرن ، حتى سحق العرب دولة الفرس الشاخنة ، واستولوا على معظم أقطار الدولة الرومانية الشرقية ، من الشام إلى أقاصى المغرب ، وقامت دولة الخلافة قوية راسخة الدعائم فيما بين السند شرقاً والمحيط غرباً ، وامتدت شمالاً حتى أواسط آسيا الصغرى . وكانت سياسة الفتح الإسلامى مذ توطدت دولة الإسلام ، ترمى إلى غاية أبعد من امتلاك الأقطار ، وبسطة السلطان والملك . فقد كان الإسلام يواجه في الأقطار التى افتتحها من العالم القديم أنظمة

راسخة مدنية واجتماعية ، تقوم على أصول وثنية أو نصرانية . وكانت النصرانية قد سادت أقطار الدولة الرومانية منذ القرن الرابع . فكان على الخلافة أن تهدم هذا الصرح القديم ، وأن تقيم فوق أنقاضه في الأمم المفتوحة ، نظاماً جديدة تستمد روحها من الإسلام ، وأن تذلل النصرانية لصولة الإسلام ، سواء بنشر الإسلام بين الشعوب المفتوحة ، أو بإخضاعها من الوجهتين المدنية والاجتماعية لنفوذ الإسلام وسلطانه . وكان هذا الصراع بين الإسلام والنصرانية قصير الأمد في الشام ومصر وإفريقية ، فلم يمض نصف قرن حتى غمر الإسلام هذه الأمم بسيادته ونفوذه ، وقامت فيها مجتمعات إسلامية قوية شاملة ، وغاضت الأنظمة والأديان القديمة . ثم دفعت الخلافة فتوحها إلى أقاصى الأناضول من المشرق ، وجازت إلى أسبانيا من المغرب . فأما في المشرق فقد حاول الإسلام أن يعبر إلى الغرب عن طريق قسطنطينية ، وبعثت الخلافة جيوشها وأساطيلها الزاخرة إلى عاصمة الدولة الشرقية مرتين ، الأولى في عهد معاوية بن أبي سفيان في سنة ٤٩ هـ (٦٦٩ م) والثانية في عهد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ (٧١٧ م) ، وكانت قوى الخلافة في كل مرة تبدى في محاصرة قسطنطينية ، غاية الإصرار والعزم والجلد ، ولكنها فشلت في المرتين ، وارتدت عن أسوار قسطنطينية منهوكة خائرة ، وأخفق مشروع الخلافة في افتتاح الغرب من تلك الناحية ، ولقى الإسلام هزيمته الحاسمة في المشرق أمام أسوار بزنطية ، وقامت الدولة الشرقية في وجه الإسلام حصناً منيعاً يحمي النصرانية من غزوه وسلطانه . ولكن جيوش الإسلام جازت إلى الغرب عن طريق اسبانيا ، وأشرفت من هضاب البرنيه على باقي أمم أوروبا النصرانية ، ولولا تردد الخلافة وخلاف الزعماء ، لاستطاع موسى بن نصير أن ينفذ مشروعه في اختراق أوروبا من الغرب إلى المشرق ، والوصول إلى دار الخلافة بطريق قسطنطينية ، ولكان من المرجح أن تلقى النصرانية يومئذ ضربتها القاضية ، وأن يسود الإسلام أمم الشمال كما ساد أمم الجنوب ، ولكن الفكرة غاضت في مهدها لتوجس الخلافة وتردها .

على أن الفتوح التي قام بها ولاية الأندلس بعد ذلك في جنوبي فرنسا ، كانت طوراً آخر من أطوار ذلك الصراع بين الإسلام والنصرانية . فقد كانت مملكة الفرنج أعظم ممالك الغرب والشمال يومئذ ، وكانت تقوم في الغرب بحماية النصرانية ،

على نحو ما كانت الدولة الرومانية في الشرق ، بل كانت مهمتها في هذه الحماية أشق وأصعب ، إذ بينما كان الإسلام يهدد النصرانية من الجنوب ، كانت القبائل الوثنية الجرمانية تهددها من الشمال والشرق . وكانت الغزوات الإسلامية تقف في المبدأ عند سبتمانيا ومدنها ، ولكنها امتدت بعدئذ إلى أكويتين وضياف الجارون ، ثم امتدت إلى شمال الرون وولاية برجونية ، وشملت نصف فرنسا الجنوبي كله ، وهكذا بدا الخطر الإسلامي على مصير الفرنج والنصرانية قوياً ساطعاً ، وبدأت طوال ذلك الصراع الحاسم ، الذي يجب أن تتأهب لخوضه أُمم الفرنج والنصرانية كلها .

كانت المعركة في سهول فرنسا لداً بين الإسلام والنصرانية ، بيد أنها كانت من الجانب الآخر بين غزاة الدولة الرومانية ، والمتنافسين في اجتناء ترأثها . كانت بين العرب الذبن اجتاحوا أملاك الدولة الرومانية في المشرق والجنوب . وبين الفرنج الذبن حلوا في ألمانيا وغاليس (فرنسا) . والفرنج هم شعبة من القبائل البربرية التي غزت رومة وتقاسمت ترأثها ، من وندال وقوط وآلان وشوايبين . فكان ذلك اللقاء بين العرب والفرنج في سهول فرنسا ، أكثر من نزاع محلي على غزو مدينة أو ولاية بعينها : كان هذا النزاع في الواقع أبعد ما يكون مدى وأثراً ، إذ كان محوره تراث الدولة الرومانية العريض الشاسع ، الذي فاز العرب منه بأكبر غنم ، ثم أرادوا أن ينتزعوا ما بقي منه بأيدي منافسيهم غزاة الدولة الرومانية من الشمال .

وكانت هذه السهول الشمالية ، التي قدر أن تشهد موقعة الفصل بين غزاة الدولة الرومانية ، تضم مجتمعاً متنافراً ، لم تستقر بعد قواعده ونظمه على أسس متينة . ذلك أن القبائل الجرمانية التي عبرت نهر الرين وقضت على سلطان رومة في الأراضي المفتوحة ، كانت مزيجاً مضطرباً من الغزاة الظمأى إلى تراث رومة من الثروة والنعماء . وكان القوط قد اجتاحوا شمالي إيطاليا منذ القرن الخامس ، وحلوا في جنوبي غاليس واسبانيا . ولكن هذه الممالك البربرية لم تكن تحمل عناصر البقاء والاستقرار ، فلم يمض زهاء قرن آخر حتى غزا الفرنج فرنسا ، وانتزعوا نصفها الشمالي من يد حاكمه الروماني المستقل بأمره ، وانتزعوا نصفها الجنوبي من القوط ، وحلت في غاليس سلطة جديدة ومجتمع جديد . وكان الغزاة في كل

مرة يقيمون ملكهم على القوة وحدها ، ويقتسمون السلطة في نوع من الإقطاع ، فلا يمضى وقت طويل حتى تقوم في القطر المفتوح عدة إمارات محلية ، ولم يعن الغزاة بإقامة مجتمع متماسك ذى نظم سياسية واجتماعية ثابتة ، ولم يعنوا بالأخص بأن يندمجوا برعاياهم الحدود . فكان سكان البلاد المفتوحة من الرومان والغاليين ، الذين لبثوا قروناً يخضعون لسلطان رومة ، ماتزال تسود فيهم لغة رومة وحضارتها ، ولكن القبائل الجرمانية الغازية كانت تستأثر بالحكم والرياسة ، وتكون وحدها مجتمعاً منعزلاً ، لبثت تسوده الخشونة والبداءة أحقاباً ، قبل أن يتأثر بمدنية رومة وتراثها الفكرى والاجتماعى . وكان اعتناق الفرنج للنصرانية منذ عهد كلوفيس ، أكبر عامل فى تطور هذه القبائل وتهذيب عقليتها الوثنية وتقاليدها الوحشية . ثم كان استقرارها بعد حين فى الأرض المفتوحة ، وتوطد سلطانها وتمتعها بالنعماء والثراء ، بعد طول المغامرة والتجوال ، وشظف العيش ، وحرصها على حياة الدعة والرخاء ، عوامل قوية فى انحلال عصبيتها الحربية وفتور شغفها بالغزو ، وإذكاء رغبتها فى الاستعمار والبقاء . وهكذا كانت القبائل الجرمانية التى عبرت الرين تحت لواء الفرنج واستقرت فى غاليس ، قد تطورت فى أوائل القرن الثامن ، إلى مجتمع مستقر متماسك نوعاً . ولم تكن غاليس قد استحال عندئذ إلى فرنسا ، ولكن جذور فرنسا المستقبلية كانت قد وضعت ، وهىئ الأسباب والعوامل لنشوء الأمة الفرنسية . بيد أن هذا المجتمع رغم تمتعه بنوع من الاستقرار والتماسك ، كان وقت أن نفذ العرب إلى فرنسا ، فريسة الانحلال والتفكك ، وكان الخلاف يمزقه كما قدمنا . وكانت أكويتين وباقي فرنسا الجنوبية ، فى يد جماعة من الأمراء والزعماء المحليين ، الذين انتهزوا ضعف السلطة المركزية ، فاستقلوا بما فى أيديهم من الأقاليم والمدن . ثم كانت القبائل الجرمانية الوثنية ، فيما وراء الرين من جهة أخرى ، تحاول اقتحام النهر من آن لآخر ، وتهدد بالقضاء على مملكة الفرنج . فكان الفرنج يشغلون برد هذه المحاولات ويقتحمون النهر بين آونة وأخرى لدرء هذا الخطر ، ولإرغام القبائل الوثنية على اعتناق النصرانية . فكانت المسألة الدينية أيضاً عاملاً قوياً فى هذا النضال الذى يضطرم بين قبائل وعشائر تجمعها صلة الجنس والنسب . ولم ينقد مملكة الفرنج من ذلك الخطر ، سوى خلاف القبائل الوثنية وتنافسها وتفرق كلمتها^(١) .

هكذا كانت مملكة الفرنج والمجتمع الفرنجي في أوائل القرن الثامن ، أعنى حينما انساب تيار الفتح الإسلامى من اسبانيا إلى جنوبى فرنسا . وكان قد مضى منذ وفاة النبي العربى ، إلى عهد هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية (سنة ٧٣٢م) ، مائة عام فقط . ولكن العرب كانوا خلال هذا القرن ، قد افتتحوا جميع الأمم الواقعة بين السند شرقاً والمحيط غرباً ، واكتسحوا العالم القديم ، فى فيض مدهش من الظفر الباهر ، واستولوا على جميع أقطار الدولة الرومانية الجنوبية ، من الشام إلى أقاصى المغرب واسبانيا ، وعبروا البرنيه إلى أواسط فرنسا ، هذا بينما أنفقت القبائل الجرمانية الشمالية ، أكثر من ثلاثة قرون فى افتتاح أقطار الدولة الشمالية ، ومحاولة الاستقرار فيها . وبينما قامت الدولة الإسلامية ثابتة وطيدة الدعائم ، وقامت فى جميع أقطار الخلافة حكومات محلية قوية ، ومجتمعات إسلامية مستنيرة ، وجيوش غازية منظمة ، إذا بمعظم القبائل الجرمانية غزاة رومة من الشمال ، ما يزال إذا استثنينا مملكة الفرنج ، على حاله من البداوة والتجوال والفرق . وكان الفرنج هم قادة القبائل الجرمانية فى هذا الصراع ، الذى نشب فى سهول فرنسا ، وأذن طوره الحاسم بعبور المسلمين إلى فرنسا فى ربيع سنة ٧٣٢ م . وكان سيل الفتح الإسلامى ، ينذر باجتياح فرنسا منذ عشرين عاماً ، أعنى مذ عبر المسلمون جبال البرنيه بقيادة موسى بن نصير لأول مرة واستولوا على سبتمانيا ، ثم اقتحموا بعد ذلك وادى الرون وأكوتين غير مرة . ولكن مملكة الفرنج كانت يومئذ تشغل بالمعارك الداخلية ، وتقتتل حول السلطان والرياسة ، حتى ظفر كارل مارتل بمنصب محافظ القصر ، وأنفق أعواماً أخرى فى توطيد سلطانه ، بينما كان خصمه ومنافسه أودو أمير أكوتين ، يتلقى وحده ضربات العرب . فلما استفحل خطر الفتح الإسلامى ، وانساب نحو الشمال حتى برجونية ، فزع الفرنج وهبت القبائل الجرمانية فى أوستراسيا ونوستريا لتندود عن سلطانهما وكيانهما .

وكان الخطر داهماً حقيقياً فى تلك المرة ، لأن المسلمين عبروا البرنيه عندئذ فى أكبر جيش حشد ، وأتم أهبة اتخذت منذ الفتح . وكان على رأس الجيش الإسلامى قائد وافر الهمة والشجاعة والمقدرة هو عيد الرحمن الغافقى ، وهو أعظم

= فقيه استعراض حسن لأحوال المجتمع الجرمانى فى هذا العصر ، وعرض شائق لحوادث موقعة تور .

وراجع أيضاً Zeller : Hist. de l'Allemagne, p. 67

جندى مسلم عبر البرنيه . وكان قد ظهر ببراعته فى القيادة منذ موقعة تولوشة ، حيث استطاع إنقاذ الجيش الإسلامى من المطاردة عقب هزيمته ومقتل قائده السمح ، والارتداد إلى سبتانيا . وتبالغ الرواية الفرنجية فى تقدير جيش عبد الرحمن وأهبيه ، فتقلده بأربعمائة ألف مقاتل ، هذا غير جموع حاشدة أخرى صحبها لاستعمار الأرض المفتوحة . وهو قول ظاهر المبالغة . وتقلده بعض الروايات العربية بسبعين أو ثمانين ألف مقاتل ، وهو أقرب إلى الحقيقة والمعقول . وقد أثارت هذه الغزوة الإسلامية الشهيرة ، وهذا الجيش الضخم ، خيال الشاعر الأوروبى الحديث ، فترى الشاعر الإنجليزى سودى يقول فى منظومته عن ردريك آخر ملوك القوط .

« جمع لا يحصى .

« من شأم وبربر وعرب ، وروم خوارج .

« وفرس وقبط وتتر عصبة واحدة .

« يجمعها إيمان ، هائم راسخ الفتوة .

« وحمة مضطربة ، وأخوة مروعة .

« ولم يك الزعماء ،

« أقل ثقة بالنصر ، وقد شمعوا بطول ظفر

« يتيهون بتلك القوة الحارفة ،

« التى أيقنوا أنها كما اندفعت ،

« حينما كانوا بلا منازع ، ستندفع ظافرة إلى الأمام ،

« حتى يصبح الغرب المغلوب كالشرق ،

« بطأطئ الرأس لإجلالا لاسم محمد ،

« وينهض الحاج من أقاصى المنجمد ،

« ليطأ بأقدام الإيمان ، الرمال المحرقة ،

« المنتثرة فوق صحراء العرب وأراضى مكة الصلدة » (١) .

ونفذ عبد الرحمن فى جيشه الزاخر إلى فرنسا ، فى ربيع سنة ٧٣٢ م (أوائل سنة ١١٤ هـ) ، واقتحم وادى الرون وولاية أكويتين ، وشتت قوى الدوق أودو ، وأشرف بعد هذا السير الباهر على ضفاف نهر اللوار . وتقول بعض الروايات

الكنسية ، إن أودو هو الذى استدعى عبد الرحمن إلى فرنسا ، ليعاونه على محاربة خصمه كارل مارتل^(١). ولكن هذه الرواية مردودة غير معقولة ، لما قدمنا من أن أودو هو الذى بادر إلى مقاومة عبد الرحمن ورده ، وكانت مملكته وعاصمته أول غم للمسلمين . وكان ملك الفرنج يومئذ تيودوريك الرابع ، ولكن ملوك الفرنج كانوا فى ذلك العصر أشباحاً قائمة فقط . وكان محافظ القصر كارل مارتل هو الملك الحقيقى ، يستأثر بكل سلطة حقيقية ، وعليه يقع عبء الدفاع عن ملكه وأمنه . وكان منذ استفحل خطر الفتح الإسلامى يتخذ أهفته ويحشد قواه . ولكن عبد الرحمن سار إلى قلب فرنسا قبل أن يتحرك للقائه . وترد الرواية الإسلامية هذا التمهّل إلى خطة مرسومة مقصودة . فتقول فى هذا الموطن : « فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم قارلة وهذه سمة للموكلهم ، فقالت له ما هذا الحزى الباقى فى الأعقاب . كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس ، وعظيم ما فيها من العدة والعدد ، يجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم . فقال لهم ما معناه : الرأى عندى أن لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل من يصادره ، وهم فى إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا فى الرياسة ، ويستعين بعضهم ببعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر »^(٢). ونستطيع أيضاً أن نفسر تمهّل كارل مارتل بأنه كان يقصد إلى ترك خصمه ومنافسه أودو دون إغاثة ، حتى يقضى المسلمون على ملكه وسلطانة ، فيتخلص بذلك من منافسته ومناوآته . وعلى أى حال فإن عبد الرحمن كان قد اقتحم أكويتين وجنوب فرنسا كله ، حينما تأهب كارل مارتل للسير إلى لقائه . وجاء الدوق أودو بعد ضياع ملكه ، وتمزيق

(١) Bouquet : Recueil des Historiens de la Gaule et de la France. موسوعة

رواية القديس دق Vol. III. p. 310 . وراجع أيضاً موسوعة : Bayle : Dictionnaire

Historique et Critique تحت كلمة Abderame

(٢) المقر عن الحجارى فى المصهب (نفح الطيب ج ١ ص ١٢٩) . ويورد الحجارى هذه

الرواية بمناسبة عبور موسى بن نصير إلى فرنسا . ولكن ظاهر من أمم قارلة (كارل) أن الأمر يتعلق بالفزوة الكبيرة التى نتحدث عنها ؛ وإليها ترجمها الرواية الكنسية اللاتينية . راجع :

Gibbon : ibid, Ch. LII. حيث يورد نفس هذه الفقرة فى كلامه عن موقعة تور .

قواته يطلب العون والنجدة من خصمه القديم أعني كارل مارتل^(١). وكان كارل قد حشد جيشاً ضخماً من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة ، والعصابات المرتزقة فيما وراء الرين ، يمتزج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها ، ووجه جند غير نظاميين ، نصف عراة يتشحون بجلود الذئاب ، وتنسدل شعورهم الجعدة ، فوق أكفاهم العارية . وسار زعيم الفرنجة في هذا الجيش الحرار نحو الجنوب لملاقاة العرب في حمى الهضاب والربى ، حتى يفاجئ العدو في مراكزه قبل أن يستكمل الأهبة لرده . وكان الجيش الإسلامي قد اجتاح عندئذ جميع أراضي أكويتين ، التي تقابل اليوم من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبريجور وسانتونيغ وبواتو ، وأشرف بعد سيره المظفر على مروج نهر اللوار الجنوبية ، حيثما يلتقي بثلاثة من فروعه هي « الكريز » و « الفين » و « الكلين » .

ومن الصعب أن نعين بالتحقيق ، مكان ذلك اللقاء الحاسم في تاريخ الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية . ولكن المتفق عليه أنه السهل الواقع بين مدينتي بواتيه وتور ، حول نهري كلين وفين فرعَي اللوار ، على مقربة من مدينة تور . والرواية الإسلامية مقلدة موجزة في الكلام عن تلك الموقعة العظيمة ، وليس فيما لدينا من المصادر العربية عنها أى تفصيل شامل ، وإنما وردت تفاصيل للرواية الإسلامية عن الموقعة ، نقلها إلينا المؤرخ الإسباني كوندى سنعود إليها بعد . وتفيض الرواية الفرنجية والكنسية بالعكس في حوادث الموقعة ، وتقدم إلينا عنها تفاصيل شائعة ، ولكن يحفظها الريب وتنقصها الدقة التاريخية . وقد رأينا أن نحاول وصف الموقعة أولاً مما لدينا من أقوال الروائين ، ثم نعود بعد ذلك إلى ذكر كل منهما

انتهى الجيش الإسلامي في زحفه إلى السهل الممتد بين مدينتي بواتيه وتور كما قدمنا ، واستولى المسلمون على بواتيه ، ونهبوها وأحرقوا كنيسها الشهيرة . ثم هجموا على مدينة تور الواقعة على ضفة اللوار اليسرى ، واستولوا عليها وخرّبوا كنيسها أيضاً . وفي ذلك الحين كان جيش الفرنج قد انتهى إلى اللوار ، دون أن يشعر المسلمون بمقدمه بادئ بدء ، وأخطأت الطلائع الإسلامية تقدير عدده وعدته . فلما أراد عبد الرحمن أن يقتحم اللوار ، لملاقاة العدو على ضفته اليمنى ، فاجأه كارل مارتل بمجموعه الحرارة . وألنى عبد الرحمن جيش الفرنج يفوقه في

الكثرة ، فارتد من ضفاف النهر ثانية إلى السهل الواقع بين تور وبواتيه . وعبر كارل اللوار غربي تور ، وعسكر بجيشه إلى يسار الجيش الإسلامي بأميال قليلة ، بين نهري كلين وقيين فرعى اللوار .

وكان الجيش الإسلامي في حال تدعو إلى القلق والتوجس ، فإن الشقاق كان يضطرم بين قبائل البربر التي يتألف منها معظم الجيش ، وكانت تتوق إلى الانسحاب ناجية بغنائمها الكبيرة . وكان المسلمون في الواقع قد استصفوا ثروات فرنسا الجنوبية أثناء سيرهم المظفر ، ونهبوا جميع كنائسها وأديارها الغنية ، وأثقلوا بما لا يقدر ولا يحصى ، من الذخائر والغنائم والسبي ، فكانت هذه الأثقال النفيسة تحدث الخلل في صفوفهم ، وتثير بينهم ضروب الخلاف والنزاع . وقدر عبد الرحمن خطر هذه الغنائم على نظام الجيش وأهبطه ، وخشى مما تثيره في نفوس الجند من الحرص والانشغال ، وحاول عبثاً أن يحملهم على ترك شيء منها . ولكنه لم يشدد في ذلك خيفة التمرد . وكان المسلمون من جهة أخرى ، قد أنهكتهم غزوات أشهر متواصلة ، مذ دخلوا فرنسا ، ونقص عددهم بسبب تخلف حاميات عديدة منهم ، في كثير من القواعد والمدن المفتوحة . ولكن عبد الرحمن تأهب لقتال العدو وخوض المعركة الحاسمة بعزم وثقة .

وبدأ القتال في اليوم الثاني عشر أو الثالث عشر من أكتوبر سنة ٧٣٢ م (أواخر شعبان سنة ١١٤ هـ) فنشبت بين الجيشين معارك محلية مدى سبعة أيام أو ثمانية ، احتفظ فيها كل معركته . وفي اليوم التاسع نشبت بينهما معركة عامة ، فاقتلوا بشدة وتعادل ، حتى دخول الليل . واستأنفا القتال في اليوم التالي ، وأبدى كلاهما منتهى الشجاعة والجلد ، حتى بدا الإعياء على الفرنج ، ولاح النصر في جانب المسلمين . ولكن حدث عندئذ أن افتتح الفرنج ثغرة إلى معسكر الغنائم الإسلامي ، وخشى عليه من السقوط في أيديهم ، أو حدث كما تقول الرواية أن ارتفعت صيحة مجهول في المراكز الإسلامية ، بأن معسكر الغنائم سوف يقع في يد العدو . فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة إلى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم ، وتوالت كثرة من الجند للدفاع عن غنائمهم ، فدب الخلل إلى صفوف المسلمين . وعبثاً حاول عبد الرحمن أن يعيد النظام وأن يهدئ روع الجند ، وبينما هو يتنقل أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها ، إذ أصابه من جانب الأعداء سهم أودى

بجياته ، فسقط قتيلًا من فوق جواده ، وعم الذعر والاضطراب في الجيش الإسلامي ، واشتدت وطأة الفرنج على المسلمين ، وكثر القتل في صفوفهم . ولكنهم صمدوا للعدو حتى جن الليل ، وافترق الجيشان دون فصل . وكان ذلك في اليوم الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ٧٣٢م (أوائل رمضان سنة ١١٤هـ)^(١) . وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الإسلامي ، واختلف الرأي وهاجت الخواطر ، وسرى التوجس والفرع . ورأى الزعماء أن كل أمل في النصر قد غاض ، فقرروا الانسحاب على الأثر . وفي الحال غادر المسلمون مراكزهم ، وارتدوا في جوف الليل وتحت جنح الظلام ، جنوباً صوب قواعدهم في سبتانيا ، تاركين أثقالهم ومعظم أسلحتهم غنماً للعدو . وفي فجر الغد ، لاحظ كارل وحليفه أودو سكون المعسكرات العربية ، فتقدما منها بحذر وإحجام ، فألفياها خاوية خالية إلا من بعض الحرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب ، فذبخوا على الأثر . وخشي كارل الخديعة والكمين فاكثني بانسحاب العدو ، ولم يجرؤ على مطاردته ، وآثر العود بجيشه إلى الشمال .

هذه هي صورة لحوادث تلك الموقعة الشهيرة ، طبقاً لمختلف الروايات . والآن نورد ما تقوله الرواية الفرنجية الكنسية ثم الرواية الإسلامية .

أما الرواية الفرنجية الكنسية فيشوبها كثير من المبالغة والتحامل والتعصب ، وهي تصف مصائب فرنسا والنصرانية من جراء غزوة العرب ، في صور مثيرة محزنة ، وتفصل حوادث هذه الغزوة فتقول إحداها : « لما رأى الدوق أودو أن الأمير شارل (كارل) قد هزمه وأذله ، وأنه لا يستطيع الانتقام ، إذا لم يلق النجدة من إحدى النواحي ، تحالف مع عرب اسبانيا ، ودعاهم إلى معاونته ضد الأمير شارل وضد النصرانية ، وعندئذ خرج العرب وملكهم عبد الرحمن ، من

(١) تجمع معظم الروايات الفرنجية والكنسية على أن الموقعة كانت في أكتوبر سنة ٧٣٢ م . وهذا التاريخ يوافق بالهجرية شعبان سنة ١١٤ . بيد أن الرواية الإسلامية تختلف في تحديد هذا التاريخ ؛ فالبعض يقول إنها كانت سنة ١١٥هـ (ابن عبد الحكم ص ٣١٧ ، والضبي في بغية الملتصق رقم ١٠٢١ ، وابن عذاري في البيان المغرب ج ١ ص ٣٧ ؛ ولكنه يعود فيذكر أن الموقعة كانت سنة ١١٤هـ - ج ٢ ص ٢٨) . ولكن ابن الأثير (ج ٥ ص ٧٤) ، وابن خلدون (ج ٤ ص ١١٩) والمقرئ عن ابن حيان (ج ١ ص ١٠٩ و ج ٢ ص ٥٦) متفقون على أنها كانت سنة ١١٤هـ ؛ ويقول الأخير إنهما كانت في رمضان سنة ١١٤هـ ، وهو أصح تعيين يتفق مع الرواية الغربية .

اسبانيا ، مع جميع نسايم وأولادهم وعددهم وأقوانهم ، في جموع لا تحصى ولا تقدر ، وحملوا كل ما استطاعوا من الأسلحة والذخائر ، كأنما عولوا على البقاء في أرض فرنسا ، ثم اخترقوا مقاطعة جيروند ، واقتحموا بورديو ، وقتلوا الناس ، ونهبوا الكنائس ، وخربوا كل البسائط ، وساروا حتى پواتيو...» (١). وتقول أخرى : « ولما رأى عبد الرحمن أن السهول قد غصت بجموعه ، اقتحم الجبال ، ووطئ السهول بسيطها ووعرها ، وتوغل مثخناً في بلاد الفرنج ، وصحى بسيفه كل شيء ، حتى أن أودو حينما تقدم لقتاله على نهر الجارون وفر منهزماً أمامه ، لم يكن يعرف عدد القتلى سوى الله وحده ، ثم طارد عبد الرحمن الكونت أودو ، وحينما حاول أن ينهب كنيسة تور المقدسة ويحرقها ، التى بكارل أمير فرنج أوستراسيا ، وهو رجل حرب منذ فتوته ، وكان أودو قد بادر بإخطاره . وهناك قضى الفريقان أسبوعاً في التأهب ، واصطفا أخيراً للقتال ، ثم وقفت أم الشمال كسور منيع ، أو منطقة من الثلج لا تحترق ، وأثخنت في العرب بحد السيف .

« ولما أن استطاع أهل أوستراسيا (الفرنج) ، بقوة أطرافهم الضخمة ، وبأيديهم الحديدية ، التى رسل من الصدر توأ ضرباتها القوية ، أن يجهزوا على جموع كبيرة من العدو ، التقوا أخيراً بالملك (عبد الرحمن) وقضوا على حياته . ثم دخل الليل ففصل بين الجيشين ، والفرنج يلوحون بسيوفهم عالية احتقاراً للعدو . فلما استيقظوا في فجر الغد ، وزأوا خيام العرب الكثيرة كلها مصفوفة أمامهم ، تأهبوا للقتال معتقدين أن جموع العدو جاثمة فيها . ولكنهم حينما أرسلوا طلائعهم ، ألفوا جموع المسلمين ، قد فرت صامتة تحت جنح الليل ، مولية شطر بلادها . على أنهم خشوا أن يكون هذا الفرار خديعة يعقبها كمين من جهات أخرى ، فأحاطوا بالمعسكر حذرین دھشین . ولكن الغزاة كانوا قد فروا ، وبعد أن اقتسم الفرنج الغنائم والأسرى فيما بينهم بنظام ، عادوا مغتبطين إلى ديارهم » (٢) .

(١) هذه هى رواية القديس دنى Saint Denis - وردت فى موسوعة Bouquet . ووردت فى هذه الموسوعة أيضاً أقوال آخرين من الرواة الأحياء .

(٢) هذه هى رواية إيزيدور الباجى وهو معاصر للموقعة . راجع Cressy : ibid , Ch. VI و Hodgkin , Charles the Great ; Ch. III وكذلك Gibbon : ibid , Ch. LII فهى تنقل هذه التفاصيل أو تلخص .

وأما الرواية الإسلامية فهي ضئيلة في هذا الوطن كل الضن كما أسلفنا . ويمر معظم المؤرخين المسلمين على تلك الحوادث العظيمة ، بالصمت أو الإشارة الموجزة كما سنرى . غير أن المؤرخ الإسباني كوندى يقدم إلينا خلاصة من أقوال ينسبها إلى الرواية الأندلسية المسلمة^(١) ، عن غزو فرنسا وعن موقعة تور ؛ ونحن ننقلها مترجمة فيما يلي :

« لما علم الفرنج وسكان بلاد الحدود الإسبانية بمقتل عثمان بن أبي نسعة ، وسمعوا بضخامة الجيش الإسلامى الذى سبر إليهم ، استعدوا للدفاع جهدهم ، وكتبوا إلى جيرانهم يلمسون الغوث . وجمع الكونت وسيد هذه الأنحاء (يريد أودو) قواته وسار للقاء العرب ، ووقت بينهم معارك شجال . ولكن النصر كان إلى جانب عبد الرحمن بوجه عام ، فاستولى تبعاً على كل مدن الكونت . وكان جنده قد نفخ فيهم حسن طالعهم المستمر ، فلم يكونوا يرغبون إلا في خوض المعارك ، واثقين كل الثقة في شجاعة قائدهم وبراعته .

« وعبر المسلمون نهر الجارون ، وأحرقوا كل المدن الواقعة على ضفافه ، وخرّبوا جميع الضياع ، وسبوا جمعاً لا تحصى ، وانقض هذا الجيش على البلاد كالعاصفة المخرّبة فاجتاحها ، وأذكى اضطرام الحند ، نجاح غزواتهم ، واستمرار ظفرهم وما أصابوا من الغنائم .

« ولما عبر عبد الرحمن نهر الجارون اعترضه أمير هذه الأنحاء ، ولكنه هزمه ففر أمامه وامتنع بمدينته . فحاصرها المسلمون ولم يلبثوا أن اقتحموها ، وسحقوا بسيفهم الملاحقة كل شيء . ومات الكونت مدافعاً عن مدينته ، واحتز الغزاة رأسه^(٢) . ثم ساروا مثقلين بالغنائم في طلب انتصارات أخرى ، وارتجت بلاد

(١) لم نقف في أى المصادر العربية التى بين أيدينا ، على أصل هذه التفاصيل التى يقول كوندى إنه اقتبسها من الرواية العربية ، ولم يذكر هو مصدر اقتباسه . ولعله نقلها عن بعض مخطوطات الإسكوريال أو المجموعات الخاصة وقد فقدت آثارها اليوم ، كما فقدت مخطوطات كثيرة من المجموعة الأندلسية بالإسكوريال . ولعله أيضاً نقل شيئاً منها من شذور لابن حيان وابن بشكوال كانت موجودة في عصره ولم تصل إلينا . ويلوح لنا أن الحجارى في كتابه « المسهب » قد تناول هذه الحوادث بالتفصيل حيث نقل المقرئ عنه شذرة تفيد ذلك . (نفخ ج ١ ص ١٢٩) ، ولعل كوندى وقف على شيء منها . على أننا لم نعر خلال بحثنا في مجموعة الإسكوريال على أثر لمثل هذه المخطوطات أو الأوراق . راجع حديث كوندى عن مصادره : **Conde : ibid., V.I. Prologo, p. 20 & 21.**

(٢) هذا خطأ بين ، لأن الكونت أودو لم يقتل عندئذ ، بل فر إلى الشمال ، وعاد لقتال عبد الرحمن في تور كما قدمنا .

الفرنج كلها رعباً لاقترب جموع المسلمين ، وهرع الفرنج إلى ملكهم قلدوس في طلب الغوث ، وأخبروه بما يأتيه الفرسان المسلمون من العيث والسفك ، وكأنهم في كل مكان ، وكيف أنهم احتلوا واجتاحوا كل أقاليم أربونة وتولوشة وبردال^(١) وقتلوا الكونت . فهدأ الملك روعهم ووعدهم بالغوث العاجل . وفي سنة ١١٤ هـ سار على رأس جموع لا تحصى للقاء المسلمين . وكان المسلمون قد اقربوا عندئذ من مدينة تور ، وهناك علم عبد الرحمن بأمر الجيش العظيم الذي سيلقى . وكان جيشه قد دب إليه الخلل ، لأنه كان مثقلاً بالغنائم من كل ضرب . ورأى عبد الرحمن وأولوا الحزم من زملائه ، أن يحملوا الجند على ترك هذه الأثقال ، والاقتصار على أسلحتهم وخيولهم ، واكنهم خشوا التمرد أو أن يشبطوا عزائم الجند ، واستسلموا لرأى الواثقين المستهترين . واعتمد عبد الرحمن على شجاعة جنده ، وحسن طالعهم المستمر . ولكن الاضطراب خطر خالد على سلامة الجيوش . نعم إن الجند يحملهم ظمأ الغم ، قد أتوا جهوداً لم يسمع بها ، فطوقوا مدينة تور ، وقاتلوا حصونها بشدة رائعة ، حتى سقطت في أيديهم أمام أعين الجيش القادم لإنقاذها ، وانقض المسلمون على أهلها كالضواري المفترسة . وأمعنوا القتل فيهم . قالوا ، ولعل الله أراد أن يعاقب المساميين على تلك الآثام . وكان طالعهم قد ولى .

« وعلى ضفاف نهر « الأوار » (اللوار) اصطف رجال اللغتين ، والتقى المسلمون والنصارى ، وكلاهما جزع من الآخر ، وكان عبد الرحمن ثقة منه بظفريه المستمر ، هو البادئ بالهجوم ، فانقض بفرسانه على الفرنج بشدة ، وقابله الفرنج بالمثل . ودامت المعركة ذريعة مروعة طوال اليوم حتى جن الليل . وفرق بين الجيشين . وفي اليوم التالى استؤنف القتال منذ الفجر بشدة ، وشق بعض مقدمى المسلمين طريقهم إلى صفوف العدو وتوغلوا فيها . ولكن عبد الرحمن لاحظ والمعركة في أوج اضطرامها ، أن جماعة كبيرة من فرسانه ، غادرت الميدان بسرعة لحماية الغنائم المكسدة في المعسكر العربى ، لأن العدو أخذ يهددها . فأحدثت هذه الحركة خللاً في صفوف المسلمين ، وخشى عبد الرحمن عاقبة هذا الاضطراب ، فأخذ يشب من صف إلى صف يحث جنوده على القتال ، ولكنه ما لبث أن أدرك أنه يستحيل عليه ضبطهم ، فارتد يحارب مع أشجع جنده حينما استقرت المعركة ،

(١) مدينة بوردو .

حتى سقط قتبلا مع جواده وقد أثنى طعناً . وهنا ساد الخلل في الجيش الإسلامي وارتد المسلمون في كل ناحية ، ولم يعاونهم على الانسحاب من تلك المعركة الهائلة سوى دخول الليل .

« وانهز النصارى هذه الفرصة فطاردوا الجنود المهزومة أياماً عديدة ، واضطر المسلمون أثناء انسحابهم أن يحملوا عدة هجمات ، واستمر الصراع بين منازر مروعة حتى أربونة .

« وقد وقعت هذه الهزيمة الفادحة بالمسلمين ، وقتل قائدهم الشهير عبد الرحمن سنة ١١٥ هـ . ثم أن ملك فرنسا حاصر مدينة أربونة ، ولكن المسلمين دافعوا عنها بشجاعة فائقة ، حتى أرغم على رفع الحصار ، وارتد إلى داخل بلاده وقد أصابته خسائر كبيرة » (١) .

وأورد المؤرخ كاردون من جهة أخرى في كلامه عن الموقعة ، فقرة ذكر أنه نقلها عن ابن خلكان جاء فيها : « لما استولى العرب على قرقشونة خشي قارله (كارل) أن يتوغلوا في الفتح ، فسار لقتالهم في الأرض الكبيرة (فرنسا) في جيش ضخم ، وعلم العرب بقدمه وهم في لودون (ليون) وأن جيشه يفوقهم بكثرة ، فعملوا على الارتداد . وسار قارله حتى سهل أنيسون دون أن يلقى أحداً إذ احتجب العرب وراء الجبال وامتنعوا بها ، فطوق هذه الجبال دون أن يدرى العرب ، ثم قاتلهم حتى هلك عدد عظيم منهم ، وفر الباقون إلى أربونة . فعاصر قارله أربونة مدة ، ولم يستطيع فتحها فارتد إلى أراضيه ، وأنشأ قلعة وادى رذونة (الرون) ، ووضع فيها حامية قوية لتكون حداً بينه وبين العرب » (٢) .

ونعود بعد ذلك إلى الرواية الإسلامية فنقول إن المؤرخين المسلمين يعمرون على حوادث هذه الموقعة الشهيرة إما بالصمت أو الإشارة الموجزة . ويجب أن نذكر بادئ بدء أن موقعة تور ، تعرف في التاريخ الإسلامي بواقعة البلاط أو بلاط

(١) Conde : *ibid* , Vol. I, p. 86-88

(٢) راجع : Cardonne : *ibid* , V.I. p.129-131 . وقد بحثنا طويلاً في كتاب ونهات الأعيان لابن خلكان في مظان وجود هذه التفاصيل فلم نعر بها . ولعل كاردون وقد كتب في أواسط القرن الثامن عشر ، واستعان بمخطوطات عربية في المكتبة الملكية في باريس ، قد نقل عن نسخة لابن خلكان فيها زيادات عن النسخة التي بين أيدينا . ولسنا نعلم من جهة أخرى أن لابن خلكان مؤلفاً تاريخياً آخر يمكن أن يحتوى مثل هذه التفاصيل .

الشهداء ، لكثرة من استشهد فيها من أكابر المسلمين والتابعين . وفي هذه التسمية ذاتها ، وفي تحفظ الرواية الإسلامية ، وفي لهجة العبارات القليلة التي ذكرت بها الواقعة ، ما يدل على أن المؤرخين المسلمين ، يقدرون خطورة هذا اللقاء الحاسم بين الإسلام والنصرانية ، ويقدرّون فداحة الخطب الذي نزل بالإسلام في سهول تور . ويدل على لون الواقعة الديني ما تردده الأسطورة الإسلامية ، من أن الأذان لبث عصوراً طويلة يسمع في بلاط الشهداء^(١) . ونستطيع أن نحمل تحفظ المؤرخين المسلمين في هذا المقام ، على أنهم لم يروا أن يبسطوا القول في مصاب جلل نزل بالإسلام ، ولا أن يفحصوا في تفاصيله المؤلة ، فاكتفوا بالإشارة الموجزة ، ولم يكن ثمة مجال للتعليل أيضاً ، ولا التحدث عن نتائج خطب ، لاريب أنه كان ضربة للإسلام ولطامع الخلافة ومشاريعها . وإذا استثنينا بعض الروايات الأندلسية التي كتبت عن الواقعة في عصر متأخر ، والتي نقلناها فيما تقدم ، فإن المؤرخين المسلمين يتفقون جميعاً في هذا الصمت والتحفظ . وهذه طائفة من أقوالهم وإشاراتهم الموجزة :

قال ابن عبد الحكم ، وهو من أقدم رواة الفتوح الإسلامية وأقرب من كتب عن فتوح الأندلس ما يأتي : « وكان عبيدة (يريد والى إفريقية) قد ولى عبد الرحمن بن عبد الله العكبي على الأندلس ، وكان رجلاً صالحاً فغزا عبد الرحمن إفريقية ، وهم أقاصى عدو الأندلس ، فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم . . . ثم خرج إليهم غازياً فاستشهد وعامة أصحابه ، وكان قتله فيما حدثنا يحيى عن الليث في سنة خمسة عشر ومائة^(٢) . ولم يذكر الواقدي والبلاذري والطبري وهم أيضاً من أقدم رواة الفتوح شيئاً عن الواقعة . وقال ابن الأثير في حوادث سنة ثلاث عشرة ومائة مردداً لرواية ابن عبد الحكم . « ثم إن عبيدة استعمل على الأندلس عبد الرحمن ابن عبد الله ، فغزا إفريقية وتوغل في أرضهم وغنم غنائم كثيرة . ثم خرج غازياً ببلاد الفرنج في هذه السنة (أعنى ١١٣ هـ) ، وقيل سنة أربع عشرة ومائة وهو الصحيح ، فقتل هو ومن معه شهداء^(٣) . وينسب ابن خلدون الواقعة خطأ لابن الجحباب والى مصر وإفريقية فيقول : « وقدم بعده (أى بعد المهيم) محمد

(١) المقري عن ابن حيان (نفع الطيب ج ٢ ص ٥٦) .

(٢) فتوح مصر وأخبارها ص ٢١٦ ٢١٧ .

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٦٤ .

ابن عبد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية فدخلها (أى الأندلس) سنة ثلاث عشرة ، وغزا إفرنجة وكانت له فيهم وقائع ، وأصيب عسكره في رمضان سنة أربع عشرة فولى سنتين^(١). ولدنا من الرواية الأندلسية ما قاله صاحب « أخبار مجموعة » عند ذكر ولاية الأندلس وهو : « ثم (أى وليها) عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، وعلى يده استشهد أهل البلاط الشهداء ، واستشهد معهم واليهم عبد الرحمن »^(٢). ونقل الضبى في ترجمة عبد الرحمن ما ذكر ابن عبد الحكم عن الواقعة^(٣). وقال الحميدى وهو مؤرخ الأندلس في حديثه عن عبد الرحمن : « وعبد الرحمن للغافقى هذا من التابعين ... استشهد في قتال الروم بالأندلس سنة خمس عشرة ومائة »^(٤). وقال ابن عذارى المراكشى : « ثم ولى الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، فغزا الروم واستشهد مع جماعة من عسكره سنة ١١٥ ، بموضع يعرف ببلاط الشهداء »^(٥) وقال في موضع آخر : « ثم ولى الأندلس عبد الرحمن هذا (أى الغافقى) ثانية وكان جلوسه لها في صفر سنة ١١٢ فأقام والياً سنتين وسبعة أشهر وقيل وثمانية أشهر ، واستشهد في أرض العدو في رمضان سنة ١١٤ »^(٦). وقال المقرئ فيما نقل : « ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية ، فدخلها (أى الأندلس) سنة ثلاث عشرة ، وغزا الإفرنجة وكانت له فيهم وقائع ، وأصيب عسكره في رمضان سنة أربع عشرة في موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة »^(٧). ونقل في موضع آخر : « وذكر أنه قتل (والإشارة هنا خطأ إلى السمع بن مالك) في الواقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البلاط ، وكانت جنود الإفرنجة قد تكاثرت عليه ، فأحاطت بالمسلمين فلم ينج من المسلمين أحد . قال ابن حبان ،

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ ، وفي نسبه الواقعة لمحمد بن الحبحاب خطأ بين لأن ابن الحبحاب كان عامل مصر ، ولم يندب لولاية إفريقية سوى سنة ست عشرة ومائة . ولم يل هو أو ولده الأندلس قط (راجع ابن عبد الحكم ص ٢١٧) .

(٢) أخبار مجموعة في فتح الأندلس ص ٢٥ .

(٣) بغية الملتبس رقم ١٠٢٤ .

(٤) جذوة المقتبس (طبع القاهرة) ص ٢٥٦ .

(٥) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧ .

(٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨ .

(٧) نفع الطيب ج ١ ص ١٠٩ .

فيقال إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن . ونقل عن ابن حيان : « قال دخل الأندلس (أى عبد الرحمن) حين ولها ولايته الثانية من قبل ابن الجحباب في صفر سنة ثلاث عشرة ومائة ، وغزا الإفرنج فكانت له فيهم وقائع جمّة إلى أن استشهد ، وأصيب عسكره في موضع يعرف ببلاط الشهداء . قال ابن بشكوال وتعرف غزوته هذه بغزوة البلاط »^(١) .

هذه الفقرات والإشارات الموجزة ، التي تكاد تتفق جميعاً في اللفظ والمعنى ، هي ما ارتضت الرواية الإسلامية أن تقدمه إلينا في هذا المقام ، وإن كان في تحفظها ذاته ما ييم عن تقديرها لرهبة الحادث وخطورته وبعد آثاره . وإذا كان صمت الرواية الإسلامية تملّيه فداحة الخطب الذي أصاب الإسلام في سهول تور ، فإن الرواية النصرانية تفيض بالعكس في تفاصيل الموقعة إفاضة واضحة ، وتشيد بظفر النصرانية ونجاتها من الخطر الإسلامي ، وترفع بطولة كارل مارتل إلى السماكين . وتذهب الرواية النصرانية ، ومعظم كتابها من الأخبار المعاصرين ، في تصوير نكبة المسلمين إلى حد الإغراق ، فتزعم أن القتلى من المسلمين في الموقعة بلغوا ثلاثمائة وخمسة وسبعين ألفاً ، في حين أنه لم يقتل من الفرنج سوى ألف وخمسة . ومنشأ هذه الرواية رسالة أرسلها الدوق أودو إلى البابا جريجوري الثاني ، يصف فيها حوادث الموقعة وينسب النصر لنفسه ، فنقلتها التواريخ النصرانية المعاصرة واللاحقة ، كأنها حقيقة يستطيع العقل أن يسيغها . بيد أنها ليست سوى محض خرافة ، فإن الجيش الإسلامي كله ، لم يبلغ حين دخوله فرنسا على أقصى تقدر ، أكثر من مائة ألف^(٢) . والجيش الإسلامي لم يهزم في تور ولم يسحق ، بالمعنى الذي تفهم به الهزيمة الساحقة ، ولكنه ارتد من تلقاء نفسه بعد أن لبث طوال المعركة الفاصلة ، يقاتل حتى المساء محتفظاً بمراكزه أمام العدو ، ولم يرتد أثناء القتال ولم يهزم . ومن المستحيل أن يصل القتل الذريع في جيش يحافظ على ثباته ومواقفه ، إلى هذه النسبة الخيالية . ومن المعقول أن تكون خسائر المسلمين فداحة في مثل هذه المعارك الهائلة ، وهذا ما تسلم به الرواية الإسلامية . ولكن مثل هذه

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) وهذا التقدير يأخذ به بعض المؤرخين الغربيين أيضاً ، مثال ذلك المؤرخ الفرنسي

Mezerai . راجع التعليقات في موسوعة Bayle ، تحت كلمة Abderame .

الحسائر لا يمكن أن تعدو بضع عشرات الألوف في جيش لم يزد على مائة ألف . وأسطع دليل على ذلك هو حذر الفرنج وإحجامهم عن مطاردة العرب عقب الموقعة ، وتوجسهم أن يكون انسحاب العرب خديعة حربية ، فلو أن الجيش الإسلامي انتهى إلى أنقاض ممزقة ، لبادر الفرنج بمطاردته والإجهاز عليه . ولكنه كان ما يزال من القوة والكثرة إلى حد يخيف العدو ويرده^(١) . على أن خسارة المسلمين كانت بالأخص فادحة في نوعها ، تتمثل في مقتل عبد الرحمن وجمع كبير من زعماء الجيش وقادته . بل كان مقتل عبد الرحمن أفدح ما في هذه الخسارة ، فقد كان خير ولاية الأندلس ، وكان أعظم قائد عرفه الإسلام في الغرب ، وكان الرجل الوحيد الذي استطاع هيبته وقوة خلاله ، أن يجمع كلمة الإسلام في إسبانيا ، فكان لمقتله في هذا المأزق العصيب ، ضربة شديدة لمثل الإسلام ومشاريع الخلافة في افتتاح الغرب^(٢) .

ويعلق النقد الحديث على هذا اللقاء بين الإسلام والنصرانية أهمية كبرى ، وبنوه بخطورة آثاره وبعد مداها في تغيير مصائر النصرانية وأمم الغرب ، ومن ثم في تغيير تاريخ العالم كله . وإليك طائفة مما يقوله أكبر مؤرخي الغرب ومفكره في هذا المقام :

قال إدوارد جيبون ، إن حوادث هذه الموقعة « أنقذت آباءنا البريطانيين وجيراننا الغالين (الفرنسيين) من نير القرآن المدنى والدينى ، وحفظت جلال رومة ، وأخرت استعباد قسطنطينيه ، وشدت بأزر النصرانية ، وأوقعت بأعدائها بذور التفرق والفسل »^(٣) . ويعتبر المؤرخ أرنولد الموقعة « إحدى هاته المواقف

(١) قال ادوار جيبون تعليفاً على مزاعم الرواية الفرنجية « ولكن تلك القصة الخرافية يمكن ردّها بحذر الناقد الفرنسى (كارل مارتل) إذ توجس من شرّك المطاردة ومفاجأتها ورد حلفاء الألمان إلى أوطانهم . ان سكّون القاتع يتمّ من فقد الدماء والقوة ، وأن أشنع تمزيق للعدو لا يقع حين التهام الصفوف ، وإنما حين الانسحاب وتولية الأدبار » .

(٢) راجع موسوعة Bayle تحت كلمة **Abderame** ، ففيها أيضاً إنكار للرواية الفرنجية من خسائر العرب . وفي هذه الموسوعة تعليقات وملاحظات مفيدة لطائفة من المؤرخين الفرنسيين تجمع كلها على التأكيد بمبالغة الرواية الفرنجية . وراجع أيضاً **Dom Wissette: ibid , V.I. p. 797** حيث يدحض مزاعم الروايات النصرانية .

الرهبة لنجاة الإنسانية وضمان سعادتها مدى قرون»^(١) . ويقول السير إدوار كيريزي : « إن النصر العظيم الذي ناله كارل مارتل على العرب سنة ٧٣٢ وضع حداً حاسماً لفتوح العرب في غرب أوروبا ، وأنقذ النصرانية من الإسلام ، وحفظ بقايا الحضارة القديمة ، وبذور الحضارة الحديثة ، ورد التفوق القديم للأمم الهندية الأوروبية على الأمم السامية»^(٢) . ويقول فون شليجل في كلامه عن الإسلام والإمبراطورية العربية : « ما كاد العرب يتمون فتح إسبانيا حتى تطلعوا إلى فتح غاليا وبرجونية . وإيكن النصر الساحق الذي غنمه بطل الفرنج كارل مارتل بين تور وبواتيه وضع لتقدمهم حداً ، وسقط قائدهم عبد الرحمن في الميدان مع زهرة جنده . وبذا أنقذ كارل مارتل بسيفه أُم الغرب النصرانية من قبضة الإسلام الفتاكة ، الهدامة إلى الذروة»^(٣) ، ويقول رانكه : « إن فاتحة القرن الثامن من أهم عصور التاريخ ، ففيها كان دين محمد ينذر بامتلاك إيطاليا وغاليا ، وقد وثبت الوثنية كرة أخرى إلى ما وراء الرين . فنهض إزاء ذلك الخطر فتى من عشرة جرمانية هو كارل مارتل ، وأيد هيبة النظم النصرانية المشرفة على الفناء ، بكل ما تقتضيه غريزة البقاء من عزم ، ودفعها إلى بلاد جديدة»^(٤) . ويقول زيلر : « كان هذا الانتصار بالأخص انتصار الفرنج والنصرانية . وقد عاون هذا النصر زعيم الفرنج على توطيد سلطانه ، لا في غاليا وحدها ولكن في جرمانيا التي أشركها في نصره»^(٥) . على أن هناك فريقاً من مؤرخي الغرب لا يذهب إلى هذا الحد في تقدير نتائج الموقعة وآثارها . ومن هذا الفريق المؤرخان الكبيران سسموندى وميشليه ، فهما لا يعلقان كبير أهمية على ظفر كارل مارتل . ويقول جورج فنتلي : « إن أثره الكتاب الغاليين قد عظمت من شأن تغلب كارل مارتل على حملة ناهبة من عرب اسبانيا ، وصورته كانتصار باهر ، ونسبت خلاص أوروبا من نير العرب إلى شجاعة الفرنج ، في حين أن حجاباً ألقى على عبقرية ليون الثالث (إمبراطور قسطنطينية) وعزمه ، مع أنه نشأ جندياً يبحث وراء طالعه ، ولم يكذب مجلس على

History of the Roman Commonwealth (١)

Decisive Battles of the World (٢)

Philosophie der Geschichte (٣)

History of the Reformation (٤)

Histoire de L'Allemagne (٥)

العرش حتى أحبط خطط الفتح ، التي أنفق الوليد وسليمان طويلا في تدبيرها ^(١) ونحن مع الفريق الأول نكبر شأن بلاط الشهداء أيما إكبار ، ونرى أنها كانت أعظم لقاء بين الإسلام والنصرانية ، وبين الشرق والغرب ، ففي سهول تور وبواتيه فقد العرب سيادة العالم بأسره ، وتغيرت مصائر العالم القديم كله ، وارتد تيار الفتح الإسلامي أمام الأمم الشمالية ، كما ارتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار قسطنطينية ، وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب ، واخضاع النصرانية لصولة الإسلام . ولم تنجح للإسلام المتحد فرصة أخرى ، لينفذ إلى قلب أوروبا في مثل كثرته وعزمه واعتزازه ، يوم مسيره إلى بلاط الشهداء . ولكنه أصيب غير بعيد بفرق الكلمة ، وبينما شغلت إسبانيا المسلمة بمنازعاتها الداخلية ، إذ قامت فيما وراء البرنيه إمبراطورية فرنجية عظيمة موحدة الكلمة ، تهدد الإسلام في الغرب وتنازعه السيادة والنفوذ .

الفصل السابع

الأندلس بين المد والجزر

صلى بلاط الشهداء . اهتمام الخلافة بحوادث الأندلس . تعيين عبد الملك بن قطن والياً للأندلس . مسير ابن قطن إلى الشمال . محاربته للثوار في الثغر الأعلى وبسكونية . غزوه لأكوتين . هزيمته أثناء العودة . صرامته وعزله . ولاية عقبة بن الحجاج . حزم عقبة وإصلاحاته . غزوه لمليقية . تحصينه لقواعد الثغر . غزواته في غاليس . حوادث أكوتين . عبد الرحمن اللخمي فارس الأندلس يفتزو آرل . تحالف مورتنوس دوق بروفانس مع العرب . غزو القوات المتحدة لبرجونية . مهاجمة الفرنج لافنيون واستيلائهم عليها . حصار كارل مارتل لأربونة . موقعة بين العرب والفرنج . هزيمة العرب . رفع الحصار عن أربونة . استيلاء كارل على مدن سبتانيا وتخريبها . عوده إلى الشمال . مسير عقبة إلى سبتانيا . استرداده لآرل . غزو الفرنج واللومبارد لبروفانس . قدوم كارل مارتل . ارتداد المسلمين . هزيمة مورتنوس وتمزيق قواته . مهاجمة البشكنس لعقبة حين عبوره الجبال . وفاة عقبة . ولاية عبد الملك ابن قطن الثانية . حوادث إفريقية . سخط البربر على العرب . ذبوع الدعوة الخارجية بين البربر . موقف البربر في اسبانيا . أقوال ابن خلدون في ذلك . أقوال دوزي . اضطرام البربر بموامل الثورة . إخماد الثورة في المغرب الأقصى . ولاية إسماعيل بن عبيد الله للمغرب . عودة الثورة بزعامة ميسرة المدغرى . استيلاء الثوار على طنجة . الحرب بين العرب والبربر . مصرع ميسرة . موقعة الأشرف . ولاية كلثوم بن عياض لإفريقية . الخلاف بين زعماء العرب . مسير كلثوم إلى المغرب . استئناف الحرب بين العرب والبربر . هزيمة العرب ومقتل كلثوم . امتناع الشاميين بسببته . ولاية حنظلة بن صفوان لإفريقية . الثورة في إفريقية الوسطى . قتال حنظلة للثوار . هزيمة البربر . ومصرع زعمائهم .

كان للخطب الجلل الذي أصاب الإسلام في بلاط الشهداء وقع عظيم في بلاط دمشق . وفي جميع أرجاء العالم الإسلامي ، وكان ارتداد الإسلام أمام أسوار قسطنطينية قد وقع للمرة الثانية قبل ذلك بأربعة عشر عاماً فقط ، فكانت نكبة البلاط ثمة الفشل المؤلم ، الذي أصاب مشاريع الخلافة في افتتاح أمم الغرب . على أنها لم تكن خاتمة الفتوح الإسلامية في فرنسا .

وأثار هذا الخطب في نفس هشام بن عبد الملك . أيما اهتمام بشئون الأندلس ومصير الإسلام في الغرب ، فاختر غنبد الملك بن قطن الفهري والياً للأندلس ، وأمره أن يعمل على حماية شبه الجزيرة ، وتوطيد هيبة الإسلام في تلك الأقطار

النائية . فعبر عبد الملك إلى اسبانيا ، في جيش منتخب من جند إفريقية ، في أواخر سنة ١١٤ هـ^(١) . وكان ثوار المقاطعات الشمالية قد انتهبوا فرصة مقتل عبد الرحمن واخلال جيشه ، وحاولوا أن يزعموا عنهم نير الإسلام ، فسار عبد الملك إلى الثغر الأعلى (أراجون) وهزم الثوار في عدة مواقع . ثم عبر البرنيه إلى بسكونية (بلاد البشكنس)^(٢) سنة ١١٥ هـ (٧٣٣ م) ، وكانت دائماً أشد المقاطعات الجبلية مراساً ، وأكثرها خروجاً وانتقاضاً ، فعاث فيها وشتت جندها وألحاهم إلى طلب الصلح^(٣) . ثم سار إلى لانجدوك ، وكاف الفرنج منذ موقعة البلاط ، يتطلعون إلى استردادها ، ويكثرون من الإغارة عليها ، فنظم حامياتها ، وحصن قواعدها . ثم أغار على أراضي أكويتين وعاث فيها ، فاعترضه الدوق أودورده ، ولم يخاطر عبد الملك بالتوغل في أرض الفرنج لصغر جيشه ، فارتد إلى الجنوب ، ولكنه أثناء عبوره جبال البرنيه ، هاجمته العصابات الجبلية البسكونية ، وأصابته في قناتها خسارة كبيرة ، فعاد إلى قرطبة دون أن يتمكن من إخضاعها .

ولم يطل عهد عبد الملك بعد عوده ، فقد كان صارماً ، شديد الوطأة ، كثير الظلم والبطش^(٤) . فسخط عليه الزعماء وأولو الرأي ، ودب الخلاف بين القبائل ، وبدأت بوادر الفتنة . هذا إلى أنه لم يوفق إلى إخماد الثورة في الولايات الشمالية ، وتوطيد سلطان الإسلام فيها . فعزل في رمضان سنة ١١٦ لسنتين من ولايته . واختار عبيد الله بن الحبحاب عامل إفريقية ، مكانه لولاية الأندلس ، عقبة بن الحجاج السلولى . فدخلها في شوال سنة ١١٦ (أواخر سنة ٧٣٤ م) . وكان عقبة من طراز عبد الرحمن الغافقي جندياً عظيماً ، نافذ العزم والهيبة ، محمود الخلال والسيرة ، كثير العدل والتقوى^(٥) . فأقام النظام والعدل : ورد المظالم : وقمع الرشوة

(١) المقر ج ٢ ص ٥٨ ، ابن الأثير ج ٥ ص ٦٤ . ولكن ابن عبد الحكم يقول إن ولاية ابن قطن كانت سنة ١١٥ هـ (ص ٢١٧) . وهذا يرجع إلى أنه يقول كما قدمنا بوقوع بلاط الشهداء سنة ١١٥ .
(٢) بسكونية أو بسكونس أو بلاد البشكنس بالعربية هي *Vasconia* القديمة ، وقد كانت تشمل الرقعة الممتدة في غرب البرنيه بجذء الشاطئ إلى شرق الأسترياس ، وكانت أهم أجزائها في ذلك العصر ولاية نافار التي يسميها العرب أحياناً نبره ، وكانت عندئذ إمارة مستقلة يحكمها على الأرجح زعيم أو أمير قوطى ، وتشمل من مقاطعات اسبانيا الحديثة نافار وبسكايّة *Vizcaya* .

(٣) المقر ج ٢ ص ٥٨ .

(٤) المقر ج ١ ص ١١٠ وعن ابن بشكوال ج ٢ ص ٥٨ .

(٥) المقر ج ٢ ص ٥٨ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨ .

والاختلاس ، وعزل الحكام الظلمة وألقاهم في غيابة السجن ، وأقام مكانهم جماعة من ذوى الحزم والنزاهة ، وأنشأ كثيراً من المدارس والمساجد . فاستقرت الأحوال وخبث الفتنة ، وتراضت القبائل . واعتزم عقبة في الوقت نفسه أن يعيد عهد الجهاد والفتوح العظيمة ، وأن يوطد سلطان الإسلام في الولايات الشمالية ، وفي غاليس (فرنسا) . فنظم الجيش وزاد في قواته وأهبطه ، وغزا جليقية وتوغل فيها ، واستولى على كثير من مواقعها ، ولكنه لم يستطع أن يسحق بقية النصارى التى اجتمعت حول الزعيم القوطى بلاى (أوبلايو) ، وما زالت معتصمة بأقاصى الجبال في شعب عرفت لمنعتها « بالصخرة » ، متحدية كل أمير وقائد مسلم^(١) . وحصن عقبة جميع المواقع الإسلامية على ضفاف نهر الرون ، واتخذ ثغر أربونة قاعدة للجهاد والغزو ، فحصنها وبعث إليها بالجنود والمؤمن والذخائر . وتقول الرواية الإسلامية إن عقبة لبث طوال حكمه الذى امتد خمسة أعوام مثابراً على الجهاد والغزو ، وأنه كان يخرج للغزو كل عام ، حتى عاد نهر الرون رباط المسلمين أو معقل فتوحاتهم^(٢) ، بعد أن كان الفرنج قد استردوا ما بيد المسلمين في تلك الأثناء . ولا تفصل الرواية الإسلامية حوادث هذه الغزوات ، ولكن الروايات الفرنجية المعاصرة تلتقى عليها شيئاً من الضياء ، وإليك ملخص الغزوات الإسلامية في غاليس في تلك الفترة حسبما تقصه علينا تلك الروايات :

رأى الفرنج على أثر ما أصاب المسلمين في بلاط الشهداء ، أن الفرصة قد سنحت لإخراجهم من فرنسا . ولكن كارل مارتل شغل حيناً بمحاربة القبائل الوثنية فيما وراء الرين ، في فريزيا وسكسونية ، وشغل أودو برء العرب حينما غزوا أكويتين مرة أخرى بقيادة ابن قطن . ثم توفى أودو في العام التالى (سنة ٧٣٥م) ، وتخلص كارل مارتل بذلك من منافسه القوى ، وبأادر إلى غزو أكويتين ودخل بوردو عاصمتها ، وأقام هونالد ولد أودو دوقاً مكان أبيه ، على أن تكون أكويتين تابعة للمملكة الفرنجية . وفي تلك الأثناء ولى الأندلس عقبة بن الحجاج ، وأخذ ينظم الأهبة لاسترداد الثغور الإسلامية الشمالية . وفي سنة ٧٣٥م (١١٧هـ) غزا العرب مدينة آرل للمرة الثانية ، بقيادة عبد الرحمن بن علقمة اللخمي وإلى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) المشرق ج ٢ ص ٥٨ ٤ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ .

أربونة ، الموصوف بأنه « فارس الأندلس في عصره » تنوياً بشجاعته الفائقة^(١) ، واستولوا عليها . وكانت الولايات المجاورة لسيتمانيا الواقعة حول ضفاف الرون ، وكلها مزيج من القوط والبرجونيين ، تنزع إلى الخروج على كارل مارتل ، وتحاول التخلص من نير الفرنج ، وكان الدوق مورنتوس أو مورت أمير بروفانس أقوى زعماء هذه المنطقة . بحكم ما بين نهر الرون وجبال الألب ، ويسعى إلى توطيد استقلاله . وتوسيع ملكه على نحو ما كان يفعل أودوف في أكويتين ، فاتصل بالعرب وتحالف معهم . وفي سنة ٧٣٦ م عبر الدوق وعبد الرحمن اللخمي الرون في جيش مشترك ، واستولوا على مدينة أفنيون رغم حصانها^(٢) . واخترق العرب بعد ذلك إقليم دوفينه ، واستولوا على أوسيز وفتقيه وفالانس وقيين وليون وغيرها ، وغزوا برجونية وحصلوا على غنائم لا تحصى^(٣) . وعلم كارل مارتل بذلك أثناء انشغاله بالحرب في سكسونية ، فبعث أخاه شلديبراند في جيش ضخم ليصد العرب . ثم لحق به جيش آخر ، وزحف الفرنج على أفنيون في كثرة وهاجموها بشدة حتى سقطت في أيديهم ، وقتلوا حاميتها المسلمة ، وتحصن العرب في أربونة ، فسار إليها كارل مارتل ، وحاصرها فقاومه المسلمون أشد مقاومة . وردوا كل هجاته . وأرسل عقبة في الحال جيشاً لإنقاذ المدينة ، فقصدها من جهة البحر . وجاز إلى الشاطئ قبل أن يشعر به الفرنج حتى صار على مقربة من أربونة . فلما علم كارل بمقدم هذا الجيش الحديد ، بادر إلى لقائه ونشبت بينه وبين العرب موقعة هائلة ، فيما بين البحر وأربونة ، هزم فيها العرب هزيمة شديدة ، وطاردهم الفرنج حتى الشاطئ ، فلم ينج منهم سوى شراذم قليلة لحأت إلى السفن ، وذلك في ربيع سنة ٧٣٧ م (١١٩ هـ) . ومع ذلك فلم تسلم أربونة ولم يهن عزمها . فاضطر عندئذ كارل مارتل إلى رفع الحصار عنها ، وارتد إلى مهاجمة المواقع الإسلامية الأخرى ، فاستولى على بزييه وأجده وماجلونة وخرب قلاعها ومعاهدها ، وأحرق نيمة وآثارها الرومانية الفخمة ، فغدت جميعاً أطلالا دارسة . بعد أن كانت أيام المسلمين زاهرة باسمة . وحول السهل الواقع غرب سيتمانيا وشمالها إلى قفر بلقع ليحول دون تقدم المسلمين . وهنا وصلته الأنباء بوفاة تيودريك الرابع

(١) نفع الطيب ج ٢ ص ٥٩ و ٦٢ .

(٢) وهي في الرواية العربية « محبرة أفنيون » (راجع نفع الطيب ج ١ ص ١٢٨) .

(٣) Dom Vissette : ibid. V.I. p. 803

ملك الفرنج الميروفنجي (سبتمبر سنة ٧٣٧) ، فارتد مسرعاً إلى عاصمة ملكه ليتقى تدابير خصومه ، ولم يقيم ملكاً جديداً على العرش رغم وجود أعضاء من الأسرة الميروفنجية ، بل آثر أن يترك العرش خالياً ، حتى تمهد الظروف له أو لبنيه اعتلاءه ، وتتويج سلطان محافظ القصر الفعلي باللقاب الملك .

وفي ذلك الحين كان عقبة بن الحجاج يتأهب لاستئناف الغزو ، واسترداد ما انتزعه كارل مارتل من قواعد سبتيانيا . ففي ربيع سنة ٧٣٨ م (١٢٠ هـ) عبر عقبة جبال البرنيه في جيش ضخم ونفذ إلى سبتيانيا ، وعبر الرون واسترد مدينة آرل للمرة الثالثة أو الرابعة . ثم استولى بمعاونة الدوق مورتوس على أفنيون وعدة معاقل أخرى في بروفانس . وكان كارل في ذلك الحين قد عاد إلى محاربة السكسونيين ، فبعث لقتال العرب جيشاً بقيادة أخيه شلدبراند ، واستغاث بصهره وحليفه لوتراند ملك اللومبارد^(١) ، فغزا بروفانس من جهة الشرق ليضيق على قوات الدوق ، ثم أسرع كارل إلى الرون بجيش ثالث ، وزحفت الجيوش المتحدة على مواقع المسلمين ، فاضطر عقبة إلى إخلاء بروفانس والارتداد إلى ما وراء الرون ، واستولى الفرنج أيضاً على معظم سبتيانيا ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى أربونة ، ورقعة ضيقة من الأرض على الشاطئ بين أربونة والبرنيه ، ومزقت قوى الدوق مورتوس ، وطارده الفرنج في شعب الجبال ، ففر ناجياً بحياته ، واستولى الفرنج على أراضيه ، واصطدم عقبة حين عبوره البرنيه إلى الأندلس بعصابات قوية من البسكونيين والقوط ، حاولت بتحريض الفرنج أن تسد دونه ممرات الجبال ، فتكبد في تمزيقها بعض الخسائر ، ولكنه ارتد بجيشه سالماً إلى قرطبة . وكان هذا اللقاء الأخير بين العرب والفرنج في سهول الرون في سنة ٧٣٩ م (١٢١ هـ)^(٢) .

ثم توفي عقبة بن الحجاج بعد ذلك بقليل ، وقدمت الجماعة مكانه عبد الملك ابن قطن ، فولى الأندلس للمرة الثانية . وقيل بل ثار ابن قطن على عقبة في جمع

(١) يسمى العرب لومبارديا أنكبردة ، واللومبارد بالأنكبرد ، محرقة عن التسمية القديمة (لانجوبارد) Langobard (راجع معجم باقوت الجغرافي ج ١ ص ٢٦٢) ،

(٢) رجعتنا في تفصيل هذه الغزوات والوقائع إلى ما ورد في موسوعة Bonquet من أقوال الرواة والمؤرخين المعاصرين من الأخبار وغيرهم . وراجع أيضاً : Dom Vissette: ibid , V.I. p. 807 & 809

كبير من أنصاره ، وكان عقبة قد ولاه على أر عزله ، قيادة الجيش في الشمال ، فلبث يتحين الفرص للخروج والثورة . فأسر عقبة وقتل ، أو أسر حتى توفي ، وانتزع ابن قطن ولاية الأندلس لنفسه ، ووقع هذا الانقلاب سنة ١٢٢ هـ^(١) ، وقيل بل سنة ١٢٣ . قال الرازي : « ثار أهل الأندلس بأمرهم عقبة في صفر سنة ثلاث وعشرين ، في خلافة هشام بن عبد الملك ، وولوا عليهم عبد الملك بن قطن ولايته الثانية ، وكانت ولاية عقبة ستة أعوام وأربعة أشهر ، وتوفي بقرمونة في صفر سنة ثلاث وعشرين واستقام الأمر لعبد الملك »^(٢) . وعلى أى حال فقد كان هذا الانقلاب بالنسبة للأندلس فاتحة عهد من الاضطراب والفن والحرب الأهلية المتصلة كما سنرى .

ويجب لكي نعرف عوامل هذا الاضطراب ، أن نعود إلى حوادث إفريقية قبل ذلك بثلاثة أعوام أو أربعة . ففي سنة ١١٦ هـ عُيِّن عبيد الله بن الحبحاب عامل مصر والياً لإفريقية ، وقد بينا فيما سلف كيف كان البربر يضطرمون خطأ على ساداتهم العرب ، وشرحنا طرفاً من عوامل هذا السخط ، وبيننا كيف أن دعوة الخوارج ذاعت بين البربر منذ أواخر القرن الأول ، فأقبلوا على اعتناقها لما تضمنت من مبادئ الحرية والديمقراطية ، والحث على مقاومة الغاصبين للرياسة والحكم . كذلك رأينا كيف استبسل البربر في الدفاع عن حرياتهم ، وانقضوا على القاطنين غير مرة ، وحطموا سلطانهم ، وفتكوا بقادتهم وجيوشهم ، ولم يخضعوا لنير العرب إلا بعد كفاح رائع ، استطال زهاء نصف قرن . ومع أن الأمر استتب للعرب آخر الأمر ، واستطاعوا أن يفرضوا سلطانهم ودينهم على البربر ، وأن يتخذوهم جنداً لجيوش الخلافة في الغرب ، فإن البربر لبثوا يعتبرون العرب أجاناب غاصبين لحرياتهم ، ولبثت القبائل البربرية القاصية ، تضطرم دائماً بنزعات الخروج والثورة . وكانت مثل هذه العواطف تحفز البربر في اسبانيا ، إلى مخاصمة العرب والسخط عليهم والتربص بهم ، وخصوصاً لأنهم رغم قيامهم بمعظم أعباء الفتح ، لم يفوزوا بكثير من مغانم ، واستأثر العرب دونهم بالسلطان والحكم . وفي ذلك يقول ابن خلدون : « ثم نبضت فيهم (أى البربر) عروق الخارجية

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) المقرئ عن الرازي (فتح الطيب ج ١ ص ١١٠) . راجع أيضاً عن مصير عقبة ،

فتح الطيب ج ٢ ص ٥٨ ، وابن الأثير ج ٥ ص ٩٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١١٩ .

فدانوا بها ، ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق ، وتعددت طوائفهم ، وتشعبت طرقها من الإباضية والصفيرية . وفشت هذه البدعة وعقدها رؤوس النفاق من العرب . وجرت إليهم الفتنة من البربر ذريعة الانتزاء على الأمر ، فاختلوا في كل جهة ، ودعوا إلى قائدهم طعام البربر ، تتلون عليهم مذاهب كفرها ، ويلبسون الحق بالباطل فيها ، إلى أن رسخت فيهم عروق من غرائسها . ثم تطاول البربر إلى الفتك بأمر العرب» (١) .

ويصف دوزي موقف البربر من العرب فيما يأتي : « اعتنق البربر سكان الأكواخ الحفيرة ، كل التعاليم بحاسة لا توصف ، ولا ريب أنهم لجهالتهم وسذاجتهم ، لم يدركوا شيئاً من تضارب المذاهب ودقائقها ، مما تدركه وتسيغه أذهان مستنيرة ، فن العث إذاً أن نبحت عن أى الفرق كانوا يفضلون الانضمام إليها ، وعمّا إذا كانوا من الحنابلة أو الصفيرية أو الإباضية ، فقد اختلف الرواة في ذلك . ولكنهم كانوا يفقهون من المبادئ . ما يسمح لهم باعتناق المبادئ الثورية والديمقراطية ، ومشاطرة الآمال الخيالية التي يذيعها فقهاؤهم في المساواة العامة ، وما يقنعهم بأن ظالمهم كانوا آثمين نصيبهم النار . ولما كان الخلفاء منذ عثمان جميعاً غاصبين غير مؤمنين . فلم يكن جريمة أن يثوروا على الظالم الذي يسلمهم أراضيهم ونساءهم . فقد كان هذا حقاً بل كان واجباً . ولما كان العرب قد أبعدهم عن السلطة ، ولم يتركوا لهم إلا ما عجزوا عن أخذه منهم ، أعنى حكم القبائل ، فقد اعتقلوا بسهولة أن نظرية سيادة الشعب ، وهي نظرية يعتنقونها في ظل استقلالهم الوحشي منذ غابر العصور ، إنما هي نظرية عريقة في الإسلام عريقة في الإيمان . وأن أقل بربري يمكن رفعه إلى العرش برأى الجماعة . وهكذا كان هذا الشعب الذي بولغ في ظلمه ، يثيره متعصبون أنصاف فقهاء وأنصاف جند ، وينزع إلى رفع هذا النير باسم الله وباسم النبي . وباسم هذا الكتاب المقدس (القرآن) الذي اعتمد عليه آخرون في إقامة الطغيان الرائع» (٢) .

فلما ولي عبيد الله بن الحبحاب إفريقية ، كانت القبائل البربرية تضطرم بعوامل الثورة ولا سيما في المغرب الأقصى ، فسير عبيد الله إلى مواطن الثورة في قاصية المغرب جيشاً بقيادة حبيب بن أبي عبيدة الفهري ، فأثنى في هاتيك الأنحاء ومزق

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ .

(٢) Dozy : Hist. V.I. p. 149 — 150

جموع الثائرين ، وعاد مثقلاً بالغنائم والسبي ، وسادت السكينة حيناً في المغرب الأقصى . وسير ابن الحبحاب حياً في معظم قواته في غزوة بحرية إلى سردانية وصقلية ، وعين ولده إسماعيل والياً للمغرب الأقصى . ولكن هذه السكينة كانت ظاهراً خلباً فقط ، فقد كان البربر يتوقون إلى الانتقام ويرقبون الفرص . وكان إسماعيل يحفزهم ويثيرهم بعسفه وسوء تصرفه ، وذاع فوق ذلك أنه ينوي أن يعتبر مسلمي البربر كالتنصاري فيثاً وغنيمه ، وأن يفرض الأخماس عليهم . فذكا الهياج واستفحل ، وانتهر البربر فرصة غياب الجيش والقادة في صقلية ، فأعلنوا الثورة والتفوا حول داعية من الخوارج الصفورية ، وهو سقاء يدعى ميسرة المدغرى ، وانقضوا على طنجة وهزموا حاميتها ، وقتلوا قائدهم عمر بن عبد الله . واستولوا عليها ودعوا لميسرة بالخلافة . ثم زحفوا على السوس وهزموا إسماعيل بن عبيد الله وقتلوه ، فقويت جموعهم واستفحل شأنهم . وذاعت الدعوة الخارجية في قفار المغرب ذبوعاً كبيراً ، واضطرب سلطان العرب في معظم النواحي . فسير ابن الحبحاب في الحال جيشاً إلى المغرب الأقصى بقيادة خالد بن حبيب ، واستدعى حبيب بن أبي عبيدة وجيشه من صقلية ، ووقعت بين خالد والبربر بقيادة ميسرة معارك شديدة غير حاسمة في ظاهر طنجة ، ثم ارتد ميسرة إلى طنجة حيناً ، واغتاله بعض أنصاره لأمرهم نقموها منه . وولوا مكانه خالد بن حميد الزناتى ، وهو من بطون زناتة . فبرز لقتال العرب ثانية ، ونشبت بين الفريقين في مكان يعرف بوادى سلف ، معارك هائلة هزم فيها العرب ، وقتل خالد بن حبيب وجماعة كبيرة من الزعماء والقادة ، وسميت الموقعة لذلك بغزوة الأشراف (أوائل سنة ١٢٣ هـ)^(١) .

فلما رأى هشام بن عبد الملك عجز ابن الحبحاب عن ضبط الأمور ، استدعاه وأقاله ، واعتزم أن يخذل ثورة البربر بأى الوسائل ، فعين لولاية إفريقية كلثوم لمين عياض القشيري^(٢) ، وسيره إليها في جيش ضخم من عرب الشام ، بقيادة ابن أخيه بلنج بن بشر القشيري (جمادى الثانية سنة ١٢٣) واجتمعت إليه أثناء

(١) ابن عبد الحكم ص ٢١٧ و ٢١٨ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٧٠ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ١١٠

(٢) هكذا يسميه ابن الأثير (ج ٥ ص ٧٠) ، وابن خلدون (ج ٦ ص ١١١) ، والمقرئ

(ج ٢ ص ٥٨) ولكن ابن عبد الحكم يسميه كلثوم بن عياض القبسى (ص ٢١٨) . وكذا بشر

ابن بلج فيسميه القيسى بدلا من القشيري (ص ٢١٩) .

مسيره قوات أخرى من مصر وطرابلس ، حتى بلغ جيشه زهاء سبعين ألفاً^(١). وكان حبيب بن أبي عبيدة قد وقف بجيشه في منتصف الطريق ، متردداً لما رآه من استفحال أمر البربر ، فاستوقفه كلثوم حتى يصل إليه . وكان حبيب وزعماء العرب في إفريقية ، يتوجسون شراً من غلبة الشاميين ، فاستقبلوا كلثوماً وبلجاً بفتور ، وأبدى بلج بالأخص جفاء وخشونة في معاملة أهل القيروان ، وثار بينه وبين حبيب مناقشات عاصفة ، وكاد الخلاف يضطرم بين الفريقين ، ويرتد العرب لقتال بعضهم بعضاً لولا أن غلبت الحكمة إزاء الخطر الداهم^(٢) . فسارت القوات المتحدة لقتال البربر ، وسار البربر لقتالهم من طنجة في جموع زاهرة بقيادة خالد بن حميد الزناتي ، ونشبت بين الفريقين على مقربة من طنجة في مكان يعرف بوادي سبسر ، معارك هائلة كان النصر فيها لحليف البربر ، ففرق العرب للمرة الثالثة ، وقتل كلثوم وحبيب وكثير من الزعماء والقادة^(٣) . وارتدت فلول العرب إلى القيروان ، وفر بلج بن بشرونفر من الزعماء ، منهم ثعلبة بن سلامة الحذامي وعبد الرحمن بن حبيب في بقية من جند الشام إلى سبته ، فامتنعوا بها واستغاثوا بوالى الأندلس عبد الملك بن قطن ، ووقعت هذه النكبة في أواخر سنة ١٢٣ أو أوائل سنة ١٢٤ هـ (٧٤١ م) .

عندئذ سير هشام بن عبد الملك والى مصر ، حنظلة بن صفوان الكلبي والياً لإفريقية ، فقدمها في ربيع الثاني سنة ١٢٤ . وكانت دعوة الخوارج قد سرت أيضاً إلى إفريقية الوسطى ، بعد أن خرج المغرب الأقصى من قبضة الخلافة ، وثار البربر في كثير من النواحي . وخرج منهم في ناحية قابس زعيم يدعى عكاشة الفزاري . وخرج في غرب القيروان زعيم آخر هو عبد الواحد بن يزيد الهواري . فحشد حنظلة كل قواته ، ولقي الفزاري أولاً ، وهزمه بعد معركة عنيفة ومزق جموعه . ثم التقى بجيش عبد الواحد على مقربة من القيروان بمكان يعرف بالأصنام ،

(١) المقرئ عن ابن حيان ج ٢ ص ٨٠

(٢) ابن عبد الحكم (ص ٢١٩) ، وابن الأثير (ج ٥ ص ٧٠) وراجع أيضاً دوزى :

Hist, V.I. p. 245

(٣) يتفق ابن عبد الحكم (ص ٢٢٠) وابن الأثير (ج ٥ ص ٧١) وابن خلدون (ج ٦

ص ١١١) ، على أن كلثوم بن عياض قتل في الموقعة ، ولكن المقرئ يقول نقلاً عن ابن حيان إن فر مع بلج إلى سبته ، وعبر إلى الأندلس حيث توفي (ج ٢ ص ٥٨ - ٥٩) .

ويقال إن جموع البربر بلغت يومئذ ثلاثمائة ألف ، وبلغ العرب أربعين ألفاً فقط^(١) .
ونشب بين الفريقين قتال رائع ثبت فيه العرب ، ومزق البربر وقتلت منهم جموع
عظيمة ، وقتل عبد الواحد وأسر الفزارى وقتل بأمر حنظلة . وكانت هذه الموقعة
الشهيرة سنة ١٢٥ هـ (٨٤٢ م) .

وليس من موضوعنا أن نتبع ما تلا من الحوادث في إفريقية^(٢) ، ويكفى
أن نقول إن ثورة الخوارج لبثت على اضطرامها ، وظهر الثوار والمتغلبون في
كل ناحية ، ولبثت إفريقية عصر آخر فريسة الاضطراب والفوضى ، واضمحلت
سيادة العرب ، ثم زالت غير بعيد لتحل مكانها سيادة المستعربين من البربر
والموالى .

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ٧١ .

(٢) يفصل ابن خلدون هذه الحوادث في ج ٦ ص ١١١ وما بعدها ، وكذلك ابن عبد الحكم
في أخبار مصر وفتوحها ص ٢٣٣ وما بعدها .

الفصل الثامن

الحرب الأهلية

صدى حوادث إفريقية في الأندلس . استغاثة الشاميين بآبن قطن ، إعراضه عن دعوتهم ، ثورة البربر في الأندلس . مفاوضة آبن قطن لباج زعيم الشاميين واستعدادهم . سير القوات المتحدة لمحاربة البربر . هزيمة البربر في شذونة وقرطبة . سحق ثورتهم . مطالبة آبن قطن للشاميين بالهلاء . ثورة بلج بن بشر وادعاؤه ولاية الأندلس . مقتل آبن قطن وولاية باج . ثورة أمية وقطن آبن عبد الملك . الخصومة بين الشاميين والعرب المحليين . لقاء الفريقين في ظاهر قرطبة . مصرع باج وافتصار الشاميين . ولاية ثعلبة بن سلامة . ضعف حكومة قرطبة . خروج الزعماء في مختلف النواحي . استئناف الحرب بين الشاميين وخصومهم . هزيمة ثعلبة ثم فوزه . مقدم آبن الخطار الوالى الجديد . قبضه على زمام السلطة . تفرقه للشاميين . ضمه لولاية تدمير إلى الأندلس . مطاردته للزعماء الخوارج . سكون الفتنة . تمسب آبن الخطار لليمينية . الصميل بن حاتم زعيم المضرية . ثورة المضرية والخدمية . الحرب بين الفريقين . هزيمة آبن الخطار . ولاية ثوبة بن سلامة . ثورة آبن الخطار . زحفه على قرطبة . فشله وهزيمته . الحلاف بين اليمينية والمضرية . ولاية عبد الرحمن اللخمى لشتون الحكم . الاتفاق على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى .

كان لهذه الفتنة التى اضطرت في إفريقية بين العرب والبربر . وما اقترن بها من الأحداث الخطيرة ، صداها في شتون الأندلس . وكانت الأندلس تتبع يومئذ إفريقية من الوجهة الإدارية ، فكان لاضطراب الحكم في إفريقية أثره في اضطراب الحكم في الأندلس ، كما كان لثورة البربر في المغرب . أثرها في تحريك البربر في الضفة الأخرى من البحر . وقد سبق أن بينا كيف كان البربر في شبه الجزيرة الإسبانية يجيشون سخطاً على العرب . لما استأثروا به دونهم من مقام السيادة والحكم . وكيف كانت عصبية القبيل تمزق وحدة العرب أنفسهم ، وكيف كانت عوامل التنافس والتنازع ، تضطرم باستمرار بين اليمينية والمضرية . وسرى الآن كيف كان صدى هذه العوامل المختلفة قوياً بارزاً في حوادث الأندلس ، وفي اضطراب شتونها ، وتمزيق وحدتها . وكيف انحدرت الأندلس من جرائها ، إلى معترك خطر من الفتن ، والحروب الأهلية الطاحنة . والفوضى . تولى عبد الملك بن قطن الفهرى إمارة الأندلس للمرة الثانية على أثر وفاة عقبة بن الحجاج سنة ١٢٢ أو ١٢٣ هـ ، وثورة البربر يومئذ على أشدها في المغرب

الأقصى . فلما هزم الجيش العربي في مفاوز طنجة للمرة الثالثة ، وقتل كلثوم ابن عياض والى إفريقية ومعظم قواده ، فر بـلـجـ بن بشر في بقية من جند الشام إلى سبتة ، وامتنع بها حسبما أسلفنا ، فطاردهم البربر وشددوا الحصار عليهم حتى جهدوا وأشرفوا على الهلاك . واستغاث بلج وزملاؤه بعبد الملك بن قطن ورجوه أن يعاونهم على العبور إلى الأندلس . وكان عبد الملك مضرراً شهد موقعة الحرّة (١) قبل ذلك بستين عاماً ، وشهد ما ارتكبه جند يزيد في المدينة من رائع السفك والإثم ، فكان يبغض الشاميين أشد البغض ، وكان فوق ذلك يخشى مطاعمهم ومنافستهم ، فأبى إغااثهم بادئ ذي بدء ، وعاقب بالجلد والقتل زعيماً من بني لحم ، أمدهم ببعض المؤن . ولكنه من جهة أخرى خشى عاقبة تصرفه ، وأن يتهمة الخليفة بالعمل على إهلاك جنده . ولم يمض قليل حتى اضطرتة الحوادث نفسها إلى استدعاء بلج وأصحابه . ذلك أن ثورة البربر كان لها في الأندلس أكبر صدى ، فتحرك البربر في معظم الأقاليم الشمالية . وعصفت بالأندلس ريح ثورة بربرية دينية سياسية ، كتلك التي عصفت بإفريقية ، وإن كانت دونها شدة . واضطربت الثورة بالأخص في جليقية وماردة وقورية وطليطية ، وحشد الثوار جموعهم واختاروا لهم إماماً . واعتزموا الزحف على طليطلة وقرطبة ثم الجزيرة . ليمهدوا لبربر العدو سبيل القُدوم إلى اسبانيا . ومعاونتهم على سحق العرب . واستطاع البربر ، وهم في عنفوان ثورتهم ، أن يهزموا كل الحملات . التي وجهها ابن قطن لإخضاعهم . وهنا ارتاع ابن قطن . وفكر في الحال أن يستعين بجند الشام المحصورين في سبتة . وهم زهاء عشرة آلاف ، فكتب إلى بلج يدعوهُ إلى معاونته ، واشترط عليه للعبور إلى الأندلس . أن يغادرها متى صلحت حال جنده ، وانتهت الثورة . فقبل بلج وقدم الرهائن من أصحابه لتنفيذ هذا الميثاق . وعبر بلج وأصحابه إلى الأندلس (سنة ١٢٣ هـ) ، وقدمت إليهم المؤن والثياب . وانضموا إلى قوات ابن قطن بقيادة ولديه أمية وقطن . والتقت القوات المتحدة بالبربر أولاً في شدونة (مدينة سدونيا) فهزم البربر ، وأصاب الشاميون منهم غنائم كثيرة . ثم وقع القتال في ظاهر قرطبة مع جموع البربر الزاحفة عليها ، فهزموا أيضاً بعد مقاومة

(١) هي ضاحية المدينة الشرقية وتعرف بحرة واقم . وكانت موقعة الحرّة سنة ٦٣ هـ ، وفيها هاجم جند يزيد بن معاوية المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المرى ، واستباحوها وقتلوا من أهلها جموعاً كبيرة ، ونهبوا الأموال ، وسبوا الذرية ، وهتكوا الأعراض ؛ وكانت من أشنع الوقائع .

شديدة ، ثم هزم البربر للمرة الثالثة ، في وادى سليط على مقربة من طليطلة ، وكانوا قد بدأوا حصارها ، وبذلك سحقَت الثورة ، ومزق البربر وطوردوا في كل مكان ، وانتعش بلج وأصحابه وقويت نفوسهم واشتدت شوكتهم^(١) . وعندئذ طالب ابن قِطْن بتنفيذ الميثاق وجلاء الشاميين عن الأندلس متوجساً من بقائهم . ولكن بدلجاً كانت تحدوه أطباع أخرى ، فاطل في الجلاء وسوف ، ثم كشف القناع فجأة ، وادعى أنه أمير الأندلس الشرعى بعهد من عمه كلثوم ، وأيده في ذلك ثعلبة بن سلامة وغيره من الزعماء . ثم نادى الشاميون بخلع ابن قِطْن وتولية بلج ، وانحازت إليه الثمانية ، ووُثب بلج وأصحابه على ابن قِطْن وهو في قلة من جنده ، فقبضوا عليه بقصره بقرطبة ، وكان شيخاً قد أشرف على التسعين فلم يرحوا شيخوخته بل قتلوه وصلبوه ومثلوا بجثته ، فم الأمر بذلك لبلج بن بشر القشيري ، وتولى إمارة الأندلس في أوائل ذى القعدة سنة ١٢٣ هـ (سبتمبر سنة ٧٤١ م)^(٢) .

ولكن الفتنة لم تنته بعد . فإن أُمّية وقِطْن ابني عبد الملك فرا إلى الشمال ، وحشدا جموعهما في سرقسطة ، وآزرهما البلديون (العرب المحليون) والبربر ، وانضم إليهما جماعة من الزعماء ، الذين أنكروا فعلة بلج بعبد الملك ، مثل عبد الرحمن ابن حبيب الفهري كبير الحند ، وكان من أنصار بلج قبل الانقلاب ، وعبد الرحمن ابن علقمة اللخمي ، حاكم أربونة « فارس الأندلس في عصره » ، وكان قوى البأس كثير الأتباع . وانقسمت الأندلس بذلك إلى معسكرين كبيرين ، معسكر الشاميين^(٣) المتغلبين على الحكم ، ومعسكر العرب والبربر المحليين الذين اعتبروا الشاميين دخلاء غاصبين ، فعظمت الفتنة واشتد الاضطراب ، وسار أُمّية وقِطْن وأنصارهما إلى قرطبة لقتال الشاميين في جيش قيل إنه بلغ نحو مائة ألف ، وتأهب بلج وأنصاره للدفاع في نحو عشرين ألفاً ، والتقى الفريقان على مقربة من قرطبة في شوال سنة ١٢٤ (أغسطس سنة ٧٤٢ م) ونشبت بينهما معارك

(١) المقرئ عن ابن حيان ج ٢ ص ٥٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٠ و ٣١ ، وراجع أيضاً : Dozy : Hist. V. I. p. 163

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٢٠ ، وابن الأثير ج ٥ ص ٩٢ .

(٣) ويعرف هؤلاء الحند الشاميون أيضاً « بالطالعة البلجية » نسبة إلى زميهم بلج (ابن الأبار في الحلة السيرة - ليدن - (ص ٥١) .

شديدة ، وأبدى الشاميون شجاعة وجلداً . ولكن عبد الرحمن اللخمي صمم على قتل بلج . فحمل بجند أربونة على الشاميين ، وشق بينهم طريقاً إلى مكان بلج ، وأثنه طعناً توفي منها بعد أيام . ومع ذلك فقد انتصر الشاميون على البلديين انتصاراً باهراً فارتدوا منهزمين . وعاد الشاميون ظافرين إلى قرطبة ، وقدموا عليهم ثعلبة بن سلامة العاملي ، وكان من أصحاب بلج الذين عبروا معه إلى الأندلس كما قدمنا . فتولى إمارة الأندلس ، وقيل في إمارته ما قيل في إمارة بلج ، من أنه وليها بعهد من الخليفة ، أو من كلثوم والى إفريقية يليها بعد بلج ، وكانت ولايته في شوال سنة ١٢٤^(١) . فقبض ثعلبة على زمام الأمور بحزم ، وحاول أن يضبط النظام والأمن ، وأبدى كثيراً من اللين والاعتدال ، ولكن سلطان الحكومة المركزية كان قد تضعف ، وانقسمت الأندلس إلى مناطق عديدة للنفوذ ، ولبثت الغلبة في الأقاليم الوسطى والشمالية ، لجماعة من الزعماء الخارجين على حكومة قرطبة ، مثل أمية وقطن ابني عبد الملك ، وعبد الرحمن بن حبيب القهري ، وعبد الرحمن اللخمي حاكم أربونة ، واستمر يوازر هذا الفريق سواد العرب المحليين والبربر . ولم تمض أشهر قلائل حتى اضطربت الحرب مرة أخرى بين الفريقين المتنازعين ، ونشبت بينهما مواقع عديدة على مقربة من ماردة ، فهزم الشاميون أولاً واعتصم ثعلبة بقلعة ماردة ، ولكنه عاد ففكر على خصومه وهزمهم هزيمة شنيعة ، وأسر وسبي منهم جموعاً كبيرة ، وعاد ظافراً إلى قرطبة ، وقرر إعدام الأسرى ليلقى على خصومه درساً قاسياً . ولكنه قبل أن يتمكن من تنفيذ عزمه ، قدم إلى قرطبة حاكم جديد للأندلس ، هو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، بعثه حنظلة بن صفوان والى إفريقية ، لإجابة لجماعة من زعماء الأندلس ، خشوا عواقب الفتنة ، وما قد تؤدي إليه من استظهار نصارى الشمال . وإغارتهم على الأراضي الإسلامية^(٢) ، وقيل إن الذي اختار أبا الخطار لولاية الأندلس ، هو هشام بن عبد الملك^(٣) ، اختاره قبيل وفاته بقليل ، إذ توفي في ربيع الثاني سنة ١٢٥ . وقدم أبو الخطار إلى الأندلس

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢ و ٣٣ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٩ و ٦٠ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٩٥ .

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٢١ ؛ وأخبار مجموعة ص ٤٥ ؛ وابن الأبار في الحلة السيواء ص ٤٦ ؛ وكذلك Dozy: Hist, V. I. p. 168

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ١٠٠ ؛ وابن الأبار ص ٤٨ .

في رجب ، ولم يكن مضى على ولاية ثعلبة سوى عشرة أشهر . فقبض في الحال على زمام السلطة . وأفرج عن جموع الأسرى والسبايا ، التي اعتزم أن يزهقها وينكل بها ثعلبة ، واهتم برد السكينة والنظام ، وإخماد شوكة الزعماء الخارجين ، ففرق الشاميين في مختلف الكور تمزيقاً لعصبتهم ، وأنزل جند الشام بلبيرة (غرناطة) ، وجند حص بياشبيلية ولبلة ، وجند فلسطين بشذونة والحزيرة ، وجند الأردن بريته . وجند قنسرين بجيان ، وجند مصر بعضهم في أكشونة وباجة والبعض في تدمير . ونذكر أن ولاية تدمير (مرسية) كانت قد تركت عند الفتح لصاحبها تيودمير ، وفقاً للمعاهدة التي عقدت بينه وبين عبد العزيز بن موسى^(١) ، ولكن تيودمير كان قد توفي ، وخلفه في حكم الولاية ولده أثناجلد . واعتبر أبو الخطار أن نص المعاهدة ، كان قاصراً على تيودمير ، وأنه لا يسرى على خلفائه ، وطالب أثناجلد بتأدية الجزية لحكومة قرطبة ، وأنزل جند مصر قسراً بقواعد تدمير ، وأقطعهم أراضيها ، وبذلك فقد القوط آخر معاقلهم الحرة في الجنوب ، وضمت تدمير إلى باقي ولايات الأندلس ، تحت سلطان الحكومة المركزية^(٢) . وتبع أبو الخطار الزعماء الخارجين ، فقبض على ثعلبة ونفاه إلى إفريقية مع نفر من زملائه ، وأعلن أمية وقطن ابنا عبد الملك الطاعة ، ونفاهما مع أبي الخطار ، فولاهما الحكم في بعض الولايات الشمالية . أما عبد الرحمن بن حبيب فاستطاع أن يتقى المطاردة وفر إلى تونس ، وهناك أقام حيناً يرقب الحوادث ، حتى سنحت له فرصة الوثوب وانتزاع إمارة إفريقية من حنظلة ابن صفوان على ما سيجيء . وأما عبد الرحمن اللخمى فلبث مستقلاً برباط الثغر في أربونة وما جاورها .

وسلك أبو الخطار في البداية سبيل الحزم والاعتدال ، وسوى بين جميع القبائل في المعاملة ، فرضي الجميع واجتمعت الكلمة على تأييده وطاعته ، وسكنت الفتنة واستقر النظام حيناً . ولكن نزعة العصبية ما لبثت أن حملته كما حملت أسلافه من قبل ، فمال إلى قومه الجمانية ، وتنكر لخصومهم من المضرية ، واضطربت الأحقاد

(١) أوردنا نص هذه المعاهدة في ص ٥٦ و ٥٥ من هذا الكتاب . وراجع في توزيع القبائل على

الكور ، ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٤٦ . وكذلك : Conde : ibid, V.I. p. 112

(٢) Conde:ibid, quot Isodorus, V.I. p. 112 (note) وكذلك Aschbach: ibid.

والمنافسات القديمة . وحدث أن اعتدى أبو الخطار على زعيم من زعماء المضرية بالإهانة والضرب لأنه تدخل لحماية رجل من بني قومه . وهذا الزعيم هو الصميل ابن حاتم بن شمر الكلابي ، وجده شمر بن ذى الجوشن من أشرف الكوفة ، وكان قد اشترك في قتل الحسين بن علي في كربلاء ، ثم نزع بأسرته إلى الشام خيفة الانتقام ، فلما ولي كلثوم بن عياض القشيري حكم إفريقية . كان الصميل بن أشرف الشام الذين انتظموا في جيش بلج القشيري ، ثم جازوا معه إلى الأندلس^(١) . وكان الصميل فارساً شجاعاً وزعيماً ذا نجدة ، يلتف حوله المضرية وبعض اليمنية ، من خصوم أبي الخطار ومنافسيه مثل جذام ونحلم . فلما اعتدى أبو الخطار عليه بعث إلى قومه في مختلف الأنحاء ، وأيدته المضرية وحلفاؤهم في الخروج ، وتفاهم مع باقي الزعماء الناقمين على أبي الخطار ، ومنهم ثوابة بن سلامة الحذامي زعيم جذام . وكان يميناً ولكنه كان يحقد على أبي الخطار . لأنه عزله عن ولاية إشبيلية . وتكفل ثوابة بمحاربة أبي الخطار ، وقدمته المضرية ، وزحف بمجموعه على قرطبة ، فلقية أبو الخطار بقواته في شذونة على ضفاف وادي لكه في رجب سنة ١٢٧ . ونشبت بين الفريقين معارك شديدة انتهت بهزيمة أبي الخطار وأسره ، ودخل ثوابة قرطبة وارتضته المضرية أميراً للأندلس مكان أبي الخطار ، ووافق عبد الرحمن بن حبيب الفهري أمير إفريقية على هذا الاختيار . وكان قد استطاع في تلك الفترة أن ينتزع ولاية إفريقية من حنظلة بن صفوان . ولكن أبا الخطار استطاع أن يفر من سجنه بمعونة نفر من أصدقائه . فذهب إلى باجة وحشد جموعه ، وقصد إلى قرطبة ، فلقية الصميل في المضرية وثوابة في أنصاره من اليمنية ، ووقعت بينهما معركة غير حاسمة . وعندئذ دعا بعض اليمنية من فريق ثوابة إلى وقف القتال ، ونعى على أنصار أبي الخطار أنهم يقاتلون ثوابة . مع أنه يميني منهم ، وقد عفا عن أبي الخطار وعف عن دمه حين كان في قبضته ، فأحدثت هذه الدعوة أثرها ، وانفض عن أبي الخطار جنده . واضطر أن يعود إلى باجة وهناك لبث ينتظر مجرى الحوادث^(٢) .

ولم يمض سوى قليل حتى توفي ثوابة في أوائل سنة تسع وعشرين ومائة .

(١) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٤٩ ؛ والمقرئ عن ابن حبان في فتح الطيب ج ٢ ص ٦٢ .

(٢) المقرئ ج ٢ ص ٦٠ و ٦١ ، وابن الأثير ج ٥ ص ١٢٦ ، والبيان المغرب ج ٢

بعد أن حكم الأندلس زهاء عام ونصف . وهنا نشب الخلاف بين الزعماء والقبائل
كرة أخرى ، وأصرّت العنية على أن يكون الأمير منهم خلفاً للأميرهم المتوفى ، وأصر
الصميل أن يكون الأمير من المضربة ، واشتد النزاع بين الفريقين . ووقعت
بينهما مصادمات ومعارك عديدة ، ولبت الأندلس بضعة أشهر دون أمير رسمي ،
وتولى الأحكام فيها عندئذ عبد الرحمن بن كثير اللخمي باتفاق الفريقين . ولما تفاقم
الخلاف ، وخشى الزعماء عاقبة الفتنة والحرب الأهلية ، اتفقوا على تولية يوسف
ابن عبد الرحمن الفهرى أحد زعماء المضربة ، فولى إمارة الأندلس في ربيع الثاني
سنة ١٢٩ (يناير ٧٤٧ م) دون مصادقة أو مراجعة من دمشق أو إفريقية .
وكانت حكومة دمشق قد اضطربت يومئذ شئونها ، وأخذت نذر السوء تبدو
في الأفق ، وشغلت الخلافة الأموية بما يهددها من خطر داهم على سلطانها ،
وضعف إشراف الحكومة المركزية على الولايات النائية ، فاستقلت إفريقية
والأندلس كل بشئونها ، حتى يستبين المصير ، وتستقر الأمور .

الفصل التاسع

خاتمة عصر الولاة

أصل يوسف الفهرى . عبد الرحمن بن حبيب واستيلاؤه على إفريقية . استئثار يوسف بالسلطة . تحريك اليمنية . خروج أبي الخطار وابن حريث . التقاء المضرية واليمنية في شقندة . هزيمة اليمنية ومقتل زعمائها . استقرار الأمر ليوسف والصميل . ولاية الصميل لسرقطة . إصلاحات يوسف الإدارية والمالية . تقسيم اسبانيا الجديد . إصلاحه للجيش . إرساله جيشاً إلى الشمال . ثورة البشكنس والقوط . استيلاء الفرنج على المواقع الإسلامية في سبتانيا . اضطراب أمر الخلافة في المشرق . سحق الزعماء على يوسف والصميل . عبد الرحمن اللخمي فارس الأندلس . محاولته الخروج ومصرعه . الثورة في إشبيلية وسحقها . ثورة عروة بن الوليد في باجة . استيلاؤه على إشبيلية . هزيمته ومصرعه . ثورة المضرية واليمنية بقيادة عامر العبدري . فراره إلى الشمال وتحالفه مع الحباب الزهرى وتميم الفهرى . محاصرة الثوار للصميل في سرقطة . هزيمة الصميل واستيلاء الثوار على سرقطة . إعدام عامر لولاية الأندلس . ولاية الصميل لطليطلة . سير يوسف إلى سرقطة واستيلاؤه عليها . أسر زعماء الثورة ومصرعهم . اجتماع يوسف والصميل في طليطلة . الإخطار بمقدم عبد الرحمن الأموى . سيره إلى قرطبة . بين ملك الفرنج وأنزيموند أمير القوط يحاصران أربونة . القتال بين بين وأمير أكوطين . مصرع أنزيموند . خيانة النصارى فى أربونة . سقوطها فى يد الفرنج . انتهاء سيادة الإسلام فيما وراء البونية . نصارى الشمال . امتناعهم بهضاب جليقية . إغارتهم على الأراضى الإسلامية . نمو المملكة النصرانية .

ويجب أن نقف قليلا عند شخصية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى هذا ، الذى اختارته « الجماعة » والياً للأندلس ، واستقل بولايتها زهاء عشرة أعوام ، وكان آخر هذا الثبت من أمرائها ، وعلى يده انتقلت إلى عهد جديد ، ودولة جديدة . فعظم الروايات على أنه ولد عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى فاتح إفريقية . ويؤيد هذا القول من مؤرخى الأندلس ابن القوطية ، وابن حزم ، والرازى ، وابن الفرضى . ولكن ابن حيان يرتاب فى هذه النسبة ويقول لنا إنه لم يقف على ما يؤيد بنوة يوسف لعبد الرحمن بن حبيب ، أو صلته بهذا الفرع^(١) . بيد أن اتفاق معظم مؤرخى الأندلس ، ولا سيما المتقدمين منهم

(١) نقل ابن الأبار فى الحلة السيرة أفعال ابن القوطية وابن حيان وابن حزم فى هذه النقطة - الحلة السيرة ص ٥٣ و ٥٤ - وراجع أفعال ابن الفرضى والرازى فى فتح الطيب ج ٢ =

على صحة هذه النسبة يجعلها في نظرنا أقوى وأرجح . وإذن فيوسف بن عبد الرحمن خاتمة ولاية الأندلس هو ولد عبد الرحمن بن حبيب ، الذى تتبعنا أخباره فيما تقدم خلال الحروب الأهلية ، التى اضطرت منذ قدوم بلج القشيري إلى شبه الجزيرة . وقد أسلفنا أنه فر إلى تونس اتقاء لنقمة أبي الخطار ، وهناك لبث يرقب الحوادث مدى حين ، فلما جاءت الأخبار إلى إفريقية بمقتل الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (فى جمادى الآخرة سنة ١٢٦) ، رأى عبد الرحمن الفرصة سانحة للعمل ، فدعا أنصاره وحشد جموعه لقتال حنظلة بن صفوان والى إفريقية ، وزحف على القيروان ، وخشى حنظلة عاقبة الفتنة ، فانسحب مع أصحابه إلى الشام دون قتال ، ودخل عبد الرحمن القيروان (سنة ١٢٧ هـ) وأعلن ولايته لإفريقية ، وأبدته المضرة ، وبعث إلى الثغور عمالا من أقاربه وأنصاره . ولم يختار يزيد بن الوليد ، الذى ولى الخلافة عقب مقتل أبيه ، والياً لإفريقية نزولاً على حكم الواقع . فلما خلفه مروان بن محمد بعد ذلك بأشهر ، كاتبه عبد الرحمن وهاداه وأظهر له الطاعة فأقره على ولايته^(١) . ولبث عبد الرحمن مستقلاً بحكم إفريقية أكثر من عشرة أعوام ، وفى عهده وقعت بإفريقية ثورات وقلائل كثيرة ، فأخذها جميعاً وغزا صقلية وسردانية . ولما دالت دولة بنى أمية أعلن الطاعة لبنى العباس ، ودعا لهم بإفريقية . ولكنه لم يلبث أن قتل غيلة فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٨ (٧٥٥ م) . وأما ابنه يوسف فقد فر منه مغضباً لأموار نقمها عليه ، ودخل الأندلس يبحث وراء طالعه فى حوادثها ، وكان مثل أبيه فارساً هماماً وخطيباً مفوهاً^(٢) . فلم يلبث أن ظهر بين أنجاد المضرة وساداتهم ، ولازم الصميل وصادقه حتى عظم نفوذه ، وانتهى بأن ظفر بإمارة الأندلس فى ربيع الثانى سنة ١٢٩ ، وهو يومئذ فى السابعة والخمسين من عمره .

وكانت مصابىر الخلافة الأموية تهز يومئذ فى يد القدر ، وقد شغلت بما يواجهها من خطر الفناء الداهم عن حوادث الأندلس ، فلم تحاول تدخلا أو اعتراضاً على ما يحدث فى ذلك القطر النائى ، ولم يكن يوسف بحاجة إلى مصادقة أو مراجعة .

= ص ٦١ . ويقر ابن عذارى هذه النسبة أيضاً (البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٧) وكذلك صاحب أخبار مجموعة (ص ٢١) .

(١) البلاذرى فى فتوح البلدان ص ٢٢٣ .

(٢) نفح الطيب (عن الرازى) ج ٢ ص ٦١ ، وابن الأبار فى الحلة السيرة ص ٥٥ .

وكان المتفق عليه بين اليمنية والمضرية أن يتعاقبا في الولاية فيمكث يوسف عاماً فقط ثم يُرد الأمر إلى اليمنية^(١). ولكن المضرية وعلى رأسهم الصميل مرجع الزعامة والأمر يومئذ، لم يفكروا بلاريب في تمكن اليمنية من الرياسة بأى الصور، وكذلك لا ريب في أن يوسف بن عبد الرحمن لم يفكر بعد أن ظفر بالإمارة أن ينزل عنها طائعاً مختاراً، بل بادر منذ البداية إلى استخلاص جميع السلطات لنفسه، فنزع ولاية ربه من يحيى بن حريث الحذامى أحد الزعماء اليمنية، وكان ينافسه ويعارض إمارته، فأقطع ربه ثمناً لموافقته. فلما نزعته منه ربه ثار قومه من اليمنية والتفوا حوله. وهنا أيضاً ظهر أبو الخطار الأمير المعزول على مسرح الحوادث، وكان يقيم كما قدمنا في باجة، بغرب الأندلس. فلما علم بتولية يوسف وخروج ابن حريث، تحرك للعمل، وفاوضه ابن حريث ولكنهما لم يتفقا، إذ أصر كل منهما على ترشيح نفسه للإمارة، بيد أنهما اجتمعا على قتال يوسف ابن عبد الرحمن، وحشد كل منهما جموعه من الفريق الذى يوازره، وزحفا على قرطبة. وحشد يوسف والصميل جموع المضرية، وبالغ كل فريق فى الأهبة، والتقى أخيراً فى شقندة بالقرب من قرطبة (سنة ١٣٠ هـ - ٧٤٧ م) ونشبت بينهما موقعة هائلة تبلغ فى روعتها الرواية الأندلسية، إذ تقول لنا: «إنه لم يك بالشرق ولا بالمغرب، حرب أصدق منها جلاداً ولا أصبر رجلاً، طال صبر بعضهم على بعض إلى أن فنى السلاح، وتحاذبوا بالشعور، وتلاطموا بالأيدى، وكل بعضهم عن بعض»^(٢). واستمر القتال حيناً بجالاً بين الفريقين، ثم داهمت المضرية ذات يوم جموع اليمنية على غرة، فأوقعت بها، وأسر أبو الخطار وابن حريث وكثير من أصحابهما، وقتلوا جميعاً بأمر الصميل، وجردت اليمنية من زعمائها، واستقر الأمر ليوسف، ولكنه كان يخشى الصميل، لأنه كان بنفوذه وكثرة عصبته، يقبض على ناصية الموقف، فرأى أن يبعده عن قرطبة، وأقطعه ولاية سرقطسة وأعمالها، فسار الصميل إلى سرقطسة واستقل يوسف بالأمر. ونشط يوسف إلى ضبط النظام، وإصلاح الشئون فى ظروف صعبة. وكانت السلطة المركزية قد اضمحلت، وهبت ريح الفتنة من كل صوب.

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٣.

(٢) المقرئ عن ابن حيان ج ٢ ص ٦١.

واستقل كثير من العمال بالنواحي ، وتحرك النصارى فى الولايات الشمالية ، وعصف القحط فوق ذلك بالأندلس سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) ، واستطال زهاء عامين ، فأجدبت السهول والوديان ، وأمحلت الزراعة ، وفك الجوع بالمدن والقرى ، وهبطت عندئذ على شواطئ الأندلس عصابات بحرية ناهبة كثيرة من أمم الشمال ، وعانت فى الشواطئ والثغور والمدن القريبة^(١) . ولكن يوسف أبدى فى مغالبة هذه الصعاب والحن همة فائقة ، فطاف بالأقاليم وعزل الحكام العابثين ، وقمع المظالم والفوضى ما استطاع ، وأصلح الطرق الحربية ، لتكون ممهدة لحملاته حينما اضطر إلى الحرب ، وعدل نظام الضرائب فاقضى ثلث الدخل من كل ولاية ، ولكنه أمر بمراجعة السجلات القديمة ، واستبعاد الأموات منها ، وكانت الضرائب ما تزال تجبى طبقاً للإحصاء القديم ، فكان فى ذلك إرهاباً للسكان ، لأن عددهم تناقص منذ الفتح ، فقرر يوسف أن تجبى الضرائب عن الأحياء فقط ، وأسقطها عن توفوا ، واكتسب بذلك عطف كثير من النصارى^(٢) . وأعاد يوسف أيضاً تنظيم الأقاليم الإدارى ، فقسم اسبانيا إلى خمس ولايات كما كانت أيام القوط ، وكما قسمت عند الفتح مع تعديل فى حدودها ، فأصبحت كما يأتى : ولاية الأندلس وهى ولاية « باطقة » Baetica القديمة ، وتقع بين نهر وادى يانة والبحر الأبيض المتوسط ، وأشهر قواعدها قرطبة ، وقرمونة ، وإستجة ، وإشبيلية ، وشذونة ، ولبلنة ، ومالقة ، وإلبيرة ، وجيان . وولاية طليطلة ، وهى ولاية قرطاجنة القديمة ، وتمتد من جبال قرطبة فى شمال شرق ولاية الأندلس حتى نهر دويره (الدورو) ، وجبال وادى الحجارة شمالاً ، وأشهر قواعدها طليطلة ، ومرسية ، ولورقة ، وأوريولة ، وشاطبة ، ودانية ، ولقنت ، وبلنسية ، وشقوبية ، ووادى الحجارة ، وقونقة . وولاية ماردة وهى ولاية لوجدانيا أو جليقية القديمة ، وتمتد فيها وراء نهر وادى يانة شرقاً حتى المحيط ، وأشهر قواعدها ماردة ، وباجة ، وأشبونة ، وأسترقه ، وسمورة ، وشلمنقة . وولاية سرقسطة ، وهى ولاية كانتبريا القديمة ، وتمتد من منابع نهر التاجه شرقاً ، على ضفتى نهر إيبرو حتى

(١) إيزيدور الباجى . راجع : Aschbach : ibid, V.I. p. 102 ، وكذا البيان المغرب

جبال البرنيه وبلاد البشكنس ، وأشهر قواعدها سرقسطة ، وطركونة ، وجيرنده ، وبرشلونة ، وأرقلة ، ولاردة ، وطرطوشة ، ووشقة . ثم ولاية أربونة وهي ولاية الثغر ، وتقع شمال شرقى جبال البرنيه حتى البحر ، وتشمل مصب نهر الرون ، وأشهر قواعدها أربونة ، ونيمة ، وقرقشونة ، وأجدة ، وبزييه ، وماجلونة^(١) . وعنى يوسف بتنظيم الجيش وإصلاحه أشد عناية ، وحشد قوات جديدة ليستطيع قمع الثورة فى الداخل وحماية الحدود الشمالية ، وسير إلى الشمال جيشاً بقيادة ولده محمد أبى الأسود ، وسليمان بن شهاب ، والحصين العقيلي . وكان النصارى قد انتهزوا فرصة الاضطراب الداخلى ، وأغاروا على الأراضى الشمالية ، واستولوا على كثير من القلاع والحصون ، ووصلوا فى تقدمهم حتى ضفاف نهر دويره (الدورو) . وثار البشكنس والقوط فيما وراء البرنيه واستدعى أميرهم الكونت آنزيموند ، ملك الفرنج پين الملقب « بالقصير » لمحاربة المسلمين ، وكان آنزيموند هذا من نبلاء القوط ، فانتهاز فرصة اضطراب الحوادث فى اسبانيا ، واستولى على قواعدها سبانيا المسلمة ، وهى نيمة وأجدة وماجلونة وبزييه وما حولها ، وأنشأ منها مملكة صغيرة ، والتف حوله السكان النصارى ، واستطاع بمؤازرة الزعماء المحليين ، أن يقضى على سلطان المسلمين فى تلك الأنحاء . ولكنه رأى أنه لا يستطيع الاحتفاظ بمملكته الصغيرة ، والعرب على مقربة منه فى أربونة أقوىاء يخشى بأسهم ، وكذلك توجس شراً من جاره أمير أكويتين ، إذ كان يطمح إلى ضم هذه الأراضى إلى أملاكه ، فلم ير خيراً من الانضواء تحت لواء ملك الفرنج پين ، واستدعائه لمعاونته^(٢) .

وكان پين قد خلف أباه كارل مارتل كمحافظ للقصر الفرنجى ، ولكنه لم يلبث أن قبض على مليكه شلدريك الثالث آخر الملوك المير وفنجية ، وزجه إلى ظلام الدير ، وانتزع العرش لنفسه (٧٥١ م) . فلما استدعاه آنزيموند ، استجاب لدعوته ، ورحب بتلك الفرصة ليتم ما بدأه أبوه من إجلاء المسلمين عن غاليس ، وغزى لانجدوك ، وهاجم المواقع الإسلامية مع حليفه آنزيموند ، وفكك بالمسلمين فى تلك الأنحاء (٧٥٣ م) . وقاومته الحاميات الإسلامية أشد مقاومة ، ولكنها لم تثبت طويلاً لعزلتها ، وحرمانها من كل معاونة ومدد ، واستولى الفرنج على تلك

(١) سبق أن أشرنا إلى تقسيم اسبانيا الإدارى الذى أورده البكرى ، راجع الهامش فى ص ٧٠

Dom Vissette : ibid, V. I. p. 822 (٢)

القواعد والمعاقل كلها خلا أربونة ، فإنها لبثت بيد المسلمين أعواماً أخرى . ولم يستطع الجيش الذى سيره يوسف إلى الشمال ، أن يحقق الغاية المنشودة ، بل رد بخسارة فادحة وقتل قائده سليمان بن شهاب ، ونجا الحصين العقبلى وفرسانه بصعوبة^(١) . وترك الشمال لمصيره ، واستغرقت الثورات والحروب الداخلية اهتمام يوسف وكل نشاطه وموارده .

ذلك أن الأحقاد والمنافسات القديمة التى هدأت حيناً بتولية يوسف ، عادت فاضطربت حين استأثر يوسف وحليفه الصميل بكل سلطة وولاية ، وكان المفهوم أن ولاية يوسف لإمارة الأندلس إنما هى حل مؤقت لحالة طارئة حتى يأتى الأمير الشرعى الذى يختاره الخليفة ، ولكن الخلافة الأموية لقيت مصرعها غير بعيد (١٣٢هـ - ٧٥٠م) ، وتفاقم الاضطراب الذى سرى إلى شئون إفريقية والأندلس قبل ذلك بأعوام ، وأصبح تراث الخلافة الأموية نهباً مباحاً لكل طامع ومتغلب . وكان بالأندلس عدة من الزعماء النابهن ذوى الحاء والعصية ، ينقمون من يوسف والصميل استئثارهما بالسلطة ، ويرى كل منهم أنه أولى بها وأجدر ، وكان يوسف يعمل من جهة أخرى لتوطيد سلطانه فى ذلك القطر البعيد ، الذى رفعه القدر إلى ولايته ورياسته ، والذى يضارع بضخامته وأهميته ملكاً عظيماً . وكان أقوى أولئك الخصوم والزعماء المنافسين ليوسف ، عبد الرحمن بن علقمة اللخمى حاكم ثغر أربونة الملقب «بفارس الأندلس» تنوياً بفائق شجاعته^(٢) . وكان قد اشترك فى الحرب الأهلية قبل ذلك بأعوام حسباً قدمنا . ثم ارتد بجنده إلى أربونة ، واستعصم بها يرقب الحوادث والفرص . فلما تولى يوسف إمارة الأندلس ، واضطربت شئون الشمال ، أخذ يدبر العدة لعبور البرنيه ومحاربة يوسف ، ولكن لم يلبث أن اغتاله بعض أصحابه وحملوا رأسه إلى يوسف ، وتمت هذه الخيانة بوحي يوسف وتحريضه على الأرجح ، وانهارت تلك المحاولة فى مهدها^(٣) . وخرج على يوسف فى إشبيلية يوسف بن عمرو بن يزيد الأزرق ، وكثر جمعه وقوى أمره ، فرحف إليه يوسف وقاتله حتى هزمه وقتله . وخرج عليه فى باجة عروة بن الوليد

(١) ابن الأبار فى الحلة السبراء ص ٥٨ . وكذا **Aschbach: و Conde: ibid, V.I. p. 127** و **ibid, V.I. p. 102** يرضع صاحب أخبار مجموعة تاريخ هذه الحملة بعد ذلك بنحو عشرين ص ٧٦ و ٧٧ .

(٢) ابن القوطية ص ٤٣ .

(٣) المقرئ عن ابن حيان ج ٢ ص ٦٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٩ .

المعروف بالذمي لتحالفه مع أهل الذمة ، والتف حوله النصارى فضلا عن أنصاره من العرب والبربر ، وسار إلى إشبيلية فاستولى عليها ، واتسع نطاق الثورة في تلك الأنحاء ، فوجه إليه يوسف جيشاً لقتاله فهزمه عروة ، فسار إليه يوسف بنفسه ، ووقعت بينهما معارك شديدة انتهت بهزيمة عروة وأسره ، ثم بقتله مع نفر من أصحابه . بيد أن ثورة أخطر وأوسع نطاقاً كانت تدبر عندئذ في الشمال لخلع يوسف والصميل وسمحق سلطانهما . وكان روح هذه الثورة ومدبرها زعيم مضرى شديد البأس والجاه ، هو عامر بن عمرو بن وهب العبدري ، وكان عامر عريق الحسب والعصبية ، وافر الجاه والأتباع ، يزعم مضر ويقودها خلال الحوادث ، وكان صديقاً ليوسف الفهرى قبل ظفريه بالإمارة ، يتولى مثله قيادة الجيش ، فلما ولّى يوسف نزعها منه ، وكان كباقي الزعماء ينقم من يوسف والصميل استئثارهما بالسلطة واستبدادهما بالشئون . فلما اضطرت الأندلس بالفتن واتسع نطاق الثورة ، أخذ يدبر وسائل الخروج على يوسف ، وكان ييسط نفوذه على الجزيرة الخضراء ، ثم انتقل إلى قرطبة يرقب الحوادث ، وكاتب الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور ، وعرض عليه أن يدعو له بالأندلس ، وأن يحكمها باسمه ، إذا بعث إليه بمرسوم إمارتها . وكان يتودد فوق ذلك إلى اليمانية ، ويعنى على يوسف والصميل لإسرافهما في سفك دماهم يوم شقنّدة ، فالتفت حوله اليمنية والمضرية . ولم يكن يوسف يجهل حركاته وتدبيره ، فلما هم بمطاردته والقبض عليه ، فر إلى الشمال في كثير من أتباعه . وكان ثمة زعيان قرشيان آخران هما الحباب بن رواحة الزهرى من بني كلاب ، وتميم بن معبد الفهرى ، قد رفعا لواء الثورة في ولاية سرقسطة ، فتفاهم معهما عامر وتحالف ، واجتمع إليه جيش كبير من اليمنية والمضرية والبربر ، وزحف عامر والحباب الزهرى على سرقسطة ، حيث كان الصميل ، وضيقا عليه الحصار . فاستغاث الصميل بحليفه يوسف . ولكن يوسف لم يستطع أو لم يرد لإنجاده بغية القضاء على سلطانه^(١) . فاضطر الصميل أن يلقي خصومه في أنصاره وأتباعه القلائل . ونشبت بين الفريقين مدى أشهر معارك عديدة ، انتهت بهزيمة الصميل وانسحابه من سرقسطة في قل أنصاره ، فدخلها عامر وحليفه ، واستوليا عليها (سنة ١٣٦ هـ - ٧٥٣ م) . وعمت الثورة كورة

سرقسطة وما إليها ، ودعا عامر لنفسه بولاية الأندلس ، بمرسوم زعم أنه تلقاه من أبي جعفر المنصور ، وخرج الشمال كله عن قبضة يوسف الفهري .

أما الصميل فارتد إلى طليطلة التي أسند إليه يوسف ولايتها بدلا من سرقسطة ، وكان يوسف قد أنهكت قواه واستنفدت موارده تلك الحروب والثورات المتوالية ، فاضطر أن يلزم السكينة حيناً . وبسط عامر سلطانه زهاء عامين ، على كورة سرقسطة . وفي أواخر سنة ١٣٧ هـ (٧٥٤ م) سار يوسف إلى سرقسطة في جيش كبير ، وحاصرها بشدة حتى ضاق أهلها بالحصار ذرعاً ، ورأوا أن يتقوا مصائب الحصار ، بتسليم عامر وابنه وهب والحباب الزهرى إلى يوسف ، فحملهم يوسف معه في الأصقاف ، وارتد صوب طليطلة ، ثم أمر بهم فقتلوا أثناء الطريق ، وتخلص يوسف بذلك من آخر الزعماء الخوارج عليه^(١) . ولكنه لم يقدر أن خطراً آخر سيأتيه من خارج الجزيرة ، وينذر جميع مشاريعه وتدبيره بالانهيار . ذلك أنه ما كاد يجتمع بصديقه وحليفه الصميل في ظاهر طليطلة ، حتى أقبل عليه رسول من قرطبة يحمل كتاباً من ولده عبد الرحمن ، خلاصته أن فتي من بني أمية يدعى عبد الرحمن بن معاوية قد نزل بساحل الأندلس في ثغر المُنكَب Almuñecar ، واجتمع إليه أشياع بني أمية في كورة إليرة (غرناطة) ، وانتشرت دعوته في جنوب الأندلس بسرعة . وذاع الخبر في جيش يوسف فأحدث فيه ذعراً واضطراباً ، وتفرق كثير من جنده . وقيل إن نبأ مقدم الأمير الأموى انتهى إلى يوسف أثناء سيره إلى الشمال ليقاتل نصارى جليقية ، بعد أن سحق الثوار في سرقسطة^(٢) . وعلى أى حال فقد بادر يوسف والصميل فيمن بقي من الأشياع والجند بالسير إلى قرطبة ، ليدبرا الخطط لرد هذا الخطر الجديد ، وكان ذلك في أواسط سنة ١٣٨ هـ (أواخر سنة ٧٥٥ م) .

وفي أثناء هذه الفتن والقلاقل المتواصلة ، استولى الفرنج كما قدمنا على جميع القواعد والأراضي الإسلامية في سبتمانيا ولانجدوك ، وهى التى تكون ولاية الثغر أو رباط الثغر ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى أربونة . وكانت

(١) راجع في تفصيل هذه الحوادث ، ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٥٢ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ١٤٠ و ١٤١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٣ و ٤٤ ؛ وكذا في Dozy: Hist : V.I.p.184 & 185
(٢) ابن القوطية ص ٢٠ ؛ ونفع الطيب ج ١ ص ١٥٤ .

أمنع قلاع المسلمين فيما وراء جبال البرنيه ، وقد استطاعت أن ترد غزوات الفرنج أيام كارل مارتل . فلما فقدت أربونة بطلها المدافع عنها أغنى عبد الرحمن اللخمى فارس الأندلس ، وسقطت أراضي الثغر كلها في يد النصارى ، زحف بين ملك الفرنج ومعه حليفه الكونت آنزيموند القوطى أمير سبتمانيا على أربونة ، وطوقها بقوات كثيفة وضرب حولها الحصار الصارم (سنة ٧٥٥ م) . وكانت أربونة في غاية المنعة والحصانة ، فاعزم المسلمون الدفاع عنها لآخر نسمة ، واضطر بين خلال الحصار أيضاً ، أن رتد عنها بقسم من جيشه لمحاربة أمير أكوئين حفيد الدوق أودو ، وردده عن الأراضي الفرنجية ، وترك آنزيموند لمتابعة الحصار . ولكن آنزيموند قتل أثناء ذلك غيلة تحت أسوار أربونة ، فعاد بين لاستئناف الحصار وهاجم المدينة المحصورة مراراً ، ولكن المسلمين استطاعوا أن يقاوموا الفرنج ، وأن ردوا كل هجماتهم مدى أربعة أعوام ، رغم عزلتهم وانقطاع صلتهم بالأندلس ، وعدم تلقيهم أى مدد من أولى الأمر في قرطبة ، لاشتغالهم بالحرب الأهلية . وكان اتصال المدينة بالبحر يسهل على المسلمين تلقي بعض المؤن ، وتحمل ويلات الحصار . فلما رأى بين أنه لا يستطيع أخذ المدينة بالحرب لحأ إلى الخديعة والخيانة ، وتفاهم مع أهلها القوط ، وقطع لهم عهداً مؤكدة أنهم إذا عاونوه على أخذها ، فإنه يترك لهم حرية التمتع بقوانينهم ، ويمنحهم حقوقاً ومزايا كثيرة ، فعمل القوط على إضرام الثورة داخل المدينة ، ثم انقضوا ذات يوم على حراسها المسلمين وقتلوهم وفتحوا أبوابها ، فدخلها الفرنج وفتكوا بسكانها المسلمين إيماً فتك ، وخربوا مساجدها ومعاهدها ودورها وذلك في سنة ٧٥٩ م (١٤٢ هـ)^(١) . وسقطت بذلك آخر المعاقل الإسلامية في غاليس في يد النصارى ، وانهارت سيادة الإسلام فيما وراء جبال البرنيه ، بعد أن استمرت هنالك زهاء نصف قرن ، وعادت قوى النصرانية ، فاحتشدت وراء تلك الآكام تربرص بالإسلام في الأندلس ، بينما كانت قوى الإسلام داخل شبه الجزيرة يمزق بعضها بعضاً .

وحذا نصارى الشمال حذو الفرنج في الاستفادة من تمزق الإسلام بالأندلس ، وزريد بنصارى الشمال تلك البقية الباقية من القوط الذين ارتدوا أمام الفتح الإسلامى

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الأول

عصر الإمارة

من عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن بن الحكم

١٣٨ - ٢٣٨ هـ : ٧٥٦ - ٨٥٢ م

الفضل الأول

مصرع الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية

اضمحلال الدولة الأموية إبان فتوتها . عوامل هذا الاضمحلال . السياسة الأموية . ما أثارته وسائلها من السخط . إستئلال الشيعة لهذه العاطفة . إضطرام المصيبة والخلافات القومية . خلاف العرب والبربر . خلاف العرب فيما بينهم . وهن دعائم الدولة الأموية . العوامل الخفية التي عملت على تقويضها . الخصومة بين بني أمية وآل البيت . تقدم الدعوة الشيعية . ظهور الشيعة في النواحي . أئمة الشيعة بعد الحسين . محمد بن علي ولد العباس . أبو مسلم الخراساني أعظم دعاة الشيعة . إضطرام الدعوة في خراسان . إستيجاد أميرها نصر بن سيار بالخليفة . غزو أبي مسلم الخراساني وفرار أميرها . استيلاء أبي مسلم على خراسان وفارس . وفاة إبراهيم الإمام والدعوة لأخيه عبد الله بن محمد . غزو الشيعة العراق . نزول أبي العباس عبد الله بن محمد بالكوفة . من هو السفاح . مسير مروان الثاني لقتال الشيعة . لقاء الأموية والشيعة على ضفاف الزاب . هزيمة مروان . فراره ومصرعه . ذهاب الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية .

كانت الدولة الأموية دولة الإمبراطورية الإسلامية الكبرى ، ففي ظلها امتدت الفتوح الإسلامية شرقاً إلى السند وغرباً إلى المحيط الأطلنطي وإسبانيا ، ووصلت الإمبراطورية الإسلامية إلى ذروة ضخامتها وقوتها ، متمسكة الأجزاء ، وثيقة العرى ، موحدة السلطان والإدارة . ولكن الدولة الأموية لم تنعم طويلاً بطور فتوتها ومنعتها ووحدها ، ولم تأت فاتحة القرن الثاني للهجرة حتى كانت هذه الدولة الشاغخة التي لم تجز بعد طور الفتوة ، قد هرمت سراعاً وأدركها الانحلال والوهن ، وتصعد صرح وحدتها الباذخ . واختتم ثبت الخلفاء الأقوياء من بني أمية ، بالوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان (٨٦-٩٩ هـ) ثم بأخيهما هشام . ومنذ عصر هشام بن عبد الملك ، نجد عوامل الانحلال والتفكك ، تعمل عملها في هذا الصرح العظيم ، فلم يمض طويل حتى اضطربت الأندلس بالفتن وخرجت من حظيرة الإمبراطورية ، ولم يبق للخلافة عليها سوى سلطة إسمية ، واستقل الزعماء المتغلبون بحكم إفريقية ، بعد أن خرجت أطرافها القصوى عن قبضة الخلافة ، واضطرب سلطان الخلافة في الولايات الشرقية النائية مثل خراسان وفارس ، وأخذ ملك بني أمية يهتز فوق بركان مضطرب من الدعوات الخصمية ، التي لبثت قبل

ذلك بنصف قرن تعمل في الخفاء ، ثم لاح لها أن الفرصة قد آذنت بالانفجار . ولهذا الانحلال الذي سرى إلى الدولة الأموية ، قبل أن تستكمل أطوار نموها وتوطدها ، أسباب خاصة ، ترجع إلى الظروف التي قامت فيها ، وإلى الآثار الدينية والمعنوية ، التي أثارها السياسة الأموية في الجزيرة العربية ، ثم إلى نتائج تلك المعركة الخالدة التي نشبت بين مختلف العناصر والقوى ، التي اشتركت في بناء الإمبراطورية الإسلامية . فقد استطاع بنو أمية أن ينتزعوا الخلافة والملك ، خلال معركة اعتبرها فريق كبير من الأمة العربية ، خروجاً على آل البيت ذوى الحق الشرعى في الخلافة ، وبوسائل لم تكن دائماً نزيهة ولا عادلة . وكان لما ارتكبه بنو أمية خلال هذه المعركة من الأحداث المثيرة ، أسوأ وقع في نفوس الأمة العربية . فقد فتك بنو أمية بآل البيت وشيعتهم أشنع فتك ، وكان مقتل الحسين ابن على في كربلاء (سنة ٦١هـ)^(١) ، ومقتل عدة من أبنائه وأخوته أشهر حوادث الفتك بآل البيت وأروعها . ومع أن مصرع الحسين وآله ، لم يكن سوى نتيجة للصراع السياسى الذى اضطرم بين آل البيت وبين بنى أمية منذ خلافة على ، فقد كان لهذا الحادث أعظم وقع في العالم الإسلامى ، ولم يمض عامان على تلك المأساة المؤلمة ، حتى أرسل يزيد بن معاوية (سنة ٦٣هـ) جنده إلى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المرزى ، لمعاقبة أهلها على خروجهم عن طاعة بنى أمية ، فاقتحم الحند الأمويون مدينة الرسول ، وعاثوا فيها واستباحوا الحرم المقدسة ، وارتكبوا أشنع صنوف الكبائر والإثم^(٢) ، ثم ساروا بعد ذلك إلى مكة فحاصروها ، وضربوا البيت الحرام بالمنجنيق والنار . وكان لهذه الحوادث وأمثالها أثر عميق في الأمة الإسلامية ، وألغى الشيعة صحب آل البيت ودعاتهم ، في تلك الأحداث المثيرة ، غذاء للتشهير بالسياسة الأموية وأساليبها ، وأصابت هيبة الخلافة الأموية من هذه الناحية ، بصدمع لم تنهض من بعده ، وذكت عوامل السخط عليها .

(١) كان مقتل الحسين بن على في كربلاء في العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ ، وهو يوم « عاشوراء » الذى اتخذته الخلافة الفاطمية بمصر يوم حزن وأسى ؛ وكانت تقام في ذلك اليوم بمدينة القاهرة طائفة من المراسم والاحتفالات المؤثرة . (راجع كتابى الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية - الطبعة الثانية - ص ٣٥٤) .

(٢) وتعرف هذه الموقعة الشهيرة بموقعة الحرة أو حرة واقم ، وهى ضاحية المدينة الشرقية ، وقد سبقت الإشارة إليها .

واستغل الشيعة هذه العاطفة لبث دعوتهم وتدعيم قضيتهم ، وحشد العناصر الناقمة في صفوفهم . وكان اضطرام العصبية والخلافات القومية من جهة أخرى ، يعمل عمله لتمزيق روابط هذه الإمبراطورية الشاسعة . ففي إفريقية كانت ثورات البربر القومية ، تستنفد قوى الخلافة ومواردها بلا انقطاع ، وكان الخلاف بين العرب والبربر في الأندلس ، يهدد مصير الإسلام والخلافة في ذلك القطر النائي ، ويقت في عضد الزعماء والقادة ، ويبعث الاضطراب والوهن إلى صفوف الغزاة . وكان العرب أنفسهم قدوة سيئة في تفرق الرأي والكلمة . فكانت المعركة الخالدة بين مضر وحير ، وبين مختلف القبائل والبطون ، تمزق أوصال الوحدة العربية ، وتقوض دعائم هذه العصبية القومية ، التي دفعت يوم اتحادها وتماسكها ، سيل الفتوح الإسلامية إلى أقاصى المشرق والمغرب .

كانت الخلافة الأموية تسيطر على دولة عظيمة مترامية الأطراف . ولكن سلطانها الحقيقي كان محدود المدى داخل هذه الإمبراطورية الشاسعة ، وكان فوق ذلك يقوم على دعائم مضطربة . وفي ذلك ما يفسر تلك الظاهرة التي يعرضها سقوط الدولة الأموية . فبينما هي تبدو في أوج قوتها وفتوحها ، إذ بها تنهار فجأة ، وتبدو في الحال مظاهر ضعفها وتفككها ، ويبدو ما كان يحيط بسلطانها الشاسع من عوامل مصطنعة ، وما كان يهدده من عوامل الهدم الخفية ، المعنوية والنفسية . وكانت هذه العوامل الخفية في الواقع أخطر ما يهدد سلطان بني أمية ، فإن تلك الأحقاد المرة التي أثارها السياسة الأموية في نفوس خصومها ، كانت تسرى وتجيش ، وتحيط ملك بني أمية بسياج خطر من الحفيظة والبغض . وكانت هذه الحصومة الخطيرة التي يغذيها ظمأ الانتقام ، هي عماد الدعوة الشيعية التي لبثت تشق طريقها منذ مقتل علي ، ثم مقتل بنه من بعده . ثم تأملت هذه الحصومة وتوطدت منذ أوائل القرن الثاني من الهجرة . واستطاع الشيعة أن يظهروا في النواحي ، ولاسيما في العراق وخراسان ، وأن يدبروا عدة ثورات محلية خطيرة . وقد أخذت هذه الحركات الأولى في سيل من الدماء . ولكن القمع كان يذكي النضال ، وإراقة الدم تذكي ظمأ الانتقام . ولم تكن المعركة متكافئة من الوجهة المادية ، فلم يك للشيعة جيوش منظمة أو موارد يعتد بها ، ولكن خطر المعركة كان يجثم في نواحيها المعنوية . واشتد هذا الخطر حينما ضعف أمر العمال في

النواحي ، واتسع الأمر على الحكومة المركزية ، وانحل سلطانها في الأنحاء
النائية ، وأضحى عرضة للانتقاص والانهيار .

ولبت دعاة الشيعة زهاء نصف قرن ينظمون دعوتهم ، ويضعون لها الأصول
والقواعد ، ويحشدون لها الصحب والأنصار في سائر النواحي ، وكانت كغيرها
من الدعوات السرية الثورية ، تلقى في الخفاء تأييداً كبيراً . وليس من موضوعنا
أن نتحدث عن مبادئ الشيعة ورأيهم في الإمامة ومساقها^(١) . ويكفي أن نقول
إن اختلاف الشيعة فيما بينهم ، على حق الإمامة ومساقها في ولد علي ، لم يحل دون
إجماعهم على خصومة بني أمية ، ولا دون استمرار الدعوة الشيعية وتقديمها .
وكانت لإمامة الشيعة قد انتقلت بعد مقتل الحسين إلى أخيه ، محمد بن علي بن
أبي طالب المعروف بابن الحنفية^(٢) . فلما توفي سنة ٨١ هـ ، قام بها ولده أبو هاشم
عبد الله بوصية منه . واستمر أبو هاشم أيام الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان قائماً
بأمر الشيعة ، يفدون عليه ويؤدون له الخراج . ثم توفي مسموماً سنة ٩٨ هـ
بتحريض سليمان بن عبد الملك فيما يقال ، وأوصى بالإمامة إلى ابن عمه محمد
ابن علي بن عبد الله بن العباس كبير علماء الشيعة يومئذ . والعباس هو ابن عبد المطلب
عم النبي . وتقدمت الدعوة الشيعية على يد محمد بن علي تقدماً كبيراً ، وظفرت
في ذلك الحين بأعظم دعاة السياسيين ، ونعني أبا مسلم الخراساني . وقد كان
أبو مسلم شخصية عظيمة ، وكان يتمتع بمقدرة ومواهب فائقة . ولكن الغموض
يحيط مع ذلك بأصله ونشأته ، وتختلف الرواية في أمره اختلافاً كبيراً ، حتى أنها
لتختلف فيما إذا كان من الأحرار أو الموالى . فيقول البعض إنه حر ، يرجع إلى
أصل فارسي رفيع المنبت ، وإنه ولد بأصبهان ونشأ بالكوفة ، واسمه الحقيقي
إبراهيم بن عثمان بن بشار . ويقول البعض إنه من الموالى ، وأصله من أصبهان ،
واسمه إبراهيم . وقيل بل كان عبداً لبكير بن ماهان أحد عمال السند ، وإنه
استصحبه إلى مكة في زيارته لإبراهيم الإمام ، فأعجب إبراهيم بذكائه وفطنته
واشتراه منه . وأما تسميته بأبي مسلم ، فيقال إنه سمي نفسه عبد الرحمن بن مسلم ،

(١) أ رد ابن خلدون في مقدمته شرحاً حسناً لمبادئ الشيعة ومساق الإمامة عند مختلف فرقهم
(المقدمة ص ١٦٤ - ١٦٨) . ويتناولها الشهرستاني في « الملل والنحل » بشيء من التفصيل ؛
وكذلك عبد القاهر البغدادى في كتابه « الفرق بين الفرق » .

(٢) وهو أخو الحسن والحسين من الأب فقط . ويعرف بابن الحنفية نسبة لأمه خولة بنت
جعفر بن قيس المعروف بالحنفية .

واتخذ كنيته أبا مسلم ، وقيل إن إبراهيم الإمام هو الذي سماه بهذا الاسم . ولعل أرجح رواية في شأن هذا الداعية الكبير أنه كان فقي مغموراً ، ولد بمرو في أسرة رقيقة الحال ، ونشأ بأصبهان ، واتصل منذ فتوته ببعض نقباء الشيعة في الكوفة ، فأنسوا فيه ذكاء خارقاً ، وحماسة تضطرم لآل البيت وقضيتهم ، وسار معهم إلى محمد بن علي بن عبد الله بمكة ، فأعجب بذكائه وعزمه ، واختاره داعية للشيعة في خراسان ، موطنه وأصلح ميدان لنشاطه . ولما ظهر أبو مسلم وقوى أمره ، وكثر أنصاره ، ادعى أنه من آل البيت من ولد سليط بن عبد الله بن عباس^(١) . ولما توفي محمد بن علي ، وخلفه في الإمامة ولده إبراهيم الملقب بالإمام بعهد منه (سنة ١٢٦ هـ) استمر أبو مسلم في مهمته ، يبيت الدعوة ، ويحشد لها الأنصار . وكانت خراسان كما قدمنا أخصب ميدان للدعوة الشيعية لبعدها عن الحكومة المركزية ، وتعاقب الفتن فيها بين المضرية واليمينية . وكان أميرها من قبل بني أمية نصر بن سيار في مأزق صعب ، يستنجد عبثاً بحكومة دمشق ، ويشهد تفاقم الحوادث عاجزاً ، وحركة الشيعة تشتد ، وتحتاج خراسان بسرعة . ويروى أن نصر بن سيار كتب إلى مروان بن محمد الخليفة يومئذ ، هذا الشعر الفياض بالنبوءة والنذير يستنجد به ، ويستحثه للدفاع عن عرشه وترات أسرته :

أرى تحت الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكى	وإن الحرب أولها الكلام
فإن لم يطفها عقلاء قوم	يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري	أيقاظ أمية أم نيام
فان كانوا حينهم نياماً	فقل قوموا فقد حان القيام
فقرى عن رحالك ثم قولى	على الإسلام والعرب السلام ^(٢)

وكان أبو مسلم رجل الموقف يدير الخطط بقوة وبراعة ، فلم يمض بعيد حتى ألقي الفرصة سانحة للعمل الحاسم ، فاعزم أمره ووثب في صحبه على نصر بن سيار

(١) راجع في أصل أبي مسلم وسيرته ، ابن الأثير ج ٥ ص ٩٥ - ٩٧ ، وابن خلكان

ج ١ ص ٣٥٢ - ٣٥٤ ، وابن خلدون ج ٣ ص ١٠٠ و ١١٧ - ١٢٠ .

(٢) تروى هذه الأبيات بصورة أخر . راجع مروج الذهب للمسعودي (بولاق) ج ٢ ص ١٥٩

وقوات بنى أمية وهزمهم فى عدة معارك (سنة ١٢٩ - ١٣٠ هـ) ، واستولى على مرو وسمرقند وخراسان ونيسابور ، وطرد منها عمال بنى أمية ، وفر نصر بن سيار إلى العراق . وبسط أبو مسلم سلطانه على خراسان وفارس ، ورفع فيهما لواء الشيعة الأسود ، ودعا لأبى العباس عبد الله بن محمد بن على المعروف « بالسفاح » أخى إبراهيم الإمام وخلفه . وكان الخليفة الأموى مروان بن محمد ، قد هاله ما رأى من تغلغل الدعوة الشيعية فى النواحي ، فقبض على إبراهيم الإمام ، وهو يومئذ بإحدى قرى الشام ، وزجه إلى السجن حتى مات (سنة ١٣٢ هـ) ، وزعم أخوه عبد الله أبو العباس وأصحابه ، أنه أوصى إليه بالإمامة من بعده . فدعا له أبو مسلم فى خراسان وفارس حسبما تقدم . ثم سار أبو مسلم جيشاً إلى العراق فلقبه أميرها ابن هبيرة فى قواته ، ووقعت بين الفريقين على ضفاف الفرات معارك شديدة ، هزم فيها ابن هبيرة وفر إلى الشمال . واستولى الشيعة على العراق ، ودعوا لأبى العباس بالخلافة (ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ) ، ونزل أبو العباس عبد الله « السفاح » بالكوفة ، واستقر بها يرقب الحوادث .

وفى ذلك الحين كان مروان بن محمد أو مروان الثانى^(١) ، الذى ولى الخلافة سنة ١٢٧ هـ ، يتأهب للدفاع عن ملك بنى أمية ، الذى تصدع صرحه سراعاً . فحشد جيشاً ضخماً ، وسار شرقاً حتى وصل إلى ضفاف نهر الزاب ، وهو فرع من دجلة يتصل به فى الضفة الشرقية جنوب شرقى الموصل ، وسار للقائه قائد المسودة (الشيعة) فى الشمال ، أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي ، وأمدّه أبو العباس بجيش آخر بقيادة عمه عبد الله بن على ، وبلغت قوات الشيعة كلها زهاء عشرين ألفاً ، وبلغت القوات الأموية زهاء مائة وعشرين ألفاً . ولكن حماسة الشيعة كانت تغنى عن الكثرة ، وكان تعاقب الظفر يذكى عزائمهم ويضعف قواهم ، وكان الجيش الأموى على ضخامته قد خبت عزائمه ، واختلت صفوفه وغاضت قواه المعنوية . والتقى الفريقان على ضفة الزاب اليسرى ونشبت بينهما معركة شديدة حاسمة ، انتهت بهزيمة الجيش الأموى وتمزيقه ، وذلك فى الحادى عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٢ هـ (٢٥ يناير ٧٥٠ م) ، وغرق فى النهر آلاف من جند الشام ، وعدة من زعمائه وقادته ، واستولى الشيعة على أسلابه ، وفر

(١) يعرف مروان بن محمد أيضاً بمروان الجعد ، وحمار الجزيرة ، أو مروان الحمار .

مروان في قل من صحبه إلى الشام ، فسار في أثره عبد الله بن علي ، وحاصر دمشق واقتحمها في الخامس من رمضان من نفس العام . وفر مروان إلى فلسطين ثم إلى مصر . فبعث « السفاح » في أثره جيشاً بقيادة عمه صالح بن علي ، فلاحق به في مصر ، وظل يطارد من مكان إلى مكان ، حتى ظفر به في قرية بوضير على مقربة من الحيزة . وهناك مزقت البقية الباقية من أنصار بني أمية ، وقتل مروان آخر الخلفاء الأمويين بالشرق ، وأرسل رأسه إلى « السفاح » وذلك في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ (٦ أغسطس سنة ٧٥٠ م) .

وهكذا انهارت دعائم الدولة الأموية بسرعة مدهشة ، وقامت على أنقاضها دولة بني العباس . ولا ريب أن أكبر الفضل في تحطيم ذلك الصرح الشامخ ، يرجع إلى جهود تلك الشخصية العظيمة ونعني أبا مسلم الخراساني . كان أبو مسلم إحدى هذه العبقریات الشاملة ، التي تنفتح في معترك الانقلابات الحاسمة ، وتقوم على سواعدها الدول العظيمة . وكانت دعوة الشيعة وإمامة آل البيت مبعث هذا الانقلاب وروحه . ولكن بني العباس ما كادوا يتبوأون ذلك الملك الباذخ ، حتى غلبت عليهم عصبية الأسرة ، وألفوا في أبي مسلم منافساً تخشى عواقبه ، وفي الدعوة الشيعية خطراً يجب القضاء عليه . فلم تمض أعوام قلائل حتى قتل أبو مسلم (شعبان سنة ١٣٧ هـ) ، قتله أبو جعفر المنصور أخو أبي العباس وخلفه . ثم تتبع زعماء الشيعة وولد علي بن أبي طالب بالقبض والمطاردة ، حتى مزق شملهم وبيح دعوتهم . واستخلص بنو العباس تراث بني أمية لأنفسهم . وقامت تلك الدولة العباسية الزاهرة ، تصل تاريخ الإسلام في المشرق ، وتسير به إلى عصر جديد من العظمة والبهاء .

الفضل الثاني

بعث الدولة الأموية في الأندلس

موقف الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية . يوسف الفهري حاكم بأمره . مطاردة بني العباس لبني أمية . المذبحة الرائعة . من هو السفاح . نجاة عبد الرحمن بن معاوية . فراره وظروفه المؤثرة . تجوله في برقة وإفريقية . نجاته من قبضة عبد الرحمن بن حبيب . التجاؤء إلى المغرب الأقصى . إرساله لبدن مولاه إلى الأندلس . مفاوضة بدر الزعماء . سعى أبي عثمان وعبد الله بن خالد لتأييد عبد الرحمن . موقف الصميل بن حاتم . عبور عبد الرحمن إلى الأندلس . توجس يوسف الفهر . واختلال جيشه . تقدم الدعوة الأموية . الزعماء المؤيدون لعبد الرحمن . عود يوسف والسميل إلى قرطبة . عرض يوسف على عبد الرحمن وكتابه إليه . رفض عبد الرحمن لهذا العرض . مبايعة ربه وشذونة وإشبيلية لعبد الرحمن . زحفه على قرطبة . خروج يوسف والسميل لملاقاته . لقاء الفريقين في موقعة المسارة . هزيمة يوسف والسميل . دخول عبد الرحمن قرطبة ومبايعته بالإمارة . الموقف بعد المسارة . مهمة عبد الرحمن الفادحة . معركة الدولة والإمارات المستقلة . الأخطار التي تحيق بالأندلس . الكفاح المستمر .

بينما كانت حوادث هذا الانقلاب الحاسم في مصائر الإسلام تجري في المشرق ، كانت حوادث الأندلس تؤذن بانقلاب عظيم آخر في مصائر الإسلام في ذلك القطر النائي . وكانت الفتن والحروب الأهلية المتعاقبة التي فصلنا أخبارها ، تدفع بالأندلس إلى مصير مجهول تخشى عواقبه ، وتعصف تبعاً بمنعة الإسلام في الغرب ، وتشجع الفرنج ونصارى الشمال على اقتطاع الأطراف النائية ، والتوغل في الأراضي الإسلامية . وكان من عناية القدر أن تولى أمر الأندلس في ذلك المأزق العصيب ، رجل قوى حازم هو يوسف بن عبد الرحمن الفهري . ولكن ولاية يوسف لم تكن حلاً نهائياً للأزمة ، لأنه تولى دون مصادقة شرعية من السلطة العليا ، ولأن منافسيه من الزعماء والخوارج لم يقرؤا بولايته ، ولم يخلدوا إلى السكينة ، وأخيراً لأن السلطة العليا التي يرجع إليها أمر الأندلس ، ونعني خلافة دمشق قد انهارت غير بعيد ، وقامت على أنقاضها دولة وخلافة جديدتان . والحقيقة أن يوسف بن عبد الرحمن الفهري كان حاكماً بأمره في الأندلس . وكانت الأندلس في ذلك الحين إمارة أو دولة مستقلة ، يتوقف مصيرها ومصير السلطات فيها على سير الظروف والحوادث . وكان للانقلاب الذي وقع في المشرق صدها

في الأندلس ، إذ قام بعض الخوارج على يوسف يدعو لبني العباس ، طمعاً في الرياسة على نحو ما بينا ، ولكنه كان صدى ضعيفاً لم يحدث أثره ، واستمر يوسف ثابتاً في مركزه ، يناهض الخارجين عليه بقوة وعزم . ولا ريب أنه كان يحرص على ذلك السلطان الذي ألقى إليه به القدر ، بل لعله كان يعمل لغاية أتم وأبعد ، هي أن يؤسس بالأندلس مملكة مستقلة قوية ، يتبوأ عرشها ، وأسرّة ملوكية جديدة من بنيّه وعقبه ، يلقى إليها بهذا التراث الباذخ :

على أن حوادث المشرق كانت تتمخض عن عوامل ومفاجآت أخرى . ذلك أن بني العباس بعد أن ظفروا بملك بني أمية ومزقوا شمل أسرهم ، أخذوا في تتبع من بقي من أمرائهم وزعمائهم ، حتى لا تقوم لفيلهم قائمة بعد . وعهد أبو العباس عبد الله « السفاح » ، إلى عمه عبد الله بن علي وهو بالشام ، تنظيم هذه المطاردة الدموية^(١) . فتبع وجوه بني أمية ومواليهم في كل مكان ، وأمعن في مطاردتهم وسفك دمائهم ، وقتل منهم جماعه كبيرة من الأمراء والسادة ، ولم يبق حتى على النساء والأطفال ، ولما شعر أن كثيرين منهم فروا ولاذوا بالاختفاء ، زعم أن أبا العباس قد ندم على ما فرط منه في حقهم ، وأنه يشملهم بعفوه وأمانه ، فخدع كثيرون منهم بهذا الوعد ، ولبوا دعوة عبد الله إلى الظهور ، واستطاع بهذه الوسيلة أن يقتل منهم نحو سبعين رجلاً آخر . وكانت مأساة هائلة ارتكبت خلالها ضروب مروعة من القسوة ، ومثل بكثير من الضحايا أشنع تمثيل ، وألقيت جثثهم للكلاب ، واستخرجت رفات الخلفاء الأمويين من مثواها وبددت ، ولم تترك جرمة مثيرة ، أو لون من العقاب أو المهانة ، إلا كان فل بن أمية لها فرائس وضحايا^(٢) .

وهنا يسوغ لنا أن نتساءل ، من هو « السفاح » ؟ أهو أبو العباس عبد الله ابن محمد أول خلفاء بني العباس ؟ أم هو عمه عبد الله بن علي ؟ هذا ما تختلف

(١) وقد أشار أحد الشعراء من دعاة بني العباس وهو سديف بن ميمون إلى هذه المطاردة في شعر أنشده بين يدي أبي العباس وفيه يقول :

لا يفرنك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حق لا ترى فوق ظهرها أمويا

(٢) راجع طرفاً من فظائع هذه المطاردة في ابن خلدون ج ٣ ص ١٣٢ و ١٣٣ ؛ وابن

الأثير ج ١ ص ١٦١ .

الرواية الإسلامية في شأنه . ويتفق معظم المؤرخين المسلمين ، مثل الطبرى ، وابن الأثير ، وابن خلكان ، وابن خلدون^(١) على أن « السفاح » إنما هو لقب أبى العباس عبد الله بن محمد أول الخلفاء العباسيين . ويذكر لنا الطبرى وابن الأثير كيف أن أبا العباس ، هو الذى أطلق على نفسه هذا اللقب حينما ألقى خطابه الأول بمسجد الكوفة على أثر مبايعته بالخلافة ، إذ قال للناس فى ختام خطابه : « فاستعدوا فأننا السفاح المبيح ، والثائر المنيع »^(٢) . ولكن هناك روايات أخرى ومنها رواية قديمة هى رواية صاحب « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » تذكر لنا أن لقب « السفاح » لم يطلق على أبى العباس ولكنه أطلق على عمه عبد الله بن على^(٣) . ولهذا الرواية ظاهر من الوجهة فيما ارتكبه عبد الله بن على من الفتك الذريع ببنى أمية ، وتبعهم بالقتل فى سائر الأنحاء دون هوادة . ولكن من الذى يحمل فى الواقع تبعة هذه المطاردة الدموية المروعة ؟ إن الذى أوصى بمطاردة بنى أمية والفتك بهم هو أبو العباس ذاته ، وهو أول من اجتنب ثمار الجريمة ، وتلقى ثراث القتلى ، ولم يكن عمه عبد الله بن على سوى منفذ لإرادته وأمره ، وعلى ذلك فهو أحق بأن يحمل ذلك اللقب الذى يتفق مع تبعاته ونتائج سياسته ، وهو لقب يخصه به جمهرة من الثقة المؤرخين .

ولكن هذه المطاردة الدموية الشاملة لم تبحث الشجرة من أصلها ، وشاء القدر أن تفلت بعض فروعها من يد الجناة ، وأن تزكو لتستعيد أصلها الراسخ فى أرض أخرى . وكان ممن نجا من المذبحة الهائلة فتى من ولد هشام بن عبد الملك هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام . وكان وقت أن حلت النكبة بأسرته يقيم مع أهله وأخوته ، فى قرية تعرف بدير خنان من أعمال قنسرين ؛ وفيها كان مولده قبل ذلك بنحو عشرين عاماً فى سنة ١١٣ من الهجرة (٧٣١ م) ؛ وقيل بل كان مولده بالعليا من أعمال تدمير . وتوفى أبوه معاوية شاباً فى أيام أبيه هشام بن

(١) راجع الطبرى ج ٩ ص ١٢٣ ؛ وابن خلكان فى الوفيات ج ١ ص ٣٥٤ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ١٤٥ و ١٥٥ ، وابن خلدون ج ٣ ص ١٢٨ و ١٣٩ و ١٧٣ .

(٢) الطبرى ج ٩ ص ١٣٢ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ١٥٥ .

(٣) راجع « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس » ص ٤٨ ؛ وراجع أيضاً كتاب الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٤٨ .

عبد الملك في سنة ١١٨ هـ ، فكفله وأخوته جدهم هشام^(١) . ولما انهار صرح الخلافة الأموية ، وأمن الظافر في مطاردة بني أمية ، فر عبد الرحمن بأهله وولده إلى ناحية الفرات ، وحل هناك ببعض القرى واختفى بها حيناً يدبر أمره ، ولكن جند المسودة ما لبثت أن حلت بتلك الجهة تستقصي آثار بني أمية ، فبادر عبد الرحمن بالفرار . وتنقل إلينا الرواية على لسانه قصة مؤثرة عن حوادث فراره ، وتصف لنا كيف أدركته خيل المطاردين على ضفة النهر مع أخيه الصبي ، فوثبا إلى النهر واستطاع عبد الرحمن أن يقطعه سباحة إلى الضفة الأخرى ، ولكن الغلام عجز عن قطعه وعاد إلى الضفة الأولى ، حيث وعده المطاردون بالأمان ، ولكنه ما كاد يقع في أيديهم حتى انقضوا عليه وقطعوا رأسه أمام عيني أخيه ، وقلبه يتفطر روعة وأسى^(٢) . ولما أن أمن عبد الرحمن خطر مطارديه ، سار مختفياً إلى الجنوب ، قاصداً إلى المغرب . وتقول لنا الرواية أيضاً ، إن المغرب كان مقصده منذ الساعة الأولى ، وإن نفسه كانت تحدثه بما سيكون له في الأندلس من شأن ، وإن بني أمية كانوا قبل مصرعهم ، يهجسون بمثل هذه النبوءة ويرددونها^(٣) .

واخترق عبد الرحمن فلسطين ومصر ، ولحق به مولياه بدر وسالم ، أنفذتهما إليه أخته أم الأصبح بشيء من المال والجوهر ، ثم جاز إلى برقة والتجأ إلى أخواله بني نفزة ، وهم من بربرة طرابلس ، وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح ، وأقام لديهم طويلاً يرقب الفرص . والظاهر أن محاولة الاستيلاء على إفريقية لم تكن بعيدة عن ذلك الذهن الجريء المغامر ، وقد كانت إفريقية في الواقع منذ ربع قرن مطمح الخوارج والمتغلبين . وكان عبد الرحمن بن حبيب الفهري قد انتزعها لنفسه في سنة ١٢٧ هـ ، ولما دالت دولة بني أمية دعا لبني العباس كما قدمنا ، ولكن الفتي الأموي لم يجد على ما يظهر أية فرصة للعمل في هذا السبيل . وكان عبد الرحمن ابن حبيب يخشى على سلطانه من ظهور بني أمية في إفريقية ، فطارد اللاجئين إليها منهم ، وقتل ولدين للوليد بن يزيد بن عبد الملك ، واعتقل آخرين وصادر أموالهم .

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) أورد هذه الرواية صاحب أخبار مجموعة (ص ٥١ - ٥٣) . وكذلك أوردتها ابن حيان مؤرخ الأندلس ونقلها المقر (نفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ و ٦٣) .

(٣) أخبار مجموعة ص ٥١ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٢ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٣ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢١ .

ولما شعر بظهور عبد الرحمن الأموي حاول القبض عليه ، ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة ، وفر مع صحبه إلى المغرب الأقصى ، وتجول حيناً في تلك الأنحاء ، ولقي كثيراً من الصعاب والخطوب ، وكان يرى الموت والأسر يندراناه في كل خطوة . وأقام حيناً مختفياً عند شيخ من شيوخ البربر يدعى وانسوس ، كانت له فيما بعد لديه حظوة ، ثم نزل عند قوم من زناتة على شاطئ البحر ، ولحق حيناً بمليلة وغيرها ، وكان أثناء تجواله يدرس أحوال الأندلس وأخبارها ، ويرقب فرص العبور إليها .

وفي أواخر سنة ١٣٦هـ (٧٥٣م) لاحت له فرصة العمل ، وقوى أمله ما علمه من اشتداد الخلاف بين المضرية واليمينية ، فبعث بداراً مولاه إلى الأندلس ليسبر غور شئونها ، وليحاول بث دعوته بين أنصار بني أمية وأهل الشام ، فنزل بدر بساحل البيرة (كورة غرناطة) وكانت منزل جند الشام كما أسلفنا ، وفيها تجتمع عصبة بني أمية . وكانت رئاسة الأمويين (أو المروانية) والشاميين يومئذ لزعيمين من موالي بني أمية ، هما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله ابن خالد . فاجتمع بداربني عثمان وأبلغه رسالة عبد الرحمن ، وناشده العمل لنصرته ، وبث دعوته بين أصدقائه وشيعته ، ولاسيا بين اليمينية ، وهم خصوم يوسف الفهري ومنافسوه^(١) . فاستجاب أبو عثمان لهذه الدعوة ، وكانت بينه وبين الصميل مودة وصداقة ، ففكر في التماس عونه في ذلك المشروع ، وسار إليه مع عبد الله بن خالد في طليطلة ، وكان الصميل قد ارتد إليها منهزماً عن سرقسطة وفي نفسه مرارة من يوسف لأنه قصر في غوثه وإنجاده ، ففاوضاه في أمر عبد الرحمن وطلباً منه العون والتأييد . ولكن الصميل أبدى تردداً وفتوراً ، واقترح أن يتزوج عبد الرحمن من ابنة يوسف ، وأن ينزل آمناً في ظله ، ثم صرفهما ببعض الوعود الغامضة^(٢) . وكان الصميل يحرص في الواقع على أن تبقى السلطة ليوسف ،

(١) يروى لنا ابن حيان قصة اتصال بدر باليمانيين على النحو الآتي : قال لهم ، ما رأيكم في رجل من أهل الخلافة يطلب الدولة بكم ، فيقيم أودكم ، ويدرككم آمالكم ؛ فقالوا : ومن لنا به في هذه الديار . فقال بدر : ما أدناه منكم ، وأنا الكفيل لكم به . ثم ذكر لهم خبر عبد الرحمن ومكان وجوده ، وأنه يقدم نفسه إليهم ، فقالوا : فجيء به أهلاً ، إنا سراح إلى طاعته ، وأرسلوا بدرأ بكتهم يستدعونه (راجع الإحاطة لابن الخطيب (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٥٣) .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٥ ؛ ونفع الطيب ج ٢ ص ٦٤ ؛ وابن القوطية ص ٢٢ .

لأنه مستأثر في ظله بالنفوذ والسلطان ، ويشاركه في تدبير الأمر وحكم الأندلس ، فعاد أبو عثمان وزميله إلى البيرة ونشطا إلى بث الدعوة فيها ، وحث البنية على القيام للأخذ بالتأثر ، وبثا عمالهما في أنحاء الأندلس يدعون إلى تأييد عبد الرحمن الأموي . وعاد بدر إلى عبد الرحمن على مركب خاصة جهزها أبو عثمان ومعه عدة من أنصار الأموية ، وأفضى إليه بنتائج رحلته ، فاستبشر عبد الرحمن ، وعبر البحر معهم إلى الأندلس ، ونزل بساحل البيرة في ثغر المنكب ^(١) Almuñecar ، وذلك في ربيع الآخر سنة ١٣٨ هـ (سبتمبر سنة ٧٥٥ م) ، فاستقبله أبو عثمان وأنزله بمقامه في طرُش Torrox ، وهي قرية تقع غربي المنكب على مقربة من البحر ، فاستقر بها ينظم دعوته ويدبر خطته ^(٢) .

وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهري أثناء ذلك في الشمال يعسكر بجيشه تحت أسوار سرقسطة ، وقد استعصم بها عامر العبدري والحباب الزهري . فلما تم له الأمر بالاستيلاء على سرقسطة والقبض على الزعيمين الثائرين وإعدامهما على نحو ما فصلنا ، ارتد بجيشه صوب طليطلة . وبينما هو في الطريق على مقربة منها ، إذ أتاه رسول أوفده على جناح السرعة ولده عبد الرحمن بن يوسف ، الذي استخلفه على قرطبة ، ومعه كتاب ينبئه فيه بمقدم عبد الرحمن الأموي ، وانتشار دعوته في جنوب الأندلس ، فدعروا يوسف ، وذاع النبا في الجيش ، فمضى إليه الخلل ، وتسلسلت العناصر الناقمة ، ولم يبق منه سوى فلول يسيرة . فهرول يوسف في بقية جنده إلى طليطلة ، لبحث مع الصميل في خير الوسائل لرد هذا الخطر . وكانت الدعوة الأموية في ذلك الحين قد اجتاحت جنوبي الأندلس ، والتف حول عبد الرحمن عدة من زعماء القبائل والهند ، منهم تمام بن علقمة اللخمي ^(٣) ، وقد أخذ له بيعة جند فلسطين ، ويوسف بن بخت وقد أخذ له بيعة جند الأردن ، وجدار بن عمرو المذحجي من زعماء ريه ، وحسان بن مالك الكلبي من زعماء

(١) وما تزال المنكب كما كانت ثغراً من ثغور الأندلس الجنوبية . وهي مدينة كبيرة بيضاء تقع على خليجين متجاورين كقوسين في البحر ، وتحتهما الجبال من الخلف . وربما كان موقعها الحصين من البر والبحر ، هو الذي حدا بعبد الرحمن إلى اختيارها للنزول في شاطئ الأندلس . فضلا عن قربها لمركز دعوته .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٦ ؛ ونزه الطيب ج ٢ ص ٦٥ ؛ وأخبار مجموعة ص ٧٦ .

(٣) لعله أخ لعبد الرحمن بن علقمة اللخمي والى أربونة ، المعروف بفارس الأندلس الذي فصلنا أخباره فيما تقدم .

إشبيلية ، وحشد أبو عثمان وعبد الله بن خالد حوله جمعاً كبيراً من الأموية وأهل الشام . وعاد يوسف والصميل إلى قرطبة ليدبرا الأمر معاً ، وأشار الصميل على يوسف بمصانعة عبد الرحمن وملاطفته وإغرائه بمصاهرته ، فأرسل إليه يوسف وهو ما يزال بطرّش وفداً يعرض عليه أن يزوجه ابنته ، ويقطعه كورة البيرة (غرناظه) أو كورة ربه أو يقطعه ما بينهما ، وبعث إليه هدية وشيئاً من المال ، وكتاباً طويلاً يرغبه فيه بمحالفته . وينقل إلينا منه صاحب البيان المغرب هذه الفقرة : « أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأبش من تأبش إليك ، ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ، ونقض الأيمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعين عليهم . ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش ، حتى غمضوا ذلك ، واستبدلوا بالأمن خوفاً ، وجنحوا إلى النقص ، والله من ورائهم محيط . فإن كنت تريد المال وسعة الجناب . فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكنفك وأصل رحمك ، وأنزلك معي إن أردت أو بحيث تريد ، ثم لك عهد الله وذمته بي ، ألا أغدرك ولا أتمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ولا غيره ... » . ولكن عبد الرحمن لم يندع بوعود يوسف وعهده ، فأبى عرضه ورد رسله ، وكان يسمو بأطاعه إلى أبعد من ذلك وأرفع ، وكان سلطان الأندلس كلها مطمح آماله^(١) . وكان قد أنس عندئذ ذبوع دعوته وقوة أنصاره ، فسار في صحبه من طرّش إلى ريّه ، فبايعه عاملها عيسى بن مساور ، ثم إلى شنونة فبايعه عاملها علقمة بن غيات اللخمى ، ثم إلى إشبيلية ، فبايعه كبيرها أبو الصباح بن يحيى اليحصبي زعيم اليمنى ، وانضم إليه أثناء تجواله كثير من الأنصار والحند ، واجتمع له في إشبيلية زهاء ثلاثة آلاف فارس ، وذاعت دعوته في غربي الأندلس كله ، وأقبلت إليه المتطوعة من كل صوب ، من المضرية واليمنى وأهل الشام . ولما رأى أنه يستطيع البدء بمناجزة يوسف سار في قواته صوب قرطبة ، وكان ذلك في فاتحة ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ (أوائل سنة ٧٥٦ م) .

وفي ذلك الحين كان يوسف والصميل قد حشدا جموعهما ، ومعظمها من الفهرية والقيسية ، وكان جند يوسف قد وهن ، وتفرق معظمه خلال الفتن والغزوات المتوالية ، وجاءت دعوة عبد الرحمن الأموى فزادته تفرقاً وضعفاً .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٧ ؛ وأخبار مجموعة ص ٧٩ و ٨٠ .

وخرج يوسف بقواته إلى المسارة في ظاهر قرطبة من الغرب ، على ضفة نهر الوادى الكبير ، وكان عبد الرحمن قد أشرف بجيشه على ضفة النهر الجنوبية ، في قرية مقابلة تسمى « بِلَّة نوبة » (قُلْيَا نويفا Villanueva)^(١) . و فرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة ، وفي اليوم الرابع وهو يوم الخميس تاسع ذى الحجة ، هبط ماء النهر وانحصر في بعض المواضع ، فتأهب الفريقان للحرب ، ولم تنجح محاولة يوسف في سبيل عقد الصلح ، وصمم عبد الرحمن على القتال في اليوم التالى أعنى يوم الجمعة ، وكان يوم الأضحى ، متيمنا في ذلك بذكرى موقعة مرج راهط الشهيرة ، التى انتصر فيها جده مروان بن الحكم ، على قوات عبد الله ابن الزبير ، التى يقودها الضحاك بن قيس الفهرى ، وذلك في يوم الأضحى — وقد كان الجمعة أيضاً — سنة ٥٦٤ هـ . وفي اليوم التالى دفع عبد الرحمن قواته لاقتحام النهر ، وكان أول من اقتحمه منهم جند بنى أمية ، وكان يوسف يتفوق على خصومه بكثرة فرسانه ، ولكن التفرق كان يسود جنده ، وكانت جموع عبد الرحمن تضطرم على قتلها عزماً وحماسة ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ولكن قصيرة ، فلم يأت الضحى حتى مزقت خيل يوسف ، وهزم جيشه هزيمة شديدة ، ونهبت أسلابه ، وقتل كثير من وجوه القيسية والفهرية^(٢) . وفر يوسف صوب طليطلة ، حيث كان ولده عبد الرحمن ، وفر الصميل صوب جيان . ودخل عبد الرحمن الأموى وصحبه قرطبة دون معارضة ، وحمل جنده ما استطاع على الاعتدال والقناعة ، وحمل أسر خصومه وحریمهم وأموالهم من العيث ، وصلى الجمعة في الجامع ، ثم نزل بالقصر ، وبويع في الحال بالإمارة ، وذلك في العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (١٣ مايو سنة ٧٥٦ م)^(٣) .

كان يوم المسارة بالنسبة لعبد الرحمن فاتحة الظفر لاغايته ، فقد استطاع بعد أحداث وخطوب جمة أن يحوز إلى الأندلس ، وأن يفتح عاصمتها ، وأن ينتزع إمارتها لنفسه ، ولكنه ظفر بعرش لم يتوطد سلطانه بعد . وكان ثمة بينه وبين مُلك

(١) ابن القوطية ص ٢٦ .

(٢) ويبالغ البعض في تقدير عدد القتل فيقدره بسبعين ألفاً (ابن القوطية ص ٢٧) .

(٣) يفرد صاحب أخبار مجموعة فصلاً مهباً لهذه الموقعة ، وكيفية تقسيم الجيشين المتحاربين وأسماء القادة في كل منها (ص ٨٦ - ٩٠) . وراجع أيضاً ابن القوطية ص ٢٦ - ٢٨ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٥ و ٦٦ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٨ و ٤٩ .

الأندلس الحقيقي مراحل بعيدة ، وكان ملك الأندلس قد غدا منذ انحلال الخلافة الأموية ، كما رأينا ، نهباً مشاعاً يتنازعه الزعماء والمتغلبون ، وكانت الفتن المتوالية قد عصفت بالسلطة العليا ، واقتصت من أطرافها ، واستقل الزعماء الأقوياء بكثير من النواحي ، وقضى يوسف الفهرى معظم ولايته في إخماد الفتنة ، واستخلاص الرياسة ، ولكنه لم يوفق إلى إخماد كل عناصر النزاع والخروج . فلما ظهر الفتى الأموى في الميدان ، كان صرح الأندلس يهتز فوق دعائمه الواهنة ، وكان توطيده يتطلب كثيراً من العزم والعمل القوى .

وكان يوم المسارة حاسماً في مصائر الأندلس ، وكان فاتحة عهد جديد في تاريخها . ولكن المهمة كانت فادحة ، والمعركة شاقة مشعبة النواحي . وكما أن يوم المسارة كان فاتحة الظفر ، فقد كان فاتحة الكفاح أيضاً . ذلك أن الأندلس كانت يومئذ بسيطاً من الفتن المتأججة ، وكانت الثورة تجثم في كل ناحية ، وانحلت عرى العصبية القديمة الشاملة ، وانتشرت فرقاً وشيعاً صغيرة ، فلم تبق الحصومة قاصرة على المضرية واليمينية فقط ، ولكن غدت كل قبيلة وكل بطن تلتف حول زعامتها ومصالحها الخاصة . وكانت هذه القوى المنتثرة المستقلة برأيها وهواها ، تتمسك باستقلالها المحلي ، وتأبى الخضوع لأية سلطة عامة . وكان عبد الرحمن يرمى إلى إحياء دولة الإسلام في الأندلس موحدة متماسكة ، كما كانت قبل أن تمزقها الحرب الأهلية ، فكانت المعركة في الواقع معركة الدولة والإمارات المستقلة ، ومعركة السلطة المركزية والإقطاع المحلي : معركة الرياسة الشاملة ، والعصبية المتناثرة . وكان البربر عنصراً قوياً في الفتنة ، يحتفظون دائماً ببغضهم القديم للعرب ، ويحرصون على ما انتزعه منهم خلال الفتنة من النواحي والضياع . ثم كان هنالك ما هو أشد خطراً على دولة الإسلام في الأندلس ، ونعني إسبانيا النصرانية التي استطاعت أن تخرج سراعاً من غمر الهزيمة والفوضى ، وأن تنتظم إلى مملكة جديدة في الشمال ، وكذلك مملكة الفرنج القوية التي استطاعت أثناء الفتنة أن تنتزع الأراضي الإسلامية فيما واء البرنيه . وكان نصارى الشمال والفرنج يتربصون يومئذ بالأندلس ، ويرون في تفرقها وضعفها فرصة صالحة للعمل ، ويتصلون بكثير من الرعاء والخوارج ، ويمدونهم بالنصح والعون ، ويتخذونهم وسائل لتحقيق مشاريعهم في تمزيق الأندلس وانتزاع أطرافها .

كان عبد الرحمن غداة ظفـره الأول ، يواجه هذه الخطوب والأخطار كلها ، وكان عليه أن يقارعها جميعاً ، لكي يغنم رياسة الأندلس القوية المتحدة . ولكن ذلك الأمير الفتي الذي لم يكن يجاوز السادسة والعشرين يوم ظفـره ، كان رجل الموقف ، قد شحذت من عزمه الخطوب والحن ، وأعدته لحياة النضال والمغامرة . فقضى بقية عمره — اثنين وثلاثين عاماً — في كفاح مستمر ، لا ينتهى من معركة إلا ليخوض أخرى ، ولا يجمع ثورة إلا تليها ثورة ، ولا يسحق خارجاً إلا ليعقبه خارج ، ولم تبق بالأندلس ناحية أو مدينة إلا ثارت عليه ، ولا قبيلة إلا نازعته في الرياسة ، ولم تبق قوة خفية أو ظاهرة إلا عملت لسحقه . فكانت الأندلس طوال عهده بركاناً يتأجج بضرام الحرب والثورة والمؤامرة . ولكنه صمد لتلك الخطوب كلها ، واستطاع بكثير من الذكاء والإقدام والعزم والجلد ، أن يغالب تلك الأخطار والقوى ، وأن يقبض على مصائر الأندلس بيده القوية ، وأن يحيى سلطان أسرته المندثر ، في ذلك القطر النائي ، ليستقر ويزدهر أكثر من قرنين . وكان تفرق خصومه أهم عامل في ظفـره ، فلم تك ثمة زعامة شاملة بعد يوسف والصميل ، يجتمع الخصوم حولها ، وكانت القوى الخصيمة متثرة في النواحي والمدن ، تعمل كل بمفردها حول زعيمها المحلي ، وكانت فوق ذلك يعارض بعضها بعضاً في معظم الأحيان ، وقد استطاع عبد الرحمن أن يقدر هذا الظرف وأن يستغله ، فعمد إلى لقاء معارضييه في الميدان فرادى ، واستطاع أن يخمد ثوراتهم ، وأن يحطم قواهم بالتعاقب ، وهو في كل مرة يزداد قوة ومنعة ، ويزداد خصومه ضعفاً وتفرقاً ، حتى قضى عليهم جميعاً .

الفصل الثالث

ولاية عبد الرحمن الداخل

- ١ -

بدء المعارك الداخلية . القتال بين يوسف والصميل وبين عبد الرحمن . إذعانهما إلى طلب الصلح وعودهما إلى قرطبة . فرار يوسف وسجن الصميل . يوسف يستأنف الحرب . هزيمته وفراره . مصرعه في طليطلة ومقتل ولده عبد الرحمن . فرار والده محمد إلى طليطلة . هزيمته وأسرره . مصرع الصميل . تأملات عن يوسف والصميل . ثورة للقام بن يوسف في الجزيرة الخضراء . استيلائه على إشبيلية . مهاجمة عبد الرحمن لإشبيلية . هزيمة للتمام وأسرره . ثورة عبد الغافر اليماني في إشبيلية وإخادها . استئنافاها على يد حيوة بن ملامس . عبد الرحمن يقاتله ويهزمه . ثورة هشام بن عزرة للفهري بطليطلة وامتناعه بها . ظهور المعتاد بن منيث واضطراب للثورة في باجة . شهر الدعوة العباسية واتساع نطاق الثورة . مسير عبد الرحمن لمقاتلة المعتاد وحلفائه . لقاءهما في قرمونة . هزيمة الثوار ومصرعهم . إرسال رؤوسهم إلى إفريقية ومكة . استئناف حصار طليطلة . تسليمها ومصرع زعمائها . ثورة المطري بلبله . هزيمته ومقتله . ثورة أبي الصباح في إشبيلية . استدراجه إلى قرطبة ومقتله . ظهور الفاطمي البربر . دعوته . ثورته في غرب الأندلس . هزيمته لقوات عبد الرحمن . مسير عبد الرحمن لقتاله . التجاؤء إلى الجبال . خطة عبد الرحمن لتفريق جموعه . عود الثورة إلى إشبيلية وبلبله . مسير عبد الرحمن لقتال الثوار . تفرق الثوار وهزيمتهم . عود عبد الرحمن لقتال الفاطمي . التجاؤء إلى شنت برية . اغتياله وانهيار دعوته .

وكان أول ما عني به عبد الرحمن من أدوار ذلك النضال بعد يوم المسارة ، هو أن يتعقب يوسف والصميل أقوى خصومه وأخطرهم . وكان يوسف قد فر عقب الموقعة صوب طليطلة ، وفر الصميل إلى جيان معقل قومه . وحشد يوسف في طليطلة ونواحيها ما استطاع من أنصاره ، بمعاونة عامله عليها هشام بن عزرة الفهري ، ووافاه الصميل بمن حشد من المضربة . ثم سارا في قواتهما إلى جيان ثم إلى البيرة (غرناطة) ، واجتمع أهل هذه الأنحاء حول يوسف ، ونزل يوسف بالبيرة يتأهب لمحاربة عبد الرحمن . ولكنه ما كان يستقر في البيرة ، حتى بادر عبد الرحمن بالسير إليه ، وترك حماية قرطبة لحليفه وقائده أبي عثمان . ولما علم يوسف بمسيره إليه ، بعث ابنه عبد الرحمن في بعض قواته إلى قرطبة ، فاقتحمها وأسر أبا عثمان ونفراً من أهل عبد الرحمن وحریمه ، ثم غادرها في الحال خشية

المفاجأة . ولكن عبد الرحمن الأموي لم يلو في طريقه على شيء ، وقصد إلى البيرة
توآ ، وحاصر يوسف والصميل . فلما شعرا بأن المقاومة عبث ، ففاوضاه في الصلح
والتسليم بالأمر له ، ونبذ كل دعوى في الولاية والسلطة ، على أن يؤمنهما في النفس
والمال والأهل ، وأن يؤمن حلفاؤهم وأصدقاؤهم جميعاً ، وأن يُسمح لهما بسكنى
قرطبة تحت رعايته ورقابته ، فأجابهما عبد الرحمن إلى الصلح على ذلك ، وعلى أن
يقدم يوسف ولديه عبد الرحمن ومحمداً أبا الأسود رهينة لديه ، يعتقلهما في قصر
قرطبة برفق وإكرام ، حتى تطمئن النفوس وتستقر الأمور ، وتم عقد الصلح بين
الفرقيين في صفر سنة ١٣٩ هـ ، وأفرج عن أبي عثمان وباقي الأسرى الذين أسرهم
ولد يوسف ، وتصافى الفرقيان ، وقفل يوسف والصميل مع عبد الرحمن إلى
قرطبة ، وانفض جندهما^(١) . ونزل يوسف بشرقي قرطبة في قصر الحر الثقي
أحد الولاة السابقين ، ونزل الصميل بداره بالربض (الضاحية) ، وأبدى
عبد الرحمن نحوهما عطفاً وليناً ، وهو مع ذلك يشدد عليهما الرقابة ، ويحرص على
تجريدتهما من كل سلطة وقوة . وكان في قرطبة فل من عصابة يوسف وأنصاره
السابقين ، الذين نالوا على يديه جاهاً وحظوة ، يتطلعون إلى العهد السابق ،
ويلومون يوسف على تسليمه واستكانته ، ويحرضونه على استعادة مركزه وسلطانه ،
وكان يوسف من جهة أخرى يشعر أنه في شبه اعتقال ، وأن عبد الرحمن يضيق
الحناق عليه ، ويؤلب عليه صنائعه ، ينازعونه في أملاكه وأمواله لدى القضاء ،
والقضاء يميل إلى غبنه وإعنائه ، حتى ذهب معظم أملاكه ، وهو يشعر أن
عبد الرحمن من وراء ذلك الاضطهاد^(٢) . عندئذ عول على الفرار ، وكتب
أنصاره في ماردة وطلبيلة ، ثم فر إلى ماردة ، وكان بها معظم أهله وأصهاره
(سنة ١٤١ هـ) ، وهناك حشد أنصاره من العرب والبربر ، حتى اجتمع له زهاء
عشرين ألفاً ، وتحلف الصميل ولم يوافق ، فقبض عليه عبد الرحمن وألقاه في غيابة
السجن بتهمة التحريض والتآمر . وبينما كان عبد الرحمن يحشد جنوده ، سار يوسف
بقواته إلى إشبيلية ، وعليها عبد الملك بن عمر بن مروان المعروف بالمرواني ،
فحاصره في إشبيلية حتى أتاه ولده عبد الله بالمدد ، ثم وقعت بينهما معارك شديدة

(١) راجع نفع الطيب ج ٢ ص ٦٦ ؛ وأخبار مجموعة ص ٩٣ و ٩٤ ؛ والبيان المغرب

ج ٢ ص ٥٠ .

(٢) المقرئ عن ابن حبان (نفع الطيب ح ٢ ص ٦٦) ، وأخبار مجموعة ص ٩٥ .

قتل فيها كثير من الفريقين ، وارتد يوسف منهزماً بفلوله . وكان عبد الرحمن الأموى يربط عندئذ بقواته فى حصن المدور ، الواقع على مقربة من غربى قرطبة ، على نهر البوادي الكبير ، فوافته الأخبار بهزيمة يوسف وفراره ، فتوقف عن مطاردته ، وسار يوسف إلى طليطلة ، ولبت يتردد فى أنحائها مدى أشهر ، وهو يحاول أن ينظم قواته مرة أخرى ، ولكن بعض الخونة من أنصاره أو مواليه انتمروا به ، واغتالوه ذات يوم على مقربة من طليطلة ، وحملوا رأسه إلى عبد الرحمن فى قرطبة (سنة ١٤٢ هـ) . والظاهر أن هذه الجريمة لم تكن بعيدة عن وحى عبد الرحمن . وانتهت بذلك حياة يوسف الحافلة المضطربة ، وأمن عبد الرحمن شره وخطره ، وقتل ابنه عبد الرحمن المعتقل لديه ، ورفع رأسهما فوق الرماح أمام القصر ليلقى الرعب فى قلوب الخوارج والمخالفين^(١) . أما ولد يوسف الآخر وهو محمد أبو الأسود ، فقد استطاع أن يفر من سجنه ، وقصد توالى طليطلة معقل عصابة أبيه وتحصن بها ، فبعث عبد الرحمن فى أثره جيشاً بقيادة تمام بن علقمة وعينه والياً لطليطلة ، فحاصرها حتى سلمت ، وأسر محمد بن يوسف ثانية وجرى به إلى قرطبة ، واستولت جنود عبد الرحمن على طليطلة (ذى الحجة سنة ١٤٢) ، وصحى بذلك وكر الثورة الفهرية . وزج محمد إلى السجن ثانية وأدعى العمى حتى استطاع الفرار بعد حنة طويلة ، وعاد يرفع علم الثورة كما سياتى . واستطاع أخوه الأصغر القاسم بن يوسف أن يفر من طليطلة متنكراً قبل سقوطها . وأما الصميل ، فلبث رسف فى سجنه مدى أسابيع أخرى حتى دس عليه عبد الرحمن من قتله داخل السجن خنقاً (أواخر سنة ١٤٢ هـ)^(٢) .

وهكذا انتهت بذهاب يوسف والصميل مرحلة خطيرة من الإضطراب والقلق . كان يوسف شخصية قوية وزعيماً ممتازاً ، وقد استطاع أن يحكم الأندلس زهاء عشرة أعوام فى ظروف عصيبة ، وأن يسهر على وحدتها وسلامتها بقوة

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥١ ؛ وأخبار مجموعة ص ١٠٠ . ولكن كوندى يورد عن مصرع عبد الرحمن بن يوسف رواية أخرى هى أنه كان عند مقتل أبيه حراً طليقاً ، وقتل فى معركة دموية نشبت بينه وبين جنود تمام بن علقمة والى طليطلة (Conde : ibid., V.I. p. 174) وهى رواية ظاهرة الضعف .

(٢) نفع الطيب ج ٢ ص ٦٧ ؛ وابن الأبار فى الحلة السيرة ص ٥٠ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٥١ ، وأخبار مجموعة ص ١٠١ .

وذكاء ، وأن يدرأ عنها خطر نصارى الشمال والفرنج ، ولما فقد يوسف رياسة الأندلس فى يوم المسارة ، لبث مع ذلك أخطر قوة تهدد طالع عبد الرحمن الأموى وسلطانه ، ولبث روح الثورة والمعارضة مدى أعوام أخرى. وكان الصميل زعيماً قوى العصبية ، نافذ الرأى والكلمة ، وافر الدهاء والمكر ، يخشى بأسه ووجيه . فكان ذهابهما من الميدان فوزاً لعبد الرحمن ، وخطوة كبيرة فى سبيل استقرار رياسته وتوطدها .

وقطع عبد الرحمن أعوامه التالية فى كفاح مستمر ، يتلقى وثبات الخوارج عليه من كل صوب . وكان أول الخوارج عليه بعد مصرع يوسف والصميل ، القاسم ابن يوسف وحليفه رزق بن النعمان الغسانى . وكان القاسم حينما فر من طليطلة كما قدمنا ، قد سار إلى الجزيرة الخضراء ، والتجأ إلى شيخها رزق بن النعمان صديق أبيه ، وحشد حوله جمعاً من الأنصار والمرترقة ، واستولى بمعونته حليفه على شذونة ، ثم سارا فى قواتهما إلى إشبيلية ، ولم تكن بها قوة تدافع عنها ، فاستوليا عليها دون مشقة ، فبادر عبد الرحمن الأموى فى قواته إلى إشبيلية ، ونشبت بينه وبين الخوارج معركة عنيفة ، قتل فيها رزق بن النعمان ومزق جنده ، ودخل عبد الرحمن إشبيلية ظافراً ، وذلك فى أواخر سنة ١٤٣ هـ . أما القاسم فالتجأ بقواته إلى شذونة ، وبعث عبد الرحمن فى أثره تماماً وإلى طليطلة ، فطارده حتى أسره ومزق قواته (١) .

ولبث عبد الرحمن بإشبيلية بضعة أشهر ، ولكنه ما كاد يغادرها إلى قرطبة حتى نشبت فيها ثورة أخرى ، بقيادة عبد الغافر اليمانى زعيم اليمانية ، واستولى عبد الغافر على ما جاور قرطبة من الأنحاء ، وكثرت جموعه ولا سيما من البربر ، وأصبح يهدد قرطبة . فخرج عبد الرحمن لقتاله ، والتقيا بوادى قيس على مقربة من قرطبة ، فاستمال عبد الرحمن حلفاء عبد الغافر من البربر وانفض عنه جندهم ، واقتتل الفريقان فهزم عبد الغافر هزيمة شديدة ، وفر إلى لَقَنْت ، وطارد عبد الرحمن جنده حتى قتل منهم ألفاً عديدة (سنة ١٤٤ هـ) .

ورفع لواء الثورة من بعده فى إشبيلية أيضاً ، حيوة بن ملاس الحضرمى

كبير زعمائها ، وتغلب على إشبيلية وإستجة وكثير من نواحي الغرب^(١) ، والتف حوله أهل هذه الأنحاء واستفحل أمره . فسار إليه عبد الرحمن ، ونشبت بينهما معارك عنيفة مدى أيام ، ودافع الثوار عن أنفسهم بمتنهي البسالة ، حتى كادت الدائرة تدور على عبد الرحمن ، ولكن التفريق دب أخيراً إلى صفوف الثوار ، ولحقهم الإعياء والملل ، فوقعت عليهم الهزيمة ، وفر زعيمهم حيوة ، وكتب إلى عبد الرحمن يلتمس منه العفو والأمان (سنة ١٤٤ هـ - ٧٦١ م)^(٢) .

وعلى أثر ذلك نشبت الثورة في طليطلة . وكان عبد الرحمن قد اختار لولايته تمام بن علقمة ، ثم عينه لحجابه فكان أول حجابه ، وخلفه في ولاية طليطلة حبيب بن عبد الملك . وكانت المدينة ماتزال تضطرم بعناصر الثورة وفيها كثير من أنصار الفهرية ، فلم يلبث أن قام زعيمهم هشام بن عزرة الفهرى ، ولد عزرة أمير الأندلس السابق ، وأعلن الثورة واعتصم بالمدينة . فسار إليه عبد الرحمن وحاصره مدى أشهر ، حتى اضطر إلى طلب الصلح ، وقدم ولده رهينة بحسن طاعته ، فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه ، وآثر أن يهادنه مؤقتاً . ولكنه ما كاد يصل إلى قرطبة حتى عاد هشام إلى الثورة ، فارتد إليه عبد الرحمن ليعاقبه على نكثه ، وحاصره ثانية وقتل ابنه ، وأطلق رأسه بالمنجنيق داخل الأسوار ، ولكنه لم يظفر بحمل الثائر على التسليم ، فعاد إلى قرطبة ليضاعف أهباته ، بيد أنه لم يستطع أن يعود تَوْأ إلى طليطلة ، إذ نعى إليه عندئذ خبر حادث داهم الخطر يتطلب كل جهوده وقواه .

ذلك أن داعية من خصوم بنى أمية هو العلاء بن مغيث اليحصبي^(٣) ، وكان من وجوه باجة وله بها رئاسة وعصبة ، كاتب أبا جعفر المنصور ، واتصل برسله

(١) كورة « الغرب » كانت تقع غربي إشبيلية ، حتى جنوبي البرتغال ما بين لبله وولبة والمحيط ، وقد حُرقت في الإفرنجية إلى كلمة **Algarve** .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٣ ، والمقرى ج ٢ ص ٧٣ . ويذكر كوندى أن حيوة من ملاس كان بالمكس صديقاً حميماً لعبد الرحمن ، وبالحق في الاحتفاء به يوم نزوله بإشبيلية ، وأنه توفي بعد ذلك بقليل فرثاه عبد الرحمن بأبيات مؤثرة (Conde: ibid., V.I.p. 179) ، ولكن كوندى يخلط هنا في الوقائع . والحقيقة أن حيوة بن ملاس كان من أصدقاء عبد الرحمن لأول مقدمه وكانت له لديه منزلة ، وينقل إلينا ابن الأبار بيتين ينسب قولهما إلى عبد الرحمن في امتداح حيوة وجوده ووفائه (الحلة السيرة ص ٣٣ و ٣٤) . ولكنه غدا بعد من ألد خصومه ومنافسيه . وله أخبار أخرى ستجيء .

(٣) وقيل الحضرمي (أخبار مجموعة ص ١٠٧) . والجذامى (البيان المغرب ج ٢ ص ٥٣) .

في إفريقية ، واستصدر منه سجلاً بولايته للأندلس : ثم ارتد إلى الأندلس ، وعاد إلى باجة في قوة كبيرة ، ودعا لبني العباس ، ورفع العلم الأسود ، وأعلن أنه قد عين أميراً للأندلس من قبل المنصور^(١) (سنة ١٤٦هـ) . وكان الخليفة العباسي يحاول بهذه الدعوة ، أن يحطم مشاريع بني أمية فيما وراء البحر ، وأن يبسط سلطانه الإسمي على الأندلس . وقد رأينا أن عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على إفريقية ، دعا لبني العباس حينما انهار سلطان بني أمية ، وكاتب الخليفة العباسي فأقره على حكم إفريقية ، فكانت إفريقية تابعة لبني العباس من الوجهة النظرية ، وهكذا كان شأن العلاء بن مغيث ، فقد رأى أن يستغل في ثورته بالدعوة العباسية ، لكي يسبغ عليها لوناً من الشرعية ، ولم يكن للخليفة العباسي اعتراض على محاولة لا يتحمل تبعاتها من الوجهة المادية ، وإن كان يعصدها من الناحية المعنوية ، وقد أرسل بالفعل سجلاً إلى التأثير بما طالب . وكان بعض الزعماء الخوارج على يوسف ابن عبد الرحمن ، قد استظلوا بالدعوة العباسية كما قدمنا . وسرى كيف يشهر الخوارج على عبد الرحمن الأموي هذه الدعوة في حوادث وخطوب أخرى^(٢) .

واضطربت باجة وما حولها بنار الثورة ، وهرعت القبائل والأحزاب المختلفة إلى الانضواء تحت اللواء الأسود ، ولاسيما القهريّة واليمينية وجند مصر ، واستفحل أمر العلاء وكثر جمعه ، وانضم إليه أمية بن قطن وأصحابه . وأعلن غياث ابن علقمة الثورة في شذونة محالفاً للعلاء . فخرج عبد الرحمن من قرطبة في جميع قواته ، وبعث بداراً مولاه في بعضها إلى شذونة ، فحاصرها حتى أذعن غياث لطلب الصلح . وسار عبد الرحمن إلى قرمونة ما بين قرطبة وإشبيلية نظراً لمناعتها ، واتخذ موقف الدفاع ، فسار إليه العلاء في جموعه ، وهاجم قرمونة مراراً ، وحاصرها مدى أسابيع حتى وهنت قوى جنده ، وعندئذ انقلب عبد الرحمن من الدفاع إلى الهجوم ، وداهم العلاء في صفوة جنده ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة مدى أيام ، حتى هزم العلاء ومزق جنده ، وقتل منهم آلاف عديدة ، وكان العلاء نفسه بين القتلى ، وأسرا ابن قطن . وجمع عبد الرحمن رؤوس الزعماء والقادة من خصومه ودقمها بأسمائهم . وحملها بعض رسله إلى القيروان ، فألقيت في أسواقها سراً ، وأثارت هناك دهشة وارتياحاً ، ووضعت رأس العلاء في سفط ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ .

(٢) راجع ابن القوطية ص ٣٢ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٢١٣ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ .

ومعها اللواء الأسود وسجل المنصور للعلاء ، وحمله بعض التجار الثقة إلى مكة ، حيث كان المنصور يؤدي فريضة الحج في العام التالي (سنة ١٤٧ هـ) . وألقى أمام سرادق المنصور ، وحمل إليه فارتاع لرؤيته ، وقال ما معناه : « ما في هذا الشيطان مطمح » ، فالحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر »^(١) .

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يسحق هذه الدعوة الخطرة ، وكان أخطر ما فيها أنها لم تكن دعوة حزب أو قبيلة ، وإنما كانت دعوة عامة تدعها الصبغة الشرعية ، ولم يك أصلح منها لجمع خصوم عبد الرحمن من سائر الأحزاب والقبائل تحت لواء واحد^(٢) . ولما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة كانت الثورة التي يثير ضرامها هشام الفهرى في طليطلة ، قد استفحلت واتسع نطاقها . فأرسل عبد الرحمن قائديه بدرأ وتمام بن علقمة في جيش كبير إلى طليطلة ، فطوقها وشدد الحصار عليها حتى ضاق أهلها ذرعاً ، واضطروا إلى طلب الصلح ، على أن يسلموا الزعماء الثائرين ، وقبضوا على هشام وعدة من أصحابه ، فأخذوا إلى قرطبة مصنفدين معذبين ، ثم صلبوا بأمر عبد الرحمن ، وتم بذلك سحق الثورة في طليطلة إلى حين (سنة ١٤٧ هـ - ٧٦٤ م) .

وفي أوائل سنة ١٤٩ هـ - ٧٦٦ م ، خرج سعيد اليحصبي المعروف بالمطرى بمدينة لبلة ، مطالباً بثأر الأيمانية الذين قتلوا مع العلاء ، فهرعت إليه الأيمانية وقوى جمعه . ثم سار إلى إشبيلية فاستولى عليها ، وارتد عنها واليها عبد الملك بن عمر المرواني لقلعة جنده ، ولبت ينتظر المدد . وكانت إشبيلية مطمح كل نائر لقربها من قرطبة ، ولأنها لبثت مدى أعوام من أهم مراكز الثورة في الأندلس . وخرج في الوقت نفسه غياث بن علقمة المخمي بمدينة شنونة ناكثاً لعهد . فسار عبد الرحمن أولاً إلى إشبيلية ، وانقلب المطرى إلى قلعة رعواق القريبة وامتنع بها ، فحاصره عبد الرحمن وقطع علائقه مع بقية أنصاره ، فلما ضاق الثائر بالحصار ذرعاً ، حاول الخروج ليشق له طريقاً بين الحش المحاصر ، ووقعت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها المطرى ، وارتدت فلوله إلى القلعة ، وقدموا عليهم خليفة بن مروان ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ ؛ والمقرى ج ١ ص ١٥٦ وج ٢ ص ٦٧ ؛ وأخبار مجموعة ص ١٠٢ و ١٠٣ ؛ وابن القوطية ص ٣٣ .

فاستمر عبد الرحمن في محاصرة الخوارج ، حتى أذعنوا لطلب الصلح ، وسلموا إليه قائدهم فقتله ، واستولى على القلعة وهدمها ، ثم سار إلى شذونة فحاصرها حتى أذعن أهلها لطلب الأمان .

وفي العام التالي عادت الثورة فاضطربت في إشبيلية ، ومدبرها وزعيمها في تلك المرة أبو الصباح بن يحيى اليحصبي ، صديق عبد الرحمن وحليفه ، وكان أبو الصباح زعيم اليمنية في إشبيلية يوم قلوب عبد الرحمن إلى الأندلس ، فكان في طليعة من هرعوا يومئذ لتأييده ونصرته ، وقاتل معه يوم المسارة ، وغدا إلى جانب أبي عثمان وعبد الله بن خالد ، من خاصة أعوانه وأركان دولته . ولكن عبد الرحمن كان يحقد عليه ويتوجس منه ، لحديث نقل عنه يوم المسارة بوجوب التخلص من عبد الرحمن بعد التخلص من يوسف الفهري ورد الأمر إلى اليمنية^(١) . وكان عبد الرحمن قد ولاه إشبيلية ، ثم عزله عنها لما ظهر من عجزه عن قمع الفتنة ، فغضب أبو الصباح وأظهر الخلاف ، واجتمع إليه أنصاره ، ورأى عبد الرحمن أن يأخذه بالحيلة والملاطفة ، فبعث إليه تمام بن علقمة يدعوه إلى قرطبة للتفاهم ، ويذلل له ما شاء من الوعود ، فسار أبو الصباح إلى قرطبة في أربعمائة من رجاله ، واستقبله عبد الرحمن بالقصر ، وعاتبه على ما كان منه ، فأغلظ أبو الصباح في الجواب ، ولامه على النكث بوعوده له ، فأمر الفتيان بقتله ، فقتل طعنًا بالخناجر وانفض جمعه (سنة ١٥٠ هـ) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى نشبت فتنة خطيرة من نوع جديد ، شغلت عبد الرحمن مدى الأعوام التالية ، وكان نشوبها في شمال شرق الأندلس بين البربر ، وزعيمها ومثير ضرامها ، داعية بربري خطر يدعى شقنا أو شقيا بن عبد الواحد ، وأصله من بربر مكناسة ، وكان فقيهاً يعلم الصبيان ، فزعم ذات يوم أنه سليل النبي ومن ولد فاطمة والحسين ، وتسمى بعبد الله بن محمد . فذاعت دعوته بين البربر في تلك المنطقة ، وكانوا أكثرية بها . والخصومة بين العرب والبربر قديمة مؤتلة كما بينا ، وقد كان البربر دائماً على قدم الأهبة للثورة ضد العرب . ولما آنس الدعي الفاطمي قوة جمعه ، سار إلى شنت بريّة^(٢) . فاستولى عليها وجعلها مركزه

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٦ ؛ وابن القوطية ص ٣٠ .

(٢) شنت بريّة وبالإسبانية Santaver من الكور الأندلسية القديمة التي اذثرت ، وكان موقعها يشغل مقاطعة قونقة اليوم ، وقاعدتها شنت بريّة تقع شرق وادي الحجارّة . وسُميت كذلك عن اسمها القديم Santebria .

العام ، ثم سار في جموعه غرباً واستولى على ماردة وقورية ومدلين ، وعلى جميع المنطقة الواقعة حولها بين نهري التاجه ووادي يانة ، فقامت دعوته وعظم أمره ، واشتد بغيه وعيئه في تلك الأنحاء ، وأخذت العناصر المخالفة لعبد الرحمن من العرب في التحرك أيضاً . فعهد عبد الرحمن إلى والي طليطلة أن يجمع ثورة الدعى ، فبعث إلى شنت برية جيشاً بقيادة سليمان بن عثمان ، فخرج إليه الفاطمى في قواته ، فهزمه هزيمة شديدة ، وأسرقائده سليمان وقتله ، وزاد هذا الظفر في سلطانه وبغيه . فسار إليه عبد الرحمن بنفسه في العام التالى (سنة ١٥٢ هـ) ، واقتحم منطقة الثورة ، ونشبت بينه وبين البربر وقائع عديدة ثبت فيها البربر ، وامتنع الثائر بالجلبال ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلاً إلى مطاردته . فارتد إلى قرطبة ، وبعث إلى شنت برية مولاه بدرأ ليتابع القتال ، فاستمر الفاطمى ممتنعاً بصحبه في الجبال ، محاذراً لقاء الجيش المهاجم . وعاد عبد الرحمن لقتاله بنفسه في العام التالى (سنة ١٥٤ هـ) ، وشدد في محاصرته ومطاردته ، ولكنه لم يفلح أيضاً في حمله على مغادرة مواقعه ، ثم بعث لقتاله في العام التالى مولاه عبيد الله بن عثمان ، فخرج الفاطمى للاقائه واستمال جنده البربر ، وبث الخلاف إلى صفوفه ، فانحل عسكره وأخذ الفاطمى ، ففر عبيد الله واستولى الثائر على معسكره وأسلاب جيشه ، وقتل جماعة كبيرة من وجهاء جنده (سنة ١٥٥ هـ) (١) .

وهكذا فشلت الحملات المتوالية لإخماد الثورة في تلك المنطقة الوعرة ، فعاد عبد الرحمن بجيش جديد إلى شنت برية ، ولكنه لجأ عندئذ إلى وسيلة جديدة لتمزيق شمل الثوار ، فاستقدم إليه كبير البربر في شرقي الأندلس واسمه هلال الميديونى ، وأقره على ما بيده من الأنحاء ، وأصدر له عهداً بولاية الأنحاء التى غلب عليها الفاطمى ، وفوض إليه أمر استخلاصها منه ، وكان لتلك الحيلة أثرها في بث الخلاف إلى صفوف البربر ، فانفض عن الفاطمى كثير من أنصاره ، واضطر أن ينسحب من شنت برية إلى الشمال ليعتصم بالجلبال مرة أخرى ، وبينما عبد الرحمن يجد في مطاردته ويقتحم معاقله وضياعه ، وينكل بأنصاره حيناً وجدوا ، إذ بلغه نشوب الثورة في إشبيلية ولبلة وباجة ، وقوامها اليمنية من عصابة أبى الصباح

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٦ و ٥٧ ؛ وابن الأثير ج ٥ ص ٢٢٤ ؛ وابن خلدون

وأنصاره . وكان على رأس الثورة في إشبيلية زعيمها القديم حيوة بن ملامس الحضرمي ، وفي باجة عبد الغافر البحصي ، وفي لبلة عمر بن طالوت ، وهما من أبناء عمومة أبي الصباح ، وانضم إليهم كثير من البربر ، فحشد الثلاثة جموعهم واعتزموا السير إلى قرطبة في غيبة عبد الرحمن ، وكان قد استخلف عليها مولاه بدر (١) . فعاد عبد الرحمن إلى قرطبة مسرعاً ، ثم غادرها تَوَّأ إلى لقاء الثوار ، فالتقى بهم في وادي منبس على نهر «مبزار» أحد فروع الوادي الكبير ، ونشبت بين الفريقين في المبدأ عدة معارك حليّة . ثم لحأ عبد الرحمن إلى الحيلة والحديعة ، فعهد إلى جماعة من وجهاء البربر من جنده ، أن يتصلوا بزملائهم البربر من جند العدو ، وأن يقنعوهم بخطأ تصرفهم في نصرّة انمنية ، وأنه إذا تغلب عليه العرب ، كانت العاقبة وبالاً عليهم أيضاً ، فانسل الرسل إلى معسكر العدو تحت جنح الظلام ، وخاطبوا أبناء جنسهم بما تقدم ، وأخذوا عليهم العهود والمواثيق . وفي اليوم التالي نشبت بين الفريقين موقعة عامة . فنكث البربر وتقاعدوا عن القتال ، فهزم الثوار شر هزيمة ، وكثر القتل في جموعهم حتى قتل منهم زهاء ثلاثين ألفاً (٢) . وهلك معظم الزعماء الثائرين ، وفر عبد الغافر وركب البحر إلى المشرق ، وقرن عبد الرحمن ظفّره بأجراء دموى آخر ، إذ قبض على ثلاثين من وجهاء إشبيلية ممن كانوا في جيشه وأمر بهم فأعدموا (سنة ١٥٧ - ١٥٨ هـ) .

وفي العام التالي عاد عبد الرحمن إلى مطاردة الفاطمي ، فالتجأ الثائر إلى الجبال كعادته ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلاً إلى اللحاق به ، فغزا قورية وأنخن في تلك الأنحاء ، وكان أمر الفاطمي قد ضعف خلال هذه الأعوام وتضاءل جمعه ، ولكنه لبث يسيطر على شنت برية وماردة ، ولبثت دعوته خطراً يهدد سلام الأندلس . فوجه عبد الرحمن لقتاله في العام التالي حملة قوية أخرى بقيادة تمام ابن علقمة وعبيد الله بن عثمان ، فلقهما الفاطمي ووقعت بينهما معارك شديدة ، رجحت فيها كفته ، ثم التجأ إلى حصن شبطران بقرب شنت برية ، فحاصره تمام وعبيد الله مدى أشهر ، ولم يظفروا منه بطائل ، فعادا إلى قرطبة ، وخرج الفاطمي على أثر عودهما إلى شنت برية ، ونزل بقريّة من أعمالها تسمى قريّة العيون ،

(١) ويقول ابن الأثير إنه كان يستخلف عليها ولده سليمان (ج ٦ ص ٣) .

(٢) ابن القوطية ص ٣١ و ٣٢ .

وهناك ائتمر به اثنان من أصحابه هما أبو معن داود بن هلال وكنانة بن سعيد ، وانقضا عليه ذات يوم وقتلاه ، واحتزا رأسه وحملها إلى عبد الرحمن في قرطبة ، وبذلك انقضت جموعه ، وخبت ثورته ، بعد أن لبثت زهاء عشرة أعوام تحمل الدمار والسفك إلى شرقي الأندلس وغربها ، وتهدد سلطان عبد الرحمن بشر العواقب ، وحققت الخيانة في لحظة واحدة ما لم تحققه الحملات والبعوث المتعاقبة في أعوام طويلة . ولعل هذه الضربة الناجعة لم تكن بعيدة عن أصبع عبد الرحمن أو وحيه ، وقد كانت الخيانة والجريمة من بعض أسلحته في مقارعة خصومه ، وكاننا نتمحقان له في بعض الأحيان من الظفر ما لا تحققه أى الوسائل . وكان مصرع الفاطمي وانتهاء ثورة سنة ١٦٠ هـ (٧٧٦ م)^(١) .

(١) أخبار مجموعة ص ١١١ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٧ .

الفصل الرابع

موقعة رونسفال أو باب شزروا

الثورة في الشمال . تحالف ابن يقطان والى برشلونة والحسين الأنصارى والى سرقسطة . هزيمة جيش عيد الرحمن وأسرقائه . سعى ابن يقطان لدى ملك الفرنج واستدعاؤه لغزو اسبانيا . تلبية شارلمان للدعوة . اتصال الزعماء الخوارج بالفرنج . سياسة الفرنج في تشجيع الثورة في الأندلس . صلة الخلافة العباسية بهذه السياسة . الصراع بين الأندلس والفرنج . اللون الدينى لهذا الصراع . أقوال الروايات اللاتينية في تأييد هذه الخاصة . مسير شارلمان إلى أسبانيا . اختراقه لنافار وحصاره لبيلبونة . مقاومة البشكنس . سقوط المدينة في يد الفرنج . مقدم سليمان وتسليمه للرهبان . زحف شارلمان على سرقسطة . مقدم بقية الجيش الفرنجى . تطور الحوادث . تحول الحسين وامتناعه بسرقسطة . نثل شارلمان في أخذها . اعتقاله لسليمان وارتداده . بواعث هذا الارتداد الفجائى . عود شارلمان إلى مهاجمة بنبلونة وتخريبها . بدء المسير للعود . عيشون ومطروح ولدا سليمان . تحالفهما مع الحسين الأنصار . سيرهما في قواتهما في أثر الفرنج . مسير شارلمان إلى البرنيه . أبواب البرنيه . رونسفال أبواب شزروا . مفاجأة الجيش الفرنجى وفصل مؤخرته . من هم الذين هاجوه . المسلمون أم البشكنس . المسلمون هم الذين دبروا الهجوم . معاونة البشكنس . وصف الرواية اللاتينية للهجوم . تمزيق مؤخرة الجيش الفرنجى . مصرع الفرسان والسادة الفرنج . أنشودة رولان وبعدها عن التاريخ الحق . مكانتها في أدب الفروسية . لماذا لم ينتقم شارلمان لهزيمته . مقارنة بين الروايتين العربية واللاتينية .

في ذلك الحين كانت ثمة حوادث هامة أخرى تقع في شمال الأندلس . وقد تتبعنا ثورة الفاطمى والبربر إلى نهايتها حرصاً على صلة الحديث . ونعود الآن بضع سنين إلى الوراء . ففي سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤ م) ثار سليمان بن يقطان الكلبي (أو الأعرابي) والى برشلونة (أوبرشنونة)^(١) وجيرونه (جيرنده) ، والحسين ابن يحيى الأنصارى والى سرقسطة ، وهو من ولد سعد بن عبادة ، وتحالفا على قتال عبد الرحمن وخلعه . وكان استمرار الثورة في الجنوب ، وانشغال عبد الرحمن الدائم بقمعها ، وطبيعة الشمال الجبلية ومنعته ، مما يذكى عوامل الثورة في الولايات الشمالية ، ويشجع مشاريع الزعماء الخوارج . وكان عبد الرحمن يشغل يومئذ بمقاتلة الفاطمى ، فأرسل إلى الشمال جيشاً بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامى ، فهزمه

سليمان وأسرهم وتفرق جيشه (١٥٨ هـ - ٧٧٥ م) ^(١). واستفحل أمر الثورة في الشمال ، ولكن زعماء الثورة وعلى رأسهم سليمان بن يقطان لم يطمثوا إلى ذلك النصر المؤقت لما يعلمونه من عزم عبد الرحمن وبأسه وروعة انتقامه ، ففكروا في الاستنصار بملك الفرنج . وسار سليمان (وتسميه الرواية اللاتينية ابن الأعرابي) مع نفر من صحبه الخوارج ، إلى لقاء شارلمان أو كارل الأكبر في ربيع سنة ٧٧٧م (١٦٠ هـ) ؛ وكان يومئذ يقيم بلاطه في مدينة بادربورن من أعمال وستفاليا (شمال غربي ألمانيا) ، ويعقد الجمعية الكبرى ، حيث كانت جموع السكسونيين المغلوبة تعمد للنصرانية ، بعد أن شنت شارلمان شملهم وفر زعيمهم فيد وكنت ؛ فهنا وفد عليه سليمان وصحبه ، وعرض عليه المحالفة على قتال عبد الرحمن ، واقترح عليه غزو الولايات الأندلسية الشمالية ، وتعهده بمعاونته ، وبأن يسلمه المدن التي يحكمها هو وصحبه من قبل أمير قرطبة ولاسيما سرقسطة ، وأخيراً بأن يسلمه أسيره القائد ثعلبة بن عبيد . وتضيف الرواية اللاتينية إلى ذلك أنه كان مع ابن الأعرابي ولد ليوسف الفهرى حاكم الأندلس السابق جاء ومعه صهره ليسعيا كذلك إلى خلع عبد الرحمن ، وتقول الرواية الإسبانية النصرانية ، إن الذي دعا شارلمان إلى غزو اسبانيا هو ألفونسو أمير إمارة ليون النصرانية (جليقية) . ولكن الروايتين العربية والفرنجية (اللاتينية) كلتاهما صريحة في أن الدعو جاءت من سليمان بن يقطان (الأعرابي) وحلفائه . والرواية العربية تقول لنا بمنتهى الوضوح ، إن سليمان استدعى قارله (كارل أو شارلمان) ملك الفرنج إلى بلاد المسلمين ، ووعدته بتسليم برشلونة أو سرقسطة ^(٢) . وتوافق الرواية اللاتينية على ذلك ، وتزيد أن سليمان

(١) ويقدم إلينا الرازي بعض تفاديل عن ذلك . فيقول لنا إن سليمان بن يقطان الكلبي (وهو الأعرابي) كان من زعماء سرقسطة ، فلما ولي الثغر بدر مولى عبد الرحمن الداخل نقله إلى قرطبة ، فحرضه للبعض على القيام بشار قومه اليمانية فخرج من قرطبة إلى سرقسطة ودخلها . وخرج لهاوية ثعلبة بن عبيد سنة أربع وستين ومائة ، ونزل مدينة طرسونة ، ووالى حربه ، واضطرب على باب سرقسطة بمسكره ، فافترس سليمان بن يقطان غفلة ، وانتراق أهل الجيش ، فهجم عليه وأسر ثعلبة بن عبيد ، وبحث به إلى ملك الفرنج . وأهم مفارقة في رواية الرازي هو التاريخ المتأخر الذي يقدمه إلينا عن هذه الموقعة ، وذلك حسبما يتضح بعد من سير الحوادث (وقد نقل إلينا هذه الرواية العذرى في كتابه ترصيع الأخبار الذي سبقت الإشارة إليه ص ١٢٥) .

(٢) أخبار مجموعة ص ١١٢ و ١١٣ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٥ و ٢١ ، وابن خلدون

وحلفاء أعلنوا خضوعهم لملك الفرنج وانضواءهم تحت حمايته^(١).

ولي ملك الفرنج دعوة الثوار المسلمين ووافق على عروضهم . وبعث إليه سليمان بأسيره ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن ، عنواناً للثقة والتحالف ، فسجن في إحدى القلاع الفرنسية . وفي رواية أخرى أنه سلمه إليه عقب مقدمه إلى اسبانيا . وعلى أى حال فقد كان حصول هذا الأسير ، وهو من خاصة عبد الرحمن وأكابر وزرائه في يد ملك الفرنج ، ضربة لعبد الرحمن ، ورهينة قيمة يمكن استغلالها . وكان سليمان زعيم أولئك الخوارج يعمل مستقلاً لنفسه ، ويرمى قبل كل شيء إلى تحطيم سيادة قرطبة ، وإلى الاستقلال بما في يده تحت حاية ملك الفرنج . ولكن ملك الفرنج كانت له مشاريع أخرى . وكانت السياسة الفرنجية ترمى إلى تعضيد روح الثورة والحلاف في إسبانيا المسلمة ، ولاسيما منذ انهارت سيادة الإسلام في جنوبي فرنسا وارتد المسلمون إلى ما وراء البرنية . وبدأ تطبيق هذه السياسة منذ عهد بين أبي شارلمان . وكان سليمان بن يقطان زعيم الثورة في الشمال يتصل بملك الفرنج منذ سنة ٧٦٠ م ، أعنى منذ استيلائه على أربونة واتصال الحدود الفرنجية بحدود اسبانيا المسلمة ، ويسعى بهذا التحالف إلى تأييد استقلاله . وهكذا بدأت العلائق تنتظم بين الزعماء المسلمين ، الخوارج على حكومة قرطبة ، وبين الفرنج المتربصين بدولة الإسلام في الأندلس ، فكان الزعماء الخوارج كلما حاولوا الثورة والاستقلال بحكم مدينة أو ولاية ، اتجهوا إلى الفرنج يستمدون عونهم ومناصرتهم ، وكان الفرنج يسارعون إلى تلبية هذه الدعوات ، ويتخذونها ذريعة للتدخل في شئون اسبانيا المسلمة ، وإذكاء روح التفرق فيها ، وسرى كيف استطاع ملوك الفرنج تنفيذ هذه السياسة في فرص عديدة متعاقبة . والظاهر أن الخلافة العباسية في المشرق لم تكن بعيدة عن تأييد هذه السياسة في المغرب ، والتوسل بذلك إلى مناوأة بني أمية الذين استطاعوا أن ينتزعوا هذا القطر النائي من أقطار الخلافة ، وقيموا فيه دولتهم الداهية على دعائم جديدة ، فإن الرواية الفرنجية تحدثنا عن

(١) تراجع أفعال الرواية اللاتينية في مؤلف العلامة الأستاذ بيدال : **Ramón Menendez**

Pidal : *La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo* (España-Calpe, Madrid

p. 179-180 (1959) وهو مؤلف ضخم جامع ، وأحدث ما أخرجه العلامة الإسباني ، وهو يتناول حوادث

موقعة باب الشزرى بإفاضة شافية وتحليل ممتع . وراجع أيضاً موسوعة بوكيه **Bouquet**. Vol. V.

Reinaud : *Invasions des Sarrasins, en France*, p. 94 وكذلك p. 14, 40 & 142

علائق المنصور وبيين وتقول لنا ، إن بين بعث في سنة ٧٦٥ م سفارة إلى بغداد ، ورد المنصور بإرسال سفراء إلى ملك الفرنج وفدوا عليه بعد ذلك بثلاثة أعوام ، وقضوا حيناً في البلاط الفرنجي في مدينة متز^(١) . وسار شارلمان ولد بين على سياسة أبيه ، فكان بينه وبين الرشيد فيما بعد تلك المكاتبات والسفارات الشهيرة التي فصلتها الرواية الفرنجية أيضاً ، والتي نعود إليها في مقامها المناسب . وسرى فيما بعد ، أنه في الوقت الذي كان فيه يعقد هذا التحالف بين ثوار الشمال وبين ملك الفرنج ، كانت ثمة محاولات تبذل لنشر الدعوة العباسية في الأندلس حيث نزل عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلي في تدمير يدعو للخلافة العباسية على نحو ما تفصل بعد .

وكانت إسبانيا المسلمة تجوز إزاء هذا الخطر الأجنبي الذي يربص بها ظرفاً من أدق ظروفها ، فقد كانت مصابرها تهتز في يد القدر ، وكان الإسلام يجوز فيها معركة الحياة والموت ، بعد أن كان قبل ذلك بحقبة يسيرة يتدفق إلى ما وراء البرنيه بقوة ، ويسود معظم أنحاء فرنسا الجنوبية . وكانت مملكة الفرنج بالعكس قد توطدت دعائمها ، وانزعت من الإسلام كل معاقلة في فرنسا ، بعد أن لبث مدى حين يزعجها ويهدد وجودها . وبينما اجتمعت كلمة الفرنج بزعامة الأسرة القارلية القوية ، إذا بالإسلام في إسبانيا تعصف به ريح التفرق من كل صوب وتمزقه شر ممزق ، وإذا بالأندلس تغدو بركناً من القلاقل والحروب الأهلية . وكان كارل الأكبر (شارلمان) مذ ولي العرش (سنة ٧٦٨ م) يشغل عن التدخل في إسبانيا المسلمة ، بمحاربة القبائل الوثنية السكسونية فيما وراء الرين ليرد خطر اعتدائها على مملكته ، وليخضعها إلى سلطانه . وكانت غزوات الأسرة القارلية تتخذ فيما وراء الرين منذ عهد كارل مارتل ، جد كارل الأكبر ، لوناً دينياً عميقاً كالذي تتخذه حروب الفرنج مع العرب في غاليس . ذلك أن حروب الفرنج فيما وراء الرين كانت تتخذ مظهر حماية النصرانية ، من خطر الوثنية المتدفق من المشرق ، وكانت حروبهم في غاليس تتخذ مظهر حماية النصرانية ، من وثبات الإسلام المتدفق من الجنوب . وكانت الكنيسة روح هذه المعارك توحى بها وتذكىها ، إلى جانب شهوة الظفر والفتح . فلما ظفر الفرنج برد تيار الإسلام إلى ما وراء البرنيه ، واستولوا

على جميع ثغوره ومعاقله في فرنسا ، وفترت تلك النزعة الدينية العميقة ، التي جعلت غاليس مدى نصف قرن مسرحاً لصراع العرب والفرنج ، بقيت الأطماع والبواعث السياسية ، تحفز الفرنج إلى قتال الإسلام ومطاردته ، وانتزاع اسبانيا أو على الأقل ولاياتها وثغورها الشمالية من قبضته ، لتكون معقلاً لدرء فورانه ووثباته من الجنوب .

وتشير الروايات اللاتينية إلى غايات السياسة الفرنجية من التدخل في شئون اسبانيا المسلمة ، وتحدثنا عن هذا المزج بين الغايات الدينية والدنيوية . فأما عن الناحية السياسية فإن إجنهارت مؤرخ شارلمان يقول لنا إن الحملة التي نظمها الملك الفرنجي إلى اسبانيا كان يقصد بها مهاجمة قرطبة . وإنه ل يبدو من ضخامة الجيش الذي حشده شارلمان ، أن الأمر لم يكن متعلقاً فقط بالاستيلاء على المدن التي وعد سليمان بن يقظان بتسليمها ، وأن شارلمان كان يرى بالعكس إلى السيطرة على اسبانيا كلها ، أو على الأقل نصفها الشمالى . ويقول لنا «أبدآل» وهو مؤرخ حملة شارلمان الإسبانية ، إن الأمر لم يكن متعلقاً بغاية دينية قوامها تحطيم دولة «كافرة» ولكن الحملة كانت ترمى إلى غاية سياسية قوامها أن يوضع حد لأخطار الغزوات الإسلامية لفرنسا . ويرى الأستاذ بيدال أن شارلمان لم تكن له غاية دينية خالصة في أية حملة من حملاته ، وأن الباعث كان دائماً سياسياً ، ولكنه يطن في ثنيته الغاية الدينية . ذلك لأن المشكل الوحيد لإخضاع شعب «كافر» هو حمله على اعتناق النصرانية ، وهذا ما وقع بالنسبة لحملات شارلمان ضد «الأفار»^(١) ، وضد «السكسونيين» .

ومن ثم فقد كان مسير شارلمان إلى اسبانيا يطن الغاية الدينية إلى جانب الغاية السياسية ، وهذا ما تؤيده الرواية اللاتينية *Anales Mettenses* ، التي كتبت في حياة شارلمان ، وفيها «أن كارلوس قد هزته شكاوى النصرارى الإسبان الذين نكل بهم المسلمون فسار بجيشه إلى هنالك» . ويضيف الأستاذ بيدال إلى ذلك «انه وإن كان الإسلام يتسم حقاً بالتسامح ، إلا أن النصرارى واليهود في اسبانيا كانوا يعانون ضغطاً وإرهاقاً في ظل الحكومة الإسلامية ، ومن ثم فقد كان للنصرارى المستعربين

(١) الأفار أو الأفارين *Avars* هم مجموعة من القبائل القوية كانت تسكن حوض نهر الدانوب الأوسط . وقد حطمهم شارلمان وانتهى الأمر بتبصيرهم (٧٩١ - ٧٩٥ م) .

أن يستقبلوا شارلمان كمحرر لهم . وتؤيد هذه النزعة الدينية للحملة ، روايات لاتينية كثيرة أخرى معاصرة ولاحتمة . بيد أن أقطع دليل على روح الحملة الدينية هو أن شارلمان قد أبلغ البابا هادريان بأمرها قبل أن يضطلع بها ، وأن البابا بارك عزيمته ووعدته بإقامة الصلوات ، لكي يعود ظافراً إلى مملكته^(١).

وكان كارل حينما استدعاه الخوارج المسلمون لغزو اسبانيا ، قد انتهى من الحرب في سكسونية ، وهزم القبائل الوثنية الجرمانية ، وأخضع زعيمها القوى «فيدوكنت» وألجأه إلى الفرار ، فجاءت الدعوة إليه في وقت ملائم . وانتظر كارل حتى مضى الشتاء ، ثم سار إلى الجنوب وقضى أعياد الفصح في أكويتين على مقربة من بوردو . وفي فاتحة ربيع سنة ٧٧٨ م ، جمع قواته المؤلفة من فرنج نوستريا ومن الجرمان واللونبارد وفرق من بريتانيا وأكويتين ، واخترق ولاية أكويتين ، وقرر أن يفتح الغزوة الإسبانية توا حتى لا يفاجئه الشتاء ، وقسم جيشه الضخم إلى قسمين ، عبر أحدهما جبال البرنيه من الناحية الشرقية ، وعبرها القسم الثاني بقيادة كارل نفسه من الناحية الغربية ، من الطريق الروماني القديم فوق آكام «جان دى لاپور» الشاهقة التي تشرف على مفاوز رونسفال الوعرة ، على أن يجتمع الجيشان على ضفاف نهر الإيبرو أمام سرقسطة حيث يلتقى شارلمان بحلفائه المسلمين . وكان عبوره لجبال البرنيه من «باب الشزرى» في شهر أبريل على الأرجح . واخترق شارلمان بلاد البشكنس أونافار الحديثة ، وحاصر عاصمتها بنبلونة ، وهى قلعة النافارين ، واستولى عليها بعد قليل . وقد كان أولئك النافاريون دائماً شعبة خاصة من «البشكنس» ، وكانت بنبلونة دائماً مدينة البشكنس منذ أيام سترابون^(٢). وقد كان البشكنس دائماً يحاولون الاحتفاظ باستقلالهم منذ أيام القوط ، وكثيراً ما لجأوا في سبيل ذلك إلى الخروج والعصيان ، والامتناع بهضابهم وجبالهم الشاهقة ، وكان هذا شأنهم حينما وفد شارلمان بقواته الضخمة ، فقد كانوا يحرصون على هذا الاستقلال ، ولا يودون الخضوع لأية جهة ، لا إلى الفرنج ، ولا إلى مملكة (جليقية) ، ولا إلى إمارة قرطبة الإسلامية . ومن ثم فقد اضطر شارلمان إلى محاصرة بنبلونة وأخذها بالعنف . وهنا تبرز هذه الحقيقة ، وهى

(١) راجع : R.M. Pidal : *ibid.*, p. 181, 182, 183 & 184.

(٢) R. M. Pidal : *ibid.*, p. 186

أن شارلمان بغزو بلاد البشكنس ، كان يحارب أمة من النصارى ، وهو في ذلك لم تكن تحدوه سوى بواعث السياسة والفتح . ولم تكن النزعة الدينية خاصة بارزة في تلك الغزوة . أما الجيش الفرنجي الذي اخترق شرق البرنيه ، فقد كان يسير في منطقة يسيطر عليها الفرنج ، مذ تقلص عنها سلطان المسلمين ، منذ أيام بين والد شارلمان ، ومن ثم فقد كان يخترق بلاداً صديقة ، يرحب أهلها بمقدمه ، أملاً في عونته وحمايته .

وتقول لنا بعض الروايات اللاتينية^(١) إن سليمان بن يقظان (ابن الأعرابي) ، كان يتردد عندئذ بانتظام على بنبلونة ، وإنه وفقاً لتعهداته سلم الرهائن إلى شارلمان ، وإنه قد وفد كذلك على بنبلونة أبو ثور بن قسي حاكم وشقه ، وقدم أخاه وولده رهينة ، وقد بقيت هذه الرهائن في معسكر شارلمان حتى وقعت النكبة . بيد أنه توجد روايات أخرى مفادها أن الرهائن سلمت فيما بعد ، حين وفود شارلمان على سرقسطة . وعلى أي حال ، فقد سار شارلمان بعد استيلائه على بنبلونة ومعه سليمان إلى سرقسطة^(٢) ، وهي معقد المشروع كله حسبما اتفق عليه في بادربورن ؛ وكان القسم الآخر من الجيش ، قد اخترق في تلك الآونة منطقة جيرندة (جبرونة) و برشلونة ، واتجه غرباً إلى سرقسطة حيث انضم إلى القوات التي يقودها شارلمان ، وكان شارلمان ، يعتقد حينها سار إلى سرقسطة أنه سيقابل هناك حلفاء المسلمين على أهبة لمعاونته وتحقيق رغباته في الاستيلاء على المدينة الكبرى . ولكن الحوادث كانت تطورت عندئذ ، ودب الخلاف بين الخوارج المسلمين . وكان الحسين بن يحيى الأنصارى والى سرقسطة حليف سليمان منذ البداية ، وكان عضده في مشروعه لاستدعاء الفرنج ، وبالرغم من أنه لم يذهب إلى بادربورن ، ولا إلى بنبلونة ، فقد كان موافقاً على الحلف الذي عقده سليمان مع شارلمان ، وعلى العهود التي قطعها له . والظاهر أن الحسين نقم على سليمان موقف الصدارة والزعامة الذي اتشح به إزاء الفرنج ، فنشبت بينهما الخصومة ، أو أنه خشي عاقبة التورط في حلف الفرنج . فعدل موقفه في آخر لحظة حينما شعر بمسير الفرنج إلى مدينته والظاهر أيضاً أنه لم يكن في سرقسطة حينما أقبل إليها الجيش الفرنجي ؛ إذ تقول

R. M. Pidal : Ibid., cit. *Anales Breves*. p. 187 (١)

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .

لنا الرواية الإسلامية ، إنه سبق إليها سليمان ، وتحصن بها ، فلما أشرف شارلمان مع حليفه سليمان على سرقسطة ، رفض الحسين أن يستقبله ، وألنى المدينة محصنة متأهبة للدفاع والمقاومة ، فعبر نهر الإيبرو إلى الضفة الأخرى ، وقدم إليه سليمان رهائن عدة من الأعيان والأكابر ، وفي مقدمتهم ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن وكان أسيراً لديه حسبما تقدم . ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لإقناع الحسين ففتح أبواب سرقسطة ، ولم يستطع شارلمان من جهة أخرى الاستيلاء عليها ، وردت المدينة المحصورة كل هجمات بشدة^(١) ، وعجز سليمان أن يحقق شيئاً من وعوده في تسليم المدن والحصون الواقعة في تلك المنطقة . ولم يشأ ملك الفرنج أن يخوض في تلك الوهاد والمضارب الصعبة معارك لم يتأهب لخوضها ، وارتاب من جهة أخرى في نية سليمان وموقفه ، فقبض عليه^(٢) ، وارتد بجيشه نحو الشمال الشرقي في طريق العودة . وكان ذلك في شهر يولييه سنة ٧٧٨ م (شوال سنة ١٦١ هـ) .

بيد أن هذه الوقائع ينقصها شيء من الوضوح . ذلك أنه لم تقع بين الفريقين معارك ذات شأن . فهل ارتد ملك الفرنج من تلقاء نفسه ، أم اضطر مرغماً إلى الارتداد لبواعث وأسباب لا نعلمها ؟ .

يقول الأستاذ بيدال « إن الانسحاب لا شك فيه . ولكن فشل حملة الملك الفرنجي لا تفسرها لنا هجمات المحصورين . إذ كيف يرتد هذان الجيشان الفرنجيان اللذان يضمن هذه الجموع من جند برتانيا ونوستريا وباغاريا ولومبارديا ؟ وكيف يرتد كارل وهو في عنفوان قوته بهذه السهولة ؟ كيف يرتد هذا العاهل القوى وجيشه العظيم ما يزال سليماً لم يمس ، دون أن يخضع الحسين ، ودون أن يفتتح أواسط إسبانيا ؟ »^(٣) .

إن الروايات اللاتينية تحاول أن تلقى الضوء على ذلك الغموض ؛ فيقول لنا «أبدال» السالف الذكر ، إن شارلمان قدر أنه قد يجد نفسه وحيداً في قلب شعب معاد ، مع صعوبة التموين لجيشه العظيم . بيد أنه يوجد تعليل آخر أقوى وأوضح ، تقدمه إلينا رواية لاتينية أخرى في نصها الآتي : « إن السكسون المارقين حينما

(١) أخبار مجموعة ص ١١٢ .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .

(٣) R.M. Pidal : Ibid. ; p 188

علموا أن الملك كارلوس في منطقة سرقسطة، قد شقوا الطاعة ، وخرّبوا وأحرقوا الأراضي حتى ضفاف الرين . ونمى ذلك إلى كارلوس وهو في اسبانيا ، فلما وقف عليه عاد مسرعاً إلى فرنسا^(١) . وربما كان في ذلك خير تفسير لانسحاب شارلمان ، وتركه سرقسطة لمصيرها .

ارتد شارلمان على رأس قواته المختمة وفي ركبته سليمان أسيره وعدد من الرهائن وسار شمالاً نحو بلاد البشكنس . وكان النافاريون في تلك الأثناء قد جمعوا فلولهم ، واعتزموا الدفاع عن حاضرتهم بنبلونة وعن حرياتهم التالدة ، خصوصاً وقد شجعتهم وقفة سرقسطة وصاحبها الحسين ضد الملك الفرنجي ، وانضم إليهم كثير من المسلمين من أبناء الأنحاء المجاورة، للتعاون في دفع العدو المشترك ؛ ولكن شارلمان هاجم بنبلونة بعنف ، ولم تجد بسالة النافاريين وحلفائهم المسلمين شيئاً ، فتركوا المدينة ، وتفرقوا في مختلف الأنحاء ؛ واستولى شارلمان على بنبلونة للمرة الثانية ، وهدم حصونها وأسوارها حتى لا تعود إلى المقاومة إذا عاد إلى تلك الأنحاء ، ولكي يمهّد لجيشه طريق العود المأمون إلى فرنسا .

وغادر شارلمان بنبلونة متجهاً إلى جبال البرنيه من طريق هضاب رونسفال المؤدية إلى باب الشزرى . فما الذى حدث عندئذ ؟ تقول الرواية العربية إن شارلمان « لما أبعد من بلاد المسلمين واطمأن ، هجم مطروح وعيشون ابنا سليمان في أصحابهما ، فاستنقذا أباهما ورجعا به إلى سرقسطة »^(٢) . وفي هذه الكلمات القليلة تشير الرواية العربية إلى النكبة الهائلة التي أصابت الجيش الفرنجي أمام باب الشزرى والتي تقدم إلينا الروايات اللاتينية اللاحقة تفاصيلها .

والظاهر أيضاً من الرواية العربية أن ولدى سليمان ، حينما قبض شارلمان على أبيهما ، عادا إلى الاتفاق مع الحسين بن يحيى على مقاومة الفرنج ، وجمعا في الحال قوات أبيهما وأتباعه، وسارا بجيشهما في أثر ملك الفرنج محاولان مهاجمته وإنقاذ أبيهما من أسره . وكان شارلمان في ذلك الحين قد غادر بنبلونة بعد تخريبها متجهاً صوب جبال البرنيه ، ليعبرها كرة أخرى إلى فرنسا ، وكان عبوره من نفس الطريق التي أتى منها ، أعنى من مفاوز رونسفال . ويقع ممر رونسفال Roncesvalles ،

R. M. Pidal : ibid ; cit. Chronicon Moissiacense ; p. 189 (١)

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥ .

الذى يسمى بالعربية « باب شيزروا »^(١)، أو باب الشزرى ، فى طرف البرنية الغربى شمال شرق بنبلونة ، وعلى قيد عشرين كيلومتر منها ، وهو أحد ممرات عدة كانت تستعمل منذ عهد الرومان لاختراق البرنية من الشمال أو الجنوب . وهى نفس الممرات أو الأبواب التى كان يستعملها العرب للعبور إلى غاليس^(٢) . وقد لبثت هذه الجبال الوعرة الشاهقة على ممر القرون حاجزاً منيعاً يفصل بين شبه الجزيرة الإسبانية وبين غاليس ، ولا يتأتى للغزاة ، عبوره إلا خلال هذه الممرات الشهيرة . فى مفاوز رونسفال الوعرة ، وتجاه ممر البرنية المسمى بهذا الاسم أعنى باب شيزروا ، وقعت المفاجأة الهائلة . ذلك أن الجيش الفرنجى ما كاد يبدأ عبور الجبال ، حتى أشرف المسلمون بقيادة عيشون ومطروح على مؤخرته ، وهاجموه بشدة رائعة ، وفصلوا عنه مؤخرته ، وانزعوا منها الأسلاب والأسرى ، وفهم سليمان بن يقظان . والرواية العربية صريحة فى أن المسلمين هم الذين دبروا هذا الهجوم الفجائى ، على مؤخرة الجيش الفرنسى ، ولكن بعض الروايات اللاتينية التى تتحدث عن الموقعة ، تقول لنا إن الذين

(١) هذه هى تسمية الشريف الإدريسي ، وهى مشتقة من الاسم الرومانى القديم **Portus Ciserei** أو **Portus Sizarae**

(٢) يقدم لنا الشريف الإدريسي وصفاً دقيقاً لجبال البرنية التى تسمى فى الجغرافية العربية بجبال البرت أو البرتات كما قدمنا ، وللأبواب الرومانية التى كانت بها يقول : « وطول هذا الجبل من الشمال إلى الجنوب مع سير تقويس سبعة أيام ، وهو جبل عال جداً صعب الصعود ، وفيه أربعة أبواب فيها مضائق يدخلها الفارس بعد الفارس . وهذه الأبواب عراض لما مسافات وهى منحرفة الطرق . وأحد هذه الأبواب الباب الذى فى ناحية برشلونة ويسمى « برت جاقا » (چاكا) ؛ والباب الثانى الذى يليه يسمى « برت أشيرة » ؛ والباب الثالث منها يسمى « برت شيزروا » **Roncesvalles** وطوله فى عرض الجبل خمسة وثلاثون ميلاً ؛ والباب الرابع منها يسمى « برت بيونة » . ويتصل بكل برت منها مدن فى الجهتين ، فإيل برت شيزروا مدينة بنبلونة ؛ والياب المسمى جاقا عليه مدينة جاقا . (راجع نزهة المشتاق للشريف الإدريسي ؛ وكذا وصف الإدريسي لجغرافية الأندلس ص ٦٥ من طبعة **Saavedra**) وظاهر أن كلمة برت تعنى الباب أو الممر ، وأصلها من الإسبانية **Puerta** ، وقد سميت جبال البرنية بالعربية البرتات نسبة إلى الأبواب والممرات المذكورة . والجغرافية الحديثة لا تختلف كثيراً عما تقدم ، وفيها أن هذه الأبواب والممرات خمسة : (١) ممر برينيان ، بين برشلونة وأربونة (٢) ممر بوكيردا الموصل إلى شرطانية (٣) الممر بين بنبلونة وسان چان دى بيبيدور (ويسمى بالإدريسي شنت جوان) وهو باب شيزروا (٤) ممر تولوز (طلوشتة) إلى بيونة (ه) ممر چاكا . وكانت هذه الأبواب أو الممرات تستعمل لاختراق الجبال حين الغزو إلى فرنسا ومنها فى طريق العودة .

هاجموا مؤخرة شارلمان حين ارتداده ، هم البشكنس النصارى انتقاماً لما أنزله الفرنج ببلادهم وعاصمتهم بنبلونة من العيث والتخريب . وإليك ما تقوله هذه الرواية : « إن شارلمان عاد من سرقسطة إلى بنبلونة ، وهدم أسوار هذه المدينة من أساسها لكي لا تستطيع الثورة عليه وقرر العودة ، وبدأ يجوز شعب البرنيه . وهنا ، وفي أرفع نقطة هجم البشكنس ، وقد كانوا يكمنون في المؤخرة ، وأوقعوا الخلل في الجيش كله ، فساده أما اضطراب وجلبة ، وبالرغم من أن الفرنج أبدوا تفوقهم على البشكنس ، سواء في السلاح أو الروح المعنوية ، فقد بقوا هم الأضعف بسبب رداءة الموقع وعدم التكافؤ في وضع المعركة » (١) .

وهنا يحق لنا أن نتساءل إزاء هذا التناقض بين الروایتين ، من هم الذين دبروا هذا الهجوم على مؤخرة الجيش الفرنجي ؟ أهم المسلمون وحدهم حسبما تقرر الرواية العربية ، أم هم البشكنس وحدهم حسبما تقرر الرواية الفرنجية ؟ يقول الأستاذ بيدال ، إنه لمن غير المعقول ، بل ومن المستحيل أن يقوم البشكنس وحدهم بمهاجمة مؤخرة جيش عظيم كجيش شارلمان ، والأكثر احتمالاً هو أنهم يبحثون عن العون ضد المعتدى الخارجى ، وإنه لذلك من غير المعقول أن يستطيع إبننا سليمان وحدهما انتزاع الأسرى من الجيش الفرنجي ، وذلك في الأرض المكشوفة ما بين سرقسطة وبنبلونة ، وإنه لا يمكن الاعتقاد بأى حال بأن يسمح جيش شارلمان لنفسه أن يُفاجأ مرتين في أيام قليلة ، وإذا فلا بد أن البشكنس والمسلمين معاً قد فاجأوه في شعب البرنيه : البشكنس الذين أثارهم تخريب بنبلونة ، والمسلمون الذين يحاولون استنقاذ ابن الأعرابي والرهائن (٢) .

ثم يقول العلامة الإسباني « إنه باستعراض سائر الروايات يبدو أن هناك حقيقة تاريخية ، وهى أن المسلمين تعاونوا مع البشكنس في موقعة باب الشزرى ؛ وأن أنشودة رولان ، وهى مستمدة من أناشيد معاصرة للنكبة ، هى أصح من الرواية اللاتينية *Anales Regios* . ونقول نحن إن هذا الاستعراض لمختلف الروايات يدل على أن المسلمين هم الذين دبروا الهجوم على مؤخرة الجيش الفرنجي ، وإنه

(١) *Anales Regios* hasta 829; cit. por R.M. Pidal : *ibid* ; p. 191 & 192

(٢) *Conde* : *ibid.*, V.I. p.201 وراجع أيضاً R. M. Pidal : *ibid* ; p. 193&194

و *Dozy* : *Hist.* V. I. p. 243 & notes . وهل أدل على أن العرب هم الذين مزقوا مؤخرة الفرنج من أنشودة رولان الشهيرة ، التى نتحدث عنها بعد .

فما يرجح قد اشتركت معهم جموع كبيرة من البشكنس في هذا الهجوم ، وإن مضمون أنشودة رولان حسبما تقدمه بعد ، يؤكد هذا الاستنتاج في إسناد الدور الرئيسي في الواقعة إلى المسلمين .

وقد وصفت لنا إحدى هذه الروايات اللاتينية ، تعاون المسلمين والبشكنس في الهجوم ، وفيها «أن جيش شارلمان كان يتكون من خمسة آلاف فارس من ذوى الأسلحة الثقيلة وعدد مماثل من المشاة ، وأن المؤخرة كانت تتكون من ألف فارس ومعها دواب الحمل ، وأن الكمين وقع في الأماكن الصاعدة من الطريق المعبد . وقد تعاون بشكنس بنبلوته والمسلمون ولاسيما مطروح وعيشون ولدى ابن الأعرابي ، وكان هذا التحالف ضرورياً ، لأن المسلمين كانوا في حاجة إلى المعرفة الدقيقة لهذه الوهاد وهو ما يتقنه البشكنس ، وكان البشكنس بحاجة إلى مقبرة المسلمين في التنظيم العسكري ، وهما معاً قد استطاعا أن يسحقا مؤخرة هذه الصفوف التي ارتجت لها سائر إشبانيا»^(١) .

وقع هذا الهجوم الفجائي من المسلمين على مؤخرة الجيش الفرنجي بمعاونة البشكنس ، فأسفر عن أروع نتيجة يمكن تصورها . ذلك أن الفرنج لم يحسنوا الدفاع عن أنفسهم في تلك الشعاب الضيقة المنحدرة . وقد فصلت مؤخرة الجيش الفرنجي ، وانتزعت منها الأسلاب والأمتعة وفي مقدمتها الخزانة الملكية ، وكذلك الرهائن ، وفي مقدمتهم سليمان ، ومزقت المؤخرة نفسها شرمزق ، وهلك خلال المعركة الماثلة عدد عظيم من سادة الجيش الفرنجي وفرسانه ، ولم تسمح المفاجأة المذهلة بأى عمل أو محاولة منظمة لإنقاذ الفرق المنكوبة . وكانت نكبة مروعة لبث صداها يتردد مدى عصور في أعم الغرب والنصرانية .

وتضع الرواية الفرنجية تاريخ الواقعة في ١٨ أغسطس سنة ٧٧٨ (ذى القعدة سنة ١٦١ هـ)^(٢) . وقد رأينا فيما تقدم كيف تقنع الرواية العربية بالإشارة إليها في

Anales Regios, cit. por R. M. Pidal: ibid. p. 197 (١)

(٢) ولكن الرواية العربية تقدم تاريخها عن ذلك فتضعها في سنة ١٥٧ هـ (٧٧٤ م) وهي رواية ابن الأثير (ج ٦ ص ٥) والمقرئ في نفح الطيب (ج ٢ ص ٧٣) . والظاهر من نص للرواية العربية أنها تنصرف هنا إلى بداية الحوادث لا إلى الواقعة ذاتها ، وقد وقعت فيما بعد ، وهو ما يفسر التباين بين التاريخين . ولا ريب أن الرواية الفرنجية أقرب إلى الصحة والتحقيق لأنها معاصرة قريبة من الحوادث .

عبارات موجزة ، وإن كانت مع إيجازها في منتهى الدقة ، وكيف أن الرواية اللاتينية الفرنجية والكنسية تفيض بالعكس في تفاصيلها إفاضة واضحة ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعض هذه الروايات التي اقتبسنا بعض نصوصها ؛ وربما كانت رواية إجنهارت (أينهارت) مؤرخ شارلمان ، عن الموقعة ، هي أدق هذه الروايات وأوثقها ، فقد كتبت في سنة ٨٢٩ م بعد وفاة شارلمان بقليل ، واعتمد فيها على كثير من أقوال المعاصرين وشهود العيان . وهو يفصل لنا حوادثها ويذكر من هلك فيها من الأمراء والسادة ، ومنهم إيجهارد رئيس الخاص ، وأنسلم محافظ القصر ، وهردولاند حاكم القصر البريتاني ، وكثير من الرؤساء ورجال الخاص والحاشية . وهردولاند ، هو رولان Roland بطل الأنشودة الشهيرة ، التي نظمت فيها بعد عن هذه الموقعة ، واستمدت من أناشيد معاصرة لها ، والتي ما زالت أترأ خالداً لقريض الفروسية في العصور الوسطى . بيد أن أنشودة رولان تنحرف في كثير من مناحيها إلى الأسطورة . وقد اتخذت الأسطورة من حوادث الموقعة موضوعاً لقصة حربية حماسية حرفت فيها الوقائع الأصلية أما تحريف ، ولكنها تستبق مكان الموقعة ، وبعض أشخاص التاريخ . وقد رأينا أن نورد فيما يلي خلاصة هذه القصة أو الأنشودة الشهيرة :

« غزا شارلمان إسبانيا ، ولبت يحارب فيها سبعة أعوام ، حتى افتتح ثغورها ومدنها ، ما عدا سرقسطة ، وهي معقل الملك العربي مارسيل . وكان يعسكر بجيشه بجوار قرطبة ، حين جاءته رسل مارسيل يعرض عليه الطاعة ، بشرط أن يجلو الفرنج عن إسبانيا ، فعقد شارلمان مجلساً من البارونات ومنهم رولان ابن أخيه . وكان رولان يرى أن تستمر الحرب ، ولكن فريقاً آخر من السادة برآسة جانلون كونت مايانيس ، كان يرى الصلح والمهادنة ، فغلب رأى هذا الفريق ، لأن الفرنج سئموا الحرب والقتال ، وأرسل جانلون إلى الملك مارسيل ليعقد معه شروط الهدنة . فأغراه مارسيل واستماله بالتحف والذخائر ، واتفق معه على الغدر برولان وفريقه . ثم عاد إلى شارلمان وزعم أن مارسيل قبل شروط الفرنج ، وبذا قرر شارلمان الإنسحاب . وتولى رولان قيادة المؤخرة . وكان معه الأمراء الإثنا عشر ، وزهرة الفروسية الفرنجية . ولما وصل الجيش إلى قمة الممرات الجبلية رأى أوليفر أحد الأمراء ، جيشاً من العرب ، يبلغ أربعمئة ألف مقاتل .

فتضرع إلى رولان أن ينفخ في بوقه ليدعو شارلمان إلى نجدة ، فأبى رولان ، وانقض الجيش الهاجم على مؤخرة الفرنج ، ونشبت بينهما عدة معارك هائلة . واستمر رولان بأبى طلب النجدة حتى مزق جيشه ولم يبق منه سوى ستين رجلاً ، وعندئذ نفخ في بوقه يدعو شارلمان : ثم قتل بقية أصحابه ، ولم يبق سوى رولان وأوليفر واثني آخرين . ولما شعر العرب أن شارلمان سيرتد بجيشه لقتالهم ، قرروا الانسحاب . وكان زملاء رولان الثلاثة قد قتلوا ، وأثنى رولان نفسه جراحاً حتى أشرف على الموت . ولكنه استطاع أن ينفخ في بوقه مرة أخرى قبل أن يموت ، وأن يسمع صرخة شارلمان الحربية ، وسمع شارلمان صوت البوق على بعد مراحل عديدة . فعاد مسرعاً وطارد جيش العدو وسمحه . ودفن الفرنج قتلاهم ، وعوقب جانلون الخائن أروع عقاب . وتوفيت ألدته ، خطيبة رولان حينما علمت بموته .

هذه هي خلاصة القصة التي ترددها أنشودة رولان الشهيرة . وهي أبعد ما يكون عن وقائع التاريخ الحق . بيد أنها تتخذ مادتها من بعض هذه الوقائع ، ومن الذكريات والروايات الشفوية المتناقلة ، والأناشيد الحربية المعاصرة . وهي نورمانية الأصل ، ظهرت لأول مرة في القرن الحادى عشر ، أعنى بعد الواقعة بنحو ثلاثة قرون ، ودونت أولاً في بعض القصص اللاتينية ، ثم دونت بالنظم في ملحمة طويلة تبلغ أربعة آلاف بيت بعنوان «أنشودة رولان» *Chanson de Roland* ولبثت تعتبر مدى عصور من أعظم الآثار الأدبية ، ومن روائع القريض الحربى . وكانت حوادث هذه الواقعة الشهيرة مستقى خصباً لكثير من الكتاب والشعراء ، وكانت بالأخص مستقى لقصص الفروسية والملاحم الحاسية المعركة ، التي تملأ فراغاً كبيراً في الأدب الفرنجى في العصور الوسطى (١) .

ومما يلفت النظر في حوادث الواقعة أن شارلمان ، لم يحاول بعد أن أفاق من الصدمة الأولى ، أن يعجل بالانتقام لنكبة جيشه ومقتل فرسانه ، وأن يعود فيطارده تلك العصابات التي تحدته واجترأت عليه سواء من المسلمين أو البشكنس .

(١) راجع حوادث هذه الواقعة الشهيرة في أخبار مجموعة ص ١١٢ و ١١٣ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٥ و ٢١ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤ ، وراجع أيضاً Bouquet ; Vol. V. R.M. Pidal : La Chanson de Rolad. Cap. VI. p. 171 — 215; p. 14, 26, 42, & 208 و Reinand: ibid ; p. 95, 96 و Hodgkin : Charles the Great p. 141—152

وتعليل ذلك هو أن شارلمان شغل قبل كل شيء بخطورة الأنباء التي وصلته عن تحرك السكسونيين ، وهم ألد أعداء الفرنج وأخطرهم ، فارتد أدراجهم مسرعاً ليخوض معهم حرباً جديدة استطالت زهاء سبع سنين ، حتى تمت هزيمة زعيمهم فتكنت (أوفيدو كنت) نهائياً ، وأرغم على التنصير في سنة ٧٨٥ م^(١) .

ولم يبق بيد شارلمان ، بعد استنقاذ المسلمين للرهائن ، سوى ثعلبة بن عبيد قائد عبد الرحمن ، وقد لبث فترة أخرى معتقلاً بفرنسا ، حتى تمت المفاوضات بشأنه ، وأطلق سراحه لقاء فدية كبيرة .

وهكذا اختتمت محاولة شارلمان غزو اسبانيا المسلمة والتدخل في شئونها ، بنكبته والقضاء على زهرة جنده ، وقد أسبلت هذه النكبة مدى حين سحابة على مجده الحربى . بيد أنها لم تكن كما سنرى آخر محاولة من نوعها لعاهل الفرنج ، فإن السياسة الفرنجية لبثت بالرغم من هذه الصدمة المؤلمة ، تقرب سير الحوادث في الأندلس لتجد فيها ثغرة تتخذها وسيلة لتحقيق غاياتها .

* * *

ونستطيع بعد أن استعرضنا أدوار هذه الموقعة الشهيرة التي تركت في عصرها أعظم صدى في الروايات الفرنجية (اللاتينية) والكنسية المعاصرة واللاحقة ، وبعد أن سجلنا مهادتها وحوادثها تفصيلاً . أن نعود فنلقى نظرة مقارنة على موقف الروايات العربية واللاتينية إزاء الموقعة ، وكيف تعاملها كل منها .

وأول ما تلفت النظر هو حسباً قدمنا ، إيجاز الروايات العربية ، في الوقت الذى تميل فيه الروايات اللاتينية إلى الإفاضة الواضحة . وقد كان خليقاً بالرواية العربية أن تبسط القول في حوادث موقعة لها من الخطورة البالغة ما لموقعة « باب الشزرى » خصوصاً وقد كان التفوق فيها للجانب الإسلامى . ولكن الرواية العربية لم تنظر إلى الموقعة إلا من حيث ارتباطها بحوادث الأندلس ، ومن جهة أخرى فإنها لم تكن على علم تام بما يلور في الناحية الأخرى من جبال البرنيه ، في مملكة الفرنج الشاسعة ، ولم تقف على آثار الصدى الهائل الذى أحدثه تمزيق جيش شارلمان داخل مملكة الفرنج ، وفي سائر الأمم المتصلة بها ، ولا سيما القبائل السكسونية ألد أعداء الفرنج يومئذ .

وثمة فرق واضح آخر بين الروايتين العربية واللاتينية ، هو أن الأولى تنوه بأن شارلمان قاد حملته إلى اسبانيا استجابة لدعوة الخوارج المسلمين ليعمل معهم ضد إمارة قرطبة ، وأن الثانية تنوه بأن حملة شارلمان إنما كانت موجهة إلى إخضاع البشكنس .

ومع ذلك فإن الرواية العربية على إنجازها تقدم إلينا مميزات الموقف وعناصرها الأساسية بمنتهى الدقة ، بل إن العلامة المؤرخ الأستاذ بيدال ، وهو آخر من تناول حوادث هذه الواقعة من النقدة المحدثين بإفاضة ، وبأسلوبه النقدي الرائع ، يقرر لنا أن الرواية العربية هنا ، هي أرقى بكثير من الرواية اللاتينية ، وأنها فيما يتعلق بغزوة شارلمان لإسبانيا ، أبعد من أن تنحدر إلى الغموض والتناقض ، وأنها بالعكس تقدم إلينا بعض أنباء في منتهى الأهمية والجدارة .

ويدفع الأستاذ بيدال ما يرمى به بعض الباحثين مثل باسيه وغيره ، الرواية العربية من أخطاء وسابقات تاريخية ، ويؤكد بالعكس أنه لاتناقض بين النصوص العربية واللاتينية ، وكل ما هنالك أن كلامهما يركز اهتمامه في نقط معينة ، وكلتاهما تتفق مع الأخرى في الحوادث الرئيسية^(١) .

الفصل الخامس

ولاية عبد الرحمن الداخل

— ٢ —

عبد الرحمن وحوادث الشمال . ظهور الصقلبي في شرق الأندلس . استئنافه للدعوة العباسية . تحالفه مع ابن يقظان ثم خلافه معه . مسير عبد الرحمن إلى قتال الصقلبي . النجاة إلى بلنسية . مصرعه وانهيار دعوته . ثورات محلية تلتها . حوادث الشمال . مصرع ابن يقظان . مسير عبد الرحمن إلى مرسطة وحصارها . خضوع الحسين الأنصاري . عبد الرحمن يفتزو نافار وشرطانية . قتله لميشون ابن سليمان . عود الحسين إلى الثورة . إرسال عبد الرحمن حملة لقتاله . حصار مرسطة وثبات الحسين . مسير عبد الرحمن إلى قتاله . هزيمته ومصرعه . تفاهم عبد الرحمن مع شارلمان وسعيه إلى مصاهرته . أثمار الوافدين من الأموية بعبد الرحمن . صرامته في إخماد هذه المؤامرات . حديث ينسب إليه عنها . فرار محمد بن يوسف الفهري وثورته في طليطلة . مسير عبد الرحمن لقتاله . موقعة قسطلونة . هزيمة محمد وفراره . استئنافه للثورة في قورية . هزيمته ووفاته . أخوه أبو القاسم . خروجه ثم خضوعه . انتهاء الثورة . خاتمة الكفاح الرائع .

بينما كانت هذه الحوادث الخطيرة تجري في الشمال ، كان عبد الرحمن الأموي في الجنوب يكافح الثورة في مختلف الأنحاء . وكانت ثورة البربر قد شغلته واستنفدت معظم قواه أعواماً متوالية . بيد أنه ما كاد يفرغ من سحقها حتى ظهر في شرق الأندلس خطر جديد قوامه الدعوة العباسية . ذلك أن عبد الرحمن بن حبيب الفهري أحد زعماء الفهرية ، وهو المعروف بالصقلبي نظراً لطوله وشقوته وزرقة عينيه ، عبر البحر من إفريقية إلى الأندلس في قوة كبيرة ، ونزل بساحل تدمير (مرسية) في شرق الأندلس ، ودعا للخليفة العباسي (سنة ١٦١ هـ) . ويجب أن نذكر أن عبد الرحمن بن حبيب هذا هو غير سميه عبد الرحمن بن حبيب المتغلب على إفريقية الذي فصلنا أخباره من قبل ، فقد قتل هذا المتغلب على إفريقية منذ سنة ١٤٠ هـ ، بعد أن خرج على طاعة بني العباس^(١) . ولا نعرف علاقة الصقلبي

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١١ .

يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وربما كان من أبناء عمومته^(١). بيد أنه كان من زعماء الفهرية وزعماء الثورة على بنى أمية . وكانت حركة الصقلبي في تدمير ، كحركة العللاء بن مغيث من قبل في باجة ، ولكنها كانت أشد خطراً ، لأن الصقلبي سعى إلى التفاهم مع زعيم الثورة في الشمال سليمان بن يقطان وتحالف معه^(٢) . والظاهر أن هذا التحالف كان بعد عبور الفرنج إلى إسبانيا وموقعة باب شيزروا . ولكن ابن يقطان لم يف بوعده في إمداده لقتال عبد الرحمن الأموى ، فغضب منه وسار لقتاله ، فهزمه ابن يقطان في ظاهر برشلونة . فعاد إلى تدمير ولبت مدى أشهر ينظم قواته وأهبطه ، ولكن عبد الرحمن لم ينتظر حتى يهاجمه ، بل سار بنفسه ، وهاجمه بشدة ، وأحرق سفنه الراسية بالساحل ، حتى لا يجد سبيلا إلى الفرار ، فارتد الصقلبي بفلوله إلى جبال بلنسية واستعصم بها ، وهنا لجأ عبد الرحمن إلى سلاح الاغتيال مرة أخرى ، فدس على الصقلبي بعض أصدقائه فاغتاله وحمل رأسه إليه ، وانهارت بذلك دعوته وثورته (سنة ١٦٢ و ١٦٣ هـ : ٧٧٨ - ٧٧٩ م) .

ووقعت بعد ذلك عدة ثورات محلية على عبد الرحمن بقمعتها قبل أن يسير إلى الشمال ، فقد ثار دحية الغساني ببعض حصون إلبيرة (غرناطة) ، وكان دحية من أصدقاء عبد الرحمن ومن قاداته ، ولكنه نكث بعهده ولحق بالفاطمي ، فلما هلك الفاطمي ، فر إلى إلبيرة وأعلن بها الثورة ، فأرسل عبد الرحمن إليه جيشاً ضيق عليه الحصار حتى أخذ وقتل . وثار إبراهيم بن شجرة بحصن مورور ،

(١) يقول دوزى إنه كان صهراً ليوسف الفهرى متزوجاً بإحدى بناته (ج ١ ص ٢٤٢) ولكنه لم يبين مصدراً لقوله ، ولم نجد في المراجع العربية ما يؤيده .

(٢) يتقدم إلينا دوزى ثورة ابن يقطان وحلفائه وعلاقة الصقلبي به في صورة أخرى ، فيقول لنا ، إن هذا التحالف كان يضم ابن يقطان والحسين بن يحيى والصقلبي ومحمد بن يوسف الفهرى ، وأنهم اتفقوا جميعاً على استدعاء الفرنج إلى إسبانيا ، وساروا جميعاً إلى لقاء شارلمان في بادربورن ، واتفق على أن يقوم ابن يقطان بمعاونة شارلمان في غزوته بينما يقوم الصقلبي بمحشد البربر في إفريقية ثم يعبر بهم إلى تدمير ليشغل عبد الرحمن بحركته (دوزى ج ١ ص ٢٤٠ - ٢٤١) . ولكننا لا نوافق دوزى على هذا التصوير أولاً لأن المصادر العربية لا تشير إلى مثل هذا التحالف الرباعي ، وتتنفق جميعاً في اعتبار حركة الصقلبي حركة مستقلة لا علاقة لها بغزوة الفرنج ، ومن جهة أخرى فإنه لا يوجد في الروايات اللاتينية المتعلقة بغزوة شارلمان لإسبانيا ما يشير إلى هذا التحالف ، وثانياً لأن محمد بن يوسف الفهرى أحد أركان هذا التحالف لم يفر من سجنه كما سنرى إلا بعد ذلك ببضعة أعوام . راجع : ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٥٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٨ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٦ .

فبعث إليه عبد الرحمن مولاة بدرآ ، فهاجمه وقتله . وثار في طليطلة القائد السلمى ، وكان من خاصة عبد الرحمن ، ثم فر من قرطبة خشية بطشه به لأموار نقمها منه ، والتفت حوله العناصر الخارجة في تلك الأنحاء ، فسير إليه عبد الرحمن جيشاً قوياً بقيادة حبيب بن عبد الملك ، فحاصره حيناً ثم قتل . وثار في الجزيرة الخضراء والبا الرماحس بن عبد العزيز الكنانى ، فسار إليه عبد الرحمن بنفسه ، وداهمه قبل أن يستكمل أهفته ، ففر الرماحس وعبر البحر إلى المشرق (سنة ١٦٣-١٦٤) (١) . وفي العام التالى تأهب عبد الرحمن لقمع الثورة في الشمال . وكان الخلاف قد وقع بين زعيمى الثورة بعد تفاهمهما على أثر نكبة الجيش الفرنجى في موقعة باب الشزرى ، وتربص الحسين بن يحيى الأنصارى بزميله سليمان بن يقطان ، ودس عليه ذات يوم من قتله بالمسجد الجامع ، وانفرد بالأمر في سرقسطة وما حولها (٢) . فسار عبد الرحمن إلى سرقسطة في جيش ضخم وضيق الحصار عليها (سنة ١٦٥ هـ - ٧٨١ م) . ووفد عليه عندئذ عيشون بن سليمان ، وكان قد فر عقب مقتل أبيه إلى أربونة ، وانضم إليه بمن معه في مقاتلة الحسين ، فلما اشتد الحصار بالحسين طلب الصلح ، وقدم ابنه سعيداً رهينة ، فأجابه عبد الرحمن إلى ملتسمه ، وأقره والياً على سرقسطة . ثم تحول عن سرقسطة إلى الشمال الشرقى ، واخترق بلاد البشكنس (نافار) ليعاقب أهلها على عيثم وعدوانهم ، وغزا عاصمتها بنبلونة ، وأثنخ فيها وخرب قلاعها ، وغزا قلهرة وبقرة (فكيرا) ، واجتاح ولاية شرطانية (٣) ، وأرغم أميرها على تقديم الطاعة وأداء الجزية (٤) . ثم عاد إلى قرطبة ظافراً بعد أن وطد هبة الحكومة المركزية في الشمال نوعاً ، وألقى على النصارى درساً يذكرهم بأن الإسلام قد استرد منعته وسلطانه في اسبانيا . وكان سعيد بن الحسين قد فر من معسكر الأمير أثناء الطريق ، ولما حل عبد الرحمن بقرطبة توجس شراً من عيشون بن سليمان ، وكان قد عاد في ركابه ، فأمر به

(١) أخبار مجموعة ص ١١٢ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٠ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٨ .

(٢) يقول لنا العذرى نقلاً عن الرازى أن قتل الحسين لسليمان كان بتحريض من حكومة قرطبة ، وذلك على أن يولى سرقسطة (في كتابه ترصيع الأخبار الذى سبقت الإشارة إليه ص ٢٦) .

(٣) شرطانية بالإنجليزية Cerdagne وبالإسبانية Cerdana ، وهى ولاية صغيرة في شمال شرق إسبانيا .

(٤) أخبار مجموعة ص ١١٤ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ .

فقتل . ولما رأى الحسين بن يحيى أن عبد الرحمن قد ارتد عنه ، وعاد إليه ولده سالماً ، نكث بعهده وعاد إلى الثورة ، وعاث فساداً في سرقسطة وأعمالها ، فاعترم عبد الرحمن أن يعود إلى قتاله ، وأن ينكل به وبأنصاره في تلك المرة . فبعث إلى الشمال جيشاً كثيفاً بقيادة غالب بن تمام بن علقمة ، فخرج الحسين إلى لقائه ، ووقعت بينهما معارك شديدة هزم فيها الحسين ، وأسر ولده يحيى وعدة من صحبه ، فأرسلوا إلى قرطبة حيث أمر عبد الرحمن بإعدامهم ، وامتنع الحسين بالمدينة واستمر غالب في حصاره . وفي العام التالي (سنة ١٦٧ هـ - ٧٨٣ م) سار عبد الرحمن بنفسه إلى سرقسطة وحاصرها بشدة ، وضربها بالجنائيق ضرباً عنيفاً حتى هدم أسوارها ، واقتحمها عنوة ، وقبض على الحسين وجماعة من صحبه ، وقتلهم جميعاً ، وشرّد كثيراً من أهلها ، وفر سعيد ولد الحسين ، وعين عبد الرحمن قائده ثعلبة بن عبيد والياً لسرقسطة ، وكان قد افتداه من أسر الفرنج حسباً تقدم . وركدت بذلك ريح الثورة في الشمال مدى حين^(١) .

وشغل عاهل الفرنج شارلمان مدى حين عن شئون إسبانيا ، لأن القبائل السكسونية عادت فنكثت طاعته ، وعاد لقتاله خصمه القوى فيدوكننت ، واستمرت الحرب بينهما زهاء سبعة أعوام وانتهت بهزيمة السكسونيين ، وخضوع زعيمهم وإرغامه على التنصير (سنة ٧٨٥ م) . بيد أن عبد الرحمن رأى أن يتفاهم مع زعيم الفرنجة ، وأن يؤثر صداقته ومدارته على خصومته ، فبعث إليه يطلب عقد الصداقة معه ، ويكاشفه برغبته في مصاهرته ، فأجابته شارلمان إلى السلم ولم تتم المصاهرة^(٢) . وفي بعض الروايات أن شارلمان هو الذي عرض على عبد الرحمن أن يزوجه ابنته فاعتذر عبد الرحمن باعتلال صحته^(٣) . واستمر السلام معقوداً بين الزعيمين حتى وفاة عبد الرحمن .

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٩ .

(٢) المقرئ من ابن حيان (ج ١ ص ١٥٥) . ولا تقدم الرواية لنا تفصيلاً عن مشروع المصاهرة هذا ، ولكن الظاهر أن عبد الرحمن طلب الاقتران بإحدى بنات شارلمان ، والمرجح أنها « هروترود » كبرى بناته ، وكانت وحدها تصلح للزواج في ذلك الحين . ويرى رينو أن المقصود بهذه الإشارة إنما هو عبد الرحمن الثاني أو عبد الرحمن الأوسط حفيد عبد الرحمن الداخل ، فقد كانت علاقته بملك الفرنج (شارل الأصغر) حل ما يرام ، وكان هذا الاتصال بين الأمراء الفرنج والمسلمين دائماً (Reinaud : ibid , p. 98)

(٣) راجع : Scott : Moorish Empire, V.I. p. 40

ولما عاد عبد الرحمن إلى قرطبة نعى إليه خبر مؤامرة خطيرة دبرت لسحقه ،
بزعامة ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية ، وهذيل ولد الصميل بن حاتم . ولم
تكن هذه أول مؤامرة من نوعها ، فقد دبرت قبل ذلك ببضعة أعوام سنة ١٦٣ هـ
مؤامرة أخرى ، وعلى رأسها أيضاً اثنان من أقطاب بني أمية ، الذين وفدوا على
الأندلس حينما تألق طالع عبد الرحمن ، هما عبد السلام بن يزيد بن هشام المعروف
باليزيدى ، وهو ابن عم عبد الرحمن ، وعبيد الله بن أبان بن معاوية وهو ابن أخيه ،
وذلك بمعاونة أبي عثمان كبير الدولة . وكان عبد الرحمن مذتم له الأمر ، يسعى إلى
استقدام فل بن بني أمية من المنفى ، ويدعوهم إليه ليكونوا له عوناً وعصبة ، ويظهرهم
برعايته ، ويغدق عليهم من نعمه ، ويختارهم لمختلف المناصب . ولكن روحاً سيئاً
من الحقد والحسد ، كان يحفز أولئك الأقارب لمناوأة ذلك الذى هبأت له الأقدار
أن يفوز دونهم ، بتراث بني أمية فى الأندلس . فاثتمروا به غير مرة ، وشجعهم
على ذلك بعض الخوارج الناقمين والمنافسين الطامعين ، ولكن عبد الرحمن كان
يكشف الخطر قبل وقوعه ، ويسحقه بكل ما أوتى من شدة وصرامة ، فلم يحجم
حينما وقف على المؤامرة الأولى ، عن قتل ابن عمه عبد السلام اليزيدى وعبيد الله
ابن أخيه أبان ، وعفا عن أبي عثمان لمكانته وسابق صنيعه . ولم يحجم حينما وقف
على المؤامرة الثانية ، عن قتل المغيرة بن أخيه الوليد ، وزميله هذيل بن الصميل
ومن معهما ، وننى أخاه الوليد وأسرتة إلى المغرب . وقد نقل إلينا مؤرخ أندلسى
عن بعض موالى عبد الرحمن ، أنه دخل عليه أثناء قتله المغيرة ، ابن أخيه ، وهو
مطرق شديد الغم فرفع رأسه وقال : « ما عجبى إلا من هؤلاء القوم . سعيينا فيما
يضعهم فى مهاد الأمن والنعمة وخاطرنا بحياتنا ، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا
ويسر الله تعالى أسبابه ، أقبلوا علينا بالسيوف . ولما آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا
الله تعالى به ، حتى آمنوا وردت عليهم أخلاف النعم ، هزوا أعطافهم ، وشمخوا
بآنافهم ، وسموا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحه الله تعالى ، فخذلهم الله بكفرهم
النعم ، إذ أطلعنا على عوراتهم ، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا ، وأدى ذلك إلى أن
ساء ظننا فى البرىء منهم ، وساء أيضاً ظنه فينا ، وصار يتوقع من تغيرنا عليه
ما نتوقع نحن منه » (١) .

(١) الحجارى فى كتابه « المسهب » ؛ ونقله المقرئ فى فتح الطيب (ج ٢ ص ٧٢ و ٧٣) .

وفي ذلك الحين فر أبو الأسود محمد بن يوسف الفهري من سجنه ، ورفع لواء الثورة في طليطلة . وكان محمد سجيناً في قرطبة منذ مقتل أبيه ، ثم فراره وأسرته ثانية في حوادث طليطلة سنة ١٤٢ هـ كما قدمنا . وتظاهر محمد عندئذ بالعمى ، وأتقن حيلته حتى جازت على جميع الموكلين بسجنه ، وأشفق عبد الرحمن عليه فأبقاه ولم يقتله كأخيه ، وأنفق محمد في أسره أعواماً طويلة حتى أهمل شأنه ، ولم يعد يكثر أحد به ، وعرف بالأعمى . ثم سنحت له فرصة الفرار على يد بعض مواليه المتصلين به ، ففزع من سجنه الواقع على النهر الكبير ، وجاز النهر سباحة ، ولحق بطليطلة سنة ١٦٨ هـ وأعلن الثورة . والتفت حوله جموع كبيرة من الفهرية والقيسية ، ومن إليهم من عناصر الخروج والثورة ، وسار في قواته صوب جيان ، فخرج عبد الرحمن إلى قتاله ، ووقعت بينهما معارك عديدة ، كان النصر فيها لعبد الرحمن . ولكن أبا الأسود لبث حيناً محتفظاً بمراكزه وقواته . ثم نشبت بينهما على مقربة من قسطلونة في الوادي الأحمر ، بمكان يعرف بمخاضة الفتح ، معركة شديدة حاسمة ، ولجأ عبد الرحمن إلى الخديعة ، فاتفق مع بعض قادة أبي الأسود على التقاعد والغدر ، فهزم أبو الأسود هزيمة شديدة ، وقتل من جنده عدة آلاف ، وغرق عدد كبير في النهر ، وطارده عبد الرحمن حتى قلعة رباح ، ومزق جيشه كل ممزق (ربيع الأول سنة ١٦٨ هـ — ٧٨٤ م) ^(١) . ولكن محمداً لم يخضع ولم يهن عزمه ، فارتد إلى جهة الغرب ونزل بقورية ، وعاد بمحشد قواته لاستئناف القتال ، وقوى أمره وبسط سلطانه على تلك الأنحاء ، فسار عبد الرحمن لقتاله ثانية ، وهاجم قورية ومزق شمل قواته (سنة ١٦٩ هـ — ٧٨٥ م) ، ففر في نفر من صحبه إلى بعض قرى طليطية ، وهناك توفي لأشهر قلائل (سنة ١٧٠ هـ) . فقام مكانه أخوه أبو القاسم بن يوسف ، واقرن بزوجته ، وعاد ينظم الثورة في طليطلة . فسار عبد الرحمن لقتاله قبل أن يستفحل أمره ، ولم ير أبو القاسم بداً من الخضوع والتماس الصلح والعفو ، فأجابه الأمير إلى ملتصقه ، وصحبه معه إلى قرطبة ، ورد إليه بعض أموال أسرته ^(٢) ، وطويت بذلك آخر مرحلة في ثورة

(١) يضع الرازي تاريخ هذه الموقعة في أول ربيع الأول سنة ١٦٨ (ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٥٧) ويتبعه في ذلك ابن الأثير فيضع تاريخها سنة ١٦٨ هـ . ولكن صاحب البيان المغرب يحمل تاريخها في سنة ١٦٩ هـ (ج ٢ ص ٥٩) .

(٢) ابن الأبار ص ٥٦ و ٥٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٢ و ٥٩ و ٦٠ ، ويروى ابن الأثير أن عبد الرحمن لم يبق على أبي القاسم بل قتله (ج ٦ ص ٢٦) .

الفهرية ، بل كانت آخر ثورة قام بقمعها عبد الرحمن ، ولم يعيش بعدها سوى عدة أشهر .

وهكذا أنفق عبد الرحمن جميع حكمه - ثلاثة وثلاثين عاماً - في كفاح مستمر . وكانت مهمة عظيمة دونها خطوب فادحة . أن يطمح قتي شريد ، يعمل القتل الذريع في أسرته وعصبته ، وحيد ليس له أنصار ولا صحب ، إلى افتتاح قطر عظيم زاخر بالقادة والجند ، وأن يخضع ذلك القطر في حروب لا يحمد أوارها ، وسيول من الدماء لا تنتقطع ، وأن يقيم ملكاً على بركان يضطرم من الثورة والمؤامرة والحصومة : تلك هي قصة عبد الرحمن الأموي ، وهي قصة عجيبة ليست من حوادث التاريخ العادية ، ولا يقدم إلينا التاريخ كثيراً من أمثالها . ولكن عبد الرحمن كان رجل الموقف ، وكانت حوادث الجزيرة (إسبانيا) وظروفها ، وتمزق شملها ، وتطلعها إلى زعامة قوية توحد كلمتها وقواها ، وتسير بها نحو السلام والأمن ، تفسح مجال الطموح والعمل لذهن جرى مغامر كذهن عبد الرحمن . وكان عبد الرحمن يجمع إلى فيض جرأته ، كثيراً من الذكاء والدهاء والعزم ، ولم يكن عليه أن يخاطر بأكثر من تلك الحياة التي كادت تزهر غير مرة ، وكان يحملها في كفه أمام مطارديه خلال القفر الشاسع . ولكن الغنم كان عظيماً : كان ملكاً بأسره ، وكان بعث أسرة هَوَتْ ومجد عريض دُر . وسنعرض في الفصل القادم طرفاً من خلال تلك الشخصية الباهرة ، التي تنبأ مكانها بين أسطع شخصيات التاريخ الإسلامي .

الفصل السادس

خلال عبد الرحمن ومآثره

(١) وفاة عبد الرحمن الداخل . شخصيته . أساليبه . إقدامه وجرأته وقسوته . بطشه بآله وأصدقائه . نزعه الميكافيلية . تعليقات دوزى على سياسته . خلاله الباهرة . وصفه بصقر قریش .
(٢) نوع رياسته . قطعه الدعاء لبني العباس . إحجامه عن التلقب بالخلافة . أقوال ابن خلدون في ذلك . نظام الحكومة في عهده . حجابيه وأعوانه . استراسته بالعرب بعد الثقة فيهم . اصطناعه للموال والبربر . سياسته نحو النصارى . مقدته الإدارية . عنايته بالجيش والأسطول . تفكيره في غزو الشام . منشأته بقرطبة . الرصافة . السور الكبير . المسجد الجامع . (٣) كرمه وتواضعه . نقش خاتمه . خلاله الأدبية . نثره وشعره . (٤) عناصر المجتمع الأندلسي . العرب والبربر والمولدون . النصارى المعاهدون واليهود .

- ١ -

توفي عبد الرحمن الأموى في الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ (٢ أكتوبر سنة ٧٨٧ م)^(١) وهو في نحو الثامنة والخمسين من عمره ، بعد أن حكم الأندلس ثلاثة وثلاثين عاماً ملوها الخطوب والفتن . فخلفه ولده هشام بعهد منه لأيام قلائل من وفاته . وانتظم بذلك سلك الدولة الأموية بالأندلس بعد أن تصرم بالمشرق ، واستؤنفت حياة تلك الدولة الزاهرة ، التي بلغ الإسلام على يدها ذروة الفتح والظفر ، والتي ذهبت سراعاً كالحلم في عنفوان قوتها .

(١) يختلف المؤرخون في تاريخ وفاة عبد الرحمن . ويستفاد من أقوال صاحب أخبار مجموعة أنها وقعت في أوائل سنة ١٧٢ هـ (ص ١١٦) . ويوافق ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد على ذلك ، فيقول إنها وقعت في ١٢ جمادى الأولى سنة ١٧٢ هـ (العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠١) . ولكن ابن حيان مؤرخ الأندلس يضمنها في ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٧١ (المقرى ج ٢ ص ٧٢) . وهذه أيضاً رواية ابن الأبار (الحلة ص ٣٧) . على أننا نرجح الرواية الأولى لقدمها ، وهى أيضاً رواية ابن عذارى حيث يضع وفاة عبد الرحمن في ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ (البيان المغرب ج ٢ ص ٦٠) . ويضمنها كل من ابن خلدون (ج ٤ ص ١٢٤) ، والمراكشي (المعجب ص ٩) في سنة ١٧٢ هـ دون تعيين للشهر . ويضمنها ابن الأثير في ربيع الآخر سنة ١٧١ ، ولكنه يرجع وقوعها سنة ١٧٢ هـ (ج ٦ ص ٢٧) .

كان سقوط الدولة الأموية بالشرق مأساة من أروع مآسي التاريخ الإسلامي ، وكانت تلك الشخصية التي قامت على كاهلها دعائم الدولة الجديدة ، من أعظم شخصيات الحرب والسياسة . كان عبد الرحمن الأموي يتمتع بعبقريّة ممتازة وخلال نادرة . وكان قرين جده العظيم معاوية بن أبي سفيان ، ينشئ مثله دولة ، ولكن في ظروف أسوأ من ظروفه ، ويهزم الخطوب والحوادث ، ويسحق خصومه في كل ميدان ، ويؤثر مثل السياسة العملية على كل اعتبار ، ويذهب نوا إلى الغاية بأي الوسائل . وكانت الحنة المروعة التي نزلت بأسرته ، والظروف العصيبة التي يواجهها ، والخصومات والأحقاد المستعرة التي تحيط به ، تحمل خلاله القوة إلى ذروة التطرف ، وتدفعه إلى التذرع بأشد الوسائل . فراه يقرن وافر العزم بفيض من الجرأة والمغامرة واحتقار الخطر ، ويقرن وافر الدهاء بنزوع إلى الخيانة والغدر والفتك ، ويقرن وافر الحزم والصرامة بنزوع إلى القمع الذريع ، ويذهب في الانتقام إلى حدود مروعة من القسوة . ومع ذلك فقد كان عبد الرحمن وفيّاً يحفظ العهد والصنيعة لمن أخلص له ، وإن لم يحجم لأقل ريب أو بادرة عن الفتك بأعز أصدقائه وأقرب الناس إليه . وقد رأينا هذه الخلال واضحة بارزة ، في كثير مما تقدم من حوادث حياته ونضاله ، فرأيناه مراراً يلجأ إلى الغدر والاغتيال للتخلص من خصومه ، ورأيناه في مواطن كثيرة يزهق دون تردد ، كل من وقع في يده من أولئك الخصوم أو من ولداهم وصحبهم الأبرياء . وذهب عبد الرحمن في صرامته وقسوته إلى البطش بكثير من أصدقائه ، الذين آزره يوم مقدمه ، شريداً لاعتصبة له ، وقاتلوا معه وقادوه إلى الظفر والحكم ، وكان قد أولاهم في المبدأ ثقته وجعلهم عماد دولته . ومن هؤلاء بدر مولاة الذي جاب معه الفقر وخاض الغمار ، وكان مثالا للشجاعة والدهاء وبعد النظر ، فإنه قدر في البداية خلال وكفايته وولاه القيادة واختصه بأسمى المناصب والمهام ، ولكنه تغير عليه في أواخر عهده ، لما أبداه من التذمر وعدم الرضى ، ولما وجهه إليه من عتاب خشن تجاوز فيه حد اللياقة ، فنكبه وجرده من مناصبه وأمواله ، وشرده عن قرطبة إلى قاصية الثغر ، ولم يستمع إلى تضرعه حتى مات في فقر وضعة^(١) . ومنهم أبو عثمان رأس أنصاره ،

(١) راجع نفع الطيب ج ٢ ص ٦٩ و ٧١ ، حيث يورد طرفاً من الرسائل التي تبادلها عبد الرحمن وبدر ، والتي انتهت بنكبة بدر . وراجع الإحاطة لابن الخطيب (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٥٣ .

وأول من تلقاه وآواه يوم مقدمه ؛ فإنه جعله كبير دولته ، فلما توطد أمره جرده من نفوذه ، ولما وقعت المؤامرة التي دبرها بعض الوافدين من بني أمية ، واتهم أبو عثمان بالاشتراك في تدبيرها استراب به ، ولم ينقذه من بطشه إلا عظم صنيعه لديه . ولما ثار ابن أخت أبي عثمان في بعض حصون البيرة ، لم يتردد عبد الرحمن في قتله حين ظفر به . وكذا تغير عبد الرحمن على عبد الله بن خالد ، صهر أبي عثمان وزميله في مؤازرة عبد الرحمن ونصيرته ، وكان من وزرائه ، ثم اعتزل المنصب ، وتوارى لما رأى من غدر عبد الرحمن بزعيم الثمنية أبي الصباح ، وكان أبو الصباح هو الذي جمع كلمة الثمنية في إشبيلية حول عبد الرحمن وقاتل معه بصحبه ، ثم انحرف عنه لأموار نغمها منه ، فاستدرجه عبد الرحمن إلى قرطبة وفتك به في نفس مجلسه بالقصر ، ناكثاً لعهوده كما قدمنا^(١) . بل لم يحجم عبد الرحمن عن الفتك بذويه وخاصة أسرته ، حينما نوى إليه أنهم يأتمرون به ، فقتل ابني أخيه عبيد الله بن أبان والمغيرة بن الوليد ، وابن عمه عبد السلام اليزيدي حسماً فصلنا . والخلاصة أن عبد الرحمن كان ياجأ في تحقيق غاياته إلى أروع الأساليب والوسائل ، وكان طاغية مسرفاً في البطش والسفك ، مكيا فيليبيا^(٢) بكل معاني الكلمة . ولكن تلك الخلال المثيرة التي كان يحفرها ويذكيها الخطر الداهم ، كانت عنوان قوته ووسيلة ظفوره . يقول دوزي : « لقد دفع عبد الرحمن ثمن ظفوره غاليا ، ذلك الطاغية الغادر الصارم المنتقم ، الذي لاتأخذه رافة . ولم يبق زعيم عربي أو بربري ، يجرؤ على مواجهته صراحة ، ولكن الجميع كانوا يلعنونه خفية . ولم يك ثمة رجل يرغب في خدمته » . ثم يقول : « كان هم عبد الرحمن الدائم أن يذل العرب والبربر إلى الطاعة ، وأن يرغمهم على التعود على النظام والسلام ، وقد لجأ في تحقيق هذه الغاية إلى جميع الوسائل ، التي لجأ إليها ملوك القرن الخامس عشر لسحق الإقطاع . بيد أنه كان مصيراً محزناً ذلك الذي دفع القدر إليه اسبانيا ، وكانت مهمة محزنة تلك التي كان على خلفاء عبد الرحمن أن يضطلعوا بها . ذلك أن الطريق الذي رسمه لهم مؤسس الأسرة ، كان طريق الطغيان يؤيده السيف . ولكن من الحق أن نقول إن ملكاً لا يستطيع أن يحكم العرب والبربر

(١) نفع الطيب ج ٢ ص ٦٧ و ٧١ .

(٢) نسبة إلى مكيا فيليبى صاحب المذهب السياسى المشهور ، وخلاصته أن للأثير أن يتذرع في تحقيق الغاية بأى الوسائل ، ومنها الغدر والخيانة والسفك وكل ما إليها .

بغير هذه الوسيلة ، وإذا كان العنف والطغيان ثمة في ناحية ، ففي الناحية الأخرى يوجد الاضطراب والفوضى » (١) .

على أن عبد الرحمن كان إلى جانب هذه الصفات المثيرة ، يتمتع بكثير من الخلال الباهرة . وقد أجل ابن حيان مؤرخ الأندلس خلاله في تلك العبارات القوية ، قال : « كان عبد الرحمن راجع الحلم ، فاسح العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئاً من العجز ، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه ، متصل الحركة ، لا يخلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دعة ، ولا يكل الأمور إلى غيره ، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه ، شجاعاً مقداماً ، بعيد الغور ، شديد الخذر قليل الطمأنينة ، بليغاً ، مفوهاً ، شاعراً ، محسناً ، سمحاً ، سخيّاً ، طلق اللسان » (٢) وهذا التصوير الرائع الذي يقدمه لنا ابن حيان عن خلال تلك الشخصية الممتازة ، إنما هو صورة بارزة من صور العظمة والبطولة ، توضحها في جملتها وفي تفاصيلها حياة عبد الرحمن في جميع أدوارها .

ويشبهه ابن حيان أيضاً بأبي جعفر المنصور في قوة الشكيمة ، ومضاء العزم ، وفي القسوة والصرامة والاجترأ على الكبائر (٣) .

وإذا كانت هذه الصفات والخلال القوية المثيرة معاً ، لا تحمل على الحب ، فإنها تحمل على الإعجاب بلا ريب . بل إن التأمل ليشعر بعطف خاص نحو هذه الشخصية الفريدة ، ويرجع ذلك بلا ريب إلى تلك الحياة المؤثرة ، التي خاض عبد الرحمن غمارها ، وتلك المحن الأليمة التي نزلت بأسرته ، وتلك الجهود الفادحة التي بذلها لاسترداد حقه وحق أسرته في الحياة والرياسة . وكانت هذه الحياة المؤثرة وما انتهت إليه من النتائج الباهرة ، تحمل ألد خصوم عبد الرحمن على احترامه والإعجاب به ، حتى لقد سماه أبو جعفر المنصور « صقر قريش » في حديث طريف تنقله إلينا الرواية ، وهو أن المنصور قال يوماً لبعض أصحابه ، « من صقر قريش من الملوك ؟ » قالوا : أمير المؤمنين الذي راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأدواء . قال ما صنعتم شيئاً . قالوا فعاوية ، قال ولا هذا . قالوا

(١) Dozy : Hist. V. I. p. 245, 248

(٢) نقله نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

فبعد الملك بن مروان ، قال لا . قالوا فن يا أمير المؤمنين ؟ قال : صقر قریش عبد الرحمن بن معاوية ، الذى تخلص بكيده عن سنن الأسته و طباة السيوف ، يعبر القفر ، وركب البحر ، حتى دخل بلداً أعجيباً منفرداً بنفسه ، فصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون اللواوين ، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشدة شكيمة . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلل له صعبه ، وعبد الملك بيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب عزته واجتماع شيعته . وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور وقتل المارقين ، وأذل الجبابرة الثائرين^(١) .

هذا وأما عن شخصه ، فقد وُصف عبد الرحمن ، بأنه كان مديد القامة ، نحيف القوام ، أعور ، أخشم^(٢) ، له صغيرتان ، أصهب^(٣) ، خفيف العارضين ، له خال في وجهه^(٤) .

— ٢ —

كانت الأندلس حتى ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، ولاية من ولايات الخلافة الأموية . فلما انهار سلطان بنى أمية ، انفرد يوسف بالأمر ، وغدت الأندلس فى عهده إمارة مستقلة . وتلقى عبد الرحمن الأموى تراث الإمارة كما خلفه يوسف ، ولم ينشئ رغم كونه سليل بنى أمية ، لنفسه شيئاً جديداً من رسوم الملك . وتلقبه الرواية الإسلامية أحياناً بالأمير ، وأحياناً بالإمام^(٥) ، ويلقب أيضاً بصاحب الأندلس^(٦) . ويعرف بعبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل لاندلس من أمراء بنى أمية وحكمها ، ويعرف أيضاً بعبد الرحمن الأول ، لأنه أول أمراء ثلاثة من بنى أمية بهذا الاسم حكموا الأندلس ، هم عبد الرحمن الداخل ،

(١) راجع أخبار مجموعة ص ١١٨ و ١١٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٦١ و ٦٢ ؛ وبين الروايتين اختلاف يسير فى الألفاظ .

(٢) هو الذى فقد حاسة الشم .

(٣) من الصلبة والصهوة وهى احرار الشعر .

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٣٧ .

(٥) راجع أخبار مجموعة ص ١٠٠ - ١٠٤ حتى نهاية الحديث عن عبد الرحمن ، وابن خلدون

ج ٤ ص ١٢٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥١ وما بعدها ، وص ٦٠ ، حيث ينعت عبد الرحمن بالإمام ، وكذلك نفح الطيب ج ٢ ص ٧٤ ، والروض المطار (القاهرة ١٩٣٧) ص ١٨٦ .

(٦) ابن الأثير ج ٦ ص ٣٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ .

وحفيده عبد الرحمن الأوسط (ابن الحكم) ، ثم عبد الرحمن الناصر . وكانت الدعوة العباسية قد انتهت إلى الأندلس حين مقدم عبد الرحمن ، وذاعت في منابرها ، ودعى في الخطبة لبني العباس في كثير من النواحي ، ثم دعى لهم في قرطبة ذاتها ، ودعى عبد الرحمن الداخل نفسه لأبي جعفر المنصور مدى أشهر ، وكان ذلك رغم غرابته وتناقضه ، عملاً من أعمال السياسة . ولكن جماعة من بني أمية الذين وفدوا على الأندلس ، وعلى رأسهم عبد الملك المرواني ، اعترضوا على هذا التصرف ، ونوهوا بما أثم به بنو العباس في حق بني أمية ، وما زالوا يعبد عبد الرحمن حتى قرر قطع ذكر بني العباس من الخطبة (١٣٩ هـ) ، فقطعت من سائر منابر الأندلس^(١) . ولكن عبد الرحمن لم يحاول أن يتخذ سمة الخلافة قط ، رغم كونه سليل أقيالها . ويرجع ذلك إلى اعتبارات دينية وسياسية ، يحملها ابن خلدون في قوله ، إن بني أمية بالأندلس « تلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك ، بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة ، والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصية ، وأنهم إنما منعوا بإمارة القاصية أنفسهم عن مهالك بني العباس »^(٢) . ويقول لنا في موضع آخر إن عبد الرحمن لم يتخذ سمة الخلافة تأديباً منه في حق الخلافة بمقر الإسلام ومنتدى العرب^(٣) . ويقول المسعودي إن الخلافة لم يكن يستحقها عند بني أمية إلا من كان مالكا للحرمين ، ولذلك سمو بالخلائف ، حتى بعد أن تسموا بالخلافة ولم يخاطبوا بالخلفاء^(٤) . وعلى أي حال فإن بواعث السياسة العملية ، هي التي حملت عبد الرحمن على سلوك هذا المسلك ، والحرص على عدم التورط في رسوم لم يمن الوقت لاتخاذها ، والدخول بذلك مع الخلافة العباسية القوية في منافسة لا تؤمن عواقبها .

وأما عن نظام الحكومة ، فقد اتبع عبد الرحمن الداخل سنة أسلافه بالمشرق في تبسيط الرسوم والنظم ، وأنشأ منصب الحجابة ، ولكنه لم ينشئ مناصب الوزارة ، بل استعاض عنها بأعوان وأشياخ يعاونونه في القيام بمهام الحكم ، وليست لهم سمة الوزارة ، وإنما هم أقرب إلى الخاصة وأهل الشورى . واختار أعوانه في

(١) نفع الطيب ج ٢ ص ٧٨ ، وابن الأبار في الحلة السيرة (ليدن) ص ٣٣ .

(٢) المقدمة ص ١٩٠ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ .

(٤) المسعودي في مروج الذهب (بولاق) ج ١ ص ٧٨ .

البداية من أصدقائه ، الذين استقبلوه يوم مقدمه ، وآزروه وقاتلوا معه ، فولى حجابته تمام بن علقمة ، ثم ولاها من بعده ليوسف بن نخت الفارسي مولى عبد الملك ابن مروان ، ثم عبد الكريم بن مهران الغساني ، ثم عبد الرحمن بن مغيث ولد مغيث فاتح قرطبة ، وولاها في آخر أيامه لمنصور الحصى ، فلم يزل في حجابته حتى توفي . وعين لمشورته أبا عثمان عبيد الله بن عثمان كبير أنصاره ، وصهره عبد الله بن خالد ، فكانا مدى حين دعامة حكومته . وكان من أعوان حكومته أيضاً جدار بن عمرو ، وأبو عبدة حسان بن مالك زعيم إشبيلية ، وشهيد بن عيسى ابن شهيد ، وعبد السلام بن بسيل الرومي ، وهما من موالى بني أمية ، وثعلبة ابن عبيد الجذامي الذي ولاه سرقسطة فيما بعد ، وعاصم بن مسلم الثقفي وهو من خاصة أنصاره يوم المسارة . وولى قيادة عسكره مولاة بدرأ ، وتمام بن علقمة ، وعبد الملك المرواني ، وثعلبة بن عبيد ، وغيرهم من خاصة عصبته ، وقد كان عبد الرحمن يتولى بنفسه قيادة الجيش ، في معظم الوقائع والحروب التي نشبت بينه وبين خصومه كما رأينا . وولى عبد الرحمن على الكور والثغور جماعة مختارة من أصدقائه ، وذوى رحمه الوافدين عليه حسبما فصلنا في مواضعه . وعلى الحملة فقد كانت حكومة عبد الرحمن الداخل تقوم في البداية بالأخص على العصبية والموالاة ، وكانت عربية في بنائها وروحها ، ولكن الحصومة المستعرة التي شورها زعماء القبائل والبطون المختلفة على عبد الرحمن ، والثورات المستمرة التي عملوا على إضرارها من حوله ، ونكثهم المتكرر بعهودهم ، حمله على الاستراية بالعرب والحذر منهم ، فمال عنهم إلى اصطناع الموالى والبربر ، ولاسيا بربر العدو (المغرب) وحشد حوله من الموالى والبربر والرقيق آلافاً مؤلفة ، لتكون له وقت الحاجة عوناً يركن إليه ويثق به . وكان ذلك قاعدة للسياسة التي سار عليها خلفاء عبد الرحمن الداخل من بعده ، والتي بلغت ذروتها في عهد عبد الرحمن الناصر ، كما تفصل في موضعه (١) .

وأما عن سياسة عبد الرحمن نحو رعاياه النصارى (المستعربين) ، ونحو نصارى الشمال ، فقد كانت سياسة اعتدال ومهادنة . وكان من الواضح أنه نظراً لاشتغاله المستمر بأمر الثورات الداخلية ، لم يفكر في غزو أرض النصارى ، وأنه

كان يرحب بعقد السلم والمهادنة معهم . وهذا الأمان الذى يقال إن عبد الرحمن أصدره لجيرانه نصارى قشتالة يؤيد هذه السياسة وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن ، للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى والأندلسيين أهل قشتالة ، ومن تبعهم من سائر البلدان . كتاب أمان وسلام ، وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة ، وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل ، ومثلها من البغال ، مع ألف درع وألف بيضة ومثلها من الرماح ، فى كل عام إلى خمس سنين ، كتب بمدينة قرطبة ثلاث صفر عام اثنين وأربعين ومائة (٧٥٩ م) » (١) .

وكان عبد الرحمن الداخل يتمتع بمواهب إدارية باهرة ، فاستطاع خلال الاضطراب الشامل أن يوطد دعائم الحكم والإدارة ، وأن يجمع كثيراً من ضروب الفساد والبغى ، وأن يؤيد هيئة القانون والنظام . ولما توطد سلطانه وخبا ضرام الثورة نوعاً ، استطاعت الأندلس أن تتمتع فى ظل حكومته بأمن وطمأنينة ورخاء لم تعرفها منذ بعيد ، ولو لم يُشغل عبد الرحمن طوال عهده بقمع الثورة والفتن الداخلية ، لاستطاع كأسلافه الفاتحين الأوائل ، أن يبعث الأندلس خلقاً جديداً ، وأن يجعل منها حديقة يانعة . على أنه ذلل الصعب ومهد الطريق لعقبة ، واستطاع أن يضع دعائم تلك المملكة ، التى غدت على يد بنيه أعجوبة العصور الوسطى . وينوه ابن حيان مؤرخ الأندلس بمقدرة الداخل وكفاياته الإدارية فيقول إنه «دون الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وجند الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آله ، وأخذ للسلطان عدته » (٢) .

وعنى عبد الرحمن بالجيش عناية خاصة ، فحشد المتطوعة والمرتزة من كل صوب ، وبلغت قواته مائة ألف مقاتل (٣) ، هذا عدا حرسه الخاص الذى أنشأه

(١) أورد ابن الخطيب فى كتاب الإحاطة (مخطوط الإسكوريال) نص هذا الكتاب ونقله عنه الغزيرى فى فهرسه . راجع Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialenses Vol. II. p. 104 . بيد أننا نرتاب على الأقل فى صحة الأرقام التى وردت به لضخامتها بالنسبة لموارد النصارى فى هذا العصر .

(٢) نقله نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥ .

(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٧٤ .

من الموالي والبربر والرقائق حسباً قدمنا ويبلغ زهاء أربعين ألفاً^(١) . كذلك عني عبد الرحمن في أواخر عهده بأمر القوات البحرية ، فأنشأ عدة قواعد لبناء السفن في بعض الثغور النهرية والبحرية ، مثل طركونة وطرطوشة وقرطاجنة وإشبيلية وغيرها^(٢) . ويقال إن عبد الرحمن الداخل لما توطد ملكه ، وكثرت قواته وعدته ، فكر في استرداد ملك بني أمية بالشام ، والرحيل إلى المشرق ببعض قواته ، واستخلاف ولده سليمان على الأندلس ، وأيده في ذلك خاصة أسرته ومواليه . وكان ذلك في سنة ١٦٣ هـ . ولكن اضطراب الثورة في سرقسطة حال بينه وبين ذلك العزم ، وتوفي قبل أن تسنح فرصة لتنفيذه^(٣) . وقد تكون هذه أمنية جالت بذهن عبد الرحمن ، ولكننا لانجد في ظروف حياته التي انقضت كلها في إخماد الفتن والثورات المحلية ، ما يسمح باعتبار مثل هذه الأمنية مشروعاً جدياً تتخذ العدة لتنفيذه .

واستطاع الداخل أيضاً أن يعنى بالحاضرة الأموية الجديدة أعني قرطبة ، فحصنها وزينها بالمنشآت الفخمة والرياض الياقة . وكان أول ما أنشأ بها في عهده منية الرصافة وقصرها المنيف . وكان قصر الإمارة بناء قديماً ساذجاً يرجع إلى عهد القوط ، فرأى عبد الرحمن أن ينشئ ضاحية ملوكية جديدة ، تليق بحاضرة ملكه ، وتعيد ذكرى بهاء بني أمية بالمشرق ، فأنشأ في شمال غربي قرطبة قصرأ فخماً تحيط به حدائق زاهرة ، وجلب إليها مختلف الغروس والبذور والنوى من الشام وإفريقية ، وسمى تلك الضاحية الجديدة بالرصافة تخليداً لذكرى الرصافة التي أنشأها جده هشام بالشام ، واتخذها مقاماً ومنزها ومركزاً للإمارة ، وكانت حدائق الرصافة أمأ لحدائق الأندلس ، ومنها انتشرت بالأندلس غروس الشام وإفريقية^(٤) . وفي سنة ١٥٠ هـ بدأ عبد الرحمن بإنشاء سور قرطبة الكبير ، واستمر العمل فيه مدى أعوام^(٥) . وأنشأ عبد الرحمن في قرطبة وفي باقي مدن الأندلس مساجد محلية عديدة ، وبدأ في أواخر أيامه (سنة ١٧٠ هـ — ٧٨٦م) بإنشاء المسجد

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ .

(٢) Reinaud : *ibid* , p. 120

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ ، وج ٢ ص ٧٦ .

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٧ .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٣ .

الأموى الجامع بقرطبة ، وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة ، وجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد . ولكنه توفي قبل إتمامه ، فأتمه ولده هشام ، وزاد فيه من بعده ملوك بني أمية ، حتى غدا أعظم مساجد الأندلس ، وبلغ ما أنفق عليه الداخل وحده زهاء مائة ألف دينار^(١) . وأنشأ عبد الرحمن أيضاً في قرطبة داراً للسكة ، تضرب فيها النقود على نحو ما كانت تضرب في دمشق أيام بني أمية وزناً ونقشاً .

- ٣ -

وكان عبد الرحمن الأموى جواداً ، جم البساطة والتواضع ، يؤثر لبس البياض ويعتم به ، يصلى بالناس أيام الجمع والأعياد ، ويحضر الجنازات ويصلى عليها ، ويعود المرضى ، ويزور الناس ويخاطبهم ، ولم ينحرف عن هذه الديمقراطية إلا في أواخر عهده ، حينما نصحه بعض خاصته بالترفع ، استبقاء لهية الملك ، والحذر من بوادى العامة وشر المتأمرين^(٢) . وقد كان في نقش خاتمه « عبد الرحمن بقضاء الله راض » و « وبالله يثق عبد الرحمن وبه يعتصم » ما ينم عن ذلك التواضع الجرم^(٣) ، حيث لم يتخذ لقب المظفر أو الناصر أو المنصور وما إليها .
بقى أن نتحدث عن ناحية أخرى من خلال عبد الرحمن البديعة ، هي الناحية الأدبية . كان عبد الرحمن شاعراً جيد النظم ، ناثراً فصيح البيان ، قوى الترسل ، عالماً بالشرعية ، وكان يعتبر من أعظم بني مروان مكانة في البلاغة والأدب^(٤) . وقد انتهت إلينا بعض رسائله وفيها تبدو قوة بيانه وفيض بلاغته . ومن ذلك رسالة موجزة وجهها إلى سليمان بن يقطان حين خروجه عليه : « أما بعد ، فدعنى من معارض المعاذير ، والتعسف عن جادة الطريق ، لنمد يداً إلى الطاعة ، والاعتصام بمجمل الجماعة ، أو لألقين بناتها على رصف المعصية ، نكالا بما قدمت يدك ، وما الله بظلام للعبيد » . ومنها رسائله إلى بدر مولاة ، يزجره عن تمرده وانحرافه وقد كتب إليه حين ألحف في طلب العفو والمنة : « لتعلم أنك لم تزل بمقتك حتى

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٠ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦٧ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٧٦ .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٠ و ٦٢ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٩ ؛ والمراكشي في

ثقلت على العين طلعتك ، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك ، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك ، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر ومن أقواله لأصحابه يوم المسارة يشحذ همهم للقتال : « هذا اليوم هو أس ما يبنى عليه ، إما ذل الدهر وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون ، ترجحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون »^(١) .

وانتهى إلينا من نظم عبدالرحمن ما يدل على قوة شاعريته ورقة خياله . فن ذلك قوله حين بلغه أن بعض أصدقائه يمن عليه ، ويزعم أنه لولاه لما صار الملك إليه :

سعدى وحزى والمهند والقنا ومقادير بلغت وحال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب نجم يطالعا ونجم آفل
والخزم كل الخزم أن لا يغفلوا أروم تدبير البرية غافل
ويقول قوم سعدى لا عقله خير السعادة ما حماها العاقل

وأشاد بعضهم أمامه بموقف الغمر بن يزيد بن عبد الملك في مجلس عبد الله ابن علي جلاد بني أمية ، ونعيه عليه إثمه في حقهم وسفكه لدمائهم ، وفقده لحياته ثمناً لجرأته ، فأنشد عبد الرحمن :

شتان من قام ذا امتعاص^(٢) فشال ما قال واضمحلا
ومن غدا مصلتا لعزم^(٣) مجرداً للعداة نصلا
فجباب قفراً وشق بجرأ ولم يكن في الأنعام كلاً
فبز ملكاً وشاد عزاً ومنبراً للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى ومصر المصر حين أجلى
ثم دعا أهله جميعاً حيث انتأوا أن هلم أهلاً^(٤)

ومن قوله في التشوق إلى ربوع الشام ، وهو رقيق مؤثر :

أيها الركب الميمم أرضى أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمي كما علمت بأرض وفؤادي ومالكيه بأرض

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٨ - ٧٠ ، حيث يورد عدة من رسائل عبد الرحمن وأقواله .

(٢) يريد الغمر بن يزيد بن عبد الملك .

(٣) يريد نفسه أي عبد الرحمن الداخل .

(٤) هكذا يوردها المقرئ (نفح الطيب ج ٢ ص ٦٨) ؛ ولكن صاحب البيان المغرب

يوردها بصورة أخرى ج ٢ ص ٦١ .

قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضى
ورأى روض الرصافة وهى الضاحية الجديدة التى أنشأها ، نخلة منفردة ،
فأثار منظرها فى نفسه ذكرى وشجناً وأنشد (١) :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى وطول التناى عن بني وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فثلك فى الإقصاء والمتأى مثلى
مقتك غواذى المزن من صوبها الذى يسبح ويستمرى السها كين بالويل (٢)

- ٤ -

هذا ويجب أن نستعرض هنا ، وقبل اختتام الكلام على عصر عبد الرحمن الداخل ، عناصر المجتمع الأندلسى ، الذى كان خلال هذه الأحداث والخطوب التى توالى عليه منذ أيام الفتح ، قد استقر ، وأخذت جذوره فى التوطد والرسوخ ، وأخذت عناصره المختلفة ، يؤدى كل منها دوره فى غمرة الحوادث ، مستهدياً بعواطفه وأمانيه ومثله الخاصة .

وقد سبق أن أشرنا بإيجاز إلى أن المجتمع الإسلامى الذى قام فى شبه الجزيرة عقب الفتح ، كان يتألف من عناصر رئيسية ثلاثة ، هى العرب ، والبربر ، والمولدون . كما أشرنا إلى عناصر الشقاق والتفرق التى كانت تعمل فى صفوف هذا المجتمع الإسلامى الجديد .

كانت البطون العربية التى اشتركت فى الفتح ، واستقرت فى شبه الجزيرة تضطرم منذ البداية بروحها القبلى المتأصل ، ولم تستطع قط أن تتحرر من هذا

(١) وينسب هذا الشعر أيضاً لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن مروان ، وكان من الداخلين إلى الأندلس (راجع الحلة السيرة ص ٣٤) .

(٢) يورد ابن الأبار فى هذا الموطن رواية يفهم منها أن هذه النخلة هى أول نخلة غرست بالأندلس ، ومنها تولد جميع النخل بالأندلس فيما بعد ، وإذاً فيكون عبد الرحمن الداخل هو أول من نقل غراس النخيل بالأندلس فيما نقل من غراس الشام إلى الرصافة (الحلة السيرة ص ٣٥) . ولكن يحق لنا أن نلاحظ أن العرب فتحوا الأندلس قبل ذلك بنحو ثمانين عاماً ، ومن قبلها فتحوا إفريقيا ؛ ومن المعلوم أن يكون النخل قد قتل إليها فيما نقلوا من غراس بلادهم ؛ وقد نقلوه قبل ذلك إلى مصر منذ الفتح . وإذا كان النخل قد غرس بإفريقية عقب افتتاحها ، أفلا يكون من المرجح أنه قد نقل منها إلى الأندلس عقب افتتاحها أيضاً ؟ وقد كان أول ما عنى به العرب فى الأندلس تنظيم للزراعة وقرس الحدائق .

الروح النكد ، الذى أشاع فيما بينها عوامل الشقاق والتنايد ، وأثار فيما بينها غير مرة ضرام الحرب الأهلية . وقد رأينا كيف عانت الأندلس فى أواخر عهد الولاة من هذه الحرب الأهلية ، التى اضطرت بين المضربة واليمنية وبين البلديين والشاميين ، وكيف كادت تودى بسلامة الأندلس ومنعتها . ثم رأينا كيف قضى عبد الرحمن الداخل معظم عهده فى مكافحة الثورات المتعاقبة التى شهرها فى وجهه زعماء القبائل والبطون فى سبيل الاحتفاظ بسلطانهم المحلى . وهكذا كانت القبائل العربية فى الأندلس منقسمة على نفسها ، وإن كانت الرياسة قد بقيت فيها على يد الدولة الأموية الجديدة التى قامت فى شبه الجزيرة . بيد أن العرب لم يكونوا بين كتلة الأمة الأندلسية أغلبية ، بل كانوا بالعكس أقلية تتمثل بالأخص فى الأرستقراطية العربية التى استأثرت بمعظم مغامير الفتح ، واستولت حيناً على أزمة الحكم ، واحتلت فى شبه الجزيرة معظم البقاع الحصينة . وقد ذكر لنا ابن غالب فى « فرحة الأنفس » ، كثيراً من البطون العربية التى استقرت بالأندلس ، وبعض من كان ينتمى إليها من الأسر الأندلسية النابغة ، وذكر لنا من منازلها ، بلنسية وأوريولة وإشبيلية وغرناطة ووادي آش^(١) . وكانت الأرستقراطية العربية تستقر بالأخص فى القواعد والمدن الكبيرة ، ولا سيما فى قرطبة ، وترك العمل فى ضياعها الشاسعة للموالى والبربر ، وكان أمراء بنى أمية منذ عهد عبد الرحمن الداخل يعملون على مقارعة هذه الأرستقراطية القوية وإخضاعها ، حتى جاء عبد الرحمن الناصر ، ففضى على سلطانها السياسى والاجتماعى ، ورفع إلى مكانها الموالى والصقالبة ، ثم جاء المنصور بن أبى عامر ، فعمل على تمزيقها وتشتيتها ، وخلق أرستقراطية جديدة من البربر تقوم مكانها ، ومن ذلك الحين تغيض الأصول العربية فى شبه الجزيرة تباعاً ، وتضمحل مكانتها وأهميتها .

ويرجع انكماش العنصر العربى فى الأمة الأندلسية ، أولاً إلى كونه يمثل الطبقة الممتازة وهى تكون الأقلية دائماً ، وثانياً إلى أن الهجرة العربية إلى شبه الجزيرة لم تكن هجرة غزيرة ، وقد توقفت تقريباً منذ القرن الثالث الهجرى ، ولم يكن ما ينسب للأمراء والكبراء من كثرة النسل ، لامتلاء قصورهم بالجوارى ،

١٢ يعوض هذا النقص العنصرى .
وإلى جانب الأقلية العربية الأرستقراطية ، يجب أن نذكر طائفة الموالى التى

(١) نقله المقرئ فى فتح الطيب ج ١ ص ١٣٦ و ١٣٧ .

كانت تنتمى إليها أولاً وتشدد بأزرها، ثم انقلبت عليها فيما بعد حينما تمكنت واشتد نفوذها . وقد نمت هذه الطائفة بمر الأيام . وظهر منها كثير من القادة والزعماء النابيين ، الذين شغلوا أعظم المناصب في الدولة وفي الجيش ، مل بنى شهيد ، وبنى مغيث وبنى عبدة ، وبنى جهور ، وبنى بسيل ، وهم الذين شغلوا مناصب القيادة والحجابه أجيالا . وإلى جانب هؤلاء ، يجب أن نذكر طائفة الصقالبة الأجانب التي ظهرت أهميتها منذ أيام عبد الرحمن الداخل ، وبلغت ذروة تضخمها ونفوذها أيام عبد الرحمن الناصر . وقد كان بنو أمية يوثرون اصطناع هؤلاء الموالي والإفادة من عونهم وتأييدهم .

وأما العنصر الثانى الذى كانت تتكون منه الأمة الأندلسية فهو عنصر البربر . وقد قام البربر حسبنا رأينا بأكبر قسط فى فتح الأندلس ، وفى الغزوات التى اضطلعت بها الجيوش الإسلامية فيما وراء البرية ، وكانوا فى معظم الأحيان أغلبية فى تلك الجيوش ، وإن كانت القيادة قد لبثت على الأغلب فى أيدي القادة والضباط العرب . وكانت هجرة القبائل البربرية إلى شبه الجزيرة أسرع وأشد كثافة من هجرة العرب ، أولاً لقرب منازلهم فى العدو من شبه الجزيرة ، وثانياً لشعورهم بما كان لهم من فضل فى أعمال الفتح ، وثالثاً لما كان يحفزهم من آمال فى البحث وراء طالعهم فى هذا القطر الحديد ، الذى كانت وديانه الخضراء تجذبهم من بواديهم المقفرة . وقد استمرت هجرة البربر على هذا المنوال أجيالا ، بينما كانت هجرة العرب من منازلهم البعيدة فى شبه الجزيرة العربية وفى الشام بطيئة محدودة أضف إلى ذلك ما عمد إليه أمراء بنى أمية ، منذ عهد عبد الرحمن الداخل من اصطناع البربر إلى جانب الموالي والصقالبة ، والاستعانة بهم فى تدعيم سلطانهم ، لاستراتبتهم بالقبائل العربية . وقد بلغت هذه السياسة كما سنرى فيما بعد ذروتها فى عهد المنصور بن أبى عامر ، حيث انتالت القبائل البربرية على شبه الجزيرة ، واحتل زعماءها معظم المناصب الكبيرة ، وأضحى سواد الجيش مؤلفاً منها . وقد كانت معظم البطون البربرية المهاجرة تنتمى بالأخص إلى زنانة ومصمودة ومكناسة ونفزة والبرانس ، واشتهرت من هذه البطون بالأخص ، مدغرة ومدبونة ومكناسة وهوارة . ومنها خرج فيما بعد أمراء كثير من القواعد والثغور ، وقامت من بينها ممالك من دول الطوائف . وقد كان البربر أكثرية فى الشمال الغربى ، وفى وسط الأندلس فى منطقة جبال المعدن (أو جبال البرانس) ، وفى أراضى السهلة

ووادى الحجارة ، ومنطقة شرقى إشبيلية والقرنطرة ، وهى مناطق تمتاز على الأغلب بهضابها الوعرة ، وهو ما كان يشجع البربر فى أحيان كثيرة على الثورة ومقاومة الحكومة المركزية للمحافظة على استقلالهم المحلى (١) .

والعنصر الثالث الذى كانت تتكون منه الأمة الأندلسية هو عنصر المولدين ، وهم القوط والإسبان الذين أسلموا منذ الفتح ، ودخلوا حظيرة المجتمع الإسلامى إلى جانب زملائهم العرب والبربر ، مؤثرين أن يتمتعوا فى ظل الإسلام بمزايا المساواة والثقة ، والتحرر من القيود والأعباء التى تلاحق الذميين . ويعرف أولئك المولدون فى الإسبانية بالخوارج أو المرتدين Renegados ، أى الذين ارتدوا عن دينهم القديم ، وهو النصرانية ، ويسمون أحياناً بالمسألة أو بالأسالة ، أو أسالة أهل الذمة ، متى كان إسلامهم حديثاً . وكان المولدون يكونون بين السكان كتلة كبيرة ربما كانت الأغلبية ، وقد كان إسلامهم سريعاً ، ولم يأت جيل أو اثنان حتى استطاعوا الاندماج فى المجتمع الإسلامى ، وأضحى من الصعب تمييزهم من المسلمين الأصليين ، وغدوا بمضى الزمن عنصراً من أهم عناصر السكان إن لم يكن أهمها جميعاً ، سواء من حيث الكثرة أو المستوى الاجتماعى والحضارى . وإلى جانب هذه العناصر الأساسية الثلاثة ، التى كانت تتكون منها الأمة

الأندلسية ، كان ثمة عنصر آخران هما المستعربون أو النصارى المعاهدون Mozárabes وهم النصارى الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم القديم ، ولبثوا يعيشون فى المدن والأراضى المفتوحة تحت الحكم الإسلامى ، وقد كانت منهم ثمة أقليات كبيرة فى بعض المدن مثل طليطلة وقرطبة . واليهود ، وقد رأينا كيف ساعدوا الفاتحين المسلمين وقت الفتح ، وتعاونوا معهم فى حفظ المدن المفتوحة وإدارتها ، وقد كانت منهم أقليات فى معظم المدن الأندلسية ، تتمتع بحماية الحكومات الإسلامية ورعايتها . وقد ازدهرت هذه الأقليات اليهودية فيما بعد ، وظهرت منها شخصيات بارزة تولت مناصب كبيرة فى الدولة ، وغلب نفوذها فى بعض المناطق ، كما حدث فى مملكة غرناطة البربرية ، وظهرت كذلك فى ميدان العلوم والآداب ، ونبغ منها علماء ناهيون مثل ابن ميمون وغيره .

تلك هى العناصر المختلفة التى كانت تتألف منها الأمة الأندلسية . وسوف نعود من آن لآخر إلى التحدث عن هذه العناصر فى مختلف المواطن والمناسبات .

(١) يحدثننا ابن حزم تفصيلاً عن منازل البربر فى الأندلس . راجع جمهرة أنساب العرب

الفصل السابع

المملكة النصرانية الشمالية

منذ قيامها إلى ولاية ألفونسو الثاني

بعث المملكة النصرانية في اشمال . اجتماع فلول النصارى في الهضاب الشمالية . للدوق بتروس وبلاجيوس . نشوء المملكة للنصرانية . صمت إيزيدرو الباجى عن ذكرها . أقوال الرواية الإسلامية . إمارة جليقية والصخرة . رأى لابن خلدون في شأنها . لغفال الفاتحين لأمرها . حملات المسلمين عليها . ارتدادهم عن تلك الهضاب . اجتماع النصارى حول بلاجيوس . حملة ابن أبى نسمة على جليقية . إغارة النصارى على الأراضى الإسلامية . غزو عقبة بن الحجاج لجليقية . نمو المملكة النصرانية . وفاة بلاجيوس . ولده فافيل . إمارة كانتابريا . تحالفها مع جليقية . اتحادهما تحت ولاية ألفونسو الأول . ألفونسو الأول أو الكاثوليكي . اجتياحه للأراضى الإسلامية . استيلاؤه على أستورقة . أخوه فرويلا أمير كانتابريا . استيلاء ألفونسو على مدينة لك . حملة يوسف الفهرى لإنقاذ أربونة . القتال بينه وبين البشكنس . عبور ألفونسو لنهر دويرة . وفاة فرويلا . وفاة ألفونسو . فرويلا الأول . استيلاؤه على شلمنقة وشقوبية ومورة وقشتالة . اختلاف الرواية الإسلامية في تاريخ هذه الغزوة . خطر المملكة النصرانية . عبد الرحمن الأموى يرسل حملة إلى جليقية . غزو أبة والنلاع . ما تقوله الرواية النصرانية عن موقعة بونثومو . ثورات النصارى على فرويلا . غزوه لنافار . بطشه وسفكه . إنشاؤه لمدينة أوبييدو . وفاته . انقسام المملكة . ولاية أورليوس للولايات انشرقية . ولاية سيلو للولايات الغربية . وفاة أورليوس . ولاية سيلو على المملكة كلها . الصباح بينه وبين المسلمين . وفاة سيلو . اضطراب المملكة . قيام مورجات ولد ألفونسو الأول . فرار ألفونسو ابن فرويلا إلى أبة . تحالف مورجات مع المساجين . أقوال الرواية الإسلامية . وفاة مورجات . ولاية برمند الأول لجليقية . تحالفه مع ألفونسو . تتحل برمند وولاية ألفونسو على المملكة كلها . أسطورة القديس يعقوب وقيام مدينة شنت ياقب . عزلة المملكة الشمالية . خواص مجتمعا .

نقف الآن قليلا في تتبع أخبار دولة الإسلام في الأندلس ، لنأتى على أخبار دولة متواضعة أخرى ، قامت في اسبانيا إلى جانب الدولة الإسلامية في نوع من الخفاء والصمت ، ولم يشعر المسلمون بمولدها ولا نموها في أعوامها الأول ، ولم يقدروا أهميتها حين شعروا وجودها ، ولم يعنوا بأمرها إلا حينما نمت وانتظمت إلى قوة تستطيع العدوان والمقاومة : تلك هى المملكة الإسبانية النصرانية التى يجب أن تأخذ منذ الآن مكانها في تاريخ شبه الجزيرة ، إلى جانب دولة الإسلام فيها . ولم يكن قيام هذه المملكة الناشئة ، سوى طور جديد في حياة تلك المملكة

القوطية التي سحقها العرب عند فتح الأندلس (٩٢ هـ - ٧١١ م) ، والتي قامت بعد ذلك تستأنف حياتها ضئيلة متواضعة ، في قاصية اسبانيا الشمالية الغربية وفيما وراء الصخر ، ثم لبثت تنمو بطيئة ولكن ثابتة ، حتى رسخت دعائمها في هاتيك الهضاب ، وبدأت بعد ذلك معركة الحياة والموت ، مع تلك المملكة الإسلامية التي قامت في الجنوب ، على أنقاض مملكة القوط القديمة ، وهي معركة تشغل منذ الآن حيزاً كبيراً في تاريخ الإسلام في اسبانيا .

وقد نشأت المملكة الإسبانية النصرانية في ظروف كالأساطير ، ونشأت في نفس الوقت الذي افتتح فيه العرب اسبانيا ، وسحقوا دولة القوط القديمة . ففي موقعة شريش التي مزق فيها جيش القوط وقتل آخر ملوكهم ردريك (لنريق) (٩٢ هـ) ، فرت شراذم قليلة من الجيش المنهزم إلى الشمال ، واختفت فيما وراء تلك الجبال الشمالية ، التي وقف عندها تيار الفتح الإسلامي ، واجتمعت بالأخص في هضاب كانتابريا (نافار وبسكونية) في الشرق ، وفي هضاب أستوريش^(١) في الغرب ، واجتمع فل النصراري في الهضاب الشرقية تحت لواء زعيم يدعى اللوق پتروس ، واجتمع فلهم في الهضاب الغربية في جليقية تحت لواء زعيم يدعى پلاجيوس أو پلايو . وكان پتروس ينتمى إلى أحد الأصول الملكية ، وكان من قادة الجيش في عهد وتيزا ملك القوط ، ثم في عهد خلفه ومغتصب ملكه ردريك . أما پلاجيوس أو پلايو فيحيط الغموض بأصله ونشأته ، ولكن يبدو مما تنسبه إليه الرواية من ألوان الوطنية والبسالة والبطولة ، أنه كان رفيع المنبت والنشأة ، وتقول بعض الروايات إنه ولد الزعيم فافيلا^(٢) الذي قتل الملك وتيزا في هضاب جليقية ، وإنه كان لذلك من خاصة الملك ردريك وقادته . وهذا ما يردده سيمونيت إذ يقول في أصل پلاجيوس ما يأتي : « وكان الحزب المتمسك بدينه ووطنه ، المنكر لخيانة أولاد وتيزا ، قد اختار له رئيساً رفيع المواهب هو اللدون پلايو بن فافيلا ، من سلالة القوط الملكية . ويقول البعض إنه ولد من يدعى فرميندو ، وحفيد للملك ردريك ، وقد حارب إلى جانب ردريك . ثم رأى فيه الأخبار والأكابر الذين التفوا حوله ، أنه جدير بالعمل على إحياء مملكة

(١) في الجغرافية الحديثة « أستورية » Asturias

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩ ، حيث يقول « وملكوا عليهم (أي الجلالة) بلای ابن فائلة »

القوط»^(١). وتعرف الرواية الإسلامية بـ «بلايو» وتحدثنا عنه وتسميه (بلاي) ،
وتصفه أحياناً بأنه أمير أو ملك ، وتنعتة غالباً بأنه «علج من علوج النصارى»^(٢)
وتتبع أخباره مع المسلمين ، ولكنها لا تلتق ضياء كثيراً على أصله أو أحوال
مملكته الصغيرة . ذلك لأن المسلمين لم ينفذوا قط إلى ما وراء الهضاب الوعرة ،
التي امتنع بها هذا الزعيم وفله ، والتي نشأت فيها جذور المملكة النصرانية
الشمالية ، التي غدت غير بعيد خطراً على دولة الإسلام في إسبانيا . ومن الغريب
أن رواية نصرانياً كبيراً معاصراً هو إيزيدور الباجي ، وهو حبر عاصر الفتح
الإسلامي ، وكتب روايته منذ منتصف القرن السابع ، ووصل في كتابتها حتى سنة
٧٥٤ م^(٣) ، لم يذكر لنا في روايته شيئاً عن قيام تلك المملكة النصرانية الصغيرة في
الشمال ، ولا عن زعيمها أو ملكها بلايو ، ولا عن غزوات المسلمين لها ، مع أن
إيزيدور يتتبع أخبار الغزوات الإسلامية كلها ، منذ الفتح حتى منتصف القرن
الثامن ، سواء في إسبانيا أو في مملكة الفرنج ، ويقدم إلينا عنها كثيراً من
التفاصيل والملاحظات الهامة . وقد يرجع ذلك إلى أن إيزيدور وهو يقيم في
الجنوب في مدينة باجة ، كان يجهل قصة هذه المملكة النصرانية الناشئة ، ولكن
ما نراه من عنايته بتدوين أخبار الغزوات الإسلامية في فرنسا ، وأخبار مملكة
أكوتين ، يحملنا على الاعتقاد بأنه لم يكن يجهل أخبار مملكة جليقية النصرانية ،
وهي أقرب إليه من فرنسا ، وأن أسباباً أخرى لعلها ترجع إلى انتماء أميرها بلايو
إلى حزب ودريك الذي كان يغضبه المؤرخ ، هي التي حملته على إغفال أخبارها^(٤).
وعلى أي حال فإن الرواية الإسلامية ، تذكر لنا كيف نشأت المملكة النصرانية

(١) P. J. Simonet cit. Saavedra ; *Historia de los Mozarabes de Espana*, (١) Vol. I. p. 148. ويقول المؤرخ المستشرق كاردون إن بلاجيوس يفتنى إلى أصل ملكي ، وأنه الأمير الوحيد الذي نجا من فتك العرب (راجع Cardonne : *ibid*, I. p. 105) ، بيد أن كاردون لا يقول لنا من أين استقى هذه الرواية .

(٢) راجع أخبار مجموعة ص ٢٨ ، ونفع الطيب ج ١ ص ١١٠ .

(٣) وقد كتبت باللاتينية بعنوان *Isidorus Pacensis Chronicon* . ونشرت ضمن المجموعة التاريخية الكنسية الإسبانية الكبيرة المسماة *Espana Sagrada* تصنيف الأب P. Enrique Florez . الجزء الثامن . ونشر دوزي منها مقتطفات في كتابه : *Recherches* : V.I. p. 4-14 . مع تعليقات .

(٤) راجع : Aschbach : *ibid*, I. p. 142 .

الإسبانية في الهضاب الشمالية ، بعد أن سحقت في موقعة شريش فقد لجأت
شراذم قليلة من القوط عقب الفتح إلى الجبال الشمالية ، وامتنعت في مفاوز جبال
أشتوريش (أستورية) ، وقامت إمارتان نصرانيتان صغيرتان في كانتاريا
وجليقية . وكانت إمارة كانتاريا التي أسسها الدوق پتروس ، لوقوعها في الطرف
الغربي من جبال البرنيه في سهول نافار وبسكونية ، عرضة لاقتحام الفاتحين لها حين
سيرهم إلى فرنسا وحين عودهم منها . ولكن إمارة جليقية Galicia ، كانت تقع
في أعماق جبال أشتوريش الوعرة ، بعيداً عن غزوات الفاتحين ، وسميت جليقية
لأنها قامت على حدود الولاية الرومانية القديمة التي كانت تسمى بهذا الاسم .
ففي هذه الهضاب النائية المنيعه اجتمع پلايو وصحبه ، وعددهم لا يتجاوز بضعة
مئات حسبما تقول الرواية ، ولجأوا إلى مغار عظيم في آكام كوفادانجا ، تحيط به
وديان سحيقة خطيرة ، ويعرف في الرواية الإسلامية باسم (الصخرة)^(١) .
ويقول لنا ابن خلدون في الفصل الذي يخصصه (ملوك الحلالقة) ، إن هذه
الإمارة الصغيرة التي كانت مهد المملكة النصرانية ، لاتمت بصلة إلى القوط ،
وإن ملوك الحلالقة ليسوا من القوط ، لأن أمة القوط كانت قد بادت ودرثت
لعهد الفتح الإسلامي^(٢) . بيد أنه يصعب علينا أن نقبل هذا الرأي على إطلاقه ،
فنن المحقق أن فلول النصراني التي لجأت إلى الشمال كانت مزيجاً من القوط والإسبان
المحليين ، ولكن الظاهر مما انتهى إلينا من أقوال الروايتين المسلمة والنصرانية ،
أن الزعماء ولاسيما پلاجيوس كانوا من القوط ، وأن ملوك الحلالقة يمتون إلى
القوط بأكبر الصلات .

ولم يعن المسلمون لأول عهد الفتح بأمر هذه الشراذم المعزقة عناية كافية .
وكان فاتحا الأندلس موسى وطارق ، قد قاد كل منهما حملة إلى جليقية لسحق
البقية الباقية من فل القوط ، ولكنهما لم يتمكنوا من تحقيق غايتهم لاستدعائهما إلى
دمشق كما أسلفنا . وكان إغفال أمر هذه الفلول الباقية بعد ذلك من أعظم أخطاء
الفاتحين . بيد أنه لما كثرت ثورات النصراني في الشمال ، وبالأخص في بسكونية
(أو بلاد البشكنس) ، اهتم ولاة الأندلس بقمعها وتأمين الولايات الشمالية ،

(١) نفتح الطيب ج ٢ ص ٥٧ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩ ، وهو يعارض هنا رأى ابن حيان في أن المملكة النصرانية
يرجع أصلها إلى القوط .

وسير الحرث بن عبد الرحمن الثقفي والى الأندلس في سنة ٩٨ هـ (٧١٨ م) جيشاً إلى الشمال لإخضاع النصارى ، فاجتاح المسلمون بلاد البشكنس وهضاب أستوريش ، وأوفدوا حليفهم الأسقف أوباس وهو أخو الملك وتيزا إلى پلايو ليقنعه بالتسليم وبعث المقاومة ، فأبى پلايو ولجأ إلى كهوفه المنيعه في صخرة كوفاندنجا ، ونفذ المسلمون إلى أعماق الجبال وحاولوا عبثاً أن يستولوا على مراكز العدو ، وحالت بينهم وبينه الوديان السحيقة والآكام الرفيعة ، وحوصر پلايو وأصحابه في « الصخرة » مدى حين ، وقطعت عنهم المؤن ، وتساقطوا تبعاً من الجوع ، حتى لم يبق منهم على قول الرواية سوى ثلاثين رجلاً وعشر نساء^(١). وتزعم بعض الروايات النصرانية أن پلايو كر على المسلمين ، وأنهم هزموا هزيمة شديدة وفقدوا ألوفاً كثيرة ، ووقع أوباس في أيدي مواطنيه فعاقبوه على خيانتهم بالموت^(٢).

وقد أتبع لنا أن نزور هذه المنطقة الوعرة — منطقة كوفاندنجا — وأن نشهد الصخرة المنيعه ، التي تقول الرواية إن پلايو وأصحابه امتنعوا في مغارها ، والتي تثوى في جانب منها إلى اليوم رفات پلايو . والحق أننا شهدنا من الوادى الذى تشرف عليه الصخرة ، والذي يقال إن المسلمين رابطوا فيه لمحاصرة النصارى ، أروع منظر يمكن تصويره من الصخور الوعرة ، والآكام الرفيعة المدببة ، وأدركنا كيف عجز المسلمون عن اقتحام مثل هذا المعقل المنيع .

ولما رأى المسلمون وعورة الهضاب وقسوة الطبيعة ، ارتدوا عن جليقية محترقين شأن هذه الشرذمة الممزقة الجائعة . فقويت لذلك نفس پلايو وأصحابه ، وانضم إليهم كثير من النصارى في كانتابريا وسهول جليقية ، واختاروه ملكاً عليهم لما رأوا من بسالته وبراعته وقوة عزمه ، وألنى پلايو الفرصة سانحة لتوطيد سلطانه وتوسيع أملاكه ، فأخذ يغير على الأراضى الإسلامية الشمالية ، وبدا لحكومة الأندلس خطر هذه العصابات الجبلية التي أخذت تنظم إلى قوة يخشى بأسها . ولكن اضطراب الشئون الداخلية حال مدى حين دون مطاردتها وغزوها . وفي سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) فى عهد أمير الأندلس الهيثم بن عبيد ، بعث حاكم ولاية البرنيه وهو يومئذ الزعيم المسلم الذى تعرفه الرواية النصرانية باسم

(١) أخبار مجموعة ص ٢٨ ؛ وكذلك Dozy : Hist , II. p.129

(٢) Cardonne : ibid , I. p. 109, Aschbach : ibid; I. p. 145

منوسة أو مونس - جيشاً إلى جبال أشتوريش لغزو جليقية وسمح أميرها
بلايو . ولكن بلايو استطاع أن يصمد للمسلمين كرة أخرى ، وأن يهزمهم
هزيمة شنيعة . ولما رأى بلايو منعة معقله وقوة عصبته ، اخترق بسكونية وهاجم
قوات المسلمين في الوقت الذي كانت تتأهب فيه للسير إليه ، ومزق بعض
وحداتها ، ثم ارتد إلى هضابه فاستعصم بها . ولما اضطربت شئون الأندلس
بعد مقتل أميرها عبد الرحمن الغافقي وارتداد جيشه في بلاط الشهداء (١١٤ هـ -
٧٣٢ م) ، وشغل الولاة برد جيوش الفرنج ، عن الأراضي الإسلامية في
سبانيا ، كثرت غارات العصابات الجليقية على الأراضي الإسلامية في شمال
نهر دوبرة (دورو) وفي منطقة أستورقة ، وعانى المسلمون في تلك الأنحاء كثيراً
من عيث النصارى . ولما تولى عقبة بن الحجاج حكومة الأندلس في سنة ١١٦ هـ
(٧٣٤ م) ، ورأى خطر العصابات الجليقية وشدة عيها في الأراضي الإسلامية ،
سار إلى جليقية وغزاها مرة أخرى في سنة ٧٣٥ أو ٧٣٦ م (١١٨ هـ) واستولى
على بعض مواقعها ، ولكن النصارى امتنعوا كعادتهم في الجبال ولم يبلغ عقبة منهم
أمراً . ولما اضطرت الأندلس بالفتن ونشبت الحرب الأهلية ، بين مختلف الزعماء
والقبائل ، ازداد النصارى جرأة وتحرشاً بالمسلمين وغيثاً في أراضيهم ، ولم تستطع
حكومة قرطبة أن تسعفهم بالعون والمدد لاشتغالها بالشئون الداخلية . وكانت
سلطة الحكومة المركزية ضعيفة في تلك الأنحاء النائية ، وكان سكانها ومعظمهم
من البربر ، يكترون من الخروج والثورة سخطاً على العرب ، واستثارهم بالحكم
والسيادة . وكان النصارى من رعايا حكومة قرطبة ، يدسون الدسائس ويرتكبون
شتى الخيانات ، ويشجعون بذلك بلايو وعصبته على الإغارة والعيث في أراضي
المسلمين ، وكانت الإمارة النصرانية الناشئة تنمو خلال ذلك ويشدد ساعدها ،
ويهرع النصارى إلى لواء بلايو من مختلف الأنحاء .

ويقول العلامة ألتاميرا : « كان كفاح بلايو وزملائه الأشراف ، يرجع
إلى الرغبة في استرداد جزء من الأراضي المفقودة ، ومن جهة أخرى فإن احترام
الفاحين لدين المغلوبين وعاداتهم ، لم يجعل في البداية للمعركة لوناً دينياً أو عنصرياً ،
بل كان مدارها من جانب الأشراف ورجال الدين : استرداد الأملاك وشيء
من هبة الملك » (١) .

واستمر بلايو في حكم إمارة جليقية زهاء تسعة عشر عاماً ، وتوفي سنة ٧٣٧ م . ولكن بعض الروايات النصرانية تضع تاريخ وفاته بعد ذلك ، فتقول إنه لبث حتى ولاية عبد الرحمن بن يوسف الفهرى للأندلس (١٢٧ - ١٣٧ هـ) (٧٤٥ - ٧٥٥ م) ، وأن الموقعة التي نشبت بين منوسة وبلايو كانت بين سنتي ٧٤٦ و ٧٥١^(١) ، وهي رواية ظاهرة الضعف ، لأن منوسة قتل في سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) كما قدمنا ، والرواية الإسلامية واضحة دقيقة في ترتيب الوقائع والتواريخ في هذا الموطن . وخلف بلايو ولده فاقيل ، ولكنه توفي بعد حكم لم يطل أمده سوى عامين (سنة ٧٣٩ م) . وكان اللوق پتروس أمير كانتاريا قد توفي في ذلك الحين أيضاً ، وخلفه ولده ألفونسو دوق كانتاريا ، ونمت هذه الإمارة النصرانية الصغيرة أيضاً واشتد ساعدها ، وقويت أواصر التحالف بينها وبين جليقية بزواج أميرها ألفونسو من ابنة بلايو واسمها أرموزندة أو هرمزندة . فلما توفي فاقيل ولد بلايو ، اختار الخلافة ألفونسو دوق كانتاريا ملكاً عليهم ، واتحدت الإمارات ، وقامت منهما مملكة نصرانية واحدة ، هي مملكة ليون النصرانية أو مملكة جليقية في الرواية الإسلامية ، وتمتد من بلاد البشكنس شرقاً إلى شاطئ المحيط غرباً ، ومن خليج بسكونية شمالاً إلى نهر دويرة جنوباً ، وتشمل مناطق شاسعة من القفر والهضاب الوعرة ، وتحتجب وراء الجبال بعيدة عن سلطان المسلمين وغزواتهم^(٢) .

ويعتبر ألفونسو دوق كانتاريا ، أو ألفونسو الأول الملقب بالكاثوليكي مؤسس المملكة النصرانية الشمالية ، وأصل ذلك الثبت الحافل من ملوك قشتالة^(٣) ، الذين لبثوا قروناً يدفعون حدودهم إلى الجنوب تبعاً في قلب المملكة الإسلامية ، ثم انتهوا بالقضاء عليها والاستيلاء على غرناطة آخر معاقلها (١٤٩٢ م) . وحكم ألفونسو في ظروف حسنة ، فقد كانت الحرب الأهلية تمزق الأندلس ، وكان أمر الولايات الشمالية فوضى ، والضعف يسود المسلمين في تلك الأنحاء ، وكان ثمة منطقة عظيمة من القفر والخراب تفصل بين جليقية وبين الأراضي الإسلامية ، فاجتاحها ألفونسو بجموعه ، وقتل من بها من المسلمين القلائل ، ودفع النصراني

(١) Aschbach : ibid , I. p. 148—149

(٢) Dozy : Hist., V. II. p. 130 و Aschbach : ibid , I. p. 152

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩ .

إلى الشمال . ولما حل القحط بالأندلس (سنة ١٣٣ هـ - ٧٥٠ م) واشتد عصفه بالولايات الشمالية الغربية ، جلا كثير من المسلمين عن تلك الأنحاء ، واشتد ساعد النصارى فيها ، ورفعوا لواء الثورة ، وفتكوا بالمسلمين ، ونادوا بألفونسو ملكاً عليهم^(١) ، وانتهز ألفونسو الفرصة فغزا أستُرقة واستولى عليها من يد المسلمين ، واستولى على كثير من البلاد والضياح المجاورة ، وضمها لأملاكه (١٣٦ هـ - ٧٥٣ م) . وهكذا نمت تلك المملكة النصرانية التي نشأت في ظروف كالأساطير واتسعت حدودها ، واشتد بأسها بسرعة مذهشة ، ولم يأت منتصف القرن الثامن حتى بدأت تناهض الإسلام في الأندلس وتغالبه ، وتغير على معاقله وأراضيه . وعهد ألفونسو بإمارة كانتابريا وهي القسم الشرقى من مملكته ، إلى أخيه فرويلا (أو فرويلة) ، فكان يغير أيضاً على الأراضي الإسلامية المجاورة ، ويعيث فيها قتلاً ونهباً وسبياً ، ثم يعود مسرعاً إلى الجبال خشية أن يلحق به المسلمون . بيد أن المسلمين كانوا يومئذ في شغل شاغل من الفتنة والحروب الداخلية ، وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهري أمير الأندلس يعنى يومئذ بقمع الثورة في الشمال ، فانتهاز ألفونسو تلك الفرصة وغزا مدينة لُك (لوجو) الحصينة وهي أقصى معاقل المسلمين في الشمال الغربي وافتتحها (سنة ١٣٧ هـ - ٧٥٤ م) ، وكان يوسف قد انتهى من إخضاع الثورة في الشمال ، وأراد إنجاد المدينة المحصورة ، فجاءته الأنباء بمقدم عبد الرحمن الأموى ، فهرول إلى الجنوب وترك لُك لمصيرها . وكان أيضاً قد أرسل قبل أن يغادر الشمال قوة من جنده بقيادة الحصين بن الدجن وسليمان بن شهاب لإنجاد ثغر أربونة ، الذى كان يحاصره الفرنج يومئذ ، ففاجأها النصارى قبل أن تعبر البرنيه ، ونشبت بين الفريقين معركة مزق فيها المسلمون وقتل قائدهم سليمان بن شهاب ، وارتد فلهم إلى الجنوب (سنة ٧٥٦ م)^(٢) . والظاهر أن الذى هاجم المسلمين في تلك الموقعة هو فرويلا وحلفاؤه أو رعاياه البشكنس . وعبر ألفونسو نهر دويرة (دورو) غير مرة ، وعاث في أراضي المسلمين مراراً ، وكان يقتل كل من وقع في يده من المسلمين ، ويسوق النصارى معه إلى الشمال . ولبت مع أخيه فرويلا كلَّ يعمل من جانبه على توسيع المملكة

(١) أخبار مجموعة ص ٦١ و ٦٢ .

(٢) راجع ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٥٨ ؛ وكذلك Aschbach : I. ibid ; I.p. 155

والهواش .

النصرانية ، حتى توفي فرويلا سنة ٧٦٤ م (١٤٦ هـ) ، وتولى أخوه ألفونسو من بعده حكم المملكة كلها ، ولكنه لم يعيش طويلا ، وتوفي في العام التالي (٧٦٥ م)^(١) فخلفه ابنه فرويلا الأول . وكان عبد الرحمن الأموي يكرس كل جهوده وقواه لقمع الثورة الخطيرة التي نظمها العلاء بن مغيث باسم الدعوة العباسية ، فرأى فرويلا الفرصة سانحة لغزو الأراضي الإسلامية^(٢) فعبّر نهر دويرة في جيش ضخم وغزا لك وبرتقال وشكمنقة وشقوبية وآبله وسمثورة وقشتالة^(٣) ، واستولى عليها من المسلمين ، وعاث في تلك المنطقة سفكاً وتخريباً وضمها إلى أملاكه ، فصارت جزءاً من مملكة جليقية ، حتى استعادها المسلمون بعد ذلك بنحو قرنين في عهد الحاجب المنصور . وتختلف الرواية الإسلامية في تعيين تاريخ هذه الغزوة فيضعها ابن الأثير قبل ذلك بأعوام في حوادث سنة ١٤٠ هـ (٧٥٨ م) ويقول إن الذي قام بها هو تدويلية (تدقيليا) ابن أذفنش (ألفونسو) ، ولكن ألفونسو توفي بعد ذلك كما رأينا^(٤) ، ويضعها ابن خلدون بعد سنة ١٤٢ هـ وهي التي يعينها تاريخاً لوفاة ألفونسو ، في عهد فرويلا ، وقد تولى فرويلا الملك بعد وفاة أبيه حسباً تقول الرواية النصرانية في سنة ٧٦٥ م (١٤٧ هـ)^(٥) . وعلى أي حال فقد كانت هذه الغزوة أعظم فتح قام به النصارى يومئذ في الأراضي الإسلامية ، بعد افتتاح الفرنج لسبانيا واستيلائهم على أربونة أمنع مواقع ولاية « الثغر » قبل ذلك بأعوام قلائل .

وهنا ظهر خطر المملكة النصرانية واضحاً جلياً . ولم يكن عبد الرحمن الأموي بغافل عن ذلك الخطر ، وكان رغم اشتغاله المتواصل بقمع الثورة والفتن الداخلية ، يتحين الفرص لدرئته ، ففي سنة ١٤٨ هـ (٧٦٦ م) أرسل بعض قواده إلى

(١) يضع ابن خلدون (ج ٤ ص ١٨٠) وفاة ألفونسو (أذفنش) في سنة ١٤٢ هـ (٧٦٠ م) .
(٢) ينسب أنبياخ هذه الغزوة لفرويلا الكبير (ج ١ ص ١٥٦) معتمداً على رواية رديك الطليطل ، ولكن الرواية الإسلامية وهي أقدم من ذلك ، تجمع على أنها وقعت بعد ذلك في عهد فرويلا ابن الفونسو .

(٣) تراجع الأسماء الفرنجية لهذه الأماكن في جدول الأعلام التاريخية والجغرافية الملحق بنهاية الكتاب .

(٤) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٦ .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٢ و ١٨٠ ؛ وكذلك المقرئ عن ابن حبان في نفح الطيب

ج ١ ص ١٥٥ .

الشمال على رأس قوة كبيرة ، فسارت حتى حدود جليقية ، واشتبكت مع النصارى والعصاة في عدة مواقع ، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى^(١). وفي سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) بعث عبد الرحمن جيشاً بقيادة موله بدر إلى ألبه والقلاع^(٢) ، وهي المنطقة الواقعة بين بلاد البشكنس وجبال كانتابريا ، على ضفاف نهر إيبرو في الطرف الشرقي من مملكة جليقية ، فغزاها وتوغل فيها وأرغمها على أداء الجزية ، وقبض على كثير من العصاة في تلك الأنحاء^(٣) . وتقص الرواية النصرانية علينا بعد ذلك نبأ موقعة كبيرة وقعت بين المسلمين والنصارى في بونتومو من أعمال جليقية ، وتقول لنا إن عبد الرحمن أرسل في سنة ٧٧٣ م (١٥٧ هـ) جيشاً كبيراً إلى الشمال بقيادة حاجبه عامر ، أو تمام بن علقمة على يظهر ، فلقى النصارى بقيادة فرويلا في بونتومو ، ونشبت بين الفريقين موقعة هائلة ، هزم فيها المسلمون وقتل منهم عدد عظيم تقدره الرواية بأربعة وخمسين ألفاً وأسر قائدهم^(٤). ولم تشر الرواية المسلمة إلى أن موقعة بهذه الخطورة نشبت بين المسلمين والنصارى ، ولاسيا في هذا التاريخ ، الذي كان عبد الرحمن مشتبكاً فيه مع الدعي الفاطمي في معارك تقتضي كل جهوده وموارده ، والرواية النصرانية تبدى كعادتها في هذا الموطن مبالغة تسبغ عليها كبير ريب .

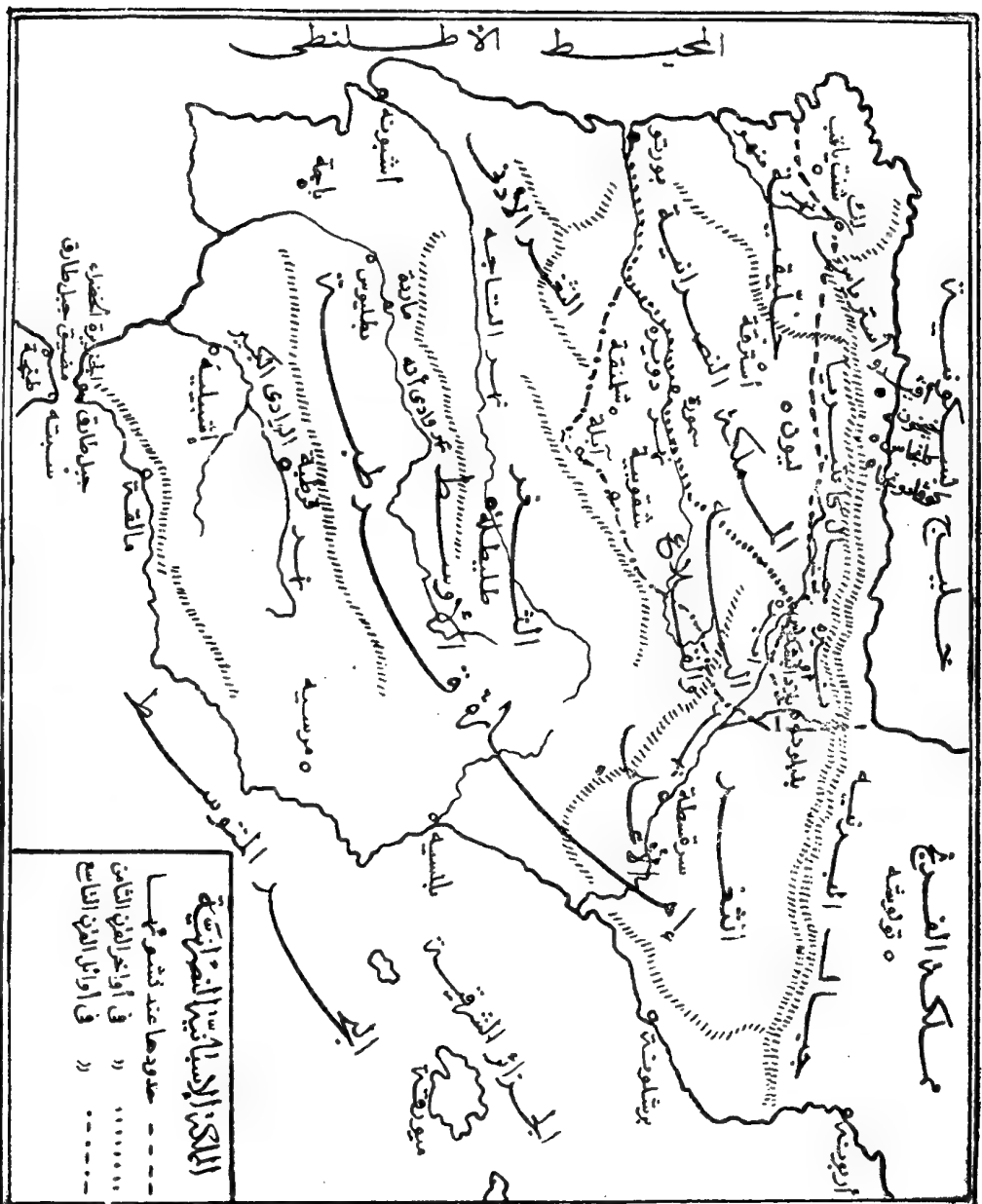
وكان فرويلا طاغية شديد البطش ، ولم يكن حكمه موقفاً ، فقد اضطربت في جليقية الغربية نار ثورة كبيرة أيدها المسلمون فيما يظهر ، وأخذها فرويلا بعد جهد ، ولكنه فقد كثيراً من أرضه التي افتتحها في تلك الأنحاء ، وعادت إلى

(١) Conde : *Ibid* , I. p. 207

(٢) تطلق الرواية الإسلامية اسم « ألبه والقلاع » على ولايتي قشتالة القديمة *Alava* و *Castile* وألفا *Alava* معربة عن اللاتينية القديمة *Alava et Castella Vetula* . وكانت « ألبه والقلاع » تشمل في العصور الوسطى ، جميع المنطقة الواقعة بين نهر دويرة جنوباً والبحر شمالاً ، وبين نافار (بلاد البشكنس) وأراجون (الثغر الأعلى) شرقاً ومملكة ليون غرباً ؛ وألبه هي في الواقع إحدى ولايات بلاد البشكنس ، وتمتد غرباً حتى « برغش » وشمالاً حتى خليج بسكونية ، وجنوباً حتى نهر إيبرو . وأما « القلاع » أو قشتالة *Castella* أو *Castile* فقد كانت تشمل باقي المنطقة من برغش شمالاً إلى ما بعد نهر دويرة (الدورو) وجبال واد الرملة *Quadarrama* جنوباً ، وحتى موقع مدينة مدريد عاصمة إسبانيا الحديثة .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٥٦ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ .

(٤) *Aschbach: Ibid* ; I, p. 159 والمواش



المسلمين ، ونشبت ضده في نافار في الشرق ثورة أخرى ، فأخذها بشدة ، واجتاح نافار وأخضعها ، وكان من أسراه في تلك المعارك فتاة حسناء من أسرة كريمة تدعى مونيا فأحبها وتزوجها ، ورزق منها بولده ألفونسو ، الذي تولى العرش فيما بعد ، وكان مسرفاً في الانتقام والسفك ، قتل كثيراً من أفراد أسرته وقتل أخاه بيده ، وكان الشعب يبغضه ويلتف حول «أورليوس» ابن عمه فرويلا . وأنشأ فرويلا مدينة أوبييدو التي غدت فيما بعد حاضرة جليقية ، ولكنه لم يتخذها قاعدة للحكم ، ولبت في مدينة كانجاس حاضرتها الأولى ، حتى هلك قتيلاً في ثورة جديدة نشبت سنة ٧٧٥ م^(١) .

ولما توفي فرويلا كان ولده من مونيا ألفونسو طفلاً ، فافترقت كلمة الشعب ، وانحازت منه أغلبية كبيرة إلى أورليوس أو أورالي^(٢) ولد فرويلا أخى ألفونسو الأول واختارته للملك ، ولكنه لم يحكم إلا في الولايات الشرقية في نافار ويسكونية ، حيث كان يحكم أبوه من قبل ، وانحازت جليقية الغربية إلى سيلو أو شيلون^(٣) زوج أروزندا ابنة ألفونسو الأول ، وانقسمت المملكة بذلك إلى إمارتين . ولكنهما تهادنتا ولم تقع بينهما حرب ولا منافسة . وفي سنة ٧٧٨ م غزا شارلمان بلاد البشكنس في طريقه إلى سرقسطة حسباً قدمنا ، فاضطر أورليوس أن يسعى إلى محالفة المسلمين . ولم تقع في ذلك الحين فيما يظهر حروب بين المسلمين ومملكة جليقية ، لاشتغال كل منهما بشئونه الخاصة . وتوفي أورليوس سنة ٧٨١ م ، فاختر البشكنس مكانه سيلو لأن ألفونسو ولد فرويلا كان لا يزال طفلاً ، واتحدت المملكة مرة أخرى . ولبت سيلو ملكاً على جليقية المتحدة ثلاثة أعوام أخرى ، وفي عهده عقد الصلح بين المسلمين والنصارى . ولكن نشبت بعض ثورات محلية في جليقية نجح في إخمادها ، وتوفي بعدئذ بقليل سنة ٧٨٤ م^(٤) . وتوفي سيلودون عقب ، ولكنه أوصى بالملك لألفونسو ولد فرويلا الطفل

(١) يضع ابن خلدون وفاة فرويلا في سنة ١٥٨ (٧٧٥ م) متفقاً بذلك مع الرواية النصرانية (ج ٤ ص ١٨٠) .

(٢) هكذا تسميه الرواية العربية وهي تعتبره ملكاً لجليقية كلها (راجع ابن الأثير ج ٦ ص ١٢)

(٣) وهو اسمه في الرواية العربية . ويعتبره ابن خلدون خطأً ولد فرويلا الكبير

(ج ٤ ص ١٨٠) .

(٤) يضع ابن خلدون وفاة سيلو أو شيلون سنة ١٦٨ هـ (٧٨٤ م) متفقاً أيضاً مع الرواية

النصرانية (ج ٤ ص ١٨٠) . وكذا ابن الأثير (ج ٦ ص ٢٢) .

وبالوصاية عليه لزوجته أروزندا . ولكن الأشراف لم يرضوا عن حكم طفل وامرأة ، وانضم إليهم فريق من الشعب ، ولم تلبث جليقية أن اضطربت بثورة قوية على رأسها زعيم يدعى مورجات — وفي الرواية العربية مورقاط — وهو ولد غير شرعى لألفونسو الأول من جارية عربية ، فاستولى على جليقية الغربية ، وانضم إليه كثير من الأشراف والزعماء الذين اشتركوا في محاربة فرويلا خشية أن يستقر الملك لابنه فيبطش بهم فيما بعد ، ففر ألفونسو إلى ألبه حيث عصبة أمه وعشيرتها ، وقد كانت بسكونية حسبا تقدم . ورأى مورجات أن يوطد مركزه وسلطانه بالتحالف مع المسلمين ، وتحالف حزب ألفونسو مع الفرنج أعداء المسلمين ، واتخذ مورجات قاعدة حكمه في مدينة براهيا في قاصية جليقية . وكان رجال الدين ومن إليهم من النصارى والمتعصبين يبغضونه ويثيرون الشعب عليه ، لأنه بالغ في التودد إلى المسلمين والتقرب إليهم ، ولأنه يمت إليهم بصلة الدم بواسطة أمه العربية . ولكنه استطاع مع ذلك أن يحكم مملكته الصغيرة حتى وفاته في سنة ٧٨٩ م^(١) .

وتشير الرواية العربية إلى طرف من هذه الحوادث ، وتقول لنا إن مورقاط (مورجات) وثب على أذفنش (ألفونسو) فقتله ، ولكن ألفونسو لم يقتل كما قدمنا . وسرى أنه يتولى الملك ويخوض مع المسلمين في الأعوام التالية كثيراً من الوقائع . وتقول الرواية العربية أيضاً ، إن المسلمين انتهزوا فرصة الاضطراب الذى وقع في جليقية ، من جراء هذه الحوادث ، فسار إليها وإلى طليطلة وغزاها وأثنى فيها^(٢) ، وهذا ما لا تشير إليه الرواية النصرانية . والظاهر أن المسلمين أغاروا على ألبه والقلاع ، لأنهم كانوا على وئام وتحالف مع مورقاط أمير جليقية . ووقعت هذه الغزوة حسبما تشير الرواية العربية حوالى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٦ م) أعنى في أواخر عهد عبد الرحمن الداخل .

وكان طبيعياً بعد أن توفى مورجات عميد الثورة ومغتصب الملك ، أن يعود العرش إلى صاحبه الشرعى ، أعنى ألفونسو ولد فرويلا . ولكن الأشراف لبثوا

(١) Aschbach : ibid , I. p. 165—166

(٢) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٢٢ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٨٠ ، ويسمى مورقاط هنا بسمول قاط وهو تحريف نسخ أو خطأ مطبعى على ما يظهر .

في توجسهم من نقمة ألفونسو ، واختاروا للملك برمند (أو برمودو) ، وهو ولد لفرويل وأخ لأروليبوس ، الذى تولى إمارة البشكنس من قبل . وكان قد هجر الحياة الدنيا إلى عزلة الدير ، فتولى الملك على غضاضة منه ، ولكنه لم يحكم على ما يظهر إلا فى غربى جليقية ، حيثما كان يسود نفوذ مورجات ، ولبت ألفونسو أميراً على الأنحاء الشرقية . وفى ذلك الحين كان أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن يتأهب لغزو الشمال ، فخشى برمند خطر الإنقسام على مستقبل المملكة ، وعقد الصلح مع ألفونسو وولاه قيادة الجيش ، ولم تمض ثلاثة أعوام حتى ضاق ذرعاً بعمهم الملك فتنازل عن العرش مختاراً لألفونسو ، وارتد إلى حياة الدير والعزلة ، وتولى ألفونسو الملك فى أواخر سنة ٧٩١ م (١٧٥ هـ)^(١) باسم ألفونسو الثانى . وبذلك عادت المملكة النصرانية إلى اتحادها مرة أخرى .

وفى أواخر عهد ألفونسو الثانى ، الملقب « بالعفيف » el Casto ، وقع حدث دينى كان له فيما بعد أثر عميق فى توجيه مصائر المملكة النصرانية ، هو اكتشاف قبر القديس ياقب ، وهو القديس يعقوب أو يعقوب الحوارى . وتذكر الأسطورة أنه لما قتل بأمر هيرود الثانى ملك بيت المقدس ، حمل تلاميذه جثته فى مركب جاز به البحر المتوسط إلى المحيط ، ثم حملتهم الرياح شمالاً حتى انتهوا إلى موضع فى قاصية جليقية ، ودفنوا جثمان القديس فى سفح تلال هنالك . ومضت العصور ، وغاض القبر ولم يعلم مكانه ، حتى كانت سنة ٨٣٥ م ، حيث زعم القس تيودمير أسقف إيريا أنه اكتشف القبر ، هداه إليه ضوء نجم ، وحل النبأ فى الحال إلى الملك ، فأمر أن يبنى فوق هذه البقعة كنيسة ، وذاعت الأسطورة فى جميع الأنحاء ، وصدقها المؤمنون دون تردد ، وهرعوا يحجون إلى البقعة المقدسة ، وقامت حول المزار المزعوم مدينة نمت بسرعة ، وغدت مدينة شنت ياقب Santiago de Compostela المقدسة ، وأنشئت فيما بعد فوق القبر مكان الكنيسة الساذجة كنيسة جامعة (كتدرائية) ، غدت من أعظم كنائس اسبانيا ضخامة وروعة وفخامة . وكان لقيام هذه المدينة المقدسة أثر كبير فى إذكاء الحماسة الدينية والعاطفية القومية فى إسبانيا ، وغدا القديس ياقب

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٠ ، وهو يتفق هنا مع الرواية النصرانية فى الوقائع والتواريخ

« حامي » اسبانيا كلها ، وغدا قبره من أشهر المزارات النصرانية في أوروبا .
وينوه الأستاذ ألتاميرا بأهمية هذا الحدث الديني ، وأثره في حضارة هذه
المنطقة من اسبانيا ، فيقول : « وقد بعث هذا الاكتشاف في النصراني أيما سرور ،
وانتظمت وفود عظيمة ، جاءت لتحجج إلى القبر ، لا من الأراضي الإسبانية
وحدها ، ولكن من الخارج أيضاً ؛ وهكذا بدأ تيار من الزيارات والمؤثرات
الأوروبية في جليقية ، وكان لها أعظم تأثير في العادات والآداب » (١) .

وقد أتبع لنا أن نزور مدينة شنت ياقب ، وهي من أعجب وأجمل المدن
الإسبانية ، ذات طابع خاص بها ، وهي أشد المدن الإسبانية احتفاظاً بهذا الطابع
الخاص . وطابعها القدم المشيع بالجلال والوقار ، وهي تبدو بشوارعها المعقودة ،
ومبانيها التي تغص بالصروح التاريخية ، مدينة قديمة عريقة حقاً . وأروع
ما تقع عليه العين كنيستها العظمى ، التي تهيمن في وسطها ، وتبدو بواجهاتها الفخمة
وصرحها الشامخ ، وبرجها العظيم ، أثراً من أعظم الآثار الدينية .

وقد نشأت هذه المملكة النصرانية الشمالية ، مستقلة في ظروفها وفي خواصها ،
ولبثت آماداً طويلة بعيدة عن الإنصال بالأمم النصرانية الأخرى ، ولم تنشأ
بينها وبين جيرانها المسلمين علائق سياسية أو اجتماعية قوية تؤثر في نظمها وخواصها ،
فاستمرت تحتجب بوعر الجبال وعباب المحيط ، تسود فيها روح المملكة القوطية
القدمية ونظمها ، واستمر الحلالقة دهرأ ينتسبون إلى القوط ، ويسمون أنفسهم
قوطاً ، وتسير حكوماتهم على سنن السياسة القوطية ونظمها ، فالعرش مطلق
يقبض على زمام السلطين التشريعية والتنفيذية ، ولا يستطيع الأشراف الحد من
سلطانه إلا بالثورة ، أو باستعمال حقهم في الانتخاب ، واستمرت خواص المجتمع
القديم كما كانت أيام القوط : أقلية غنية قوية تستأثر بنعم الثروة والجاه ، وأكثورية
فقيرة مستعبدة ترزخ تحت جور العرش ، واستغلال الأشراف والسادة ، بيد أن
هذه الأكثورية استطاعت أن تشق طريقها إلى الحرية ، حينما اشتدت معركة الحياة
والموت بين الإسلام والنصرانية في اسبانيا ، واضطرت المملكة أن تلجأ إلى
الأكثورية للذود عن حدودها وحياتها ، وانقلب الرقيق القديم جنداً يثور ضد

(١) R. Altamira: Hist. de Espana; Vol. I, p. 289

وتعرف الرواية الإسلامية هذه الأسطورة وتشير إليها . راجع الروض المطار (صفة جزيرة
الأندلس) ص ١١٥ .

سأده ، وبرعهم على احترامه ومصانعه . هكذا نشأت المملكة النصرانية الشمالية ، ونمت واتسعت حدودها فيما بين الجبال والقفز ، حتى أصبحت تمتد من بلاد البشكنس شرقاً إلى المحيط غرباً ، ومن المحيط شمالاً إلى ما بعد ضفاف نهر دويرة جنوباً ، وتشمل عدة مناطق وقواعد ، كانت قبل ذلك بفترة يسيرة في قبضة الإسلام .

وهنا نقف في تتبع أخبار المملكة النصرانية عند هذا الحد ، لنستأنفه في مواطنه فيما سيأتى .

الفصل الثامن

هشام بن عبد الرحمن والحكم بن هشام

(١) ولاية العهد . هشام يخلف أباه عبد الرحمن . خلاله . خروج أجويه سليمان وعبد الله . خضوع عبد الله . مطاردة سليمان وعبوره إلى المغرب . الثورة في الشمال . إخمادها . عدوان النصارى . غزو جليقية وهزيمة النصارى . غزو المسلمين لشجر الفرج . موقف حكام الشمال وانحرافهم إلى الفرنج . الاستيلاء على جرندة ومحاصرة أربونة . موقعة قبل دنى بين المسلمين والفرنج . غزو جليقية ثانية . هزيمة الجلائقة . وفاة هشام . حزمه وتقواه . منشأته بقرطبة . شغفه بالجهاد . إعزازه للغة العربية . نفوذ الفقهاء في عهده . انتشار مذهب مالك بالأندلس . (٢) الحكم بن هشام وخلافه . محاربته لنفوذ الفقهاء وسخطهم عليه . غزوة ألبه والقلاع . الثورة في سرقسطة . عود سليمان وعبد الله على الحكم إلى الثورة . استنصار عبد الله بشارلمان . غزو الفرنج لشجر الأعلى ثم انسحابهم . هدوء الثورة في الشمال . الحرب بين الحكم وعمه سليمان . هزيمة سليمان وإعدامه . خضوع عبد الله . سياسة الفرنج نحو إسبانيا المسلمة . تحرشهم بالملكية الإسلامية . موقف الخلافة العباسية من هذه السياسة . اتحاد الغاية بينها وبين الفرنج . إنتهاز الفرنج لاضطراب الحوادث الداخلية . غزوهم لشجر الأعلى ومحاصرتهم لبرشلونة . دفاع المسلمين الباسل عنها . سقوطها في أيدي الفرنج . إنشاء الفرنج لشجر القوطى . ائثار الفقهاء والأعيان بالحكم . اكتشاف المؤامرة وسحقها . الثورة في ماردة . الثورة في طليطلة . تعيين عمرو بن ابن يوسف حاكماً لها . واقعة الحفرة . حصار الفرنج لطرطوشة . تحرك نصارى الشمال . عيهم في أراضي المسلمين . سير الحكم لمحاربتهم . غزو المسلمين لقطلونبة . عقد الهدنة بين الحكم وشارلمان . بواعث هذا الصلح . اثورات المحلية . القحط في الأندلس . غزو المسلمين لجليقية . سخط أهل قرطبة على الحكم . تحريض الفقهاء . تحرك العامة وزحفهم على القصر . واقعة الربض . إخماد الثورة وتمزيق الثوار . معاقبة أهل الربض ونفيهم . سير الأندلسيين إلى الإسكندرية وافتتاحهم لإفريقيطس . بلاغ الحكم عن الثورة وشمره فيها . تحولاته بعد إخمادها . مرض الحكم ووفاته . وصيته لولده همد الرحمن . أخلاق الحكم وصفاته . توطيده لطيبة الملك . إصطنافه للصقالبة . أهله وفخامته . شعره . رجال دولته . الحاجب عبد الكريم . قومس أهل الذمة . ازدهار العلوم والآداب . عباس بن فرناس ويحيى الغزال .

خلف عبد الرحمن الداخل ولده هشام بعهد منه ، ولم يكن أكبر ولده ، بل كان أكبرهم سليمان والى طليطلة ، ولم يك يومئذ ثمة نظام خاص لولاية العهد ، بل كانت ولاية العهد كما هو مأثور ، حقاً مفوضاً للأمير أو الإمام ، يجريه وفقاً

للمصلحة العامة^(١)، ولم يكن انحصاره في ولد الأمير أو أسرته ، سوى تقليد من تقاليد السياسة والعصبية ، سارت عليه الدولة الأموية ، فوضعت بذلك في الدول الإسلامية أسس الأسر الملكية ، والعروش المتوارثة . وكان من الطبيعي بعد أن ظفر عبد الرحمن الأموي ، بإحياء تراث أسرته المندثر في المشرق ، أن يصل ما انقطع ، وأن تقوم من هذا الفرع الأموي ، أسرة ملوكية جديدة تتعاقب في العرش ، وتعيد بالأندلس مجد الدولة الأموية الذاهب .

وهكذا اختار عبد الرحمن لولاية العهد من بين بنيه الأحد عشر ، ولده هشاماً ، وآثره بهذه الاختيار لما توسمه فيه من المزايا والمواهب الخاصة . وكان مولده بقرطبة في سنة ١٣٩هـ - ٧٥٦م^(٢) . وكانت أمه - وهي « أم ولد »^(٣) بارعة في الحسن تدعى « حلل »^(٤) - أحب نساء عبد الرحمن إليه ، وأكثرهم نفوذاً لديه ، وكان هشام حينما توفي أبوه مقبلاً بماردة مقر ولايته ، فأخذ البيعة له أخوه عبد الله المعروف بالبلنسي ، ولكن على غضاضة منه ، لأنه مثل أخيه سليمان ، كان يرى نفسه أحق بولاية العهد من أخيه الأصغر . ودخل هشام قرطبة لأيام قلائل من وفاة أبيه ، وبويع في مستهل جمادى الأولى سنة ١٧٢هـ (٧٨٨ م) ، وكان حينما ولي العرش في الثالثة والثلاثين من عمره ، بيد أنه كان عاقلاً حازماً وافر الشجاعة والعزم ، كثير العدل والتقوى ، جم التواضع والرفق . وتشيد الرواية الإسلامية بمجمل خلاله ، وتنوه بالأخص بورعه ، وتواضعه ، وحبه للخير ، فيقول لنا ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد إنه « كان أحسن الناس وجهاً ، وأشرفهم نفساً ، الكامل المروءة ، الحاكم بالكتاب والسنة ، الذي أخذ الزكاة على حلها ، ووضعها في حقها ، لم يعرف عنه هفوة في حديثه ، ولا زلة في أيام صباه » . وقيل بلغ من تواضعه أن كان يطوف شوارع قرطبة مختلطاً بالرعية يسمع المظالم بنفسه ، ويعود المرضى ، ويشهد الجنائز ، وربما كان يخرج في الليالي المظلمة الممطرة ، فيلقى بصرر المال في المساجد لمن وجد فيها بغية تعميرها بالمصلين ،

(١) يعقد ابن خلدون في مقدمته ، فصلاً عن ولاية العهد في الأمة الإسلامية ، (ص ١٧٥ وما بعدها) .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٢ ؛ وابن الأبار في الحلة السيرة ص ٣٧ .

(٣) هي الجارية إذا رزقت من سيدها بولد ، وعندئذ لا يجوز بيعها ولا هبتها .

(٤) وفي رواية « حوراء » . وفي رواية أخرى « جمال » .

ويسعى إلى غوث البائس والمسكين بمختلف الوسائل^(١). وكان يذهب مذهب عمر بن عبد العزيز ، في تحرى الحق والعدالة ، فكان يبعث إلى الكور بقوم من ثقافته ، للتحرى عن مسلك العمال وسيرهم بين الرعية ، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أسقطه واشتد في عقابه^(٢).

وكانت ولاية هشام نذير فوره جديدة من الثورات المحلية . ذلك أن سليمان أكبر أخوته لم يقر إمارته ، ودعا لنفسه في طليطلة وما جاورها ، وكذلك أخوه عبد الله البلنسى لم يخلد إلى الرضى ، بالرغم مما بذله هشام لاسترضائه ، ولم يلبث أن لحق بأخيه سليمان في طليطلة ، وتحالفا على العصيان والثورة ، وسار سليمان خفية إلى قرطبة ليحاول إضرام الثورة ضد أخيه ، فلم يظفر بشيء ، وطارده الحند ، ففر إلى ماردة وحاول أن يعتصم بها ، ولكن رده عاملها . وكان هشام قد بعث جيشاً لحصار طليطلة وإخضاعها ، ففر سليمان إلى جبال بلنسية ، ولجأ إلى بعض ثغور تدمير . ولما رأى عبد الله البلنسى ما حل بأخيه من الفشل والهزيمة ، خشى عاقبة الخروج ، وارتد إلى قرطبة يلتصق بالصفح من أخيه ، فعفا عنه هشام وأكرم مثواه ، وبعث جيشاً بقيادة ولده معاوية لمطاردة سليمان وصحبه ، فتوغل في أنحاء تدمير (مرسية) واضطر سليمان إلى طلب الأمان والعفو ، فأجابه هشام إلى طلبه ، على أن يعبر بأهله وولده إلى المغرب ، وأعطاه ستين ألف دينار صلحاً على تركه أبيه . وسار معه أخوه عبد الله ، وأقاما بعدوة المغرب ، وانتهت بذلك ثورة الأخوين (سنة ١٧٤ هـ - ٧٩٠ م)^(٣).

واعتقد ثوار الشمال في نفس الوقت أن الفرصة قد سنحت بوفاة عبد الرحمن لإضرام نار الثورة كرة أخرى ، فخرج بطرطوشة سعيد بن الحسين الأنصارى ، وكان قد التجأ إليها منذ مصرع أبيه ، والتف حوله اليمنية ، وأخرج عاملها من قبل هشام ، يوسف العيسى ، فعارضه موسى بن فرقوق في المضرية ودعا لهشام^(٤) ،

(١) راجع في التنويه بجلال هشام وصفاته ، أخبار مجموعة ص ١٢٠ و ١٢١ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٣٧ ؛ والمقد الفريد (مصر سنة ١٩٢٨) ج ٣ ص ٢٠٢ ؛ والمعجب لعبد الواحد المراكشى ص ١٠ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٧ ، وأخبار المجموعة ص ١٢٧ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٤ و ٦٥ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٤ .

وخرج أيضاً مطروح بن سليمان بن يقظان بشعر برشلونة ، والتفت حوله جموع كبيرة ، واستولى على سرقسطة ووشقة ، وقوى أمره ، وبسط سلطانه على الولاية كلها ، فسير إليه هشام جيشاً كبيراً بقيادة عبيد الله بن عثمان ، فصار إلى طرطوشة وانزعها من يد الثوار ، وحاصر سرقسطة وفيها مطروح وصحبه ، وضيق عليها الحناق حتى ضاق أهلها ذرعاً بالحصار ، وفي ذات يوم اغتال مطروحاً بعض أصحابه واحتزوا رأسه ، وقدموها إلى ابن عثمان ، فبعث بها إلى هشام ، ودخل سرقسطة ظافراً (سنة ١٧٥ هـ) (١) ، وقضى بذلك على الثورة في تلك الأنحاء .

وكان نصارى الشمال ، منذ اشتد ساعدهم ، يكثر من الإغارة على البلاد الإسلامية والعيث فيها ، ويشدد هذا العيث والعدوان كلما اضطربت الأندلس بالفتن الداخلية ، وشغلت حكومة قرطبة عن حماية الأطراف النائية . وكان الفرنج جرياً على سياستهم الماثورة ، يشجعون النصارى من البشكنس والخلالقة على مواصلة التحرش بالملكة الإسلامية ، وكان هشام كأبيه يقدر خطورة هذه الدسائس الفرنجية ، وتحذوه من جهة أخرى نزعة قوية إلى الجهاد والغزو ، فأكاد ينتهي من القضاء على الثورة الداخلية ، حتى سر إلى الشمال جيشاً قوياً من أربعين ألف مقاتل بقيادة عبيد الله بن عثمان ، فاخترق ألبه والقلاع (قشتالة القديمة) ، واجتاح جليقية ، وهزم الخلالقة بقيادة ملكهم برمودو (أو برمند) وحلفاءهم البشكنس ، ومزق جموعهم (سنة ١٧٥ هـ - ٧٩١ م) ، وعاد إلى قرطبة مثقلاً بالغنائم والسبي . ولم يمض قليل على ذلك حتى سارت إلى جليقية حملة أخرى بقيادة يوسف بن بخت ، وهزم برمودو مرة أخرى ، وقتل جموع كبيرة من النصارى ، وعلى أثر ذلك تنازل برمودو عن العرش لألفونسو الثانى ولد فرويلا ، وأمير جليقية الشرقية ، ولجأ إلى عزلة الدير .

وفي العام التالى أعنى في سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) تأهب هشام لمحاربة الفرنج ، واستثناف عهد الجهاد والغزو ، فسير إلى الشمال جيشاً كثيفاً . بقيادة حاجبه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث (٢) . فعبر البرنيه من ناحية قطلونية ، وأستولى

(١) المذرى في كتاب « ترصيع الأخبار » (ص ٢٦ و ٢٩) .

(٢) وهو حفيد مغيث الرومى فاتح قرطبة .

أثناء سيره على مدينة جيرونة (جرندة) الحصينة في قاصية شمال شرق إسبانيا ، وكان الفرنج قد استولوا عليها منذ سنة ٧٨٥ م من يد مطروح بن سليمان . وكان حكام هذه الأنحاء التي لبثت تضطرم بالثورة على حكومة قرطبة ، منذ غزوة شارلمان الأولى لإسبانيا ، قد استقلوا بما في أيديهم من المدن ، وجنحوا إلى محالفة الفرنج جيرانهم من الشمال ، والتماس حمايتهم . ومن ذلك أن أبا ثور صاحب مدينة وشقة ، الذي سبق ذكره في حوادث باب الشزرى ، بعث رسله إلى تولوشة عاصمة أكويتين يطلب التحالف من ملكها الدوق لويس ابن شارلمان (٧٩٠م) (١) . واستولى الحاجب عبد الملك بعد ذلك على عدد آخر من المعاقل والحصون ، ثم نفذ إلى سبتمانيا ، وزحف على أربونة قاعدة الثغر الإسلامى القديم . وتقول الرواية الإسلامية إن المسلمين افتتحوا خلال تلك الغزوة أربونة (٢) ، ولكن الروايات الفرنجية المعاصرة لا تذكر شيئاً عن ذلك الفتح ، وتذكر أن المسلمين أرتدوا عن أربونة لمناعتها إلى قرقشونة . وكان شارلمان (أو كارل الأكبر) ملك الفرنج يشغل يومئذ بمحاربة خصومه السكسونيين بعيداً عن فرنسا ، فتأهب ولده لويس أمير أكويتين لصعد العرب ، وأوفد لمحاربتهم جيشاً بقيادة جيوم كونت دى تولوز ، فالتقى الفريقان في مكان يسمى «قيل دنى» على ضفاف نهر أوربيننا بين أربونة وقرقشونة ، ونشبت بينهما موقعة غير حاسمة ، ارتد المسلمون على أثرها إلى الجنوب مثقلين بالغنائم والسي ، وقدرت أخماس السبي وحدها بخمسة وأربعين ألفاً من الذهب ، وأرغم الأسرى النصارى على حمل أو جر أحمال من الأحجار والتراب من سور أربونة حتى قرطبة ، وأمر هشام أن يُبنى منها جناح جديد للمسجد الجامع تخليداً لتلك الغزوة الشهيرة .

وكانت منطقة رندة ، المعروفة بإقليم «تاكرتا» ، أو «تاكرتى» (٣) ، وفيها يحتشد البربر ، مهد الفتن والقتال المتوالية . ففي سنة ١٧٨ هـ (٧٩٤ م) أثار البربر هنالك ضرام الفتنة مرة أخرى ، وخلعوا الطاعة وعاثوا في تلك الأنحاء ، فسير إليهم هشام حملة بقيادة عبد القادر بن أبان بن عبد الله ، فأخذ الثورة دون رافة ، وأباد جموع البربر ، وخرّب بلادهم وضياعهم ، وفرقهم في الأنحاء

(١) راجع R.M. Pidal : ibid, p. 203

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٥ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٤ ، ونفع الطيب ج ١ ص ١٥٨

(٣) راجع معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣٥٣ .

والقبائل تمزيقاً لعصبتهن ، وبقيت هذه المنطقة عدة أعوام قفراً خراباً .

وفي ربيع سنة ١٧٩ هـ (٧٩٥ م) سير هشام إلى جليقية حملة أخرى بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، أخى الحاجب ، فاخترق المسلمون مفاوز جليقية حتى أسترقة ، ففر السكان النصارى إلى رؤوس الجبال ، وتأهب ألفونسو ملك جليقية للقاء المسلمين ، على رأس جيش من الجلالقة وحلفائهم البشكنس ، ونشب القتال بين الفريقين في قاصية جليقية ، في المكان المعروف بالصخرة ، وانتصر الجلالقة في البداية في بعض الوقائع المحلية ، وقتل جماعة من المسلمين في كمين دبر لهم ، ولكن النصارى هزموا في النهاية ، وعاث المسلمون في جليقية ، وأصابوا كثيراً من الغنائم ، ثم ارتدوا إلى الجنوب بعد أن مزقت قوى الجلالقة وسكنوا إلى حين ، وساد الأمن في الولايات الشمالية^(١).

وكانت هذه آخر غزوة سيرها هشام ، إذ توفي عقب ذلك بقليل في الثالث من صفر سنة ١٨٠ هـ (١٨ أبريل سنة ٧٩٦ م) في نحو الأربعين من عمره ، بعد أن حكم نحو ثمانية أعوام . وكان أبيض ، أشهل ، مشرباً بالحمرة ، وبعينه حول ، وكنيته أبو الوليد ويلقب بالرضا^(٢). وفي عهده ساد الأمن والاستقرار ربوع الأندلس بالرغم مما وقع خلاله من الثورات المحلية . وكان هشام إلى جانب رفقته وتواضعه ، حازماً ، صارماً في الحق ، حريصاً على توطيد النظام والعدالة ، فلم يتردد في القبض على ابنه الأكبر عبد الملك وزجه إلى السجن لما ثبت لديه من اثمارة به ، فبقي في سجنه أعواماً طويلة حتى توفي بعد وفاة أبيه^(٣). وكان فوق شغفه بالجهاد والغزو ، محباً للإصلاح والإنشاء ، فعنى بإتمام مسجد قرطبة الجامع الذي بدأ بإنشائه أبوه وتوفي قبل إتمامه ، وأنشأ عدة مساجد أخرى ، وزين قرطبة بكثير من الأبنية والحدائق الفخمة ، وجدد قنطرة قرطبة الشهيرة التي بناها السمع بن مالك على النهر الكبير ، وأنفق في تجديدها أموالاً عظيمة ، وكان

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٦ ، وابن الأبار في الحلة السيرة ص ٧٢ . ويقول ابن الأثير

إن الذي قاد هذه الحملة هو عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث (ج ٦ ص ٤٨) . وراجع ابن

خلدون ج ٤ ص ١٢٥ .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٦ ، وابن الأبار ص ٣٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٦٢ .

(٣) ابن الأثير ج ٦ ص ٤١ .

يشرف على إصلاحها بنفسه^(١)، وعلى الحملة فقد كان عهده زاهراً ، وافر الأمن والرخاء .

وكان هشام شديد الورع والتقوى ، وكان شغفه بالجهاد وإعلاء كلمة الدين . من أخص مظاهر تقواه ، وكان ينفق الأموال الطائلة في افتداء أسرى المسلمين ، حتى لم يبق في عهده منهم في قبضة العدو أحد ، ويرتب في ديوانه أرزاقاً لأسر الجند المتوفين في الجهاد^(٢) . وفي عصره اتخذت السياسة الأموية إجراء يشهد ببعد نظرها ، إذ جعلت العربية لغة التدريس في معاهد النصارى واليهود . وكان لذلك الإجراء بالرغم من بساطته ، أثر عميق في التقريب بين أصحاب المذاهب المختلفة ، وفي بث روح التفاهم والوثام بينها ، ولا سيما بين المسلمين والنصارى ، وكان من أثره أيضاً أن كثّر اعتناق النصارى للإسلام بعد أن وقفوا على أصوله وتفصيله ، وقربت مسافة الخلف بينهم وبين الفاتحين ، ولم يكن ذلك بعيداً في الواقع عن غاية السياسة الأموية^(٣) .

وكان هشام يؤثر مجالس العلم والأدب ولا سيما الحديث والفقه على غيرها . وفي عصره ذاع مذهب مالك^(٤) . وكان الإمام مالك ، وهو معاصر لهشام ، يعجب بسيرته وخلاله ، ويشيد بعدله وتقواه ، وكانت تجمع بين الرجلين على بعد المزار عاطفة مشتركة هي بغض بنى العباس ، وكان قد رحل إلى المشرق عدة من فقهاء الأندلس ، منذ أيام عبد الرحمن الداخل ، وفي مقدمتهم زياد بن عبد الرحمن ، وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبي هند ، ويحيى بن يحيى اللبني ، فدرسوا على مالك بالمدينة ، واستقوا من علمه واجتهاده ، ونقلوا عنه كتابه « الموطأ » ، وذاع مذهب مالك على أيديهم في الأندلس في عصر هشام . وكان هشام كثير الإجلال لمالك ومذهبه ، فزاد ذلك في ذبوعه وتوطده ، وغدا مذهب أهل الأندلس الغالب ، وكانوا قبل ذلك يعملون بمذهب الأوزاعي إمام

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٨ ، وابن الأثير ج ٦ ص ٤٩ . وما تزال هذه القنطرة العربية قائمة حتى اليوم على نهر الوادي الكبير خلف الجامع الأموي ، محتفظة بمقودها القديمة ، بالرغم مما توالى عليها من ضروب الإصلاح والتجديد .

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٠ .

(٣) راجع Scott : Ibid, I. p. 433 .

(٤) الإمام مالك بن أنس ، أبو عبيد الله ، أحد أصحاب المذاهب الأربعة الشهيرة (٩٥ -

١٧٩ هـ) وترجمته في ابن خلكان ج ١ ص ٥٥٥ - ٥٧ .

أهل الشام^(١). وفي عصر هشام قوى نفوذ الفقهاء ورجال الدين ، وترجعوا في أهم المناصب ، وكثر تدخلهم في شئون الدولة ، خلافاً لما كان عليه عبد الرحمن الداخل من إقصائهم والتحرز من تدخلهم ونفوذهم ، وكان لذلك أثر غير محمود ترتب عليه فيما بعد نتائج سياسية واجتماعية خطيرة .

— ٢ —

وخلف هشاماً ولده الحكم بعهد منه ، وبويع عقب وفاة أبيه بأيام قلائل في الثامن من صفر سنة ١٨٠ هـ (أبريل ٧٩٦ م) ، وهو في السادسة والعشرين من عمره ، وكان مولده بقرطبة سنة ١٥٤ هـ (٧٧١ م) ، وأمه أم ولد تدعى زخرف ، وكان طاغية ، حازماً ، شجاعاً ، شديد الوطأة على خصومه والخارجين عليه ، وكانت تحدوه مع ذلك نزعة إلى الإنصاف والعدالة^(٢) . وهو أول من أظهر فخامة الملك بالأندلس ، وأسرف في تأييد هيئته ، وجدد عهد أجداده بالمشرق ببذخه وروعته ، واستكثر من الممالك والبطانة . وكان ميالا إلى اللهو ، مولعاً بالصيد ، يؤثر مجالس الندماء والشعراء ، على مجالس الفقهاء والعلماء . وآنس الفقهاء تصدع مركزهم الذي سما في عهد أبيه هشام ، وكانت سياسة الحكم ترمي إلى الحد من نفوذهم ، وإبعادهم عن التدخل في شئون الدولة ، وكانوا بالعكس يرمون إلى انتزاع السلطة السياسية ليحكموا الأمة من وراء العرش بواسطة جمهورية دينية ، فجاءت سياسة الحكم ضربة قاضية على أمانهم ، وثارث نفوسهم منخبطاً على الأمير الفتى ، وأخذوا يلوحون بسبه والتعريض به من فوق المنابر ، ويوغرون عليه صدور العامة بالدس والوقعة ، ويسبغون على دعايتهم ثوب الوعظ والإرشاد ، والحض على التمسك بأحكام الدين . وكان الحكم بإسرافه في مجالى اللهو والبذخ ، يسبغ على أقوالهم قوة ، وكانت دعايتهم قوية بالأخص بين البربر والمولدين (أو مسلمى الإسبان) ، إذ كان هؤلاء يغصون العرب لكبرياتهم واستنثارهم بالمناصب والنفوذ ، وكانوا دائماً على أهبة الخروج والعصيان كلما سنحت الفرصة . وكان لتعريض الفقهاء وسعايتهم كما سئرى آثار بعيدة المدى^(٣).

(١) أخبار مجموعة ص ١٢٠ ؛ والاستقصاء ج ١ ص ٦١ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ١٥٨ ؛ وراجع أيضاً Dozy : Hist. , I. p. 286 & 287

(٢) أخبار مجموعة ص ١٢٥ .

(٣) راجع المعجب ص ١١ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ ، وكذلك Dozy : Hist. , I. p. 238 والتاليرا Hiatt de Espana, Vol. I. p. 227

وفي بداية عهد الحكم ، في صيف سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) سار الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث غازياً بالصائفة إلى ألبنة والقلاع ، (قشتالة القديمة) واستولى على قلعة قلهررة الواقعة على نهر إيبرو ، وأثنى في بلاد البشكنس (نافار) ، وعاد مثقلاً بالغنائم والسبي . ولكن سرعان ما اضطر الحكم إلى ترك الجهاد والغزو ، ليعنى بمقاومة بؤادر الخروج والثورة التي أخذت تتفتح حوله من كل صوب . وكان الثغر الأعلى (أراجون) موطن الخطر في تلك المرة ، وكانت تؤازره وتدعيه عوامل خارجية في منتهى الخطورة . ذلك أن الحكم ما كاد يجلس على عرش أبيه ، حتى عول عمه سليمان وعبد الله على التحرك مرة أخرى . وكانا يقيمان في عدوة المغرب منذ أيام أخيهما هشام ، يرقبان الفرص . واتصل عبد الله بابن الأغلب صاحب إفريقية وخاطبه في مشروعهما ، ولكنه لم يلق على ما يظهر منه تأييداً ، فاتجه الأخوان وجهة أخرى . وكانت مدائن الثغر الأعلى (١) وفي مقدمتها سرقسطة ما زالت ، منذ أيام عبد الرحمن الداخل تفيض بعوامل الفتنة ، ففي سنة ١٨١ هـ (٧٩٧ م) ثار بالثغر الأعلى بهلول بن مروان المعروف بأبي الحجاج ودخل سرقسطة ، وثار حاكم مدينة وشقة في نفس الوقت . فعبّر سليمان وعبد الله سرّاً إلى الأندلس ، وسار عبد الله إلى الثغر الأعلى يؤلب البلاد ، ويحشد الأنصار لمقاتلة الحكم ، ثم عبر جبال البرنيه إلى بلاد الفرنج ، وسعى إلى مقابلة شارلمان (كارل الأكبر) في مدينة إيكسلا شايبيل حيث كان يعقد بلاطه يومئذ ، واتمس إليه العون والموازرة ، فأكرم ملك الفرنج وفادته ، واستجاب إلى دعوته ، وألنى الفرصة سانحة للتدخل في شئون الأندلس ، وتحقيق مطامعه القديمة . وسير شارلمان جيشاً مع ولده لويس أمير أكويتين ، فعبّر البرنيه واستولى على مدينة جبرونة (جيرندة) ، ثم توغل في ولاية الثغر الأعلى ، بممالة بعض الزعماء الخوارج ، وقيل إن الأخوين عبد الملك وعبد الكريم ابني عبد الواحد

(١) قال ياقوت في معجمه الجغرافي « الثغر » ، كل موضع قريب من أرض العدو يسمى ثغراً ، كأنه مأخوذ عن الثغرة ، وهي الفرجة في الحائط . وكان رباط الثغر أيام فتح الأندلس يشمل أربونة وما حولها ، باعتبارها أقصى ولاية في اسبانيا المسلمة ، مما يلى أرض الفرنج ، فلما سقطت أربونة في يد النصارى ارتد « ثغر » الأندلس إلى ما وراء جبال البرنيه ؛ فأصبح « الثغر » يطلق على ولاية سرقسطة وما جاورها حتى برشلونة والبحر شرقاً ، وهذا هو « الثغر الأعلى » ، ويشمل عدا سرقسطة لاردة ، وتطيلة ، ووشقة ، وطرطوشة ، وطركونة وغيرها ؛ ويقابل « أراجون » من ولايات اسبانيا الحديثة . وسميت تطيلة وأعمالها « بالثغر الأوسط » لمجاورتها لمملكة ليون النصرانية (جليقية) .

ابن مغيث انضما يومئذ إلى عبدالله في ثورته ، وأنهما سارا إلى سرقسطة ، ولكن أبا صفوان حاكمها من قبل الحكم ، استطاع أن يهزم الخوارج ، وأن يأسر زعيمهم عبد الكريم ، وأن الأخوين عادا بعد ذلك إلى الطاعة واستأمنوا في أوائل سنة ١٨٦هـ فأمنهما الحكم ، ووفدا على قرطبة وقدا خضوعهما وإخلاصهما^(١) . وقد نجد ما يؤيد هذه الرواية في أنه لم يرد للأخوين ذكر خلال هذه الأعوام الخمسة ، مع أنهما كانا دائماً في الطليعة في قيادة مختلف الحملات والغزوات . وعلى أي حال فقد بادر الحكم بالسير إلى الشمال لرد هذا الخطر الجديد . والظاهر أن الفرنج لم يلقوا الحوادث ممهدة في ذلك الجزء المضطرب من الأندلس ، وخشوا من جهة أخرى من نكث حلفائهم المسلمين ، وتكرار مأساة باب الشزرى ، فارتدوا إلى الشمال بعد أن حاصروا مدينة وشقة حيناً (٧٩٧ م) ، تاركين الأمور لمصيرها ، ولما رأى الزعماء الخوارج عبث المقاومة ، عادوا إلى الطاعة ، واسترد الحكم سلطانه على سرقسطة ووشقة ولاردة وغيرها .

(١) وردت هذه الرواية منسوبة إلى الرازي مؤرخ الأندلس ، في أوراق مخطوطة عن تاريخ الأندلس من سنة ١٨٠ إلى سنة ٢٣٢ هـ عثر بها صديق العلامة المرحوم الأستاذ « ليث بروقتسال » عميد كلية الجزائر والأستاذ بجامعة باريس سابقاً . وقد تفضل بإطلاعي عليها ونقلت منها . ولم تكن نعرف وقتئذ بالتحقيق من هو مؤلف هذا المخطوط ، ولكن تبين فيما بعد من مقارنة الروايات التي يوردها عن مؤرخي الأندلس السابقين مثل الرازي وابن القوطية وابن الفرغى ، ثم ابن حزم وأحمد ابن خالد ، كما تبين منه ما تقدم به كتاباته وتعليقاته من الرزانة والدقة ، أن هذه الأوراق المخطوطة ، إنما هي قطعة من مؤلف مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان ، وهو المسمى « المقتبس في تاريخ رجال الأندلس » . وتحتوى هذه القطعة على كثير من المعلومات والتفاصيل الحسنة عن حوادث العصر الذي نتحدث عنه وعن شخصياته . وقد حصلت بعد ذلك بأعوام من مكتبة القرويين بفاس ، على نسخة مصورة من قطعة كبيرة مخطوطة من تاريخ ابن حيان المشار إليه تبين أنها تنتم للجزء المتقدم ، إذ تبدأ حوادثها من سنة ٢٣٣ هـ وتنتهى في سنة ٢٦٧ هـ ، وهى عبارة عن جزء كبير يقع في مائة وتسعين صفحة كبيرة . وهى قديمة بالية متآكلة الحواف . وقد انتفعت بها منذ الطبعة الثالثة من الكتاب انتفاعاً عظيماً حسبما يرى القارئ بعد هذا . ثم ظهرت أخيراً قطعة كبيرة من « المقتبس » تتعلق بعصر الناصر وتحفظ بالمكتبة الملكية بالرباط ، وقد أشرنا إليها وإلى محتوياتها في مقدمة الكتاب . وقد انتفعتنا بها في هذه الطبعة الجديدة أعظم انتفاع حسبما يرى القارئ بعد . وقد نشرت من قبل قطعة أخرى من تاريخ ابن حيان بعنوانه المستشرق الإسباني أنتونيا ، وهى تتعلق بالأخص بحدوث عصر الفتنة الكبرى (٢٥٠ - ٣٠٠ هـ) . وتوجد قطعة صغيرة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد ، وهى تتعلق بأحوال الخلافة وحوادث الأندلس في سنى ٣٦٢ - ٣٦٥ هـ أيام الحكم المستنصر .

وفي ذلك الحين كان سليمان بن عبد الرحمن قد استطاع أن يحشد أنصاره ولاسيما من البربر ، وهرع إليه أخوه عبد الله البلنسي بعد فشله في الشمال ، وسار الخوارج إلى قرطبة يحاولون الإغارة عليها ، فالتقوا بجند الحكم على مقربة منها في مكان يسمى « فنجيط » وذلك في شوال سنة ١٨٢ هـ ، فهزم سليمان . ثم التقى الجمعان ثانية بالقرب من إستجة في صفر سنة ١٨٣ هـ ، فهزم سليمان مرة أخرى بعد قتال عنيف ، وفر في أصحابه متجهاً إلى ماردة ، فبعث الحكم الجند في أثره ، فطاردته حتى قبض عليه . وجيء به إلى الحكم ، فأمر بإعدامه ، وأعدم معه عدة من زعماء الفتنة ، وأرسلت رؤوسهم إلى قرطبة حيث طيف بها (سنة ١٨٤ هـ - ٨٠٠ م) . وفر أخوه عبد الله إلى بلنسية فاختفى بها ، ولكنه لم يبر في النهاية مناصباً من طلب العفو ، فعفا عنه الحكم وأصدر له أماناً خاصاً ، وذلك على أن يبقى في بلنسية وتجري عليه أرزاقه ، وبعث عبد الله إلى الحكم بابنه عبيد الله فأكرمه الحكم وزوجه إحدى أخواته ، وركن عبد الله إلى السكينة طوال عهد الحكم (١) .

وهكذا انتهت المرحلة الأولى من الحوادث التي اقترنت بثورة سليمان وأخيه عبد الله ، ولم يحن الفرنج منها كبير غم ، ولكن ذلك لم يثن شارلمان عاقل الفرنج عن عزمه ومشاريعه . ذلك أن سياسة التدخل في شئون إسبانيا المسلمة ، كانت أصلاً من أصول السياسة الفرنجية ، وكان الفرنج ينظرون بعين التوجس ، إلى قيام هذه الإمارة الإسلامية الجديدة فيما وراء البرنيه ، وإلى توطدها ونموها ، ويخشون بالأخص أن يضطرم الإسلام بقوة جديدة من الجهاد والغزو ، فينسب تيار الفتح الإسلامي إلى غايبس كرة أخرى ، وقد حاول شارلمان ضربته الأولى في عهد عبد الرحمن الداخل فباء بالهزيمة والفشل ، ونكب في مفاوز رونشغال (باب الشزرى) . ولما عبر المسلمون جبال البرنيه في عهد هشام وغزوا سبتمانيا ، تجددت مخاوف الفرنج وتجددت مشاريعهم لتأمين حدودهم الخنوبية ، وكانوا يلتمسون الفرصة كلما اضطربت الأندلس بالثورة . وهنا يجدر بنا أن نتساءل ، هل كان لسياسة الخلافة العباسية أثر في صوغ هذه السياسة الفرنجية نحو الأندلس أو الإحياء بها ؟ لقد رأينا كيف كانت الخلافة العباسية تحاول بث دعوتها في الأندلس على يد بعض الزعماء الخوارج ، وكيف كانت هذه الدعوة تحدث أثرها في إضرام نار

الفتنة . على أن الخلافة العباسية ، كانت من جهة أخرى تتصل بالمملكة الفرنجية بصلات سياسية . وترجع الرواية الفرنجية هذه الصلة إلى عهد المنصور ، وتقول لنا إن بين ملك الفرنج أرسل إلى المنصور سفارة رد عليها المنصور بمثلاً ، وتضيف الرواية الفرنجية إلى ذلك أنه كانت ثمة بعدئذ مكاتبات وسفارات بين الرشيد وبين شارلمان ولد بين ، ومع أن الرواية الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه العلاقات بين ملك الفرنج والخليفة العباسي ، فإن في تفاصيل الرواية الفرنجية ، وفي طبيعة الحوادث التي كان يجوزها الشرق والغرب يومئذ ، ما يحملنا على الاعتقاد في صحتها^(١) . وهذه العلاقات ذاتها تلقى ضوءاً على موقف السياسة العباسية ، من حوادث الأندلس في ذلك الحين . فقد كانت الخلافة العباسية ترى في قيام إمارة قرطبة الأموية في الغرب منافساً لها في سيادة العالم الإسلامي ، ولم يكن يسوءها أن تتعرض هذه الإمارة الفتية في معترك من الصعاب والفتن ، وأن تشغل بمقارعة أعدائها في الداخل والخارج . وإذاً فقد كانت الخلافة العباسية تشاطر السياسة الفرنجية نفس الغاية التي ترى إليها بالنسبة لإمارة قرطبة ، وهي العمل على إضعافها وتخفيفها إن أمكن ، ولما كانت الدولة العباسية لا تستطيع أن تعمل لتحقيق هذه الغاية بطريق مباشر ، فقد كان في وسعها على الأقل أن تعمل لتأييدها بطريق الدعوة والتحريض . ولم يكن بعيداً أن يجد الخليفة العباسي ، وهو يبسط حكمه على ملايين من النصارى ، وفي أرضه يقع القبر المقدس ، وسيلة للتفاهم مع إمبراطور الفرنج وحامي النصرانية ، وأن يجد عاهل الفرنج ما يشجعه على إذكاء تحرشه بإمارة قرطبة ، في رفق الخليفة برعاياه النصارى ، هذا فضلاً عن أن السياسة الفرنجية تعمل بذلك على تحقيق غايتها الأصلية من مناوأة الإسلام في اسبانيا وإضعاف سيادته ونفوذه ، وحماية حدود مملكة الفرنج الجنوبية . وإذاً فمن المحتمل أن يكون لهذه السفارات والمراسلات السياسية ، التي تقول الرواية الفرنجية بوقوعها بين الرشيد وشارلمان ، صلة بهذه المرحلة من تدخل الفرنج في شؤون اسبانيا المسلمة ، واعتدائهم المتكرر على أراضيها . وقد وقع الغزو الفرنجي لشمال اسبانيا في عهد الحكم بين سنتي ١٨١ و ١٨٥ هـ ، أعني في أواسط عهد الرشيد

(١) تناولت موضوع العلاقات بين الرشيد وشارلمان في فصل خاص في كتابي « مواقف حاسمة

في تاريخ الإسلام » (الطبعة الرابعة ص ٢١٨ - ٢٢٤) .

(١٧٠ - ١٩٣ هـ) . والواقع أن في اتحاد المصلحة والغاية بين الخليفة العباسي وعاهل الفرنج ، ما يسبغ على هذا الفرض تأييداً .

ولما كانت السياسة الفرنجية ترمى قبل كل شيء إلى تأمين غاليس (جنوب فرنسا) من خطر الغزو الإسلامي ، فقد رأت أن تنشئ في قاصية اسبانيا الشمالية الشرقية مما يلي جبال الرنيه ، ولاية فرنجية جديدة تكون سداً بين الغزاة وبين مملكة الفرنج ، وأنشئت هذه الولاية التي سميت « بالثغر القوطي » أو الثغر الإسباني في البداية ، من مدن جيرونة (جيرندة) وأوزونة وسولسونة ، وما حولها مما اقتطعه الفرنج من أراضي اسبانيا المسلمة ، التي كانت تابعة لرباط الثغر الإسلامي القديم . ولما عاد الاضطراب إلى الثغر الأعلى ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورات الداخلية المتوالية ، ألغى الفرنج الفرصة سانحة لدفع غزواتهم نحو الجنوب ، وكان شارلمان يطمح بالأخص إلى افتتاح ثغر برشلونة المنيع ليكون معقلاً لحماية أملاكه الجنوبية ، وحلقة اتصال بحرى سهل بينها وبين فرنسا . وعمد شارلمان قبل البدء في تنفيذ مشروعه إلى عقد محالفة بينه وبين أمير جليقية ألفونسو الثاني (سنة ٧٩٨ م) ، لكي يكتسب ولاء البشكنس ومعاونتهم . وفي سنة ٨٠١ م (١٨٥ هـ) سير شارلمان إلى اسبانيا جيشاً ضخماً لافتتاح برشلونة بقيادة ولده لويس أمير أكوتين ، وانقسم هذا الجيش إلى قسمين ، سار أحدهما بقيادة حاكم جيرونة لمحاصرة برشلونة ، وسار الآخر بقيادة جيوم كونت دى تولوز ليرابط جنوب غربى برشلونة بين لاردة وطركونة ، ليحول دون وصول أى مدد إلى المدينة المحصورة . وكان الحكم يشغل يومئذ بمطاردة الخوارج عليه وفي مقدمتهم عمه عبد الله ، وكان والى برشلونة ، سعدون الرعيني ، في مأزق حرج ، يتطلع عبثاً إلى قدوم المدد ، وهو في ثغره القاصى بعيداً عن كل عون ومساعدة ، ولم يكن له ما يؤمل من معاونته زملائه ولاية الثغر الأعلى ، ومعظمهم يضمرون الخروج على حكومة قرطبة ، ويرى في اضطراب الأمور ملاذاً . ومع ذلك فقد صمدت برشلونة ، وصمم واليها الشجاع على المقاومة ، ولبت حيناً تعاني أمر ضروب الحرمان والجوع ، دون أن يأتيها المدد المنشود . ثم تفاقم الأمر وجاء جيش جديد من الفرنج بقيادة لويس ليشدد الحصار على المدينة ، فرأى سعدون الرعيني أن يحاول التماس المدد بنفسه من قرطبة ، وغادر برشلونة تحت جنح الظلام ،

وحاول أن يخترق خطوط العدو ، ولكنه ضبط وأسر ، ولم تستطع برشلونة ثباتاً بعد أن هلك ألف من أهلها ، وفتحت ثغرات عديدة في أسوارها ، فاضطرت إلى التسليم بعد أن ذاقت ويلات الحصار سبعة أشهر . واتخذ الفرنج من برشلونة مكان جبرندة ، قاعدة للثغر القوطي الذي نما فيما بعد ، وكان الفرنج يعينون حكامه من الكونتات الذين ينتمون إلى أصل قوطي أوفرنجي . ولم يلبث أولئك الحكام ، حينما شعروا بقوتهم وبعدهم عن سلطان مملكة الفرنج ، أن أعلنوا استقلالهم ، وغدا الثغر الفرنجي إمارة نصرانية هي إمارة قطلونية ، التي اندمجت فيما بعد في مملكة أراجون القوية ، وخسر الإسلام بفقد برشلونة أمنغ ثغوره في قاصية اسبانيا ، وارتدت حدود الأندلس إلى الثغر الأعلى ، بعد أن كانت تجاوز جبال البرنيه^(١).

وفي سنة ١٨٩ هـ (٨٠٥ م) اكتشف الحكم مؤامرة خطيرة دبرت لخلعه ، وكان من ورثها رهط الفقهاء الذين قضى الحكم على نفوذهم ، مثل يحيى بن يحيى الليثي ، وعيسى بن دينار ، وطالوت الفقيه ، وغيرهم من زعماء المالكية . وقد رأينا كيف سخط الفقهاء على الحكم لتصدع نفوذهم القديم ، وأثاروا عليه وعلى خلاله دعاية قوية ، واتهموه من فوق المنابر بالقسوة والخروج على أحكام الدين ، وكيف كان الحكم ، بمرحه وبذخه ، وشغفه باللهو والشراب ، يسبغ على دعايتهم قوة . وكان ثمة فريق آخر من أعيان قرطبة ينقم على الحكم صرامته وطغيانه . وكان هؤلاء وهؤلاء يتربصون بالحكم ويلتمسون الفرصة للإيقاع به ، وكان في موقف الشعب القرطبي ، ما يشجهم على تدبير مشاريعهم ، إذ كان الشعب متأثراً بدعاية الفقهاء في حق الحكم ، وبما كان يبدية الحكم من ترفع عن الشعب ، فكان أهل قرطبة يبغضون الحكم وبلاطه . وهكذا ائتمر الفقهاء والأعيان بالحكم واتفقوا على خلعه ، وكان في مقدمة المتآمرين مالك بن يزيد بن يحيى التجيبي ، وموسى بن سالم الخولاني ، وأبو كعب بن عبد البر وأخوه عيسى ، ويحيى ابن مضر القيسي الفقيه وغيرهم ، وكان بينهم بعض المروانية من أقارب الحكم ، ومنهم محمد بن القاسم المرواني الذي اختاره المتآمرون لرياستهم ، ووعدوه بأن

(١) تضع الرواية الإسلامية تاريخ سقوط برشلونة في سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) متفقة بذلك مع الرواية الفرنجية ، وقد وردت عنه نبذة حسنة في مخطوط ابن حيان الذي أشرنا إليه (ص ٩٠) .
وراجع ابن الأثير ج ٦ ص ٥٥ ؛ وكذلك Scott : ibid , V. I. p. 448-452 . و : Altamira
Hist. de Espana : Vol. I. p. 241

يكون خلف الحكم في الإمارة^(١) ، ولكنه خشي العاقبة وبادر بإبلاغ الحكم ، واكتشفت المؤامرة قبل نضجها ، وقبض الحكم على عدد كبير من المتآمرين . واستطاع بعضهم الفرار ، مثل يحيى بن يحيى ، وعيسى بن دينار . وأعدم الحكم منهم اثنين وسبعين رجلاً ، وأبدى في إعدامهم قسوة ظاهرة ، إذ صلبهم على شاطئ النهر تجاه مشارف القصر ، وكان من بين القتلى عماء مسلمة المشهور بكليب ، وأمىة ، ابنا عبد الرحمن بن معاوية ، قتلهما لارتيابه في سلوكهما ، فأثار هذا الإجراء الدموى في قرطبة أيما ارتياح ، وأسبغ على خلال الحكم ريباً ، وأذكى الحفيظة على الأمير في نفوس الخاصة والعامة معاً . وشعر الحكم بخطورة هذا الأثر ، فحصن قرطبة ورم أسوارها ، واحتفر الخنادق حولها ، وفرض على الشعب حكم إرهاب يزيد في حفيظته . ولم تمض أشهر على ذلك حتى اضطربت في قرطبة فورة من السخط ، وثار العامة في الربض (الضاحية) بزعامه رجل منهم يقال له ديبيل ، وكان الحكم غائباً يشرف على محاصرة الثوار في ماردة ، فعاد مسرعاً إلى قرطبة ، وقبض على زعيم الفتنة وعدة كبيرة من أنصاره ، وصلبوا جميعاً ومثل بهم ، وسحق الهياج دون رأفة ، وهدأت العاصمة إلى حين^(٢) .

وفي العام التالي ، سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) ، نشبت الثورة في ماردة بقيادة زعيمها أصبغ بن عبد الله بن وانسوس ، فسار الحكم إلى قتاله ، ولكنه ارتد عنه حينما وقف على نأ الهياج في قرطبة . وترددت الحملات والبعوث بعد ذلك إلى ماردة لإخماد الثورة ، واستمر زعيمها أصبغ على مقاومته بضعة أعوام ، وكان ذا وجاهة وبأس ، يلتف حوله مواطنوه البربر ، وهم كثرة في ماردة وما حولها ، ولكنه اضطّر أخيراً إزاء حزم الحكم وصرامته إلى طلب الأمان والصلح ، فاجابه الحكم إلى طلبه ، وعادت ماردة إلى الطاعة^(٣) .

وكانت طليطلة حاضرة القوط القديمة ، وقاعدة « الثغر الأوسط »^(٤) ما تزال

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٧٣ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٦٦ ؛ ولكن ابن القوطية يذكر أن المتآمرين بايعوا شخصاً آخر من أبناء عمومة الحكم .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٣ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ٨٦ ، ومخطوط ابن حيان المشار إليه ص ٩٨ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٤ ، ومخطوط ابن حيان المشار إليه ص ٩٩ .

(٤) تسمى طليطلة وأعمالها في الجغرافية الأندلسية « بالثغر الأوسط » حسبما تقدم .

منذ الفتح تفيض بعوامل المياج والثورة ، وكان بين أهلها كثرة من المولدين أو النصارى الذين دخلوا في الإسلام ، والمستعربين أو النصارى المعاهدين . وقد سبق أن عينانا بالتعريف بهذين العنصرين ، اللذين اضلعا بأدوار خطيرة في تاريخ اسبانيا المسلمة ، وأوضحنا أن العرب والبربر ، وهما العنصران اللذان تعاونا في فتح اسبانيا ، لم يكونا أغلبية بين الشعب الأندلسي الذي تكون بعد الفتح بمضى الزمن ، وكان العرب بالأخص أقلية في معظم المدن الكبيرة ، لكن هذه الأقلية العربية كانت تستأثر بالحكم ، وخصوصاً في الأقاليم الوسطى والجنوبية القريبة من قرطبة مركز الإمارة والسيادة . وكان البربر من جانبهم أغلبية في بعض المناطق الغربية والشمالية ، وكانوا حينما غلبت كثرتهم وسلطتهم ، يتحدثون في معظم الأحيان مع المولدين ، وأحياناً مع النصارى المعاهدين أنفسهم ، على مناوأة حكومة قرطبة . أما «المولدون» فكان معظمهم حسبنا أسلفنا من الإسبان والقوط الذين اعتنقوا الإسلام منذ الفتح تباعاً ، واندمجوا في المجتمع الإسلامي ، وقد كانوا كثرة في بعض المدن القوطية العريقة مثل طليطلة وبعض مدن الثغر الأعلى ، وقد برزت منهم بعض الأسر القوية ذات السلطان والبأس ، مثل بنى قسى زعماء الثغر الأعلى وبنو حفصون زعماء رية ، ويصفهم المستشرق سيمونيت بأنهم كانوا بعد اندماجهم في المجتمع الإسلامي أشد تعصباً ضد النصارى من المسلمين الخالص أنفسهم^(١) .

وأما النصارى المعاهدون أو المستعربون كما يسمون بالإسبانية Mozárabes ، فهم حسبنا أشرنا من قبل النصارى الإسبان الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم ، وبقوا في المدن الأندلسية المفتوحة تحت الحكم الإسلامي . وبالرغم مما كانت تسبغه الحكومة الإسلامية عليهم من أسباب الرعاية ، وما كان لهم في كثير من الأحيان من الخطوة والتمتع بثقة الأمراء ، وتولى كثير من الوظائف الهامة ، فقد كانوا على العموم عنصراً قليل الولاء للحكومة الإسلامية ، وكانوا في المدن البعيدة في كثير من الأحيان ، يحالفون الثوار من المسلمين والبربر والمولدين ، ويمالئونهم ، ويعملون على عقد الصلات بينهم وبين الملوك النصارى ، سعيّاً إلى مناوأة حكومة قرطبة وخلق الصعاب في وجهها . وسرى أى دور خطير يلعبه أولئك النصارى المعاهدون في قرطبة في عهد عبد الرحمن بن الحكم ، لإثارة الفتن والاضطراب في المملكة الإسلامية .

هذا ، وفضلا عما كان للمولدين والنصارى المعاهدين من كثرة ظاهرة في مدينة طليطلة ، فإن أهل طليطلة على وجه العموم ، لم ينسوا سالف عزهم ومجدهم أيام أن كانت مدينتهم دار ملك القوط ، وكانوا يعتزون بكثرتهم وثروتهم وحصانة مدينتهم^(١) ، وتحذوهم روح من التمرد والخروج المستمر على حكومة قرطبة . وقد رأينا كيف كانت طليطلة مركز الثورة ، وملاذ الزعماء الخوارج منذ عهد عبد الرحمن الداخل . وفي عهد الحكم عادت طليطلة إلى سابق سيرتها ، وثار فيها في سنة ١٨١ هـ (٧٩٧ م) عبيدة بن حميد ، فوجه الحكم قائده عمرو بن يوسف لمحاربته ، وكان يقود الجيش في طليطلة ، فالتقى بالثوار في عدة وقائع ، ولما رأى ثبات الثوار لجأ إلى سلاح الغيلة ، واستمال إليه بعض وجهاء المدينة بالمنح والعود ، ودفعهم إلى اغتيال عبيدة بن حميد ، وبذا أخذت الثورة إلى حين ، وأذعت المدينة الثائرة لسلطان الحكم . ولكن هذا الهدوء المؤقت لم يطل أمده ، ولم تمض بضعة أعوام حتى عادت طليطلة إلى الثورة ، ولم ير الحكم وسيلة لإخضاعها سوى تعيين عمرو بن يوسف حاكماً لها . وكان عمرو بن « مولداً » من أهل وشقة ، ذا وجهة وبأس ، وكان قد ظهر في الثغر الأعلى ، وأظهر طاعة الحكم ودعاه ، خلافاً لكثير من زعماء الثغر الخوارج ، فسر الحكم بمسلكه ودعاه إلى خدمته ، واختاره للقيادة ، ثم اختاره لولاية طليطلة ليعالج المدينة الثائرة ، ويعمل على إخضاعها ، ولوحظ في هذا الاختيار أن عمرو بن مولد ، وأن معظم أهل طليطلة من المولدين . وكتب الحكم إلى أهل طليطلة يقول : « إني قد اخترت لكم فلاناً وهو منكم لتطمئن قلوبكم إليه ، وأعفيتكم ممن تكرهون من عمالنا وموالينا ، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم » . ودخل عمرو بن طليطلة ، فأنس به أهلها ، وتظاهر أمامهم ببغض بني أمية والموافقة على خلع طاعتهم ، واستمالهم برفقه ولينه ، ثم أنشأ بموافقتهم في ظاهر طليطلة قلعة حصينة بحجة إيواء الحند والموظفين فيها بعيداً عن أهل المدينة وحرصاً على راحتهم ، وبعث إلى الحكم يستقدم إليه الحند سرّاً ، فسير الحكم جيشاً بقيادة ولده عبد الرحمن لمقاتلة نصارى الشمال في الظاهر ، ثم عرج هذا الجيش حين العودة على طليطلة ، وخرج عمرو بن ملاقة الأمير

(١) إن إلقاء نظرة على موقع طليطلة فوق المنحدر الصخري الوعر المشرف على منحى نهر التاجه ، والنهر يحيط بها من كل نواحيها تقريباً ، وبقية الأسوار الهائلة التي كانت تحيط بها ، كل ذلك يدل على ما كانت عليه هذه المدينة الثالثة من الحصانة في تلك العصور .

وتحيته ، ومعه وجوه المدينة ، فأكرمهم عبد الرحمن ولاطفهم . وهنا دبرت المؤامرة التي هلك فيها وجوه طليطلة وأعيانها ، وفي بعض الروايات أن الذي دبرها وأوعز بتنفيذها هو الحكم ، في خطاب أرسله سرّاً إلى عمروس مع ولده عبد الرحمن ، وفي البعض الآخر أن الذي دبر الكمين هو عمروس . وعلى أى حال فقد نفذت المؤامرة بأن أقام عمروس في القلعة الجديدة ، وليلة حافلة دعا إليها ألوفاً من الكبراء والأعيان ، ورتب الدخول من باب والخروج من باب آخر ، منعاً للزحام ، وجعل الخدم يقتادون المدعوين إلى غرف الطعام عشرة عشرة ، وكلما دخل منهم فوج أخذوا إلى ناحية معينة ، وضربت أعناقهم ، وألقيت جثثهم إلى حفرة عظيمة ، حفرت خصيصاً في مؤخرة القصر ، وأصوات الطبول والمزامير تحول دون سماع استغاثتهم ، ولم يفتن أحد إلى الحقيقة المروعة إلا بعد أن تعالى النهار ، ولم يبد للداخلين أثر في الخروج ، ولم يسمع لهم ضجيج ، فعندئذ فطن البعض إلى الكمين ، وتصايح القادمون ونكصوا على أعقابهم ، وهلك في تلك المذبحة التي تعرف بواقعة « الحفرة » عدد كبير من وجوه طليطلة وأعيانها ، يقدره البعض ببضع مئتين والبعض الآخر ببضعة آلاف ، وكانت ضربة شديدة للمدينة الثائرة جردتها من زعامتها ، وأضعفت من شأنها ، وقضت مدى حين على روح الثورة فيها ، وكانت وقعة الحفرة في سنة ١٩١ هـ (٨٠٧ م) (١) .

وفي ذلك الحين غزا الفرنج بقيادة لويس ولد شارلمان (٢) ، ولاية الثغر الأعلى مرة أخرى ، وساءلوا مدينة طرطوشة (سنة ١٩٢ هـ) ، فبعث الحكم جيشاً إلى الشمال بقيادة ولده عبد الرحمن ، فارتد الفرنج إلى أراضيهم ، ثم عادوا إلى حصار طرطوشة في العام التالي بقيادة لويس أيضاً ، وعاد المسلمون إلى قتالهم بقيادة عبد الرحمن ، ومعه في تلك المرة عمروس عامل الثغر الأوسط ،

(١) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ٦٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦ و ١٢٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٧١ و ٧٢ ، وفيه أن من هلك في مذبحة الحفرة ، بلغ زهاء سبعمائة فقط . وجاء في مخطوط ابن حيان السابق ذكره ، رواية عيسى بن أحمد الرازي ، أن الذي دبر الكمين هو الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وأنه هو الذي أولم الوليمة ، وأنه هلك في المذبحة زهاء خمسة آلاف (ص ٩٣) .

وراجع أيضاً Dozy : Hist. , I. p. 291—294 .

(٢) وتسميه الرواية العربية خطأً برذريق أو لذريق بن قارله (ابن الأثير ج ٦ ص ٩٦ والبيان المغرب ج ٢ ص ٧٤) .

وعبدون عامل الثغر الأعلى ، في قواتهما ، ونشبت بين المسلمين والفرنج عدة وقائع انتهت بهزيمة الفرنج وإنقاذ طرطوشة ، وذلك في سنة ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) . وعمد نصارى الشمال كعادتهم إلى انتهاز كل فرصة سانحة للإغارة على أراضي المسلمين ، وشجعهم انشغال حكومة قرطبة بقمع الثورات المختلفة ، وكان ملك جليقية يومئذ ألفونسو الثانى ، الملقب بالعفيف ، أميراً شديداً التعصب لدينه ووطنه ، وكانت حملاته المتوالية إلى أراضي المسلمين يطبعها لون ديني عميق ، وعبر ألفونسو نهر دويرة (دورو) إلى أراضي المسلمين غير مرة ، وعاث فيها قتلا ونهباً وسيئاً ، وكانت حملاته تتجه بالأخص إلى أطراف الثغر الأدنى ، وإلى المنطقة الواقعة بين نهرى دويرة والتّاجه ، لبعدها عن حكومة قرطبة ، وضعف وسائل الدفاع فيها ، وتوغل ألفونسو في حملاته حتى قلُمُرية (قلنبرية) وأشبونة ، وعانى المسلمون في تلك الأنحاء كثيراً من جراء غزوات النصارى ، وترامت إلى الحكم آلامهم واستغاثتهم ، ورفع إليه شاعره عباس بن ناصح الجزيرى قصيدة يصف فيها آلام أهل الثغر ومصائبهم . ففي صيف سنة ١٩٤ هـ (٨١٠ م) (١) ، سار الحكم غازياً بنفسه إلى أراضي ألبه والقلاع ، وتوغل فيها مما يلي وادى الحجارة غرباً ، وأثنى في تلك الأنحاء ، وهزم النصارى في عدة وقائع ، وقتل وسبى منهم جموعاً كثيرة ، واطمأنت نفوس المسلمين في الثغر بجزر النصارى وردهم إلى داخل أراضيهم .

وسير الحكم في العام التالى جيشاً إلى الثغر الأعلى بقيادة عمه عبد الله البلنسى ، فغزا قطلونية ، وهاجم مدينة برشلونة ، وهزم الفرنج ، ولكنه لم يحوز فتوحاً ثابتة . وشعر الفرنج ، كما شعر المسلمون بقمع هذه الحملات المخربة ، وآثر الفريقان التفاهم والمهادنة ، ويقول لنا ابن حيان إنه كان ثمة باعث آخر على التعجيل بعقد السلم بين العاهلين ، هو استفحال أمر إدريس بن إدريس بن عبد الله الحسنى بأرض العدو (المغرب) ، وتقاطر الوفود من إفريقية والأندلس إلى بيعته ، وتوجس الحكم من مصائر هذه الحركة الجديدة بالمغرب (٢) . وهكذا عقد

(١) هذه رواية صاحب البيان المغرب (ج ٢ ص ٧٥) ويضع ابن الأثير تاريخ هذه الفزوة في سنة ١٩٦ هـ .

(٢) مخطوط ابن حيان المشار إليه ص ١٠٠ . ويسمى ابن حيان هنا ملك الفرنج باسمه الصحيح «قارله بن بيزن» . وراجع الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٧١ و ٧٢ .

السلم بين شارلمان والحكم ، واستمر معقوداً حتى وفاة شارلمان بعد ذلك بأعوام قلائل في سنة ٨١٤ م .

ووقعت في تلك الأثناء عدة ثورات محلية ، فثار حزم بن وهب في باجة ، وامتد سلطانه حتى أشبونة ، فسير إليه الحكم ولده هشاماً ، فقاتل الثوار حتى أذعنوا لطلب الأمان . وعادت طليطلة إلى الثورة في سنة ١٩٧ هـ لأعوام قلائل من واقعة الحفرة ، فرأى الحكم أن يسير إليها بنفسه ، فسار في قواته من طريق منحرفة كأنه يقصد الشمال ، ثم تحول إليها فجأة ، ولم تكن الثورة يومئذ ، في مثل عنفها القديم ، فلم يجد الحكم مشقة في دخول المدينة الثائرة وإخضاعها (سنة ١٩٩ هـ) . وثارت بعد ذلك ماردة بقيادة زعيمها مروان بن يونس الجليقي ، فبعث الحكم إليها ولده عبد الرحمن في الحند فأخضعها .

وفي سنة ١٩٧ هـ (٨١٢ م) عصف بالولايات الشمالية قحط شديد ، وعانى المسلمون في تلك الأنحاء كثيراً من ضروب الحرمان والبؤس ، ومات منهم خلق كثير ، وعبر البحر إلى العدو الكثير منهم ، فبادر الحكم إلى إغاثتهم ومعاونة المنكوبين منهم ، وتخفيف الويل عنهم ، وفرق الصدقات الواسعة والأموال الكثيرة في الضعفاء والمساكين ، وأبناء السبيل ، وفي ذلك يمتدحه شاعره عباس بن ناصح الجزيري بقوله :

نكد الزمان فآمنت أيامه من أن يكون بعصره عسر

طلع الزمان بأزمة فجلت له تلك الكربة جوده الغمر

وكانت آخر غزوة قام بها الحكم في الشمال في سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥ م) إذ سير الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى جليقية في جيش ضخم ، وكان الحلالقة وحلفاؤهم البشكنس ما يزالون على عدوانهم وعيئهم بالأراضي الإسلامية المحاورة ، فتوغل المسلمون في أراضي جليقية ، وأنخنوا فيها ، ونشبت بينهم وبين النصاري موقعة شديدة على ضفاف نهر أرون استمرت عدة أيام ، وانتهت بهزيمة النصاري ، وقتل منهم عدد كبير ، ووقع في الأسر جماعة من أمراءهم وأكابرهم ، وارتد النصاري إلى الداخل ، واعتصموا بالوهاد والرني ، وعاد الحاجب إلى قرطبة ظافراً^(١) .

(١) نفع الطيب ج ١ ص ١٥٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ .

وفي أواخر عهد الحكم اضطرت قرطبة ثورة خطيرة كادت أن تزعزع عرشه ، وكان الشعب القرطبي ينقم على الأمير طغيانه وصرامته وكبريائه ، وكان بين أهل قرطبة كثير من « المولدين » الذين يبغضون السلطة الحاكمة ، لشعورهم بنقص في مركزهم الإجتماعي وفي حقوقهم العامة ، وكان الفقهاء من جهة أخرى ، وفي مقدمتهم جماعة من المحرضين البارعين مثل طالوت المعافري وغيره ، يعملون على إذكاء سخط العامة على الحكم وبلاطه ، بما يرمون به الحكم من جنوح إلى المعاصي ، واقتراف للإثم ، وانهماك في اللهو والشراب ، فكانت بين الأمير وبين أهل قرطبة وحشة تشتد على ممر الأيام ، وزاد في سخط العامة ما فرضه الحكم على المواد الغذائية ، من عشور مرهقة ، وكان العامة يجاهدون بدم الأمير والخوض في سيرته ، ويجتمعون في المساجد ليلاً لتجريحه والطعن عليه ، ووصلت بهم الجرأة إلى أن كانوا يتعرضون له في الطريق ، وينعتونه علناً « بالخمور » . وحدث ذات يوم أن خرج الأمير إلى الصيد ، وشق سوق « الربض » فتعرضوا له بالقول ، وصفقوا عليه بالأكف ، فأمر بالقبض على عشرة من زعمائهم وصلبهم . ويقول لنا ابن القوطية ، إن أولئك الذين قبض عليهم وصلبوا كانوا من زعماء مؤامرة دبرت ضد الحكم ، وكان منهم بعض أعلام القوم ، مثل يحيى بن نصر اليحصبي ، وموسى بن سالم الخولاني وولده^(١) . وهنا ازداد الهياج ، وبدأت أعراض الثورة ، وتحفز العامة للوثوب ، وأكثروا من التعرض لجنود الأمير وحرسه والاعتداء عليهم ، وشعر الحكم بخطورة الموقف ، فحصن القصر واتخذ أهبطه . وفي ذات يوم اضطرت نار الثورة فجأة ، وذلك على أثر مشادة وقعت بين أحد مماليك الحكم وبين صيقل عهد إليه بصقل سيفه ، فتباطأ الصيقل ، فقتله المملوك ، فثار العامة في الحال ، وهرعوا إلى السلاح ، وكان أشدهم تحفزاً وهياجاً أهل « الربض » الجنوبي في الضفة الأخرى من النهر ، وهي ضاحية قرطبة الجنوبية المسماة « شقنودة » ، وكانت كثرتهم من الأوغاد والسفلة ، وكان ذلك في اليوم الثالث عشر من رمضان سنة ٢٠٢ هـ (٢٥ مارس ٨١٨ م)^(٢) ، وزحفت

(١) ابن القوطية في « افتتاح الأندلس » ص ٥٠ و ٥١ .

(٢) تختلف الرواية الإسلامية في تاريخ هذه الواقعة اختلافاً بينا ، فتضع معظم الروايات الأندلسية تاريخها في سنة ٢٠٢ هـ ؛ ويمين ابن الأبار اليوم والشهر الذي وقعت فيه فيقول إنها وقعت =

جموع الثوار إلى القصر من كل ناحية ، وتأهب الحكم في حرسه وغلماه لردّها ، وبعث ابن عمه عبيد الله البلنسى صاحب الصوائف ، والحاجب عبد الكريم ، في قوة من الفرسان والمشاة ، فاستقبلت الجموع الزاحفة ، وردتها إلى الوراء بعد أن نفذت إلى فناء القصر ، ثم شقت طريقها إلى النهر واقتحمته إلى الضاحية الثائرة ، وأضرمت النار في عدة من أنحائها ، ونجحت هذه الوسيلة في تفرقة شمل الثوار ، إذ ما كادت ألسنة اللهب تبدو ، حتى هرع الكثير منهم إلى دورهم يحاولون إطفاء النار وإنقاذ الأهل والولد . وهنا احتاط الخند بالثوار من كل ناحية وأمنعوا فيهم قتلا حتى أفنوا منهم خلقاً كثيراً ، وطاردهم في كل مكان ، ونهبت دورهم ، وأسر منهم عدد كبير ، وفر من استطاع ، ومنهم بعض الفقهاء والمحرضين مثل طالوت وغيره ، والتجأ البعض إلى طليطلة ، واستمر القتل والنهب ثلاثة أيام حتى مزقوا كل ممزق ، وصلب الحكم تجاه قصره على شاطئ النهر ثلاثمائة رجل من الثوار ، صفوفاً منكسة ، إرهاباً لأهل قرطبة . ثم كف الخند عنهم ، ونودى بالأمان وهذأت الفتنة ، وأمر الحكم بديار الثوار فهدمت عن آخرها ، ولا سيما «الرَّبَض» القبلى الذى كان مهد الفتنة ، وقام على الهدم ربيع القومس عامل أهل الذمة وقائد الغلمان الخاصة ، ففسح أحياء الثوار مسحاً ، وغدت ألوف كثيرة منهم دون مأوى ، وأمر الحكم بخروجهم من قرطبة في الحال ، وأن

حتى يوم الأربعاء ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ (الحلة السيرة ص ٣٩) ؛ ويوافقه ابن عذارى فيضع تاريخها في نفس العام (ج ٢ ص ٨٧) ؛ وتؤيد هذا التاريخ عدة روايات وردت في مخطوط ابن حبان الذى بين أيدينا ، ومنها رواية الرازى (ص ١٠٣ و ١٠٤) . ولكن ابن الأثير يضع تاريخ واقعة الربض في سنة ١٩٨ هـ ، وإن كان يشير أيضاً إلى ما قبل من وقوعها في سنة ٢٠٢ هـ (ج ٦ ص ١٠١ و ١٠٢) ؛ وبأخذ المشاركة بهذه الرواية ؛ فنرى المقرئى مثلاً يضع مقدم الأندلسيين الذين نزحوا على أثر الواقعة إلى الإسكندرية في سنة ١٩٩ هـ ، ويشير إلى اشتراكهم في الحرب الأهلية التى كانت تضطرم يومئذ بها في سنتي ٢٠٠ و ٢٠١ هـ (راجع خطط المقرئى - مصر - ج ١ ص ٢٧٨-٢٨٠) وذلك مما قد يعزز رواية ابن الأثير في حدوث الواقعة سنة ١٩٨ هـ ؛ ويميل دوزى أيضاً إلى الأخذ بهذه الرواية (ج ١ ص ٢٩٦-٢٩٧) ، ويستشهد بما يرويه المقرئى من الوقائع المادية . على أننا نحيل من جانبنا إلى الأخذ بالرواية الأندلسية ، لقدمها واتفاقها ، وكونها أقرب إلى ميدان الحوادث وأقرب إلى التحقيق . وأما رواية المقرئى ، فقد يحمل ما ورد فيها إلى اضطراب في ذكر الحوادث خصوصاً وأن الحرب الأهلية المصرية التى يشير إلى اشتراك الأندلسيين فيها قد استمرت من سنة ١٩٩ إلى سنة ٢٠٥ هـ ، مما يمكن معه أن نوفق بين أقواله وبين حدوث واقعة الربض في سنة ٢٠٢ هـ (راجع التجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٦٩ و ١٧٨) .

لا أمان لمن لديه تخلف منهم . وبدأ رحيلهم في العشرين من رمضان (٢٠٢ هـ) فتفرقوا في الثغور والكور ، ولجأت جموع منهم إلى طليطلة لمخالفة أهلها على الحكم يومئذ ، وعبر البحر كثير منهم إلى عدوة المغرب ، واتجهت جماعة كبيرة منهم قوامها زهاء خمسة عشر ألفاً إلى المشرق في عدة من السفن ، ورس في مياه الإسكندرية ، وكانت مصر تضطرم يومئذ بنار الحرب الأهلية التي نشبت بين السرى بن الحكم وبين خصومه حول ولايتها ، فنزل الأندلسيون إلى الثغر واستقروا فيه ، واشتركوا في الحرب الأهلية ، واستمرت الفتنة بمصر ، والأندلسيون بالإسكندرية ، حتى قدم عبد الله بن طاهر إلى مصر أميراً عليها من قبل الخليفة المأمون ، فسار إلى الإسكندرية وحاصرها ، واضطر الأندلسيون إلى الإذعان والصلح ، وغادروا الإسكندرية في سفنهم ، وساروا إلى جزيرة إقريطش (كريت) ، بقيادة زعيمهم أبي حفص عمر بن عيسى البلوطي ، وافتتحوها ، ونزلوا بها (٢١٢ هـ - ٨٢٧ م) ، وأسبسوا بها دولة صغيرة زاهرة استمرت زهاء قرن وثلث ، حتى استعاد البيزنطيون الجزيرة من المسلمين سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) .

هكذا كانت ثورة « الربض » التي كادت أن تحمل الحكم وعرشه ، وكانت ثورة شعبية بمعنى الكلمة ، ولكنها كانت دون تنظيم ودون زعامة ، وقد أدرك الحكم خطورتها ، ولم تأخذه في إخمادها هواة ولا رافة ، وأصدر عقب إخمادها كتاباً إلى الكور يشرح فيه الواقعة وظروفها . وقد رأينا أن ننقل نصه فيما يلي كوثيقة سياسية وديوانية هامة من وثائق العصر :

« بسم الله الرحمن الرحيم ؛ أما بعد فإن الله ذو الفضل والمن ، والطول والعدل ، إذا أراد إتمام أمر وتهمة ، لمن جعله أهله وكفيه ، سدد وأعزه ، وأنفذ قضاءه بقلبه ، ولم يجعل لأحد من خلقه قوة على عناده ودفاعه ، حتى يمضي فيه حكمه له وعليه كما شاء ، وختم في أم الكتاب لا مبدل لكلماته عز وجل ، وإنه لما كان يوم الأربعاء لثلاث عشرة من شهر رمضان ، تداعى فسقة أهل قرطبة وسفلتهم ، وأذنبتهم من الشرطانيين ، ألد الفتن ، الملعوجى شراً وبطراً ، عن غير مكروه سيرة ، ولا قبيح أثر ، ولا نكر حادثة ، كان منا فيهم ، فأظهروا السلاح ، وتلبنوا للكفاح ، وهتفوا بالخلعان ، وتألقوا بالخلاف ، ومدوا عنقاً إلى ما لم يجعله الله له أهلاً من التأمير على خلقه ، والتسور في حكمه . فلما رأيت ذلك من

غدرهم وعدوانهم ، أمرت بشد جدار المدينة ، فشد بالرجال والأسلحة ، ثم أنهضت الأجناد خيلاً ورجالا ، إلى من تداعى من الفسقة في أرباضها ، فأقحموا الخيل في شوارعهم وأزقتهم ، وأخذوا بفوهاها عليهم ، ثم صدقوهم الحملات ، وكورهم بالسدات المتواليات ، فما صبر العبدان أن كشفوا السوءات ، ومنحوا أكتافهم المتواليات ، وأمكن الله منهم ذوى البصائر المؤيدات ، فأسلمهم الله بجريرتهم ، وصدعهم ببغيهم ، وأخذهم بنكثهم ، فقتلوا تقتيلاً ، وعموا تدميراً ، وعروا تشويهاً وتمثيلاً ، جزاء عاجلاً على الذى نكثوه من بيعتنا ، ودفعوه من طاعتنا ، ولعذاب الآخرة أخصى وأشد تنكيلاً . فلما قتلهم الله بجرمهم فيها ، وأحسن العون عليهم لنا ، أمسكت عن نهب الأموال ، وسبي الذرية والعيال ، وعن قتل من لا ذنب له من أهل البراءة والاعتزال ، ازدلفاً إلى رضى الله ناصرى عليهم ذى العزة والحلال ، تهنأت صلحه وقلحه ، واستورعت خدعه وشكره ، فاحمدوا الله ذا الآلاء والقمع ، معشرة الأولياء والرعية ، الذى أتاح لنا ولجميع المسلمين فى قتلهم وإذلالهم ، وقمعهم وإهلاكهم ، مما أعظم به علينا المنة ، وخصنا فيه بالكفاية ، وتمم علينا وعليكم به النعمة ، فقد كانوا أهل جرأة مقدم ، وذعرة ضلالة ، واستخفاف بالأئمة ، وظهير إلى المشركين ، وحطوط إليهم ، وتخنن لدولتهم ، فله الحمد المكور ، والاعتراف المذخور ، على قطع دابرهم ، وحسم شرهم ، أحببت إعلامك بالذى كان من صنع الله عليهم لولائك بنا ، ومكانك منا ، لمشاركتنا فى نصرته ، وتحمد الله ومن قبلك من شيعتنا ومعتقدى طاعتنا ، على جميل صنعه فيه ، وتشيعوا شكره عليه لإنشاء الله» (١) .

ومن نظم الحكم فى واقعة الربض قوله :

رأيت صدوع الأرض بالسيف واقعاً وقدا لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغورى هل بها اليوم ثغرة أبادرها مستنضى السيف دارعا

(١) نقلنا هذه الوثيقة عن مخطوط ابن حيان المشار إليه (ص ١٠٣ و ١٠٤) . وتراجع حوادث واقعة الربض فى ابن الأبار (الحلة السيرة ص ٣٩ و ٤٠) ، والبيان المغرب (ج ٢ ص ٧٧ و ٧٨) ، والمعجب للمراكشى (ص ١١) ، وابن الأثير (ج ٦ ص ١٠١ و ١٠٢) ، وابن القوطية ص ٥١ و ٥٢ . ويورد ابن خلدون والمقرئ عن الواقعة روايات محرفة متداخلة فى حوادث سابقة (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٥٦) . ووردت فى مخطوط ابن حيان عنها تفاصيل كثيرة منسوبة إلى الرازى وغيره (ص ١٠٣ - ١١٠) .

تفنيك أنى لم أكن فى قراهم .
 وهل زدت أن وفيتهم صاع قرصهم
 فهذى ملادى إننى قد تركتها
 وإنى إذ أجادر أجراً عن الردى
 بوان وقد ما كنت بالسيف قارعا
 فوافوا منايا قدرت ومصارعا
 مهاداً ولم أترك عليها منازعا
 فما كنت ذا جيد عن الموت جارعا

خرج الحكم ظافراً من تلك الثورة الشعبية بعد أن سحقها سحقاً . ومع ذلك فقد لبث أهل قرطبة على تحديهم له ، ولبثوا يتغامزون عليه ، ويقدحون فى سيرته . وقد وصف لنا كاتب قريب من العصر ، موقوف أهل قرطبة بعد الواقعة من الحكم فى قوله : « فأكثروا الخوض ، وأطالوا المهمة ، وفزع رؤوسهم إلى السم فى مساجدهم بالليل ، مستخفين من السلطان ، مدبرين عليه ، وقد كان خائفاً من ثورتهم ، متهماً لدخلتهم ، حذراً منهم ، مستعداً لهم ، مرتقباً لو ثبتهم ، مرتبطاً بالخيال على باب قصره ، نوباً بين غلمانه ... » . ثم إنه استكثر من العبيد والسلاح ، وعززهم بالأحرار ، يربطون دائماً حول القصر ، واستشعر الناس من ذلك الهيبة والخوف ، وركنوا إلى السكينة ، وفرض الحكم العشور على جميع الناس بقرطبة وبالكور ، فزاد فى نفورهم منه ، وبغضهم له (١) .

وأثارت حوادث الرضى ، واستكانة الشعب ، من جهة أخرى ، قريض للشعراء الأحرار ، من خصوم الحكم ، والناقمين على عسفه وطغيانه ، وصدرت فى ذلك قصائد كثيرة تنعى مسلك أهل قرطبة واستكانتهم ، ومن ذلك قول الشاعر غريب بن عبد الله من قصيدة طويلة :

يا أهل قرطبة الذين تواكلوا	جد الدفاع من التواكل أفضل
جد الدفاع لو انكم دافعتم	يوم الهياج لكم أعز وأجمل
إن التواكل وهنة ومذلة	والجد فيه الصنع والتمهل
صرتم أحاديث العباد وكنتم	عوناً لهم فى كل هم ينزل
أمسى عبيدكم الذين ملكتم	ملكوا عليكم والأمور تحول

ومرض عبد الرحمن بعد ذلك واستطالت به العلة ، فاستناب عنه فى أواخر عهده عبد الرحمن أكبر أولاده لتدبير الأمور (٢) ، واختاره لولاية عهده ، وأخذ له البيعة

(١) مخطوط ابن حيان المشار إليه ص ١٠٥ و ١١٠

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيرة ص ٤١ .

بالفعل ، واختار أخاه المغيرة ليخلفه من بعده ، ولكن المغيرة تنازل فيما بعد عن حقه في ولاية العهد . وكان الحكم أول أمير من أمراء بني أمية بالأندلس أخذ البيعة في حياته لولى عهده ، وذلك خشية وقوع الخلاف بعد موته . ثم توفي الحكم في السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ (٢٢ مايو سنة ٨٢٢ م) ، وقد بلغ الثانية والخمسين من عمره ، ودفن مع آبائه في مقبرة القصر المعروفة بالروضة . وترك من الولد تسعة عشر من الذكور واثنين وثلاثين من الإناث . وقيل إن الحكم أبدى حين مرض موته أسفه وندمه ، لما أوقعه بأهل الرض من بالغ النكال والشدة ، وصرح بأنه كان خيراً لو لم يفعل ما فعله ^(١) .

ولما شعر الحكم بدنو أجله استدعى ولده عبد الرحمن ، وألقى إليه وصيته ، وفيها يقول : « إني وطدت لك الدنيا ، وذلت لك الأعداء ، وأقمت أود الخلافة ، وأمنت عليك الخلاف والمنازعة ، فاجر على ما نهجت لك من الطريقة ، واعلم أن أولى الأمور بك ، وأوجبها عليك ، حفظ أهلك ، ثم عشيرتك ، ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك ، فهم أنصارك وأهل دعوتك ، ومشاركوك في حليوك ومرّك ، فهم أنزل ثقتك ، وإياهم واس من نعمتك ، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين إلى مراتبهم من عوام رعيتك ، الذين لا يزالون ناقلين على الملوك أفعالهم ، مستقلين لأعبائهم ، فاحسم عليهم ببسط العدل لكافهم ، واحسام أولى الفضل والسداد لأحكامهم وعمالاتهم ، دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة ، وإن رأيت فيمن يرتقى من صنائعك رجلاً لم تنهض به سابقة ، ويشف بخصلة ، وتطمح نفسه و همته ، فأعنه واختبره ، وقدمه واصطنعه ، ولا يرينك خمول أوله ، فإن أول كل شرف خارجيته ، ولا تدع مجازاة المحسن بإحسانه ، ومعاقبة المسيء بإساءته ، فإن عند التزامك لهذين ، ووضعك لهما مواضعهما ، يرغب فيك ، ويرهب منك . وملاك أمرك كله بالمال ، وحفظه ، بأخذه من حله ، وصرفه في حقه ، فإنه روح الملك المدبر بجثمانه ، فلا تجعل بينك وبينه أحداً ، في الإشراف على اجتنائه وادخاره ، والثقيف لإتفاقه وعطائه . وختام وصيتي إياك بإحكامك في أحكامك ، فاتق الله ما استطعت ، وإلى الله أكلك ، وإياه استحفظك ، فقد هان على الموت إذ خلفني مثلك » ^(٢) .

(١) ابن القوطية ص ٥٥

(٢) نقلنا نص هذه الوصية عن مخطوط ابن حيان . وقد وردت فيه برواية الرازي ومعاوية هشام الشينسي في نصين 'تلفين حاولنا أن نفسق بينهما .

وكان الحكم أميراً قوى النفس ، وافر العزم ، فطناً ، حسن التدبير ، واسع الخيلة ، نافذ الرأى والحزم ، صارماً يؤثر وسائل الطغيان المطلق ، شديد الاستثثار بسلطانه ، حريصاً على حمايته من كل تدخل أو نفوذ . وكان مثل جده عبد الرحمن الداخلى يلتمس الغاية بأى الوسائل ، ويذهب فى صرامته وطغيانه إلى حد القسوة والقمع الذريع ، ولم يكن يحجم مثله عن الالتجاء إلى وسائل لا تقرها المبادئ الأخلاقية القويمة . وكان شغوفاً بأبهة الملك ، مسرفاً فى مظاهر البذخ الطائل ، كثير الترفع عن العامة ، ولم يكن كآبيه وجده محبباً إلى الشعب ، بل كان بالعكس مكروهاً من الكافة ، وكان الفقهاء يثنون هذا البغض فى نفوسهم بوسائلهم الخاصة ، لما عمد إليه الحكم من سحق سلطانهم ونفوذهم . ومع ذلك فقد كان الحكم بالرغم من عسفه وطغيانه ، أميراً مستنيراً ، يؤثر العدل ، ويحرص على إقامته ، ويختار لقضائه أفضل الناس ، وأكثرهم نزاهة وورعاً ، وكان يسلط قضائه على نفسه ، وعلى ولده وخاصته . وكان قاضيه محمد بن بشير من أعظم القضاة نزاهة واستقلالاً فى الرأى والحكم^(١) .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى أن الحكم كان أول من أظهر فخامة الملك بالأندلس ، والواقع أنه أول من أنشأ بالأندلس بلاطاً إسلامياً ملوكياً بكل معانى الكلمة ، ورتب نظمه ورسومه ، وأقام له بطانة ملوكية فخمة ، فاستكثر من الموالى والحشم ، وأنشأ الحرس الخاص ، وفى عهده ظهر الصقالبة لأول مرة فى البلاط بكثرة ، وكان جده عبد الرحمن الداخلى أول من وضع سياسة اصطفاء الموالى لاستراسته بالعرب كما قدمنا ، وتوسع حفيده الحكم فى تطبيق هذه السياسة ، فاستكثر من الموالى والصقالبة ، وعهد إليهم بمعظم شئون القصر والخاص . وكان هؤلاء الصقالبة^(٢) على الأغلب من الرقيق والحصيان ، الذين يوثق بهم بالأخص من بلاد الفرنج وحوض الدانوب وبلاد اللونبارد ومختلف ثغور البحر الأبيض النصرانية ، وكان يوثق بهم أطفالاً من الجنسين ويربون تربية إسلامية ، ثم يدربون على أعمال البطانة وشئون القصر ، وقد سما شأنهم فيما بعد ، وتولوا مناصب الرياسة والقيادة ،

(١) أخبار مجموعة ص ١٢٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٥ ؛ والمعجب ص ١١ .

(٢) يرى البعض أن كلمة صقالبة قد اشتقت فى الأصل من كلمة **Esclave** الإفرنجية .

ومعناها الرقيق أو الأسير . راجع **Reinaud : ibid , p. 237**

وبلغ عددهم في عهد الحكم زهاء خمسة آلاف^(١). وكان للحكم فرقة من الحرس الخاص معظمهم من فيء أربونة ورثهم عن والده هشام ، وقد أبلوا في الدفاع عنه يوم الربض أحسن البلاء ، فأعتقهم جميعاً ، وأغدق عليهم صلاته^(٢). وكان الحكم فارساً مجيداً ، يعشق الفروسية والصيد ، وكانت له ألفا فرس من الجياد الصافنات مرتبطة على شاطئ النهر تجاه القصر ، يشرف عليها جماعة من العرفاء البارعين^(٣). وكانت له شرطة قوية منظمة ، وله عيون يطالعونه بأحوال الناس . وعلى الحملة فقد كان الحكم أميراً عظيم السلطان والهيبة ، يسطع بلاطه ، كما تسطع خلاله ، ويثير من حوله بهاء الملك وروعته ، وقد شبه بعضهم بأبي جعفر المنصور في قوة الملك ، وتوطيد الدولة ، وقمع الأعداء^(٤).

وكان الحكم فوق ذلك خطيباً مفوهاً ، وشاعراً مجيداً ، نظم الشعر في مختلف المناسبات ، من أحداث الحرب والسياسة ، والفخر والغزل وغيرها . وقد أوردنا فيما تقدم شيئاً من نظمه في واقعة الربض ، ومن قوله في الفخر :

غناء صليل البيض أشهى إلى الأذن	من اللحن في الأوتار واللهو والردن
إذا اختلفت زرق الأسنة والقنا	أرتك نجوماً يطلعن من الطعن
بها يهتدى السارى وينكشف الدجى	وتستشعر الدنيا لباساً من الأمن
وإن تجد الأبطال حصناً ومعقلا	فألى غير السيف في الأرض من حصن
قدفت بهم في فضا الأرض فانزوت	له الأرض واستولى على السهل والحزن
ومن قوله في الغزل :	

قضب من البان ماست فوق كثنان	ولئن عني وقد أزمعن هجراني
ناشدتهن بحقي فاعترزن على الـ	عصيان لما خلا منهن عصياني
ملكنتي ملكاً ذلت عزائمه	للحب ذل أثير موثق عاني
من لي بمغتصبات الروح من بدني	يغصبني في الهوى عزى وسلطاني

(١) المسالك والممالك لابن حوقل ص ٧٥ ؛ وفتح الطيب ج ١ ص ١٥٩ و ١٦٠ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٢٨ .

(٢) مخطوط ابن حيان المشار إليه (ص ١٠٦) .

(٣) أخبار مجموعة ص ١٢٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٨١ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٧ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٢٨ ؛ وفتح الطيب ج ١

على أن هذه الخلال الباهرة التي كان يتمتع بها الحكم ، لم تكن دون نواح قائمة
هى دائماً مما يغلب لدى الطغاة الأقوياء ، وقد ذكر لنا ابن حزم أنه كان من
المجاهرين بالمعاصي السفاكين للدماء . ويزيد ابن حزم على ذلك أن الحكم كان يخصى
من اشتهر بالجمال من أبناء رعيته ، ليدخلهم إلى قصره ويصيرهم من خدمه ، ومن
هؤلاء طرفة بن لقيط ، وهو من أسرة ناهية تصرف أبناؤها في الولايات الرفيعة ،
ومنهم نصر صاحب منية نصر ، وهو الذى غدا في عهد ولده عبد الرحمن من أعظم
رجال الدولة مكانة ونفوذاً (١) .

وكان الحكم مديد القامة ، أسمر ، نحيفاً ، وكان يلقب بالحكم المنتصر ،
وبالحكم الربضى ، نسبة إلى ما حدث منه في واقعة الرض .

* * *

وكانت حكومة الحكم تضم طائفة من الشخصيات البارزة في تاريخ الأندلس
في ذلك العصر ، فتولى حجابته (رياسة الوزارة) عبد الكريم بن عبد الواحد
ابن مغيث قائد أبيه من قبل ، وكان جندياً عظيماً ، قاد عدة غزوات مظفرة إلى
بلاد النصرارى ، وكان أيضاً كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً (٢) . وخلفه في الحجابة
عبد العزيز بن أبي عبدة ، وكان قائداً كبيراً وسياسياً بارعاً . وكان بين قواده
وزرائه أيضاً ، إسحاق بن المنذر ، والعباس بن عبد الله . وفي عهد الحكم
أنشئ بالدولة منصب خاص لإدارة شئون أهل الذمة (النصارى واليهود) ينعت
صاحبه بالقومس (٣) ، وعين فيه ربيع بن تدلف القومس ، قائد الغلمان الخاصة
ومتولى قهرمة الأمير الحكم وشئونه الخاصة ، وكان طاغية ظلوماً يبغضه الجميع ،
وقد أمر الحكم بقتله قبيل وفاته ، فنفذ فيه الحكم ولى العهد عبد الرحمن ، وتم
إعدامه وسط الاغتياب العام . وذكر البعض أن هذا المنصب أنشئ في عهد

(١) مخطوط ابن حيان السالف الذكر ص ١٢٨ . وراجع رسالة ابن حزم المعلقة «نقط
العروس» المنشورة بعناية الدكتور شوق ضيف في مجلة كلية الآداب (ديسمبر سنة ١٩٥١) ،
ص ٧٣ . وكذلك نفع الطيب ج ١ ص ١٦٠ .

(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٧٢ .

(٣) مخطوط ابن حيان . والقومس تعريب للكلمة اللاتينية Comes ، وتعرب أحياناً بكلمة
«نقط» ، أعني «الكونت» Comte باللغة الحديثة .

عبد الرحمن الداخل^(١). ولكن الظاهر أنه لم يرتب بصورة ثابتة وتحدد اختصاصاته إلا في عهد الحكم .

وكان عصر الحكم ، بالرغم مما غشيه من الاضطرابات والفتن ، عصراً ازدهرت فيه الآداب والعلوم ، وظهر فيه عدد جم من أكابر الكتاب والشعراء والعلماء . وكان في مقدمتهم شاعر الحكم الأثير لديه ، وقطب الشعر في عصره ، عباس بن ناصح الثقفى الجزيرى ؛ وكان فضلاً عن براعته في الشعر والأدب ، بارعاً في علوم اللغة ، وفي الهندسة والفلسفة والفلك ، وكانت له منزلة خاصة عند الحكم ، وله في مديحه أشعار كثيرة . وقد ولاه الحكم قضاء الجزيرة ببلده ومسقط رأسه ، ثم وليه من بعده ولده عبد الوهاب بن عباس ، وكان مثله شاعراً نابهاً ، وتوفى أواخر عهد الحكم^(٢) .

وكان من أعلام عصر الحكم أبو القاسم عباس بن فرناس ، وهو فيلسوف وعلامة رياضى من نوع فذ ، وقد ولد في مقاطعة تاكرنا من أصل بربرى ، وبرع منذ فتوته في الفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية ، وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة ، وبرع أيضاً في الموسيقى ، وصنع آلة فلكية تعرف « بالميقاة » لتعريف الوقت ، وله مخترعات كثيرة أخرى . وروى بعضهم أنه حاول أن يخترع أداة للطيران ، فصنع لنفسه جناحين بهيئة مخصوصة ، وحاول الطيران من ناحية الرصافة ، فحلق في الهواء ، ثم وقع في مكان طيرانه على مسافة بعيدة ، واشتهر أمره بذلك حتى قال فيه مؤمن بن سعيد الشاعر :

يطم على العنقاء في طيرانها إذا ما كسى جثمانه ريش قشعم
وذكر عبد الحميد بن بسيل الوزير ، قال : « أبدع عباس بن فرناس طول أمدته إبداعات لطيفة واختراعات عجيبة ، وضرب بالعود ، وصاغ الألحان الحسنة ، وكان مع ذلك مجيداً للشعر ، حسن التصرف في طريقته ، كثير المحاسن جم الفوائد » . وأثار ابن فرناس باختراعاته المدهشة ريب الجهلاء ، فكثرت الطعن في عقيدته ، واتهم بالزندقة ، ولكن القضاء لم يجد سبيلاً إلى إدانته ، وعاش طويلاً وعاصر من بعد الحكم ، ولده عبد الرحمن ، وتوفى في عهد حفيده الأمير محمد بن

(١) ابن القوطية ص ٣٨ . ويقول إن أول من تولى « القامة » هو ارطاس ابن وتيزا .

(٢) مخطوط ابن حيان ص ١٢٨ و ١٢٩ . وراجع تاريخ العلماء والرواة لابن الفرضى

عبد الرحمن^(١) ونظم كثيراً من مختار الشعر في العهود الثلاثة . وسوف نعود إلى ذكره .
ومن أعلام عصر الحكم أيضاً ، يحيى الغزال الحلياني ، وهو أبو زكريا يحيى
ابن الحكم البكري ، نسبة إلى بكر بن وائل ، وأصله من مدينة جيان ، ولقب
بالغزال لجماله وظرفه وتأنقه ، وكان شاعراً جزلاً مطبوعاً ، وبرع بالأخص في
الغزل ، وله في النسايات كثير من رقيق النظم ، وكان فوق ذلك عالماً بالفلك
والفلسفة ، وله أرجوزة طويلة في أبواب العلوم لم تصل إلينا ، وكان كثير
التعريض بالفقهاء والحملة عليهم ، حتى سخطوا عليه ، ورموه بالزندقة ،
لصراحته وحر تفكيره . وهو القائل فيهم :

لست تلقى الفقيه إلا غنياً ليت شعري من أين يستغنونا
تقطع البر والبحار طلاب الد رزق والقوم ها هنا قاعدونا
إن للقوم مضرباً غاب عنا لم يصب قصد وجهه الراكبونا
وله في ذكر النفس والروح قصيدة ، أثارت حول عقيدته شهراً ورياً ،
يقول فيها :

يا ليت شعري أي شيء محصل يرى شخص من قد مات وهو دفين
أهو هو أم خلق شبيه بما رأ ي فقل للقلوب النائمات عيون
وكيف يرى والعين قد مات نورها وواقعته شبه الوقار سكون
لئن كانت الأرواح من بعد بيتها هن إلى ما خلفهن حنين
وقال يمدح الحكم في قصيدة مطلعها :

كان الملوك الغلب عندك خُصماً خواضع طير يتقى الصقر لُبد
تقلب فيهم مفلة حكيمة فتخفص أقواماً وقوماً تُسود
واشتهر الغزال فوق ذلك بأصالة الرأي ، وحسن التدبير ، واللباقة ، والدهاء
وقد رشحته هذه الصفات فيما بعد ، في عصر عيد الرحمن بن الحكم للقيام ببعض
المهام الدبلوماسية الخطيرة ، وهو ما سوف نعود إليه في موضعه .

الفصل السادس

عبد الرحمن بن الحكم

ولاية عبد الرحمن بن عبد الحكم . الثورة في تدمير . شغب أهل الذمة . غزو ألبه والقلاع . وفاة الحاجب عبد الكريم . نكبة جديدة للفرنج . حوادث انقراض الأعل . ثورة البربر في ماردة . مغامرات محمود بن عبد الجبار وأخته جميلة العذراء . ثورة هاشم الضراب في طليطلة . سير الجند إليها ومصرع الضراب . محاصرة طليطلة وثبات الثوار . تعاقب الحملات إليها . حصارها للمرة الثانية وخضوعها . الصوائف . غزو عبد الرحمن لنافار . خروج والى تطيلة وتحالفه مع النصارى . بنى قسى وأصلهم . سير عبد الرحمن إلى الشمال . زحفه على نافار واقتحامه لبغبلونة . هزيمة الثوار والنصارى . وفاة ألفونسو الثانى . النورمانيون أو المجوس . بدء ظهورهم فى المياه الإسبانية . غزوهم لشفر أشبونة . إقصائهم للنهر حتى إشبيلية . غزوهم لها وحبسهم فيها . الحرب بين المسلمين والغزاة . هزيمة النورمانين وانسحابهم . اتهام حكومة قرطبة بأمر الأسطول . غزو جليقية . حوادث الفجر الأعلى . غزو ميورقة . الحملات البحرية الأندلسية إلى شواطئ فرنسا وكورسيكا وسردانية . الحرب بين المسلمين والمشكنس . مجتمع النصارى فى قرطبة . كيف يصفه المستشرق سيمونيت . حملته على الحكومة الإسلامية . الفلاة المتصبون . بغضهم للمسلمين وتحاملهم على الإسلام . مجاهرهم بسب النبى . عقاب المعتدين . دسائس الأحبار وتفاقم الفتنة . أقوال الامة أئاميرا . مجتمع الأساقفة وحزم الحكومة . قصة الفتاة فلورا . وفاة عبد الرحمن . صفاته وخلاله . رودة البلاط الأموى فى عهده . ترتيب الوزارة . وزراؤه وكتابه وقضااته . اصطفاؤه للموالى والصقالبة . الفتى نصر . نفوذ الذتيان والحوارى . منشأته . الأمن والرخاء فى عهده . أدبه وشعره . حمايته للعلوم والآداب . استقدامه لزياب فابنة الموسيقى . شغفه بجمع الكتب . سفارة قيصر قسطنطينية إليه . بواعث هذه السفارة . سفارة عبد الرحمن إلى القيصر وكتابه إليه . يحصى الغزال فى بلاط بيزنطية . سفارته إلى ملك النورمانين .

لما توفى الحكم ، خلفه عبد الرحمن أكبر أولاده بعهد منه ، وكان ينوب عنه فى الحكم أثناء مرضه حسبما قدمنا ، وبويع فى اليوم التالى لوفاة أبيه ، فى السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦ (مايو ٨٢٢ م) ، وأخذ له البيعة بالقصر الحاجب عبد الكريم ، وكان حينما ولى العرش فى الحادية والثلاثين من عمره ، إذ كان مولده بطليطلة فى سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) ، وأمه أم ولد تدعى « حلاوة » ، وكان أحب أبناء الحكم إليه ، وقد عنى بربيته وتثقيفه عناية خاصة . وشغف عبد الرحمن ، منذ فتوته بالأدب والحكمة ، ودرس الحديث والفقه ، فكان ذهناً مستنيراً^(١) ، وكان فوق ذلك أميراً رفيع الخلال والكفاية ، وافر الخبرة بشئون

الحرب والإدارة ، يحسن اختيار الرجال للمناصب ، فكان يحشد حوله خيرة رجال الدولة من الوزراء والقادة والولاة والقضاة (١) .

وفي فاتحة ولايته ، عاد عبد الله البلنسى ، عم أبيه ، إلى الثورة مرة أخرى ، واحتل كورة تدمير مطالباً بإقطاعها (سنة ٢٠٧هـ) ، والتف حوله جمع كثير ، وكان يزعم الزحف إلى قرطبة بالرغم من ضعفه وشيخوخته ، ولكن المرض عاجله ، وتوفي في العام التالي (سنة ٢٠٨هـ) ، فاحتل عبد الرحمن كورة تدمير ، وتكفل بأهله وولده ، وانتهت بذلك آخر مرحلة في فتنة طالما تكررت حدوثها منذ وفاة عبد الرحمن الداخل .

ولكن تدمير لبث مع ذلك تضطرم بنار ثورة داخلية من نوع جديد . ذلك أن فتنة نشبت فيها بين المضربة واليمنية ، من جراء موت مضرى قتله يمانى ، واستفحل الشر بينهما ، وقتل كثير من الفريقين ، فبعث عبد الرحمن إليهم حملة بقيادة يحيى بن عبد الله ، وعينه والياً على تدمير ، ولكنه لم يفلح في إخضاع الولاية الثائرة . واستمرت الفتنة على أشدها ، وغلب على تدمير أبو الشماخ زعيم اليمنية ، ولبت بضعة أعوام يتحدى سلطة قرطبة ، والبعوث تردّد إليه في كل عام ، دون أن تنال منه منالاً ، ولم تهدأ الفتنة إلا في سنة ٢١٣هـ ، حيث خضع أبو الشماخ وغيره من الزعماء ، وطلبوا الأمان ، وعادوا إلى الطاعة .

وحدثت في قرطبة عقب جلوس عبد الرحمن بأيام قلائل ، فتنة شعبية من نوع ما حدث أيام الربض . ذلك أن وفوداً من أهل الذمة وغيرهم قدمت من البيرة تطالب برفع المغارم التي فرضها عليهم ربيع الأسقف ، وانضم إليهم كثير من أهل قرطبة النصارى ، وساروا إلى القصر في ضجة كبيرة ، فأرسل إليهم عبد الرحمن قوة من الفتيان لتهديتهم فاعتدوا عليها ، فبعث عندئذ الجند إليهم ، ففتكوا بهم وقتل منهم خلق كثير ، وفر الباقون في مختلف الأنحاء ، وكان ذلك في المحرم سنة ٢٠٧هـ (٢) .

وبدأ عبد الرحمن برنامجه في الغزو والجهاد مبكراً ، فبعث في صيف سنة ٢٠٨هـ (٨٢٣ م) حملة إلى ألبة والقلاع بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث ، وكان ألفونسو الثاني ملك جليقية (أو ليون) قد أغار على

(١) مخطوط ابن حيان ص ١٣٨ .

(٢) مخطوط ابن حيان المشار إليه ، وابن الأثير ج ٦ ص ١٣٠ .

مدينة سالم Medinaceli من أعمال الثغر الأعلى ، وحذت حذوه بغض القبائل الجبلية من أهل بسكونية ، فأغارت على أطراف الثغر وعانت فيها ، فاخترق الحاجب بسائط ألبه والقلاع ، وهزم النصارى في عدة مواقع ، وعاث في ألبه وخرب مدينة ليون وأحرق حصونها ، واشترط على النصارى أن يدفعوا جزية كبيرة ، وأن يطلقوا أسرى المسلمين ، وأن يسلموا بعض زعمائهم كفالة بسكينتهم ، وعاد الحاجب إلى قرطبة مثقلاً بالغنائم والسبي . وكانت هذه آخر غزوة قام بها هذا الوزير النابه والقائد المظفر ، الذي قاد معظم الغزوات الكبرى إلى أرض العدو ، منذ عهد هشام بن عبد الرحمن ، إذ توفي عقب عودته إلى قرطبة بقليل في المحرم سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٤ م)^(١) .

وفي هذا العام (٨٢٤ م) أصيب الفرنج بهزيمة ساحقة في أحواز بنبلونة ، في سفح جبال البرنيه ، عند باب شزروا ، حيث نكب جيش شارلمان من قبل ، ويبدو من أقوال الرواية الفرنجية أن المسلمين كان لهم دور كبير في إيقاع هذه الهزيمة . ذلك أن لويس ملك الفرنج أرسل قواته بقيادة الكونتين أزنار وإبلو لمهاجمة البشكنس وإخضاعهم ، فاستغاث البشكنس بحيرانهم المسلمين ، والظاهر أن الذي لبى نداء البشكنس هم بنو موسى أو بنو قسبي أصحاب تطيلة ، وأن هذه المعاونة كانت بموافقة حكومة قرطبة . وعلى أى حال فقد أحرز المسلمون والبشكنس على الفرنج نصراً ساحقاً . وأسر القائدان أزنار وإبلو ، ثم أطلق سراح الأول وأرسل الثانى إلى قرطبة حيث اعتقل بعض الوقت . وقد أثار هذا الحادث ذكريات موقعة باب شزروا الكبرى التى نكب فيها الفرنج أيام الأمير عبد الرحمن الداخل ، قبل ذلك بستة وأربعين عاماً^(٢) .

وتولى قيادة الصائفة بعد الحاجب عبد الكريم^(٣) ، أمية بن معاوية بن هشام ، ولكنه لم يسر إلى أرض العدو ، بل سار إلى شنت برية ، ثم إلى تدمير ليعمل على تهدئة الثورة . وكانت حوادث الشمال قد عادت تتطلب اهتمام قرطبة ، وكان

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٦١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) راجع : R.M. Pidal : ibid, Vol. I. p. 195 ، وكذلك كوندى ؛ Conde : ibid ; Vol. I. p. 264 & 265

(٣) كانت معظم الحملات والغزوات الإسلامية الكبرى ، تنظم في الصيف باعتباره خير الفصول للقيام بمثل هذه الغزوات ، ولهذا كانت تسمى بالصائفة والصوائف .

الفرنج في الثغر القوطي قد تحركوا ، وأغاروا على أطراف الثغر الأعلى ، بقيادة أميرهم برنهارت صاحب برشلونة ، وهو ولد جيوم دوق تولوز ، فسير عبد الرحمن إلى الشمال جيشاً كبيراً بقيادة عبيد الله بن عبد الله البلنسي ، فاخترق الثغر الأعلى إلى أراضي الفرنج (٢١٢ هـ - ٨٢٧ م) واجتاح ولاية قطلونية ، وهزم الفرنج في عدة مواقع ، وسار حتى جيرندة (جبرونة) ، ولكنه لم يحاول أن يحرز فتوحاً ثابتة ، فارتد إلى الجنوب بعد أن مزق شمل النصارى في تلك الأنحاء (١) .

وشغلت عبد الرحمن في الأعوام التالية عدة ثورات محلية خطيرة ، وكانت الفتنة تضطرم في نفس مواطنها القديمة ، في طليطلة ، وماردة ، حيث كانت عناصر الخروج والثورة تحتشد وتعمل بعيدة عن العاصمة ، متمتعة بالوهاد والوعر ، قريبة من النصارى ، تتلقى منهم الوحي والعون في أحيان كثيرة . ففي ماردة ثار البربر بقيادة زعيمين من زعمائهم هما محمود بن عبد الجبار بن راحلة ، وهو من بني طريف من مسمودة ، وسليمان بن مرتين ، وانضم إليهم النصارى المعاهدون . وألحق لويس ملك الفرنج فرصة جديدة للفس والتحريض على حكومة قرطبة ، فبعث إلى الثوار يشجعهم ويعدهم بالممدد والعون (٢) . وكان محمود زعيماً قوياً ومغامراً جريئاً ، فوثب بعامل ماردة وقتله ، وعاث في تلك الأنحاء قتلاً ونهباً وتخريباً ، وتوالت إليه بعوث عبد الرحمن ، فكان في كل مرة يعتصم بالمدينة ، فإذا غادره الجند عاد إلى عيشه وسفكه . وفي سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) سار إليه عبد الرحمن بنفسه ، فغادر ماردة في صحبه ومعه زميله سليمان ، وخرجت مع محمود أخته جميلة العذراء ، وهي فارسة بارعة الحسن ، اشتهرت يومئذ في جميع أنحاء الأندلس برائع جمالها ، كما اشتهرت بالشجاعة والنجدة والفروسية ، ولقاء الفرسان ومبارزتهم (٣) ، ونزل الثوار بحصن فرنكش على ضفة نهر وادي يانة . ثم غادر سليمان زميله ، واستقل محمود بالعمل ، وزحف في جموعه على بطليوس ، ثم على أكشونة (٤) ثم سار إلى باجة ، فقاتله أهلها ، ولكنه تغلب عليهم بمعاونة أخته جميلة ، وبسط محمود سلطانه على

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٨٥ ؛ ومخطوط ابن حيان ص ١٨٠ .

(٢) Scott : ibid , Vol. I. p.482

(٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٤٦٦ .

(٤) بطليوس بالإسبانية Badajoz ، وأكشونة Osonoba

باجة ، وهو يقاتل خصومه من حوله ، وبعوث الأمير تتردد إليه ، حتى لحقه الإعياء واليأس ، ففر مع أخته وصحبه إلى جليقية ، واستجار بملكها ألفونسو الثاني ، فرحب به وأكرم وفادته ، وأنزله بأطراف مملكته . وبعد حين رأى الثائر أن يعود إلى الطاعة فكتب عبد الرحمن ، ووقف ألفونسو على هذه المحاولة ، فخشى إن أفلت الثائر منه أن ينقلب حرباً عليه ، فسار إليه وأحاطت به الجند من كل ناحية ، ودافع محمود عن نفسه دفاع الأبطال ، ولكنه قتل أخيراً ، وأسر أهله وصحبه ، وكانت أخته الحسنة جميلة بين الأسرى (٢٢٥ هـ - ٨٤٠ م) . ووقعت جميلة في نصيب كبير من كبراء النصارى ، فحملها على اعتناق النصرانية وتزوج منها ، وكان من ولدها فيما بعد أسقف شنت ياقب (١) .

واضطربت طليطلة بالثورة في نفس الوقت ، ففي سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) ثار بها زعيم من العامة يدعى هاشم الضراب ، وكان هاشم في طليطلة أيام واقعة الحفرة ، ثم أخذ بين الرهائن إلى قرطبة ، فاشتغل بها حداً مدى حين وعرف بالضراب ، ثم غادرها إلى طليطلة ، وهناك اجتمع إليه عدد كبير من الأوغاد والسفلة ، فأخذ يغير بهم على الأنحاء المجاورة ، حتى اشتد بأسه وطار صيته ، وهرع إلى لوائه أهل الشر والبغي من كل صوب ، وسار إلى البربر في شنت برية ، فأغار عليهم وأوقع بهم ، فبعث عبد الرحمن الجند لقتاله بقيادة محمد بن رستم ، عامل الثغر الأدنى ، فنشبت بينه وبين الثوار عدة وقائع غير حاسمة . وفي العام التالي بعث عبد الرحمن إلى عامله بالمدد ، فرحف على الثوار والتقى بهم على مقربة من حصن سمسطا بمجاورة رورية ، ونشبت بين الفريقين موقعة عنيفة هزم فيها الثوار ، وقتل هاشم الضراب وكثير من أصحابه ، وذلك في سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) .

ولكن طليطلة استمرت مع ذلك على اضطرامها ، وكان على عبد الرحمن أن يخوض معارك أخرى لإخضاعها . ففي سنة ٢١٩ هـ (٨٣٤ م) أرسل إليها جيشاً بقيادة أخيه أمية بن الحكم ، فحاصرها وانتسف ما حولها من الزروع ، ولكن المدينة الثائرة لم تهن ولم تخضع ، فرحل عنها ، وأبقى بعض قواته بقيادة

(١) وردت هذه التفاصيل الشائكة في مخطوط ابن حيان (ص ١٨٢ و ١٨٣ و ١٨٤) .

وراجع ابن القوطية ص ٦٧ .

ميسرة الفتى في قلعة رباح^(١) الواقعة في جنوبها استعداداً لمحاصرتها ، فخرج عندئذ أهل طليطلة لقتال ميسرة ، فظهر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، فارتدوا إلى داخل المدينة ، وعادوا إلى الاعتصام بأسوارها المنيعة . وفي العام التالي (سنة ٢٢٠ هـ) سار إليهم عبد الرحمن بنفسه ، فثبتت في وجهه المدينة الثائرة ، فترك الحند في قلعة رباح ، وسار إلى الغرب في أحواز ماردة ، ليطارد سليمان بن مرتين زعيم البربر ، وكان بعد أن تخلف عن زميله محمود بن عبد الجبار ، يتزعم الثورة في تلك الأنحاء ، فحاصره عبد الرحمن ، وحدث أن قتل الثائر في سقطة مميتة عن جواده ، فانفضت جموعه وخبت ثورته . وسير عبد الرحمن في العام التالي حملة أخرى إلى طليطلة بقيادة أخيه الوليد بن الحكم ، فحضر حولها الحصار الصارم ، واستمر على حصارها حتى جهد أهلها ، وضاقوا بالحصار ذرعاً ، ثم هاجمها بعد ذلك واقتحم أسوارها ، وخضعت المدينة الثائرة ، بعد أعوام عديدة من من فتن وثورات مستمرة ، كان يغذيها خلالها روح التمرد المتأصل في شعبها ، ودسائس البربر والنصارى من أهلها ، وتخريض الفرنج والحلالقة ، وكان خضوعها في رجب سنة ٢٢٢ هـ (٨٣٧ م)^(٢) .

واستطاع عبد الرحمن بعد إخماد الثورة في مختلف النواحي ، أن يستأنف أعمال الجهاد والغزو ، فعكف في الأعوام التالية على تسيير الصوائف أو حملات الغزو الصيفية متعاقبة في كل عام إلى الشمال ، تارة إلى أطراف الثغر الأعلى ، حيث تشتبك مع الفرنج ، وتشن في أراضيهم ، وتارة إلى ألبه والقلاع ، حيث تغير على أراضي البشكنس ، أو أطراف مملكة ليون (جليقية) ، وتولى عبد الرحمن قيادة الصائفة بنفسه إلى جليقية في سنة ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) . وفي سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢ م) سار عبد الرحمن إلى الشمال ، وكان موسى بن موسى بن قسيّ وإلى نُطيلة^(٣) من أعمال الثغر الأعلى (أراجون) ، قد خرج عن طاعته وتحالف مع غرسية^(٤) أمير نافار ، وأوقع الإثنان بجند الأمير في الثغر ، وعاثا في أنحائه .

(١) ومقابلها بالإسبانية Calatrava

(٢) راجع ابن الأثير ج ٦ ص ١٤١ و ١٥٠ و ١٥٣ و ١٦١ ، والبيان المغرب ج ٢

ص ٨٥ و ٨٦ و ٨٧ .

(٣) وهي بالإسبانية Tudela

(٤) وهي بالإسبانية Garcia

وتقول الرواية في سبب نقض موسى الطاعة ، أن عبد الرحمن كان قد ولي عبد الله بن كليب على مرقسطة ، وعامر بن كليب على تُطيلة ، فأغار عبد الله على أموال ينقة بن ونقة أخى موسى لأمه ، واعتدى عامر بن كليب على أملاك موسى وخيله ، وانتهب أمواله ، وخرب حدائقه ، فعندئذ أعلن الخروج والعصيان ، وكان ذلك في سنة ٢٢٦ هـ^(١) . فسار عبد الرحمن إلى بلاد البشكنس (ناقار) ، وتوغل فيها حتى بذبلمونة ، وعاث فيها نكسفاً ونخرياً ، وسبى من أهلها جمعاً كثيرة .

ولا بد لنا هنا من التعريف بهذا الزعيم التأثر موسى بن موسى ، إذ هو سوف يحتل منذ الآن فصاعداً ، هو وأبناؤه ، حيزاً كبيراً في تاريخ الثورة على حكومة قرطبة . فهو وفقاً لابن حيان ، وابن حزم ، موسى بن موسى بن فرتون ابن قسي (أو القسوي) . وكان جده الأعلى ، الكونت قسي Kasi من أشرف القوط ، وكان وقت الفتح «فومس» Comes الثغر الأعلى ، فلما غزا المسلمون أراضيهم سار إلى الشام ، واعتنق الإسلام على يدى الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وذلك لكي يحتفظ في ظل الغزاة الحديد ، بأملأكه وسلطانه الإقطاعي ، واعتبر بإسلامه على يدى الخليفة من مواليه ، وانحاز بطريق هذا الولاء إلى جانب المضرة . وعدا أولاده وأحفاده من بعده زعماء المولدين في الثغر الأعلى . وكانوا من أنجاد الزعماء والفرسان ، يمتازون بالجرأة والإقدام والشجاعة ، ويعتزون دائماً بأصلهم القوطي النصراني ، وكانت لهم دائماً علائق مصاهرة مع جيرانهم من الأمراء النصاري ، من البشكنس وغيرهم ، وكان إسلامهم في الواقع مظهراً سطحياً لاغتنام السلطان والنفوذ ، وكانوا لا يشعرون بالولاء نحو حكومة قرطبة ، يصانعونها متى وجبت المصانعة ، احتفاظاً بمركزهم وسلطانهم في الثغر ، ولكنهم لا يحجمون عن انتهاز أية فرصة للثورة عليها ، ومحالفة أعدائها من النصاري . وسرى فيما بعد أى دور خطر قامت به هذه الأسرة المتمردة الخطرة ، في ثورة المولدين الكبرى على قرطبة^(٢) .

(١) فصوص عن الأندلس للعدي في الأوراق المنشورة من كتاب «ترصيع الأخبار» ص ٢٩

(٢) راجع المقتبس لابن حيان ، الجزء المطبوع بعناية المستشرق أنتونيا ص ١٦ و ١٧ . وكذلك بحمزة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٤٦٧ و ٤٦٨ ، حيث يقدم لنا شجرة كاملة لنسبة بني قسي ، منذ جدهم الأعلى حتى أواخر القرن الثالث الهجري .

وفي العام الثانی سار عبد الرحمن إلى الشمال مرة أخرى ، ومعه ولداه المطرف ومحمد ، واستخلف ولده المنذر على قرطبة ، وبدأ عبد الرحمن بمحاصرة تطيلة حتى أخضعها ، ثم زحف على بلاد البشكنس مرة أخرى ، ولقيه غرسية وحليفه موسى بن موسى في جموع كبيرة ، فهزم البشكنس وحلفاؤهم هزيمة شديدة ، وقتل منهم عدد جم ، وفر موسى وحليفه غرسية جريحين ، وسار عبد الرحمن إلى بنبلونة فأثنى فيها وخربها ، واضطر البشكنس إلى طلب الأمان والصلح ، وعاد عبد الرحمن إلى قرطبة ظافراً بعد أن وطد هبة الإسلام وحكومته في تلك الأنحاء (٢٢٨ هـ - ٨٤٢ م)^(١) . ولم يكن لهذه الغزوات في الواقع نتائج مستقرة ، وكانت تقصد في الغالب إلى إيقاع الرعب في قلوب نصارى الشمال ، وتخريب بلادهم ، وإنهاك قواهم ، حتى يلزموا السكينة ، ويكفوا عن عدوانهم وعيهم في أراضي المسلمين .

وفي نفس هذا العام الذي سحقت فيه نافار وخربت (٨٤٢ م) ، توفي ألفونسو الثاني الملقب بالضعيف بعد أن حكم مملكة ليون (جليقية) إحدى وخمسين عاماً ، إذ تولى الملك في سنة ٨٩١ م ، أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن ، وخلفه ولده راميرو الأول ، أو رذمير كما تسميه الرواية العربية . وقد اقتصرنا فيما تقدم على أن نسرّد من أخباره وأخبار مملكته ، ما له صلة بسير الحوادث في اسبانيا المسلمة ، أما أخبار مملكة ليون الداخلية ، فسفصلها عند الكلام على تاريخ المملكة النصرانية الشمالية .

* * *

وفي عهد عبد الرحمن بن الحكم ، عرفت الأندلس لأول مرة خطراً جديداً لم يسبق لها أن عرفت أو توقعت حدوثه : ذلك هو خطر الغزوات النورمانية البحرية .

كانت سيادة البحار الشمالية منذ بداية العصور الوسطى في يد « الفكينج » Vikings أو النورمانيين ، وكان أولئك النورمانيون أمة بحرية عريقة ، تمرست منذ غابر العصور في ركوب البحر ومقارعة أهواله ، ووطنهم الأصلي هو اسكندنافيا ، وربما دانماركه ، وشواطئ ألمانيا الشمالية ، ولذا عرفوا بالنورمانيين

(١) البيان المنرب ج ٣ ص ٨٨ و ٨٩ ؛ وابن الأثير ج ٦ ص ١٦٧ و ١٧٢ و ١٨٠ و مخطوط ابن حيان ص ١٨٥ .

أى أهل الشمال^(١) . واشتهر النورمانيون بجراتهم فى جوب البحار الشمالية ، وبراعتهم فى مغالبة قسوة الجليد وأهوال اللجة والطبيعة ، ولم يأت القرن الثامن الميلادى حتى كانت حملاتهم البحرية الناهبة ، تتخذ فى شواطئ الجزر البريطانية . وكان جذب الوطن ، وشطف العيش ، وروح المخاطرة ، تدفع بهم دائماً إلى عرض البحار ، وتجعلهم خطراً دائماً على الشواطئ والثغور المجاورة . وفى أوائل القرن التاسع وصلت حملاتهم الناهبة إلى شواطئ بلاد الفرنج (فرنسا) ، ثم نفذت جموع منهم إلى شمال فرنسا . وغزوا مصب اللوار ومصب الجارون ، وأنشأوا لهم عدة مراكز وقواعد فى تلك الأنحاء .

وهنا بدأ تطلع النورمانيون إلى اسبانيا . والأندلس بنوع خاص . وكانت نعماء الأندلس ، وما اشتهرت به من الخصب والغنى . تثير جشع أولئك الغزاة المغامرين ، ولم تكن الأندلس تحسب حساباً لذلك الخطر الداهم المستتر معاً ، لأنها لم تعرف النورمانيين من قبل . ولا تعرف لهم بقربها أرضاً أو مستقراً . وتطلق الرواية الإسلامية على أولئك الغزاة المجهولين إسم «الجوس» ، بيد أنها تعرفهم أيضاً «بالأردمانيين» أى النورمانيين ، وقد ترجع هذه التسمية إلى أن النورمانيين كانوا فى العهد الذى عرفهم فيه عرب الأندلس لأول مرة «مجوساً» أى وثنيين لم يعتنقوا النصرانية بعد . وكان ظهور النورمانيين فى المياه الإسبانية ، لأول مرة فى سنة ٨٤٣ م . فى تلك السنة خرج أسطول نورمانى من نهر الجارون وعاث فى شواطئ مملكة جليقية ، فبعث ملكها راميرو (رذمير) إليهم جيشاً ردهم وأحرق كثيراً من سفنهم ، فانقلب النورمانيون عندئذ إلى مياه إسبانيا الغربية والجنوبية ، يجوبونها فى طلب السبي والغنيمة ، واقتحموا شواطئ المملكة الإسلامية (الأندلس) فى غزوتهم الأولى .

وتضع الرواية الإسلامية هذه الغزوة فى سنة ٢٣٠ هـ ، وتحدثنا عنها بإفاضة ، فتقول لنا إن أسطولاً مجوسياً (نورمانياً) قوامه زهاء ثمانين مركباً ، رسا فى مياه أشبونة^(٢) فى أواخر سنة ٢٢٩ هـ (يولييه أو أغسطس سنة ٨٤٣ م) ، فكتب عاملها وهب الله بن حزم إلى عبدالرحمن بن الحكم ينبئه بالخطر . فكتب عبد الرحمن

(١) وهى بالإفرنجية Norsmen أو Normanen

(٢) لشبونة Lisboa عاصمة البرتغال الحديثة .

إلى عمال الثغور بالتحوط والأهبة . ولبت النورمانيون في مياه أشبونة ثلاثة عشر يوماً التحموا خلالها مع المسلمين في عدة وقائع ، ثم ساروا بأسطولهم جنوباً إلى قادس ، ثم شذونة ، ثم اخترقوا النهر الكبير (الوادى الكبير) حتى إشبيلية . وكان ظهور هذه السفن الغازية ، وأولئك الغزاة الشقر في قلب الأندلس ، مفاجأة مروعة ، ولم يكن للأندلس يومئذ أسطول قوى تدفع به شر الغزوات البحرية ، ولم تتخذ في الثغور لردّها أهبات خاصة . ونزل النورمانيون في ظاهر إشبيلية في أوائل المحرم سنة ٢٣٠ هـ (سبتمبر سنة ٨٤٣ م)^(١) وكانت يومئذ دون أسوار تحميها من العدوان المفاجيء ، وكانت مفاجأة مروعة لأهلها ، الذين لم يتخذوا أية أهبة خاصة للدفاع عن أنفسهم . وعبثاً حاول المسلمون رد الغزاة . واقتحم النورمانيون إشبيلية وأمعنوا في أهلها سفكاً ونهباً وسيياً ، وعاثوا فيها مدى سبعة أيام أشنع عيث ، ثم غادروها وعسكروا في ظاهرها ، في قرية طلياطة الواقعة غرب إشبيلية . وفي تلك الأثناء بعث الأمير عبد الرحمن قوات من الخيل على عجل لإنجاد إشبيلية بقيادة عبد الله بن كليب ومحمد بن رستم ، وجعل على قوات قرطبة حاجبه عيسى بن شهيد ، وهرع المسلمون من كل صوب للجهاد ورد الغزاة . وقاد القوات المتحدة نصر الحصى ، وتلقى النورمانيون المدد في سفن جديدة قدمت إليهم ، ونشبت بين الفريقين في البداية بضع معارك محلية ، تفوق فيها الغزاة . وفي الخامس والعشرين من صفر سنة ٢٣٠ هـ ، نشبت بينهما معركة حاسمة تجاه قرية طلياطة ، وكان على رأس قوات المسلمين محمد بن رستم ، فهزم النورمانيون بعد قتال عنيف ، وقتل منهم نحو ألف وأسروا أربعائة ، وأحرق من سفنهم ثلاثون ، وكان قائدهم بين القتلى ، وارتد النورمانيون إلى سفنهم ، وتحصنوا بها ، وقتل المسلمون أسراهم أمام أعينهم ، وصلبوا على جذوع النخل ، ثم أقلعت سفن الغزاة مرتدة إلى الجنوب ، والمسلمون من ورائهم يطاردونهم ، ويفتدون أسرى المسلمين منهم بمختلف السلع ، وانتقم النورمانيون لأنفسهم أثناء ارتدادهم بالإغارة على لبلة وباجة ، ثم انتهوا ثانية إلى ثغر أشبونة حيث غادروا مياه الأندلس مع باقى سفنهم ، بعد أن لبثوا بضعة أسابيع يثبون فيها الرعب والروع .

(١) يضع ماريانا غزوة النورمانيين الأولى لإشبيلية في سنة ٨٤٧ م (راجع تاريخه العام - الترجمة الفرنسية - ج ٢ ص ٨٤) .

واستطالت غزوة النورمانين ، منذ نزولهم بأرض إشبيلية ، إلى أن تمت هزيمتهم وإقلاعهم ، إثنين وأربعين يوماً ، عانى فيها المسلمون محناً وشدائد كثيرة ، ارتجت لها ربوع الأندلس كلها . فلما انقشعت الغمة . بادر الأمير عبد الرحمن فبعث بالكتب إلى سائر الآفاق معلنة . هذا النصر على العدو المغير ، وبعث بها بالأخص إلى أمراء العدو ، ومعها طائفة من رؤوس أكابر النورمانين القتلى . وأغدق الأمير ثنائه وصلاته على نصر الحصى فناه الأثير لديه ، وكان قائد قواته العام فى تلك المعركة الكبرى (١) .

وكان لهذه المفاجأة المروعة أثرها فى حمل حكومة الأندلس على الاهتمام بأمر الأسطول والتحصينات البحرية ، فابتنى عبد الرحمن حول إشبيلية سوراً ضخماً ، وأنشأ بها داراً عظيمة للصناعة ، واهتم بصنع السفن الحربية الكبيرة ، وحشد لها المقاتلة من شواطئ الأندلس . فكانت نواة الأسطول الأندلسى الكبير الذى بلغ فى عهد عبد الرحمن الناصر زهاء مائتى سفينة . وعلى أى حال فقد أدرك النورمانيون أن الأندلس لم تكن فريسة هينة . وتحدثنا الرواية الإسلامية بأنهم عقب هزيمتهم فى هذه الغزوة الأولى سعوا إلى الصلح مع أمير الأندلس ، وبعثوا رسلهم فى طلب السلم والمهادنة ، وأن الأمير الأندلسى عبد الرحمن بعث كاتبه يحيى الغزال إلى ملكهم ليرد السفارة ، وهى رواية سنعود إلى تفصيلها (٢) .

ولم يمض قليل على رد الغزاة النورمانين ، حتى بادر عبد الرحمن إلى استئناف الغزو ، فسير بالصائفة إلى الشمال جيشاً بقيادة ولده هشام ، ومعه الوزير عيسى ابن شهيد ، فاخترق قشتالة القديمة ، وسار صوب ناغار وغزا بنبلونة ، ووافاه هناك موسى بن موسى وإلى تطيلة ، فقدم طاعته ، ومنح الأمان ، وأقر على ولايته . وفى العام التالى سير عبد الرحمن بالصائفة قواته مرة أخرى إلى الشمال ،

(١) راجع فى تفاصيل هذه الغزوة ، البيان المغرب ج ٢ ص ٨٩ و ٩٠ ، والعذرى فى الأوراق المنشورة من « ترصيع الأخبار » ص ٩٨ - ١٠٠ ؛ وفى النويرى : نهاية الأرب (القمم الخاص بتاريخ الأندلس) وقد نقل دوزى روايته ؛ **Recherches : II: p. 337-338** وكذلك فى الملحق **Appendice 37** ؛ وفى إبن القوطية (ص ٦٣ - ٦٧) ؛ وابن الأثير ج ٧ ص ٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٩ . وفى مخطوط ابن حيان عنها تفاصيل كثيرة نقلت عن محمد بن أحمد الرازى وأخيه عيسى ومعاوية بن هشام الشينسى .

(٢) راجع رواية النويرى المشار إليها فى دوزى : **Recherches : App. 37**

بقيادة ولده محمد ، فاخترق بسائط جليقية ، وحاصر عاصمتها ليون ، ولجأ
النصارى إلى الجبال ، ثم ارتد عنها بعد أن عاث فيها قتلا وتخريباً (سنة ٢٣١ هـ -
٨٤٥ م) . وعصف بالأندلس في العام التالى قحط شديد ، وهلكت الزروع
والماشية ، وقاست البلاد من ويلاته مدنى أشهر .

وفي سنة ٢٣٣ هـ (٨٤٧ م) ظهر بالثغر الفرنجى ، في شمال شرقى إسبانيا ،
زعيم يدعى جيين دى تولوز ، وهو فيما يرجح من تسميه الرواية العربية ،
غليلم بن برباط بن غليلم ، وكان قد أعلن الخروج والثورة على ملك الفرنج
شارل الأصلع ، ووفد في العام السابق على بلاط قرطبة ، يلتمس التأييد والعون ،
فاستقبله عبد الرحمن بترحاب ، وأمدّه بعونه ، فعاد إلى الثغر وعاث فيه بقواته ،
وحاصر برشلونة وخرب حصونها ، وهاجم جرندة ، وكتب عبد الرحمن إلى
عامله على طرطوشة عبد الله بن يحيى ، وعامله على سرقسطة عبد الله بن كليب ،
في إمداده وتأنيده في ثورته ضد ملك الفرنج^(١) . بيد أنه يبدو من أقوال الرواية
الفرنجية أنه وقعت على إثر ذلك مفاوضات بين عبد الرحمن وشارل الأصلع ،
انتهت بعقد الهدنة والسلم بينهما .

وفي نفس هذا العام نقض موسى بن موسى بن قسى (القسوى) العهد ، وعاد
إلى الثورة ، وعاث في أحواز تطيلة وطرسونة وبرجة من أعمال الثغر الأعلى ،
وظاهره أخوه لأمه فرتون لإنيجز (ابن ونقة) أمير بنبلونة ، فبعث إليه عبد الرحمن
جند الصائفة بقيادة عباس بن الوليد المعروف بالطبلى ، فطارده حتى أرهق
وأعلن عوده إلى الطاعة ، وقدم ولده إسماعيل رهينة كفالة بولائه ، فقبل عبد الرحمن
طاعته ، وأقره على ولايته تطيلة ، ودخل معه في هذا الصلح أخوه فرتون لإنيجز^(٢)
وفي سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) بعث عبد الرحمن قوة بحرية كبيرة إلى جزيرتى
ميورقة ومنورقة وهما أكبر الجزائر الشرقية (جزائر البليار) لغزوهما ، ومعاقبة

(١) وردت هذه الرواية في قطعة مخطوطة أخرى من تاريخ ابن حيان ، عثرت بها في مكتبة
القرويين بفاس ، وحصلت منها على نسخة مصورة حسبما أشرت إلى ذلك من قبل . وهى التى تبدأ
حوادثها منذ سنة ٢٣٣ هـ وتنتهى بحوادث سنة ٢٦٧ هـ ، وسوف نقتبس منها منه الآن فصاعداً في
مختلف المواطن التى نتناول حوادثها . (لوحة ١٨٩ ب من المخطوطة المذكورة) .

(٢) لوحة ١٨٩ ب و ١٩٠ أ من المخطوط المذكور ، وهو يسمى هنا أمير بنبلونة بابن رنقة .
وهو تحريف ، والصواب ابن ونقة Inequiz

أهلها لتعرضهم لسفن المسلمين المجاهدين والإضرار بهم ، فأخضعهما المسلمون وأثنخوا فيهما ، وأصابوا كثيراً من السبي ، وبعث أهلها إلى الأمير يطلبون الأمان ودفع الجزية ، ويتعهدون بالولاء والطاعة ، فأجابهم إلى ما طلبوا . وكانت مياه اسبانيا الشرقية قد غدت منذ عهد هشام مركزاً للحملات البحرية المتجهة نحو الشمال والشرق ، وكان قوام هذه الحملات في الغالب جماعات من البحارة والمجاهدين ، الذين يجوبون هذه المياه طلباً للغنيمة والسبي ، ويشخنون في الثغور والجزر النصرانية القريبة . ففي سنة ٨٠٦ م (١٩١ هـ) في عهد الحكم ، غزت إحدى هذه الجماعات البحرية الأندلسية المغامرة جزيرة كورسيكا (قورسقة) ، فبعث بين ابن شارلمان ملك إيطاليا أسطولاً لقتالهم ، فهزموه واستولوا على كثيراً من الغنائم والسبي . ولم يمض عامان على ذلك ، حتى عاد البحارة المسلمون إلى غزو شواطئ كورسيكا وسردانية ، ثم توالى غزواتهم لها بعد ذلك . وفي سنة ٨٣٦ م (٢٢١ هـ) خرج أسطول أندلسي من ثغر طرطونة والجزائر الشرقية ، وسار إلى مياه فرنسا الجنوبية ، وهاجم المسلمون ثغر مرسيليا وما حوله من الأراضي وأثنخوا فيها . وكان على عرش فرنسا يومئذ لويس ابن شارلمان ، وكان ملكاً ضعيفاً عاجزاً ، فلما توفي سنة ٨٤٠ م ، اضطربت أحوال المملكة ، وضعفت حماية الثغور ، فانهز البحارة المجاهدون هذه الفرصة ، وغزوا ولاية بروفانس عند مصب نهر الرون ، وهاجموا مدينة آرل وخربوها ، ثم توالى غزواتهم في تلك المياه بعد ذلك ، وكان من أثرها أن قامت مستعمرات عربية كثيرة في بروفانس وفي أنحاء أخرى في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا ، وسوف نعود إلى حديث هذه المستعمرات العربية النائية في قلب أوروبا .

وفي سنة ٢٣٧ هـ (٨٥١ م) ، اضطرت الحرب في الشمال بين المسلمين والغسقونيين أو الجاشقين كما تسميهم الرواية الإسلامية وهم فرع من البشكنس ، وكان هؤلاء قد أغاروا على الأراضي الإسلامية المجاورة ، في قاصية الثغر الأعلى ، فتصدى لردهم موسى بن موسى وإلى تطيلة ، وكان يومئذ على ولائه لحكومة قرطبة ، ووقعت الحرب بين المسلمين والبشكنس ، في جنوبي بنبلونة على مقربة من بقيرة ، فهزم المسلمون أولاً ، وأثنخ قائدهم موسى جراحاً ، ولكنه أستأنف المعركة في اليوم التالي ، وكر على العدو بشدة ، فهزم البشكنس شر

هزيمة ، وقتل منهم عدد جم ، وتسمى هذه الواقعة في الرواية الإسلامية بموقعة البيضاء ، وهي محلة صغيرة مجاورة لبقرة^(١) .

* * *

وفي أواخر عهد عبد الرحمن ، هبت على نصارى قرطبة ريح شديدة من التعصب ، ولاحت في الأفق بوادر فتنة دينية واجتماعية خطيرة . ولم يك في نظم الحكم الإسلامي ، ما يقصد إلى إيذاء النصارى المستظلين بلوائه ، ولم تشذ حكومة قرطبة عن سياسة التسامح الإسلامي المأثور ، ولم تحاول تدخلا في شئون النصارى للدينية أو تعرضاً لعقائدهم أو شعائهم ، بل كان النصارى في قرطبة وغيرها ، أحراراً في عقائدهم وشعائهم ، والاحتكام إلى شرائعهم وقضائهم ، وكثيراً ما تبوأوا مناصب الثقة والمسئولية في الجيش وفي الإدارة ، وكثيراً ما حاربوا مع إخوانهم المسلمين جنباً إلى جنب ، وكانت أغلبية كثيرة منهم تشتغل بالتجارة في الثغور والمدن ، ويشغل عامتهم في ضياع المسلمين دون إكراه ولا عنت ، وكانت منهم مجتمعات زاهرة رغدة في قرطبة وغيرها ، بل كثيراً ما بهرتهم الفصاحة العربية فانطلقت بها ألسنتهم ووضعوا بها كتبهم ، وكثيراً ما تخلقوا بأخلاق المسلمين وعاداتهم ، ونهجوا نهجهم في الحياة الخاصة . بيد أنه كان ثمة فريق آخر من النصارى المتعصبين الذين يرون في سادتهم المسلمين أجانب غاصبين ، معتدين على دينهم وأوطانهم ، وكان أولئك الغلاة ييغضون إخوانهم من النصارى المعتدلين ، ويرمونهم بالمروق والخيانة ، وكان رجال الدين ، وهم في الأصل مبعث التعصب ودعامته ، يبدرون بذور الشقاق ، ويضرمون نار الفتنة ، ويوغرون قلوب الغلاة والمتطرفين ، باسم الدين ، وكانوا ييغضون المسلمين أشد البغض ويسخرون من دينهم ونبهم ، ويجاهرون بهذا التحامل والبغض للنبي العربي وتعاليمه ، ويعتمدون في معرفتهم للإسلام ونبيه ، على طائفة من الخرافات والأباطيل التي يتناقلها القسس في كل عصر ومكان . يقول دوزي : « ولم يك ثمة أيسر عليهم ، وقد كانوا يعيشون بين المسلمين من الوقوف على الحقيقة ، ولكنهم كانوا يرفضون أن يستقوا من المصادر التي كانت لديهم ، وكان يسرهم أن يعتقدوا وأن يعيدوا كل الخرافات السخيفة التي أذيعت عن نبي مكة »^(٢) .

(١) ابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩٣ أ . وبقرة هي بالإسبانية **Viguera** .

(٢) **Dozy : Hist, I, p. 317 et suiv.** . ويخصص دوزي لهذا البحث حيزاً كبيراً ، وتحمله

فزة من التعصب في إيراد الوقائع ووصفها ، وهو يعتمد هنا بالأخص على مصادر كنسية معاصرة .

ويقدم إلينا المستشرق سيمونت ، وهو عمدة العلماء الإسبان في الكتابة عن تاريخ « النصارى المعاهدين » *Los Mozárabes* التفاصيل الآتية ، عما يصفه بأنه « البطولة التي تذرعت بها النصرانية في قرطبة في مقاومة فورات الإلحاد الإسلامى » . ويرى سيمونيت أن قرطبة كانت من المعسكرات الرئيسية للحرب المدمرة التي شهرها الإسلام على النصرانية . وبالرغم من أنه يعترف بأن الإسلام لبث مدى قرن يحتفظ بقدر من التسامح نحو المستعربين ، وقت أن كان في حاجة إلى خدماتهم ومعاونتهم ، فإنه يقول إن الإسلام لما شعر بقوته ، لم يد تسامحاً إزاء انتعاش الروح النصراني ، الذي بدا يسيطر على فريق كبير من الشعب النصراني . ثم يتحدث سيمونيت بعد ذلك عن « المظالم وصنوف الاضطهاد التي كان النصارى يقاسونها ، ليس فقط من عامة أهل قرطبة بل من حكومة قرطبة ذاتها » . ثم يقول : « وقد كانت هذه السياسة منافية للعهود والقوانين التي منحت لوطنيين (الإسبان) أيام الفتح . وقد كان الطغيان الإسلامى شديد الوطأة على ضحايا النصارى الوطنيين وأملاكهم وكرامتهم معاً » .

ويعنى سيمونيت على أمراء قرطبة ، أنهم احتفظوا بحقوق وامتيازات ضد النصارى لإخضاعهم ، وأنهم كانوا مثل القوط يدعون لأنفسهم حق تعيين الأساقفة وعزلهم ، وحق عقد المجالس الدينية التي يمثلهم فيها بعض المسلمين أو النصارى المرتدين ، ويسندون وظائف الأساقفة في أحيان كثيرة إلى رجال من طراز منحط ، يملقون الأمراء ويخدمونهم .

ولم يك استبداد الأمراء أقل وطأة على أملاك المستعربين وثرواتهم ، إذ كانوا حرصاً على سلامتهم يؤدّون للخزانة مزايا عظيمة ، في شكل جزية وضرائب تنبو عن طاقهم . وقد كان تسامح المسلمين لا يغتفر في الظروف العادية إلا بالعرق والدم . ثم جاءت الأيام التي كان يقاسى فيها النصارى كل شيء ، ليحتفظوا بحرية دينهم ، وينتزع كل يوم منهم مغارم أكبر ، هذا فضلاً عن الضرائب العادية ، وقد كانت فادحة في ذاتها تفرض عليهم بمختلف الحجج والأعذار .

وقد وصلت هذه المغارم إلى ذروتها في عصر عبد الرحمن الثاني الأمير الباذخ ، ومحمد الأول الأمير القاسى ، الذي حصل من نصارى قرطبة بواسطة الكونت سواندا على مبلغ مائة ألف « سويلدو » .

ويتحدث سيمونيت بعد ذلك عن تعصب المسلمين ، ويقول إن تعصب العرب ضد الأجانب وامتيازهم لهم ، وصل إلى الذروة في النصف الأول من القرن التاسع ، وكذا وصل إلى الذروة تزمت البربر الوحشى ، وتزمت الإسبان المسلمين (المولدين) الذين اتخذوا الارتداد عن دينهم سبيلا إلى بلوغ الرخاء ، وكانوا لكي يحسوا ذكرى أصولهم المسيحية ، أشد تعصباً ضد النصارى من المسلمين أنفسهم . كان هؤلاء وهؤلاء يمعنون في إهانة النصارى واضطهادهم بشتى المظاهر ، ولاسيما رجال الدين والقساوسة ، وكانت موجة هذا الاضطهاد تشتد كلما جاءت الأخبار بانتصار نصارى الشمال ، أو قيام المولدين في طليطلة أو غيرها .

هكذا يتحدث سيمونيت عن « تعصب » المسلمين ضد رعاياهم وإخوانهم النصارى المعاهدين . ومع ذلك فإن سيمونيت يعترف بأن كثيراً من نصارى قرطبة ، كانوا يخدمون في الجيش الإسلامى جنداً أو ضباطاً ، وأن كثيراً منهم وصل إلى وظائف هامة في البلاط والقصر الملكى ، وفي قصور أكابر المسلمين . ويصف سيمونيت تأثير المجتمع الإسلامى ، وعظمته ولغته وتقاليده ، في نفوس النصارى في قوله :

« هذا ، وقد كان يأسر الشباب النصرانى منظر العظمة المادية والحضارية ، التى تفوقت بها قرطبة المسلمة على قرطبة النصرانية ، وما كانت تقترن به هذه العظمة من المظاهر الأدبية والفنية ، التى بثها عبد الرحمن بحبه للشعر والفلسفة والموسيقى .

وكان من مظاهر تأثر الشباب النصرانى أنهم كانوا يكتبون ويتكلمون العربية ، محترقين دراسة اللغة والآداب اللاتينية ، وهو أمر كان شديد الخطر على وطنيتهم ودينهم .

وفي النصف الأول من القرن التاسع ، لم تكن اللغة والآداب العربية فقط ، بل وكذلك الأفكار والتقاليد الإسلامية ، قد انتشرت بين المستعربين الإسبان . وهذا ما تشير إليه وثيقة هامة كتبها نصرانى قرطبى معاصر هو ألبرو القرطبى Alvaro Cordubense فى سنة ٨٥٤ م عنوانها Indicalo Luminoso ، وفيها يصف بقرة وبلاغة ، الذعر الذى أصاب « الأشراف الكرماء البواسل الذين كانوا يحتفظون بالعاطفة المسيحية والوطنية الإسبانية » وكيف أن شاباً من

النصارى يمتثلون حياة وقوة وفصاحة ، يتقنون اللغة العربية ، ويبحثون بشغف عن الكتب العربية ويدرسونها بعناية ، ويمتدحونها بحماسة ، هذا في حين أنهم يجهلون جمال الآداب الكنسية ، ثم يبدى آله من أن النصارى يجهلون شريعتهم ولغتهم اللاتينية ، وينسون لغتهم القومية^(١) .

وهذه التفاصيل التي يقدمها إلينا العلامة سيمونيت عن أحوال المجتمع النصراني في قرطبة ، هي تفاصيل مفيدة قيمة ، ولكنها تم عن كثير من التحامل ، وتصور وجهة نظر الكنيسة بأسلوب مغرق متزمت . وهي تغضى عن تلك الحقيقة الهامة ، وهي أن النصارى المستعربين وهم من رعايا الحكومة الإسلامية ، ويتمتعون تقريباً بكامل حقوق إخوانهم المسلمين ، يدينون لهذه الحكومة بالطاعة ، واحترام القانون والنظام . ولئن كانت ثمة بعض قيود لحقوقهم ، فإن سن هذه القيود لا يرجع إلى عدم التسامح ، ولكنه يرجع إلى روح العصر ذاته .

بيد أن العوامل الدينية لم تكن وحدها مبعث هذا التحامل ، الذي يضطرم به نصارى قرطبة نحو الحكومة الإسلامية ، بل كان للعوامل الاجتماعية أيضاً أثرها في إذكائه . ذلك أن القسس والمتعصبين كان يحفظهم ويثيرهم ، ما يحيط بالحكم الإسلامى من مظاهر الإعزاز والسؤدد ، وما تبديه الهيئة الحاكمة من مظاهر الأبهة والفخامة ، وما ينعم به المجتمع الإسلامى ، من حياة رغدة رفيعة . وكان يذكى هذا الحقد في نفوسهم ما يعانونه من خشونة عامة قرطبة وتعريضهم وتحاملهم . وهكذا بلغ تعصب النصارى أقصاه في عهد عبد الرحمن ، وبدا منذراً بشر العواقب . وكان في وسع أولئك المتعصبين في المدن البعيدة عن قرطبة مثل طليطلة وغيرها ، أن يرفعوا علم الثورة ، وأن يقاتلوا حكامهم وجهاً لوجه ، ولكن الثورة في قرطبة كانت أمراً عسيراً . فحاولوا عندئذ أن ييثوا بذور الفتنة الطائفية والفوضى الدينية والاجتماعية ، وأن يحاولوا الاستشهاد بطريق الاشتباك والتحدى . وعمد القسس والمتعصبون إلى تحقيق غايتهم بوسيلة بسيطة خطيرة معاً ، هي المحامرة بسب النبي العربى ودينه ، وهي جريمة شنعاء تعرض مرتكبها لعقوبة الموت ، وأخذ بعض الغلاة من القسس والمتعصبين الهائمين يزلقون عامدين إلى

(١) راجع هذا الفصل في مؤلف سيمونيت الضخم : *Historia de los Mozarabes de*

هذا المنحدر الخطر ، ويوجهون السب المثير إلى النبي العربي في الطرقات جهراً ، فإذا أخذوا أمام القضاة كرروا سبابهم بمنتهى الإصرار والجرأة . وحاول القضاة في البداية استعمال الرفق واللين ، وإقناع أولئك العابثين بالعدول عن أقوالهم ، ولكنهم ألفوا أنفسهم أمام سلسلة مدبرة من الجرائم الماثلة ، فلم يترددوا عندئذ في الحكم على القاذفين بالموت ، وهكذا أزهى بتلك الطريقة عدة من القسس والمتعصبين في فترة وجيزة من صيف سنة ٨٥١ م (٢٣٧ هـ) ، وكان الأحبار يكرمون رفات القتلى ، ويسبغون عليهم صفة الشهداء ، ويزيدون بذلك في اضطرام الفتنة . وكان في مقدمة المنظمين لهذه الحركة قس من قرطبة يدعى « أولوخيو » ، كان يعمل على تحريض أولئك « الشهداء » المزعومين ، ودفعهم إلى برائن الموت .

ويصف لنا العلامة المتزن ألتاميرا ، تلك المؤامرة المنظمة فيما يأتي : « اتبع الأمراء المسلمون سياسة التسامح الديني منذ الفتح . وكان أشرف العرب يحترمون النصراني ، ولكنهم لم يستطيعوا منع الدهماء في أوقات الحماسة المغرقة ، من إهانة القسس حينما يسبغون في الشوارع فرادى أو في مواكبهم . وكانت هذه الحوادث وأمثالها تثير سخط النصراني ، وأدى ذلك بمضى الزمن إلى حقد الوريثين ولاسيما القساوسة . وحاول النصراني عن طريق آخر ، أن يحدثوا فورات تحطم النبر الإسلامي . فطلبوا الاستشهاد بالطعن في محمد أمام الناس والسلطات ، وأعدموا لأن القانون يعاقب بالموت على ذلك . ولم يقتصر الاندفاع في ذلك الطريق على المدنيين ، بل اندفع فيه كذلك قساوسة عقلاء مسلمون ، وكان من هؤلاء أولوخيو وألبارو ، ولم يجد هؤلاء طريقة أفضل للاحتجاج على الإسلام من الطعن فيه ، وتقديم حياتهم قرباناً للدين الكاثوليكي » (١) . وأدرك عبد الرحمن دقة الموقف وخطورته ، ورأى أن يعالجه بالحزم والتهام معاً ، فاستدعى مجلساً من الأساقفة ، عقد في قرطبة برئاسة ريكافرد مطران إشبيلية ، ومثل الأمير فيه أحد كتّابه النصراني ، وهو جومث بن أنطونيان بن خوليان عامل أهل الذمة (٢) ، وشرح للأساقفة

(١) R. Altamira : Hist. de Espana , Vol. I. p. 230

(٢) ويسميه ابن القوطية قومس بن انتنيان بن يايانة وقد اعتنق الإسلام فيما بعد (ص ٨٣) . وكذلك يذكره الخشني في كتاب قضاة قرطبة ويسميه أيضاً قومس بن انتنيان . راجع كتاب قضاة قرطبة (القادمة) ص ١١١ .

ما يمكن أن يترتب على أعمال المتطرفين وسبهم للنبي من العواقب الخطيرة بالنسبة للنصارى. ولم يعترض المجلس على مبدأ الاستشهاد في ذاته ، ولكنه أصدر قراره باستهجان مسلك أولئك المتطرفين ، وتحذير النصارى المخلصين من حزنو مسلكهم ، ووجوب اعتقال كل مخالف^(١). ولكن قرار الأساقفة لم يكف لتسكين فورة التعصب المزبد ، وتتمادى المتطرفون أنصار أولوخيو في غيهم ، وزج إلى السجن منهم كثيرون ، ومنهم أولوخيو نفسه ، وكان بين المعتقلين بضع فتيات مسلمات بمولدهن من آباء مسلمين وأمهات نصارى ، ولكن أضلهن الأمهات والقسس ، ودفعن إلى التنصر وسب النبي ، وكان منهن فتاة رائعة الحسن تدعى فلورا ، عرفها أولوخيو وهام بها حباً .

وقصة هذه الفتاة حسبما يرويها سيمونيت ، توضح لنا طريقة التحدى والاستثارة التى اتبعها المتطرفون لإحداث الشغب . فقد كانت فلورا ابنة مسلم من زوجه النصرانية ، وتوفى أبوها وهى ما تزال طفلة ، فربتها أمها على مبادئ المسيحية . وكانت بالرغم من جمالها تبدى تحفظاً ونسكاً ، وتزور الكنائس خفية لخوفها من أخيها الأكبر ، وهو مسلم شديد التعصب . ثم فرت من دار أهلها ، وتبعها أخوها فى كل مكان ، فعادت إلى منزلها ، وأعلنت لأخيها تمسكها بدين النصرانية ، ولم ينجع فى ردها الضرب والوعيد . فأخذها أخوها إلى القاضى ، وأبلغه بأن أخته القاصر قد ضلت واعتنقت الدين المسيحى ، وأنها تسب النبي ودينه ، واعترفت فلورا بأنها نصرانية منذ طفولتها ، وتمسكة بدينها . ومع أن هذا الاعتراف بالردة يستحق عقوبة الموت ، فإن القاضى اكتفى بتقرير ضربها ضرباً مبرحاً ، أملاً فى أن تعود إلى صوابها . فاحتملت الفتاة العقوبة بجلد ، وحملت إلى دارها منهوكة القوى ، وصبرت أياماً حتى برئت من مرضها ، ثم فرت من الدار ذات ليلة ، وسارت هائمة على وجهها ، حتى لحأت إلى دار نصرانى فى بلدة « مرتش » القريبة ، والظاهر أن القس أولوخيو رآها هنالك ، وأعجب بجألها وحشمتها وورعها ، وشعر نجوها بحب سماوى عميق .

ثم عادت فلورا بعد حين إلى قرطبة مواجهة كل خطر ، معززة الاستشهاد ، ولحأت إلى كنيسة سان إنيسكولو ، وكانت قد لحأت إليها أيضاً فتاة نصرانية

أخرى تدعى ماريا ، وكانت ابنة رجل نصراني من لبلة ، وأم مسلمة تنصرت . وربيت ماريا في الدير تربية دينية خالصة ، كما ربي أخوها الأكبر فيه . ولما توفي أخوها وجدت عليه وجداً شديداً ، وسارت إلى قرطبة تبغى الاستشهاد ، ولحأت إلى نفس الكنيسة التي لحأت إليها فلورا . واعتزمت الفتاتان أمرهما وذهبتا إلى دار القضاء ، وقالت فلورا للقاضي إنها ابنة مسلم ، ولكنها اعتنقت النصرانية وأخلصت لها ، وأن المسيح هو الإله الحق ، وأن النبي محمد ، هو نبي زائف ... الخ^(١) . وكذلك قالت ماريا إنها تؤكد من كل قلبها أن يسوع هو الرب الحقيقي ، وأن الإسلام دين الشيطان . فأمر القاضي بإيداعهما السجن . وكان فيه بطريق الصدفة أولوخيو مقضياً بحبسه أيضاً ، فعكف على وعظ الفتاتين ، وحثهما على الاستشهاد في سبيل المسيح .

وحاول القاضي نصيح الفتاتين ، ولكنهما أصرتا على موقفهما وعلى مطاعنهما . وأخيراً أصدر القاضي حكمه بإعدامهما ، وذلك في ٢٤ نوفمبر سنة ٨٥١ ، وأخذتا إلى ساحة الإعدام ، وهناك أبدت كلتاها إشارة الصليب ، ثم أعدمتا بقطع الرأس ، وألقيت جثتهما إلى النهر ، واستطاع النصارى العثور على جثة ماريا وحدها ، فأخذوها مع رأسى الفتاتين . ونظمت فلورا فيما بعد في سلك القديسين^(٢) . هكذا يروى سيمونيت قصة فلورا وزميلتها ، ومهما كان في أسلوبه من رواء القصة المشجية ، فإن في وقائعها ما يلقي ضوءاً على خيوط المؤامرة التي درها نصارى قرطبة ، وفي مقدمتهم القسس ، لإثارة الفتنة الطائفية والإخلال بالنظام والأمن ، وهي محاولة لا يمكن لأية حكومة منظمة أن تغضى عنها . واستمرت هذه الفتنة المضطربة مدى حين ، وتدرعت حكومة قرطبة في إخمادها بالحزم والشدة ، وزهق من المتعصبين عدة آخر ، ومن بينهم أولوخيو الذي نظمته النصارى فيما بعد في ثبث « القديسين » .

وهكذا شغل عبد الرحمن في أواخر عهده بتلك الفتنة الدينية الخطيرة ، ولكن المتعصبين لم يحققوا منها ما أملوا ، وكانت بالعكس مثار السخط والإنكار من جانب النصارى المعتدلين ، الذين يقدرّون تسامح الحكومة الإسلامية ورفقها ورعايتها .

* * *

(١) لم نر مجالا لإيراد بقية المطاعن التي أوردها سيمونيت على لسان فلورا وهي مطاعن مقدعة .

(٢) Simonet : Hist. de los Mozarabes, Vol. I. p. 413-422

وتوفى عبد الرحمن بن الحكم في الثالث من ربيع الثاني سنة ٢٣٨ هـ (٢٣ سبتمبر ٨٥٢ م) في الثانية والستين من عمره ، بعد أن حكم إحدى وثلاثين عاماً وبضعة أشهر . وكان أسمر طويلاً ، وسمي الحبا ، أشم ، أقي ، أعين ، أسود العينين ، بهي الطلعة ، بهيج الزى ، كبير اللحية . نقش خاتمة : « عبد الرحمن بقضاء الله راض »^(١) ، ويكنى أبا المطرف ، ويعرف بعبد الرحمن الأوسط أو الثاني ، والأول هو جده عبد الرحمن الداخل ، والثالث هو عبد الرحمن الناصر . وكان مثل أبيه الحكم ، أميراً وافر البأس والعزم ، رفيع الخلال ، يسمو بمكانته ومحتجب عن العامة ، ويعشق مظاهر البذخ والفخامة . وفي عهده وصل البلاط الأموي إلى درجة لم تسبق من البهاء والروعة ، وبدأت الأرستقراطية العربية في أبداع مظاهرها ، وسطعت الفروسية الأندلسية ، وتجلت خلالها الباهرة التي غدت فيما بعد مثلاً يحتذى في مجتمعات العصور الوسطى ، وعنها اقتبست فروسة النصرانية فيما تلا من العصور . ورتبت رسوم المملكة أبداع ترتيب ، ورفع من شأن الوظائف العامة ، وأحيطت بسياج من الهيبة والمسئولية ، وجعل « أحكام السوق » منصباً مستقلاً عن ولاية المدينة ، واتبعت رسوم الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة^(٢) ، ووضعت خطة الوزارة المنظمة .

وتنوه الرواية الإسلامية بمقدرة عبد الرحمن ، وحسن اختياره لرجال حكومته . فيقول لنا الرازي : « وانتقى الرجال للأعمال ، واستوزر الأكفاء » من أهل الاكتفاء ، وقدوة الأبطال ذوى الغناء ، فظهر في أيامه جلة الوزراء وكبار الفقهاء . وكان من وزرائه عدة من أعظم وألمع رجال العصور ، مثل الحاجب عبد الكريم ، والقائد عيسى بن شهيد ، ويوسف بن بخت ، وهاشم بن عبد العزيز ، وعبد الرحمن بن رستم ، وحسن بن عبد الغافر بن أبي عبده ، ومحمد بن السليم ، ومحمد بن عبد السلام بن بسيل ، وعبد الواحد بن يزيد الإسكندراني ، وغيرهم . وكان الوزراء يختلفون إلى القصر بطريقة منظمة للبحث والمداولة وإبرام الشئون في جناح خاص ، سمي « بيت الوزراء » ، وانتهت

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٢٢ ؛ وابن حيان عن الرازي ، المخطوطة الأولى ص ١١١ ؛
والثانية لوحة ١٩٤ ب

(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٦١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ .

أرزاق الوزراء يومئذ إلى ثلاثمائة وخمسين ديناراً في الشهر (١) .

وتفويض الرواية في مناقب هذه الجمهرة من الوزراء والقادة ، الذين اجتمعوا في بلاط عبد الرحمن بن الحكم ، وتصفهم بأنهم «عصابة من سراة الوزراء ، أولى الحلوم والنهى ، لم يجتمع مثلها عند أحد من الخلفاء قبلهم ولا بعدهم» . ويتقدم هذا الثبت الحافل رجلاً ، كان لها في تنظيم حكومة عبد الرحمن وسياسته أعظم الأثر ، أولها الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث حاجب أبيه الحكم من قبل ، وهو الذى يصفه الرازى بأنه «أكمل من حمل هذا الاسم ، وأجمعهم لكل جملة حسنة» . وكان عبد الكريم ، فضلاً عن براعته الإدارية ، مثل جده مغيث فاتح قرطبة ، من أعظم قادة هذا العصر ، وقد قاد حسباً تقدم في مواضعه ، عدة من الحملات الغازية المظفرة . ولما توفى في سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٤ م) خلفه في الحجابة سفيان بن عبد ربه وهو من البربر ، ولم تكن له نباهة سابقة ، ثم عيسى بن شهيد ، وهو ثانى الرجلين . وكان عيسى من أعيان موالى بنى أمية ، وكان أيضاً من وزراء الحكم ، أوصى به ولده عبد الرحمن ، فلما ولى الأمر قدمه على خاصته ، ثم ولاه خطة الحليل ، ثم خلع عليه رتبة الوزارة ، وعهد إليه بالنظر في المظالم ، وتنفيذ الأحكام على طبقات أهل المملكة . ثم ولاه الحجابة بعد سفيان . واشتهر عيسى بالحلم والوقار وحصافة الرأى ، والمعرفة والجزالة ، وقاد كثيراً من الصوائف المظفرة . بيد أنه استهدف لخصومة الفتى نصر الخصى المسيطر على شئون القصر ، والأثر لدى الأمير بمظاهرتة لحظيته طروب ، فلبث يدس له ويعمل على إقصائه عن الحجابة ، حتى تم له ذلك ، حينما مرض عبد الرحمن وطال احتجابه . وعين مكانه للحجابة عبد الرحمن بن رستم . فلما أبلى الأمير من مرضه أنكر ما وقع ، وأنحى باللائمة على نصر ، وأعاد عيسى بن شهيد إلى الحجابة ، فلم يزل على حجابته حتى توفى عبد الرحمن . قال ابن القوطية : «لم يختلف أحد من شيوخ الأندلس في أنه ما خدم ملوك بنى أمية فيها أحد أكرم من عيسى بن شهيد غاية ، ولا أكرم اصطناعاً ، ولا أدعى لذمته . ولقد كان الحاجب قبله عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث بهذه الصفة ، على زيادة خصاله وأدواته على عيسى ،

(١) ابن القوطية ص ٦١ ، ٦٢ ، وكذلك مخطوط ابن حيان ص ١٤٤ . ومخطوط القرويين

إلا في باب كرم الصنيعة واستئمانها ، فلم يك تفصله درجة (١) .
وتولى الكتابة للأمير عبد الرحمن عدة من الكتاب المبرزين ، في مقدمتهم الحاجب
عبد الكريم ، وقد كان أيضاً كاتباً بليغاً وشاعراً جزلاً ، وعبد الله بن محمد
ابن أمية بن أبي حوثة ، ومحمد بن أبي سليمان الزجاجي وهو من برابرة نفزة ،
وكان كاتباً بارعاً ، واشتهر بقوته في الحفظ حتى أنه سمي « بالأصمى » ،
واشتهر أبنائه من بعده في ميدان الكتابة .

وكان ممن كتبوا للأمير عبد الرحمن أيضاً الأسقف جومث (قوس) بن أنطونيان
عامل أهل الذمة ، وكان أديباً بارعاً ، وكاتباً مقتدرأ ، وكان عبد الرحمن يعهد
إليه بالمهام الخطيرة ، وخدم من بعده ولده الأمير محمد (٢) .

واجتمعت في عهد الأمير عبد الرحمن أيضاً جمهرة من جلة الفقهاء والقضاة ،
رحل معظمهم إلى المشرق في طلب العلم وانتقاء الرواية ، ومن هؤلاء محمد بن
يوسف بن مطروح ، ومحمد بن حارث ، وعبد الأعلى بن وهب ، وبق بن
مخلد ، ومحمد بن وضاح ، ويحيى بن إبراهيم بن مدين ، وعيسى بن دينار ،
ويحيى بن يحيى . وقد اشتهر بعض هؤلاء من قبل في عهد أبيه الحكم . وكان يتقدم
هذه الجمهرة من الفقهاء في المكانة والنفوذ ، عبد الأعلى بن وهب ، ويحيى
ابن يحيى ، وعبد الملك بن حبيب . وكان يحيى بن يحيى عميد الفقهاء وشيخ قرطبة
الأول ، وأصله من برابرة مصمودة ، ودرس في المشرق على مالك ، والليث بن سعد
وابن وهب وغيرهم ، وتولى الفتيا بعد عيسى بن دينار ، ولبث حتى وفاته في
سنة ٢٣٤ هـ يتبواً أسمى مكانة . وكان ممن اتهموا بالتحريض على ثورة الربض
وفر عقب إخماد الثورة إلى طليطلة ، ثم استأن من الحكم فأمنه وعاد إلى قرطبة .

وخلفه في علمه ومكانته عبد الملك بن حبيب ، وغدا أثير الأمير ، لا يقدم
عليه أحداً ، ولا يعدل بمشورته أحد . وكان عبد الملك فوق براعته في الفقه
والحديث ، متقدماً في علوم اللغة ، والعلوم القديمة ، بارعاً في الأدب ، وكتب
كتباً في إعراب القرآن وشرح الحديث وفي الأنساب وغيرها (٣) .

(١) تاريخ ابن حيان (مخطوط لقرويين) لوحة ١٩٦ أ وب و ١٩٧ أو ١٩٨ أ .

(٢) راجع قضاة قرطبة للخشني ص ١١١ .

(٣) تاريخ ابن حيان (مخطوط لقرويين) لوحة ٢٠١ ب و ٢٠٢ أ .

ونخصص ابن حيان لذكر قضاة عبد الرحمن ، وأخبارهم ، ونواديرهم والتعريف بهم ، نبدأ طويلاً رأينا أن نكتفي بالإشارة إليها^(١).

وحذا عبد الرحمن حذو أبيه أيضاً ، في اصطفاء الموالي والصقالية ، وابتاع أنصبه أخوته من ممالك أبيه « العجم » ، وكانوا خمسة آلاف مملوك ، ثلاثة آلاف فارس يربطون إزاء باب القصر ، فوق الرصيف ، وألفا رجل على أبواب القصر وكانوا يسمون « الخرص » لعجمتهم^(٢) . وسما نفوذ الفتیان يومئذ في البلاط ، وكان زعيمهم الفتى نصر المتصرف في شئون القصر الخاص ، وكان يتمتع بأعظم نفوذ في القصر والدولة ، بموازرة طروب جارية عبد الرحمن .

وكان نصر هذا ويكنى أبو الفتوح ، من الفتیان المختارين الذين اشتهروا بالجمال والظرف ، وأمر الحكم بنخصصهم ، وأصله من أبناء الأحرار الذين حشدوا للخدمة داخل القصر ، وكان أبوه من أسلمة أهل الذمة (المولدين) من أهل قرمونة^(٣) . ولما ولي عبد الرحمن ، قدمه على سائر خاصته ، وغدا مدير أمر داره ، ومشاركاً لأكار وزرائه في تصريف الشئون . وتضاعف نفوذه ومكانته بمحالفته لجارية عبد الرحمن الأثيرة طروب ، صاحبة النفوذ القوى . وكان من أشهر أعمال نصر قيادته لجيوش الأندلس التي حشدت لمقاتلة النورمانين في أراضي إشبيلية ، وانتصاره عليهم . واستمر نجم نصر في صعود ، ونفوذه في تمكن ، حتى غدا أعظم رجال الدولة ، وأمضاهم أمراً ، وكان مرهوب الجانب ، نخشاه الأكار والخاصة . توفي فجأة في أواخر سنة ٢٣٣ هـ (٨٤٨ م) ، « أرقى ما كان في غلوائه ، وأطمع ما هو بالاحتواء على أمر سلطانه ، أرب ما كان الناس له ، وأخوفهم لعدوانه ، إذ نال من أثره مولاة الأمير عبد الرحمن واصطفائه ، فوق ما ناله خادم خاص ، مع أمير رشيد » . فتنفس الناس الصعداء ، وسروا لوفاته ، والتخلص من طغيانه^(٤).

(١) مخطوط القرويين الاوحات ٢٠٢ أ حتى ٢١١ أ .

(٢) مخطوط ابن حيان ص ١٤٥ .

(٣) ابن حزم في رسالة نقط العروس ص ٧٣ . ويقول ابن حزم إن نصر هذا هو الذي تنسب إليه « منية قصر » وهي ضاحية جميلة كانت تقع على النهر ، على مسافة قصيرة من شرق قرطبة .

(٤) تاريخ ابن حبان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩١ ب .

واستكثر عبد الرحمن أيضاً من اقتناء الجوارى الحسان ، وكان كلفاً شديداً الشغف بهن ، وكان يعنى باختيارهن من أطيب العناصر والأصول ، واجتمعت لديه منهن نخبة بارعة في الحسن والحلال ، مثل طروب أم ولده عبد الله ، وموئمة أم ولده المنذر ، وشفاء أم ولده المطرف ، وفخر ومتعة وغيرهن ، وأنجب عبد الرحمن من الولد عدداً ضخماً بلغ وفقاً لابن حزم مائة ، خمسن من الذكور ، ومثلهم من الإناث ، وذكر الرازى أن عدد أولاده من الذكور أربعون ، وسماهم واحداً واحداً ، وأن عدد بناته ثلاثة وأربعون ، ذكر أسماءهن جميعاً (١) . وبلغ الجوارى كالفتيان من النفوذ مبلغاً عظيماً . واشتهرت من بينهن طروب حظية عبد الرحمن الأثيرة لديه ، وقد اشتد نفوذها في أواخر أيامه ، وظهرت نصراً الفتى ، فكانت لها الكلمة النافذة في معظم الشئون ، وكان عبد الرحمن يشغف بها أعظم شغف ، وهو القائل فيها :

إذا ما بدت لى شمس النهار طالعة ذكرتنى طروباً
وعنى عبد الرحمن بالمنشآت العامة أعظم عناية ، فزاد في مسجد قرطبة الجامع بهوين جديدتين من جانب القبلة ، وقام على عمارته الفتى نصر . وما زال هذا الجامع الشهير قائماً إلى اليوم بسائر عقوده الإسلامية ، وأروقته ومحاريبه . ولكنه حول منذ القرن السادس عشر إلى كنيسة قرطبة العظمى (كندراية) ، وبالرغم من أن الهياكل قد أقيمت في سائر عقوده الجانبية ، وأقيم في وسطه مصلى عظيم على شكل صليب ، فإنه ما زال يحمل بالإسبانية اسمه الإسلامى القديم « المسجد الجامع » La Mezquita Aljama ، وقد أزيلت قبابه ومعظم زخارفه الإسلامية ، لتحل مكانها الزخارف النصرانية . ولكن محاريبه الفخمة ، مازالت تحتفظ بنقوشها الإسلامية ، وآياتها القرآنية .

ويقع جامع قرطبة في طرف المدينة الجنوبي وسط شبكة من الدروب الأندلسية القديمة ، على مقربة من القنطرة الرومانية العربية القائمة على نهر الوادى الكبير . ويبلغ طوله ١٨٥ متراً وعرضه ١٣٥ متراً . وله عدة أبواب كبيرة فخمة ، مازالت تحتفظ بكثير من نقوشها الإسلامية . ويعرف بابه الرئيسى المقابل لصحنه

(١) راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ، ص ٩٠ ، وابن حيان (مخطوط القرويين) لوحة ١٩٤ ب و ١٩٥ أ .

« باب النخيل » *Puerta de las Palmas* ، ويقع صحنه في ناحيته الشمالية ويعرف بفناء النارنج *Patio de los Naranjos* ، وهو صحن مستطيل شاسع يزدان بعدد من أشجار البرتقال (أو النارنج) ، وهو الآن صحن الكنيسة . وقد هدمت منارة الجامع ، وهى التى أقامها عبد الرحمن الناصر بجوار الصحن ، وأقيم مكانها برج الأجراس الحالى^(١) .

وأنشأ عبد الرحمن أيضاً مسجد إشبيلية الجامع ، كما ابنتى سورها الكبير عقب غزو النورمانين لها ، ووضع نظاماً جديداً للسكة وجعلها أندلسية مستقلة ، بقم وأوزان جديدة . وكان أهل الأندلس يتعاملون من قبل بما يحمل إليهم من نقد المشرق ، أو بنقود تسك على نظامه ، فى دار السكة التى أنشأها عبد الرحمن الداخل . وأنشأ أجنحة ومشارف جديدة للقصر ، وجلب إليه الماء العذب من قن الجبال ، وأنشأ على النهر الأعظم مما يلى سور القصر والمدينة رصيفاً عظيماً^(٢) . كما أنشأ بقرطبة عدة من الحدائق الغناء . وحذت جواريه حذوه ، فأنشأ فى قرطبة عدة مساجد سميت بأسمائهن .

ويشير سيمونيت إلى عظمة قرطبة فى عصر عبد الرحمن ويقول « إن عبد الرحمن كان يعشق البذخ الطائل ، وفى عهده حفلت قرطبة بطائفة من المساجد والقصور والقناطر والمنشآت المختلفة . وقد وصف قرطبة وعظمتها فى عهده نصرانى معاصر شهير وهو سان أولوخيو ، إذ يقول إن عبد الرحمن أسبغ على عاصمة مملكته لوناً خارقاً من العظمة ، ورفع من ذكرها ، وأفاض عليها حلال الحمد ، وأغدق عليها الثروات ، وملأها بجميع مظاهر المتعة الدنيوية إلى حدود لا تصدق »^(٣) .

وكانت أيام عبد الرحمن أيام سكينه وأمن ورخاء ، وفيها ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة ، وورد على الأندلس كثير من الأمتعة والسلع الفاخرة ، وزخرت الأسواق بالبضائع . وزاد الدخل زيادة عظيمة ، وبلغت الحباية وحدها

(١) راجع وصفاً مسهباً لجامع قرطبة وتاريخه وخواصه الأثرية فى كتابي : « الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » (الطبعة الثانية) ص ٢٠ - ٣٤ .

(٢) كان القصر الأموى القديم يقع على ضفة النهر على مقربة من الجامع ، ويحتل موقعه اليوم القصر الأسقنى والسجن الحلى ، والحدائق المجاورة التى ما زالت إلى اليوم ، تسمى حدائق القصر *Huertas del Alcazar* ، والمرجع أنها تقوم مكان حدائق القصر القديمة .

Simonet : *ibid* , Vol. I: p. 366 (٣)

زهاء ألف ألف دينار في السنة ، واستطاع الأمير أن ينفق بسخاء على تسيير الحملات الغازية ، وإقامة المنشآت المختلفة^(١) .

وكان عبد الرحمن بن الحكم أديباً حسن الثقيف ، وكاتباً بليغاً مشرق البيان ، عالماً بالشريعة والحكمة (الفلسفة) ، مجيداً للنظم ، نصيراً للعلوم والآداب ، يحنثد حوله جمهرة من أكابر العلماء والأدباء والشعراء ، مثل العلامة الرياضى والفلكى عباس بن فرناس ، ويحيى الغزال ، وشاعره الخاص عبد الله بن الشعر بن نمير ، وكان صديقه مذكاً ولماً للعهد ، وكان بارعاً في الأدب والشعر والمنطق والتنجم ، وكان يكشف لعبد الرحمن نجمه وطالعه^(٢) ، وعباس بن ناصح الجزيرى شاعر أبيه الحكم ، وعبيد الله بن قرلمان بن بدر مولى الداخل ، وكان من جلسائه وخاصته وكان أديباً بارعاً ، وشاعراً مجيداً . وغيرهم . ومن نظمته قوله :

ولقد تعارض أوجه لأوامر فيقودها التوفيق نحو صوابها
والشيخ أن يحو النهى بتجارب فشباب رأى القوم عند شبابها
وقوله وقد خرج غازياً إلى جليقية :

فكم قد تخطيت من سبب ولاقيت بعد دروب دروبا
ألقى بوجهى سموم الهجـ بر إذ كاد منه الحصى أن ينوبا
تدارك بي الله ديسن الهدى فأحيتـه وأمت الصليبا
وسرت إلى الشرك في جفضل ملأت الحزون بها والسهوبا
ومن قوله في الغزل :

قتلتني بهواكا وما أحب سواكا
من لى بسحر جفون تديره عيناكا
وحمرة في يياض تكسى به وجتاك
أعطف على قليلا واحينى برضاكا
فقد قنعت وحسبى أن أرى من رآكا

(١) راجع ابن القوطية ص ٦٧ ، وابن الأبار ص ٦١ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ و ٩٤ ، وأخبار مجموعة ص ١٣٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ و ١٦٣ ، وابن الأثير ج ٧ ص ٢٢ ، وفي مخطوط ابن حيان عما تقدم نبذة وتفاصيل حسنة (ص ١٣٨ و ١٤٢ و ١٤٤) .
(٢) مخطوط ابن حيان ص ١٥٦ و ١٥٧ .

واشتهر عبد الرحمن بحنوه الجلم على قرابته وذوى رحمه بدرجة لم يجاره فيها أحد من أهل بيته ، فكان يوليهم وافر عطفه ، ويجرى عليهم الصلات السخية . وفي أيامه وفد من المشرق على الأندلس عدد من قرابته المروانية (بنى أمية) ، فاستقبلهم جميعاً أحمل استقبال ، وأنزلهم أكرم منزل ، وأجرى عليهم الأرزاق والإقطاعات الواسعة .

وكان عبد الرحمن يعشق الفلك والتنجيم ، ويشغف بدراسته ، وكان العلامة للرياضي ابن فرناس ، وعبيد الله بن الشر ، وعبد الواحد بن إسحاق الضبي من أساتذته في ذلك الفن ، وكان يقربهم ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، وله معهم قصص ونوادير كثيرة . وكان أيضاً يعشق الغناء والموسيقى ، ويجمع حوله عدداً من أكابر الفنانين يجرى عليهم الأرزاق الواسعة . ووفد عليه من المشرق أبو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب نابغة الغناء والموسيقى ، وكان زرياب من تلاميذ الفنان الشهير إسحاق الموصلي مغنى الرشيد ، فلما ظهر نبوغه وشعر أبو إسحاق بخطورة منافسته ، تحيل في صرفه وإبعاده ، فغادر بغداد إلى المغرب ، وكتب إلى الحكم أمير الأندلس يستأذنه في الوفود عليه . فأذن له واستدعاه ، ولكن زرياب ما كاد يصل إلى المغرب حتى علم بوفاة الحكم ، وكاد ينثني عن عزمه في العبور إلى الأندلس ، لولا أن جاءه كتاب عبد الرحمن بدعوته والترحيب به ، فسار إلى قرطبة واستقبله عبد الرحمن بمنتهى الإكرام والحفاوة ، وأجرى عليه الأرزاق الواسعة ، وجعله من خاصة بطانته . وهر زرياب أهل الأندلس ببراعته في الغناء والموسيقى ، وطار صيته في كل مكان ، وأضحى قطب للفن الذي لا يجارى ، وأخذ عنه أهل الأندلس فنونه وإبداعه ، وتشبهوا به في مظاهر زيه وإناقته وطرائق معيشته . وتوفي في ربيع الأول سنة ٢٣٨ هـ (أغسطس ٨٥٢ م) قبيل وفاة عبد الرحمن بأسابيع قلائل . وكان لزرياب وفته أعظم الأثر في تكوين الفن الأندلسي في ظل الدولة الأموية ، ثم في ظل دول الطوائف^(١).

وشغف عبد الرحمن أيضاً بجمع الكتب ، وأوفد شاعره عباس بن ناصح إلى المشرق للبحث عن الكتب القيمة واستنساخها ، فجمع له منها طائفة كبيرة ،

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها ، وابن خلدون في المقدمة ص ٢٥٧ .

وكان أول من غنى بجمعها من أمراء الأندلس، وكانت جهوده في هذا السبيل قواة لإنشاء مكتبة قرطبة العظيمة .

• • •

وفي عهد عبد الرحمن سما شأن حكومة قرطبة الإسلامية ، وأخذت تنبؤاً مكانتها من الهبة والنفوذ ، بين مختلف القصور والحكومات النصرانية ، وتغلو مركز التوجيه للدبلوماسية الإسلامية في الغرب . والظاهر أن الدولة البيزنطية ، خصيمة الدولة العباسية في المشرق ، كانت تعتقد أنها تستطيع أن تصل بتفاهمها مع حكومة قرطبة الإسلامية ، إلى بغض النتائج العملية في مقاومة خصيمتهما المشتركة . ففي سنة ٨٤٠ م (٢٢٥ هـ) وفد على قرطبة سفير من قبل قيصر قسطنطينية الإمبراطور تيوفيلوس (توفلس) ، يدعى قرطيوس ، ومعه كتاب وهدية فخمة ، فاستقبله عبد الرحمن بحفاوة ، وكان القيصر يتوجه في كتابه إلى أمير الأندلس ، باسم الصداقة القديمة التي كانت قائمة بين الأوائل من خلفاء بني أمية وقيصرة بيزنطية ، ويشكو من الشكوى من فعال الخليفة المأمون وأخيه المعتصم وعيئهما في أراضييه ، ويشير إليهما في كتابه بـابن مراحل وابن ماردة^(١) تحقيراً وازدراء ، كما يشكو إليه من استيلاء أبي حفص البلوطي وعصيته الأندلسية على جزيرة إقريطش (كريت) وهي من أملاكه ، ويطلب إليه عقد أوامر المودة والصداقة بينهما ، ويرغبه في ملك أجداده بالمشرق ، ويستنهض همته لاستردادده ، ويتنبأ له بقرب انهيار الدولة العباسية ، وزوال سلطانها ، ويعد بنصرته في ذلك المشروع . وقد رد عبد الرحمن على سفارة تيوفيلوس بمثلها ، وأوفد كاتبه وصديقه الشاعر يحيى الغزال إلى قسطنطينية ومعه يحيى بن حبيب المعروف بالمنيقلة بكتاب وهدية إلى الإمبراطور . وقد سبق أن أشرنا إلى الغزال وإلى شخصيته الممتازة وإلى بارع خلاله وظرفه ، وكان الغزال قد جاوز الستين يومئذ ولكنه كان ما يزال يحتفظ بكثير من إناقته وروائه . وسار الغزال وصاحبه يحيى ومعهما السفير البيزنطي إلى المشرق عن طريق تدمير (مرسية) ، فوصلوا إلى قسطنطينية بعد رحلة بحرية شاقة ، عايتوا فيها الأهوال من اضطراب البحر وروعة الموج . واستقبل الإمبراطور السفير الأندلسي بحفاوة ، وقدم الغزال إليه كتاب

(١) مراحل هي أم المأمون ، وماردة هي أم المعتصم ، وكلتاها جارية وأم ولد .

عبد الرحمن وهديته . ويرد عيد الرحمن في كتابه على ما جاء في كتاب الإمبراطور تفصيلاً ، ويشير مثله إلى المأمون والمعتمد بابن مراجل وابن ماردة ، وإليك ما يرد به عبد الرحمن على ما يدعوه إليه الإمبراطور من وجوب العمل لاسترداد ملك أجداده بالشرق ، وهي أهم فقرات الخطاب :

« وأما ما ذكرت من أمر الخيث ابن ماردة ، وحضضت عليه من الخروج إلى ما قبله ، وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله ، وزوال سلطانهم ، وما حضر من وقت رجوع دولتنا ، وأزف من حين ارتجاع سلطاننا ، فإننا نرجو في ذلك عادة الله عندنا ، ونستنجز موعوده إيانا ، ونتمري حسن بلائه لدينا ، بما جمع لنا من طاعة من قبلنا ، من أهل شأنا وأندلسنا وأجنادنا وكورنا وثغورنا ، وما لم نزل نسمع ونعترف أن النعمة تنزل بهم ، والدائرة تحل عليهم من أهل المغرب بنا وعلى أيدينا ، فيقطع الله دابرهم ، ويستأصل شأفتهم إن شاء الله تعالى » (١) .

وأدى الغزال سفارته خير أداء ، وعمل على إحكام الصلة والمودة بين الإمبراطور وبين مليكه ، وسحر البلاط البيزنطي بكياسته وظرفه ، وبديع صفاته ، وقدمه الإمبراطور إلى زوجه الإمبراطورة تيودورا وإلى ولده الأمير ميخائيل الذي تولى العرش فيما بعد ، وكان يومئذ فتى يافعاً ، فأنست به الإمبراطورة وسحرته برائع جمالها ، وسحره الأمير الفتى بظرفه وبارع خلاله . وقال فيه قصيدته التي مطلعها :

وأغيد لين الأطراف رخص كحيل الطرف ذو عنق طويل
ترى ماء الشباب بوجنتيه يلوح كرونق السيف الصقيل
من أبناء الغطارف قيصرى العمومة حين ينسب والحوئل
وعاد الغزال إلى قرطبة بعد رحلة دامت عدة أشهر ، وقد بهرته مظاهر الحضارة البيزنطية وروعة البلاط البيزنطي .

(١) ورد هذا الخطاب بنصه كاملاً كما وردت تفاصيل هذه السفارة مفصلة في مخطوط ابن حيان ص ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣ ؛ ونشر الأستاذ ليث بروفنسال قصة هذه السفارة بالفرنسية ، ومعها نص الخطاب بالعربية في فصل خاص ، في المجلد الثاني عشر من مجموعة Byzantion التي تصدر في بروكسل بعنوان : *Echange d'Ambassades entre Cordoue et Byzance au IXe. Siècle* . كانشرها أيضاً في رسالة خاصة . وراجع أيضاً نفع الطيب ج ١ ص ١٦٢ ، حيث يشير إلى هذه السفارة إشارة موجزة .

هذا وقد أوفد الغزال بعد ذلك بقليل في سفارة أخرى أغرب وأعجب ، وذلك أنه على أر غزو النورمانيين (المجوس) لولايات الأندلس الجنوبية الغربية واقتحامهم لإشبيلية ، وردهم عنها ، ثم هزيمتهم ومطاردتهم ، بعث ملكهم رسله إلى عبد الرحمن بن الحكم في طلب المهادنة والصلح ، فأجابه عبد الرحمن إلى طلبه ، وبعث الغزال مع الرسل إلى ملكهم ليرد السفارة ، ويعلنه بقبول الصلح .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة . وهي رواية أديب أندلسي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي ، هو أبو الخطاب عمر ابن الحسن بن دحية البلنسي ، أوردها في كتابه «المطرب من أشعار أهل المغرب» في حديثه عن الغزال . وهو يذكر لنا أن عبد الرحمن أوفد مع الغزال ، يحيى بن حبيب لمرافقته في تلك السفارة ، وأنهما خرجا معاً إلى البحر المحيط عن طريق شلب^(١) في مركب خاص أعد لهما ، وسارت مع مركب الرسل النورمانيين . ويصف لنا ما لقيه السفيران المسلمان من أهوال البحر وروعته ، وكيف أتتهما جازا تلك الشدائد سالمين ووصلا إلى بلاد المجوس . ثم يصف لنا بلاد المجوس بأنها « جزيرة عظيمة في البحر المحيط » ، وعلى مقربة منها « جزائر كثيرة منها صغار وكبار ، أهلها كلهم من المجوس ، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية » .

ويبدو من وصف طريق الرحلة ، وأوصاف تلك الحزر ، أن القطر الذي قصده الغزال ورفيقه ، هو الدانماركة ، ويؤيد ذلك أن الدانماركة كانت في ذلك الوقت مستقر ملك النورمان (المجوس) ، وكان ملكهم عندئذ يشمل الدانماركة وما حولها من الجزائر ، وقسما من إسكندناوة وألمانيا الشمالية . وكان يجلس على عرش النورمان في ذلك الوقت (نحو سنة ٨٤٤ أو ٨٤٥ م) ملك يسمى « هوريك » . وكان النورمان يومئذ أحداثاً في النصرانية ، حسبما تقول الرواية الإسلامية . ولقي السفير المسلم من ملك النورمان كل ترحاب وعطف ، وأفرد لإقامته وزملائه منزلاً حسناً . وقدم إليه الغزال كتاب الأمير عبد الرحمن وهديته من الثياب والآنية ، فوقعت لديه أحسن موقع . ولقي الغزال في البلاط النورماني كله ، كثيراً من

(١) شلب Silves هي بلدة أندلسية قديمة تقع في جنوب غربي البرتغال على مقربة من المحيط الأطلسي .

الإعجاب والعطف ، واستقبلته « نود » ملكة النورمان ، فراعها حسنها ، وشملته بعطفها ، ورآها بعد ذلك مراراً ، ونظم في حسنها شعراً رقيقاً ، يورده لنا ابن دحية ، وفيه مخاطبها بقوله :

يانود يارود الشباب التي تطلع من أزرارها الكوكبا
وعاد الغزال إلى الأندلس بعد رحلة دامت عشرين شهراً ، وكان عوده عن طريق شنت ياقب . ويقول لنا ابن دحية إنه كان يحمل من ملك النورمان كتاباً إلى صاحبها ، وهو ملك جليقية وليون . والظاهر أنه كان كتاب توصية وجواز ، لكي يستطيع السفير المسلم وزملاؤه اختراق المملكة النصرانية الشمالية ، في طريقهم إلى الأندلس . وقد اخترق الغزال بالفعل مملكة ليون ، وسار إلى طلبلة ، ومنها إلى قرطبة . والمرجح أن وصوله إلى قرطبة ، كان سنة ٢٣٢ هـ (أو آخر سنة ٨٤٦ م) .

وعاش الغزال بعد ذلك زهاء عشرين عاماً أخرى ، وتوفي في سنة ٢٥٠ هـ . وقد بلغ الرابعة والتسعين من عمره ، إذ كان مولده في سنة ١٥٦ هـ (١) ، وأدرك خمسة من أمراء بني أمية بالأندلس أولهم عبد الرحمن الداخل ، وآخرهم محمد ابن عبد الرحمن . وكان مدى نصف قرن يتبوأ الزعامة في الشعر والأدب والحكمة ، ويتبوأ في بلاط قرطبة أسمى مقام من النفوذ والثقة والتقدير (٢).

(١) راجع جذوة المنتبس للحبيدي (مصر) رقم ٨٨٧

(٢) تراجع رواية ابن دحية كاملة في كتابه « المطرب من أشعار أهل المغرب » المنشور بعناية وزارة المعارف سنة ١٩٥٤ (ص ١٣٨ - ١٤٩) . ونقلها دوزي في كتابه : *Recherches, Vol. I. App, XXXIV* ، وأشار إليها المقرئ في الفصل الذي أورده عن الغزال وأخباره (نقح الطيب ج ١ ص ٤٤١ وما بعدها) . وقد كان البحث يتجه من قبل إلى أن رواية ابن دحية عن هذه السفارة قد تكون تكررأ أو تحريفاً للرواية الخاصة بسفارة الغزال إلى قسطنطينية ، ولكن يتضح من مراجعة رواية ابن دحية كاملة في كتابه المنشور ، ودراسة المعالم الجغرافية التي أوردها عن طريق سفر الغزال وطريق عودته عن طريق شنت ياقب وملكة جليقية - وعن موقع ملكة النورمان ، يتضح من ذلك كله أنه لا توجد الآن ذرة من الريب في صحة القول بأن السفارة كانت فعلاً إلى « بلاد المجوس » أو النورمان ، أو بعبارة أخرى إلى الدانماركة .

الفصل الأول

ولاية محمد بن عبد الرحمن بن الحكم وطوالع الثورة الأولى

محمد بن عبد الرحمن . ظروف توليته والتمهيد لها . الثورة في طليطلة . مسير محمد إلى طليطلة . استعانة الثوار بملكى ليون وناقار . موقعة وادى سليط . تحريضات النصارى المتعصبين . غزوة ألبه والقلاع . عود إلى محاربة طليطلة وإخضاعها . غزوة النورمانين . عيثم في جنوب الجزيرة . ارتدادهم من طريق الشمال . غزو المسلمين لناقار وألبه والقلاع . موسى بن موسى وسيادته في الثغر الأعلى . الحرب بينه وبين أردونيو . مصرع موسى . ولده لب ومخالفته للنصارى . أخوته للثلاثة . غزو المسلمين لألبه والقلاع . هزيمة المسلمين . عود إلى غزو ألبه . هزيمة النصارى . الثورة في ماردة وإخضاعها . احتباء بنى قسى بملك النصارى . الثورة في قواعد الثغر الأعلى . استيلاء بنى قسى على تطيلة وسرقسطة . سير محمد إلى الثغر الأعلى . استيلاؤه على تطيلة . غزوه لناقار . زحف المنذر إلى سرقسطة . غزوه لناقار ثانية . عوده إلى غزو الثغر الأعلى . افتتاح المنذر لحصن روطه واستيلاؤه على لاردة . خضوع سرقسطة . الخلاف بين بنى قسى . خروج محمد بن لب في سرقسطة وتحالفه مع النصارى . سير المنذر إلى سرقسطة واستيلاؤه عليها . الهدنة بين المسلمين والنصارى . عود ابن مروان إلى الثورة في ماردة . سير محمد لقتاله . تحالف ابن مروان مع ملك ليون . هزيمة جيش الأندلس وأسرقائه . عيث ابن مروان بنواحي الغرب . التجاؤه إلى ملك ليون . زحف المنذر على بطليوس وإحراقها . الثورة في شنت برية وبنو ذو النون . ظهور ابن حفصون في جبل ببشتر . بواعث الفتنة في كورة ريه . غزو ابن حفصون لكورة ريه . محاربة ابن حفصون وأسرهم . فراره واستئناف الثورة . سير المنذر لقتاله . محاصرة الحامة . وفاة محمد بن عبد الرحمن وعود المنذر إلى قرطبة . خلال محمد . عنايته بالجيش والأسطول والمنشآت الدفاعية . نظام البلاط في عهده . حجابيه ووزراؤه . أعماله الإنشائية . المسجد الجامع ومنية الرصافة . شخصه وخلاله . أدبه وبلاغته . عطفه على العلماء والأدباء . حمايته لبقى بن مخلد . تفوذ الفقهاء في عهده . تسامحه نحو النصارى .

ترك عبد الرحمن بن عبد الحكم ، مملكة زاهرة موطدة الأركان ، تنعم بالاستقرار والهدوء . ولكن هذا الاستقرار الظاهر ، كان يحجب كثيراً من التيارات الخفية ، التى تهدد أمن المملكة وسلامتها . ذلك أن الهزات العنيفة التى توالى على الأندلس في عهد عبد الرحمن ، تركت آثارها العميقة في هذا الصرح الباذخ .

وكانت الثورات المحلية المتعاقبة ، وغزوات النورمانين ، ودسائس النصارى المتعصبين ، كلها تنذر بأن الاستقرار المؤقت الذى تنعم به المملكة ، لم يكن سوى

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الثاني

عصر الإمارة

من محمد بن عبد الرحمن إلى عبد الله بن محمد
وعنه الفتنة الكبرى

٢٣٨ - ٥٣٠٠ : ٨٥٢ - ٩١٢ م

هدنة خادعة ، حققها سياسة قوية حازمة . وكانت عناصر الإضطراب والغدر تجثم هنالك في صدور المنافقين والطامعين ، وتندر حكومة قرطبة وعرش بني أمية بأعظم الأخطار .

تولى محمد بن عبد الرحمن الملك عقب وفاة أبيه ، في الرابع من ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ (٢٤ سبتمبر سنة ٨٥٢ م) ، ودخل القصر وأبوه مسجى على سريرته ، فاقتعد لفوره سرير الملك ، وأخذ له البيعة الحاجب عيسى بن شهيد . وكان يومئذ قد جاوز الثلاثين بقليل . وكان مولده في شهر ذى القعدة سنة ٢٠٧ هـ (إبريل سنة ٨٢٣ م) . وأمه أم ولد تدعى بهير^(١) . وكانت ظروف ولايته ممهدة من قبل ، وكان والده عبد الرحمن قد استخلفه بقصر الإمارة ، حينما اعتزم أن ينيبه عنه في سنة ٢٢٦ هـ ، وهو يومئذ فتي في العشرين من عمره ، ثم ولاه ثغر سرقسطة ، فضببطه وأحسن إدارته ، وصحب والده إلى بنبلونة في غزوته المظفورة سنة ٢٢٨ هـ ، وقاد ميمنة الجيش ، وأثنى عليه والده في كتاب الفتح ، فاشتهر اسمه بين الناس ، ثم ندبه أبوه بعد ذلك لمقابلة رسل ملك الفرنج قارله (كارل) بن بين القادمين إليه . وأخيراً كلفه بالركوب إلى البلاط بصفة منتظمة ، ليرفع إليه الكتب الواردة بعد تلخيصها بمعرفته ، وقد تم هذا الإجراء بتوصية الحاجب عيسى بن شهيد ونصحه ، وذلك لتمكين أمر محمد ومكانته ، وتوهين ما كان يحاوله نصر الحصى الأثير لدى الأمير ، وحليف حظيته طروب المتغلبة عليه ، من ترشيح ولدها عبد الله لولاية العهد ، وتمكين أمره .

ولم يكن ذلك دون اختيار وثبت . ذلك أن عبد الرحمن ، كان حسبا يحدثنا عيسى الرازي « قد كشف عن مذاهب ولده ، ولدأ ولدأ ، وعجم أخلاقهم اختباراً ، فوجد محمداً راجحاً لهم بخالاه » . فاختره ليخلفه من بعده ، وأوعز إلى وزرائه وأكابر دولته . بأنه صاحب ولاية عهده ، والمفوض إليه الأمر من بعده ، وكلفهم جميعاً ، ومعهم القاضي وأهل الشورى ، بالركوب إليه وغشيان مجلسه أيام الجمع في المسجد الجامع ، وأبدى على الحملة بما لا يدع مجالاً لأي شك ، بإيثاره على جميع ولده ، وتفرده دونهم بخلافته في ملكه .
وفضلاً عن ذلك كله ، فقد كانت لحمد عيون من الصقالية بالقصريطالعون

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ .

بالأخبار في وقتها . فلما توفي والده ، وافاه في مساء نفس اليوم رسول من قبل حبيب الحصى ، يستدعيه إلى القصر بسرعة ، فبادر إلى القصر متكرراً وقد أخفى سلاحه تحت ثيابه ، خوفاً من دسائس أخيه ومنافسه عبدالله ، لتمكّن نفوذ أمه داخل القصر . وكان الصقالبة قد كتموا موت الأمير ، وأغلقوا أبواب القصر ، وثارَت بينهم مناقشات عنيفة حول ولاية العرش ، وانتهى الأمر بتفضيل محمد وتقرير استدعائه . وخرج محمد من غرفة أبيه المسجى إلى مجلس البيعة ، واستدعى إخوته التسعة والأربعين ، وعمومته ، وأهل بيته ، وعظماء المملكة . وأخذت له البيعة دون خلاف (يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول ٢٣٨ هـ) ، ثم أخذت له بيعة الكافة في المسجد الجامع أياماً متوالية^(١) .

أوردنا هذه التفاصيل لنقف على نوع الإجراءات التي كانت تتخذ لتقرير ولاية العهد ، في إمارة قرطبة الأموية ، ثم لنقف على الدور الذي أخذ يضطلع به الفتيان الصقالبة منذ الآن فصاعداً في مسألة خلافة العرش ، وهو دور كان له أثره الحاسم في كثير من المواطن .

وكان محمداً أميراً ذكياً فطناً بالأمر^(٢) ، تولى والأفق الذي ظلل عصر أبيه العظيم مازال محتفظ بلمعانه ، وملوك اسبانيا النصرانية يحسبون حسابه ، ويشعرون بأنه خلف كفء لأبيه ، وملوك العدو القريين من الأندلس يخطبون وده ، وملك الفرنج يسعى إلى عقد السلم معه .

وأقر محمد حاجب أبيه عيسى بن شهيد ، ومعظم الوزراء الذين كانوا يتولون خدمة أبيه على خططهم ومراتبهم ؛ وصنع نظاماً جديداً للوزارة ، تتميز فيه الخطط الرفيعة على غيرها ، ويمتاز فيه الوزراء بنوع من التعظيم والتجلة ، وقدم الوزراء من أهل الشام على غيرهم من الأندلسيين والبربر ، وأعلاهم في الجلوس على أرائكهم بيت الوزارة . وكان بنفسه يشرف على أعمال الوزارة والكتاب ، ويدقق في أعمالهم وتصرفاتهم وحساباتهم^(٣) . ولما توفي عيسى بن شهيد ، خلفه في الحجابة عيسى بن الحسن بن أبي عبدة ، وكان بالرغم من رثائه هيئته وزيراً قوياً ،

(١) ابن حيان عن أحمد بن محمد الرازي ، وعيسى بن أحمد الرازي ، ومعاوية بن هشام الشيبني ؛ مخطوط القرويين اللوحات ٢١٥ إلى ٢٢٠ ب .

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤١ .

(٣) ابن حيان عن أحمد الرازي ؛ مخطوط القرويين لوحة ٢٢٣ .

وافر الفطنة والذكاء ، صائب الرأي والتقدير . وكان هاشم بن عبد العزيز من بين وزراء الأمير محمد ، أشدهم خصومة ومنافسة للحاجب ابن أبي عبدة ، وكان في نفس الوقت أحب وزراء الأمير إليه ، وأكثرهم حظوة لديه ، فلم يلبث أن غلب نفوذه على سائر الوزراء . ويقول لنا ابن عبد البر إن هذه الخطوة التي استأثر بها الوزير هاشم لدى الأمير محمد ، كان لها أثر سيئ في تصرفات الأمير ، وأنه أي هاشم قد أفسد عليه أمره ، « فشرهه » ، واصله ، وحمله على غير المنهج من محمود طرقة ، وعدل عن اختيار ثقات العمال ، من الشيوخ والكهول أولى النهى والأصول ، إلى الأحداث من أولى الشر والخيانة ودناءة الأصول . فلم يلبث الأمر أن فسد بذلك إلى أبعد حال .. فنجمت الفتنة بأكثر البلاد ، وكثر في الأرض الفساد في المملكة^(١) . وفي أقوال ابن عبد البر عن هذا التحول في سياسة الأمير محمد وفي أساليب حكمه مبالغة ، ينقضها ما أورده صاحب البيان المغرب وغيره عن صفاته^(٢) . وعلى أي حال فسوف نرى أي دور خطير يلعبه الوزير هاشم بن عبد العزيز ، الذي تولى الحجابة فيما بعد ، في ميدان الحرب والسياسة في عهد الأمير محمد .

وقد شاء القدر أن يكون عهد محمد بداية عصر من أخطر عصور التاريخ الأندلسي ، وأشدهم خطراً على ملك بني أمية ، وعلى دولة الإسلام في الأندلس . ذلك أنه ما كاد يتبوأ العرش ، حتى بدأت طلائع تلك الثورة الحارفة ، التي قدر له أن يضطلع بكفاحها طوال حكمه ، الذي امتد خمسة وثلاثين عاماً ، والذي يصنفه ابن حيان بقوله : « والمشوب آخره بالتنكيد ، المنصرم عن فرقة الجماعة ، ونجوم النفاق بكل جهة » .

ففي منتصف ربيع الثاني سنة ٢٣٨ هـ ، يعني لأيام قلائل فقط من وفاة عبد الرحمن ، وولايه محمد ، تحرك أهل طليطلة التي ما فتئت تفيض بعوامل الثورة . وكان بها عندئذ سعيد بن الأمير محمد ، والعامل عليها حارث بن بزيح . وكان جماعة من المارقين وأهل الشر ، قد اجتمعوا في الهضبة القريبة من المدينة المسماة « جبل الأخوين » بزعامة مسوقة بن مطرف ، وهو أحد الزعماء الخوارج الذين فروا من قرطبة ، فلما وقفوا على وفاة الأمير عبد الرحمن ، كاتبوا أهل طليطلة وحرضوهم على الوثوب بسعيد ومن معه . فاضطربت الثورة داخل المدينة ،

(١) نقله ابن حيان ، مخطوط القرويين اللوحة ٢٢٢ أ .

(٢) راجع للبيان المغرب ج ٢ ص ١١١ .

وساعدهم ابن مطرف بحشوده من الخارج ، وانتهى الأمر بهزيمة جند الأمير ، واستطاع سعيد أن يغادر المدينة ، ولكن الثوار أسروا عاملها حارثاً ، ورفضوا إطلاق سراحه حتى أطلقت حكومة قرطبة رهاثتهم المعتقلة هناك^(١). وفي صيف العام التالى (سنة ٢٣٩ هـ - ٨٥٣ م) بعث الأمير محمد أخاه الحكم فى جند الصائفة إلى قلعة رباح ، وكانت قد أفقرت وخربت وغادرها معظم أهلها ، عقب مهاجمة أهل طليطلة الخوارج لها ، وقتلهم كثيراً من أهلها ، فاحتلتها جند الأمير ، وقامت بإصلاح أسوارها ، واستدعى أهلها الفارون وأمنوا ، وفعل الحكم مثل ذلك بحصن شندلة ، الواقع على النهر المسمى بهذا الإسم Jandula ، وهو من أفرع الوادى الكبير ، وجالت جند الأمير فى تلك المنطقة تطهيراً من الثوار ، وخرجت منها حملة سارت جنوباً ، فلقبتها عصابات الخوارج من أهل طليطلة فى فحص أندوجر ، ووقعت بين الفريقين معركة عنيفة هزم فيها جند الأمير ، وردوا بنخسارة فادحة (شوال سنة ٢٣٩ هـ) . وعلى أثر ذلك خشى أهل مدينة جيان القريبة على أنفسهم من عيث الخوارج ، فغادرها كثير منهم إلى الجبال ، وابتنى الأمير محمد لهذا السبب حصن «أندة» على مقربة جيان ، وضم إليه العرب المقيمين على الطاعة ، وسمى المكان لذلك «أندة العرب»^(٢) .

وعندئذ شعر محمد بما يهدد العاصمة من الأخطار ، وأراد أن يلقى على ثوار طليطلة ، درساً عميق الأثر ، فسار إليها فى المحرم سنة ٢٤٠ هـ (يونيه ٨٥٤ م) على رأس قوة كبيرة . وكانت أول حملة يقودها بنفسه بعد تبوئه الملك . وكان عماد الثورة فى طليطلة جمع كبير من المولدين والنصارى ، الذين تحركهم روايات المتعصبين ، عن الاضطهاد الذى يلقاه إخوانهم فى قرطبة ، وكانوا يتطلعون دائماً إلى عون ملك النصارى ؛ فلما استشعروا عزم محمد على قتالهم ، بادروا بالاستغاثة بأردونيو (أردن) ملك ليون ، وكذلك بملك ناغار ؛ وأمدهم أردونيو بقوة على رأسها الكونت غاتون^(٣) . وكان تدخل النصارى على هذا النحو لتأييد الثورة ضد حكومة قرطبة ، عاملاً فى إذكاء حماسة المسلمين ، فهرعت جموع كبيرة إلى جيش الأمير ، ومنهم كثير من الفرسان الأشراف وذوى الحسب ، وسار محمد صوب

(١) ابن حيان عن الرازى فى مخطوط القرويين لوحة ٢٥٩ أ .

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٥٩ ب .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٠ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٧ . ويقول صاحب البيان

إن الكونت غاتون هو أخ الملك ليون .

طليطلة في بعض قواته ، وترك بقية جيشه الكثيف مستتراً بالتلال التي تظلل وادي سليط ، وهو الوادي الذي يخترقه النهر المسمى بهذا الاسم *Guazalete* ، وهو أحد أفرع التاجه الجنوبية ، فلما رأى أهل طليطلة قلة الجيش المحاصر ، خرجوا لقتاله ومعهم حلفاؤهم النصاري وهم على ثقة من الظفر ، فارتد محمد بنجوده نحو وادي سليط متظاهراً بالهزيمة ، وعندئذ برزت قوات الأندلس من مكانها ، وأطبقت على الثوار وحلفائهم النصاري ، وكانت موقعة هائلة مزقت فيها جموع الطليطليين والإسبان في ساعات قلائل من الصباح إلى الضحى ، وقتل منهم مقتلة عظيمة تقدرها الرواية الإسلامية بأحد عشر ألفاً ، وقيل بل عشرين ألفاً ، وأسر منهم كذلك عدد جم ، بينهم كثير من القساوسة وقد أعدموا على الفور ، ورصت رؤوس القتلى ، وأذن فوقها لصلاة الظهر . وكان نصراً عظيماً . وفي هذه الموقعة يقول شاعر العصر عباس بن فرناس :

لهوم الفلا عبل القبائل ملتف	ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف
بروقاً تراءى في الغمام وتستخفي	إذا أومضت فيه الصوارم خلتها
قراقر في يم عجزن عن القذف	كأن ذرى الأعلام في ميلانها
على النفر العبدان والعصبة الغلف	بكي جبلا وادي سليط فأعولا
أرى الموت قدامي وتحتي ومن خلفي	يقول ابن يوليس لموسى وقد وني
وألفاً وألفاً بعد ألف إلى ألف	قتلنا لهم ألفاً وألفاً ومثلها
فأغرق فيه أو تهدد من جرف	سوى من طواه النهر في مستلجه
وسمعت الدقات قصفاً على قصف (١)	لقد نعمت فيه غزاة نسورنا

على أن الفتنة في طليطلة لم تهدأ ولم تخمد ، فقد استمر تحريض النصاري المتعصبين فيها على أشده ، وأضحت المدينة الثائرة موئلاً لطائفة من القسس المتعصبين مثل أولوخيو وصحبه ، ببثون دعايتهم المضطربة في طليطلة وما جاورها من الأنحاء ، ويصورون مصير النصاري في ظل الحكم الإسلامي بأشنع الصور ، ويدعون إلى التحرر من الاضطهاد الديني والاجتماعي ، وكان صدى هذه

(١) ينقل إلينا ابن حيان عن موسى الرازي تفاصيل هذه الموقعة - مخطوط القرويين لوحة ٢٦٠ أ وب ٢٦١ أ . وراجع البيان المنرب ج ٢ ص ٩٧ و ١١٤ . وكذلك : Dozy

الدعوة يتردد قوياً في العاصمة الأندلسية ، ويبت القسس تحريضهم ودعايتهم المسمومة ، مثلما كانوا يفعلون أيام عبد الرحمن بن الحكم^(١). وكان محمد يرقب هذه الفتنة حذراً من عواقبها ، وعواقب تمرد المدينة الثائرة ، ومن ثم فقد لبث متأهباً لمقارعتها ، وشحن قلعة رباح وطلبيرة على مقربة منها بالهند والعدد .

وسير الأمير محمد كذلك الصوائف والحملات الغازية إلى الثغر الأعلى . ففي سنة ٢٣٩ هـ (٨٥٣ م) سير جيشاً بقيادة موسى بن موسى بن قسى والى تطيلة إلى ألبه والقلاع . وكان موسى أيام الأمير عبد الرحمن ، من زعماء الثورة في الشمال ، وتحالف مع النصارى حسبما تقدم ، وقاتله عبد الرحمن حتى تمكن من إخضاعه . ولكنه عاد في أواخر عهده إلى سابق مكانته من زعامة الثغر الأعلى ، واستطاع أن يوطد استقلاله في تطيلة وما جاورها ، مع التظاهر في نفس الوقت بالولاء للحكومة قرطبة ، انقاء لخصومتها . فسار إلى ألبه والقلاع وعاث فيها ، وهزم النصارى في عدة مواقع ، وافتتح بعض الحصون ، ثم عاد بعد ذلك فاتحاً صوب ثغر برشلونة ، وانتزع بعض حصونه من أيدي النصارى ، وتضع بعض الروايات تاريخ هذه الغزوة في سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) . بيد أنه يبدو من أقوال الرازي أنها وقعت قبل سنة ٢٤١ هـ^(٢) .

وفي صيف سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) سار محمد بنفسه إلى ألبه والقلاع ، وقد كتب إلى موسى بن موسى وأهل الثغور بالاحتشاد والسير في حملته ، فعاث في بسائط ألبه والقلاع ، وافتتح كثيراً من حصون النصارى . وفي العام التالي بعث موسى بن موسى إلى أحواز برشلونة ، فغزاها وخرب برشلونة وافتتح بعض حصونها ، وأسر بعض أمراءها^(٣) .

بيد أن اهتمام الأمير لبث في الوقت نفسه بالأخص موجهاً إلى طليطلة ، فبعث ولده المنذر إلى المدينة الثائرة في قوة كبيرة فحاصرتها وعاثت في أحوازها (٢٤٢ هـ) ، ولم يجرأ الثوار هذه المرة على مغادرة مدينتهم . ولكنهم خرجوا في العام التالي إلى طلبيرة لمقاتلة الحامية الأندلسية بها ، فخرج إليهم قائدها مسعود بن عبد الله ،

(١) يفيض دوزي في شرح أدوار هذه الفتنة الدينية وأعمال دعايتها : Dozy : Hist.;

V. I. p. 356—362

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٦١ ب .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٨ .

وأوقع بهم وقتل منهم عدة مئآت أرسلت رؤوسهم إلى قرطبة . وسارت جند الصائفة في الوقت نفسه إلى طليطلة ، فنازلتها وعاثت في أحوازها ، وانتسفت زروعها وأقواتها .

ورأى الأمير محمد أن يتابع معاقبة أهل طليطلة . فخرج إليهم بنفسه في صيف سنة ٢٤٤ هـ (٨٥٨ م) ، وحاصر المدينة الثائرة ، وتأهب أهلها لقتاله بالرغم مما أصابهم من نقص في القوى ، وشح في الأقوات ، واعتمدوا على حصانة مدينتهم . ولجأ محمد إلى الحيلة فهدم مهندسوه قواعد القنطرة الكبيرة مع تركها قائمة ثم انسحب بجنوده ؛ وهنا خرج أهل طليطلة لقتاله ، فلما احتشدوا على القنطرة سقطت بهم في نهر التاجه وغرق منهم عدد جم^(١) . ولم يترك محمد هذه المرة وسيلة رائعة إلا استعملها لسحق المدينة الثائرة ، فخرّب حصونها ومعالمها ، وأوقع بأهلها قتلا وتشريداً ، حتى اضطروا إلى طلب الأمان والصلح ، وأذعنوا للخضوع والطاعة ، وهم يعزّزون النكت في قرارة أنفسهم متى سنحت الفرص (٢٤٥ هـ - ٨٥٩ م) .

وهكذا لبث طليطلة عصراً ترضى حكومة قرطبة بتمردّها وثوراتها المتوالية ؛ وكانت حاضرة القوط القديمة تشعر دائماً بقوتها ومنعتها الطبيعية ، وكانت فوق ذلك مثوى التيارات النصرانية الخطرة حسبا بينا ، تنساب إليها من نصارى الشمال ، ومن النصارى المعاهدين بقرطبة ، ومن أهلها أنفسهم . والواقع أن طليطلة كانت بوعورة موقعها على المنحدر الصخري الممتد نحو نهر التاجه ، وإحاطة النهر بهذا المنحدر الوعر ، ثم بحصونها القوية ، وأسوارها العالية الضخمة ، من أمتع مدن العصور الوسطى . وما تزال إلى اليوم حين نتأملها ونتجول فيها ، تذكرنا بموقعها الصعب ، وطرقها الصخرية الوعرة ، وببقية أسوارها وحصونها المنيعّة ، بما كان لها من سابق الحصانة والقوة فيما خلا من العصور .

وهكذا أخذت ثورة المولدين والنصارى المعاهدين في طليطلة إلى حين ؛ وتأهب محمد في الوقت نفسه لقمع شغب النصارى المتعصبين في قرطبة وغيرها ،

(١) يقدم إلينا ابن حيان عن هدم القنطرة قصة أخرى ، فيقول إن جنود محمد حاولوا هدم للقنطرة تحت أنظار أهل المدينة ، وأنهم سخروا من هذه المحاولة ، وأيقنوا بعقمها . ثم خرجوا للقتال ، واحتشد الكثير منهم فوق القنطرة ، فانهارت تحت أقدامهم وهوت بمن فوقها إلى النهر ، وهدمت صخورها عليهم من كل ناحية (مخطوط القرويين لوحة ٢٦٢ أ) .

وإخماد نزعهم الثورية الخطيرة . وحوكم القس أولوخيو الذى أشرنا من قبل إلى دعايته وتخريضة أيام عبد الرحمن ، وكان مايزال معقد الدسائس الدينية ، وقضى بإعدامه كما قضى بإعدام صاحبه ومعاونته الفتاة ليوكريسيا (مارس سنة ٨٥٩ م) . ورأى النصارى فتنهم نهار فركنوا إلى السكينة ، وخبث جذوة تعصّبهم ، التى لبثت أعواماً طويلة تضطرم فى قرطبة ، ولم يبق من حماسهم سوى الذكرى^(١) .

ولم يكد ينتهى الأمير محمد من إخضاع طليطلة ، حتى دهم الأندلس خطر النورمانين مرة أخرى . وفى نفس هذا العام (٨٥٩ - ٨٤٥ هـ) انحدر النورمانيون (وهم الأرذمانيون أو المجوس كما تسميهم الرواية الإسلامية) فى سفنهم نحو شواطئ جليقية ، وعاثوا فى شاطئ أسبانيا الغربى . وتقدر الرواية الإسلامية أسطول النورمان فى هذه المرة باثنتين وستين مركباً ؛ وطاردتهم السفن الأندلسية ، وكانت دائماً على قدم الأهبه تجوس خلال المياه الغربية بصفة مستمرة استعداداً لرد أولئك الغزاة الخطرين ، مذ فاجأوا الأندلس بغاراتهم المخربة أيام عبد الرحمن . ووصلت بعض سفن النورمانين جنوباً حتى تجاه مدينة باجة ، وهناك استطاعت السفن الأندلسية أن تقضى على طلائع الغزاة ، وأن تنزع سفينتين من سفنهم المحملة بالغنائم والسبي ، بيد أنهم انقضوا على الشواطئ الجنوبية ، ووصلوا إلى مصب نهر الوادى الكبير ، ثم انحدروا جنوباً حتى مياه الجزيرة الخضراء .

وفى تلك الأثناء كانت القوات الأندلسية قد سارت إلى الغرب بقيادة الحاجب عيسى بن أبى الحسن بن أبى عبدة ، وهرع الناس إلى جيش الأمير من كل صوب ، وتقدم الأسطول بقيادة أميرى البحر حشاش وابن شكوح ، وقد عيى أحسن تعبئة ، وجهاز بالأنفاط وفرق الزمالة الكثيفة ، ورد الغزاة أولاً عن إشبيلية بعد عدة معارك برية وبحرية . ثم نشبت بين الفريقين بعد ذلك معركة بحرية شديدة تجاه شاطئ شذونة ، وغنم المسلمون فى البداية مركبين آخرين ، ولكن السفن النورمانية تكاثرت على جناح الأسطول الذى يقوده حشاش ، وغلبت عليه ، وقتل أمير البحر المسلم فوق سفينته ، ثم انحدر النورمانيون صوب الجزيرة الخضراء واقتحموها ، وأحرقوا مسجدتها الجامع ، وعاثوا فيها سفكاً ونهباً ، وسارت

بعض سفنهم إلى شواطئ العدو (عدوة المغرب) وعاثت فيها ، ثم نزلوا بشاطئ الأندلس الجنوبي ، وسارت سفنهم قبالتهم على ساحل تدمير حتى أوريولة ، فدخلوها ، وعاثوا في تلك الأنحاء نهباً وسيباً ، واشتبكوا مع القوات الأندلسية في عدة معارك برية وبحرية عنيفة ، حطمت فيها بعض سفنهم ، وقتل كثير من المسلمين ، واستمر عيث النورمانين على هذا النحو أشهراً حتى خبت فورتهم ، وفقدوا كثيراً من سفنهم . فارتدوا نحو الشمال على طول شواطئ إسبانيا الشرقية ، ونفذت منهم قوة خلال نهر إيره إلى نافار ، واقتحموا عاصمتها بنبولنة وأسروا ملكها غرسية ، ولم يطلقوه إلا لقاء فدية كبيرة ، وأغارت قوات أخرى منهم على الجزائر الشرقية وشواطئ پروفانس حيث عبروا مصب الرون ، وخرّبوا آرل ونيمة وفالانس .

وهكذا لم تكن الغزوة النورمانية في هذه المرة مفاجأة مثلما كانت الغزوة الأولى ، ولم يكن عيث الغزاة على نفس النطاق الواسع . وهذا ما يسجله لنا ابن حيان في ختام حديثه عنها ، إذ يقول : « فلم يكن لهم في هذه الكرّة الإنبساط في البحر ، والإضرار بأهل السواحل ما جرت به عادتهم ، ولم يجدوا في السواحل مطعماً لشدة ضبطها ، ولا قوا مع ذلك من البحر هولا عطبت له من مراكبهم أربعة عشر مركباً بناحية البحيرة من الجزيرة ، فنكبوا عن حائط الأندلس ، واعتلوا إلى جهة الفرنجة ، فلم يلقوا ظفراً ، وأسرعوا الانصراف إلى بلدتهم بالخبية ، فلم تكن لهم بعد بالأندلس إلى اليوم عودة » (١) .

وفي العام التالي أعنى سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) بعث محمد حملة إلى الولايات الشمالية بقيادة حاكم طرطوشة . ويقول لنا ابن حيان إن الأمير محمد هو الذي غزا بالصائفة بنفسه في تلك السنة . وكان غرسية ملك نافار ، قد تحالف عقب انطلاقه من أسر النورمان مع أردونيو ملك ليون ، وأغارت قواتهما المتحالفة على الأراضي الإسلامية . وعلى أي حال فقد زحفت القوات الأندلسية على نافار ، ولم تكن قد

(١) تخلف الرواية الإسلامية في تاريخ هذه الغزوة النورمانية الثانية لشواطئ الأندلس ، فيضمه الرازي في سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) . ويتابعه في ذلك ابن الأثير وابن عذاري . ويضمها هشام ابن معاوية الشيبني في سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) ، وقد أخذنا بالرواية الأولى لأنها أرجح وأكثر اتقاداً مع سير الحوادث . راجع في تفاصيل الغزوة ، ابن حيان في مخطوط القرويين لوحة ٢٦٣ أ وب و ٢٦٤ أ ، والعذري في « الأوراق المنشورة من ترصيع الأخبار » ص ١١٨ و ١١٩ . وابن الأثير ج ٧ ص ٢٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٩٩ .

أفاقت بعد من ضربة النورمانين ، وغزت بذبلونة وخربت حصونها . ولم تقو جموع غرسية على رد المسلمين ، واستمر المسلمون بضعة أسابيع يخربون بسائط نافار وينتسفون قراها وحصونها ، وكان من بين الأسرى فرتون ولد غرسية ، فأخذ إلى قرطبة حيث اعتقل زهاء عشرين عاماً^(١) .

وفي صيف سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) سارت حملة أندلسية أخرى إلى ألبه والقلاع . وكان موسى بن موسى قد طلب إلى محمد أن يكون طريق الحملات الغازية عن غير منطقته ، نظراً لما يتجشمه في مقارعة النصارى من جهد ، وما يصيب أراضيه من الدمار ، فأجابه الأمير إلى طلبه ، وسارت الحملة من طريق آخر ، وعاثت في أراضى النصارى .

وكان موسى بن موسى بن قسي يومئذ ، قد بسط نفوذه على بسائط قواعد الثغر الأعلى ، وأصبح سيداً لتطيلة ووشقة وسرقسطة وأحوازها . وكان هذا الزعيم القوي الذي يرجع حسبنا أسلفنا إلى أصل نصراني ، وله مصاهرة وقرابة مع الأمراء النصارى ، ينهز كل فرصة لتدعيم استقلاله ، وكان يتشج بلقب الإمارة ، ولم يكن يدين لحكومة قرطبة إلا بنوع من الولاء الإسمي . وكانت علائقه مع أردونيو ملك ليون جاره من الغرب ، تردد بين الخصومة والتحالف وفقاً للظروف . وكان أردونيو ينظر إلى اتساع ولايته من ناحية الغرب بعين القلق ، وموسى من جانبه يحرص على تحصين قواعده وحدوده ؛ ففي سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢ م) سار موسى في قواته إلى الغرب لتحصين قواعده الغربية ومعه صهره غرسية أمير نافار ؛ وحاول أردونيو من جانبه أن يحبط هذه الحركة ، فهاجم بعض الحصون التابعة لموسى وفي مقدمتها حصن « البلدة » الواقع على نهر إبره على مقربة من قلهرة ، ونشبت بين الفريقين معركة جرح فيها موسى جراحاً خطيرة ، وهزمت قواته وقتل منها عدد كبير من المسلمين والنصارى ، وقتل صهره غرسية ، وهدم أردونيو حصن البلدة وغيره من الحصون التي تحمي أراضى ابن قسي ، ولم يمض سوى قليل حتى توفي موسى نفسه متأثراً بجراحه ، وكانت وفاته نذيراً بتطور الحوادث في الثغر الأعلى .

وذلك أن موسى بن موسى كان بالرغم من استقلاله عن حكومة قرطبة ،

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٩٩ و ١٠٠ ، ومخطوط القرويين اللوحة ٢٦٣ أ .

يقف بقواعده وقواته في الشمال الشرقي ، سداً منيعاً في وجه النصارى . فلما توفي أعلن ولده لب خضوعه لأردونيوم ملك ليون ، وتحالف معه ضد المسلمين ، وزحف على وادي الحجارة يبغي الاستيلاء عليها ، فرده عنها حاكمها ابن سالم . وأصابته خلال المعركة جراح توفي منها وهو في طريق العودة إلى تطيلة ، وحل أخوته الثلاثة إسماعيل ومطرف وفرثون مكان أبيهم في حكم القواعد الشمالية . وهنا رأت حكومة قرطبة أن تضاعف أهباتها لرد النصارى عن الولايات الشمالية . ففي صيف سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٣ م) سار عبد الرحمن ابن الأمير محمد على رأس حملة كبيرة إلى ألبه والقلاع ، ومعه القائد عبد الملك بن العباس القرشي ، فجاس خلالها وخرب بسائطها . واشتبك النصارى بقيادة ملكهم أردونيوم مع المسلمين في معركة عنيفة ، وهزموا على أثرها هزيمة شديدة ، وقتل عدة من قوادهم (١) . ولم يمض عامان حتى سير محمد ولده عبد الرحمن مرة أخرى ، إلى غزو ألبه والقلاع (٢٥١ هـ - ٨٦٥ م) . ويقول لنا ابن حيان إن الذي كان على رأس هذه الغزوة هو المنذر بن عبد الرحمن ، وكانت قيادة الجيش للحاجب عيسى بن الحسن بن أبي عبدة . وعلى أي حال فقد سار المسلمون بخذاء نهر إبره ، واستولوا على معظم حصون أكابر النبلاء والسادة في تلك المنطقة . وحاول أردونيوم كعادته أن يعترض سبيل المسلمين عند العودة ، وقد كمن لهم في موضع يسمى «بفج المركور» على مقربة من نهر إبره ، أفرغ جهده في تحصينه ، فنشبت بينه وبين المسلمين على ضفاف النهر معركة شديدة ، كانت الدائرة فيها على النصارى ، فقتل وأسر منهم عدد كبير وغرق الكثير منهم في النهر ، ومزقوا كل ممزق (٢) . وفي العام التالي سارت حملة أخرى إلى الشمال بقيادة الحكم بن محمد ، فعاث في أرض النصارى ، واستولى على بعض الحصون . وكانت هذه الغزوات المتوالية قد هدت من قوى النصارى ، ومزقت شملهم وخربت بلادهم ، فركنوا إلى السكينة ، وتوفى ملكهم أردونيوم في الوقت نفسه (٨٦٦ م) فخلفه ولده ألفونسو الثالث الذي لقب فيما بعد بألفونسو الكبير .

كان حرياً بعد أن هدأت ثائرة النصارى في الشمال ، أن تتمتع حكومة قرطبة

(١) ابن حيان في مخطوط القرويين لوحة ٢٩٥ أ

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٢ . ومخطوط القرويين لوحة ٢٦٥ ب .

بفترة من السلام والدعة . ولكن الخطر كان يجثم في ناحية أخرى . ذلك أن عوامل الانتقاض والثورة كانت تجتمع من جديد في شمال غربي الأندلس ، في المناطق الجبلية التي ألفت الثورة واتخذتها شعاراً لها . ولم تكن حكومة قرطبة بغافلة عن هذه النذر . وكانت ماردة وبها عدد من زعماء المولدين المتمردين ، في مقدمة القواعد التي يشك في ولائها وطاعتها . ففي سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨ م) خرج الأمير محمد على رأس جنده من قرطبة ، متظاهراً بالسير إلى طليطلة ، ولكنه عرج في منتصف الطريق فجأة على طريق ماردة ، ودهمها قبل أن تستعد للقائه ، فتحصن بها أهلها . ثم اقتحمها محمد ، ووقع بين الفريقين قتال عنيف انتهى بسحق الثوار وإذعان المدينة ، وطلب الزعماء الثائرون الأمان وفي مقدمتهم عبد الرحمن بن مروان الحلبي ، وابن شاكر ، ومكحول ، وغيرهم ، وهم من أكابر الفرسان والسادة ، فنقلهم الأمير بأموالهم وأهلهم إلى قرطبة ، وولى على ماردة سعيداً بن عباس القرشي ، وهدم حصونها وأسوارها^(١) .

وكانت الحوادث تتطور في الثغر الأعلى في نفس الوقت تطوراً خطيراً . وكان الأمير محمد قد استطاع عقب وفاة موسى بن موسى أن يسترد سلطانه في تلك الأنحاء ، وأن ينتزع القواعد الشمالية من أبنائه ، ويعين لها حكاماً من قبله . وكان بنو موسى أو بنو قسي ، نسبة إلى جدهم الأعلى الكونت قسي القوطي ، يرجعون كما أسلفنا إلى أصل نصراني ، وكانت هذه الأسرة المتمردة الشديدة المراس ، كباقي الأسر القوية المولدة ، تبغض حكومة قرطبة ، وتميل إلى مناوأتها والتحالف ضدها مع النصاري ، وكان بنو قسي أصهاراً للملك نافار النصراني ، حيث كان غرسية زوجاً لابنة موسى المسماة « أوريز » Oriá ، فلما توفي موسى وانتزعت حكومة قرطبة قواعده من يد بني ، لجأ هؤلاء حيناً إلى حماية ملك ليون ، حتى تسنح لهم فرصة العمل ومعاودة الجهاد . على أن حكومة قرطبة لم تلق في حكامها الذين اختارهم للقواعد الشمالية ما كانت تؤمل من ولاء وإخلاص . ففي سنة ٢٥٥هـ (٨٦٩ م) ثار سليمان بن عبدوس في مدينة سُرية وهي من أعمال سرقسطة ، فسار إليه الحكم بن الأمير محمد ، وحاصر سرية وهدم أسوارها بالمجانيق ، وأرغم الثائر على الخضوع والطاعة ، وبعث به إلى قرطبة . وفي العام التالي (٢٥٦هـ)

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ٦٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٠٣ ، ومخطوط القرويين لوجه ٢٦٨ أ .

ثار عمروس بن عمر بن عمروس أحد زعماء الثغر ، وغدر بموسى بن غلند عامل وشقه وانتزعها منه . وعمروس هذا هو حفيد عمروس بن يوسف بطل واقعة الحفرة بطليطلة ، وقد كان بنو عمروس مثل بنى قسى مولدين من أصل نصراني ، لا يشعرون بأى ولاء حقيقى لحكومة قرطبة . فسير عامل الثغر عبد الوهاب بن أحمد بن مغيث الحند لمقاتلة الثائر ، فلما انتهت إلى وشقة فر عنها عمروس ، وأسر بها حفيده لب بن زكريا بن عمروس ، وقتل وعلق رأسه على سور المدينة . وفى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧١ م) أرسل محمد حملة جديدة إلى الثغر الأعلى بقيادة عبد الغافر بن عبد العزيز ، فطارد فلول عمروس ، وقبض على ولده زكريا وأبنائه وجماعة من أهله ، وقتلهم على باب مدينة سرقسطة ، وقفل إلى قرطبة ورؤوسهم مرفوعة بين يديه^(١) ، ولاح أن الثورة قد أخذت فى الشمال

ولكن الواقع أن الثورة عادت لتضطرم فى الشمال بأقصى شدتها . ذلك أن القوات الأندلسية ما كادت تعود إلى قرطبة حتى ظهر بنوقسى فى الميدان مرة أخرى ، وزحف مطرف وأخوه إسماعيل ابنا موسى بن موسى على تطيلة ، فانتزعاها من حاكمها عبد الوهاب بن مغيث ، كما انتزعا سرقسطة من ولده محمد ابن عبد الوهاب ، وملك مطرف تطيلة فى صفر سنة ٢٥٨ هـ (٨٧١ م) ، وملك إسماعيل سرقسطة فى ربيع الأول من نفس العام . وهنا عول محمد على أن يخرج إلى الثوار بنفسه . فسار فى العام التالى على رأس جيشه (٢٥٩ هـ - ٨٧٢ م) وعرج فى طريقه على طليطلة ، حيث عقد لأهلها الأمان وأخذ الرهائن . ثم سار إلى الثغر الأعلى ، وزحف توالى تطيلة واستولى عليها . وقبض فيها على مطرف ابن موسى وأبنائه . وفى رواية أخرى أن مطرفاً كان قد ملك وشقة إلى جانب تطيلة واستقر بها ، وأن عمروساً صاحب وشقه السابق استطاع أن يولب أهلها على مطرف ، وانتهى بأن انتزعها منه ، وقبض عليه وعلى ولده وزوجته وهى بنت غرسية ملك نافار وتزوجها . فلما قدم الأمير فى جيشه سارع عمروس بإعلان طاعته ، والتمس الأمان ، فأجابه الأمير إلى ما طلب ، وأقره على ولاية وشقة وأعمالها ، وتسلم منه مطرفاً وأولاده^(٢) . واتجه الأمير بعد ذلك إلى نافار فخرّب

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٣ ، ومخطوط القرويين لوحة ٢٦٩ أ .

(٢) هذه هى رواية عيسى بن أحمد الرازى ، نقلها إلينا ابن حيان فى مخطوط القرويين

لوحة ٢٧٠ ب .

بسائطها ، ثم عاد إلى قرطبة وأمر بقتل الثائر مطرف وبنيه الثلاثة : ورفعت رؤوسهم على باب القصر . وفي العام التالي (٢٦٠ هـ) سير محمد إلى الشمال مع ولده المنذر جيشاً بقيادة هاشم بن عبد العزيز . فزحف المنذر إلى سرقسطة وعاث في نواحيها ، وانتسف أشجارها وزروعها ، وجعلها قاعاً صفصفاً ، ولكنه لم يستطع انتزاعها من يد المتغلب عليها اسماعيل بن موسى . وكان أخوه فرتون قد حل في تطيلة مكان أخيه مطرف ، وتحالف الثائران مع ألفونسو الثالث ملك ليون ، فسار المنذر إلى وشقة ، ثم إلى بنبلونة عاصمة نافار ، وعاث في تلك الأنحاء ، ولكن جهوده لم تسفر عن أية نتائج مستقرة^(١) .

وشغلت حوادث الشمال وثورة بني موسى حكومة قرطبة أعواماً طويلة . ففي سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) سار المنذر مرة أخرى إلى الثغر الأعلى ، وعاث في بسائط سرقسطة وتطيلة ، ولكنه لم يظفر بالاستيلاء عليهما . ثم زحف على بنباونة ، فخرب بسائطها ، وأتلف زرعها ، وقتل كثيراً من أهلها . وفي العام التالي (٢٦٥ هـ) ، عاد المنذر إلى غزو الثغر الأعلى ، وحاصر مدينة سرقسطة وسائر بلاد بني قسي ، وعاث فيها إتلافاً وتخريباً . ومع ذلك فقد لبث الشمال بعيداً عن سلطان قرطبة بضعة أعوام أخرى . وكانت جنبات الأندلس الأخرى تضطرم في الوقت نفسه بسلسلة من الثورات المدمرة حسبما نفصل بعد ، ولكن حكومة قرطبة كانت تعلق على قواعد الثغر الأعلى أهمية خاصة ، لوفوعها على حدود الممالك النصرانية . ففي سنة ٢٦٨ هـ (٨٨٢ م) سير الأمير محمد ولده المنذر إلى الشمال على رأس جيش ضخم ، ومعه القائد هاشم بن عبد العزيز . وكان المنذر قائداً مجرباً ذا شجاعة وبأس ، وكان يعتزم هذه المرة أن يسحق الثورة وزعماءها في الشمال . فزحف توأ على سرقسطة ، ولما لم ينجح في اقتحامها ، تحول إلى الحصون الواقعة حولها فخرّبها واستولى عليها ، وافتتح حصن روضة أمنع حصونها وأسر به عبد الواحد الروطى « أشجع أهل عصره »^(٢) ثم استولى على لاردة وما حولها من الأنحاء ، وانضم إليه محمد بن لب بن موسى ، وكان ساخطاً على عميه لاستئثارهما دونه بالسلطان . ولما رأى اسماعيل بن موسى صاحب سرقسطة

(١) مخطوط القرويين لوحة ٢٧٢ أ .

(٢) ابن الأثير ج ٧ ص ١٢٢ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٠٧ . وفي رواية أخرى أن هاشم بن عبد العزيز اشترى حصن روضة من صاحبه عبد الواحد ولم يفتتحه (المذرى في كتاب « ترصيع الأخبار » ص ٣٥) .

عبث المقاومة ، أعلن خضوعه وطاعته للأمير وقدم رهائنه . وزحف المنذر بعد ذلك على ألبه واخترقها إلى قشتالة (القلاع) ، وتأهب النصارى للقائه بقيادة ملكهم ألفونسو الثالث . ولكن جرت مفاوضة بين الفريقين انتهت بعقد الهدنة ، وعاد المنذر إلى قرطبة ظافراً .

وما كاد المنذر يرتد إلى قرطبة ، حتى نشب الخلاف بين إسماعيل بن موسى وابن أخيه محمد بن لب ، وكان إسماعيل يحقد عليه لتحالفه مع المنذر . وانتهى القتال بينهما إلى انتصار محمد بن لب ، واستيلائه على سرقسطة ، وأسره لعمه إسماعيل . وحكم محمد سرقسطة باسم الأمير محمد . ولكن الأمير أراد أن ينتزع ولايتها منه ، فسخط عليه وأعلن خروجه عن طاعته ، وتحالف مع ألفونسو الثالث ملك ليون . فبادر الأمير محمد بإرسال قواته مرة أخرى بقيادة ولده المنذر وهاشم بن عبد العزيز ، إلى الثغر الأعلى (٢٧٠ هـ - ٨٨٣ م) . فسار المنذر إلى سرقسطة واستولى عليها بعد قتال عنيف ، وأخرج منها محمد بن لب . وفي رواية أخرى أن محمداً بن لب سلم سرقسطة صلحاً وفقاً لاتفاق تم بينه وبين المنذر نظير قدر كبير من المال (١) . وكان من ضباط جيش الأمير في تلك الغزوة عمر بن حفصون الزعيم الخارج الذي سيجيء ذكره فيما بعد . ثم اخترق المنذر ألبه لمقاتلة النصارى حلفاء الثائر . ولكن المفاوضات انتهت بعقد الهدنة بين الفريقين . وأرسل ألفونسو الثالث سفيراً إلى قرطبة هو القس دولثديو ليضع قواعد الصلح مع أمير الأندلس ، فنجح السفير في مهمته وعاد إلى أوبييدو عاصمة ليون ، ومعه رفات القس أولوخيو وصاحبته ليوكريسيا ، وهما اللذان أعدما بقرطبة قبل ذلك بنحو عشرين عاماً ، ونظمهما النصارى في سلك القديسين .

ولنترك الآن حوادث الثغر الأعلى لحظة لنستعرض ما حدث خلال هذه الأعوام المليئة بالفتنة في أنحاء الأندلس الأخرى . ففي ماردة وبطليوس عادت الثورة إلى الاضطرام . وذلك أن عبد الرحمن بن مروان الملقب بالجليقي - لإنتمائه

(١) نقل إلينا هذه الرواية العذرى في كتابه « ترصيع الأخبار » وفيها أن محمداً بن لب تقاضى نظير تسليمه سرقسطة خمسة عشر ألف دينار . وكان ذلك في سنة ٢٦١ هـ . (الأوراق المنشورة من الكتاب المذكور ص ٣٥) . هذا وقد أورد لنا العذرى تفاصيل كثيرة عن موسى بن موسى بن قس وأولاده وأحفاده ، وثوراتهم ، وما خاضوه من الوقائع المختلفة في الثغر الأعلى زهاء نصف قرن (الأوراق المذكورة ص ٢٩ - ٤٠) .

إلى أسرة من المولدين أصلها من ولاية جليقية في شمال البرتغال — استطاع أن يفر من قرطبة مع نفر من صحبه . وكان بنو الخلق قد استقروا بماردة منذ أمد طويل ، وتولى أبوه مروان بن يونس الخلقى حكم ماردة أيام الأمير عبدالرحمن ، فلما اضطربت الثورة بماردة قتله أهلها (سنة ٢١٣ هـ) . وكان ولده عبد الرحمن طموحاً لا يشعر بالولاء نحو حكومة قرطبة ، فانتظم في سلك الخوارج ، واشترك في الثورة ضد الأمير محمد . فلما أخذت الثورة وتم إخضاع ماردة في سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) قبض الأمير على عبد الرحمن الخلقى ونقله مع باقي الزعماء الثائرين إلى قرطبة حسماً . تقدم . وكان فرار الخلقى من قرطبة في أوائل سنة ٢٦١ هـ (٨٧٥ م) على أثر مشادة وقعت بينه وبين القائد هاشم بن عبدالعزيز كبير الوزراء أهانه خلالها وصفعه ؛ فغادر قرطبة خفية مع جمع من أنصاره ، واستولى على قلعة ألانية (أو قلعة الحنش)^(١) في جنوبي ماردة وتحصن بها ؛ واستولى زميله في الخروج والعصيان مكحول ابن عمر على قلعة جلمانية^(٢) القريبة منها . واجتمع إليهما جمع غفير من المارقين والمتمردين ، واشتد عيشتهم في سائر الأنحاء المجاورة . وعندئذ سار الأمير لقتال الثائرين في قوة كبيرة . فلما علما بمقدمه استغاثا بزميلهما القديم سعدون بن عامر المعروف بالسرنباقي ، وهو أيضاً من زعماء الثوار المولدين ، وكان يعيش في كنف ألفونسو الثالث ملك ليون في مدينة برتغال جنوبي حليقية ، فسار إليهما في قوة من صحبه ، وانضم إلى قوات ابن مكحول . فضرب الأمير الحصار حول القلاع الثائرة ، وقطع عنها الماء ، واشتد في ذلك ، وجنده ترهق المحصورين كلما طلبوا الحصول على الماء والمؤن خارج الأسوار . فلما ضاقوا بالحصار ذرعاً ، اضطرب عبد الرحمن الخلقى أن يستجير بعبد الله ولد الأمير ، وأن يوسطه في الشفاعة والإذعان إلى طلب الأمان . وكان عبد الله لين العريكة محباً للسلم ، فتوسط لدى والده الأمير ، وألح حتى أسعفه بما طلب ، ووافق على منح الأمان للثائر ، على أن ينزل له عن قلعة الحنش ، وينصرف وقومه إلى بطليوس ، وكانت يومئذ خالية مجردة من الحصون فينزلون بها ، ويقومون بتعميرها . فقدم ابن مروان رهائنه وهم ولده محمد وثلاثون من أكابر قومه ، وسار إلى بطليوس وصحبه ، ونزلها وأخذ في تعميرها

(١) هي بالإسبانية Alange .

(٢) هي بالإسبانية Jurumena ، وهي تقع على مقربة من غربي بطليوس .

وما كاد الأمير يرتد أدرأجه إلى قرطبة ، حتى حشد ابن مروان أنصاره من كل ناحية ومعظمهم من أهل الشر والمولدين الناقمين ، وأخذ في تحصين بطليوس ، وإعدادها للدفاع والمقاومة ، وبعث جواسيسه إلى قرطبة ، يتعرفون أخبار الأمير ويرصدون حركاته ، ويبعثون بها إليه تباعاً . ثم عقد حلفاً مع ألفونسو الثالث ملك ليون . وكان يدعو أنصاره إلى مذهب ديني جديد هو خليط من تعاليم الإسلام والنصرانية . واستمر على هذا النحو زهاء عام آخر ، وهو يغير على الأنحاء المجاورة ويرهق أهلها ، ويستلب أموالهم ومتاعهم .

فلما اشتد عيئه ، وضع المسلمون في تلك الأنحاء من شره وعدوانه ، وجاهر هو من جانبه بالعصيان وخلع الطاعة ، اعتزم الأمير محمد أن يعاقبه ويقمع شره بطريقة حاسمة ، فجهز إليه حملة كبيرة برياسة ولده المنذر ، وجعل قيادتها لوزيره الأثير هاشم بن عبد العزيز . وسارت هذه الحملة صوب بطليوس في شهر شعبان سنة ٢٦٢ هـ (٨٧٦ م) ، فلما علم ابن مروان بمقدم جند الأمير ، وشعر بصعوبة الدفاع عن بطليوس لاتساعها ، غادرها مع قواته ، وانضم إليه كثير من المولدين من الأنحاء المجاورة ممن خشوا بطش قوات الأمير بهم ، ونزل بحصن كركى أو كركو القريب وامتنع به ، وبعث إلى سعدون السرنباقي في طلب النجدة . وسار المنذر وهاشم إلى بطليوس ، فألقياها خالية ، فسارا في أثره ، واحتل هاشم حصن منت سلود (منت شلوط) الواقع جنوبي بطليوس خوفاً من أن يحتله الثوار ، وضرب المنذر الحصار حول حصن كركى . وفي تلك الأثناء قدم سعدون السرنباقي في صحبه ، ومعه قوة كبيرة من النصارى أمده بها ملك ليون ، واشتبك في طريقه بمدينة قللمرية بحاميتها ، وهم قوم من البربر من بنى دانس من مصمودة ، وفتك بهم ، وكانوا على الطاعة ، فبعثوا إلى هاشم بن عبد العزيز يستغيثون به . ووقف هاشم من طلائعه على مقدم سعدون وقواته ، وما فعله بأهل قللمرية ، فخرج إلى لقائه متحمساً تواقاً إلى الانتقام ، وكان سعدون قائداً مجرباً وافر الخبرة ، وكانت لديه فرق مختارة من الفرسان والرماة ، فرتب معظم قواته وراء التلال ، وتقدم للقاء قوات هاشم ، واعتقد هاشم أنه يستطيع سحق الثوار بأيسر أمر ، والتقى الفريقان في مخاضة النهر جنوبي بطليوس ، وفاجأت خيل سعدون قوات الأندلس وأرهقتها ، وكثر فيها القتل ، وتقدم هاشم بن عبد العزيز إلى المعركة ،

بعيداً عن مركز قيادته ، فأصابته جراح ، وأحاطت به فرسان العدو ، وكادت تجهز عليه ، لولا أن عرفه بعضهم ، فقبض عليه ، وحمله معه سعدون أسيراً إلى حصن منت سلود ، وكانت قوات الأمير قد غادرته . وكانت هزيمة قوات الأندلس ، وأسرفائدهم على هذا النحو ، في الثاني عشر من شهر شوال سنة ٢٦٢ هـ (يونيه سنة ٨٧٦ م) . ولما علم المنذر بن محمد بما وقع لجنده من الهزيمة وأسرهاشم ، وكان مقيماً على حصار الجليقي ، شدد في الحصار أياماً أخرى ، ثم انصرف قافلاً ببقية الجيش إلى قرطبة . وسار الجليقي وسعدون ومعهما أسيرهما القائد هاشم غرباً ، وهما يعيثان فساداً في الأرض . وحصل الجليقي أولاً على هاشم ، وكان يؤمل أن يتخذه أداة للمساومة مع الأمير ، ولكن سعدون استرده منه فيما بعد ، خوفاً من غضب سيده وحاميه ملك ليون ، وتوجه به سعدون بالفعل إلى ألفونسو الثالث ، فتسلمه وحصل في يده ، واستمر أسيراً لديه بمدينة أوبييلدو زهاء عامين ، حتى تم الإفراج عنه لقاء فدية كبيرة بلغت مائة وخمسين ألف دينار^(١) .

واستمر ابن مروان أعواماً وهو يسيطر على منطقة بطليوس ، ويعيث في أنحائها فساداً ، ويخرج منها للإغارة على ناحية الغرب حتى أشبونة ، وجنوباً حتى باجة وأطراف أكشونية ، ثم أن بعض أصحابه اختلفوا معه ، وغادروه إلى بلدهم ماردة بعد أن حصلوا على أمان من الأمير . ولما شعر بقله جمعه ، وخشى مطاردة الأمير وانتقامه ، عول على أن يخذو حذو صاحبه سعدون في الالتجاء إلى ملك جليقية ، فقبل الملك النصراني ملتصمه ، وأنزله مع صحبه في حصن بطرسة بوادي دويره على مقربة من ليون ، ولبت في كنفه أعواماً . ثم دب الخلاف بينهما بسبب غارة قام بها ملك جليقية في منطقة بطليوس ومعه ابن مروان ، وفيها بالغ الملك النصراني في قتل المسلمين ، ومعظمهم من أصحاب ابن مروان ورعاياه السابقين (سنة ٢٦٦ هـ - ٨٧٩ م) . فغادره ابن مروان مغضباً ، وعاد إلى منطقة بطليوس ، ليستأنف غاراته وعيئه في أراضي النواحي المجاورة . وفي سنة ٢٧١ هـ (٨٨٥ م) سير إليه الأمير محمد ولده المنذر في قوة كبيرة ، فزحف على بطليوس ، ففر منها

(١) نحصنا ما تقدم من رواية عيسى بن أحمد الرازي المسمية التي نقلها إلينا ابن حبان ؛ وقد وردت في مخطوط القرويين في اللوحات ٢٦٧ أ وب و ٢٧٣ أ وب و ٢٧٤ أ وب ، و ٢٧٦ ب و ٢٧٧ أ حتى ٢٨٠ أ . وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٤ و ١٠٥ .

ابن مروان وتحصن بجبل « أشيرو غيره »^(١) فأحرق المنذر بطليوس ودمر حصونها .
وفي العام التالي سارت حملة أخرى بقيادة الوزير هاشم إلى « أشيرو غيره » لقتال
ابن مروان ، فحاصره حيناً ثم ارتد عنه دون إخضاعه . ولما أعيأ الأمير أمره ،
انتهى أخيراً إلى قبول شروطه في الاستقلال بحكم بطليوس وما جاورها ،
والإعفاء من المغارم والفروض^(٢) .

ووقعت في ذلك الحين ثورات محلية أخرى ، فخرج في شنت برية^(٣) مظفر
ابن موسى بن ذى النون وزحف على طليطلة ، فلقبه جندوها فهزمهم ، وقوى
أمره في تلك الجهة ، وأضاف إلى شنتبرية ما حولها من البلاد والحصون .
ويرجع ظهور بني ذى النون ، وهم سادة مملكة طليطلة أيام الطوائف ، إلى
ذلك العهد . وخلاصة ما تقدمه إلينا الرواية في ذلك ، هو أن جدّهم ذا النون
(أو زنون) بن سليمان الهواري ، كان زعيماً لشنت برية من أعمال قونقة ، ومر
به الأمير محمد في بعض غزواته إلى الثغر ، وقد مرض له خصي من أكابر فتيانه ،
فتركه عند ذى النون حتى يحدث الله فيه أمره . فاعتنى به ذو النون حتى برئ من
علته ، وصحبه بنفسه إلى الأمير بقرطبة ، فكافأه الأمير بأن أقره على ناحيته .
واستقام ذو النون على الطاعة حتى توفي ، وخلفه ولده موسى ، فنبذ الطاعة ،
وانتظم في سلك الخوارج ؛ ولما توفي سار ولده مظفر على خطته ، وأضحى بنو
ذو النون من زعماء الفتنة في الثغر الأوسط^(٤) . وخرج أسد بن الحرث بجبهة رندة^(٥)
وأخذ ضرام الفتنة ينساب إلى كل ناحية ، ونشط النصاري في الشمال ، يتربصون
لإذكاء الفتنة ، وانتهاز الفرصة السانحة للإغارة على الأراضي الإسلامية .

وانبعثت من هذا الضرام شرارة في الجبال الجنوبية ، قدر لها أن تستفحل
بسرعة ، وأن تغدو أخطر ما يهدد سلام الأندلس وعرش بني أمية . ففي جبل
بُبَشْتَر^(٦) ، فيما بين رندة ومالقه ، ظهر عمر بن حفصون أعظم ثوار الأندلس ،

(١) واسمه بالإسبانية *Esparragosa* . وهو يقع بين نهر وادي يانة وجبال المعدن .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٥ و ١٠٦ و ١٠٨ . وراجع *Dozy : Hist.; V. II p. 8-11*

(٣) وهي بالإسبانية *Santaver* وهي تقع جنوب شرق وادي الحجارة . وهي غير شنتبرية الشرق .

(٤) مخطوط القرويين لوحة ٢٧٢ ب .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣١ .

(٦) وبالإسبانية *Bobastro*

وأشدّهم مراساً ، وأخطرهم جانباً . وكانت سلسلة الجبال الواقعة بين رندة ومالقة مأوى الأشقياء والعصاة . وكان عمر سليل أسرة من المولدين ترجع إلى أصل نصراني قوطي . وقد سجلت لنا الرواية الأندلسية نسبته ، فجده عند الفتح هو ألفونسو القس ، وجده الرابع جعفر هو أول من اعتنق الإسلام من أسرته^(١) . ونشأ بينهم في تاكرنا من أعمال رندة . وكان والده حفصون ذا مال ووجاهة . ونشأ ولده عمر فاسداً سيئ السيرة ، غنياً يعتدى على النفس والمال ، ولم يلبث أن هجر أسرته وأطلق العنان لأهوائه وغيه ، والتف حوله جماعة من أهل الفساد والبغى ، فألف منهم عصابة معتدية ناهبة ، ونزل بمكان منيع بجبل ببشتر الواقع شمال شرق جبال رندة ، وكان ذلك في سنة ٢٦٧ هـ (٨٨٠ م) . وقد وصف لنا ابن حيان مؤرخ الأندلس ابن حفصون عند ذكر الخوارج في تلك العبارة الجامعة : « إمامهم وقودتهم عمر بن حفصون ، أعلاهم ذكراً في الباطل ، وأضخمهم بصيرة في الخلاف ، وأشدّهم سلطاناً ، وأعظمهم كيداً ، وأبعدهم قوة »^(٢) .

ويشرح لنا الرازي البواعث الأولى لهذه الفتنة التي اضطربت في كورة ريه والجزيرة ، فيقول لنا إن السبب في تحريكها يرجع إلى عنف يحيى بن عبد الله ابن يحيى عامل الأمير محمد في كورة ريه ، في مطالبته لأهلها ببقايا عشور تأخرت عليهم ، واشتطاطه في ذلك وإرهابهم ، فامتنعوا عليه واعتصموا بجبالهم ، وتأهبوا للدفاع عن أنفسهم ، فحشد يحيى بن عبد الله قواته لقتالهم ، واستدعى أخاه أحمد ابن عبد الله عامل كورة الجزيرة بقواته لمعاونته في حربهم ، ونشبت بين قوات الأمير وبين الخوارج معارك عنيفة قتل فيها كثير من الفريقين ، وكان ذلك في سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) . وفي العام التالي سار بالصائفة إلى كورة ريه عبد الله ابن الأمير محمد ، وعلى قيادة الجيش الحاجب هاشم بن عبد العزيز ، وكان قد أطلق سراحه من الأسر ، وعاد إلى سابق مكانته لدى الأمير محمد ، واستأنف القيادة لأول مرة ، فاشتد في مطاردة الخوارج ، ومزق جموعهم ، وأنشأ عدة

(١) قال ابن خلدون عن ابن حيان إنه عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان بن فرغلوش ابن أدفونش القس (ج ٤ ص ١٣٤) . وزاد عليها صاحب البيان المغرب اسماً آخر (ج ٢ ص ١٠٨) .

(٢) ابن حيان في المقتبس ، وهو السفر الثالث المطبوع بعناية المستشرق الأب ملسيور أنتونيا

(باريس ١٩٣٧) ص ٩ .

من الحصون لمدافعهم ، ولكن الفتنة لم تقمع ، وظلت سحب الخروج والعصيان قائمة ، وعمت الفوضى كورة ريه بأسرها .

في هذا الأفق المضطرب ظهر ابن حفصون ؛ وكانت حوادث ريه مقدمة هذه الفتنة الهائلة التي تزعمها في جنوبي الأندلس ، والتي يصفها الرازي بأنها « طمت على جميع فتن الأندلس ، بعمومها وامتداد أيامها ، ودفع أهل الشرور منهم نحوها »^(١). وأخذ ابن حفصون ينتهز كل فرصة للإغارة على أطراف إقليم ريه ويوسعها تخريباً وسيياً ونهباً ، ثم يعتصم بأوكاره في جبل ببشتر ، فلما اشتد عيئه وعدوانه ، سار إليه عامل ريه ، عامر بن عامر في بعض قواته ، فهزمه ابن حفصون وقوى بذلك أمره ، وهرع إلى لوائه كثير من أهل الشر والعصاة . وعزل الأمير عامل ريه المهزوم ، وبعث إليها بعامل جديد هو عبد العزيز بن عباس ، فسار إلى قتال ابن حفصون للمرة الثانية ، فامتنع الثائر بقلاعه ، ووقعت الهدنة بين الفريقين^(٢). وعندئذ سير محمد وزيره هاشم بن عبد العزيز إلى كورة ريه في قوة كبيرة ، فشدد الحصار على ابن حفصون ، وجد في أثر العصاة والخوارج ، وأسر الكثير منهم ، وما زال حتى أرغم ابن حفصون على التسليم مع سائر عصابته ، وحملهم جميعاً إلى قرطبة . فعفا محمد عن الثائر وضمه إلى جيشه ، لما آتسسه من براعته وقوة مراسه . ولما سار المنذر إلى الثغر الأعلى سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) لقتال محمد بن لب ، كان ابن حفصون من ضباط جيشه . بيد أنه لم يكن راضياً كل الرضى عن منصبه ، وكانت نفسه الوثابة تنزع دائماً إلى الخروج والعمل الحر ، فلم يلبث أن فر من جيش الأمير مع نفر من صحبه ، ولم يلبث أن عاد إلى معاقله في ببشتر ، واستأنف ثورته ، ومن حوله جميع كبير من الخوارج والبغاة (٨٨٤ م) .

ولبث ابن حفصون مدى عامين يعيث في هذه المنطقة فساداً ، ويبت من حوله الذعر والروع . وفي صيف سنة ٢٧٣ هـ (٨٨٦ م) ، خرج المنذر إلى كورة ريه لقتال ابن حفصون ، وبدأ الزحف على مدينة الحامة في شمال شرقي مالقة ، وفيها الثائر ابن حمدون حليف ابن حفصون ، فسارع ابن حفصون إلى إنجاد حليفه ، واجتمع الثاران بمدينة الحامة لمقاتلة جند الأمير ، فحاصر المنذر الحامة مدى

(١) ابن حبان عن عيسى بن أحمد الرازي . مخطوط القرويين لوحة ٢٨٣ أ و ب .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٧ .

شهرين ، ولما أشرفت مؤن المدينة المحصورة على النفاد ، خرج ابن حفصون وحليفه في جندهما ، واشتبكا مع جند الأمير في معركة عنيفة ، هزم فيها الثوار وجرح ابن حفصون ، وارتد مع أصحابه ثانية إلى الحامة واستعصم بها . وبينما المنذر مقيم على حصار الحامة ، إذ جاءته الأنباء من قرطبة بوفاة أبيه الأمير محمد . وكانت وفاته في ٢٩ صفر سنة ٢٧٣ هـ (أوائل أغسطس سنة ٨٨٦ م) فارتد لفوره إلى قرطبة ، تاركاً الحامة لمصيرها ، وتنفس ابن حفصون الصعداء ، وانتهز الفرصة السانحة للإغارة على معظم الحصون الواقعة في تلك المنطقة ، ولم يمض سوى قليل حتى استطاع أن ييسط سلطانه على ريّة ورندة وإستجة وغيرها .

- ٣ -

كان الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم من خيرة أمراء بني أمية وأوفرهم ذكاء وفطنة^(١). وقال الرازي : « ولحمد في سلطانه الآثار الحميلة ، والآيات الجزيلة ، والفتوح العظيمة ، والعناية بمصالح المسلمين ، والتهمم بشغورهم ، والضبط لأطرافهم ، والتوجيه لمصالحهم »^(٢) ، وكان يرجو محمد أن يجرى على سنن أبيه من الإصلاح والإنشاء ، ولكن الحوادث سارت على غير ما يشتهي ، وسرت الفتنة إلى سائر أنحاء الأندلس ، واضطر أن ينفق حكمه الطويل في غزوات متعاقبة وكفاح مستمر . وكان عليه أن يصون عرش بني أمية ، وأن يحمي سلطان الدولة الإسلامية في الأندلس من الانهيار . وكانت مهمة شاقة ، ولكنه أبدى في الاضطلاع بها جلدأ وبراعة ، فكانت الصوائف لغزو أرض النصارى ، والحملات التأديبية لقمع الثوار ، تتوالى دون كلل ، وذلك بالرغم مما كانت تنتهى إليه في معظم الأحيان من النتائج السلبية . وكان الأمير محمد يعشق الجهاد والكفاح ، ويقود الجيش بنفسه كلما سنحت الفرص . وكان ولده المنذر ساعده الأيمن في تلك المهمة الخطيرة . واهتم محمد بأمر الجيش والأسطول ، وكان اهتمامه بتقوية الجيش ضرورة ، أملتها الظروف العصيبة التي كانت تجوزها المملكة يومئذ . وتلقى الأرقام التي يقدمها إلينا ابن حيان نقلا عن معاوية بن هشام ، عن عدد الفرسان الذين يحشدون في مختلف الكور والمدن لغزوات الصوائف ، ضوءاً على مدى قوة الجيش الأندلسي

(١) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤١ .

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٢٢ أ .

يومئذ ، وقد كانت هذه الأرقام ، تفرض على النواحي ، ويؤخذون بها غير منتقنين لها ، إلا لعذر قاهر أو لجذب بين . ومن ذلك كورة البيرة (غرناطة) ألفان وتسعمائة ، وجيآن ألفان ومئتان ، وقبرة ألف وثمانمائة ، وباغة تسعمائة ، وتاكرنا مئتان وتسعة وستون ، والحزيرة مائتان وتسعون ، وإستجة ألف ومائتان ، وقرمونة مائة وخمسة وثمانون ، وشذونة ستة آلاف وسبعمائة وتسعون ، وريثه ألفان وستمائة وسبعة ، وشريش ثلاثمائة واثنان وأربعون ، وفحص البلوط اربعمائة ، ومورور ألف وأربعمائة وثلاثة ، وتدمير مائتان ... أما قرطبة العاصمة فكانت ترك لاجتهادها وهمتها ، ويحشد أبناؤها بطريق التطوع خلافاً لأهل النواحي الأخرى . وكانت هذه الفرق تسمى بفرق الفرسان المستنفرين ويجرى « استنفارهم » أوقات الصوائف ، أو كلما بدرت من العدو حركة اعتداء على أهل الثغور . فاذا ذكرنا أن هذه الأرقام تتعلق بنواحي الأندلس فقط ، وإذا ذكرنا بعد ذلك حشود المشاة المستنفرة والمتطوعة ، استطعنا أن نقدر ضخامة الحيوش التي كانت للدولة الأندلسية تستطيع تعبثها يومئذ^(١) . وأما الأسطول فقد عمل محمد ، على إنشائه ، لحماية الشواطئ الغربية ولغزو مملكة جليقية من ناحية البحر . وفي سنة ٨٦٦م (٢٥٢ هـ) سارت السفن الأندلسية بالفعل إلى شواطئ جليقية بقيادة أمير البحر عبد الحميد بن مغيث ، ووصلت إلى مصب نهر منبو . ولكنه لم يوفق إلى تحقيق بغيته ، إذ عصفت الرياح بالسفن فتفرقت وغرق معظمها في المياه الغربية^(٢) . وعنى محمد كذلك بتحسين أطراف الثغور ، وأقام عدة من المحلات والقلاع الدفاعية ، المنيعة فابتنى حصن شنت لإشتين لحماية مدينة سالم ، وابتنى حصن طلمنكة وحصن مجريط بمنطقة وادي الحجارة ، للدفاع عن طليطلة ، وكان شديد الاستخبار عن الثغور ، والبحث في مصالحها .

وبالرغم مما كان يقتضيه الجهاد المتواصل من النفقات الضخمة ، فقد كان الأمير محمد يذل وسعه لتخفيف الضرائب عن كاهل شعبه ، وقد رفع عن أهل قرطبة ضريبة « الحشود » ، واكتفى بدعوتهم إلى التطوع والجهاد في سبيل الله ،

(١) مخطوط القرويين لوحة ٢٥٤ ب . وراجع البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٦ ، و Aachbach : Geschichte der Omajaden in

Spanien; B. I. s. 293.

فأقبلوا على تعذيبه وتأْييده^(١). وأما عن العُشور فقد أبدى محمد تشدداً في اقتضاها وقد نصح له وزيره عبد الرحمن بن غانم صاحب المدينة ، بأن يسقط العُشور متى عدمت الغلات ، لأن العُشور إنما تفرض على الغلات إذا وهبها الله ، فإذا لم يزرع بذر ولم يستغل زرع وجب إسقاطها ، فلم يستمع إليه محمد في البداية وعزله ، وعين مكانه حمدون بن بسيل ، وكان فظاً ظلوماً ، فاشتط في تحصيل العُشور ، حتى ضج الناس بالدعاء عليه ، ووصل صرختهم إلى الأمير ، وتوالت في نفس الوقت أعوام الجذب والقحط ، فاضطر الأمير أن يسقط عن الناس جملاً من العُشور ، حتى يتنفس مخنقهم ، ويستطيعوا مواجهة أعباء الحياة ، ومواصلة نشاطهم العمراني ، وأعلن الناس عندئذ بشكره ومدحه الشعراء^(٢). وكان الأمير محمد بارعاً في الشؤون المالية ، دقيقاً في مراجعة الدخل والخرج ، وقد ساعده ذلك على ضبط شئون الخزانة العامة^(٣). وفي عهده أصيبت الأندلس بالقحط مرتين ، الأولى بين سنتي ٢٥١ و ٢٥٥ هـ ، والثانية في سنة ٢٦٠ هـ ، وكان قحطاً شديداً استمر بضعة أعوام ، وكثر بسببه الغلاء والموت . ولكن الأندلس استطاعت أن تصمد للمحنة ، وأن تتغلب عليها .

وفي عهده سار بلاط قرطبة على سنن الاعتدال ، ومجانبة البذخ الذي ساد في أيام أبيه عبد الرحمن ، وضعف نفوذ الجوارى والصقالبة في القصر ، ومع ذلك فقد استمر النظام الإداري الذي كان قائماً في عهد عبد الرحمن بتفاصيله تحت إشراف الأمير . وتولى زمام الأمور نفس الرجال الذين تولوها من قبل ، واجتمعت السلطات في أيدي أسرتي بني شهيد وبني أبي عبدة ، أعظم الأسر القرطبية يومئذ ، وتولى الحجابة لمحمد في البداية عيسى بن شهيد حاجب أبيه من قبل . وقد أشرنا من قبل إلى هذا الوزير النابه غير مرة . ثم خلفه في الحجابة عيسى بن الحسن ابن أبي عبدة ، فكان من أرجح الوزراء عقلاً وإصابة ، وكان طوال خدمته هدفاً لمنافسة هاشم بن عبد العزيز ودسائسه ، وقد خلفه هاشم بالفعل في الحجابة ، ولبث يضطلع بها أعواماً طويلة حتى وفاة الأمير محمد ، وكان هاشم بن عبد العزيز ينتمي إلى أسرة من المولدين ، وكان من أعظم رجال الحروب والسياسة في

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ و ١١٢ ، وأخبار مجموعة ص ١٤١ و ١٤٢ .

(٢) ابن حيان - مخطوط القرويين لوحة ٢٣٩ أ و ٢٥٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٠ .

عصره ، وقد تولى القيادة الفعلية لكثير من الغزوات والحملات حسبما فصلنا ، وكان من قبل من وزراء الأمير عبد الرحمن ، فلما صار الأمر إلى ولده محمد ، غدا من بين وزرائه أكثرهم حظوة لديه ، وغدا من خاصة جلسائه وندمائه ، وكان هاشم فوق ذلك أديباً متمكناً وكاتباً بليغاً ، وشاعراً مطبوعاً ، يقرب الأدباء والشعراء ، بيد أنه كان حاد الطبع قليل التحفظ ، لا يحسن اصطناع الرجال ، حتى أنه لما نكب في غزوة الحليق وحمل أسيراً إلى ملك ليون (سنة ٢٦٢ هـ) لم يجد كثيراً من المدافعين عنه في محنته ، وسخط عليه الأمير محمد ، وأنحى عليه بالالوم ، وكان يقول « هذا أمر جناه علينا فألحق بنا غضاضة ، واستزاد برأيه فضيع وصاتنا ، ولم يحكم تدبير ما صيرنا في يده من أمرنا » . ولم يدافع عن هاشم ، ويستدر عطف الأمير عليه سوى صديقه الوليد بن غانم صاحب المدينة أعنى حاكم قرطبة ، وقد أقنع الأمير بأن يولى وزيره المنكوب عطفه ، وأن يستخدم ولده مكانه ، حتى يتم إطلاق سراحه . وقد لبث هاشم بن عبد العزيز أسيراً في أو بييدو عاصمة ليون زهاء عامين ، حتى تم افتدائه وإطلاق سراحه لقاء فدية ضخمة حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل^(١) .

وكان من وزراء الأمير محمد ، أمية بن عيسى بن شهيد ، وكان من أجل وزرائه وآثرهم لديه ، وأخصهم بخدمته ؛ والوليد بن غانم المتقدم الذكر ، وكانا يتعاقبان في منصب ولاية المدينة ، وهو من أهم مناصب الدولة يومئذ ، لما يتطلبه من الحزم وقوة الشكيمة ، والذخا في نفس الوقت . ومنهم تمام بن عامر الثقفي الشاعر الأديب ، وكان مؤرخاً راوية كتب أرجوزة طويلة في فتح الأندلس ، وقد اشتهر ببراعته في لعبة الشطرنج ، وكانت من أسباب حظوته لدى الأمير ، وتمكن منزلته لديه ، وقد ذاعت في أيامه ذبوعاً عظيماً . ومنهم كذلك سليمان ابن وانسوس ، وهو من أشرف البيوتات البربرية ، وكان جده رئيساً مطاعاً بماردة ، وقد ثار فيها أيام الحكم بن هشام ، وكان أديباً وافر الوجهة ، وقد تولى خطة السوق وهو اسم ولاية الحسبة يومئذ . وكان من الوزراء الكتاب عبد الملك بن عبد الله بن أمية ، وكان كاتباً بليغاً^(٢) .

(١) ابن حيان في مخطوط القرويين لوحة ٢٢٨ أوب و ٢٣٠ أ و ٢٣٥ ب .

(٢) مخطوط القرويين لوحة ٢٣٠ ب و ٢٣٢ أ و ٢٣٣ ب و ٢٣٥ أ .

وكانت تربط الأمير محمد بأمراء المغرب المعاصرين ولا سيما بنو رستم أمراء تاهرت ، وبنو مدرار أمراء سجلماسة وغيرها ، علائق مودة وصداقة متينة العرى . فكانوا يستمدون منه العون والنصح في شئونهم ، وكان هو من جانبه شديد الاهتمام بأخبارهم وأحوالهم ، وتتردد إليهم رسله وكتبه في البحث عن أخبار بني العباس بدار مملكتهم ، وأخبار ولايتهم وعملهم بالشام وإفريقية . وكان شارل الأصلع ملك فرنسا (إفرنجية) يقدر خلاله ويتودد إليه ، وربما تبادلًا المراسلة والهدايا^(١) ؛ والظاهر أن ملك فرنسا كان يؤثر سياسة السلم مع حكومة قرطبة خشية أن يتكرر غزو المسلمين لسيبئانيا . وكانت تربطه في الوقت نفسه علائق مودة ببني قسي سادة الثغرا الأعلى ، الذين ظهروا بمغامراتهم فيما وراء جبال البرنيه . وعلى الرغم من أن وقت الأمير محمد لم يتسع كثيرًا للأعمال الإنشائية ، لما زخر به من الفتن والغزوات المتوالية ، فقد قام منها بطائفة حسنة . وكان في مقدمتها منشأته بالمسجد الجامع ، فقد عني أولاً بإتمام الزيادة التي بدأها أبوه عبد الرحمن في وسطه وأقام فيها المقصورة ، وكان أول من اتخذها هنالك من الخلفاء ، وأصلح جناحه القديم الذي أنشأه عبد الرحمن الداخل ، وجده وأعادته إلى رونقه القديم . ولما تمت هذه الزيادات والإصلاحات ركب الأمير إلى الجامع وزاره في موكب فخيم ، وأشادت بعمله الشعراء . وأصلح محمد جامع إستجة وجامع شذونة ، ومساجد عديدة أخرى في مختلف الأنحاء ، وأنشأ زيادات كثيرة بالقصر وملحقاته امتازت بالجمال والإناقة . وعنى بتجديد منية الرصافة التي أنشأها جده الأعلى عبد الرحمن الداخل ، وجدد حدائقها ومنزهاتها ، وزودها بالأشجار والغراس النادرة ، وجعلها تمتد نزهه وأسماره . وفي ذلك يقول عباس بن فرناس من قصيدة :

كان قصور الأرض بعد تمامه بنواً لذرى أخفى شخوصاً من الدر
وتنتشر الأبصار منها إلى مدى التنزه بالأطيوار والوحش والزهر
فأعجب من أفنانها الغرر التي يقيّل بهن البرد في وعوة الحر
هم بأخفى سرها غير كاتم صدها فأنفى السر بها من الجهر
كأن الذي يخفى الحديث بنجوها على أخفض الأصوات يشدو على وتر

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ . ويسمى ملك فرنسا هنا خطأ بفردلند .

وأنشأ محمد له كذلك منية خاصة في مكان ضيعته المسماة « كنتش » الواقعة جنوب غربي قرطبة ، عرفت « بمنية كنتش » وعنى بتجميلها ، وجعلها كذلك موطناً لنزهه ومسراته . وهي التي يقول فيها ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد :
 ألما على قصر الخليفة فانظرا إلى منية شيدت لأزهرها
 هي الزهرة البيضاء في الأرض ألبست لها الزهرة الحمراء في الجو مغفرا^(١)
 وكان الأمير محمد ربيع القوام ، أبيض مشرباً بحمرة ، أوقص^(٢) ، مخضب بالحناء . وكان كثير الأناة والحلم ، عطوفاً على أخوته وآل بيته ، وقد عني منذ ولايته بشئون الأكارم من أخوته ، فأعد لهم الدور الفخمة خارج القصر ، ووهبهم الضياع المغلة ، وأجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، واستعمل من يصلح منهم للأعمال البعيدة . وكان فوق رجاحة عقله ، أدبياً ، يشغف بالبيان ، بليغاً في كتبه ، محسناً في توقيعه . بيد أنه لم يكن شاعراً مثل أبيه وجده . وكان مكرماً لأعلام الناس ، وذوى العلم والحجى منهم ، يرفع مجالسهم ، ويكثر من رعايتهم ، ويستشعر مع ذلك الحذر من منافستهم وتحاسدهم ، ويأبى الإصغاء لسعاياتهم . وكان يجمع حوله صفوة من الشعراء والعلماء^(٣) مثل عباس بن فرناس ، ومؤمن ابن سعيد ، وابن عبد ربه ، وهم من أقطاب الشعر في عصره ؛ ومن العلماء عبد الله ابن حبيب أعظم علماء الأندلس في عصره ، وقد توفى في صدر ولايته ، وبقى بن مخلد وعيسى بن دينار ، ومحمد بن عمر بن لبابة ، ومحمد بن عبد السلام الحشني ، وغيرهم . وقد اشتهر في عصره بالأخص الفقيه الورع العلامة بقى بن مخلد ، وكان فقيهاً حر الذهن ، واسع الأفق ، نشأ في قرطبة ، ورحل إلى إفريقية والمشرق ، ودرس دراسة مستفيضة . ولما عاد إلى الأندلس ، حقد عليه فريق من فقهاءها ، لغزارة علمه ، وتفوقه عليهم ، ولا سيما في أساليب الحديث والرواية ، وحاولوا اتهامه بالزندقة ، والإيقاع به لدى الأمير ، فاستجار بقى بالحاجب هاشم بن عبد العزيز ، وكتب إلى الأمير يناشده الله في دمه ، ليرى رأيه فيه بعد سماع حجته ، فأسغفه هاشم وشرح للأمير قضيته ، وعقد له الأمير مجلساً لمناجزته خصومه فتناظروا بين يديه ، ودحض بقى تهم خصومه بقوة ، وألزمهم الحجة ، واستبان

(١) مخطوط القرويين في اللوحات ٢٤٣ - ٢٤٧ . وراجع أيضاً البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٠ .

(٢) أعنى قصير المنق .

(٣) أخبار مجموعة ص ١٤٥ .

الأمير فضله وتفوقه ، وأسبغ عليه حمايته ورعايته ، وأعلى منزلته . ولبت بقى عمدة العلماء والفقهاء والمحدثين بالأندلس حتى توفى في سنة ٢٧٦ هـ ، في عهد الأمير عبد الله بن محمد^(١) .

وكان للفقهاء في عصر الأمير محمد نفوذ كبير في بلاط قرطبة ، وفي صوغ سياستها نحو النصارى . وكان محمد ينحو نحو أبيه عبد الرحمن في سياسة التسامح نحو النصارى ، وكان من أثر ذلك أن أقر الأسقف جومث قومس أهل الذمة على ولايته كما كان في عهد أبيه ، وذلك بالرغم من اعتراض الفقهاء وسخطهم ؛ وبالرغم مما كان ينقل إليه من نعي المشاركة على بنى أمية استخدام النصارى في بلاطهم وتوليهم أسمى المناصب^(٢) .

وترك محمد من الولد ثلاثة وثلاثين من البنين وإحدى وعشرين من البنات^(٣)

(١) مخطوط القرويين اللوحة ٢٤٣ ب ، و ٢٥٣ ب . وراجع ترجمة بقى من مغلدة ابن الفرضى ، تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ، رقم ٢٨٣ ؛ وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ١١٢ و ١١٣ .

(٢) أشار ابن القوطية إلى ذلك في رواية أوردها عن حديث جرى بين القائد ابن أبي عبدة وبين محمد بن الكوثر أحد كتاب الأندلس ، وصف فيه ابن الكوثر « أنه من عجائب الزمان أن يكون صاحب ظلم بنى أمية الأعلى وكاتبها العظيم قومس النصراني » . وكتب إليه « أن من أعجب العجب أن يبلغ خلايف بنى العباس بالمشرق أن بنى أمية اضطروا في كتابتهم العظمى وقلمهم الأعلى أن يولوا قومساً النصراني ابن انتنيان ابن يلياته النصرانية » (واسمه بالإسبانية جومث بن أتونيو ابن خوليان) - راجع افتتاح الأندلس ص ٨٢ و ٨٣ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ .

الفصل الثاني

ولاية المنذر بن محمد بن عبد الرحمن

وبداية ثورة المولدين

ولاية المنذر . تأهبه لقمع الفتنة . الحاجب هاشم بن عبد العزيز . طغيانه وتوجس المنذر منه . سجنه ومصرعه . حملة إلى طليطلة والشر الأعلى . اشتداد أمر بن حفصون وأطاعه . قضية المولدين وأثرها في ازدياد سلطانه . خروج المنذر لمحاربته . استيلاؤه على أرشدونة وباعة . محاصرته لابن حفصون في بيشتر . إذعان الثائر ثم نكثه . هود المنذر إلى محاصرته . مرض المنذر ووفاته . رواية عن اغتيال المنذر . رفع الحصار عن بيشتر . صفات المنذر وخلاله .

وصل المنذر بن محمد بجيشه إلى قرطبة لأيام قلائل من وفاة أبيه ، عائدأ من مقاتلة ابن حفصون . وفي الحال أعلنت بيعته في الثامن من ربيع الأول سنة ٢٧٣ هـ (أغسطس سنة ٨٨٦ م) . وكان في الرابعة والأربعين من عمره . وكان مولده في قرطبة سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٤ م) ، وكان منذ فتوته أثراً عند أبيه بين أبنائه الثلاثة والثلاثين ، مستأثراً بثقته وولايته عهده . يختاره لللائل الأمور ، ويندبه لقيادة الجيش كلما جد الخطب . وقد أبلى المنذر حسبا رأينا بلاء حسناً ، في مقاتلة الثوار والخوارج ؛ وحينما تولى العرش ، كانت الفتنة قد تفاقمت ، وعمت الثورة معظم الأنحاء ؛ وكان المنذر رجل الموقف فتأهب لإتمام المهمة التي بدأها ، من العمل على سحق الثورة ، وتأييد النظام والأمن ، وحماية العرش والدولة ، من كيد الخوارج والطامعين .

وعهد المنذر بحجابه إلى القائد هاشم بن عبد العزيز حاجب أبيه وقائده ، وكان هذا الوزير القوي ، في أواخر عهد الأمير محمد ، قد استأثر بالسلطة ، وأصبح أقوى رجل في الدولة . وكان المنذر يخشاه ويتوجس من نفوذه وسلطانه ؛ وكان خصوم هاشم يكثررون من السعاية في حقه وإحفاظ المنذر عليه ، وتحذيره من أطاعه . فلما توفي الأمير محمد ، رأى المنذر أن يستمر هاشم في حجابه برأ منه بذكرى أبيه ، وأملأ في تحسن الأمور ؛ ولكن الظاهر أن الحاجب استمر في طغيانه ، ولم يكثرث للقوى المتألبة عليه ، وأذكت مساعي خصومه في نفس المنذر

نوجسه القديم منه ، ونخطه عليه ، فلم يمض سوى قليل حتى اعتزم المنذر أمره ، وأمر بالقبض على هاشم وأولاده وصحبه ، ثم دس عليه في سجنه من قتله ، وهدم داره ، واستصنى أمواله ، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ٢٧٣ هـ ، أغنى لشهرين فقط من ولايته . وكانت ضربة جريئة تنبئ عن قسوته وصرامته . واستمر أولاد الحاجب القتل في السجن ، حتى أطلقوا بعد وفاة المنذر أيام أخيه الأمير عبد الله ، وردت إليهم أموالهم^(١) . وفي تلك الحنة يقول هاشم بن عبد العزيز من شعر نظمته في سجنه :

سأرضى بحكم الله فيما ينوبني وما من قضاء الله للمرء مهرب
فمن يك أمسى شامتاً بي فإنه سينهل في كأسى وشيكاً ويشرب
ونذب المنذر لحجابه مكان الحاجب المقتول ، عبد الرحمن بن أمية بن شهيد ، وقد لبث بنو شهيد حسباً رأينا عصرأ يستأثرون مناصب الحجابة والكتابة . وسير المنذر بعد ذلك بقليل حملة إلى طليطلة . وكانت قد عادت إلى الثورة ، واجتمع إلى أهلها كثير من البربر المنفيين من مدينة ترجيله أو ترجاله^(٢) ، الواقعة جنوبي غربي طليطلة ، فهزم الثوار وقتل منهم ألف^(٣) . وفي نفس هذا العام أيضاً ، غزا محمد بن لب زعيم الثغر الأعلى السابق ، ألبه والقلاع ، وقاتل النصاري وهزمهم ، وكان قد نزل عن سرقسطة حسباً تقدم وعاد إلى سابق ولاته^(٤) . على أن أعظم ما كان يشغل المنذر ، هو القضاء على ابن حفصون عماد الثورة ومثير ضرامها في الجنوب . وكان ابن حفصون مذ بلغته وفاة الأمير محمد ورحل عنه المنذر ، قد اشتد بأسه وقويت نفسه ، وأخذ يعمل لإخضاع القواعد والحصون الجنوبية كلها ، فبسط سلطانه على كورة ريه بأسرها ، وامتد سلطانه إلى أرشدونة ومالقة وجيان وإستجة وغيرها . واجتمع إليه المغامرون والخوارج من سائر أقطار الأندلس ، وأخذ يطمح إلى الاستيلاء على الأندلس كلها ، وأظهر الدعوة لبني العباس ، وكاتب ابن الأغلب أمير إفريقية (تونس) في ذلك ، ولكن ابن الأغلب

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٨ و ١١٩ .

(٢) وهي بالإسبانية Trujillo .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٩ .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٨ .

لم يستجب إلى دعوته^(١). ولم يكن ابن حفصون ثائراً عادياً يعتمد فقط على أساليب العنف ، ولكنه كان صاحب دعوة سياسية يدعو الكافة إلى اعتناقها . وقد كان ابن حفصون حسباً قدمنا مولداً ، يمثل في ثورته ، كل ما يجيش به المولدون نحو العرب الفاتحين ونحو حكومة قرطبة من الحفيظة والبغض . وقد أشرنا من قبل في حديثنا عن عناصر الأمة الأندلسية ، إلى أولئك المولدين - وهم الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح - وبيننا كيف كانوا يؤلفون عنصراً من أهم عناصرها ، من حيث الكثرة والمستوى الإجتماعي ، وقد كانوا بالرغم من اندماجهم في المجتمع الإسلامي يحتفظون دائماً بنزعة إستقلالية واضحة ، ويبغضون العرب والبربر معاً ، وقد ظهرت هذه النزعة الاستقلالية بالأخص في الثغر الأعلى ، حيث لبث بنو موسى ، وبنو عمرو ، وبنو الطويل ، وهم جميعاً من الأسر المولدة القوية ، عنصراً يتحدون السلطة المركزية ويقاومونها . وكانت ثورة ابن حفصون زعيم المولدين في الجنوب ، هي المرحلة الثانية لتلك النزعة الثورية التي رفع المولدون لواءها ضد حكومة قرطبة . وهكذا كان ابن حفصون يدعو المولدين ومن إليهم من عشاق الخروج والفوضى ، إلى تأييد قضية الإستقلال والحرية ، ويذكرهم بما ينالهم من عسف السلطان ، وانتزاعه لأموالهم ، وتكليفهم فوق طاقتهم ، وكيف أذلهم العرب واستعبدهم ، وقضت على حرياتهم واستقلالهم ؛ وأنه إنما ينهض ليأخذ بثأرهم ، ويرفع عنهم نير الطغيان والعبودية . وناهيك بما كانت تبثه هذه الدعوة المثيرة ، في نفوس سكان هذه المناطق الجبلية من الحماصة والتعلق بقضية الحرية ، وهي لا تعنى في نظرهم سوى التفاني في مقاتلة حكومة قرطبة . وهكذا كانت الجموع الغفيرة تحشد حول ابن حفصون ودعوته ، ويشدد نفوذه ويمتد سلطانه بسرعة ؛ وبالرغم من أن حكومته كانت تقوم على الخروج والثورة ، وكان معظم صحبه من أهل البغي والشر ، فقد كان الأمن يسود المناطق التي يسيطر عليها ؛ وكان صارماً في أحكامه وعقوباته ، شديداً على كل مخالف ومستهتر ، وكان فوق ذلك كله متودداً لأصحابه ، متواضعاً بكرم الشجعان ويشبههم ، فكانت هذه العوامل كلها مما يقوى نفوذه ويوطد سلطانه^(٢) .

(١) ابن حيان في المقتبس (القسم المطبوع) ص ٩٣

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١١٧ و ١١٨ .

وبلغ ابن حفصون في زحفه إلى المنطقة الوسطى أحواز جيان ، وما يليها من الغرب ، واستولى على باغة « بريجو »^(١) وأسر حاكمها ، واستولى على قبرة ، الواقعتين في جنوبي غربي جيان ، وعلى حصن أشرس الواقع في شمال كورة ريه . وسير المنذر بعض قواته إلى تلك الأنحاء ، فاستردت حصن أشرس وبعض القرى المحاور لقبرة . وفي ربيع العام التالي (٢٧٤ هـ - ٨٨٧ م) خرج المنذر بنفسه في قواته معزماً أن يسحق الثائر ، وأن يقضي على الثورة في الجنوب ، وزحف توطاً على كورة ريه ، وحاصر أرشدونة الواقعة في جنوب غربي لوشة حتى سلمت ، وقبض على عيشون حاكمها من قبل الثائر وعلى صحبه ، وافتتح حصون جبل باغة (بريجو) وأسر بها بنى مطروح حلفاء الثائر ، وهم حرب وعون وطالوت ، وبعث بهم جميعاً إلى قرطبة حيث قتلوا صلباً ، وصلب مع عيشون خنزير وكلب ، إمعاناً في التمثيل به . وكان ابن حفصون أثناء ذلك ممتنعاً بقلاعة في ببشتر ، فطوقه المنذر بقواته وشدد في حصاره ، وقطع كل علائقه مع الخارج . فلما ضاق الثائر ذرعاً بالحصار وشعر بنفاد أقواته ، لجأ إلى الخديعة وعرض التسليم والخضوع ، وطلب الصلح الأمان ، على أن يسير بأهله وولده إلى قرطبة ، فأجابه الأمير إلى طلبه ، وعقد له الأمان ، وأمدّه بالثياب والدواب والموئ ، وطلب الثائر من الأمير مائة بغل لتحمل أهله ومتاعه فزوده بها ، وبعث بها ابن حفصون إلى قلاعه ، ورفع المنذر الحصار عن ببشتر ، وقفل راجعاً بجيشه إلى قرطبة . ولكن ابن حفصون فر من الجيش تحت جنح الظلام ، وعاد إلى ببشتر وامتنع بها ، بعد أن قويت نفسه بما حصل من الأمداد . فاستشاط المنذر حقاً لتلك الخيانة المشرة ، وارتد راجعاً بجنده إلى ببشتر ، وضرب حولها الحصار مرة أخرى ، معزماً ألا يرحها حتى يقبض على الثائر حياً أو ميتاً ، واستمر الحصار ثلاثة وأربعين يوماً . ومرض المنذر أثناء ذلك ، واستقدم أخاه عبد الله من قرطبة لينوب عنه في متابعة الحصار ، ولم يأت منتصف صفر سنة ٢٧٥ هـ (يونيه ٨٨٨ م) حتى قضى المنذر نجه تحت أسوار ببشتر ، بعد حكم لم يطل سوى عامين . وفي بعض الروايات أن المنذر توفي قتيلاً بتدبير أخيه عبد الله ، وأن عبد الله رغبة منه في التخلص من أخيه واعتلاء العرش مكانه ، حرض طبيبه (حجامه) على قتله ، فقصده الطبيب بمبضع مسموم

(١) وهي بالإسبانية Priego .

أثناء حصاره لببشتر ، فتوفى من أثر السم . ويؤيد هذه الرواية من مؤرخي الأندلس ، ابن القوطية وابن حزم ، ويرى ابن حزم بنوع خاص أنها رواية معقولة يؤيدها خلق عبد الله وسياسته الدموية . ذلك أنه قتل فيما بعد اثنين من أبنائه ، وهما محمد والد الناصر والمطرف ، ثم قتل أخوين له وهما هشام والقاسم ، فليس غريباً أن يكون هو مدبر جريمة يرتفع بها إلى العرش^(١) .

وعلى أثر وفاة المنذر ، رفع الحصار عن ببشتر للمرة الثانية ، وقفل الجيش راجعاً إلى قرطبة ، وأنقذ ابن حفصون من خطر محقق ، وعاد ينظم شؤنه ، ويوطد سلطانه في الأنحاء الجنوبية .

وكان المنذر أمراً وافر العزم والحزم ، ذا شجاعة وبأس ، وكان خلال الفتنة التي ثار ضرامها في أيام أبيه ، معقد آمال الحكومة والجيش ، وكان زعماء الفتنة يهابونه ويخشون جانبه ، لما عرف من حدته وصرامته ، وكان موته تحت أسوار ببشتر ضربة مؤلمة للحكومة قرطبة . ولو امتد به الأجل قليلاً لاستطاع أن يقضى على ابن حفصون وأضرابه من زعماء الفتنة ، ولأمنت الأندلس شر تفاقمها بعد ذلك . وكان المنذر فوق ذلك يعشق مجالس الشعر والأدب ، ينشده الشعراء قصائدهم ويجزل لهم العطاء . وكان من شعراء دولته ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد والعكبي وغيرهما^(٢) .

وكان المنذر أسمى طويلاً ، جعد الشعر ، كث اللحية ، بوجهه أثر جلدى^(٣) ،

(١) ابن القوطية في افتتاح الأندلس ص ١٠٢ ، وابن حزم نقلًا عن ابن حيان في رسالة «نقط العروس» ص ٧٨ و٧٩ . وينقل صاحب البيان المغرب أقوال ابن حزم ج ٢ ص ١٠٦ و١١٦ .
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٣ ؛ وابن الأثير ج ٣ ص ١٤٠ ، وابن الأبار في الحلة بالسيرة ص ٩٠ .

(٣) ابن الأثير ج ٧ ص ١٤٥ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١١٦ .

الفصل الثالث

ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

١ - ثورة المولدين والعرب

عبد الله يلى العرش فى ظروف صعبة . استفحال الثورة وامتدادها إلى زعماء العرب والبربر . ابن حفصون يحاول التفاهم مع الأمير . نكثه وسير عبد الله إلى قتاله . الثورة فى جيان . حيث ابن حفصون واشتداد غاراته . سير عبد الله إلى قتاله . موقعة بلاى . هزيمة ابن حفصون وفراره . أهمية موقعة بلاى وأثرها الحاسم . أقوال الشعر فيها . ثورة القبائل العربية بعد المولدين . الثورة فى كورة ريه واستفحالها . سوار بن حدون القيسى . استيلاؤه على إليرة وغرناطة . مصرعه . قهام سعيد بن جودى مكانه . الحرب بين العرب والمولدين . تفاهم سعيد مع الأمير . مصرعه وشاعريته . محمد بن أضحى . تفاهم الثورة بين القبائل العربية . الثورة فى جيان وتدمير . امتداد للفتنة إلى إشبيلية . بنو عبدة وبنو حجاج وبنو خلدون . رئاسة بنى عبدة . ثورة كريب بن خلدون وعيشه فى أحواز إشبيلية . ثورة بنى حجاج . مصرع أمية والى إشبيلية . الإضطراب والفوضى . سير المطرف بن عبد الله إلى إشبيلية وهزيمته لشوار . حكم إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون المدينة . مصرع كريب وانفراد إبراهيم بالحكم . خروج على الأمير وعوده إلى الطاعة . دولة بنى حجاج فى إشبيلية وقرمونة . وفاة إبراهيم وخلاله .

خلف المنذر على العرش ، أخوه عبد الله بن محمد ، وبويع فى نفس اليوم الذى توفى فيه أخوه ، فى محلة الخيش تحت أسوار بُبُشتر ، فى منتصف صفر سنة ٢٧٥ هـ (يونيه ٨٨٨ م) . وكان مولده بقرطبة فى نفس العام الذى ولد فيه أخوه المنذر ، أعنى فى سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٤) وأمّه أم ولد تدعى بهار ، وكان حينما تولى الملك فى السادسة والأربعين من عمره .

وعلى أثر البيعة ارتد عبد الله مع جيشه عائداً إلى قرطبة ، ومعه جثمان أخيه المنذر ، فدفن بمقبرة القصر ، واستتم عبد الله البيعة دون أن يعارضه أحد من أخوته العديدين .

وبدأ عبد الله حكمه الطويل المضنى فى ظروف قاتمة ، والخلاف بمزق أوصال المملكة ، وعرش بنى أمية يهتز تحت ضربات الخوارج والمتغلبين . ويصف لنا ابن الأثير عهد الأمير عبد الله فى هذه العبارة الجامعة : « وفى أيامه امتلات الأندلس

بالفن ، وصار في كل جهة متغلب ، ولم تزل كذلك طول ولايته ^(١) .
والحقيقة أن الثورة كانت قد استفحلت ، واندلع لهيبها في كل ناحية ، ولم تبق
قاصرة على المناطق الجبلية ، بل تجاوزتها إلى القواعد والمدن الكبيرة ، مثل إشبيلية
وبطليوس وجيان ولورقة ومرسية وغيرها ؛ ولم تبق كذلك قاصرة على زعماء
المولدين الذين تحذوهم نحو حكومة قرطبة عاطفة بغض طبيعي ، ولكنها امتدت
إلى زعماء القبائل العربية أنفسهم ، إذ رأوا الفرصة سانحة لاستقلالهم ، وتدعيم
سلطانهم ؛ وظهر البربر في الوقت نفسه في الميدان ، فاستعصم كثير من زعمائهم
بالحصون النائية ، ونشبت المعارك العنصرية القديمة بين العرب والمولدين حينما
التقت حشودهم ، كما حدث في كورة ريته وإشبيلية ؛ ونشبت مثل هذه الحصومات
بين العرب والبربر ، وفيما بين العرب أنفسهم ، واستقل زعماء العرب بالبرية
وجيان ومنتيشة ولورقة ومدينة سالم ، واستقل زعماء المولدين بالثغرا الأعلى وبطليوس
وباجة وجيان ومرسية ، وغدت إشبيلية مسرحاً للتنافس الدموي بين العرب
والبربر ، وبسط ابن حفصون سلطانه على معظم الأنحاء الجنوبية الغربية فيما بين
البحر ووادي شنيل ؛ وهكذا عمت الثورة معظم جنبات الأندلس ، ولم يبق
لحكومة قرطبة سلطان حقيقي إلا في منطقة العاصمة وأحوازاها .

- ١ -

كان عبد الله يواجه هذه الخطوب كلها . وكان يرى إخماد الفتنة مسألة حياة
أو موت بالنسبة لسلطان العرش ، وكانت هذه مهمته الشاقة التي كرس لها كل
جهوده . وكان يرى أن الثورة في الجنوب هي أخطر ما يواجه العرش ، وأن
ابن حفصون قد غدا قوة يخشى بأسها ، وأنه يجب أن تكسر الجهود لتحطيم ثورته
وصحى قواه . وكان ابن حفصون يشعر من جانبه ، بأنه يواجه قوة العرش كلها ،
ومن ثم فقد حاول عقب ارتقاء الأمير عبد الله أن يحصل على هدنة يستطيع خلالها
أن ينظم شؤونه ويوطد سلطانه ؛ فبعث إلى قرطبة ابنه حفصاً مع جماعة من أصحابه
ليعقدوا السلم باسمه مع عبد الله ، على أن يستقر في منطقة يبشر في طاعة الأمير ،
فاستجاب عبد الله إلى طلبه ، ورد ابنه وصحبه رداً جميلاً وأجزل لهم الصلات ،
وبعث معهم عبد الوهاب بن عبد الرووف والياً من قبله على كورة ريته ليكون مع

ابن حفصون شريكاً في حكمها ، ولكن لم تمض بضعة أشهر ، حتى نكث ابن حفصون العهد وطرده عامل الأمير ، وأغار على البلاد المجاورة ، واستولى على أرشدونة ، وعاث فساداً في تلك المنطقة ، فسار إليه الأمير عبد الله في سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) واجتاح منطقة بيشتر وخرها ، ولكنه لم ينل من التأثير مارباً ؛ ولما ارتد إلى قرطبة خرج ابن حفصون في أثره ، وتوغل حتى إستجة واستولى عليها ، فبعث إليه عبد الله الجند فردته عنها .

ولبت الثورة على اضطرامها في الجنوب . وخرج خير بن شاكر في جيان ، وطرده منها عامل الأمير واستولى عليها ، فسارت إليه جند الأندلس بقيادة أحمد ابن محمد بن أبي عبدة ، وحاصرته وقتلت كثيراً من أصحابه ، وخربت معظم دور جيان ، ثم عادت دون إخضاعه . وهنا بعث ابن حفصون جماعة من أصحابه إلى جيان بحجة معاونته ابن شاكر ، ولكنهم فتكوا به وحملوا رأسه إلى ابن حفصون ، فبعث بها إلى الأمير عبد الله سعيّاً إلى مصانعته ومطاولته^(١) . ولكن الأمير لم يخدع بسعيه . وسار ابن حفصون إلى جيان فعاث فيها وانهب أموالها ، وأذل أهلها ، وساد الذعر والقوضى في تلك الأنحاء .

ودفع ابن حفصون غاراته شمالاً حتى أحواز قرطبة ، وبلغ من جرأته أن حاول إحراق نخيم الأمير في ضاحية شقنّدة على مقربة من العاصمة . فعندئذ عول الأمير عبد الله على أن يخرج لقتاله مرة أخرى ، فحشد ما استطاع من قواته ، واتجه نحو الجنوب إلى ناحية قبرة Cabra حيث حشد التأثير قواته في معقل بلاى أو « بلكي » (بولي)^(٢) ، وكان حصن بلاى من أمنع حصون قبرة الواقعة على مقربة من جنوب شرقي قرطبة . وقد افتن ابن حفصون في تقويته وتحصينه ، وجعله مركزاً للسيطرة على كورة قبرة كلها ، والإغارة على المدن والحصون القريبة من قرطبة ، وتهديد أطراف العاصمة ذاتها . وكانت قوات الثور تبلغ زهاء ثلاثين ألفاً ، ولا تعدو قوات الأندلس ثمانية عشر ألفاً ، بل أربعة عشر ألفاً على قول

ابن حيان في المقتبس ص ٩٢ و ٩٣ .

(٢) هي بالإسبانية Polei أو Polei ، وما يزال موقعها قائماً مروراً إلى اليوم تحتله قرية أجيلار Aguilar الحديثة الواقعة جنوبي قرطبة .

ابن حيان^(١). ووقع اللقاء بين الفريقين على ضفاف نهر الفوشكة أحد فروع نهر الوادي الكبير^(٢) على قيد مسافة قصيرة من بلاى ، فى الثانى من صفر سنة ٢٧٨ هـ (١٦ مايو سنة ٨٩١ م) . وقاد جند الأندلس القائد عبيد الله بن محمد ابن أبى عبدة . وتولى ابن حفصون قيادة جنده بنفسه . ونجح فرسان الأندلس فى هزيمة الجناح الأيمن للثوار وتمزيقه ، فدب الذعر إلى باقى القوات النائرة ، وركنت إلى الفرار ، وهرعت الخيل فى آثارهم فقتلت كثيراً منهم ، وفر ابن حفصون فى بعض قواته إلى حصن بلاى معولاً على الامتناع به ، ولكن هجره معظم جنده ، مؤثرين الفرار على حصار غير مأمون العاقبة ، فلما رأى ابن حفصون عبث المقاومة ارتد فى نفر من صحبه إلى شعب الجبال الجنوبية ، بعد أن فقد معظم قواته ، وقتل من الثوار أثناء الموقعة وخلال المطاردة ألوف عدة ، واحتل عبدالله حصن بلاى وقتل من جنده زهاء ألف ، واستولت جند الأمير على محتوياته . وكانت موقعة بلاى موقعة فاصلة فى معنى من المعانى ، وفيها أصيب ابن حفصون بضربة أليمة لم يصب بمثله من قبل . ولم ير الأمير مطاردة الناصر جنوباً ، ولكنه آثر أن يزحف غرباً إلى إستجة التى كانت تدين بطاعته ، فحاصرها أياماً حتى سلمت والتمس أهلها العفو والأمان^(٣) .

وسار الأمير بعد ذلك فى أثر ابن حفصون إلى ببشتر قاعدته الرئيسية ، وكان الناصر قد التجأ إليها عقب الهزيمة ، واجتمع إليه كثير من أنصاره من أهل الجزيرة . وعاث الأمير فى تلك المنطقة ، ولم يخرج ابن حفصون إلى لقائه ، ولكنه حينما ارتد جيش الأندلس أدراجه ، حاول مطاردته ، واشتبك مع مؤخرته فى معركة هزم فيها ورد على أعقابيه (ربيع الأول سنة ٢٧٨ هـ) . وعلى أثر هذه الغزوة الموقعة ،

(١) ابن حيان فى المقتبس ص ١٠٤ . ويقول ابن عبد ربه وهو معاصر للمعركة ، وربما شهدا بنفسه مع الأمير ، إن قوات الأندلس كانت ثمانية عشر ألفاً منهم أربعة عشر ألفاً من أهل قرطبة وأربعة آلاف من حشم الأمير ومواليه (راجع العقد الفريد ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ج ٤ ص ٤٩٨) .

(٢) ويسمى بالإسبانية Las Carhenas (لاساس كارشيتاس) .

(٣) يورد لنا ابن حيان رواية ضافية وتفاصيل كثيرة عن موقعة بلاى (المقتبس ص ٩٤-١٠٥) . وراجع للبيان المغرب ج ٢ ص ١٢٦ و ١٢٧ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ . ويضع دوزى تاريخ الموقعة فى ١٥ إبريل سنة ٨٩١ م . ولكن إبريل يوافق شهر المحرم سنة ٢٧٨ هـ . وقد حدثت الموقعة فى بداية صفر . راجع : Dozy : Hist.; V.II. p. 68-73 .

اختار الأمير عبد الله قائده البطل عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة للوزارة ، إثابة له وتكريماً ، وعرفاناً لما أسداه إلى العرش وإلى الدولة ببراعته وبطولته (١) .
وقد أشاد الشعراء بذكر موقعة بلای وإستجة ، وما أحرزه الأمير فيها من النصر الباهر ، فمن ذلك قصيدة طويلة لابن عبد ربه يقول فيها :

نجاستكنا تحت جنح من الدجى	وليس يودى شكرنا أنعم الجنج
يودون أن الصبح ليل عليهم	ونحن نود الليل لو أنه صبح
أقادح نار كان طعم وقودها	بعينك فانظر ما أضاء لك القدح
محا السيف ما زخرفت أول وهلة	ودونك فانظر بعد ذلك ما يمح
فكم شارب منكم صحى بعد سكرة	وما كان لولا السيف من سكره يصح
كان « بلایا » والخنازير حولها	مقطعة الأوصال أنيابها كلج
ديار الذين كذبوا رسل ربهم	فلاقوا عذاباً كان موعده الصبح
فيا وقعة أنست وقية راهط	ويا عزمة من دونها البطن والنطح
ويا ليلة أبقت لنا العز دهرنا	وذلا على الأعداء صل به الترح
بدولة عبد الله ذى العز والتقى	ينجر في أدنى مقاماته المدح (٢)
ولا بن عبد ربه قصيدة أخرى يهني	فيها الأمير بفتح بلای هذا مطلعها
الحق أبلج واضح المنهاج	والبدر يشرق في الظلام الداج
والسيف يعدل ميل كل مخالف	عميت بصيرته عن المنهاج
ومنها :	

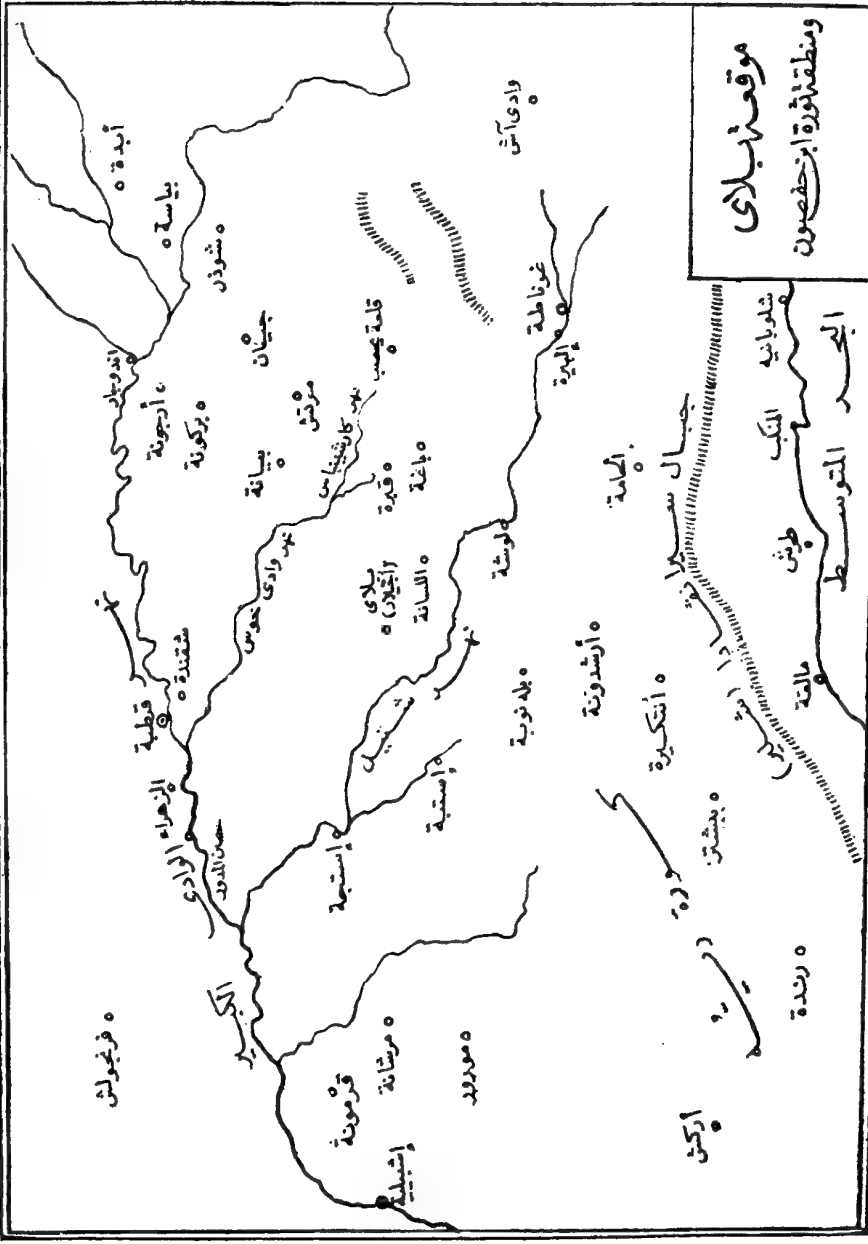
لما حفلن إلى « بلای » عشية	أقوت معاهدها من الأعلاج
فكأنما جاشت خلال ديارهم	أسد العرين خلت بسرب نعاج
ونحى ابن حفصون ومن يكن الردى	والسيف طالبه فليس بنجاج
في ليلة أسرت به فكأنما	خيلت لديه ليلة المعراج
هذى الفتوحات التي أذكت لنا	في ظلمة الآفاق نور سراج

(١) راجع المقتبس ص ١٠٠ .

(٢) راجع هذه القصيدة بأكملها في المقتبس ص ٩٧ - ٩٩ .

موقع ذبلای

ومنطقة لوزة ابرن حطصون



وهنا نقف قليلا في تتبع ثورة المولدين وزعيمهم ابن حفصون ، لنعطف على أخبار الثورات التي قام بها الزعماء العرب في الوقت نفسه ، في مختلف القواعد والثغور .

كانت المناطق الجنوبية في الوقت التي تجيش فيه بثورة المولدين في الغرب ، تجيش في الشرق بثورة أخرى عمادها القبائل العربية . وكانت سياسة اصطفاة الموالى التي جرى عليها بنو أمية في الأندلس منذ بداية أمرهم ، قد أخذت تحدث أثرها في نفوس القبائل العربية ، وأضحت هذه القبائل ترى في سياسة حكومة قرطبة نوعاً من الطغيان والمهانة . ولما ثار ضرام الفتنة على يد المولدين في الثغر الأعلى وفي المناطق الجنوبية ، ألقت القبائل العربية الفرصة سانحة للقيام بدورها ، والانتصاف لعصبيتها وكرامتها . وكانت كورة لإبيرة مركز نشاطهم في الجنوب ؛ ففي سنة ٢٧٥ هـ (٨٨٩) ثار في ناحية البراجلة من كورة لإبيرة يحيى بن صقاله القيسي ، وكان ذا وجاهة ومال ، والتفت حوله البيوتات العربية ، واشتد في مطاردة المولدين والنصارى^(١) ، فثاروا به ولم يلبث أن قتل في بعض المواقع التي نشبت بينه وبينهم ؛ فتصدر لزعماء العرب عندئذ سوار بن حمدون القيسي ، وكان سوار زعيماً مجرباً . وافر الشجاعة والبأس ، فهرعت العرب إلى لوائه ، وأغار على حصون المولدين والنصارى في تلك المنطقة ، فانزع معظمها ، وامتدت رياسته حتى قلعة رباح ، وجعل مركزه في حصن منت شقند^(٢) على مقربة من لإبيرة ثم زحف على لإبيرة وفيها جعد بن عبد الغافر واليها من قبل الأمير ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ، فهزم جعد وأسر ، وقتل كثير من أصحابه (٢٧٦ هـ) ، وتعرف هذه الموقعة بواقعة المدينة^(٣) . ثم أطلق سوار جعداً فتحالف مع ابن حفصون على قتاله . وقوى أمر سوار واشتد ساعده وكثر أنصاره ، فسار إلى غرناطة واستولى عليها واتخذها قاعدة له ، ونشبت بينه وبين المولدين وزعيمهم ابن حفصون عدة معارك ، هزم فيها ابن حفصون وقتل بعض قواده . وكان سوار

(١) ابن حيان في المقتبس ص ٥٥ .

(٢) ويسمى ابن حيان منت شاعر (المقتبس ص ٥٥) .

(٣) المقتبس ص ٥٥ و ٥٧ .

فوق فروسيته شاعراً جزلاً فصيحاً يأسر الجموع بذلاقتة . ولكن رياسته لم تطل سوى نحو عام ، إذ قتل في كمين دبره له خصمه القديم جعد والى إلبيرة ، وحفص بن المرة قائد ابن حفصون . فقد خرج سوار ذات يوم من غرناطة إلى بعض غاراته في نفر قليل من أصحابه ، وكان حفص قد رتب قواته في أماكن مستورة على مقربة من المدينة ، فانقضت على سوار وفتكت به وبأصحابه ومثل بجثته . فخلفه في رياسة العرب سعيد بن سليمان بن جودي السعدي زعيم قبيلة هوازن ، وكان مثل صديقه سوار بطلاً شجاعاً وفارساً مجرباً ، وشاعراً أديباً ، وخطيباً مفوهاً ، قد تفقه مع فروسيته في فنون العلم والأدب^(١) ، فالتفت حوله القبائل ، واشتدت وطأته على المولدين وزعيمهم ابن حفصون وهزمه مراراً ، وأسر ابن حفصون في بعض الوقائع ثم أطلقه لقاء فدية كبيرة . ولما رأى الأمير عبد الله غلبة العرب على كورة إلبيرة ، أقر سعيداً على ولايتها فحكمها باسم الأمير ، واستمرت زعامته بضعة أعوام حتى قتل غيلة في دار عشيقته اليهودية ، وذلك في أواخر سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م) ، ويقال إنه قتل بتدبير الأمير عبد الله ، وكان من أهم أسباب قتله أبيات من الشعر قالها في ذم بني أمية جاء فيها :

يا بني مروان جدوا في الهرب نجم الثائر من وادي القصب
يا بني مروان خلوا ملكنا إنما الملك لأبناء العرب

ولسعيد بن جودي شعر كثير ، وقد أورد لنا ابن الأبار بعض قصائده ، وهي ثم عن قدرته وقوة شاعريته^(٢) .

ولما قتل سعيد بن جودي ، قام بأمر العرب من بعده في كورة إلبيرة ، محمد ابن أضحى الهمداني صاحب حصن الحامة (الحمة) ، وأقره الأمير عبد الله على رياسته ، ونشبت بينه وبين ابن حفصون وقائع عديدة كانت سجالاً بينهما ؛ ولبت سعيد على رياسته لتلك المنطقة ، حتى قضى عليها الناصر في بداية عهده ، واستولى على الحامة وغيرها من النواحي النائرة في تلك المنطقة^(٣) .

(١) المقتبس ص ٦٠ و ٦١ .

(٢) راجع في أخبار سوار بن حمدون وسعيد بن جودي ، ابن الأبار في « الحلة السيرة »

(ليدن) ص ٨٠ - ٨٧ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤١ ، والمقتبس ص ٢٩ و ٣٠ .

(٣) الحلة السيرة ص ٨٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٣٩ .

واتسع نطاق الثورة بين القبائل والبطون العربية والمولدين ، فخرج في مدينة ابن السليم (شدونة)^(١) منذر بن ابراهيم ، واستقل برياستها إلى أن قتله بعض أتباعه ؛ وخرج آخرون من الزعماء في كورة جيان ، وكان أشدهم مراساً عبيد الله ابن أمية بن الشالية ، وهو من زعماء المولدين . وقد خرج في منطقة جبل شمنتان وما يليها ، وامتد سلطانه حتى حصن قسطلونة^(٢) ، وقوى أمره وأنشأ له بلاطاً وجيشاً ، وحالف ابن حفصون وصاهره بأن زوج ابنته من جعفر ولد ابن حفصون . واستمر ابن الشالية ممتنعاً بمعاقله ، طوال أيام الأمير عبد الله ، ولم تنته ثورته إلا في أوائل عهد الناصر حيث عاد إلى الطاعة ، وعينه الناصر والياً لمنطقة شمنتان . وثار سعيد بن مستنه في باغة ، وقوى أمره ، فسار إليه الأمير عبد الله في سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م) عقب موقعة بلاى ، وغزا حصن كركبوليه ، الواقع بين قرطبة وجيان ، وهو معقله وأمنع حصونه ، واشتد في حصاره حتى اضطر إلى التسليم ، وهدم الأمير جميع حصونه^(٣) . وثار بغربي الأندلس اثنان من زعماء المولدين أيضاً هما بكر بن يحيى بن بكر ، ثار بشنتمرية الغرب وحصنها واستقل بها ، وبسط سلطانه على ما حولها ، وتشبه بالأمراء ، فأنشأ له بلاطاً وحكومة ، وكان جواداً يأوى أبناء السبيل ويحفظ الطرق ، وفي أواخر عهد الأمير عبد الله عاد إلى الطاعة . وعبد الملك بن أبي الجواد ، وقد ثار في باجة وميرتلة . وكان كلاهما من أتباع عبد الرحمن الحليقي وأنصاره . وثار في لبلة عثمان بن عمرو وأخرج منها عامل الأمير ، وامتدت الفتنة إلى المنطقة كلها . وغلب إسحاق بن إبراهيم العقيلي المعروف بابن عطاف على حصن منتيشة من أعمال جيان وامتنع به ، مستظلاً مع ذلك بطاعة الأمير . وفي شرقي الأندلس خرج ديسم بن إسحاق في كورة تدمير وغلب على مدينتي مرسية ولورقة ، واستفحل أمره ، وكان أديباً يصل الأدباء والشعراء . وسير إليه الأمير عبد الله في سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٦ م) حملة بقيادة عمه هشام بن عبد الرحمن بن الحكم ، فاخرقت ولاية تدمير وعانت فيها وهاجمت مرسية وأرغمتها على دفع الخراج ، ونشبت بينهم وبين قوات ديسم في ظاهر لورقة ،

(١) *Medina Sidonia* . وهذه تسمية ابن الأثير (ج ٤ ص ٢١٥) .

(٢) جبل شمنتان هو بالإسبانية *Somontin* ، وهو يقع شمال جيان بين مدينة ليئارس الحديثة ونهر الوادي الكبير ؛ وحصن قسطلونة هو بالإسبانية *Castalona* .

(٣) المقتبس ص ١٠٦ .

معركة هزم فيها الثوار ، بيد أنها لم تكن معركة حاسمة^(١). وقامت ثورات محلية أخرى في بعض القواعد والحصون ، بيد أنها كانت على الأغلب ثورات قليلة الخطورة ، محدودة الأثر ، وكانت حكومة قرطبة تراها في المحل الثاني ، ولم تكن ثورة القبائل العربية تصطبغ بتلك المرارة التي كانت تطبع ثورات المولدين والبربر . ولبت كثير من أولئك الزعماء الخوارج على رياستهم واستقلالهم حتى بداية عصر الناصر^(٢) .

- ٣ -

وكانت إشبيلية ، أعظم القواعد الأندلسية بعد قرطبة ، في أثناء ذلك ، مسرحاً لفتنة دموية استطال أمدها . وكان سكان إشبيلية مزيجاً من العرب والمولدين والنصارى ، وكانت منزل عدد كبير من البيوتات العربية العريقة التي تمتاز بالثراء والعصبية . وبالرغم مما كان يسود بين هذه العناصر في معظم الأحيان من عوامل الجفاء والشقاق ، فقد استطاعت إشبيلية أن تحافظ على سكينتها وولائها مدى حين . فلما أخذت القبائل العربية في ولاية الأمير عبد الله تجيش بعوامل الخروج والثورة ، هبت ريح الاضطراب على إشبيلية وسرت إليها عوامل الفتنة ، وظهر الزعماء المتطلعون إلى الرياسة على مسرح الحوادث . وكان بنو أبي عبدة ، وبنو حجاج ، وبنو خلدون ، يومئذ أعظم البيوتات العربية في إشبيلية . فأما بنو أبي عبدة فكان منهم كثير من رجال الدولة والقادة ، وكان زعيمهم يومئذ أمية بن عبد الغافر بن أبي عبدة ، وكان من وجوه القوم المقربين لدى حكومة قرطبة . وأما بنو حجاج فإنهم يرجعون بنسبتهم إلى لحم ، ويتصلون في الوقت نفسه من ناحية الأمومة بملوك القوط ، وذلك عن طريق سارة القوطية حفيدة وتيزا ملك القوط^(٣) ، وكان زعيم بيتهم يومئذ عبد الله بن حجاج وأخوه إبراهيم . وأما بنو خلدون فإنهم ينتسبون إلى العرب اليمنية في حضرموت ، وإليهم ينتسب المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، وكان زعيم بيتهم يومئذ كريب بن عثمان بن خلدون وأخوه خالد^(٤) .

(١) المقتبس ص ١١٨ .

(٢) راجع في تفاصيل هذه الثورات ، المقتبس ص ٩ - ١١ و ١٦ ، وكذلك البيان المغرب

ج ٢ ص ١٣٩ - ١٤١ .

(٣) راجع « دولة الإسلام في الأندلس » ص ٦٠ و ٦١ .

(٤) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٣٨٠ و ٣٨١ ، وابن الأبار في الحلة السيرة ص ٩٦ .

وكان هنالك إلى جانب هذه الأسر العربية الصميمة ، عدد من الأسر المولدة القوية الغنية . وكان التنافس بين العرب والمولدين في النفوذ والرياسة ، من أهم أسباب الاضطراب في المجتمع الأندلسي يومئذ .

وكانت الرياسة في إشبيلية قديمة في بيت أبي عبدة ، حيث كان جدهم أبو عبدة واليها من قبل عبد الرحمن الداخل ، وكان حفيده أمية بن عبد الغافر واليها في الوقت الذي نتحدث عنه ؛ وكان الأمير عبد الله قد أرسل إلى جانب أمية ولده محمداً ، ليكون عضداً أديباً له في حكم المدينة . وفي سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) كان بنو خلدون أول من رفع لواء الثورة في إشبيلية ، وخرج زعيمهم كريب بن عثمان ابن خلدون في أنصاره وحلفائه من المولدين والبربر ، الذين رأوا أن يعملوا على إذكاء المعركة بين الأسر العربية ، وتحالف مع ابن مروان الحليقي الثائر بيطليوس . وعاث كريب وأصحابه في أحواز إشبيلية وقطعوا السبل ، ولكنه لم ينل من المدينة مأرباً . ثم ثار المولدون ضد العوب الثمانية لمقتل واحد من كبارهم ، وتحرك بنو حجاج في نفس الوقت . وخشى أمية العاقبة فدرس على زعيمهم عبد الله ابن حجاج من قتله ، فحل في الحال مكانه أخوه إبراهيم ، وحمل وطيس الفتنة ، واشتد بنو حجاج وأنصارهم من العرب في قتال أمية ، وقتل أمية في النهاية مدافعاً عن نفسه . فأرسل الأمير عبد الله إلى إشبيلية حاكماً جديداً من قبله ، هو عمه هشام ابن عبد الرحمن ، ولكنه لم ينجح في تهدئة المدينة الثائرة ، وقتل الثوار ولده ، وسادت الفوضى ، واضطرب جبل الأمن في إشبيلية وما جاورها ، فعندئذ أرسل عبد الله ولده المطرف ، ومعه الوزير عبد الملك بن عبد الله بن أمية على رأس حملة قوية إلى إشبيلية (٢٨٢ هـ - ٨٩٥ م) . فلما أشرف المطرف على إشبيلية وثب بالقائد عبد الملك فقتله ، وندب للقيادة مكانه أحمد بن هاشم بن عبد العزيز ، وأرسل إلى والده الأمير عبد الله محضراً يبرر فيه تصرفه ، ونشبت الموقعة بين المطرف وبين الثوار خارج المدينة ، فهزمهم وردهم إلى سور المدينة ، وقتل منهم عدد كبير ، وأسر إبراهيم بن حجاج وخالد بن خلدون وغيرهما من زعماء الفتنة ، ولم يطلق سراحهم حتى أذعنّت المدينة الثائرة لمطالبه ، وسلمت الخراج المطلوب ، وقدم زعماء الفتنة رهائن من الولد والأهل ، واتفق على أن يشترك

في حكم المدينة إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون باسم الأمير وفي طاعته^(١) . وكان كريب طاغية شديد الوطأة فنفر منه الشعب . أما إبراهيم فكان رقيقاً دمث الخلق فكثير أنصاره ، ورجحت كفته ، واستطاع في الوقت نفسه أن يحصل من الأمير عبد الله سرّاً على عهد بولاية المدينة . ثم اعتزم أمره ودبر مقتل كريب ابن خلدون وأخيه خالد ، وانفرد بحكم إشبيلية (٢٨٢ هـ)^(٢) ، وأقره عبد الله على ولاية إشبيلية وقرمونة . وسطع نجم بني الحجاج وقوى أمرهم ، وطالب إبراهيم الأمير بالإفراج عن ولده عبد الرحمن ، المعتقل رهينة في قرطبة ، فلما تباطأ الأمير في إجابته خلع الطاعة وتحالف مع ابن حفصون^(٣) ، وسار معه في قواته لمقاتلة قوات الأندلس (٢٨٩ هـ) حسبما تفصل بعد . وقدر الأمير عبد الله خطورة هذا التحالف وتوجس من عواقبه ، وعاد فأحاب رغبة إبراهيم ، وأفرج عن ولده عبد الرحمن وورده إليه مكرماً (٢٨٩ هـ) ، فجنح إبراهيم إلى الطاعة مرة أخرى ، وارتضى أداء الخزية للأمير ، ونبذ حلف ابن حفصون ، وقنع الأمير من جانبه بهذا المظهر من الخضوع والطاعة ، واستقرت الأمور في إشبيلية^(٤) .

وأبدى إبراهيم بن حجاج في إدارة ولايته همة وبراعة ، واتخذ سمة الملوك وأنشأ له بلاطاً ، وحرساً خاصاً قوامه خمسمائة فارس غير المشاة ، وحصن مدينة قرمونة ، وجعلها مرابط خيله^(٥) ، وفرض الضرائب وأصلح نظم الحكم والقضاء ، وعمل على توثيق أواصر المودة بينه وبين حكومة قرطبة . وكان يبعث بالأموال والهدايا إلى الأمير عبد الله ، ويمده بجنده في بعض غزواته . وكان إبراهيم فوق ذلك رضى الخلق ، محبوباً من الشعب ، جواداً يقصده الشعراء وينشدونه مدائحهم

(١) يقول ابن خلدون إن كريياً انفرد أولاً بحكم إشبيلية ، وسمى ابن حجاج إلى انتزاعها منه ، فتحالف مع ابن حفصون ، ثم جنح إلى مصانعة كريب فأشركه معه في حكم المدينة (كتاب العبر ج ٧ ص ٣٨١) . وراجع المقتبس ص ١١١ .

(٢) (أوفى أوائل سنة ٢٨٦ هـ ، على رواية ابن حيان (المقتبس ص ٨٤) .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٩ .

(٤) المقتبس ص ١٣١ .

(٥) وما تزال مدينة قرمونة تحتفظ حتى اليوم ببعض الأبواب والأطلال الأندلسية القديمة التي تدل على حصانتها أيام المسلمين ، وما زالت بالأخص تحتفظ بباب « إشبيلية » الشهير كاملاً بمعقده العظيم وشرفته العريضة الرائعة .

فيعجزل صلاتهم ؛ وكان ممن مدحه شاعر العصر أبو عمر بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، ومما قاله في مدحه :

ألا أن إبراهيم لجة ساحل من الجود أرسى فوق لجة ساحل
فإشبيلية الزهراء تزهو بوجهه وقرمونة الغراء ذات الفضائل
إذا ما تحلت تلك من نور وجهه غدت هذه للناس في زى عاطل
واستمر إبراهيم بن حجاج في حكم إشبيلية وقرمونة ، حتى توفي سنة ٢٩٨ هـ
(٩١٠ م)^(١) في سن الثالثة والستين ، فخلفه في حكم إشبيلية ولده عبد الرحمن ،
وفي حكم قرمونة ولده محمد حتى انتهت دولتهم في بداية عهد الناصر^(٢).

(١) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٩٧ . ويضع ابن عذارى وفاته في سنة ٢٨٨ هـ (البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٢) والرواية الأولى أرجح . وراجع أخبار ابن حجاج في المقتبس ص ١١ - ١٤ .

(٢) راجع في تفاصيل ثورة بني حجاج ، ابن خلدون في كتاب العبرج ٤ ص ١٣٥ وج ٧ ص ٣٨٠ ، ٣٨١ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٢٨ - ١٣٥ ؛ وابن الأبار في الحلة السيرة ص ٩٦ و ٩٧ .

الفصل الرابع

ولاية عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

٢ - ذرؤه الفتنسة الكبرى

عود إلى ثورة المولدين . ابن حفصون يعود إلى الميدان . عود الصوائف إلى غزوه . إستيلاؤه على إستجة . مسير أبان بن عبد الله لقتاله . المعارك في الجزيرة الخضراء . تحالف ابن حفصون ومحمد ابن لب . ابن حفصون يعلن اعتناقه للنصرانية . تفرق أنصاره . التحالف بين ابن حجاج وابن حفصون . الحرب بين جند الأندلس وابن حفصون . هزيمة الناصر وإنهاء حلفه مع ابن حجاج . توالى الحملات والصوائف لقتال ابن حفصون . استقلال ابن مروان ببطليوس . ثورة ابن تاكيت في الشنر الأدنى . محاصرة جند قرطبة لماردة . الخلاف بين ابن مروان وابن تاكيت . وفاة ابن مروان واستمرار بنيه في حكم بطليوس . بنو ذو النون في طليطلة . استيلاء بني قسي عليها وحكمهم لها . سقوطها في يد ابن الطربيشة . بنو ذو النون في شرق طليطلة . استيلاء ابن يحيى الأنقر على مرسطة . بنو قسي في قطيلة وطرسونة . غزوات لب في ليون ونافار . وفاة لب وولاية أخيه عبد الله . ظهور محمد بن عبد الله الطويل في الشنر الأعلى . القتال بينه وبين بني قسي . أذول نجم بني قسي . غزوات الطويل في أراضي النصارى . مصرعه وذهاب دولته . الأمير عبد الله ومقارعتة للثورة . انهزام ملك ليون لمشاغل حكومة قرطبة . استيلاؤه على سمورة . ظهور ابن القط في أحواز طليطلة . زعمه بأن هو المهدي . القتال بينه وبين ملك ليون . مصرع ابن القط وتفرق شمله . تفاهم ملك ليون مع الثوار . افتتاح الجزائر الشرقية . وفاة الأمير عبد الله . خلاله وصفاته . صرامته وعدله وتقشفه . حجابته وقواده . اصطفاؤه للموالى . أولاده . مأساة ولديه محمد والمطرف . اغتيال المطرف لأخيه محمد . حكم عبد الله بإعدام المطرف . بطشه بأخوته . أقوال ابن حزم في صرامته وسفكه للدماء . صفة الأمير عبد الله وخلاله . أدبه وشاعريته . اصطفاؤه للعلماء والشعراء . شعراء العصر وأدباؤه وفقهاؤه .

لم تشغل ثورة القبائل العربية في إشبيلية وباجة وإلبيرة وتدمير وغيرها ، حكومة قرطبة عن متابعة الجهاد لإخاد ثورة المولدين . وقد كانت ثورة المولدين في الواقع أخطر وأشد رسوخاً ، وأبعد أثراً . وقد استطاع زعيم ثورة المولدين في الجنوب عمر بن حفصون ، أن يستغرق معظم جهود حكومة قرطبة منذ أواخر عهد الأمير محمد ، ولكن هزيمة الزعيم الناصر في موقعة بلاى (بولى) سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) وما ترتب عليها من تضعضع قواته ، فلت من عزمته ووضعت حداً مؤقتاً لطغيانه . بيد أن حكومة قرطبة لم تركز إلى هذه الهدنة المؤقتة ، فقد كانت تعرف

ابن حفصون وتعرف مبلغ خطره ، ومقدرته على العدوان والبغى ، وكان ابن حفصون من جانبه ، يعمل جاهداً لتنظيم قواه واستكمال أهبة ، لاستئناف صراعه المرير مرة أخرى .

ومن ثم فإنه لم يمض عامان على موقعة بلاى ، حتى عادت الصوائف تتردد لغزو ابن حفصون ومطاردته . ففي سنة ٢٨١ هـ (٨٩٤ م) سار المطرف بن الأمير عبدالله في جند الأندلس إلى كورة ريه ، وحاصر ابن حفصون في ببشتر معقله ، وعاث في بسائطه . وآثر ابن حفصون في البداية أن يستعصم بمعقله ، ثم خرج إلى لقاء المطرف فهزم ، وقتل في هذه الموقعة حفص بن المرة أشجع قواد ابن حفصون وأشدهم مراساً^(١) . فلما عادت جند الأمير إلى قرطبة ، عاد ابن حفصون يدبر خطط العدوان ، ثم جمع جموعه وزحف على إستجة ، واستولى عليها للمرة الثانية ، وذلك في سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧ م)^(٢) . وإستجة تقع جنوب غربي العاصمة على مسافة غير بعيدة عنها ، فبادر الأمير عبدالله باستقدام الجند من النواحي ، وفي العام التالي (٢٨٥ هـ) سير ولده أبان لقتال ابن حفصون ومعه القائد أحمد بن أنى عبدة . واختارت الحملة الجزيرة الخضراء ، وعكفت على مهاجمة الحصون الخارجية حتى وصلت إلى طريف ، ثم ارتدت إلى ببشتر ثم إلى أرشدونة ثم إلى البيرة وحصن شلوبانية ؛ ونشبت بينها وبين قوات ابن حفصون عدة معارك محلية ، ثم عادت إلى قرطبة عن طريق وادي آش^(٣) . ولكن هذه المعارك لم تسفر عن أية نتيجة حاسمة ، واقتنعت حكومة قرطبة بأنه لا بد من مضاعفة الأهبة لكي تستطيع أن تضع حداً لعدوان الزعيم الثائر .

وفي سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) عقد ابن حفصون ومحمد بن لب زعيم بني قسي حلفاً متبادلاً ، وأرسل محمد ولده لباً في بعض قواته إلى ابن حفصون ليوثق هذا التحالف ؛ ولكن لباً لم يلبث أن تلقى نبأ موت أبيه أمام أسوار طليطلة ، فغادر ابن حفصون دون أن يرم أمراً ، وهكذا فشل هذا التحالف قبل نضجه^(٤) ، وفي سنة ٢٨٦ هـ (٨٩٩ م) أعلن عمر بن حفصون اعتناقه للنصرانية هو وسائر

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٢ . وراجع Dozy : Hist. ; V. II, p. 84

(٢) المقتبس ص ١٠٨ .

(٣) المقتبس ص ١٢٢ .

(٤) المقتبس ص ١٢٧ .

أفراد أسرته ، واتخذ له إسم نصرانياً هو صمويل ، وكان أبوه قد فعل ذلك منذ أعوام ، ولم يخلص عمر بن حفصون للإسلام قط ، وكان يسر النصرانية دائماً ، ولم يمنعه من إعلانها سوى خوفه من تفرق أنصاره ، وقد تحقق ما كان يخشاه إذ هجره كثير من أنصاره ، وتبرأوا من فعلته ، وخرج عليه بعض قواده المسلمين ، وامتنعوا بحصونهم ، وبعثوا بطاعتهم إلى الأمير ، واشتد السخط عليه في سائر جنابات الأندلس ، ورأى المسلمون في قتاله نوعاً من الجهاد^(١) . وحاول ابن حفصون من جانبه ، أن يقوى مركزه بعقد محالفات جديدة ، ففاوض ألفونسو الثالث ملك ليون وبني قسي ، كما فاض بعض أمراء المغرب ، ولكن العون الحقيقي جاء من ناحية أخرى . ذلك أن إبراهيم بن حجاج سيد إشبيلية وقرمونة ، لما ساءت العلائق بينه وبين الأمير عبد الله بسبب رفضه إطلاق سراح ولده ، قطع الحزبة ، وأعلن استقلاله ، وتحالف مع ابن حفصون (٢٨٨ هـ - ٩٠٠ م) ، وغدا الإثنان قوة يحسب حسابها^(٢) .

وتوجست حكومة قرطبة شراً من هذا التحالف ، فبعث الأمير إلى ابن حفصون يعرض عليه شروطاً مغرية للصلح ، فقبل الثائر هذا العرض ، وبعث إلى قرطبة أربع رهائن من أصحابه ، منهم خازنه وحليفه سعيد بن مستنة الثائر من قبل في باغة Priego^(٣) . بيد أنه لم يمض قليل على ذلك ، حتى حدث خلاف في تنفيذ الشروط بين الفريقين ، وعاد ابن حفصون فأعلن الخلاف وتأهب للحرب ، وعاونوه حليفه ابن حجاج بقوة من الفرسان ، وسارت جند الأندلس بقيادة أحمد ابن أبي عبدة ، وخرج ابن حفصون من إستجة التي اتخذها قاعدة لملاقاته . واشتبك الفريقان في «إستجة» الواقعة جنوبي إستجة ، على مقربة من نهر شنيل ، فهزم جند الأندلس في البداية ، وقتل منهم بضع مئات ، ولكنهم عادوا فكروا على قوات ابن حفصون بعنف ، وأوقعوا بها هزيمة شديدة (٢٨٩ هـ - ٩٠٢ م) ، وعلى أثر ذلك أمر الأمير عبد الله بقتل رهائن ابن حفصون ، ما عدا ابن مستنة ، إذ افتدى حياته بالخضوع والطاعة . وخشى إبراهيم بن حجاج على

(١) راجع البيان للمغرب ج ٢ ص ١٤٣ ، والمقتبس ص ١٢٨ . وراجع دوزي : Hist.; V. II.

p. 84 & 85 . وكان ابن حفصون أيضاً يتكلم «الأعجمية» ، وهي الإسبانية القديمة أو اللرومانش .

(٢) المقتبس ص ١٢٩ .

(٣) البيان للمغرب ج ٢ ص ١٤٤ ، ودوزي : Hist., V. II, p. 86 .

ولده ، ففاوض الأمير في الصلح ، فأجابه إلى طلبه ، وأطلق سراح ولده عبد الرحمن وعاد إلى سابق ولائه^(١) .

وتوالى حملات الأمير بعد ذلك على ابن حفصون . ففي سنة ٢٩١ هـ (٩٠٤ م) سار أبان بن الأمير عبد الله ، ومعه القائد أحمد بن أبي عبدة إلى ربه ، فعاث في تلك الناحية وهزم ابن حفصون في عدة مواقع . وفي العام التالي (٩٠٥ م) خرجت الصائفة لقتال ابن حفصون فاستولت على بعض حصونه ، وأوقعت بواته هزيمة شديدة في وادي بلون على مقربة من جيان ، وقتل كثير من جنده^(٢) . وفي سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٨ م) سارت جند الأندلس إلى ببشتر معقل الثائر ، وعاثت في تلك المنطقة . وفي سنة ٢٩٧ هـ (٩١٠ م) سارت حملة قوية بقيادة أحمد بن أبي عبدة إلى كورة ربه ، واشتبكت مع قوات ابن حفصون في عدة معارك شديدة ، ثم سارت شمالا إلى حصون إلبيرة وجيان وحاصرت متلون حيناً ، وحاول ابن حفصون من جانبه أن يهاجم حصن جيان ، فردته جند الأندلس وطاردته . وفي العام التالي غزت جند الأندلس منطقة ببشتر مرة أخرى . ورد ابن حفصون بأن أغار وحليفه ابن مستنة ، الذي خلع الطاعة مرة أخرى ، على بسائط قبرة وبعض قرى قرطبة ، فلقيته جند الأندلس وهزمته . وسارت في العام التالي (سنة ٢٩٩ هـ) حملة أخرى إلى ببشتر فعاثت في بسائطها^(٣) ؛ وهكذا استمرت حملات الأندلس متوالية متلاحقة على ابن حفصون زهاء ثلاثين عاماً . وبالرغم من أن حكومة قرطبة استطاعت أن تعمل باستمرار على مناهضته وإحباط خططه وإنهاك قواه ، فلأنها لم تفلح في القضاء عليه ، وإخماد الحركة الثورية المضطربة ، التي استطاع أن يحمل لواءها بقوة وجاد وعزم لا مثيل لها .

— ٢ —

وقد أشرنا من قبل ، إلى خروج عبد الرحمن بن مروان الحليقي بمدينة بطليوس منذ أيام الأمير محمد ، وكيف أن حكومة قرطبة فشلت في إخضاعه ، وانتهى الأمر باستقلاله ببطليوس وما جاورها . ولما تولى الأمير عبد الله ، لم ير مناصاً من

(١) راجع دوز : Hist., V. II, p. 86-88

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٤ .

(٣) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٨ - ١٥٣ .

إقراره على استقلاله بتلك القاعدة المنيعة ؛ وهكذا لبث ابن مروان سيد بطليوس بلا منازع . فحصبها وجملها ؛ وبسط حكمه على الأنحاء المجاورة ، وكان من خلفائه في تلك المنطقة حسباً قدمنا يحيى بن يحيى بن بكر الثائر بمدينة شنتمرية الغرب^(١) بولاية أكشونية ، وعبد الملك بن أبي الجواد الثائر بمدينة باجة Beja . وكان يحيى زعيماً مقدماً ، فحصن شنتمرية ، وأقام بها حكومة منظمة ، وضبط الأمور وقمع أهل الشر^(٢) . وفي سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) نكث ابن مروان بعهد ، وعاون كريب بن خلدون الثائر باشيبيلية ، على مهاجمة المدينة ونهب أحوازها . ولم يمض قليل على ذلك حتى ثار البربر في الثغر الأدنى^(٣) بزعامة محمد بن تاكيت المصمودي وزحف على ماردة في شرقي بطليوس ، واستولى عليها ، فسارت إليه الجند من قرطبة ، فقدم لإنجاده ابن مروان ، ولبث الحصار مدة ارتحلت بعدها جند الأمير خائبة . وكان بماردة جموع من العرب والبربر من قبائل كتامة ومصمودة ، فسعى ابن تاكيت في إخراج العرب وكتامة منها ، واستقل بها مع شيعته . ولم يلبث أن ثار الخلاف بينه وبين جاره ابن مروان ، ونشبت بينهما الحرب ، فهزمه ابن مروان وظهر عليه . ثم توفي عبد الرحمن بن مروان بعد قليل ، فخلفه في حكم بطليوس ابنه مروان ، واشتد في مطاردة البربر ، ولكن ولايته لم تدم سوى شهرين ، فخلفه على بطليوس حفيد لابن مروان يدعى عبد الله ، واستمر بنو مروان سادة بطليوس حتى انتزعها منهم عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، وقضى على دولتهم^(٤) .

وكانت طليطلة قاعدة الثغر الأوسط ، قد سقطت في يد بني ذى النون أيام المنذر . وكان بنو ذى النون من أكابر زعماء البربر في تلك المنطقة ، وينتمون إلى قبيلة هوازة ، وكان زعيمهم موسى بن ذى النون قد ظهر في عهد الأمير محمد ،

(١) Santa Maria de Algarve ، وهذا بخلاف شنتمرية الشرق أو شنتمرية ابن رزين التي اشتهرت أيام الطوائف وتعرف في الإسبانية باسم Albarracin .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤١ .

(٣) هو في جغرافية الأندلس عبارة عن المنطقة الغربية الواقعة بين نهر دويرة ونهر التاجه ومن مدنها قورية وقلمرية وشنترين وغيرها ، وأم الثغر الأعلى فهو عبارة عن مرسطة وأعمالها من المدن الشمالية المتاخمة لحدود نافار وليون وقطلونية . ويشمل الثغر الأوسط طليطلة وأعمالها .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٣ و ١٣٤ .

واستقل بشت برية حسبما ذكرنا من قبل . ثم زحف على طليطلة في قوة كبيرة من البربر ، واستطاع بمالأة بعض زعمائها أن يستولى عليها ، وذلك في سنة ٢٧٤هـ (٨٨٨م) . وحكم بنو ذى النون طليطلة بضعة أعوام ، ثم غلبهم عليها محمد بن لب بن موسى كبير بني قسيّ وزعيم الثغر الأعلى ، وكان بنو قسيّ قد فقدوا زعامتهم يومئذ في الثغر الأعلى بخروج سرقسطة من أيديهم ووقوعها في يد أبي يحيى التجيبي حسبما نذكر بعد ، فتحولوا إلى الثغر الأوسط واستولوا على طليطلة سنة ٢٨٣هـ (٨٩٧م) . وبعث محمد بن لب ولده لباً إلى أحواز جيان ، فهاجم حصن قسطلونة واستولى عليه . والظاهر أن كانت ثمة لتلك الحملة علاقة بمشروع التحالف بين بني قسيّ وابن حفصون حسبما قدمنا ، ولكن محمداً بن لب لم يلبث أن قتل بعد ذلك بعامين تحت أسوار سرقسطة ، وهو يحاول انتزاعها من التجيبين^(١) ، ولم يستطع ولده لب أن يستمر في حكم طليطلة فأبعد عنها حيناً . ولكن أهل طليطلة عادوا فدعوه إلى حكمها ، فبعث إليهم أخاه المطرف فتولى حكمها . ثم خرج عليه محمد بن إسماعيل بن موسى من أبناء عمومته ، فحكمها حتى مصرعه في سنة ٢٩٣هـ (٩٠٦) قتيلاً بيد أهلها . وعندئذ تولى حكم طليطلة زعيم من البربر المحليين هو ابن الطربيشة ، وهو حليف ابن ذى النون ، واستمر في حكمها حتى انتزعها منه عبد الرحمن الناصر في أوائل حكمه . واستمر بنو ذى النون أبناء موسى وهم الفتح ويحيى ومطرف بعد وفاة أبيهم ، في حكم المناطق الواقعة في شرق طليطلة ، مثل إقليش وبوذة ثم قلعة رباح^(٢) وغيرها ، إلى نهاية عهد الأمير عبد الله وأوائل عهد الناصر . وكان مطرف أشهرهم وأنجبهم ، وقد استمر معتصماً بووذة حتى استنزله الناصر منها ، ثم ولاه عليها واستقام بها شأنه ، وحضر مع الناصر واقعة الخندق^(٣) . وكان لبني ذى النون هؤلاء فيما بعد شأن ، وكانت لهم أيام الطوائف في طليطلة دولة سطعت مدى حين .

أما لبُّ بن محمد فاستقر في تطيلة ، وكان النزاع يضطرم في الثغر الأعلى منذ أعوام طويلة بين التجيبين وبني قسيّ .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ .

(٢) وهي بالإسبانية على التوالى : Uclés, Huete, Calatrava .

(٣) ابن حيان في المقتبس ص ١٩ .

وتذكر لنا الرواية في أصل نباهة بنى تجيب ، أنه لما ثار بنوقسى في الثغر الأعلى ، واحتلوا قواعده ، نُوه للأمير محمد بن عبد الرحمن ، بأولاد عبد العزيز ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن المهاجر التجيبى ، فاستدعاهم ، وبني لهم قلعة أيوب على مقربة من سرقسطة ، وعين لضبطها عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبى ، وبني لهم قلاعاً حصينة في شريط ودَرْوَقه ، وفُرتش ، ونصبهم لمحاربة بنى قسى ، وعقد لهم على قومهم ، وأجرى عليهم أرزاق الغزو . ولما انتزع الأمير المنذر سرقسطة من محمد بن لب بن موسى في سنة ٢٧٠ هـ ، توالى عليها عمال الأمير ؛ وكان عليها في بداية عهد الأمير عبد الله واليها أحمد ابن البراء ، فتظاهر محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز (وهو المعروف بأبي يحيى وبالأنقر) بمهاجمة والده عبد الرحمن والخروج عليه ، والتجأ إلى سرقسطة تحت كنف ابن البراء وحمايته ، وفي ذات يوم وثب بحاميه ابن البراء وقتله غيلة ، واستولى على سرقسطة ، وكان ذلك في رمضان سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) وفقاً لرواية العذرى ، أو في سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) وفقاً لرواية ابن حيان . وكان وثوب أبي يحيى الأنقر بابن البراء على هذا النحو ، فيما يبدو بتفاهم مع الأمير عبد الله ، إذ كان يشك في ولاء حاكمه . ومن ثم فقد أقره الأمير عبد الله على حكم سرقسطة وأعمالها (١) .

وحاول محمد بن لب أن ينتزع سرقسطة من أبي يحيى ، فهاجها وحاصرها غير مرة ، حتى قتل تحت أسوارها سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) حسبما أسلفنا . قال ابن حيان : « وهوى نجم القسوين (بنى قسى) بعد مهلك محمد واعتورهم الإدبار ، وغشيتهم دولة الجماعة ، وجمع الثغر كله لأبي يحيى » (٢) . ولبث أبو يحيى على استقلاله بسرقسطة ، حتى وفاته في عهد الناصر سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) .

ولما توفى محمد بن لب ، خلفه ولده لب في تطيلة وما جاورها . والظاهر أنه أثر يومئذ مهادنة الأمير والانضواء تحت لوائه ، وأقره عبد الله على حكم تطيلة وطرسونة وما جاورها . وشغل لب في الأعوام التالية بغزو أراضي النصارى

(١) « نصوص عن الأندلس » . من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار للعذرى ص ٤١ . وابن حيان في المقتبس ص ٨٥ و ٨٦ .
(٢) المقتبس ص ٨٧ .

المجاورة ، فغزا في سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٣ م) أرض ليون واستولى على بعض حصونها ، وهزم ألفونسو الثالث في معركة نشبت بينهما ، ثم غزا ناحية بليارش Pallars ، واستولى على حصون إيلاس وموله وقشتيل ، وقتل بها كثيراً من النصارى . وفي العام التالي خرج لب المحاصرة سرقسطة ، وخرب ما حولها من القرى ولكنه لم ينل منها مأرباً . وفي سنة ٢٩٤ هـ (٩٠٦ م) ، غزا لب ناغار وزحف على طريق بنبلونة ، فحشد سانشو (سانجه) ملك ناغار كل قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، هزم فيها لب وقتل كثير من جنده . وكان لب زعيماً مقدماً وافر الجرأة والشجاعة ، وتوفي شاباً في الثانية والثلاثين من عمره ، فكانت وفاته ضربة شديدة لسلطان بني قسى . وخلفه في تغطية أخوه عبد الله بن محمد بن لب^(١) ، وسار على أثره من الانضواء تحت لواء الأمير ، ومتابعة الإغارة على أرض النصارى . وهنا ظهر على مسرح الحوادث في الثغر الأعلى زعيم جديد هو محمد بن عبد الملك بن شريط المعروف بالطويل ، وسمى بذلك لطوله الفائت . وكان بنو شريط أو بنو شباط من أكبر أسر المولدين بالثغر ، وكان منزلهم بوشقة وبربشر^(٢) وكان عميدهم شريط قد ظهر في أواخر المائة الثانية في عصر الحكم بن هشام ، وتغلب حيناً على وشقة . ولكن بني قسى غلبوا على تلك الأنحاء دهرأ ، وحججوا بني شريط وغبرهم من أعيان المولدين عن الظهور . فلما اضمحل شأن بني قسى ، عاد بنو شريط إلى الظهور ، واستطاع الطويل أن يستقر في وشقة تراث أسرته ، وذلك منذ بداية عهد الأمير عبد الله ، ثم حاول أن يتوسع بالإغارة على بعض أملاك جيرانه بني قسى ، فاستولى على لاردة ، ولكنه اضطر إلى إعادتها إلى محمد بن لب بإشارة الأمير عبد الله ، ثم وقع الخلاف بينه وبين لب بن محمد على بعض الحصون المجاورة ، ونشب بينهما قتال هزم فيه الطويل . ومضت بعد ذلك عدة أعوام ، شغل فيها الطويل على ما يظهر بمحاربة جيرانه النصارى في منطقة البرنيه ، في أحواز ناغار وچاقة ، وسوبراني وبليارش وغيرها . ولما توفي لب بن محمد ، رأى الطويل الفرصة سانحة لتنفيذ خطته ومشاريعه ، فزحف على أراضي بني قسى مرة أخرى ، واستولى على لاردة وبربشر وحصن منتشون^(٣)

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٣ و ١٤٥ ؛ وراجع دوزى Hist.; V. II., p. 93

(٢) ابن حزم في جبهة أنساب العرب ص ٤٦٤ .

(٣) راجع ابن حيان في المقتبس ص ٨٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٤٨ و ١٤٩ .

(٢٩٥ هـ - ٩٠٧ م) وركد أمر بني قسي في الثغر من ذلك الحين . بيد أنهم استمروا في بعض القواعد والحصون حتى قضى الناصر على دولتهم في سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) . أما الطويل فقد قوى أمره واشتد بأسه ، وكان قد تزوج من دونيا سانشا الحسنة ابنة الكونت أسنار أحد سادة أراجون ، وحفيدة غرسية إنيجيز ملك نافار . وتعرف الروايات النصرانية ، من جراء هذه المصاهرة ، محمداً الطويل معرفة حسنة ، وتذكره بإفاضة وتسميه « الملك الطويل »^(١) . وعكف الطويل بعد ذلك على الإغارة على الأراضى النصرانية المحاورة ، فخرج في سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) إلى منطقة بليارش ، وعاث فيها وقتل كثيراً من النصارى ، واستولى على حصن روطه وهدمه ، ثم استولى على حصن منت بطروش . وفي العام التالى خرج الطويل إلى منطقة بليارش مرة أخرى ، وعاد مثقلاً بالغنائم والسبي^(٢) . ولما رأى عبد الله بن لب قوة الطويل واشتداد بأسه ، آثر مهادنته ، وفي أواخر سنة ٢٩٨ هـ (٩١١ م) تحالف الإثنان على غزو نافار والزحف إلى عاصمتها نبلونة ، وسار كل منهما في طريق مستقل ، وأغار الطويل على بعض الحصون ، وهدم الكنائس ، ولكنه ارتد حينما علم بأن سانشو ملك نافار يسير لقتاله . وغزا عبد الله في طريقه حصوناً أخرى ، وقتل وسبي كثيراً من النصارى . وفي العام التالى (٩١٢ م) غزا الطويل أراضى برشلونة ونشبت بينه وبين صاحبها الكونت سنير Sunier معركة هزم فيها الكونت وقتل كثير من أصحابه^(٣) ، ولكن الطويل لم يلبث أن قتل في العام التالى (٣٠١ هـ - ٩١٣ م) . والظاهر أنه قتل خلال غزوة أخرى قام بها في قطلونية^(٤) ، فخلفه أولاده في حكم أراضيه^(٥) .

(١) نشر العلامة المستشرق ف . كوديرا بحثاً ضمنه سيرة الطويل حسبما تعرضها المصادر اللاتينية والعربية ، وذكر فيه تفاصيل كثيرة شائقة . راجع البحث المذكور في مجلة أكاديمية التاريخ بمدريد : **Mohamed Ataul, rey moro de Huesca (B.R.A.H.) T. XXXVI (1900) p.316-24.**

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٩ و ١٥٠ .
 (٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٢ و ١٥٣ و ١٥٤ .
 (٤) يذكر لنا ابن عذارى تاريخ وفاة الطويل في حوادث سنة ٣٠١ هـ . ولكنه لا يقول لنا أين قتل ومن الذى قتله (ج ٢ ص ١٧٠) .
 (٥) يذكر لنا الأستاذ كوديرا في بحثه السالف الذكر أسماء أبناء الطويل وهم أربعة من المذكور هم عبد الملك ، وعمروس ، وفورتونيو ، وموسى ، وابنة تسمى دونيا بلاسكيتا .

وكان عهد الأمير عبد الله يدنو عندئذ من نهايته ، ولم تشهد الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الداخل فترة كهذه ، عمت فيها الفتنة وسرى ضرامها إلى كل ولاية وقاعدة ، ولم ينكمش سلطان الدولة الأموية بالأندلس قدر انكماشه في تلك الفترة . وكان على الأمير عبد الله أن يكافح دون هوانة لإنقاذ الدولة والعرش من خطر الانهيار ، ففضى حكمه الذى استطال خمسة وعشرين عاماً في سلسلة لا نهاية لها من الفتن والغزوات والمعارك المستمرة ، مزقت خلالها أوصال المملكة ، واهتزت أسس الدولة إلى الأعماق ، ونضبت قواها ومواردها . وبالرغم من أن الأمير عبد الله لم يوفق إلى القضاء على الثورة في سائر النواحي ، فإنه استطاع أن يقضى على الخطر الداهم ، وأن يمزق شمل الثوار ، وأن يستميل نفراً من أخطر زعمائهم ، وأن يبسط سلطان العرش من الناحية الإسمية على الأقل ، على بعض القواعد الهامة مثل إشبيلية وسرقسطة . وكان لهذه النتائج الأولى أثرها فيما بعد في عهد خلفه عبد الرحمن الناصر ، في التمهيد للقضاء على عناصر الثورة ، وتوطيد سلطان الدولة والعرش .

ويحاول الوزير المؤرخ ابن الخطيب أن يلقي ضوءاً على أسباب ذبوع الثورة في الأندلس في هذا العصر في قوله : « والسبب في كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه : الأول ، منعة البلاد وحصانة المعقل ، وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين ، فهم شوكة وحدٌ بخلاف سواهم . والثاني ، علو الهمم ، وشموخ الأنوف ، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة ، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة ، أشرفاً بأنف بعضهم من الإذعان لبعض . والثالث ، الاستناد عند الضيقة والاضطرار إلى الجبل الأشم ، والمعقل الأعظم من ملك النصارى ، الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض . فكان الأمراء من بني أمية يرون أن اللجاج في أمورهم ، يوفى إلى الأضلولة ، وفيها فساد الأموال ، وتعتذر الجباية ، وتعريض الحيوش إلى الانتكاب ، وأولياء الدولة إلى القتل . ولا يقوم السرور بغلبة التأثير ، بما يوازنه من ترحة هذه الأمور » (١) .

ولم تترك مقارعة الثورة لعبد الله فرصة للقيام بغزوات في أراضي النصارى .

(١) أعمال الأعلام (طبع بيروت) ص ٣٦ .

وشغلت البعوث والصوائف كلها أعواماً متوالية ، بمحاربة الخوارج والثوار في مختلف الأنحاء . ولم يبق النصارى من جانبهم بغزوات ذات شأن في الأراضي الإسلامية : وشغل ألفونسو الثالث ملك ليون (جليقية) الذي خلف أباه أردونيو على العرش في سنة ٨٦٦م بتنظيم مملكته وتوطيد حدودها ، منتهزاً فرصة الاضطراب الذي ساد المملكة الإسلامية . وكان من أعظم أعماله استيلاؤه على مدينة سمورة وهي من أمنع مدن الحدود الشمالية الغربية ، وذلك في سنة ٢٨٠ هـ (٨٩٣م)^(١) . وحصن ألفونسو سمورة وأسكنها النصارى ، واتخذها قاعدة للإغارة على الأراضي الإسلامية المجاورة ومعظم سكانها من البربر^(٢) . ولما اشتدت الفتنة وعمت سائر النواحي ، ظهر في أحواز طليطلة وطلبيرة ، أحمد بن معاوية المعروف بابن القط ، وهو من ولد هشام بن عبد الرحمن ، ودعا لنفسه بين البربر في تلك الأنحاء ، وزعم أنه المهدي ، وكان عالماً ومشعوذاً وافر الذكاء والعزم ، فالتفت حوله جموع غفيرة من البربر ، وأعلن الجهاد وقصد إلى سمورة لافتتاحها ، وكتب إلى ألفونسو رسالة عنيفة يدعوه فيها إلى الإسلام وينذره بالويل إذا أبى . وكان ألفونسو يومئذ في قواته على مقربة من سمورة ، فسار إلى لقاء المهدي وقواته ، ودارت الموقعة في مخاض نهر دويرة أمام سمورة ، فهزم النصارى أولاً وارتدوا ، وحاصر المهدي سمورة . ولكن حدث عندئذ أن انسحب زعماء البربر في قواتهم خشية من تفوقه عليهم وغدره بهم . وصمد ابن القط فيمن بقي معه ، ثم نشبت بينه وبين النصارى موقعة ثانية قاتل فيها ببسالة حتى قتل ومزقت قواته ، واحتز رأسه وسمر فوق أحد أبواب سمورة . وكان ذلك في شهر رجب سنة ٢٨٨ هـ (يولييه سنة ٩٠١ م) وبذا انهارت حركته ووطد ألفونسو سيادته في تلك الأنحاء^(٣) .

وكان ألفونسو الثالث يعمل على انتهاز كل فرصة لإذكاء الفتنة والاضطراب في المملكة الإسلامية ، وكان يقصده الثوار وفي مقدمتهم عميدهم ابن حفصون ، لتحالف معه ضد حكومة قرطبة ، واستدعاه أهل طليطلة في أواخر عهد الأمير

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٧ .

(٢) المقتبس ص ١٠٩ .

(٣) راجع تفاصيل حركة ابن القط وموقعة سمورة ، في المقتبس ص ١٣٣ - ١٣٩ ، وكذلك في ابن الأبار ، الحلة السيرة ص ٩١ - ٩٢ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ١٤٤ ، ودوزي :

عبد الله ودفعوا إليه الجزية ، واستولى في عودته على بعض الحصون . وكانت هذه أول غزوة للنصارى على ضفاف نهر التاجه ، بيد أنها كانت غزوة عابرة ولم تخلف أثراً ثابتاً . وأما الثغر الأعلى فقد كان بنوقسي ، وفي مقدمتهم لب بن محمد بن لب ، يحاربون ألفونسو ويحاربهم من وقت إلى آخر .

وكان من الحوادث البارزة في عهد الأمير عبد الله افتتاح الجزائر الشرقية (جزائر البليار) . وقد رأينا فيما تقدم كيف أرسل عبد الرحمن بن الحكم في سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) حملة بحرية إلى ميورقة لغزوها ، ومعاقبة أهلها على تعرضهم لسفن المسلمين وكيف تعهد أهلها بالجزية والولاء . وفي أواخر عهد الأمير عبد الله في سنة ١٩٠ هـ (٩٠٣ م) سار عصام الخولاني إلى ميورقة في قوة بحرية من المجاهدين ، فحاصرها تباعاً ، وكان عصام قد حملته الرياح قبل ذلك وهو في طريقه إلى الحج إلى ميورقة فعرفها ، واختبر أحوال هذه الجزائر الغنية ، وأدرك سهولة فتحها وعرض مشروعه على الأمير عبد الله ، فأقره وأمدّه بالسفن والقطائع . ولما وفق إلى فتحها أقره الأمير على ولايتها . ومن ذلك الحين تدخل الجزائر الشرقية في حظيرة المملكة الإسلامية^(١) .

وكان أيضاً من الحوادث البارزة في هذا العهد الحافل بالخطوب والمحن ، المجاعة الشديدة التي وقعت في سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) والتي قاست الأندلس منها الشدائد والأهوال .

— ٤ —

وتوفي الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن في مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (أكتوبر سنة ٩١٢ م) في الثانية والسبعين من عمره ، بعد أن حكم خمسة وعشرين عاماً ملؤها الاضطراب والفتن . وكان أميراً ورعاً جم التقشف والتواضع ، جواداً محباً للخير ، كثير البر بالفقراء وذوى الحاجات ، يفرز لهم سهماً من مال الجبايات^(٢) ، عالماً أدبياً فصيحاً رفيع البيان ، ينظم الجيد من الشعر . وكان بالرغم مما شغله دلوال حكمه من الفتن والخطوب ، شديد العناية بشئون الحكم وتوطيد أركانه ، وتعرف أحوال الشعب ورغباته ، وكان من أشد الناس حرصاً على

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤ .

(٢) المقتبس ص ٣٣ و ٣٤ .

إقامة العدل ، وقمع الظلم والبغى ، وحقن الظلمة . وكان يجلس للفقراء يوماً في كل أسبوع بباب أنشأه عند ركن القصر خصيصاً لذلك وسماه باب العدل ، ليقضى في مظالم الناس بنفسه ، وليستمع إلى كل ذى حاجة ومظلمة ، وأنشأ باباً حديدياً يتمكن الناس بواسطته من تقديم شكاويهم وظلاماتهم حتى لا يحرم بذلك ضعيف من مخاطبته^(١). وكان لصرامته وشدة وطأته على الطغاة وأهل السلطان ، أثر كبير في شيوع العدل في عهده ، والحد من بغى ذوى الجور والظلم ، كما كان لبالغ تقواه وتواضعه ، واحتشامه وتقشفه في حياته الخاصة ، وفي مظاهره وحياته المملوكية ، أثر كبير في تقويم الأخلاق ودعم الفضيلة ، والاقتصاد في اللهو والملاذ ، في عصر كثرت فيه الخطوب والحزن .

وتولى الحجابة في بداية عهد عبدالله ، عبد الرحمن بن أمية بن شهيد حاجب أخيه المنذر ، ثم تولاها من بعده سعيد بن محمد بن السليم حيناً ، ثم عزله عبد الله في أواخر عهده ، ولم يول أحداً من بعده لحجابه ، واقتصر في تدبير شئون الدولة على الوزراء والكتاب ، وبالأخص على بدر الخصي الصقلي وكان يؤثره ويوليه ثقته^(٢). وكان من حسن الطالع أن استطاع الأمير عبدالله ، أن يعتمد في مواجهة الفتنة الغامرة التي أحقت بعرشه وملك أسرته ، على عون نفر من أكابر رجال الحرب والسياسة ، الذين أبدوا في معالجة الخطوب مقدرة فائقة . وكان في مقدمة أولئك الرجال بنو عبدة وهم من صميم موالى بنى أمية . وقد تولى عدة منهم الوزارة والقيادة للأمير عبد الله ، ومنهم عبيد الله محمد بن أبي عبدة ، الظاهر في موقعة بلاى ، وأحمد بن محمد بن عيسى بن أبي عبدة ، وسلمة بن علي بن أبي عبدة ، وقد اضطلع كلاهما بقيادة كثير من الصوائف . وينسب أعظم الفضل إلى هؤلاء القادة في مقارعة الفتنة ، وإنقاذ العرش والدولة^(٣). وتولى القيادة والوزارة منهم أيضاً عبد الرحمن بن حمدون بن أبي عبدة ، وعبد الله بن محمد بن أبي عبدة ولد القائد الشهير^(٤). وكان من وزراء الأمير عبد الله أيضاً ، عبد الملك بن عبد الله

(١) راجع المقتبس ص ٣٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٨ . وقد استعملت هذه الوسيلة في كثير من المصور لإيقاف الأمير على مظالم رعاياه بطريقة مباشرة .

(٢) ابن حيان في المقتبس ص ٤ .

(٣) المقتبس ص ٢٩ .

(٤) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٦ ، و ١٥٧ ، وأخبار مجموعة ص ١٥١ . وكذلك المقتبس ص ٦ .

ابن أمية ، وقد قتله ولده المطرف أثناء حملة لإشبيلية حسبما أسلفنا . والزعيم البربري سليمان بن وانسوس وزير أبيه من قبل ، وكان من أقدر وزرائه وأعقلهم ، عزله عن الوزارة ثم اضطر لإعادته للاستعانة بخبرته ونصحه^(١) .

وكان الأمير عبد الله ، إلى جانب هؤلاء الوزراء والقادة ، الذين يمثلون العصية العربية أو البربرية ، يعتمد على ولاء الموالى والفتيان ، ويقدم الموالى الشاميين على البلديين ، أسوة بما رتبته أبوه الأمير محمد ، وكان من زعماء الفتيان في بلاطه ريتان صاحب الطراز ، وبدر الوصيف وزميله أفلح . وسرى فيما بعد كيف نما نفوذ أولئك الفتيان في بلاط قرطبة ، واستفحل في عهد الناصر حتى غلب على كل نفوذ آخر^(٢) .

ورزق الأمير عبد الله من الولد إثنا عشر ابناً وثلاثة عشر بنتاً^(٣) . ووقعت داخل الأسرة الملكية في عهده عدة حوادث محزنة أسبغت على اسمه وخلالها سبباً قائمة . من ذلك مصرع ولديه محمد والمطرف . وكان محمد أكبر أبنائه وولى عهده ، وكان أخوه الأصغر مطرف يحقد عليه ، ويرى أنه أحق بولاية العهد لما كان والده يحبه به من ثقته ، ويعهد إليه به من جلائل الأمور والغزوات ، فما زال يدس في حق أخيه ويغري أباه عليه ويتهمة بممالأة الثوار ، والاتصال بابن حفصون ، حتى توجس منه أبوه الأمير شراً ، وأمر باعتقاله في جناح من القصر . ولما توافرت الأدلة بعد ذلك على براءته ، واعتزم عبد الله إطلاق سراحه ، بادر مطرف إليه في معتقله ، وألنحه طعاناً حتى أجهز عليه . وهنا تختلف الرواية فيقال إن الأمير عبد الله حزن أشد الحزن لمصرع ولده الأكبر ، وهم بقتل أخيه وقاتله مطرف ، لولا أن ثناه عن ذلك رجال دولته ، ويقال من جهة أخرى إن مطرفاً لم يرتكب جريمته إلا بوحى أبيه وموافقته^(٤) . وكان مصرع محمد في شوال سنة ٢٧٧ هـ

(١) راجع ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٦٦ و ٦٧ .

(٢) راجع الحلة السيرة ص ٦٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٣ .

(٣) يذكر لنا صاحب البيان المغرب أسماء أبناء الأمير عبد الله وبناته (ج ٢ ص ١٥٦) .

(٤) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٦ و ١٥٧ و ١٦٠ .

و ١٦١ . ويقول صاحب البيان إن محمداً خرج بالفعل على أبيه ، وفر إلى ابن حفصون ، ثم عفا عنه أبوه وعاد إليه ، حتى انتهت وشاية أخيه باعتقاله (ص ١٥٤ و ١٥٥) . وذكر ابن الأثير أن الأمير عبد الله قتل ولده محمداً في حد من الحدود (ج ٨ ص ٢٤) .

(٨٩١ م) وهو في السابعة والعشرين من عمره ، فتولى أبوه عبد الله كفالة ولده الرضيع عبد الرحمن ، وكان قد مضى على مولده ثلاثة أسابيع فقط ، وأسكنه معه في قصره ، ولما بلغ أشده وظهرت نجابته ، غنى بتعليمه وتربيته ، وقربه إليه وأولاه ثقته ثم جعله كاتب سره^(١). وقد شاء القدر أن يخلف الطفل اليتيم فيما بعد جده على العرش ، وأن يغدو أعظم خلفاء الأندلس .

ولم تذهب جريمة المطرف دون عقاب . ذلك أنه لم تمض بضعة أعوام حتى ساءت العلاقات بين مطرف وبين أبيه ، ولما سار المطرف على رأس الصائفة إلى إشبيلية في سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) ، ومعه الوزير عبد الملك بن أمية ، وثب المطرف بالوزير لعداوة بينهما وقتله ، وأثمر سعى خصوم المطرف هذه المرة ، وصُور لأبيه كما صور أخوه من قبل ، في صورة الخارج عليه المتربص به ، فقضى بإعدامه ، وقطع رأسه وبذا كفر عن دم أخيه ودم الوزير^(٢) .

واستراب عبد الله أيضاً بإخوته ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى ما قيل من أن أخاه المنذر توفي قتيلاً ، وأنه هو الذي أوحى إلى طبيبه بتدبير قتله . ويطش عبد الله بأخوين آخرين له هما هشام والقاسم ابنا محمد بن عبد الرحمن . فأما هشام فاتهم بالتآمر على أخيه ، فقبض عليه وقضى بإعدامه (٢٨٤ هـ) . وأما القاسم فقبض عليه وزج إلى السجن ، ثم دس عليه عبد الله من قتله بالسم . واعتقل كذلك عدة من أمراء بني أمية وأكابر رجال الدولة ، وقتل بعضهم . وقد أسبغت هذه الوقائع الدموية سحابة قاتمة على خلال الأمير عبد الله وسيرته ، ولم ينجح في محوها ورعه وزهده وحب للخبر . وقد نعى عليه الفيلسوف ابن حزم هذا الإسراف في البطش في أقوال استشهد بها ابن حيان وغيره من مؤرخي الأندلس ، وجاء فيها أن الأمير عبد الله « كان قتالاً تهون عليه الدماء ، مع الذي كان يظهره من عفته ، فإنه احتال على أخيه المنذر على إثارة إياه ، وأوطأ عليه حجامه بأن سم له المبضع الذي فصده به وهو نازل بعسكره على ابن حفصون ، فكانت فيه منيته وتطوق دمه . ثم قتل ولديه معاً بالسيف واحداً بعد آخر ، محمداً والد الخليفة الناصر لدين الله ،

(١) المقتبس ص ٤٠ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ .

وأخاه عدوه المطرف ؛ ثم قتل أخوين له معاً أيضاً ، قتل هشاماً بالسيف ، والقاسم أخاه بالسم ، إلى من قتله غيرهم »^(١) .

وتجمل الرواية خلال الأمير عبدالله وصفاته في العبارات الآتية : « وكانوا يعلونه من أصلح خلفاء بني أمية بالأندلس ، وأمثلهم طريقة ، وأتمهم معرفة ، وأتمهم ديانة ، لكنه كان منغص الحال بدوام الفتنة ، وتضييق نطاق الحطة ، ونقصان مقدار التزكية ، حتى كان يتخلله الرياء تحت قناع تقواه ، والبخل يطوقه طبيعة ليست له تحط من قدره »^(٢) . وي زيد ابن حيان على ذلك قوله : « ونغصوا دينه بما كان من هو ن الدماء عليه ، وإسراعه إلى سفكها ، حتى من ولديه وإخوته ومن خلفهما من صحابته ورعيته ، أخذاً لأكثرهم بالظنة ، مقوياً في إيثارهم بالشبهة »^(٣) .

وكان للأمير عبدالله بالرغم من هذا الجانب المظلم ، خلال مشرقه ، منها أدبه وفصاحته وشاعريته . وتنوه الرواية بهذه الموهبة فيقول لنا صاحب أخبار مجموعة ، إن الأمير عبدالله كانت له توقيعات بليغة ، وأشعار بديعة في الغزل والزهد ، لا يكاد أن يقع مثلها أو تنسب إلى من تقدمه نظيرها^(٤) . ويقول ابن حيان « كان متصرفاً في فنون ، متحققاً منها بلسان العرب ، بصيراً بلغاتها وأيامها ، حافظاً للغريب من الأخبار ، أخذاً من الشعر بحظ وافر »^(٥) . ويقول صاحب البيان المغرب إنه كان شاعراً مطبوعاً له أشعار حسان^(٦) ، ومن شعره في الغزل قوله :

يا مهجة المشتاق ما أوجعك ويا أسير الحب ما أخشعك
ويا رسول العين من لحظها بالرد والتبليغ ما أسرعك
تذهب بالسرفاتى به في مجلس يخفى على من معك

(١) راجع نطق العروس لابن حزم ص ٨٧ و ٧٩ ، والمقتبس ص ٤١ ، وكذلك ص ١٢٢ ، وابن الأبار في الحلة السيرة ص ٦٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٦٠ و ١٦١ .
(٢) ابن حيان ، فقلا عن عيسى بن أحمد الرازي ، في المقتبس ص ٣٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) المقتبس ص ٣٩ .

(٤) أخبار مجموعة ص ١٥٢ .

(٥) المقتبس ص ٣٤ .

(٦) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٩ .

كم حاجة أنجزت إبرازها تبارك الرحمن ما أطوعك
وقوله :

ويحي على شادن كحيل في مثله يخلع العذار
كأنما وجتاه ورد خالصة النور والبهار
قضيب بان إذا ثنى يدير طرفاً به أحوار
فصفو ودى عليه وقف ما اطررد ليل والنهار
ومن قوله في الزهد :

يا من يراوغه الأجل حتى م يلهيك الأمل
حتى م لا تخشى الردى وكأنه بك قد نزل
أغفلت عن طلب النجاة ولا نجاة لمن غفل
هيات يشغلك المنى ولا يدوم لك الشغل
فكأن يومك لم يكن وكأن نعيمك قد نزل

وكان يؤثر مجالس العلماء والشعراء ، ويعظمهم ويقربهم ويستدعيهم ، ويرتاح
لديهم . قال ابن حيان : « وكان مجلس الأمير عبد الله قبل الخلافة وبعدها ،
أعمر مجالس للفضائل ، وأنزهها من الرذائل ، وأجمعها لطبقات أهل الآداب
والتعاليم » . وكان في مقدمة أصدقائه وجلاسه زعيم شعراء العصر ، أبو عمر أحمد
ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ؛ وكان شاعر الدولة الأموية ، ومادح أمراءها
منذ الأمير محمد حتى الناصر ؛ وموسى بن محمد بن حنيد المعروف بالزهد ؛
وسعيد بن عمرو العكي ؛ وعبيد الله بن يحيى بن إدريس الخالدي ، وسعيد
ابن عبد ربه ابن أخى صاحب العقد ؛ وكلهم من أكابر الشعراء والكتاب .
وكان من أخص وزرائه في تلك المجالس العلمية ، الوزيران العالمان الأديبان
عبد الملك بن جهور ، وعبد الملك بن شهيد . وكان من عادته أن يلجأ إلى العلماء
وأهل الرأي في المشورة ، ويستعين بآرائهم وأحكامهم فيما يواجهه من أحداث
وخطوب ؛ وكان بقر بن مخلد فقيه العصر وأعظم علمائه أكثرهم حظوة لديه ،
وكان يبجله ويزوره في داره ، ويقتبس منه ، ويستمع لنصحه (١) .

ولم يتسع عهد الأمير عبد الله الفياض بالثورات والفتن للأعمال الإنشائية ،
بيد أنه يمكن أن نذكر من منشآته القليلة «السباط» الموصل بين القصر والمسجد
الجامع ، وهو عبارة عن ممر مسقوف مبني فوق عقد كبير يفضي من القصر إلى
الجامع ، ويتصل به على مقربة من المحراب .

وكان الأمير عبد الله بن محمد ، أبيض ، أصهب ، مشرباً بحمرة ، أزرق
العينين ، ألقى الأنف ، يخضب بالسواد ، إلى الطول أمل^(١) . ووصفه ابن حيان
بقوله : « كان جميل الطلعة ، ضخماً ، مهيباً ، نبيلاً »^(٢) .

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٥٥ .

(٢) المقتبس ص ٣٦ .

الفصل الخامس

المملكة الإسبانية النصرانية

خلال القرن التاسع الميلادي

ألفونسو الثاني ملك جليقية . النضال بين الأندلس وبين المملكة النصرانية . موقعة الصخرة . غزو ألفونسو للأراضي الإسلامية . غزو الحكم جليقية . غزو المسلمين لألبية والقلاع . راميرو الأول . الحرب الأهلية في جليقية . غزو محمد بن عبد الرحمن جليقية . وفاة راميرو وولاية ولده أردونيو . تحالف أردونيو مع الثوار المسلمين . غزو الأمير محمد لألبية والقلاع . التحالف بين موسى بن موسى وملك نافار . الحرب بين أردونيو وبنى قسى . هزيمة موسى ومصرعه . تحالف لب بن موسى مع أردونيو . غزو أردونيو لأراضي المسلمين . غزوة المنذر بن محمد لنافار . غزوات أخرى لألبية والقلاع . وفاة أردونيو وولاية ولده ألفونسو الثالث . الحرب الأهلية في جليقية . اتساع المملكة النصرانية في عهد ألفونسو الثالث . توغله في أراضي المسلمين . عقد السلم بينه وبين محمد بن عبد الرحمن . أحوال المملكة النصرانية . نفوذ الكنيسة في توجيه العرش الإسباني . معارك بين المسلمين والنصارى . الثورة ضد ألفونسو . نزوله عن العرش . وفاته وخلاله . ملكة نافار . أصلها ونشأتها . مدافعة البشكنس عن استقلالهم . تحالف نافار مع بنى قسى . المصاهرة بين الأسرتين . التناحر بين نافار وليون . سانشو ملك نافار . الحرب بين سانشو وبنى قسى .

— ١ —

تحدثنا فيما تقدم عن نشأة المملكة الإسبانية النصرانية عقب افتتاح المسلمين لاسبانيا ، وكيف نمت هذه المملكة الوليدة المحتجة فيما وراء الجبال الشمالية ، بخطوات بطيئة ولكن ثابتة ، وكيف شغل عنها ولاية الأندلس فلم ينهضوا لسحقها ، انتقاصاً لشأنها وخطرها ، حتى غدت في أواخر القرن الثامن عاملاً يحسب حسابها ، وبدأت حكومة قرطبة تنظر إلى هذه القوة الجديدة التي توالى غزواتها للأراضي الإسلامية بعين الاهتمام والتوجس ، وتخصص لمقارعتها شطراً كبيراً من جهودها ومواردها .

وقد انتهينا في أخبار هذه الحقبة من تاريخ المملكة الإسبانية النصرانية ، إلى عصر ألفونسو الثاني الملقب بالضعيف ، الذى تولى الملك سنة ٧٩١ م (١٧٥ هـ) .

وكان ألفونسو الثاني ملكاً حازماً مقداماً ، فضبط المملكة ونهض بها نهضة شاملة ، وحصن ثغورها وقواعدها ، وعمل على تحسين شئونها الاجتماعية ، وجعل عاصمتها مدينة «أوبييدو» Oviedo . وكانت مملكة جليقية أو مملكة أستوريش (أستورياس) كما كانت تسمى يومئذ ، تمتد من ولاية بسكونية شرقاً إلى المحيط غرباً ، ومن خليج بسكونية شمالاً حتى نهر دويرة جنوباً ، ولكنها لم تكن عندئذ كما كانت أيام ألفونسو الكاثوليكي تشمل ولاية نافار أو بلاد البشكنس ، التي استطاعت أن تستقل بنفسها ، وقامت بها غير بعيد مملكة نصرانية مستقلة أخرى .

واستطال حكم ألفونسو الثاني زهاء نصف قرن . عاصر فيه ثلاثة من أمراء الأندلس ، هم هشام بن عبد الرحمن ، وولده الحكم ، وحفيده عبد الرحمن ، وتوالت فيه مراحل النضال بين الأندلس والمملكة النصرانية ، فنشبت الحرب بينهما مراراً عدة ، وتبادلا الغزوكل للأراضي الآخر مراراً ؛ وكانت أهم الأحداث البارزة في حلقات هذا النضال ، هزيمة الخلافة والبشكنس بقيادة ألفونسو الثاني على يد المسلمين في موقعة الصخرة في قاضية جليقية في سنة ٧٩٥ م (١٧٩ هـ) . وفي سنة ٨١٠ م (١٩٣ هـ) في عهد الحكم بن هشام عبر ألفونسو الثاني بقواته نهر دويرة ، وغزا الأراضي الإسلامية ، وتوغل في سيره حتى قلُـمريّة وأشبونة ، وعاث في تلك الأنحاء أليماً عيث ، ورد الحكم على ذلك بنفسه في صيف العام التالي غازياً إلى جليقية ، وتوغل في منطقة وادي الحجارة ، وأثنى في تلك الأنحاء عقاباً للنصارى وزجرأ لهم على عدوانهم .

وفي عهد عبد الرحمن بن الحكم سارت الجيوش الأندلسية ، بقيادة الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث في سنة ٨٢٣ م (٢٠٨ هـ) ، غازية إلى ألبّة والقلاع ، على أثر غزو ألفونسو الثاني للثغر الأعلى ، وإغاراته على مدينة سالم ، وهزم المسلمون النصارى في عدة مواقع ، وعاثوا في أراضي جليقية ، وخرّبوا مدينة ليون ، وأملوا على النصارى صلحاً شديداً قاسياً^(١) .

ولما توفي ألفونسو الثاني في سنة ٨٤٢ م ، خلفه على العرش ولده رامير الأول أو رذمبر كما تسميه الرواية الإسلامية . على أنه لم يخلفه دون نضال . ذلك أن

(١) راجع في تفاصيل الحروب والغزوات المتقدمة « دولة الإسلام في الأندلس » الفصل السابع من القسم الأول من الكتاب الثاني ص ٢٠٨ وما بعدها ، وكذلك المراجع .

راميرو حينما توفي أبوه كان في ولاية بردوليا الشرقية ، التي عرفت فيما بعد بقشتالة (كاستيليا) Castilla نظراً لكثرة قلاعها ، برقب حركات المسلمين . وكان عبد الرحمن بن الحكم يقوم عندئذ بغزواته الكبرى في الثغر الأعلى ، ويثخن في بلاد البشكنس ، وكان ألفونسو يخشى أن يتدفق هذا السيل المخرب إلى أحواز جليقية ، ولكن عبد الرحمن ارتد إلى قرطبة بعد أن غزا بنبلونة ، وخربها ، وسحق البشكنس وحلفاءهم ثوار الثغر الأعلى . وتوفي ألفونسو بعد ذلك بقليل ؛ فوثب في أوبيدو زعيم من الأشراف يدعى الكونت ريوتيانوس واستولى على العرش ؛ وعلم راميرو بذلك وهو في بردوليا فخرج إلى جليقية ، وجمع جيشاً في مدينة « لك » وسار إلى أشتوريش ليقاثل المغتصب . ولقيه ريوتيانوس في قواته على ضفاف نهر نارسيا ، وما كادت المعركة تضطرم بين الفريقين ، حتى هجر ريوتيانوس معظم جنده ، وهزم هزيمة شديدة ، وقبض عليه ، وسملت عيناه ، واعتقل بقية حياته في أحد الأديار ؛ واسترد راميرو عرشه ، وأطاعته سائر جليقية وأشتوريش .

ولكن علاقة العرش بالأشراف لبثت على توترها ، ولم تمض أعوام قلائل حتى در الأشراف ثورة جديدة ضد راميرو (٨٤٥ م) . ثم تلتها في سنة ٨٤٨م ثورة أخرى ، واستطاع راميرو في كل مرة أن يخمّد الثورة ، وقبض على معظم الزعماء والخوارج وأعدم الكثير منهم .

ومما تجدر ملاحظته هذه المناسبة أن حكومة قرطبة كانت في معاملتها للزعماء الخوارج عليها ، تبدو أكثر اعتدالاً وتسامحاً . فقد كانت تغفو أحياناً عن الثوار ، وكانت تؤثر اصطناع القادرين والأكفاء منهم ، وكانت في عقابهم أقل قسوة ونكالا . وقد يرجع ذلك إلى ظروف الأحوال في الأندلس ، فقد كانت الثورات شعبية أو قبلية على الأغلب . أما في جليقية فكان زعماء الثورة من الأشراف والزعماء الإقطاعيين الأقوياء ، وكان خطرهم على العرش أشد وأدعى إلى التوجس والحذر^(١) .

وشغلت المملكة النصرانية في بداية عهد راميرو ، كما شغلت المملكة الإسلامية ، برد خطر النورمانين الذين فاجأوا الأندلس بغارتهم المخربة في سنة ٨٤٢ م حسباً

أسلفنا . وشغلت حكومة قرطبة بالأخص حيناً بتحسين أطراف المملكة، وإصلاح ما تخرب من أعمالها . وما كاد أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم ينتهي من ذلك ، حتى نشط إلى استئناف غزو المملكة النصرانية ورد غارات النصارى ، فسير ولده محمداً في سنة ٨٤٧م إلى جليقية فاخترق بسائطها ، وحاصر مدينة ليون ، وعاث في تلك المنطقة . وتقول بعض الروايات النصرانية ، إن المسلمين التقوا برامير و على مقربة من مدينة سالم ، وهزموه هزيمة شديدة ، واستولوا على عدد من الحصون ، وعلى كثير من الغنائم والأسرى . وفي رواية أخرى أن رامير و التقى بالمسلمين على مقربة من كلافينجو بجوار قلهرة ، وأنه هزمهم بالرغم من قلة جنده ، وتنسب هذا النصر إلى خرافة خلاصتها أن رامير و رأى القديس ياقب في نومه ليلة المعركة ووعده بالنصر^(١) . على أن الروايات الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه الموقعة وهذا النصر المزعوم .

وأنفق رامير و بقية عهده القصير في العمل على تنظيم شئون مملكته وتوطيد الأمن فيها ، وأنشأ عدداً من الكنائس والأديار ، ثم توفي في ديسمبر سنة ٨٥٠م بعد حكم دام نحو ثمانية أعوام ، تاركاً عرش أستوريش وبردوليا لولده أردونيو .

- ٢ -

وتولى أردونيو عرش المملكة النصرانية عقب وفاة أبيه بقليل ، وبدأ أعماله بتحسين المدن المتاخمة لحدود المسلمين ، مثل تودة وليون وأستركة ، وأصلح باقي القلاع والحصون تأهباً للدفاع ، وأخذ الثورة في ولاية بسكونية ، وفرض عليها سلطانه . ولما ظهرت أعراض ثورة المولدين في الأندلس في بداية عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وقامت طليطلة بثورتها على حكومة قرطبة ، أرسل أردونيو مدداً إلى الثوار ، ولكن جيش الأندلس هزم الثوار وحلفاءهم النصارى في موقعة وادي سليط شر هزيمة (٨٥٤ م) . وفي العام التالي غزا الأمير محمد ألبه والقلاع وعاث فيها ، ولكن الأندلس شغلت بعد ذلك بظهور النورمانين وغزوهم لثغور الأندلس وبسائطها القريبة ، فوقف سير الصوائف إلى الشمال بضعة أعوام . ولكن أردونيو كان يواجه عندئذ خطر قوة جديدة ، أخذت تنمو وتشتد في الولايات الشمالية . ذلك أن موسى بن موسى بن قسي ، استطاع أن يبسط سلطانه

على الثغر الأعلى ؛ وأن ينشئ فيه إمارة مستقلة قوية ، واقترن غرسية أمير نافار بابنة موسى وتحالف معه ، ليستعين به على مقاومة المسلمين ، ومقاومة جيرانه النصارى من الغرب . وفى أوائل عهد الأمير محمد ، عبر موسى جبال البرنيه بقواته ، وغزا جنوبي فرنسا ، واضطر ملكها شارل الأصغر إلى مهادنته ومسألمته ، وأغدق عليه الهدايا والتحف . ولما رأى أردونيو نهوض قوة موسى وخطرها عليه ، اضطر أن يسعى إلى مخالفته ، ولكنه ما لبث أن تركه مغضباً إذ كان موسى يؤازر البشكنس الثأرين عليه بتحريض صهره أمير نافار ، ولم ير أردونيو فى النهاية بداً من محاصرة موسى ومحاربتة ، وهاجم أردونيو بعض الحصون الغربية التابعة لموسى ، فسار موسى لقتاله ومعه صهره غرسية ملك نافار فى قواته ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة هزم فيها موسى وجرح وقتل صهره غرسية . ثم توفى موسى متأثراً بجراحه (٨٦٢ م) . وكانت ضربة شديدة أصابت سلطان بنى قسى فى الشمال . ولما شعر لب بن موسى عقب وفاة أبيه بقوة المملكة النصرانية ، وخطرها ، على سلطان أسرته ، سعى إلى مهادنة أردونيو ومخالفته على قتال المسلمين ، وردهم عن الولايات الشمالية .

وانتهز أردونيو فرصة اشتغال حكومة قرطبة بأمر النواحي الثائرة ، فعبّر نهر دويرة بقواته ، وغزا مدينة قورية وأسر إليها ، ثم غزا شلمنقة ، وهزم المسلمين ، وعاث فى تلك الأنحاء^(١) . فسير محمد جيشاً إلى الشمال بقيادة ولده المنذر ، فاخترق ألبه والقلاع ، وهزم النصارى فى كل موطن ، ووصل إلى بنبلونة ، وعاث فى نواحيها . وتوالت حملات الأندلس بعد ذلك على ألبه والقلاع ، ونشبت بين المسلمين وأردونيو معارك متعاقبة ، هزم فيها النصارى جميعاً حسبما فصلنا ذلك فى موضعه^(٢) . وأراد محمد أن يقضى نهائياً على مملكة جليقية فسير السفن إلى المياه الغربية لتغزوها من البحر ، ووصل الأسطول الأندلسى بالفعل إلى مصب نهر منهو ، ولكن العواصف ثارت وحطمت السفن ، وفشل المشروع فى المهد (٨٦٦ م) .

ولزم أردونيو عقب هزائمه المتوالية السكينة بقية عهده ، ثم توفى فى شهر مايو

(١) Crónica General (Ed. Pidal) Vol. II. p. 366.

(٢) راجع تفاصيل هذه المعارك فى أخبار أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن (ص ٢٩٤ -

٢٩٩ و ص ٣١١) .

سنة ٨٦٦ م ، واختار قبيل وفاته ولده البكر ألفونسو لولاية عهده ، فخلفه على العرش باسم ألفونسو الثالث ولما يبلغ الرابعة عشر من عمره .

— ٣ —

وما كاد الملك الفتى يجلس على العرش ، حتى ثار عليه الكونت فرويلا حاكم ولاية جليقية وولد الملك برمند ، مطالباً بالعرش ، وسار في قواته إلى أوبييدو ، ففر ألفونسو إلى ولاية ألبة ، واستولى فرويلا على القصر ، وأعلن نفسه ملكاً . ولكن الأشراف القوط الذين يرون في العرش رمزهم وملادهم ، لم يرقهم هذا الاغتصاب ، فثاروا على فرويلا وقتلوه حتى قتل ، وعاد ألفونسو إلى أوبييدو ظافراً واسترد عرشه .

ولم يمض قليل على ذلك حتى دبر أخوة ألفونسو ، وهم فرويلا ونونيو وبرمند وأدغار يوس مؤامرة لعزله وانتزاع العرش منه ، ولكن المؤامرة افضحت قبل نضجها ، وقبض ألفونسو على أخوته وعاقبهم بسمل أعينهم واعتقلهم ، ولم ينبج من بطشه سوى برمند إذ فر إلى أسترقه واستولى عليها ، واستطاع بمؤازرة المسلمين أن يستقل بحكمها بضعة أعوام^(١) .

وكان حكم ألفونسو الثالث الذي استطال أربعة وأربعين عاماً ، فاتحة عهد جديد من القوة والنهوض بالنسبة للمملكة النصرانية ، وكان ألفونسو أميراً وافر العزم والكفاية ، فاستطاع خلال حكمه الطويل بالحروب والزواج أن يدفع حدود مملكته حتى جبال البرنيه شرقاً ، وعبر نهر دويرة إلى أراضي المسلمين مراراً ، ووصل في غزواته إلى ضفاف التاجه ، وغزا عدة من المدن الإسلامية المتاخمة مثل ماردة وقلمرية وبازو وقورية وشلمنقة ؛ ومع أنه لم يستطع أن يضم هذا البسيط إلى مملكته ، فانه استطاع أن يشدد الضغط على الأندلس من هذه الناحية ، وأن يرد تيار الغزوات الإسلامية . وفي سنة ٨٧٨ م حاول المسلمين غزو ليون وأسترقه ، فبادر ألفونسو إلى لقاءهم ، وهزمهم في موقعتين على مقربة من سمورة ، وأرغم أخاه برمند على الفرار من أسترقه ، والالتجاء إلى المسلمين . وفي سنة ٨٨١ م غزا ألفونسو أراضي المسلمين وعبر دويرة والتاجه ، ووصل في زحفه حتى أحواز ماردة ووادي أنة ، وهو مدى لم يبلغه أحد من أسلافه . وتقول الرواية النصرانية

أنه التقى بالمسلمين عند سفح جبل أريفر من جبال سيراً مورينا (جبل الشارات) وهزمهم وقتل منهم عدة آلاف وهي موقعة لم تشر إليها الروايات الإسلامية^(١). وكانت ريج الثورة تهب يومئذ على معظم جنبات الأندلس، وتشغل حكومة قرطبة بمقارعة بني قسي في الثغر الأعلى. وتحالف محمد بن لب زعيم الأسرة النائرة مع ألفونسو الثالث، ليستعين به على قتال المسلمين، ولكن المسلمين نجحوا في انتزاع سرقسطة معقل ابن لب، وزحفوا على ألبه لمقاتلة النصارى، وعندئذ آثر ألفونسو أن يعقد السلم مع المسلمين، وعقدت بالفعل بينه وبين الأمير محمد بن عبد الرحمن حسبا فصلنا من قبل، معاهدة صلح استمرت ردحاً طويلاً.

ذلك أن ملك النصارى رأى بالرغم مما كان يشغل حكومة قرطبة من ثورات متعاقبة، أن يقنع بتأمين حدوده وأراضيه من خطر الغزو الإسلامي، وأن يتفرغ لشئون مملكته الداخلية، وكانت هذه الشئون تستغرق جل اهتمامه، وكانت الأزمات والقلقل السياسية والاجتماعية تتعاقب، لأسباب وبواعث تتعلق بنظم المجتمع النصراني وظروفه. وقد وقعت في عهد ألفونسو عدة ثورات محلية ترجع بالأخص إلى المبالغة في فرض الضرائب على الضياع، وثار أصحاب الضياع لهذا الحور غير مرة في أنحاء مختلفة، وطالبوا بالحد من تغريمهم على هذا النحو لصالح الكنيسة ورجال الدين، ولكن هذه الثورات الإقطاعية أخذت تباعاً، وصودرت معظم الضياع لصالح الكنيسة، واستمر العرش في الإغداق على الأديار ورجال الدين.

ومما تجدر ملاحظته أن الملوكية الإسبانية، كانت تدين منذ نشأتها بمنتهى الولاء والطاعة للكنيسة والكرسي الرسولي. وكانت البابوية تتمتع في توجيهها بأعظم نفوذ. وكان العرش الإسباني يشعر دائماً بأنه يستمد سلطانه من الكنيسة، ويرجع إلى البابوية في كل أمر يمس شئون السلطة الروحية. ومن ذلك أن ألفونسو الثالث كتب إلى البابا يوحنا الثامن يستأذنه في عقد المؤتمر الكهنوتي وتعيين الأساقفة، فأذن له، وطلب إليه أن يبعث بفرقة من الفرسان للمعاونة في محاربة المسلمين في صقلية وجنوبي إيطاليا. وعقد المؤتمر الكهنوتي بالفعل في أوبييدو سنة ٨٧١ م ونظمت فيه شئون الكنيسة الإسبانية. وكان ألفونسو الثالث ملكاً تقياً ورعاً، وكانت

الكنيسة ورجال الدين يحظون منه بأوفر قسط من الرعاية والإغداق ، وكان هذا الجود المغرق يحمله على الإسراف في فرض الضرائب على الطوائف المدنية ، وبذا يثبت إليها بذور السخط والانتفاض^(١) .

وفي أواخر عهد ألفونسو نشبت الحرب بينه وبين بني قسي سادة الثغر الأعلى ، وأغار زعيمهم محمد بن لب غير مرة على أراضي المملكة النصرانية ونافار . وكذلك نشبت الحرب بين ألفونسو وبين ابن القط المعروف بالمهدى الذي تزعم البربر في منطقة سمورة حسبا فصلنا ذلك في موضعه . ولكن هذه المعارك التي وقعت يومئذ بين المسلمين والنصارى لم تتسم بالطابع الرسمي ، وكان يضطلع بها الزعماء الخوارج على حكومة قرطبة ، ومن ثم فقد استمر التهادن بين حكومة قرطبة وبين المملكة النصرانية طوال عهد الأمير محمد ، فإنه الأمير المنذر ، ثم أخيه الأمير عبد الله . وبالرغم من أن ألفونسو لم يكن يترك فرصة لإذكاء الفتنة في المملكة الإسلامية وتعضيد الخوارج عليها ، فإنه التزم عهده المعقود معها ، ولم يقم بغزوات ذات شأن في الأراضي الخاضعة لها .

ودبرت عدة مؤامرات لخلع ألفونسو وانتزاع العرش منه . وكان المتآمرون من خاصة أسرته . وحاول المتآمرون لأول مرة تمكين أولاده وزوجه خميئا من الحكم ، ولكن ألفونسو استطاع أن يقف على المؤامرة وأن يقضى عليها . وقبض على ولده غرسية واعتقله في قلعة أوبييدو . ولكن هذا الفشل لم يفت في عضد المتآمرين ، فدبروا مؤامرة جديدة برياسة الملكة خميئا ، وهي امرأة ذات أطياع تهيم بالسلطان ، واشترك في تدبيرها الكونت نونيو صاحب برغش وأولاد الملك الثلاثة وهم : أردونيو وفرويل وجند سالفوس ، وانضم إليهم قسم من الجيش وفريق كبير من الشعب ، وسيطروا على كثير من المعامل . وخشى ألفونسو عاقبة الحرب الأهلية فقبل شروط الوار ، ونزل عن العرش لولده الأكبر غرسية ، وعين أردونيو حاكماً لحليقية ، وفرويل حاكماً لأشتوريش ، ووقع ذلك في سنة ٩١٠ م ، وبذا اختتم ألفونسو عهده الذي استطال أربعة وأربعين عاماً . ولم يمض قليل على ذلك حتى توفي في شهر أكتوبر من نفس العام وقد جاوز الثامنة والخمسين من عمره^(٢) .

Aschbach : ibid, B. I. s. 346 & 352 (١)

Crónica General: ibid, Vol. II. p. 382 (٢)

وتشيد الرواية لخلال ألفونسو الثالث ، وتصفه بالخزم والشجاعة ، وتقول لنا إنه كان خصماً عنيداً للمسلمين شديد الوطأة في محاربتهم ، ولكنه حينما عقد السلم مع حكومة قرطبة احترام عهده والتزم الوفاء به . وكان ألفونسو في الوقت نفسه نصيراً للآداب والعلوم يجزل صلاته لأهل العلم ، وكان من سعة أفقه أن عهد بترية ولده أردونيولى بعض العلماء المسلمين^(١) ، وكان حسباً أسلفنا تقياً ورعاً يخص الكنيسة بأوفر رعايته وعطائه ، وقد أنشأ كثيراً من الكنائس والأديار ، وأبني كنيسة شنت ياقب الشهيرة . وقد رأينا كيف حمله إسرافه في الإغداق على الكنيسة ورجال الدين ، على المبالغة في فرض الضرائب على الضياع ، فكان ذلك من عوامل الإنتقاض والثورة على سياسته ؛ وبذل ألفونسو جهوداً كبيرة في تحصين مدن الحدود ، وفي مقدمتها برغش وسمورة وسيانقة (شنت منكش) ، وزودها بالسكان والجند ، لكي تغدو سداً منيعاً ضد غزوات المسلمين .

ومنذ وفاة ألفونسو تسمى المملكة الإسبانية النصرانية مملكة ليون ، بعد أن كانت تسمى مملكة أشتوريش وجليقية ؛ وقد نقل ابنه وخلفه غرسية قاعدة المملكة من أوبيدو إلى مدينة ليون لتوسط موقعها بين جليقية وأشتوريش ؛ وتسبغ الرواية النصرانية على ألفونسو الثالث لقب (ألفونسو الكبير) El magno ، لما امتازت به المملكة النصرانية في عهده من القوة والنهوض والاتساع ، وما تمتعت به خلال عهده الطويل من السلم والرخاء .

— ٤ —

إلى جانب مملكة أشتوريش أو مملكة ليون الإسبانية الشمالية ، كانت تقوم في غربي البرنيه في بلاد البشكنس الجبلية ، إمارة أو مملكة نصرانية أخرى هي مملكة ناغار (نبرة) . ويحيط الغموض بأصل هذه المملكة الصغيرة ونشأتها . وكل ما نعرفه من ذلك هو أن قبائل البشكنس ، كانت حتى أواخر القرن الثامن الميلادي تخضع لبعض السادة الإقطاعيين التابعين لمملكة الفرنج ، وربما حكمها دوقات كانتابريا أو أمراء أشتوريش . وكانت قاعدتهم مدينة بنبلونة الحصينة ، التي حكمها المسلمون ردحاً من الزمن ، ثم فقدوها في أواخر القرن الثامن أيام غزوات الفرنج لاسبانيا الشمالية . وكانت بلاد البشكنس أو ناغار منذ الفتح ميداناً للغزوات

الإسلامية والفرنجية . وقد حاول أمراء جليقية غزوها غير مرة ، وضمها إلى المملكة النصرانية . ولكن قبائل البشكنس كانت تتفانى دائماً في الذود عن استقلالها . ولما شغلت المملكة النصرانية بمنازعاتها الداخلية ، لبثت نافار مدى حين مقصد الصوائف الإسلامية ، واجتاحها المسلمون مراراً .

وفي نهاية القرن الثامن الميلادي في نحو سنة ٧٩٩ م ، ظهر في نافار زعيم من السادة يدعى أزوار وجعل نفسه أميراً مستقلاً . ولما توفي سنة ٨٣٦ م خلفه أخوه سانشو . ولكن أميراً آخر من الزعماء البشكنس هو غرسية إنيجيز بن إنيجو أريستا تغلب عليه وانتزع منه الإمارة . وتعرف الرواية الإسلامية إنيجو أريستا هذا وتسميه « ونقه بن شايخه ملك البشاكسة »^(١) . وهنا تبدو نافار لأول مرة في صورة المملكة المستقلة ، ويبدأ ثبت ملوكها المتعاقبين . ومما يجدر ذكره أن مملكة نافار الناشئة ، رأت أن ترتبط برباط التحالف والمصاهرة مع إمارة إسلامية مجاورة هي إمارة بني قسي سادة الثغر الأعلى ، وهم حسبنا قدما يرجعون إلى أصل نصراني أوقوطي . وقد تزوج إنيجو أريستا رأس الأسرة النافارية بأرملة موسى بن فرتون ابن قسي ، وتزوج موسى بن موسى من ابنة غرسية إنيجيز ، وتزوج غرسية وإخوته من بنات لب بن موسى بن فرتون ، وتزوج بعض إخوة موسى وأبنائه من بنات أمراء نافار^(٢) .

وهكذا كانت وشائج التحالف والمصاهرة تربط بين الأسرتين المسلمة والنصرانية ، وتوثقت هذه الوشائج واستطالت دهوراً . وكذلك رأى غرسية إنيجيز أن يتحالف مع عمر بن حفصون زعيم الفتنة في الأندلس . وكانت علائق نافار بجارتها المملكة النصرانية الكبيرة أو مملكة ليون يشوبها الكدر . ذلك أن مملكة نافار الصغيرة كانت دائماً تخشى مطامع ليون وغدرها ، وقد حارب غرسية إنيجيز أردونيو ملك ليون ، إلى جانب صهره موسى بن موسى ، في موقعة البلدة وقتل سنة ٨٦٢ م حسبنا أسلفنا .

وخلف غرسية ولده فرتون الذي لبث أسيراً في قرطبة ردحاً طويلاً . ثم خلفه ولده سانشو غرسية . وفي رواية أن سانشو هذا لم يكن ولداً لفرتون أو لغرسية

(١) راجع جبهة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٦٨ .

(٢) جبهة أنساب العرب ص ٤٦٨ .

ولم يكن من أمراء البيت المالک ، ولكنه متغلب من نوع آخر انتزع الملك لنفسه . وعلى أى حال فقد استقر سانشو غرسية ملكاً على نافار . وهو أول من تلقب من أمراء نافار باللقاب الملك ، وبه تبدأ مملكة نافار الحقيقية . وقد حكم سانشو حتى سنة ٩٢٦ م ، وخاض مع المسلمين أيام الأمير عبدالله عدة حروب ووقائع ، وشغل حيناً بقتال بنى قسى الذين تصرمت علائقهم مع مملكة نافار ، وهاجم لب ابن محمد بن لب زعيم بنى قسى نافار غير مرة ، ونشبت بينه وبين سانشو على مقربة من بنبلونة وقائع متوالية انتهت بهزيمة لب ومقتله فى سنة ٩٠٧ م ، فخلفه أخوه عبدالله فى رئاسة تطيلة وما جاورها ، واستمر فى محاربة نافار وهزم سانشو فى سنة ٩١١ م ، ونقول الرواية الإسلامية إن شانجه بن غرسية البشكنسى صاحب بنبلونه أعنى سانشو غرسية ، غزا مدينة تطيلة فى سنة ٣٠٣ هـ (٩١٤ م) ، فقتل كثيراً من المسلمين ، وأسر أميرها عبد الله بن محمد بن لب بن موسى القسوى . فدخلها أخوه مطرف بن محمد فى اليوم التالى ، وقام مكان أخيه . وقد كان عبد الله وأخوه مطرف من أبطال الثغر الأعلى ، وكانت لهما غزوات عديدة مظفرة فى أراضى النصارى^(١) . وشغل سانشو أيضاً بقتال الطويل وغيره من زعماء الثغر الأعلى حسبما فصلنا ذلك فى موضعه . وسنعرض فى فصل قادم إلى حروبه مع عبد الرحمن الناصر .

(١) المقتبس لابن حيان - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية بالرباط لوحة ١٦١ ، وهو الذى أشرنا فى مقدمة الكتاب إلى اكتشافه بين محفوظات الخزانة الملكية .

فهرست الموضوعات^(١)

صفحة

مقدمة ٥

الكتاب الأول

فتوح العرب في إفريقية والأندلس وغاليس

وعصر الولاة في الأندلس

الفصل الأول :	فتوح العرب في إفريقية.	١٤
الفصل الثاني :	إسبانيا قبل الفتح الإسلامي .	٢٧
الفصل الثالث :	فتح إسبانيا	٣٨
الفصل الرابع :	إسبانيا بعد الفتح الإسلامي	٦٣
الفصل الخامس :	غاليس بين العرب والفرنجة	٧٧
الفصل السادس :	بلاط الشهداء.	٩٢
الفصل السابع :	الأندلس بين المد والجزر ..	١١٢
الفصل الثامن :	الحرب الأهلية ..	١٢٢
الفصل التاسع :	خاتمة عصر الولاة	١٢٩

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الأول - عصر الإمارة

من عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن بن عبد الحكم

(١) رأينا أن نكتب بأن نثبت هنا فهرس الموضوعات والخرائط لهذا القسم الأول من الكتاب .
أما ما عدا ذلك من الملاحق والفهارس المختلفة الأخرى ، فسوف نثبتها في نهاية القسم الثاني من الكتاب .

صفحة

٠٠٠	الفصل الخامس : المملكة الإسبانية النصرانية.
٣٥٣	خلال القرن التاسع الميلادى

* * *

فهرست الخرائط

...	١ —	خريطة عامة لإسبانية المسلمة (موضوعة فى فاتحة الكتاب)
٤٣	٢ —	موقعة وادى لكه وخط سير طارق .
١٧٩	٣ —	مواقع غزوة شارلمان لسرقسطة ومعركة باب الشزرى
٢١٧	٤ —	المملكة الإسبانية النصرانية
٣٢٧	٥ —	موقعة بلای ومنطقة ثورة ابن حفصون

دولة الإسلام في الأندلس

الخلافة الأموية والدولة العمارية

تأليف

محمد عبد الله غنيان

العصر الأول - القسم الثاني

الناشر مكتبة النخاعي بالقاهرة

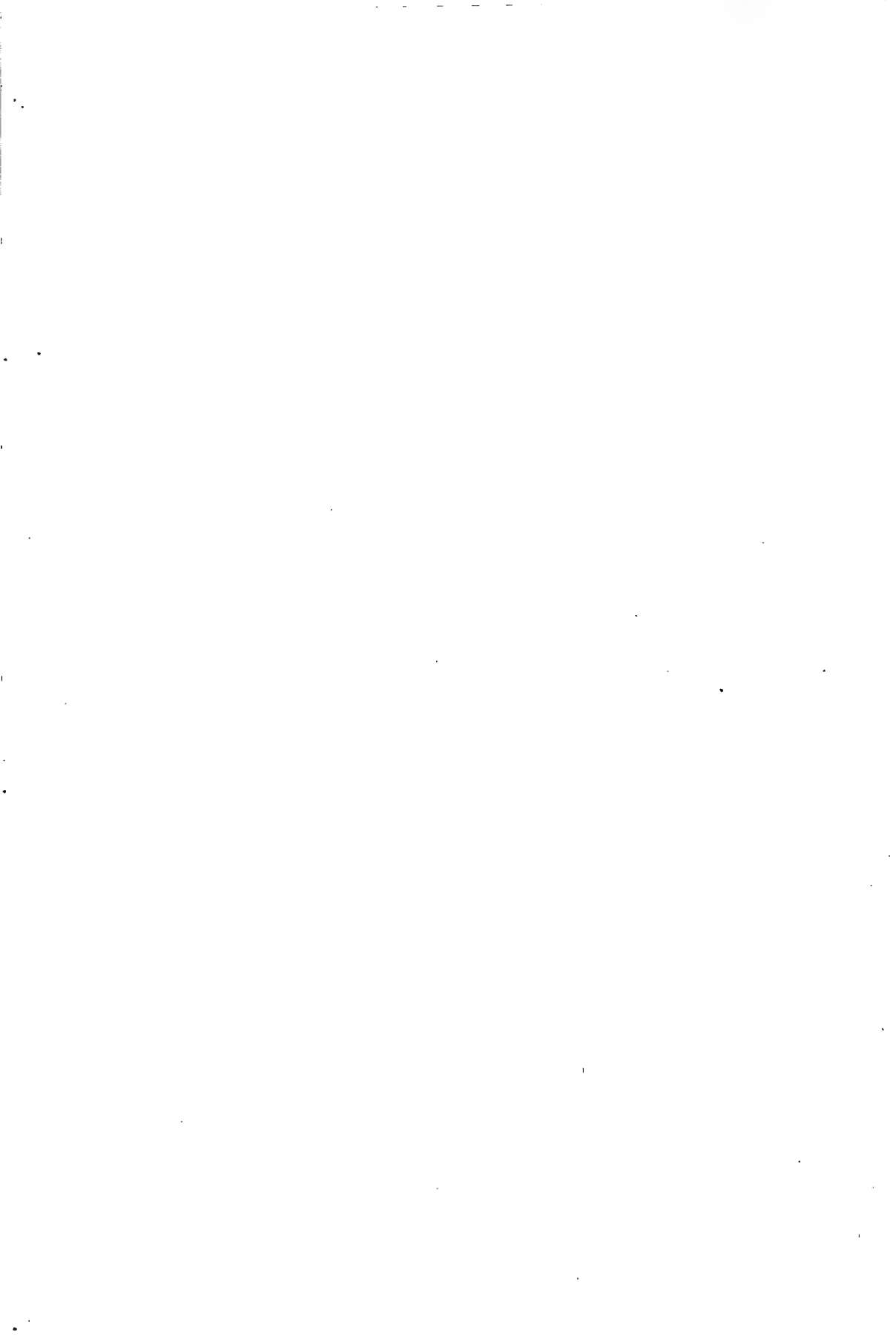
حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

رقم الإيداع : 90/8988

الترقيم الدولي : 4-082-505-977



الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الثالث

عبد الرحمن الناصر

وقيام الخلافة الأموية بالأندلس

٣٠٠ - ٣٥٠ هـ - ٩١٢ - ٩٦١ م

الفضل الأول

ولاية عبد الرحمن الناصر وقيام الخلافة الأندلسية

ولاية عبد الرحمن حفيد الأمير عبد الله . نشأته وحداثته . أخذ البيعة له . حزمه في معالجة الثورة . غزو قلعة دباح وإخضاعها . خروج عبد الرحمن لغزو الثوار . غزوة المنتلون . غزوه لمعاقل ابن حفصون في ريه وإلبيرة . سحق الثورة في إشبيلية . عوده لغزو كورة ريه . محاصرته لقرمونة وإخضاعها . مولد ولي العهد الحكيم . القحط بالأندلس . أقوال ابن حيان . إخضاع أوريولة ولبللة . ابن حفصون يطلب الصلح ويحاج إليه . عهد الناصر له . وفاة عمر بن حفصون . مبالغة النقد الغربي في تصوير شخصيته . أبنائه يخلفونه في معاقله . مطاردتهم وإخضاع ببشتر آخر معاقلم . استخراج جثة الثائر وصلبها . إعدام ابنته أرختنا . كتاب الناصر عن فتح ببشتر . محاصرة طليطلة وإخضاعها . إخضاع بطليوس ونهاية بني الحلق . إخضاع بني ذى النون . تمزيق الثوار في شرقي الأندلس . إسبانيا النصرانية وتربصا بالأندلس . عيث النصارى في أراضي المسلمين . غزو أردونيو ليابرة وماردة وبتليوس . غزو المسلمين لأراضي ليون . موقعة شنت إشتين وهزيمة المسلمين . عود المسلمين إلى غزو ليون . موقعة مطانية وهزيمة النصارى . مسير عبد الرحمن إلى ليون . استيلاؤه على أوسمة وشنت إشتين . توغله في أراضي نافار . موقعة جونكيرو وهزيمة النصارى . إستيلاء النصارى على بقيرة وفتحهم بالمسلمين . مسير عبد الرحمن إلى الثغر الأعلى . غزوه لنافار واستيلاؤه على بنبلونة . هزيمة النصارى . وفاة أردونيو وولاية ولده راميرو . راميرو يشجع ثوار طليطلة . محاصرة للناصر لطليلة . محاولة راميرو لإنجاده . سقوطها في يد الناصر . غزو الناصر لقشتالة . مسيره إلى أوسمة . التماس طوطة للصلح . غزو ألبية والقلاع . غزوة بحرية إسلامية للثغر الفرنجي . الصلح بين الناصر وراميرو . تحالف بني هاشم أصحاب الثغر الأعلى مع النصارى . مسير عبد الرحمن إلى مقاتلة الثوار . محاصرته لسرقطة . خروج أمية بن إسحاق والتجاذف للنصارى . سقوط سرقطة وخضوع محمد بن هاشم . عهد الناصر له بالأمان . غزو عبد الرحمن لنافار وخضوع ملكها طوطة . تأهب عبد الرحمن لمحاربة راميرو . نفوذ الصقلية في القصر والجيش . مسير عبد الرحمن إلى ليون . تحالف ليون ونافار . زحف عبد الرحمن على سمورة . موقعة الخندق وهزيمة المسلمين . أقوال الروايات العربية . رواية المسعودي . رواية ابن حيان . كتاب الناصر عن الغزوة . رواية ابن الخطيب . الروايات النصرانية . رواية ألفونسو الحكيم . الروايات الأخرى . آثار الموقعة . عود المسلمين لغزو ليون . وفاة راميرو وجيوس أردونيو . الصلح بين الأندلس وليون . بعض الحوادث الداخلية . حريق قرطبة . المحل والقحط . الدعوة الفاطمية واجتياحها للمغرب . جزع حكومة قرعة . استيلاء عبد الرحمن على سبتة . خضوع المغرب الأقصى لعبد الرحمن . خطر الفاطميين على الأندلس . السفن الفاطمية تغزو ألمرية . غزوات عبد الرحمن لشواطئ المغرب . أثر الدعوة الفاطمية في بث فكرة الخلافة الأندلسية . عبد الرحمن يتخذ سمة الخلافة . الوثيقة الخاصة بذلك . ابن مسرة . حركته وحقيقة أمرها . أقوال ابن حيان عنها . مطاردة متحليها . كتاب الناصر في شأنها .

مضى زهاء قرن منذ استقر ملك بني أمية بالأندلس ، وتوطدت أسس الدولة الحديدية ، وأخذت تزدهر وتزدهر في عهد عبد الرحمن بن الحكم . ولكن عوامل الإنتفاض والتفكك ، سرت فجأة إلى هذا الصرح القوي ، ولبثت الأندلس مدى النصف الأخير من القرن الثالث الهجري (أواخر القرن التاسع الميلادي) تضطرم بسلسلة لا نهاية لها من الثورات والفتن ، حتى لاح مدى لحظة أن ملك بني أمية أضحى على وشك الانهيار .

توفي الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن أمير الأندلس في مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩١٢ م) بعد حكم طويل عاصف ، مزقت فيه أوصال المملكة ونضبت مواردها ، فخلفه في نفس اليوم على العرش حفيده عبد الرحمن ابن ابنه محمد ، غير متجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، وذلك بالرغم من وجود أعمامه وأعمام أبيه . وكان الأمير عبدالله قد اختار محمداً أكبر أولاده لولاية عهده ، فوجد عليه أخوه المطرف وقتله حسبما تقدم . وولد عبد الرحمن قبيل مقتل أبيه بأسابيع قلائل في ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هـ (ديسمبر سنة ٨٩٠ م) وأمه جارية إسبانية نصرانية تدعى ماريّا أو مزنة حسبما تسميها الرواية العربية ، فنشأ الطفل اليتيم في كفالة جده مرموقاً بعين العطف والرعاية ، وأسكنه جده معه بالقصر دون ولده . وما كاد يبلغ أشده حتى ظهرت نجابته ، وأبدى بالرغم من حدائته تفوقاً في العلوم والمعارف إلى درجة تسمو على سنه ؛ ودرس القرآن والسنة وهو طفل لم يجاوز العاشرة ، وبرع في النحو والشعر والتاريخ ، ومهر بالأخص في فنون الحرب والفروسية ، وأقبل عليه جده الأمير بنحبه بحبه وثقته ، ويرشحه ل مختلف المهام ، ويندبه للجلوس مكانه في بعض الأيام والأعياد لتسليم الحند عليه ؛ وهكذا تعلق آمال أهل الدولة بهذا الفتى النابه ، وأضحى ترشيحه لولاية العهد أمراً واضحاً مقضياً ، بل يقال إن جده قد رشحه بالفعل لولاية عهده وذلك بأن برئ بخاتمه إليه ، حينما اشتد عليه المرض إشارة منه باستخلافه (١)

(١) وردت هذه التفاصيل الأخيرة في أوراق مخطوطة عن بداية عهد الناصر ، نشرت بعناية الأستاذ ليث بروفتنسال بعنوان : *Una Crónica Anónima de Abd Al-Rahman III* ،

وما كاد الأمير عبدالله يسلم أنفاسه الأخيرة حتى بويع حفيده عبد الرحمن بالملك . وجلس عبد الرحمن للبيعة ، يوم الخميس غرة شهر ربيع الأول في قاعة « المجلس الكامل » بقصر قرطبة ، فكان أول من بايعه أعمامه ، وأعمام أبيه ، وتلامه أخوة جده ، وقد مثلوا أمامه وعليهم الأردية والظواهر البيض عنوان الحزن على الأمير الراحل ، وتكلم بلسانهم عمه أحمد بن عبدالله فقال : « والله لقد اختارك الله على علم للخاص منا والعام ، ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا ، فأسأل الله إيزاع الشكر ، وتمام النعمة ، وإلهام الحمد » . وتتابع للبيعة بعد ذلك وجوه الدولة والموالي ، ثم أهل قرطبة من الفقهاء والأعيان ، ورؤساء البيوتات ، واستمرت بيعة الخاصة على هذا النحو حتى الظهر ؛ وعندئذ نهض الأمير الجديد فصلى على جثمان جده ، ثم وراه في مدفنه بالروضة ، ومعه الوزراء ورجال الدولة . وجلس لتلقى البيعة في المسجد الجامع صاحب المدينة الوزير موسى بن محمد بن حدير ، والقاضي أحمد بن زياد اللخمي ، وصاحب الشرطة العليا ابن وليد الكلبي ، وصاحب الشرطة الصغرى ، أحمد بن محمد بن محمد بن حدير ، وصاحب أحكام السوق محمد بن محمد بن أبي زيد ، فاستمرت بضعة أيام . وكذلك أنفذت الكتب بأخذ البيعة إلى العمال في سائر الكور ، وأخرج الأمناء إلى البلاد لأخذها ، وتتابع الردود بإنجازها من جميع النواحي^(١) . وساد البشر يوم البيعة في القصر والمدينة ، وتوسم الجميع في الأمير الفتى آيات العظمة واليمن ، وعلقوا على ولايته أكبر الآمال . وفي ذلك يقول معلمه شاعر العصر ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، يوم أن تولى عبد الرحمن الملك في مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ :

بدا الهلال جديداً	والملك غص جديداً
يا نعمة الله زيدي	ما كان فيك مزيد
إن كان للصوم فطر	فأنت للدهر عيد
إمام عدل عليه	تاجان : بأس وجود
يوم الخميس تبدى	لنا الهلال السعيد
فكل يوم خميس	يكون للناس عيد

وكانت الأندلس عندئذ أشد ما تكون حاجة إلى السكينة بعد أن هزتها الثورة

(١) الأوراق المخطوطة الخاصة بمهد الناصر ص ٣١ .

إلى الأعماق ، وتجاذبتها الأعاصير من كل صوب ، وكان الأمير الفتي يرى أن خطة التردد والرفق التي اتبعها أجداده نحو الزعماء الخوارج كانت سياسة خطيرة ، ولم تكن ناجعة ، وأنه لابد لاستتباب الأمن واستقرار السكينة ، من سحق الثورة وزعمائها بأى الوسائل . ومن ثم فإنه لم تمض على جلوسه أسابيع قلائل حتى بعث حملته الأولى إلى المناطق الثائرة بقيادة الوزير عباس بن عبدالعزيز القرشي ، فقصدت إلى منطقة قلعة رباح وكان قد ثار بها الفتح بن موسى بن ذى النون من زعماء البربر ، ومعه حليفه الرياحي المعروف بأرذبلش ، ف وقعت بين جند الأمير وبين العصاة معارك شديدة ، هزم فيها الفتح بن موسى ، وارتد مغلولاً إلى معاقله ، وقتل أرذبلش ، وبعثت رأسه إلى قرطبة ، ف رفعت فوق باب السدة ، وطهرت قلعة رباح وأحوازاها من الثورة ، وذلك في شهر ربيع الآخر^(١) . وسارت حملة أخرى نحو الغرب ، واستردت مدينة إستجة من أيدي العصاة أتباع ابن حفصون (جمادى الأولى) ، وهدمت أسوارها وقنطرتها الواقعة على نهر شنيل ، حتى تغزل وتغلو بذلك عاجزة عن التمرد والخروج .

وفي شعبان سنة ٣٠٠ هـ (مارس سنة ٩١٣ م) خرج عبد الرحمن للغزو وتولى القيادة بنفسه ، فأثار ظهور الأمير الفتي في الصفوف حماسة الجند وأكبروا شجاعته وإقدامه . وسار عبد الرحمن أولاً إلى الجنوب الشرقى ، ومعه جند كورة البيرة وزعمائهم ، وكان ابن حفصون قد نزعهم حصونهم ومعاقلمهم ، فالتجأوا إلى الأمير ، وألقوا بطاعتهم إليه ، واتجه صوب كورة جيان في وسط الأندلس ، حيث كانت الثورة على أشدها ، وحيث كان ابن حفصون أخطر الزعماء الخوارج يبسط سلطانه على طائفة من الحصون القوية ؛ فاستولى على حصن مرتش الواقع في طريق جيان ، وسير في نفس الوقت بعض قواته إلى مالقة لإنجادها ، وكان يهددها الزعيم الثائر ، فاحتلتها وأمنها . وقصد عبد الرحمن بعد استيلائه على مرتش ، إلى حصن مونت ليون (حصن المتلون) القريب منها ، وكان يتمتع به زعيم من المولدين هو سعيد بن هذيل ، فضربه بشدة ، وهاجمه حتى اقتحمه ، وأذعن الزعيم الثائر إلى التسليم والطاعة ومنح الأمان (رمضان سنة ٣٠٠ هـ) . وتعتبر هذه الغزوة أول غزوات عبد الرحمن ، وتسمى عادة بغزوة المتلون .

وانجى عبد الرحمن بعد ذلك إلى حصن شمتان ، الواقع على مقربة من بياسة ، وبه عبد الله بن الشالية ، فاستسلم الثائر دون مقاومة ، وطلب الأمان ، ونزل عن جميع حصونه ومعاقله . واستولى عبد الرحمن بعد ذلك على حصن منيتشة من يد صاحبه ابن عطاف . وافتتح سائر الحصون التي كانت بيد ابن حفصون من كورة جيان ، وظهرها من آثار الخروج والعصيان . وقدم إليه سائر الزعماء الخوارج طاعتهم ، فقبلها وعفا عنهم .

وسار عبد الرحمن بعد ذلك جنوباً إلى كورة ريث ، فاحتل منها سائر الحصون التي تدين بالطاعة لابن حفصون ، واقتحم أمتع هذه الحصون ، وهو حصن شبليس بعد قتال عنيف ، وقتل من كان به من أصحاب الثائر ، وفرأمامه جعفر ابن حفصون ليلاً ولحق بأبيه ، ثم استولى عبد الرحمن على حصن إشتين على مقربة من البيرة . وانجى بعد ذلك إلى وادي آش فاحتل حصونها ، ثم توغل في شعب جبل الثلج (سيراً نقاداً) وافتتح ما هنالك من المعقل والحصون . وحاول ابن حفصون أن يزحف على غرناطة ، فخرج إليه أهل البيرة ومعهم مدد من جيش عبد الرحمن فردوه على عقبه . وما زال عبد الرحمن يجول في تلك الأنحاء يخضع حصونها وينتسف أراضيها ، حتى قضى على كل عناصر الثورة والخروج فيها ، وبلغ ما استولى عليه في تلك الغزوة من الحصون زهاء سبعين حصناً من أمهات المعقل الثائرة ، ثم ارتد عائداً إلى قرطبة فوصلها في يوم عيد الأضحى بعد أن قضى في غزوته زهاء ثلاثة أشهر^(١) .

على أن هذه الجولة الأولى لم تكن إلا بداية الصراع المرير ، الذي كان على عبد الرحمن أن يضطلع به . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر أخرى حتى عادت عناصر الثورة تجتمع ، وتحفز ، وعاد ابن حفصون ينظم خططه وقواته . وكانت إشبيلية في مقدمة القواعد التي رفعت لواء الثورة ، وقام بها منذ أيام الأمير عبد الله ، بنو حجاج حسباً تقدم ، وأنشأوا بها إمارة مستقلة . وقد كانوا بالرغم من انحذارهم من أصل عربي ينتمون إلى المولدين من ناحية الأم ، ويشاطرونهم شعور الحفيظة ضد حكومة قرطبة . وكان عبد الرحمن يتوق إلى تحطيم سلطان أولئك المولدين ومن يمالئهم ، وقد أبدوا دائماً أنهم لا يدينون بالولاء للحكومة الإسلامية التي

(١) وردت تفاصيل هذه الغزوة في الأوراق المخطوطة الخاصة بم عهد الناصر ص ٣٥ - ٣٨ .

لم تلخر وسعاً في الرفق بهم ومعاملتهم دون تمييز أو إجحاف أو تحامل . وكان زعيم إشبيلية إبراهيم بن حجاج قد توفى ، وخلفه في حكمها ولده عبد الرحمن ، وخلفه في حكم قرمونة ولده محمد . ولما توفى عبد الرحمن في المحرم سنة ٣٠١ هـ ، تطلع أخوه محمد إلى أن يحكم إشبيلية من بعده ، ولكن أهل إشبيلية اجتمعوا حول زعيم قوى آخر هو أحمد بن مسلمة وهو أيضاً من بني حجاج وقدموه لحكمها ، وسبق محمداً إلى الاستيلاء عليها . فسار محمد إلى قرطبة ، وقدم طاعته إلى عبد الرحمن ، فقتلها وأوفد معه الجند بقيادة الحاجب بدر ، فحاصر إشبيلية ثم استولى عليها في جمادى الأولى سنة ٣٠١ هـ وهدم أسوارها ، وندب لها عبد الرحمن والياً من قبله ، وانتهت بذلك ثورة العرب والمولدين في إشبيلية .

وفي شوال سنة ٣٠١ هـ (مايو سنة ٩١٤ م) خرج عبد الرحمن في غزوته الثانية ، وقصد إلى كورة ريه والجزيرة . وكان ابن حفصون زعيم ثورة المولدين قد عاد فبسط حكمه على تلك الأنحاء ، وعادت الثورة تضطرم فيها . وبدأ عبد الرحمن بحصار قلعة « طرُش » في شرق مالقة ، ثم سار إلى حصون ريه ومعاقلها يفتتحها تباعاً ، وهنا قدم ابن حفصون على رأس قواته والتقى بعبد الرحمن أمام قلعة طرُش ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها كثير من جند ابن حفصون وحلفائه النصاري ، وارتد الثائر بفلوله صوب الغرب ، واستطاع أسطول عبد الرحمن أن يضبط عدة سفن محملة بالموثون كانت قادمة من عدوة المغرب لإمداد ابن حفصون وأن يحرقها . وزحف عبد الرحمن على منطقة الجزيرة الخضراء ، واقتحم حصن لورة الواقع بجوار الجزيرة ، ثم دخل الجزيرة الخضراء في أوائل شهر ذي القعدة سنة ٣٠١ (يونيه ٩١٤ م) . وسار عبد الرحمن بعد ذلك إلى شنونة ثم إلى قرمونة ، وكان حاكمها حبيب بن سودة قد ثار بها ، فحاصرها حتى سلم الثائر واستأمن ، ففتح الأمان ، وانتقل بأهله إلى قرطبة . بيد أنه نكث بعهده فيما بعد . ودخلت في طاعته سائر المعازل والحصون التي مر بها ، ثم عاد إلى قرطبة في شهر ذي الحجة بعد أن أصاب جبهة الثورة في تلك المرة بضرية شديدة وإن لم تكن قاضية . ومع أن عبد الرحمن كان يتوق إلى سحق الثورة بكل الوسائل ، فإنه لم يلجأ إلى قسوة لا مبرر لها ، بل آثر منذ البداية أن يتبع سياسة الرفق والتسامح نحو الزعماء والثوار الذين قدموا خضوعهم

وطاعهم ، فسمح للكثير منهم بالانتقال إلى قرطبة مع الأهل والولد ، وأجرى عليهم الأرزاق والأعطية ، وأبدى بالأخص نحو النصارى الذين أذعنوا إلى الطاعة منتهى الكرم والتسامح^(١) :

وفي سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) ، وقع حادث سعيد في البلاط القرطبي ، هو مولد ولي العهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر . وقد اختلف في تاريخ مولده ، فيقول الرازي إنه وقع في يوم الجمعة غرة رجب من هذه السنة . ويقول محمد ابن مسعود إنه وقع في يوم الجمعة ٢٤ من جمادى الأولى ، وأمه مرجان الرومية ، أم الولد الأثرية ، وقد سر عبد الرحمن بولادته أما سرور ، ونوه بها ، وأوسع الإنعام ، وتقدمت طبقات الناس إليه بالتهنئة . وأنشد الشعراء تهنيتهم ، فن ذلك قول الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه :

هلال نماه البدر واختاره الفجر	تلقت به شمس وأنجمه زهر
على وجهه سيم المكارم والعلی	فضاءت به الآمال وابتهج الشعر
سلالة أفراس وبيت خلايف	أكفهم بحر ونابلهم غمر
بدا لصلاة الظهر نجم مكارم	تحف به العليا ويكنفه الفخر
نماه إلى العليا خير خليفة	تتبه به الدنيا ويزهى به العصر ^(٢)

وفي أواخر سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) حل بالأندلس قحط شديد ، فعزت الأقوات وارتفعت الأسعار ، وأمر عبد الرحمن وزيره أحمد بن محمد بن زياد بالبروز بالناس للاستسقاء ، فبرز بهم يوم الإثنين ١٣ شوال (أول مايو) فنزل فيه رذاذ مملح وندى مبلل لم يكن له كبير أثر^(٣) ، وعمت المحنة سائر القواعد والثغور ، واستمرت خلال العام التالى (سنة ٣٠٣ هـ) ، وبلغت الشدة بالناس مبلغاً عظيماً ، وانتشر الوباء مع القحط ، وكثر الموت ، وهلك كثير من الرؤساء والوجهاء ، وكانت محنة قاسية شديدة الوطأة . ولم يدخر عبد الرحمن خلال تلك الآونة العصبية ، وسعاً في بذل المعونة والغوث لشعبه بتوزيع المؤن والصدقات الوفيرة . وحذا حذوه كثير من الكبراء وأهل الدولة ، فكان

(١) ابن حيان في السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية بالرباط) لوحة ٣٢ أ ،

و Dozy : Hist., Vol. II, p. 103

(٢) ابن حيان في السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٥٣ .

(٣) ابن حيان في السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٥٣ .

لمجهودهم أثر كبير في التلطيف من آثار المحنة . وكان لهذا الظرف أثره في تهدئة الثورة ، وقلت في عضد الثوار ، ولكن عبد الرحمن لبث مع ذلك متيقظاً يرقب حركاتهم بمخدر وأهبة .

وبحدثنا ابن حبان عن هذه المحنة في حوادث سنة ٣٠٣ هـ ، ويقدم إلينا عنها الصورة التالية :

« فيها كانت المجاعة بالأندلس التي شبت بمجاعة سنة ستين ، فاشتد الغلاء ، وبلغت الحاجة والفاقة بالناس مبلغاً لم يكن لهم عهد بمثلها ، وبلغ قفيز القمح بكل سوق قرطبة ثلاثة دنانير ، ووقع الوباء في الناس ، فكثر الموتان في أهل الفاقة والحاجة ، حتى عجز عن دفنهم ، وكثرت صدقات الناصر لدين الله في هذه الأزمة على المساكين وأهل الفاقة ، وعلى المتعفين عن المسئلة ، وصدقات أهل الحسبة من رجاله الموتسين فيه ، فنفع الله بهم كثيراً من خلقه . وكان حاجبه بلربن أحمد ، مدير دولته ، أفشاهم صدقة ، وأعظمهم مواساة ، فنعش الله به أمة . وعدا أصر هذه المجاعة وضيق الأحوال ، السلطان عن تجريد صايغة وإعداد جيش ، لما بالناس من الجهد . فأخذ الناصر لدين الله في شأنه بالوثيقة ، وعول على ضبط أطراف وتحصين بيضته ، والإرصاء لأهل الخلاف والخلعان خلال معاقلهم ، ومجال مسارهم ، إذ كانوا مع استيلاء المجاعة عليهم ، لا يفترون عن العدوان ، على من مربهم من رفاق المسلمين ، وطالبي المعيشة ، وجالبي الميرة ، فلم يجدوا منفذاً إلى ما طمعوا فيه من إشاعة ، ونفع الله بذلك . وعاث الموتان في هذه الأزمة ، فأودى بخلق من وجوه أهل قرطبة وعلمائهم وخيارهم » (١) .

وما كادت تنقش هذه الغمة حتى عاد عبد الرحمن إلى استئناف الغزو ، فسير قائده أحمد بن محمد بن أبي عبدة غازياً إلى أرض النصارى . وسوف نتبع غزوات عبد الرحمن لاسبانيا النصرانية مجتمعة فيما بعد . وسير وزيره إسحق بن محمد القرشي إلى كورتى تدمير وبلنسية ، فطارد فيهما أهل الخلاف ، وافتتح حصن أوربولة المنيع ، قاعدة تدمير التالد من يد الثوار ، ثم أخضع الثوار في مدينة الحامة . وغزا الحاجب بلربن مدينة بلبة ، وكان صاحبها الثائر عثمان بن نصر ممتنعاً بها .

فبعث إليه الحاجب بلاطفه ويذل الأمان له ولأصحابه ، ويعده بكل ما يحب ،
ولكن الثائر رفض كل عرض ، وأصر على العصيان ، فطوق بدر المدينة ،
وبرز له كثير من أهل الطاعة فأمّنهم ، وأبقاهم لديه ، وجد في مهاجمة عثمان
وأصحابه إلى أن اقتحم عليه المدينة يوم ٢٠ رمضان سنة ٣٠٣ هـ (فبراير ٩١٦ م) ،
وقبض على عثمان وصحبه وأرسلهم في الأصفاد إلى قرطبة ، وأمن أهل المدينة ،
ونظر في مصالحهم . وقد نظم ابن عبد ربه في فتح مدينة لبلة وفي مديح الناصر
والحاجب بدر قصيدة يقول فيها :

خليفة الله وابن عم رسول الله والمصطفى على رسله
منتك نعمى نمت سوابغها كما استتم الهلال في كبله
وجه ربيع أذاك باكره يرفل في حليه وفي حلاله
وأقبل العيد لاهياً جذلاً يختال في لهوه وفي جذله
نصر من الله تضمنه ينهض في ريثه وفي عجله
يجرى بشأو الأمام منصلتنا يسبق حضر الجياد في مهله
قد وقف النكث والخلاف بها وقوف صب يبكى على طله^(١)

وفي هذا العام ، سنة ٣٠٣ هـ ، وقع حادث داخلي هام ، هو جنوح
عمر بن حفصون ، أكبر ثوار الأندلس إلى الصلح والطاعة ، فبعث إلى الناصر
يخطب وده ، ويلتمس الصلح ، مستشفعاً بما كان منه في إيواء الأمير محمد
والد عبد الرحمن وحمايته ، حينما فر من أبيه الأمير عبد الله . وقام بالوساطة
في ذلك يحيى بن إسحق طيب عبد الرحمن ، وكان صديقاً لعمر بن حفصون ،
فبذل في سبيل ذلك جهده ، وعاونه الحاجب بدر لدى الناصر ، فاستجاب
الناصر لعقد الصلح مع عمر ، مع الحذر من غدره ومكره ، واتصل يحيى في
ذلك مع جعفر بن مقسم أسقف بيشتر ، وعبد الله بن أصبغ بن نبيل ، وودنا
ابن عطف ، وهم أكابر رجال ابن حفصون وخاصته ، وكانوا يميلون إلى عقد
الصلح والدخول في كنف الطاعة . وسار يحيى نفسه لمقابلة ابن حفصون ،
ووضع معه شروط الصلح ، وعاد إلى قرطبة ، وأقر الناصر تلك الشروط ،

(١) ابن حيان في السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٦١ ب و ٦٢ أ .

وعقد لابن حفصون على ذلك كتابة المشهور ، الذى خط فى أسفله بيده الأسطر الآتية :

« يا لله الذى لا إله إلا هو الطالب الغالب ، وجميع إيمان البيعة لازمتى من العهود المشددة ، والأيمان المؤكدة ، والمواثيق المغلظة ، لانقضت شيئاً مما جمعه هذا الكتاب تبديله ، ولا نقصان شيء منه ، ولا رضيت ذلك فى سر ولا جهر ، وأن كل ما فيه من الشروط والعهود والمواثيق لازمتى ، والله شهيد علينا ، وخططنا هذه الأحرف بيدنا ، وأشهدنا الله عز وجل على أنفسنا ، وكفانا بالله شهيداً ، ما وفى عمر بن حفصون بما نص فى هذا العهد وصحح فيه لإنشاء الله ، والله المستعان . »

ويقول لنا الرازى الذى يورد لنا نص هذه الوثيقة ، إن الحصون التى دخلت فى أمان عمر بن حفصون بمقتضى هذا الصلح ، وسميت فى كتاب العهد ، مائة واثنين وستين حصناً . واغتنب عمر بن حفصون بعقد هذا العهد مع الناصر أيما غبطة ، وبذل جهده وفى المحافظة على شروطه وأوضاعه ، وسر الناصر من جانبه بما أبداه ابن حفصون فى ذلك من دقة وإخلاص ؛ وقدم ابن حفصون بهذه المناسبة إلى الناصر هدية فخمة ، فتقبلها الناصر ، وحسن موقعها لديه ، وكافأ ابن حفصون عنها بأضعافها ؛ وعظم سرور ابن حفصون بها ، واستحكمت طاعته طول حياته . وكان هذا من أعظم العوامل فى تهدئة اضطرام الثورة ، وجنوحها إلى التبدد والانحيار^(١).

وكان حبيب بن سودة الثائر بقرمونة قد نكث بعهده ، وعاد إلى قرمونة ، وأظهر الامتناع بها ، فسير إليه عبد الرحمن الحاجب بدرأ فى حملة قوية ، فحاصر بئر قرمونة وضربها بالحجانيق بشدة ، ثم دخلها عنوة ، وقبض على حبيب وولده وأرسلهما فى الأصفاد إلى قرطبة (ربيع الأول ٣٠٥ هـ)^(٢).

وفى شهر ربيع الأول من العام التالى ، فى سنة ٣٠٦ هـ (سبتمبر ٩١٨ م)^(٣)

(١) ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحة ٥٦ ب و ٥٧ أ وب .

(٢) الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٥٥ و ٥٦ .

(٣) وفى رواية الرازى التى نقلها إلينا ابن حيان ، أن وفاة ابن حفصون كانت فى شهر شعبان سنة ٣٠٥ هـ - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحة ٦٥ أ .

وقع حادث كان له أكبر الأثر في تفكك عرى الثورة وانحلالها . ذلك هو وفاة عمر بن حفصون زعيم الثورة الكبرى ، ومثير ضرامها في غربي الأندلس ، توفي بعد مرض طويل ، في الثانية والسبعين من عمره . وكان ابن حفصون في الواقع أخطر ناثر عرفته الأندلس منذ الفتح ، وكانت ثورته تمثل أخطر العناصر التي لاتدين بالولاء للحكومة قرطبة ، وفي مقدمتها طائفة المولدين الذين ينتمى إليهم ، وهم ملالة القوط والنصارى الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح ، وغدوا جزءاً من الأمة الأندلسية . وكان أولئك المولدون بالرغم مما تسبغه عليهم حكومة قرطبة الإسلامية من ضروب الرعاية والتسامح ، يضمرون لها الخصومة والكيد ، ويتجهزون كل فرصة للخروج عليها . وكانوا يلقون العون دائماً من زملائهم النصارى المعاهدين رعايا الحكومة الإسلامية . وقد رأينا كيف دبر ابن حفصون حركته ونظم ثورته في المناطق الجنوبية الغربية ، فيما بين رندة ومالقة ، وقد كانت فضلاً عن وعورتها ومناعتها الطبيعية ، تضم كثرة من المولدين والنصارى ، وكان من هؤلاء معظم أنصاره وجنده . ولم ير ابن حفصون نفسه وهو يرجع إلى أصل نصراني ، بأساً من أن ينبذ الإسلام ويرتد إلى النصرانية لكي يذكى حماسة أنصاره . وهكذا كانت وفاة هذا الناثر الخطر ضربة شديدة للثورة ، وتنفست حكومة قرطبة لوفاته الصعداء ، بعد أن شغلها زهاء ثلاثين عاماً .

قال الرازي : « وكان أول قيامه بالفتنة ، وصدعه عصي الجماعة ، وامتناعه بقلعة ببشتر منبر المعصية ، من ثلاثين سنة ، ركب فيها من العيث في الخلق ، والفساد في الأرض بغير الحق ، ما لم يركبه مارق بالأندلس ، منذ دانت للمسلمين ، فعد مهلكة فاتحة الإقبال ، وطالعة السعد ، واجتثاث الفتنة » (١) . وقد بالغت التواريخ النصرانية في تصوير ثورة عمر بن حفصون الطويلة المدى ، واعتبارها ثورة قومية تهدف إلى غاية وطنية سامية ، وهي تحرير وطنه — إسبانيا — من نير المتغلبين عليه ، وأنه كان في مناوئته لحكومة قرطبة الإسلامية يجيش بهذه النزعة ، ويهدف إلى هذه الغاية . وعمل النقد الحديث على إبراز هذه الصورة ، وعلى اعتبار ابن حفصون بطلا قومياً ، جديراً بالتقدير والاحترام .

(١) ابن حيان في المقتبس — السفر الخامس — لوحة ٦٥ ب .

وهذا ما نقرأه في تعليقات بعض أكابر النقدة المحدثين أمثال دوزى وسيمونيت ، وذلك بالرغم من كونهم لم ينسوا أن يذكروا في نفس الوقت أن ابن حفصون قد نشأ سفاهاً وقاطعاً للطرق ، لا تحدوه أية نزعة وطنية أو غاية مثلى . بيد أن سيمونيت ، وهو مؤرخ النصراني المستعربين ، يحاول أن يبرر حسن تقديره وتصويره لحركة ابن حفصون ، بأن قيامه اتخذ فيما بعد « شكلاً أكثر نبلاً ، وتحول من زعيم عصابة إلى زعيم حزب وأمة »^(١) . ويصفه دوزى بأنه « البطل الإسباني الذي لبث أكثر من ثلاثين عاماً يتحدى المتغلبين على وطنه ، والذي استطاع مراراً أن يجعل الأمويين يرتجفون فوق عرشهم » وأنه « كان بطلاً خارقاً لم تنجب إسبانيا مثله منذ أيام الرومان »^(٢) . أما نحن فنرى في مثل هذه الآراء مبالغة وإغراقاً ، وأنها ليست إلا ثمرة نزعة من التعصب الديني والجنسي ، الذي يطبع النقد الغربي ، في كثير من المواطن ، وأن ابن حفصون بالرغم من صلابته وقوة عزمه ، وبراعة خططه ، لم يكن سوى قاطع طريق ، وثائر من طراز قوى عنيف . أجل إن ابن حفصون ، كان يدعم منذ اشتد ساعده ، إلى ما يسميه قضية الاستقلال والحرية ، وتحرير مواطنيه من نير المسلمين ، بيد أنه لم يكن في هذا الزعم سوى مخادع سياسي ، يسعى إلى كسب الصخب والأنصار لتقوية مركزه ، ودعم سلطانه ، ولم يكن يصدر في مغامراته وحروبه أو في أعماله خلال ثورته الطويلة ، عن أية نزعة نبيلة ، أو تصرف تطبعه الشهامة ، والعزة القومية ، بل كانت أعماله وتصرفاته كلها ، بغى صراح ، وإجرام في إجرام . وامتهان لكل المبادئ الأخلاقية ، وكل مقتضيات الشرف والمروءة والشهامة . ومن كان هذا شأنه ، فإنه من التعسف أن تُسبغ عليه صفات البطولة ، وثوب التحرير والوطنية .

وترك ابن حفصون أربعة بنين ، هم سليمان وعبد الرحمن وجعفر وحفص ، وابنة هي « أرختا » ، وكان له ولد آخر هو أيوب أتهمه أبوه عندما اعتل ذات مرة ، بمحاولة الفتك به وقتله^(٣) . فقام سليمان في أبيه ، وقام جعفر مكان أبيه في ببشر بعهد منه ، وكان أبوه قد قلده عهده في حياته ، وأخذ له البيعة في

(١) راجع : J. Simonet : *Histoire de los Mozarabes de Espana* (Madrid : 1897) p. 516

(٢) Dozy : *Histoire* ; V. II. p. 106

(٣) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٢ ؛ ونقط العروس لابن حزم ص ٧٩ .

وأخيراً ، فأظهر جعفر يوم موت أبيه لجميع نصارى بيشر أنه يعتقد دينهم ، ويدين بالنصرانية معهم ، وزعم أن أباه كان يعتقد ذلك ولا يظهره ، وجمع إلى نفسه ثقاته منهم ، مع القسيسين والرهبان دون سائر الناس ، فتولوا تجهيز والده معه ، ودفنه على سنة النصارى ، بعد أن أمر بسد باب القصة ، وحجاب باقى الناس من نصارى وغيرهم ، ولاطف جعفر لإخوته ، ووعدهم بالحميل حتى سلموا له ، قال الرازى : « وكان جعفر فى ذاته متهوراً خفياً ، جباناً ضعيف السيا ، ذميماً ، جسوراً حقوداً ، منافساً لمن يعمل عنده ، كئوداً لمن استرسل بإليه ، موالفاً للسفال ، مستصحباً للأرذال ، لم تسم همته إلى مروءة ، ولا انطوت نيته على جميل ، ولا عرف قدر ما مهد له والده مع السلطان من فراش الصلح ، وبسط من ظلال الأمن ، بالتسجيل له على أعماله ، وإمضاء ذلك بعده لعقبه ، بل غمط النعمة عليه ، ورفض الساعين فيه لأبيه ، وعقد شهادات جماعة من السفلة والطفام ، على ابن مقسم الأسقف وابن نبيل وابن عطف حاجبيه ، فلنهم سعوا فى الغدر بوالده عند السلطان ، وأرادوا لإراحة سلطانه عن ولده بعده » (١) .

بيد أنه لم تمض أشهر قلائل حتى سير عبد الرحمن قواته إلى أبدة فاقتحمها وأسر سليمان ، وأخذ إلى قرطبة حيث عفا عنه عبد الرحمن وضمه إلى جيشه ؛ وكذا استسلم عبد الرحمن بن حفصون ، وكان ممتنعاً بحصن طرُش ، وكان أخوه جعفر صاحب بيشر ، قد ضايقه ، وحاول أن ينتزع منه طرُش ، فالتجأ عندئذ إلى الأمير ، وأذعن للطاعة ، على أن يسلم حصنه ويمنح الأمان لنفسه وأهله ، فأجابه الأمير إلى ما طلب ، وتسلم منه الحصن ، واستقدمه إلى قرطبة وأجرى عليه الصلات ، وكان أديباً شاعراً . واستبد جعفر بحكم بيشر وما حولها ، وأثر عبد الرحمن أن يهادنه مدى حين ، وأن يقره على أعماله . وفى سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) قتل جعفر فى بيشر ضحية مؤامرة قيل إنها من تدبير أخيه سليمان ، وقيل من جهة أخرى إنه رأى أن يعود إلى الإسلام اكتساباً لمودة السكان والجنود المسلمين ، فاغتاله نفر من جنده النصارى (٢) . فقام أخوه سليمان مكانه فى بيشر ، وأقره عبد الرحمن

(١) ابن حيان فى المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزنة الملكية - لوحة ٦٥ ب

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٨٩ ، وراجع : Dozy : Hist.,

على ولايته ، ولكنه نكث عهد الطاعة ، فسار عبد الرحمن لقتاله وحاصره مدى حين ، وكان أصحاب سليمان يحصن طرثش ، قد نبذوا الطاعة مثله ، فسار عبد الرحمن إلى طرثش ، ونازلهم ، ثم ترك قوة استمرت في حصارهم ، حتى أذعنوا إلى الطاعة ، وسلموا الحصن بالأمان ، وأمر عبد الرحمن بتخريبه وتسويته بالأرض . ثم سار عبد الرحمن لحصار سليمان مرة أخرى في سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) ، وخرب سائر المناطق التي يسيطر عليها الثائر ، وأخضع معظم حصونها ، واعتصم سليمان بجبل بْبِشْتَر ، فنازله عبد الرحمن ، واشتد في محاصرته ، حتى ضاق الثائر وصحبه بالحصار ذرعاً ، وخرج عليه معظم أنصاره ، ونكل بالكثير منهم . ونازل عبد الرحمن بالأخص حصن الشط ، وكان من أمنع الحصون الثائرة ، حتى تغلب عليه وعلى ما حوله من الحصون . وأخيراً عرض عليه سليمان أن يعود إلى الطاعة ، وأن يسلم بعض حصونه ، فاستجاب عبد الرحمن إلى رغبته ، وتسلم حصن الشط ، وحصن منت ميور وغيرهما من الحصون كغالة بحسن الطاعة ، وانصرف عائداً إلى قرطبة ، وهو يتحين الفرصة الملائمة للقضاء على الثائر بصورة نهائية . وفي سنة ٣١٣ هـ ، صُلب على الرصيف بباب قرطبة ، رجل من أصحاب ابن حفصون هو الراي النصراني المعروف بأبي نصر ، وكان من أحذق الرماة في عصره ، وطار صيته أيام عمر بالخذق في الرماية وإصابة الأغراض البعيدة ، قلما تخطئ رميته ، وقد أودى بحياة كثير من المسلمين من الجند وغيرهم ، وساد الذعر منه ، وانتهى الأمر بأسره ، وإحضاره إلى الحضرة ، فجيء به إلى باب السدة وأمر عبد الرحمن بصلبه وشكه بالسهم ، فرفع فوق جذع في مشهد حافل من الناس ، وتعاورته الرماة بالسهم حتى مزق بدنه ، وترك دامياً فوق جذعه ؛ ثم أخذت جثته بعد أيام وأُحرقت (١) .

وفي أواخر سنة ٣١٤ هـ ، سير عبد الرحمن وزيره عبد الحميد بن بسيل إلى بْبِشْتَر ، وخرج سليمان في قواته إلى لقائه فهزم وقتل ، واحتز رأسه وقطعت أشلاؤه ، وأرسلت إلى قرطبة فرفعت على باب السدة (يونيو سنة ٩٢٧ م) . وقام أخوه حفص مكانه في بْبِشْتَر ، واستمر على المقاومة حيناً . وفي ربيع الأول سنة ٣١٥ هـ ، سار عبد الرحمن بنفسه إلى بْبِشْتَر ومعه ولي عهده الحكم ،

١ (١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية ، لوحة ٨٤ ب .

وكان يومئذ صيباً في الثانية عشرة من عمره ، ونزل على مدينة بيشتر ذاتها ، وبها حفص ، وشدد عليها الحصار ، وابتنى إزاءها حصناً للتضييق عليها ، وفرق قواته لمنازلة بقية الحصون الثائرة ، ثم ترك قوة لمتابعة الحصار . واستمر الحصار بضعة أشهر ، حتى اضطر حفص أن يذعن أخيراً إلى التسليم ؛ فسلم المدينة بالأمان إلى القائد سعيد بن المنذر ، وذلك في أواخر شهر ذي القعدة سنة ٣١٥ هـ (يناير سنة ٩٢٨ م) وأخذ حفص بن عمر وأهله وأصحابه ، أسرى إلى قرطبة ، فغفا عبد الرحمن عنهم ، وأحسن مثواهم ، وضم حفصاً إلى جيشه .

وفي العام التالي سنة ٣١٦ هـ ، سار عبد الرحمن إلى بيشتر لتنظيم شئونها ، فخرج من قرطبة في منتصف شهر المحرم منها (مارس سنة ٩٢٨ م) ورافقه ولده الحكم ، ووزيره أحمد بن محمد بن حدير ، واستخلف على المدينة أحمد ابن عيسى بن أبي عبدة . وقصد إلى بيشتر بطريق أشونة ، فوصلها في العشرين من المحرم ، ودخلها وجال في أرجائها ، وألفاها منقطعة النظر من حيث الحصانة والمنعة . فعين لها والياً من قبله ، وعمد إلى تطهيرها من آثار ابن حفصون ، فصلى في مسجدها الجامع ، وأمر أن تقام به الصلاة . وكان ابن حفصون في أواخر أيامه ، قد أثار حول موقفه من تذبذبه حول إظهار الإسلام ، وجنوحه إلى النصرانية ، ريباً حول حقيقة الدين الذي كان يعتنقه . فأمر الناصر بنبش قبره ، وإخراج جثته وفحصها . فتبين من هيئتها ، وكونه ملق على الظهر ، مشبوك الذراعين على الصدر ، ومستقبلاً المشرق ، أنه دفن على دين النصرانية ، وعابن ذلك الناس من العسكر وغيرهم ، وشهد بذلك الفقهاء المرافقون ، واتفق الجميع على أنه هلك على دين النصرانية . فأمر عبد الرحمن بحمل الجثة ، إلى قرطبة ، حيث علقت في أعلى الجذوع على باب السدة يكتنفها أشلاء ولديه المصلوبين قبله ، وهما حكم وسليمان . واستمرت أشلاؤهم معلقة على جذوعها عرة للناظرين حتى سنة ٣٣١ هـ ، حيث حملها مد النهر الطامى في تلك السنة ولأحمد بن محمد الرازي في صلب أوصال ابن حفصون قصيدة يقول فيها

تبدى لمراى العين مجسماً وقام من الأجداث خلقاً متمماً
فما كان إلا مثل من نام نومة فأنبه عنها حين أغفى وهو موماً

ثوى في الثرى حتى إذا صار رمة أعيد إليه جسمه فتلاًما
رقى فوق جذع بالهواء معلق يحاول منه بالنجوم تحوُّماً
تبارك من أبداه للخلق سامعاً وبوأ منه النفس قعر جهنماً (١)
وأمر عبد الرحمن ، فعمرت سائر مساجد ببشر المهجورة ، وهدمت سائر
الكنائس والأديار ، التي ابتناها الثائر في تلك المنطقة ، واستولى عبد الرحمن
على سائر معقلها وحصونها ، وطهرها من آثار الثورة الأخيرة (٢) . ثم أمر
بعد ذلك بالقبض على « أرختنا » ابنة عمر بن حفصون وإعدامها ، لارتدادها
عن الإسلام ، وتمسكها باعتناق النصرانية ، فأعدمت في سنة ٩٣١ م ، أو في
سنة ٩٣٧ وفقاً لرواية أخرى ، ونظمتها الروايات والأساطير النصرانية في سلك
القديسين والشهداء (٣) :

هذا ، وقد أصدر الناصر عقب فتح ببشر واستئمان حفص ، كتاباً طويلاً
ينوه فيه بهدى الإسلام وفضله ، وما خصه الله به من خلافته وأمانة عبادته ،
ويشير إلى خروج المارقين ، وميل نفوسهم المريضة إلى الشرك ، وكيف أنه أصدر
أمانة لأهل ببشر ، ثم يقول في خطابه ما يأتي :

« وعهدنا إلى الوزير أحمد بن محمد حدير ، بالتقدم إليهم لحضور خروجهم ،
ومباشرة نزولهم ، وإكمال الأمان لهم ، وقبض الأيدي عنهم ، فنهض إلى ذلك
وقصد له ، فلما صار بمدينة طليجير ، المبتناة على مدينة ببشر ، هبت بالطاغين عنها ،
فتساربوا خارجين ، وتهافتوا ذاهبين ، وتعرفوا الذي سبأ إلى جوانب شتى ،
فقصده كل واحد إلى منزعه ، وأم مكان طماعيته ، ولحق بمدائن الطاعة ،
فصاروا في غمار الرعية ، وتمكث خلفهم عميدهم حفص بن عمر طائر القواد ،

(١) ابن حيان - السفر الخامس - لوحة ٨٩ أ وب و ٩١ أ . هذا ولم نجد ذكراً لحكم
من أبناء عمر بن حفصون إلا في هذه المناسبة ، وفي رواية ابن حيان ، وفي الأوراق المخطوطة
(ص ٧٧) .

(٢) تراجع تفاصيل الممارك الأخيرة بين عبد الرحمن وأبناء ابن حفصون ، وخاتمة هذه
الممارك في الأوراق المخطوطة الخاصة بمصر الناصر ص ٦٢ و ٦٥ و ٦٩ و ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٦
و ٧٧ و ٧٨ . وكذلك في البيان المغرب ج ٢ ص ١٩١ و ١٩٣ و ١٩٤ و ٢٠٤ و ٢٠٨ و ٢٠٩ .
وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ .

(٣) R.M. Pidal : Origenes del Espanol, وكذلك Dozy: Hist., Vol. II. p. 109

خافق القلب ، لم تطب نفسه على الخروج خوارجاً ، ولا سكن منه الأمان نفاراً ،
يخشى كل يد أن تضبط عليه ، وكل شجرة أن تتعلق به ، قد خامره من الرعب
ما كاد أن يرى على العطب ، فطمأن الوزير أحمد محمد بن حدير من جزعه ،
وسكن من جأشه ، ووفاه من آمالنا المبسوطة لينا وثق به واطمأن إليه ، فخرج
آخر الخارجين ، ولحق بالآمنين ، فأصبحت مدينته بقعة الضلالة ، ومنبر
الخلاف ، ومعدن الغواية ، بما أحاط بها من أسوارها وأبنيتها وقصابها ،
وداخلها من جناتها ومصانعها ، مغوية من قطينها ، خاوية على عروشها ، كأن لم
يغن بها ساكن ، ولا استوطنها قافل .

ثم يقول إنه أمر بعد ذلك بتخريب يبشتر ، وحط أسوارها ، وإنزال
جدرانها ، وهدم كل قائم فيها من قصرها ودورها ومخازنها ، ولعاداتها جبلا
أجرد ، على ما كانت عليه لأول خلقها . « ثم استفدنا حصصاً اللائد بالتوبة
إلى ما تفضلنا عليه من التأمين والتأمين ، وعدنا عليه من العفو والتطمين ،
وأخذنا فيه بالفضل المبين ، الذي جعلنا الله أهله ، وغلب على مذهبنا إثارة ،
وجعنا له من ذلك ما اغتبط به ، وسكن إليه ، وقرر نفسه عليه ، فاعلم ذلك ،
وقف عليه ، واستشعر حمد الله ، ومر بقراءة كتابنا هذا إليك على المسلمين
قبلك في جامع موضعك ، ليحمدوا الله عز وجهه ، على عظيم ما اصطنعه إليهم ،
ووجهه لهم ، وليحدثوا من شكره تعالى على ما درأ عنهم ، والتقرب بنوافل
الحمد إليه ، ما يستدام له رضاه عز وجهه ، ويستجلب به المزيد من نعمه ، إن
شاء الله وهو المستعان ، وكتب يوم الخميس لخمس من ذى الحجة سنة خمس
عشرة وثلاث مائة .

ويقول لنا الرازي ، إن الناصر لما خرج إلى يبشتر ، وأمر بهدمها ، أمر
بالإبقاء على القصور والقصاب ، التي أبقاها لعماله وحشمه الذين ندمهم للقيام بها ،
فدكت أسوارها ، وحطت أعلامها ، وإنه أى الناصر أصدر كتاباً بحوادث
يبشتر ، والأمر بهدمها ، وهدم مسجدها الذي أقامه ابن حفصون ، لأنه كان
ستاراً لفسقه المسلمين ، والأمر بإحراق منبره « الذي دعى فيه للخزير الضال ،
ومن خلفه من نسله الخبيث ، وأعلن عليه بدعوة الشيعة » (١) .

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية لوحات ٩٤

ولم يغفل عبد الرحمن في الوقت الذي كانت فيه ثورة ابن حفصون وأبنائه في جنوب الأندلس ، تشغل معظم عنايته ، عن مطاردة الثورة في الأنحاء الأخرى . وكانت طليطلة من أمنع معاقل الثورة ، فسير عبد الرحمن جنده لحصارها ، وفيها لُبَّ بن الطريشة وهو من زعماء المولدين ، واستمر الحصار زهاء عامين حتى نضبت موارد المدينة ، وخبث عزائم أهلها واضطرت في النهاية إلى التسليم والإذعان . وسار لبَّ مع الأمير بقواته إلى الغزو في أرض النصارى (سنة ٣٠٨ هـ) . وكانت بطليوس وأحوازها منذ أكثر من أربعين عاماً ، معقلاً من معاقل ثورة المولدين . وكان بنو مروان الخليق ما يزالون يسيطرون على تلك المنطقة ، وكانوا من أخطر الخوارج وأشدهم مراساً ، يمالئون الأمراء النصارى ويحالفونهم على حكومة قرطبة . ففي سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) ، هلك عبد الله بن محمد بن مروان الخليق صاحب بطليوس قتيلاً بيد بعض المخالفين من أصحابه ، فقام مكانه ولده عبد الرحمن ، واستبد بمدينة بطليوس وما حولها ، واستمر بضعة أعوام على خروجه وتحديه للحكومة قرطبة .

وفي ربيع الأول سنة ٣١٧ هـ (إبريل ٩٢٩ م) خرج الناصر من قرطبة متجهاً نحو الغرب ، ومعه ولداه الحكم والمنذر وعدة من الوزراء ، واستخلف على القصر ولده عبد العزيز . وبعث الناصر ينذر المتخلفين عن الطاعة ، بوجوب الدخول في طاعته ، والتخلي عن الغصيان ، وفي مقدمتهم صاحب بطليوس عبد الرحمن بن عبد الله الخليق . ووصل الناصر بجيشه إلى بطليوس في أواخر ربيع الآخر من هذه السنة وحاصر بطليوس ، وقاتل المتصدين للمقاومة حتى هزموا واقتحم أرباضهم ، وأحرقت ديارهم ، فامتنعوا داخل المدينة ، فعهد الناصر بقتالهم إلى القائد أحمد بن إسحق القرشي في قوة كثيفة ، فشدد في حصار المدينة ، واقتحم ما حولها من الحصون ، ثم ضربها بالحنانيق بشدة ، وقطع عنها كل مورد ، واشتد بأهلها الضيق ، واضطر الخليق إلى الإذعان وطلب الأمان ، فأجابه الناصر إليه ، وأسكنه هو وأهله وأكابر رجاله بحضرة قرطبة ، وعين لبطليوس والياً جديداً هو عثمان بن عبد الله ، وكان خضوع بطليوس في سنة ٣١٨ هـ (٩٣٠ م) .

ولما غادر الناصر بطليوس سار إلى مدينة باجة ، أقصى قواعد الغرب ،

وفيها الثائر عبد الرحمن بن سعيد بن مالك ، فنزل عليها ، وأنذر صاحبها بالدخول في الطاعة ، فلم يقبل النصح ، فطوقها وحاصرها بشدة ، حتى أجهد أهلها الجوع والعطش ، وتساقطوا من الإعياء ، وعندئذ اضطر صاحبها إلى الإذعان ، ففتحهم عبد الرحمن الأمان ، وأمن صاحبها وآله ، وخرجوا إليه تائبين مستسلمين ، فبعثهم إلى قرطبة . وكان افتتاح باجة في منتصف جمادى الآخر سنة ٣١٧ هـ . ونظر الناصر في مصالح المدينة ، ثم عين لها والياً من قبله ، هو عبد الله بن عمرو ابن مسلمة ، وزوده بحامية كافية .

وتحول عبد الرحمن بعد ذلك إلى مدينة أكشونيه على مقربة من ساحل المحيط الجنوبي ، وبها الثائر خلف بن بكر ، فبادر إلى الطاعة معتذراً ، وأقره الناصر على ولايته ، على أن يلتزم بأداء الحباية وبحسن السيرة .

وقضى الناصر في هذه الغزوة زهاء ثلاثة أشهر ، طهر خلالها أنحاء ولاية الغرب من آثار الخروج والثورة ، ثم قفل إلى قرطبة فوصل إلى القصر في منتصف رجب (١) . وكان الناصر قد سار بنفسه إلى تدمر وبلنسية ، وذلك في سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) أثناء مسيره إلى غزوة بنبلونة الكبرى ، حسبما تفصل بعد . فطارد الخوارج والعصاة في شرقي الأندلس ، واستولى على معقلهم ومزق شملهم . وفي سنة ٣١٤ هـ (٩٢٦ م) سير الناصر وزيره القائد عبد الحميد ابن بسيل إلى الثغر الأعلى لمقاتلة بني ذى النون ، وكانوا قد عادوا إلى الخلاف والعصيان ، وأكثروا من الفساد والعدوان على من جاورهم من المسلمين وأهل الذمة ، فقصده إلى معقلهم شنت برية واقتحمها ، وقتل كبيرهم محمد بن محمد ابن ذى النون ، وعدة آخر من رجالهم ، وافتتح مدينة سريّة من مدنها ، وولى عليها عاملاً للسلطان . وخضعت شنت برية وما والاها للطاعة ، ودرت جبايتها من ذلك الحين (٢) . وفي سنة ٣١٧ هـ ، افتتحت مدينة شاطبة ، واستنزل عنها صاحبها عامر بن أبي جوشن الثائر بها ، بعد أن ترددت الحملات عليه ، مدى خمسة أعوام ، وكان خضوعه على يد صاحب الشرطة العليا دري بن

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحات ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٩ ، والأوراق المخطوطة الخاصة بمعهد الناصر ص ٨١ .

(٢) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحة ٨٥ أ .

عبد الرحمن ، واشترط عامر عند استسلامه أن يمنح الإقامة مدة في حصن «سنت مريّة» من حصونه ، حتى ينظم شتونه ويسير في أهله إلى قرطبة ، فأجيب إلى طلبه^(١) . وهكذا أخذت الثورة في سائر النواحي ، بعد أن لبث زهاء نصف قرن تستنفد قوى الأندلس ومواردها ، وتفت في عضدها ، وتقعدها عن الكفاح ضد عدوها الحقيقي المرصوص بها ، ونعني إسبانيا النصرانية .

- ٢ -

كانت إسبانيا النصرانية في خلال تلك الفترة التي اضطربت فيها الأندلس بالفتن ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة في النواحي ، تسير قدماً في سبيل القوة والتوطد ، وتعمل جاهدة لانتهاز كل فرصة للكيد للأندلس ، وممالأة ثوارها والعيث في أراضيها . وكانت تنقسم عندئذ إلى إمارتين أو مملكتين متحالفتين ، هما مملكة ليون (أو مملكة جليقية) ، ومملكة نافار (نبرة أو بلاد البشكنس) . وكانت ليون وهي الواقعة في الشمال الغربي بين المحيط ونهر دويرة ، أكبر المملكتين وأوفرهما قوة ومنعة ، وكانت بذلك تتولى قيادة إسبانيا النصرانية ، في ميدان الكفاح الخالد بينها وبين إسبانيا المسلمة . وكانت قواعد الأندلس الشمالية التي تتأخم مملكة ليون ، مثل أستورقة وسمورة وشلمنقة وشقوبية وميراندة ، قد خلت منذ أواخر القرن الثامن من معظم سكانها المسلمين ، واستوحش العرب والبربر ، لقلتهم في تلك الأنحاء ، وكثرت اعتداء النصارى عليهم ، وتوالى القحط في تلك الربوع ، فهاجروا إلى الجنوب ، وجاء ملك ليون ألفونسو الثالث (أواخر القرن التاسع) ، فعاث في تلك المنطقة ، وقتل بمن فيها من المسلمين ، ثم ارتد إلى جباله . ولبثت هذه المنطقة قفراً خالية تقريباً ، يتبادلها المسلمون والنصارى من وقت إلى آخر ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فلم تستطع رد الاعتداء ، وانتهر ألفونسو الثالث تلك الفرصة ، فدفع حدود مملكته جنوباً حتى نهر دويرة . واختط هنالك عدة قلاع منيعة ، كان يتخذها النصارى قواعد للإغارة على الحدود الإسلامية ، واجتياح المسلمين الغزل بالنار والسيف ، وقتل النساء والأطفال والشيخوخ ، ونهب الأموال والمتاع . وجرى ولده غرسية على هذه السياسة الدموية للغاشمة . وكانت إسبانيا النصرانية تنظر من خلال هضابها القفرة ، ومواردها

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس ، لوحة ١٠١ ب .

الضئيلة ، وفقرها المدقع ، إلى وديان الأندلس النضرة ، وإلى نعمائها الوافرة ، وحضارتها الزاهرة ، بعين المقت والحسد ، وتعمل جاهدة لبث الدمار والويل إلى هاتيك الربوع السعيدة . وكان على حكومة قرطبة أن تعمل على حماية الأندلس وحماية تراثها وحضارتها ، من هذا العدوان المخرب الذى أخذ يشتد يوماً عن يوم .

وكان عبد الرحمن حينما ولى الملك ، يؤثر الإغضاء حيناً عن محاربة النصارى ، لكي يكرس جهوده وقواه لقمع الثورة ، وتطهير الأندلس من عناصر الفتنة ؛ ولكن النصارى رأوا بالعكس أن يعملوا على انتهاز الفرصة ، وإذكاء نار الفتنة والفوضى فى الأندلس . فما كاد عبد الرحمن يلى الملك ، حتى بادر أردونيو الثانى (أردون) ملك ليون بالإغارة على الأراضى ، الإسلامية واتجه أولاً نحو منطقة الغرب لنأيها وضعف وسائل الدفاع عنها ، وقصد إلى مدينة يابرة ، الواقعة غربى بطليوس . ويقول لنا الرازى إن أردونيو نزل على يابرة فى يوم ١٣ من المحرم سنة ٣٠١ هـ (أغسطس ٩١٣ م) وأنه كان فى جيش يقدر بثلاثين ألفاً من الخيل والرجل والرماة ، وكان على يابرة يومئذ عاملها مروان عبد الملك بن ، فبذل جهده لمداغة الغزاة ؛ وطوق أردونيو المدينة من سائر نواحيها ، وهاجمتها قواته من كل صوب ، ودافع المسلمون عن مدينتهم من فوق الأسوار ، حتى أرغموا بفعل السهام على النزول عنها وتسلى النصارى الأسوار ، ودخلوا المدينة ، واضطربت بينهم وبين المسلمين داخلها معارك شديدة ، وفى المسلمون شيئاً فشيئاً حتى قتلوا جميعاً ، ولم تنج منهم سوى شردمة قليلة ، فرت تحت جنح الظلام إلى مدينة باجة . وسبى النصارى سائر النساء والذرية ، وقتل مروان بن عبد الملك عامل المدينة مدافعاً عنها ، وبلغ السبى أكثر من أربعة آلاف من النساء والولدان . وترك أردونيو المدينة خراباً يباباً ، وعاد فى قواته إلى جليقية . وبث هذا الحادث الروح والفرع فى سائر قواعد الغرب ، فأخذ أهلها فى إصلاح أسوارهم ، وقام أهل بطليوس بالأخص فى ذلك بمجهود ضخم ، ودعموا أسوارهم ، وزادوا فى عرضها وارتفاعها ، بقيادة عاملهم عبد الله بن محمد الحليق^(١) . وفى سنة ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) ، سار أردونيو فى قواته مرة أخرى إلى منطقة الغرب ، فى جيش تقدره الرواية الإسلامية بستين ألفاً ،

(١) ابن حيان عن الرازى - السفر الخامس - مخطوط الخزافة الملكية - لوحة ٥١ أ وب

فعبّر نهر التاجه ، واشترك في إرشاده إثنان من الأدلاء المسلمين ، من بربر مصمودة من البرانس ، ولكنهما كانا يضمران عكس ما طلب إليهما ؛ وأنجه أردونيو جنوباً صوب حصن مدلين ، وقاده الدليلان المسلمان من طريق صعبة وعرة ، فلم يخرج منها إلا وقد هك جيشه ، فأمر بالدليلين فأعدما ، وسار حتى وصل إلى الحصن ، فاستولى عليه دون مقاومة وأصاب فيه بعض الغنائم ، ثم سار إلى قلعة الحنش (الأنية) ، الواقعة جنوبي ماردة ، وكان يسكنها يومئذ برانس كتامة ، وكانوا في عدد وافر وعلى أتم استعداد للمقاومة ، وكان المقدم عليهم يسمى بابن راشد ؛ فهاجم النصارى الحصن ، ودافع المسلمون عن أنفسهم أشد دفاع ، ولكنهم هزموا في النهاية وقتل معظمهم ، وقتل ابن راشد فيمن قتل ، ودخل النصارى الحصن فقتلوا كل من وجدوه ، وسبوا النساء والذرية ، وهدموا الحصن . ثم سار أردونيو في اليوم التالي إلى ماردة ، ولكنه وقف أمامها ذاهلاً من حصانتها ، واعتزم الكف عن قتالها ، وبعث إليه قائد المدينة محمد بن تاجيت رسولا يستلطفه ، وأهدوا إليه فرساً رائعاً من عتاق الخيل بسرجه وعدته ، فقبله وأعجب به ، وتركهم ورحل عنهم . ولكنه عاث حين قفوله في تلك المنطقة ، وقتل وسبي كثيراً من سكانها ، واستولى على بعض قلاعها ؛ ثم قصد إلى مدينة بطليوس ، فارتاع أهلها واسترضوه بالمال والحلى ، وعبر النصارى نهر دويرة قافلين إلى ديارهم مثقلين بالغنائم والسبي دون أن يعترض سبيلهم معترض^(١) .

وبقيت يابرة خراباً نحو عام ، حتى بعث عبد الله بن محمد الحلبي ، صاحب بطليوس حليفه مسعود بن سعدون المعروف بالسرنباقي ، ومن معه من قومه الشاردين عن الجماعة إلى مدينة يابرة ، فنزلها مسعود بأهله وولده وصحبه ومن معهم ، وكان منهم كثير ممن لجأ من قبل من أهل يابرة إلى باجة وأكشونه ؛ وابتنى لهم الحلبي أسوار المدينة ، وأمدهم بالأطعمة والدواب والكسب ؛ وعلى أثر ذلك قصد الناس إلى يابرة فاستوطنوها ، وعمرت بسكانها مرة أخرى^(٢) .

(١) ابن حيان في السفر الخامس من المقتبس - مخطوط الخزانة الملكية ، لوحة ٦٠ أ وب

وابن خلدون ج ٤ ص ١٤١ .

(٢) المقتبس - السفر الخامس ، لوحة ٥٣ و ٥٤ .

وكانت هذه المنطقة التي غزاها النصارى وهى منطقة ماردة ، من المناطق
الناثرة . ولكن عبد الرحمن كان أبعد نظراً من أن يغضى عن عدوان يقع فى صميم
الأراضى الإسلامية . هذا إلى أنه رأى أن بأسر قلوب الثوار ، بإنجادهم والانتقام
لهم ، وأن يرد عدوان النصارى بمثله . ففى فاتحة سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) سير
عبد الرحمن وزيره وقائده أحمد بن محمد بن أبى عبدة فى جيش قوى ، غازياً إلى
أراضى مملكة ليون ، فالتقى بالنصارى وهزمهم فى عدة وقائع محلية ، وعاث
فى أراضهم وسبى وغنم غنائم كثيرة^(١) . وفى العام التالى أراد أردونيو الثانى
الانتقام لغزائمه ، فعاث فى منطقة طلبيرة^(٢) ، وأحرق مدنها وانتسف ضياعها ،
فضج المسلمون لهذا البلاء ، وتضرعوا إلى ملكهم أن ينقذهم من هذا العدوان
الصارخ .

فسير عبد الرحمن قائده أحمد بن أبى عبدة ثانية إلى أرض النصارى فى جيش
ضخم من المدونين ، والمتطوعة ، وانضم إليه حين دخوله إلى الثغر (الحدود)
خلق كثير ، واخترق المسلمون أراضى قشتالة ، وزحفوا إلى قلعة شنت إشتين
الواقعة على نهر التاجه ، وكانت تسمى أيضاً قلعة قاشترو مورش^(٣) ، وهى
من أمنع قلاع النصارى على الحدود ، وضربوا حولها الحصار الصارم ، ثم
نازلوها بشدة ، وكادت تسقط فى أيديهم ، لولا أن هرع إلى إنجادها أردونيو
فى جموع ضخمة من النصارى ؛ وكان الجيش الإسلامى بالرغم من تفوقه فى
الكترة فخل النظام ، مفكك العرى ، يتألف سواده من البربر والمرترقة الذين
لا يعتمد على ولائهم وشجاعتهم ، وكانوا يحرصون على غنائمهم أكثر من
حرصهم على مقاتلة العدو ، فلما انقض أردونيو بقواته على المسلمين ، تسللت
منهم وحدات كثيرة ، وارتدت أمام المهاجمين ، ودب الهرج إلى صفوف
المسلمين . ولكن قائدهم الشجاع أحمد بن أبى عبدة فضل الموت على الارتداد ،
فصمد فى مكانه فى نفر من أشجع ضباطه وجنده ، فقتلوا جميعاً ، وهلك معهم
عدة من أكابر الفقهاء والمجاهدين . وكانت هزيمة مروعة . وكان ذلك فى
الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٣٠٥ هـ (٤ سبتمبر سنة ٩١٧ م) . وتقول

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٦ .

(٢) وهى بالإسبانية Talavera ، وهى تقع على نهر التاجه غربى طليطلة .

(٣) San Esteban أو Castro Moros

الرواية الإسلامية إن فلول الجيش الإسلامي ، استطاعت أن ترد بعنادها ومتاعها سالمة إلى الأراضى الإسلامية^(١) . ولكن الرواية الإسبانية تقول بالعكس إن هزيمة المسلمين كانت ساحقة ، وبلغ من روعتها أن غصت سائر التلال والسهول والغابات الممتدة جنوباً من دويرة إلى أنتيسة^(٢) ، بقتلاهم وأشلأهم^(٣) . وكان لذلك الخطب وقع عميق في بلاط قرطبة . وكان عبد الرحمن يعتزم المبادرة إلى غزو ليون بنفسه ، لولأن شغلته عندئذ حوادث إفريقية ، على أنه اضطر غير بعيد أن ينهض لرد اعتداء النصارى . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر حتى عاد أردونيو الثانى وحليفه سانشو (شأنجُه) ملك ناغار ، إلى غزو الأراضى الإسلامية في منطقة الثغر الأعلى ، وذلك في ربيع سنة ٩١٨ م . وكانت موقعة شنت إشتين قد ضاعفت من جراءة النصارى واستهتارهم ، فعاثوا في أحواز ناجرة وتطيلة . واستولى سانشو على بلدة بلبيرة^(٤) وأحرق مسجدها الجامع ونكل بأهلها . يقول ابن حيان : « وانقلب الكفرة لعنهم الله إلى بلادهم أعزة ، فكان هذا مما أحفظ الناصر لدين الله وحرّكه لمجاهدة أعداء الله ، ورغبه في الانتقام منهم بمن الله تعالى »^(٥) . وكان عبد الرحمن في الواقع يتوق إلى الانتقام لزمته للفادحة في شنت إشتين ومقتل قائده الشهم ، ولم ينس أن أردونيو سمر رأسه في جدران شنت إشتين ، فحشد جيشاً ضخماً لمقاتلة النصارى بإمرة حاجبه بدر بن أحمد ، وبعث الأوامر والكتب إلى أهل الثغور بالنهوض لتأييده ، ومعاونته على معاينة النصارى ورد عدوانهم والإيقاع بهم . وخرج بدر في جيشه الضخم من قرطبة في المحرم سنة ٣٠٦ هـ (أوائل يوليه سنة ٩١٨ م) ، وهرع إليه أهل الثغور (الأطراف) من كل ناحية ، ظمئين إلى الجهاد والانتقام . وكذلك احتشد النصارى من سائر الأنحاء لرد الغزاة . ونفذ المسلمون كالسيل

(١) هذا قول ابن حيان في السفر الخامس من المقتبس - مخطوط الخزائن الملكية ، لوحة ٦٤ أ ، وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٨ .

(٢) هي بالإسبانية Atienza

(٣) Dozy : Hist , Vol. II. p. 117

(٤) ناجرة هي بالإسبانية Najera ، ولبلبيرة هي Valterra ، وكلتاها تقع في أحواز تطيلة .

(٥) السفر الخامس من المقتبس - لوحة ٦٦ ب .

إلى حدود ليون ، فاعتصم النصارى بالجبال لما رأوا من كثرة العدو وأهبطه ، ولكن المسلمين هاجمهم في مواقعهم ، ونشبت بين الفريقين موقعتين دمويتين على مقربة من مكان يسمى « مطونية » . فهزم النصارى هزيمة ساحقة ، وأمعن المسلمين فيهم قتلاً وأسراً ، ولم تنج منهم سوى فلول يسيرة ، وكان ذلك في الثالث والخامس من ربيع الأول سنة ٣٠٦ هـ (١٣ و ١٥ أغسطس سنة ٩١٨ م)^(١) .

على أن هذه الهزيمة الساحقة لم تفت في عضد النصارى ، فلم يمحض سوى قليل حتى عادوا إلى الاحتشاد والإغارة على الأراضى الإسلامية ، واستمر القتال سجالات بين المسلمين والنصارى مدى أشهر ، وكثر العيث والسبي في مناطق الحدود . فاعتزم عبد الرحمن أن يسير إلى مقاتلة النصارى بنفسه ، فخرج من قرطبة في الثالث عشر من المحرم سنة ٣٠٨ هـ (أوائل يونيو ٩٢٠ م) في جيش ضخم ، وانضم إليه أثناء سيره كثير من أهل الثغور . واخترق أراضى الثغر الأوسط من طليطلة شمالاً ، حتى مدينة الفرج أو وادى الحجارة ومدينة سالم ، فوصل إليها في الرابع والعشرين من المحرم . وفي ذلك اليوم ولى خطة الوزارة لسعيد بن منذر القرشى ، وعينه والياً لوادى الحجارة ، واتجه إلى طريق ألبه والقلع (قشتالة) ثم عبر نهر دوبرة وزحف على مدينة أوسمة (وخشمة) وأحرقها ، وفر منها النصارى ولاذوا بالجبال . ثم سار إلى قلعة شنت لإشتين (قاشيرو مورش) ، وهى التى كانت مسرحاً لهزيمة المسلمين المروعة ، ففرت حاميتها النصرانية ، واستولى عليها وخربها ، وغنم ما فيها . وخرّب فى تلك المنطقة كثيراً من المعاقل والأبراج والكنائس والديارات . ثم سار إلى مدينة قلونية وهى مدينة قديمة لم تبق منها اليوم سوى أطلال دارسة ، وكان أهلها قد فروا إلى الجبال ، فاجتاح تلك المنطقة كلها ، وانتسف أراضيها وخرّب قلاعها ، وهدم قلونية وخرّب دورها وكنائسها ، ولم يعترض سبيله أحد من النصارى . وكان أردونيو ملك ليون وسانشو (شانجه) ملك نافار قد حشدوا حشودهما ، واجتمعت لهما قوات كثيرة . ولكنهما بقيا في الشمال انتظاراً لمقدم المسلمين ، وعرج عبد الرحمن بعد ذلك على مدينة تطيلة إستجابة لصريخ أهلها ، حيث أزعجها النصارى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٩ و ١٨٠ .

باعتدائهم المتكرر ، وبعث بعض قواته بقيادة محمد بن لب بن قسى صاحب
تطيلة لاحتلال قلعة قلقرة^(١) التى كان سانشو يتخذها قاعدة للإغارة عليها ،
فألفوها خالية ، وزحف عبد الرحمن فى الوقت نفسه على حصن قلهرة وكان
به سانشو فى قواته ، ففر عند اقترابه ، واحتله المسلمون وغنموا كل ما فيه
ثم دمروه ، وانتسفوا الأراضى المحيطة به ، ولجأ سانشو إلى حصن أرنيط
(أورنيديو) الواقع جنوب غربى قلهرة . والظاهر أن النصارى اعتزموا
ألا يعترضوا سبيل المسلمين فى تلك المنطقة كلها ، وفقاً لخطة وضعوها
لاستدراج المسلمين . فلما عبر عبد الرحمن بقواته نهر إيبرو (إبرة) فاجأه
سانشو فى قواته ، وهاجم مقدمة المسلمين ، ولكن عبد الرحمن كان يقظاً
متأهباً ، فتعاون الفرسان والرماة المسلمون على النصارى ، وأثخنوا فيهم ،
فارتدوا إلى شعب الجبال واعتصموا بها . ولجأ سانشو إلى حليفه أردونيو ملك
ليون ، وجمع الملكان قواتهما من سائر النواحي وتربصا للقاء المسلمين فى مواقع
منبعة ، وعلم عبد الرحمن باجتماع القوات النصرانية على هذا النحو ، فأمر بإحكام
التعبئة ، ومضاعفة الاستعداد ، فلما نفذ الجيش الإسلامى إلى شعب الجبال ،
انحدر النصارى لمهاجمته واشتبكوا بمؤخرته وأحدثوا بها اضطراباً وخسائر ،
فشعر عبد الرحمن بخطر المأزق ، وبادر بالخروج من الشعب الضيقة إلى السهل
المنبسط . وهناك عسكر بجيشه فى مكان يسمى «خونكيرا» Junquera على
مقربة من غربى بنبلونة ، واستعد للقاء النصارى . وهنا طمع النصارى فى
محاربة المسلمين فانحدروا إلى السهل بعد أن كانوا فى حى الجبال ، ولكنهم
دفعوا ثمن جرأتهم هزيمة فادحة ، وأمعن المسلمون فيهم قتلاً وأسرّاً ، ولم ينقذهم
من الفناء الشامل سوى دخول الليل ، وقتل وأسر كثير من أكابر فرسانهم
وزعمائهم ، ومن بينهم أسقفان هما دولثديو أسقف شلمنقة وأرخيو أسقف توى ،
وقد كانا يحاربان كجنديين ، ولجأ نحو ألف من النصارى ، أو أزيد من خمسمائة
على قول آخر ، إلى قلعة مويش القريبة ، فاقتحمها المسلمون ، واستخرج
جميع النصارى الذين بها ، ومنهم عدد من القوامس ووجوه الفرسان ، فأمر
عبد الرحمن بإعدامهم جميعاً ، ومزق النصارى كل ممزق ، وانهارت كل مقاومة ،

(١) وهى بالإسبانية Carcar وهى تقع على مقربة من شمالى قلهرة .

وقضى عبد الرحمن أربعة أيام يجمع الأسلاب والنعم ، ويهدم الديار ويقطع الأشجار : وأصاب المسلمون كثيراً من الأسلاب والغنائم . وحدثت هذه الواقعة الساحقة على النصارى ، فى اليوم السادس من شهر ربيع الأول سنة ٣٠٨ هـ (٢٦ يولييه ٩٢٠ م) . وهدم عبد الرحمن حصون العدو ، وأصلح حصون المسلمين ، وفى مقدمتها حصن بقيرة *Viguera* المشرف على حدود نافار ، وزودها بالعتاد والمؤن .

وفى اليوم السابع والعشرين من ربيع الأول ، قفل عبد الرحمن عائداً إلى قرطبة ، وتوقف فى طريقه يوماً بمدينة أنثيسة على مقربة من مدينة سالم ، وفرق الأموال والكسبى فى أهل الثغر ، وأذن لهم بالعودة إلى ديارهم ، ووصل إلى قصر قرطبة فى يوم الخميس الثالث عشر من ربيع الآخر سنة ٣٠٨ هـ (أواخر سبتمبر سنة ٩٢٠ م) بعد أن قطع فى غزوته هذه ثلاثة أشهر ، وكانت غزوته الأولى فى مقاتلة النصارى ، وكان ممن شهدا معه سليمان بن عمر بن حفصون المستأمن إليه ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، وبها ارتفع شأنه ، وتوطدت سمعته (١) .

وكان عبد الرحمن يرجو أن يكون هذا الدرس بعيد الأثر فى ردع النصارى ووقف عدوانهم . ولكنه أخطأ الظن . ذلك أنه لم يمض سوى عامين حتى أغار أردونيو على ناجرة واستولى عليها ، وسار حليفه سانشو إلى بقيرة ، وكان يتولى الدفاع عنها عبد الله بن محمد بن لب ، ومعه نفر من زعماء بنى لب وبنى ذى النون وغيرهم من الوجوه الأكابر ، فحاصرها سانشو واستولى عليها ، وأسر من فيها من الزعماء وحملهم إلى بنبلونه ثم قتلهم ، ولم ينج منهم سوى مطرف بن موسى ابن ذى النون حيث استطاع الفرار من بينه : فضجت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها لتلك الفعلة البشعة ، ووجهت سهام اللوم إلى عبد الرحمن لقصوره أو تقصيره ، فى حماية الثغور وحماية الزعماء والقادة ، ولم يك ثمة مناص من العمل على تهدئة الخواطر ، والانتقام لذلك الاجترار . وسير عبد الرحمن مولاه ووزيره

(١) ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس - مخطوط الخزائن الملكية - لوحة ٧١ ب ٣

٧٤ أ وب ، والأوراق المخطوطة الخاصة بمصر الناصر ص ٦٣ و ٦٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٨٧ -

١٨٩ ، كذلك *Dozy : Hist., V. II. p. 114 & 143, Crónica General ; ibid. Vol. II.*

عبد الحميد بن بسيل إلى الثغر الأعلى في جيش قوى ، ريثما يتم هو أهبة (ربيع سنة ٣١١ هـ - ٩٢٣ م) ، فقصده إلى تطيلة وجاز منها إلى أراضي نبرة (نافار) ، وعاث فيها ، وقتل سانشو وهزمه في عدة وقائع . ولم تمض بضعة أشهر أخرى ، حتى أتم عبد الرحمن أهبة ، ولم يصبر على انتظار الربيع وهو موعد الصوائف ، بل غادر قرطبة في السادس عشر من المحرم سنة ٣١٢ هـ (١٧ إبريل سنة ٩٢٤ م) في قوى جرارة ، وهو يعززم التكنيل بالنصارى ، والانتقام الذريع للحناية بقيرة ، وترك في القصر ابنه الأكبر وولى عهده الحكم ، وهو صبي في نحو العاشرة من عمره ، وإلى جانبه الوزير أحمد بن محمد بن حدير ، وسلك الناصر إلى الثغر طريق المشرق ، مخترقاً كورة تدمير ، فكورة بلنسية ، ونازل في طريقه مدينة لورقة ، وكان يمتنع بها زعيمها الثائر عبد الرحمن بن وضاح ، فأخضعه بالأمان ، وبعثه مع أهله إلى قرطبة . ثم تقدم منها إلى مدينة مرسية ، فاستنزل بها يعقوب بن أبي خالد التوزري وزملاءه العصاة ، وأخضع بعض حصون أخرى في قطاع بلنسية ، ثم سار إلى طرطوشة ونظر في شئونها ، وتقدم بعد ذلك صوب سرقسطة ، وهناك انضم إليه التجبييون وحلفاؤهم . ولما وصل إلى تطيلة هرع إليه زعماء الثغرى بقواتهم ، وهم في جموع وافرة وتعبية محكمة ، ودخل أراضي نافار في أوائل ربيع الآخر (يولييه) . فساد الذعر بين النصارى ، وترك العدو معظم قلاعهم وحصونهم دون دفاع ، وكان أول ما استولى عليه المسلمون حصن قلهرة وكان سانشو قد أخلاه ، فأمر عبد الرحمن بهدمه وإحراق ما فيه ، ثم استولى عبد الرحمن على حصن قلقرة ، ومحلة بيطرالله (بيرالتا)^(١) الواقعة شمال شرق قلهرة وما حولها من الحصون ، وقتل وسبي كل من وجد بها من النصارى ؛ ثم سار إلى حصن بالحش القريب منها وأحرقه ، وخرب ما حوله من الضياع والزروع ، واستولى بعد ذلك على حصن قرقشتال (كاركاستيلو) في وادي أراجون شرق بيرالتة ، وشمال شرق تطيلة ، وهدم سائر القلاع في تلك المنطقة أو أحرقها . ثم نفذ عبد الرحمن إلى قلب نافار وزحف على عاصمتها بنبلونة ، وحاول ملكها سانشو غير مرة أن يعترض طريقه في شعب الجبال ، فكان يرد في كل مرة بخسارة فادحة . ودخل

(١) يبدو أن بيطرالله هو المكان الذى يسميه ابن حيان « قنطرة أبة » .

عبد الرحمن بذبُلونة ، وقد فرسكانها رعباً ، فدمرها وأحرق قصورها وكنائسها ، وجد سانشو في جمع قواته ووافته الأمداد من قشتالة ، وحاول لقاء المسلمين في مناوَز نافار الوعرة مرتين ، الأولى على مقربة من شنت إشتين ، والثانية على مقربة من قلهرّة ، ولكن عبد الرحمن كان على حذر ، وكان يعرف تلك المفاجآت الخطرة ، فهزم النصاري في كلتا الموقعتين ومزقوا شر ممزق ، وانهارت كل مقاومة ، وبذلك ثم إخضاع نافار وسمّى قواتها (ربيع الثاني ٣١٢ هـ — أغسطس ٩٢٤ م) .

ثم سار عبد الرحمن جنوباً إلى حصن مسرة ، وهو أول حصون المسلمين على حدود نبرة ، فعهد إلى من فيه بادخار الأطعمة ، وفرق فيهم الأموال . ورحل بعد ذلك إلى مدينة تطيلة ، فوصلها في اليوم السابع والعشرين من ربيع الثاني ، ثم قفل منها راجعاً إلى الحضرة ، وتوقف خلال الطريق بمدينة شنت برية مقر بني ذى النون ، وكان زعيمهم يحيى بن موسى بن ذى النون قد خلع الطاعة ، والتزم العصيان مستقلاً بسلطانه ، فلما أشرف الناصر على معقله ، خرج إليه نادماً مستغفراً منضوياً في ظل طاعته ، فتقبل الناصر توبته ، ودخل الناصر قصر قرطبة في يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣١٢ هـ ، وقد أنفق في غزواته أربعة أشهر ، وهى تعرف في الرواية الإسلامية « بغزوة بذبُلونة » (١) .

ولم يمض سوى قليل حتى توفى أردونيو الثاني ملك ليون (سنة ٩٢٥ م) ، فخلفه في الملك أخوه «فرويلا» ، فلم يحكم سوى عام ثم توفى ؛ فتنازع العرش سانشو وألفونسو ولدا أردونيو ، وشغلت ليون بحرب أهلية استمرت بضعة أعوام ، وانتهى طورها الأول بوفاة سانشو . ثم نشبت ثانية بين ألفونسو وأخيه راميرو ، وانتهت بفوز راميرو ، وجلسه على عرش ليون باسم راميرو الثاني ، وذلك سنة ٩٣٢ م .

ولم يتدخل عبد الرحمن في تلك الحرب الأهلية ، فترك النصاري عمزق بعضهم بعضاً ، وانتهاز الفرصة ليتم سحق الثورة ، وتوطيد السكينة داخل مملكته ، حسبما

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحة ٨٠ - ٨٣

والبيان المغرب ج ٢ ص ١٩٥ - ٢٠١ ؛ وكذلك Dozy : Hist, V. II. p. 144-145 .

فصلنا في موضعه ، وليقضى على دعوة الفاطميين في المغرب الأقصى :
وكان رامير والثاني أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً مقداماً شديد
البأس . فما كاد يلي العرش حتى نشط إلى استئناف الصراع القديم ضد المسلمين ،
وكان يرى أن العمل على إذكاء عوامل الفتنة في المملكة الإسلامية هو خير السبل
إلى تبيد قوى المسلمين ؛ وكانت مدينة طليطلة قد عادت تضطرم بعوامل الفتنة
والثورة ، وشجع رامير وبدسائسه ووعوده ، زعماءها على التمادى في غيهم ،
فأرسل إليهم عبد الرحمن وفداً من العلماء يخطب ودهم ويحثهم على الخضوع والطاعة ،
فرفضوا نصحه بكبرياء وصلف ، معتمدين على موازنة ملك ليون . فبادر الناصر (١)
بالسير إلى طليطلة في قوات ضخمة ، وذلك في ربيع الثاني سنة ٣١٨ هـ (مايو سنة
٩٣٠ م) وضرب حولها الحصار وانتسف ما حولها من المروج ، ثم غادرها بعد
بضعة أسابيع ، وترك لحصارها بعض قواته ، ثم عاد فصار إليها بعد ذلك بعامين
في صيف سنة ٣٢٠ هـ (يونيه سنة ٩٣٢ م) معتماً في هذه المرة أن ينزل بها
الضربة القاضية . وهنا حاول رامير أن يسعى إلى إنقاذ المدينة المحصورة ، استجابة
لنداء أهلها ، فصار لإنجاده في بعض قواته ، واستولى في طريقه على حصن
مجريط (٢) . ولكن القوات الإسلامية استطاعت أن ترده قبل أن يصل إلى طليطلة ،
فاضطر أن يترك المدينة الثائرة لمصيرها ، وفقد الثوار بذلك كل أمل في المقاومة ،
وأضنتهم مصائب الحصار ، فاضطروا في النهاية إلى الإذعان والتسليم ، ودخل الناصر
طليطلة ظافراً (رجب سنة ٣٢٠ هـ) ، وشهد مبلغ منعها وكثافة أسوارها ، وأمر
بهدم حصونها ، وفقدت الثورة في الأندلس بسقوط طليطلة أمنع معاقلاً .

وفي العام التالي ، سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) ، سار ملك ليون إلى مدينة
أوسمة (وخشمة) التي كان يهددها المسلمون ، فردهم عنها واحتلها ، وكانت
أوسمة ، وهي تقع شرقي شنت إشتين على مقربة من دويرة ، وعلى خط
الحصون الفاصل بين الأراضي الإسلامية وقشتالة القديمة ، من القواعد الدفاعية
الهامة ، ومن ثم فقد اعتزم الناصر أن يسير لاستردادها بنفسه ، فخرج بالصائفة

(١) كان عبد الرحمن قد اتخذ سمة الخلافة وتلقب بالناصر لدين الله منذ سنة ٣١٧ هـ حسبما نبين بعد .

(٢) هو حصن ومحلة منيعة أنشأها الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) على ضفة نهر

مشتنارس ضمن منطقة الحصون الدفاعية بين الأندلس ومملكة ليون . وقد استمرت تؤدي دورها الدفاعي حتى
سقطت أخيراً في يد القشتاليين سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) ، وعلى موقعها أقيمت مدينة مدريد الحديثة .

من قوطبة في منتصف جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ (مايو ٩٣٤ م) ، في جيش كثيف حسن الأبهة ، وكانت قواته في هذه المرة ترفع أعلام العقاب المصورة ، التي كان أول من استعملها ، وكان معه ولده الأكبر وولى عهده الحكم ، واستخلف في القصر ولده عبيد الله . وقصد الناصر إلى دار الحرب (أراضى النصارى) من طريق مدينة الفرج أو وادى الحجارة ، وذلك لكي يضع حداً لما أبداه محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة ، من أعراض الخلاف ، والتوقف عن اللحاق به حسبما أوعز إليه ، فتحول نحو أراضيه مما يلي غرب الثغر الأعلى ، واحتل حصن ماومده من حصونه ، بعد أن بادر أهله بالطاعة ، ثم تقدم إلى حصن روطه اليهود على مقربة من سرقسطة ، وكان به أخوه يحيى بن هاشم ، وافتتحه قسراً . ثم سار إلى سرقسطة ، وطوقها ببعض قواته ، وبعث قوات أخرى إلى تطيلة وطرسونة . ولكنه رأى بعد ذلك أن يتحول بقواته إلى غزو أراضى النصارى ، وكان أقربها إليه أراضى نبرة (ناقار) . وهنا وفدت عليه رسل تيودا (طوطة) ابنة شنير ملكة ناقار ، التي قامت بالأمر بعد وفاة زوجها سانشو ملك ناقار وصية على ولدها غرسية ، ترجو عقد الصداقة ، والسلم . فرحب الناصر بطلبها ، ووفدت عليه في وجوه مملكتها وقواميسها وأساقفتها ، وهو بمحلة قلهرة ، فاستقبلها الناصر ومن حوله جيوشه الكثيفة ، العظيمة الأبهة ، وأكرم منزلتها ، وتعهدت لديه بالطاعة ، والابتعاد عن مخالفة أى ملك أو أمير نصراني ، وكف الأذى عن المسلمين ، ومعاونة قواد الثغر الأعلى في محاربة كل من خرج على الطاعة ، وأخيراً أن تخلى سبيل وجوه بنى ذى النون الذين في اعتقالها . وسجل الناصر ذلك وأشهد عليه ، وأقر الناصر من جانبه ولدها غرسية ، ملكاً على بذبلمونة وأعمالها (بلاد البشكنس) ، وانصرفت مع رجالها مزودة بالهدايا والكسب الفاخرة ، وفي وفود طوطة على الناصر يقول الشاعر إسماعيل بن بدر :

وقيدت زعيمهم إليه	كبلقيس تحف به الجنود
تلفت لا ترى إلا شهاباً	به يرمى وتختطف العديد
فبادرت السجود لنور وجهه	له ربح التواضع والسجود
فأوسعها بفضل العفو أمناً	وقد كادت بمهجتها تجود

فدام يسوسنا ما دام شـبـه له في الأرض طالعه السعود

وسار الناصر بعد ذلك إلى أراضي ألبه والقلاع ، وتوغل فيها ، ففر النصارى من السهول ، واعتصموا بالجبال ، وكان أول ما استولى عليه من حصون العدو ، حصن المنار ، وهو من أعظم حصون ألبه ، فدمره المسلمون ، ودمروا حدائقه ، ولم تبق منها قائمة . وتردد المسلمون بعد ذلك في مختلف الأنحاء ، وهم يدمرون في طريقهم كل شيء ، حتى وصلوا إلى حصن أنة ، فهدموه ، وأتلفوا حدائقه ومصانعه ، وكان ضمن أبينته كنيسة فخمة ، وضمن سكانه ثلاثمائة راهب . واجتاح الناصر سائر بقاع ألبه . ثم نزل على قلونية في شهر رمضان ؛ وكان الناصر يود أن يلتقي راميرو ملك ليون في موقعة ما ، ولكنه حاول عبثاً أن يحمله على مغادرة قلاعه ، والاشتباك مع المسلمين في معركة فاصلة ، وكان راميرو يرى ما ينزله المسلمون تبعاً بأراضي مملكته من صنوف التدمير والتخريب ، وهو عاجز عن أن يقوم بأية حركة لوقف هذا السيل المخرب . وأخيراً اجتمع النصارى ، ومعهم ملكهم راميرو في قلعة مزورته الواقعة فوق ربوة وافرة الحصانة ، على مقربة من قلونية ، واستعدوا للقاء المسلمين ؛ فعبأ المسلمون صفوفهم ، واشتبكوا مع النصارى في معركة حامية ، قتل فيها عدة من أكابر الفرسان النصارى ، واستشهد عدد من المسلمين ، وحاول المسلمون بعد ذلك استدراج النصارى إلى السهل . فلما عبروا وادى أوسمة حاول النصارى الهجوم ، فردهم المسلمون وقتلوا منهم جملة ؛ ثم رحل المسلمون بعد ذلك إلى حصن غرماج (Gormaz) على مقربة من ليون . ورأى الناصر أن التقدم بعد ذلك في السهول القفرة يعرض جيشه لمتاعب شديدة ، فارتد بقواته شرقاً ، وهو يعيث في أراضي قشتالة . ثم زحف على مدينة برغش عاصمة قشتالة وخربها ، وقتل على قربتها عدداً كبيراً من أحبار الأديار المجاورة (سنة ٩٣٤ م) ثم قفل راجعاً بجيشه إلى قرطبة ، وقد قطع في غزوته هذه أربعة أشهر . وذكر الناصر في كتاب الفتح الصادر عن هذه الغزوة ، الجهات والمدن التي غزاها من بلاد ألبه والقلاع ، فكان منها مدينة أوسمة ، وحصن القصر ، وحصن أنة والدير المنسوب إليه ، ومدينة برغش وقصبتها المنيعه وبسيطها ، وحصن بلنسية وبسيطه ، وحصن اشكفيرش وبسيطه والأديار المتصلة به ، ومدينة لزمة

العظيمة الشأن وبسيطها ، ونظم الشعراء قصائدهم في تهنئة الناصر بما أصابه في هذه الغزوة من الظفر^(١) .

وتقص علينا الرواية الإسلامية خبر غزوة بحرية قام بها أسطول الناصر في تلك السنة (٣٢٣ هـ) . وخلاصة ذلك أن أسطولا بقيادة أمير البحر عبد الملك ابن سعيد بن أبي حمادة ، قوامه أربعون مركباً منها عشرون من الجرافات التي تحمل النفط والآلات البحرية ، وعشرون تحمل الرجال المقاتلة ، وعدة ركابه من الجند ألف رجل ومن البحريين ألفين ، خرج من ثغر ألمرية في شهر رجب (مايو ٩٣٥ م) فسار أولاً إلى جزيرة ميورقة الإسلامية ، ثم خرج منها متجهاً نحو شاطئ الثغر الفرنجي ، وقصد أولاً إلى مدينة بالش وهاجمها ، ووقعت بينه وبين أهلها معركة عنيفة هزم فيها الفرنج ، وقتل منهم ثلاثمائة رجل ؛ ثم سار الأسطول إلى مدينة لينش ، وأحرق بها المسلمون برأً وبحراً وأحرقوا المراكب في مرساها وقتلوا من أهلها نحو أربعمائة رجل ؛ وبعث ابن حمادة من سفنه خمسة عشر سارت شمالاً إلى بلدة مسنيط ثم سار خلفها ببقية الأسطول ، وغزا الأسطول قرى كثيرة على الشاطئ ، وحقق غنائم كثيرة ، وخرج الافرنج لقتاله ، فهزموا وقتل قائدهم . ثم تقدم الأسطول بعد ذلك من مدينة برشلونة ، عاصمة الثغر الفرنجي ، فاجتمع الفرنج لمقاومته بقيادة زعيمهم بليط ، فهزموا وقتل قائدهم ، وأغلقت المدينة أبوابها ودافع أهلها من فوق الأسوار ، فتحول الأسطول إلى الساحل الجنوبي ، ودارت بينه وبين الفرنج المجتمعين على الشاطئ معركة شديدة هزم فيها الفرنج . ثم قفل الأسطول الإسلامي بعد ذلك عائداً إلى ثغر طرطوشة الإسلامي ، مثقلاً بالسبي والغنائم ، وهناك تلقى قائده أبا حمادة كتاب الناصر ، بالهوص إلى سبتة وطنجة لمحاربة من انتقض هنالك من أهلها فصعد القائد بالأمر ، وسار بسفنه نحو الجنوب ، ولبث متردداً بين مراسي العدو حتى شتاء العام التالي ، ثم عاد إلى مراسيه في ألمرية في صفر سنة ٣٢٤ هـ^(٢) .

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية ، لوحات ١٣١ - ١٣٥

ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ ؛ وكذلك : Dozy : Hist. - Vol. II. p. 148

(٢) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحة ١٤٤ ب و ١٤٥ أ .

وفي هذه السنة أيضاً (٣٢٣ هـ) ، عقد السلم بين الناصر لدين الله وراميرو ملك ليون . وكان راميرو ، على أثر الغزوة المخربة التي قام بها المسلمون في أراضيه ، قد بعث رسله إلى الناصر في التماس الصلح ، فبعث إليه الناصر وزيره يحيى بن يحيى بن إسحاق سفيراً ، فاجتمع في ليون مع راميرو ، وعقد معه شروط الصلح . ووقع الناصر هذه المعاهدة في منتصف ربيع الثاني من هذه السنة (مارس ٩٣٥ م) ، في يوم مشهود . وكان الناصر يرمى بعقد هذا الصلح إلى أبعاد ملك ليون عن التفاهم مع محمد بن هاشم صاحب سرقسطة ومعاونته . بيد أن هذا الصلح لم يدم طويلاً ، لما كان يجيش به راميرو من رغبة ملحة في النكث والتفاهم مع الخارجين على حكومة قرطبة^(١) .

ذلك أن بذور الثورة كانت تختمر في الثغر الأعلى ، وكان النصاري إلى جانب ذلك يتحينون الفرصة للنهوض والانتقام . وكانت طوطة ملكة نيرة الوصية على ولدها غرسية ، قد لزمت السكينة حيناً وفقاً لمعاهدة السلم التي عقدتها مع الناصر ، ثم تحرك البشكنس بعد ذلك وأغاروا على بعض الحصون الإسلامية (٩٣٧ م) . وظهرت في الوقت نفسه في الولايات الشمالية أعراض فتنة خطيرة . ذلك أن بني هاشم التجيبين سادة سرقسطة ، لم يكونوا دائماً على وفاق مع حكومة قرطبة ، وكانت تحذوهم أطماع كثيرة . وكانوا يحشون عواقب السياسة التي يتبعها الناصر في إخضاع الولاة المحليين ، وسحق سلطان الأسر القديمة ، وكان وجودهم في الشمال بين الممالك النصرانية يفسح لهم مجال التآمر والخروج . وكان أبو يحيى محمد بن عبد الرحمن التجيبي ، حينما توفي في سنة ٣١٢ هـ ، قد خلفه ولده هاشم بمصادقة الناصر ، وحكم سرقسطة ، وضبط الثغر ، واشترك في الغزو مع الناصر ، وتوفي في سنة ٣١٨ هـ . فطلب ولده محمد بن هاشم التجيبي إلى الناصر أن يقره على ولاية سرقسطة ، فلم يجبه إلى ذلك ، فسار محمد إلى قرطبة مؤكداً لولائه ، فصدر الأمر بتوليته في رجب سنة ٣١٩ هـ ، والتزم بأن يورد قسماً من الحباية . ولما سار الناصر في سنة ٣٢٢ هـ إلى الغزو بعث إلى أهل الثغور لموافاته ، فقدم إليه التجيبيون ، في رجالهم ، وتحلف محمد بن هاشم عنهم ، وسار الناصر لقتاله ، ولكنه تحول

(١) ابن حيان - السفر الخامس - لوحة ١٤٣ أ

عنه إلى قتال النصارى حسبما تقدم^(١) . ومن ثم فإنه لما اضطربت نار الحرب بين ملك ليون وبين الناصر ، رأى التجيبيون الفرصة سانحة لتنفيذ مشاريعهم ، وكان راميرو ملك ليون بالرغم من ارتباطه بعهد السلم مع الناصر ، يرقب الفرصة للنكث واستئناف الحرب ضد المسلمين ، فلما استجاش به محمد بن هاشم ، رأى الفرصة سانحة ، فنكث عن السلم وعقد الحلف المنشود مع محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة ، وقرية مطرف بن منذر التجيبي صاحب قلعة أيوب^(٢) ، وتعهد محمد لراميرو أن يعترف بطاعته ، نظير معاونته إياه في الخروج على عبد الرحمن الناصر ومحاربتة ، بل يقال إن هذا الحلف كان قد عقد قبل ذلك سراً ، وإن آثاره ظهرت منذ سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٤ م) ، حينما كان الناصر يغزو أراضي ليون ، ولم يتقدم بنوهشام لمعاونته ، بل بالعكس جاهر محمد بالخروج عليه وخلع طاعته ، ثم اعترف بسيادة ليون على سرقسطة وأحوازها ، ولما أبى بعض قواد الحصون مجاراته في خيانتة ، سار إليهم راميرو وأخضعهم ، وسلم قلاعهم إلى الزعيم التأثر ، ثم عقد محمد وراميرو محالفة مع طوطة ملكة نافار ، وغزا البشكنس الأراضي الإسلامية حسبما قدمنا ، وبذا تحالف الشمال كله ضد عبد الرحمن .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، خبر معركة ، نشبت في ذلك الوقت في الثغر الأعلى بين المسلمين والنصارى . وذلك أن الفرنج في برشلونة وحلفاءهم في الثغر ، حاولوا انتهاز الفرصة ، وغزوا الأراضي الإسلامية ، فخرج إليهم أحمد بن محمد بن إلياس قائد القوات السلطانية المرابطة في الثغر على مقربة من سرقسطة ، ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة شديدة على ضفاف نهر لبره ، فهزم النصارى هزيمة شديدة وقتل وغرق منهم عدد جم . وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه الموقعة في آخر شوال سنة ٣٢٤ هـ (سبتمبر ٩٣٦ م)^(٣) . وبعث الناصر في نفس الوقت جيشاً كثيفاً إلى الثغر الأعلى بقيادة الوزير عبد الحميد بن بسيل ، ليقوم بالتضييق على سرقسطة وبنى هاشم ، وليدعم

(١) العذري في كتاب ترصيع الأخبار ص ٤٣ و ٤٤ .

(٢) Calatayud وهي تقع جنوب غرب سرقسطة في منتصف الطريق بينها وبين مدينة سالم .

(٣) المقتبس - السفر الخامس - لوحة ١٤٨ ب و ١٤٩ أ

للقوى السلطانية المرابطة على مقربة منها ، وذلك ريثما يستطيع السير بنفسه إلى الشمال . ثم أتبعه بجيش آخر ، بعثه إلى الثغر أيضاً بقيادة الوزير سعيد بن المنذر القرشي ، ليقوم بالمعاونة في التضييق على سرقسطة .

وفي نفس هذا العام (٣٢٤ هـ) حاول نصارى ليون مرة أخرى الاستيلاء على قلعة مجريط أهم قلاع الثغر الأدنى ، فهاجمتها قوة كبيرة ، ولكن الحامية الإسلامية بقيادة أبي عمر بن أبي عمر استطاعت أن تصد هذا الهجوم ، وأن تنقذ القلعة (١) .

وكان عبد الرحمن أثناء ذلك يتأهب إلى الغزوة المرتقبة إلى الشمال . ففي منتصف شهر رجب سنة ٣٢٥ هـ (مايو سنة ٩٣٧ م) ، خرج من قرطبة إلى مقاتلة أعدائه في جيش ضخم ، وكان بروزه يوماً مشهوداً ، تبدت فيه روعة أهباته ، وفي ذلك يقول الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه :

يوم من العز مجموع له الناس يختال في عقوته الجود والباس

وعلم عبد الرحمن أثناء سيره ، أن النصارى في الوقت الذى يحتشدون فيه بأطراف الثغر الأعلى ، لمناصرة حليفهم الخارج محمد بن هاشم التجيبى صاحب سرقسطة ، يحاولون في نفس الوقت أن يزحفوا صوب طليطلة لإثارة الثورة فيها . فسار بجيشه إلى طليطلة كيما يؤمن أهلها ، ويرهب النصارى ، ونزل عليها ، فلما علم النصارى بمقدمه ارتدوا مذعورين إلى الشمال . وفي خلال ذلك وافاه كتاب من أحمد بن محمد بن إلياس قائد الثغر بظفره بالعصاة في مدينة وشقة ، وكتاب آخر بإخماد ثورة أهل طلبيرة غربى طليطلة .

وسار عبد الرحمن بعد ذلك إلى الثغر الأعلى من طريق وادى الحجارة ، وأبقى قوة من جيشه في منطقة طليطلة بقيادة مولاة درى ، للسهر على النظام في تلك المنطقة ؛ ورأى أن يبدأ بقلعة أيوب ، وكان قد امتنع بها مطرف بن منذر التجيبى المعروف بأبى شورب ، وكان راميرو قد بعث لإنجاده فرقة من فرسان ألبه والقلاع . فحاصر عبد الرحمن القلعة ، وبعث يدعوه إلى الطاعة ، ويؤكد له الأمان بخطه ، فرفض مطرف أن يستجيب إلى هذه الدعوة ، فهاجم عبد الرحمن القلعة ، وبرز إليه مطرف وحلفاؤه ، ونشبت بين الطرفين معركة

شديدة ، هزم على أثرها مطرف ، وقتل ، ولجأ أخوه حكم بن منذر في فلوله ومن معه من فرسان ألبه إلى القصبة ، وامتنعوا بها ، فاستمر الهجوم عليهم ، وكثر القتل في المدافعين ، حتى اضطر حكم أن يطلب الأمان لنفسه ولخلفائه النصارى ، ليعودوا إلى بلادهم ، ويلحق هو وأهله بالحضرة ، فقبل الناصر ونزل حكم ومن معه من القصبة ، وأعفى عن النصارى المستأمنين وقتل الباقيون . ووقع فتح قلعة أيوب على هذا النحو في التاسع عشر من شهر رمضان من هذه السنة . وكان فتح قلعة أيوب أول صدع خطير في ثورة بنى تيجيب ، وكان بها ، فضلا عن مناعتها الطبيعية ، عدة كبيرة من فرسان سرقسطة الأكابر ، وخمسمائة من الفرسان النصارى لم ينج منهم سوى الخمسين الذين أمنوا ، وقد أفاضت الشعراء في تهنئة الناصر بهذا الفتح ، ومن ذلك قصيدة لابن عبد ربه هذا مطلعها :

يا ابن الخلايف والصيد الصناديد ألفت إليك الرعايا بالمقاليد
ورأى الناصر ، قبل أن يسير إلى سرقسطة ، أن يقوم بجولة في أرض النصارى . فاتجه إلى أراضي ألبه والقلاع ، فافتتح عدة كبيرة من حصونها تبلغ السبعة والثلاثين حصناً . واعترزم بعد ذلك أن يعاقب البشكنس على عدوانهم ، فسار إلى بسيط بنبلونة ، وخرب معاهدها وحصونها ، ومزق جموع البشكنس وسحق كل مقاومة ، وبعث فرقاً من جيشه إلى مختلف الأنحاء المجاورة فعاثت فيها وأصاب المسلمون غنائم كثيرة . وساد الرعب على البشكنس ، وهرعت إليه طوطة ، ملكة نبرة تقدم إليه خضوعها وتوبتها ، فقبل الناصر اعتذارها وأقر ولدها غرسية ملكاً على نبرة في طاعته وتحت حمايته ؛ وكان ذلك في أواخر رمضان وأوائل شوال من سنة ٣٢٥ هـ (أغسطس ٩٣٧ م) (١) .

وسار الناصر بعد ذلك إلى تطيلة ، ثم سار منها إلى سرقسطة ، فنزل عليها في الثاني عشر من شهر شوال ، وابتنى حولها المنازل والدور بمحلته ، وعهد بحصارها إلى أحمد بن إسحاق القرشى قائد الفرسان ، وهو من قرابته ، وعينه حاكماً للثغر . ولكنه تهاون في الحصار وتوانى لمرض في قلبه ، ولأطاع كانت تجيش بها نفسه ، فأنبه عبد الرحمن وعزله ، فاتفق مع أخيه أمية على التآمر

(١) ابن حبان في المقتبس - السفر الخامس - لوحات ١٥٣ و ١٥٥ و ١٥٦ أ .

والخروج ، فوقف عبد الرحمن على أمرهما واكتفى بنفيهما من الأندلس . فسار أمية إلى مدينة شنترين^(١) في ناحية الغرب ، واستولى عليها ورفع بها علم الثورة ، وتحالف مع ملك ليون . فأمر الناصر القائد أحمد بن محمد بن إلياس ، وكان مقيماً في بطليوس ليرصد حركات أمية بن إسحاق ، أن يغزو أرض العدو ، فسار إلى أراضي ليون واشتبك مع الجلائقه في معركة ، هزم فيها الجلائقه ، وقتل منهم عدد جم ، ولا سيما من أهل سمورة (جمادى الأولى سنة ٣٢٦ هـ) ، ثم أمر الناصر بعد ذلك القائد عبد الحميد بن بسيل ، أن ينضم في قواته إلى أحمد ابن محمد بن إلياس ، وأن يسيرا معاً إلى غزو ليون ، فصدعا بالأمر ، ووصلوا بقواتهما إلى أرض النصارى وعاثا في جنباها ، وفي نفس الوقت تحركت بعض السفن من نهر الوادى الكبير وسارت نحو الغرب لغزو أهل شنترين الذين يناصرون أمية بن إسحاق . وانتهى الأمر بأن قام أحد الزعماء المحليين الذين يدنون بطاعة الأمير ، واستطاع أن ينتزع شنترين من أمية ، فالتجأ أمية إلى راميرو . أما أخوه أحمد فحاول أن يتصل بعمال الفاطميين في عدوة المغرب ، وأن يأتمر معهم على حكومة قرطبة ، فسعى عبد الرحمن إلى القبض عليه ثم أمر بإعدامه^(٢) ، ولكن سرى أن مغامرات بنى إسحاق لم تنته عند هذا الحد . واستمر حصار سرقسطة مدى أشهر ، والناصر يشدد عليها الخناق شيئاً فشيئاً . وأخيراً اضطر محمد بن هاشم أن يبعث رسلة في طلب الأمان والصلح ، على أن يقره الناصر على حاله ، فأبدى الناصر قبوله وتسامحه ، وطلب أن يخرج إليه إخوة محمد ووجوه أهل سرقسطة لعقد الصلح . فخرج إليه وجوه سرقسطة ، ومن بينهم إخوة محمد ، يحيى وعبد الرحمن وهذيل ، وعدة من ذوى الشوكة . وهنا ثابت للناصر فكرة في انتهاز الفرصة ، والقبض على تلك الصفوة المختارة من أهل سرقسطة ، ليسدد إلى المدينة النائرة ضربة مميتة ، فأمر بالقبض عليهم جميعاً واعتقلهم داخل سرادقه ، فلما علم محمد بن هاشم بما تم سقط في يده ، وشعر بوقع هذه الضربة التى حرمته من كبار معاونيه ، ولكنه استمر صامداً ممتنعاً ، ورسل الناصر تتردد إليه بالإعذار والإنذار دون جدوى . وأخيراً بعث

(١) وهى بالإفرنجية Santarem .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٠ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

إليه الناصر بوزيره ومولاه محمد بن عبد الملك بن أبي عبدة ، فاطمأن الثائر إليه ، وأذعن إلى التوبة والإنابة وطلب الأمان والصلح ، وكان ذلك خلال عيد الأضحى سنة ٣٢٥ هـ .

فاستجاب الناصر إلى طلب محمد بن هاشم ، وعقد له الأمان بأوثق عقد ، وشهد الملأ من أهل العسكر وأهل الثغور ، وشهدت نسخته في الناس عامة ، وذلك في شهر المحرم سنة ٣٢٦ هـ (نوفمبر ٩٣٧ م) . وكان مضمونه « أن يمنح الأمان لمحمد بن هاشم وإخوته وجميع أهله وأصحابه من مدينة سرقسطة ، وجميع من يتصل بهم من أهلها ، للمدة التي يرضاها الناصر ، وأن يملكه سرقسطة تملكاً يدخل فيها من يشاء ، وإلى العدد الذي يرضاه من رجاله ، ويكون أهل مدينة سرقسطة ومن يبقيه محمد بن هاشم منهم من أهله وأتباعه آمنين بأمان الله ، محفوظين بعهد الملة . مستمسكين بمثل أمان محمد بن هاشم ، غير معتقبين في أنفسهم ، ولا مأخوذِينَ بذنب سلف ، وأن يخرج محمد بن هاشم من سرقسطة بنفسه ، ومن أحب إخراجه معه من خواص أهله وولده ، إلى مدينة تطيلة أو غيرها من مدن الثغر ، وحصوله مسجلاً على الموضع الذي يتخيره ، ويبقى بسرقسطة من أحب منهم ، ويختلف عليهم . وعلى المولى بسرقسطة بعده ، إحسان صحبتهم ، وعاليه أن يباعد منزله عنهم ، لا يقربه شيء من دور محمد ابن هاشم ، أو ينزل القصر القديم بعد خروج محمد بن هاشم عنه بجميع ماله فيه . وعلى أن يسجل الناصر لدين الله ، لأخيه يحيى بن هاشم على ما كان بيده من مدينة لاردة وأحوازها . فإن انقضت المدة التي يضر بها الناصر لمحمد ، توجه إلى الحضرة ، وأقام فيها ثلثين يوماً أو نحوها ، مظهرراً لصدق طاعته ، ماحياً لكل ما انتثر في أقطار الأرض من معصيته ، وهو في توجهه إليه آمن في طريقه ، ومدة مقامه ومنصرفه ، غير مقطوع ولا معترض دون الانصراف ، إذ انقضت المدة التي وضعت له . وله على السلطان إذا وفي بما عقد عليه من الشخوص إلى باب سُدتّه أن يكتب له عهداً على مدينة سرقسطة ، ويصرفه إليها عاملاً وقائداً ، ويعزل عنها عامله وقائده ، بعد أن يناله من كرامته ، ويظهر عليه من آثار نعمته ، ما يعود معه إلى أحسن الأحوال التي كان عليها قبل هفوته » .

وقد اشترط عهد الأمان أيضاً أن يقدم محمد بن هاشم إلى الناصر رهائن من

ولده وإخوته وصحبه وكاتبه ، وأن يكون جماعتهم لدى الناصر بحال حفظ وتكرمة ، وأمان في المسير والمقام ، يدلهم ستة أشهر ، باكفائهم ونظرائهم من إخوانهم خاصة ، إلى أن يظهر لأمير المؤمنين براءة محمد بن هاشم من ممالأة المشركين ، وتصحيحه طاعة أمير المؤمنين ، وعلى أن يقطع محمد بن هاشم من المشركين في ظاهره وباطنه ، من حد بلد برشلونة إلى شرطانية إلى بنبلونة إلى ألبه والقلاع وإلى جليقية ، ولا يكاتبهم ولا يداخلهم ، ولا يصالحهم على طرف من أطراف الثغر إلا عن إذن أمير المؤمنين ، وأن يورد جباية بلده لخلها ، بعد أن يسقط عنه جباية عام ، وألا يتقبل حراً نازعاً ، ولا عبداً أبقاً لأمير المؤمنين ، ولا لأحد من رعيته ، وأن يوثق من ظفر به من هذه الطبقة ويصرفه إلى مكانه ، وألا يتعقب أحداً ممن سجل له عليه ، أو يسجل بعد ، ممن حاربه مع أمير المؤمنين وفارقه إليه أيام الطاعة ، وأن يحدد البيعة لأمير المؤمنين ويلتزم شروطها ، وأن يغزو مع أمير المؤمنين ، ويعادى من عاداه ويحارب من حاربه ، ويسالم من سآله من أهل الملوك وغيرهم ، ويقطع نصيبه من كل من أخرج يده عن طاعته ، وإن كان ابنه أو أخاه ، يلتزم كل ما ألزمه أمير المؤمنين من ظاهر القول وباطن الإرادة ، لا ينقص تناول البغية ، ولا يحرف عن التصحيح بالعلة ، فقد التزم أمير المؤمنين في عقده ، مثل ما سأله محمد في ذلك وأوجه على نفسه مع دركه لهذه المن ، إن صدق الطاعة ، أن يوليه مدينة سرقسطة ، وما وقع في سجنه معها ولاية مستمرة ، ولا يعزله طول أيامه عنها ، ثم لا يواخذه بذنب ، ولا يعدد عليه اقتراف خطأ ولا عمد ، ولا تقبل فيه مقالة كاشح ولا طعن حاسد ، ويصير ذلك له وصية فيمن بعده ، يلزمهم الوقوف عندها على سبيل الخلفاء في خالذات عهودهم إن شاء الله ، ووقعت الأمان في هذا الأمان من الناصر لدين الله مستوفاة مغلظة ، أخذ على محمد بن هاشم أشد منها ، فحلف في مقطع الحق بمسجد سرقسطة الجامع خمسين يمناً منسوبة بمحضر قاضي الجماعة بقرطبة والفقهاء وأعلام العسكر ، والملا من أهل بيت محمد بن هاشم ، ووجوه أهل الثغر ، على التزام ما عقد على نفسه منه واعتداده إياه ديانتة . ثم أشهد الناصر لدين الله على نفسه فيه جميع أهل عسكره ، فكان أول من شهد عليه أولاده الحاضرون ، ثم أعمامهم ثم الوزراء وأصحاب الخطط ، ثم الفقهاء ، ثم

وجوه أهل سرقسطة ومن حضر من أهل الثغر^(١).

سقطت سرقسطة وسائر الحصون المجاورة لها في يد الناصر ، وكذلك سقط في يده حصن روضة أمتع حصونها في الغرب ، وبذا انهارت ثورة التجيبين في الشمال ، وكانت من أخطر الثورات التي واجهها الناصر ، لأنها كانت مركزاً لتجمع القوى المعادية للخلافة قرطبة ، من الخوارج والأمراء النصاري . أما عفو الناصر عن محمد بن هشام ، ومنحه الأمان له ، واستصناعه بالرغم من فداحة جرمه ، فيرجع إلى ما كان يتمتع به محمد من مقدرة إدارية فائقة ، ولما كان لبني هاشم في الشمال من مركز قوى موثّل ، ولما كان لهم من العصبة والأنصار . وقد رأينا الناصر في غير موطن ، يعفو عن الثوار العتاة ، ويحسن إليهم ، وينظمهم في جيشه . وقد كانت هذه سياسة مستتيرة من الخليفة القادر ، للاستفادة من هذه العناصر المنحرفة القوية معاً ، متى استقرت توبتها ، وحسن ولاؤها .

ودخل الناصر بجيشه مدينة سرقسطة وفقاً للسلم المعقود في يوم الخميس ١٤ من المحرم سنة ٣٢٦ هـ (٢٢ نوفمبر ٩٣٧ م) ، وشهد منعتها وحصانة أسوارها ، فأمر بهدم الأسوار حتى لا تعود منعتها فتشجع الخوارج على الثورة ، وشحنها برجاله ، ونظر في مصالحها ، فساد بها الهدوء والأمن ، وبعث الناصر أثناء مقامه بسرقسطة ، قوة من جيشه بقيادة نجدة بن حسين الصقلبي لتقوم ببعض الغزوات في أرض العدو ، وأمر محمد بن هاشم أن يرافقه في أصحابه امتحاناً لوفائه ، فصعد بالأمر . وسار المسلمون بالرغم من اشتداد البرد وانهمار الثلوج صوب ناحية شنت إشتين ، وتفرقوا إلى ثلاث فرق ، أخذت كل فرقة منها بشن الغارات في قطاع معين ، ثم اجتمعت عند حصن شنت إشتين ، وهنا حاول النصاري اعتراض المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصاري . وتوغل المسلمون بعد ذلك في أراضي ألبية ، وانتسفوا الزروع

(١) أورد لنا ابن حيان حوادث فتح سرقسطة ، وعهد الأمان الذي أصدره الناصر لمحمد ابن هاشم نقلاً عن عيسى بن أحمد الرازي . وقد أورد لنا أيضاً أسماء الشهود الذين وقعوا هذا الأمان من الأمراء والوزراء وأصحاب الخطط والموالي والفقهاء وغيرهم ، وشغل ذلك أكثر من صفحة . المقتبس في السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية لوحات ١٥٦ ب إلى ١٥٩ أ .

وخرّبوا الكنائس والديارات ، ثم عادوا مثقلين بالغنائم إلى سرقسطة . وكان الناصر قد استتم خلال ذلك النظر في شئون الثغر ، وحفظ أطرافه ، وتزويده بالحياة والمقاتلة ، وكل ما يضمن سلامته ، ثم خرج بجيشه من سرقسطة قافلاً إلى الحضرة في الرابع عشر من صفر ، فوصل إلى قصر الخلافة في الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٣٢٦ هـ (أواخر يناير ٩٣٧ م) ، وذلك بعد أن قضى في غزوته زهاء ثمانية أشهر^(١) .

ووفد محمد بن هاشم التجيبي بعد ذلك على قرطبة ، فأكرم الناصر وفادته ، وأقام في كنفه مدة في رغد وإيثار ، وهو يحضر مجالس الخليفة ، ثم غادر قرطبة في رجب بعد أن ولاه الناصر سرقسطة ، وعقد له عليها وعلى الجهات التابعة لها ، وولاه القيادة في نفس الوقت ، وبذا رد إلى سابق مناصبه ومكانته .

* * *

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يمزق شمل هذا التحالف الخطر ، وأن يخضع الشمال الشرقي من شبه الجزيرة كله لسلطانه وصولته ؛ ولم يبق عليه إلا أن يحطم خصمه القوى العنيد راميرو الثاني ملك ليون ، وهو محور النضال الحقيقي . فلم يمض سوى عامين حتى تأهب للقيام بأعظم غزواته ضد مملكة ليون ؛ فحشد جيشاً ضخماً يبلغ زهاء مائة ألف ، وعهد بقيادته إلى نجدة بن حسين الصقلبي . وكان الأجانب والصقالب قد تبوأوا يومئذ ذروة القوة والنفوذ في بلاط قرطبة ، وسيطروا على معظم المناصب الكبيرة في القصر والحيش . وكان لهذه السياسة التي أسرف الناصر في اتباعها ، أسوأ الأثر في نفوس الزعماء العرب ، وفي انحلال قوى الحيش المعنوية . وفي صيف سنة ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) سار الناصر إلى ليون على رأس جيشه الضخم ، وعبر نهر التاجه من عند طليطلة ، ثم عبر نهر دويرة متجهاً نحو قلعة شنت منكش ، أو شنت مانك (سيانقة) دون أن يفتن إلى ما يفت في عضد هذه القوة العظيمة من العوامل الخفية ؛ وكان راميرو الثاني يربط على مقربة منها في حشود عظيمة ، متأهباً لقتال المسلمين بكل ما وسع ، وزوده حليفه الخائن أمية بن إسحاق بنصائح ومعلومات ثمينة ،

(١) المقتبس في السفر الخامس - لوحة ١٦٣ أ و ب .

وانضمت إليه طوطة ملكة نافار ناكثة لعهدا ، وبذا اتحدت قوى اسبانيا النصرانية لمقاتلة المسلمين مرة أخرى .

وهنا تختلف الرواية العربية والفرنجية اختلافاً بيناً في شأن الواقعة التي نشبت بين المسلمين والنصارى ؛ وبينما تقدم إلينا الرواية الفرنجية كثيراً من التفاصيل الواضحة المفردة أحياناً ، إذا بالرواية العربية يغلب عليها الإيجاز والغموض والتحفظ ؛ وبالرغم من أن الرواية الأندلسية تشير إليها في غير موضع وتصفها « بغزاة القدرة » تنوياً بأهميتها ، وما كان يعلق عليها من رغبة في سحق المملكة النصرانية ، وتسميها بموقعة « الخندق » وهو نفس الاسم الذي تقدمه الرواية الفرنجية ، فإنها لا تقدم إلينا أى تفصيل شاف عن مكانها وظروفها^(١) . وسوف نستعرض أقوال الرواية الإسلامية أولاً ، ثم نتلوها بأقوال الرواية النصرانية ، حتى نستطيع بالتحخيص والمقارنة ، أن نخرج بفكرة واضحة عن حقائق هذه الواقعة التي تعتبر من كوارث التاريخ الأندلسي .

ويقدم إلينا المسعودي عن الواقعة رواية يطبعها لون القصة . فيقول لنا إن عبد الرحمن اقتحم بجيشه حدود ليون وزحف على مدينة سمورة عاصمتها ، وكانت في غاية المناعة ، يحيط بها سبعة أسوار شاهقة البنيان ، قد أحكمتها الملوك السابقة ، وبين الأسوار خنادق متسعة تفيض بالماء ، فافتتح المسلمون منها سورين ، واحتسمى النصارى بداخل المدينة ، ثم لحق المسلمين الإعياء من امتناع المكان وحصانته ، فكر عليهم النصارى بشدة وحماسة ، فساد الاختلال بين المسلمين وهزموا هزيمة شديدة ، وقتل منهم زهاء أربعين ألفاً وقيل خمسين ألفاً ، وكان ذلك في شوال سنة ٣٢٧ هـ (يوليه ٩٣٩ م) . وسميت الواقعة بموقعة الخندق لنشوبها على خنادق سمورة^(٢) .

على أن الرواية الأندلسية أكثر وضوحاً ودقة ، في شرح تفاصيل هذه

(١) أخبار مجموعة ص ١٣٦ ؛ ويشير ابن خلدون إلى الواقعة بإشارات عابرة (ج ٤ ص ١٣٧ و ١٤٠) . وكذا ابن الأبار في الحلة السيرة ص ١٥٠ . ولم يذكرها ابن عذاري في البيان المغرب .

(٢) مروج الذهب (بولاق) ج ١ ص ٧٨ ؛ ونقلها المقرئ في نفع الطيب ج ١ ص ٦٦٥ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

الكارثة . ولدينا من ذلك روايتان ، تمتاز كلتاهما بنوع من الوضوح في تحديد مكان الواقعة وظروفها ، هما رواية مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان ، ورواية الوزير ابن الخطيب .

أما رواية ابن حيان ، وهى التى ينقلها فى المقتبس عن عيسى بن أحمد الرازى ، فخلاصتها ، هو أن الناصر لما عزم على غزو أهل جليقية (مملكة ليون) ، جد فى الاستعداد والحشد ، وبعث كتبه إلى الثغور ، واستكثر من الآلات والسلاح ، وخرج فى حشوده إلى الغزو فى يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٣٢٧ هـ الموافق لأول شهر يونيه العجمى (سنة ٩٢٩ م) . وكان الناصر قد سير قبل خروجه الوزير القائد أحمد بن محمد بن أبى عبدة فى بعض قواته إلى جهة الغرب احتياطاً على أهله ، وحماية لهم أثناء قيامه بالغزو .

ووصل الناصر فى قواته إلى طليطلة فى يوم ٢٣ رمضان ، ثم خرج منها إلى أرض العدو (قشتالة) فى الخامس من شوال ، فعاث فيها أياًماً ، وألقى النصارى قد أدخلوا معظم بلاد هذه المنطقة ، وكانت غاصة بالنعم والأقوت ، فاستولى المسلمون عليها ، ثم تقدموا إلى حصن أشكر ، وخرّبوه وانتسفوا ما حوله . ثم ساروا إلى حصن أطلّة ، فحصن برتيل ، وذلك فى يوم ١٣ شوال .

وكان محمد بن هاشم التجيبى صاحب سر قسطة قد تقدم فى قواته ، فى الوقت نفسه ، فعبر نهر شنت مانكش (سيانقا) ، فارتد العدو بقواته وراء النهر ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى أولاً ، ولكنهم عادوا فاجتمعوا وتكاثروا على المسلمين ، وسقط محمد بن هاشم عن فرسه خلال القتال فأسر ، وهزم المسلمون على باب شنت مانكش هزيمة شديدة ، وقتل منهم كثيرون وارتدوا فى تراجعهم إلى خندق عميق ، وهو الذى تنسب إليه الواقعة ، فتردى فيه منهم خلق كثير ، فتقدم الناصر مضطراً بقواته ، وترك محلته ، فلكها العدو فى الحال ، واحتل الناصر أعلى النهر بقواته ، وقد عجز النصارى عن اتباعه ، فلبث هناك يومه ، وقد ساد الخلل فى الجيش ، وأيقن الناصر بتمحيص الله للمسلمين ، ثم رحل قافلاً حتى وصل إلى مدينة وادى الحجارة ، ثم سار منها إلى قرطبة .

هذا ملخص ما نقله ابن حيان عن عيسى بن أحمد عن موقعة الخندق ، وي زيد ابن حيان على ذلك ، أن هذه الواقعة التى اشتهر حديثها بالأندلس قد نالت

السلطان (الخليفة) والمسلمين فيها محنة عظيمة ، وقتل وأسر فيها خلق كثير . واستولى العدو على محلة السلطان وسراجه وآلاته السلطانية ، وفيها مصحفه الخاص ودرعه الأثير لديه . وشملت الهزيمة سائر الكافة ، فلم ينج من نجا منها إلا على متون الدواب . وأصاب القتل والأسر بالأخص أهل البلاد والمطوعة . وأما الجند فقد نجا معظمهم ، وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والحشودة .

ويقول لنا ابن حيان ، إنه كان بين ضحايا المعركة جده أبوسعده مروان بن حيان بن محمد بن حيان . ومن الحقائق المؤلمة التي ينقلها إلينا ابن حيان ، أنه قد بدا في هذا اليوم ، من قوم من وجوه الجند « النفاق لأضغان احتملوها على السلطان فقبعوا للصفوف ، وسارعوا في الهرب ، وجروا على المسلمين الهزيمة وأوبقوهم . وكان أسبقهم إلى ذلك وأكشفهم لما في نفسه الخائن « ابن فرتون بن محمد الطويل » وقد بعث الناصر خلفه برسول استطاع القبض عليه ، فتقف وحمل إلى قرطبة ، وهناك صلب على باب السدة يوم وصول الناصر من غزاته ، وألحق به نفر من أشكاله ممن عملوا عمله ، ولحقهم وزره .

ويصف لنا عيسى بن أحمد ، طريق العودة الذي سلكه الناصر بجيشه عقب الموقعة ، فيقول إن الناصر ، قصد أولا إلى مدينة الفرج (وادي الحجارة) ، ثم غادرها في يوم الخميس الحادي عشر من ذي القعدة ، وسار إلى جريرة ، ومنها إلى شبطران ، ومنها إلى محارس ، ومنها إلى مدينة طليطلة ، فلبث بها أربعة أيام ، ورحل منها يوم الخميس إلى فج سراج ، ومنها إلى ملقون ، ثم احتل بالبركة ، ومنها إلى منزل رند ، ثم إلى قنالش على وادي أريش ، ومنها إلى طير برتيلة ، ومنها إلى قليانة ، فأرملاط ، ومنها إلى منية نصر على باب قرطبة بعدوة النهر بالربض . وهناك قضى الليل . ثم سار إلى قصر قرطبة في الغد ، وقد نفذ أمره بصلب فرتون بن محمد الطويل ، على باب السدة الأكبر من أبواب القصر .

هذا ، وقد نقل إلينا ابن حيان نص الكتاب الذي صدر باسم الناصر عن الموقعة ، وهو من إنشاء الوزير الكاتب عيسى بن فطيس . وهو كتاب طويل ، يحاول فيه كاتبه أن يصف أدوار الموقعة ، وروعة القتال الذي نشب بين المسلمين والنصارى ، ويستخلص منه أن المعركة بدأت في صالح المسلمين ، وأنهم استطاعوا في البداية أن يردوا النصارى ، وأن يفضوا جموعهم ، حتى سقط محمد بن هاشم التجيبي

قائد الطليعة عن فرسه ، وأسره النصارى ، فعندئذ ارتد المسلمون إلى خطوطهم ، وذلك بعد أن قتلوا عدداً كبيراً من أعلام النصارى ، وقوامسهم وفرسانهم . ثم استؤنف القتال فى اليوم الثالث ، وقد تضخمت حشود النصارى بما ورد إليهم من الأمداد « من أقصى بنبلونة وألبه والقلاع ، وأهل قشتيلة إلى مشركى قلمرية ، وكل صنف من أصناف العجم معهم » ، واضطربت المعركة بين الفريقين ، وانتهت هذه المعركة الثانية بهزيمة النصارى وقتل عدد من أعلامهم ، وارتد المسلمون إلى خطوطهم ظافرين . وفى اليوم التالى بادر النصارى بالهجوم ، فلقبهم المسلمون بعنف وشدة ، واحتدم القتال ، وسقط « عظيم من عظماء النصارى » فاستداروا حوله ، وقد لحقتهم الهزيمة ، وهنا يقول الكتاب « وبلغ أمير المؤمنين أقصى أمله من إذلال جميع المشركين ، والاحتلال بساحتهم ، وأنحياز طاغيتهم فى أعلى شاهق ، يرجو النجاة بنفسه ، فأمر بالرحيل ، وقد ضاعف النظر ، والعدو فى ضبط ساقة جيشه ، لما توقع خروج الكفرة فى أثره . وأصبح منتقلا ، فما أقدم أعداء الله أن ينظروا من الجيش إلا من بعد على رأس جبل » .

وسار الناصر ، حسبما ينبئنا الكتاب ، بعد ذلك صوب نهر دويرة ، فى اتجاه حصن شنت منكش ، وهو يهدم الحصون ، وينتسف الزروع فى طريقه . وكان الناصر ، يزمع السير شرقاً بجذاء دويرة ، حتى حصن شنت إشتين ، ولكنه عدل عن ذلك ، وأزمع السير إلى حصن أنتيشة . وهنا يتحدثنا الكتاب عن المرحلة الحاسمة من الموقعة . ذلك أن الناصر ، أشرف فى سيره على « خنادق ومهاو تتقاذفه ، وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون ، وقدموا إليها ، وألقوا إلى ساقة الجيش فرسانهم ، فدارت عليهم الحرب ، وصرع فيها من جلة فرسانهم ، ومتقدمى رجالهم جملة ، لو أصيب ببحث يترأى الجمعان لكأن سبب هزيمتهم ، ولكنهم وثقوا بالوعد ، وانتظروا تقدم الحماة ، وترادف الأتقال ، فحامى أمير المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين ، ساعات من النهار ، حتى تقدم أكثرهم ، وجازت الخندق لقتالهم ، إلا من ضعفت دابته ، أو ضعفت تعبته عن استنفارها . فلما رأوا الخلل تصايحوا من قنن الجبال ، وانخطوا من أعاليها انحطاط الأوعال ، فأصابوا من الأمتعة والدواب المثقلة ، ما لو أصابوا مثله فى مجال حرب أو سهل

من الأرض ، لما أنكر مثله مثله . عند مقارعة الرجال : وتصرف الأحوال .
وحامى صاحب العسكر عن كل من أجاز الخندق ، وخلص من مضايقه ، حتى
أسهلوا . وأصبح لأمر المؤمنين جيوشه ، وانتظمت جموعه ، وسلم الله رجاله ،
فلم يصب منهم أحد . وفي ذلك دليل للسامع عن الموقعة أنها لم تدر بغلبة ،
ولا ظفر المشركون ، اظفروا به فيها عن مساواة أو كثرة ، ولكن ضيق المسالك ،
ووعر الطريق ، وسوء فهم الدليل ، خلى لما جلبه إلى أقدار الله تعالى التي
لا تصرف ، ومحنة التي لم يزل يمتحن بها أوليائه ليعظمهم ، ويبتلى عبيده ليرهبهم ،
وأمر المؤمنين شاكر لله تعالى عظيم نعمه ، وواقف على تصرف محنته ، مستسهل
ما اختص به في حب طاعته ، ضارع إلى الله تعالى في التقبل لقوله وفعله .

وقد أرخ هذا الكتاب في اليوم الثامن من ذي القعدة سنة ٣٢٧ هـ ، أعني
عقب الموقعة بأربعة أسابيع ، وحينما وصل الناصر في ارتداده إلى وادي الحجارة ،
وذلك ليكون أيضاً للناس ومعدرة من الخليفة ، عما أصابه من هزيمة . على أن
هذه العبارات الرفيقة التي صيغ فيها الخطاب ، وهذه التأكيدات الجريئة ، بأن
أمر المؤمنين ، عقب جواز الخندق ، قد انتظمت جيوشه ، وسلم الله رجاله ،
ولم يصب منهم أحد ، لا يمكن أن تنفي شيئاً من الحقائق المؤلمة ، التي تشهد كلها
بفداحه النكبة التي نزلت بجيش الناصر على خندق شنت منكش ، والتي يفصل
لنا ابن حيان بعض نتائجها وآثارها فيما تقدم .

ونقل إلينا ابن حيان كذلك رواية موجزة عن الموقعة عن عريب بن مسعود
جاء فيها : « غزا الناصر لدين الله سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بالصوائف إلى
مدينة شنت مانكش بلد ألبه ، توارز الكفرة ، فوقعت حرب عظيمة انهزم
المسلمون عنها ، واستمسك الناصر لدين الله في رجال الحقيقة بعد أن هلك في
[الموقعة] عالم من المسلمين ، وقتل منهم كثير ، وأسو كثير ، وكان ممن أسر
محمد بن هاشم التجيبي صاحب سر قسطة . وذلك في شهر رمضان منها » .

وكان القائد الباسل محمد بن هاشم التجيبي ، قد لبث في أسر راميرو
(رذمير) ملك ليون ، مدة استطالت أكثر من عامين ، والناصر يسعى إلى
افتكاكه ، ويضاعف له الفدية ، حتى أفرج عنه أخيراً ، وحضر إلى قرطبة في

شهر صفر سنة ٣٣٠ هـ ، بعد عامين وثلاثة أشهر من أسره (١) .
وأما رواية ابن الخطيب ، فهي بالرغم من إيجازها أقرب الروايات الإسلامية إلى الدقة والحقائق التاريخية ، فهو يحدد تاريخ الموقعة ، ومكانها بدقة ، ويصفها « بالوقعة الشهيرة التي ابتلى الله بها عبد الرحمن ومحصه ، والتي أوقعه بها عدو الله رذمبر ابن أردون » . فأما تاريخ الموقعة فهو يوم الجمعة ١١ شوال سنة ٣٢٧ هـ (أول أغسطس سنة ٩٣٩ م) ، وقد وقعت على باب شانت منكش (٢) ، بعد قتال استمر أياماً ، تراوحت فيه المغالبة بين الفريقين بأشد ما يكون وأصعبه . ثم كانت للعدو الكرة ، فانكشف المسلمون انكشافاً لم يسمع بمثله ، وألحأ العدو المسلمين إلى التراجع إلى خندق عميق ، هو الذي تنسب إليه الموقعة (فهي تسمى موقعة الخندق) (٣) . فتساقط فيه المسلمون حتى ساووا بين ضفتيه ، وانكشف الناصر ، واستولى العدو على محلاته ، وما فيها من عدة ومتاع ، وضاع فيها مصحفه ودرعه (٤) .

ولدينا من الرواية النصرانية أولاً رواية ألفونسو الحكيم في تاريخه العام ، وهي رواية موجزة مغرقة معاً ، وخلاصتها أن عبد الرحمن ملك قرطبة وابن يحيى ملك سرقسطة ، قدما في جيش ضخّم إلى أرض الملك راميرو ، ووصلوا في جيشهما حتى بلدة سيت مانكاس . فلما علم بذلك الملك راميرو خرج لقتالهم وقتلهم حتى هزم المسلمون ، وقتل منهم ثمانون ألفاً ، وكان هذا اليوم يوم القديس يوستى والقديس باستور . ويقول لوقا التوجي إنه كان يوم الإثنين . وأسر ابن يحيى . وهرع المسلمون الآخرون إلى حصن يسمى « الخندق » Alfondiga وتركوا كثيراً من قتلاهم في الميدان . وحاصرهم الملك راميرو في هذا الحصن ، وفر منه

(١) نقلنا رواية ابن حيان عن موقعة الخندق والكتاب الذي صدر عن الناصر عقب وقوعها من السفر الخامس من المقتبس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحات ١٦٧ إلى ١٧٢ أ . هذا وقد نشرنا نص كتاب الناصر كاملاً في نهاية الكتاب .

(٢) شنت مانكش هي بالإسبانية Simancas (سيانقة) . وهي تقع على مقربة من نهر دويرة شرق مدينة سمورة وجنوب غربي بلد الوليد . وما تزال هذه القلعة قائمة حتى اليوم بصورتها النصرانية المجددة . وهي اليوم مقر دار المحفوظات الإسبانية .

(٣) وتعرف الموقعة بالإسبانية Alhandega محرفة عن كلمة « الخندق » .

(٤) أعمال الأعلام ص ٣٦ و ٣٧ .

عبد الرحمن ناجياً بنفسه في نفر من صحبه ، وعاد الملك راميرو في جيشه ومعهم غنائم كثيرة من الذهب والفضة والأحجار النفيسة وأشياء كثيرة أخرى ، وأخذ معه ابن يحيى أسيراً^(١) .

بيد أن هنالك روايات نصرانية أخرى أكثر دقة ووضوحاً . وخلاصة هذه الروايات هو أن عبد الرحمن سار بجيشه في اتجاه سيانقة الواقعة على مقربة من نهر دويرة شرق مدينة سمورة ، فلقيه راميرو وحليفه طوطة في قواتهما ، ونشبت بين الفريقين موقعة في ٥ أغسطس سنة ٩٣٩ م ، فأبدى رؤساء العشائر العربية في القتال فتوراً وتراجعوا أمام النصاري . ولكن حدث ما لم يتوقعه المسلمون ، ذلك أن النصاري طاردوهم وألحوا في قتالهم ، فارتد المسلمون أمامهم نحو الجنوب الغربي ، حتى محلة صغيرة في جنوبي مدينة شملنقة تسمى ألانديجا (الخندق) ، ثم وقفوا وكروا على النصاري بفتور وتحاذل ، وهجم النصاري عليهم بجرأة وشدة ، فهزم المسلمون هزيمة شديدة ، وأمعن النصاري فيهم قتلًا وأسرًا . فساد الخلل في الجيش الإسلامي ، ومزقت منه فرق برمتها ، وقتل قائده نجدة الصقلي ، وأسر محمد بن هاشم حاكم سرقسطة ومزق جيشه ، وكان يحارب إلى جانب عبد الرحمن في هذه الغزوة ، وحمل مصفداً إلى ليون . وأثنى عبد الرحمن نفسه جراحاً ، ولم ينبج من الموت والأسر إلا بأعجوبة ، فولى شطر قرطبة في نفر من الفرسان^(٢) . ولم يحاول راميرو أن يستغل نصره بمطاردة المسلمين . ويقال إن الذي منعه من مطاردتهم هو أمية بن اسحاق إذ حذره من الكمين ورغبه فيما خلفوه من الأسلاب والغنائم الضخمة . ولولا ذلك لفنى الجيش الإسلامي بأسره^(٣) . وكان لانتصار راميرو وقع عظيم في أوروبا وفي العالم الإسلامي ، بيد أن الموقعة على روعتها لم تكن بعيدة الأثر في قوة الأندلس ومنعتها ، ولم يدخر عبد الرحمن منذ عوده إلى قرطبة جهداً في تنظيم الجيش وإصلاحه ، وتطهيره من العوامل الخطيرة التي أدت إلى هذه الكارثة . ويحاول ابن الخطيب أن يوضح لنا أسباب هذه الكارثة في قوله : « وجرت الهزيمة على المسلمين طائفة من جند الناصر

(١) Crónica General, ibid, Vol. II. p. 396

(٢) Aschbach : Geschichte der Dozy : Hist.; Vol. II. p. 155—156 وكذلك

Omajaden in Spanien. B. II. p. 50 حيث يورد الروايات النصرانية .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٥ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

لدين الله حسدته ما هياً الله من الصنع ، ولم تناصحه في الحرب حق النصيح ، فجالت ثانية للأعنة ، واختل مصاف القتال . ثم يقول لنا إن الناصر ، قرر أن يبطش بأولئك الخونة المتهاونين ، فأمر قبيل وصوله إلى قرطبة ، أن تقام المصالب على ضفة نهرها ، وما كاد يصل إلى قرطبة ، حتى قبض على نحو ثلاثمائة من الفرسان ، فصلبهم وأمر بالنداء عليهم : « هذا جزاء من غش الإسلام ، وكاد أهله ، وأخل بمصاف الجهاد »^(١). بيد أن موقعة الخندق كانت خاتمة أعمال الناصر الحربية فلم يغز من بعدها بنفسه .

وفي ذلك يقول ابن حيان : « إنه قد اشتدت على الناصر نكبته في غزوته هذه ، فاتهم سعده ، واعتكر بكره ، حتى خاف على نفسه ، فأشير عليه بعكس همه . فالتفت إلى البنيان يعالج به همه وأساه ، فأنشأ مدينة الزهراء ، وأقصر من ذلك الوقت عن الغزو بنفسه ، ووكل إلى حزمة قواده وشجعانهم ، يجردهم بالصوائف كل عام » . ومن جهة أخرى فقد رأى عبد الرحمن أن يتبع نحو أمراء الثغر الأعلى سياسة جديدة . وذلك أنه ، وفقاً لقول ابن حيان قد « اقتصر في تقليد شئون الثغر الأعلى المانعة للدروب على أكابر ساكنيها ورآئها عن الأجداد والآباء صلابة البأس ، آل تميم ، وآل ذى النون ، وآل زروال ، وآل غزوان ، وآل الطويل ، وآل رزين ، وأسبابهم المؤثرين قدماً بثغورهم ، الذابين عن حريمهم ، فضم بلادهم بينهم حصصاً ، وجدد لهم ولآعقابهم بعدهم على أقسامهم منها كل عام ، ثم لا يغبنهم بالصلوات إذا وفدوا وطلبوا ، وبالهدايا إن بعدوا » ، وقد ترتب على ذلك أن كان هؤلاء الزعماء يقومون بدفاع النصارى ، وكان الناصر يزودهم كل عام بالعدد والسلاح ، والمستنقرة والمطوعة إلى الثغر تعضيداً لجهودهم^(٢) .

واستأن أمية بن إسحاق بعد ذلك عبد الرحمن ، فلم ير بأساً من تأمينه والعفو عنه . وكانت سياسة عبد الرحمن ترى دائماً إلى اصطناع خصومه الأقوياء بالعفو والإغضاء . وسعى عبد الرحمن حسبما تقدم إلى افتداء محمد بن هشام ، فأفرج عنه النصارى بعد أن لبث في سجون ليون زهاء ثلاثة أعوام ، وغمره الناصر بعطفه

(١) أعمال الأعلام ص ٣٧ .

(٢) ابن حيان في السفر الخامس لوحة ١٦٨ ب .

فأسبغ عليه لقب الوزارة ، وجعله قائداً للثغر ، وعاد إلى سرقسطة ، وكان يزور قرطبة من آن لآخر ، واستمر والياً لسرقسطة حتى توفي في سنة ٣٣٨ هـ . فعين الناصر ولده يحيى مكانه في الولاية والقيادة . وشغل النصارى مدى حين بعد موقعة الخندق بطائفة جديدة من الحروب الأهلية ، واستطاع عبد الرحمن خلال ذلك أن يعنى بإصلاح شئون المملكة وتقويتها .

وجنح راميرو ملك ليون إلى السلم مرة أخرى ، وبعث إلى الناصر يطلب عقد الصلح ، فأجابه الناصر عن كتابه بالقبول ، وبعث إليه سفيراً ليعقد معه شروط السلم . ولكنه كان كالعادة مسلماً قصير الأمد .

وعقد الناصر من جهة أخرى السلم مع صاحب برشلونة الإفرنجى شنير بن منفريد ، وبعث إليه كاتبه حسداى بن إسحاق الإسرائيلى ، لينظم معه عقد السلم وفقاً للشروط التى ارتضاها الناصر ، وخلاصتها أن يتخلى شنير عن إمداد جميع النصارى الذين ليسوا فى سلم الناصر ، وأن يلتزم طاعته ، وأن يحل المصاهرة التى بينه وبين غرسية بن شانجه صاحب بنبلونة (نبرة) ، وكان شنير قد زوجه ابنته فألغى زواجها وفقاً لرغبة الناصر . وأصدر الناصر أوامره إلى قادة الأسطول وعمال السواحل بتحامى أعماله ومسألة أهل بلاده . ودعا حسداى أمراء الثغر الفرنجى إلى طاعة الناصر ، فأجابه منهم ، إلى جانب شنير ، إنجه صاحب جبرنده ، وبعث إلى قرطبة سفارة يطلب تأمين تجار أراضيه الذين يجوبون ربوع الأندلس ، فأجيب إلى طلبه ، وصدرت الأوامر إلى جميع عمال الجزائر الشرقية والمراسى الساحلية ، بتأمين سائر رعايا إنجه على أنفسهم وأموالهم^(١) .

ولم يحترم ملك ليون عهد السلم طويلاً ، وعادت ببعوثه تعيث فى الأراضى الإسلامية . ومن ثم فإن غزوات المسلمين لإسبانيا النصرانية لم تنقطع فى الأعوام التالية . ففى سنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) غزا المسلمون أراضى ليون وعاثوا فيها ، وفى سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) غنى الناصر بتجديد مدينة سالم^(٢) وهى أقصى مدن الأندلس الشمالية الغربية على حدود ليون ، وحصنها وشحنها بالرجال والعدد ،

(١) المقتبس - السفر الخامس - لوحات ١٧٣ - ١٧٥ .

(٢) هى بالإسبانية **Medinaceli** وترجع تسميتها بذلك الاسم إلى أنها كانت منزل بنى سالم ، وهم بطن من بطون قبيلة مصمودة البربرية (راجع جهرة أنساب العرب لابن حزم - القاهرة - ص ٤٦١) .

وكانت قد خربت من جراء غزوات العدو المتكررة . وتوالت غزوات المسلمين لأراضي ليون في الأعوام التالية . وفي أواخر سنة ٣٣٩ هـ (يناير ٩٥٠ م) ، توفي راميرو الثاني ملك ليون ، فثارت الحرب الأهلية بين ولديه أردونيو وسانشو ، وانتهز المسلمون هذه الفرصة فعاثوا في أراضي ليون غير مرة ، وانتهى الأمر بفوز أردونيو وجلسه على العرش . ورأى أردونيو أن يعقد الصلح مع الناصر ، فأرسل إليه سفيراً يخطب وده ، فاستجاب الناصر إلى دعوته ، وعقد معه معاهدة صلح تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر (سنة ٩٥٥ م) ، ولكن أخاه سانشو رفض هذه المعاهدة وحال دون تنفيذها . فاضطر الناصر إلى استئناف الحرب ، وسير قائده أحمد ابن يعلى في جيش إلى ليون ، فهزم النصارى وعقد الصلح بين الفريقين مرة أخرى ، واستقرت بينهما علائق السلم مدى حين .

* * *

ونعود الآن قليلاً إلى الوراء لنستعرض بعض الحوادث الداخلية ، ومنها بالأخص ما حدث من محن المحل والمجاعة بالأندلس . ففي سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، وقع المحل بالأندلس واحتبس الغيث ، واضمحلت الزروع ، وعزت الأقوات ، وغلت الأسعار على نحو ما حدث في سنة ٣٠٣ هـ ، فأمر الناصر خطيب المسجد الجامع بالحضرة ، بالاستسقاء ، فبدأ بذلك في خطبة الجمعة التالية ، ثم برز بالناس إلى مصلى الربض يوم الإثنين الثامن من شهر صفر (٢٣ مارس) ، فلم يسقط الغيث ، واستمر المحل والقحط ، وجهدت الناس . وخرجت كتب الناصر إلى جميع العمال على الكور بالأمر بالاستسقاء ، وكان الكتاب إلى جميع العمال بنفس النص على النحو الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله عز وجل ، إذا بسط رزقه وأغدق نعمته ، وأجزل بركاته ، أحب أن يشكر عليها ، وإذا رواها وقبضها ، أحب أن يستلها ، ويضرع إليه فيها ، وهو الرزاق ، ذو القوة المتين ، والتواب الرحيم ، الذى يقبل التوبة من عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون ، وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته ، وهو الولي الحميد ، فأوجبت به الرغبة ، عز وجهه فيه ، والخشوع لعزته ، والاستكانة له ، والإلحاح في المسئلة

فما احتبس به ، والتوبة من الأعمال المنكرة التي توجب سحقه منه ، وتبذل
نقمة ، وتستروحه رضاه ، تعالى جده . وقد أمرنا الخطيب فيما قبلنا بالاستسقاء
في المسجد الجامع يوم الجمعة ، والجمعة الثانية التي تليه ، إن أبطأت السقيا ،
والبروز يوم الإثنين بعدها لجماعة المسلمين عندنا إلى مصلاتهم ، أو يأتي الله قبل
ذلك بغيثه المعنى عنه ، ورحمته المنتظرة منه ، المرجوة عنده ، فمخطيب بموضعك
أن يحتمل على مثل ذلك ، ويأخذ به من قبله من المسلمين ، وليحملهم بذلك
المحمل ، ولتكن ضراعتهم إلى الله تعالى ، ضراعة من قد اعترف بذنبه ،
ورجا رحمة الله ، والله غفور رحيم ، وهو المستعان لا شريك له إن شاء الله^(١).

وفي سنة ٣٢٤ هـ ، وقع بالأندلس محل جديد لم يعهد فيها بمثله من قبل ،
فاحتبس المطر ، وجفت الزروع . ومع ذلك فلم يترك هذا المحل وراءه كثيراً
من الآثار المخربة ، ويقول لنا ابن حيان ، إن البركات والخيرات استمرت
ذائعة بين الناس في سائر الجهات . وبذل الناصر لمعونة الناس ما جبر النقص
في المحل . وانهمل الغيث في العام التالي ، وقد نظم الشاعر عبد الله بن يحيى بن
إدريس في ذلك قصيدة في مدح الناصر هذا مطلعها :

نعم الشفيع إلى الرحمن في المطر مستنزل الغيث بالأعذار والنذر^(٢)

وعاد المحل والقحط يعصف بالأندلس في سنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) ، وتوقف
المطر ، وعم الجفاف ، وشرع قاضي الجماعة ، وصاحب الصلاة محمد بن أبي
عبد الله بن عيسى في إقامة صلاة الاستسقاء في يوم الجمعة الثاني من ربيع الآخر .
ولكن المحل تهادى ، وبرز الناس إلى مصلى الربض مراراً وتكراراً . وفي الثاني
عشر من جمادى الأولى (أول فبراير) ، بدا نوء غليظ وسحاب كثيف ونزل
الثلج طوال اليوم وغطى الأرض ، ثم نزل المطر والثلج ، وانقطع دون أن يروى
الأرض . فعاد القاضي إلى الاستسقاء حتى استجاب الله لعباده بعد أيام قلائل ،
وبدأ الناس في الزرع ، وتوالى نزول الغيث ، وامتنقى الناس سقيا وافياً ،
ورويت الأراضي والمزارع ، وهبطت الأسعار وعاد الرخاء^(٣) .

(١) ابن حيان في السفر الخامس - لوحة ١٠٢ أ وب .

(٢) ابن حيان - السفر الخامس - لوحة ١٥٠ أ .

(٣) ابن حيان السفر الخامس - لوحة ١٨١ .

هذا ، ومما ذكره لنا ابن حيان من الحوادث الداخلية في سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٦ م) ، وقوع الحريق العظيم بمدينة قرطبة . ففي أوائل شهر شعبان من هذه السنة ، شبت النار بسوق قرطبة ، فأحرقت جميع مجالس الحصاد ، واتصل الحريق بحى الصرافين ، وما جاور مسجد أبي هرون ، فأحرق وتداعى المسجد . ثم اتصلت النار بسوق العطارين ، وما جاوره من الأسواق والأحياء ، واتسع نطاقها بصورة مرعبة . وكان حريقاً شديداً مروع الآثار . وقد أمر الناصر بعد انتهائه ، وانجلاء آثاره ، أن يعاد بناء مسجد أبي هرون ، فأعيد على أحسن حال . وأمر الناصر كذلك بإعادة بناء ما تهدم من الدور والصروح العامة^(١).

- ٣ -

لم ينس عبد الرحمن خلال توفره على محاربة الثوار والنصارى داخل شبه الجزيرة ، أن يعنى بمقاومة الدعوة الفاطمية التي اجتاحت شمالي إفريقيا ، وامتدت بسرعة إلى علوة المغرب وإلى سبتة ، وأخذت تهدد شواطئ الأندلس . وكانت الدعوة الفاطمية تنطوى بالنسبة للأندلس على خطر مزدوج ديني وسياسي معاً . وكانت في قوتها وعنفوانها تهدد طرفي إفريقيا أعني مصر والمغرب . فنذ عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ، تردد جيوش الخلافة الفتية من قواعدها في تونس نحو مصر والمغرب ، غازية . وكان اجتياحها السريع للمغرب يثير بحق جزع حكومة قرطبة ؛ ولا غرو فقد كانت عدوة المغرب تعتبر دائماً ، قاعدة لغزو الأندلس وخط دفاعها الأول . وكان ثوار الأندلس يتجهون بأبصارهم إلى العلوة ، ويفاضون الفاطميين ، ويأتمرون معهم على حكومة الأندلس ، فكان على عبد الرحمن أن يقالب هذا الخطر الجديد قبل استفحاله . ففي سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) سير عبد الرحمن إلى ثغر سبتة أسطولاً قوياً يتكون من مائة وعشرين سفينة ، ما بين حربية وناقلة ، وسبعة آلاف رجل منهم خمسة آلاف من البحارة وألف من الحشم ، وانضم إليه عدة من وجوه ألمرية وبجانة تطوعا في مراكبهم ، وكان تحت قيادة أمري البحر أحمد بن محمد بن إلياس وسعيد بن يونس بن سعديل . فخرج هذا الأسطول من الجزيرة آخر جمادى الأولى من هذه السنة ، واستولى على سبتة من يد ولاتها البربر بنى عصام حلفاء الفاطميين ، وطلب الناصر إلى صاحب طنجة

(١) ابن حيان السفر الخامس - لوحة ١٥٠ أ .

أبى العيش الحسنى أن ينزل له عنها لتكمل له بذلك السيطرة على رأس العدو ، فأبى ، فحاصره الأسطول وضيق عليه حتى أذعن ، وأجاب الناصر إلى ما طلب ، وانتقل مع إخوته وبنى عمه من الأدارسة إلى مدينة البصرة وثغر أصيلا تحت طاعة الناصر (١) .

وبادر زعماء البربر من الأدارسة وزنانة إلى طاعة الناصر ومهادنته ، وامتدت دعوته إلى فاس . وبعث إليه موسى بن أبى العافية أمير مكناسة يطلب محالفته والدخول فى طاعته ، فأجابه عبد الرحمن إلى رغبته ، وأمده بالأمول والهدايا ، وقوى أمره فى المغرب . وفى سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) استطاع موسى أن يهزم جيشاً أرسله عبيد الله الفاطمى لغزو المغرب ، والقضاء على دعوة الناصر ، بقيادة قائده ابن يصل عامل تاهرت . ثم توفى عبيد الله فى العام التالى . وفى سنة ٣٢٣ هـ سير ولده الخليفة القائم إلى المغرب حملة أخرى ، بقيادة ميسور الصقلبي ، فضيق على موسى وطارده حتى الصحراء ، واستولى الأدارسة حلفاء الفاطميين على مملكته .

وبعث الناصر لإنجاده إلى شواطئ العدو أسطولا قوامه أربعون سفينة بقيادة أمير البحر عبد الملك بن أبى حماسة ، سار إلى سبتة ، ثم تقدم إلى مليلة فافتتحها ، ثم افتتح نكور وجراوة ، فقويت نفس موسى ، واستقل نوعاً من عثرته ، وانسحب الفاطميون إلى الداخل ، وقضى الأسطول فى غزواته هذه ستة أشهر ، ثم عاد إلى قواعده فى المرية .

وجازت جيوش عبد الرحمن وأساطيله بعد ذلك مراراً إلى المغرب ، لمحاربة الفاطميين وحلفائهم من الأدارسة وغيرهم من أمراء البربر ، واضطر الأدارسة فى النهاية إلى طلب الصلح من عبد الرحمن والاعتراف بطاعته (٣٣٢ هـ) ، ودعى لعبد الرحمن على منابر المغرب ، واستقرت دعوته هناك مدى حين ، ولكن سلطانه فيما وراء البحر لم يكن ثابت الدعائم ، وكان رهيناً بقيام دولة الأمراء المخالفين له .

ولما تولى المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين الملك ، وبدت الدولة الفاطمية فى أوج قوتها فى إفريقيا ، وأخذت أساطيلها القوية ترعج الدولة البيزنطية ، بغزو

(١) ابن حيان - السفر الخامس - لوحة ١٢٥ أ و ب ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٥ .

شواطىء قلورية^(١) فى جنوبى إيطاليا ، كان خطر غزو الفاطميين للأندلس يلوح قوياً فى الأفق . والظاهر أن هذه الفكرة لم تكن بعيدة عن ذهن المعز ، بل يبدو فوق ذلك أن حكومة قرطبة وقفت على بعض وثائق تؤيد هذه النية . وفى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) سارت بعض السفن الفاطمية وهاجت ثغر ألمرية ، وأحرقت ما فيه من السفن ، وعاثت فى ألمرية . فرد عبد الرحمن بأن أرسل قوة بحرية بقيادة أمير البحر غالب ، إلى شواطىء إفريقية (تونس) ، فعاثت فيها ، وأمر عبد الرحمن فى الوقت نفسه بلعن الشيعة والفاطميين على منابر الأندلس . ثم عاد بعد ذلك بثلاثة أعوام ، فسير أسطوله ثانية إلى إفريقية بقيادة أحمد بن يعلى ، تهديداً للقوات الفاطمية ، التى زحفت بقيادة جوهر الصقلى حذاء الشاطىء إلى عدوة المغرب ، وكان المعز قد سير قائده جوهرراً فى سنة ٣٤٧ هـ ، فى جيش عظيم إلى المغرب الأقصى ، ومعه زعيم صنهاجة زيرى بن مناد فى قواته ، فاجتاح شمالى المغرب كله حتى المحيط ، ونازل فاس واقتحمها عنوة . وكان الناصر يرقب تقدم الفاطميين على هذا النحو فى أراضي العدو بجزع ، ويجعل أساطيله على أهبة دائمة . وعبرت فى نفس الوقت حملة أندلسية أخرى من طريق سبتة إلى المغرب ، ولبثت هنالك حتى ارتد الفاطميون أدارجهم^(٢) .

ويقدم إلينا ابن حيان بقلمه البليغ تلك الصورة عن تقدير الناصر لأهمية عدوة المغرب فى الدفاع عن الأندلس ، ومقاومة الدعوة الفاطمية :

« لم تزل نفس الخليفة الناصر لدين الله ، منذ استولى على أمر الملك ، واعين النصر ، وسلط على أهل الخلاف ، دروباً على ما سخر له من ذلك ، ظموا إلى درك اقصاره ، متخطياً موسطته إلى نهايته ، معملاً فيه رويته ، موقظاً له فكرته ، تأمل هذا الفرج فى ساحل البحر الرومى . . . مجاورة جبل البرابر الحالتين بلاد المغرب للملكهم لعدوتهم الراكبة لعدوة بلد الأندلس ، تكاد عدوتهما تتراعى لضيق بحر الزقاق الحاجز بينهما ، وسهولة مرامه أى أوقات الزمان رؤى

(١) وهى بالإنجليزية Calabria .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ و ١٤١ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٩ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٩ و ٢٢٠ و ٢٢٥ و ٢٣٧ ، ٢٣٨ ؛ وراجع

ركوبه . فنه طرقت الأندلس في الزمان الخالية ، واكتسب أهلها المخافة ، فدعته
همته العلية ، وفكرته المصيبة ، إلى التوقل إلى تلك الباغية المروية ، والسمو لتلك
العورة المكشوفة ، وذلك عند ما كشف عند يكتف ذلك الساحل الغربي من
طنجة الفتنة ، وضع ما كان أوهته من صدع الفرقة ، وملك مفتاح الجزيرة
الخضراء فرضة الأندلس الدنيا ، الراكبة فتح ذلك البحر المرووب ، المحاضبة
لضرتها مدينة سبتة فرضة الحجاز من بلد العدو . فأذكى نظر عينه ما كان منبثاً
بخطره من الرهبة ، فأرهدف العزم ، وألطف الحيلة ، وابتدئ ففتح ذلك بمخاضة
من تقدمت له بأسلافه ملوك بني أمية من أمراء تلك البلاد وصلة أو سلفت بينهم
أصرة ، يستنير وصايلهم ، ويصل أحبلهم ، ويستدعى ولايتهم ، ويسبب ذلك
ما شاء مهاداتهم ، واكرام أسبابهم ، وقضاء حوائجهم ، فلم يلبث أن هويت
إليه أفئدة كثير منهم ، وزعمائهم بين مصحح في ولايته ، مستجيب لدعوته ،
مغتم لعطيته . مستعين بقوته على مدافعة من قد هدر ركنه من بني عبيد الله إمام
الشيعة المقتحم أرضه عليه ودونه ، وبين منافق مقيم لسوقه بينه وبين تلك الشيعة ،
منذ بدت بينها العداوة ، مايل مع الدولة ، مجتلب لعاجل ما استمسك به من
الرشوة .

« استوى للناصر لدين الله من الطائفتين أولياء قاموا بدعوته ، ورفعوا فوق
أعلامه ، وعاطوا مضطهدا ، عبيد الله الشيعي صاحب إفريقية بدعوته ، وقلبوا
مجانهم إليه ، ونصبوا الحرب لرجاله ، فكفكفوه عن الإيغال في بلدتهم من قاصية
المغرب ، يهطنونهم بالكيد والمكر ، فتمكنت بذلك قدم الناصر لدين الله ،
فيما حازه من مدينة سبتة والقطعة التي استضمها إليها من أرض العدو ، واجتذب
من أجله كثيراً من فرسان البربر وحماة رجالهم إلى حضرته ، استعان بهم في
حروبه ، وتمكن من ذلك من ارتياد عتاق الخيل بوادي البربر ، واستتاجهم
الفاضل لبراذين الأندلس ، فتنت بذلك أسباب ملكه ، وجل مقداره ،
وبعد صيته ، وهابته ملوك الأمم حوله ، وظهرت نتيجة ما عاتاه من مواصلة
أمراء البربر ، وسعى لهم سعيه لصدر دولته الفاضلة ، سنة سبع عشرة وثلث مايه
وما يليها ، إذ ترددت فيها عليه كتب محمد بن خزر عظيم أمراء زنانة في وقته ،
وأنفروهم عن عبيد الله الشيعي ، وأدناهم من داره ، وأول من تناوله الناصر

لمدين الله من جماعتهم بمكاتبتهم ، واجتذبه بوصلته (١) .

- ٤ -

هذا وربما كان قيام الخلافة الفاطمية في الضفة الأخرى من البحر ، وانسياب دعوتها إلى المغرب الأقصى ، على مقربة من شواطئ الأندلس ، في مقدمة البواعث التي حدثت بعبد الرحمن إلى العمل على إحياء تراث الخلافة الأموية الروحية ، بعد أن توطدت دعائم دولتها السياسية بالأندلس ، وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل قد أمر بمنع الدعاء لبني العباس ، ولكنه لم يتخذ سمة الخلافة واكتفى بلقب الإمارة . وسار بنوه على أثره . وبالرغم من أن الدولة الأموية قد استطاعت غيرة مرة ، أن تستعيد مجدها السالف ، في عهد الحكم بن هشام وولده عبد الرحمن الأوسط ، فإن أمراء بني أمية لم يفكروا في الإقدام على منافسة بني العباس في ألقاب الخلافة . وقيل في تعليل ذلك إنهم كانوا يرون الخلافة تراثاً لآل البيت ، ويدركون قصورهم عن ذلك « بالقصور عن ملك الجواز أصل العرب والملة ، والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصية » وأنهم بعبارة أخرى كانوا يرون أن الخلافة تكون لمن يملك الحرمين (٢) . بيد أننا نعتقد أن هذا الإحجام يرجع بالأخص إلى بواعث الحكمة والسياسة ، والتحوط من إثارة الفتنة والخلافات الدينية والمذهبية . فلما ظهرت الدعوة الفاطمية في إفريقية ، ونمت بسرعة في أوائل القرن الرابع الهجري ، ولما تواترت الأنباء من جهة أخرى ، عما انتهت إليه الدولة العباسية في المشرق من الإضطراب والفوضى ، وما حدث من استبداد موالى الترك بالأمر وحجرهم على الخلفاء ، رأى عبد الرحمن أن يتسم بسمة الخلافة ، وأن يسترد بذلك تراث أسرته الروحية ، وأنه بما وفق إليه من النهوض بالدولة الإسلامية وتوطيد أركانها ، أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلة وأخرى طارئة . ونفذ الأمر بذلك في يوم الجمعة مستهل ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ ، حيث قام صاحب الصلاة القاضي أحمد بن أحمد بن بقي بن مخلد بالدعاء له بالخلافة ، على منبر المسجد الجامع بقرطبة (٣) . وإليك نص الوثيقة الرسمية التي صدرت بذلك وهو :

(١) ابن حبان في المقتبس - السفر الخامس لوحة ١٠٣ ب و ١٠٤ أ

(٢) ابن خلدون ج ١ (المقدمة) ص ١٩٠ ؛ والمسعودي في مروج الذهب (بولاق)

ج ١ ص ٧٨ ؛ وابن الأبار في الحلة السبراء ص ٩٩ .

(٣) ابن حبان في المقتبس - السفر الخامس - لوحة ٩٩ أ .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على نبيه محمد الكريم . أما بعد فإننا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله تعالى ما ألبسه ، فنحن للذى فضلنا الله به ، وأظهر أثرنا فيه ، ورفع سلطتنا إليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذى أشاد في الآفاق من ذكرنا ، وأعلى في البلاد من أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انخراطهم إلينا ، واستبشارهم بما أظلمهم من دولتنا إنشاء الله ، فالحمد لله ولى الإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه . وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين ، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك — إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا ، متحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه منه ، وعلمنا التماذى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعننا ، واسم ثابت أسقطناه ، فمر الخطيب بموضعك ، أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله . والله المستعان . وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ » (١) .

وهكذا اتخذ عبد الرحمن سمة الخلافة عن يقين بأفضليته ، وأولوية حقه وحق أسرته ، وتسمى بأمر المؤمنين الناصر لدين الله ، وذلك في الثاني من شهر ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ (يناير سنة ٩٢٩ م) فكان أول أمير من بنى أمية بالأندلس ينعت بأمر المؤمنين . وبدأت الدعوة من ذلك الحين لبني أمية بألقاب الخلافة في الأندلس والمغرب الأقصى ، ونقشت ألقاب الخلافة على السكة ، ويضع بعض المؤرخين اتخاذ لقب الناصر لسمة الخلافة في سنة (٣٢٧ هـ) أى بعد وقوعه بنحو عشرة أعوام ، وهو تحريف واضح تنقضه وثيقة الدعوة الرسمية (٢) .

— ٥ —

وكان من أبرز الحوادث الداخلية في عصر الناصر ، حركة الفيلسوف المتصوف ابن مسرّة الجبلى ، واهتمام الناصر بمقاومتها وقمعها ، وذلك حتى بعد أن توفى زعيمها بأعوام طويلة ، وإصدار كتابه الشهير في شأنها .

(١) يضع ابن حبان اتخاذ الناصر لسمة الخلافة في حوادث سنة ٣١٦ هـ والدعاء له بها ، حسبما تقدم في مستهل ذى الحجة من هذه ، السنة ويلخص في كلامه نص الوثيقة (السفر الخامس - لوحة ٩٩ أ) . وقد اعتمدنا في نقل الوثيقة الخلافية على ما ورد في الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ، ص ٧٨ و ٧٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٢ .

(٢) هذه رواية ابن الأثير (ج ٨ ص ١٧٨) وكذلك ابن خلدون (ج ٤ ص ١٣٧) . والظاهر أن أصحاب هذه الرواية لم يطلعوا على وثيقة الدعوة التى أثبتنا نصها .

وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرّة من أهل قرطبة ، وبها ولد سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) ، ودرس على أبيه وعلى ابن وضاح والخشني وغيرهم ، ولكنه جاهر ببعض الآراء الدينية المغرقة في التأويل والقدر وإنفاذ الوعيد وغيرها ، فاتهم بالزندقة ، فغادر الأندلس فاراً إلى المشرق ، وأنفق هناك بضعة أعوام ، وتفقّه على يد المعتزلة والكلاميين وأهل الجدل . ثم عاد إلى الأندلس ، وهو يخفى آراءه ونحلته الحقيقية تحت ستار من النسك والورع ، وكان ذلك في بداية عهد الناصر ، فاختلف إليه الطلاب من كل صوب ، وكان يستهويهم بغزير علمه ، وسحر بيانه ، ومنطقه الخلاب ، حتى التف حوله جمهرة كبيرة من الصّحب والأتباع ، أضحت تكون مدرسة خاصة من الآراء الدينية والكلامية المتطرفة . واختلف الناس في أمر ابن مسرّة ، فمنهم من كان يرتفع به إلى مرتبة الإمامة في العلم والزهد والورع ، ومنهم من كان يرميه بالزندقة وترويج البدع ، والانحراف عن مبادئ الدين الصحيحة . وتوفى ابن مسرّة بقرطبة في شوال سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م)^(١) . ولكن آراءه وتعاليمه بقيت من بعده ذائعة بين تلاميذه وأتباعه ، وتكونت من حولها فرقة سرية ، اتهمت بالمروق والإلحاد ، تتابع دعايته ، وتعمل على بثّ تعاليمه ، حتى برم بهم المتزمتون من أهل السنة ، وأخذوا يسعون لدى السلطات المختصة ، لتعمل على قمع هذه الجماعة ، والقضاء على تعاليمها .

وإليك كيف يصور لنا ابن حيان بقلمه البارِع خطة ابن مسرّة في بثّ تعاليمه ، واستهواء أتباعه . قال :

« كان مذهب الظنين ، المرتب المرأى بالعبادة ، المنظوى على دخل السريرة ، محمد بن عبد الله بن مسرّة ، الرابض للفتنة ، دب في الناس صدر دولة الخليفة الناصر لدين الله ، واستهواهم بفضل ما أظهره من الزهد ، وأبدى من الورع . » وكان يستهوى العقول ، ويصور الأفئدة . وكان من شأنه أن يلقى أول من يأتيه ، مقتبساً من أهل السلامة ، بالمساهلة ، إلى أن يحيله عن رأيه بالمفاضلة ، فإذا أصغى إلى عنوبة منطقته ، وعلّق في شرك حجاجه ، غره رقفاً بباطله من

(١) ابن الفرضي في « تاريخ العلماء والرواة بالأندلس » (القاهرة) ج ٢ رقم ١٢٠٤ . وكذلك الحميدى في « جذوة المقتبس » (القاهرة) ص ٥٨ و ٥٩ . والتكلمة لابن الأبار (القاهرة) رقم ٧٦٥ و ٩٩١ .

الطائر فرخه ، فلا يبعد أن يلفته عن رأيه ، ويشككه في اعتقاده ويحصله في أتباعه ، فاستهوى خلقاً من الناس ، صدّهم عن سبيل الله ، وأوحشهم من الجماعة ، واتخذ من رأى غيهم في مذهبه وائمة دخل في عرضهم رجال من ذوى الفهم . ولم يزل يستظهر عليهم بالمواثيق في الكتمان إلا من الثقات الوثاق العقدة ، فاكتم بذلك شأنه ، إلى أن عاقصته منيته ، صدر دولة الناصر لدين الله ، أيام شغله بحروب أهل الخلاف المتصلة . فرفع الله بموته عن الناس فتنة ، ولم يلبث دعائه مع انتشارهم في البلاد أن تلبسوا بعده بما أودعه من مكنون علمه ، فكثّر القول في شأنه ، وشيم أهل الخلاف من تلقاياه ، فذعر له أهل السنة من أهل قرطبة ، وتوقعوا منه البلية ، ففزع فقهاؤهم وكبرائهم بها إلى أصحاب الخليفة الناصر لدين الله فنبهوا ... » (١) .

ومضت أعوام طويلة ، قبل أن تصل أصوات أهل السنة المعارضين لتعاليم ابن مسرة إلى المسئولين ، ولم يصدر قرار السلطة العليا في شأنه وشأن تعاليمه ، إلا بعد أن مضى أكثر من عشرين عاماً على وفاته ، مما يدل على أن دعوته وتعاليمه لبثت حية ذائعة . قال ابن حيان :

« وفي يوم الجمعة لتسع خلون من ذى الحجة سنة أربعين وثلاث مائة ، قرئ على الناس بالمسجدين الجامعين بالحضرتين ، قرطبة والزهراء ، كتاب أمير المؤمنين الناصر لدين الله إلى الوزير صاحب المدينة عبد الله بن بدر ، بإنكاره لما ابتدعه المبتدعون ، وشذ فيه الخارجون ، من رأى الجماعة المنتمون إلى صحبة محمد بن عبد الله بن مسرة ، وانتحلوه في الديانة ، فافتتن العوام بما أظهره من التقشف والشظف في المعيشة ، واستتروا لبدعهم بسكنى الأطراف البعيدة ، حتى استمالوا بفعلتهم عصابة وفرقة ، فنتت بمذاهبهم ، وأن ذلك بلغ أمير المؤمنين ، ففحص عليه ، وعلم صحته ، فتعاضمه ، واستوحش من اجترأ تلك الطائفة الخبيثة عليه ، فأوعز إلى وزيره ومتولى أحكامه ومدينته ، تتبع هذه الطائفة ، وإخافتها والبسط عليها ، والقبض على من عثر عليه منها ، وإنهاء خبره إلى أمير المؤمنين » .

وأورد لنا ابن حيان بعد ذلك ، نص الكتاب الذى صدر باسم الخليفة

(١) مخطوط ابن حيان (السفر الخامس من المقتبس) المحفوظ بالخرزانة الملكية . وقد حالت خروم المخطوط دون ظهور بعض الكلمات .

الناصر لدين الله ، في الحملة على تلك الطائفة ، والتبرؤ منها ، وهو من إنشاء كاتبه ووزيره عبد الرحمن بن عبد الله الزجالي .

ويبدأ الكتاب بالتنويه بشأن الإسلام ، وأفضليته على سائر الأديان ، ورسالة محمد خاتم النبيين ، الذي اصطفاه الله ، وأرسله إلى الناس ، وكرم به أمته على سائر الأمم ، وما نبه به الإسلام من إقامة الدين ، وعدم افتراق الكلمة . وأنه لما شملت النعمة ، وعم الأقطار بعدل أمير المؤمنين السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبتغي خيراً ، ولا تأتمر رشداً ، من طغام السواد ، « وأبدت كتباً لم يعرفوها ، ضلّت فيها حلومهم ، وقصرت عنها عقولهم » واستولى عليهم الشيطان بخيله ورجله ، فقالوا بخلق القرآن ، واستيسسوا ، وآيسوا من روح الله ، وأكثروا الجدل في آيات الله ، وحرّموا التأويل في حديث رسول الله ، فبريت منهم الذمة ، ووعدهم الله ببالغ نكاله ، لما انطوت عليه قلوبهم من الزيف ، ولما كذبوا من التوبة ، وأبطلوا من الشفاعة ، ونالوا محكم التنزيل ، والقدح في الحديث ، والقول بمكروه في السلف الصالح ، فشدوا عن مذهب الجماعة ، حتى تركوا رد السلام على المسلمين ، وهى التحية التى نسخت تحية الجاهلين ، وقالوا بالاعتزال عن العامة . ولما فشى غيهم ، وشاع جهلهم ، واتصل بأمر المؤمنين ، من قدحهم في الديانة ، وخروجهم عن الحادة ، أغلظ في الأخذ فوق أيديهم ، وأنذرهم إنذاراً فظيماً ، واعتزم أن يوقع بهم العقاب الشديد ، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرة قرطبة ، ليفزع قلب الجاهل ، ويضطر الغواة إلى الآثار الصحيحة التى يتقبلها الله منهم ، وأن يقرأ هذا الكتاب فى سائر الأقطار والكور ، وفى البدو والحضر ، وأن ينفذ عهده بذلك إلى سائر قواده ، وجميع عماله . لكى يقوموا بمطاردة هذه « الطغمة الخبيثة ، التى اجترأت على تبديل السنة ، والاعتداء على القرآن العظيم ، وأحاديث الرسول الأمين » . ويختتم الكتاب بمطالبة العمال ببث العيون ، وتبضع أولئك المارقين ، وإخطار أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم ، وأسماء الشهود عليهم ، حتى يحملوا إلى باب سدته ، وينكلوا بحضرته (١) .

(١) ورد نص هذا الكتاب فى الاوحات ١٧ و ١٨ و ١٩ من مخطوط المقتبس السالف الذكر . وسوف ننشر نص الكتاب كاملاً فى نهاية الكتاب .

قال ابن حيان : « وتماذى الطلب لهذه الفرقة المسرية ، والإخافة لهم ،
وتخويف الناس من فتنهم بقية أيام الناصر لدين الله » .
وهنا ولأول مرة نجد شرحاً وافياً ، بقلم ابن حيان القوي الناقد ، لتلك
الحركة الدينية الخطيرة ، حركة ابن مسرة وتلاميذه ، وهي التي استحوطت أيام
الناصر لدين الله إلى جمعية سرية واسعة الانتشار . فهل كانت حقاً ، كما
يصورها ابن حيان ، وكما تصورها لنا الوثيقة الخلافية ، التي ينقلها إلينا ، جمعية
مارقة ملحدة ، تهدد العقائد والنظام والأمن ؟ أم هل كانت حركة تفكير
فلسفى حر ، لم يتسع لها أفق التفكير المعاصر ، وكانت كمعظم الحركات المماثلة
ضحية لنقمة المتزمتين الرجعيين من الفقهاء والحكام ، يدافعون بسحقها عن
نفوذهم وسلطانهم المطلق ؟ .

الفصل الثاني

خلال الناصر وماثره

عصر الناصر أعظم عصور الإسلام بالأندلس . منشآت الناصر . مشروع بناء الزهراء . البدء في إنشائها . قصر الزهراء وفخامته وروحه . منشآت الزهراء الأخرى . بعض أوصاف وأرقام عن الزهراء . نهاية الزهراء كقاعدة ملوكية . تخريبها أيام الثورة . بعض ما قيل في رثائها . أطلال الزهراء واختفاؤها . جهود العلماء الإسبان للكشف عن مواقعها . وصف لما ظهر من آثارها ومعالمها . منشآت الناصر بالمسجد الجامع . تنظيم الناصر للجيش والأسطول . الأحوال المالية في عهد الناصر . غنى الدولة الأموية وبذخها . إنشاء دار السكة بقرطبة . قرطبة وعظمتها . اصطفاء الدولة الأموية للموالى والصقالبة . حرص الناصر على السلطان المطلق . الصقالبة ونفوذهم . أثر هذا الاصطفاء . قرطبة مركز الجاذبية الدبلوماسية . تقدم الصلات للدبلوماسية بين الإسلام والنصرانية . سفارة قيصر قسطنطينية إلى الناصر . حفل استقبال السفراء وروحه . هدايا قيصر إلى الناصر . خطاب القاضي منذر بن سعيد . سفارات ملوك النصرانية . سفارة إمبراطور ألمانيا . سفارة الناصر إلى الإمبراطور . موضوع المفاوضات بين الماهلين . رأى الناصر في نظام الحكم . سفارات نصرانية أخرى إلى الناصر . مرض الناصر ووفاته . خلاله وصفاته . حجابيه ووزرائه وقواده . الوزراء وأصحاب الخطط . تنويه الشعر بعظمة عصره . صفة الناصر . أبنائه . إشادة النقد الحديث بمناقبه .

ننتقل الآن إلى ناحية أخرى من نواحي عصر الناصر .

كان عصر عبد الرحمن الناصر بالرغم مما شغله من فتن وحروب مستمرة ، عصر عظمة ورخاء ومجد ، بل كان في الواقع أعظم عصور الإسلام بالأندلس ، ولاسيما من نواحيه المعنوية والحضارية . وإذا كانت الأندلس قد بلغت فيما بعد في عصر المنصور بن أبي عامر ، ذروة تفوقها السياسي والحربي في شبه الجزيرة الإسبانية ، فإن الدولة الأموية بالأندلس بلغت في عهد الناصر ذروة القوة والبهاء ؛ وكان هذا العهد حد الفصل بين مراحل تقدمها وازدهارها ، ومراحل انحلالها وسقوطها .

ولم تحل مهام الحرب والسياسة دون قيام الناصر بأعمال الإنشاء العظيمة ، وكان في مقدمتها إنشاء مدينة الزهراء أعظم قواعد الأندلس الملوكية . وكانت قرطبة عاصمة الأندلس قد بلغت يومئذ أوج العظمة والازدهار ، وأضحت تفوق بغداد منافستها في المشرق بهاء وفخامه . وكان الناصر قد ابتنى إلى جانب القصر الزاهر

وهو مقام الملك ، قصر آجديداً سماه دار الروضة ، جلب إليه الماء من فوق الجبل ، واستدعى المهندسين والبنائين من كل فج ، وأنشأ في ظاهر قرطبة متزهات عظيمة ساق إليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة . ومع ذلك فقد كانت قرطبة بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة ، وسكانها الخمسمائة ألف ، تضيق بما يتطلبه ملك عظيم كملك الناصر ، من امتكالم الفخامة الملوكية ، والقصور والميادين والرياض للشاسعة ، بل كانت تضيق بهذه المرافق الملوكية منذ عهد عبد الرحمن الداخل ، حيث أنشأ الرصافة في ظاهرها لتكون له منزلاً ومنازلها ملكياً . وقد كان بناء القواعد الملوكية دائماً سنة العروش القوية الممتازة . فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد من توطيد ملكه ، وصحى أعدائه في الداخل والخارج ، عنى بأن يعرض آيات من ملكه الباذخ ، وثاب له رأى في أن يقيم بجوار قرطبة ضاحية ملوكية عظيمة ، فأنشأ مدينة الزهراء . ولإنشاء الزهراء قصة ، وربما كانت أسطورة على مثل الأساطير التي ترتبط بقيام المدن والمنشآت العظيمة . ولم تقل لنا الرواية إن الناصر رأى حلمًا كالذي رآه قسطنطين ، وأوحى إليه بإنشاء قسطنطينية ، ولكنها تقول لنا إن الذي أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية هي جاريته وحظيته «الزهراء» وأنه ورث من إحدى جواريه مالا كثيراً ، فأمر أن ينحصر لافتداء الأسرى المسلمين ، ولكنه لم يجد من الأمرى من يفتدى ، فأوحت إليه «الزهراء» بأن ينشئ بهذا المال ، مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكانها^(١) . بيد إنا نفضل أن نرجع مشروع الناصر إلى بواعث الملك والسياسة ، وإلى عرض فخامة الملك ، والرفع بمظاهره وخصائصه ، عن المظاهر العامة ، لعاصمة مكتظة زاخرة .

والظاهر أيضاً أن شغفا خاصاً بالعمارة والبناء ، كان يحفز الناصرو يذكى رغبته في إقامة هذه الضاحية الملوكية ، وقد كانت المنشآت والهياكل العظيمة على كبر العصور مظهر الملك الباذخ ، والسلطان المؤثّل ، وقد نسبت إلى الناصر في ذلك أبيات قالها في هذا المعنى :

من بعدهم فبالسن البنيان	هم الملوك إذا أرادوا ذكرها
ملك محاه حوادث الأزمان	أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم
أضحى يدل على عظيم الشأن	إن البناء إذا تعاضم شأنه

وهكذا اختطت الزهراء في ساحة تقع شمال غربي قرطبة ، على قيد خمسة أميال أو ستة منها ، في سفح جبل يسمى جبل العروس^(١) . وكان البدء في بنائها في فاتحة المحرم سنة خمس وعشرين وثلثمائة (نوفمبر سنة ٩٣٦ م) . وعهد الناصر إلى ولده وولي عهده الحكم ، بالإشراف على بناء العاصمة الجديدة^(٢) ، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ، ولا سيما من بغداد وقسطنطينية^(٣) . وجلب إليها أصناف الرخام الأبيض والأخضر والوردي من ألمرية وريه ، ومن قرطاجنة لإفريقية وتونس ، ومن الشام وقسطنطينية ، وجلب إليها من سواير الرخام أربعة آلاف وثلثمائة أربعة وعشرين سارية^(٤) . وكان يشتغل في بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة ، ويعد لها من الصخر المنحوت نحو ست آلاف صخرة في اليوم ؛ وقدرت النفقة على بنائها بثلثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر ، أغنى مدى خمسة وعشرين عاماً ، هذا عدا ما أنفق عليها في عهد ولده الحكم^(٥) . وابنتي الناصر في حاضرتي الحديدية قصر أمنييف الذرى ، لم يدخرو سعة في تنميقه وزخرفته ، حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والحلال ، تحف به رياض وجنان ساحرة ، وأنشأ فيه مجلساً ملكياً جليلاً سمي بقصر الخلافة ، صنعت جدرانها من الرخام المزين بالذهب ، وفي كل جانب من جوانب ثمانية أبواب ، قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجوهر ، وزينت جوانبها بالتماثيل والصور البديعة ، وفي وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة^(٦) . وزود الناصر مقامه في قصر الزهراء ، وهو الجناح الشرقي المعروف بالمونس بأنفس التحف والذخائر ، ونصب فيه الخوض الشهير المنقوش بالذهب ، الذي أهدى إليه من قيصر

(١) مختصر نزهة المشتاق للادريسي (طبع رومة) ص ١٩٢ ؛ والمسالك والممالك لابن حوقل

ص ٧٨ . ويسمى ابن حوقل هذا الجبل بجبل بطلش .

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٢٤٧ ؛ ونفع الطيب ج ١ ص ٢٦٦ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ ، ونفع الطيب ج ١ ص ٢٤٦ ، وأعمال الأعلام ص ٣٨

(٥) نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٦) نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٦ و ٢٤٧ .

قسطنطينية ، والذي جلبه من هنالك إلى قرطبة ، ربيع الأسقف . وجلب إليه الوزير أحمد بن حزم من الشام حوضاً ثانياً رائعاً ، يقوم عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر المرصع بالجواهر ، وهي تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من أفواهها إلى الحوض^(١) . وقد دون هذه الروايات والأوصاف العجيبة ، التي تشبه أوصاف قصور ألف ليلة وليلة المسحورة ، عن قصر الزهراء ، أكثر من مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، وأجمعت الروايات على أنه لم يكن في أم الإسلام مثله في الروعة والإنافة والبهاء^(٢) .

وأنشأ الناصر في الزهراء أيضاً مسجداً عظيماً ، تم بناؤه في ثمانية وأربعين يوماً . وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين ، وزوده بعمد وقباب فخمة ، ومنبر رائع الصنع والزخرف ، فجاء آية في الفخامة والجمال^(٣) . وأنشئت بها محلات فسيحة للوحوش متباعدة الساح ، ومسارح للطير مظلة بالشباك ، ودار عظيمة لصنع السلاح ، وأخرى لصنع الزخارف والحلي^(٤) . والخلاصة أن الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة ، تجمع بين فخامة الملك الباذخ ، وصوله السلطان الموثل ، وعناصر الإدارة القوية المدنية والعسكرية .

واستمر العمل في منشآت الزهراء طوال عهد الناصر ، أغنى حتى وفاته في سنة خمسين وثلثمائة ، واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر ، واستغرق بذلك من عهد الخليفين زهاء أربعين سنة^(٥) ؛ ولكنها غدت منزل الملك والخلافة مذ تم بناء القصر والمسجد في سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، وبذا كانت (إلى جانب قرطبة) أول منزل للخلافة الإسلامية بالأندلس .

وقد انتهت إلينا عن هذه الضاحية الملوكية الشهيرة أوصاف وأرقام مدهشة ، تنبئ عما كانت عليه من الضخامة . فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس أن الزهراء كانت تشغل مسطحاً قدره تسعمائة وتسعون ألف ذراع ، وأن مبانيها اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين صغيرة وكبيرة ، منها ما جلب من مدينة

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ ؛ وأعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٦٥ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .

(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

رومة ، ومنها ما أهدها قيصر قسطنطينية ، وأن مصاريع أبوابها كانت تبلغ زهاء خمسة عشر ألفاً ، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه . وذكر مؤرخ آخر أن عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين فتى ، وعدد النساء والحشم بالقصر ستة آلاف وثلثمائة ، يصرف لهم في اليوم ثلاثة عشر ألف رطل من اللحم ، سوى الدجاج والحجل وغيرها^(١) . وقد لا نجد في المنشآت الملوكية الحديثة ما يذكرنا بهذه الأرقام المدهشة ، سوى القصر البابوي أو قصر الفاتيكان الشهير برومة ، وما انتهى إليه خلال العصور المتعاقبة من الضخامة والقخامة والجلال ، فإن هذا المقام الكنسي الملوكي الفخم ، يحتوى على أربعة آلاف غرفة ، وعلى مئات الأبناء والساحات والأروقة ، ويضم عدة أجنحة ومجالس رائعة ، أسبغ عليها أبداع ما عرف الفن الرفيع من آيات الزخرف والنقش والتصوير .

ويحدثنا الرحالة البغدادى ابن حوقل عن الزهراء - وقد زارها أيام الحكم ولد الناصر - فيصف موقعها ، ويقول «إن العماراة اتصلت بينها وبين قرطبة ، وإن لها مسجداً جامعاً دون جامع البلدة (قرطبة) في المحل والقلدر ، وعلى سورها سبعة أبواب حديد ، وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملك ، وابتدال لحيد الثياب والكسى ، وفراشة الكراع وكثرة التحلى ، وإن لم يكن لها في عيون كثير من الناس حسن بارع»^(٢) .

ولكن الزهراء لم تعمر طويلاً كقاعدة ملوكية ، فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين عاماً فقط ، منذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٩ هـ حتى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ، ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة ملوكية ، ولكن لأن تحولا خطيراً قد وقع في سلطان بنى أمية عقب وفاة الحكم ، إذ استطاع الوزير محمد بن أبى عامر (الحاجب المنصور) أن يتغلب على الدولة وأن يحجر على الخليفة هشام المؤيد ولد الحكم حسبما نفصل بعد ؛ ثم رأى أن ينقل قاعدة الحكم إلى ضاحية ملوكية جديدة أنشأها لنفسه بجوار قرطبة (سنة ٣٦٨ هـ) على نهر الوادى الكبير وسماها الزاهرة ، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ودور الحكومة ، واتخذ لنفسه سمة الملك ، وتسمى بالحاجب المنصور .

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) المسالك والممالك ص ٧٨ .

وهكذا فقدت الزهراء صفتها كقاعدة رسمية ، وشاءت الأقدار ألا تكون منزل الملك والخلافة إلا في عهد مؤسسها ، وعهد خلفه الذى أكمل بناءها ، وكان قيام الحاجب المنصور فى الواقع خاتمة لسلطان بنى أمية ، ولم يبق بعد ذلك من دولتهم سوى الإسم . وقد بقيت الزهراء حيناً مقاماً ملوكياً للخليفة المحجور عليه — هشام المؤيد — ولكنها فقدت من ذلك الحين أهميتها السياسية وهبتها الملوكية .

ثم كانت الحنة الكبرى بانهايار هذا الصرح البديع الذى شاده بنو أمية بالأندلس ، وانهايار الخلافة الأموية والدولة العامرية معاً ، وسقوط الأندلس صرعى الحرب الأهلية . فى ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ (نوفمبر سنة ١٠١٠ م) زحمت قوات البربر ومعها سليمان المستعين زعيم الثورة الأموية على قرطبة لينتزعها من الخليفة هشام المؤيد ، والفتى واضح الحاجب المتغلب عليه ، واقتحموا فى طريقهم مدينة الزهراء ، وفتكوا بحمايتها وسكانها ، وعاثوا فى معاهدها ورياضها ، وأحرقوا المسجد والقصر ، ولبثوا بها بضعة أشهر . والظاهر أن الضربة كانت قاضية فلم يبق من الضاحية الملوكية الباهرة بعد أن غادروها سوى أطلال دارسة . ولا يكاد اسم الزهراء ، يذكر بعد ذلك فى التاريخ الأندلسي ، إلا كأثر عصفت به صروف الدهر ، وقد كانت الزهراء أيام روعتها وازدهارها ، وحى الشعر الرائع والخيال الرفيع ، وقد أشاد بجماها وفخامتها ، جمهرة من أكابر شعراء الأندلس وأمراء البيان ، ثم رثوها بعد ذلك فى مقطوعات مؤثرة . ومما قاله ابن زيدون وهو من أعظم شعراء عصر الطوائف ، يشيد بالزهراء ، ورائع ذكرياتها :

خليلي لا فطر يسر ولا أضحي	فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحي
لئن شاقنى شرق العقاب فلم أزل	أخص بمخصوص الهوى ذلك السفحا
معاهد لذات وأوطان صبوة	أجلت المعلى فى الأمانى بها قدحا
ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح	تقضت مبانها مدامعه نزحاً
مقاصير ملك أشرقت جنباتها	فخلنا العشاء الجون أثناءها صبحاً
يمثل قرطبيها لى الوهم جمهرة	فقببها فالكوكب الرحب فالسطحا
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه	إذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحا

هناك الحمام الزرق تندى خفافها ظلال عهدت الدهر فيها فتي سمحا
تعوضت من شدو القيان خلالها صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا^(١)
ونقل إلينا الشيخ محي الدين بن عربي^(٢) أبياتاً ، قال إنه قرأها على بعض
جدران الزهراء بعد خرابها ، رثاء في المدينة الشهيرة وهي :

ديار بأكناف الملاعب تلمع وما إن بها من ساكن وهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب فيصمت أحياناً وحيناً يرجع
فخاطبت منها طائراً متغرداً له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنسوح وتشتكى فقال على دهر مضى ليس يرجع

ويرثي الفتح بن خاقان معاهد الزهراء خلال رواية نقلها عن جولة لبعض
الكبراء في تلك الأطلال : « وآثار الديار قد أشرفت عليهم كئسالى ينحن على
خرابها ، وانقراض أطرافها ، والوهى بمشيدها لاعب ، وعلى كل جدار غراب
ناعب ، وقد محت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، وطالما أشرقت
بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من شذاهم وأرجت ، أيام نزلوا خلالها ، وتفيأوا
ظلالها ، وعمروا حداثتها وجناتها ، ونهبوا الآمال من سناتها ، وراعوا اللبث
في آجامها ، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها ، فأضحت ولها بالتداعى تلفع
واعتنجار ، ولم يبق من آثارها إلا نوئى وأحجار ، وقد هوت قبابها ، وهرم
شبابها ، وقد يلين الحديد ، ويبللى على طيه الحديد ... »^(٣) .

وكانت أطلال الزهراء ما تزال قائمة حتى القرن السابع الهجرى (القرن الثالث
عشر) . وقد ذكرها الشريف الإدريسي في معجمه الجغرافى الذى وضعه في
منتصف القرن السادس الهجرى (منتصف القرن الثانى عشر) ، وذكر أن بينها وبين
قرطبة خمسة أميال^(٤) ؛ وذكرها أيضاً ياقوت الحموى في معجمه الجغرافى الذى

(١) اجمع قصيدة ابن زيدون برمتها في ترجمته في « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان ص ٧٢ .

(٢) هو من أكابر متصوفة الأندلس وعلمائها في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع
الهجرى ، وقد نقل إلينا هذه الرواية والأبيات في كتابه الشهير « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار » .

(٣) راجع قلائد العقيان في ترجمة المعتمد بن عباد ص ١٠ .

(٤) راجع نزهة المشتاق (المختصر) طبع رومة - ص ١٩٣ .

وضعه في أوائل القرن السابع الهجري^(١) . وفي شوال سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) كانت نكبة الأندلس ونكبة الإسلام ، بسقوط قرطبة في أيدي الإسبان ، فطويت بذلك أسطح صحف الإسلام وصحف الخلافة في الأندلس . وكانت قرطبة قد فقدت أهميتها السياسية منذ الثورة وسقوط الدولة الأموية ، ولكنها لبثت بعد ذلك عصراً تحتفظ بهيبتها الخلافية القديمة . ومن المرجح أن أطلال الزهراء بقيت بعد سقوط قرطبة في أيدي الإسبان عصراً يصعب تحديده ، غير أن قرطبة فقدت في ظل سادتها الحد صيغتها ومعالمها الإسلامية بسرعة ، ولم يبق اليوم من آثارها وصروحها الإسلامية سوى مسجدها الجامع ، الذي ما يزال بالرغم من تحويله إلى كنيسة جامعة ، يحتفظ إلى اليوم بكثير من روعته الإسلامية السالفة .

* * *

هذا وما زالت سيرة مدينة الزهراء وذكريات فخامتها الذاهبة ، تحتل المقام الأول في تاريخ إسبانيا المسلمة الأثرى والفنى . وقد اهتم العلماء الإسبان منذ نحو قرن بالكشف عن معالمها وأطلالها ، لما يلقى ذلك الكشف من أضواء هامة على أحوال الخلافة الأندلسية ونظمها الإدارية والاجتماعية ، وعلى تطور الفن الأندلسي في أزهى عصوره . وعنت الحكومة الإسبانية منذ بداية القرن الحالى ، بإجراء الحفريات الأثرية للكشف عن صروح المدينة الخلافية . وبالرغم من أن جهود اللجان الأثرية المتعاقبة التي اضطلعت بهذا العمل ، لم تكن متواصلة أو ذات نطاق واسع ، فقد استطاع الأثريون الإسبان أن يكشفوا عن كثير من معالم الزهراء ، ومواقع صروحها ، وأبنائها الملوكية .

وقد أتيج لنا أن نزور معالم الزهراء وأطلالها غير مرة ، خلال زيارتنا لعاصمة الخلافة القديمة^(٢) . وتقع هذه الأطلال الضخمة غربى قرطبة على بعد نحو سبعة أميال منها ، وشمالى نهر الوادى الكبير على قيد ميلين ، وتحتل منحدرأً صخرياً وعراً يقع أسفل الأكمة التي يحتلها دير سان خيرنمو San Jeronimo الشهير ، الذى يقال إنه بنى بأنقاض قصر الزهراء . وتسمى هذه المنطقة التي تحتلها أطلال الزهراء « قرطبة القديمة » Córdoba la vieja .

(١) راجع معجم البلدان تحت كلمة الزهراء (مصر) ج ٤ ص ٤٢١ .

(٢) قمنا بزيارة أطلال الزهراء لآخر مرة في مايو سنة ١٩٦٣ .

وتشمل الحفريات الأثرية التي يقوم بها العلماء الإسبان منذ سنة ١٩١٠ منطقة واسعة ، تمتد ١٥١٨ متراً من الشرق إلى الغرب و ٧٤٥ متراً من الشمال إلى الجنوب . ومع أن هذه المنطقة لم تكشف كلها فإن ما كشف حتى الآن من الأطلال الضخمة ، ومن نقوشها وزخارفها التي مازال بعضها قائماً في بعض الجدران ، والتي تتمثل بالأخص في مئات القطع الرخامية الزخرفية التي وجدت ، يكفي لتكوين فكرة عامة ، عن هندسة المدينة المملوكية ومنعتها وفخامة صروحها الزاهية .

وتنقسم أطلال الزهراء بصفة عامة إلى مجموعات ثلاث ، مدرجة من أعلى إلى أسفل . وتشمل المجموعة الأولى مواقع القصر الخلفي والمقام الخاص . وتشمل الثانية فيما يبدو مساكن الحاشية والحرس . وتشمل المجموعة الثالثة ، وهي الواقعة أسفل الربوة ، في بسط معتدل من الأرض ، أربعة أفنية كبيرة عالية ، هي التي يجري اليوم ضمها وإعادتها تشكيلها ، فيما يظن أنه البهو العظيم الذي كان مخصصاً لاستقبال الملوك وأكابر السفراء .

وقد تم الكشف عن هذا البهو الذي يعتبر أعظم ما كشف حتى اليوم من آثار الزهراء في سنة ١٩٤٤ ، ووجدت سائر حطامه وزخارفه مدفونة تحت الأنقاض . ويعكف الأثريون الإسبان منذ أعوام على إقامة الصرح وتنسيقه ، مما وجد من أنقاضه وأعمدته وزخارفه . وقد أقيم حتى اليوم في وسطه ما اصطلاح على تسميته « بهو السفراء » أو باسمه التاريخي « المجلس المؤنس » ، وهو عبارة عن أربعة أفنية متلاصقة تبلغ واجهتها نحو أربعين متراً ، وقد قسمت من الداخل إلى ثلاث أروقة مستطيلة ، يتوسطها رواق رابع ذو عقود من الجانبين . ويقوم كل فناء منها على خمسة عقود ، وقد ركب على هذه العقود ما وجد بين الأطلال من رؤوس وقواعد رخامية مزخرفة ، وفي وسط الرواق الثالث عقد جميل عال يفضي إلى بهو داخلي ، زين جانبيه بالزخارف الرخامية . ويبلغ طول كل رواق من الأروقة المذكورة نحو عشرين متراً ، وعرضه نحو ثمانية أمتار . وقد صنعت العقود كلها على نمط واحد ، وزينت من أعلاها بما أمكن جمعه من قطع الزخارف الرخامية التي وجدت . وقد شيدت هذه الأروقة على ارتفاع يبلغ نحو عشرة أمتار .

وقد كشفت الحفريات الأخيرة عن مجموعة جديدة من الأطلال تقع أعلى هذه الأبناء من اليسار ، وهي عبارة عن مجموعة من الغرف السكنية وهو مستطيل ،

وهي لا تفترق كثيراً عن غيرها من المجموعات الأخرى المماثلة من حيث التخطيط ، ولكنها تكشف لنا عن حقائق معمارية وفنية هامة ، فهي المجموعة الوحيدة التي وجد بها أثر الدهان واضحاً . وقد تبين أن لون الدهان الذي كان مستعملاً في هذه المجموعات من المساكن (مساكن الحاشية) هو اللون الأحمر ، يحف به على ارتفاع نحو متر ونصف خط أبيض ، يعلوه خط أحمر ، وتبين كذلك أن البلاط المستعمل في تغطية أرض الغرف هو أيضاً أحمر اللون ، وهو قطع مربعة يبلغ ضلع الواحد منها أربعين سنتيمتراً . وتبين أخيراً أن الأحجار المستعملة في أسفل البناء ، هي أحجار كبيرة بعضها يبلغ طوله نحو ٨٠ سنتيمتراً وعرضه ٤٠ سنتيمتراً .

وإلى جانب هذه المجموعات الجديدة من أطلال الزهراء ، توجد المجموعات القديمة ، وهي تشمل موقع القصر الخلفي والحدار الشمالي ، والفناءين التوأمين المتصلين بالمنحدر ، والفناء الصغير المتصل بقصر الخلفاء ، ومجموعة من مساكن الحرس . وترجع منطقة الحدار الشمالي إلى عصر الناصر ذاته ، وهي من منشأته في المرحلة الأولى من بناء الزهراء ، وقد أصلحت على امتداد سبعين متراً . وهذا الجزء من الحدار أمتن وأحكم صنعاً ، من قسمه الذي بنى فيما بعد في عهد الحكم المستنصر .

أما عن الفناءين المتماثلين أو الفناءين التوأمين ، فيقع أولهما على بعد ثمانية أمتار أسفل القصر الخلفي ، ويشتمل كل منهما على بهو كامل ، وهناك ما يدل على أن كلا منهما كان يحتوي على مجموعة من المساكن المماثلة المخصصة لسكنى طائفة هامة من البطانة أو الحند . ويشغل الفناء الغربي رقعة ضخمة مربعة تقريباً تبلغ مساحتها نحو خمسمائة متر ، وبه أيضاً بقايا أبنية سكنية . بيد أنه لم يكتشف في هذه المنطقة أبواب أو مداخل تكشف عن حقيقة نوع هذه الأبنية ، والظاهر أن الفناء الشرقي كان موقع مسكن « للحریم » ، أو بعبارة أخرى كان جناحاً للقصر الذي تسكنه النساء والأولاد حسبما تدل على ذلك آثار أبنيته ومراقفه .

وعثر المكتشفون إلى جانب هذه المجموعات الضخمة من أطلال المدينة الخليفية ، بطائفة كبيرة من القطع الزخرفية والعقود والأعمدة والألواح والأحواض الرخامية ، ومئات من القطع والأواني الزخرفية والبللورية ، وقد جمعت كلها في متحف خاص أقيم عند مدخل « مدينة الزهراء » ، وعرضت فيه بعض القطع

والأحواض الرخامية البديعة الزخرف والنقوش ، وبعض الأواني الخزفية والبللورية المصححة ، وهذا إلى ما يوجد من تحف الزاهراء ونقوشها الزخرفية بمتحف قرطبة الأثرى ، وفي مقدمتها الوعل البرونزى الشهير الذى يعتبر من أروع القطع الفنية .
نقول ، ولعل حفائر الزهراء المستقبلية تكشف لنا عن معالم كثيرة أخرى من ضروب الفخامة والجلال ، التى كانت تتسم بها المدينة الخلافة ، والتى تحدثنا عنها الروايات المعاصرة^(١) .

هذا ولم ينس الناصر أن يشمل المسجد الجامع بعنايته ، أسوة بسائر أسلافه من بنى أمية ، فجدد واجهته ، وزاد فيه زيادات كبيرة (٣٤٦ هـ - ٩٥٧ م) . وكان قبل ذلك قد هدم منارته القديمة ، وأنشأ مكانها المنارة العظمى ، وذلك فى سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) . وكانت منارة الناصر تمتاز بفخامتها وارتفاعها الشاهق ، وكانت مربعة الواجهات ، ولها أربعة عشرة شباكاً ذات عقود ، وتحتوى على سلمين أحدهما للصعود ، والآخر للنزول ، وقد ركب فى قممها ثلاث تفاعات كبيرة ، إثنان منها من الذهب ، والثالثة من الفضة^(٢) ، وكانت إذا أرسلت الشمس أشعتها عليها ، تكاد تحطف الأبصار ببريقها . وقد أزال الإسبان فيما بعد ، تلك المنارة العظيمة ، تنمة لبرناجهم فى تشويه المسجد الجامع ، وأقاموا مكانها برج الأجراس الحالى .

وما زالت اللوحة التى تنوه بما قام به الناصر من تجديد واجهة الجامع قائمة إلى اليوم ، فى مكانها فى الجانب الأيمن من بابه الرئيسى المسمى «باب النخيل»^(٣) وقد كتب بها ما يأتى بخط كوفى جميل :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أطال الله بقاءه ، ببنيان هذا الوجه ، وإحكام إتقانه ، تعظيماً لشعائر الله ،

(١) رجعتنا فى هذا الاستعراض لأطلال الزهراء إلى مشاهداتنا الخاصة . وكذلك إلى البحوث الأثرية الآتية :

Medina Azzahra y Alamiyya, por D.R. Velazquez Bosco (Madrid 1912)
Excavaciones del Plan nacional en Medina Azzahra (Córdoba), Campana de 1943, por R. Castéjon y Martínez de Arizala (Madrid 1945)
Nuevas Excavaciones en Medinat Al-Zahra : El Salon de Abd Al-Rahman III por R. Castéjon (Al-Andalus, Vol. X (1945) Fasc. I.

(٢) أعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٣) وبالإسبانية Puerta de las Palmas .

ومحافظة على حرمة بيوته ، التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر ، وجزيل الذخر ، مع بقاء شرف الأثر ، وحسن الذكر ، فتم ذلك بعون الله ، فى شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلث مائة على يد مولاه ووزيره وصاحب مبادئه عبد الله بن بدر ، عمل سعيد بن أيوب» (١) .

- ٢ -

تولى عبد الرحمن الناصر عرش مملكة تفاقمت من حولها الخطوب ، واستنفدت مواردها الثورة ، فتداركها بعزمه وقوة نفسه ، واستطاع أن يسحق خصومها فى الداخل والخارج ، فى سلسلة طاحنة من الحروب والغزوات المستمرة ، وأن يوطد دعائمها وأن يخضع الجزيرة لصولتها ، وأن يكفل لها الأمن والسكينة والرخاء . ولم يفت الناصر منذ البداية أن الجيش عماد الدولة وسياس الملك ، فعكف على إصلاح الجيش الذى أضناه الكفاح ضد الثورة ، وحشد له الجند من سائر أنحاء الأندلس والمغرب ، واستكثر من الأسلحة والذخائر ، وصقلت الحروب والغزوات المستمرة كفاية الجيش ودريته ، وأمدته بطائفة من أمهر القادة وأشدهم بأساً ، ورفعت القوة المعنوية بين الصفوف . وكان إقدام الأمير على تولى القيادة بنفسه مجدداً لعهد الحماسة الحربية والانتصارات الباهرة . وعنى عبد الرحمن فى الوقت نفسه بأمر الأسطول وإصلاحه ، فأنشأ له وحدات جديدة قوية . وكانت ألمرية عندئذ مركز الأسطول الأندلسى الرئيسى ، وبها أكبر دار للصناعة . وبلغ الأسطول فى عهد الناصر زهاء مائتى سفينة مختلفة الأنواع والأحجام ، وهذا عدا الأسطول المخصص لشئون المغرب البحرية ، وقد كان يضم كذلك عدداً كبيراً من السفن . وهكذا كان أسطول الأندلس فى ذلك العهد من أقوى الأساطيل يومئذ ، وكان بضخامته وأهباته ، يسيطر على مياه إسبانيا الجنوبية والشرقية ، ويتنازع الفاطميين سيادة الشق الغربى من البحر المتوسط .

وكان عهد الناصر بالرغم من استمرار الحروب والغزوات ، كما قدمنا عهد رخاء ويسر ، توطدت فيه مالية الدولة وامتلات خزائنها بالأموال الوفيرة ، وزاد الخراج والدخل زيادة عظيمة باستتباب السكينة والأمن ، وازدهار الزراعة والتجارة والصناعة ، وكثرة الأخماس والغنائم . وإن فيما احتوته الزهراء من القصور

(١) راجع الآثار الأندلسية الباقية ل محمد عبد الله هنان (الطبعة الثانية) ص ٢٠ و ٢١ و ٣٠

والمنشآت الباذخة ، وما بذل لإقامتها من النفقات مدى أعوام طويلة ، لما يستوقف النظر ، ويحمل على تأمل ذلك المدى المدهش الذى بلغته الدولة الأموية بالأندلس فى عهد الناصر من القوة والضحامة والغنى . وقد انتهت إلينا فى ذلك أرقام مدهشة ، منها أن جباية الأندلس بلغت فى عهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، هذا عدا أخماس الغنائم التى لا تحصى . وقيل إن الناصر خلف عند وفاته فى بيوت الأموال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف ألف ألف (خمسة آلاف مليون) دينار . وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث : ثلث لنفقة الجيش ، وثلث للبناء والمنشآت العامة ، وثلث يدخر للطوارئ^(١) . ولم يتردد المؤرخ الحديث فى قبول هذه الأرقام حتى أن العلامة دوزى ينقلها ، ويقدر أن الناصر ترك عند وفاته فى بيت المال عشرين مليوناً من الذهب^(٢) . ويقول لنا ابن حوقل الرحالة البغدادى الذى زار قرطبة فى هذا العهد ، إن الناصر كان أغنى ملوك عصره ، وإنه وبني حمدان ملوك حلب والجزيرة أغنى ملوك العالم فى ذلك العصر^(٣) . وهذه أرقام وروايات تشهد بضخامة الدولة الأموية وغناها الطائل فى عصر الناصر ، وتفسر لنا كيف استطاع الناصر إلى جانب حروبه غزواته ، أن يضطلع بكثير من المنشآت العظيمة .

هذا ، وقد كان مما عنى به الناصر تنظيم العملة ، وتثبيتها ، فأمر فى سنة ٣١٦هـ ، باتخاذ دار السكة داخل مدينة قرطبة لضرب العين من الدنانير والدراهم ، فاتخذت هناك على رسمه ، وولى خطتها أحمد بن محمد بن حدير ، وذلك فى ١٧ من شهر رمضان من هذه السنة ، فقام بالضرب فيها من هذا التاريخ ، من خالص الذهب والفضة ، وبذل جهده فى الاحتراس من المدلسين ، فأصبحت دنانيره ودراهمه عياراً محضاً . وقد كان ضرب النقد معطلاً قبل الناصر ، وكان لهذا الإجراء أثره فى تثبيت العملة واستقرار التعامل^(٤) .

(١) نفع الطيب ج ١ ص ١٧٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ ، وأعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 178

(٣) ابن حوقل ، المسالك والممالك ص ٧٧ .

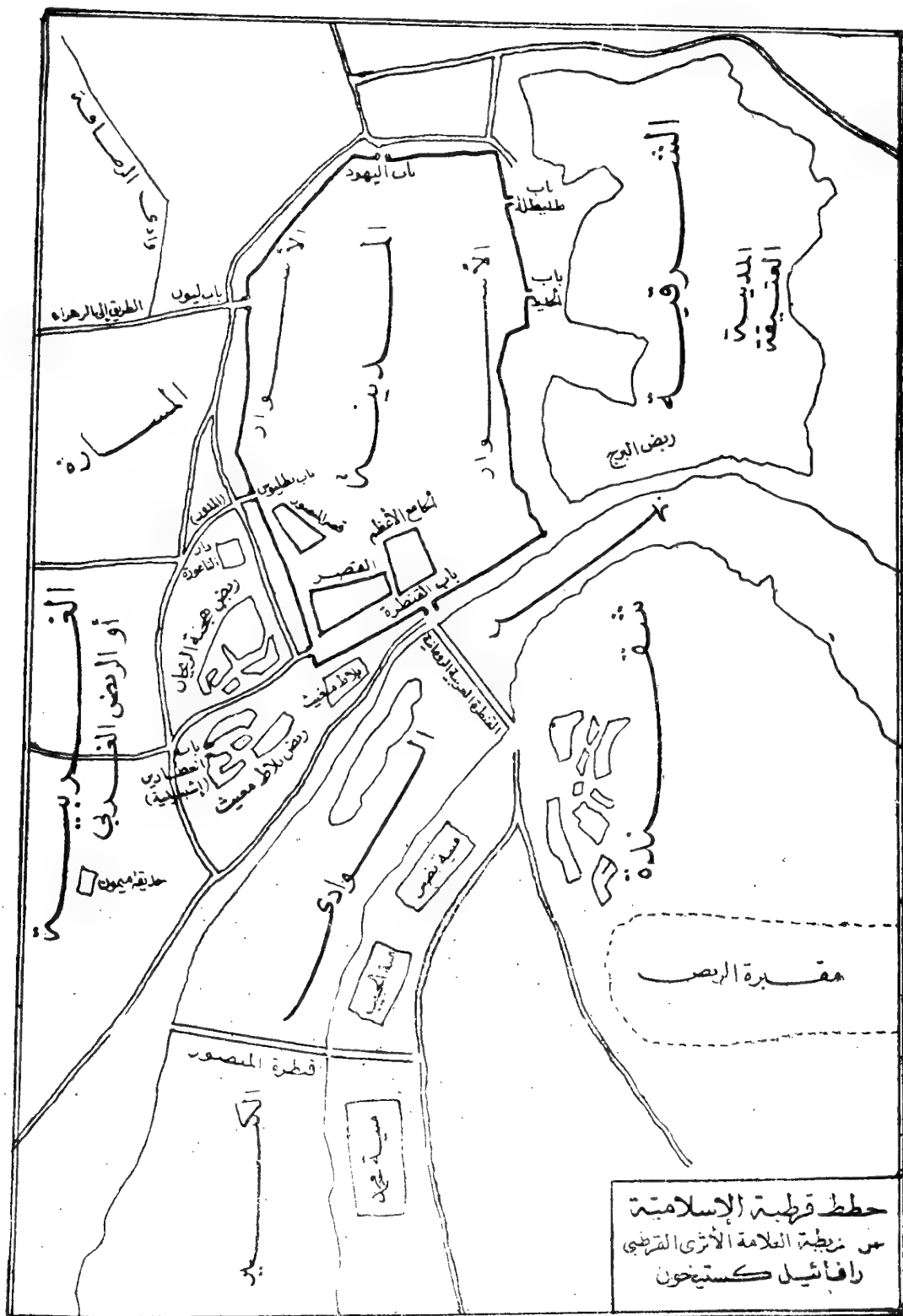
(٤) ابن حيان - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية لوحة ٩٩ ب .

وبلغت الأندلس في عهد الناصر ذروة الرخاء والنعاء والأمن والفرجة ، وازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والآداب والفنون ، وشمل الأمن سائر أطراف المملكة ، ورخصت كلفة العيش . ونمت قرطبة نمواً عظيماً حتى بلغ سكانها أكثر من خمسمائة ألف ، وبلغت مساجدها ثلاثة آلاف ، ومنازلها أكثر من مائة ألف ، وحماماتها العامة ثلاثمائة ، وبلغت أرباضها أو ضواحيها ثمانية وعشرين ، هذا عدا المدينة الوسطى ، وكان لقرطبة يومئذ سبعة أبواب : باب القنطرة ، وباب اليهود ، وباب عامر ، وباب العطارين ، وباب طلبطة ، وباب عبد الجبار ، وباب الجوند . وكان للقصر الأموي ستة أبواب : باب السدة ، وباب الجنان ، وباب العدل ، وباب الصناعة ، وباب الملك ، وباب السباط ، وهو في المسجد الجامع . وازدانت قرطبة بعدد كبير من القصور والمتنزهات الفخمة ، ودوت شهرتها في الآفاق ، ووصلت إلى قاصية الشمال ، حتى أن الراهبة السكسونية هروسوفيتا التي اشتهرت بنظمها في أواخر القرن العاشر ، أشادت في قصائدها اللاتينية بمحاسن قرطبة ووصفتها بأنها « زينة الدنيا »^(١) .

— ٣ —

كانت سياسة الدولة الأموية بالأندلس تقوم منذ البداية على اصطناع الموالى والصقالية واتخاذهم أداة وبطانة ، وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل قد عمد بتأثير الظروف العصبية التي أحاطت بقيام ملكه ، والخطوب والثورات الجمة التي أثارها خصومه ومنافسوه من زعماء القبائل العربية ، إلى الاسترابة بالعرب ، واصطناع البربر والموالى الذين آزره وقت المحنة ، ومكنوه من توطيد زعامته وإمارته . وقد حافظ خلفاء الداخل على هذه السياسة في جوهرها . ومنذ عهد الحكم المنتصر (١٨٨ — ٢٠٦ هـ) نرى نفوذ الموالى والصقالية يشتد في البلاط وفي الدولة . وكان الحكم يعشق مظاهر الفخامة والملك والباذخ ، فغص البلاط الأموي في عهده بالخدم والحشم ، من الممالك والصقالية ، بيد أن نفوذهم لبث مدى حين بعيداً عن شئون الدولة العليا ، قاصراً على شئون القصر والخاص . واقتنى عبد الرحمن الناصر أثر سياسة جده الداخل ، في الاسترابة بالقبائل

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 174



العربية ذات البأس والعصبية ، وفي إقصاء زعمائها عن مناصب النفوذ والثقة ، واستأثر بكل سلطة حقيقية في الدولة ، وجمع مقابليد الحكم كلها في يده ، فلم يبق سلطة فعلية لحاجب أو وزير . وكان الناصر حريصاً على سلطانه المطلق ، لا يني عن سحق كل من حدثته نفسه بالوقوف في منبيله ، ولو كان أقرب الناس إليه . ولما نمي إليه أن ولده عبد الله يأتمر به مع بعض فتيان القصر ورجال الدولة ، لأنه آثر أخاه الحكم بولاية العهد وتصريف الشئون ، وأن جماعة من أهل قرطبة بايعوه بالخلافة ، لم يحجم عن أن يقضى بإعدامه ، وإعدام جميع من اتجهت إليهم شبهة الاشتراك معه ، وكان ذلك في سنة ٣٣٨ هـ (٩٤٩ م) . وكان عبد الله من أفضل أبناء الناصر علماً وعقلاً وبصراً بالأمر ، وكذلك قضى الناصر بإعدام بعض أبناء عمومته وأخيه القاضي ابن محمد حين قامت الأدلة على اتهمهم به^(١) .

وعهد الناصر بالمناصب الكبيرة إلى رجال وضيعي المنبت من الصقالبة والموالي المعتقين أو الأرقاء ، وهم رجال لا إرادة لهم بوجههم كيفما شاء ، وكان يثق بالصقالبة بنوع خاص ، ويوليهم من السلطان والنفوذ ما لا يوليه سواهم^(٢) .

وقد كانت كلمة « الصقالبة » تطلق في الأندلس على الأسرى والخصيان من الأجناس الصقلية (السلافية) الحقيقية ، ثم غدت تطلق بمعنى الزمن على جميع الأجانب الذين يعملون في البطانة وفي القصر . وكان أولئك الصقالبة مزيجاً من الحليقيين (النصارى الإسبان) والألمان والفرنسيين واللونبارد والإيطاليين^(٣) ، وكان معظمهم يؤتى بهم أطفالاً بواسطة خوارج البحر (القراصنة) وتجار الرقيق ، وكانوا يختارون من الحسنين ، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة ، ويلقنون مبادئ الإسلام ، وقد نبغ بعضهم في النثر والنظم وصنفوا الكتب والقصائد . ومنذ عهد الناصر يشتد نفوذ الصقالبة في شئون الإدارة والحكم ، فضلاً عن القصر والخاص ، ويعهد إليهم بالمناصب الكبرى في القصر والإدارة والجيش ، وما لبث أن سما شأنهم وتوطد سلطانهم ، وأحرزوا الضياع والأموال الوفيرة ، وفاق عددهم في عهد الناصر أي عهد آخر ، حتى قدر بعض المؤرخين عددهم

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ ، وأعمال الأعلام ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ .

(٣) ابن حوقل في المسالك والممالك ص ٧٥ ؛ وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 158 .

يومئذ في القصر والبطانة ، بثلاثة عشر ألفاً وسبعمئة وخمسين ، وبلغوا في رواية أخرى سبعة آلاف وثمانين . ويقول لنا ابن الخطيب إن عدد الفتيان الصقالبة بمدينة الزهراء كان عند وفاة الناصر ثلاثة آلاف وسبعمئة وخمسين ، وعدد النساء بالقصر ستة آلاف وسبعمئة وخمسين ، تجرى عليهم جميعاً رواتب الطعام بسائر صنوفه^(١) . وعلى أى حال فقد كان من أولئك الصقالبة الحرس الخليفي ، ورجال الخاص والحشم ، وكان الناصر يمد لهم في السلطان والنفوذ ، ويرغم أشرف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم ، ليزل بذلك أنوفهم ويسحق هيبتهم^(٢) . بل كان منهم في عهد الناصر قائد الجيش الأعلى نجدة ، ومعظم أكابر القادة والضباط ، وكان منهم أفلح صاحب الخيل ، ودرى صاحب الشرطة ، ومنهم ياسر وتمام صاحباً النظر على الخاص^(٣) . وكان لهذه السياسة غير بعيد ، أسوأ الأثر في انحلال الجيش وفتور قواه المعنوية ، لما جاشت به صدور الضباط والحند العرب ، من الحفيظة والسخط على هذه السياسة المهيمنة ، وكانت هزيمة الناصر في موقعة الخندق الشهيرة (الأنديجا) (٣٢٧ هـ) ، ترجع من وجوه كثيرة إلى هذا الانحلال المعنوي ، الذي سرى إلى الجيش من جراء الأحقاد القومية والطائفية^(٤) .

— ٤ —

كانت الأندلس بما اجتمع لها في عهد الناصر من أسباب القوة والسلطان ، قد تبوأَت مركز الصدارة بين الدول الإسلامية ، وكانت الدولة العباسية قد دخلت يومئذ في دور انحلالها ، ولم تكن الدولة الفاطمية الفتية منافستها في المشرق ، قد بلغت يومئذ ذروة قوتها ونفوذها ، فكانت الأندلس تستأثر يومئذ بزعامة الإسلام . وكانت قرطبة مركز الجاذبية الدبلوماسية في العالم الإسلامي ، تتجه إليها أبصار الدول النصرانية في طلب المودة ، وعقد العلاقات الدبلوماسية ؛ وكانت قسطنطينية مركز هذه الجاذبية الدبلوماسية بين أمم النصرانية حتى القرن الثامن . ثم نافستها في ذلك مملكة الفرنج القوية مدى حين ، فلما اضمحل شأن المملوكية

(١) أعمال الأعلام ص ٤٠ و ٤١ .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 153 . وراجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٣ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٧١ .

(٤) Dozy : Hist. V. II. p. 153

الفرنجية ، استردت قسطنطينية زعامتها الدبلوماسية في النصرانية . ولما قامت الإمبراطورية الجرمانية في القرن العاشر ، استطاعت أن تبسط زعامتها السياسية على أواسط أوربا وغربها ، وهكذا كانت زعامة النصرانية تتردد في هذه الحقبة بين شرقي أوربا وغربها . هذا بينما لبثت قرطبة تستأثر وحدها بزعامة الإسلام في الغرب حتى نهاية القرن العاشر .

وقد كان هذا العصر الذي اجتمعت فيه تلك الزعامات الدينية والسياسية القوية ، أحفل العصور بصلات الإسلام والنصرانية . فكانت ثمة معاهدات وسفارات ومراسلات وعلاقات دبلوماسية ، بين قرطبة وبين معظم الأمم النصرانية ، وقد بلغت هذه الصلات ذروتها في عصر الناصر لدين الله ، وتوالى وفود الأمم النصرانية يومئذ على بلاط قرطبة ، تنشداً للحلف والصداقة والمهادنة ، من زعيم الإسلام في الغرب .

وكان بلاط قسطنطينية بالرغم من تأيئه عن مقر الخلافة الأندلسية ، وعدم اتصاله بها ، بأية حدود أو صلات جغرافية مشتركة ، في مقدمة الساعين إلى توثيق الروابط الودية مع بلاط قرطبة . ففي سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨ م)^(١) ، وفدت على الناصر رسل قسطنطين السابع قيصر قسطنطينية المعروف «بيورفيروجتوس»^(٢) ومعهم طائفة من الهدايا النفيسة . وتقدم إلينا الرواية الأندلسية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة ، تأتي ضوءاً على نظم الرسوم الدبلوماسية في هذا العصر ، فتقول لنا إن الناصر بعث رسله للقاء السفراء البيزنطيين حين وصولهم إلى الشاطئ لإرشادهم وخدمتهم ، ولما وصل الركب إلى مقرية من قرطبة ، بعث بعض قواته للاحتفاء بهم ، ثم بعث الفتيين يامراً وتاماً فصحبهم إلى دار الضيافة ، بقصر ولي العهد الحكم ، في ريف قرطبة ، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة ، ورتب لخدمتهم طائفة من الموالى والحشم . وفي اليوم الحادى عشر من

(١) هذه هي رواية ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٢) . وفي رواية أخرى أنها وقعت سنة ٣٣٨ هـ (نفع الطيب ج ١ ص ١٧١) . وذكر الطيب الأندلسي ابن جلمجل وقد عاش قريباً من عصر الناصر ، أنها وقعت في سنة ٣٣٧ هـ (راجع طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة - طبعة ميلر - ج ٢ ص ٤٤٧) . وذكر صاحب البيان المغرب أنها وقعت في سنة ٣٣٤ هـ (ج ٢ ص ٢٣٩) . ولم نشر في تواريخ الدولة البيزنطية على تفاصيل هذه السفارة ، ولكن الرواية الإسلامية واضحة جلية .

(٢) وممثاها الأرجواني .

ربيع الأول من السنة المذكورة ، خرج الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لاستقبالهم ، وجلس في بهو المجلس الزاهر ، وكان يوماً مشهوداً من أيام الأندلس . فركبت الجند بالسلاح في أكمل شكل ، وزين القصر الخلافي بأنواع الزينة وأصناف الستور ، وحفل السيرير الخلافي بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقراة ، وجلس عن يمين الخليفة ولده وولى عهده الحكم ، وجلس باقى أولاده يميناً وشمالاً ، ورتب الوزراء في مراتبهم ، وغص المجلس برجال الدولة والقادة والعظماء والزعماء من كل ضرب . ودخل سفراء ملك الروم ، فبهروهم ما رأوا من روعة الملك وفخامة السلطان ، وقدموا الهدايا التي يحملونها . وذكر لنا الطبيب الأندلسي أبو داود سليمان بن حسان المعروف «بابن جليل» الذي عاش في عصر هشام المؤيد حفيد الناصر ، أنه كان في مقدمة هدايا أرمانئوس ملك الروم إلى الناصر سفراً جليلاً من كتب الأقدمين ، أحدهما نسخة مصورة أبدع تصوير من كتاب ديسقوريدس^(١) عن الحشائش ، مكتوبة بلغة مؤلفها أى باليونانية ؛ والثاني نسخة من تاريخ أورسيوس (هروسيوس)^(٢) مكتوبة باللاتينية ، وهو المتضمن لتاريخ العالم القديم ، وأقاصيص الملوك السابقين^(٣) . وقدم الرسل كتاب القيصر قسطنطين السابع ، وقد كتب في رق ذي لون سماوى باللغة اليونانية ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة ومكتوبة بنفس اللغة ، فيها وصف لهدايا الإمبراطور ، وعلى الكتاب طابع ذهبي ، على إحدى وجهيه صورة للمسيح ، وعلى الوجه الآخر صورة الإمبراطور قسطنطين ، مصنوعة من الزجاج الملون البديع . وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سطر منه : « قسطنطين ورومانين

(١) ديسقوريدس Dioscorides طبيب وكيميائي يوناني . أصله من كايكية بآسيا الصغرى . وقد عاش في القرن الأول للميلاد ، واشتهر بكتابه عن مركبات الأدوية . وهو ما يزال يعتبر ذا قيمة علمية حتى عصرنا ، وكان يعتبر حتى القرن السابع عشر أثمن مرشد لخواص الأعشاب الطبية .

(٢) باولوس أورسيوس Paulus Orosius حبر ومؤرخ إسباني (قوطي) عاش في القرن الخامس الميلادي ووضع باللاتينية تاريخاً للخليفة في عصره . وقد اشتهر تاريخه بالرغم من ركاكته وكثرة خرافاته ، وانتفع به كثير من المؤرخين اللاحقين . وعرفه النورخون المسلمون ونقلوا عنه . وأشار إليه ابن خلدون في مواضع عديدة من تاريخه ، وتعرفه الرواية الإسلامية بهروسيوس أو هرثيوش .

(٣) راجع رواية ابن جليل منصلة في كتاب طبقات الأطباء ، في ترجمة ابن جليل (ج ٢ ص ٤٤٧) .

المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم»^(١)، وفي سطر آخر صيغة التوجيه : «العظيم الإستحقاق للفخر ، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة ، الحاكم على العرب بالأندلس ، أطل الله بقاءه» . وذكر لنا ابن جُلجل أن ملك الروم كتب إلى الناصر في شأن كتاب ديسقوريدس أنه لا تجنى فائدته إلا بواسطة شخص يجيد اليونانية ، وأنه لم يكن في قرطبة يومئذ من يحسن هذه اللغة ، وأن الناصر كتب في خطابه إلى «أرمانئوس» فيما بعد ، أن يرسل إليه رجل يتكلم اليونانية واللاتينية ، فبعث إليه راهب يدعى نيقولا ، فحظي عند الناصر ، وتوفر على تفسير كتاب ديسقوريدس وشرح محتوياته لأطباء قرطبة . وأما كتاب أورسيوس المكتوب باللاتينية فقد كان في بلاط قرطبة من يجيدها^(٢) . وكان الناصر قد أمر أن يُخطب الأعلام في ذلك الحفل ، وأن يعظموا من شأن الإسلام والخلافة ، وأن يشكروا نعمة الله على ظهور دينه ، وإعزاز كلمته ، وذلة أعدائه ، واستعد بعض الخطباء لذلك ، ولكن بهرهم هول المجلس فوجوا وأرتج عليهم القول ، وكان منهم اللغوى الكبير أبو على القالى وافد العراق وضيف الخليفة — وكان قد وفد على الأندلس في سنة ٣٣٠ هـ — ، نذبه الناصر لذلك تكريماً له وتقديراً لبلاغته ، ولكنه ما كاد يبدأ خطابه ، حتى بهت وتلعثم ثم صمت ؛ فعندئذ نهض الفقيه منذر بن سعيد البلوطى دون استعداد ولا سابق توقع ، وارجل خطاباً بليغاً ضافياً يشيد فيه بعهد الناصر ومآثره ، ثم أعقبه بقصيدة في نفس المعنى^(٣) ، فأثار بذلاقته وثبت

(١) رومانين هو رومانوس الثانى ابن قسطنطين السابع ، وقد حكم بعد أبيه من سنة ٩٥٩ إلى سنة ٩٦٣ م . وتسميه الرواية الإسلامية «أرمانئوس» .

(٢) راجع رواية ابن جُلجل المشار إليها في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٤٧ .

(٣) نقل المقرئ عن ابن حيان وغيره ، نص الخطاب الذى ألقاه منذر بن سعيد في ذلك الحفل . وإنه ليصعب علينا متى تأملنا عباراته المنمقة ، وسجعاته المرتبة ، وما يختلله من ضروب البيان والبدع ، أن نصدق أنه خطاب مرتجل ألقى عفو الساعة . ولعله صورة منمقة منمقة للخطاب الأصيل . وقد رأينا أن ننقل فقرات من ذلك الخطاب نتناول عهد الناصر بشيء من الوصف والتحليل .

جاء في الخطاب بعد الديباجة ما يأتى :

« وإني أذكركم بأيام الله عندكم ، وتلافية لكم بخلافة أمير المؤمنين ، التى لمت شعكم ، وأمنت مبركم ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلا فمكثركم ، ومستضعفين فنصركم ، ولاه الله رعايتكم وأسند إليهم إمامتكم ، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق ، حتى صرتم ، في مثل حدة البعير من ضيق الحال ، ونكد العيش والتقتير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بين سياسته إلى تمهيد كنف العافية ، بعد استيطان البلاء . أناشدكم بالله معشر الملأ =

جنانه ، أما إعجاب ، وأكبر الناصر همته وعلمه ، وكان هذا الخطاب المرتجل فاتحة مجده ، فأغدق عليه الناصر عطفه ، وولاه القضاء ، وأصبح من رجال الدولة المشهورين .

ومن شعر منذر بن سعيد في وصف ذلك الحفل المشهود قوله :

مقالى كحد السيف وسط المحافل	فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب ذكى ترتني جمراته	كبارق رعد عند رعرش الأنامل
فما دحضت رجلى ولا زل مقولى	ولاطاش عقلى يوم تلك الزلازل
وقد حدثت حولى عيون أخالها	كثل سهام أثبتت في المقاتل
لخير إمام كان أو هو كائن	لمقتبل أو في العصور الأوائل
ترى الناس أفواجاً يؤمون بابيه	وكلهم ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فئانه	مخافة بأس أو رجاء لنائل
فعش سالماً أقصى حياة مؤملاً	فأنت رجاء الكل حاف وناعل
ستملكها ما بين شرق ومغرب	إلى درب قسطنطين أو أرض بابل ^(١)

= ألم تكن الدماء مفة كة فحقنها ، والسبل مخوفة فأنفها ، والأموال منتبهة فأحرزها وحصنها ، ألم تكن البلاد خراباً فعمرها ، وثغور المسلمين مهتضة فحماها ونصرها .

ثم قال : « فأصبحت بنعمة الله إخواناً ، وبلغ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً ، حتى توافرت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخير والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليكم ، وآمال الأقبصين والأدنيين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق »

ثم قال : « فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصرة لإمامكم ، والتزام الطاعة لحليفكم ، فإن من نزع يداً من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين . وقد علمتم أن في التعلق بمصمتها والتمسك بعروتها ، حفظ الأموال وحقق الدماء وصلاح الخاصة والدعاه ، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود وتوفى للمهود ... فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فإنه تبارك وتعالى يقول (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ، وقد علمتم ما أحاط بكم ، في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصفوف الملحدين ، الساعين في شق عصاكم ، وتفريق ملائكم الأخذيين في مخاذلة دينكم وتوهين دعوة نبيكم ... الخ .

راجع خطاب ابن سعيد بأكمله في نفع الطيب ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(١) وقد قتل إلينا المقرئ عن المغرب لابن سعيد وغيره نبذة في ترجمة القاضي منذر بن سعيد البلوطى ، وفيها أنه ولد سنة ٢٦٥ هـ ، وبرع في علوم القرآن والسنة ، وظهر بفصاحته وذاقته وجزالة شعره ، وكان الخطاب الذي ارتجله في مجلس الناصر لمناسبة استقباله لرسول ملك الروم بدأ ظهوره وشهرته ، فولاه الناصر الصلاة والخطابة في مسجد الزهراء ، ثم ولاه قضاء الجماعة بقرطبة . وتوفى سنة ٣٥٥ هـ . (راجع نفع الطيب ج ١ ص ١٧٤ و ١٧٥ وكذلك قصة قرطبة للحنفى ص ١٧٥ و ١٧٦) .

ولما انصرف رسل قسطنطين ، بعث الناصر معهم سفيراً هو هشام بن هذيل بهدية حافلة ، ليؤكد المودة ويوثق عرى التحالف بين قرطبة وقسطنطينية ، فعاد بعد سنتين وقد أدى سفارته خير أداء ، وعادت معه رسل قسطنطين^(١) .
وتفيض الرواية الإسلامية في تفاصيل هذه السفارة إفاضة واضحة ، ولكنها لا تلتقي كبير ضوء على موضوعها وغايتها الحقيقية ، وأكبر الظن أنها لم تكن إلا تجديداً لعلاقتي الدولة البيزنطية مع دولة الإسلام بالأندلس ، وتوطيداً للصداقة القديمة التي رأى بلاط قسطنطينية أن يعقدها مع بلاط قرطبة منذ عهد عبد الرحمن ابن الحكم^(٢) لتكون شبه تحالف ضد الدولة العباسية خصيمتهما المشتركة . وربما كانت ترمى في الوقت نفسه إلى تنظيم الخطط المشتركة بين الدولتين ، لمقاومة الدولة الفاطمية الفتية ، التي بدأت ترزعج البيزنطيين في أواسط البحر المتوسط ، وترزعج حكومة قرطبة بتوغلها في المغرب الأقصى .

ثم توالى سفارات ملوك النصرانية بعدئذ على الناصر فوفدت عليه رسل ملك الصقلية وهو يومئذ الملك بيتر أو بطرس^(٣) ، فاحتفل بقدمهم كذلك وبعث معهم ربيعاً (ريفاً) الأسقف سفيراً إلى ملكهم ؛ ثم وفدت رسل ملك فرنسا وهو يومئذ لويس الرابع في طلب الصداقة والمودة ، فأجابهم إلى ما طلبوا .

على أن أهم سفارة تلقاها الناصر يومئذ ، هي سفارة أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا ، وقد كان أوتو يومئذ زعيم النصرانية ، كما كان عبد الرحمن الناصر زعيم الإسلام . وتشير الرواية الإسلامية إلى تلك السفارة في غموض وإيجاز ، وتصف أوتو بملك الصقلية أو ملك « اللمان » وتسميه « هوتوا » أو « هوتو »^(٤) ، ولكنها تتفق مع الرواية الفرنجية في تاريخ هذه السفارة وهو سنة ٣٤٤ هـ الموافقة سنة ٩٥٦ م . ففي ذلك العام وفد على قرطبة سفير ، وهو جبريدع يوحنا الجورزني نسبة إلى الدبر الذي ينتمي إليه في جورزني على مقربة من منز ، وكان يوحنا من أكابر

(١) راجع في أخبار هذه السفارة البيزنطية : ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ و ١٤٣ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٧٠ - ١٧٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٩ . راجع ، Aschbach : ibid .
B. I. p. 98-100

(٢) راجع « دولة الإسلام في الأندلس » القسم الأول ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٣) هو بطرس بن سيمون الكبير ملك بلغاريا وقد كان يومئذ يعرف بملك الصقلية .

(٤) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ .

العلماء وأقطاب البحث والمناظرة . والظاهر أنه قد وقعت فعلاً قبل ذلك مراسلات كلامية بين الناصر وأوتو عن الإسلام والنصرانية ، وأن الناصر قد عرض في بعض رسائله بالنصرانية وتعاليمها ، فألقى أوتو الفرصة سانحة لأن يدافع سفيره العلامة الذلق عن قضية النصرانية لدى خليفة قرطبة^(١). بيد أنه يبدو من أقول الروايات الكنسية أن هذه المهمة الحدية ، لم تكن إلا مهمة ثانوية إلى جانب موضوع سفارته الأصلية ، وأن مهمته الحقيقية كانت تتعلق بشأن توغل المستعمرات العربية المغامرة ، في جنوبي فرنسا وفي ليجوريا وسويسرة ، وعيها في تلك الأنحاء ، بصورة تبت الرعب والروع إلى كثير من المدن والجماعات النصرانية ، والاستعانة بنفوذ خليفة الأندلس الذي تنمى إليه هذه المستعمرات من الناحية الأدبية ، لوقف عدوانها وتوغلها^(٢) . وقدم يوحنا إلى قرطبة عن طريق الرون وقطلوونية برفقة راهب آخر ، ومعه طائفة نفيسة من الهدايا برسم الخليفة ، فاستقبل بحفاوة ، وأُنزل في إحدى الدور الرسمية . ولكن الناصر لم يبادر باستقباله حين وقف على موضوع رسالته ، ولم يقبل بالأخص أن تكون المسائل الدينية موضوع جدل بينهما . ولما ألح يوحنا في طلب المقابلة والمحادثة ، أجاب الناصر بأنه سبق أن أرسل رسولاً أسقفاً إلى أوتو فاعتقله مدى ثلاثة أعوام ، وأنه سيعتقله أي يوحنا ، أضعاف هذه المدة ، لأنه أرفع مقاماً من ملك النصرانية . وأخيراً تقرر أن يرسل الناصر إلى ملك الألمان رسولاً آخر يستوثق من عواطفه ونياته نحوه ، وأن يبقى يوحنا معتقلاً حتى يعود السفير . واختير لهذه السفارة كالعادة قس من رعايا الخليفة هوربيغ أو ريفا الأسقف ، وكان عالماً متمكناً يشغل في البلاط منصباً هاماً ، وبحبوه الناصر بعطفه وتقديره ، لعلمه وجليل خدماته^(٣) ، فاخترق فرنسا إلى ألمانيا ، ومثل لدى الإمبراطور أوتو في تورنجن ، حيث كان ينفق معظم أوقاته . وكان أوتو يجوز يومئذ بعض المتاعب للداخلية من جراء ثورة ولده عليه ، فأبدى تساهلاً في قبول وجهات نظر الخليفة ، وأكرم مثوى سفيره ، وعاد ربيع الأسقف إلى قرطبة ، بعد سنتين من سفره (٣٤٧ هـ - ٩٥٨ م) . فارتاح الناصر لنتائج سفارته ، وأذن بروية يوحنا سفير

(١) Reinaud : *Invasions des Sarrazins en France* p. 187

(٢) تناولنا قصة هذه المستعمرات في الفصل التالي .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ . وهو ربيع بن زيد من زعماء النصارى المعاهدين ، وكان

يمجد البرية واللاتينية .

الإمبراطور ، واستقبله بقصر قرطبة في احتفال فخيم ، ظهرت فيه روعة البلاط الأموي ، وأفضى إلى الخليفة بموضوع سفارته . ولسنا نعرف ماذا كانت نتائج هذه السفارة ، لأن الرواية العربية لا تحدثنا عن موضوعها ، ولا تحدثنا الرواية الكنسية عن نتائجها . ولكن المرجح أن وجهة النظر التي أبدتها حكومة قرطبة لسفير الإمبراطور ، فيما يتعلق بأمر المستعمرات العربية المغامرة ، وغزواتها في غاليس وشمال إيطاليا وسويسرة ، أنها ليست لها علاقة بتلك المستعمرات ، وأنها لاتحمل تبعه أعمالها ، ولاتستطيع أن تتدخل في شأنها ، أو تبذل نصيحها لأولئك المغامرين الخارجين عن طاعتها ، وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات ، مما يدل على أن حكومة الأندلس ، لم تكن ذات علائق رسمية بها ، ولم تكن تعنى بأمرها ، وإن كانت بلاريب تنظر إلى غزواتها وتوغلها في الأراضي النصرانية ، بعين العطف والرضى . ولكن لوتبراند وهو مؤرخ كنسي معاصر ، يؤكد لنا أن الخليفة كان يحمي هذه المستعمرات ، ويمدها بالتشجيع والعون^(١) .

بيد أن الرواية الكنسية تقدم إلينا بهذه المناسبة حديثاً طريفاً عن آراء الناصر في نظم الحكم ، فقد وقف الناصر من مستشاريه أو من يوحنا نفسه على طرق نظام الحكم الإقطاعي السائد في ألمانيا ، وما يتمتع به بعض الأمراء المحليين في ظل هذا النظام ، من الاستقلال الداخلي ، وأبدى ليوحنا اعتراضه على هذا النظام ، قائلاً إن ملككم أمير حكيم ماهر ، ولكن في سياسته شيئاً لا أستسيغه ، وهو أنه بدلاً من أن يقبض بيديه على جميع السلطات ، ينزل عن بعضها لأتباعه ، ويترك لهم بعض ولاياته ، معتقداً أنه يكسب بذلك ، وهذا خطأ فادح ، فإن مداراة العظماء لا يمكن إلا أن تزيد في كبريائهم ، وتذكى رغبتهم في الثورة^(٢) . وفي ذلك ما يوضح لنا فكرة الناصر في الحكم المطلق ، وسياسته في سحق أولى الشأن والعصية من زعماء القبائل العربية ، واعتماده على بطانة ذليلة من الفتيان الصقالبة والمولدين . تلك تفاصيل المراسلات والسفارة الشهيرة التي تبادلها أوتوالا كبير وعبد الرحمن الناصر ، زعيم النصرانية والإسلام في عصرهما ، بيد أنها لم تكن خاتمة الصلات

Reinaud : Ibid, p. 193 (١)

Dozy : Hist. V. II. p. 163 (٢)

الدبلوماسية بين الناصر وملوك النصرانية . فقد تلقى الناصر كذلك في سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) سفارة من أردونيو الرابع ملك ليون يرجو عقد السلام والمودة ، فأجابه إلى طلبه ؛ وأرسل في السنة التالية سفيره محمد بن الحسين إلى ليون ، فعقد مع أردونيو معاهدة صادق عليها ، ولكن حال دون تنفيذها منافسة سانشو لأخيه أردونيو . وفي سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) وفدت طوطة ملكة نافار بنفسها إلى قرطبة ، ومعها ولدها غرسية وسانشو أمير ليون ، وطائفة من الأحرار والعظماء النصاري ، فاستقبلهم الناصر في قصره بالزهراء استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطة ، وأقر ولدها ملكاً على نافار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه . ثم وفدت على الناصر رسل البابا يوحنا الثاني عشر في طلب السلم والمودة بين الإسلام والنصرانية فأجابهم إلى ما طلبوا^(١) ، وكانت سفارة ذات مغزى واضح في الاعتراف بزعامة الناصر للعالم الإسلامي . وفي أخبار هذه السفارات المتبادلة بين زعيم الإسلام وملوك النصرانية ، وفي تفاصيلها الشائقة ، ما يلقي كبير ضوء على طبيعة التقاليد والرسوم الدبلوماسية في العصور الوسطى .

— ٥ —

في أوائل سنة ٣٤٩ هـ مرض الناصر من برد شديد أصابه ، واحتجب حيناً ، وأكب الأطباء على معالجته حتى تحسنت حالته نوعاً ، وعاد إلى الجلوس في القصر ، ولكنه أصيب بنكسة ، وعاد إلى احتجابه ، ولبث أشهراً تشتد به العلة حيناً ، وتخف حيناً ، حتى وافاه القدر المحتوم ، في الثاني من شهر رمضان سنة ٣٥٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩٦١ م) . وكانت وفاته بقصر الزهراء في الحادية والسبعين من عمره ، واستطال حكمه زهاء خمسين عاماً ، وهي أطول مدة حكمها خليفة من خلفاء الإسلام ، إذا استثنينا عهد المستنصر بالله الفاطمي بمصر .

وكان عبد الرحمن الناصر أعظم أمراء الإسلام في عصره ، بل ربما كان أعظم أمراء عصره قاطبة . ولم تصل الدولة الإسلامية في الغرب ، إلى ما وصلت إليه في عصر الناصر ، من القوة والسيادة والهيبة والنفوذ . وكان يتمتع بخلال باهرة قلما تجتمع في شخصية واحدة ، سياسية وعسكرية وإدارية . وكان يشبه في

حزمه وصرامته وبعد نظره ، بحجده الأكبر عبد الرحمن الداخل^(١) . ويحمل ابن الأبار خواصه وخواص عصره في تلك العبارة : « وظهر لأول ولايته من يمن طائرته ، وسعادة جده ، واتساع ملكه ، وقوة سلطانه ، وإقبال دولته ، وخمود نار الفتنة على اضطرامها بكل جهة ، وانقياد العصاة لطاعته ، مما تعجز عن تصوره الأوهام »^(٢) . وتولى حجابته لأول ولايته مولاه بدر بن أحمد ، وما لبث أن اصطفاه وأولاه كل ثقته ، وفوض إليه الأمر والنهي ، وجعله على حد قول المؤرخ « شمساً لملكه ويدراً »^(٣) . وولى أبناءه الثلاثة عبد الرحمن وعبد الله وإسماعيل مناصب في القصر والخاص . ولما توفى بدر بن أحمد في شهر رجب سنة ٣٠٩ هـ ، ولى الناصر مكانه في الحجابة مومى بن محمد بن حدير . وتولى وزارته عدة من أنبه رجال العصر ، منهم أحمد بن محمد بن حدير ، وجههور بن عبد الملك ، وعبد الله بن محمد الزرجالي . وتولى إدارة الشؤون المالية عبد الملك بن جهور ، وأحمد بن عبد الملك بن شهيد^(٤) . وأهدى ابن شهيد إلى الناصر هديته المشهورة ، التي أفاض في وصفها مؤرخو الأندلس ، وكان منها خمسمائة ألف مثقال من الذهب ، ومائتا أوقية من المسك والعنبر ، وثلاثون شقة من الحرير المرقوم بالذهب ، ومائة فرس مسرجة ، وعشرون بغلاً عالية الركاب ، وأربعون وصيفاً ، وعشرون جارية بكسوتهن وزينتهن ، وأصناف عديدة أخرى . قال ابن خلدون « وهى مما يدل على ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها » . ويجمع مؤرخو الأندلس على أنه لم تقدم هدية في قدرها ونفاستها إلى ملك من ملوك الأندلس . قدمها ابن شهيد إلى الناصر في سنة ٣٢٧ هـ ، ومعها خطاب رقيق يشيد فيه بعظمة الناصر ومآثره ، فوقعت لديه أحسن موقع ، وزاده حظوة واختصاصاً ، وأسمى منزلته على سائر الوزراء ، وأسبغ عليه لقب ذى الوزارتين ، فكان أول من حظى بهذا اللقب من وزراء الأندلس ، وضاعف له رزق الوزارة ، وجعله ثمانين ألف دينار في العام^(٥) . وولى قيادة الجيش لأول عهد الناصر أحمد بن محمد

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٣ .

(٢) الحلة السيرة (لندن) ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٤ .

(٥) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ ؛ ونفع الطيب ج ١ ص ١٦٦ و ١٦٧ و ١٦٧ .

نقلا عن ابن حيان وابن القفري وغيرهما .

ابن أبي عبدة ، سليل الأسرة الشهيرة ، التي تولى زعمائها قيادة الجيوش الأندلسية خلال الفتنة الكبرى . وكذلك ولها الحاجب بدر غير مرة ، وولياها الفتيان انصقالبة مثل نجدة وميسور وغيرهما . وقد رأينا كيف انتهت سياسة عبد الرحمن في إثارة الصقالبة بالقيادة إلى كارثة الخندق . وعمن ولى القضاء في عهد الناصر أحمد بن محمد بن زياد ، وأسلم بن عبد العزيز بن هشام ، ومنذر بن سعيد البلوطي^(١) .

وقد أورد لنا ابن حيان ثبناً طويلاً من الوزراء وأصحاب الخطط والموالى الذين تولوا المناصب الكبرى في عهد الناصر .

فمن الوزراء : محمد بن سليمان بن وانسوم . سعيد بن المنذر القرشي ، عبد الحميد بن بسيل ، خالد بن أمية بن شهيد . عيسى بن أحمد بن أبي عبدة ، جمهور بن عبد الملك البختي ، أحمد بن محمد بن إلياس .
ومن أصحاب الخطط : محمد بن سعيد بن المنذر القايد . عيسى بن فطيس الكاتب . عبد الله بن بدر بن أحمد صاحب الشرطة . محمد بن قاسم بن طملس صاحب المظالم . محمد بن عبد الله بن موسى الخازن . إسماعيل بن بدر بن إسماعيل العارض .

ومن الموالى : جمهور بن عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة . أحمد بن خالد ابن أمية بن عيسى بن شهيد . محمد بن جمهور بن عبد الملك البختي . مروان بن جمهور بن عبد الملك البختي ، أحمد بن سهل بن محمد . عبد الله بن أحمد بن محمد ابن عيسى . محمد بن عباس بن محمد بن أبي عبدة . عبيد الله بن عباس بن أحمد ابن أبي عبدة ، عبد الله بن يحيى بن أدريس . عبد الوهاب بن محمد بن بسيل . محمد بن مروان بن عبد الله بن بسيل . عبد الرحمن بن أحمد بن زكريا بن عاصم . محمد بن أحمد بن قابوس . أحمد بن محمد بن عيسى . محمد بن عبد السلام بن كليب بن ثعلبة^(٢) .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) نقلنا هذا الثبوت عن ابن حيان أوردته في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزنة الملكية الذي سبقته الإشارة إليه غير مرة . وأورد لنا ابن حيان أيضاً ثبناً طويلاً بأسماء عمال الكور في عهد الناصر استغرق صفحة كاملة (لوحه ١٥٣ أ) . ولكننا لم نجد محلاً لإيرادها .

وذكر لنا ابن حيان ، في حوادث سنة ٣٢٤ هـ ، أن الوزراء في هذه السنة كانوا عشرة ، وهم : سعيد بن المنذر القرشي المرواني . أحمد بن محمد بن حدر . عبد الحميد بن بسيل . أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرووف . خالد بن أمية ابن شهيد . عيسى بن أحمد بن أبي عبدة . عبد الملك بن جهور . فطيس بن أصبغ بن فطيس . أحمد بن محمد بن إلياس . يحيى بن إسحق .

وذكر لنا في حوادث سنة ٣٢٥ هـ ، أنه قد عزل عن الوزارة يحيى بن إسحق ، ووليها أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، وعبد الرحمن بن عبد الله الزجاجي ، وأن الوزراء بلغ عددهم في هذه السنة واحداً وعشرين وزيراً ، منهم تسعة من العشرة الذين سبق ذكرهم عدا يحيى بن إسحق^(١) .

وكان عبد الرحمن الناصر عالماً أديباً ، يهوى الشعر وينظمه ، ويقرب الأدباء والشعراء ؛ وكان في مقدمة دولته وأكثرهم حظوة لديه ، الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وشاعر الدولة المروانية منذ محمد بن عبد الرحمن . ويفيض ابن عبد ربه في مناقب الناصر ، ويستعرض غزواته منذ ولايته حتى سنة ٣٢٢ هـ ، في أرجوزة طويلة رتبت وفق السنين^(٢) . ومن شعره في وصف عصر الناصر ، واعتزاز الإسلام بدولته قوله :

قد أوضح الله للإسلام منهاجا	والناس قد دخلوا في الدين أفواجا
وقد تزينت الدنيا لساكنها	كأنها ألبست وشياً ودياجا
يا ابن الخلائف إن المزن لو علمت	نذاك ما كان منها الماء ثجاجا
والحرب لو علمت بأساً تصول به	ما هيجت من حياك الذي اهتاجا
مات النفاق وأعطى الكفر رمته	وذلت الخيل إلحاماً وإسراجا
وأصبح النصر معقوداً بألوية	تطوى المراحل تهجيراً وإدلاجا
أدخلت في قبة الإسلام بارقة	أخرجتها من ديار الشرك إخراجا
بجحفل تشرق الأرض الفضاء به	كالبحر يقذف بالأمواج أمواجا
يقوده البدر يسرى في كواكبه	عرمرماً كسواد الليل رجراجا

(١) وردت الفقرة الأولى في انقبس - السفر الخامس - لوحة ١٥٣ أ ، ووردت الفقرة الثانية في لوحة ١٦٢ أ .

(٢) راجع هذه الأرجوزة في كتاب العقد الفريد (طبعة المطبعة الأزهرية) ج ٣ ص ٢٠٩ إلى ٢٢٧ .

إن الخلافة لن ترضى ولا رضيت حتى عقدت لها في رأسك التاجاً (١)
ومما ينسب إلى الناصر من النظم ، قوله :

لا يضر الصغير حدثان سن إنما الشأن في سعود الصغير
كم مقننم فازت يدها بغنم لم تنله بالركض كف مغير (٢)
وكان الناصر سمحاً وافر الجود : ويصفه ابن الأثير بأنه كان ، أبيض ،
أشهل ، حسن الوجه ، عظيم الجسم ، قصير الساقين (٣) ، وترك الناصر من
البنين أحد عشر ولداً منهم ولي عهده وخلفه الحكم المستنصر بالله .
وقال الوزير جعفر بن عثمان المصنعي في رثاء الناصر :

إلا إن أياماً هفت بإمامها لحائرة مشتطة في احتكامها
فلم يؤلم الدنيا عظام خطوبها وأحداثها إلا قلوب عظامها
تأمل فهل من طالع غير آفل لمن وهل من قاعد لقيامها
وعاين فهل من عائش برضاها من الناس إلا ميت بقطامها
كأن نفوس الناس كانت بنفسه فلما توارى أيقنت بحمامها
فطار بها يأس الأسى وتقاصرت يد الصبر عن أعواها واحتدامها

ويشيد النقد الحديث بمناقب عبد الرحمن الناصر وعصره أعظم إشادة : وربما
كان أبلغ ما قيل في ذلك تلك العبارات القوية التي يختم بها العلامة دوزي حديثه عن
عصر عبد الرحمن الناصر : « لقد كانت هذه نتائج باهرة ، ولكننا نجد إذا ما درسنا
ذلك العصر الزاهر ، أن الصانع يثير الإعجاب والدهشة ، بأكثر مما يثيرها
المصنوع : تثيرهما تلك العبقرية الشاملة التي لم يفلت شيء منها ، والتي كانت
تدعو إلى الإعجاب في تصرفها نحو الصغار ، كما تدعو إليه في أسنى الأمور . إن
ذلك الرجل الحكيم النابه ، الذي استأثر بمقاليد الحكم ، وأسس وحدة الأمة ،
ووحدة السلطة معاً ، وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسي ، والذي
اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالاً من غير المسلمين ، لأجلدراً بأن
يعتبر قريناً لملوك العصر الحديث ، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى » (٤).

(١) وقيل إن هذه القصيدة وجهت إلى الناصر بمناسبة عوده ظافراً من أول غزوة قام بها ضد
الثوار في مستهل حكمه .

(٢) ففتح الطيب ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٧ .

(٤) Dozy : Hist, V. II, p. 175

الفصل الثالث

غزوات المسلمين

في غاليس وشمال إيطاليا وسويسرة

توقف الغزو الإسلامي عقب بلاط الشهداء . استثنائاً للغزو في عهد هشام . غزو الفرنج لشمالي الأندلس . الغزوات الإسلامية المغامرة . صمت الرواية الإسلامية عن ذكرها . غزو قورسقة وشواطئ فرنسا الجنوبية . غزو مرسيليا وبروفانس . غزو موسى لسبتمانيا . غزو جزيرة كاساراج . اضطراب الأحوال في جنوبي فرنسا . غزو المسلمين لشواطئ سان تروبيه . معاقلم في تلك الأنحاء . تدخلهم بين النصارى . اختراق الغزاة لدوفينه . عبورهم مون سني . احتلالهم لممرات الألب . جوازهم إلى سهول بيمون . عودهم إلى غزو بروفانس . غزوهم لمرسيليا ولوكس . خلقهم لممرات الألب . تقدمهم إلى ليجوريا . غزوهم لمنطقة فالايه وساقوا . وصولهم إلى قلب سويسرة وشرقها . غزوهم لثغر فريجوس . اتحاد الأمراء النصارى على مقاومتهم . استجادهم بقيصر قسطنطينية . مهاجمة المسلمين وتمزيقهم . الصلح بينهم وبين ملك بروفانس . احتلالهم لممر سان برنار . استيلائهم على جرينوبل . غاراتهم في بيمون . الحرب بينهم وبين المجر . وصولهم إلى سان جان . قتالهم وهزيمتهم . صدى الغزوات الإسلامية في جنوبي أوروبا . سعى البابوية وإمبراطور ألمانيا لوقفها . محاربة الغزاة في دوفينه وبروفانس . هزيمتهم وارتدادهم إلى الجنوب . سقوط حصن فراكسنيه . سقوط المستعمرات الإسلامية في الألب . غزوات بحرية إسلامية لشواطئ فرنسا . غزو قورسقة ومردانية . ظروف هذه الغزوات الإسلامية . خواصها وبواعثها . آثارها المادية والأدبية . أثر العرب في تقدم الزراعة في الأنحاء المفتوحة . نقلهم لكثير من المحاصيل والفراش . أثرهم في تحيين سلالة الخيل . الآثار الاجتماعية . أقوال النقد الحديث .

— ١ —

تحدثنا فيما تقدم عن غزوات العرب في غاليس (جنوبي فرنسا) منذ الفتح ، ورأينا كيف وضع ارتداد العرب في موقعة بلاط الشهداء في سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) حداً لغزواتهم في غاليس ، وكيف فقدوا تبعاً لقواعدهم في لانجدوك وسبتمانيا ، حتى انتهت رياستهم فيما وراء البرنيه بسقوط ثغر أربونة ، آخر قواعدهم في سبتمانيا ، في يد الفرنج في سنة ١٤٢ هـ (٧٥٩ م) (١) .

وكانت الأندلس خلال هذه الفترة تضطرم بالفتن الداخلية والحرب الأهلية . ولما استطاع عبد الرحمن الأموي أن يبتزع الرئاسة لنفسه من عمر الفتنة ، وأن يعيد

(١) راجع « دولة الإسلام في الأندلس » القسم الأول ص ١٣٧ .

ملك الدولة الأموية بالأندلس ، لبث بقية عهده يعمل على توطيد ملكه الفنى ، وحمايته من الثوار والخوارج ، ولم تنح له فرصة للتفكير فى الغزوات الخارجية . بل لقد اضطر أن يقف موقف المدافع من مملكة الفرنج ومن عاهلها شارلمان ، الذى حاول أن يغزو الولايات الإسلامية ، بموازرة الزعماء الخوارج فى الثغر الأعلى ، واضطر أن يغضى مدى حين عن غزوات المملكة النصرانية الناشئة ، لأراضى الأندلس وقواعدها الشمالية .

فلما تولى ولده هشام الملك ، واستطاع أن يقضى على ثورة أخويه سليمان وعبد الله ، وجه عنايته إلى مقارعة المملكة الفرنجية ، ورد خطرها عن الأندلس ، وبعث إلى الشمال فى سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) بجيش كثيف بقيادة حاجبه عبد الملك ابن عبد الواحد بن مغيث ، فعبّر جبال البرنيه ، ونشبت بين المسلمين والفرنج فى سائط سبثانيا عدة معارك كانت سجالا ، وجدد بذلك عهد الغزو والجهاد فيما وراء البرنيه .

وعاد الفرنج فى عهد الحكم بن هشام ، فعبروا جبال البرنيه فى سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) وغزوا الثغر الأعلى وافتتحوا ثغر برشلونة ، واقتطعوا بذلك جزءاً من الأندلس الشمالية . ولم تمض بضعة أعوام أخرى ، حتى عبر الفرنج البرنيه للمرة الثانية (١٩٣ هـ - ٨٠٩ م) وحاولوا الاستيلاء على مدينة طرطوشة ، ولكن المسلمين استطاعوا إنقاذها .

وفى عهد عبدالرحمن بن الحكم سارت حملة بحرية أندلسية لغزو الجزائر الشرقية ، وقد رأينا فيما تقدم كيف غدت مياه الأندلس الشرقية مركزاً لحملات البحارة المسلمين ، يسبرون منها نحو الشمال والشرق إلى الشواطئ والجزائر القريبة ، ينقضون عليها طلباً للغنيمة والسبي ، وكيف بدأت من ذلك الحين محاولات المجاهدين المسلمين ، لغزو شواطئ فرنسا الجنوبية وأحواز مصب الرون .

وقد فصلنا فيما تقدم من كتابنا أخبار الغزوات الأندلسية الرسمية فيما وراء البرنيه ، وأشرنا بإيجاز إلى بداية عهد الحملات البحرية الأندلسية الخاصة (١) . سنحاول فى هذا الفصل أن نستعرض لمحة من أخبار هذه الحملات والغزوات الإسلامية غير الرسمية البحرية والبرية ، إلى شواطئ فرنسا الجنوبية ، وما يجاورها

من سهول ليجوريا وهضاب سويسرة ، وما يجدر ذكره أن الرواية الإسلامية قلما تشير إلى هذه الغزوات بكلمة ؛ وربما كان ذلك راجعاً إلى طبيعة هذه الغزوات والمغامرات غير الرسمية ، التي كانت تنظمها جماعات خاصة من المجاهدين لا تربطها بحكومة قرطبة صلة رسمية ، ولا تعتمد إلا على جهودها ومواردها الخاصة .

بدأت هذه الغزوات الأندلسية للشواطئ والثغور الفرنجية منذ أوائل القرن التاسع . وكان معظمها حملات بحرية ، قوامها جماعات من المجاهدين والزعماء المغامرين . ففي سنة ٨٠٦ م غزت إحدى هذه الجماعات البحرية المجاهدة جزيرة كورسيكا (قورسقة) ، وهزمت الأسطول الفرنجي الذي بعثه بين ابن شارلمان ملك إيطاليا لقتالهم ، وعادت بكثير من الغنائم والسبي . وتوالت بعد ذلك غزوات البحارة الأندلسيين لشواطئ كورسيكا وسردانية ، وهما يومئذ أغنى جزر البحر المتوسط . وكذلك توالت غارات البحارة المسلمين على شواطئ فرنسا الجنوبية . وتعنى الرواية الكنسية والفرنجية المعاصرة بتدوين هذه الغزوات الإسلامية ، وتصف عصفها وعيها ، وما كانت تحدثه من الرعب بين السكان النصراني ، وتقول لنا إن البحارة المسلمين ، ذهبوا في الجرداء إلى حد التجول في مياه الأطلنطيق ، والإغارة على شواطئ فرنسا الغربية ، وإن سفينة عربية كبيرة اجتازت في ذلك الحين مياه الأطلنطيق حتى مصب نهر اللوار (١) .

وفي سنة ٨٣٨ م سار أسطول أندلسي من مياه طركونة ومياه الجزائر الشرقية إلى مياه بروفانس ، وغزا ثغر مرسيليا وما حوله من الأراضي ، وأثنى فيها ، وحمل الغزاة كثيراً من الغنائم والسبي . ولم يستطع ملك فرنسا الضعيف لويس ابن شارلمان مقاتلة الغزاة . ثم عاد البحارة المسلمون وغزوا شواطئ بروفانس مرة أخرى ، ونفذوا إلى مصب نهر الرون ، واقتحموا مدينة آرل وخرّبوا كنائسها . وتوالت بعد ذلك غزواتهم لهذه المنطقة . وفي سنة ٨٥٠ م في أواخر عهد عبد الرحمن ابن الحكم ، عبر موسى بن موسى بن قسي صاحب سرقسطة وزعم الثغر الأعلى ، جبال البرنيه ، وغزا سبتيانيا وأثنى في نواحيها ، واضطر شارل الأصغر ملك فرنسا أن يهادنه ، وأن يعقد الصلح معه ، وأن يسترضيه بالهدايا والتحف . ومن

(١) جمعت أقوال الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة ، عن هذه الغزوات الإسلامية ، في موسوعة Bouquet التي سبقت الإشارة إليها غير مرة ، بنصوصها اللاتينية أو الفرنسية القديمة ، وقد عتمدنا عليها في كثير من حوادث هذا الفصل .

المرجح أن هذه الغزوة لم تكن ذات طابع رسمي ، ولم تكن لها صلة بحكومة قرطبة . ذلك أن بنى قسيّ زعماء الثغر الأعلى في ذلك الحين ، كانوا يتمتعون باستقلال محلي ، ولا يدينون بالولاء لحكومة قرطبة ، وكانوا بالعكس ينزعون إلى مقاومتها والخروج عليها . وفي سنة ٨٦٩م هاجمت جماعة من البحارة والمجاهدين المسلمين شواطئ بروفانس مرة أخرى ، واستولت على جزيرة كاماراج الواقعة في مصب الرون ، وأسرت أسقف آرل الذي كان يقيم بها ، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى .

— ٢ —

وأذكى نجاح هذه الغزوات المتوالية ، في نفوس المغامرين والمجاهدين من مسلمي الأندلس وإفريقية ، حب التوغل في هاتيك الأنحاء ، ورغبة في استعمارها والاستقرار فيها . وكانت أحوال غاليس (جنوبي فرنسا) قد اضطربت يومئذ ، وغلب سيد من سادة هذه الأنحاء يدعى بوسون على ولايتي دوفينه وبروفانس ، وتلقب بملك آرل . وقام يناوئه بعض منافسيه ، ونشبت بينه وبينهم حرب أهلية (نحو سنة ٨٩٠ م) . ففي تلك الآونة رست سفينة عربية صغيرة عليها عشرون بحاراً من المسلمين ، في خليج جريمو أو خليج سان تروبيه ، ونزلوا إلى الشاطئ ولجأوا إلى غابة كثيفة ، تظللها الجبال ، ثم هاجموا بعض الضياع القريبة وفتكوا بسكانها . ولما رأوا منعة معقلهم من البر والبحر ، عولوا على الاستقرار فيه ، ودعوا لإخوانهم من الثغور الإسلامية القريبة إلى القدوم ، وأرسلوا في طلب العون والتأييد من حكومات الأندلس والمغرب ، فوفد عليهم كثير من المغامرين البواسل . ولم تمض أعوام قلائل ، حتى استقروا في ذلك المكان ، وأنشأوا لهم سلسلة من المعازل والحصون ، أمنعها وأشهرها حصن تطلق عليه الرواية الفرنجية المعاصرة ، اسم (فراكسنتم) Fraxinetum . والمظنون أنه هو المكان الذي تقوم عليه اليوم قرية (جارد فرينيه) Garde-Frinet الواقعة في سفح جبال الألب^(١) . وما زالت ثمة آثار تدل على قيام معازل قديمة في ذلك المكان . ولما كثر جمعهم ، واشتد ساعدتهم ، اخذوا في الإغارة على الأنحاء المجاورة ، وأصبحوا قوة يخشى بأسها . وسعى إليهم بعض الأمراء والسادة المتنافسين يستظهرون بهم ، بعضهم على بعض ، فلبوا الدعوة ،

وانتزعوا من بعض السادة أراضهم ، وأعلنوا أنفسهم سادة في الأنحاء المغلوبة ،
ويثوا الذعر والروع في جنوب پروفانس ، حتى وصفهم كاتب معاصر « بأن
واحداً منهم يهزم ألفاً ، واثنين يهزم ألفين »^(١) .

وكانت هذه أول خطوة في استعمار المسلمين لجنوبي فرنسا . وفي خاتمة القرن
التاسع اتخذ المستعمرون المسلمون خطوة أخرى ، فتقدموا نحو جبال الألب غرباً
وشمالاً . وكانت مملكة آرل قد ضعفت واضمحلت ، وخلف بوسون ولده لويس ،
ولكنه ذهب إلى إيطاليا ليحارب إلى جانب حلفائه فهزم هنالك وأسر ، وترك
مملكته بلا دفاع ، وساد الإخلال والفوضى غاليس كلها . فانتهر المسلمون تلك
الفرصة واخترقوا مفاوز دوفينه ، وعبروا « مون سني » أهم ممرات الألب
الفرنسية ، واستولوا على دير نوفاليس الشهير الواقع في وادي « سيس » على حدود
بييمون ، وفر الأخبار إلى مختلف الأنحاء (سنة ٩٠٦ م) . وأغار المسلمون على
القرى والضياع المحاورة ونهبوها ، وفتكوا بأهلها ، وأسر بعضهم وأخذوا إلى
تورينو بإيطاليا وسجنوا في ديرها ، ولكنهم استطاعوا أن يحطموا أغلالهم ، وأضرموا
النار في الدير وفي المدينة ، وفروا عائدين إلى زملائهم . واشتد بأس المسلمين في
تلك الأنحاء ، واحتلوا معظم ممرات الألب ، فسيطروا بذلك على طرق المواصلات
بين فرنسا وإيطاليا ، ثم انحدروا من آكام الألب إلى سهول بييمون ، وأغاروا
على بعض مناطقها .

وفي سنة ٩٠٨ م نزلت سرية قوية من البحارة المسلمين في شاطئ پروفانس
على مقربة من « إيج مورت » ونهبت دير بالمودي ، وكانت الأديار والكنائس
يومئذ مطمح أنظار الغزاة ، لما كانت تغص به من الذخائر والأموال . وانتشر
المسلمون بعد ذلك في جميع الأنحاء المحاورة ، واجتاحوا كل ما في طريقهم من
البسائط ، وهاجموا مرسيليا ، وهدموا كنيستها ، وغزوا إيكس ، وسبوا النساء
وتزوجوا بهن ليكثر نسلهم ويقووا به ، وانضم إليهم كثير من النصاري المغامرين
من أهل هذه الأنحاء ، وهجر السادة والأغنياء حصونهم وقصورهم ، والتجأوا
إلى الداخل خشية القتل والأسر ، وأغلق المسلمون طريق الألب إلى إيطاليا ،
وكان عمرها كل عام ألوف من الحجاج الذين يقصدون إلى رومة ، واقتضوا
منهم الضرائب الفادحة ليسمحوا لهم بالمرور •

ثم اتخذ المسلمون خطوة جديدة في سبيل التقدم إلى أواسط أوروبا ، فدفعوا غزواتهم إلى پييمون ومونفراتو. وتقول لنا الرواية الكنسية المعاصرة إنهم وصلوا في أوائل القرن العاشر إلى حدود ليجوريا على شاطئ خليج جنوة . و يروى لوتبراند ، وهو كاتب معاصر ، أن العرب غزوا سنة ٩٠٦ ، مدينة « آكي » من أعمال مونفراتو الشهيرة بحماماتها (وهى على مقربة من تورينو) ، ثم غزوها ثانية سنة ٩٣٥ بقيادة زعيم يدعى (ساجيتوس) ولكنهم هزموا ومزقوا . وفى هذا الوقت أيضاً نزلت جماعة قوية من البحارة الإفريقيين بساحل جنوة ، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ، وأسرت جموعاً كثيرة من النساء والأطفال .

وفى سنة ٩٣٩ م غزا المسلمون منطقة « قاليه » فى جنوب سويسرة ، ونهبوا دير « أجون » الشهير ، وغزوا فى الوقت نفسه منطقة « تاراتيز » من أعمال سافوا الوسطى ، ثم اتخذوا منطقة « قاليه » قاعدة للإغارة على الأراضى المجاورة فى سويسرة وإيطاليا ، ونفذوا منها إلى أواسط سويسرة ، ثم إلى « جريزون » فى شرق سويسرة ، ونهبوا دير ديزنتى أشهر وأغنى الأديار السويسرية ، ونهبوا طائفة أخرى من الأديار والكنائس الغنية . وفى بعض الروايات أيضاً أن المسلمين وصلوا فى غزواتهم إلى بحيرة جنيف ، وجاوزوا إلى مفاوز جورا الواقعة فى شمالها ، وكانت سويسرة يومئذ من أقاليم بوجونية وملكتها يومئذ الملكة « برت » الوصية على ولدها الطفل كونراد ، فارتدت حين اقتراب العرب إلى حصن ناء فى جهة نيو شاتل .

وفى سنة ٩٣٠ م غزا العرب فريجنوس وكانت يومئذ من أكبر وأمنع ثغور فرنسا الجنوبية ، وغزوا أيضاً ثغر طولون ، ففر السكان إلى الجبال ، وعاث المسلمون فى تلك الأنحاء ، وخربوا المدن والحصون ، وأحرقوا الأديار والكنائس . ولما اشتدت وطأة المسلمين فى جنوبى فرنسا ، وبلغ السخط من غزواتهم وعيهم ذروته ، اعتزم سادة الجنوب ، وعلى رأسهم هوج ملك بروفانس أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لسحق ذلك العدو المزعج . ورأى هوج أن يبدأ بافتتاح حصن فراكسنيه (فراكسنم) الذى يمتنع به المسلمون ، ويتخذونه قاعدة لتأمين مواصلاتهم مع اسبانيا وإفريقية ، وقاعدة للإغارة على الداخل ، وكتب إلى صهره إمبراطور

قسطنطينية ، يطلب منه أسطولا من قاذفات النار اليونانية ، حتى يستطيع مهاجمة المسلمين من البر والبحر معاً . فلبى ندائه . وفي سنة ٩٤٣ م رسا أسطول بيزنطي في مياه سان تروبيه ، وزحف هوج في نفس الوقت بجيشه على فراكسنيه ، وهوجم المسلمون من البر والبحر بمنتهى الشدة ، وأحرقت سفنهم ، ونفذ هوج إلى الحصن بعد قتال رائع ، وفر المسلمون إلى الآكام والرني ، وكاد يسحق سلطانهم في تلك الأنحاء . ولكن حدث بعد ذلك أن علم هوج أن خصمه ومنافسه بيرانجييه ، قد عاد إلى إيطاليا لينازعه في انتزاع عرشها فصرف هوج الأسطول ، واضطر أن يعقد الصلح مع المسلمين ، بشرط أن يبقوا في رؤوس الألب وممراتها ، وأن يغلقوا الطريق إلى إيطاليا في وجه خصمه ، وبذلك استعاد المسلمون قلاعهم وسيادتهم في جنوبي پروفانس .

واحتل المسلمون آكام الألب وممراتها ، وفرضوا الضرائب الفادحة على المسافرين ، واستطاعوا بسيطرته على ممر سان برنار الكبير ، الموصل بين سويسرة وإيطاليا ، وغيره من الممرات والمعازل الجبلية ، أن يجتاحوا الأنحاء المجاورة ، وأن ييثوا فيها الذعر والروع ، واستقرت منهم جموع في السهول والضياغ القرية من معاقلمهم ، وتزوجوا النساء الأسيرات ، وزرعوا الأرض ، واكتفى أمراء هذه النواحي بأن يحصلوا منهم بعض الضرائب . ونفذ المسلمون أيضاً إلى منطقة نيس ذاتها ، وما يزال في نيس إلى اليوم حي يعرف بحي العرب *Canton des Sarrazins* وأخيراً نفذ المسلمون إلى قلب ولاية دوفينه ، وغزوا جرينوبل واحتلوها مدى حين ، واحتلوا واديها الخصب «جريزيقودان» الذي يجري فيه نهر الإيزر فرع الرون ، وفر أسقف جرينوبل وزملاؤه إلى الشمال حاملين رفات قديسيهم^(١) .

وهكذا انتشرت المستعمرات والمعازل الإسلامية خلال القرن العاشر الميلادي في پروفانس وساقوا وييمون وسويسرة ، وبسط المسلمون سيادتهم على ممرات جبال الألب وعلى الحدود بين غاليس وبلاد اللونبارد (شمال إيطاليا) وبينها وبين سويسرة ، وبلغوا في تقدمهم في غاليس مدينة جرينوبل ، واحتلوا في سويسرة ولاية فاليه ومفاوز جورا المتاخمة لبرجونية ، واحتلوا في إيطاليا الشمالية ، ولاية

ليجوريا ، وكانت معاقلمهم في بروفانس ولاسيا حصن «فراكسنيه» ، قواعد غزواتهم وملاذ قوتهم وسيادتهم . والظاهر أنهم اتبعوا نفس هذه الخطة في سهول بيمون ، فأنشأوا بها سلسلة من الحصون والقلاع القوية ، لتكون مركز غزواتهم في بلاد اللونبارد وفي سويسرة ، فإن الرواية الكنسية التي كتبها حبر معاصر من دير نوفاليس ، تذكر لنا اسم حصن إسلامي في تلك الأنحاء وتسميه «فراشنديلوم» *Fraschendellum* ، والمظنون أنه هو المكان الذي تعرفه الجغرافية الحديثة باسم «فراسنتو» ، وهو الواقع في لومبارديا على مقربة من نهر «بو» . وتقص علينا نفس هذه الرواية الكنسية أيضاً أن سيداً نصرانيا من سادة تلك الأنحاء يدعو إيمون دفعه شغف المغامرة والكسب ، إلى مخالفة المسلمين فانضم إليهم ، واشترك في غاراتهم الناهبة ؛ وفي ذات يوم وقعت بين السبايا امرأة رائعة الحسن ، فاستبقاها إيمون لنفسه ، ولكن زعيماً مسلماً استحسها وانتزعها منه قسراً ، فغضب إيمون والتجأ إلى كونت روتبالدرس حاكم بروفانس العليا ، وفاوضه سرّاً في محاربة المسلمين ، وإنقاذ البلاد منهم ، فرحب الكونت بهذا المشروع ، ودعا السادة إلى معاونته ، واستطاع أن يحدد قوات كبيرة ، وهوجم المسلمون في بيمون من كل صوب ومزقوا ، وسقطت قلاعهم في أيدي النصاري ، وذهب سلطانهم في تلك الأنحاء . وتقص الرواية الكنسية أيضاً قصة مؤامرة دبرها كونراد ملك برجونية لإهلاك المسلمين النازلين في أملاكه في چورا وعلى حدود برجونية ، والمجر الذين كانوا يشاطرونهم يومئذ الإغارة والعيث في تلك الأنحاء . وذلك أنه كتب إلى المسلمين يستحثهم على قتال منافسيهم المجر ، وانتزع ما بيدهم من الأراضي والضيايع الخصبه ، وكتب مثل ذلك إلى المجر يستحثهم لقتال المسلمين والمعاونة على إجلائهم ، وعين مكاناً للقاء الفريقين ، فالتقت الجموع المتنافسة من المسلمين والمجر ، ونشب بينهما قتال هلك فيه كثير من الفريقين ، ثم أشرف كونراد بمجموعه ، ومزق البقية الباقية من الفريقين قتلاً وأسراً ، وتضع الرواية تاريخ هذه الموقعة في سنة ٩٥٢ م ، ولكنها لا تعين لنا مكان حدوثها^(١) .

ومنذ منتصف القرن العاشر يأخذ نجم أولئك المسلمين المستعمرين المغامرين في الأفول ، وتضع حل سيادتهم في تلك الأنحاء . بيد أنهم لبثوا مدى حين بعد ذلك

يحتلون كثيراً من مواقع سافوا ، ويجوبون أنحاء سويسرة كلها في طلب الغنيمة والسبي ، وقد اعتادوا على حرب الجبال وخذقوا أساليبها ، وبلغوا في توغلهم في سويسرة مدينة سان جالن على مقربة من بحيرة كونستانس ، وأنشأوا ثمة كثيراً من القلاع والأبراج ، التي مازالت تقوم منها إلى اليوم بعض الأطلال والبقايا ، ولبثوا حيناً في سان جالن حتى حشد رئيس ديرها حوله جمعاً من المقاتلين الأشداء ، وفاجأوا المسلمين في جوف الليل ، ومزقوهم قتلاً وأسراً ، وبذلك خفت وطأة الغزوات الإسلامية في شمال سويسرة .

واستمرت المستعمرات والمعاقل الإسلامية في دوفينه وبروفانس ، وبعض جهات الألب ، وكان قربها من «فراكسنيه» أمنع المعاقل الإسلامية بمدّها بأسباب الحرّة والعون ، ومدّها قربها من البحر دائماً بأمداد جديدة من المتطوعين والمغامرين من ثغور الأندلس وإفريقية .

وكان لاستقرار هذه المستعمرات الإسلامية في جنوبي أوروبا ، وعيها المستمر في الأنحاء والسهول المجاورة ، وقع عميق في الحكومات الأوربية ، وكان صريخ البابوية يتردد لدى أمراء أوروبا ، بالسعي إلى مكافحة هذا الخطر الداهم ، وكان أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا وأعظم أمراء النصرانية يومئذ ، أشد هؤلاء الأمراء اهتماماً بالقضاء على خطر المستعمرات الإسلامية ، لأنه يدنو من أملاكه ويصيبها بشره . ولهذا رأى أن يئذل في هذا السبيل سعيه ، لدى عبد الرحمن الناصر عاقل الأندلس وزعيم الإسلام الروحي والزمني ، وأوفد إليه في سنة ٩٥٦ م سفارته الشهيرة التي أتينا على ذكرها . وبحث سفيره يوحنا الجورزيني مع الخليفة مسألة اعتداء المستعمرات الإسلامية على الأراضي النصرانية ، والتمس إليه أن يعاون بنصحه ونفوذه على قمع هذا العدوان . ولكن هذا المسعى لم يسفر عن أية نتائج عملية ، إذ اعتذر الخليفة حسبما فصلنا من قبل ، بأن هذه المستعمرات الإسلامية لا تخضع له ولا تأتمر بأوامره ، وأنها تعمل مستقلة بعيدة عن حكومة قرطبة . على أن لوتبراند ، وهو مؤرخ كنسي معاصر ، يؤكد أن الخليفة كان يحمي هذه المستعمرات ومدّها بالتشجيع والعون^(١) .

— ٤ —

ولم يمض قليل على ذلك حتى أخرج المسلمون من معاقلم في آكام سان برنار

(في نحو سنة ٩٦٩ م) : ولسنا نعرف تفاصيل ذلك الحادث ، ولكن الحق أن المسلمين أبدوا كعادتهم منتهى البسالة في الدفاع عن مواقعهم : والظاهر أيضاً أن القديس برنار (سان برنار) الذي سميت هذه الآكام باسمه ، كان من أبطال الموقعة التي نشبت وانتهت بجلاء المسلمين :

واستمر المسلمون في دوفينه وپروفانس ، وكثيراً ما دعوا إلى التدخل بين سادة الأنحاء . ولما غزا الإمبراطور أوتو بلاد اللونبارد ، وأخرج منها ملكها پيرانجيح ، التجأ ولده أدلبرت إلى عرب «فراكسنيه» ، ليعاونوه في استعادة ملكه ، وكان هذا التحالف بين السادة والمسلمين ، يقوى سيادة الغزاة ويدعمها كلما أذنت بالانهيار . بيد أن هذه السيادة قد أخذت في الاضمحلال ، مذ فقد العرب معاقلم في جبال الألب . وفي سنة ٩٦٥ م أخرج المسلمون من مدينة جرينوبل ومن واديها الخصب (جرينيفودان) وطوردوا في تلك النواحي ، وساءت أحوالهم ، وأعلن الإمبراطور أوتو بعد ذلك بعامين أو ثلاثة وهو يومئذ في إيطاليا ، أنه سيتولى طرد المسلمين من الأراضي النصرانية ، ولكنه توفي دون القيام بمشروعه .

ثم دنت بوادر المعركة الحاسمة : وحدث في ذلك الحين أن حبراً كبيراً ذائع الصيت ، وهو سان ماييل أسقف دير كلوني من أعمال برجونية ، حج إلى رومة ، ولما عاد من طريق دوفينه أسره المسلمون المرابطون في الجبال مع جماعة كبيرة من الحجاج ، واشترطوا عليهم فدى فادحة ، فدفع بعد عناء ، وأطلق سراح سان ماييل وزملاؤه ، وأذكى الحادث حماسهم وخطهم ، وذاعت قصة أسرهم ، وما يعانیه الحجاج من شر المسلمين وعدوانهم . فنهض سيد من سادة تلك الأنحاء يدعى بوبون ، (أو بيفون) ، وانتهاز فرصة الحاسة العامة وجمع حوله كثيراً من المقاتلة ، وبني حصناً في سترون على مقربة من حصن كان يملكه المسلمون ، ولبت يتحين الفرصة لمفاجأة العرب والاستيلاء على حصنهم ، حتى استطاع ذات يوم أن يحمل بعض الحراس على فتح الأبواب ، فتمت الخيانة ، وباغت النصارى المسلمين في حصنهم ، وقضوا عليهم قتلاً وأسراً (سنة ٩٧٢ م) :

وفي الوقت نفسه التف النصارى في دوفينه حول زعيم يدعى جيوم ، وهاجموا المسلمين في جميع مراكزهم وقلاعهم ومزقوهم في كل ناحية ، وبذا انهارت سيادتهم في دوفينه ، ولم تبق إلا في پروفانس : ولما قوى جيوم وكثر جمعه ، بسط نفوذه

على پروفانس وتلقب بألقاب الإمارة ، واعتزم أن يخرج المسلمين نهائياً من تلك الأرض . فدعا السادة لمعاونته ومنهم كونت نيس ، ورأى المسلمون أن العاصفة تنذر باجتياحهم من كل ناحية ، فاستجمعوا كل أهبتهم وقواهم ، ونزلوا من الآكام إلى البسيط في صفوف متراسة ، ووقعت بينهم وبين النصارى معركة هائلة فى «تورتور» فهزم المسلمون وارتدوا إلى قلاعهم ، ولاسيا «فراكسنيه» التى غدت ملاذهم الأخير ، فطاردهم النصارى أشد مطاردة ، وضيقوا الحصار عليهم ، فحاولوا الفرار تحت جناح الليل إلى الغابات المجاورة ، ولكن النصارى لحقوا بهم وأمعنوا فيهم قتلاً وأسراً ، وأبقى على من استسلم وعلى المسلمين الذين كانوا يحترفون الزرع فى الضياع المجاورة ، وفر كثيرون من طريق النهر ، وتنصر كثير منهم ، وبقي نسلهم فى تلك الأرض زمناً طويلاً .

وهكذا سقط حصن فراكسنتم أو فراكسنيه سنة ٩٧٥ م ، بعد أن لبث زهاء ثمانين سنة مركزاً قوياً للغزوات العربية فى غاليس ، وقسمت أسلاب العرب وأراضهم بين السادة والخنند ، الذين اشتركوا فى هذه الحرب الصليبية ، وانهارت سلطة العرب فى تلك الأنحاء .

أما المستعمرات الإسلامية التى كانت مبعثرة فى آكام الألب ، فيقال إنها طوردت ومزقت فى نفس الوقت ، واعتنق الذين أسروا النصرانية . ولكن توجد رواية أخرى خلاصتها أن هذه المستعمرات لبثت فى معاقلها نحو جيل آخر حتى تولى مطاردتها زعيم يدعى جيرولندوس . وعلى أى حال فلم تأت أواخر القرن العاشر حتى ذهبت سيادة المسلمين فى غاليس وسويسرة ، ولم يجب أحد فى إفريقية والأندلس صريح الغوث ، الذى وجهه أولئك المستعمرون البواسل إلى إخوانهم ، لأن الحوادث الداخلية لم تكن تسمح يومئذ ببذل هذا العون .

على أن ذلك لم يكن خاتمة الغزوات الإسلامية فى تلك المياه . ففى سنة ١٠٠٣ م سارت حملة بحرية من مسلمى الأندلس ، ونزلت بجوار أنتيب فى جنوب فرنسا ، واجتاحت الأراضى المجاورة . وفى سنة ١٠١٩ م نزلت حملة مسلمة أخرى فى ظاهر أربونة وحاولت أن تستولى عليها ، ولكنها هزمت ومزقت . وفى سنة ١٠٤٧ م هاجمت حملة أخرى جزيرة ليران الواقعة إلى الغرب من مرسليليا وأسرت عدداً من الرهبان . وظهر فى ذلك الحين زعيم أندلسى جرىء هو مجاهد العامرى

أحد أمراء الطوائف ، وصاحب ثغر دانية والجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، واهتم بأمر الغزوات البحرية ، فسار في أسطوله إلى مياه قورسقة وسردانية ، وغزا سردانية واحتل بعض أنحائها (سنة ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م) ، ولكن النصرارى استردوها بعد قليل^(١) . ولبت مجاهد العامرى الذى تسميه الرواية النصرانية «موسيتو» أو موجيتوس «مدى حين سيد هذه المياه ، يث فيها بحملاته الرب والروع .

تلك هى قصة الغزوات الإسلامية فى غاليس وبلاد اللنبارد وسويسرة ؛ وهى قصة تغفل الرواية الإسلامية كثيراً من أدوارها ووقائعها ، ولكنها تشغل فراغاً كبيراً فى الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة . وهذه الروايات هى عمدتنا فيما ننقل من سير هذه الغزوات الشهيرة . ومن المحقق أنها مشبعة بروح التحامل والخصومة فى كثير من المواطن ، ولكننا نستطيع مع ذلك أن ندين منها ، أهمية الدور الذى قام به أولئك المجاهدون والمغامرون المسلمون ، فى تلك الوهاد والآكام النائية ، وما كان لهم بين هاتيك الأمم من السيادة والنفوذ مدى عصور .

— ٥ —

والآن فلنحاول أن نستعرض طرفاً من العوامل والظروف التى أحاطت بتلك الغزوات الإسلامية النائية ، وطرفاً من الآثار التى خلفتها فى البلاد والأمم التى كانت ميداناً لها .

ينكر بعض مؤرخى الغرب على تلك الفتوحات والغزوات العربية والإسلامية بوجه عام ، خاصة الاستقرار والإنشاء ، ويقولون إنها كانت فى الغالب حملات ناهبة ، تقوم على رغبة الكسب وتحصيل الغنائم . ولاريب أن ظمأ المغنم وشغف المغامرة ، وما إليها من لذة الاستكشاف والسيادة ، كانت من أهم العوامل التى قامت عليها هذه الغزوات ، وتلك هى العوامل الخالدة التى تقوم عليها فتوحات الأمم منذ أقدم العصور . ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن نزعة الجهاد لم تكن بعيدة عن تلك الغزوات ، وإن كثيراً من أولئك المغامرين البواسل ، كانت تحفزهم الحماسة الدينية ، وفكرة الجهاد فى سبيل الله . وقد كانت هذه العصابات الغازية المستعمرة تعمل فى الغالب لحساب نفسها ، ولكنها كانت تعمل ملحوظة بعطف

(١) ابن خلدون ؛ المقدمة ص ٢١٢ .

الحكومات والأمم الإسلامية التي تنتمي إليها . وكانت تؤدي إلى تلك الحكومات خدمات حليمة ، بما كانت تقوم به من إزعاج الحكومات والأمم النصرانية ، وإضعاف جيوشها ومواردها . ومن المحقق أيضاً أن نزعة الاستقرار والإنشاء لم تكن بعيدة عن أذهان الغزاة ، بل كان يحفزهم مثل ذلك الروح الاستعماري القوي الذي دفع الأمم الغربية في العصر الحديث إلى افتتاح الأمم المتأخرة واستعمارها^(١) . وقد استقروا بالفعل واستعمروا ، حيث مهدت لهم الكثرة والقوة سبيل البقاء ، كما فعلوا في إقريطش (كريت) ، حيث استقروا بها بعد افتتاحها زهاء قرن وثلث قرن (٨٢٧ — ٩٦١ م) ، ونشروا بها الإسلام والحضارة الإسلامية . وكذلك استقروا مدى حين في باري وفي تارنت من ثغور إيطاليا الجنوبية وفي راجوزا (رغوس) من ثغور الأدرياتيك الشرقية ؛ وكان لهم على شواطئ قلورية (جنوبي إيطاليا) مستعمرة زاهرة لبثت تستطع في هذه المياه عصراً :

ويبالغ المؤرخون الغربيون أيضاً ، في تصوير الآثار الخربة لتلك الغزوات الإسلامية ، وما كانت تترن به من ضروب العنف والسفك . ولكن العنف والقسوة والسفك والتخريب ، لم تكن خاصة بالغزوات الإسلامية ، وإنما كانت من خواص العصر ذاته ، ولم تكن الغزوات النصرانية للأراضي الإسلامية أقل عنفاً وسفكاً . ويكفي أن نشير هنا إلى الحملات الصليبية التي لبثت مدى عصور تحمل إلى الأمم الإسلامية أروع صنوف الدمار والسفك ، بل يكفي أن نشير إلى ما كانت ترتكبه البعثات الاستعمارية الحديثة ، الإسبانية والإنجليزية والفرنسية ، في الدنيا الجديدة من صنوف القسوة والسفك ، وما ترتكبه اليوم بعض الأمم الأوروبية « المتقدمة » من الجرائم المروعة في إفريقية وآسيا باسم المدنية والاستعمار .

* * *

والآن لير ماذا خلفته الغزوات الإسلامية في هذه الأنحاء من الآثار المادية والاجتماعية . ومن المحقق أن هذه الآثار لا تكاد ترى اليوم ، ولا يشعر بها إلا الباحث المنقب . ويلاحظ أولاً أن الفتوحات العربية الأولى في غالييس وأكوتين لم يطل أمدتها أكثر من نصف قرن ، ولم تكن الحضارة الإسلامية في اسبانيا قد تكونت وتفتحت بعد . ثم كانت الغزوات اللاحقة التي فصلنا أخبارها ، والتي كانت

أقرب إلى المغامرة المؤقتة ، منها إلى الفتوح المستقرة ، فلم تتح للغزاة فرص الإستقرار والعمل السلمى ، لأنهم كانوا فى مراكزهم الثابتة متفرقين ، يشتغلون قبل كل شئ بالدفاع عن مراكزهم وأنفسهم . بيد أن هذه الغزوات المحلية المتقطعة وهذه المستعمرات الإسلامية الثابتة ، خلفت وراءها فى الأراضى المفتوحة بعض الآثار المادية والمعنوية . ومن ذلك ما كشفته المباحث الأثرية منذ القرن الماضى على شواطئ خليج سان تروبيه من أطلال الحصون العربية القديمة التى كانت قائمة فى تلك الأرض ، والتى ما تزال قائمة فى بعض أماكن الألب الفرنسية والسويسرية ، وهى تدل على ما كان للغزاة من الخدق والبراعة فى فن التحصينات والمنشآت الحربية . وهناك فى جنوب فرنسا وفى بعض أنحاء إيطاليا الشمالية والجنوبية ، عدد كبير من الأبراج القائمة فوق الآكام والربى ، يدل ظاهرها على أنها كانت تستعمل لأغراض حربية . ويرى البعض أن هذه الأبراج هى آثار عربية من مخلفات الغزاة كانت تبنى لعقد حلقات الاتصال ، وتسهيل حركات الدفاع فيما بينهم ، ومن المعروف أن العرب منذ فتوحاتهم الأولى فى سبتمانيا أغنى منذ أوائل القرن الثامن ، كانوا ينشئون فى الأراضى المفتوحة حصوناً وأبراجاً تسمى «بالرباط» . بيد أن فريقاً آخر من الباحثين يرى بالعكس أن هذه الأبراج إنما كانت من إنشاء أبناء الأرض المفتوحة ، أقاموها أيام اشتداد خطر الغزوات العربية ، ليستعينوا بها على رد الغزاة .

وقد ظفرت المباحث الأثرية أيضاً بالعثور على كثير من القطع الذهبية والفضية (المدايات) فى أنحاء كثيرة من لانجدوك وبروفانس ، وثبت أنها من مخلفات العرب والمسلمين ، وأنها كانت تستعمل للتعامل مع النقود ، ولكنها لا تحمل اسماً ولا تاريخاً ولا يمكن تعيين عهد سكها ، وإن كانت بذلك تدل على أنها ترجع إلى عصر الغزوات الأولى . ووجدت أيضاً فى العهد الأخير فى منطقة توراسيوف ودروغ قبل إنها عربية ، من مخلفات الموقعة الشهيرة التى نشبت فى تلك السهول بين العرب والفرنجة فى سنة ٧٣٢ م (موقعة بلاط الشهداء) .

ومن الحقائق التى لا شك فيها أثر المسلمين فى الزراعة ؛ فقد رأينا أن كثيراً من الغزاة تخلفوا عن إخوانهم ، واستقروا فى تلك الأرض وزرعوها ، ومن المعروف أن العرب حولوا وديان إسبانيا المجلبة ، إلى حدائق وغياض زاهرة ، ونقلوا

إليها مختلف الغراس من المشرق ، وأنشأوا بها القناطر العظيمة . وقد حل هؤلاء الغزاة المغامرون إلى جنوب فرنسا كثيراً من خبرتهم الزراعية ، ولقنوها لسكان تلك الأنحاء . ويقال إن « القمح الأسمر » الذي هو الآن من أهم محاصيل فرنسا إنما هو من مخلفات العرب ، وهم الذين حملوا بذوره ، وكانوا أول من زرعه بفرنسا . والمرجح أيضاً أنهم هم الذين حملوا فساتل النخيل من إسبانيا وإفريقية إلى شواطئ الريفييرا . ومن آثارهم الصناعية ، استخراج «القطران» الذي تطلّى به قاع السفن ويحميها من العطب ، فهم الذين علموه لأهل بروفانس ، وما زال عندهم من الصناعات الذائعة ، وما زال اسمه الفرنسي Quित्रان ينم عن أصله العربي .

ومن الحقائق الثابتة أيضاً ، فضل العرب في تحسين نسل الخيول في تلك الأنحاء ، وما يزال في جنوب فرنسا جهات تشتهر بجبال خيولها ونبل أرومتها ، ولا سيما في «كاماراج» في مقاطعة «لاند» من أعمال غسقونية ، ومن المحقق أن هذه الخيول الأصيلة الحميلة ، إنما هي من سلالة الخيول العربية ، التي أحضرها الفرسان المسلمون معهم إلى تلك الأنحاء .

ولا ننسى ما لثدّم العربي من أثر في بعض أنحاء جنوب فرنسا . فقد رأينا أن المسلمين أنشأوا بعض المستعمرات الزراعية ، وتزوجوا من نساء تلك الأراضي وتناسلوا فيها . ولما تغلب عليهم النصارى وأخرجوا نهائياً من تلك الأراضي تنصر كثير منهم ممن أمروا ، وأرغموا على افتداء حياتهم وأسرههم بالتنصر ، وقد لبث أبناء أولئك المسلمين المتنصرين عصوراً في تلك البلاد ، يشتغلون بالزراعة والتجارة حتى جرفهم تيار التطور واندمجوا في المجتمع النصارى ، واختفت كل آثارهم وخواصهم العربية والإسلامية .

هذا ، وأما عن الآثار الاجتماعية ، فانه يلاحظ في بعض جهات بروفانس التي استقر فيها المسلمون مدى حين ، أن لسكانها بعض التقاليد الخاصة ، ومن ذلك أنواع معينة من الرقص يظن أنها ترجع إلى أصل عربي . على أن أعظم آثار العرب الاجتماعية في جنوب فرنسا ، يبدو في تطور الحركة الفكرية في العصور الوسطى ، فقد كان للعرب أثر عظيم في تكوين النزعة الشعرية في الجنوب ، وظهر أثر هذه النزعة واضحاً في الحركة الأدبية التي تعرف بحركة «التروبادور» Troubadour التي ظهرت في جنوبي فرنسا ، وفي شمال إسبانيا وشمال إيطاليا ، منذ القرن الحادى عشر

الميلادى ، وقوامها القريض الحربى والغنائى ، وزعماءها فرسان شعراء وفنانون .
أضف إلى ذلك أن تأثير الحضارة الإسلامية في سير الحضارة الأوربية ، لم يقف عند
هذا العصر ولا عند هذه الحدود ، فقد استمرت العلائق بعد ذلك طويلا بين
مسلمى الأندلس والأمم النصرانية المجاورة ، وكان للحضارة الأندلسية في تطورها
العقلى والاجتماعى أعظم الآثار .

وقد لبثت ذكرى العرب وذكرى الغزوات العربية في فرنسا ، تثير مدى
القرون الثامن في نفوس النصارى أعظم ضروب السخط والروع ، وتقدمها الرواية
الكنسية المعاصرة في أشنع الصور ؛ فلما ظهرت عصابات النورمان والحجر وغزت
فرنسا من الشرق والغرب ، رأى النصارى من عيثم وسفكهم أهوالا لا تذكر
بجانبيها أهوال الغزوات الإسلامية ، وارتفعت ذكرى العرب وأضحيت تقترن
بكل ما هو عظيم ضخم^(١) ، وفي ذلك يقول المستشرق رينو : « إن ذكرى الغزوات
النورمانية والحجرية لا توجد إلا في الكتب . ولكن ما السرفى أن ذكرى العرب
ما زالت ماثلة في جميع الأذهان . لقد ظهر العرب في فرنسا قبل النورمان والحجر ،
واستطالت إقامتهم بعد الغزوات النورمانية والحجرية ، وإن غزوات العرب الأولى
ليطبعها طابع من العظمة ، حتى أننا لا نستطيع أن نتلو أخبارها دون تأثر . ذلك
لأن العرب^(٢) دون النورمانين والحجر ، ساروا مدى آماد في طليعة الحضارة ،
ثم إنهم لبثوا بعد أن غادروا أرضنا موضع ألروع في شواطئنا ، وأخيراً لأن المعارك
التي اضطلعوا بها أيام الصليبيين في اسبانيا وإفريقية وآسيا ، أسبغت على اسمهم
بهاء جديداً ، بيد أن هذه العوامل كلها قد لا تكفى لتعليل المكانة العظيمة التي
يتبوأها الاسم العربى في أوربا وفي أذهان المجتمع الأوربى . أما السبب الحقيقى لهذه
الظاهرة المدهشة ، فهو الأثر الذى بثه قصص الفروسية في العصور الوسطى ،
وهو أثر لا يزال ملموساً إلى يومنا^(٣) .

Reinaud : ibid , p. 310 (١)

(٢) يلاحظ أن كلمة « العرب » هنا يجب أن تفهم بأوسع معانيها ، فالمقصود بها هنا « الغزاة
المسلمون » . ومنذ أواخر القرن الثامن الميلادى قنض الصبغة العربية عن هذه الفتوحات ، وتقدر
فتوحات إسلامية ، ينضوى تحت لوائها العرب وغيرهم من أبناء المجتمعات الإسلامية ، التي قامت
في إفريقية واسبانيا .

(٣) Reinaud : ibid; p. 311 — 312 . وقد اعتمدنا على مؤلف هذا الدلالة في كثير من
هذه الملاحظات الخاصة بآثار العرب (المسلمين) في جنوب فرنسا .

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الرابع

ربيع الخلافة الأندلسية

٣٥٠ - ٣٧٠ هـ : ٩٦١ - ٩٨٠ م

الفضل الأول

الحكم المستنصر بالله

خلافة الحكم المستنصر . تنظيم البيعة له . عنايته بوسع المسجد الجامع . تحرك أمير قشتالة . وفود أردونيو الرابع على الحكم . وصف لحفل استقباله . سفارة سانشو . وفاة أردونيو . تحالف الملوك النصارى ، خروج الحكم إلى الغزو . استيلاء المسلمين على شنت إشتين . إفتتاح قلهرة . استرداد حصن غرماج . عناية الحكم بتعزيز الأسطول . ظهور النورمان في المياه الغربية . مقاومة المسلمين وارتداد النورمان . عود النورمان إلى المياه الغربية ثم انسحابهم . قرطبة تندو مركز التوجيه في شبه الجزيرة . وفود الملوك النصارى وسفاراتهم على قرطبة . حوادث المغرب . انحلال دولة الأدارسة . أميرهم الحسن بن كنون . طاعته للناصر والحكم . مسير بلكين قائب الهز الفاطمي إلى قتال زفانة . ولاء زفانة لبني أمية . غزو بلكين لأراضيهم . هزيمة زفانة . نكث الحسن بن كنون . الحكم يرسل جيوشه إلى المغرب . هزيمة الحسن وفراره . عوده إلى القتال . هزيمة جند الأندلس . الحسن يطلب الصلح . الحكم يرسل كبير قواده غالباً في جيش ضخم . غالب يطارد الحسن ويرغمه على التسليم . التجهز الحسن إلى قرطبة . وصف لموكب القائد غالب . وصف لصفات الحسن . مفادته قرطبة إلى مصر . اعتداء صاحب قشتالة على الأراضي الإسلامية . نكبة جعفر ويحيى ابني علي بن حمدون . اصطناع الحكم للبربر . مولد ولي العهد هشام . الحكم العالم . شغفه باقتناء الكتب . المكتبة الأموية الكبرى ودور الحكم في إنشائها . ذبوع الشغف باقتناء الكتب . جامعة قرطبة . تشجيع الحكم للعلماء . تقدير النقد الحديث لهذه النزعة العلمية . المكتبات العامة بالأندلس . أخذ البيعة لولي العهد الطفل . تعلق ابن حيان على ذلك . وفاة الحكم . ورعه وخلاله . الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي . هديته إلى الحكم . للقائد غالب الناصري . الحكم الشاعر . أبهة بلاط قرطبة في عهد الحكم . تكوين المجتمع الأندلسي في هذا العصر . الأرستقراطية الأندلسية . المولدون . طبقة الرقيق . النصارى المهادون . لليهود . نفوذهم وازدهارهم العلمي . طويت بوفاة عبد الرحمن الناصر ، ألمع صفحة في تاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ الخلافة الأندلسية .

استقرت الخلافة الأندلسية في عهد الناصر ، على أسس ثابتة ، وصحقت ثورة المولدين والعرب ، بعد أن كادت تقضي على ملك بني أمية ، وعلى صرح الدولة الأندلسية كلها ، ورد النصارى الإسبان إلى عقر دارهم ، فسكنوا وجلبن منتظرين ، وتمتعت الأندلس بعهد من السلم والاستقرار والرخاء ، لم تعرفه من قبل ، ووصلت رقعة الوطن الأندلسي إلى أعظم ما وصلت إليه ، إذا استثنينا عهد الفتحة الأول . وهكذا كان عصر الناصر بالنسبة للأندلس ، ذروة عصورها ، قوة وعظمة ومجداً .

وخلف الناصر أكبر ولده الحكم المستنصر بالله بعهد منه ، وكان الناصر قد آثره منذ حدثته على سائر إخوته وولاه عهده^(١). وقيل إنه أخذ له بيعة العهد وهو طفل لم يجاوز الثامنة . وبويع الحكم في اليوم التالي لوفاة أبيه ، في الثالث من رمضان سنة ٣٥٠ هـ (١٦ أكتوبر ٩٦١ م) ، وكان الحكم يومئذ في نحو الثامنة والأربعين من عمره ، إذ كان مولده حسبما تقدم بقرطبة في ٢٤ من جمادى الأولى وقيل في غرة رجب سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م)^(٢) وأمه أم ولد تدعى مرجان . وأخذت البيعة للخليفة الجديد في قصر الزهراء . وجلس الحكم على سرير الملك في البهو الأوسط الذهبي ، واجتمع لإخوته ، وسائر للوزراء ورجال الدولة ، وأكابر القبايل الصقالية ، ومن دونهم من رجال الخاص ، وأهل الخدمة ، وأكابر الحند ، انتظموا جميعاً وفق مراتبهم في المجلسين الشرقي والغربي ، وفي مختلف الأروقة ، وانتظم الحرس وفرسان الحشم وطبقات الحند ، فيما وراء باب السدة ، صفوفاً متصلة حتى باب المدينة . ولما تمت البيعة ، أذن للناس في الانصراف ، إلا الإخوة والوزراء ورجال الخاصة ، فلزمهم لبثوا بالقصر ، حتى احتمل جسد الخليفة المذهب (الناصر) إلى قصر قرطبة ليُدفن هنالك في مقبرة القصر^(٣) .

ولم يكن الحكم حين ولايته ، محدثاً في شئون الملك ، بل لقد مارسها في حياة أبيه ، وكثيراً ما ندبه أبوه لمباشرة المهام والشئون الخطيرة ، فكان عند جلوسه أميراً مكتمل النضج والخبرة .

واستهل الحكم عهده بالنظر في توسيع المسجد الجامع ، وأصدر بذلك مرسومه في اليوم التالي لجلوسه . وكان المسجد الجامع قد ضاقت جنباته بمجموع المصلين ، فقرر توسيعه من الناحية الشرقية على طول الجامع من الجنوب إلى الشمال حتى صحنه . وبلغت الزيادة نحو مساحة الجامع ، فتضاعف بذلك حجمه . وابتنى الحكم محرابه الثالث ، واستغرق بناؤه أربعة أعوام ، وعملت له قبة فخمة زخرفت

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب (المطبوع بيروت سنة ١٩٥٦) ص ٤١ .

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة سنة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤٨٧ ، والحلة السيرة لابن الأبار ص ١٠٢ . وراجع ص ٣٧٨ من هذا الكتاب .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٨١ .

بالفيساء البديعة . وأرسل قيصر قسطنطينية رومانوس الثاني إلى الحكم منها قادراً كبيراً ، كما أرسل إليه أستاذاً خبيراً بأعمال الفيساء . وأنشأ الحكم أيضاً مقصورة جديدة لها قبة على الطراز البيزنطى . وابتنى إلى جانب المسجد داراً للصدقة ، وأخرى للوعاظ وعمال المسجد . وتشغل زيادة الحكم فى الجامع اليوم قسمه الأوسط ، الواقع بين الجناح القديم ، الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل وزاد فيه عبد الرحمن الأوسط — والجناح الذى أنشأه الحاجب المنصور ، وهو يشغل نحو ثلث المسجد من الناحية الشرقية (١) .

ولم يمض سوى قليل ، حتى بدت من الأمراء النصارى نزعة إلى العدوان . وكان الناصر قبيل وفاته قد عاون سانشو الأول (سانجيه) ملك ليون ابن أردونيو الثالث بالمال والجند على استرداد عرشه ، وفر ابن عمه ومنافسه أردونيو الرابع مهزوماً إلى برغش (سنة ٩٦٠ م) ، واشترط الخليفة ثمناً لهذا العون ، أن يهدم النصارى بعض حصون الحدود ، وأن يسلموا عدداً آخر منها إلى المسلمين . فلما توفى الناصر بعد ذلك بقليل ، نكث سانشو بالعهد ، وأبى تنفيذ ما وعد . ومن جهة أخرى فقد ظهر عامل جديد فى عدوان النصارى . وذلك أن قشتالة ، وقد كانت يومئذ ولاية من ولايات ليون ، كانت تنزع إلى الاستقلال ، وكان زعيمها الكونت (القومس) فرنان كونثال (٢) رجلاً مقداماً يلتف حوله مواطنوه ، فثار على سانشو ، وأعلن استقلال قشتالة ، ونصب نفسه أميراً عليها ، وأخذ يغير على أراضي المسلمين المجاورة ، وهى مما يلي غرب الثغر الأعلى ، وشمال الثغر الأوسط ، وانضم إليه كثير من النصارى المتعصبين . فلما بذلك جيشه واشتد بأسه . وكان الكونت يطمح إلى توسيع أملاكه ، ويعتمد على مناعة قلاع الواقعة على الحدود . وقد أغضى الحكم فى البداية عن هذا العدوان مؤثراً الاعتصام بالسلم ، ولكنه لما رأى تهادى النصارى فى بغيتهم ، أخذ فى التأهب للحرب ، وأنفذ الكتب إلى سائر الولاة والقواد ، بوجوب الأهبة والاستعداد للجهاد فى سبيل الله .

وكان أردونيو الرابع الملك المخلوع ، قد لجأ إلى الحكم ليعاونه على استرداد

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ ، وأعمال الأعلام ص ٤٨ .

(٢) ويسميه ابن خلدون « فردلند القومس » (ج ٤ ص ١٤٤) وفى مكان آخر فرلند بن خند شلب (ج ٤ ص ١٨٠) وورد اسمه فى أعمال الأعلام « فران غنصالمن » وهو أكثر مطابقة لاسم القشتالى (ص ٣٧٥) .

عرشه . وتفيض الرواية الإسلامية في وصف مقدمه على قرطبة ، ومثوله بين
يدى الخليفة ، فتقول لنا إن أردونيو وفد على قرطبة في عشرين رجلا من وجوه
أصحابه ، ومعهم غالب الناصري مولى الحكم وصاحب مدينة سالم ، وذلك في آخر
صفر سنة ٣٥١هـ (٣٠ مارس ٩٦٢م) . وتلقاهم الوزير هشام المصحفي في قوات
كثيفة من الجند . فلما دخلوا قصر قرطبة ، ووصل أردونيو إلى ما بين باب السدة
وباب الحنان ، سأل عن مكان مدفن الناصر ، فأشير إليه في الروضة بداخل
القصر ، فسار إليه وخلع قلنسوته وانحنى أمامه خاشعاً . وأنزل أردونيو وصحبه
في دار الناعورة الفخمة ، وبولغ في إكرامهم . وبعد يومين استدعاهم الحكم
إلى قصر الزهراء ، وقد حشدت قوات عظيمة من الجند ، وبولغ في الاحتفال
بالزيينات ، وإظهار الأسلحة والعدد . وجلس الحكم فوق سرير الملك في المجلس
الشرقي ، ومن حوله الإخوة والوزراء والأكابر ، وجيء بأردونيو وأصحابه ،
ومعهم جماعة من وجوه نصارى الأندلس . فدخلوا بين الصفوف الفخمة المزركشة
وقد بهروا بما رأوا ، وجازوا أبواب القصر المتعاقبة ، وأجلسوا برهة في بهو
الانتظار ، ثم استدعوا للمثول بين يدي الخليفة ، فسار أردونيو ومن ورائه أصحابه ،
فلما وصل إلى المجلس الخلافي كشف رأسه وخلع برنسه . ولما دنا من سرير الحكم
سجد أمامه ثم قبل يده . ثم ارتد راجعاً إلى كرسي من الديباج المثقل بالذهب .
وتولى الترجمة بين أردونيو والخليفة ، وليد بن خيزون قاضي الدمة بقرطبة ،
وأعرب الحكم عن سروره وترحيبه بمقدم أردونيو ، ووعد برعايته . وبسط
أردونيو قضيته ، وشكا مما أنزله به خصمه سانشو ، مع أن الشعب كان قد آثره
باختياره ، ولكن خصمه لجأ إلى الخليفة الراحل واستجار به ، فأغاثه ونصره
عليه ، ومع ذلك فقد قصر في الوفاء بعهوده ، وأنه يضع نفسه وبلاده وشعبه ،
تحت رعاية الخليفة ، وأنه يتعهد بمخالفة الإسلام ، ومقاطعة صهره فردلند القومس
أمير قشتالة ، ويقدم ولده غرسيه رهينة بصدق وفائه^(١) . وهنا وعده الخليفة
بعونه ونصرته في تملكه ما كان له . وانصرف أردونيو بعد الشكر والتحية ،
وخرج من المجلس ، وقد بهره وأذهله ما رأى من آيات الفخامة والسلطان . وقدم
إليه الحاجب جعفر الهدايا التي أمر بها الخليفة له ولأصحابه . وألقى الخطباء والشعراء

خطبهم وقصائدهم ، منوهين بروعة هذا اليوم المشهود . فن ذلك قول عبد الملك ابن سعيد المرادى من قصيدة :

ملك الخليفة آية الإقبال وسعوده موصولة بنوال
والمسلمون بعزة وبرفة والمشركون بذلة وسفال
ألفت بأيديها الأعاجم نحوه متوقعين لصولة للربال
هذا أمرهم أناه آخذاً منه أوأصر ذمة وحبال
متواضعاً لحلاله متخشعاً متبرعاً لما يرع بقتال^(١)

فلما نمى إلى سانشو ما وعد به الخليفة خصمه ومنافسه ، خشى عاقبة هذا التسعى ، فبعث إلى الحكم وفداً من الأكابر والأخبار ، يعرض عليه أن يعترف بطاعته ، وأن يقوم بتنفيذ ماتعهد به للناصر من تسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود وهدم البعض الآخر^(٢). ولكن أردونيوما لبث أن توفى ، وعاد سانشو إلى نكته بعد أن أمن شر منافسه . وهنا شعر الأمراء النصارى بخطورة أهبة المسلمين العسكرية ، وأدركوا أن لا بد لهم من الاتحاد جميعاً ، لكنى يستطيعوا مواجهتهم . وهكذا عقد التحالف بين سانشو ملك ليون ، وخصمه الكونت فرنان أمير قشتالة ، وغرسية سانشيز ملك نافار ، وكونت برشلونة ، وتأهب الجميع للدفاع المسلمين .

وفي صيف سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) خرج الحكم إلى الغزو ، معلناً الجهاد ، واجتمعت إليه الجيوش في طليطلة ، فسار مخترقاً جبال وادى الرملة إلى أراضي قشتالة ، وأشرف على قلعة شنت إشتين المنيعة^(٣) فحاصرها المسلمون ، واستولوا عليها . وعبثاً حاول الكونت فرنان كونثال ، أن يقف في سبيل المسلمين ، واجتاح المسلمون أراضيهم ، ومزقوا قواته ، حتى أذعن إلى طلب الصلح ، ولكنه نكث عهده ، فهاجمه المسلمون كرة أخرى ، واستولوا على بلدة أنتيسة الحصينة^(٤).

(١) أورد لنا المقرئ (عن ابن حيان) عن هذه الزيارة تفاصيل مسببة (راجع نفع الطيب ج ١ ص ١٨١ - ١٨٤) . ولخصها ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٥) . وكذلك للبيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ . وأنتيسة هي Atienza .

وأرسل الحكم جيشاً آخر بقيادة يحيى بن محمد التجيبى حاكم سرقسطة فى اتجاه ناغار . وكان ملكها غرسية سانشيز ، قد أغار على الأراضى الإسلامية ناكثاً لعهدہ ، وهرع حليفه سانشو ملك ليون فى قواته لإنجاده ، ونشبت بين الفريقين موقعة هزم فيها النصارى وامتنعوا بالجبال . وفى نفس الوقت سار القائد غالب مولى الحكم فى جيش قوى إلى مدينة قلهرّة ، من قواعد ناغار الغربية ، فافتتحها ، وحصنها وشحنها بالرجال والعدة ، وكان فتحاً عظيماً . وسار حاكم مدينة وشقة فى قواته شمالاً نحو أراضى ناغار مما يلي جبال البرنيه ، واستولى على حصن يده^(١) واجتاح تلك المنطقة ، وغنم ما فيها من السلاح والأقوات والماشية^(٢) . واستغرقت هذه الفتوح والغزوات العظيمة ، الصائفة فى سنئى ٣٥٢ و٣٥٣ هـ (٩٦٣ — ٩٦٤) . ويروى لنا ابن خلدون قصة غزوة إسلامية أخرى فى أراضى قشتالة — فيقول لنا إن غالباً سار إلى بلاد ألبه ، ومعه يحيى بن محمد التجيبى ، وقاسم بن مطرف بن ذى النون ، فاستولى على حصن غرماج Gormaz . ويضع ابن خلدون تاريخ هذه الغزوة فى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) . وتقع قاعدة « غرماج » الحصينة على نهر دويرة على مقربة من شنت إشتين . وكان الناصر قد انتزعها من النصارى فى سنة ٩٤٠ م . والظاهر أن القشتاليين بقيادة فرنان كوثالث ، كانوا قد استولوا عليها فيما استولوا عليه من قواعد الحدود ، قبل أن يخرج الحكم إلى الغزو ، فاستردها المسلمون فى صائفة سنة ٣٥٣ هـ ، أو فى الصائفة التالية ، وقاموا بتحصينها للدافعة القشتاليين فى هذه المنطقة^(٣) .

وتشير الرواية الإسلامية فوق ذلك إلى غزوات ناجحة أخرى ، قام بها المسلمون فى أراضى قشتالة فى سنئى ٣٥٥ و ٣٥٦ هـ ، بيد أنها لا تقدم إلينا شيئاً عن تفاصيل تلك الغزوات^(٤) .

وفى سنة ٣٥٣ هـ وقعت بالعاصمة الخلافة مجاعة عظيمة ، فبذل الحكم للفقراء والمعوزين فى سائر أرباض قرطبة والزهراء ، من النفقة ما يكفل أقواتهم ويسد عوزهم .

(١) وبالإسبانية Yerba .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٤) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ .

وكانت حوادث المغرب الأقصى (وسوف نتحدث عنها بعد) ، وما يهدد الأندلس من جراء مشاريع الفاطميين وأشياهم في تلك المنطقة ، مما يشغل حكومة قرطبة ، ويحفظها دائماً إلى اليقظة والتأهب ، وكان من أثر ذلك أن قصد الحكم في شهر رجب سنة ٣٥٣ إلى ثغر ألمرية (سبتمبر سنة ٩٦٤) في جماعة كبيرة من الرؤساء والقادة ، ليشرف بنفسه على أعمال التحصين الحارية فيها ، وليتخذ ما يجب لتجديد الأسطول وتعزيزه . وكانت ألمرية أعظم قواعد الأسطول الأندلسي ، وكانت سفته الراسية بها يومئذ تبلغ ثلاثمائة قطعة^(١) .

بيد أنه لم يمض قليل ، حتى جاء الخطر يهدد الأندلس من ناحية أخرى : ففي أواخر سنة ٣٥٥ هـ^(٢) (أواخر سنة ٩٦٧ م) ظهرت سفن النورمان أو المحجوس في مياه الشاطئ الغربي قبالة ولاية الغرب .

وكان النورمان قد ظهوروا في مياه الأندلس لأول مرة في سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٣ م) أيام عبد الرحمن بن الحكم ، وبدأت حكومة قرطبة تعنى بشأن الأسطول ومضاعفة أهبتها البحرية من ذلك الحين . وكان أولئك الغزاة النورمان في هذه المرة من أهل داغماركة المحجوس ، ويقودهم رتشارد الأول دوق نورماندى ، وحفيد زعيمهم الكبير رولو . وكانت عدة أسطولهم ثمانية وعشرين مركباً . ونزل الغزاة على مقربة من بلدة قصر أبى دانس^(٣) ، وعاثوا في تلك المنطقة ، ثم زحفوا شمالاً إلى بسائط أشبونة الغنية بالناعة ، وعاثوا فيها تخريباً ونهباً ، واجتمع المسلمون في تلك المنطقة لقتالهم . ونشبت بينهم وبين الغزاة موقعة دامية قتل فيها كثير من الفريقين . وفي تلك الأثناء خرج أسطول إشبيلية من نهر الوادى الكبير بقيادة أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس ، وسار على عجل إلى شاطئ البرتغال الجنوبي ، وكان الغزاة قد انحدروا عندئذ جنوباً ثم شرقاً بمحاذاة الشاطئ ، ووقع اللقاء بين سفنهم وبين سفن المسلمين عند مصب نهر شيلب . فحطم المسلمون عدة من سفن الغزاة ، وأنقذوا من كان بها من أسرى المسلمين ، وقتل كثير من النورمان ، وارتدوا منهزمين عن تلك المياه ، بيد أن سفنهم لبثت تجوس خلال المياه الغربية ، والمسلمون لهم بالمرصاد أينما ظهوروا . وأمر الحكم زيادة في التحوط أن تحشد بعض

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٨٦ .

(٢) ويذكر ابن خلدون أنها كانت سنة ٣٥٤ هـ (ج ٤ ص ١٤٥) .

(٣) وهي بالإفريقية **Alcacer do Sal** ، وهي ثغر برتغالى صغير يقع جنوب شرق أشبونة .

سفن الأسطول الصغرى فى نهر الوادى الكبير تجاه قرطبة ، وترتيبها على هيئة
مراكب النورمان^(١) ، وذلك خشية أن يتسرب الغزاة بطريق النهر إلى العاصمة ،
كما فعلوا حينما هاجموا إشبيلية فى غزوتهم الأولى .

ولم تمض بضعة أعوام على ذلك ، حتى عادت مراكب النورمان تجوس خلال
المياه الغربية (٣٦٠ هـ — ٩٧١ م) مرة أخرى ، وتهدد شواطئ ولاية الغرب
الغنية .

ويقدم إلينا ابن حيان عن هذه الغزوة الثانية للنورمان لشواطئ الأندلس
بعض تفاصيل ملخصها أن الحكم عهد إلى أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس
بتسيير الأسطول من ألمرية وإشبيلية ، واجتماع قوى الأندلس البحرية كلها
لمواجهة الغزاة ، كما عهد إلى الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن بأن يشرف على
القوات البرية والبحرية التى أعدت لمداغة أولئك الغزاة ، وأمر صاحب الخيل
والحشم زياد بن أفلح بإخراج السلاح والعدة ، وحشد قوة مختارة من الخند .

بيد أنه لم تقع فيما يبدو ، أية معارك هامة بين المسلمين والغزاة ، ولم يحدثنا
ابن حيان عن وقوع مثل هذه المعارك . والظاهر أنهم ارتدوا من تلقاء أنفسهم
لما رأوا من تفوق قوى المسلمين^(٢) .

وفى خلال ذلك كانت قرطبة تغدوشيناً فشيناً ، مركز التوجيه فى شبه الجزيرة
الإسبانية كلها ، وتغدو كعبة للملوك اسبانيا النصرانية ، يفدون إليها تبعاً ، يقدمون
إليها عهود الطاعة ، ويلتمسون منها الصداقة والعون . وقد بدأ تقاطر هذه الوفود
والسفارات من سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) واستمر عدة أعوام . ويجدر بنا قبل
التحدث عنها ، أن نشير إلى ما وقع من تغييرات فى الإمارات والممالك النصرانية .
فقد توفى سانشو ملك ليون مسدوماً فى سنة ٩٦٦ م . وخلفه ولده الطفل راميرو
الثالث ، تحت وصاية عمته الراهبة البيرة ، وكان من أثر ذلك أن وقع التفكك .
فى مملكة ليون ، وأعلن عدة من الزعماء المحليين استقلالهم . وتوفى الكونت

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٧ . وابن حيان فى المتن - مخطوط أكاديمية التاريخ
بمدريد (مجموعة كوديرا) المنشور بتحقيق الأستاذ عبد الرحمن على الحجى (بيروت ١٩٦٥)
ص ٢٣ - ٢٦ وبه بيانات وتفاصيل هامة عن حوادث الأعوام الخمسة من سنة ٣٦٠ إلى سنة ٣٦٤ هـ .
وسوف نرجع إليه بكثرة فيما يتعلق بأحداث هذه الأعوام وأحوالها .

فرنان كونثال أمير قشتالة في سنة ٩٧٠ م ، وخلفه ولده غرسيه فرناندز . وتولى عرش نافار سانشو غرسية الثاني ، بعد وفاة أبيه غرسية سانشيز .

وكان أول الوافدين على قرطبة من أمراء النصراري أمير جليقية ، وأمير أستوريش ، (الاسترياس) . ثم وفدت رسل سانشو غرسية ملك نافار ، وهم جماعة من القوامس والأساقفة يسألون الصلح ، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا .

ووفدت في شعبان سنة ٣٦٠ هـ (يونيه ٩٧١ م) سفارة من أمير برشلونة الكونت بوريل ابن شونير Saunier على رأسها مبعوثه القومس بون في تجديد المودة والصدقة ، ومعهم ثلاثون أسيراً من المسلمين الذين كانوا محجوزين بالإمارة ، تقريباً من الخليفة . فاستقبلهم الحكم بالجلس الشرقي من قصر الزهراء مرتين ، الأولى في الرابع من رمضان سنة ٣٦٠ هـ ، والثانية في الثاني من شوال ، واستمع إلى رسالتهم بالقبول والرضى ، وصرفهم بجزيل الصلات وفاخر الكسي^(١) . وفي السادس من ذي الحجة سنة ٣٦٠ هـ (أكتوبر ٩٧١ م) وفدت الراهبة لبيرة عمه ملك ليون راميرو الثالث والوصية عليه — ويسمى ابن حيان حلوية وأحياناً حلورية^(٢) — ، فقبلت في قرطبة بمظاهر الترحاب والتكريم ، واحتفل الحكم باستقبالها بقصر الزهراء في يوم مشهود ، وعقد السلم لملك ليون تحقيقاً لرغبتها ، وأغدق عليها الهدايا والصلوات « وحملت على بغلة فارهة بسرج ولحام مثلقين بالذهب وملحفة ديباج »^(٣) . ومما هو جدير بالذكر أنه قام بالترجمة يومئذ بين الخليفة الحكم ، وبين سفراء أولئك الأمراء والملوك النصراري ، قاضي النصراري وأسقفهم بقرطبة ، عيسى بن منصور ، وقومس أهل الزمة ، معاوية بن لب ، ومطران إشبيلية عبيد الله بن قاسم . وكانت لغة النصراري

(١) ابن حيان في المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ الصالفة الذكر ص ٢١ و ٢٢ .

(٢) راجع ابن حيان في المقتبس — القطعة الصالفة الذكر ص ٦٣ و ١٤٦ و ٢٣٥ و ٢٤١ . ويلاحظ أن ابن حيان لم يتحدث عن قدومها بنفسها إلى قرطبة وإنما يتحدث عن قدوم رسل من قبلها . بيد أننا أخذنا هنا برواية ابن خلدون بالرغم من كونها تنصرف إلى اسم سيده نصرانية أخرى . والرواية الإسبانية تؤيد هذا التفصيل .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ . وراجع المقتبس لابن حيان (قطعة أكاديمية التاريخ الصالفة الذكر) ص ٦٤ .

الإسبان يومئذ هي اللغة الرومانية (الرومانشي) Romance أو « اللاتينية » ، وهي التي تطورت فيما بعد إلى اللغة القشتالية^(١) .

ووفدت سفارات أخرى من غرسية فرناندز أمير قشتالة ، وفرنان لينيز كونت شلمنقة وغيرهما . وفي سنة ٩٧٣ م (٣٦٢ هـ) وفدت سفارة جديدة من سانشو غرسية ملك نافار ، ومن الراهبة البيرة الوصية على ملك ليون . وكان جل هذه الزيارات والسفارات من أمراء اسبانيا النصرانية ، يقصد إلى عقد السلم والمودة مع خليفة الأندلس ، وأحياناً إلى تقديم الطاعة وطلب العون .

هذا وقد وردت إلى الخليفة رسالة ودية من يوحنا زيمسكي (الدمستقي) قيصر قسطنطينية على يد رسوله قسطنطين الملقى ، وذلك في جمادى الأولى سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م)^(٢) ، ورسالة أخرى في أواخر سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) من إمبراطور ألمانيا أوتو الثاني الذي خلف أباه أوتو الأول ، وفيها يجدد علائق المودة التي كانت بين أبيه وبين الناصر . ووردت في نفس العام سفارة جديدة من الكونت بوريل أمير برشلونة يطلب تجديد المودة والصدقة .

ويعلق العلامة المؤرخ الأستاذ بيدال على ذلك بقوله : « وصلت الخلافة الأندلسية في ذلك العصر إلى أوج روعتها ، وبسطت سيادتها السلمية على سائر اسبانيا ، وكفلت بذلك السكينة العامة » .

وفي هذا العام ، سنة ٣٦١ هـ ، في الخامس والعشرين من جمادى الأولى ، أمر الخليفة الحكم صاحب مدينة الزهراء ، محمد بن أفلح ، بمطاردة الشعراء المهجائين والقبض عليهم ، صوناً لأعراض الناس من لاذع ألسنتهم ومقذع هجائهم وكان منهم عيسى بن قرلمان الملقب بالزبراكة ، وموثس الكاتب ، وأحمد بن الأسعد ، ويوسف بن هارون البطليوسي وغيرهم . فظفر صاحب المدينة بمعظمهم وأودعهم السجن ، واختفى البطليوسي حيناً ، ولكنه لما شعر بوطأة المطاردة ،

R. M. Pidal : Origenes del Espanol p. 421 (٢)

(٣) راجع المقتبس قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧١ و ٧٢ . وكان يوحنا زيمسكي . وهو كبير الجيش البيزنطي قد اشتهر بعمه القيصر نيقفور الثاني مع زوجه الحسناء ثيوفانو وانتهى بقتله وذلك في العاشر من ديسمبر سنة ٩٦٩ م ، واعتلى العرش في الحال مكانه ، وحكم حتى وفاته في العاشر من يناير سنة ٩٧٩ م .

قدم نفسه لصاحب المدينة ، فزج إلى السجن . ورفع أمره إلى الخليفة ، فرق
لخنتهم ، وأمر بالإفراج عنهم ، فأطلق سراحهم في أواخر شعبان من هذه السنة^(١)
وفي هذا الإجراء ما يشهد برفيع خلال الحكم . ورقة شعوره ، وموفور
احتشامه .

* * *

وفي ذلك الحين حدثت بعدوة المغرب ، في الضفة الأخرى من البحر ، حوادث
هامة ، شغلت الحكم ، وكلدت صفو السلام السائد في مملكته . وقد سبق أن
أشرنا إلى غزو الناصر لدين الله لثغر سبتة ، وعبور جيوشه إلى المغرب لمقاومة
جهود الفاطميين في السيطرة عليه ، ومحاربة الأدارسة أمراء المغرب وحلفاء
الفاطميين ، ومطاردتهم . حتى أذعنوا في النهاية إلى طلب الصلح ، والاعتراف
بطاعة الناصر (سنة ٣٣٢ هـ - ٩٤٣ م) ، وقيام الدعوة المروانية بالمغرب منذ
ذلك الحين .

وكانت دولة الأدارسة ، قد تقلصت في ذلك الحين ، عن معظم أنحاء المغرب
الجنوبية والوسطى ، وارتدت إلى منطقة الريف الشمالية ، ما بين غربي بحر
الزقاق والمحيط ، وجعلت قاعدتها بعد انقراض أمرهم في فاس ، في قلعة حجر
النمر المتينة ، الواقعة في جنوبي تطوان . ولم تكن مع ذلك دولة مستقلة بمعنى
الكلمة ، إذ كانت تنضوي تحت لواء المتغلب على المغرب ، سواء من العبيديين
(الفاطميين) أصحاب إفريقية ، أو الأمويين أصحاب الأندلس . وكان أمير الأدارسة
في أواخر عهد الناصر ، الحسن بن كتنون (أو قنون) ، وهو القاسم بن محمد
ابن القاسم بن إدريس ، الذي قدر أن تنقضي على يده دولة الأدارسة بالمغرب ،
وكان قد بايع العبيديين ، ودعا لهم حينما تغلب جوهر الصقلي على المغرب ، ناكثاً
بذلك عهده للناصر . فلما انصرف جوهر إلى إفريقية في أواخر سنة ٤٤٩ هـ (٩٦٠ م)
عاد الحسن إلى طاعته لبني أمية . ولما توفي الناصر أعلن الحسن طاعته لولده الحكم
المستنصر . ولم يكن ذلك سوى مصانعة ورياء ، إذ كان الأدارسة يبغضون
بني أمية ، ويترقبون فرص الخروج عليهم ، ولم تكن طاعتهم لهم إلا خوفاً من
بطشهم ، لوقوع مملكتهم في شمال العدو على مقربة من الأندلس .

(١) راجع المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ المشار إليها - ص ٧٣ - ٧٥ .

وفي أوائل سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م) سار بُلُكَيْن بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، قائد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، من إفريقية غازياً إلى المغرب ، ليعيد هنالك سلطان الشيعة ، ولينتقم من قبيلة زناته لمقتل أبيه زيرى بن مناد . وكان زيرى عامل الخليفة المعز وقائده على المغرب ، وكانت زناته من القبائل المغربية القوية المخالفة للشيعة ، والمنضوية تحت لواء الأمويين . وكان من أشد خصوم الشيعة أيضاً ، جعفر ويحيى ابنا على بن حمدون المعروف بالأندلسى^(١) ، وكان الأندلسى هذا قد استقر في «المسيلة» في المغرب الأوسط ، وبسط حكمه على تلك الناحية ، وخلفه ولده جعفر في إقطاعه ، ولكنه خشي سطوة الشيعة ، وسطورة عاملهم زيرى ، ففر وأخوه يحيى مع الأهل والمال إلى المغرب الأقصى ، ولجأ إلى بنى خزر أمراء زناته الأقوياء ، وألد خصوم الشيعة وصنهاجة . وكان رسل الحكم يروجون الدعوة في زناته وحلفائهم لمحاربة الشيعة ، ويمدوهم بالمال لحشد الرجال والعدة ، فاجتمعت قوات بنى خزر وجعفر ويحيى على قتال زيرى ، ودارت بينهما الحرب في وادى ملوية عند مشارف المغرب الأقصى ، وانهمز الشيعة ، وقتل زيرى ومعظم رجاله بعد معركة طاحنة : واحتوى الزناتيون على معسكره ، وانهار بذلك سلطان الشيعة في المغرب ، وكان ذلك في العاشر من رمضان سنة ٣٦٠ هـ (يوليه ٩٧١ م) . واحتز الظافرون رأس زيرى وروثوس عدة من أكابر صحبه . وحملها جعفر ويحيى وأصحابهما إلى الأندلس ، وقدموها إلى الحكم ، فحفظوا لديه وغمرهم بعطفه وصلاته^(٢).

(١) ذكر ابن حيان نقلاً عن محمد بن يوسف بن عبد الله الوراق أن جعفر وأخاه هما من أصل أندلسى ، وهما ابنا على بن حمدون بن سملك بن سعيد بن إبراهيم . وكان مغزهم بالأندلس بكورة البيرة على مقربة من قلعة يحصب . وانتقل جداهما حمدون إلى إفريقية وتزوج من كرامة ، ثم سافر إلى الحج ، وتعرف هناك بأبي عبد الله الشيبى ودخل في مذهبه . ولما ظهر الشيبى بإفريقية واحتوى على ملك بنى الأغلب حظى لديه ، وحظى أبناؤه لدى الخلفاء الفاطميين ، واستقرروا مدى حين حكماً للمسيلة . ثم اتهم زعيمهم جعفر بالاتصال ببنى خزر ، وتوعدوه الخليفة المعز بشر النكال ففر وأخوه في الأهل والمال إلى بنى خزر أمراء زناته (راجع المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ - ص ٣٣ - ٣٦)

(٢) يقدم إلينا ابن حيان تفاصيل ضافية عن استقبال جعفر وأخيه يحيى حين مقدمهما إلى الأندلس برؤوس زيرى وأصحابه ، ودخولها قرطبة في ركب فخم برفقة احب السكة والمواريث وقاضى إشبيلية محمد بن أبي عامر ، ثم استقبال الخليفة لها ومن مهمها من أعيان بنى خزر ، وذلك بالجلس القبل من قصر الزهراء ، في حفل فخم رتبت فيه صفوف الجند وأهل الخدمة بأنواهم =

وكان لهذه النكبة التي حلت بجيش الشيعة وصنهاجة ، وقع عميق في الخلافة الفاطمية . فأمر الخليفة المعز قائده يوسف بن زيري بن مناد ، المسمى بـ **بُلْكَيْن** (بلقين) أن يسير في الجيوش إلى المغرب جسيماً تقدم . فسار بلكين ، وهو ينزل ضرباته المتوالية باتباع زناته حيثما وجدوا في طريقه ، وكانت منهم جموع غفيرة في المغرب الأوسط في بجاية ، والمسيلة ، وبسكرة ، وتاهرت وغيرها ، فزقهم شر ممزق . ووصل بلكين في قواته ، إلى المغرب الأقصى ، في ربيع الثاني سنة ٣٦١ هـ ، واستعد بنو خزر وسائر أمراء زناته للقاءه ، ووقعت الحرب بين الفريقين ، فهزمت زناته شر هزيمة ، وانتحر أميرها محمد بن الخير بن خزر وذلك بأن اتكأ على سيفه فذبح نفسه ، حتى لا يقع في يد عدوه ، ومزق بلكين زناته كل ممزق ، وهدم مدينة البصرة ، وبسط سلطانه على معظم أنحاء المغرب ، وقطع دعوة الأمويين ، وحقق انتقامه لمقتل أبيه كاملاً^(١) .

ومارح الحسن بن كنون ، القلب مع كل تطور جديد ، إلى بيعة بلكين ، والانضواء تحت لوائه ، أو بعبارة أخرى ، تحت لواء مادته الشيعة . ولكن بلكين لم يملك طويلاً بالمغرب . إذ سرعان ما استدعاه سيده المعز — وكان يتخذ يومئذ أهبة للسفر إلى مصر ، مقر ملكه الحديد — فارتد عائداً بقواته إلى إفريقية . ووقف الحكم على تطور الحوادث بالمغرب ، فأزعجه ذلك وأهمه ، وبادر

= الزاهية ، وقد رفعت رؤوس القتلى وعددها مائة وفي مقدمتها رأس زيري على القنوات . وكان دخولهم على الخليفة ، في أواخر ذي القعدة سنة ٣٦٠ هـ . واستقبلهم الخليفة بالبشر والرضى ، وامتنح موقفهم وانصرافهم عن حزب الشيعة إلى موازنة حزبه . وعلى أثر انتهاء المقابلة ، انزلوا في الدور التي خصصت لهم بقرطبة ، ورتب الخليفة لكل من جعفر وأخيه يحيى قففة شهرية قدرها ألف دينار ، ورتب لمراقبيهم من بني خزر ، كل ما يكفيه من النفقة والطعام . يقول ابن حيان بعد أن أورد لنا هذه التفاصيل الشائقة بإسهاب لا مزيد عليه : « فكاف يوم جعفر بن علي ومن ورد معه من أحد الأيام للقم بقرطبة ، في اكتمال حشمه وجلالة قدره ، خلد حديثه زمناً في أهلها ، قاضياً من حجب الجلالة ، وكل شيء نال انقضاء ، إلا إله الأرض والسماء ، تعالى جده » (المقتبس — قطعة أكاديمية تمارين ص ٤٤ — ٥٣ وص ٥٧) .

(١) راجع مجموعة « نبد تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى » المنتخب من كتاب « مفاخر البربر » مؤلف مجهول ، والمنشور بمعناية الأستاذ لوي بروفنسال (الرابط سنة ١٩٣٤) ص ٦ — ٨ ، ويرجع الكتاب هذه الموقفة إلى سنة ٣٦٠ هـ . راجع أيضاً المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٣٦ و ٣٨ .

باعداد جيش ضخيم ، حسن الأهبة ، لغزو المغرب ، ومقاتلة الحسن بن كنون ، تحت إمرة قائده محمد بن القاسم بن طملس ، كما أمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بجشد الأسطول . وعبر محمد بن القاسم في قواته من الجزيرة الخضراء إلى سبتة ، في شوال سنة ٣٦١ هـ (يولييه ٩٧٢ م) ، وكان الحسن بن كنون عندئذ في طنجة ، فخرج في جموع البربر لقتال جيش الحكم ، ف وقعت عليه الهزيمة وقتل كثير من أصحابه ، وفر هارباً تاركاً أمواله وعتاده بطنجة ، واستسلم أهل طنجة إلى محمد بن القاسم ، وأعلنوا طاعتهم للحكم ؛ ودخل محمد طنجة واحتلها ، وبعث إلى الحكم بفتحها . ثم طارد فلول الحسن بن كنون جنوباً حتى ثغر أصيلا ، ودخلها .

وفي تلك الأثناء كان الحسن قد جمع فلوله ، وأعاد تنظيم قواته ، وسار إلى لقاء جيش الحكم مرة أخرى ، فالتقى الجمعان في مكان يعرف بفحص مهران ؛ وهنا حالف الحسن حسن الطالع ، فدارت الدائرة على جند الأندلس ، وقتل منهم عدة كبيرة فرساناً ومشاة ، وفي مقدمتهم قائدهم محمد بن القاسم ، وبلغ القتل من الفرسان وفق تقدير الرازي خمسمائة ومن الرجال ألفاً ، وكان ذلك في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٦٢ هـ ، وفرت فلول الأندلسيين إلى سبتة فامتنعوا بها ، وبعثوا إلى الحكم يطلبون الإنقاذ والغوث (١) .

وأراد الحسن في نفس الوقت أن يستغل نصره بطلب الصلاح ، وتقديم الطاعة وتبادل الرهائن ، وبعث أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس بذلك إلى الحكم ، فكتب الحكم إليه ومن معه من القادة يوصيهم بالاستمرار في مجاهدة الملحد ، ومجاهدة من معه ، حتى يفتح الله عز وجل فيه وفيهم . وكان مما قاله في كتابه : « أن أفضل ما احتمال عليه ، وعمل به ، استشعار الخزم ، وإدراع التحفظ ، واستنصاح الاتهام ، وإذكاء العيون ، وبث الجواسيس ، والاستكثار منهم ، ومن حملة الأخبار حتى لا يخفى لحسن - أهلكه الله - حركة ، ولا يتوارى له مذهب » .

ومما كتبه الحكم إلى عبد الرحمن بن يوسف بن أر مطيل قائد ثغر أصيلا ،

(١) راجع مجموعة « بُد تاريخية في أخبار البربر » التي سبق ذكرها ص ٨ . وابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٦ .

رداً على ما أبداه الحسن من رغبة في الإنابة والصلح : « وكيف يذهب الآن هذا المذهب وهو في طغيانه مستمر ، وفي دينه مستبصر ، ولكم في كل أيامه محارب ، هذا هو الضلال ، والمحال عين المحال ، وسبب الخبال ، وقد رأى أمير المؤمنين تأمين جميع الناس لديه غيره ، وغير من أصر لإصراره ، وتمادى تماديته ، إلى أن يحكم الله عليه ، ويفتح فيه » (١) .

وبادر الحكم في نفس الوقت بحشد جيش جديد ، ندب لقيادته مولاة ووزيره وكبير قواده غالباً بن عبد الرحمن « البعيد الصيت المعروف بالشهامة » . وأمدّه عدا الحند الكثيف ، والعتاد الضخم ، بأموال جليلة لاستمالة القبائل ، وأمره أن يشتد في قتال الأدارسة ، وأن يستأصل شأفتهم ، وأن يطهر المغرب من كل القوى المناوئة لبني أمية . وقال له : « سر يا غالب مسير من لا إذن له في الرجوع إلا حياً منصوراً ، أو ميتاً معذوراً ، وابسط يدك في الإنفاق ، فان أردت نظمت للطريق بيننا قنطار مال » (٢) . فخرج غالب في قواته الحرارة من قرطبة ، وعبر البحر من الجزيرة الخضراء إلى قصر مصمودة (أو القصر الصغير) وذلك في الحادى عشر من رمضان سنة ٣٦٢ هـ . وعلم الحسن بمقدمه ، وعظيم أهيته ، فغادر مدينة البصرة ، الواقعة في الجنوب حيث كان يقيم ، ولجأ بأهله وأمواله وذخائره إلى قلعة حजर النسر ، الواقعة شمالها . ثم جمع قواته وخرج لقتال جيش الحكم ، ونشب القتال بين الفريقين أياماً ، وبث غالب في رؤساء البربر من غمارة وغيرهم من جند الحسن ، الأموال والهدايا ، فانفصلوا عنه ، واضطر الحسن أن يمتنع بمن بقي معه في قلعة حजर النسر ، فطارده غالب وضرب الحصار حول القلعة . وفي أوائل شوال بعث الحكم ثقته محمد بن أبي عامر إلى العدو بأحمال من المال والحلى والخلع لتوزيعها على أكابر البربر الذين يمكن استمالتهم إلى جانب الخلافة . وأصدر الحكم في نفس الوقت مرسومه بتعيين ابن أبي عامر

(١) ابن حيان - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٧ و ٩٨ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٨ ، وكذلك « فقه تاريخية في تاريخ البربر » ص ٩ . وقد وردت هذه العبارة بصورة أخرى في كتاب نقله إلينا ابن حيان ، وأرسله الحكم إلى غالب وهو بالدوة رداً على كتاب منه وجاء ، في خاتمته هذه العبارة : « فاستقبل نظرك استقبال من استشعر مذهب أمير المؤمنين ووطن فيه على أن لا مرجع إلا بما يحب أو يموت فيعذر » . راجع المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ - ١٣١ .

قاضياً لقضاة العدو ، إلى ما يتقلده من خطى الشرطة الوسطى والعليا والموارث وقضاء إشبيلية^(١) . ووصلت إلى غالب من الأندلس بعد ذلك أمداد جديدة ، بقيادة الوزير يحيى بن محمد التجيبي وإخوته ، يوسف ومحمد وهاشم وهذيل ، ومعه حملة من المال (المحرم سنة ٣٦٣ هـ) ونزل يحيى وجنده بطنجة ، وانضموا إلى قوات القائد الأعلى غالب . وشدد غالب الحصار على الحسن ، وقطع سائر علاقته وموارده ، وبث قواته في سائر الأنحاء لمطاردة الأدارسة ، واستئصال شأفتهم . ونشبت بين جند الحكم وبينهم معارك عديدة ، قتل فيها الكثير منهم . وفي صفر سنة ٣٦٣ هـ استولى غالب على مدينة البصرة ، وسلمها إليه أهلها ، بعد أن قتلوا نائبها الحسنى . وكان ضمن حاشية غالب الشاعر محمد بن حسين التميمي المعروف بالطنبى ، بعثه إليه الحكم تحقيقاً لرغبته لكى يساعده بنظمه على اكتساب ولاء المنشقين على الحسن^(٢) . وفي تلك الأثناء ، كان الحسن قد أجهدته الحصار ، وأشرف على الهلاك ، ومن معه من أهله ورجاله ، فاضطر في النهاية إلى طلب الأمان والتسليم ، وأعلن طاعته للحكم (جمادى الآخرة سنة ٣٦٣ هـ) ، ودخل غالب قلعة حاجر النسر ، ودعى في مسجدها للحكم . ووصلت هذه الأنباء السارة إلى الحكم ، وأعلنها الحكم في جامع قرطبة ، بعد ذلك بأيام قلائل ، وتبع غالب سائر من بقى من الأدارسة ببلاد الريف حتى استأصل شأفتهم ، وقضى على دولتهم . وسار إلى مدينة فاس ودخلها ، وعين لها حاكماً من قبله ، وتم بذلك إخضاع المغرب للدعوة الأموية .

وكان قد وصل من العدو قبل هزيمة الحسن ، عدد كبير من القبائل والبطون البربرية الخارجة عليه ، الحانحة إلى طاعة الحكم . وكان بين هؤلاء عدد كبير من فرسان قبائل كتامة يبلغون زهاء ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس ، ورئيسهم أبو العيش بن أيوب ، وقد عقد له الحكم على قومه ، وأصدر له بذلك سجلاً من إنشاء صاحب الموارث جعفر بن عثمان ، يبين فيه واجباته وسلطاته ولا سيما في شئون الجباية ، وأصدر الحكم سجلاً مماثلة لزعماء القبائل والبطون البربرية الأخرى ، وقد ذكرها لنا ابن حيان ، وذكر أسماء زعمائها^(٣) .

(١) ابن حيان - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٢٣ .

(٢) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٠٩ .

(٣) ابن حيان في المقتبس قطعة أكاديمية التاريخ ص ١١٠ - ١١٥ .

وفي أواخر ذي الحجة سنة ٣٦٣ هـ ، عبر القائد الأعلى غالب البحر إلى الجزيرة الخضراء ، تاركاً شئون العدو للقائد يحيى بن محمد بن هاشم التجيبي تحقيقاً لرغبة الحكم ؛ وكان في ركب القائد الأعلى المظفر ، الحسن بن كنون وسائر أهله وشيعته من زعماء الأدارسة ومعهم الأهل والولد . وصدر قبيل ذلك في قرطبة ، عن أمر الخليفة الحكم ، كتاب طويل من إنشاء الوزير جعفر ابن عثمان قرئ على سائر منابر الأندلس ، وفيه ينوه بما من الله على خليفته من كفالة أمر المسلمين ، وقمع عدوان النصارى بالأندلس ، ثم مطاردة الشيعة أهل البدع بالعدوة ، وما منحه الله من النصر على المخالفين « حتى استوسقت الطاعة في جميع بلاد المغرب وقامت الدعوة بمنابر قواعده »^(١) . وأشرف غالب في ركه الحافل على قرطبة في أوائل المحرم سنة ٣٦٤ هـ ، وأنزل الأشراف الحسنيون المرافقون له في الدور التي أعدت لهم بقرطبة وأرباضها . وخرج الجند من مدينة الزهراء في صبيحة يوم الخميس الخامس من محرم لتلقى القائد المظفر ، والمسير بين يديه ، وعلى رأسهم عدة من الفتيان ورؤساء الخدمة ، ودخل غالب قرطبة في عسكره ، وفي ركه الأشراف الأدارسة ، ونزل بفحص الناعورة ؛ ويصف لنا ابن حيان في تفصيل شاف موكب القائد غالب ، وركبه المظفر الفخم ، ومن كان يحف به أو يتبعه من الفرسان المدرعين وأهل الخدمة والصقالبة ، والعبيد الرماة وغيرهم من أصحاب الطبول والقرون والبندود والرايات . ودخل غالب في موكبه الفخم مدينة الزهراء من باب السدة ، ونفذ إلى القصر ، وأنزل الأدارسة الذين معه في المجالس القبلية بدار الجند . وكان الخليفة الحكم قد جلس لاستقباله في المجلس الشرقي المشرف على الرياض ، وقد حف به الإخوة ، وجلس من بعدهم الوزراء والحجّاب وأصحاب الشرطة والمدينة والقضاة وسائر أهل الخدمة ، كل في مكانه المعهود . واستقبل الخليفة زعماء الأدارسة ، وشيخهم حنون بن أحمد بن عيسى ، وشكر طاعتهم ، وعفا عن الحسن ، ووعدهم بالإحسان ، وأجاز لهم الأرزاق والصّلات^(٢) . وعين من حاشيتهم في ديوانه ، سبعائة من أنجادهم . واستمر الحسن وذووه على ذلك زهاء عامين . ثم وقعت

(١) راجع الكتاب المذكور في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٧٨ - ١٨٢ .

(٢) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٩٤ - ٢٠٠ .

النفرة بينه وبين الحكم لأسباب منها ، « سوء خلق الحسن ولجأته » . قال المؤرخ : « وكان الحسن بن قنون هذا جاهلاً متهوراً فظاً ، شديد الحرارة ، قاسى القلب » . ولم ينس الحكم ما كان من قسوته وفضاعته نحو جنده أيام الحرب بينهما ، حيث كان الحسن يلتقى بالأسرى من جند الأندلس من أعلى قلعته الشاخنة فيصلون إلى الأرض لإرباً^(١) . وهكذا ثقل وجوده وذووه في قرطبة . ومن جهة أخرى فقد كان الحاجب جعفر بن عثمان المصنفى يتوجس شراً من وجود الحسن وصحبه ، ويستثقل نفقاتهم ، وينصح بإخراجهم من الأندلس . فرأى الحكم أن يقصيمهم عن مملكته ، وأن يتخلص من نفقاتهم الباهظة ، وأن يبعث بهم إلى المشرق . وهكذا أخرج الحسن وعشيرته من قرطبة ، وركبوا البحر من ألمرية إلى تونس سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) ، ثم ساروا إلى مصر ، حيث نزلوا في كنف خليفتها الفاطمى العزيز بالله ، فأكرم وفادتهم ، ووعدهم بنصرة قضيتهم : واستقر الحسن بمصر بضعة أعوام ، حتى سنة ٣٧٣ هـ ، وعندئذ بعثه العزيز بعهد منه ، إلى بلكين بن زبرى بن مناد بالقيروان ، يطلب إليه إمداده وعونه ، على تنفيذ مشاريعه ، إلى أن كان من أمره ما سيحى^(٢) .

وكان غرسية فرناندز ، ولد فرنان كنثال ، صاحب قشتالة وألبه ، قد خلف أباه في الحكم ، منذ وفاته في سنة ٩٧٠ م . وكان مثله يتبع سياسة النفاق والمصانعة ، في إظهار رغبته في السلم ، ثم يقوم في الوقت نفسه بالإغارة على الأراضي الإسلامية ، كلما سنحت الفرص . فلما شغل الحكم بحوادث المغرب ، وعبرت الجيوش الأندلسية وقوادها الأكابر ، إلى العدو ، بعث غرسية قواته ، فأغارت على أراضي المسلمين ، واقتحمت حصن دسة الواقع شمال شرق مدينة سالم ، والذي يتوسط أراضي بنى عمريل بن تيملت الثغرى . ووقع هذا الاعتداء في شهر ذى الحجة سنة ٣٦٣ هـ (صيف سنة ٩٧٤ م) ، وأحرق النصارى الزروع واستاقوا الماشية ، فخرج في أثرهم زروال ومضاء ، ولدا عمريل ، واليا هذه

(١) « نبذ تاريخية في أخبار البربر » ص ١٠ و ١٤ .

(٢) راجع في سرد هذه الحوادث المغربية : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦١ - ٢٦٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢١٦ - ٢١٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٦ - ٨٨ . و « نبذ تاريخية في أخبار البربر » ص ٦ - ١٢ .

المنطقة ، في أصحابهما ، واستنقذوا الماشية ، وقتلوا عدداً من النصارى ؛ ولكن النصارى تكاثروا عليهم بعد ذلك ، ووقعت بين الفريقين معركة قتل فيها زروال . ومن الغريب أن غرسية فرناندز ، كان قبل هذا الاعتداء بقليل ، قد بعث رسله إلى قرطبة ، في طلب السلم والمهادنة ، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا ؛ وما كادوا ينصرفون من قرطبة ، حتى جاءت الأنباء بما حدث من اعتداء القشتاليين ، فبعث الحكم لقوره أفلح صاحب الخيل ، في سرية من وجوه الجند ، للقبض على السفراء القشتاليين ، فهرعت في أثرهم واستطاعت أن تظفر بهم ، وأعيدوا إلى قرطبة حيث زجوا إلى السجن .

ووفد على الحكم في العام التالي ، أبناء عمريل الخمسة بعد وفاة أبيهم ، وشهد القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن ، بحزمهم وحسن طاعتهم ، وأوصى بتقليدهم عمل والدهم ، فقسمت بينهم الأراضي والحصون ، على رضا منهم ، وغمرهم الحكم بالخلع والصلوات^(١) .

وكان من الأحداث البارزة في أواخر سنة ٣٦٣ هـ ، ما وقع من نكبة جعفر ويحيى ابني علي بن حمدون الأندلسي . وكانا قد استقرا في قرطبة ، في كنف الحكم وتحت سابغ رعايته . وكان الحكم قد ابتاع منهما عبيدهما الذين استعفوا من خدمتهما ، ودفع الثمن إليهما ، وتم فصل العبيد عنهما ، وضمهم الحكم إلى جنده لما كانوا يتصفون به من الشجاعة والبأس ، وكان لذلك فيما يبدو أثر سيئ في نفسيهما ، فقبل إنهما تكلما في حق الخليفة بما لا يحمد ، وجاهرا بامتداح خلفاء الشيعة ، سادتهم الأوائل ، ونمى ذلك إلى الحكم ، فأمر في الحال بالقبض عليهما ، وزجا مكبولين إلى سجن الزهراء . وكان ذلك في شوال سنة ٣٦٣ هـ ، ولبثا في المطبق بضعة أشهر ، حتى عاد الخليفة فعفا عنهما ، وأمر بإطلاق سراحهما ، وذلك في رجب من العام التالي ، فأقرا بالذنب وطلبا الإنابة والصفح ، فأسعفهما الخليفة بما طلبا ، وغمرهما بصلاته^(٢) .

(١) راجع ابن حيان في « المقتبس » قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ (ص ٧٣ و ١٨٨ و ١٨٩) .
وراجع بحثاً في ذلك الموضوع للعلامة كوديرا لعنوانه :

Embajadores de Castilla encarcelados en Córdoba de los últimos años de Alhakam II (B. R. A. H. Tom. XIV, 1889).

(٢) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٧١ - ١٧٤ .

وعمد الحكم في نفس الوقت إلى اصطناع البربر وفسادهم ، لما لقيه منهم في حربه ضد الحسينيين الأدارسة ، من المجالدة ووفرة البأس والشجاعة ، فأكرم وفادتهم ، وألحقهم بجنده ، وأجزل لهم العطاء . وكان في مقدمة هؤلاء بنو برزال الذين أبلوا من قبل في محاربة زيرى بن مناد الصنهاجى ، وكانوا قد عبروا إلى الأندلس ، وأغضى الحكم عن انخيازهم إلى مبادئ الخوارج الإباضية . وهكذا اجتمعت للحكم من عبيد جعفر ويحيى ومن داخلهم من أحرار البربر الوافدين ، قوة عسكرية بربرية تضم نحو سبعمائة فارس من خيرة الشجعان (١) .

وفي شهر جمادى الآخرة سنة ٣٦٤ هـ أصدر الحكم أوامره بإسقاط سدس المغرم (الضرائب) الواجب أدائه على سائر الرعايا عن هذه السنة ، وأنفذ بذلك مرسومه إلى سائر القواد والعمال بمختلف الكور ، وقرر أن يكون هذا السدس شائعاً في الناس يستوى في معرفته العالم منهم والجاهل ، وذلك ترفيهاً لهم وتحقيقاً لمصالحهم (٢) .

وفي شهر رجب من هذه السنة ، بعث الحكم ، نظراً لما بدا من تحركات النصارى في مختلف الأنحاء ، عدداً من أكابر رجال المملكة إلى كور الأندلس لحث أهلها على ارتباط الخيل ، والاستعداد لموازرة جيش الصائفة ، وكان ممن بعث من رجالاته صاحب الشرطة العليا ، يحيى بن عبيد الله بن يحيى ، بعثه إلى كور الجوف ، وبعث قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس إلى كور الشرق ، وبعث أحمد بن محمد بن سعد الجعفرى إلى الغرب ، نحو شتيرين وما إليها ، وبعث آخرين لنفس الغرض (٣) .

وفي أوائل شعبان سنة ٣٦٤ هـ (إبريل ٩٧٥ م) هاجم جيش مشترك من الجلالقة والقشتاليين والبشكنس ، حصن غرماج الواقع على نهر دويرة على مقربة

(١) ابن حيان - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٩١ و ١٩٢ .

(٢) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢٠٨ . وقد أورد لنا ابن حيان نص هذا المرسوم كاملاً (ص ٢٠٧ و ٢٠٨) وفيه يقرر الحكم أنه أصدر مرسومه المذكور « لما تظاهرت آلاء الله تعالى عليه ، وحسن بلائه عنده » وأنه « رأى أن يجدد له الشكر » ويمتدح منه المزيد بإسقاط سدس جميع مفروم الحشود الواجب تقاضيا منها لسنة أربع وستين وثلاثمائة ، تخفيفاً عن رعيته وإحساناً إلى أهل مملكته .

(٣) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢١٦ .

من مدينة سالم ، ونشب بينه وبين حاميته الإسلامية قتال عنيف . وشجع النصارى على انتهاك السلم المعقود بينهم وبين الخليفة ، اعتقادهم بأن قوى الأندلس كلها ما تزال مشغولة بحروب العدو . وانقلب النصارى لإزاء بسالة الحامية الإسلامية إلى محاصرة الحصن ، ووافتهم أمداد أخرى جاءت لتشد أزهمهم . وما كاد الحكم يقف على هذه الأنباء حتى بعث كبير قواده غالباً بن عبد الرحمن في قوة مختارة غادرت قرطبة على عجل . وبعث الحكم في أثرها أجمال المال للإنفاق على الصائفة . واستمر حصار النصارى لغرماج حتى شوال من تلك السنة . وجاءت للنصارى أمداد جديدة من جند ليون ، سيرتها الراهبة للبرية الوصية على ملك ليون ، ناكثة بذلك عهدا في التهادن والسلم . وفي منتصف شوال ، هاجم النصارى الحصن ، وهم في أكثر من ستين ألفاً ، محاولين اقتحامه ، ونشبت بينهم وبين الحامية الإسلامية معركة طاحنة انتهت بهزيمة النصارى وتبديد شملهم ، فبادرت صفوفهم بالارتداد عن الحصن بعد أن فقدوا كثيراً من جندهم وعتادهم ، وطاردتهم المسلمون ، قتلوا منهم جموعاً أخرى ، وأحرزوا غنائم جمة . وبعث المسلمون إلى الوزير غالب ، وهو مقرب منهم لنصرتهم ، نبأ هذا الظفر ، فأنفذه من فوره إلى الخليفة ، وسار إلى الحصن ونزل به ، ثم خرج في قواته ، فعاث حيناً في أراضى قشتالة ، وانتسف الزروع ، وخرب القرى ، وتقدمت قوة بعث بها غرسية فرنانديز صاحب قشتالة المدافعة المسلمين ، فهزمت وردت إلى أعقابها (١) .

* * *

تولى الحكم المستنصر الملك ، حسبما أسلفنا ، وهو كهل في الثامنة والأربعين من عمره ، ولم يكن إلى ذلك الحين قد أنجب ولداً ، وكان ذلك مما يثير قلقه وجزعه ، إذ كان يتوق أن يكون له وريث في الملك . ومن ثم فقد سرّياً سرور حينما ولدت له حظيته « جعفر » أو صبح النافارية ، ولداً سماه عبد الرحمن (سنة ٣٥١ هـ - ٩٦٢ م) ، وكان مولده حادثاً خطيراً ، نوهت به الشعراء والأدباء . ولكن هذا الولد توفي طفلاً ، فحزن الحكم لفقده أيما حزن . على أن القدر لم يلبث

(١) المقتبس - قطعة أكاديمية للتاريخ ص ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٢٤ - ٢٢٧ .

أن حباه مرة أخرى ، إذ ولدت «جعفر» ولدأ آخر سماه أبوه هشاماً وكنيته أبو الوليد ، فكان ولي عهده الملقب بالمؤيد . « فعظم استبشاره به وسروره بموهبة الله فيه »^(١). وحضر الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي وقت البشارة بولادته ، وأنشد هذه الأبيات :

أطلع البدر في صحابه وأطرف السيف من قرابه
وجاءنا وارث المعالي ليثبت الملك في نصابه
بشرنا سيد البرايا بنعمة الله في كتابه

وكان مولد هشام المؤيد سنة ٣٥٤هـ (٩٦٥م) ، وكان مؤدبه مذ بلغ الثامنة من عمره الفقيه أحمد بن محمد بن يوسف القسطلی ، وقد أمر الحكم بأن تعد لتعليمه الدار المعروفة بدار الملك بقصر الزهراء ، وأن تزود بجميع ما يحتاج إليه لذلك . وكان قعود هشام مع مؤدبه في المجلس الشرقي منها في رمضان سنة ٣٦١هـ . وندب الحكم وصيفه الفتى ذكاء ناظراً للأمر متكفلاً بشئونه^(٢). وفي أواخر سنة ٣٦٣هـ ندب الخليفة العلامة النجوى أبا بكر الزبيدي الإشبيلي ليقوم بتدريس العربية وعلومها لولى العهد . وفي العام التالي ندب الفقيه المحدث يحيى بن عبد الله ابن يحيى ليقوم بإسماعه الحديث . وكان يومئذ عمدة المحدثين بقرطبة^(٣) . وسنرى أى دور عظيم تلعبه فيما بعد ، أم هشام جعفر أو أصبح النافارية ، على مسرح الحوادث .

وأما عن شخص الحكم ، فقد كان حسباً تصفه الرواية ، أبيض مشرباً بحمرة ، أعين ، أفنى ، جهير الصوت ، قصير الساقين ، ضخم الجسم ، غليظ العنق ، عظيم السواعد ، أفقم^(٤) .

* * *

يمتاز عصر الحكم المستنصر بظاهرة ، من ألمع الظواهر في تاريخ الدولة

-
- (١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ و ٢٥٣ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٤٣ .
(٢) ابن حبان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧٦ و ٧٧ .
(٣) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٣٣ و ٢١٦ .
(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ . والأعين هو ذو العينين السوداوين النجلوين ، والأفنى ذو الأنف المرتفع الأعلى والمحدود الوسط ، والأفقم أى الأعرج .

الأندلسية ، هي ازدهار العلوم والآداب أعظم ازدهار ، وإنشاء المكتبة الأموية العظيمة ، التي كانت بضخامتها ، وتنوع محتوياتها ، من أعظم مكتبات العصور الوسطى .

ويرجع ذلك قبل كل شيء إلى شخصية الحكم نفسه ، وإلى صفاته العلمية الممتازة ، التي نوه بها أكثر من مؤرخ أندلسي ، وإلى شغفه العظيم بجمع الكتب ، وهو شغف كان له أكبر الأثر في مليء خزائن الأندلس بنفائس الكتب ، من كل فن ومن كل قطر ، من أقطار العالم الإسلامي .

وقد أشاد ابن حيان مؤرخ الأندلس - وقد عاش قريباً من عصر الحكم - بصفات الحكم العلمية ، وتقدمه في العلوم الشرعية ، وعنايته بتحقيق الأنساب وتأليف قبائل العرب ، واستدعاء رواة الحديث من جميع الآفاق ، وإثارة مجالس العلماء ، وشغفه بجمع الكتب بصورة لم يسمع بها^(١) . ويشاطره معاصره الفيلسوف ابن حزم ، هذا الإعجاب بصفات الحكم العلمية ، ويذكر لنا في أكثر من موضع من مؤلفه الجامع في الأنساب ، أنه ينقل من خط الحكم^(٢) . ويحمل ابن الخطيب هذه الصفات في قوله : « وكان رحمه الله (أى الحكم) عالماً فقيهاً بالمذاهب ، إماماً في معرفة الأنساب ، حافظاً للتاريخ ، جامعاً للكتب ، مبرزاً للرجال من كل عالم وجيل ، وفي كل مصر وأوان ، تجرد لذلك ، وتهتم به ، فكان حجة وقدوة ، وأصلاً يوقف عنده »^(٣) .

وقد انتهت إلينا تفاصيل مدهشة عن الدور العظيم الذي قام به الحكم في إنشاء المكتبة الأموية الكبرى . وكانت هذه النزعة الأموية ، إلى تشجيع العلوم والآداب وجمع الكتب ، قد بدت منذ عصر عبد الرحمن الداخل . وفي عهد الأمير محمد ابن عبد الرحمن كانت المكتبة الأموية بالقصر ، أعظم مكتبات قرطبة . وكان عبد الرحمن الناصر يشغف بجمع نفائس الكتب من سائر الآفاق ، حتى أن قيصر

(١) الحلة السيرة ، نقل عن ابن حيان ص ١٠١ و ١٠٢ .

(٢) جبهة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٢٨١ و ٢٨٢ و ٢٩٢ و ٣٧٤ و ٣٧٥ المغرب ، (نفيع الطيب ج ٢ ص ٧٩) .

(٣) أعمال الأعلام ص ٤١ .

قسطنطينية حينما أرسل إليه سفارته الشهيرة ، حرص على أن يهديه كتابين من ذخائر الأقدمين هما كتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية وتاريخ أورسيوس . ولما توفي الناصر ، عني ولده الحكم بجمع مكتبات القصر وتنظيمها ، لتكون بداية طيبة للمكتبة الأموية العظيمة ، التي أنفق بقية عمره في جمعها وتنسيقها^(١) . ويقول لنا ابن حيان في دهشة وإعجاب إنه « لم يسمع في الإسلام بخليفة ، بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين ، وإيثارها والتهمم بها . أفاد على العلم ، ونوه بأهله ، ورغب الناس في طلبه ، ووصلت عطاياه ووصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية » . وكان الحكم يبعث إلى أكابر العلماء المسلمين من كل قطر ، بالصلوات الحزيلة ، للحصول على النسخ الأولى من مؤلفاتهم . ومن ذلك أنه بعث إلى أبي الفرج الأصفهاني ألف دينار من الذهب العين ، ليحصل منه على نسخة من كتابه « الأغاني » . فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة ، قبل أن يحصل عليه أحد في العراق أو ينسخه أحد منهم ، وأرسل إليه أبو الفرج أيضاً — وهو ممن ينتمون إلى المروانية بنى أمية — كتاباً ألفه في أنساب قومه بنى أمية ، يشيد فيه بمجدهم ومآثرهم ، فجدد له الحكم الصلة الحزيلة^(٢) . وفعل الحكم مثله ذلك مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي ، إذ بعث إليه بمبلغ جليل ليحصل على النسخة الأولى من شرحه مختصر ابن عبد الحكم . وأسبغ الحكم رعايته على اللغوي الكبير أبي علي القالي ، الذي وفد من العراق على أبيه الناصر ، وقربه إليه ، وألف كتبه تحت كنفه ، وأورث أهل الأندلس علمه^(٣) . وأهدى إليه أبو عبد الله الحشني بعض كتبه ومنها كتاب « القضاة » أو « قضاة قرطبة »^(٤) ؛ وأهدى إليه مطرف ابن عيسى الغساني ، كتابه المسمى بالمعارف في « أخبار كورة إلىيرة » ، كما أهدى إليه كثير من علماء العصر مؤلفاتهم ، تيحناً برعايته للعلم والعلماء . وكان للحكم طائفة من مهرة الوراقين بسائر البلاد ، ولاسيما في بغداد والقاهرة ودمشق ، يتقبون له عن الكتب ، ويحصلون منها على النفيس والناذر ، كما كانت له في بلاطه طائفة

(١) J. Ribera : *Disertaciones y Opusculos* (Madrid 1938) p. 191 & 192

(٢) الحلة السيرة — عن ابن حيان ص ١٠٢ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

(٤) راجع كتاب قضاة قرطبة للحشني (المقدمة) .

أخرى ، من البارعين في نسخ الكتب ، وتحقيقها ، وتجليدها ، وتصنيفها . وبذل في هذا السبيل من الجهود والأموال ما لم يسمع به ، واجتمع لديه من نفائس الكتب في مختلف العلوم ، ما لم يجتمع لأحد قبله . ولما ضاقت أبهاء القصر الخلفي ، عن استيعاب العدد العظيم ، من الكتب الواردة إليها باستمرار ، أنشأ الحكم على مقربة من القصر صرحاً عظيماً خاصاً بالمكتبة ، افتن المهندسون في ترتيبه وتنسيقه ، وإنارة أبهائه . قال ابن حزم « ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم » وذكر لنا أن تليداً الفتي — وكان على خزانة العلوم بقصر بني أمية بالأندلس — أخبره أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، في كل فهرسة خمسون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط (١) .

وعهد الحكم بإدارة المكتبة الأموية العظيمة إلى أخيه عبد العزيز . وعهد بالإشراف على جامعة قرطبة وأسانتدتها إلى أخيه المنذر . وكان يقضى معظم أوقاته بمدينة الزهراء ، في أبهائها المنيفة وظلالها الهادئة ، معتكفاً على القراءة والدرس برفقة صفيه محمد بن يوسف الحجاري ، الذي كتب له تاريخ الأندلس والمغرب ، وتواريخ أخرى لبعض المدن . وكان من أصفياه في تلك المجالس أيضاً ، الفتي سابور الفارسي ، الذي قدم بدعوته إلى قرطبة ، واختاره ليكون وصيفاً خاصاً له ، وكان من أعلم أهل عصره (٢) .

ولم يكن هذا الشغف بجمع الكتب ، في عصر الحكم ، قاصراً على الأمير ، فقد غنى كثير من كبراء العصر وعلمائه ، بإنشاء مكتبات خاصة زاخرة بنفائس الكتب . وشغف النساء المثقفات كذلك بجمع الكتب ، وإنشاء المكتبات ، ومن أشهر هؤلاء عائشة بنت أحمد بن قادم ، وكانت من أبرع نساء عصرها ، علماً وأدباً وشعراً ، وكانت خزانة كتبها من أغنى وأقيم المكتبات الخاصة . وكانت سوق الكتب في قرطبة ، من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة . بل لقد سرى هذا الشغف باقتناء الكتب إلى النصارى واليهود أنفسهم ، وكان الكثير منهم يجيدون اللغة العربية ، ويتذوقون ثمرات التفكير العربي من أدب وشعر وفلسفة وغيرها . وكان من أشهر هؤلاء الطيب اليهودي حسداي ، طيب الحكم الخاص ، وفي

(١) جهرة أنساب العرب ص ٩٢ . ونقلها ابن الأبار في الحلة السيرة ص ١٠٣ .

(٢) Modesto Lafuente : Historia General de Espana ; T. III, p. 337.

ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية ، وألفوا بها مختلف الكتب ، وكان من أشهر المكتبات الأندلسية الخاصة فيما بعد ، مكتبة يوسف بن إسماعيل ابن نغالة اليهودي ، وزير باديس أمير غرناطة^(١) .

ولم بجانب هذا الشغف بالكتب والثقافة العالية ، كان التعليم العام في عهد الحكم يجوز نهضة عظيمة ، وكان أبناء الشعب جميعاً يعرفون القراءة والكتابة ، هذا بينما كان أرفع الناس مكانة في أوروبا — خلا رجال الدين — لا يعرفون . وأسس الحكم عدداً كبيراً من المدارس يتعلم فيها الفقراء مجاناً . أما جامعة قرطبة ، فقد كانت يومئذ من أشهر جامعات العالم ، وكان مركزها في المسجد الجامع ، وتدرس في حلقاتها مختلف العلوم ، وكان يدرس الحديث أبو بكر ابن معاوية القرشي ، ويملي أبو علي القالي ضيف الأندلس دروسه عن العرب قبل الإسلام ، وعن لغتهم وشعرهم وأمثالهم ، وكان ابن القوطية يدرس النحو ، وكان يدرس باقي العلوم أساتذة من أعلام العصر ، وكان الطلبة يعدون بالآلاف^(٢) .

وكان الحكم يسبغ رعايته على سائر العلماء من مختلف الملل والنحل ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين . ومن شواهد هذه الرعاية أن الأسقف العالم ريشموندو الإلبيري ، المسمى باسمه العربي ، ربيع بن زيد ، كان أثيراً لديه متمتعاً برعايته ، لتبحره في علم الفلك ، والعلوم الفلسفية ، وهي من الدراسات التي كان يعنى بها الحكم . وكان هذا الجبر القرطبي عالماً مبرزاً ، متمكناً من الآداب العربية واللاتينية ، وكان الناصر والد الحكم يقدر علمه ومواهبه ، ويحبه بعطفه ورعايته بالرغم من نصرانيته ، وكان يشغل مكانة هامة في القصر^(٣) .

يقول العلامة دوزي : « وعلى العموم فإن إغداق الحكم على العلماء الإسبان والأجانب لم يعرف حداً ، وقد كانوا يهرعون إلى بلاطه . وكان المليك يشجعهم ويوليهم رعايته ، حتى الفلاسفة استطاعوا في ظله أن ينصرفوا إلى بحوثهم دون

(١) كتاب الصلة لابن بشكوال (القاهة) ج ٢ ص ٦٥٤ ، وكذلك J. Ribera : *ibid.*

p. 199—202

(٢) Dozy : *Histoire des Musulmans d'Espagne*, Vol. II, p. 184 & 185

F. J. Simonet : *Historia de los Mozarabes de Espana* (Madrid 1897), (٣)

p. 607 & 612.

خوف من أن يقتلهم الأتقياء الورعون»^(١)..

ويبدى النقد الحديث تقديره وإعجابه بتلك النزعة العلمية التي امتاز بها الحكم ، والتي سادت كل عصره . فثلاً يقول لنا المؤرخ الإسباني موديستولا فونتي : « كانت دولة الحكم الثاني دولة الآداب والحضارة ، كما كانت دولة أبيه دولة العظمة والبهاء . وإن الرواية العربية لتحبو الحكم بكثير من جميل الذكر ، فهل نغضى نحن عن تسجيل إعجابنا بما لهذا الأموى المستنير من الصفات الباهرة ، لأنه كان مسلماً ولم يكن نصرانياً؟ إن ذلك يعنى أننا ننكر فضائل أمثال أوغسطوس وتراجان وأدريان وماركوس أوريليوس ، لأن أولئك القياصرة العظام لم يكونوا نصارى . إن السلم الذى وطده أكتافوس فى اسبانيا الرومانية ، قد وطده الحكم فى اسبانيا العربية ؛ وقد قدم الحكم ، كما قدم أكتافوس من قبل ، الأدلة على أن الرغبة فى السلم ، لم تكن لأنه لا يعرف الحرب ولا النصر ، ولكن لأنه كان يؤثر إلهام القريض ، ويؤثر الكتب على خزائن السلاح ، وإكليل الجامعات الحقيقى على إكليل الحروب الدموى .

لقد أعيد عصر أوغسطوس فى اسبانيا بعد ألف عام فى صورة جديدة ، وقد تحول بلاط قرطبة إلى نوع من الأكاديمية العظيمة ، وأغدق على ثمرات العبقريّة فيض الإغداق والكرم الرائع ، ونستطيع أن نقدر مدى التضحيات العظيمة ، ومدى الصبر ، والمثابرة ، والنفقات التي أمكن أن يتحقق بها إنشاء تلك المجموعة المدهشة ، من أربعائة ألف إلى ستمائة ألف مخطوط ، هى محتويات مكتبة قصر بنى مروان » .

ثم يشير موديستولا فونتي بعد ذلك إلى أن هذا المستودع الزاخر من ثمرات العقل ، وتلك الحضارة التي وصل إليها العرب فى عصر الحكم ، كانت قد وضعت بذورها من قبل ، وتعاقب أمراء بنى أمية منذ عبد الرحمن الداخل فى تعهدىها بالغرس والنماء ، وقد كانوا جميعاً من أهل العلم والآداب ، ومن حماة العلوم والآداب . ثم يختتم تعليقه على عصر الحكم بقوله :

« لقد جاء هذا الخليفة الشهير الذى يعشق الآداب فى عهد سعيد من السلم ، ولما كانت بذور التمدن موجودة من قبل ، فقد تفتحت فى ظل رعايته ، وازدهر

الغرس ازدهاراً عظيماً ، حتى أنه بعد الحرث الكثير ، والمطر الغزير ، بدت شمس وضاعة رائعة منعشة (١) .

وقد اختلف في تقدير محتويات المكتبة الأموية العظيمة ، التي أنشأها الحكم المستنصر ، فقدرها بعض المؤرخين بأربعمائة ألف مجلد ، وقدرها البعض الآخر بستائة ألف (٢) . وكانت توجد في قواعد الأندلس الأخرى ، عدا مكتبة قرطبة العظيمة زهاء سبعين مكتبة أخرى (٣) . وهذا وحده يكفي للدلالة على مدى التقدم العظيم ، الذي بلغته الحركة الفكرية والأدبية في الأندلس ، في هذا العصر الزاهر . ولبت المكتبة الأموية العظيمة قائمة بقصر قرطبة ، حتى وقعت الفتنة الكبرى في سنة ٤٠٠ هـ ، وحاصر البربر قرطبة ، فأخرجت معظم الكتب من خرائنها خلال الحصار ، وبيعت بأمر الفتى واضح مولى المنصور بن أبي عامر ، ثم نهب ما تبقى منها عند اقتحام البربر لقرطبة ، حسبما نذكر بعد (٤) .

* * *

وشعر الحكم في أواخر عهده ، بأعراض الضعف والمرض تدب إليه ، فانتقل من قصر الزهراء وفقاً لنصح أطبائه ، لغلبة برد الجبل عليه ، وقضى حيناً في منية ناصح ، ومنية الناعورة ، ثم انتقل إلى قصر قرطبة . وعقد العزم على تأمين ولاية العهد لولده الطفل هشام . وتم ذلك في شهر جمادى الثانية سنة ٣٦٥ هـ (٥ فبراير سنة ٩٧٦ م) حيث جلس الحكم بقصر قرطبة ، وأعلن عزمه في تقليد ولده عهد الخلافة من بعده ، وأخذت البيعة بالفعل من الحاضرين ، وأخرجت كتبها لسائر الخاصة والعامة . وتولى أخذها على الناس وفق مراتبهم ، محمد بن أبي عامر ، وهو يومئذ صاحب الشرطة والمواريث ، وكان من قبل كافلاً لهشام ، وميسور الفتى الكاتب مولى صبح ، ثم دعى لهشام في الخطبة بالأندلس والمغرب ، ونقش اسمه في السكة .

Modesto Lafuente : Historia General de España (Barcelona 1869), (١)

Tom. II ; p. 364 - 367.

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ١٨٤ .

Prescott : Ferdinand and Isabella of Spain, p. 187.

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

وينعى ابن حيان على الحكم هذه السياسة في اختيار ولده الطفل لولاية العهد ، فيقول إنه أى الحكم على ما وصف من رجاحة « كان ممن استهواهم حب الولد ، وأفرط فيه ، وخالف الحزم في توريثه الملك بعده ، في سن الصبا دون مشيخة الأخوة ، وفتيان العشرة ، ومن يكمل للإمامة بلا محاباة ، فرط هوى ، ووهلة انتقدها الناس على الحكم ، وعدوها الخانية على دولته . وقد كان يعيها على ولد العباس قبله ، فأتاها هو مختاراً ولا مرد لأمر الله » .

وأصيب الحكم بعد ذلك بقليل ، بشلل أقعده عن الخروج والحركة ، ويقول لنا ابن حيان إن الحكم كان يعاني من هذه « العلة الفالجية » ولا يكاد يستفيق منها^(١) فلزم فراشه ، وتولى تدبير الشئون خلال مرضه ، وزيره جعفر بن عثمان المصحفي . ثم توفي بعد ذلك بأشهر قلائل ، في اليوم الثاني من صفر سنة ٣٦٦ هـ (٣٠ سبتمبر سنة ٩٧٦ م)^(٢) .

* * *

وكان الحكم المستنصر من خيرة أمراء بني أمية خلقاً وعلماً وعدلاً . وتنوه الرواية الإسلامية في غير موطن بجميل خلاله وصفاته . فيقول لنا ابن الأبار : « وكان حسن السيرة ، فاضلاً عادلاً ، مشغوفاً بالعلوم »^(٣) . ويقول لنا ابن الخطيب : « وإليه انتهت الأبهاء والجلالة ، والعلم والأصالة ، والآثار الباقية ، والحسنات الراقية »^(٤) . وكان الحكم من ذوى الورع والتقوى ، تشهد بذلك عنايته الفائقة بأمر المسجد الجامع ، وتوسعته وإنشاء منبره الحديد ، وتزويده بالماء بطريقة هندسية بدیعة ، وما بذله في سبيل ذلك من النفقات الطائلة ، ويشهد بذلك أيضاً تشدده في محاربة الخمر وإراقها^(٥) . وكان محباً للعدل معنياً بإقامته ، شديداً في محاسبة الطغاة من العمال والحكام ، يؤيد ذلك ما رواه صاحب

(١) المقتبس - قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ ص ٢١١ .

(٢) تقع معظم الروايات وفاة الحكم في هذا التاريخ (الحلة السيرة ص ١٠١ ، وفتح الطيب ج ١ ص ١٨٥ ، وابن الخطيب عن ابن حيان ، في أعمال الأعلام ص ٥٦) . ولكن صاحب البيان المغرب ينفرد بالقول بأن وفاته كانت في الثالث من رمضان سنة ٣٦٦ هـ .

(٣) الحلة السيرة ص ١٠١ .

(٤) أعمال الأعلام ص ٤٩ .

(٥) الحلة السيرة ص ١٠٣ .

البيان المغرب من أنه أرسل غير مرة إلى الحكام الظلمة ، يحذرهم من سطوته ، وإلى القواد والعمال ، يحذرهم من سفك الدم بلا موجب^(١) .

وكان من أعمال الحكم الإنشائية أيضاً إصلاح قنطرة قرطبة العظيمة على نهر الوادى الكبير ، وتقوية دعائمها التى وهنت بمضى الزمن (سنة ٣٦١ هـ) ، وإشرافه على ذلك بنفسه^(٢) .

وكان الحكم عارفاً بأقدار الرجال ، مميزاً للناهين منهم ، وقد جمع فى حكومته وبلاطه جمهرة من أعظم رجال العصر والمعهم . وكان فى مقدمة هؤلاء ، كبيرهم وزعيمهم الحاجب جعفر بن عثمان بن نصر المصحفى . وكان جعفر ينتمى إلى بطن من بطون البربر من بلنسية ، وتولى أبوه عثمان أيام الناصر تأديب ولده الحكم ، وهكذا نشأت بين الحكم وبين ولد أستاذه ومؤدبه جعفر مودة عميقة ، فلما أسندت إليه ولاية العهد ، قدم جعفر فى الأعمال واستخدمه فى الكتابة ، ثم ولاه الناصر بعد ذلك حكم جزيرة ميورقة . ولما ولى الحكم الخلافة استوزره وأمضاه على كتابة الخاصة ، وضم إليه بعد ذلك ولاية الشرطة ، ثم تولى بعد ذلك منصب الحجابة أى رئاسة الوزارة ، خلفاً للحاجب جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي ، وأصبح أول رجل فى الدولة ، واجتمعت لديه سائر السلطات ، ولما رزق الحكم بولده هشام اختار جعفر كافلاً له ، واستمر جعفر هو القائم بدولة الحكم حتى وفاته . وكان المصحفى من أساطين الكتابة والشعر وله شعر حسن ، أورد لنا منه ابن الأبار مختارات رقيقة مشرقة تدل على تمكنه^(٣) .

وكان من أشهر أعمال المصحفى فى بداية عهد الحكم أن قدم إليه هديته الباذخة ، التى حاول أن يبرز فيها هدية الوزير ابن شهيد إلى الناصر . وقد أورد لنا ابن حيان فى المقتبس وصفاً لمحتويات هذه الهدية الشهيرة وهى : مائة مملوك من الفرنج ناشئة على خيول صافنة كاملو العدة والسلاح ، وثلاثمائة وعشرون درعاً مختلفة الأجناس ، وثلثمائة خوذة كذلك ، ومائة بيضة هندية ، وخمسون خوذة

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٢) ابن حيان فى المقتبس - قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ السابق الإشارة إليها

ص ٦٤ و ٦٥ .

(٣) راجع ترجمة جعفر المصحفى ومختارات من شعره ، فى «الحلة السيرة» ص ١٤١-١٤٧ .

حبشية من حبشيات الإفرنجية ، وثلاثمائة حربية لإفرنجية ، ومائة ترس سلطانية ، وعشرة جواشن مذهبة ، وخمسة وعشرون قرناً مذهبة من قرون الجاموس^(١) . وكانت هدية المصحفي للحكم ، من أشهر الحوادث الاجتماعية في هذا العصر .

وكان من أكابر دولة الحكم أيضاً ، القائد غالب بن عبد الرحمن الناصري صاحب مدينة سالم ، وكان مولى لأبيه الناصر . وكان غالب ، فضلاً عن كونه من نصحاء الحكم ، ومستشاريه المقربين ، من أعظم قادة الأندلس ورجالاتها في هذا العصر ، وكان الحكم ، عرفاناً منه بقدر هذا القائد المظفر ، قد أسند إليه القيادة العليا ، وأصدر مرسومه بذلك إليه في سنة ٣٦١ هـ ، وذلك « لغناؤه وجميل مقامه » . ثم عاد على أثر انتصاره في موقعة حصن غرماج في سنة ٣٦٤ هـ ، فقلده سيفين مذهبين من ذخائر سيوفه ، وسماه « ذا السيفين »^(٢) ، وكان منهم أيضاً الوزير يحيى بن محمد التجيبي ، والقائد سعيد بن الحكم الجعفري ، وكلاهما من أعظم الوزراء والقادة ، وقد برز كلاهما في غزوات الصوائف ، وحوادث المغرب الأقصى .

وكان من كتاب الحكم عيسى بن فطيس ، ومن قضاته منذر بن سعيد البلوطي كبير القضاة في عهد أبيه الناصر ، ثم أبو بكر محمد بن السليم . وكان الحكم ، بالرغم مما كان يسود الممالك الإسبانية النصرانية في عهده من جنوح إلى المهادنة والسلم ، يرقب حركاتها وتصرفاتها بعناية ، وقد رتب لذلك بعض عماله المهرة المخلصين المعروفين بصدق الخدمة ، وفي مقدمتهم ابن أبي عمرو العريف ، وصاحبه سعيد ، للسفارة بينه وبين ملوك جليقية ، ولقاء قواميسها ، والتردد عليهم « للتعرف على أخبارهم ، والتجسس لأنبأهم » وحمل الكتب إليهم في كل وقت ، وصرفها عنهم ، وهو ما يفصح عن بعض الوسائل التي كان يلجأ إليها بلاط قرطبة للإحاطة بأخبار الممالك النصرانية ونياتها^(٣) . وكان الحكم شاعراً مطبوعاً ينظم القريض الرقيق ؛ وما ينسب إليه قوله :
إلى الله أشكو من شمائل مسرف
على ظلوم لا يدين بما دنت

(١) ابن خلدون في كتاب العبر ج ٤ ص ١٤٤ .

(٢) راجع المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٦٩ و ٢٢٠ .

(٣) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧٦ .

نأت عنه دارى فاستزاد صلوده ولانى على وجدى القديم كما كنت
ولو كنت أدري أن شوقى بالغ من الوجد ما بلغته لم أكن بنت
وقوله :

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت وكيف انثنت بعد الوداع يدي معي
فيما قلتي العبرا عليها اسكبي دماً ويا كبدي الحراً عليها تقطعي

• • •

ونلاحظ أخيراً أن بلاط قرطبة ، كان في أيام الحكم المستنصر ، يبدو في
بهى أثوابه الملوكة والخلافة ، وكان جلوس الحكم في أيام الأعياد أو لاستقبال
الوافدين والسفراء من أيام قرطبة المشهودة . وقد أفاض ابن حيان في وصف
هذه الأيام والحفلات الباذخة . ويبدو مما كتبه أن الخليفة الحكم ، كان يؤثر
الجلوس في هذه الأيام بالجلس الشرقي من قصر الزهراء ، ويجلس عن يمينه
ويساره إخوته بترتيب السن ؛ ثم يليهم في ترتيب الجلوس ، الوزراء ، يجلسون
بعد فرجتين ، إلى اليمين وإلى اليسار ، ويلى ذلك صاحب المدينة بقرطبة ، ويجلس
إلى اليمين ، وإلى جانبه صاحب المدينة بالزهراء ، ثم يجلس من بعدهم صاحب
الحشم ، فصاحب الخيل ، فأصحاب الشرطة العليا والوسطى ، وسائر طبقات أهل
الخدمة وفق مراتبهم ، وقاضى الجماعة ، والحكام وأصحاب الشرطة الصغرى ،
وأسياد الخلافة ، وجلة قريش ، ثم وجوه الموالي ، ثم قضاة الكور والفقهاء
المشاورون والعدول ، وأعيان قرطبة . ويصطف الحند في أثوابهم الزاهية ،
منذ مدخل القصر حتى الممر المفضى إلى مجلس الخليفة ، وقد أورد لنا ابن حيان
وصف هذا النظام في مختلف المناسبات الرسمية ، مما يدل على أنه هو نظام البروتوكول
(المراسم) الثابت الذى كان يتبعه بلاط قرطبة في هذا العهد عند جلوس الخليفة
للمناسبات الرسمية الكبرى (١) .

ويجب أن نلاحظ من ذلك الوقت التطور العظيم ، الذى حدث في تكوين
المجتمع الأندلسي . فقبل عهد الناصر كانت الرياسة والأرستقراطية ، تنحصر في
القبائل العربية . وكان البربر يحتلون مقاماً أدنى . وكانت المعارك يضطرم لظاها

(١) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢٩ و ٤٩ و ٥٠ و ٥٧ و ٨١

باستمرار بين السلطة المركزية أعنى بين الإماوة وبين العصبية العربية ، التي تحاول دائماً أن تقيم رياستها في الثغور والمدن على أساس الاستقلال الحلى . وقد استمرت هذه المعارك عصوراً ، منذ عبد الرحمن الداخل ، حتى جاء الناصر ، فشدد في مطاردة العصبية العربية وتحطيمها ، وآثر أن يعهد بالرياسة والسلطات المحلية إلى طوائف الصقالبة حسبما شرحنا ذلك من قبل . وفى عهد الحكم المستنصر كانت الأرستقراطية العربية ، قد اضمحلت ، وغاض نفوذها ، واختفت كقوة سياسية واجتماعية تحشاها السلطة المركزية ، وإن كانت قد بقيت كطبقة من الطبقات ، وحامت محلها أرستقراطية من نوع جديد ، قوامها القادة والرؤساء العسكريون ، من الموالى والصقالبة ، فكانت بذلك أرستقراطية سيف ، وليست أرستقراطية قبيل أو عصبية ، وبلغ الفتيان الصقالبة أيام الحكم ، ذروة القوة والنفوذ والثراء ، مثلما كانوا أيام أبيه الناصر . ويكفى أن نذكر هنا دليلاً على ضخامة ثراء هؤلاء القوم ، أن أحدهم وهو الفتى الكبير درى الخازن ، قام بإهداء مولاه الخليفة الحكم ، منيته الغراء بوادى الرمان من ضواحي قرطبة ، وكان قد أنشأها مغنى ومتزهاً ، وأفاض عليها أروع صنوف البذخ والبهاء ، وجعلها رياضاً ومنشآتاً جنة حققة . وقد قبل الحكم هدية فتاه ، وقام بزيارة هذه المنية مع ولى عهده هشام وحاشيته ، وأنفق فيها يوم استجمام ومسرة . وقد أجمع الخليفة ومرافقوه على أنهم « لم يشاهدوا فى المتنزهات السلطانية أكمل ولا أعذب ولا أعم من صنيع درى هذا »^(١) . وهذا وأما الطبقة الوسطى فقد انحصرت فى التجار ورجال الصناعة وغيرهم ممن استطاعوا أن يحرزوا بالتجارة والفنون فى مختلف القواعد ثروات عظيمة . ويأتى بعد الطبقة الوسطى ، طبقات الشعب الكادحة ، وكانت على نحو ما يحدث فى كل زمان ومكان ، تبغض الطوائف الميسورة ، وتنقم عليها نعماء العيش .

وكانت ثمة طبقة أخرى ، ذات مميزات خاصة ، هى طبقة المولدين أو بعبارة أخرى مسلمو الإسبان ، وكانت تحتل مكانها بين الطبقات المتوسطة والميسورة . وكان بينها الكثيرون من أحرزوا الحياه والنفوذ والثراء . بيد أن المولدين بالرغم من إسلامهم ، كانوا يعتبرون أقل مكانة من المسلمين الأصليين . وكان المعروف

(١) ابن حيان فى المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٠٧ .

من أصولهم دائماً ، أنهم كانوا على الأغلب عبيداً أو مسترقين من القوط ، دخلوا في الإسلام اجتناء للحرية . وقد زاد عدد المولدين زيادة كبيرة ، منذ عهد عبد الرحمن ابن الحكم ، حيث دخل كثير من النصارى المعاهدين في الإسلام ، حينما اشتدت وطأة حكومة قرطبة عليهم ، أيام الفتن التي حاولوا إثارتها لإشاعة الإضطراب والفوضى ، حسبما فصلنا ذلك في موضعه . وبذلك ازداد عدد المولدين زيادة كبيرة ، منذ أوائل القرن التاسع الميلادى ، وغدوا في ظل الخلافة أيام الناصر وولده الحكم ، يمثلون أقلية كبيرة بين الأمة الأندلسية .

وأما الطبقة المسترقة أو طبقة العبيد ، فكانت في تلك العصور تتألف من العمال العبيد ، الذين يلحقون في الغالب بالضيايع . وكان هذا النظام موجوداً منذ أيام القوط ، ولكنه طبق أيام المسلمين ، بصورة أفضل بكثير مما كان عليه ، ومنح هؤلاء العمال حقوقاً إجتماعية وإنسانية ، رفعت عنهم كثيراً من صور العبودية القديمة ، التي كانت تعطى للسيد عليهم حق الحياة والموت ، والبيع والشراء . ويلحق بغير الأحرار أيضاً طبقة الصقالبة والخصيان . بيد أن هذه الطبقة كانت تحتل مكانة ملحوظة في المجتمع ، وكان لها في الحكومة والقصر ، إيما نفوذ ، وقد ظهر منها زعماء وقادة وصلوا إلى مراكز عظيمة ، وكان لهم فيما بعد شأن يذكر ، في تطور الحوادث التي أعقبت انهيار الخلافة الأندلسية .

وإلى جانب هذه الطبقات المختلفة ، التي تتألف منها الأمة الأندلسية ، كانت توجد دائماً طبقة النصارى المعاهدين ، الذين يعيشون في ظل الحكم الإسلامى ، وكانت تجتمع في القواعد الأندلسية في أقليات كبيرة . وكانت تحتل في العاصمة ، وفي بعض المدن الأخرى مكانة خاصة ، ويشغل كثير من أفرادها مراكز هامة في الحكومة والجيش ، وقد تحدثنا من قبل عن بعض أحوال هذه الطبقة وظروفها . ويجب أخيراً ألا ننسى الأقلية اليهودية . فقد عومل اليهود منذ الفتح بمنتهى الرفق والرعاية ، وازدهرت أعمالهم التجارية والصناعية ، في ظل ذلك التسامح الإسلامى المأثور ، ووصلوا في قرطبة في ظل الخلافة ، إلى ذروة النفوذ والرخاء . وفي أيام الناصر تولى أحدهم ، وهو العلامة حسداى بن شبروت ، الإشراف على الخزانة العامة ، وكان قبل ذلك قد حظى برعاية الناصر بخدماته الدبلوماسية ، وترجمته لكتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية ، من اليونانية إلى العربية .

وهو الكتاب الذى احدى قبصر منه نسخة إلى الناصر . وفى ظل هذه الرعاية ، وفد كثير من العلماء والأدباء اليهود إلى قرطبة ، أيام الناصر وولده الحكم ، وقامت فى ظل نشاطهم مدرسة قرطبة التلمودية ، ومؤسسها الراى موسى بن حنوش ، وازدهرت فى ظلها البحوث التلمودية ، وغدت مركز الرياسة والتوجيه لهذه البحوث . واستمرت الخلافة الأموية ، ومن بعدها حكومات الطوائف على رعاية الأقلية اليهودية وتشجيعها ، وكان يهود قرطبة يرتدون الزى العربى ، ويتخلقون بالتقاليد والعادات العربية ، ويمتازون بثرأهم ومظاهرهم الفخمة ^(١) ،

الفصل الثاني

هشام المؤيد بالله

مؤامرة الفتيان الصقالبة لإبعاد هشام وترشيح المغيرة بن الناصر . الحاجب جعفر يناهض مشروعاتهم . محمد بن أبي عامر يتولى قتل المغيرة . معسكر الصقالبة ومعسكر الأحرار . أخذ البيعة لهشام . وصف ابن الخطيب لأحوال الخلافة الأندلسية يومئذ . اجتماع السلطة في يدى الحاجب جعفر وابن أبي عامر . صبح البشكنسية أم المؤيد . ظهورها في بلاطة قرطبة وتمكن نفوذها من الحكم . حظوة الحاجب جعفر لديها . محمد بن أبي عامر . أصله ونشأته . خلاله وطموحه . حظوته لدى صبح . إطمينة العلائق بينهما . مصانفته للحاجب جعفر . نفوذه لدى صبح . جعفر المصحف يتولى الحجابة وابن أبي عامر الوزارة . الصراع الخفي بين الرجلين . الخليفة للصبي هشام . شغفه باللهو واللعب . حجبته والحجر عليه . دور ابن أبي عامر في ذلك . طموحه في الاستئثار بالسلطة . الفتيان الصقالبة . تفاهم الحاجب وابن أبي عامر على سحقهم . ابن أبي عامر يتولى قيادة الجيش ويغزو أرض التصاري . الخلاف بين الحاجب والقائد غالب . مسير ابن أبي عامر وغالب إلى الغزو . ذبوع شهرة ابن أبي عامر . الصراع بينه وبين المصحف . محاولة المصحف التفاهم مع غالب . ابن أبي عامر يحبط خطته . مسير ابن أبي عامر وغالب ثانية إلى الغزو . زواج ابن أبي عامر من أسماء ابنة القائد . تولية غالب منصب الحجابة . تضام مكانة المصحف . إقالته والقبض عليه وعلى أهله . اشتداد ابن أبي عامر في مطاردته . وفاة المصحف أو قتله في سجنه . شعر له في محنته . ابن أبي عامر يسحق خصومه ومنافسيه . اهتمامه بتنظيم الجيش . اصطناعه للبربر واضطهاده للعرب .

لما توفي الحكم المستنصر بالله ، في اليوم الثاني من صفر سنة ٣٦٦ هـ ، حرص خادماه الحصيان ، الفتيان فائق وجوذر ، على كتمان خبر موته ، وقاما بضبط القصر ، واتخاذ التدابير اللازمة ، لتسيير الأمور وفق الخطة التي وضعها . وكانت هذه الخطة ، تنحصر في تنحية ولي العهد الصبي هشام عن العرش ، واختيار عمه أخى المستنصر ، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، لولاية العرش ، وكان الفتيان الصقالبة داخل القصر ، زهاء ألف ، ولهم نفوذ عظيم ، وفي يدهم الحرس الخلفي ومعظمه من الصقالبة والمرترقة . فكانوا بذلك قوة تحشى بأسها .

استدعى فائق وجوذر ، الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، ونبأه بموت الخليفة وعرضاً عليه مشروعاتهما ، في تولية المغيرة ، فتظاهر الحاجب بالاستحسان والموافقة ، ووعدهما بالعمل وفق خططهما ، وتنفيذ ما يشران به . ثم خرج ،

فبادر إلى ضبط أبواب القصر ، واستدعى أصحابه من خاصة الحكم ، مثل زياد بن أفلح مولى الحكم ، وقاسم بن محمد ، ومحمد بن أبي عامر ، وهشام بن محمد بن عثمان وغيرهم . واستدعى في نفس الوقت عصيته وأشياعه من زعماء البربر ، مثل بني برزال ، كما استدعى سائر القادة الأحرار ، فاجتمع له منهم ومن أجنادهم طوائف ضخمة . فعنى لهم الخليفة ، وعرض عليهم مشروع الفتیان الصقالبة ، في تحية هشام وتولية المغيرة ، وأوضح لهم أن هذا المشروع خطر داهم عليهم ، وأنه إذا ولي المغيرة ، واستبد الصقالبة بالأمر ، قضى عليهم وعلى دولتهم ونفوذهم ، ونكل بهم المغيرة والصقالبة . والأمر بالعكس إذا ولي هشام ولي العهد الشرعي ، فإنهم يستبقون سلطانهم ونفوذهم ، وتغدو الدولة دولتهم ، ويأمنون على أنفسهم وأموالهم . فاقترح بعض أصحابه أن يقتل المغيرة ، فيؤمن بذلك شره في الحال والاستقبال ، وتطوع محمد بن أبي عامر لتنفيذ هذه المهمة الدموية ، حفظاً للوئام والوحدة ؛ فبعث جعفر معه سرية من الجند الأحرار الموثوق فيهم ، وسار معه بدر القائد مولى الحكم ، في سرية من غلمان الخليفة . وأحاط الجند بدار المغيرة ، ثم نفذ محمد بن أبي عامر في نفر من أصحابه ، ونباه بموت الخليفة وجلس ابنه هشام ، وأنه أتى ليتبين حقيقة موقفه ، فذعر المغيرة وأكد لا بن أبي عامر ، أنه مطيع مخلص لكل ما تقرر ، وتضرع إليه أن يحقن دمه ، وأن يراجع القوم في أمره . ولكن الرد كان قاطعاً في وجوب التخلص من المغيرة ، فدفع إليه ابن أبي عامر عدة من رجاله ، فقتلوه خنقاً أمام زوجته ، ثم أشاعوا أنه قتل نفسه ، ودفن في نفس مجلسه ، وكان سنه يوم قتل سبعاً وعشرين سنة . ووقع ذلك كله في يوم واحد فقط .

ولما وقف الفتیان فائق وجوذر على ما وقع ، تملكهما السخط والروع ، وبادرا إلى الحاجب جعفر ، وتظاهرا بالرضا والاستبشار بما وقع ، واعتذرا له عما سبق أن اقترحا عليه ، وأخذ الفريقان من ذلك الحين ، يتوجس كل من صاحبه ويتربص به ، وانقسم أهل القصر إلى معسكرين ، معسكر الصقالبة يتزعمه فائق وجوذر ، ومعسكر الأحرار يتزعمه الحاجب جعفر ومحمد بن أبي عامر^(١)

(١) نقل إلينا ابن بسام في الذخيرة هذه التفاصيل عن ابن حيان (الذخيرة - القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٠ و ٤١) . ونقلها أيضاً صاحب البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٨٠ .

وسرى فيما بعد ، كيف تطورت هذه المعركة الخفية بين المعسكرين ،

* * *

وهكذا وقع الاتفاق على تولية هشام ، وأخذت له البيعة في صبيحة اليوم التالى لوفاة أبيه الحكم ، وهو يوم الإثنين الثالث من صفر سنة ٣٦٦ هـ (أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م) . فأجلس الخليفة الصبى هشام ، فى كرسى الخلافة ، ولما يجاوز الثانية عشرة من عمره . وتولى أخذ البيعة له الحاجب جعفر ومحمد ابن أبى عامر ، ولم يعترض أحد على توليته . واستمر أخذ البيعة أياماً ، وكتب بها إلى الأقطار ، فلم يردها أحد . وينقل إلينا ابن الخطيب ، عن ابن حبان ، مئات من أسماء الوزراء والعلماء والقضاة والأكابر ، من مختلف الطبقات ، الذين أخذوا البيعة لهشام ، ومنهم كثيرون ، ممن اشتركوا فى أخذ البيعة له بولاية العهد ، فى حياة أبيه^(١) .

ويصف لنا ابن الخطيب حالة الخلافة الأندلسية ، وأحوال الأندلس ، عند ولاية هشام ، فيما يأتى : « بويغ ولى عهده (أى الحكم) هشام الملقب بالمؤيد بالله والخلافة قد بلغت المنتهى ، وأدركت الحنى ، وبلغ طورها ، وانتهى دورها ، فكانت كمامة ثم زهرة بسامة ، ثم ثمرة بهية ، ثم فاكهة شهية ؛ وكان بكرسى العامرية مجلاها ، ثم تلاها ما تلاها ، وأرخص الخطوط من أعلاها ، فكان المال قد ضاقت عنه خزائنه ، والمصر قد عظمت مزاياه ومزاينه ، والمملك تعوذ بالله ، أن لا يصيبه عاثته الذى يعاينه ، والمباني قد باغت السماء سمواً ، وزاحمت الكواكب علواً ، والبلاد وقد بلغ فيها إلى أقاصى الاهتمام ، وفرغت بناتها من لبنات التمام ، والآثار الصالحة قد تخلصت ، والمآثر الواضحة قد تعددت ، والأذهان فى بسطة الإسلام قد تبلدت ، ورسم الخلافة قد أمحى ، والدولة المراونية قد بركت وسط المرعى ، والدعوة قد انتشرت فى المغرب الأقصى »^(٢) .

* * *

وهكذا تمت البيعة لهشام المؤيد ، بين يوم وليلة ، وقضى على كل معارضة ، وتوارى الأعمام وبنو العم ، واجتمعت مقاليد السلطة فى أيدي رجلين ، هما الحاجب

(١) أعمال الأعلام ص ٤٨ . وقد شملت أسماء الذين أخذوا البيعة لهشام تسع صفحات كاملة . (٤٨ - ٥٧) .

(٢) أعمال الأعلام ص ٤٣ و ٤٤ .

جعفر بن عثمان المصنفى ، ومحمد بن أبى عامر ، وهو يومئذ مدير الشرطة ، ومتولى خطة الموارث ، وناظر الحشم . بيد أنه من الخطأ أن يقال إن السلطة ، قد خلصت لهذين الرجلين وحدهما ؛ فقد كان ثمة شخصية ثالثة تشاطرهما السلطان من وراء ستار . تلك هى « صبح » البشكنسية حظية الحكم وأم ولده هشام الخليفة الصبى ، وكانت قد منحت الوصاية على ولدها ، واكتسبت بذلك صفة شرعية فى الاشتراك فى الحكم وتدبير الشئون .

فمن ذلك كانت تلك المرأة ، التى لبثت رديحاً طويلاً من الزمن ، تسيطر بسحرها ونفوذها ، على خلافة قرطبة ، وتشترك فى تدبير شئونها ، فى السلام والحرب ، مع أعظم رجالات الأندلس ؟ لسنا نعرف الكثير عن نشأتها وحياتها الأولى . وكل ماتقدمه إلينا الرواية الإسلامية فى ذلك ، هو أن « صبحاً » كانت جارية بشكنسية أى نافارية . ولا تذكر الرواية إن كانت قد استقرت بالأسر فى بعض المواقع ، أم كانت رقيقاً بالملك والتداول ، ولكنها تصفها بالجارية والحظية ، وصبح أو صبيحة ترجمه لكلمة *Aurora* الفرنجية ، ومعناها الفجر أو الصباح الباكر ، وهو الاسم النصرانى الذى كانت تحمله صبح فيما يظهر^(١) . وظهرت صبح فى بلاط قرطبة فى أوائل عهد الحكم المستنصر ، وكانت فتاة رائعة الحسن والخلال ، فشغف بها الحكم ، وأغلق عليها حبه وعطفه ، وسماها « بجعفر »^(٢) ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأى . ثم ازداد هذا النفوذ توطداً وتمكناً ، حينما رزق منها الحكم بولده عبد الرحمن ثم بولده هشام حسباً تقدم . ولم تلك صبح يومئذ جارية أو حظية فقط ، بل كانت ملكة حقيقية ، ولا تشير الرواية الإسلامية إلى أنها غدت زوجة حرة للحكم المستنصر ، بعد أن كانت جارية وحظية . ولكن هنالك مايدل ، على أن صبحاً ، كانت تتمتع فى البلاط والحكومة بما يشبه مركز الملكة الشرعية . فالرواية الإسلامية تنعتها بالسيدة صبح أم المؤيد^(٣) أو السيدة أم هشام . وتصفها التواريخ الإفرنجية « بالسلطانة صبح »^(٤) . بيد أن

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ و ٢٦٩ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 100

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ و ٢٥٢ .

(٣) راجع الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ و ٢٨٢ .

(٤) Conde : Dominacion, V l. p. 480 & 493 ; Dozy : Hist. Vol. II. p. (٤)

هناك ما يقطع مع ذلك بأنها بقيت من الوجهة الشرعية جارية « وأم ولد ، فقط ،
وأن الحكم توفي عنها دون تغيير في مركزها الشرعى ^(١) .

استمرت صبح أيام الحكم ، تتمتع في البلاط والحكومة ، بنفوذ لا حد له .
وكان الحكم يثق بإخلاصها وحزمها ، ويستمتع لرأيها في معظم الشئون . وكانت
كلمتها هي العليا ، في تعيين الوزراء ورجال البطانة ، وكان الحاجب جعفر بن
عثمان المصحفي ، يجتهد في خدمتها وإرضائها ، ويستأثر لديها ولدى الحكم بنفوذ
كبير . واستمرت الحال حيناً على ذلك ، حتى دخلت في الميدان شخصية جديدة
قدر لها أن تضطلع فيما بعد بأعظم قسط في توجيه مصائر الأندلس . تلك هي
شخصية محمد بن أبي عامر الذي تقدم ذكره غير مرة ، والذي رأيناه في أواخر
عهد الحكم يشغل منصب مدير الشرطة وناظر الخصاص .

كان محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري ، يرجع
إلى أصل من أعرق الأصول العربية . وكان جده عبد الملك بن عامر المعافري ،
أول من دخل الأندلس مع الفاتحين موسى وطارق ، وظهر في الفتح بشجاعته
وحسن بلائه . ونزلت أسرة بني عامر بالجزيرة الخضراء ، وأقطعت حصن
طرش الواقع على نهر وادي يارّه ، الذي يصب على مقربة من جبل طارق ،
وظهرت بالعلم والوجاهة ، وتولى كثير من أبنائها مناصب القضاء والإدارة ، وولد
محمد بن أبي عامر بحصن طرش وأنفق فيه حياته . وكان أبوه عبد الله ، المكنى
بأبي حفص من أهل العلم والتقى ، عالماً بالحديث والشريعة ، وكانت أمه بريهة
بنت يحيى تنتمي إلى بني تميم . ونشأ محمد على تقاليد أسرته ، موثراً حياة الدرس ،
ووفد على قرطبة حدثاً ، ودرس في معاهدها درساً مستفيضاً ، وبرع في
الأدب والشريعة ، وكان من أساتذته العلامة اللغوي أبو علي القالي البغدادي ،
وأبو بكر بن القوطية ، والمحدث أبو بكر بن معاوية القرشي ، وكان طموحاً
مضطرب النفس والعزم ، رفيع المواهب والخلال . وتوه بهذا الطموح المدعش
معظم الروايات المعاصرة واللاحقة ^(٢) . وكان محمد بن أبي عامر في نحو

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٩ . والمعجب للمراكشي ص ٧٤ .

(٢) الحلة السيرة ص ١٤٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٤ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد

الأول ص ٢٤٣ . والإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ص ٤٧٤ .

السابعة والعشرين من عمره ، حينما أراد الخليفة الحكم أن يعين مشرفاً لإدارة أملاك ولده عبد الرحمن ، ورشحه الحاجب جعفر فيمن رشح لتولى هذا المنصب ، وأعجبت صبح بذلكه وحسن روائه ، وظرف شمائله ، فاخترته دون غيره ، وعين بمرتبة قدره خمسة عشر ديناراً في الشهر ، وذلك في أوائل سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م)^(١) ، ولما توفى عبد الرحمن طفلاً ، عين مشرفاً لإدارة أملاك أخيه هشام : وتقدم في وظائف الدولة بسرعة . فأضيف إليه النظر على الخزانة العامة . وعلى أمانة دار السكة ، ثم عين للنظر على خطة الموارث (٣٥٨ هـ) ، فقاضياً لكورة إشبيلية ولبلة . ثم عينه الحكم مديراً للشرطة الوسطى (٣٦١ هـ) : وفي أواخر أيامه عينه ناظراً على الحشم (الخاص) . ويقدم إلينا ابن حيان وظائف ابن أبي عامر في أواخر أيام الحكم على النحو الآتي : صاحب الشرطة الوسطى ، والموارث ، وقاضى إشبيلية ، ووكيل الأمير أبي الوليد هشام ، وكان عندئذ يلقب « بفتى الدولة »^(٢) .

وهكذا وصل محمد بن أبي عامر إلى أرفع وظائف الدولة والقصر في أعوام قلائل . ويرجع الفضل في تقدمه بتلك السرعة ، أولاً إلى مواهبه وكفاياته الباهرة ، ثم يرجع بالأخص إلى عطف صبح وحمايتها له . وقد انتهى هذا العطف غير بعيد إلى النتيجة الطبيعية : كانت صبح امرأة حسناء ، لا تزال في زهرة العمر ، وما زال قلبها يضطرم حباً وجوى ، وكان سيدها الحكم قد أشرف على الستين ، وهلمه الإعياء والمرض ، أما ابن أبي عامر فقد كان فتى في نضرة الشباب ، وسيم الحيا ، حسن القد والتكوين ، ساحر الخلال ، وكان من جهة أخرى يفتن في خدمة صبح وإرضائها ، ولا ينفك يغمرها بنفيس الهدايا والتحف ، حتى لقد أهداها ذات مرة نموذج قصر من الفضة ، بديع الصنع والزخرف ، أنفق عليه مالا عظيماً ، ولم ير مثله من قبل بين تحف القصر وذخائره ، وشهده أهل قرطبة حين حمل من دار ابن أبي عامر إلى القصر ، فكان منظره يحلب اللب ، ويبشوا

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ . وينقل إلينا المقرئ رواية أخرى عن اتصال ابن أبي عامر بصبح ، خلاصتها أنه كان يجلس في دكان عند باب القصر ، ليكتب للخدم والمترافعين للسلطان ، إلى أن طلبت صبح من يكتب عنها ، فمررها به بعض من كان يأنس الجلوس إليه من فتيان القصر : فاستحسن كتابته ، وعينه أميناً لبعض شئونها (نفع الطيب ج ١ ص ١٨٧) .

(٢) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ - ص ١٠٦ .

يتحدثون بشأنه حيناً ، فكانت هذه العناية تقع من قلب صبح أحسن موقع ،
وتزريدها عطفاً على ابن أبي عامر وشغفاً به . وكان الحكم يشهد هذا السحر الذي ينفته
ابن أبي عامر إلى حظيته ، وإلى نساء القصر جميعاً ، ويعجب له . و يروى أنه قال
يوماً لبعض ثقاته : « ما الذي استلطف به هذا الفتى حرماً حتى ملك قلوبهن ،
مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن ، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه ، ولا يرضين
إلا ما أتاه ، إنه لساحر عظيم أو خادم لبيب ، وإني خائف على ما بيده » (١) .
ولم تلبث علائق صبح وابن أبي عامر أن ذاعت ، وغدت حديث أهل قرطبة ،
ولم يك ثمة ريب في أنها استحالت غير بعيد إلى علائق غرامية . وربما ارتاب
الحكم في طبيعة هذه العلائق ، وثاب له رأى في نكبة ابن أبي عامر ، وسعى
لديه بعض خصومه ، واتهمه بأنه يبذل الأموال العامة ، التي عين للنظر عليها ،
في شراء التحف والإنفاق على أصدقائه ، فأمره الحكم أن يقدم حساب الخزانة
العامة ، ليتحقق من سلامتها ، وقد كان بالخزانة في الواقع عجز كبير ، فهرع
ابن أبي عامر إلى صديقه الوزير ابن حدير ، وكان وافر الوجهاء والثراء ، فأغاثه
وأعانته بماله على تدارك هذا العجز ، وتقدم إلى الحكم سليم العهدة برىء الذمة ،
فزالت شكوكه ، وتوطدت ثقته فيه .

واستمر ابن أبي عامر متمتعاً بنفوذه وسلطانه ، يندبه الحكم لعظام المهام
والشئون ، وكان آخرها ما عهد إليه من تنظيم البيعة بولاية العهد لولده هشام
حسباً تقدم ، وابن أبي عامر خلال ذلك كله ، يحرص على عطف صبح ، ويستزيده
ويصانع الحاجب جعفر ، ويحتشد في إرضائه وكسب ثقته ؛ وكان بين الرجلين
تباين يفيد منه ابن أبي عامر ، فقد كان الحاجب جعفر على ما يديه من التواضع
والبشر والترفق بالناس ، قليل الجود ، موثراً لجمع المال . وكان ابن أبي عامر
على نقيضه في ذلك ، فكان واسع البذل والجود ، حريصاً على اصطناع الرجال ،
وكانت داره الفخمة بضاحية الرصافة ، مقصد الناس من كل صوب ، وكانت
مائدته معدة دائماً ، وكان بذلك كله يخلق جواً من الحب والإعجاب ، ويحتذب
الصحب والأنصار ، بسحر خلاله ، ووافز بذله ومروءته ، وبارع وسائله
وأساليبه (٢) .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ .

(٢) الأخيرة - القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٢ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٥ .

فلما توفي الحكم المستنصر ، وأسندت الخلافة إلى ولده الطفل هشام ، اتخذت الأمور وضعاً جديداً ، ينذر بتطورات جديدة . وقد رأينا أى دور قام به ابن أبي عامر عندئذ ، من الانضمام إلى الحاجب جعفر في معارضة الفتيان الصقالبة ، ومقتل مرشحهم للخلافة ، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر .

* * *

وهكذا تحقق مشروع الحكم بجلوس ولده هشام ، وتحقيق مشروع الثلاثة ذوى السلطان من بعده ؛ وكان طبيعياً أن تحرص صبيح على تولية ولدها لتحكم باسمه ، وكان طبيعياً كذلك أن يوازى ابن أبي عامر صاحبته المحسنة إليه ، ليستمر بواسطتها محتفظاً بسلطانه ونفوذه . أما الحاجب جعفر فقد كان له مثل ذلك الباعث في تولية هشام ، إذ كان يخشى من تولية المغيرة ، وأوليائه الصقالبة ، على نفسه وعلى سلطانه . وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين أولئك الثلاثة ، الذين قدر لهم أن يسيطروا على تراث الخلافة الأموية . ولكن هذا التحالف الذى أملتة الضرورة الموقته ، لم يكن طبيعياً ولا سيما بين الحاجب جعفر ، ومنافسه القوى محمد بن أبي عامر . وكانت العلاقات بين صبيح وابن أبي عامر ، تزداد كل يوم توتقاً ، ولا سيما منذ وفاة الحكم . وكان ابن أبي عامر ، يرى في تلك المرأة ، التى تجتمع في يدها السلطة الشرعية ، بوصايتها على ولدها الطفل ، أداة صالحة هينة ، يستطيع أن يخضعها لإرادته ، ويسخرها لمعاونته ، على تحقيق مشاريعه البعيدة المدى . وكانت صبيح من جانبها تغدق كل عطفها وثقتها ، على هذا الرجل القوى الذى يحررها بخلاله ، وقوة نفسه ، وباهر كفاياته ، وتضع فيه كل أملها لحماية العرش الذى يشغله ولدها الفتى ، فلم تمض أيام قلائل على تولية هشام ، حتى عين حاجب أبيه جعفر المصحفى حاجباً له ، وورق في نفس الوقت ابن أبي عامر من خطة الشرطة إلى مرتبة الوزارة ، وجعله معاوناً للمصحفى في تدبير دولته (١) . وبذلك أشرك ابن أبي عامر ، في تولى السلطة المباشرة مع المصحفى ، ولم يعترض أحد من رجال القصر أو الدولة على ذلك الاختيار ، سوى الحاجب جعفر ، فقد كان يرى في هذا التعيين انتقاصاً لسلطته ، ونكراً لجميله ، بعد أن حمل أعباء السلطة كلها دهرأ . وكان يرى في ابن أبي عامر بالأخص منافساً يخشى

بأسه ، ويرتاب في نيّاته وأطاعه . ومن ذلك اليوم يضطرم بين الرجلين صراع عنيف صامت لم يك ثمة شك في نتيجته . وكان ابن أبي عامر هو الأقوى بلا ريب ، سواء بمواهبه وقوة نفسه ، أو بموازرة صبح له . ولم تكن هذه الموازنة ترجع فقط إلى ذلك الحب القديم ، الذي تضطرم به جوانح صبح نحو ذلك الرجل القوى ، ولكنها كانت أيضاً ترجع إلى ثقة صبح في قدرته وبراعته ، وفي أنه هو الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يحمي ملك ولدها الفتى ، وأن يوطد الأمن والسلام في المملكة . كان ابن أبي عامر في الواقع هو السيد المطلق ، وكانت صبح تفوض إليه كل سلطة وكل أمر ، فكان يدير الشئون كلها بمهارة ، تثير إعجاب خصومه وأصدقائه على السواء .

وكان الخليفة الفتى هشام المؤيد بالله ، ميّالا بطبيعته وسنه إلى اللهو والدعة ، ولم يكن له شيء من تلك اللحلال الرفيعة ، التي تهيب الأُمراء للاضطلاع بمهام الملك ، فكان يلزم القصر والحدائق ، ويقضي كل أوقاته في اللهو واللعب ، بين الحصيان وآلات الطرب ؛ وكان ابن أبي عامر وصبح يشجعان هذه الميول السيئة في نفس الأمير ، ويريانها ملائمة لمقاصدهما^(١) . ومذ ولي هشام ، حجر عليه ابن أبي عامر ، ولم يسمح لأحد غيره برؤيته أو مخاطبته ، وكان يحمل صبحاً بدهائه وقوة عزمه ، على أن تخلق الأعذار للحجب ولدها ، حتى غدا هشام شبه معتقل أو سجين . وفي ذلك يقول لنا مؤرخ أندلسي : « حجر المنصور ابن أبي عامر على هشام المؤيد ، بحيث لم يره أحد مذ ولي الحجابة ، وربما أركبه بعض سنين ، وجعل عليه برنساً فلا يعرف ، وإذا سافر وكل من يفعل به ذلك »^(٢) . ويقدم إلينا ابن الخطيب تلك الصورة عن الخليفة هشام : « ولما كان هشام مندرجاً في طي كافله الحاجب المنصور ، بحيث لا ينسب إليه تدبير ، ولا يرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير ، إذ كان في نفسه وأصل تركيبه مضجعاً مهيناً مشغولاً بالنزهات ، ولعب الصبيان والبنات ، وفي الكبر بمجالسة النساء ومحادثة الإماء ، محروص بزعمه على اكتساب البركات والآلات المنسوبات »^(٣) . وفي الفرص النادرة ، التي كان يسمح فيها للأمير بالخروج ، كان ابن أبي عامر يتخذ أشد

(١) Dozy : Hist. Vol. II. p. 227

(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٥٨ .

التحولات ، فيحيط موكب الأمير حين يخرق شوارع قرطبة ، بصفوف كثيفة من الجند ، تمنع الشعب من رؤيته أو الاقتراب منه : وكان حجب هشام على هذا النحو ، عماد ذلك الانقلاب العظيم الذي اعتزم ابن أبي عامر ، أن يحدثه في نظم الدولة ، لتمكين سلطانه وجمع سلطات الخلافة كلها في يده .

وكان لابد لتحقيق هذه الغاية الكبرى ، أن يسحق ابن أبي عامر كل سلطة أخرى تعترض سبيله . وكان الصقالبة وعددهم نحو ألف ، لا يزالون قوة يحسب حسابها ، وكذا كان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، ما يزال بحكم منصبه وتأييد عصبته ، مسيطراً على السلطة العليا . وكانت الوحشة ماتزال قائمة بين الحاجب وبين الصقالبة ، مذ تسبب في فشل مشروعاتهم لتولية المغيرة بن عبد الرحمن ، وحصد شوكتهم بتوليته هشام . وكان الحاجب يخشى غدرهم ودسائسهم . وبلغه أن فريقاً من زعمائهم ، وعلى رأسهم الفتيان جوذر وفائق ، يدبرون مؤامرة لقلب نظام الحكم ، فالتخذ بعض التحولات ، ووضع الفتيان تحت الرقابة ، وأغلق باب الحديد ، الذي كان مخصصاً بدخولهم ودخول أصحابهم إلى القصر ، وقصر دخولهم مع بقية الناس على باب السدة ، وفصل الغلمان من أصحاب جوذر وفائق ، وتفاهم مع ابن أبي عامر على إلحاقهم بحاشيته ، وكانوا زهاء خمسمائة ، فقبل ابن أبي عامر خدمتهم وفخم بهم شأنه ، ثم انحاز إليه بنو برزال ، وكانوا قبلاً من أصحاب الحاجب جعفر ، فقوى بهم أمره ، ولم يمتص سوى قليل حتى استقال زعيم الصقالبة الفتي جوذر ، وشعر الصقالبة بأن نجحهم قد أفل ، وسلطانهم قد انهار ، فسرى بينهم التذمر ، واجتمع المتمردون حول فتي من زعمائهم يدعى دري . فتفاهم الحاجب وابن أبي عامر على إزالته ، فدعى إلى بيت الوزارة لسؤاله عن أمور نسبت إليه وإلى عماله من رعيته في بياسة ، ولما قدم دري ورأى كثرة الجند ، شعر بالشر ، وأراد العودة ففزع ابن أبي عامر ، فهاجم عليه وأراد أن يبطش به ، فصاح ابن أبي عامر بالجند ، فخرج إليه بنو برزال وانهالوا عليه ضرباً ، ثم حمل إلى داره وقتل في نفس المساء . ورأى ابن أبي عامر الفرصة سانحة لسحق الصقالبة ، فأمر كبيرهم فائقاً وباقي زعمائهم بالتزام دورهم ، وفرق بذلك شملهم . ثم جد في مطاردتهم واستصفاء أموالهم ، وقضى فيهم القتل والنفي ، حتى هلك الكثير منهم ، وأبعد الفتي فائق في النهاية إلى

ميورقة فمات هناك ، وانهار بذلك سلطان الصقالبة ، وأمن الحاجب وزميله ابن أبي عامر شرهم ، وتقلد الحاجب جعفر أمر القصر والحرم بدلا منهم .
ويبدى ابن حيان ارتياحه لسحق الصقالبة واستئصال شأقتهم على هذا النحو .
وقد كان الصقالبة في البداية زينة للدولة والبلاط ، وكان ظهورهم بجموعهم المتألقة وأزيائهم الفخمة ، يسبغ على القصر ، وعلى مواكب الخلافة ، طابعا من الأبهة والعظمة . ولكنهم منذ استأثروا بثقة الخليفة ، وبسطوا سلطانهم على القصر والدولة ، اشتد طغيانهم ، وثقلت وطأتهم على أهل الدولة ، وعلى الشعب قاطبة (١) .
وسنحت بعد ذلك بقليل فرصة أخرى ، لكي يوطد ابن أبي عامر قدمه في السلطة ، ويبسط نفوذه على الجيش عصب كل سلطان حقيقي . وذلك أن القشتاليين ، كانوا قد انتهزوا فرصة مرض الحكم ، وانشغال المسلمين عقب وفاته ، فدفعوا غاراتهم جنوباً ، ووصلوا إلى مقربة من العاصمة ذاتها ، ولم يد الحاجب في ذلك ، ما كان واجبا من المهمة والنجدة ، فاهتم ابن أبي عامر ، وأشار إلى الحاجب جعفر بتجهيز الجيش واستئناف الجهاد ، ولكن الحاجب لم يجد من القادة من يعهد إليه بتلك المهمة ، فتقدم ابن أبي عامر للاضطلاع بها ، وجهاز المال والجند ، وأشراف بنفسه على اختيار الجند . وخرج من قرطبة في رجب سنة ٣٦٦ هـ (فبراير ٩٧٧ م) ، وسار شمالا إلى أراضي قشتالة ، ثم عطف غرباً حتى أحواز شلمنقة ، وحاصر حصن الحامة ، ومكانه اليوم محلة تسمى بالإسبانية «لوس بانيوس» Los Baños (الحمامات) ، وتقع في جنوب بلدة (بخار) في السفح الغربي لجبال جريديوس ، ثم استولى على الحصن وربضه ، وقتل راجعا إلى قرطبة ، مثقلا بالأسرى والغنائم ، وذلك لثلاثة وخمسين يوماً من خروجه إلى الغزو (٢) .
وكان لهذا الظفر الحربي الأول ، الذي حقق على يد ابن أبي عامر ، أكبر الأثر في نفوس الجند ، ونفوس الشعوب قاطبة ، فقد رأى الجند فيه قائدهم المظفر ، وقد استولى على قلوبهم ببذله ووفرة عطائه ، ورأى فيه الشعب حامى المملكة والمدافع عنها ، وكان لهذه البداية نتائج بعيدة المدى .
ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى تأهب ابن أبي عامر للسير إلى غزوته

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٠ و ٢٨١ . والذخيرة القدم الرابع المجلد الأول ص ٤٤ .

(٢) الذخيرة القدم الرابع المجلد الأول ص ٤٥ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٨٢ . وكذلك

الثانية ؛ وكانت قد وقعت ثمة ظروف جديدة زادت في توطيد مركزه ، وفي إضعاف مركز الحاجب جعفر . وكان بين الحاجب ، وبين القائد غالب بن عبد الرحمن صاحب مدينة سالم ، وأعظم فرسان الأندلس ، عداء مستحكم ، زاده ما تقول به الحاجب على غالب ، من تقصيره في الدفاع عن الحدود الشمالية ، وعجزه عن رد النصارى ، فانهز ابن أبي عامر هذه الفرصة ليضم غالباً إلى جانبه ، وسعى إلى خدمته والدفاع عنه لدى صبح ، ولدئى الخليفة ، حتى خرج المرسوم برفعه إلى خطة «ذى الوزارتين» ، وبأن يندب لقيادة جيش الثغر ، وأن يندب ابن أبي عامر لقيادة جيش الحضرة . وخرج ابن أبي عامر على أثر ذلك بالحيش إلى غزوته الثانية ، وذلك في يوم عيد الفطرسنة ٣٦٦ هـ (مايو ٩٧٧ م) ، فالتقى بغالب وجيشه في محلة مجريط^(١) على طريق وادى الحجارة ، واخترق الحيشان معاً أراضي قشتالة القديمة ، واستولى المسلمون على حصن مولة ، وأصابوا كثيراً من الغنائم والسبي . وكان لحيش غالب التفوق في الأعمال الحربية في تلك المنطقة ، ولكن غالباً تنحى عن ذلك لابن أبي عامر ، وارتد بجيشه إلى الثغر ، بعد أن توثق بينهما التحالف ، والتفاهم على سحق الحاجب جعفر عدوهما المشترك ؛ وقفل ابن أبي عامر إلى قرطبة بالغنائم والسبي ، وقد نسب إليه فخر الظفر على الأعداء ، فزاد صيته ، وارتفعت هيئته ، وتمكنت منزلته لدى الخليفة ، وازداد الشعب حوله التفافاً وله حباً^(٢) .

وهنا بدت طلائع المعركة الحاسمة بين ابن أبي عامر وجعفر المصحفي . فهاكاد ابن أبي عامر يصل إلى قرطبة ، حتى خرج أمر الخليفة بعزل محمد بن جعفر ولد الحاجب عن حكمها ، وتقليده لابن أبي عامر ، وبذلك تم لابن أبي عامر السيطرة على المدينة والحيش معاً . وكانت قرطبة تعاني قبل توليه حكمها من اضطراب الأمور ، واختلال الأمن ، وذبوع الفساد والفسق ، فضبط أمرها وقمع أهل الشر والدعارة ، فساد بها الهدوء والأمن . ثم استخلف ابن أبي عامر على حكم المدينة ابن عمه عمرو بن عبد الله بن أبي عامر . فسار على طريقته ، في

(١) هي محلة وقلة حصينة أنشأها الأمير محمد بن عبد الرحمن فوق سفح جبال وادى الرملة على مقربة من طليطلة لصد غارات النصارى . ولبثت تؤدي مهمتها الدفاعية ، حتى سقطت في أيدي النصارى في سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) . وعلم موقعها القديم أنشئت مدينة مدريد الحديثة .

(٢) الذخيرة - القسم الرابع ج ١ ص ٤٦ و ٤٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٣ .

انتهاج الحزم والشدّة في ضبط الأمور ، ومطاردة أهل البغي والعدوان . كل ذلك والحاجب جعفر ، يشهد سلطانه يغيض شيئاً فشيئاً ، وسلطان ابن أبي عامر في صعود وتمكّن مستمر ، ويشهد انصراف الخليفة والشعب عنه ، ويشعر في قرارة نفسه بدنو الخاتمة المحتومة .

وخطر للحاجب جعفر أن يقف هذا التحول الخطر ، باستمالة القائد غالب ومصالحته ، فطلب يد ابنته أسماء زوجاً لابنه محمد ، فاستجاب غالب إلى طلبه ، وكادت تمّ المصاهرة ، ولكن سرعان ما علم ابن أبي عامر بذلك المشروع ، فنارت نفسه ، وكتب إلى غالب يناشده الولاء ، ويخطب ابنته لنفسه ، وعصده في ذلك أهل القصر ، فزل غالب على تلك الرغبة ، وعدل إلى مصاهرة ابن أبي عامر ، وتمّ العقد في أوائل المحرم سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) . ولم يمض قليل على ذلك حتى خرج ابن أبي عامر إلى غزوته الثالثة ، فسار إلى طليطلة في أوائل صفر ، حيث التقى مع صهره غالب . وسار الإثنين في قواتهما شمالاً ، وافتتحا في طريقهما بعض الحصون ، ثم قصدا إلى مدينة شلمنقة الواقعة جنوب غربي مملكة ليون فاقتحماها ، وعاثا في أرباضها ، واستوليا على كثير من الغنائم والسبي ؛ وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة لأربعة وثلاثين يوماً فقط من خروجه ، ومعه عدد عظيم من رؤوس النصاري . فاغتبط الخليفة بصنعه ، ورفع إلى خطة الوزارتين أسوة بصهره غالب ، ورفع راتبه إلى ثمانين ديناراً في الشهر ، وهو راتب الحجابة في ذلك العصر .

وما كاد ابن أبي عامر يستقر في قرطبة ، حتى اتخذت الأهبة لإتمام زفافه . فأحضرت أسماء إلى العاصمة في موكب فخم ، وكانت من أجمل نساء عصرها وأوفرهن ثقافة وسحراً ، وكانت قد تزوجت لأول مرة بالوزير ابن حدير أيام الحكم ، ثم طلقت منه . وزفت أسماء إلى ابن أبي عامر ، في حفلات كانت مضرب الأمثال في البذخ والبهاء ، ونظم الاحتفال في قصر الخليفة ، وبإشراف أمه صبح ، وأعدت صبح على العروس أروع الهدايا والتحف . وكان زواجاً سعيداً موفقاً لبث مدى الحياة^(١) ، وإن كان غالب قد خرج بعد ذلك بأعوام قلائل على صهره حسبما نفصل بعد .

(١) الذخيرة اقسام الرابع المجلد الأول ص ٤٦ و ٤٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٤

و ٢٨٥ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ . وراجع أيضاً Dozy : Hist. Vol. II. p. 214 & 215 .

واستقدم الخليفة غالباً من الثغر ، وقلده خطة الحجابة إلى جانب جعفر ، فكانت ضربة جديدة للحاجب . ولكن جعفر لم يسعه إلا الإذعان والسكوت ، وقد أضحى يشعر شعوراً قوياً بالخطر المحدق به ، وبأنه لم يبق له من الحجابة سوى الاسم ، ولم ينخدع بما كان يديه نحوه ابن أبي عامر من التلطف والمصانعة ، وهو يقبض دونه على كل شيء في القصر والدولة .

وأخيراً وقعت النكبة المرتقبة ، ففي الثالث عشر من شعبان سنة ٣٦٧ هـ ، أصدر الخليفة أمره بإقالة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، والقبض عليه وعلى ولده وآله ، والتحفظ على أموالهم . وبادر ابن أبي عامر إلى محاسبتهم واستصفاء أموالهم ، وشدد في مطاردتهم ، حتى مزقهم كل ممزق ، وعوجل هشام ابن أخي الحاجب فقتل في مطبقة ، وكان من أشد الناس عداوة لابن أبي عامر ، وزج جعفر إلى ظلام السجن ، يعتقل فيه حيناً ، ثم يعتقل حيناً في داره ، واضطر إزاء التشدد في مطالبته أن يبيع داره الفخمة بالرصافة ، وكانت من أعظم دور قرطبة ، وأمعن ابن أبي عامر في نكايته ، واستجوابه بمحضر من زملائه القدماء ؛ واستطالت محنة المصحفي أعواماً ، عانى خلالها أروع آلام المهانة والذلة ، وهو يستعطف ابن أبي عامر فلا يرحمه ؛ واستمر سجيناً في مطبق الزهراء حتى توفي سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) . وقيل إنه قتل خنقاً في مطبقة ، وقيل إنه دست إليه شربة مسمومة كانت سبب وفاته .

وكان المصحفي حسباً تقدم شاعراً جزلاً ، وقد أذكت المحنة شاعريته ، وصدر عنه في مطبقة كثير من القصائد المؤثرة . ومن ذلك قوله :

صبرت على الأيام لما تولت	والزمت نفسي صبرها فاستمرت
فيا عجباً للقلب كيف اصطباره	وللنفس بعد العز كيف استدلّت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى	فإن طمعت تآقت وإلا تسلت
وكانت على الأيام نفسي عزيزة	فلما رأّت صبرى على الذل ذلت
وقلت لها يانفس موتى كريمة	فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ويعلق ابن حيان على محنة المصحفي بقوله : « وكانت لله عند جعفر ، في إثارة هشاماً بخلافته ، واتباع شهوة نفسه وحظ دنياه ، وتسرعه إلى قتل المغيرة لأول وهلة ، دون قصاص جريرة استدركته دون إملاء ، فسلط

عليه من كان قدر أن يتسلط على الناس باسمه» (١) و
وهكذا سار ابن أبي عامر إلى غايته بسرعة مذهشة ، ولجأ في تحقيقها إلى
أذكي الوسائل وأشدّها ، واستطاع بعزمه وصرامته وبارع خططه ، أن يسحق
كل عقبة ، وأن يروع كل منافس ومناوئ . ويجمل ابن خلدون معركة ابن
أبي عامر مع خصومه في تلك العبارة القوية : « ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده
وزاحمه ، قال عليهم ، وحطهم عن مراتبهم ، وقتل بعضهم ببعض ، كل ذلك
عن أمر هشام وتوقيعه ، حتى استأصل شأفتهم ، ومزق جموعهم» (٢) ، ولم
يكن مهلك المصحفي ، بعد سحق الصقالبة ، سوى حلقة جديدة في سلسلة المطاردة
الشاملة التي نظمها ابن أبي عامر لاستئصال شأفة خصومه ومنافسيه . ذلك أنه
جد في نفس الوقت ، في مطاردة كل من يخشى بأسه من بني أمية أو غيرهم
من زعماء القبائل ، حتى سحق كل من يصلح منهم للولاية والرياسة ، ومزقهم
في البلاد شر ممزق ، كل ذلك تحت شعار حمايته للمؤيد وللعرش ، وفي ذلك
يقول شاعر من شعراء العصر :

أبني أمية أين أقمار الدجى منكم وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكم عن غابها فلذلك حاز الملك هذا الثعلب

ولما خلا الجو لابن أبي عامر من أولياء الخلافة ، والمرشحين للرياسة ، اهتم
بتنظيم الجيش . فأنشأ صفوفاً جديدة من المرتزقة من زنانة وصنهاجه وغيرهما من
قبائل البربر ، ومن الحند النصاري من ليون وقشتالة وناقار ، وبذل لهم الأجور
السخية ، واجتذب قلوبهم بعدله ورفقه وجوده . وغير أنظمة الجيش القديمة ،
فقدم رجال البربر ، وآخر زعماء العرب ، وأقصاهم عن مناصبهم ، وفرق جند
القبيلة الواحدة في صفوف مختلفة ، وكانوا من قبل ينتظمون في صف واحد .
وكان العرب يتمسكون منذ أيام الفتح بوحدة القبيلة ، لأن العصبية كانت في قبائلهم
حتى أيام الناصر ، ما تزال فتية قوية ، ولكن الناصر عمل على سحق القبائل
العربية ، وإضعاف هيبتها ، وجاء ابن أبي عامر فألقى الميدان ممهّداً لخططه ، فلم
تلق سياسته الحديدية كبير معارضة (٣) .

(١) راجع في حمة المصحفي ، الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٨ و ٤٩ ، والبيان
المغرب ج ٢ ص ٢٨٥ - ٢٨٨ ، والحلة السيرة ص ١٤٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٦ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، ونفع الطيب ج

ص ١٢٧ . وراجع : Dozy : Hist. Vol. II. p. 232 & 233

الكتاب الثالث
الدولة العامرية

٣٦٨ - ٣٩٩ هـ : ٩٧٨ - ١٠٠٩ م

الفضل الأول

الحاجب المنصور

ابن أبي عامر يطمح إلى حلل الملك . إنشاؤه لمدينة الزاهرة وانتقاله إليها . يؤلف حرسه من الصقالبة والبربر . تشدده في الحجر على هشام . موقف صبح من ذلك . ذبوع علاقتها مع ابن أبي عامر . تحوّلها إلى خصومته وللتشهير به . تفاهمها مع القائد غالب . التفاف المعارضين حوله . جعفر بن حدون الأندلسي يتولى الوزارة . تقاطر البربر من العدو . الوحشة بين ابن أبي عامر وغالب . نهوض غالب لمحاربه . استعانت بملك ليون . القتال بين غالب وابن أبي عامر . مصرع غالب وهزيمة قواته . الموقعة حسبما يصفها ابن حزم . غزوات ابن أبي عامر . غايته من القيام بها . مسيره إلى ليون ومحاصرته لسمورة . هزيمته للنصارى في شنت مكشكش . توغله في ليون ثم عوده إلى قرطبة . إتخاذ لسة الملك وتسميه بالحاجب المنصور . غدره بجعفر الأندلسي . الحرب الأهلية في ليون . اعتراف برمودة بطاعة المنصور . مسير المنصور إلى الغزو . يفتقر شرق الأندلس ويغزو قتلونية . اقتحامه لبرشلونة وتدميرها . حماد المغرب . مسير الحسن بن كنون إلى غزو المغرب . المنصور يرسل جيشاً لقتاله . مطاردة الحسن وإرغامه على طلب الأمان . مسيره إلى قرطبة واغتياله . نذب الوزير الصلي لحكم المغرب . إجتمع قبائل البربر حوله . مسير زيري زعيم مغراوة إلى قرطبة . القتال بين الصلي وبني يفرن . مقتله وولاية زيري حكم المغرب . مسير زيري ثانية إلى قرطبة . عوده وخيبة أمله . غز بني يفرن لفاس واحتلالها . القتال بين مغراوة وبني يفرن . اشتداد ساعد زيري . إنشاؤه لمدينة وجدة . غزو المنصور لليون واستيلائه على قلمرية . غزوه لنافار . ما تزعمه الرواية النصرانية . عود المنصور إلى غزو ليون . اقتحامه لمدينة ليون وتدميرها . استيلائه على سمورة . حوادث الثغر الأعلى . عبد الله ولد المنصور . تأمره مع عبد الرحمن التجيبسي والى سرقسطة وآخرين . وقوف المنصور على المؤامرة في خروجه إلى الغزو . اعتقاله لعبد الرحمن التجيبسي . فرار عبد الله والتجاؤه إلى غرسية أمير قشتالة . هزو المنصور لقشتالة وهزيمة أميرها . غرسية يرسل عهد الله استجابة لطلب المنصور . إعدامه . تأملات عن هذا الحادث . سانشوا ابن غرسية يخرج عليه بتحريض المنصور . المنصور يغزو قشتالة ويستولى على شنت إشتين وكلونية . قصة الأبل الذي أهداه صاعد إلى المنصور . مسير المنصور إلى غزو ليون . إذعان برمودة وتمهده بأداء الجزية . المنصور يرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده ويؤليه الحجابة . اقتصاره على التسمي « بالمنصور » . اختصاصه بألقاب السيادة . إحجامه عن المساس بالخلافة . عوامل هذا الإحجام . موقف صبح أم المؤيد . اتصالها بزيري حاكم المغرب . تحوّلات المنصور . تفاهمه مع هشام وموكبهما المشترك . يأس صبح ووفاتها . الوحشة بين المنصور وزيري . مسير عبد الملك إلى العدو لمحاربة زيري . هزيمة البربر وسقوط فاس . عبد الملك يولى حكم المغرب . الصلح بين زيري والمنصور . المنصور يغزو جليقية . اختراقه لأراضي البرتغال . استيلائه على بازو وقلمرية . توغله في جليقية ومسيره إلى شنت ياقب . يهدم أسوارها وكنيستها العظمى . مسيره شمالاً حتى ثغر لاكروفيه . عوده من طريق لاميجو إلى قرطبة . ملك ليون يطلب

الصلح . غزوة أخرى لغشتالة . موقعة محرة جريرة . اقتحام المنصور لمدينة برغش . غزوه لنافار . آخر غزوات المنصور . ما تقوله الرواية الإسلامية . موقعة قلعة النصور . ما تقوله عنها الرواية النعرازية . آراء للبحث الحديث في شأنها . مرض المنصور ووفاته . قبره بمدينة سالم .

أضحى ابن أبي عامر ، بعد أن قضى على كل خصومه ومنافسيه ، وحده ، سيد الميدان ، وأضحى بعد أن وضع يده على الجيش ، صاحب السلطة العليا دون منازع ولا مدافع . ولم يكن الخليفة هشام المؤيد ، بعد ذلك ، سوى أداة لينة في يد المتغاب القوى ، يوجهها كيف يشاء .

على أن ابن أبي عامر لم يقنع بما حققه لنفسه من الاستئثار بالسلطة الفعلية . وعلى الرغم من أنه لم يفكر يومئذ في الافتئات على شيء من رسوم الخلافة الشرعية ، فإنه اتجه إلى أن يتشج بحلل الملك في صورة من صوره ، فتكون له ثوباً خلافاً ، يتوج سلطانه الفعلي ، بمظاهر العظمة والأبهة الملوكية .

ولم يكن اتجاه ابن أبي عامر يتقف عند تحقيق المظهر دون غيره ، ولكن كانت لديه أسباب عملية قوية ، تدعو إلى التحوط من أخطار التأمر والغيلة ، وقد أصبح يخشى على نفسه من الوجود في قصر الزهراء ، ومما قد يضمه بعض الحاقدين المتربصين^(١) ، ورأى أن يتخذ له مركزاً مستقلاً للإدارة والحكم ، يجمع بين السلامة ومظاهر السلطان والعظمة . فوضع أسس مدينة ملوكية جديدة أسماها الزاهرة (٣٦٨ هـ - ٩٧٨ م) . وقد اختلف في الموقع الذي كانت تحتله الزاهرة لأن البحوث الأثرية الحديثة لم تكشف شيئاً من معالمها ، مثلما فعلت بالنسبة لمدينة الزهراء . ويقول البعض إنها كانت تحتل بسيطاً يقع جنوب شرق قرطبة في منحى نهر الوادي الكبير ، وعلى قيد أميال قليلة منها . ويقول البعض الآخر إنها كانت تحتل بقعة على مقربة من شرق قرطبة على الضفة الجنوبية لنهر الوادي الكبير^(٢) . وأنشأ المنصور بالزاهرة قصراً ملوكياً فخماً ، ومسجداً ، ودواوين للإدارة والحكم ، ومساكن للبطانة والحرس ، وأقام حولها سوراً ضخماً ، ونقل إليها خزائن المال والسلاح ، وإدارات الحكم ، وتم بناء المدينة الجديدة في نحو عامين ، وأقطع ما حولها للوزراء والقادة ، وأكابر رجال الدولة ، فابتنوا الدور العظيمة ، وأنشئت الشوارع والأسواق الفسيحة ، واتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٤ ، وأعمال الأعلام ٦٢ .

(٢) وهذا يستفاد من أقوال ابن حزم في « طوق الحمامة » ص ١١٠ .

وأضحت تنافس المدينة الخليفة في الضخامة والرونق .

وفي أوائل سنة ٣٧٠هـ (٩٨٠م) ، انتقل محمد بن أبي عامر إلى مدينة الزاهرة ، واتخذ له حرساً خاصاً من الصقالبة والبربر ، وأحاط قصره الحديد بالحراس والحاشية ، يرقبون كل حركة وسكنة في الداخل والخارج ، وأقفرت بذلك مدينة الزهراء الخليفة ، وهجر الوزراء والكبراء قصر الخليفة ، وساد الصمت حول مركز الخلافة الشرعي ؛ وأنشأ ابن أبي عامر في نفس الوقت حول القصر الخلفي سوراً وخندقاً ، وأحكم غلق أبوابه ، ووكل بها من يمنع دخول أي شخص أو نبأ إلى الخليفة دون علمه وإذنه . وبث عيونه على هشام وحاشيته ، وأشاع أنه قد فوض إليه النظر في سائر شئون المملكة ، لكي يتفرغ لشئون العبادة . وهكذا أهمل شأن الخليفة الفتي ، وقطعت سائر علاقته مع الخارج ، ولبت محجوباً في أعماق قصره ، يغمره الخمول والنسيان^(١) .

ماذا كان موقف صبح إزاء هذا الانقلاب الحاسم في مركز ولدها ومركز الخلافة ؟ لاريب أنها كانت بموقفها وتصرفها ، أكبر معين لابن أبي عامر على إحداثه ، وكان حبا المضطرم لذلك الرجل الذي ملك عليها كل مشاعرها وعقلها ، يدفعها دائماً إلى موازرتة والإذعان لرأيه ، وكان إعجابها الشديد بمقدرته وتوفيقه يضاعف ثقتها به ، ويعمها دائماً عن إدراك الغاية الخطيرة التي يسعى إلى تحقيقها ، هذا إذا لم نفترض أن تلك البشكنسية المضطربة الجوانح ، كانت تذهب في حبا إلى حد الائتمار بولدها وتضحية حقوقه ومصالحه . والظاهر أن علائقها بابن أبي عامر قد انتهت بالخروج عن كل تحفظ ، وغدت فضيحة قصر ذائعة ، شهر بها مجتمع قرطبة ، وتناولها بلاذع التعليق والهجو ، وظهرت بهذه المناسبة قصائد وأناشيد شعبية كثيرة ، في التشهير بحجر ابن أبي عامر على هشام وعلاقته بصبح ، فمن ذلك ما قيل على لسان هشام في الشكوى من الحجر عليه :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتملك باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه^(٢)
ومن ذلك ما قيل في هشام وأمه صبح ، وقاضيه ابن السليم :

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٥ و ٢٩٦ و ٢٩٧ و ٢٩٨ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ والحلة الصيراء ص ١٤٩ ، وفتح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ .
(٢) هذان البيتان ينسبان أيضاً إلى المقتدر العباسي .

اقترب الوعد وحان الهلاك وكل ما تحذره قد أتاك
خليفة يلعب في مكتب أمه حبلى وقاض . . . (١)
وهذه الأناشيد اللاذعة وأمثالها تعبر عن روح العصر ، وتدل على ما كان
يشعره موقف صبح وسمعتها ، من الحملات المرة . وتتفق الرواية الإسلامية في
الإشارة إلى هذه العلاقة الغرامية التي استطال أمدها ، بين صبح وابن أبي عامر ،
وإن كانت تؤثر التحفظ والاحتشام ، ولم نجد ما يعارضها سوى كلمة أوردها
المقري لكتاب مغربي يدافع فيها عن ابن أبي عامر ، ويدفع عن صبح تهمة
شغفها به ، ويرى أولئك الشعراء بالتحامل والكذب (٢).

على أنه يبدو أن الحوادث قد بدأت تتطور من ذلك الحين ، وأن موقف
صبح قد بدأ يتخذ وجهة أخرى. فقد أدركت صبح أخيراً ما يرمى إليه ابن أبي عامر ،
وأدركت خطورته على مستقبل ولدها ، ومستقبل الأسرة والخلافة ، فثارت
نفسها سخطاً . وكانت صبح قد جاوزت الأربعين يومئذ ، وقد تصرم ذلك الحب
القديم ، الذي شغفها بابن أبي عامر دهرأ ، وأضحت تبغض ذلك الرجل الذي
سلب ولدها ، وسلبها كل نفوذ وسلطة ، ومن ذلك الحين تنقلب صبح إلى خصومة
ابن أبي عامر ومقاومته . وقد كان من الصعب ، لإزاء عزم ابن أبي عامر وبقظته ،
وسلطانه الشامل ، ان تستطيع صبح القيام بأية عمل مباشر ، فلجأت عندئذ إلى
العمل المستتر ، وأخذت تبث في نفس ولدها هشام ، بغض ابن أبي عامر والسعي
إلى مناورته واسترداد سلطانه منه ، وتولى مقاليد الحكم بنفسه ، وشهرت بواسطة
أعوانها من الناقمين ، على ابن أبي عامر ، دعاية شديدة ، واتهمته بأنه يسجن
الخليفة الشرعي ويحكم رغم إرادته ويغتصب سلطته . والظاهر أن صبحاً لم تقف
عند هذا الحد من المقاومة الأدبية ، وأنها حاولت في نفس الوقت ، أن تقوم
بمحاولة عملية لمقاومة ابن أبي عامر وإسقاطه .

وربما كان لتدبير صبح وتحريضها ، أثر فيما وقع يومئذ بين ابن أبي عامر
وصهره القائد غالب ، صاحب مدينة سالم . وكان غالب بالرغم من تقلده خطة
الوزارة ، يقيم بالثغر بعيداً عن قوطبة . وكان يتمتع في قوطبة وسائر مدن الأندلس

(١) البيان المغرب عن ابن حبان ج ٢ ص ٣٠٠ ، ونفع الطوب ج ١ ص ٢٨١ .

(٢) راجع نفع الطوب ج ١ ص ٢٨٢ .

بسمعة عالية في ميدان الفروسية والقيادة ، وهو ما كان ينقمة ابن أبي عامر على صهره . وكان المعارضون يرون فيه الرجل الوحيد ، الذي يستطيع أن يقارع ابن أبي عامر ويقاومه . فرأى ابن أبي عامر أن يرفع إلى مرتبة الوزارة جعفر بن علي ابن حمدون المعروف بالأندلسي ، وكان من مشاهير الفرسان والقادة البربر من زناته ، وكان مقيماً بالعدوة ، فعبّر البحر إلى الأندلس ، واستقر في الوزارة ، يكنفه ابن أبي عامر بحبه وثقته ، ويستعين به على تأليف البربر وكسب محبتهم ، ولا سيما بعد أن غدوا يؤلفون معظم حرسه وحاشيته . وتقاطر البربر من العدوة ، وابن أبي عامر يستقبلهم بأوفر ضروب البذل والإحسان ، ويقوى بهم صفوفه وبطانته . وكان غالب يستشعر الوحشة والريبة من تصرفات صهره ، ويتوقع منها سوء العاقبة . ولم يمض قليل حتى ساء التفاهم بين غالب وصهره ، فعمد غالب إلى مصانعة ابن أبي عامر ، ودعاه أثناء غزوه بالصائفة في أراضي قشتالة ، إلى وليمة أقامها بمدينة أنتيسة^(١) ، إحدى مدن الثغر التي تحت ولايته ، وجاء ابن أبي عامر إلى القلعة حيث أقيمت الوليمة ، في بعض أصحابه ، فانفرد به غالب وشرع في عتابه . ثم اشتد بينهما النقاش ، فشهر غالب سيفه على صهره فجأة ، فأصابه في بعض أنامله وصدغه ، واستطاع ابن أبي عامر أن يفر ناجياً بنفسه ، من مأزق بالغ الخطورة . وامتنع غالب بالقلعة ، بينما سار ابن أبي عامر لفوره إلى مدينة سالم ، حيث دار غالب وأهله ، فاستولى عليها وعلى سائر أمواله ومتاعه ، وفرقها في الحيش ، وعاد إلى الحضرة ، وهو يضمّر لغالب أسوأ النيات .

وكان غالب أعظم قادة الأندلس وأبرعهم في ذلك العصر ، وكانت لديه في الثغر قوات يعتد بها ، فنهض لقتال قوات ابن أبي عامر ، وغلب عليها ، في البداية غير مرة . ثم رأى أن يستعين براميرو الثالث ملك ليون ، فأمدّه ببعض قواته . وسار ابن أبي عامر لمقارعة خصمه في معركة حاسمة . ووقع اللقاء بين الفريقين أمام حصن شنت بجنت San Vicente على مقربة من أنتيسة ، ونشبت بينهما معركة شديدة ، أبلى فيها غالب وقواته بلاء حسناً وكاد يحرز النصر في البداية ، ولكنه ما لبث أن سقط ميتاً عن جواده خلال المعركة ، ولم يعرف سبب مصرعه لأنه لم يقتل بيد أحد ، وحملت رأسه في الحال إلى ابن أبي عامر ، فدب الوهن

(١) وهي بالإسبانية Atienza . وهي تقع شمال وادي الحجارة ، على مقربة من غرب مدينة سالم .

والذعر إلى قوائمه ، وطاردها قوات الأندلس ، وأمعت فيها قتلا وأسراً ، وهلك من الحند النصارى الذين كانوا يقاتلون إلى جانب غالب عدد جم . وكان بين القتلى أمير نصراني هو راميرو ابن سانشو أباركا من أمراء البشكنس^(١) . وقتل كذلك في المعركة عدة من الكبراء والقادة المسلمين ، الذين كانوا مثل غالب يعارضون سياسة ابن أبي عامر . وكان ذلك في الرابع من محرم سنة ٣٧١ هـ (أغسطس سنة ٩٨١ م)^(٢) .

وقد روى الفيلسوف ابن حزم عن أبيه الوزير ابن حزم ، وزير ابن أبي عامر ، وكان ممن صحبه في تلك الموقعة ، تفاصيل الموقعة حسبما شهد بها . وهو يصف لنا هيئة القائد غالب خلال الموقعة في قوله : « وهو شيخ كبير قد قارب الثمانين عاماً وهو على فرسه ، وفي رأسه طرطور عال ، وقد عصب حاجبيه بعصابة » قال : وكان قد جمع جمعاً عظيماً من المسلمين والنصارى ، فبدأ بالهجوم على الميمنة ، وفيها جعفر بن علي وأخوه يحيى والبربر ، وحمل عليهم حملة ، أراحهم عن مواقعهم ، ومزقت صفوفهم ؛ ثم حمل على الميسرة ، وكان فيها الوزير ابن حزم مع غيره من الرؤساء ، ففعل بها كما فعل بالأولى . ثم أخذ يتأهب لمهاجمة القلب ، وهو تحت قيادة ابن أبي عامر نفسه ، وهو يقول : « اللهم إن كنت أصليح للمسلمين من ابن أبي عامر فأنصرني ، وإن كان هو الأصليح لهم فأنصره » . ثم يصف لنا ابن حزم مصرع غالب على النحو الآتي ، قال : « ثم هز فرسه ، وترك جهة القتال وأخذ ناحية إلى خندق كان في جانب عسكره ، فظن أصحابه أنه يريد الخلاء ، فلما أبطأ عليهم ركبت طائفة منهم نحوه ، فوجدوه قد سقط إلى الأرض ميتاً ، وقد فارق الدنيا بلا ضربة ولا رمية ولا أثر ، وفرسه واقف بجانبه يعلك لحامه ، ولا يعلم أحد سبب موته . فلما أدرك أصحابه سقط في أيديهم ، وطلبوا حظ أنفسهم ، فبادر مبادر منهم بالبشرى إلى ابن أبي عامر ، فلم يصدق حتى وافى مواف بخاتمه ، ووافاه آخر بيده ، ووافاه آخر برأسه » .

هذا وقد بلغت القسوة بابن أبي عامر ، أن أمر بالتمثيل بجثمان خصمه الصريع

(١) وهو الذي تسميه الرواية العربية برذمبر بن شانجه ويعرف « براهى قرجة » .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ و ٢٩٩ ، وأعمال الأعلام ص ٦٢ و ٦٣ . وكذلك

الباسل ، فحشى جلده بالقطن ، و صلب على باب القصر بقرطبة ، و صلب رأسه على باب الزاهرة ، و لبث كذلك دهرأ ، حتى أدركه الفيلسوف ابن حزم نفسه ، وهو قتي ، و ذلك عند إنزاله يوم هدم الزاهرة في سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) (١).

* * *

وهنا تبدأ سلسلة هذه الغزوات الشهيرة العديدة ، التي شهرها ابن أبي عامر على الممالك الإسبانية النصرانية ، واستمر يضطلع بها باستمرار ودون هوادة ، والتي خرج منها جميعاً متوجاً بغار الظفر ، ولم يهزم في أية واحدة منها .
وتحدث معظم الروايات الإسلامية عن حروب ابن أبي عامر وغزواته بإفاضة ، وتعددها بأكثر من خمسين غزوة . ولكنها لا تقدم إلينا عنها تفاصيل واضحة ، ولا سيما عن الزمان والمكان (٢) ، ويحمل ابن خلدون ذكرها في قوله : « وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب ، فغرا اثنين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه ، لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش ، ولا أصيب له بعث ولا هلكت سرية » (٣) .

وتجمل الرواية الإسلامية بواعث هذه الغزوات المستمرة في نزعة الجهاد . ولكن الحقيقة هي أن ابن أبي عامر ، كان باضطلاعاً بتلك الغزوات المتعاقبة يرمى إلى غاية سياسية بعيدة المدى ، لم يفكر فيها أحد قبله من أمراء الأندلس ، أو لم يجد لديه وسيلة أو مقدرة لتنفيذها . ذلك أنه فكر في أن يسحق الممالك الإسبانية النصرانية سحقاً تاماً ، وأن يقضى على استقلالها القومي ، وأن يخضعها جميعاً إلى سلطة الخلافة . وقد خالف ابن أبي عامر في غزواته ، سنن أسلافه من الأمراء والقادة ، فقد كان هؤلاء يحاربون في معظم الأحيان للدفاع ورد غارات النصاري ، ولكن ابن أبي عامر كان هو البادئ بالحرب دائماً ، ولم يقبل من أعدائه قط صلحاً أو مهادنة ، ولم يقنع إلا بالنصر الكامل .

(١) راجع رواية ابن حزم في رسالة « نقط العروس » (المنشورة في مجلة كلية الآداب بالقاهرة في عدد ديسمبر سنة ١٩٥١) ص ٨١ و ٨٢ .

(٢) ذكر ابن الأبار في الحلة السيرة أن المؤرخ الكبير أبو مروان ابن حيان قد استوعب هذه الغزوات وفصلها في كتابه الكبير الذي ألفه في أخبار الدولة العامية . ولكن هذا المؤلف لم يصل إلينا (ص ١٤٩) .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ . وكذلك ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٤ و ج ٩ ص ١٢ .

ولكن سوف نرى أن غزوات المنصور ، بالرغم من تحرى هذه الغاية البعيدة المدى ، وبالرغم مما كان يحالفها من الظفر المستمر ، لم تخرج في مجموعها عن أساليب الصوائف والغزوات الإسلامية المأثورة ، ولم تتجه بالفعل إلى تحرى هذه الغاية الكبرى .

سار ابن أبي عامر عقب الفراغ من أمر صهره غالب ، إلى مملكة ليون ، ليعاقب ملكها راميرو الثالث على معاونته لخصمه غالب ، وتدخله على هذا النحو في شئون الأندلس ، وقصد إلى مدينة سمورة الحصينة الواقعة شمالى شلمنقة ، وضرب حولها الحصار (أوائل سنة ٣٧١ هـ الموافقة ٩٨١ م) ولكنه لم يستطع الاستيلاء على قلعتها المنيعة بسرعة ، فتركها وعاث فيها حولها من السهول ، وأمعنت قواته في التخريب والقتل ، وأحرقت مئاث القرى والضياع ، وهام النصارى على وجوههم في الجبال والوديان ألوفاً مؤلفة . وهرع راميرو الثالث إلى غرسية فرنانديز كونت قشتالة ، وسانشو ملك نافار ، وعقد الثلاثة تحالفاً لمحاربة ابن أبي عامر ، وسارت قواتهم المشتركة للقائه . ونشب القتال بين الفريقين في ظاهر بلدة « روضة » في جنوب غربى « شنت منكش »^(١) ، فهزم النصارى وقتل منهم عدد كبير ، واستولى المسلمون على قلعة شنت منكش الشهيرة ؛ ثم زحف ابن أبي عامر بعد ذلك شمالاً إلى مدينة ليون عاصمة المملكة ، وهناك وقف راميرو في قواته محاولاً اعتراضه ، وحاول المسلمون اقتحام المدينة ، ووصلوا في هجومهم بالفعل إلى أبوابها ، ولكن الشتاء كان قد دخل ، وغمرهم البرد والثلوج ، فاضطروا إلى وقف القتال ، وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة بعد غزوات دامت بضعة أشهر^(٢) .

وعلى أثر هذا النصر ، وفي أواسط سنة ٣٧١ هـ (أواخر ٩٨١ م) اتخذ ابن أبي عامر سمة الملك ، فتسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، ونفذت الكتب والأوامر باسمه عن « الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر » ونقش اسمه في السكة ، وجرى الوزراء ورجال الدولة على تقبيل يده ، عند المثلول لديه ، واجتمعت حول شخصه ، وحول داره ، مظاهر الجلالة الملكية ، وتم بذلك استنثاره بجميع السلطات والرسوم ، ولم يبق من الخلافة الأموية سوى

(١) روضة هي بالإسبانية Rueda ، وشنت منكش هي Simancas .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 234—235 ; Recherches (3ème ed.) Vol. I. p. (٢)

الاسم (١). هذا وسوف نجرى منذ الآن فصاعداً على تسمية ابن أبي عامر باسمه الملكي : المنصور .

وكان المنصور حين استقدم جعفر بن علي الأندلسي ، ورفع له خطة الوزارة ليعارض به نفوذ القائد غالب ، وليوثق بوجوده مودة البربر وتأييدهم ، يتوجس مع ذلك من وجوده وسلطانه ، ويخشى أطاعه ومشاريعه ، في الناحية الأخرى من البحر ، فأكاد ينتهي من أمر غالب ، ومن ترتيب رسومه الملكية ، حتى قرر أمره ، فدعاه ذات مساء إلى مأدبة حافلة ، وأغرى به السقاة حتى فقد وعيه ، ثم دس عليه في طريقه إلى منزله من قتله ، وحمل إليه رأسه سرّاً (٣٧٢ هـ) . فتظاهر المنصور بالحزن على ضحيته ، وكانت هذه الجريمة المثيرة ، عنواناً لبعض النواحي القائمة ، في خلاله وفي وسائله السياسية (٢) .

وفي ذلك الحين كانت الأحوال قد اضطربت في ليون ، وفقد راميرو الثالث من جراء هزائمه المتوالية كل عطف وتأييد ، وزاد الشعب نقمة عليه ، ومحاولاته في توسيع سلطانه ، وتمكين حكمه المطلق . وما لبثت جليقية أهم ولاياته ، أن اضطربت بالثورة ، وقرر أشرافها خلع راميرو ، وتولية ابن عمه برمودو (أو برمند) ملكاً مكانه . وفي أكتوبر سنة ٩٨٢ م ، توج هذا الأمير ملكاً على ليون في مدينة شنت ياقب . فسار راميرو إلى محاربته ونشبت بينهما موقعة شديدة غير حاسمة ، في بلدة بورتليا دي أريناس ، على حدود ليون وجليقية ، ثم عاد برمودو إلى جمع قواته ، وسار لمحاربة خصمه مرة أخرى ، فهزمه واستولى على مدينة ليون في مارس سنة ٩٨٤ . فالتجأ راميرو إلى مدينة أستركة ، والتمس مساعدة المنصور ، على أن يعترف بطاعته ؛ ولكنه توفي بعد ذلك بأشهر قلائل ، وحاولت أمه أن تحكم مكانه بمعاونة المنصور ، فأبى المنصور أن يستمع إليها وأدرك برمودو من جهة أخرى أنه لن يستطيع مقاومة الأشراف المعارضين لحكمه إلا بمعاونة المسلمين ، ف تقدم إلى المنصور ، وعرض أن يعترف بطاعته ، فقبل المنصور وأمدّه بجيش ، استطاع أن يخضع به سائر المملكة ، وأن يوطد حكمه . وبقيت بعد ذلك في مدينة ليون حامية كبيرة من المسلمين :

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ ، و ٣٠٠ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠١ ، وأعمال الأعلام ص ٦٥ .

وهكذا غدت مملكة ليون الإسبانية النصرانية لأول مرة ، ولاية تابعة لحكومة قرطبة ، تؤدى لها الجزية ، وتأتمر بأوامرها ، وكانت هذه أول ثمرة لسياسة الغزو المنظم ، التى سار عليها المنصور .

وتحول اهتمام المنصور بعد ذلك إلى شمال شرقى الأندلس ، فحشد جيشاً ضخماً استعداداً لغزوة هامة ، لم تخطر من قبل لأحد من أمراء الأندلس . وخرج فى قواته من قرطبة فى ذى الحجة سنة ٣٧٤ هـ (مايو ٩٨٥ م) ، ومعه عدة من الكتاب والشعراء ، يجتمعون فى مجلسه خلال السير . وتوصف غزوة المنصور هذه بأنها الثالثة والعشرون . وسار المنصور جنوباً صوب البيرة (غرناطة) ، ثم اتجه شرقاً إلى بسطة ، فلورقة ، فندمير ، فرسية ، وأقام فى مرسية ثلاثة وعشرين يوماً فى ضيافة أحمد بن عبد الرحمن المعروف بدجيم بن مروان بن خطاب وولده أبى الأصبح موسى . وكان ابن خطاب من أعظم رجالات الأندلس وجاهة و ثراء وجوداً ، ومن المدهش حقاً ، ما تنقله إلينا الرواية ، من أنه استضاف المنصور وسائر حاشيته وجيشه خلال هذه المدة ، وتكفل بسائر النفقات ، وأبدى من ضروب الجود والبذخ ما يفوق قصص ألف ليلة وليلة ، وغدا بذلك من أعظم أصدقاء المنصور وأكثرهم حظوة لديه (١) .

وسار المنصور فى جيشه بعد ذلك شمالاً . وكان يقصد ثغر برشلونة العظيم . وقد لبثت برشلونة منذ الفتح فى أيدي المسلمين نحو قرن من الزمان ، وكانت أعظم ثغور الأندلس الشمالية الشرقية ، ثم افتتحها عاهل الفرنج شارلمان أو كارل الأكبر فى سنة ٨٠١ م (١٨٥ هـ) أيام الحكم بن هشام ، بعد حصار طويل ، وبعد أن دافع المسلمون عنها أروع دفاع . واتخذ الفرنج من برشلونة قاعدة لولاية « الثغر القوطى » ، الذى نما فيما بعد ، واستطاع حكامه الكونتات القوط مع الزمن ، أن ينتزعوه من يد الفرنج ، وأن يجعلوا منه إمارة مستقلة ، هى إمارة قطلونية ، التى

(١) الحلة السيرة عن ابن حيان وابن الفياض ص ٢٥١ و ٢٥٢ و ٢٥٣ . هذا ويقدم إلينا العذرى نسبة ابن خطاب كاملة ، فهو أحمد بن عبد الرحمن المعروف بدجيم بن مروان بن خطاب بن محمد بن مروان بن خطاب بن عبد الجبار الداخل . ويقول لنا إنه استضاف المنصور وجميع عسكره أياماً ، وصنع له فيما صنع حماماً كان ماء الحمام من ماء الورد الطيب الغاية وأهدى له قناطر من الفضة الخالصة . (العذرى فى كتاب ترصيع الأخبار السابق ذكره ص ١٥) .

حافظت عصراً على استقلالها ، ثم اندمجت بعد ذلك في مملكة أراجون القوية^(١) .
واخترق المنصور بجيشه قطلونية ، وهزم قوات أميرها الكونت بوريل ، في أواخر
شهر يونيه ، وأشرف على ظاهر برشلونة في اليوم الأول من يولييه ، ولم تمض
أيام قلائل حتى اقتحم المسلمون المدينة ، ودخلوها في يوم الاثنين منتصف صفر ،
سنة ٣٧٥ هـ ، الموافق سادس يولييه سنة ٩٨٥ م^(٢) . ودمر المسلمون المدينة
وأحرقوها ، وقتلوا معظم أهلها ، وتركوها قاعاً صفصفاً ، وكان بين الأسرى
أودلرادو نائب كونت برشلونة ، فاقتيد إلى قرطبة ، حيث قضى في الأسر أعواماً
طويلة . والظاهر أن المنصور لم يحاول الاحتفاظ ببرشلونة ، ولم تكن لديه نية
افتتاحها بصورة دائمة ، ولكنه قصد أن يدمر قوى النصارى في هذا الطرف الثاني
من شبه الجزيرة الإسبانية .

* * *

وما كاد المنصور يرتد بجيشه إلى قرطبة ، حتى استغرقت حوادث المغرب
جل اهتمامه . وقد فصلنا فيما تقدم عند الكلام على عهد عبد الرحمن الناصر ، ثم
عهد ولده الحكم المستنصر ، أدوار الصراع الذي نشب في المغرب الأقصى ،
بين الفاطميين مذ قامت دولتهم في إفريقية ، وبين بني أمية ، ورأينا كيف استطاع
الحكم المستنصر ، بعد سلسلة من الأحداث المثيرة ، والمعارك الطاحنة ، بينه وبين
الفاطميين وحلفائهم الأدارسة بالمغرب ، أن يقضي على قوى الشيعة والأدارسة ،
وكيف استسلم إليه الأدارسة وكبير زعمائهم الحسن بن كنون في سنة ٣٦٣ هـ ،
واستقروا حيناً في كنفه في قرطبة ، ثم خرجوا منها بعد ذلك بعامين ، وساروا
إلى مصر حيث استقروا بها في كنف خليفته الفاطمي العزيز بالله .
وكان العزيز قد شغل في أوائل ولايته ، برد خطر القرامطة عن مصر والشام ،
فلما تمت هزيمة القرامطة ، وزال خطرهم (٣٦٨ هـ) ، عاد إلى الاهتمام بشئون
المغرب ، وثاب له رأى في العمل على استعادة سلطان الدعوة الفاطمية ، وسمي

(١) راجع تفاصيل ذلك في القسم الأول من العصر الأول من « دولة الإسلام في الأندلس »
ص ٢٣٤ - ٢٣٦ .

(٢) تتفق الروايات النصرانية مع الرواية الإسلامية في تحديد تاريخ دخول المسلمين لبرشلونة
على هذا النحو . راجع الإحاطة لابن الخطيب (القاهرة) ج ٢ ص ٧١ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 239 والمراجع .

الدعوة المروانية في المغرب الأقصى ، فأوعز إلى نائبه على إفريقية (تونس) بلُكَيْن بن زيري بن مناد الصنهاجي ، أن يسير في قواته إلى المغرب ؛ فبدأ بلُكَيْن زحفه على المغرب سنة ٣٦٩ هـ ، فاستولى على مدينة فاس ، وهزم سائر الأمراء الذين تصدوا لمقاومته من زناتة وغيرهم ، وفر أولئك الأمراء المعارضون جميعاً إلى الشمال ، واعتصموا بسبتة ، وبعثوا إلى المنصور يستغيثون به . فعهد المنصور يومئذ ، إلى جعفر بن علي بن حمدون المعروف بالأندلسي ، وهو من زعماء زناتة بمحاربة بلُكَيْن ، وأمدّه بالحد والمال ، والتف حوله باقي الزعماء . ولكن بلُكَيْن أستمّر في تقدمه ، رغم كل معارضة ، حتى استولى على المغرب كله ، ولم يبق منه بيد خصوم الشيعة سوى القطا الشمالي .

وفي سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م) بعث العزيز بالله ، الحسن بن كُنُون زعيم الإدارة ، من مصر إلى المغرب تحقيقاً للمتمسه ، ليسعى إلى استرجاع ملكه ، وقلده عهده ، وأمر نائبه على المغرب بلُكَيْن أن يمدّه بالقوات اللازمة ؛ وكان العزيز ، ووزيره ابن كلّس تخالجهما أيضاً رغبة في التخلص من الحسن وصحبه ، والتخفف من مؤنتهم^(١) . فسار الحسن إلى المغرب ، في جيش صغير أمدّه به بلُكَيْن ، ودعا لنفسه ، فالتف حوله كثير من البربر ، ولاسيما بني يفرن ، وجاهروا بطاعته ؛ وعلم المنصور بخبره ، فبعث ابن عمه الوزير أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن عامر المعروف بعسكلاجة ، في جيش كثيف ، إلى المغرب ، لقتاله والقضاء على دعوته ، فعبّر البحر إلى سبتة لقتال الحسن ، وانضم إليه زعماء مغراوة في قواتهم ، وفي مقدمتهم كبيرهم زيري بن عطية بن خزر ، ثم بعث المنصور لإمداده جيشاً آخر إلى المغرب بقيادة ولده عبد الملك . وطارد عسكلاجة الحسن ، ثم أحاطه بقواته ، وحاصره حتى أرهقه الحصار ، ولم يربداً من طلب الأمان والتسليم ، على أن يسير إلى الأندلس كسابق عهده ، فأجيب إلى طلبه ، وأرسل على عجل إلى قرطبة تحقيقاً لرغبة المنصور . ولما علم المنصور بمقدم الحسن ، آثر أن ينقض الأمان الذي منحه ابن عمه ، وأن يقضي على حياة ذلك الخصم العنيد ، الذي تكرر خروجه على حكومة قرطبة ، فأنفذ إليه من قتله في الطريق وأتاه برأسه ، وذلك في جمادى الأولى سنة ٣٧٥ هـ (أواخر سنة ٩٨٥ م) وانهارت بذلك دعوة الإدارة

(١) « نبد تاريخية في أخبار البربر » ص ١٩ .

بالمغرب الأقصى ، وتفرق أنصارهم ، وركدت ريجهم .

وعلى أثر ذلك ندب المنصور لحكم المغرب الوزير الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي ، ومنحه السلطان المطلق ، وأمره أن يعمل على استمالة البربر في تلك الأقطار ، إذ يجب أن لا ننسى أن البربر كانوا للمنصور ظهيراً ، وعوناً على إخضاع القبائل العربية بالأندلس ، ومنهم اتخذ المنصور حاشيته وجنده ، وكثيراً من رجالات حكومته وجيشه . فسار الوزير إلى المغرب (٣٧٦ هـ) ونزل بفاس ، وضبط شئون البلاد ، واجتمعت إليه أمراء زناته ومغراوة ، واتخذ من زعيم مغراوة زيري بن عطية عوناً وحليفاً ، لما أبداه من إخلاص للدعوة المروانية وتأييدها . واستدعى المنصور زيري للوفود عليه ، فسار إلى قرطبة ، واحتفى المنصور بمقدمه ، وأسبغ عليه كثيراً من مظاهر العطف والتكريم ، وأوعز إليه بمقاتلة بني يفرن أولياء الفاطميين ؛ فلما عاد زيري إلى المغرب سار مع الوزير الحسن إلى قتال بني يفرن وزعيمهم يدو بن يعلى ، ولكنه هزم ، وجرح الوزير الحسن ، ثم توفي متأثراً بجراحه (سنة ٣٨١ هـ) . فلما علم المنصور بذلك عقد لزيري على المغرب ، وندبه لحكمه ، وأمره بضبط الأمور ، والتعاون مع جيش الخلافة ، وأصحاب الحسن ، فاضطلع زيري بمهام الحكم بمقدرة وكفاية ، وكان حازماً ، قوى النفس والعزم ، فقوى أمره وتوطد سلطانه ، ولكنه لبث مشغولاً بأمر خصومه من بني يفرن وغيرهم ، ولبثت الحرب سجالاً بينهم مدى حين (١) .

وفي سنة ٣٨٢ هـ (٩٩٢ م) استدعى المنصور زيري بن عطية ، للقُدوم عليه للمرة الثانية ، فاستخلف زيري على المغرب ولده المعز ، وسار إلى قرطبة ، وقدم إلى المنصور هدية عظيمة منها طيور نادرة ، وحيوانات غريبة ، وأسود ؛ فأكرم المنصور وفادته ، وأنزله بقصر المصحن ، وغمره بالمال والصلوات ، ومنحه لقب الوزارة ، وجدد له عهده على المغرب ، وعلى جميع ما غلب عليه ؛ ولكن زيري لم يتهج بلقب الوزارة ، بل بالعكس ساء ذلك ، إذ كان يعتبر نفسه في مرتبة الإمارة ، فعبّر البحر إلى العدو وفي نفسه مرارة وخيبة أمل . وما كاد يصل إلى طنجة حتى نمي إليه أن خصومه الألداء بني يفرن وأميرهم يدو

(١) راجع في حوادث المغرب الأقصى ، ابن خلدون ج ٧ ص ٢٨ - ٣٠ ، والاستقصاء

ج ١ ص ٨٨ - ٩٢ ، ونبذة تاريخية في أخبار البربر ص ١٧ - ٢١ .

ابن يعلى ، قد انتهزوا فرصة غيبته ، فزحفوا إلى فاس واستولوا عليها ، وقتلوا بها كثيراً من رجال مغراوة . فأسرع بالسير إلى فاس ، وهناك جمع قواته ، ونشبت بين مغراوة وبني يفرن معارك عديدة متوالية ، قتل فيها كثير من الطائفتين وانتهت بهزيمة بني يفرن ومقتل أميرهم يدو ، وبعث زيرى برأسه إلى المنصور (٣٨٣ هـ) .

وأصبح زيرى بعد هزيمة بني يفرن وركود أمرهم ، أعظم أمراء الغرب قوة وبأساً ، واستقر سلطانه في سائر أنحاء المغرب ، واستمر في الظاهر على ولائه للمنصور ، وللدعوة الأموية . ولكن نفسه كانت تخبش بمشاريع أخرى . ولما كانت فاس بموقعها في الطرف الغربي للمغرب ، وعلى مقربة من موطن القبائل الخصيمة ، أصبحت لا تصلح لمشاريعه ، فقد اعتزم أن ينشئ لنفسه قاعدة جديدة ، فأنشأ مدينة وجدة الواقعة جنوبي شرقي مليلة ، وعلى مقربة من جنوب غربي تلمسان ، وابتنى بها قصبة منيعة وقصرأ ، وأحاطها بأسوار ضخمة ، ونقل إليها أمواله وذخائره ، وسكنها بأهله وحشمه ، واتخذها قاعدة الحكم (سنة ٣٨٦ هـ - ٩٩٦ م) لموقعها المتوسط بين المغربين الأوسط والأقصى (١) .

* * *

ولنقف الآن قليلاً في تتبع حواث المغرب ، لنعود إلى تتبع حوادث الأندلس ، ذلك أن المنصور سار على سنته من المضي في غزو الممالك النصرانية . وكانت الأحوال في ليون ما تزال بعيدة عن الاستقرار ، نظراً لما كان يضطرم بين حامية ليون المسلمة ، وبين النصارى من الشعب المستمر . وكان برمودو ملك ليون ، بعد أن استتب له الأمر ، يرقب الفرص لإخراج المسلمين من مملكته ، فجدد في جمع قواته ، وانقض ذات يوم على المسلمين ، وطاردهم إلى خارج حدوده ، فاضطر المنصور أن يرد بغزو ليون ، فسار في قواته نحو الشمال مخترباً أراضي ليون ، ثم سار غرباً إلى مدينة قلسمرية ، الواقعة في شمال البرتغال على مقربة من المحيط ، واستولى عليها في يونيو سنة ٩٨٧ م (٣٧٨ هـ) ، وأمعن في تخريبها حتى لبثت قاعاً صفصفاً مدى سبعة أعوام . وفي خلال ذلك كان البشكنس أو النافاريون قد أغاروا بقيادة ملكهم سانشو على أراضي الثغر الشمالى ، فسار المنصور إلى

قتافهم وطاردتهم حتى مدينة بنبلونة عاصمة نافار ؛ وهنا تقول الرواية النصرانية إن البشكنس انقلبوا إلى المهجوم ، وهزموا المسلمين (أواخر ٩٨٧ م) . ثم تزيد على ذلك أن جيشاً من الفرنسيين ، قد سار في نفس الوقت إلى برشلونة ، تعاونه سفن من البحر ، فاستولى عليها ، ولم تلبث طويلاً في يد المسلمين . وقد رأينا فيما تقدم أن المسايين حين غزوا برشلونة ، لم يقصدوا إلى الاحتفاظ بها ، بل اكتفوا بتخريبها وإحراقها .

على أن الرواية الإسلامية تحدثنا عن غزوة نافار هذه ، دون أن تشير أية إشارة إلى هزيمة المسلمين ، وهي تسميها بغزاة البياض ، وتضع تاريخها في سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) ، وتقول لنا إن المنصور عاد بجيشه إلى سرقسطة ، حيث التقى هنالك بولده عبد الملك أثر عوده من حروب المغرب (١) .

وما كادت تمضي أشهر قلائل ، حتى عاد المنصور لاستئناف الغزو ؛ فخرج في ربيع سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) في جيش ضخم ، وعبر نهر دويرة ، واخترق أراضي ليون شمالاً ، فربط برمودو في معظم قواته بمدينة سمورة ، اعتقاداً منه أن المنصور سيبدأ بمهاجمتها ، ولكن المنصور سار توالاً إلى مدينة ليون ، فقاومه حيناً لمناعة قلاعها ، ولكنه اقتحم أسوارها ، بعد قتال رائع ، قتل فيه قائدها الكونت جونزالفو كونثال ، ودخلها المسلمون فحربوا صروحها ، وأبادوا سكانها ، وغادروها أطلالا دارسة . وسار المنصور بعد ذلك جنوباً إلى سمورة ، وأحرق في طريقه عدداً من الأديار ومنها ديرى إسلونزا وسهاجون العظيمين ، وضرب الحصار حول المدينة ، فغادرها برمودو سرّاً ، واضطر السكان إلى تسليمها إلى المنصور ، فأمر بنهبها ، واضطر معظم نبلاء المملكة (الكونتات) إلى الاعتراف بطاعته ، ولم يبق بيد برمودو من مملكته ، سوى الرقعة الجبلية الشمالية الغربية من جليقية (٢) .

وفي العام التالي وقعت بالثغر الأعلى حوادث هامة . وكان الثغر الأعلى وقاعدته سرقسطة ، لوقوعه في أقصى الشمال بعيداً عن قرطبة ، يغدو في فرص

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ و ٣٠٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ . وكذلك Crónica General ; ibid ; Vol. II: p. 446

و Dozy : Hist. Vol. II. p. 244 & 245

كثيرة مهدداً للقلقل والثورات المتعاقبة . وكان حكامه بنو هشام التجيبون الذين غلبوا على بني قسي ، وانتزعوا سرقسطة لأنفسهم ، منذ أيام الأمير عبد الله ، يتمتعون بنوع من الإستقلال المحلي ، ويحرصون على سلطانهم ، بالرغم من اعترافهم الإسمي بسلطان الحكومة المركزية . وكان حاكم الثغر الأعلى وهو يومئذ عبد الرحمن بن مطرف التجيبي ، يرقب سياسة المنصور ، في القضاء على سلطان الحكام المحليين ، بتوجس وحذر ، ويلتمس السبل لحماية سلطانه ، ولم يكن بعيداً عن التفكير في التحالف مع جيرانه من النصارى ، في نافار ، وقشتالة ، كما فعل أسلافه أيام الناصر ؛ ولكن تطور الحوادث جعله يتجه اتجاهاً آخر . ذلك أن عبد الله ابن المنصور بن أبي عامر ، كان ناقماً على أبيه لأنه يؤثر أخاه عبد الملك عايه ويصطفيه دونه ، ويوليه كل عطفه وثقته . وكان عبد الله يومئذ فتى في الحادية والعشرين من عمره ، وكان يشعر أنه يتفوق في الشجاعة والخلال على أخيه الأكبر ، ولكن المنصور كان يشك في بنوة ولده عبد الله ، ويضن عليه بحبه وثقته ، ويخشى نياته ومشاريعه^(١) . وكان عبد الله قد ذهب إلى سرقسطة ، ونزل عند صاحبها عبد الرحمن ، وهو متغير النفس على أبيه . فانتهاز التجيبي الفرصة ، واستمال عبدالله إليه ، وأذكى حقهده على أبيه ، واثمر الإثنان على الوثوب بالمنصور في أول فرصة والقضاء عليه ، على أن يقتسما ملك الأندلس ، فيستولى عبدالله على قرطبة وما والاها ، ويستولى عبد الرحمن على الثغر وأحوازه ، وانضم إليهما في تلك المؤامرة بعض أكابر الحند ورجال الدولة ، من المعارضين للمنصور والناقمين عليه ، وفي مقدمتهم الوزير عبد الله بن عبد العزيز المرواني حاكم طليطلة المعروف بالربضي .

وترامت أخبار هذه المؤامرة الخطيرة إلى المنصور قبل نضجها ، فأعمل الحيلة في استدعاء ولده عبد الله من سرقسطة ، وأبدى له كثيراً من الرفق والعطف ، وصرف الوزير المرواني عن حكم طليطلة صرفاً حميلاً ، ثم أقاله بعد ذلك من الوزارة ، واعتقله بداره . ثم خرج بالصائفة غازياً إلى أراضي قشتالة ، واستدعى أمداد الثغور ، فتوافدت إلى لقائه ، وفيهم عبد الرحمن بن مطرف ورجاله . واجتمعت الحشود بقوات قرطبة في مدينة وادي الحجارة . وهناك أجمع أهل

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ .

الثغور بوحي المنصور ، على الشكوى من عبد الرحمن بدعوى احتباسه لأرزاقهم ، فقرر المنصور إقالته ، ولكنه رأى استمالة لبني هاشم ، أن يعين مكانه في حكم سرقسطة ، ولده يحيى الملقب «بساحة» (نهاية صفر ٣٧٩ هـ) . ولم تمض على ذلك أيام قلائل ، حتى أمر المنصور بالقبض على عبد الرحمن ، ومحاسبته ، ثم أعدم بأمره فيما بعد إثر عوده إلى الزاهرة^(١) .

واستدعى المنصور في نفس الوقت ولده عبد الله إلى معسكره خشية مما قد يقع منه . ثم سار في قواته شمالاً إلى شنت إشتين ، وبينما هو مشغول بحصارها ، إذ فر ولده عبد الله في نفر من غلمانه ، ولحق بغرسية فرنانديز كونت قشتالة ، فوعده بحمايته وتأييده . فطالب المنصور غرسية بتسليم ولده ، وأقسم ألا يكف عن قتاله ، حتى ينزل على رغبته ، فأبى غرسية ، واضطرم القتال بين الفريقين ، وسار المنصور شرقاً ، واستولى على أوسمة (وخشمة) ووضع بها حامية إسلامية ، ثم استولى على «القبه» بعد ذلك بقليل ، وتوالت الخزائم على غرسية ، حتى اضطر أخيراً إلى أن يتضرع إلى المنصور أن يكف عنه ، وتعهده بإجابهته إلى سائر مطالبه ؛ فقبل المنصور ضراعتة ، وبعث غرسية عبد الله ، في جماعة من القشتاليين ، فاستقبله سعد الخادم ، مع جماعة من الفرسان ، وقبل يده ولاطفه ، ثم تركه مع بعضهم ، فأنزله عن بغله ، وأخطروه أن يتأهب للموت ، فترجل عبد الله ، وقدم نفسه للموت هادئاً ، ثبت الحنان رائع الشجاعة ، فضرب عنقه عند غروب الشمس من يوم الأربعاء ١٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٠ هـ (٩ سبتمبر ٩٩٠ م) وأنفذ برأسه في الحال إلى والده المنصور ، فبعث به المنصور مع كتاب الفتح إلى الخليفة ، ودفن شلوه في مكان مصرعه ، وكان عمره يوم إعدامه ثلاثة وعشرين عاماً . وكانت غزوة المنصور التي وقعت خلالها تلك الحوادث هي غزوته الخامسة والأربعون^(٢) .

وقد يبدو لنا المنصور ، بإقدامه على إزهاق ولده ، في أشنع الصور وأروعها . ولكن يجب علينا أن نذكر الظروف التي اضطرت فيها المنصور ، إلى اتخاذ تلك الخطوة المؤلمة ؛ فقد كان ائثار عبد الله بأبيه ، وتحالفه أولاً مع التجيبين سادة الثغر ، وخصوص الحكومة المركزية منذ بعيد ، ثم التجاؤه بعد ذلك إلى أمير قشتالة

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٤ و ٣٠٥ . وكذلك Dozy Hist.: Vol. II, p. 247 & 248

من أقطع الدلائل على مرض نفسه ، وخطورة مقصده ؛ ولو نجحت المؤامرة ،
لقضى على سلطان المنصور ، وانهارت دعائم الدولة الإسلامية العظيمة ، التي نجح
المنصور في إقامتها وتوطيدها ، ولكان المنصور نفسه حسبا كان يعتقد ، من أول
ضحاياها^(١) ، فما كان عبدالله ليتردد عندئذ في إزهاق أبيه ليفسح المجال لنفسه ،
ولقد كان تصرف المنصور قبل كل شيء تصرفاً سياسياً صارماً ، خلواً من كل
عاطفة ، إلا عاطفة الاحتفاظ بالنفس والسلطان ، وكان للمنصور في تصرفه المثير
أسوة في كل عصر ، وفي كل قطر ، بل كانت له أسوة في بني أمية أنفسهم من
أمرأ وخلفاء ، فقد قام عبد الرحمن الداخل بإزهاق ابن أخيه وأبناء عمومته ،
وأقدم الأمير عبدالله على إزهاق إخوته الثلاثة ، وإزهاق ولديه ، ثم جاء الناصر
لدين الله ، فأقدم على إزهاق ولده وأبناء عمومته ، كل ذلك بتهمة التآمر ، وحرصاً
على السلطان . وقد كان القتل ، وما زال على كثر العصور ، سلاح الطغاة الأقوياء ،
يجعلونه سياجاً لطغيانهم ودولتهم ؛ وهكذا جعل المنصور مقتل ولده سياجاً لطغيانه
فاهتز له الناس ، وملثوا وحشة وروعاً^(٢) .

هذا وأما عبدالله بن عبد العزيز المرواني ، أحد أركان المؤامرة ، فقد استطاع
الفرار في الوقت المناسب ، والتجأ إلى حماية برمودة ملك ليون .

وكان من ذبول المؤامرة أن قرر المنصور أن يعاقب غرسية فرنانديز كونت
قشتالة ، على ما ارتكبه في حقه ، باغراء ولده عبد الله وحمايته ، فحرض ولده
سانشو على الثورة عليه ، وأيده عدد كبير من الأشراف ، وانتهى سانشو بأن أعلن
الحرب على أبيه ، وجاهر المنصور بتأييده ، ثم انتهز فرصة اضطراب هذه الحرب
الأهلية ، وسار لمحاربة الكونت ، واستولى على شنت إشتين وكلونية . ثم ترك
جزءاً من قواته لمتابعة الصائفة وعاد إلى قرطبة .

وهنا تقدم الرواية الإسلامية إلينا قصة حادث مدهش ، يعتبر من أغرب
موافقات القدر ، وهو أن شاعر المنصور أبا العلاء صاعداً بن الحسن البغدادي ،
أهدى إليه أيتلاً في عنقه جبل ، وسماه غرسية باسم كونت قشتالة ، وبعث به إلى
القصر يوم السبت منتصف ربيع الثاني سنة ٣٨٥ هـ ، ومعه أبيات جاء فيها :

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ .

يا حرز كل مخوف وأمان كل مشرد ومعز كل مذل
عبد جذبت بضبعه ورفعت من مقداره أهدي إليك بأيّل
سميته غرسية وبعثته في جبله ليتاح فيه تفاؤلي

فكان من عجائب القدر ، أن تحققت نبوءة الشاعر . ففي نفس اليوم الذي قدم فيه الأيل والقصيدة إلى المنصور ، تمت الخزيمة على الكونت غرسية فرنانديز ، وجرح وأسر على ضفاف نهر دويرة ، على مقربة من بلدة «القصر» ، وذلك في يوم ٢٥ مايو سنة ٩٩٥ (منتصف ربيع الثاني ٣٨٥ هـ) . ثم توفي الكونت بعد أيام قلائل متأثراً بجراحه ، وتم الأمر لولده سانشو ، ولكنه اضطر أن يؤدي الجزية للمسلمين^(١) .

وفي خريف هذا العام سار المنصور إلى غزو ليون ومعاقبة ملكها برمودو على حمايته لعبد الله بن عبد العزيز المرواني . وكانت الأحوال قد ساءت في ليون ، واستولى الأشراف الإقطاعيون على سائر أراضيها وضياعها ، ولم يبق للملكها سوى الاسم ، واضطر برمودو أن يغادر مدينة ليون عاصمة ملكه ، وأن يتخذ أسترقة عاصمة مكانها . فلما أُرهِقه المنصور بالحرب غادر أسترقة ، والتمس الصلح من المنصور ، وسلمه المتآمر عبد الله ، وتعهد بدفع الجزية ، فأجابه المنصور إلى ما طلب . واستولى فيما بعد على مدينة سمورة ، وأسكن بها المسلمين ، وولى عليها عاملاً من قبله هو أبو الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي . وهكذا عادت قشتالة وليون إلى دفع الجزية لحكومة قرطبة^(٢) . وأما عبد الله المرواني ، فقد ألقى به المنصور إلى السجن مصفداً ، وتركه يرزح في أصفاده ، بالرغم مما رفعه إليه من القصائد المؤثرة في طلب العفو والمغفرة^(٣) .

* * *

وقد تقدم أن ابن أبي عامر اتخذ سنة ٣٧١ هـ (٩٨١ م) ، وتسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، وكانت هذه أول خطوة في اتخاذ ألقاب الملك بصفة رسمية ، بعد أن استأثر بكل سلطة فعلية .

(١) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٢٢ و ٢٣ ، وأعمال الأعلام ص ٦٨ و ٦٩ ، والمعجب لعبد الواحد (القاهرة ١٩١٤) ص ٢٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ . وراجع Dozy : Hist. Vol. II. p. 249

(٣) راجع الحلة السراء ص ١١٣ و ١١٤ .

وفي سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) أي بعد ذلك بعشرة أعوام ، اتخذ المنصور خطوة أخرى في سبيل تدعيم صفته الملوكية . فرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده ، وهو فتى لم يجاوز الثامنة عشرة ، ونزل له عن خطة الحجابة والقيادة العليا ، وسأثر الخطط الأخرى التي كان يتقلدها ، واقتصر على التسمي بالمنصور ، وأن تنفذ الكتب عنه « باسم المنصور أبي عامر وفقه الله » كما قلده ولده عبد الرحمن خطة الوزارة . ثم كانت الخطوة الثالثة بعد ذلك بخمسة أعوام ، حينما أصدر المنصور في سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) أمره ، بأن يخص بألقاب السيادة من بين سائر الناس في الخطابات ، وأن يرفع ذلك عن سائر أهل الدولة ، ونفذت الكتب بذلك ، وخطوب المنصور من ذلك الوقت « بالملك الكريم » ، وبولغ في تكريمه وتعظيمه في سائر الخطابات ، واستمر ذلك بقية حياته (١) .

ولم يك ثمة شك فيما يرمى إليه ابن أبي عامر ، من وراء هذه الخطوات المتعاقبة في سبيل الاتساح بألقاب الملك والسيادة . فهو قد حقق من الناحية العملية أمنيته الجوهرية ، بالاستيلاء على الدولة والاستئثار بكل سلطة فعلية . ولكنه كان يرمى إلى أبعد من ذلك . فهو قد أصبح أعظم وأقوى رجل في الدولة ، وقد جمع بين يديه سائر السلطات السياسية والعسكرية . وكان الجيش وهو عماد السلطان والدولة ، يتكون معظمه من البربر والنصارى المرتزقة ، ويدين للمنصور بمنتهى الولاء والإخلاص ، وهو الذي غنى بإنشائه وتنظيمه ، وقاده إلى ميادين النصر عشرين عاماً . وإذا فقد كان يبدو من هذه الظروف كلها ، أنه لم يك ثمة ما يحول دون أن يحقق المنصور غايته الأخيرة ، فيتوج حكمه بالصفة الشرعية ، وينتزع لنفسه ما بقى من رسوم الملك والخلافة ، ويؤسس بذلك لنفسه ولعقبه دولة جديدة ، تحل مكان الدولة الأموية المحتضرة .

وهناك ما يدل على أن المنصور ، كان يعتزم بالفعل أن يتخذ سمة الخلافة ؛ وهذا ما يقرره الفيلسوف ابن حزم ، ويروى تفاصيله نقلاً عن أبيه الوزير ابن حزم وزير المنصور . وملخص روايته أن المنصور جمع للمشورة في ذلك الأمر قوماً من خواصه منهم ابن حزم ، وابن عياش ، وابن فطيس من الوزراء ، وبعض الفقهاء ؛ وقد صوّب رأيه ابن عياش وابن فطيس ، ولكن ابن حزم

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٥ و ٣١٦ .

عارض فيه ، وأعرب عن خوفه من أن يحرك ذلك ساكن الأحوال ، وأن المنصور ليس في حاجة إلى مثله ، وببده سائر الأمور ؛ وتردد رأى الفقهاء بين الاعتراض والموافقة^(١) .

على أنه يبدو من جهة أخرى ، من تريث المنصور وتمهله في اتخاذ الخطوات المذكورة ، أنه كان يخشى نتائج العنف والتسرع . فما الذى كان يخشاه المنصور إذاً ، وقد اجتمعت في يده كل السلطات ، وأضحى يسيطر على سائر القوى ؟ لقد كان نهوض المنصور وتقدمه في سبيل السلطان ، مقترناً بظروف لا تساعد على اكتساب محبة الشعب وتأييده الخالص . فقد وقع عن طريق اتصاله بصبح ، بالمرأة التي كانت تسيطر على الدولة ، والتي كانت علائقه بها تثير كثيراً من الهمس والتعليق اللاذع ، وقد وقع على حساب الخليفة الطفل هشام المؤيد ، الذى استلب ابن أبى عامر سلطانه وحقوقه تباعاً ، ثم حجر عليه بطريقة قاسية تشبه الموت المدنى ، وقطع علائقه مع العالم ، ولم يكن يسمح له بمقابلة أحد ، أو بالخروج من القصر ؛ وفي الفرص النادرة التي كان يسمح بخروجه فيها ، كان يسير في موكبه وعليه برنس يحقى شخصه ، ومن حوله صفوف كثيفة من الحند ، فلا يستطيع أحد أن يراه أو يقترب منه^(٢) . وكان الشعب القرطبي يشهد أطوار هذه المأساة المؤلمة واجماً ناقماً ، ويعتبر الخليفة الشرعى ضحية وشهيداً ، يستحق كل عطفه وورثائه . ولم يكف كل ما حققه المنصور من مظاهر السلطان والمجد ، وما أحرزه من الظفر المتوالى ، وما أسبغه حكمه على الأندلس من أسباب السكينة والعزة والأمن والرخاء ، لم يكف ذلك كله لحمل الشعب على نسيان قضية خايفته الشرعى . أضف إلى ذلك كله ، تلك الوسائل الدموية المثيرة ، التي لجأ إليها ابن أبى عامر للتخلص من خصومه ومنافسيه ، فقد كانت تباعد بينه وبين الشعب ؛ ولم يكن الشعب ، إزاء هذه الظروف والعوامل كلها ، لينح ابن أبى عامر حبه وولاءه ، وإن كان من جهة أخرى يخشاه ويرهبه ، بل ويعجب بحزمه وعزمه وعبقريته في تسيير الأمور ، وفي تأمين البلاد ، وإذلال العدو .

ومن ثم كان تريث ابن أبى عامر وتحوطه . فإنه لم يكن واثقاً من إغضاء

(١) راجع فقط العروس لابن حزم ص ٧٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤١ ، ونفع الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

الشعب ، عن انقلاب حاسم يقضى به على آخر مظاهر الخلافة الشرعية ، وينزع به تراث بنى أمية . ومن جهة أخرى ، فقد كانت هناك صبح أم الخليفة المعتقل ، المحروم من كل حقوقه وسلطانه ؛ وكانت صبح قد غدت بمضى الزمن ألد خصوم ابن أبي عامر وأخطرهم . وقد رأينا كيف بدأت تعمل لمقاومته ، مذ شعرت بخطورة مشاريعه ، على مركز ولدها ، وتحاول أن تجمع من حولها كلمة الناقمين والمعارضين لابن أبي عامر ، باسم حماية الخليفة الشرعى ، وإنقاذه من نير المتغلب ، وكيف وقعت أول محاولة حقيقية لمقاومة ابن أبي عامر ، فى انقلاب صهره القائد غالب عليه ومحاربتة إياه ، ولم تبذل من ذلك الحين أية محاولة أخرى فى هذا السبيل . هذا وسلطان المنصور على كر الأعوام يتوطد ، ومركز هشام المؤيد يزداد سوءاً وانحلالاً ، وتغيب ذكرىات الخلافة ورسومها شيئاً فشيئاً .

فلما عمد المنصور أخيراً إلى اتخاذ ألقاب السيادة والملك ، شعرت صبح بأن الضربة القاضية أضحت على وشك الوقوع ، واعتزمت ان تضاعف العمل فى سبيل حماية ولدها ، وتخريه من قبضة المتغلب . فكررت ضد المنصور دعايتها القديمة ، واتهمته على يد دعايتها وأعوانها ، باغتصاب سلطان الخلافة ، ومقاومة رغبة الخليفة فى تولي الحكم بنفسه ؛ وخطر لها فى نفس الوقت أن تنصل بزيرى ابن عطية حاكم المغرب ، وأن تدفعه إلى مناوأة المنصور ، فبعثت إليه رسلها ، وأنفذت إليه الأموال سراً ، ليحشد الحند ويتأهب للعبور إلى الأندلس . وكان زيرى من أولياء بنى أمية ومن أشد المخلصين لقضيتهم ، وكان ينقم على المنصور سياسته فى الحجر على هشام ؛ وفوق ذلك فقد كان غاضباً على المنصور ، لما أساء به فى حقه حين زيارته إلى قرطبة ؛ وإذا فقد لبي زيرى دعوة صبح ، وأخذ يشهر بالمنصور وسياسته ، وحجره على الخليفة ، ويدعو إلى مقاومته ، ورد الأمر إلى الخليفة الشرعى^(١) .

وكان المنصور يقظاً ، فلم يفته شئ من خطط صبح وأعوانها . وكان أول همه أن يرفع يدها عن الأموال ، التى أخذت تفتن فى تهريبها بواسطة فيان القصر ، وكان المنصور مريضاً ، فبعث ولده عبد الملك فى قوة من الجيش إلى قصر الخلافة بقرطبة ، ومعه جمهرة من الفقهاء والوزراء ، ثم دخل بهم إلى مجلس الخليفة ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، و « نبد تاريخية فى أخبار البربر » ص ٢٧ .

وخاطبه في الأمر ، فأنكر هشام ذلك ، وتبرأ من خصومة المنصور ، ووافق على نقل المال ، فنقل فوراً إلى الزاهرة ، ولم يبق منه في خزائن القصر شيء ، ولم تجد توسلات صبح ، ولا وعيدها ، وتطاولها على عبد الملك شيئاً ، ويقال إن ما حمله المنصور يومئذ من المال بلغ عدة ملايين^(١) .

ولما أبل المنصور من مرضه بعد ذلك بقليل ، سار إلى قصر قرطبة مع ابنه عبد الملك وسائر عطاء الدولة ، وانفرد بالخليفة في مجلسه ، فاعترف له هشام بالفضل ، وحمد اضطلاعه بشئون الدولة ، وأقره على سياسته . ثم عمد المنصور إلى اتخاذ خطوة جريئة أخرى ، فأخرج هشاماً من القصر ، وأركبه في زى الخلافة في موكب عظيم ، وركب إلى جانبه ، وأمامه ولده عبد الملك ، وسار الجيش أمام الموكب ومن خلفه ، وتبع الموكب جموع عظيمة من طوائف الحند والفتيان الصقالبة . وشق هذا الموكب الخليفة شوارع قرطبة ، بين جموع حاشدة مستبشرة من الشعب ، وكان يوماً عظيماً مشهوداً ، وكان آية الظفر للمنصور وسياسته^(٢) .

وهكذا فشلت صبح في محاولتها ، ولم يسفر ذلك الصراع المتأخر إلا عن توطيد سلطان المنصور ، وحقن البقية الباقية من خصومه ومعارضيه . ولم تك صبح في الواقع أهلاً لمقاومة ذلك الرجل القوى ، خصوصاً بعد أن مكن له في كل شيء ، ولم يبق للخليفة الأموي من السلطان سوى الاسم . ولما أيقنت صبح أن المقاومة عبث ، وأنه لا منقذ لولدها من ذلك النير الحديدي ، لجأت إلى السكينة والعزلة ، فلا نسمع عنها بعد ذلك في سير الحوادث ، ولا نعرف تاريخ وفاتها بالتحقيق ، ولا نعرف إن كانت وفاتها قبل وفاة المنصور أو بعدها ، وكل ما تقوله الرواية الإسلامية في ذلك ، هو أن وفاتها كانت أيام ولدها هشام . والظاهر أنها توفيت بعد ذلك بقليل قبل وفاة المنصور ، حوالي سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) ، لأننا لانعثر باسمها بعد ذلك في حوادث الأندلس . وقد نظم شاعر العصر أبو عمر محمد ابن دراج القسطلی ، قصيدة مؤثرة يرثي فيها صبحاً « أم هشام المؤيد بالله » ، ومما جاء فيها :

(١) الذخيرة (عن ابن حيان) المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٢ - ٥٤ ، ونفح الطيب

ج ٢ ص ٩٥ .

(٢) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٤ .

هل الملك يملك ريب المنو ن أم العز يصرف صرف القضاء
ألم نر كيف استباح يد ه حريم الملوك وعلق النساء
هو الرزء أودى بعزم الماو ك مصاباً وأودى بحسن العزاء
لبيض أياديك في الصالحا ت تمسك وجه الضحى بالضياء
فتلك مآثرها في التقى وبذل اللهى ما بها من خفاء
جزاك بأعمالك الزاكيا ت خير المجازين خير الجزاء
ولقيت من ضنك ذاك الضريح نسيم النعيم وطيب الثواء^(١)

هذا وأما عن موقف زيرى بن عطية ، وتطاوله على المنصور ، فقد رد المنصور بأن قطع عنه رزق الوزارة ، ومحا اسمه من ديوانه ، واعتبره خارجاً عاصياً ؛ ورد زيرى على ذلك بأن قطع ذكر المنصور من الخطبة ، وطرد عماله بالمغرب ، وأعلن الخروج والثورة . فجهز المنصور لقتاله جيشاً عظيماً بإمرة مولاه الفتى واضح ، وأمدّه بالأموال والذخائر ؛ وعبر واضح البحر في قواته إلى طنجة ، وهناك انضمت إليه جموع غفيرة من بربر غمارة وصنهاجة ، وحالفته على قتال زيرى . وخرج زيرى في قواته والتقى الجمعان بوادى زارات جنوبى طنجة ، ونشبت بينهما معارك شديدة متصلة مدى ثلاثة أشهر ، ثم انتهت بهزيمة واضح وتمزيق جيشه ، ففر في فله إلى طنجة ، وكتب إلى المنصور يستصرخ به .

فخرج المنصور من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء ، وتوافدت إليه الجيوش ، ثم أجاز ابنه عبد الملك بمعظم قوات الأندلس وقوادها ، وأمره بالتشدد في محاربة زيرى والقضاء عليه ؛ فعبر عبد الملك البحر في قواته إلى سبتة ، واتصل خبره بزيرى فتأهب للقائه ، وبعث إلى جميع بطون زناتة يستصرخهم لنصرته ، فهرعت إليه الوفود والقوات من سائر النواحي ، وسار لقتال عبد الملك في جموع عظيمة . وزحف عبد الملك من طنجة ، ومعه الفتى واضح في قوات لا تحصى ، والتقى الفريقان بوادى منى من أحواز طنجة ، ونشبت بينهما معارك هائلة هزم البربر في نهايتها شر هزيمة ، وقتل منهم عدد ضخم ، وجرح زيرى واستولى عبد الملك على معسكره ، ثم طارده حتى مكناسة ، ففر إلى الصحراء مع نفر من أصحابه ،

(١) وردت هذه القصيدة بأكملها في ديوان ابن دراج المندثور بعناية الدكتور محمود على مكى

(ص ١١٩ - ١٢٣) ووردت كذلك في يتيمة الدهر (القاهرة ١٩٤٧) ج ٢ ص ١٠٩ و ١١٠ .

وقد أشاد شاعر العصر ابن دراج القسطلی بعبقرية المنصور وأهباته العسكرية ضد زيرى بن عطية فى قصيدة طويلة هذا مطلعها :

لك الله بالنصر العزيز كفيل	أجد مقام أم أجد رحيل
هو الفتح أما يومه فمعجل	إليك وأما صنعه فجزيل
وآيات نصر ما تزال ولم تزل	بهن عمايات الضلال تزول
سيوف تثير الحق أنى انتصيتها	وخيل يحول النصر حيث تجول
ومنها :	

لئن صديت الباب قوم يغيهم	فسيف الهدى فى راحتك صقيل
فإن يحى فيهم بغى جالوت جدهم	فأحجار داود لديك مشول
هدى وتنى يؤدى الظلام لديهما	وحق بدفع المبطلين كفيل
يجمع له منه قائد النصر عاجل	إليه ومن حسن اليقين دليل
تحمل منه البحر بحراً من القنا	يروع بها أمواجه ويهول
بكل معالاة الشراع كأنها	وقد حملت أسد الحقائق غيل ^(١)

ودخل عبد الملك مدينة فاس ظافراً ، فى نهاية شوال سنة ٣٨٧ هـ (نوفمبر ٩٩٧ م) وكتب إلى أبيه المنصور بالفتح ، فكتب إليه بعهدده على المغرب ، وعاد واضح بالخيلى إلى قرطبة . ولبث عبد الملك والياً للمغرب ستة أشهر فقط ، نظم خلالها شئونه ، ووطد أمره ، ثم عاد إلى الأندلس ، وخلفه على المغرب عيسى ابن سعيد صاحب الشرطة ، فلبث فى ولايته حتى وائل سنة ٣٨٩ هـ . ثم أقيل وخلفه الفتى واضح .

وفى تلك الأثناء كان زيرى بن عطية قد جمع فلوله من قوات زناتة ، ووافته جموع كثيرة من مغراوة ، وكانت صنهاجة قد اختلفت على أمرها ، فانهز زيرى هذه الفرصة وزحف شرقاً على بلاد صنهاجة ، وأوغل فيها ، واستولى على تاهرت وتلمسان وبعض بلاد الزاب ، وأقام بها الدعوة لهشام المؤيد وللمنصور ، ثم كتب إلى المنصور يتقرب إليه ويسترضيه ، ويؤكد حسن طاعته من جديد ، فعفا عنه المنصور ، وأعاد له لولاية المغرب ، بيد أنه لم يعيش طويلاً فتوفى فى سنة ٣٩١ هـ (١٠٠١ م) ، متأثراً بجراحه التى أصابته فى موقعة وادى منى . وخلفه فى

(١) وردت هذه القصيدة فى ديوان ابن دراج المشار إليه (ص ٣ - ٩) .

الولاية ولده المعز : فأقره المنصور ، ولبت المعز والياً للمنصور ، مقبلاً على دعوة بنى أمية ، يعمل على توطيدها بالمغرب ، إلى أن اضطرب حبل الخلافة بالأندلس (١).

* * *

وبينما كان عبد الملك المنصور بالمغرب يتم إخضاع زيرى وشيعته ، كان المنصور يتخذ الأبهة لأعظم غزاته . وكانت منطقة جليقية في قاصية اسبانيا الغربية ، تعتبر لنائها ووعورتها ، أمنع مناطق اسبانيا النصرانية ، وأبعدها عن متناول الفاتحين . ولم يفكر أحد من الغزاة المسلمين ، منذ أيام طارق أن يقصد إلى تلك المنطقة الجبلية الوعرة ، لما يعترض الوصول إليها من الصعاب الهائلة . ولكن المنصور اعتزم أن يسير إلى جليقية لسببين : الأول أنها كانت ملاذاً وملجأً للملوك ليون ، يمتنعون به كلما أرهقهم الغزوات الإسلامية ، والثاني أنها كانت مستقراً لمدينة شنتياق (أو شنت ياقب) الدينية ، كعبة إسبانيا النصرانية ومزارها المقدس ، ورمز زعامتها الروحية . وقد سبق أن عرضنا إلى نشأة هذه المدينة المقدسة ، وإلى أسطورة القديس ياقب (أو يعقوب الحواري) التي اتخذت أساساً لإنشائها ، وكيف زعمت الأسطورة أن قبر القديس يعقوب ، قد اكتشف بمعجزة وقعت في هذه المنطقة ، فأنشئت فوقه كنيسة ، وأنشئت حول الكنيسة مدينة مقدسة ، سميت باسم القديس ، وغدت عاصمة اسبانيا الدينية ، ومزاراً شهيراً يقصده النصرانيون من سائر الأندلس (٢). وقد شاء المنصور أن يضرب اسبانيا النصرانية في صميم معقلها القاصي ، وفي صميم زعامتها الروحية ، بغزو جليقية ، واقتحام مدينتها المقدسة . فخرج من قرطبة في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٨٧ هـ (٣ يولييه ٩٩٧ م) على رأس قوى الفرسان ، وفي الوقت نفسه تحرك الأسطول الأندلسي ، الذي أعده المنصور لهذه الغزوة الكبرى ، من مرساه أمام قصر أبي دانس Alcacer do Sal في مياه البرتغال الغربية ، شمالاً بجذاء الشاطئ البرتغالي ، يحمل المشاة والأقوات والذخيرة ، واخترق المنصور اسبانيا الغربية شمالاً ، وهو يعبر الجبال والأنهار العظيمة تباعاً ، حتى وصل إلى مدينة

(١) راجع حوادث المغرب في البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، وابن خلدون ج ٧ ص ٢٣ ، والإستقصاء ج ١ ص ٩٣ و ٩٤ ، و « نبد تاريخية في أخبار البربر » ص ٣٠ - ٣٥ .

(٢) راجع تفاصيل ذلك في القسم الأول من العصر الأول من « دولة الإسلام في الأندلس » ص ٢٢٠ و ٢٢١ .

قورية ؛ ثم زحف نحو الشمال الغربي ، واستولى في طريقه على مدينتي بازو وقلمرية^(١). وهنا وفد على المنصور ، عدد كبير من القوامس (الكونتات) النصارى المعترفين بطاعته ، وهم الواقعة أملاكهم في أراضي البرتغال ما بين نهري دويرة ومنيو ، وانضموا مع قواتهم إلى جيشه . ثم سار المنصور شمالاً حتى وصل إلى نهر دويرة ، وهناك وافاه الأسطول ، مخترقاً النهر من مصبه عند ثغر بورتو ، فجعل منه جسراً مريحاً لعبور جيشه وعدده وأقواته ، واتجه الجيش الإسلامي بعد ذلك صوب جليقية ، وهويقتح السهل والوعر في شعب الجبال ، ثم عبر نهر منيو (منهو) ، وسار بجذاء شاطئ المحيط ، واستولى في طريقه على بعض الحصون ، وخرب عدداً من الأديرة التاريخية في تلك المنطقة . وكانت جموع كبيرة من النصارى ، قد فرت إلى الجزائر المقابلة للشاطئ ، فعبّر المسلمون إليهم من بعض المخاض وأسروا معظمهم ، واخترقوا مفاوز الجبال المجاورة للمحيط ، واستخرجوا من لجأ إليها من النصارى ، واستصفوا غنائمها ؛ ثم اقتحموا الجبال إلى السهل ، وخربوا بلدة إيليا (إيريا) ونهبوها ، وهي أيضاً من المزارات الدينية الشهيرة . وأشرف المسلمون على مدينة شنت ياقب في يوم الأربعاء الثاني من شعبان (١١ أغسطس) ، فوجدوها خالية من أهلها ، وكانوا قد غادروها حين اقتراب الغزاة ، فدخلها المسلمون ، وهدموا أسوارها وصورحها التاريخية ، وكنيستها العظمى ، واستولوا على سائر ما فيها من الذخائر والتحف ، وأمر المنصور بصون قبر القديس ياقب القائم وسط الكنيسة العظمى ، والحفاظة عليه . ولم يجد المنصور بالكنيسة إلا شيخاً من الرهبان يجلس على القبر فسأله عن مقامه ، فقال أوأنس يعقوب ، فتركه وأمر بالكف عنه . وأخذ المسلمون أبواب المدينة ، ونواقيس الكنيسة العظمى ، وحملها الأسرى النصارى على كواهلهم حتى قرطبة ، فوضعت الأبواب فيما بعد ، في سقف الزيادة التي أنشأها المنصور بالمسجد الجامع ، وعلقت به النواقيس رؤوساً للثريات الكبرى^(٢).

وسار المنصور بعد ذلك مخترقاً أراضي برمودو التي امتنع بها وعاث فيها .

(١) هما بالإنجليزية على التوالي **Coimbra و Viseu**

(٢) تتبعنا حوادث هذه الغزوة حسبما أوردها ابن عذارى في البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٦

— ٣١٩ . وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ ، وأعمال الأعلام ص ٦٧ و ٦٨ ، ونفع الطيب ج ١ ص ١٩٣ - ١٩٥ . وكذلك **Crónica General ; ibid; Vol. II. p. 448 & 449**

ولم يستطع أحد أن يقف في سبيله ، ووصل إلى شاطئ المحيط على مقربة من بلدة كرونية (قرجيطة) . ثم انحدر جنوباً حتى وصل إلى أراضي الزعماء النصارى (القوامس) المواليين له ، والذين صحبوه في غزوته ، فأمر بالكف عنها ، وتابع سيره حتى وصل إلى مدينة لاميجو في شمال البرتغال الحديثة (وتسميها الرواية الإسلامية لميقة) ، وهناك وزع الهدايا والكسبي الفاخرة على الزعماء النصارى ، وصرفهم إلى بلادهم ، وكتب بالفتح إلى دار الخلافة ، ثم عبر نهر دويرة على النحو الذى تقدم وصفه ، وقتل راجعاً إلى قرطبة ، وفي ركبته عدد كبير من الأسرى ، ومقادير عظيمة من الغنائم . وكانت غزوة عظيمة ، استبشر بها المسلمون ، وقرت نفوسهم ، واهتزت لها اسبانيا النصرانية من أقصاها إلى أقصاها ، ولبت أثرها العميق أعواماً بعيدة ، وكانت غزوة المنصور الثامنة والأربعون .

ونظم ابن دراج القسطلى في تهنئة المنصور بغزوة « شنتياقه » (شنت ياقب) قصيدة طويلة هذا مطلعها :

اليوم أنكص إبليس على عقبه	مُبْرءاً سببُ الغاوين من سببه
واستيقنت شيع الكفار حيث نأت	في الشرق والغرب أن الشرك من كذبه
بشنتياقه لما أن دلفت له	بالبيض كالبلدر يسرى في سنا شبهه
وجلة الدين والإسلام عاطفة	عليك كالفلك الجارى على قُطْبِهِ (١)

وعلى أثر غزوة شنت ياقب اضطر برمودو ملك ليون ، بعد الذى أصاب بلاده من الهزائم والحن ، أن يسعى إلى طلب الصلح ، فبعث ولده بلايو صحبة معن بن عبد العزيز حاكم ستورة المسلم ، إلى قرطبة طالباً عقد الصلح ، فأجابه المنصور إلى ما طلب ، وانصرف راجعاً إلى أبيه (٢) . ولم يعيش برمودو طويلاً بعد ذلك ، فتوفى سنة ٩٩٩ م : وخلفه في الملك ولده الطفل ألفونسو الخامس ، تحت وصاية أحد الأشراف ، ولزم مكانه في قاصية جليقية .

وقام المنصور بعد ذلك بعدة غزوات أخرى في أراضي النصارى ، بيد أننا لا نظفر في شأنها بتفاصيل دقيقة واضحة . والظاهر من إشارة أوردها صاحب

(١) وردت هذه القصيدة في ديوان ابن دراج المتقدم ذكره (ص ٤٤٠ - ٤٤٣) .
ويلاحظ أنه قد ورد بها اسم « شنت ياقب » ، « شنتياقه » وهو أقرب إلى رسمه الإسباني Santiago .
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

البيان المغرب ، أن المنصور قام بغزوة إلى ناغار في سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م)^(١) . وفي العام التالي أعنى في سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) سار المنصور إلى أراضي قشتالة في جيش ضخم : وذلك أن الملوك والأمراء والنصارى « من حيز بنبلونة إلى أسترقه » ، اتفقوا جميعاً بزعامة سانشو غرسية كونت قشتالة ، على مقاومة المنصور والتفانى في قتاله ، وحشد سائر أمراء البشكنس وقشتالة وليون قواتهم ، وجمع سانشو غرسية سائر قواته في وسط قشتالة ، في وادى دويرة الأدنى خلف الحاجز الجبلى الوعر المسمى « صخرة جريرة » Peña Cervera ، وتعاهد الملوك والأمراء النصارى على الثبات وعدم الفرار . ورأى المنصور كعاداته أن يبادر أعداءه بالقتال ، فسار في قواته توأ إلى مدينة سالم ، ونفذ شهالا إلى أراضي قشتالة حيث يربط أعداؤه ، فلما أشرف على صخرة جريرة ، هاله ما رأى من وعورتها ، وحصانة المراكز التى يحتلها العدو ، ووفرة جموعه وعدده . ورأى سانشو أن يعجل بمهاجمة المسلمين ، قبل أن يوطدوا مراكزهم ، فاندفع النصارى فى هجوم عنيف خاطف على المسلمين ، فاضطربت ميمنة المسلمين وميسرتهم ، ودب الخلل إليهم ، وعمد إلى الفرار كثير منهم ، وكادت تدور عليهم الدائرة . ولكن القلب ، وكان يقوده ابنا المنصور عبد الملك وعبد الرحمن ، ويتألف معظمه من فرق البربر القوية الباسلة ، صمد أمام الموجة الهائلة ، وهرع المنصور إلى رابية مشرفة على الموقعة ، ومن ورائه خاصته وحاشيته ، وهو يحث رجاله وقادته على الثبات ، فلم يمض سوى قليل حتى انقلبت الآلة ، وارتد ، العدو فى غير نظام ، وتمكن أحد الزعماء البربر من قتل أحد كونتات بنى غومس^(٢) وجاء برأسه ؛ فضاعف المسلمون جهودهم ، وشددوا الوطأة على النصارى ، وأمعنوا فيهم قتلا وأسراً ، وطاردهم إلى عدة مراحل حتى مزقوهم شر ممزق . وكانت هذه الواقعة فى اليوم الرابع والعشرين من شهر شعبان سنة ٣٩٠ هـ (٣٠ يوليه سنة ١٠٠٠ م) . وخسر المسلمون فى الموقعة أكثر من سبعمائة قتيل . وتابع المنصور زحفه فى أراضي قشتالة ، وهو يدمر كل شىء فى طريقه ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢١ .

(٢) بنى غومس يسمون كذلك فى الرواية العربية ، وهم أبناء غومس دياث Gomez Diaz أحد زعماء ليون . وقد تزوج ابنة كونت قشتالة فرنان كوثالث ، وأصبحوا خلفاء له ، وكانت أملاكهم فى سالدانيا وكريون وصورة .

حتى اقتحم عاصمتها « برغش » وذلك في يوم عيد الفطر (٤ سبتمبر) ، ثم واصل سيره إلى سرقسطة ، وقام من هنالك بغزوة في أراضي ناغار ، حتى أشرف على عاصمتها بنبلونة . وكل ذلك دون أن يجزأ أحد من النصارى على الوقوف في سبيله . ثم عاد إلى قرطبة وقد أنفق في هذه الغزوات مائة يوم وتسعة أيام . ووجه على أثر عودته إلى قواده ، كتاباً ليقرأوه في الجيش . وفيه ينحى المنصور باللائمة على جنده ، لما بدا منهم من التخاذل والنكوص ، ويذكرهم بأنه لولا شجاعة فئة قليلة ، منهم ، عاوت بشأتها على إحرار النصر ومحو العار ، لانتهى بإقالتهم جميعاً (١) . وكان لهذه الغزوة ، وما لابسها من الظروف الدقيقة ، أعظم وقع في الأندلس . وكان لنصر جريرة مغزى أعمق من أى نصر أحرزه المنصور . وفيه يقول صاعد شاعر المنصور مهنتاً ، من قصيدة تعتبر من غرر قصائده :

جددت شكرى للهوى المتجدد	وعهدت عندك منه ما لم يعهد
اليوم عاش الدين وابتدأ الهدى	غضاً وعاد الملك عذب المورد
ووقفت في ثانی حنین وقفه	فرايت صنع الله يواخذ باليد
من فاته بلر وأدرك عمره	جربير فهو من الرحيل الأسعد
خملت ميامنهم عليك نشيجة	كالسيل يحطم جليداً عن جليد
ما ناجزوك وفي الجوانح موضع	لتصبر ومكانة لتجلد
طال الشقاء عليهم وتبرموا	بالجيش في الذل المقيم المقعد
فتحالفوا لمحت وتجمعوا	لمفرق وتألفوا لمبدد

وفي ربيع سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) خرج المنصور إلى الغزو لآخر مرة ، فاخترق أراضي قشتالة شمالاً ، ووصل في زحفه حتى بلدة قناليش الواقعة جنوباً ناجرة ، ثم صار غرباً في اتجاه برغش وعاث في تلك المنطقة (٢) . ولا تقدم الرواية الإسلامية عن هذه الغزوة تفاصيل أخرى ، ولا تحدثنا بالأخص عن أية موقعة حاسمة ، وقعت بين المسلمين والنصارى . ولكن بعض الروايات النصرانية الإسبانية القديمة ، تذكر لنا في هذا الموطن ، أن القوات النصرانية المتحدة ، المكونة من جيوش برمودو ملك ليون ، وغرمسى فرناندز كونت قشتالة ،

(١) راجع في تفاصيل هذه الموقعة للشميرة : أعمال الأعلام ص ٦٩ - ٧٢ .

(٢) راجع الإحاطة في أخبار فرناطة لابن الخطيب (طبعة القاهرة القديمة) ج ٢ ص ٧٢ .

وغرسية سانشيز ملك نافار ، وقفت في وجه المنصور في ظاهر بلدة صغيرة تسمى « قلعة النور »^(١) ، وتقع في غربي مدينة سرية ، وأنه وقعت بين المسلمين والنصارى ، موقعة هزم فيها المسلمون ، وقتل منهم عدة آلاف ، وأن المنصور انسحب في قواته تحت جناح الظلام ، ثم توفى بعد ذلك بقليل حزناً ونحماً ، أو من الجراح التي أصابته في الموقعة^(٢) .

ولا بأس من أن نقدم هنا خلاصة لما تذكره الرواية النصرانية من تفاصيل الموقعة ، وإليك ما يقوله في ذلك المؤرخ لافونتي . ومما هو جدير بالذكر أنه يرجع بداية حوادثها إلى سنة ١٠٠١ م ، وفي هذا الوقت كان ملك ليون ألفونسو الخامس الطفل ولد برمودو الثاني ، وكان تحت وصاية منندو كونثال كونت جليقية وزوجته دونيا مايور ، وكان يحكم قشتالة الكونت سانشو غرسييس ولد غرسي فرناندز ، ويحكم نافار الملك سانشو غرسييس الكبير .

يقول لافونتي : إنه في هذه السنة أعنى سنة ١٠٠١ م ، بدت في قلب اسبانيا المسلمة طلائع استعدادات عظيمة ، وجمع ولادة شترين وبطليوس وماردة كل قواتهم ، وعبرت حشود عظيمة من الجند البربر إلى الجزيرة ، وكانت هي الأمداد التي وعد بإرسالها المعز بن زيري من المغرب إلى المنصور ، واجتمعت جيوش إفريقية والأندلس والبرتغال المسامة في طليطلة ، فهل كان المنصور يزمع أن يضرب قشتالة التي أنعبته مقاومتها الضربة الأخيرة ؟ لقد تفاهم سانشو أمير قشتالة مع قريبه ملكي ليون ونافار على التعاون على مقاومة الجيش الإسلامي العظيم ، وأدرك الجميع ضرورة الاتحاد والتحالف . واجتمعت الجيوش النصرانية المتحدة في السهل الواقع جنوب مدينة سرية عند منابع دويرة ، قريباً من مدينة نوماثيا Numacia القديمة ؛ وكان يقود جيوش ليون وجليقية والأسترياس الكونت منندو وصي الملك الطفل ألفونسو الخامس ، ويقود قوات قشتالة ونافار ، كل ملكها .

وقدم المسلمون ، وقد انقسمت قواتهم إلى شطرين ، قوات الأندلس وقوات البربر ؛ وساروا تواءم نحو ضفاف نهر دويرة ، حتى التقوا بالنصارى في

(١) وهي بالإسبانية Calatanazor

(٢) Crónica General ; ibid ; Vol. II. p. 449

مكان يسمى « قلعة النصور ». ثم وقعت بين الفريقين مناوشات ختمها مقدم الليل ، وفي فجر اليوم التالى تأهب كل فريق ، وحشد قواته ، واختلط ضجيج المسلمين بصيحات النصارى ، وأصوات الزمار بدوى الطبول . واشتبك الفريقان بعنف ، وأخذ زعماء كل فريق يحث رجاله ويشجعهم . وكان المنصور يشب هنا وهناك كأنه نمر ، وقد شقت فرسانه صفوف القشتاليين ، وساء ما لقي من مقاومة ، فاندفعت قواته إلى الهجوم بعنف ، واستمر القتال تحت جو قائم من الغبار المتصاعد ، حتى دخل الليل ، فانفصل الجيشان دون أن يكتب النصر لأحدهما .

وأصيب المنصور خلال القتال بجراح عديدة ، فأوى إلى خيمته ، وقد علم أن كثيراً من قادته قتلوا ، وأدرك مبلغ الخسارة الفادحة التى حاقبت بجيشه ، فأصدر أوامره قبل الصبح بالارتداد . وعبر نهر دويرة ، وهو على أهبة الحرب حتى لا يفكر النصارى فى مطاردته . ثم شعر المنصور خلال السير بالإعياء والخور ، ولم يستطع أن يستمر فوق صهوة جواده لخطورة جراحه ، فحمل فى محفة إلى مدينة سالم .

ثم يقول لافونتي : إن بعض مؤرخينا ومنهم ماريانا يحاول أن يرد هذه الموقعة إلى ما قبل ذلك بثلاثة أعوام ، وأنه يوجد منهم من يقرنها بأخطاء ومغامرات خرافية بل مضحكة .

تلك هى خلاصة التفاصيل التى تسبغها الرواية النصرانية على موقعة قلعة النصور . ويلاحظ أن هذه الرواية ترجع الموقعة إلى سنة ١٠٠١ م ، وأن المؤرخ يتحدث هنا عن طبقة جديدة من الملوك النصارى ، وهم خلفاء أولئك الذين تزعم الروايات النصرانية الأخرى تحالفهم على قتال المنصور^(١) .

وقد حاول بعض الباحثين الإسبان المحدثين ، مثل سافدرا وكوديرا التذليل على صحة هذه الرواية وقبولها . ولكن فريقاً آخر من أقطاب البحث الحديث وفى مقدمتهم دوزى ، برون بطلان هذه الرواية ، ومخالفها للحقائق التاريخية الثابتة . ذلك أن برمودو ملك ليون كان قد توفى فى سنة ٩٩٩ م ، وتوفى غرسية فرنانديز كونت قشتالة فى سنة ٩٩٥ م ، وتوفى غرسية مانشيز ملك نافار فى سنة ١٠٠٠ م ،

فكيف تتحدث الرواية هنا عن تحالف الملوك الثلاثة ، وقد ماتوا جميعاً قبل الموقعة المزعومة ؟ هذا ومن جهة أخرى فإن الرواية الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه الموقعة ، وهي لا ترضى علينا في مواطن كثيرة بالتحدث عن هزائم المسلمين ، وصمتها في هذا الموطن قرينة ، على أنه لم يك ثمة موقعة ولا هزيمة^(١) . ويعلل مؤرخ إسباني معاصر هو الأستاذ مننديث بيدال ، أصل هذه الأسطورة بكونه إنما يرجع إلى ما أحرزه سانشو غرسية كونت قشتالة ، من نجاح جزئي في بعض الوقائع ، وقد حرصت الأساطير القشتالية على تسجيل هذا النجاح ، وعمدت إلى المبالغة فيه شيئاً فشيئاً^(٢) .

وعلى أثر اختتام الغزوة ، ارتد المنصور بجيشه جنوباً ، وقد لحقه الإعياء ، واشتد به المرض ، فترك جواده ، وسار نحو أسبوعين محمولا على محفة ، حتى وصل إلى مدينة سالم ، وهي معقل الثغر المنيع ، وكان من أعز أمانى المنصور أن تتركه منيته خلال الغزو ، مجاهداً في سبيل الله ، وكان دائماً يحمل معه أكفانه حيثما سار إلى الغزو ، وهي أكفان صنعت من غزل بناته ، واشترت من خالص ماله الموروث . وقد استجاب الله دعاءه ، فما كاد يحل بمدينة سالم ، حتى شعر بدنو أجله ، فاستدعى ولده عبد الملك ، وألقى إليه نصائحه الأخيرة . وفي ليلة الإثنين ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ ، الموافق ١١ أغسطس سنة ١٠٠٢ ، توفي المنصور محمد بن أبي عامر ، ودفن كرجته في صحن قصر مدينة سالم ، وذلك لسبعة وعشرين عاماً من حكمه ، وعمره أربعة وستون عاماً ، إذ كان مولده في سنة ٣٢٨ هـ ، ونقش على شاهد قبره هذان البيتان :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ولا يحصى الثغور سواه^(٣)
ولبث قبر المنصور بمدينة سالم عصوراً ، مزاراً معروفاً ، وذلك بالرغم من

(١) راجع : Dozy : Recherches : Vol. I, p. 198-202 ; Hist. V. II, p. 263

وقد نلخص العلامة المستشرق كونثال بالانثيا آراء الفريقين في كتابه :

Historia de la Espana Musulmana (4a Ed.) p. 57 & 58.

R.M. Pidal : Historia y Epopeya p. 21 (٢)

(٣) الحلة السيرة ص ١٥١ .

استيلاء النصارى على المدينة ، منذ أواخر القرن الحادى عشر. ويروى لنا ابن الخطيب ، أنه عهد إلى بعض رسله ممن وجههم إلى قشتالة ، لتأكيد عقد الصلح مع ملكها ، بأن يزور فى طريقه مدينة سالم ، وأن يشاهد قبر المنصور ، وأن هذا الرسول قد أخبره عند عوده ، أن القبر ما يزال قائماً فى مكانه إلا أن رسومه من شعر منقوش ، وتاريخ مثبت ، قد عفت ومحييت آثارها ، وقد كان ذلك فيما يبلو فى وزارة ابن الخطيب الثانية فيما بين سنتى ١٣٦١ و ١٣٧٠ م^(١).

الفصل الثاني

خلال المنصور وما ثره

الناصر والمنصور . المنصور يشق طريقه إلى السلطان . وسائله في ذلك . جيش المنصور وأهاليه . شغفه بالجهاد . نتائج غزواته . الصوائف الإسلامية . عقبها وأثرها في إنهاء الجيوش الإسلامية . عبقرية المنصور الإدارية . استقرار الأمن والرخاء في عهده . وزراء المنصور وكتابه . أعماله الإنشائية . توسيعه للمسجد الجامع . تجديده لقنطرة قرطبة وإنشاؤه لقنطرة إستجة . جوده وبذله . مفاخرته بنشأته المتواضعة . صرامته في إقامة العدل . شغفه بالشراب . براعته العلمية والأدبية . رعايته للعلماء والأدباء . صاعد البغدادى شاعر المنصور . ديوان الندماء . مجالس المنصور الأدبية . شغفه بجمع الكتب . مقتته للفلسفة والتنجيم . شعره ونثره . وصيته لابنه عبد الملك . وصيته لغلمانه . علائقه الدبلوماسية . مصاهرته لسانشو غرسية ملك فافار . وفود سانشو إلى الزاهرة . عبد الرحمن ولد المنصور وحفيد سانشو . إشادة الروايات الإسلامية بمنظمة المنصور وخلالله . إشادة التقد الغربي بعبقرية السياسية والعسكرية .

كان المنصور بن أبي عامر عبقرية فذة ، تمثل ذروة النبوغ الشعبي ، والطموح الفردى ؛ فقد خرج المنصور من صفوف الطبقة الوسطى ، وشق طريقه بساعده وهيمته إلى السلطان والرياسة ، ولم تسعفه في ذلك نشأة ملوكية ، أو انقلاب عنيف ، ولم يكن عزمه في بلوغ ذلك أقل شأناً من تألق طالعه ، وقد وصل المنصور إلى مرتبة من السلطان والقوة ، لم يصل إليها أحد قبله من أعظم أمراء الأندلس حتى ولا عبد الرحمن الناصر نفسه . ويمكننا أن نقول إنه إذا كان عهد الناصر ألمع صفحة في تاريخ اسبانيا المسلمة ، من النواحي السياسية والحضارية ، فإن عهد المنصور لا يقل عنه لمعاناً وتألقاً ، بل ربما امتاز على عهد الناصر ، بما أحرزته اسبانيا المسلمة خلاله ، من تفوق عظيم في السلطان والقوى العسكرية ، في شبه الجزيرة الإسبانية . فقد استطاعت إسبانيا النصرانية في عهد الناصر ، أن تنهز فرصة الفتن الداخلية بالأندلس ، وأن توطد قواها العسكرية ، وأن تغزو الأندلس غير مرة غزوات مخربة ، وقد لقي الناصر على يد النصارى غير هزيمة فادحة ؛ أما في عهد المنصور ، فقد انتهت اسبانيا النصرانية إلى حالة يرثى لها من التفكك والضعف ، واستمرت زهاء ثلث قرن تتلقى ضربات المسلمين الساحقة

التوالية . وقد وصل المنصور في غزواته في شبه الجزيرة الإسبانية ، إلى مواطن لم يبلغها فاتح مسلم من قبل .

بدأ المنصور حياته في حلبة العلم والدرس ، ولكن سرعان ما تفتحت مواهبه الإدارية والسياسية ، فجاز مراتب المناصب السلطانية بسرعة ، وظهر في كل منها بفائق كفايته وحزمه . وما كاد يختفي الحكم المستنصر من الميدان ويقوم ولده الطفل هشام في الخلافة ، حتى تبلورت مطامع المنصور ، واتجهت توأ إلى غايتها البعيدة ، فكان الصراع مع الفتيان الصقالبة ، ثم مع الحاجب جعفر ، ولم يتح بعد ذلك لأية قوة معارضة أن تقف في سبيله . ولما اجتمعت سائر السلطات في يده ، اتشح بثوب الحاكم المطلق ، الذي لا يطبق أية مشاركة في سلطانه أو أى اعتراض لرأيه ، ولم يدخر وسعاً في أن يخدم أية نزعة للخروج أو الثورة على حكمه . وهنا تبرز النواحي القائمة في عبقرية المنصور ، فنراه يلجأ في تدعيم سلطانه وحمايته إلى نفس الوسائل المكيفيلية التي يلجأ إليها الطغاة دائماً في كل قطر ، وفي كل عصر : إلى القتل ، والغيلة ، والخديعة ، وكل ضروب العنف المثير ، ونراه يسير إلى تحقيق الغاية بأى الوسائل ، ولا يعف في ذلك السبيل عن ظلم يقع ، أو دم يسفك ، حتى ولو كان دم ولده بالذات .

على أن هذه الوسائل المثيرة التي كانت سياجاً لسلطان المنصور ، ودعامة لدولته ، والتي هي دائماً من لوازم الحكم المطلق ، يجب ألا تحول أنظارنا عن حقيقة ناصعة أخرى ، وهي أن المنصور لم يستخدم هذا السلطان إلا لخير دينه ، وخير الأمة التي نصب نفسه حاكماً عليها ، ومشرفاً على مصايرها ؛ ولعل الإسلام في شبه الجزيرة الإسبانية ، لم يظفر قط بمجاهد في بطولة المنصور ، وتفانيه في النود عن دينه ، وإعلاء كلمته ، ولعل الأندلس لم ترق قط مثل المنصور ، زعيماً أخلص في خدمتها ، وكرس جهوده ومواهبه في بناء قوتها وعظمتها ، وسحق عدوها ، وتحقيق أمنها ورخائها .

وقد أدرك المنصور منذ البداية ، أنه يجب لتحقيق سلام الأندلس وأمنها ، وردع الممالك النصرانية عن عدوانها المستمر ، أن يكون للأندلس قوة عسكرية عظيمة ، تكفى لإرهاب عدوها ، وإعزاز دينها ، ومن ثم فقد بذل جهده لإصلاح الجيش الأندلسي ، وتقويته ، وتزويده بأفضل العناصر المحاربة . وقد رأى

المنصور أن يعتمد على البربر بالأخص ، لما كانوا يتصفون به من البداوة والشجاعة ، فاستقدمهم من العلوة ، ورغبهم بوفرة البذل والعطاء^(١) . وكذلك استخدم المرتزقة من النصارى الإسبان ، ومنحهم الأجور والجرايات السخية ؛ وكان يجمع في جيشه الكثير منهم ، ومعظمهم من المستعربين ، وكان يحرص على رضائهم بتوسيع النفقة عليهم ، ومعاملتهم بالمساواة والرفق^(٢) . واستطاع المنصور بما وضعه للجيش من أنظمة محكمة ، وما أفاض عليه من وافر النفقة والعدد ، أن ينشئ للأندلس قوة عسكرية عظيمة ، لم تعرفها في أية عهد آخر . وكانت هذه القوة فضلاً عن كونها دعامة سلطانه وحكمه ، دعامة الأندلس وأداتها للدفاع والغزو . ونستطيع أن نقدر أهمية الجيش الأندلسي وكفايته أيام المنصور ، متى ذكرنا أن المنصور لبث زهاء ربع قرن ، يقود قواته إلى الغزو المستمر ، في أراضي الممالك النصرانية ، كل ربيع وكل صيف ، وأنه في نفس الوقت كان يبعث الحملات العسكرية العظيمة إلى المغرب ، لتخوض سلسلة من الحروب الطاحنة . وقد بلغ من كثرة قوى الجيش النظامية وكفايتها ، أن أصدر المنصور في سنة ٥٣٨٨ م (٩٩٨ م) أمره بإعفاء الناس من إجبارهم على الغزو ، اكتفاء بعدد الجيش المرباط ، وقرأ الخطباء ذلك المرسوم على الناس ، لئثر قراءة كتب الفتح ، وعرفوا فيه « بأن من تطوع خيراً ، فهو خير ، ومن خف إليه ، فبرور ومأجور ، ومن تناقل فعذور »^(٣) .

وقد أورد لنا ابن الخطيب (عن التيجاني) بعض الإحصاءات الهامة عن جيش المنصور ، فذكر لنا أن الجيش المرباط (الثابت) بلغ في عهده من الفرسان اثني عشر ألف ومائة فارس من سائر الطبقات ، جميعهم مرتزقون في الديوان ، يصرف لهم السلاح والنفقة والعلوفة . وكان عدد الحرس الخاص ستمائة فارس غير الأتباع . وانتهى عدد الرجال في الجيش المرباط إلى ستة وعشرين ألف راجل . وكان عدد الجيش المرباط يتضاعف وقت الصوائف بما ينضم إليه من صفوف المتطوعة . وقد بلغ عدد الفرسان في بعض الصوائف ستة وأربعين ألفاً ، وكان عدد المشاة يتضاعف كذلك ، وقد يبلغ المائة ألف أو تزيد .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٩٩ و ٧١٥ و ٢١٦ .

(٢) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897) p. 630

(٣) أعمال الأعلام ص ٦٨ .

وأورد لنا ابن الخطيب أيضاً بيانات مفصلة عما كان يقتنيه المنصور من عتاق الخيل برسم الجهاد ، ومطايا الركوب ، ودواب الحمل ، وقد بلغت وحدها أربعة آلاف جمل خصصت لحمل الأثقال .

وأما عن عُدّة الحرب ، فقد كان المنصور يحتفظ بكليات عظيمة من الخيام والسهام والدروع ، والتراس ، وعدد من المحانيق وغيرها من آلات الحصار^(١) . وكان المنصور يضطرم شغفاً بالجهاد في سبيل الله ، وكانت غزواته التي زادت على الخمسين ، فضلاً عن كونها عنوان هذا الجهاد المستمر ، ترمى إلى غاية عسكرية وسياسية فطنة ، هي تحطيم قوى اسبانيا النصرانية ، وردعها بذلك عن العدوان على أراضي المسلمين . وقد تحققت هذه الغاية في أواخر عهد المنصور على أكمل وجه . وقد عني مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان - وقد عاش قريباً من ذلك العصر - بتفصيل هذه الغزوات في مؤلف ضخّم سماه « بالمآثر العامرية » واستخرجه من تاريخه الكبير « المقتبس »^(٢) . وكان من نتائج هذه الغزوات أن امتلأت الأندلس في عصر المنصور بالغنائم والسبي من بنات الإِسبان وأولادهم ونسائهم ، وتغالى الناس في تجهيز بناتهم بالثياب والحلى والمال ، وذلك لرخص بنات الإفرنج وركود سوق الزواج^(٣) .

وبلغ من شغف المنصور بالجهاد ، أنه كان يتولى القيادة بنفسه في سائر غزواته الصائفة والشتائية ، ولم يقعه شيء عن القيادة ، والإشتراك الفعلي في كثير من المعارك ، حتى أننا نراه في آخر غزواته يتولى القيادة بالرغم من مرضه ، ويسير محمولاً على محفة ، ثم يقضى نحوه عقب الغزو ، بين يدي جنده وفي معقل الثغر ، بعيداً عن قصوره ، ومهاد راحته ونعمائه . وكان يحرص في سائر غزواته ، على أن يستخلص ما يعلق بوجهه أو ثيابه من الغبار ، أثناء المعارك التي يخوضها ، فكان يمسحه بمناديل اجتمعت له منها رزمة كبيرة ، كان يحملها معه دائماً ، حتى

(١) أعمال الأعلام ص ٩٩ و ١٠١ و ١٠٢ .

(٢) جذوة المقتبس للحميدى (للقاهرة ١٩٥٢) ص ٧٤ ، والحلة السيرة ص ١٤٩ ، والمعجب لعبد الواحد المراكشي ص ٢١ . وذكر لنا ابن الخطيب اسم هذا المؤلف كاملاً وهو : « أخبار للدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية وما جرى فيها من الأحداث الشنيعة » كما ذكر لنا أنه يحتوي على أكثر من مائة سفر (أعمال الأعلام ص ٩٨) .

(٣) المعجب ص ٢١ .

إذا وافته المنية ضمت إلى أكفانه^(١)، ودفنت معه تنفيذاً لوصيته^(٢).
ومما يؤثر عن علائق المنصور بجيشه ، أنه كان لقوة ذاكرته ، يعرف كثيراً
من جنده بالإسم ، أو يعرف على الأقل كثيراً ممن امتاز منهم خلال المعارك
بالإقدام والشجاعة ، ويدعوهم إلى مائدته في المآدب الكبيرة ، التي اعتاد أن يقيمها
لجنده عقب كل انتصار .

بيد أننا نستطيع أن نلاحظ بعد كل ذلك ، أن سياسة المنصور العسكرية
وغزواته المتوالية المظفرة ، وإن كانت في الأصل تنطوي على غاية عسكرية وسياسية
بعيدة المدى ، هي سحق اسبانيا النصرانية ، لم تؤت ثمارها إلا في حيز ضيق ، هو
ردع اسبانيا النصرانية ، وكف عدوانها عن الأراضي الإسلامية ، ولم تقصد بالفعل
إلى الغاية الحاسمة ، وهي القضاء على قوة اسبانيا النصرانية وسمحتها بصورة نهائية ،
وهي غاية قصرت سياسة اسبانيا المسلمة عن العمل لها منذ البداية ، ومن ثم فقد
استطاعت الممالك الإسبانية النصرانية ، أن تعيش ، وأن تنمو قواها تبعاً ، وأن
تغزو بمضي الزمن ، مناوئاً خطراً لاسبانيا المسلمة ، يستغرق قواها باستمرار ،
ويشغلها في كفاح مدمر مستمر .

وهنا ، وعلى ضوء هذا الكفاح العقيم الذي استمر أجيالاً بين اسبانيا المسلمة
واسبانيا النصرانية ، لانرى مندوحة ، من أن نحكم على سياسة الصوائف أو
الغزوات الإسلامية العارضة ، التي كانت تقليداً عسكرياً إسلامياً ، في معظم
الدول الإسلامية المتاخمة للدول النصرانية ، فنقول إنها كانت من الناحية العسكرية
تقوم على أسلوب خاطئ ، وقد كانت تنهك الجيوش الإسلامية بقلدر ما تنهك
جيوش العدو ، ولم يكن لها غاية محدودة مستقرة . وليس أدل على ذلك من
تاريخ الصوائف أو الغزوات الإسلامية الموسمية أيام الدولة العباسية في أراضي
الدولة البيزنطية ، فقد كان معظمها حملات غازية تقصد إلى العيث في أرض
العدو ، وإلى إحراز الغنائم المؤقتة الإقليمية وغيرها ، ولم تنجح في تحطيم قوى
الدولة البيزنطية أو سحقها . وقد كان عقم هذه الغزوات العارضة أشد وأوضح في
الأندلس ، حيث لبثت الدولة الأندلسية ، إبان قوتها وتفوقها ، عصوراً ، تقتصر
على الصوائف وما إليها من الغزوات الموسمية برسم الجهاد أو الانتقام من العدو ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ ، والمعجب ص ٢١ .

وتنهك بذلك قوى الجيوش الإسلامية ومواردها بصورة مستمرة ، وذلك دون أن تحقق غاية ثابتة مستقرة ، أو توفق إلى القضاء على القوى الخصيمة بصورة حاسمة . ولقد اجتمعت لاسبانيا المسلمة في عصر المنصور أعظم القوى والموارد العسكرية التي اجتمعت لها في أى عصر سابق أو لاحق ، وكانت هذه القوى الزاخرة ، التي كان رائدها المنصور ، وهو أعظم شخصية سياسية وعسكرية ، أتيح لها أن تقود الأندلس ، وأن تسهر على مصارها — كانت هذه القوى كفيلة بسحق الممالك الإسبانية النصرانية لو أنها وجهت نحو هذه الغاية توجيهاً صائباً . ويقدر النقد الإسباني الحديث نفسه هذه الحقيقة ، فيقول لنا إن غزوات المنصور ، ودفعه حدود النصراني إلى ما وراء نهر دوبرة ، وافتتاحه لقلورية وسمورة وليون وشتياق وكويانسا وشت منكش وأوسمة وبرشلونة ، دفع اسبانيا النصرانية إلى حافة الخراب تقريباً ، وقضى هذا البعث لقوة الإسلام على كل أمل في « الإسترداد » .^(١) La Reconquista .

ولكن غزوات المنصور على كثرتها ، وعلى ما أسبغ عليها من طابع النصر المستمر ، لم تخرج كثيراً عن حيز الصوائف والغزوات الإسلامية العارضة ، التي تحقق أية غاية مستقرة ثابتة .

وأما عن مقدرة المنصور في الإدارة والحكم ، فإن للكلام فيها حري بأن يطول ، فقد أبدى المنصور طوال حياته كفاية إدارية مدهشة ، وظهر في سائر المناصب التي أسندت إليه ، مذ تولى وكالة هشام ولى العهد ، فأمانة دارالسكة والخزانة ، ثم خطة الموارث ، فخطة القضاء ، ثم الشرطة ، فالإشراف على الحشم والخاص ؛ ظهر فيها جميعاً براعته وحصافته ، وحسن تصرفه ؛ ثم ظهرت هذه المقدرة على أتمها مذ ولى الحجابة ، واستأثر بسائر السلطات ، واحتمل فوق كاهله سائر المسؤوليات الكبرى . فقد غدا المنصور زعيم الأندلس ، وحاكمها الأوحده ، والمشرف على مصارها في الحرب والسلم ؛ وقد أبدى المنصور في اضطلاع به بتلك المهمة العظمى ، مقدرة فائقة ، لم يدها أحد من أسلافه . فلم تر الأندلس من قبل استقراراً كالذى رأته في عهد المنصور ، ولم تتمتع قط بمثل ما تمتعت به في عهد المنصور ، من الأمن والطمأنينة والدعة . وكانت أيام المنصور بالأندلس كلها

أيام فخار وظفر ورخاء ورغد ، لم تعان خلالها من غزوات العدو المخربة ، ولم تصب فيها بأية هزيمة ذات شأن ، ولم تضطرم فيها أية ثورة أو فتنة ؛ وفيها ازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة ، وزهت العلوم والآداب ، وعم الخصب والرخاء في جنبات الأندلس ، وفاضت خزائن قرطبة بالإموال ، ووصل محصل الحباية يومئذ إلى أربعة آلاف ألف دينار (أربعة ملايين) سوى رسوم الموارث ، وسوى مال السبي والغنائم ، وما ينتج من المصادرات وأمثالها مما لا يرجع إلى قانون . وكانت النفقات السلطانية تبلغ في الشهر نحو مائتي ألف دينار ، فاذا دخل شهر يونيه ، وحلت الصائفة ، تضاعفت النفقة بسبب الاستعداد للغزو ، ووصلت إلى خمسمائة ألف في الشهر أو أكثر (١) .

وكانت حكومة المنصور تضم عدة من أقدر رجالات الأندلس في هذا العصر ما بين وزراء وكتاب . وكان من وزرائه ، أبو مروان عبد الملك بن شهيد ، ومحمد بن جهور ، وعيسى بن فطيس وأبو ، عبدالله بن عياش ، وأحمد بن محمد ابن حدير ، ومحمد بن حفص بن جابر ، وأحمد بن سعيد بن حزم والد الفيلسوف الشهير ، وكان من أقدر وزراء المنصور وآثرهم لديه ، وكان المنصور قد استوزره قبل سائر أصحابه في سنة ٣٨١ هـ ، وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه على المملكة في أوقات معينة ، ويعهد إليه بنخاته ؛ والظاهر أنه لما بلغ ذروة النفوذ والسلطان ، شمخ بأنفه ، وبدرت منه بوادر الدالة والاعتداد ، فتغير عليه المنصور ، وأقصاه عن خدمة الوزارة ، وبعثه إلى كورة الغرب لينظر في شئونها ، ثم عاد بعد قليل فأعاده إلى حسن رأيه ، وردّه إلى منصبه في الوزارة ، وكان ابن حزم من أكابر أهل العلم والبلاغة (٢) . وكان من كتاب المنصور عيسى بن سعيد القطاع ، وهو من أقدم كتابه ، وكان من أنصاره ومعاونيه منذ أيام الحكم ، فبلغ في ظله وتحت كنفه أرفع مكانة ، وكان فوق ذلك من أخصائه ورفاقه في مجالس أنسه ترتفع بينهما الكلفة ؛ وكان منهم ، أبو مروان عبد الملك بن إدريس الخولاني ، وخلف ابن حسين بن حيان والد المؤرخ ، وغيرهم . وكانت هذه الصفوة من الوزراء والكتاب ، الذين ينتمى معظمهم إلى أمر عريقة تعاقب أبتاؤها في الوزارة ، مثل آل شهيد ، وآل عبدة ، وآل جهور ، وآل فطيس ، وآل حدير وغيرهم ،

(١) أعمال الأعلام ص ٨٩ .

(٢) كتاب ، إصاب الكتاب ، لابن الأهار - مخطوط الإسكوريال - لوحة ٥٢ و ٥٤ .

من حللوا عهد الدولة الأموية ، وعملوا على توطيد دعائمها ، تعمل مع المنصور على تسير دفة الحكم بمقدرة فائقة . وكان من هؤلاء الوزراء من يتصل بالمنصور برباط المودة الشخصية الوثيقة ، ويشاطره شغفه بالشعر والأدب ، ويغشى مجالس أنسه وشرابه ، مثل عبد الملك بن شهيد ، وأبي عبد الله بن عياش ، وعيسى ابن سعيد . هذا وكان ممن اشترك مع المنصور في الحجابة في بداية عهده ، بعد المصحف ، جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي ، والقائد غالب بن عبد الرحمن ، الذي جمع بين القيادة والحجابة حيناً ، وقد رأينا كيف لقي كل منهما مصرعه بعد ذلك على النحو الذي تقدم ذكره (١) .

• • •

ولم يخل انشغال المنصور طوال عهده بالغزو المستمر ، عن القيام بأعمال الإنشاء العظيمة . فقد أنشأ مدينة الزاهرة ، وقصورها المنيفة ، وحدائقها الغناء ، واتخذها كما تقدم مركزاً للإدارة والحكم . ثم ابتنى إلى جانبها منية جميلة ذات قصر وحدائق رائعة ، يرتادها للاستجمام والتنزه ، وسماها «بالعامرية» . وقد كان جمال هاتين الضاحيتين العامريتين ، مستقى للأوصاف الشعرية والنثرية الرائعة . ومما قيل في العامرية أبيات لعمر بن أبي الحباب أنشدها ، وقد دخل يوماً على المنصور بقصر المنية ، والروض قد تفتحت أزهاره :

لا يوم كالיום من أيامك الأول	بالعامرية ذات الماء والظلل
هواؤها في جميع الدهر معتدل	طيباً وأن حل فصل غير معتدل
ما إن يبالي الذي يحتمل ساحتها	بالسعد ألا تحل الشمس بالحمل
كأنما غرست في ساعة وبدا الس	وسان من حينه فيها على عجل (٢)

وكان من أعظم وأجل أعمال المنصور زيادة المسجد الجامع . وكانت قرطبة قد اتسعت رقعتها اتساعاً عظيماً منذ أيام الناصر ، واضطرد هذا الاتساع في أيام المنصور حتى بلغت مبلغاً عظيماً ، وبلغت أرباض المدينة أغنى أحيائها يومئذ .

(١) راجع في ذكر وزراء المنصور : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٩٠ و ٢٩٩ ، وأعمال الأعلام ص ٧٠ و ٧٥ و ٨٠ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤ ، وللذخيرة ، لقسم الرابع ، المجلد الأول ص ١٧ و ٥٦ .

(٢) راجع بعض هذه القصائد والأوصاف في البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٦ و ٢٩٧ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ و ٢٧٣ .

لإحدى وعشرين ربيعاً « كل ربيع فيها يعد أكبر مدينة من مدائن الأندلس » .
وقد ذكر ابن الخطيب لنا أسماءها ومواقعها تفصيلاً ، وبلغ خندقها المحيط بها
ما عدا ناحية النهر سبعة وأربعين ألف وخمسمائة ذراع أى ستة عشر ميلاً^(١) ،
وزاد سكانها فى نفس الوقت زيادة كبيرة ، ولاسيما منذ مقدم طوائف البربر
الكثيرة عليها ، فى بداية عهد المنصور ، وضافت رحبات المسجد الجامع برواده ،
ولا سيما فى أيام الجمع . فرأى المنصور أن يقيم للجامع من ناحيته الشرقية جناحاً
جديداً ، لأن ناحيته الغربية كانت متصلة بالقصور الملكية . وشرع فى إنشاء هذا
الجناح فى سنة ٣٨٧ هـ (٩٨٧ م) ، فأقيم بجذاء الجامع من شماله إلى جنوبه ، على
رقعة شامعة تكاد تعدل مساحته الأصلية ، وروعت فى إنشائه البساطة والمتانة
قبل الزخرفة ، كما روعى التماثل والمطابقة للصرح القديم ؛ ونزعت من أجل
ذلك ملكية عدد كبير من الأماكن والدور ، حرص المنصور على أن ينصف
أصحابها فيما يستحقونه من ثمن أو معاوضة . وتضاعف حجم المسجد الجامع بهذه
الزيادة ، وأضحى يحتل رقعة عظيمة شامعة تبلغ فى الطول مائة وثمانين متراً ،
وفى العرض مائة وخمسة وثلاثين متراً . وكان يشغل فيه عدد كبير من الأسرى
النصارى ، الذين أخذوا فى مختلف المعارك . وكان المنصور يشترك بنفسه أحياناً
فى أعمال البناء . وبلغ عدد سواريه ما بين كبيرة وصغيرة ، ألف وأربعمائة وسبعة
عشرة ، وبنغت ثرياته ما بين صغيرة وكبيرة مائتان وثمانون ، وبلغ عدد المكلفين
بالخدمة به فى عهد المنصور ، ما بين أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وغيرهم
مائة وخمسون شخصاً ، وكان الجامع وما حوله يعتبر وحده ربيعاً مستقلاً يتولاه
عريفه وحراسه على حدة^(٢) . وما زال جناح المنصور بمسجد قرطبة الجامع حتى
اليوم ، قائماً بسائر رحابه وعقوده وسواريه ، وذلك بالرغم من تحويل عقوده
الجانبية إلى كنائس وهياكل ، ويعرفه الأثريون « بمسجد المنصور »^(٣) .
وجدد المنصور قنطرة قرطبة القائمة على نهر الوادى الكبير ، وراء المسجد

(١) أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

(٢) أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

(٣) راجع فى زيادة المنصور للمسجد الجامع ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٨ ،
ونفح الطيب ج ١ ص ٢٥٧ . وراجع كتابي « الآثار الأندلسية الباقية » حيث يوصف جامع قرطبة
بحالته الحاضرة تفصيلاً الطبعة الثانية (ص ٢٠ - ٣١) .

الجامع ، وكانت في الأصل قنطرة رومانية ، فجددها السمع بن مالك أمير الأندلس ثم جاء المنصور فجددها ، وأعاد بناءها ، وذلك في سنة ٥٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) ، وتم بناؤها في سنة ونصف ، وبلغت النفقة عليها مائة وأربعين ألف دينار ، وعظم بها نفع القرطبيين .

وابتني المنصور كذلك قنطرة إستجة على نهر شنيل ، فرع الوادي الكبير ، واقتضى إنشاؤها كثيراً من الجهد والنفقة ، ولكنها حققت تسهيلات عظيمة ، في مواصلات قرطبة بالقواعد والولايات الغربية والجنوبية^(١) .

• • •

وكان المنصور ، على الرغم من صرامته ، وما لحق إليه لتوطيد حكمه من الوسائل المثيرة ، يتسم بصفات عديدة مؤثرة ، فقد كان جواداً وافر الجود والبذل ، يغدق صلاته على من يستحقها من العاملين معه والمتصلين به ، وعلى الفقراء وذوى الحاجات ، وله في ذلك حكايات كثيرة .

وكان يفاخر بنشأته المتواضعة ، ويقلل من شأن نفسه . وذكر المؤرخ ابن حبان في كتابه في «أخبار الدولة العامية» عن والده خلف بن حبان كاتب المنصور ، أن المنصور لامه ذات يوم لأمر من الأمور ، فبدا عليه الفزع ، فأشفق عليه المنصور وهدأ من روعه ، ثم خلا به بعد أيام وقال له : « رأيت من ذعرك ما استنكرت ، ومن وثق بالله برئ من الحول ، والقوة لله ، وإنما أنا آله من آلاته أسطو بقدرته ، وأعمل عن إذنه ، ولا أملك لنفسي إلا ما أملك ، ... فطأ من جأشك ، وإنما أنا ابن امرأة من تميم طالما تقوت بضمن غزها ، أغدوبه إلى السوق ، وأنا أفرح الناس بمكانه ، ثم جاء من أمر الله ما تراه ، ومن أنا عند الله لولا عطفي على المستضعف المظلوم ، وسيري لجهاد الطاغية »^(٢) .

وكان ورعاً ، شديد الإيمان واليقين ، يخشى ربه ، ويزدجر إذا ذكر الله وعقابه . وكانت هذه أعجب الحلال في رجل كالمنصور ، لم يعف عن سفك الدماء في سبيل تحقيق أطماعه . ولكنها حقيقة تنوه بها الرواية الإسلامية وتؤكددها ، ومن دلائلها أن المنصور ، كان يحمل معه في سائر غزواته وأسفاره مصحفاً

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٩١ ، وأعمال الأعلام ص ٧٦ .

(٢) إعتاب الكتاب لابن الأبار - مخطوط الإسكوريال - لوحة ٥٦ .

خطه بيده ، يقرأ فيه ويتبرك به في كل مناسبة^(١).

وكذلك تنوه الرواية بعدالة المنصور ، وصرامته في إحقاق الحق ، والانتصاف لذوى المظالم . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب عدة أمثلة رفعت فيها الظلامات إلى المنصور ضد بعض أكاير خدمه وحاشيته ، ممن كانوا يظنون أن مراكرهم تحميهم من إجراء العدالة ، فأمر المنصور بالانتصاف منهم لذوى الظلامات . وكان يقرن بهذه الصفة ، خلة محمودة أخرى ، هي تذرعه بالحلم والصبر ، وضبط النفس في أمور كثيرة ، وذلك بالرغم مما كان عليه من الهيبة والرغبة والسلطان^(٢) ، ولكن الرواية تنعى على المنصور خلة سيئة ، هي شغفه بمعاقرة الخمر ، وقد لازمته هذه الرذيلة طوال حياته ، ولم يقلع عنها إلا قبل وفاته بعامين . ويصف لنا ابن الخطيب كيف كان المنصور يصل في العمل يومه بليله ، وهو عاكف على الشراب ، في تلك الفقرة البليغة : « وكانت الجزالة والرجولة ثوبه الذي لم تخلعه ، إلى أن وصل إلى ربه ، والحزم والحذر شعاره الذي لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهو شأنه في يومه وليله ، لا يفضل لذة على تديره ، وحلاوة نبيه وأمره ، فينفذ الأمور ، والكأس تدور ، والجبال للطرب تمور »^(٣).

* * *

بقيت من خلال المنصور ناحية ربما كانت ألمع خلاله جميعاً ، وتلك هي الناحية العلمية .

نشأ المنصور حسياً رأياً في بيت علم وأدب ، ودرس وفقاً لتقاليد أسرته دراسة حسنة ، وبرع في الشريعة والأدب ، وكان حرياً به أن يتبوأ مكانه بين علماء عصره ، لولا أن شاءت الأقدار أن تدفع به إلى معترك السياسة والسلطان . على أن المنصور لبث بالرغم من مشاغل هذا المعترك السياسي الخضم ، يحتفظ طوال حياته بشغفه بالعلم والأدب ، ويوثق صلاته بالعلماء والأدباء والشعراء ويؤثرهم بحبه وعطفه ، ويجمعهم حوله في أوقات فراغه وسويغات لهو وأنسه ، ويساجلهم بالبحث والمناظرة ، ويطارحهم قرض الشعر ، ذلك لأن المنصور كان شاعراً أيضاً ، وله نظم حسن سوف نورد شيئاً منه .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ و ٣١٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ - ٣١٢ ، والحلة الميراء ص ١٥١ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ ، وأعمال الأعلام ص ٧٥ .

وكان من أخص جلسائه الأدباء ، الكاتب البغدادي ، أبو العلا صاعد ابن الحسن . وكان قد وفد من المشرق على الأندلس سنة ٣٨٠ هـ ، والمنصور في أوج سلطانه ، فأراد المنصور أن يجعل منه قريباً لأبي على القالي ، الوافد من قبل على الناصر والحكم ، فقربه وأذن له أن يجلس بجامع مدينة الزاهرة ، يملئ كتابه المسمى « بالفصوص » على أدباء قرطبة ، وهو كتاب في الآداب والأخبار والأشعار ، ولكن أدباء قرطبة أنكروا ما ورد فيه ، وكذبوه في كثير مما يلقيه ، وفضحوا كثيراً من سرقاته الأدبية والشعرية^(١). ومع ذلك فقد كان صاعد أديباً بارعاً ، خفيف الروح ، متوقد الذهن ، حاضر البديهة ، وكان يأتي بكثير من غريب الشعر بداهة ، فأعجب به المنصور ، وأولاه رعايته ، وألحقه بديوان الندماء ، وأجرى عليه راتباً حسناً ؛ وكان بهذا الديوان بعض أدباء العصر مثل زيادة الله بن مضر الطنبلي ، وابن العريف ، وابن التياني ، وغيرهم . وغدا صاعد شاعر المنصور ينظم له المدائح والظروف ، وبسطحبه المنصور في نزحاته رياض الزاهرة ، وينظمه في مجالس أدبه وأنسه . وقد أورد لنا ابن بسام وصفاً مسهباً لهذه المجالس الأدبية ، التي يجتمع فيها المنصور بخلائه وندمائه ومنهم صاعد ، وأورد لنا كثيراً مما قيل فيها من النظم . وقد كان بعض الفتيان الصقالبة من بطانة المنصور ، يأخذ بقسط حسن من الشعر والأدب ، ويغشي مجالس المنصور الأدبية ويشترك في المطارحات الشعرية ، وكان من أشهرهم الفتى فائن ، وكان من أبرع العارفين منهم باللغة والأدب . وقد كان للفتيان الصقالبة في الواقع تراث من الشعر والأدب ، واشتهروا بذلك أيام المنصور خاصة ، وأصدر أحدهم في ذلك كتاباً سماه « الإستظهار والمغالبة على من أنكروا فضل الصقالبة » ، ضمنه كثيراً من أشعارهم ونوادر أخبارهم^(٢).

ولبت صاعد على مكانته حتى وفاة المنصور ، ومن بعده حتى نهاية الدولة العامرية ، ثم أفل نجمه بعد ذلك ، وساءت أحواله عند ظهور الفتنة ، فغادر الأندلس متخفياً في سنة ٤٠٣ هـ ، وجاز البحر إلى صقلية ، واتصل بأمرها فأولاه رعايته ، وحسنت حاله ، وكانت وفاته بها في سنة ٤١٠ هـ .

(١) الصلة لابن بشكوال (طبعة القاهرة) رقم ٤٠ .

(٢) راجع للخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٧ - ٢٢ ، والمعجب ص ١٦ . د ١٧ هـ .

وكان للمنصور ، فضلاً عن مجالس الأدب والأنس العارة ، مجلس أسبوعي يعقده للبحث والمناظرة ، ويشهده كثير من العلماء والأدباء^(١) . وكان في غزواته يستصحب بعض العلماء والأدباء من أصدقائه ، إذ كان شغف البحث والمناظرة ، يلزمه دائماً حتى في ميدان الحرب ؛ وإلى جانب هذا الشغف الشخصي بالحياة العقلية ، كان المنصور مولعاً بالعمل على نشر العلم والمعرفة بين طبقات الشعب ، فأنشأ كثيراً من دور العلم بقرطبة ، وبالغ في الإنفاق عليها ، وكان يزور المدارس والمساجد ، ويجالس الطلاب أحياناً ، ويمنح المكافآت النفيسة لمن يستحقها .

وإلى جانب هذا الشغف بالآداب والعلوم ونشر الحياة العقلية ، كان المنصور يشغف أيضاً بجمع الكتب ، وكان أكابر المؤلفين يهدون إليه كتبهم ، على نحو ما كان متبعاً أيام الحكم ، ومن ذلك أن صاعداً البغدادي أهدى إليه كتاب « الفصوص » المتقدم ذكره ، فأثابه عنه بخمسمائة دينار^(٢) .

وكان المنصور يمتق الفلسفة وما إليها ، ويرى أنها مخالفة للدين ، ويكره التنجيم والمنجمين ، وقد أمر بأن يستخرج من المكتبة الأموية العظيمة (مكتبة الحكم المستنصر) سائر كتب الفلاسفة والدهريين ، وأن تحرق بمحض من كبار العلماء ، وفي مقدمتهم أبو العباس بن ذكوان ، وأبوبكر الزبيدي ، والأصيلي وغيرهم ، وكان ذلك بلا ريب عملاً غير موفق ، وكان خسارة علمية فادحة . وينهى المستشرق سيمونيت على المنصور هذا التصرف ، فيقول : إنه إذا كان الحكم الثاني قد استطاع لنزعته العلمية والأدبية أن يحمي الفلاسفة ، فقد جاء المنصور من بعده فقام بحرق كتب الفلسفة التي كانت بمكتبة الحكم ، وذلك لكي يرضى الفقهاء واللاهية^(٣) . واشتد المنصور أيضاً في مطاردة المنجمين ، وبلغه أن أحدهم وهو محمد بن أبي جمعة ، يهجس في تنبؤاته بانقراض دولته ، فأمر بقطع لسانه وقتله ، فخرست ألسن المنجمين جميعاً^(٤) .

(١) راجع جذوة المقتبس للحميدى ص ٧٣ ، والمعجب ص ٢٠ .

(٢) الصلة لابن بشكوال رقم ٤٠ .

(٣) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana ; p. 351

(٤) البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٥ ، وأعمال الأعلام ص ٧٧ .

وللمنصور شعر جيد ، نظمه في مختلف مناسبات حياته ، ومن ذلك قوله في الفخر :

رميت بنفسى هول كل عظمة	وخاطرت والحر الكريم بخاطر
وما صاحبي إلا جنان مشيع	وأسمر خطى وأبيض باتر
ولاني لزجاء الحيوش إلى الوغى	أسود تلاقيها أسود خوادر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة	وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر
وما شدت بنياناً ولكن زيادة	على ما بنى عبد المليك وعامر
رفعنا العوالى بالعوالى مثلها	وأورثناها في القديم معافر
وقوله يتهدد الفاطمين بمصر ، ويمنى نفسه بفتح مصر والشام :	
منع العين أن تنوق المناما	حبا أن ترى الصفاء والمقاما
لى ديون بالشرق عند أناس	قد أخلوا بالمشعرين الحراما
إن قضوها نالوا الأمانى وإلا	جعلوا دونها رقاباً وهاماً
عن قريب ترى خيول هشام	يلغ النيل خطوها والشاماً

وأما عن نثر المنصور ، فقد رأينا أن نورد نموذجاً له ، وصيته لولده عبد الملك حينما حضرته الوفاة ، وقد نقلها إلينا ابن حيان عن أبيه خلف بن حسين ، وهذا نصها :

« يا بني : لست تجد أنصح لك ، ولا أشفق عليك منى ، فلا تعدّين وصيتي ، فقد جردت لك رأيتي ورويتي ، على حين اجتماع من ذهني ، فاجعلها مثالا بين عينيك . وقد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها ، وغابت لك بين دخل المملكة وخرجها ، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها ، وخلفت لك جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك في الإنفاق ، ولا تقيض لظلمة العمال ، فيختل أمرك سريعاً ، فكل سرف راجع إلى اختلال لا محالة ، فاقصد في أمرك جهدك ، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك ، والرعية قد استقصيت لك تقويمها ، وأعظم منهاها أن تأمن البادرة ، وتسكن إلى لن الخنية . وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه ، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة ، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة ، مع

قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه . فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيمك الحنث في عيبي البيعة ، إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة ، فأما الانفراد بالتدبير دونه ، مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فلإني أرجو أني وإياك منه في سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة . والمال المخزون عند والدتك ، هو ذخيرة مملكتك وعدة لحاجة تنزل بك ، فأقمه مقام الجارحة من جوارحك التي لا تبذلها إلا عند الشدة ، تخاف منها على سائر جسدك . ومادة الخراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة . وأخوك عبد الرحمن قد صيرت إليه في حياتي ما رجوت أني قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثي ، وأخرجته عن ولاية الثغر ، لئلا يجد العدو مساعاً بينكما في خلاف وصيتي ، فيسرع ذلك في نقض أمري ، ويجلب الفاقة على دولتي . وقد كفيتك الحيرة فيه ، فأكفه الحيف منك عليه ، وكذلك سائر أهلك فيما صنعت فيهم ، بحسب مما قدرت به خلاصي من مال الله الذي في يدي . وخلافتك بعدى أجدي عليهم مما صرفته ، فلا تضع أمر جميعهم ، والحظهم بعيني فلأنك أبوهم بعدى . فان انتقادت لك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل ، وسبيل السيرة ، وإن اعتاصت عليك ، فلا تلقين بيدك لإلقاء الأمة ، ولا تبطر بك وأصحابك السلامة ، فتنسوا مالكم في نفوس بني أمية وشيعتهم بقرطبة . فإن قاومت من توثب عليك منهم ، فلا تذهل عن الحزم فيهم ، وإن خفت الضعف فانتبذ بخاصتك وغلماذك ، إلى بعض الأطراف التي حصنتها لك ، واختبر غلك إن أنكرت يومك . وإياك أن تضع يدك في يد مرواني ما طاوعتك بنانك ، فلإني أعرف ذنبي إليهم » .

وهذه وصيته لغلماذه نقلها إلينا أيضاً ابن حيان عن أبيه :

« تنهوا لأمركم واحفظوا نعمة الله عليكم ، في طاعة عبد الملك أخيك ومولاكم ولا تغرنكم بوارق بني أمية ومواعيد من يطلب منهم شتاتكم ، وقلدروا ما في قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد عليكم ، فليس يرأسكم بعدى أشفق عليكم من ولدي . وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد ، وأن تكون جماعتكم كرجل واحد ، فإنه لا يقل فيكم » (١) .

(١) نقل إلينا ابن بسام (عن ابن حيان) هذين النصين في الذخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٥٦ - ٥٨ . ونقلهما ابن الخطيب أيضاً في أعمال الأعلام ص ٨١ و ٨٢ .

وفي وصية المنصور لولده وغلمايه ، برسم برنامج سياسته كلها ، وتبلو بالأخص نواحي توجسه وتخوفه ، فهو لم يكن يأمن جانب بني أمية قط ، وقد لبث يتوقع الشر منهم حتى وفاته . ثم توفي وهو يتوقع الشر منهم لبنيه ودولته ، وقد كان المنصور في ذلك صائب التقدير ، بعيد النظر .

* * *

هذا وأما علائق المنصور الدبلوماسية فإنه لم يتح له عقد الكثير منها ، ولم تقد إليه سفارات من ملوك النصارى على نحو ما حدث أيام الناصر والحكم المستنصر . ذلك لأن عهد المنصور كان كله عهد حروب مستمرة ، بين الأندلس وبين اسبانيا النصرانية ، ولم يقع بين الفريقين تهدن أو سلم طويل الأمد . وكل ما نستطيع أن نسجله من ذلك حادثان متشابهان ، أولهما قلوب برمودو الثاني ملك ليون إلى قرطبة في سنة ٩٨٥ م ، مستجيراً بالمنصور ليعاونه على مقاومة الأشراف الخارجين عليه وتوطيد عرشه . وقد أجابه المنصور إلى طلبه وبادر بمعونه . ومما هو جدير بالذكر أن برمودو قدم ابنته تريسا Teresa بعد ذلك إلى المنصور عروساً له ، فقبلها المنصور وتزوجها أو اتخذها سرية له (١) .

والثاني ، وهو من أشهر الحوادث الشائقة التي وقعت أيام المنصور ، هو مقدم سانشو غرسية ملك نافار على المنصور ، معترداً إليه ، لائذاً بعفوه ومهادنته ، والوجه الشائق في ذلك هو أن سانشو غرسية هذا كان صهرراً للمنصور ، وكان تقريباً من المنصور ، واكتساباً لمودته قد قدم ابنته عروساً إليه (٩٨١ م) فتزوجها المنصور ، واعتنقت الإسلام ، وسميت باسم « عبدة » ، وكانت من أحظى نسائه لديه ، ورزق منها بولده عبد الرحمن الذي سمي أيضاً « شنجول » أو « سانشول » أي شانجه (سانشو) الصغير نسبة لجدده ملك نافار . ثم ساءت العلائق بين المنصور وصهره ، وتابع المنصور غزو نافار مرة بعد مرة ، حتى اضطر سانشو إلى طلب الصلح ، وسار إلى قرطبة مستصرخاً المنصور ولائذاً بعفوه . ووصل سانشو إلى قرطبة في الثالث من رجب سنة ٣٨٢ هـ (٤ سبتمبر سنة ٩٩٢ م) فسر المنصور بمقدمه سروراً عظيماً ، وبعث القواد والكبراء وطوائف الجند في موكب فخيم ، وعلى رأسهم ولده عبد الرحمن وهو طفل في مهده ، لاستقباله ومرافقته

إلى قصر الزاهرة ، فلما وقعت عين سانشو على حفيده ، ترجل وقبل يده ورجله ، ثم رافق الركب إلى الزاهرة ، وقد اصطف الحند على طول الطريق في صفوف كثيفة زاهية كاملة السلاح والعدة ، واصطف الوصفاء والصقالبة من باب القصر إلى الداخل صفيين . وسار سانشو ، وقد بهره كل ما رأى ، حتى وصل إلى مجلس المنصور في عصر ذلك اليوم ، وقد جلس المنصور في هيئة فخمة ، ومن حوله الوزراء وأعظم رجال الدولة ؛ فلما أبصره سانشو هوى إلى الأرض فقبلها مرات متوالية ، ثم قبل يدي المنصور ورجليه ، فأمره بالجلوس على كرسي مذهب خصص له ، ثم انصرف الناس واختلى الملك النصراني بالمنصور ، وأفضى كل إلى صاحبه بما أراد ، ثم خرج سانشو وفي أثره الخلع السلطانية ، وما انفض المجلس إلا عند دخول الليل .

وكان مقدم سانشو غرمانية إلى قرطبة ، واستقباله بها ، من أيام الأندلس المشهودة ، وقد أعاد بروعته وما اقترن به من مغزى عميق بظفر الإسلام على أعدائه ، ذكرى أيام الناصر في وفود الملوك النصارى عليه ، ملتسين منه الصلح والمودة^(١) ؛

* * *

وقد أجمعت الرواية الإسلامية ، الأندلسية والمشرقية ، على الإشادة بخلال المنصور وبأهر صفاته . وهى جميعاً سواء أوجزت القول أو أفاضت ، ثم عن عميق التقدير والإعجاب : ثم هى مع ذلك لم تغفل التنويه بالجوانب القائمة فى تلك العبقرية الفذة ، على أنها على العموم أكثر ميلاً إلى إبراز محاسن المنصور ومواهبه ، والإشادة بما أسبغته على الأمة الأندلسية من ضروب العظمة والبهاء .

قال ابن الأثير يصف المنصور : « وكان شجاعاً ، قوى النفس ، حسن التدبير ، وكان عالماً محباً للعلماء ، يكثر مجالستهم وينظرهم ، وقد أكثر العلماء ذكر مناقبه ، وصنفوا لها تصانيف كثيرة »^(٢) . وقال ابن خلدون : « وكان ذا عقل ورأى وشجاعة ، وبصر بالحروب ، ودين متين »^(٣) . ويصفه الفتح ابن خاقان فى « المطح » فى تلك العبارات الشعرية : « وكان أمضاهم (يعنى من

(١) أورد لنا ابن الخطيب فى « أعمال الأعلام » وصفاً شائقاً لهذا الحادث . ص ٧٦٣ و٧٦٤ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٦١ .

(٣) ابن خلدون - ٤ ص ١٤٧ .

تقدمه) وأذكارهم جنائناً ، وأتمهم جلالاً ، وأعظمهم استقلالاً . قام بتدبير الخلافة ، وأقعد من كان له فيها إنافة . وساس الأمور أحسن سياسة ، وداس الخطوب بأحسن دياسة ، فانتظمت له الممالك ، واتضحت به المسالك ، وانتشر الأمن في كل طريق ، واستشعر اليمن كل فريق . وملك الأندلس بضعا وعشرين حجة ، لم تدحض لسعادتها حجة ، ولم تزخر لمكروه بها لحظة ، وكانت أيامه أحمد أيام ، وسهام بأسه أشد سهام^(١) .

ويجمل ابن حيان حياة المنصور في تلك الفقرة : « وامثل رسم المتغلبين على سلطان ولد العباس بالمشرق من أمراء الديلم في عصره . فنال بغيته ، وهنأ معيشته ، وأورثه عقبه بعده ، عن غير اقتدار عليه ، بجند خاص ، ولا صيال بعشيرة ، ولا مكابرة بمال وعدة ، بل رمى الدولة من كنانها ، وعدا عليها بأعضادها ، وانتضلها بمشاقصها ، وأنفق على ضبطها أموالها وعددها ، حتى حولها إليه وسبكها في قلبه ، وسلخ رجالها برجاله ، وعنى رسومها بما أوضح من رسومه^(٢) » .

هذا ، وقد أشاد ابن الخطيب بخلال المنصور في مواطن وفقرات عديدة تقتطف منها ما يلي :

قال مشيراً إلى ولاية هشام : « فاستقر الأمر لهشام ، يكتفه الحاجب المنصور أسعد أهل الأندلس مولداً ، وأشهرهم بأساً ونداً ، وأبعدهم في حسن الذكر مداً ، الحازم العازم ، العظيم السياسة ، الشديد الصلابة ، القوى المنة ، الثبت الموقف ، معود الإقبال ، ومبلغ الآمال ، الذي صحبته أطفاف الله الخفية في الأزمات ، واضطرد له النصر العزيز في نحو سبع وخسين من الغزوات ، ولم تفارقه السعادة حالي المحيا والممات » .

وقال : « فقد أجمع الشيخة أنه نهض بجدا لا كفاء له ، وأصحب سعداً لا نخس يخاطله ، وأعطى إقبالا لا إدابار معه ، قد وثق بذلك فلم يلتفت إلى غيره ... »
« وكان مهيباً وقوراً ، فإذا خلا كان أحسن الناس مجلساً ، وأبرهم بمن يحضر منادماً وموانساً ، وكان شديد القلق من التبسط عليه ، والدالة ، والامتنان ،

(١) نقله البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٢ ، والمقري في نفع الطيب ج ١ ص ١٨٩ .

(٢) نقله صاحب الذخيرة . القم الرابع المجلد الأول ص ٤٣ .

لا يغفرها زلة ، ولا يحلم عنها جريرة ، ولم يكن يسامح في نقصان الهيبة ، وحفظ الطاعة أحداً ، من ولد ولا ذى خاصة ، دعاه ذلك إلى قتل ولده عبد الله صبراً بالسيف بما هو معروف .

« وكانت الجزالة والرجولة ، ثوبه الذى لم يخلعه ، إلى أن وصل إلى ربه ، والحزم والحذر شعاره ، الذى لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهو شأنه في يومه وليله ، لا يفضل لذة على لذة تدبيره ، وحلاوة نهيه وأمره » (١) .

ولم يكن النقد الغربى أقل تقديرًا لعظمة المنصور ، وقد أشاد بعبقريته ومواهبه كثير من المؤرخين والنقادة الغربيين ، وهذه نماذج من أقوالهم :

قال المؤرخ الإسباني اليسوعى ماسديه مشيراً إلى المنصور : « وكان سياسياً كبيراً ، وقائداً عظيماً ، فقد أخذ نار الثورات التى كانت تعصف بالمملكة ، واكتسب حب الشعب بجميع طبقاته ، وتفوق في شهرته وهيئته على أكبر القواد ، بما اجتمع في أحكامه من الصرامة واللين والقصاص والعفو ، وكان يهدم المدن التى تقاوم جيوشه ويبيدها ، ولكنه لم يسمح قط لجنده بأن تسيء معاملة مدينة سلمت طوعاً » (٢) .

ويقول المؤرخ الإسباني المعاصر الأستاذ منتديث بيدال معلقاً على عصر المنصور : « عاش الإسلام في اسبانيا أروع أيامه وأسطعها ، وانتهى نصارى الشمال إلى حالة دفاع كانت دائماً مقرونة بالحن ، ولاح كأنهم لم يعيشوا إلا لتأدية الجزية والسلاح والأسرى والمجد للخلافة الأموية » (٣) .

ويلاحظ الأستاذ بيدال في نفس الوقت أن عبقرية المنصور العسكرية والسياسية كانت من عوامل القضاء على الروح القومية النصرانية المستعربة ، وذلك لما أغدقه المنصور من عطفه ورعايته على كثير من النصارى والمستعربين (٤) .

ويختتم العلامة دوزى كلامه عن المنصور بالفقرة الآتية : « وعلى الحملة ، فإذا وجب أن نستنكر الوسائل التى لجأ إليها المنصور في اغتصاب السلطة ، فن

(١) راجع أعمال الأعلام ص ٥٨ و ٧٤ و ٧٥ .

(٢) J. F. Masdeu : Historia crítica de España y de la Cultura Española

R. M. Pidal : La España del Cid, p. 72 (٣)

R. M. Pidal : Orígenes del Español, p. 423 (٤)

الواجب أيضاً أن نعتز بأننا استخدمنا بطريقة شريفة . وما كنا لنسرف في لومه لو أن القدر خلقه على أريكة العرش ، ولعله كان يعتبر عندئذ من أعظم الملوك الذين عرفهم التاريخ . ولكنه خلق في القرية ، واضطر لتحقيق أطماعه ، أن يشق لنفسه طريقاً تكتنفه آلاف الصعاب . ومن الأسف أنه من أجل تذليلها ، قلما راعى شرعية الوسطة . لقد كان المنصور رجلاً عظيماً من وجوه كثيرة ، ولكن يستحيل علينا ، متى رجعنا إلى مبادئ الأخلاق الخالدة أن ننحيه ، ومن الصعب أن نعجب به » (١) .

الفصل الثالث

الممالك النصرانية الإسبانية خلال القرن العاشر الميلادي

نهوض اسبانيا النصرانية في عهد الفتنة الأندلسية . وفاة أردونيو الثاني . الحرب الأهلية في ليون . استقرار راميرو في الملك . ولاية قشتالة . جهادها في سبيل الاستقلال . الكونت فرنان كوثالث . ثورته ضد راميرو الثاني . هزيمته وأسر . ثورة قشتالة . الإفراج عن الكونت . طاعته لملك ليون . استمراره في العمل لاستقلال قشتالة . وفاة راميرو . الحرب الأهلية بين ولديه أردونيو وسانشو . معاونة فرنان كوثالث لسانشو . انتصار أردونيو وفوزه بالملك . يعقد الصلح مع الناصر . وفاته وجلس سانشو . موقف فرنان كوثالث . اضطراب الأحوال في ليون . فرار سانشو وجلس أردونيو الرابع . التجاء سانشو وجدته طوطة إلى الناصر . سانشو يسترد العرش بمعاونة الناصر . فكته لهووده . فرنان كوثالث يعلن استقلال قشتالة . التجاء أردونيو إلى الحكم . اتحاد الأمراء النصراني . غزو الحكم لقشتالة وقاتار . اضطرابها لعقد الصلح . بداية الكفاح بين قشتالة والمملكة الإسلامية . الحكم يأذن بنقل رفات القديس بلايو . الثورة في جليقية . مصرع سانشو وجلس ولده راميرو . وفاة فرنان كوثالث وصفاته . وفود الأمراء النصراني وسفاراتهم على قرطبة . عدوان النصراني على أراضي المسلمين وردهم . النزاع بين راميرو وبرمودو على العرش . تدخل المنصور في ذلك . غزو المنصور لشنت ياقب . برمودو يلتمس الصلح . وفاته وجلس ولده ألفونسو . ملكة نافار . غرسية سانشيز وأمه طوطة . ولده سانشو غرسية . غزو المنصور لنافار . وفاة سانشو وجلس ولده غرسية سانشيز . ولده سانشو الكبير . عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية . طبقة الأشراف والفرسان والملوك والزراع الأحرار . طبقة الأرقاء . رقيق الضياع . التنظيم السياسي للمملكة النصرانية . السلطة الملكية . الأشراف . القضاء واشتراك الأشراف في مزاولة رجال الدين وسلطانهم الإقطاعي . مقارنة بين هذا النظام ونظام المملكة الإسلامية .

لما بلغت الثورات والفتن الداخلية بالأندلس ، ذروتها في النصف الأخير ، من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، فيما اصططح على تسميته بالفتنة الكبرى ، وبددت قوى الأندلس ومواردها في ذلك الصراع الداخلي المدمر ، أخذت اسبانيا النصرانية ، وقد أمنت شر الغزوات الإسلامية طوال هذه الفترة ، تنفس الصعداء ، فاشتد ساعدها ، ونمت مواردها ، وتوطدت حكوماتها . ولم تأت فاتحة القرن العاشر الميلادي ، حتى كانت مملكة ليون ، التي خلفت مملكة جليقية ، وبسطت سلطانها على ولاية قشتالة ، في أواسط اسبانيا الشمالية ، قد

بلغت مستوى من القوة والبأس ، يتيح لها أن تخوض مع المملكة الإسلامية صراعاً عنيفاً .

وقد رأينا كيف بلغ هذا الصراع ذروته في عهد الناصر ، وكيف أنه بالرغم مما حققه الناصر من إخماد الفتنة ، وإحياء قوة الأندلس ، استطاع النصارى بقيادة ملكهم أوردونيو الثاني ، أن يحرزوا على المسلمين نصرهم الخطير ، في موقعة شنت لإشتين في سنة ٩١٧ م .

وكانت موقعة شنت لإشتين ، وما تلاها من تكرار غزو النصارى للأراضي الإسلامية ، نذيراً خطيراً للحكومة قرطبة . ولكن وفاة أوردونيو الثاني في سنة ٩٢٥ م وضع حداً مؤقتاً لتلك الفورة القومية ، التي جاشت بها إسبانيا النصرانية . ذلك أن أخاه وخلفه فرويلا ، لم يحكم سوى عام واحد ، ثم توفي ، فاضطرم النزاع على العرش بين سانشو ألفونسو ولدى أوردونيو ، وانتهى بأن فاز ألفونسو بالعرش بمعاونة صهره وحبيه سانشو ملك نافار . ولكن سانشو لم ييأس ، فججمع جيشاً جديداً ، وتوج نفسه ملكاً في شنت ياقب في أقاصى جاليقية ، ثم زحف على ليون فحاصرها واستولى عليها ، وارتقى العرش مكان أخيه . فعاد ملك نافار إلى موازنة ألفونسو ومعاونته ، حتى استطاع أن يهزم أخاه ، وأن يستولى على مدينة ليون مرة أخرى . بيد أن أخاه سانشو لبث محتفظاً بجاليقية ، مصرأ على دعواه في الملك .

واستمرت الحرب الأهلية بين النصارى أعواماً ، وانتهى طورها الأول ، حينما توفي سانشو ابن أوردونيو في سنة ٩٢٩ م ، واستقر الملك لأخيه ألفونسو الرابع دون منازع . ثم بدأ طورها الثاني في سنة ٩٣١ م ، ففي تلك السنة توفيت زوجة ألفونسو ، فحزن لفقدائها أحماً حزن ، وغلب عليه اليأس والزهدي ، فتنازل عن العرش لأخيه راميرو ثاني ملوك ليون بهذا الاسم ، ولجأ إلى دير ساهاجون واعتنق الرهبانية ، ولكنه عافها بعد قليل ، فترك عزلة الدير ، ونادى بنفسه ملكاً في حصن شنت منكش Simancas ، وكان عمله في نظر الرهبان عاراً كبيراً ، فأثاروا عليه دعاية شديدة ، حتى اضطروا أن يعود إلى الرهبانية . وقد كان ألفونسو في الواقع « أميراً أصلح لقلنسوة الراهب منه لتاج الملك ، وأشد شغفاً بالقدس منه بميدان الحرب » ، ولكنه ما لبث أن انتهز فرصة مسير أخيه راميرو إلى نجدة

ثوار طليطلة ، فغادر الدبر ، وزحف في بعض أنصاره على مدينة ليون واستولى عليها ، فعاد راميرو مسرعاً ، وحاصر أخاه في ليون واستولى عليها بدوره . ثم أراد أن يضع حداً لمساعي ألفونسو ومحاولته فسمّل عينيه ، وسمّل كذلك أعين أبناء عمه الثلاثة ، وهم أولاد فرويلا الذين اشتركوا في الثورة عليه .

ويعلق النقد الإسباني الحديث على تلك القسوة بقوله : « وإنه ليروعنا ذكرى العقوبة التي أنزلها راميرو الثاني بأخيه ألفونسو ، وبأبناء عمه الثلاثة ، وإنه لن يكنى مر القرون لمحو ذكرى عقوبة سمل العينين التي ورثت عن التشريع القوطي ، قبل أن نراها تطبق بكثرة من جانب ملوكنا نحو ذوى قرباهم » (١) .

وهكذا استقر الملك لراميرو بعد صراع عائلي عنيف . وكان راميرو الثاني أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً شجاعاً مقداماً ، نذر نفسه للكفاح ضد المسلمين ، ومقارعتهم بكل الوسائل ، فتارة يغير على الأراضي الإسلامية ، وتارة يحرّض الثوار على حكومة قرطبة ، أو يسير إلى إيجادهم بالفعل ، كما حدث حينما سار لمعاونة طليطلة على مقاومة الناصر (٩٣٠ م) ، وتارة يشتبك مع المسلمين في معارك طاحنة . وقد سبق أن فصلنا أدوار ذلك الصراع العنيف ، الذي اضطرم بين راميرو وبين الناصر ، والذي بلغ ذروته في موقعة الخندق المشنومة ، التي دارت فيها الدائرة على المسلمين ، تحت أسوار مدينة سمورة في سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٩ م) .

١ — نشأة مملكة قشتالة

لم يكن اضطراب الأمور في مملكة ليون ، قاصراً على قسمها الغربي في جليقية ، حيث كان الزعماء (الكونتات) الحلالقة ، يثورون على العرش من آن لآخر ، بغية توطيد سلطانهم المحلي ، بل كان يشمل أيضاً قسمها الشرقي ، في منطقة قشتالة ، التي كانت تسمى يومئذ « بردوليا » ثم سميت فيما بعد « قشتالة Castilla » (٢) ، وذلك لكثرة الحصون التي كانت تقام بها . وكانت هذه المنطقة ، التي استحالت فيما بعد إلى مملكة قشتالة ، تمتد شرقاً حتى هضاب نافار ، ومن

(١) M. Latuente : Historia general de Espana (Barcelona 1889) T. II.p.360

(٢) كلمة Castillo الإسبانية معناها الحصن . وقد كانت تسمى في الجغرافية العربية القلاع قبل أن تنتظم إلى مملكة قشتالة . وتسمى بالإضافة إلى ولاية « ألبه » Alava « ألبه والقلاع » .

ولاية ريوخا جنوباً ، حتى الأراضي التي سميت فيما بعد أراجون وسوراني ، وكان سكانها الأصليون من البشكنس وأهل ألبه . وكان ملوك الخلافة أو ملوك أويبيلو قد غزوها وأضافوها إلى أملاكهم ، وكانت عاصمتها يومئذ مدينة برغش . وأبدى زعماء قشتالة منذ البداية ، مقاومة عنيفة للملوك الخلافة ، وبذلوا جهودهم للمحافظة على استقلالهم المحلي ، وثاروا بالفعل في عهد أردونيو الثاني في أوائل القرن العاشر . فحاربهم أردونيو وأخضعهم ، وقبض على كثير منهم وأعدمهم ، واضطر الباقون إلى الالتزام بطاعته ، وكانوا يتمتعون بسلطات محدودة تحت سلطان زعيم محلي ، مقره في « برغش » . وهو يخضع بدوره لملك ليون . ولكن هذا النظام المهيمن ، لم يرق لكونتات قشتالة ، فلبثوا يتحينون الفرص للثورة ، وتحقيق استقلالهم المنشود .

وعرضت هذه الفرصة ، وألفت قشتالة بطل ثورتها التحريرية ، في شخص زعيمها الكونت فرنان كوثالث (وفي الرواية الإسلامية فرآن غنصالس) ، الذي غدت حياته مستقى للملاحم الشعرية ، والقصص الإسباني في العصور الوسطى ، فحشد الكونت أنصاره وقواته ، وأعلن الحرب على راميرو الثاني ملك ليون ، وولد أردونيو ، وكان راميرو يومئذ في أوج قوته ، بعد انتصاره على المسلمين في موقعة الخندق ، فلم يلق مشقة في هزيمة الكونت وسحق قواته ، وأسرفرنان كوثالث ، وزجه راميرو إلى ظلام السجن في مدينة ليون ، وعين لحكم قشتالة أسورفرنانديز كونت موزون ، ثم عين بعد ذلك لحكمها ولده سانشو ، وأمره أن يعامل القشتاليين بالرفق والحسن ، ولكن ذلك لم يخدم جذوة الوطنية القشتالية . ولبث القشتاليون مخلصين لأميرهم المأسور ، واستمروا في الثورة والقتال ، وزحفت جموعهم بالفعل على ليون ، فخشي راميرو العاقبة ، وأطلق سراح فرنان كوثالث ، ولكن بشروط فادحة ، هي أن يقسم بمين الطاعة للملك ليون ، وأن يتنازل عن كل أملاكه ، وأن يزوج ابنته أوراكا لأردونيو ولد راميرو الأكبر . وقبل فرنان كوثالث هذه الشروط مرغماً . وظل أهل قشتالة على بغضهم للملك ليون ، وولائهم لأميرهم . وفقد راميرو بذلك عون الزعماء القشتاليين ومساهماتهم المخلصة في الدفاع عن البلاد ، واستطاع المسلمون خلال ذلك الإغارة مرراً على أراضي ليون والعيث فيها ، وقام الناصر بتجديد مدينة سالم ، نغر

الجلود بين أراضى قشتالة والأراضى الإسلامية ، وتحصينها (سنة ٩٤٦ م) . واضطر راميرو أن يلتزم خطة الدفاع ، لإزاء الغزوات الإسلامية المتوالية . وكان فرنان كوثالث ، يعمل أثناء ذلك ، على توطيد مركزه ، وضم كونتيات قشتالة كلها تحت لوائه ، ليجعل منها وحدة سياسية ، أو بالحرى إمارة مستقلة ، يغلو عرشها من بعده وراثياً في أسرته . وقد استطاع غير بعيد أن يحقق هذه الغاية (١) .

٢ — مملكة ليون

وفي أوائل سنة ٩٥٠ م توفي راميرو الثاني ملك ليون ، فنشبت الحرب الأهلية مرة أخرى بسبب وراثة العرش . وذلك أن راميرو ترك ولدين أولهم أردونيو ، وهو ولد زوجه الأولى تاراسيا ، وسانشو وهو ولد زوجه الثانية أورাকা أخت غرسية ملك نافار . فادعى أردونيو أنه أحق بالعرش باعتباره أكبر الأخوين ، ولكن سانشو نازعه في ذلك ، معتمداً على عون أخواله النافاريين ، وجدته طوطة ملكة نافار ، وكذلك على عون الكونت فرنان كوثالث وأهل قشتالة . وكان الكونت غير ميال إلى معاونة أردونيو ، بالرغم من كونه زوج ابنته ، إذ كان قد أرغم على تلك المصاهرة كما تقدم ، وقد آثر أن يقف إلى جانب سانشو ، إذ وعده بأن يرد إليه أملاكه ، وأن يحقق أمانيه في الاستقلال ، ومن ثم فقد كان من الطبيعي أن يعمل على إضعاف مملكة ليون لكي يدعم بذلك استقلاله . وهكذا نشبت الحرب بين أردونيو وبين جيش متحد من قوات سانشو ، ونافار ، وقشتالة . ولكن أردونيو هزم أعداءه ، وأخضع سائر الخارجين عليه واستقر في العرش ، ورأى انتقاماً لخيانة فرنان كوثالث أن يطلق زوجه الملكة ابنة الكونت ، وبذلك كفرت هذه الأميرة عن خصومة أبيها للمملكة ليون .

وانتهز المسلمون فرصة الحرب الأهلية ، فتوالت غزواتهم لأراضى ليون ، ومن جهة أخرى فقد كان أشراف ليون في تمرد مستمر على ملكهم ؛ وخشى أردونيو العاقبة ، فبعث سفيراً إلى قرطبة في أوائل سنة ٩٥٥ م يطلب عقد الصلح مع الناصر ، فأجابه الناصر إلى طلبه ، وبعث إليه سفيره محمد بن الحسين ، فعقد معه

معاهدة صلح ، تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر . ثم توفي أردونيو بعد ذلك بقليل ، وخلفه أخوه سانشو في الملك ؛ وكان أول ما عمل أن رفض تنفيذ المعاهدة التي عقدها أخوه مع الناصر ، فاضطر الناصر إلى إعلان الحرب ، وبعث حاكم طليطلة أحمد بن يعلى في الجيش إلى ليون ، فغزاها ، وتوغل في أراضيها ، واضطر سانشو أن يعقد الصلح ، وأن يقر ما سبق أن تعهد به أخوه . وبذلك استقرت علائق السلم بين الفريقين .

ومن جهة أخرى فإن فرنان كوثالث لم يتحول عن سياسة العداء نحو ليون ؛ وقد كان قبل أن يرتقي سانشو العرش ، يؤازره ويناصره ضد أخيه أردونيو ، فلما تولى أردونيو عرش ليون ، انقلب إلى خصومته وفقاً لسياسته المأثورة ضد ليون ، وكان ينبغي في الوقت نفسه أن تعود ابنته أوراكا مطلقة أردونيو الثالث إلى العرش ، بعد أن تزوجت من ابن عمه الأمير أردونيو ، وقد عاونه القدر غير بعيد على تحقيق بغيته .

ذلك أن الأحوال ما لبثت أن ساءت في مملكة ليون ، فقد ثار الأشراف سانشو ونزعوه عن العرش ، واحتجوا لخلعه بهزيمته أمام المسلمين في بعض المعارك التي خاضها ، وبأن بدائته الفائقة تمنعه من ركوب الخيل ، ومن تولى القيادة ، ففر سانشو إلى بنبلونة ، إلى جانب جدته طوطة ملكة نافار ، وقام الأشراف في ليون وقشتالة ، باختيار ملك جديد هو أردونيو الرابع ، وهو ابن ألفونسو الرابع ، عم الملك المخلوع وصهر الكونت فرنان كوثالث ، وكان أحداً دميماً سيئ الخلال ، حتى لقب بالردىء El Malo . ولجأ سانشو إلى عون الناصر ، فأرسل إليه طبيباً يهودياً من قرطبة ، يتولى علاجه من بدائته ؛ وفي سنة ٩٥٨ م (٣٤٧ هـ) قصدت طوطة إلى قرطبة ، ومعها ولدها الفتى غرسية سانشيز ، الذي كانت تحكم نافار باسمه ، وسانشو ملك ليون المخلوع ، فاستقبلهم الناصر استقبالا حافلاً ، وعقد السلم مع طوطة ، وأقر ولدها ملكاً على نافار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه ، وذلك مقابل تعهده بأن يسلم للمسلمين ، بعض الحصون الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر ؛ ثم أمده الناصر بالمال والجند ، فغزا ليون ، وغزا النافاريون في الوقت نفسه ولاية قشتالة من ناحية الشرق ، وانتهت هذه الحرب الأهلية الحديده ، بانتصار سانشو وجلوسه على العرش مرة أخرى ، وفر أردونيو إلى برغش ٥

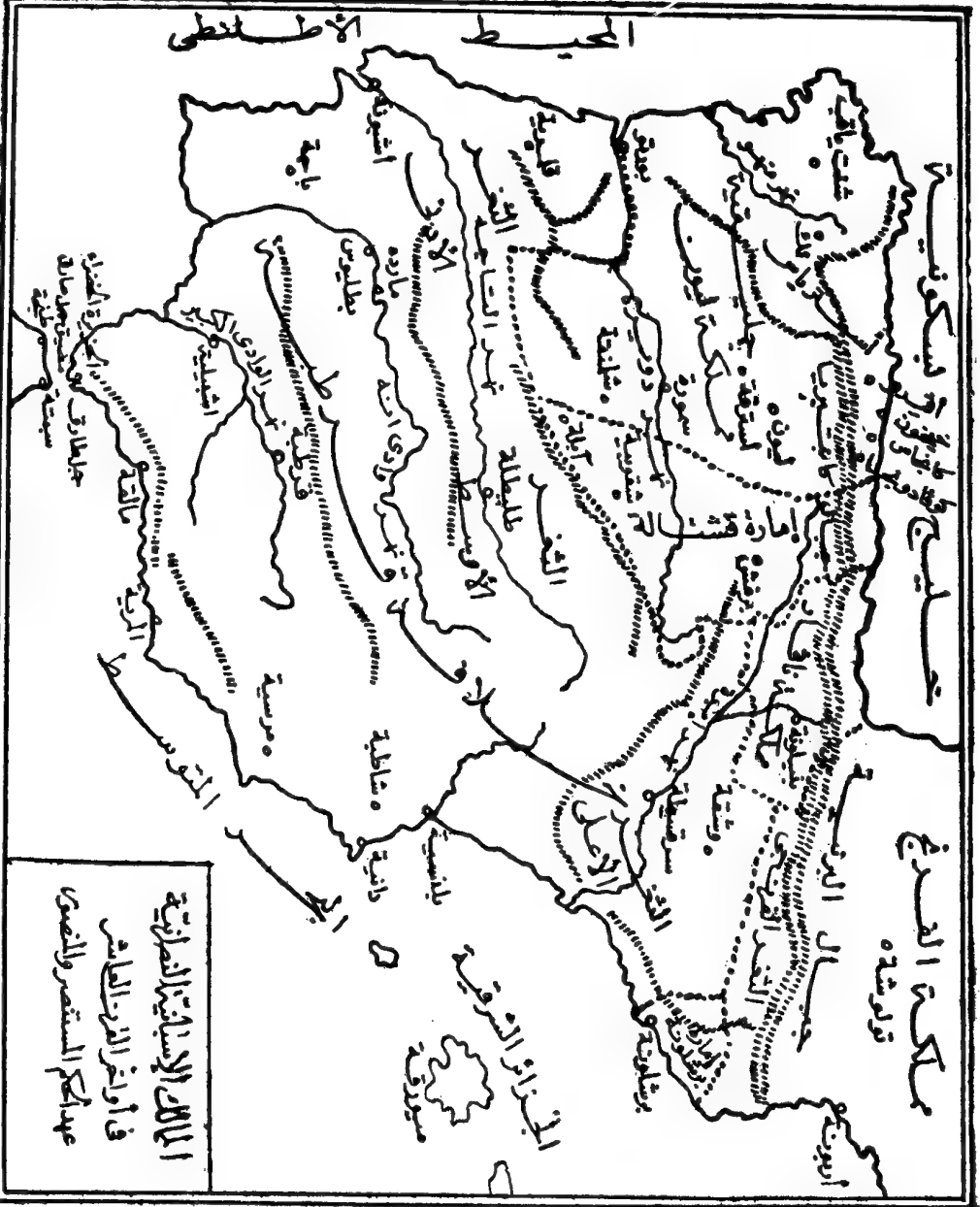
ولكن سانشو نكث بعهده للمسلمين ، وأبى تنفيذ ما تعهد به ، ثم توفى الناصر بعد ذلك بقليل ، ولزمت ليون ونافار السكينة حيناً . ولكن فرنان كوثالث اتجه وبجهة أخرى . وكان قد انتهز فرصة الحرب الأهلية ، وأعلن استقلال قشتالة ، ونصب نفسه أميراً مستقلاً عليها ، وأخذ يسعى إلى توسيع أملاكه بالإغارة على الأراضي الإسلامية . وكان يرى في نزول ميدان الكفاح ضد المسلمين ، وسيلة لتدعيم هيئته في نفوس النصارى المتعصبين ، فأخذ يغير على الأراضي الإسلامية مرة بعد أخرى .

وكان فرنان كوثالث ، على قول المؤرخ الإسباني « ذا عبقرية تمازجها الفطرسية ، وروح تمازجها العجرفة ، معتداً بنفسه ، وعالماً بما يمكن أن يجنيه من قلبه وساعده ، محباً للاستقلال ، تملؤه فكرة تحرير بلاده قشتالة من نير ليون ، وأن يقيم لها سيادة خاصة » (١) .

وقد رأينا فيما تقدم ، كيف لجأ أردونيو الرابع ملك ليون، المخلوع إلى الحكم ، وكيف استقبله الخليفة بقصر الزهراء في حفل مشهود ، ووعده بأن يعاونه على استرداد عرشه ، لقاء عهود قطعها على نفسه ، وكيف خشي سانشو عاقبة هذا المسعى ، فبعث إلى الحكم يعرض عليه أن يعترف بطاعته ، وأن ينفذ ما تعهد به للناصر ، وكيف عاد بعد ذلك إلى نكته السابق حينما توفى خصمه أردونيو .

وعندئذ لم يجد الحكم بدأ من الحرب ، ولم يجد الأمراء النصارى بدأ من الاتحاد . وقد فصلنا فيما تقدم كيف اجتاحت الجيوش الإسلامية ، أراضي قشتالة ، ومزقت جيوش أميرها فرنان كوثالث ، في موقعة شنت لإشتين ، وأرغمته هو وحليفه سانشو ملك ليون على طلب الصلح ، وكيف اجتاحت غربي نافار عقاباً لأميرها غرسية سانشيز على نكته ، وإغاراته على أراضي المسلمين ، وكيف توالى غزوات المسلمين لأراضي قشتالة ، ما بين سنتي ٩٦٣ ، و ٩٦٧ م .

وهنا نقف قليلاً أمام تلك الحقيقة التاريخية الهامة ، وهي أننا نجد قشتالة إحدى ولايات مملكة ليون القديمة ، تحارب المسلمين لأول مرة كإمارة مستقلة . ومن ذلك التاريخ تحتل قشتالة مكانتها في تاريخ الكفاح ، بين إسبانيا النصرانية



مملكة الفرنج
تدريسه

الملك الإسباني النصراني
في أواخر القرن الخامس
عده الحكم المستنصر والمصري

واسبانيا المسلمة ، وتغلبوا بالرغم من نشأتها المتواضعة شيئاً فشيئاً ، أعظم الممالك النصرانية رقعة ، وأوفرها قوة ومنعة ، وأشدّها مراساً في محاربة المسلمين ، وإنهاك قوى المملكة الإسلامية .

واستمر سانشو حيناً يحكم في ظروف صعبة من جراء ثورات الزعماء والأشراف الخارجين عليه ، وكان بعد أن عقد الصلح مع الحكم ، قد أرسل إليه تحقيقاً لرغبة زوجته تريسا ، وأخته الراهبة البيرة ، سفارة يطلب إليه الإذن بنقل رفات القديس بلايو إلى ليون . وكان نصارى قرطبة قد عنوا بنقل رفات هذا القديس من الوادي الكبير ، فأجاب الخليفة سؤله ، ونقلت الرفات في العام التالي في حفل فخم ، وأودعت ليون بكنيسة خاصة أقامها الملك ، وسماها دير سان بلايو . ولم يحضر سانشو هذا الحفل لانشغاله بمقاومة الخوارج عليه . وكان من أشد خصومه والمحرضين عليه الحبر سسنانلو أسقف شنت ياقب ؛ وكان هذا الأسقف قد حصن مدينته وقصره الأسقي ، بحجة حمايتها وحماية مزار القديس ياقب من غارات النورمان ، ولكنه أعلن العصيان ، وعبثاً حاول سانشو استرضاءه ، بيد أنه اضطر أخيراً أن يفتح مدينته للملك حينما رأى فشل الزعماء الخارجين في مقاومته .

وكان بين الزعماء الخارجين عليه من الأشراف وأشدّهم مراساً ، الكونت جونديسالفو (غندشلب) سانشيز حاكم جليقية ، وكان قد استطاع أن يوطد استقلاله في المنطقة الواقعة بين نهري منيو ودويرة ، وأن يبسط حكمه على لاميجو وبازو وقلمرية ، الواقعة فيما وراء دويرة شمالي ولاية البرتغال ، فسار سانشو لقتاله ، ولكنه حينما عبر نهر منيو بقواته ، ألقي رسل الزعيم الثائر يعرضون عليه التسليم والطاعة ، مع رجاء واحد فقط هو أن يأذن الملك بمقابلة الكونت ، فقبل سانشو . وكان الكونت قد دبر مشروعاً دنيئاً لاغتياله . فدعاه إلى مأدبة أقامها وقدم إليه فاكهة مسمومة تناولها سانشو دون أن يخامرہ الريب ، وسرعان ما شعر يديب الموت يسرى إلى أخشائه ، فحمل في الحال إلى ليون وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ودفن بها تحقيقاً لرغبته . وكان ذلك في سنة ٩٦٦ م^(١) .

وهكذا توفي سانشو ملك ليون مسموماً ، بعد أن حكم اثنتي عشرة سنة ، فخلفه والده راميرو الثالث ، طفلاً في الخامسة من عمره تحت وصاية عمته الراهبة

إلبيرة . ولكن معظم الأشراف أبوا الاعتراف بسلطانة . ونشبت في ليون طائفة من الثورات المحلية ، ولاسيما في ولايات جليقية ، وحاول كثير من الزعماء الأقوياء الانفصال عن العرش ، وتوطيد سلطانهم المحلي . وكان مثل فرنان كوثالث في الاستقلال بولاية قشتالة ، أقوى مشجع لهم ، ولبت أخطر حركة من ذلك النوع ، هي ثورة جوندسالفو سانشيز (قاتل مليكه) حيث استمر على استقلاله بحكم المنطقة الواقعة بين نهري منيو ودويرة ، وحكم القواعد الثلاثة الهامة لاميجو وبازو وقلمرية ، الواقعة فيما وراء نهر دويرة .

وفي خلال ذلك ، توفي الكونت فرنان كوثالث أمير قشتالة في سنة ٩٧٠ م وخلفه في الإمارة ولده غرسية فرناندز ، كما توفي غرسية سانشيز ملك نافار وخلفه ولده سانشو غرسية الثاني .

ويعلق المؤرخ لافونتي على عمل فرنان كوثالث مؤسس استقلال قشتالة وسياسته بقوله : « إن جميع الوسائل التي تدرج بها الكونت لتحقيق غايته لا تبدو مستحسنة في نظرنا ، فإن معاملته للملك ليون راميرو الثاني ، وأردونيو الثالث ، وسانشو الأول ، وأردونيو الرديء ، وكذلك معاملته لغرسية ملك نافار ، حليفاً وخصماً بالتوالي لهؤلاء وهؤلاء ، وساعياً في تولية وعزل هؤلاء وهؤلاء ، ومقسماً للولاء وناقضاً له ، ولقد كانت مقتضيات السياسة وملاساتها في صالحه ، وإن كان ذلك لا يطابق حكم الأخلاق الصارم . بيد أننا نلاحظ أنه من مفاخر الكونت أنه لم يحالف المسلمين قط ، ولم يتهاون قط مع أعداء وطنه أو دينه . أما عن بدء عهد استقلال قشتالة ، فيمكن أن نضعه في منتصف القرن العاشر (الميلادي) ، وهو الوقت الذي رأينا فيه الكونت يعمل لحسابه دون خضوع للملك ليون » (١) . وأدركت الممالك النصرانية يومئذ ، وفي مقدمتها مملكة ليون ، التي شغلت محوادثها الداخلية ، أنه لا مجال للعدوان على أراضي المسامين ، ولزمت السكينة حيناً .

واتجه الملوك والأمراء النصارى إلى تحسين علاقتهم مع بلاط قرطبة ، فتوالت زياراتهم وسفاراتهم على الحكم ، يسألون الصلح والمهادنة . وكان من الوافدين بأنفسهم على قرطبة أمير جليقية ، والراهبة إلبيرة الوصية على عرش ليون . وقد فصلنا من قبل قصة هذه الزيارات والسفارات في موضعها .

ولما توفى الحكم المستنصر ، وشغل المسلمون بعض الوقت بشئونهم الداخلية ، اعتقد النصارى أن الفرصة قد عرضت مرة أخرى لغزو أراضي المسلمين ، فأغار القشتاليون على الأراضي الإسلامية ، وتوغلوا فيها جنوباً وعاثوا فيها ؛ وهنا نهض محمد بن أبي عامر لرد عدوانهم ، فغزا أراضي قشتالة في أوائل سنة ٩٧٧ م (٣٦٦ هـ) ثم غزاها ثانية ، واقتحم مدينة شلمنقة في العام التالي . وبدأت بذلك سلسلة الغزوات الشهيرة المتوالية ، التي شهرها المنصور بن أبي عامر ، على الممالك الإسبانية النصرانية ، واستغرقت طيلة حياته ، والتي فصلنا أخبارها فيما تقدم .

ونستطيع أن نشير هنا فيما يتعلق بمملكة ليون ، إلى ما وقع من إقدام راميرو الثالث ملك ليون ، على معاونة القائد غالب الناصري ببعض قواته ، في حربه مع المنصور ، فلما سار المنصور بعد ذلك لمحاربة راميرو ومعاقبته على هذا التحدى ، استغاث راميرو بغرسية فرناندز أمير قشتالة ، وسانشو غرسية ملك نافار ، فسار المنصور ، لمقاتلة القوات النصرانية المتحدة ، وهزمها في موقعة شنت منكش في سنة ٩٨١ م (٣٧١ هـ) .

وعلى أثر ذلك ، رأى أشراف ليون ، أن راميرو لم يعد صالحاً لحكم المملكة ، فقررُوا خلعه ، وتولية ابن عمه برمودو ملكاً عليهم (٩٨٢ م) . ولكن راميرو لم يذعن لهذا القرار ، فجمع أنصاره واستعد للحرب ، واضطرت بين برمودو وراميرو حرب أهلية ، انتهت بهزيمة راميرو ، وفراره إلى مدينة أستورقة ، وامتناعه بها . وحاول راميرو بعد ذلك ، أن يلجأ إلى المنصور ، وأن يستمد عونه لاسترداد عرشه . ولكنه توفى بعد ذلك بقليل ، وتخلص برمودو بذلك من منافسته .

بيد أن برمودو ، لم يشعر مع ذلك بالطمأنينة . فقد لبث فريق كبير من الأشراف على معارضتهم لحكمه ، ولبث النضال الداخلي مؤذناً بالخطر . وعندئذ قرر برمودو أن يلجأ إلى المنصور ، فالتمس منه التأييد والعون ، على أن يعترف بطاعته ، فأجابه المنصور إلى طلبه ، وبعث إليه بقوة من جنده ، حلت بمدينة ليون عاصمة المماكة ، وبذلك أصبحت ليون مملكة تابعة تؤدى الجزية ، ولكن برمودو حينما شعر بتوطد مركزه ، واشتداد ساعده ، قرر أن يتخلص

من نير المنصور ، فهاجم الحامية الإسلامية ، واستخلص مدينة ليون من يدها ٥ .
فنهض المنصور لمحاربته ، وسار إلى مدينة ليون فاقترحها وخرّبها ، ومزق قوى
النصارى ، ثم استمر يغزو أراضي ليون تباعاً ، ويوقع الهزائم المتوالية بـرمودو ،
حتى اضطر بـرمودو إلى طلب الصلح ، والعودة إلى الاعتراف بالطاعة (٩٩٥ م) ،
وقد رأينا كيف سار المنصور بعد ذلك ، إلى غزو مدينة شنت ياقب عاصمة
إسبانيا النصرانية الروحية (٩٩٧ م) ، وكيف انضم إليه في تلك الغزوة معظم
أشراف جليقية . وعندئذ لم يـر بـرمودو مناصاً في النهاية ، من العود إلى التماس
الصلح ، والاعتراف بالطاعة ، ونبذ كل مقاومة . فأجابه المنصور إلى طلبه .
وعاش بـرمودو بعد ذلك عامين آخرين ، قضاهما في إصلاح الكنائس والأديار
والقلاع ، التي هدمت خلال الحرب . ثم توفي سنة ٩٩٩ م ، فخلفه ولده ألفونسو
الخامس طفلاً . وقام بالوصاية عاياه الكونت منديث كونثال أحد أشراف
المملكة (١) .

٣ - مملكة نافار

أشرنا فيما تقدم إلى نشأة مملكة نافار المستقلة ، في أواخر القرن التاسع الميلادي ،
وكيف تولى عرشها سانشو غرسية (الأول) ، عقب اعتزال أخيه فرتون الملك في
سنة ٩٠٥ م . وقد عمل سانشو على توسيع أطراف مملكته الصغيرة ، واستطاع
أن يدفع حدودها جنوباً حتى ناجرة ، وخاض مع المسلمين حروباً عديدة ، أيام
الأمير عبد الله ، وفي أوائل عهد الناصر . وقد غزا الناصر نافار سنة ٩٢٠ م ،
ثم بعد ذلك في صائفة ٩٢٤ م ، ودخل عاصمتها بـنبلونة وخرّبها ، وسحق قوى
نافار ، وقضى على كل مقاومة من جانبها وكل نزعة للعدوان .

ولما توفي سانشو في سنة ٩١٦ م ، خلفه ولده غرسية سانشو طفلاً ، وحكم
أولاً تحت وصاية عمه خينو غرسيس ، ثم بعد ذلك تحت وصاية أمه الملكة طوطة ،
التي لبثت تحكم باسمه طويلاً ، حتى بعد أن بلغ سن الفتوة والنضج . وكانت نافار
خلال ذلك ترتبط برباط المصاهرة ، مع المملكتين النصرانيتين الآخرين . فقد
كان أردونيو الثالث ملك ليون متزوجاً من أورাকা ابنة الملكة طوطة وأخت
غرسية . وكان فرنان كونثال كونت قشتالة متزوجاً من ابنة أخرى لطوطة هي

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٨١ ؛ وكذلك Altamira : Ibid, Vol. I. p. 246

صاناشا : وكانت طوطة تحتل بذلك مقاماً ملحوظاً في الممالك الثلاث . ولما توفي
رامبرو الثاني ملك ليون في سنة ٩٥٠ م ، واضطربت الحرب الأهلية حول وراثته
العرش بين ولديه أردونيو وسانشو ، وقفت نافار إلى جانب سانشو ، ولد الملكة
أوراكا النافارية ، ثم وقفت بعد ذلك إلى جانبه مرة أخرى ، بعد أن تولى العرش
عقب وفاة أخيه ، وقام أشرف ليون بخلعه ، ولجأت الملكة طوطة في معاونته
إلى الناصر حسبما تقدم .

ثم اضطربت العلاقات بين نافار وبين جارتها قشتالة ، ونشبت الحرب بينهما ،
فهزم الكونت فرنان كوثالث أمير قشتالة ، وأسر في موقعة نشبت بين الفريقين
على مقربة من ناجرة ، واعتقل في نافار مدة طويلة ضعفت فيها شوكة قشتالة
ولزمت السكينة حيناً .

ولما توفي الناصر ، وتولى مكانه ولده الحكم المستنصر ، طالب ملك ليون
بتسليم الحصون التي تعهد بتسليمها إلى أبيه ، وطالب ملك نافار بأن يسلمه أسيره
فرنان كوثالث أمير قشتالة ، فرفض الملكان مطالب الحكم ، وأطلق غرسية
أسيرة فرنان كوثالث ، فخرج إلى برغش عاصمته ، وقبض على صهره أردونيو
الرابع ، وأرسله مخفوراً إلى الحدود الإسلامية ، وهناك التجأ إلى القائد غالب
حاكم الثغر ، ثم سار معه إلى الحكم مستجيراً به ، واستقبله الحكم كما تقدم في
احتفال مشهود .

واستطال حكم غرسية سانثيز حتى سنة ٩٧٠ م ، واستمرت أمه الملكة
العجوز طوطة ، محتفظة بإشرافها عليه ، ومشاركتها الفعلية في الحكم ، حتى وفاتها
في سنة ٩٦٠ م .

ولما توفي غرسية سانثيز ، خلفه في عرش نافار ولده سانشو غرسية الثاني ،
وكانت مملكة نافار قد اتسعت رقعتها عندئذ ، وأصبحت تشمل عدا ولاية نافار
الأصلية ، ولايات كانتبريا ، وسورابي ، ورباجورسا ، ونمت مواردها وقواها
حتى أن سانشو لم يحجم عن الإغارة على الأراضي الإسلامية ، ورد المنصور على
هذه الجرأة ، فغزا نافار ، وتوغل فيها حتى اقتحم عاصمتها بنبلونة ، وذلك في
سنة ٩٨٧ م :

وخلف سانشو في الحكم ولده غرسية سانثيز الثالث ، فلم يدم حكمه سوى

خمسة أعوام ، وفي عهده غزا المنصور نافار مرة أخرى (٩٩٩ م) . ثم توفي غرسمية في العام التالي ، فخلفه ولده سانشو الثالث الملقب بالكبير .

٤ - عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية

سبق أن تحدثنا فيما تقدم عن عناصر المجتمع في اسبانيا المسلمة ، ويجدر بنا أن نتحدث هنا عن عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية .

لم يكن في اسبانيا النصرانية بعد الفتح الإسلامي ، ما يمكن أن يسمى بالحياة القومية العامة . وكانت كل ولاية أو مملكة ، تعيش وفق ظروفها ونظمها الخاصة ، وكان هذا التباين ذاته ، يقوم في الداخل ، ويتفاقم أحياناً بما يحدث إلى جانبه من خلافات أخرى ، تصيب النظم والحياة الاجتماعية .

وقد بقي تكوين المجتمع النصراني الإسباني عقب الفتح ، على ما كان عليه أيام القوط ، فكان يتكون من عنصرين رئيسيين ، هما الأحرار ، والعبيد ؛ وكان الأحرار وهم الذين يستطيعون التصرف في أشخاصهم ، والتنقل بحرية من مكان إلى آخر ، ينقسمون بدورهم إلى أشراف وعامة .

وكانت طبقة الأشراف ، تتكون أولاً من الحكام ومن خاصة الملك ، وتتوقف في تكوينها على الملك ، بمنحها الألقاب والأراضي والوظائف . ويلحق بهذه الطائفة كبار الملاك ، الذين يحصلون على أملاكهم سواء بالمراث أو الهبة . وكان للأشراف امتيازات كثيرة ، سواء بالنسبة لأشخاصهم أو أملاكهم ، فكانوا داخل أراضيهم سادة بكل معنى الكلمة ، لهم مطلق الحرية والتصرف ، بل كان لهم أن يتركوا خدمة الملك ، وأن ينتقلوا إلى مملكة أخرى ، إذا غضبوا منه لسبب من الأسباب . وكان من جراء ذلك ، أن كثيراً من الأشراف النصاري ، كانوا ينتقلون إلى الأراضي الإسلامية ، وينضوون تحت لواء الأمراء والخلفاء ، ويحاربون معهم ضد مواطنيهم وأبناء دينهم .

وكان هؤلاء الأشراف يعفون من الضرائب ، خلافاً لما كان عليه الأمراء في عهد القوط ، وكانوا ملزمين فقط بمساعدة الملك وقت الحرب ، فينتظمون مع أتباعهم في الجيش المحارب على نفقة الملك .

وكان يلحق بهذه الطبقة من الأشراف ، بعض طوائف أخرى أقل أهمية من الناحية الاجتماعية ، مثل الفرسان والمحاربين ، وهم الأشخاص الذين يستطيعون

أن يقتنوا لأنفسهم خيلاً وسلاحاً ، ليشتركوا في الحرب ، ثم يمنحون نظير هذا الاشتراك بعض الإمتيازات . وقد نمت هذه الطبقة فيما بعد . وكذلك كان ينتمى إلى الأشراف ، وينضوى تحت حمايتهم ، بعض الطوائف الميسورة ، مثل صغار الملاك ، وأصحاب الصناعات . ولم تكن هذه الحماية تقف عند الأشخاص أو الأسر المعينة فقط ، ولكنها كانت تشمل أحياناً بعض القرى والضياع ، فينضوى أهل القرية أو الضيعة ، تحت حماية الشريف بشروط معينة ، وكان هؤلاء يقدمون جزءاً من أملاكهم إلى السيد المتولى حمايتهم ، ويؤثرون إليه إتاوات معينة ، وأعطية شخصية . بيد أنهم كانوا في حل من تركه إذا قصر في حمايتهم ، والانضواء تحت حماية سيد آخر .

ويلحق أخيراً بهذه الطبقة الشعبية الزراع الأحرار ، وهم الأشخاص الأحرار الذين لا يملكون أرضاً ، ولكن يتلقون من الملاك أرضاً لزروعها . وكذلك الأحرار الذين كانوا من قبل رقيقاً ، ثم وفقوا إلى تحقيق حرياتهم ، وكان هؤلاء عليهم أن يؤدوا إلى السيد أو المالك ضرائب وإتاوات عينية فادحة ، بيد أنه كان في وسعهم أن يتركوه متى شاءوا .

إلى جانب هذه الطبقات الحرة من المجتمع النصراني ، كانت توجد الطبقة المستعبدة أو طبقة الأرقاء ، وقد بقيت أحوالها على ما كانت عليه أيام القوط تقريباً . وكانت تتكون من عناصر عدة ، فهم عبيد الدولة ، وعبيد الملك ، وعبيد الكنيسة والأديار (عبيد رجال الدين) ، ثم عبيد الأفراد وعبيد الأرض المملوكة بها . وكان عبيد الأفراد على الأغلب من أسرى الحرب ، ومنهم الأسرى المسلمون . وقد استمرت هذه الطوائف من الرقيق ، قائمة حتى القرن الثاني عشر ، ثم اندمجت بعد ذلك في طائفة واحدة من الأرقاء ، هم رقيق الضياع .

وكان رقيق الضياع يعتبرون من مرافق الأرض ، وينتقلون معها بانتقال الملكية . وكانوا يزرعون الأرض على نفقتهم ، ويؤثرون إلى السيد ، سواء أكان هو الملك ، أو الأشراف أو الكنيسة ، جزءاً من المحصول ، وإتاوات أخرى ، ويقدمون إلى جانب ذلك خدمات شخصية كثيرة ، مثل القيام بحرث أرض السيد ، أو ضم محاصيله وعصر نبيذه وزيته ، أو المعاونة في بناء داره ، وتنحصر حقوقهم في التمتع بالسكن ، والعيش في الضيعة . وكان بيع الضيعة يغدو في معظم

الأحيان بالنسبة لهم محنة أليمة ، إذ يفرق أحياناً بين الرجل وزوجه ، أو بينه وبين أولاده .

وكانت هذه الطبقة من الأرقاء تتكون من أبناء العبيد ، ومن المحكوم عليهم بالرق ، في قضية مدنية أو جنائية ، ومن أسرى الحرب ، وقد كانوا أسوأ طوائف الرقيق حظاً .

وكان تحرير الرقيق ، يقع إما بالعتق أو بالفرار أو الثورة . على أن ثورات العبيد كانت قليلة ، وكان الأغلب أن يظفر العبيد بحرياتهم ، في أعقاب الثورات التي يشتركون فيها . أما العتق فكان يجري وفقاً لتعاليم الكنيسة . على أن هذه الطائفة من المتحررين ، لم تكن تتمتع بكامل حقوق الطوائف الحرة الأخرى ، فكان السيد يحتفظ لنفسه أحياناً قبل المعتوقين ببعض الخدمات أو الإتاوات .

وقد استمرت الطبقة الوسطى ، تنمو على كثر الزمن ، بزيادة عدد المعتوقين أو الأحرار الأصائل ، حتى إذا كان القرن العاشر ، كانت هذه الطبقة ، تكون الجزء الأعظم من السكان ، وتتمتع بظروف وأحوال أفضل بكثير مما كانت عليه من قبل (١) .

٥ - تنظيم السلطات السياسية

أما من حيث التنظيم الأساسي ، وتوزيع السلطات السياسية ، في الممالك الإسبانية النصرانية ، فقد كانت هذه السلطات موزعة ، بين ثلاث جهات رئيسية ، هي الملك ، والأشراف ، ورجال الدين .

وقد كان المفروض أن تكون السلطة الملكية ، هي أعلى السلطات وأشملها ، وقد كانت كذلك من الوجهة النظرية . فقد كان الملك ، هو رئيس الدولة الأعلى ، وله الولاية على كل فرد تضمه أرض المملكة . وكان الملك مصدر التشريع ، ومنه وباسمه تصدر القوانين العامة ، وكذا كان له حق الموافقة على القوانين المحلية ، التي يصدرها الأشراف بالنسبة للمتمتعين إليهم ، وله أن يدعو رعاياه إلى الحرب ، وأن يرغمهم على الخدمة فيها ، وأن يصدر السكّة ، وأن يباشر العدالة . وهو الذي يعين الأساقفة ويقيلهم ، ويؤسس الكنائس والأديار ، وهو الذي يقود الجيش ، وعلى الحملة فهو الذي يتولى سائر الوظائف السياسية والعسكرية والدينية والمدنية .

على أن هذه السلطات لم تكن متساوية في جميع الأحوال والعصور ، وقد تعدلت بمضى الزمن ، وانتقصت أطرافها ، أحياناً بطريق التنازل من جانب الملوك ، وبخاصة لأن الملك لم يكن يزاول هذه السلطات بطريق مباشر :

وكان الأشراف يتمتعون داخل أملاكهم ، بقدر كبير من الاستقلال ، ويبسطون حكمهم على طائفة كبيرة من الأراضى والقرى والضياح والحصون ، وكان السيد يعيش في حصنه ، وهو يقع عادة في موقع إستراتيجى حصين ، ويحيط به عدد من المساكن المحصنة ، ويخضع لسلطته سائر سكان المنطقة ، بعضهم كعبيد ، والبعض الآخر من المشمولين بحمايته . وكان يجبى منهم الضرائب ، والإتاوات العينية ، ويدعوهم للخدمة العسكرية متى دعاه الملك إلى الحرب ، ويباشروا القضاء بينهم ، وله أن يوقع عليهم بعض الأحكام الجنائية التى تتصل بالقانون العام . وعلى الحملة فقد كان للشريف على سكان منطقته ، السيادة المطلقة ، وهو الذى يوزع بينهم مختلف المناصب والأعمال .

وأما القضاء قبل الأشراف أنفسهم ، فقد كان يزاوله بالنسبة للسيد ، أشراف من طبقته ، ولا يزاوله قضاء الملك ، لأنهم لم يكونوا من الأشراف . وكان للشريف أن يشهر الحرب على زملائه الأشراف ، إذا أصابه منهم حيف أو إهانة ، وله أن يترك خدمة الملك دون أن يخسر شيئاً من أملاكه ، بل كان له أن يشهر الثورة ضد الملك . ولم يكن يحسد من هذه السلطة ، التى بمنحها الملك إياه سوى أمرين ، الأول الحيانة ، وفى هذه الحالة يجرد الشريف من أملاكه وامتيازاته ، والثانى متى ضمت لأملاكه أراض جديدة ، فإنه لا يستطيع أن يبسط عليها سلطته وامتيازاته إلا بموافقة الملك .

وكان الأشراف يشاركون فى مزاوله القضاء مشاركة فعلية ؛ فقد كانوا يؤلفون جزءاً من المحاكم العادية ، ويشتركون فى تشكيل المحاكم الملكية كلما اجتمعت ، ويحتلون كذلك بعض المناصب الإدارية الهامة . وكان لهذه المساهمة الخطيرة ، أثرها فى إذكاء شهوتهم إلى الاستئثار بالسلطة ، وتوطيد استقلالهم المحلى ، وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الثورة ، لفرض إرادتهم على العرش ، أو يتدخلون فى وراثة العرش بالقوة القاهرة .

ومع ذلك فقد كان الملوك ، يعمدون إلى الإغضاء فى أحيان كثيرة ، ولو كان

فى ذلك إضرار بالسلطة الملكية . ذلك أن ضعف الملوكية ، وضرورات الحرب ، ثم الحاجة إلى معاونة الأشراف أيام الحرب الأهلية حول وراثة العرش ، كانت رغم الملوك على التسامح ، بل وأحياناً على زيادة المنح والامتيازات للأشراف ، وذلك حرصاً على استتباب الأمن والسكينة ، إذ كان الأشراف فى تلك العصور قوة يخشى بأسها .

وقد كانت طائفة الأشراف هذه ، بالرغم من مركزها الاجتماعى الممتاز ، تنطوى على عيوب ومثالب كثيرة ، فقد كانت تجنح إلى استغلال الرعايا ، وانتزاع ما فى أيديهم ، بل وقد كانت ترتكب الجرائم جهاراً ، فتعتمد إلى نهب التجار والمسافرين ، وكان الأشراف يقتتلون فيما بينهم للفوز بثمار أمثال هذه الجرائم . وقد استمر هذا النظام الإجرامى الحائر عصوراً ، بالرغم من تدخل الملك . والأساقفة ، لحفظ الأمن فى كثير من الأحيان .

وإلى جانب الأشراف ، كان رجال الدين من الأساقفة والرهبان ومن إليهم ، يتمتعون كذلك فى أراضيهم بسلطان مستقل . وكان للكنائس والأديار أراض شاسعة خاصة ، ترجع إلى الهبات والنذور وغيرها ، وفيها تزاول السلطة بطريق مطلق ، وفقاً لروح هذا العصر الإقطاعى . وكان لها أيضاً كثير من العبيد والزرايع تتمتع قبلهم كالأشراف ، بالحق فى تحصيل الحباية والمحاصيل وغيرها . وكان الملوك فى أحيان كثيرة يهبون بدافع الورع والحماسة الدينية ، إلى الكنائس والأديار ، رقاعاً شاسعة من الأرض ، فتبسط سلطانها على سكان المنطقة ، وتحصل منهم الإتاوات ، وتزاول بينهم القضاء . وكانت الكنائس والأديار ، تدفع هذه السلطات أحياناً إلى حدود مرهقة ، اجتناباً لافتتات الأشراف المجاورين . وكان رجال الدين ، على مثل الأشراف ، يلبون دعوة الملك إلى الحرب هم ورجالهم ، ويحشدون الصفوف من بين رعاياهم من الأحرار والزرايع والأرقاء ، أو يعهدون بذلك إلى رئيس من غير رجال الدين . والخلاصة أن الأساقفة والرهبان كانوا كالأشراف ، سادة بكل معانى الكلمة ، وكانوا يمتازون فى ذلك على الأشراف ، بأن كان الملك يصدر الوثائق والمراسيم المكتوبة بامتيازاتهم ، وكان يتبع الكنيسة أحياناً مناطق كثيفة من السكان ، كما كان الشأن فى شنت ياقب ، حيث قامت حول الكنيسة مدينة عظيمة ، صارت تابعة لها هى وما حولها من الأراضى الشاسعة .

وكانت سلطة الأسقف تتخذ في أحيان كثيرة صورة مطلقة في المدينة وفي الحقل ،
يزاولها على يد كونتات وموظفين وغيرهم . وكان له جيشه أو جنده الخاص ،
يحمون أراضيه من الأجانب أو الأشراف المغيرين^(١) .
ونلاحظ أن هذا التنظيم السياسي ، الذي تطبعه روح إقطاعية عميقة ، والذي
ينطوى على توزيع السلطة بين مختلف الطوائف والعصبيات ، بصورة تجعل دولا
عديدة داخل الدولة ، يتنافى في جملته وتفصيله مع التنظيم السياسي للدولة الأندلسية
الإسلامية . فقد رأينا فيما تقدم ، كيف كان العرش يحرص منذ البداية على سلامة
السلطة المركزية ، وكيف بذل أمراء بني أمية ، منذ عبد الرحمن الداخل جهودهم ،
لإخماد النزعة القبلية ، وتحطيم رياستها ؛ ثم جاء الناصر فحطم العصبية العربية ،
وقضى على رياسة القبائل العربية بصورة نهائية ، واستخلص السلطة كلها للعرش ،
ولم يكن العرش يتسامح بعد ذلك ، مع أية رياسة محلية تنزع إلى الاستقلال ،
إلا ما كان بالنسبة لبعض الثغور النائية ، مثل طليطلة وسرقسطة ، وذلك لأسباب
عملية واستراتيجية .

الفضل الرابع

عبد الملك المظفر بالله

عبد الملك بن المنصور يتول الحجابة وتدير المملكة . إشادة الرواية الإسلامية بمهده وبخلاله .
يحلّو حلّو أبيه في سياسته نحو المغرب . يتابع سنته في الغزو . خروجه إلى الغزو ومسيره إلى الثغر .
الأهل . صيته في أراضي يروشالونة . عوده إلى قرطبة واستقبال هشام له . جلوسه في الزاهرة . سفارة
أمير يروشالونة . إحكام أمير قشتالة وجليقية إليه . غضب سانشو غرسية وعدوانه . مسير عبد الملك
لغزو قشتالة . غزوه لمملكة ليون . غزوة بنبلونة . استقباله لسفير الفيصر في مدينة سالم . غزوة
قلونية أو غزاة النصر . إنحاذ عبد الملك لقب المظفر بالله . قصة هذا القرب ومرسومه . استئنائه للغزو
واخترافه لقشتالة . الغزوة السابعة أو غزاة العلة . مرضه وتفرق جيشه . وفاته . ما قيل عن اغتياله
بالسم . موقفه من الخليفة هشام . إنهماكه في الشراب واعتماده على الغلمان والوزراء . الوزير عيسى
ابن القطاع . المنافسة بينه وبين الفتيان . تغلب الفتى طرفة واستئنائه بالسلطة . تدير عبد الملك عليه .
القبض عليه وإعدامه . ابن للقطاع يسترد نفوذه وسلطانه . كبرياؤه وتعصفه . الوقعة في حقه .
استظهار عبد الملك بالصقالبة والبربر . سحق الأمر العربية لذلك . تأمر ابن القطاع على إزالة بني عامر .
وقوف عبد الملك على المؤامرة . بطشه بالوزير وأصحابه . استرداده لساتر
السلطات . صفات عبد الملك وخلاله .

لما توفي المنصور بن أبي عامر بمدينة سالم ، في السابع والعشرين من رمضان
سنة ٣٩٢ هـ ، بعد أن ألقى إلى ولده عبد الملك ، وصيته ونصائحه الأخيرة ، بادر
عبد الملك بالعودة إلى قرطبة ، تاركاً لأخيه الأصغر عبد الرحمن ، أمر العناية بمواراة
أبيه ، والعودة بالجيش . وما كاد يصل إلى العاصمة ، حتى بادر بروية الخليفة
هشام المؤيد ، واستصدر منه المرسوم بتوليته الحجابة ، وجلس في الحكم مكان أبيه
بالزاهرة . وتلى نص المرسوم بالمسجد الجامع ، وأنفذ الكتب إلى الجهات ،
وإلى عدوة المغرب ، معرفة بوفاة المنصور وتولية ابنه عبد الملك تدير
المملكة مكانه . وكان لوفاة المنصور وقع عظيم بقرطبة ، فحزن الناس
لفقده أليما حزن ، وأدرك العقلاء أن رزءاً فادحاً نزل بالإسلام وبالأندلس .
واعتقد فريق من الفتيان المروانيين بالقصر ، وبعض الناقمين من العناصر الأخرى ،
أن الفرصة قد سنحت ، للتحرر من نير الحكم القائم ، والعود إلى النظام الخلافي ،
ولكن السلطات العامرية كانت ساهرة . فقبض في الحال على عدد من المحرضين ،

وأبعثوا إلى العلوة ، واستتب الأمر لعبد الملك ، دون ما جهد أو اضطراب ، واستقبل الناس حكمه بالاستبشار والرضى .

وكان عبد الملك ، حينما خلف أباه المنصور في الحكم ، في الثامنة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بقرطبة في سنة ٣٦٤ هـ ، ويكنى أبا مروان ويلقب بسيف الدولة وبالمظفر بالله ، وأمه حرة تدعى الذلفاء ؛ وقد رأينا كيف تمرس عبد الملك في شئون الحكم أيام أبيه ، وكيف تولى القيادة ، واشترك معه في كثير من غزواته ، ومن ثم فقد قبض عبد الملك على زمام الأمور بحزم وكفاية ، واعزم أن يسير على خطى أبيه ، سواء في تدبير الشئون الداخلية ، أو الاستمرار في غزو الممالك النصرانية .

وتشيد الرواية الإسلامية بعهد عبد الملك على قصره ، وما بلغته الأندلس فيه من الرخاء والنعماء ، وتقدمه إلينا في صور طيبة لامعة . فيقول لنا ابن حيان في قوة وحاسة : « انصب منه الإقبال والتأييد على دولته انصباباً ، ما عهد مثله في دولة . وسكن الناس منه إلى عفاف ، ونزاهة ، ونقى سريرة ، ووثوق في بعد همته ، اطمأنوا بها إلى جنبه ، في السر والعلانية ، فباحوا بالنعم ، واستثاروا الكنوز ، وتناهوا في الأحوال ، وتناغوا في المكاسب ، وتحاسلوا في اقتناء الأصول ، وابتناء القصور ، وغالوا في الفرش والأمتعة ، واستفروها المراكب والغلمان ، وغالوا في الجوارى والقيان ، فسمت أثمان ذلك في تلك المدة ، وبلغت الأندلس فيها الحد الذي فاق الكمال ؛ فهد تلك الدولة في احتشاد النعم عندها ، وارتفاع حوادث الغير عنها ... في كنف ملك مقتبل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الأيام ، مسرور بما تتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها . فاجتمع الناس على حبه . ولم يدهنوا في طاعته ، ورضى بالعافية منهم ، وآتوه إياها فصنى عيشه ، وانشرح قلبه ، وخلصه الله من الفتنة » .

ويشيد ابن حيان بعد ذلك ، بعفة عبد الملك ، وورعه وتواضعه وشجاعته وحيائه ، وتورعه عما يشين الملك من الخجون والاستهتار ، وبره بوالديه ، وثباته على عهد أبيه . كل ذلك في عبارات تنم عن عميق تأثره وإعجابه^(١) .

بيد أن هذه الصور المشرقة التي تقدم إلينا عن خلال عبد الملك ، تغشاها

(١) نقله أعمال الأعلام ص ٨٤ و ٨٥ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣ .

من الناحية الأخرى خلة قائمة ، هي شغفه بمعاقرة الشراب وانهماكه في لذاته (١).
افتتح عبد الملك المنصور عهده ، بإجراء كان له في نفوس الناس أطيّب وقع ؛
وذلك أنه أسقط سدس الجباية عن سائر الناس ، في سائر بلاد الأندلس . فكان
لذلك أثره في التخفيف عن الناس ، والرفق بهم ، وبث شعور الرضى والاستبشار
بالعهد الجديد .

وحذا عبد الملك حذو أبيه المنصور نحو المغرب ، في تأييد زناتة ومغراوة ،
والإبقاء على ولائهم . وكان المنصور حينما توفي زيرى بن عطية زعيم مغراوة ،
في سنة ٣٩١ هـ ، قد أقر ولده المعز حاكماً على المغرب حسباً قدمنا . فلما تولى
عبد الملك الحجابة ، أعلن المعز طاعته له ، ودعى له على منابر المغرب ، فكتب
إليه عبد الملك بعهدده ، على سائر ما يملكه من أقطار المغرب (سنة ٣٩٣ هـ) على
أن يؤدى إلى حكومة قرطبة ، مقادير معينة من المال والخيل والدق . واستمر
المعز على الوفاء بعهوده ، أيام عبد الملك وأخيه عبد الرحمن من بعده (٢).

واعترّم عبد الملك أن يسير على سنن أبيه في متابعة غزو الممالك النصرانية ،
وأن لا يترك لها فرصة لتذوق السلم والدعة . وكان الملوك النصارى قد تنفسوا الصعداء
عند وفاة المنصور ، واعتقدوا أن الظروف قد تتغير ، وأن أخطار الغزوات
الإسلامية قد تخبو ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الأمل . ذلك أنه لم تمض أشهر
قلائل على تولية عبد الملك ، حتى اتخذ الأهبة لغزوته الأولى ، واستعد لها استعداداً
خاصاً ، ووفدت على قرطبة طوائف كبيرة ، من الزعماء والمتطوعة من العدو ،
للاشتراك فيها ، وأجزل لهم عبد الملك الصلات والأرزاق ، ووزع فيهم ما كان
مخزوناً من السلاح .

وخرج عبد الملك بالجيش من مدينة الزاهرة ، في شعبان سنة ٣٩٣ هـ (يونيه
١٠٠٣ م) . وتصف لنا الرواية مشهد خروجه فتقول لنا إنه « خرج على الناس
شاكى السلاح ، في درع جديد سابغة ، وعلى رأسه بيضة جديدة مثمّة الشكل
مذهبة ، شديدة الشعاع ، وقد اصطففت القواد والموالي والغلمان الخاصة ، في
أحسن تعبئة ، فساروا أمامه ، وقد تكنفه الوزراء الغازون معه » (٣) . وسار عبد الملك

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣ .

(٢) دفع الطيب ج ٢ ص ١٩٨ ، والاستبصار ج ٢ ص ٩٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٥ .

أولاً إلى مدينة طليطلة ، ثم ارتد منها إلى مدينة سالم ، وهناك انضم إليه الفتي .
واضح في قوائمه ، ووفد عليه في نفس الوقت قوة من النصاري ، أرسلها الكونت
سانشو غرسية أمير قشتالة ، وفقاً لمعاهدته مع المنصور .

وتابع الحاجب عبد الملك سره بعد ذلك نحو الثغر الأعلى ، واستراح أياماً
في سرقسطة ، ثم غادرها قاصداً إلى الثغر الإسباني أو بعبارة أخرى إلى إمارة
برشلونة التي بدت من أمرائها منذ أيام المنصور نزعة إلى العدوان ؛ وأشرف على
سلسلة من الحصون القوية الواقعة جنوبي جبال مونسيش ، واستولت قوات الفتي
واضح على حصن مديش^(١) ، وحاصر الحاجب بقواته حصن ممقصر أو
ممقصره^(٢) ، واستولى عليه بعد قتال عنيف ، وأباد حاميته ، وعاث المسلمون بعد
ذلك في بسائط برشلونة ، وخربوا كثيراً من حصون العدو ، واستولوا على كثير
من الغنائم والسبي .

وقضى الحاجب وجيشه عيد الفطر في بسائط برشلونة ، واحتفل بالعيد
احتفالاً فخماً ، واستقبل طبقات الأجناد مهنتين ومسلمين . وبعث من معسكره
رسالتين إلى قرطبة من إنشاء كاتبه أحمد بن برد يصف فيهما الفتح ، إحداهما برسم
الخليفة هشام المؤيد ، والثانية لتقرأ على الكافة في جامع قرطبة .

ثم قفل عبد الملك بجيشه عن طريق مدينة لاردة . واخترق الثغر الأعلى جنوباً
إلى قرطبة ، فدخلها في الخامس من ذي القعدة . وهناك تلقاه الأكابر والعلماء
مهنتين مستبشرين ؛ وقصد الحاجب من فوره إلى الخليفة هشام ، فاستقبله أحسن
استقبال ، وأكرم منزله ، وخلع عليه من ثيابه وسلاحه ، فشكره الحاجب وقبل
يده . وفي اليوم التالي جلس بقصر الزاهرة ، واستقبل مختلف الوفود ، وكان يوماً
مشهوداً^(٣) .

وقد نظم ابن دراج القسطلي في التهنئة بهذه الغزوة قصيدة هذا مطلعها :
بدا ريح السعد واستقبل النجح فبالله فاستفتح فقد جاءك الفتح

(١) هو باسمه الإسباني حصن Meya .

(٢) هو باسمه الإسباني حصن Monmagastre ؛ ويسميه ابن الخطيب حصن منقصر (أعمال
الأعلام ص ٨٧) .

(٣) راجع في أخبار هذه الغزوة : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٥ - ٩ ، وأعمال الأعلام

وقد قدّم النصر العزيز لواءه وقبل طلوع الشمس ينبلج الصبح
فقد في سبيل الله جيشاً كأنه من الليل قطع طبق الأرض أو جنح
كتائب في أقدامها النجح والهدى وألوية في عقدتها اليمن والنجح^(١)
ولم يمض قليل على ذلك ، حتى أرسل أمير برشلونة الكونت رامون بوريل
الثالث ، سفارة إلى قرطبة يطلب عقد الصالح والمهادنة ، فاستقبل السفراء الفرنج
استقبالا حافلا ، على نمط أسلافهم من السفراء النصارى . وكانت هذه آخر فرصة
من نوعها أبدت فيها أمة الخلافة وفخامتها^(٢) .

وكان من أثر هيبة عبد الملك في نفوس الملوك النصارى ، أن احتكم إليه
أمير قشتالة الكونت سانشو غرسية ، ومننديث كونثالث زعيم جليقية ، والوصى
على ملك ليون الطفل . وكان ملك ليون وهو ألفونسو الخامس ، يومئذ ما يزال
حدثاً في العاشرة من عمره ، وكانت أمه إلبيرة أختاً لسانشو غرسية ، وكان سانشو
يرى بذلك أنه أحق بالوصاية على ابن أخته الملك الطفل ، من مننديث كونثالث .
فلما احتكم الطرفان إلى عبد الملك ، ندب قاضى النصارى أصبغ بن سلمة ،
لبحث النزاع والفصل فيه ، ففضى لمننديث كونثالث بأحقية لوصاية ، واستمر
بالفعل وصياً على ملك ليون حتى قتل غيلة في سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م)^(٣) .

والظاهر أن سانشو غرسية لم يرضه هذا الحكم ، فبدت منه أعراض العدوان
على أرض المسلمين ، أو هو قد اعتدى عليها بالفعل . ومن ثم فإننا نجد عبد الملك
يخرج بقوته في صيف سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٤ م) ويقصد إلى أراضي قشتالة ويعيث
فيها ، ولم يبد سانشو أية مقاومة ، ففعل عبد الملك إلى قرطبة ، واضطر سانشو إلى
طلب الصلح ، وقصد بنفسه إلى قرطبة ، فاستقبله عبد الملك أحسن استقبال ،
وأعيد عقد الصلح والتهادن بين الفريقين ، وتعهد سانشو أن يعاون عبد الملك في
غزواته ضد مملكة ليون ، وضد خصومه من بنى غومس وغيرهم .
وفي العام التالى (٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م) خرج عبد الملك في قواته وسار

(١) تراجع هذه القصيدة بأكملها في ديوان ابن دراج القسطللى الذى سبقت الإشارة
إليه ص ٤٦٦ و ٤٦٧ .

(٢) الذخيرة . القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٦٤ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ والبيان المغرب ج ٣ ص ١٠ .

صوب طليطلة ؛ وهناك لحق به الفتي وإضح وسائشو غرسية في بعض قواته ، ثم سار شمالاً نحو أراضي ليون ، وبعث واضحاً في قواته إلى مدينة سمورة ، وكانت قد خربت منذ أيام المنصور ، وليس بها سوى قليل من النصارى يقيمون في بعض أبراجها ، فقتل الرجال ، وسبى النساء . وعاش عبد الملك بعد ذلك في أراضي ليون ، وإلى جانبه سانشو غرسية ، واقتحم أملاك بني غومس ، ووصل في زحفه في جلّيقية ، إلى بلدة لونة الحصينة ، واستولى في هذه الغزوات على كثير من الغنائم والسبي . ولكنه لم يحقق خلالها نتائج حربية ذات شأن (١) .

وفي أواخر سنة ٣٩٦ هـ (صيف سنة ١٠٠٦ م) خرج عبد الملك إلى غزوته الرابعة . وتصف الرواية الإسلامية هذه الغزوة بأنها غزوة « بنبلونة » ، وبعبارة أخرى « بنبلونة » عاصمة ناغار . وتقول لنا إن عبد الملك سار بجيشه إلى سرقسطة ثم إلى وشقة ، ثم إلى بربشتر ، ومنها نفذ إلى أرض العدو . ولكن هذا الاتجاه الذي اتخذته الجيش الإسلامي ، لا يحمل على الاعتقاد بأنه كان يقصد إلى ناغار أو بلاد البشكنس ، وإنما يبدو بالعكس أنه اتجه شمالاً إلى أراضي ولاية « ريباجرسا » الصغيرة الواقعة شمال شرق بربشتر ، وهي إحدى ولايات البرنية الفرنجية . وتقول الرواية الإسلامية إن المسلمين اقتحموا في هذه الغزوة بسبب أبينيونش وشنت يوانش ، (سان خوان) وعاثوا في أرض العدو قتلاً وسبياً وحرقة ، ثم تقول لنا إن الجيش الإسلامي قد انقضت عليه يومئذ عاصفة مروعة من رعد وبرق ومطر غزير . تخللها قصف مفزع وبرد قارس ، وخشى أن تكون سيباً في نكته . ولكن تداركه لطف الله . وقفل عبد الملك راجعاً بجيشه إلى قرطبة . ولكن الشعب لم يبد في استقباله شيئاً من الحماسة ، لضعف النتائج التي ترتبت على هذه الغزوة ، ولكونها لم تسفر عن شيء من الغنائم والسبي ، التي كانت تملأ أسواق قرطبة أيام أبيه المنصور (٢) .

ومما يتصل بأخبار هذه الغزوة ، أن عبد الملك عرج في طريق العودة على مدينة سالم ، وقضى بها عيد الأضحى ، وهناك وافاه سفير من قبل قيصر

(١) راجع أخبار هذه الغزوة في الذخيرة . القسم الرابع ، المجلد الأول ص ٦٥ ؛ والبيان

المغرب ج ٣ ص ١١ و ١٢ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٣ و ١٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ٨٧ .

قسطنطينية ، الإمبراطور بسيل الثاني ، ومعه كتاب مكتوب بالذهب يطالب فيه قيصر استئناف المودة والصداقة ، التي كانت قائمة بين ملوك بني أمية ، وبين القيصرية ، ومعه كذلك هدية وعدد من الأسرى المسلمين الذين أسروا في أطراف الجزائر التابعة لقيصر ، فسر عبد الملك لذلك ، وصرف السفير أجمل صرف^(١). ونحى إلى عبد الملك في تلك الأثناء ، ما كان يحيش به أمير قشتالة سانشو غرسية من قصد إلى العدوان ، فرأى أن يعالجه بالغزو . فخرج من قرطبة في صيف سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٧ م) في غزوته الخامسة ، وهي المعروفة بغزوة قلونية ، أو غزوة النصر ، وسار مخترقاً أراضي قشتالة . ويبدو من أقوال الرواية الإسلامية أن عبد الملك لم يكن يواجه يومئذ أمير قشتالة فحسب ، ولكنه كان يواجه جبهة متحالفة من الماوك النصارى ، يشترك فيها سانشو غرسية ، وألفونسو الخامس ملك ليون ، وسانشو الثالث ملك نافار ، وعدد من الزعماء النصارى في مقدمتهم بنو غومس^(٢) . ويشير صاحب البيان المغرب إلى هذه الغزوة بقوله « غزاة النصر التي لقي فيها (أى عبد الملك) شأنه بجميع النصرانية على اختلافها »^(٣). ولا تقدم إلينا الرواية الإسلامية بعد ذلك شيئاً من التفاصيل ، سوى قولها إن الحاجب عبد الملك ، قد هزم النصارى في تلك الموقعة هزيمة عظيمة في ظاهر مدينة قلونية (كلونية) ، الواقعة شمال نهر دويرة على مقربة من شنت إشتين ، وأحرز عليهم نصراً مبيناً ، وافتتح الحصن صلحاً . ووصل كتاب الفتح إلى قرطبة ، وقرئ على الكافة كالعادة ، فكان له وقع عظيم ، وكان أهل قرطبة يحشون سوء العاقبة من اجتماع الجيوش النصرانية لقتال المسلمين . وفقل عبد الملك بالخييش إلى قرطبة ، فوصل إليها في أواخر ذى الحجة من تلك السنة ، واتخذ على أثر ذلك لقبه « المظفر بالله » تنوياً بما أحرزه من النصر العظيم^(٤) .

وقد ساق لنا المؤرخ الفقيه أبو المطرف ابن عون الله ، وهو من معاصري هذه الحوادث ، قصة هذا اللقب ، فذكر أن عبد الملك كان مثل أبيه يسمو إلى

(١) الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٦٥ و ٦٦ .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١٤ ؛ والذخيرة ، القسم

الرابع ، المجلد الأول ص ٦٦ .

الألقاب السلطانية ، فتقدم إلى الخليفة هشام ، على أثر عودته من غزوة قلونية ،
والتمس إليه إخراج الأمر له ، بأن يتسمى « بالمظفر » وهو اللقب الذى اختاره
وأثره ، وأن يكنى فى سائر ما يذكر عنه « بأبى مراون » ، وأن ينعم على ابنه الغلام
محمد ، الذى منح لقب الوزارة ، بالقب « ذى الوزارتين » ، ويعلى بذلك مرتبته
على سائر الوزراء ، وأن يكنى بأبى عامر ، كنية جده ، وكان الخليفة يقيم يومئذ
عند الحاجب بمصر الزاهرة ، فى الجناح الفخم الذى أنشئ وقتها . فى منتصف
الحرم سنة ٣٩٨ هـ ، تحرك الخليفة خفية إلى قصر ناصح من قصور الزاهرة ،
واستدعى حاجبه ، وفاوضه فيما أراد . ولما انصرف من لدنه ، اتبعه فى الحال
بمرسوم التكريم الذى التمس ، فأذاع عبد الملك نص المرسوم ، وبعث بالكتب
للعمل به ، وإليك نص هذا المرسوم ، وقد زعم البعض أنه كان بخط الخليفة
هشام نفسه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من الخليفة هشام بن الحكم المؤيد بالله ، أتم الله
عليك نعمه ، وألبسك عفوه وعافيته ، إنا أربناك ... من صنع الله الحسيم ،
وفضله العظيم ، لنا عليك ما شفى الصدور ، وأقر العيون ، فاستخرنا الله سبحانه
فى أن سميناك المظفر ؛ فنسأل الله تعالى سؤال إلحاف وضراعة وابتهال ، أن يعرفنا
وإياك بركة هذا الاسم ، ويحليك معناه ، ويعطينا وإياك وكافة المسلمين ، فضل
ما خلت منه ، وأن يخبر لنا ولهم فى جميع أقضيته ، ويقرنه بيمينه وسعادته ، بمنه
وخفى لطفه ، وكذلك أحنأ التكنى فى مجالسنا ومحافلنا ، وفى الكتب الجارية
منك وإليك ، فى أعمال سلطاننا ، وسائر ما يجرى فيه اسمك معنا ودوننا ، إنافة
بمحلك لدينا ، ودلالة على مكانك منا ، وكذلك ما شرفنا به فتاك أبا عامر ، محمد
ابن المظفر تلادنا ، أسعده الله ، بالإنهاض إلى خطة الوزارتين ، وجمعناه بها فى
التكنى على المشيخة والترتيب ، وآثرنا فى الدولة ، وأنت الحقيق منا بذلك كله ،
وبجميل الزيد عليه ، لأنك تربيتنا ، وسيف دولتنا ، وولى دعوتنا ، ونشئ
نعمتنا ، وخريج أدبنا ، فأظهر ما حددناه لك فى الموالى ، وأهل الخدمة ، واكتب
بها إلى أطوار المملكة ، وتصدق به بشكر النعمة ، أحسن الله توفيقك ، وأمتعننا طويلا
بمعافاتك ، وآنسنا ملياً بدوام سلامتك ، إنه ولى قادر عزيز قاهر » .

وكانت الكتب تخرج من قبل عبد الملك على النحو الآتى : « من الحاجب

المظفر سيف الدولة أبي مروان عبد الملك بن المنصور». فكان بذلك أول من اجتمع له لقبان ملوكيان من حكام الأندلس^(١). وكان صدور هذا المرسوم حادثاً مشهوداً ، أطلق عبد الملك على أثره الصلات والكسي ، وكثرت تهنأت الشعراء ومدائحهم .

والظاهر أن عبد الملك لم يحن من هذا النصر ما كان يؤمل من إرغام أمير قشتالة على التزام السلم والهدوء ، وأن سانشو غرسية بالعكس استمر في عدوانه . ومن ثم فإنه لم يمحض سوى قايل ، حتى تأهب عبد الملك لاستئناف الغزو ، فخرج من قرطبة في أوائل شهر صفر سنة ٣٩٨ هـ (أكتوبر ١٠٠٧ م) واخترق قشتالة الوسطى ، حتى ضفاف نهر دويرة ، وقصد إلى حصن شنت مرتين المنيع ، الواقع على مقربة من غربي قلونية على الضفة اليمنى من النهر ، فحاول النصارى في البداية أن يردوا المسلمين في ظاهر الحصن ، ولكن المسلمين صدوهم بعنف ، فالتجأوا إلى الحصن ، وحاووا الدفاع من وراء الأسوار ، فهاجم المسلمون الحصن بشدة وثلّموا أسواره بالمخانيق والنار ، واضطر النصارى إلى التسليم ، فأمر عبد الملك بقتل الحند وسبي النساء والذرية ، وإصلاح ما تهدم من الحصن ، وقفل راجعاً إلى قرطبة فوصلها في أوائل شهر ربيع الآخر .

وفي شوال من نفس العام (صيف ١٠٠٨ م) ، خرج عبد الملك بالجيش ، وكانت غزوته السابعة والأخيرة ، وتعرف «بغزاة العلة» . ذلك أنه ما كاد يصل إلى مدينة سالم حتى اشتد به المرض ، فاستقر بها حيناً يرقب البرء . وفي أثناء ذلك دب الخلل إلى الجيش ، وتفرق عنه أكثر المتطوعة ، وأخفق مشروع الغزو ، واضطر عبد الملك أن يعود أدراجه إلى قرطبة ، عليلاً ضعيفاً ، وذلك في منتصف المحرم سنة ٣٩٩ هـ . ومع ذلك فما كاد عبد الملك يشعر بقليل من التحسن ، حتى عقد العزم على التأهب لاستئناف الغزو ، وخرج بالفعل من قرطبة في منتصف شهر صفر ، ولكن أصابته عندئذ نكسة شديدة ، صحبتها نوبة سعال عنيف ، فحمل إلى قصر الزاهرة في محفة ، ومن حوله خاصة غلمانة ، وتوفى على الأثر ، وكان أخوه عبد الرحمن حاضراً مع أكابر رجال الدولة ، وقيل إنه توفى مسموماً من شربة دست له بتحريض أخيه عبد الرحمن . وكانت وفاته في ١٦ صفر سنة ٣٩٩ هـ

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥ - ١٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٨٨ و ٨٩ .

(٢١) أكتوبر سنة ١٠٠٨ م^(١)، ولم يكن قد جاوز الرابعة والثلاثين من عمره .

* * *

حكم عبد الملك المظفر ستة أعوام وبضعة أشهر ، قضى معظمها في متابعة الغزو ، ولم يكن لديه سعة من الوقت ليتناول تدبير الأمور بنفسه . وكانت الدولة قد توطدت منذ أيام أبيه المنصور ، ولم يقع تبدل في طرق الحكم ، فكان الخليفة هشام ، كعهده أيام المنصور محجوباً في قصره ، وكان عبد الملك يحرص على حجبهِ وإخفائه بين صفوف الحند ، كلما سنحت فرصة خروجه في موكبه ، بيد أنه يبدو أن عبد الملك كان أكثر تودداً للخليفة ، ورفقاً به من أبيه ، فقد كان يدعوه إلى قصوره بالزاهرة للتريض والاستجمام ، وكان هشام ينفق أوقاتاً في ضيافته^(٢) . وكان عبد الملك لانهماكه في الشراب واللهو ، قد اعتمد في تدبير شئون الدولة ، على خاصته من أكابر الفتيان العامرين أمثال طرفة ، وواضح ، وزهير ، وخيران ، ومجاهد ، وعلى عيسى بن سعيد اليحصبي المعروف بابن القطاع ، وزيره ووزير أبيه من قبل . وكان عبد الملك لأول ولايته ، قد فوض أمره إليه ومنحه سائر السلطات العليا ، ثقة منه بإخلاصه ، واعتماداً على كفايته . ووطد حسن ظنه فيه ، ما أبداه عيسى من البراعة والحزم في تدبير الأمور ، وتوطيد النظام والأمن . وكان الفتيان الصقالية ، ولاسيما زعيمهم طرفة ، خادم عبد الملك الأكبر ، ينقمون على عيسى ، حظوته واستثنائه بالسلطة ، ويعملون ما وسعوا للنيل من مكانته . واضطربت المنافسة بالأخص بينه وبين طرفة ، وبذل طرفة جهوداً عنيفة لإفساد الجو بينه وبين الحاجب ، واستطاع مع استمرار الوقعية والدس أن يززع ثقة عبد الملك فيه ، وأن يصرفه عن الاعتماد عليه ، وانتهى الأمر بأن تغلب طرفة على الوزير ، وحل محله في تدبير الأمور ، واجتمعت السلطة في يده شيئاً فشيئاً ، حتى غدا كل شيء في القصر وفي الدولة ، وسما شأن الفتيان

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٧ ، والنخبة القديم الرابع المجلد الأول ص ٦٦ ، وأعمال الأعلام ص ٨٩ . وذكر المعري أن وفاة عبد الملك كانت في المحرم سنة ٣٩٩ (ج ١ ص ١٩٨) . ويؤيد ابن الأثير رواية وفاة عبد الملك بالدم ويقول لنا إن أخاه عبد الرحمن سم في تفاحة قطعها يسكين كان قد ممأ حد جانبيها فتناول أخاه مما يلى الجانب المسموم ، وأخذ مما يلى الجانب الصحيح فأكله بحضرته ، فاطمان المظفر وأكل ما بيده منها فأت (ج ٨ ص ٢٢٥) .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦ .

الصنقالية ، وغلبوا على من عداهم من الكبراء وأصحاب المناصب. ومرض الحاجب في أوائل سنة ٣٩٦ هـ ، واستبد طرفه بالأمر ، وأمضى كثيراً من الأمور دون علم الحاجب أو موافقته ، وأبدى كثيراً من الاستهتار والتبذل والطيش ، فلما أبل الحاجب من مرضه ، كانت نفسه قد تغيرت على طرفه ، ولما خرج إلى الغزو في شهر رمضان من هذا العام ، خرج معه الوزير عيسى ، واستطاع خلال الطريق أن يقنع عبد الملك بسوء مسلك طرفه وخطر مشاريعه ، وكان من المقرر أن يلتقي طرفه بسيدته في سرقسطة ، فقدم إليها في بعض القوات في نفس اليوم الذي وصل فيه الحاجب مع جيشه ؛ وما كاد يدخل إلى عبد الملك في قصره ، حتى قبض عليه ، وصُفد بالأغلال ، وحمل إلى إحدى جزر الشاطئ ، واعتقل حتى انتهى عبد الملك من غزوته ، فأمر بقتله ، وهو في طريق العودة ، وأمر الحاجب في نفس الوقت بقتل عبد الملك بن إدريس الحزيري الكاتب البليغ أمين البلاط ، وكان من خاصة طرفه ، وكان الوزير عيسى قد حذر عبد الملك من ممالأته لطرفة ومعاونته على إفساد أمور الدولة^(١).

وأضحى عيسى بن سعيد ، بعد قتل طرفه ، رجل الدولة الأول ، واسترد كامل حظوته وسلطانه ، على أنه لم ينعم طويلاً بظفروه . وكان هذا الوزير قد تقلب في مناصب الدولة منذ أيام المنصور ، وحظى لديه ، وسما شأنه ، حسباً رأينا ، ثم تضاعف شأنه ، واستأثر بتدبير الأمور منذ بداية عهد عبد الملك ، وجمع الأموال الطائلة ، وزاد في توطد سلطانه ونفوذه مصاهرته للحاجب ، حيث تزوج ابنه عبد الملك المكنى أبا عامر ، أخت عبد الملك الصغرى ، إحدى بنات المنصور ، وهكذا بلغ الوزير أقصى مراتب النفوذ والثقة ، وكثر بذلك حساده والوشاة في حقه . وكان عيسى يذكي من حوله عواطف الخصومة والتهمة . بما كان ينجح إليه من الصلف والخشونة والكبرياء ، والنكول عن قضاء حاجات الناس ، والنظر في مظالمهم ، والتعالي عليهم ، وكان حجابيه وعماله ، على شاكلته من الغلظة والتعسف في معاملة الناس . فكان ذلك كله سبباً في تسمم الجو حول الوزير ، وحول تصرفاته . أضف إلى ذلك أن الوزير ، لم يكن يشارك الحاجب في مجالس شرابه وأنسه إلا في القليل النادر ، لأنه كان مقللاً للشراب ، فكان تخلفه يمهّد

لخصومه المقربين من الحاجب ، سبل الدس والوقية في حقه . وقد كانت الذلفاء والدة الحاجب في الوقت نفسه تبغض الوزير ، لأنه أيد ولدها عبد الملك في الزواج من قينة حسناء من جواريه هام بها ، وكانت تعارضه في ذلك . والخلاصة أن عبد الملك أخذ يفقد ثقته في وزيره بسرعة ، وقد كان فيما يبدو كثير التأثر بالوشاية ، سريع القلب والغدر ، وأخذ الوزير من جانبه يشعر بهذا النقص في حظوته ويتوجس من عواقبه .

والظاهر أن عيسى بن سعيد ، كانت تحدوه في نفس الوقت أطماع ومشاريع أخرى . فقد كان يشعر أنه غدا باجتماع سائر السلطات في يده ، ومشايعة رؤساء الحند له ، أقوى رجل في الدولة ، وأنه يستطيع أن يقف في وجه بني عامر ، وأن يغدو بطل المناهضة لحكمهم . والواقع أن حكم العامرين كانت تشتد وطأته على الناس يوماً بعد يوم . وكان عبد الملك جرياً على سنة أبيه المنصور ، قد مضى في الاستظهار بالفتيان الصقالبة والبربر ، وبلغ الفتیان في عهده نحو أثنى غلام ، ووفد عليه كثير من البربر ، وكان أهم من وفد إليه من زعمائهم زاوى بن زبرى بن مناد الصنهاجى ، عم أبى المعز بن باديس صاحب إفريقية ، وزعيم الفرقة الخارجة عليه ، وفد عليه مع إخوته ، فاستقبلهم عبد الملك ، ونمهرهم بصلاته ، واستمروا بقرطبة حتى وقعت الفتنة ، وكان لهم في حوادثها شأن يذكر (١) . وفي رواية أخرى أن وفود زاوى وقومه على الأندلس ، كان في أواخر أيام المنصور ، وأنه هو الذى أذن لهم في الجواز (٢) . وكانت الأرسطراطية العربية تمتعت هذا الإيثار للصقالبة والبربر ، والاستظهار بهم ، وترى فيه افتئاتاً على حقوقها ومكانتها ، وكان كثير من الأسر العربية الكبيرة مثل آل حدير ، وآل فطيس ، وآل شهيد ، وغيرهم ، يتوقون إلى انتهاء حكم العامرين ، ورد الأمر إلى بنى أمية ، وكان عيسى بن سعيد ، وهو أيضاً من البطون العربية ، يعتقد فكرتهم ، ويعتقد أنه يستطيع أن يعمل على تحقيقها .

واعزم عيسى بالفعل أن يعمل في هذا السبيل ، واتجه ببصره إلى سبيل من

(١) الذخيرة عن ابن حبان القمى الرابع المجلد الأول ص ٦١ .

(٢) كتاب التبيين أو مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين (القاهرة ١٩٥٥) ص ١٧ ، وابن

خلدون ج ٦ ص ١٥٧ و ١٥٨ .

المروانية هو هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وكان بينهما مودة وصداقة . وكاشف عيسى هشاماً بمشروعه ، في إزالة بني عامر ، وإزالة الخليفة هشام المؤيد لعجزه وعقمه ، وإقامته مكانه في الخلافة ، ورد الأمر بذلك إلى بني أمية . فاستجاب هشام إلى دعوته ، وجرت بينهما المفاوضة بمنتهى التكرم والحذر . وكانت خطة عيسى ، تلخص في أن يدعو عبد الملك وأخاه عبد الرحمن وصحبه ، إلى حفل عظيم يقيمه بالمنية التي وهبه عبد الملك إياها بقرب قصر الزاهرة ، وذلك تيمناً بمولود رزق به ولده عبد الملك بن عيسى ، وأن يحيط المنية بطوائف من رجاله المسلحين ، فإذا حضر عبد الملك وأخوه وصحبه ، انتقض عليهم أولئك الرجال وقضوا عليهم جميعاً ، وعندئذ يسير عيسى يصاحبه هشام إلى قصر الزاهرة فيجلسه فيه ، ويأخذ له البيعة بالخلافة ، وقد تقدم عيسى بالفعل بدعوته إلى عبد الملك فقبل الدعوة ، وحدد بالفعل يوم الحفل .

ولكن سرعان ما اتصل خبر المؤامرة بعبد الملك ، نقله رجل من ثقات عيسى إلى نظيف الفتى الصقلي ، فأبلغه فوراً إلى سيده . وفي رواية أن عبد الملك بادر في الحال فقتل عيسى . ولكن الرواية الراجحة هي أن عبد الملك وأخاه عبد الرحمن اتفقا على تدبير قتله ، في مجلس شراب ينظم لهذا الغرض ، ونظم المجلس بالفعل في ٣٠ القصر الكبير المشرف على النهر ، وذلك في ٢٠ ربيع الأول سنة ٣٩٧ هـ . واستدعى الحاجب وزيره عيسى إليه ؛ ومن غرائب القدر أن كان الوزير أيضاً يجلس مع بعض خاصته على الشراب ، ومنهم الكاتب أبو حفص ابن برد ، فبادر عيسى بالركوب إلى عبد الملك ، ومعه بعض خاصته ، فاستقبله عبد الملك بظاهر من الحفاوة . ثم أخذ بعد قليل في عتابه ومحاسبتها على ما عزي إليه ، ثم أغلظ له القول ، وعيسى يعتذر ويحتج بطلان ما نسب إليه ، ويشدد القسم على ذلك ، ويناشد حقن دمه . وفجأة جذب عبد الملك سيفه من جانب الفراش وشهره على عيسى ، وطعنه في وجهه ، فسقط على الأرض ، فانهال عليه الجماعة طعناً بسيوفهم ، ثم احتز رأسه ووضع جانباً ؛ وقتل الجماعة أيضاً صاحبيه خلف ابن خليفة ، وحسن بن فتح ، وألقيت جثث الثلاثة في النهر ، بعد أن وضعت في زناجيل مثقلة بالحجارة ، وأمر عبد الملك بأن ينصب رأس عيسى على باب مدينة الزاهرة ، عبرة للناس . وترك معلقة في مكانها حتى انتقضت الدولة العامية ،

ونفذ الخند في الحال إلى منازل عيسى وأصحابه ، وصودر ما فيها ، وقبض على أبناء عيسى وزجوا إلى السجن ، وأرغم ولده عبد الملك على طلاق زوجته أخت الحاجب ؛ وجدت الشرطة في أثر هشام بن عبد الجبار ، حتى قبض عليه ، ثم حمل إلى الزاهرة فأمر الحاجب باعتقاله في سجن أعد له ، وهناك قتل خفية ، ولم يسع له خبر بعد ذلك قط .

وكان لمقتل الوزير عيسى بن سعيد أعمق وقع في قرطبة ، لما كان له من رفيع المنزلة والسلطان ، ولبتت الوفود أياماً تحضر إلى الزاهرة لمشاهدة رأسه^(١) .

وثاب المظفر بعد مقتل وزيره إلى نفسه ، وعمل على جمع السلطة في يده ، والحد من سلطة الوزراء والكتاب ، ومراقبتهم ومحاسبتهم ، وواظب على الجلوس بنفسه ، وهجر اللهو والراحة ؛ وكانت الأحوال المالية قد ساءت ، مما أسرف فيه من النفقة والصلات ، وبما أسقطه للناس من سدس الحباية ، فاقصد في النفقة ، واجتهد في توفير المال ، وتنمية الموارد ، فنجحت المحاولة ، وتحسنت الأحوال المالية في أواخر عهده^(٢) .

وقد أشرنا من قبل إلى طرف من اخلاق عبد الملك ، وما جمعت من الصفات المشرقة والقائمة معاً . ونزيد هنا ما رواه صاحب الذخيرة عن ابن حيان ، من أن عبد الملك كان عربياً عن العلم والمعرفة والأدب ، ولم يكن يجتمع في مجالسه سوى الأعاجم من الخلاقة والبربر ومن إليهم ، ولم يكن يوماً أحد من أهل المعرفة ، من الأدباء والعلماء . بيد أنه مع ذلك لبث يسبق رعايته على من كان يتصل منهم بأبيه من العلماء والأدباء والندماء وغيرهم ، وأبقى لهم أرزاقهم ورواتبهم كما كانت أيام أبيه^(٣) . وكان يستمع إلى الشعر ، ويصل الشعراء ، وقد أبقى بالأخص على شاعر أبيه صاعد البغدادي ، وجعله شاعراً وندباً له . وكان من خواص شعرائه أيضاً أبو عمر بن دراج القسطلی ، والكاظم الشاعر أبو حفص ابن برد . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب نبذاً من الشعر ، نظمها صاعد وابن دراج تحقيقاً لرغبة

(١) راجع تفصيل هذه المؤامرة وذيولها في الذخيرة ، القمم الأول المجلد الأول ص ١٠٣ -

١٠٧ ، والبيان المغرب ج ١ ص ٢٧ - ٣٥ .

(٢) البياك المغرب ج ٣ ص ٣٦ ، وأعمال الأعلام ص ٨٩ .

(٣) الذخيرة - للقمم الأول المجلد الأول ص ٦٠ .

المظفر ، في وصف مختلف صنوف الزهر ، من الآس ، والرجس ، والبنفسج ،
والورد والسوسن . ومما جاء في قصيدة ابن دراج في وصف السوسن ومديح
الحاجب عبد الملك تلك الأبيات (١) :

إن كان وجه الربيع مبتسما	فالسوسن المحتلى ثناياه
يا حسنه بين ضاحك عبق	يطيب ريح الحبيب رياه
يا حاجباً مذ يراه خالقه	توجه بالعلی وحلاه
إذا رآه الزمان مبتهجاً	فقد رأى كل ما تمناه
وإن رآه الهلال مطلعاً	يقول ربى وربك الله

ونظم بعضهم في وصف عهد عبد الملك الأبيات الآتية :

زمان جديد وصنع جديد	ودنيا تروق ونعمى تزيد
وغيث يصوب وعيش يطيب	وعز يلوم وعيد يعود
ودهر ينير بعبد المللك	كشمس الضحى ساعدتها السعود

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٨ - ٢١ . وكذلك الروض المعطار ص ١٦٠ .

الفصل الخامس

عبد الرحمن بن المنصور

وسقوط الدولة العاصمية

نظام الطغیان العامری . کون كانت تطلقه بقرية المنصور . ظهور مثالبه فی عهد عبد الملك . عبد الرحمن المنصور یخلف أخاه . یتقلد الحجابة . تلقیه بشنجول أو شانجه الصنیر . إغراقه وسوء خلاله . تودده الخليفة هشام . تلقیه بالمأمون وناصر الدولة . شروعه فی اغتصاب ولاية العهد . ضغطه علی هشام لتحقیق ذلك . مرسوم ولاية العهد ونصه . جلوس عبد الرحمن فی الزاهرة . حكوته علی الشراب والهو . إرغامه الکبراء علی لبس العمامة . خروجہ إلى الفزو . یحترق أراضی لیون . إعتصام النصاری بالجبال . إرتداد عبد الرحمن . أنباء الانقلاب فی قرطبة . الاضطراب فی الجيش . سيره إلى قلعة رباح . سخط أهل قرطبة علی بنی هاجر . المؤامرة وعناصرها . الذلفاء والدة عبد الملك ودورها . ترشیح محمد بن هشام للخلافة . نفض إمارة وتبرق الظروف لتنفيذها . مهاجمة المتآمرین للقصر . مصرع عبد الله بن أبي عامر . موقف الخليفة هشام وتصرفه . إقتحام العامة للقصر . الزاهرة وتسليمها . إقتحام الجموع لها ونهبها . إستیلاء المهدي علی أموالها ونفائسها ثم تدميرها . نبوءة المنصور بخراب الزاهرة . وقوف شنجول علی خبر الانقلاب وحيرته . يناشد أهل الشرف تأييد هشام . نخل زعماء الجند عن نصرته . شنجول وصديقه ابن غومس . مسيره صوب قرطبة . فرار البربر تحت جنح الظلام . مسيره إلى أرملاط . التجاؤه وابن غومس إلى الندير . وقوعهما فی يد فرسان المهدي . القبض علی حشم شنجول ونسائه . مقتل شنجول وابن غومس . ما یقولہ شاهد عيان من هذه الحوادث . تأملات عن انهيار الدولة العاصمية .

كانت وفاة عبد الملك المظفر ، فاتحة لفترة من أعجب فترات التاريخ الأندلسی وأشدّها غموضاً واضطراباً ، وكانت نذيراً بانقلاب من أعنف ما عرفت الأندلس وأشدّها تقويضاً لبنائها وسلامها ورخائها .

مضت خمسة وثلاثون عاماً علی حکم الطغیان المطبق ، الذي فرضه المنصور ابن أبي عامر علی الشعب الأندلسی ، وقضى فی ظله علی سلطان الخليفة الشرعی ، ومحیت رسوم الخلافة ، وسمحت العصبية العربية ، وطوقت أعناق الشعب بأغلال خانقة . وبالرغم مما نعمت به الأندلس أيام المنصور من الاستقرار والعزة والرخاء ، فإن الشعب لم یکن یرى فی المنصور ، سوى مغتصب للسلطة الشرعية ، وكان یتوق إلى التحرر من هذا الطغیان الذريع ، والتخلص من وطأة الصقالبة والبربر ، والعود

إلى الأوضاع الطبيعية المألوفة. وكانت شخصية المنصور العظيمة ، وعزمه الصارم ، وحمته البعيدة ، وخلالها الرفيعة ، وتفانيه في الجهاد ، والعمل على إعزاز الأندلس وإسعادها : كانت تفرض نفسها على الناس ، وتخفف نوعاً من وطأة النظام وحدته ، وتثبت في نفوس الشعب نوعاً من الإعجاب المقرون بالإغضاء والتسامح . فلما توفي المنصور ، ونهض ولده عبد الملك بأعباء الحكم ، بدأ ينقشع هذا الشعور اللطيف ، وبدأت مثالب الحكم المطلق على أشدها ، وزاد إحساس الشعب بما يعانيه من ضروب الإرهاق والضغط ، وظهرت شخصية عبد الملك ضئيلة باهتة بالنسبة لشخصية أبيه العظيم ، وبدأت بالرغم مما اضطلع به من الغزوات ، وما تمتعت به البلاد في ظله من السلام والرخاء ، لا تحمل سوى الأوزار الظاهرة ، من عكوف على الشراب ، وانهماك في الملاذ ، والمضي في اغتصاب السلطة الشرعية ، وتمكين لنهر الصقالية والبربر ، والتطلع إلى ألقاب الملك ، بصورة تكشف عما وراءها من الأطماع الخطرة .

وجاء عبد الرحمن ابن المنصور إثر أخيه عبد الملك ، وقد كان أضعف منه شخصية ، وأسوأ حالاً ، ليتابع حكم الإرهاب والطفيان ، وجلس غداة وفاة أخيه بقصر الزاهرة ، كما يجلس خليفة العرش مكان سلفه ، في السابع عشر من صفر سنة ٣٩٩ هـ (٢٢ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م) . ومثل في نفس اليوم لدى الخليفة هشام ، فخلع عليه الخلع السلطانية ، وقلده الحجابة ، ثم أقبل إليه الأكابر والأعيان بتقصر الزاهرة ، مهئين مبايعين .

وكان عبد الرحمن وكنيته أبو المطرف ، حينما تولى الحكم ، فتي في الخامسة والعشرين من عمره . وكان يلقب منذ حداثة « بشنجول » (سانشول) أو شانجه الصغير ، وذلك لأنه حسبما تقدم كان حفيداً لسانشو غرسية ملك نافار ، وكانت أمه الأميرة النافارية ، حينما تزوجت المنصور ، قد اعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم « عبدة » ، وكان ولدها عبد الرحمن « أشبه الناس بجده » . وكان لهذه الأرومة الفرنجية الواضحة ، أثرها في انصراف الناس عن محبته والعطف عليه ، وكان يزيد في هذه الوحشة بين عبد الرحمن وبين الشعب ، إنحرافه وخلالها السيئة ، فقد كان فاجراً كبير الإستهتار والمجون ، يقضى معظم وقته في الشراب واللهو « يخرج من منية إلى منية ، ومن منزله إلى منزله ، مع الخياليين والمغنين

والمضحكين ، مجاهرآ بالفتك ، وشرب الخمر^(١) .
 وجرى عبد الرحمن على سنة أبيه وأخيه ، فى الحجر على الخليفة هشام وحجبه ،
 وفى الاستبداد بالرأى والحكم^(٢) ، ولكنه نهج فى معاملة الخليفة نهجاً جديداً ،
 فأكثر من الإتصال به ، والتقرب إليه ، وبالغ فى إرضائه وإرضاء حاشيته ،
 وتحقيق رغباتهم ؛ هذا فى حين أن المنصور كان يقتصر فى الاتصال بالخليفة على
 المواقف الضرورية ، ويقتصد فى رؤيته ، ويؤثر التظاهر بتوقيره مع البعد عنه ،
 ويحرص على عدم تدليله ، وكبح جماح حاشيته ؛ وجرى ولده المظفر على هذه
 السياسة . ولكن عبد الرحمن بالغ فى التودد لهشام ومخالطته ؛ ومن ذلك أنه استأذنه
 فى أن يقوم بالتنزه مع أهله فى قصور الملك بقرطبة ، ويكون الخليفة هنالك مع
 خاصته وجواريه . فأذن هشام بذلك ، وخرج مع الحاجب فى موكبه مستخفياً ،
 وقد ارتدى برنساً كالذى يرتديه الجوارى ، حتى لا يعرفه أحد ، واخترق الموكب
 شوارع قرطبة المقفرة ومن حوله الحند ، ونزل بقصر ناصح . وهناك عرض
 عليه الحاجب شئون المملكة ، والتمس إليه أن يأذن له فى التلقب بالمأمون ، وأن
 يضاف إلى اسمه ناصر الدولة ، فخرجت رقعة الخليفة بذلك إلى الوزير الكاتب
 جعفر بن محمد ، وتسمية عنوانها « الحاجب المأمون ناصر الدولة أبو المطرف
 حفظه الله » وأبلغت بعد ذلك إلى الجهات والكافة . وكان ذلك لعشرة أيام فقط
 من ولاية عبد الرحمن . فعجب الناس لهذه الجرأة ، وأنكر الناس على الحاجب
 هذا التسمى بألقاب الملك والخلافة ، واعتبروها افتئاتاً وغروراً ، ممن لا تؤهله
 خلاله لمثل هذا التكريم . ولكن سوف نرى أنها لم تكن سوى مقدمة لما هو أخطر
 وأبعد أثراً^(٣) .

ذلك أنه لم تمض على هذا الإجراء فترة يسيرة ، حتى غادر الخليفة هشام
 قصر ناصح بقرطبة ، إلى القصر الخلفى بمدينة الزهراء مستخفياً كعادته ، يتقدم
 موكبه الحاجب عبد الرحمن ، ونزل عبد الرحمن بمدينة الزاهرة . وأقام الخليفة
 بالزهراء يومين . وفى اليوم الثالث الموافق ١٤ ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ ، غادر
 القصر الخلفى فى أهله ، إلى منية جعفر المحاورة ، ومعه الحاجب . وكان عبد الرحمن

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٨ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٠ - ٤٢ ؛ وأعمال الأعلام ص ٩٠ .

يعد أن حصل على ألقاب الملك ، يجيش بمشروع ضخم ، هو أن ينتزع ولاية العهد من الخليفة الضعيف الساذج ، وأن يقضى بذلك نهائياً على تراث بني أمية ، وينقل رسوم الخلافة جملة إلى أسرة بني عامر ، فتخلف أسرة بني أمية في ملك الأندلس . وقد رأينا فيما تقدم كيف أن أياه المنصور ، بالرغم من قوة نفسه ، وعريض سلطانه ، كان يتأى عن المغامرة بمثل هذه المشاريع الدقيقة ، لأنه كان يدرك بذكائه ، وبعد نظره ، أنها تنطوى على أخطر العواقب ، وأنه لم يقدم على اتخاذ ألقاب الملك إلا بعد طول روية وأناة ، وأنه كان أبدأ حريصاً على الإبقاء على رسوم الخلافة وأوضاعها . وقد حذا ولده عبد الملك المظفر حذوه في حرصه وتعقله . ولكن عبد الرحمن لم يكن إلا فتى طائشاً ، متعجلاً ، كثير الغرور ، قصير النظر . وقد وصف لنا ابن حيان موقفه من المشروع في تلك العبارات القوية : « وقد تقدم القول في سبب تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة ، عجزية من غير تأويل ولا عقيدة ، وكيف استهواه كيد الشيطان ، وغرته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة ، لم يشاور فيها نصيحاً ، ولا فكر في عاقبة ، بل جبرها بالعجلة » (١) .

وخلا عبد الرحمن بالخليفة ، وأطال التقرب منه ، وعرض عليه مشروعه ، ويقال إنه أقنعه بأنهما على صلة رحم من ناحية الخوالة ، إذ ولد كلاهما من أم يشكنسية (ناقارية) (٢) . ويقال من جهة أخرى ، إن عبد الرحمن دس إلى الخليفة من هدهد بالويل ، وأنذره بأن عبد الرحمن قد اعتزم الفتك به ، إذا لم يمنحه ولاية عهده (٣) . ويقال أيضاً إن هشاماً استفتى في ذلك فقهاء قرطبة وعلماؤها ، فأقروه على ما طلب . وكان أشد الساعين لتأييد عبد الرحمن ، قاضي الجماعة أبو العباس ابن ذكوان ، وكاتب الإنشاء أبو حفص بن برد (٤) . وعلى أي حال فقد استجاب هشام المؤيد إلى طلب عبد الرحمن . وخرج أصحابه عشية ذلك اليوم ، يذيعون الخبر على الملأ ، وبةولون إن الخليفة قد اختاره وائاً لعهدده ، إذ ليس له ولد يؤمل خلافته ، وكثر الإرجاف لذلك .

(١) أعمال الأعلام ص ٩١ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٣ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٢ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ .

(٤) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ١٥٠ .

وفي صباح اليوم التالي ، وهو اليوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ (نوفمبر ١٠٠٨ م) ، أحيط قصر الخليفة بصفوف كثيفة من الجند ، وأخرج عبد الرحمن هشاماً ، وأجلسه في الساحة الكبرى ، وجلس من حوله الوزراء والقضاة والقادة وأكابر رجال الدولة ، فكان يوماً مشهوداً ، وصدر مرسوم ولاية العهد وهو من إنشاء كاتب الرسائل أبي حفص أحمد بن برد ، وذيل بشهادة قاضي الجماعة أحمد بن عبد الله بن ذكوان ، وشهادة الوزراء وهم تسعة وعشرون وزيراً ، ويلهم شهادة مائة وثمانين رجلاً ، من أكابر أهل الدولة والحكام ، والفقهاء ، وغيرهم . وإليك نص هذا المرسوم الشهير :

« هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله - أطال الله بقاءه - إلى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة ، وأعطى عليه صفقة يمينه ببيعة تامة ، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة ، وأهمه ما جعله الله إليه من إمامة المسلمين ، وخصه به من إمرة المؤمنين ، واتقى حلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء ، بما لا يصرف ، وخشى أن هجم محتوم ذلك عليه ، ونزل مقدور ذلك به ، ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوى إليه ، ولم يوردها ملجأً تنعطف عليه ، أن يكون يلقي الله مفراً فيها ، ساهياً عن أداء الحق إليها . ونفض عند ذلك طبقات الرجال من أحياء قریش وغيرهم ، ممن يستحق أن يسند الأمر إليه ، ويعول في القيام به عليه ، ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وورعه ، يعد أطراح الموادة ، والتبرئ من الهوى ، والتحرى للحق ، والزلق إلى الله عز وجل بما يرضيه . وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، عالماً بأن لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح ، وموقناً أن لا وسيلة إليه أرضى من الدين الخالص ، فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده ، ويفوض إليه النظر في أمر الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف همته ، وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه ومعرفته وحزمه ، من المأمون الغيب ، الناصح الحبيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر وفقه الله ، إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره ، ونظر في شأنه واعتبره ، فرآه مسارعاً في الخيرات ، مستولياً على الغايات ، جامعاً للمأثرات ، وارثاً للمكرمات ، يجذب بضعية إلى أرفع منازل الطاعة ، وينمو بعينه إلى أعلا درج النصيحة ،

أب منقطع القرين ، وصنو معدوم الغريم ، ومن كان المنصور أباه ، والمظفر أخاه ، فلا غرو أن يبلغ في سبيل الخير مده ، ويحوى من حلال المجد ما حواه ، مع أن أمير المؤمنين أكرمه الله بما طالعه من مكنون العلم ، ووعاه من مخزون الأثر ، أمل أن يكون ولي عهده القحطاني ، الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو ابن العاص ، وأن يتحقق به ما أسنده أبوهريرة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ألا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه . فلما استوى له الاختبار ، وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مذنباً ، ولا إلى غيره معدلاً ، خرج إليه من تدبير الأمر في حياته ، وفوض إليه النظر في الخلافة بعد مماته ، طائعاً راضياً ، ومجتهداً متخيراً ، غير محاب له ، ولا مائل له بهواه ، ولا مترك نصيح الإسلام وأهله فيه . وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة بولاية عهده فيها ، وأمضى أمير المؤمنين أعزه الله ، عهده هذا ، وأنفذه ، وأجازته ، وبتله ، لم يشترط فيه مشنوية ولا خياراً ، وأعطى على الوفاء بذلك في سره وجهره ، وقوله وفعله ، عهد الله وميثاقه وذمة نبيه - صلى الله عليه وسلم - وذمة الخلفاء الراشدين من آل وآبائه ، وذمة نفسه ، بأن لا يبدل ولا يغير ، ولا يحول ولا يتأول . وأشهد على ذلك الله وملائكته ، وكفى بالله شهيداً . وأشهد عليه من أوقع اسمه في هذا الكتاب . وهو - أعزه الله - جائر الأمر ، ماضي القول والفعل ، بمحض من ولي عهده المأمون ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور - وفقه الله - وقبوله لما قلده ، والتزامه ما ألزمه ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ^(١)

• • •

وعلى أثر صدور هذا المرسوم الفذ في تاريخ الخلافة الإسلامية ، خرج عبد الرحمن في موكب عظيم من الوزراء والقادة وأكابر أهل الدولة ، إلى قصر الزاهرة وهو «مختال في ثوب الخلافة ، يحسب أنها له نحلة ، وأنه مستحق لها ، وخليق بها»^(٢) . وأقبل عليه المهنتون من الوزراء ورجال الدولة ، يتكلفون البشر ، والدعاء له بما أكرمه الله به ، وقلوبهم تفيض إنكاراً وسخطاً ، وأنفذت

(١) ورد نص هذا المرسوم في أعمال الأعلام ص ٩١ - ٩٣ ؛ ونفخ الطيب ج ١ ص ١٩٨ و ١٩٩ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٤ - ٤٦ ؛ وقد اتبعنا نحن بالأخص النص الوارد في أعمال الأعلام لأنه أوفاه وأصحها .

(٢) البيان المغرب من ابن خلدون ج ٣ ص ٤٦ .

الكتب في الحال إلى سائر نواحي الأندلس والعدوة ، بوجوب إذاعة المرسوم ، والدعاء لولي العهد على المنابر بعد الخليفة .

وفي اليوم التالي جلس عبد الرحمن بقمصر الزاهرة في هيئة الملك ، واصطف من حوله رجال الدولة وفق مراتبهم ، وأقبل وجوه قرطبة لتنهته ، وفي مقدمتهم طائفة من المروانية المبعدين عن الخلافة ، وغيرهم من بطون قريش . يقول المؤرخ : « وخرجوا من عنده ، وقلوبهم ذوتوبة عليه ، موقدة بغيضه » . وبادر الشعراء وفي مقدمتهم أبو العلاء صاعد البغدادي ، برفع قصائد التهاني . وقد أورد لنا ابن حبان طرفاً مما قاله الشعراء في ذلك (١) .

بيد أن شاعراً آخر ، هو ابن أبي يزيد المصري ، نظم في ذم ابن ذكوان وابن برد وهما المسئولان عن تحرير مرسوم البيعة هذين البيتين :

إن ابن ذكوان وابن برد قد ناقضا الدين عين عهد

وعاندا الحق إذ أقاما حفيد شنجهُ ولي عهد (٢)

وذهب عبد الرحمن في غروره واختياله إلى أبعد مدى ، فعين ابنه الطفل عبد العزيز في خطة الحجابة ، وأسبغ عليه لقب سيف الدولة ، وهو لقب عمه المظفر . واعتقد عبد الرحمن أنه حقق بذلك مشروعه العظيم ، في تخليد ملك الدولة العامرية ، وأن الأمور قد دانت كلها له ، فأطلق العنان لأهوائه ، وانكب على الهوى وشرايه ، يحيط به نفر من البطانة السيئة ، والندماء الأسافل ، يصورون له الأحوال في أبدع الصور وأحبها إلى نفسه .

وكان من الحوادث البارزة في تلك الآونة ، حادث ظاهر البساطة في ذاته ، ولكنه أذكى موجة جديدة من السخط . وذلك أن عبد الرحمن أصدر أمره إلى رجال الدولة وأكابر أهل الخدمة ، بأن يتركوا قلائسهم الطويلة ، المبرقشة الملونة ، التي كانوا يضعونها على رؤوسهم ، ويمتازون بها على باقي الطوائف ، وأن يستبدلوها فوراً بالعمائم . وقد كانت العمائم هي غطاء الرأس عند البربر . فأنف الكبراء لذلك ، ولكنهم رضخوا للأمر كارهين ، وحضروا إلى قصر الزاهرة بالعمائم لأول مرة في يوم ١٤ جمادى الأولى ، وعلق جمهور الشعب على ذلك بمختلف الأقوال والتأويلات .

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٤٦ و ٤٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٩٤ - ٩٦ .

(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ١٥٠ .

وكان عبد الرحمن أثناء ذلك قد فكر في أن يشغل الناس بحديث الغزو أسوة بأبيه وأخيه ، وكان سانشو غرسية أمير قشتالة من جهة أخرى قد أبدى أنه لايزم مع احترام السلم المعقود ، وأخذ بالفعل يغير على الحدود الإسلامية . ولم تكن أخبار قرطبة ، وما يسودها من اضطراب الأحوال ، خافية على الملوك النصارى . واعتزم عبد الرحمن أن يسير إلى الغزو ، وأن يقصد إلى جليقية ، فاعترضه كبير الفتبان الصقالية ، وحذره من مغادرة قرطبة في هذا الوقت ، وأوضح له أن المروانية (بنى أمية) ياتمرون به ، ويدبرون انقلاباً ينتزعون به الحكم ، وأن كثيراً من الحند يميلون إليهم ، فلم يصغ إلى قوله ، وأمر بالخروج إلى الغزو^(١) ، وعهد بإدارة الحكومة في غيبته إلى ابن عم أبيه عبدالله بن أبي عامر المعروف بعسكلاجة . وكان خروجه من قرطبة في ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ (يناير سنة ١٠٠٩ م) أعنى في أعماق الشتاء ، وسار بالجيش صوب طايظلية في طريقه إلى جليقية والأمطار تنهمر والبرد يهراً الأجسام ، وهو على سجيته من اللهو والشراب . ثم اخترق حدود مملكة ليون ، ودخل جليقية . ولكن ملك ليون ألفونسو الخامس تحصن بقواته في روؤوس الجبال ، ولم يتقدم لقتال المسلمين ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلاً لقتاله لفيضان الأنهار وكثرة الثلوج ، فقرر العودة بجيشه ، فارتد راجعاً أدراجه . وبالرغم من أنه لم يحقق في غزوته هذه أية نتائج ذات شأن ، فقد نظم ابن دراج القسطلى ، على سجيته ، في تلك الغزوة قصيدة طويلة ، يشيد فيها بعبد الرحمن ، وهذا مطلعها :

هو البدر في فلك الحمد دارا فما غسق الخطب إلا أنارا
نجلى لنا فارتنا السعود غيوب المنى في سناه جهارا
وأوفى فكادت صوادي القلوب تفوت العيون إليه بدارا
وحل فحلت جسام الفتو ح تبأى اختيالا وتزهى افتخارا^(٢)
وما كاد عبد الرحمن يصل إلى طليظلة ، حتى وافته الأنباء بأن انقلاباً حدث في قرطبة ، وأن الثوار قد استولوا على مدينة الزاهرة ، ونهبوا ذخائرها ، وأضرموا النار في صروحها . وتسربت الأنباء إلى الحند ، فوقع الاضطراب في الجيش ،

(١) أعمال الأعلام ص ٩٦ .

(٢) وردت هذه القصيدة أمانة في ديوان ابن دراج (ص ٤٥٩ - ٤٦٣) .

واضطرب عبد الرحمن أن يسير لفوره بالجيش إلى قلعة رباح ، في طريقه إلى قرطبة .

— ٢ —

لم يكن ذلك الهدوء الظاهر ، الذى ساد قرطبة خلال هذه الأشهر القلائل التى اضطلع فيها عبد الرحمن بالأمر ، سوى الهدوء الذى يسبق العاصفة . وكان حكم الطغيان الذى فرضه بنو عامر على الأندلس قد أخذ منذ أيام عبد الملك ، يحدث آثاره المادية والأدبية ، فى نفوس الشعب ، ويبدو لهم بغيضاً مرهقاً . ولم يكن يستر هذه الآثار سوى سياج خفيف من الحذر والترقب . ذلك أن سلطان بنى عامر كان يستند دائماً إلى قوة عسكرية يخشى بأسها ، قوامها البربر والصقالبة ؛ فلما جاء عبد الرحمن ، وكشف عن نيته فى الاستئثار برسوم الملك ، واغتصاب ولاية العهد ، ألقت العناصر الناقمة ، وفى مقدمتها بنو أمية أصحاب الولاية الشرعية ، فى ذلك مادة جديدة ، للتنديد بحكم بنى عامر وطغيانهم واجترائهم ، وفى تلمس الوسائل الكفيلة بسحق دولتهم ؛ وكانت شخصية عبد الرحمن الهزيلة ، وأرومته الأجنبية ، وما أبداه من ضروب الاستهتار والمجون ، تذكى عاطفة السخط عليه ، سواء بين الخاصة أو الكافة ، وتمهد السبيل إلى الانقلاب المنشود .

وكانت خيوط المؤامرة التى اجتمعت حولها العناصر الناقمة ، تنوثق شيئاً فشيئاً ، وكان أهم مدبريها شخصيتين ، الأولى الذلفاء والددة عبد الملك المصور ، وقد كانت تعتقد اعتقاداً جازماً بأن ولدها قد توفى غيلة بالسهم ، وأن قاتله هو أخوه عبد الرحمن ، وكانت لذلك تتوق إلى الانتقام ، والثانية هى شخصية فتى من بنى أمية هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وكان عبد الملك قد أمر بإعدام أبيه هشام بهمة التآمر مع الوزير عيسى بن سعيد كما تقدم .

وكانت الذلفاء امرأة ذكية قوية العزم ، كثيرة المال والوجاهة ، وكانت بالرغم مما أسبغه عبد الرحمن عليها وعلى أسرة ولدها وأخيه عبد الملك ، من ضروب الرعاية والإكرام ، تسعى دائبة للإيقاع به . فلما شعرت بأن الجوق قد تهيأ للسعى ، بما ثار حول تصرفات عبد الرحمن من ضروب الإنكار والسخط ، اتصلت بوجوه بنى أمية ، وأخذت تحثهم على التحرك والقيام لاسترجاع دولتهم ، والانتقام من بنى عامر ، وكان صلة الوصل بينها وبينهم فتى من صقالبة العامرين يدعى بشرى

وكان من قبل من فتيان المروانة ، ثم انتقل إلى العامرين فيمن انتقل من فتيان القصر ، ولكنه بقى على ولائه لسادته الأقدمين . وتعهدت الذلفاء بأن تعاون المتآمرين بالمال والتدبير ؛ وسرعان ما استجاب بنو أمية للدعوة واختاروا من بينهم زعيماً هو محمد بن هشام بن عبد الجبار . وكان فتي جريئاً مغامراً في الثالثة والثلاثين من عمره إذ كان مولده في سنة ٣٦٦ هـ ، وأمه أم ولد تدعى مزنة^(١) ، وكان مذ قتل أبوه هشام ، يتحرز على نفسه ، ويختفي في أحواز قرطبة وكهوفها ، ويجتمع حوله الصحب من المغامرين . فلما أجمع بنو أمية أمرهم على اختياره ، بايعوه سرّاً بالولاية والخلافة ، وكان له ولأبيه من قبل دعاة من أهل قرطبة من المروانية وغيرهم ، يدعون له ؛ واشتدت هذه الدعاية مذ أجمع المتآمرون رأيهم على اختياره . وكان خروج عبد الرحمن المنصور أو شنجول إلى الغزو فرصة سانحة للعمل ، فأخذ محمد بن هشام بحشد أنصاره ، ويجتمع بهم سرّاً في كهوف جبل قرطبة . وكثر إرجاف دعائه في المدينة أن دولة بني عامر قد قضى عليها ، وأن الأمر سيعود إلى المروانية ، وكثر تشهيرهم بعبد الرحمن وقبيح تصرفاته . وكانت هذه الدعاية تجذب لدى جمهور الكافة أذنأ صاغية ، لما قر في نفوسهم من بغض عبد الرحمن وازدراؤه . وإليك كيف يصف لنا ابن الخطيب موقف الشعب القرطبي ، وحالته النفسية لزاء العامرين ، وإزاء عبد الرحمن :

« وقد جبل الله أهل قرطبة على ملل ملوكها ، والقلق بذوى أمرها ، والإرجاف بما يتوقع لها . وكان سفهاؤهم بالأسواق والجامع غير المحتشمة ، تؤثر عنهم في العامرين نواذر حارة ، واستراحات عنهم ؛ كان المنصور وولده المظفر يستحضر لذلك مشيختهم ، ويأمرهم بإنهاء وعيده ، ويشافهم بإنكاره ، ولا يزال حكامه يبلغون في تغيير ذلك وإنكاره أقصى المبالغ ضرباً للظهور ، وقطعاً للألئسة . فلما ذهب عبد الرحمن هذا المذهب ، وأطاع هذا الخرق ، كثر الحمل وشهرت البغضة »^(٢) .

ولم يكن المروانية ، وحدهم في هذا التدبير الذي قصد به إلى سحق نير العامرين ودولتهم ، فقد كان إلى جانبهم سائر العناصر الناقمة من قریش ، ومن المضربة

(١) جذوة المقتبس ص ١٩ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٩٠ .

والعينية ، أو بعبارة أخرى من البيوت العربية ، التي عمل المنصور وآله على سحق
رياستها ومكانتها الاجتماعية ، وإخضاعها لنفوذ البربر والصقالبة . وقد رأينا فيما
تقدم أن هذه لم تكن أول مؤامرة أو محاولة من نوعها لتحطيم نير بني عامر ، وأن
المنصور وولده عبد الملك ، استطاعا أن يقضيا على بعض المؤامرات الخطيرة ،
التي دبرت لتحقيق هذه الغاية .

كانت الظروف قد تهيأت إذاً أمام المتآمرين للعمل . فقد خرجت معظم
وحدات الجيش مع عبد الرحمن إلى الغزو ، ولم يبق منه سوى فرق قليلة ترابط
في قرطبة والزاهرة ، وجهور الشعب متأهب بعواطفه ونفسيته الضعيرة المتدمرة
لتأييد أى انقلاب .

ولما نضجت المؤامرة ، واتسع نطاق الدعوة لمحمد بن هشام ، وكثر الإرجاف
بالانقلاب المنشود ، شعر الوزراء العامريون بالخطر ، وضاعفوا الأبهة والحرس
حول قصور الزاهرة . وكان محمد بن هشام وأعوانه خلال ذلك يجتمعون سراً
وينظمون خططهم الأخيرة . وكان محمد هذا الذي اختاره بنو أمية زعيماً لهم ، قد
فطر منذ نشأته على الشر والمغامرة ، لا يخالط سوى الزعانف والأشرار . وقد
وصفه ابن الخطيب في قوله : « جرار جسور ، ثائر مخاطر ، خليع ، مداخل
للقصور والفتاك ، لا يدري في أى واد يهلك » (١) .

وفي يوم ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ (١٥ فبراير ١٠٠٩ م) جاءت الأنباء
إلى قصر الزاهرة بأن عبد الرحمن قد عبر بجيشه إلى أرض النصارى ، فأدرك
المتآمرون في الحال أن الفرصة قد سنحت للعمل ، واعتزم محمد بن هشام لفوره
أن ينزل الضربة المنشودة . وكان قد بث نفراً من رجاله حول قصر قرطبة ، وقد
تسلحوا تحت ثيابهم خفية . ففي عصر هذا اليوم ، كان محمد يكمن في الضفة
الأخرى من النهر (نهر الوادي الكبير) قبالة القصر . وكانت خطة المتآمرين أن
يسددوا الضربة الأولى لقصر قرطبة ، وهو يومئذ المقام الشتوي للخليفة هشام
المؤيد ، وجوله قلة من الحرس ، ولأن ظروف العمل في قرطبة ، كانت أدعى إلى
النجاح نظراً لعطف الكافة والدهاء وتأييدهم . وفي الوقت المحدد عبر محمد النهر ،
والتف حوله من أصحابه اثنا عشر فتي ، منهم طرسوس الجوسى ، وهو أشدهم

(١) أعمال الأعلام ص ١٠٩ ، وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٥٢ .

جرأة وفتكاً ؛ فساروا حذرین حتى باب القصر ، ثم شهر طرسوس سيفه ، وهجم في الحال على صاحب المدينة عبدالله بن أبي عامر (عسكلاجة) وانزعه من مجلسه ، وكان يحتسى الخمر مع قينتين من جواریه ، وجيء به مخموراً إلى محمد بن هشام ، فأمر بضرب عنقه ، ورفع رأسه على رمح ، فلما أبصرت العامة رأسه مرفوعاً ، هرعت إلى محمد بن هشام ، والتف حوله منهم جمهرة كبيرة من السفلة والغوغاء ، فقويت بذلك عصبته ، ثم بادر باقتحام سجن العامرية ، وأفرج عن فيه من القتلة واللصوص ، وتلاحق عليه أقاربه المروانية من كل صوب ، واستنهبوا الناس لنصرته ، حتى اجتمع حوله منهم طوائف غفيرة .

ونعى الخبر إلى الخليفة هشام المويّد ، فأمر بإغلاق أبواب القصر ، وصعد إلى السطح ، ومن حوله خادمان يحمل كل منهما مصحفاً ، وحاول مخاطبة العامة ، فأسكتوه وأغلظوا له القول ، فانصرف عنهم إلى داخل القصر ، وأمر الخدم بالكف عن كل مقاومة حتى يقضى الله أمره . فأمر محمد بن هشام العامة بنقب أسوار القصر ، واقتحام أبوابه ، وبذل العامة في ذلك جهوداً فادحة ، وأتوا بالسلاسل ، وصعدوا إلى أعلا الأسوار ، وسيطروا على عدة نواح من سطح القصر ، وارتد الخدم أمامهم ، ووصلوا إلى خزائن السلاح فنبوها واشتد ساعدهم . ولما سمع الخليفة بذلك ، خشي البادرة على نفسه وأهله ، فبعث إلى محمد بن هشام يعرض عليه أن يقصى بني عامر عن الحكم ، وأن يشركه في أمره ، فرفض محمد ذلك ، وطلب إلى فاتن محافظ القصر أن يفتح الأبواب ، فأذعن ودخل محمد القصر ، واحتل مجلسه ، ومن حوله خاصة أصحابه ، واعتزم أن يقضى ليله بين الشموع المضئية . ثم قام بطرد العامة عن القصر وأجلاهم عن سطحه ، وكفهم عن انتهاك حرمة ، وعين ابن عمه محمداً بن المغيرة في كرسي الشرطة ، وابن عمه الآخر عبد الجبار بن المغيرة في خطة الحجابة ، ودعا سليمان بن هشام من قرابته فسماه ولي عهده ، وبعث إلى الخليفة هشام يعاتبه على إثارة بني عامر ، ويدعوه إلى خلع نفسه ، منذراً مهدداً ، فارتاع هشام وبادر بالقبول ، واستدعى محمد في الحال بني عومته ، وأكابر بيته ، ونفراً من الأعيان والوزراء والقضاة في جوف الليل ، وأعلن هشام خلع نفسه بمحضر من بعضهم ، وقدم إلى محمد بعض حلله الخلافية الفاخرة ، فم الخلع ، وذلك بعد أن مكث هشام في الخلافة ثلاثة وثلاثين عاماً

وبضعة أشهر ، وآلت الخلافة في تلك الليلة إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر ، وتلقب بالمهدى . وكان ذلك صبيحة يوم الأربعاء ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٠٩ م) .

وهرعت الجموع من سائر أنحاء قرطبة إلى محمد بن هشام ، ملتفة حوله ، مؤيدة لبيعته ، واعتبروه بطلاً منقذاً ، إذ كان أول من استطاع أن يثور في وجه بني عامر ، وأن يعمل لإزالة ملكهم ، وشعروا أن كابوس الإرهاب العامري قد تقلص ، وأن عهداً جديداً سوف يبدأ ، ولم يخطر ببالهم قط ، أن هذا التحول كان نذير المحنة الغامرة ، التي سوف تطيح بكل مانعوا به في ظل الدولة العامرية من السكينة والأمن والرخاء .

وفي الوقت نفسه كانت مدينة الزاهرة ، معقل بني عامر ، عرضة لهجوم مماثل . وكان القائمون على أمرها قد نمي إليهم ما وقع بقرطبة ، وبادر محافظ الزاهرة عبد الله بن مسامة إلى ضبط أسوارها وأبوابها ، وحشد ما لديه من الجند ، فبلغوا سبعمائة ، وتأهب للدفاع وبعث محمد بن هشام إلى الزاهرة جمهوراً غفيراً من العامة مع طائفة من أصحابه . فأحاطوا بها وحاولوا اقتحامها ، ولكن نظيفاً الخادم ، ونصرراً المظفرى ، وهما من الفتيان العامريين ، استطاعوا في قوة من الغلمان إجلاء العامة عن الأسوار ، ثم دخل الليل فحال بين الفريقين .

وفي صباح اليوم التالى ، ١٨ جمادى الأولى ، ندب محمد بن هشام أوالخليفة المهدي ، ابن عمه عبد الجبار بن المغيرة لمهاجمة الزاهرة ، فسار إليها على رأس قوة كبيرة من العامة ، الذين أقبلوا على التطوع فرساناً ومشاة ، ووزعت عليهم الأسلحة ، وأمامهم رأس عبد الله بن أبي عامر مرفوعاً فوق رمح ، وهاجموا قصر عبد الملك المظفر ، وكان خارج الأسوار ، وكان فيه أهله وأمه الذلفاء ، فنهبوه وتحاطفوا متاعه وذخائره ، وذلك بالرغم من أن الذلفاء هي التي أمدت محمداً بن هشام بعونها ومالها . فلما شعر أهل الزاهرة ، بأنه من العبث مقاومة هذه الجموع الهائلة ، عرضوا التسليم على أن يصدر لهم المهدي الأمان ، فبعث إليهم المهدي الأمان المنشود مكتوباً بخطه ، وكان ذلك وقت الظهر ، ففتحوا أبواب المدينة وسلموها ، ودخل عبد الجبار لفوره قصر الزاهرة ، واقتحمته الجموع ، ونهبت منه من المتاع والنفائس ما لا يقدر ولا يوصف ، واستأثر عبد الجبار

وصحبه المقربين من ذلك بأعظم نصيب ، واستولت العامة على خزائن الكسوة والمتاع والسلاح والحلى ، ولم يكف النهب إلا فى مساء اليوم التالى . وحرص عبد الجبار على أن يحيط بقواته ببيوت الحرم والمال وخاص المتاع والجوهر ، وأن يبعد العامة عنها ، وقد استولى المهدي على جميع محتوياتها ونقلها إلى قصر الخلافة بقرطبة . ويقال إنه حصل من أموال الزاهرة المنهوبة خمسة آلاف وخمسمائة ألف دينار من النقود ، ومن الذهب ما قيمته ألف ألف وخمسمائة ألف ، وأطلق المهدي الحرائر من بنى عامر ، واصطفى الحوارى لنفسه ، ووهب منهن لوزرائه وأصحابه ، وأذن للذلفاء أن تنتقل وأسرة ولدها عبد الملك وولده الصغير محمد ، مطلقة السراح إلى دورها بالمدينة ، وكانت لحرصها قد نقلت إليها معظم خزائن المال والمتاع .

ولم يكف المهدي بذلك كله ، بل عمد بعد أن استصفى سائر ما فى الزاهرة من الخزائن والأموال الطائلة ، إلى هدم صروحها وأسوارها ، واستطالت الأبدى إلى كل نفيس من مرمم قصورها وطرائفها وأنقاضها وأبوابها ، فلم تمض أيام قلائل على ذلك السيل المدمر ، حتى اختفت صروح الزاهرة ومعالمها الضاحكة ، وغدت أطلالا دارسة ، وخرائب موحشة . وكان المهدي يتعجل لإزالة رسوم بنى عامر بكل ما وسع ، خشية أن يعود عبد الرحمن المنصور ، قبل أن يتم لإحكام ضربته وتوطيد مركزه .

وقد ذكرت لنا الرواية أن المنصور بن أبى عامر ، كان يتوقع ذهاب دولته وخراب الزاهرة ، وكان هذا الخاطر ينتابه من آن لآخر ، ويفضى به إلى خاصته ، وقد نقل إلينا الوزير أحمد بن حزم ، والد الفيلسوف الشهير ، أن المنصور كان يقول : « ويحآ لك يا زاهرة الحسن ، لقد حسن مرآك ، وعقب ثراك ، وراق منظر ك ، وفاق مخبرك ، وطاب تربك ، وعذب شربك ، فيا ليت شعرى من الذى يهدمك ، ويوهن جسمك ويعدمك » ، وأنه كان يؤكد لأصحابه صحة هذه النبوءة فى مناسبات كثيرة (١) .

لما وصلت أنباء هذا الانقلاب الخطير الذى وقع فى قرطبة ، إلى عبد الرحمن

المنصور أو شنجول ، وهو في طليطلة ، بادر بالسير في قواته إلى قلعة رباح ،
والخيرة تغلب عليه ، والاضطراب يسود صفوف الجنود ، وهنالك تمهل قليلا ،
وأعلن في الحال أنه ينزل عن ولاية العهد ، ويقتصر على الحجابة ، وبعث كتبه
بذلك إلى طليطلة وأعمالها ، وفيها يناشد الناس أن يهرعوا إلى نصرة الخليفة المظلوم
هشام ، وإلى التمسك بطاعته ، ويصف لهم ما ارتكبه محمد المهدي ودهماء قرطبة
من العيث والسفك . فلم يعبأ أحد بدعوته ، وكان أول الخارجين عليه الفتى واضح
مولى أبيه ، وهو يومئذ والى طليطلة . وحاول شنجول في الوقت نفسه ، أن يأخذ
العهد على زعماء الجند بنصرته والقتال معه ، ولا سيما زعماء البربر الذين يؤلفون
سواد الجيش ، فظاهروا بموافقته ، ولكنهم تعاهدوا فيما بينهم ، وعلى رأسهم
كبيرهم محمد بن يعلى الزناني زعيم زناته ، أن يتخلوا عن شنجول وألا يغامروا
بمحاربة أهل قرطبة ، وفيها أسرهم وأموالهم ، وخصوصاً بعد الذي ترمى إليهم
عن التفاف الناس حول محمد بن هشام ، وتفانيهم في نصرته ؛ وقوى هذا العزم
لديهم ما أفضى إليهم القاضي أبو العباس بن ذكوان — وكان قد صحب شنجول
في غزاته — من أنه يتبرأ من شنجول ويقضى بفسقه ، وينكر عليه ما يدعو إليه من
قتال المسلمين بقرطبة ، وفيهم العلماء والصالحون ، والنسوة والأطفال . ومما تجدر
ملاحظته أن القاضي ابن ذكوان هذا ، كان من قبل من أخص رجال الدولة
العامة ، وكان من أشد المعاونين لعبد الرحمن المنصور على انتزاع ولاية العهد
من هشام .

وكان إلى جانب شنجول في معسكره ، زعيم من زعماء بني غومس سادة
مقاطعة كريون في جليقية ، وكان قد صحبه يرجو عونه على بعض خصومه من
الزعماء المجاورين ، فلما رأى اضطراب أحوال الجند ، نصح شنجول بأن يعدل
عن السير إلى قرطبة ، وأن يعود في أصحابه إلى طليطلة فينتفق مع واضح ، فأبى
شنجول نصحه ، وزعم أنه متى اقترب من قرطبة ، سارع الناس إلى نصرته .
وقد بقي هذا الزعيم النصراني إلى جانب شنجول حتى النهاية (١).

وعلى أي حال فقد سار شنجول في قواته صوب قرطبة ، حتى انتهى إلى
«منزل هاني» ، وهي أقرب محلاته إلى المدينة . وما كاد الليل يرخي سدوله ،

حتى غادر معظم الجند البربر أمكنتهم تحت جناح الظلام ، وأسفر الصباح وهو صبح نهاية شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (نهاية فبراير سنة ١٠٩٩ م) فلم يبق إلى جانب عبد الرحمن سوى خاصته وحرمة وحشمه وجمع يسير من غلمانة ، وابن غومس في نفر من أصحابه ، وغادر المعسكر تبعاً زعماء البربر ، والفتيان الصقالبة ووجوه الأندلسيين ، وهنا نصحه ابن غومس مرة أخرى بأن ينجو بنفسه وصحبه ، فأبى .

وسار شنجول في أهله حتى وصل إلى أرملاط من مشارف قرطبة ، وقد تركه النفر القليل الذى بقى معه ، فاستولى عليه اليأس ، وأدخل حرمة قصر أرملاط ، ثم خرج مودعاً والصراخ يتبعه ، وسار ومعه ابن غومس ، وقد عول على الفرار ، فالتجأ ليلاً إلى الدير القريب . وكان محمد بن هشام في تلك الأثناء يتتبع أخباره وحركاته ، فلما نعى إليه أنه يزعم الفرار ، بعث في الحال الحاجب ابن ذرى في طائفة من الفرسان ، فصار مسرعاً إلى أرملاط ودهم الدير ، وقبض على شنجول وابن غومس . وأخذ نساء شنجول من القصر ، وهن سبعون جارية ، فبعث بهن إلى قرطبة . ولما شعر شنجول بأنه هالك أعلن أمام معتقله أنه يعترف بطاعة المهدي ، فاستاقه ابن ذرى هو وابن غومس ، ثم أمر بتوثيق يديه بالرغم من احتجاجه ، وفي خلال الطريق طلب شنجول أن يفك وثاق يديه قليلاً ليستريح ، فأجيب إلى طلبه ، وعندئذ أخرج من خفه سكيناً بسرعة البرق ، وحاول أن يغمده في صدره ، فتداركه الجند ، وأوثقوا يديه ، وأمر الحاجب يقتله ، فدبح في الحال ، وفصل رأسه عن جسمه ، وقتل ابن غومس ، وحمل رأس شنجول إلى المهدي في نفس المساء ، وحمل جسده معروضاً على بغل ، وأمر المهدي فحنطت الحثة ، وركب عليها الرأس ، وألبست كسوتها ، ونصبت على خشبة طويلة على باب السدة ، ونصبت رأس ابن غومس على سارية إلى جانبها . وكان مقتل عبد الرحمن المنصور في اليوم الثالث من رجب سنة ٣٩٩ هـ (٣ مارس سنة ١٠٠٩ م) .

وقد انتهت إلينا من تعليقات المعاصرين على تلك الحوادث المتوالية المدهشة تعليق شاهد عيان يقول فيه :

« ومن أعجب ما رأيت من عبر الدنيا ، أنه تم من نصف نهار يوم الثلاثاء

لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة المؤرخ إلى نصف نهار يوم الأربعاء ثمة الشهر ، وفي مثل ساعته فتح مدينة قرطبة ، وهدم مدينة الزاهرة ، وخلع خليفة قديم الولاية وهو هشام بن الحكم ، ونصب خليفة جديد لم يتقدم له عهد ، ولا وقع عليه اختيار ، وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار ، وزوال دولة آل عامر ، وكرور دولة بني أمية ، وإقامة جنود من العامة المحشودة عورض بها أجناد السلطان أهل الدربة والتجربة ، ونكوب وزراء جلة ، ونصب ضدادهم ، تقتحمهم العين هجنة وقماء . وجرى هذا كله على يدى بضعة عشر رجلا من أراذل العامة ، حجامين وخرازين ، وكنافين ، وزبالين ، تجاسروا عليه ، وقد تكفل المقذور بوقوعه ، فتم منه ما لم يكن فى حساب مخلوق تمامه (١) .

• • •

وهكذا انهارت الدولة العامرية بسرعة مذهشة لم يكن يتوقعها أحد ؛ فقد تولى عبد الرحمن المنصور الحكم عقب وفاة أخيه عبد الملك فى ١٧ صفر سنة ٣٩٩ هـ والدولة محكمة النظام موطدة الدعائم ، والحيش على ولائه للدولة العامرية ، فلم تمض سوى ثلاثة أشهر حتى انهار ذلك الصرح الشامخ ، الذى شاده المنصور ابن أبى عامر ، والذى لبث خمسة وثلاثين عاماً معقد النظام والسلامة والأمن والرخاء للأندلس ، واستطاعت جموع يسيرة من الدهماء ، أن تحقق بسرعة البرق ما لم يجرؤ على تصوره أو محاولته من قبل ، أحد من أكابر خصوم الدولة العامرية والمتربصين بها . ومن الواضح أن الأسباب الجوهرية لمثل هذا الانقلاب الصاعق ، ترجع قبل كل شيء إلى العوامل الأدبية والنفسية ، فقد كان نظام الطغيان المطبق الذى فرضه المنصور على الأمة الأندلسية ، بالرغم من كل ما حققه للأندلس من السؤدد والرخاء ، يبدو كالكابوس المرهق ، وكان الشعب يتوق إلى التخلص من هذا النير ، الذى سلبه كل مظاهر الحرية . فلما تولى عبد الرحمن المنصور ، كانت النفوس قد أشبعت ببغض هذا النظام والرغبة فى زواله ، وكان سلوك عبد الرحمن وتصرفاته ومجونه واستهتاره ، عاملاً جديداً فى إذكاء هذا البغض وهذه الرغبة . وكان لاجترائه على اغتصاب ولاية العهد ، أسوأ وقع فى نفوس قوم جبلوا على تقديس شعائر الخلافة وحقوقها الشرعية . فلما خرج عبد الرحمن إلى الغزو ، كان

الشعب يضطرم سخطاً وبغضاً وازدراء ، وكان يرقب أول بادرة للانفجار . فلما وقعت هذه البادرة بوثوب محمد بن هشام ، لبى الشعب لفوره دعوة الخروج والثورة ، ولم يفكر فى شىء من العواقب ، ولم يفكر إلا فى تحطيم هذا النير البغيض - نير بنى عامر - بأية وسيلة . وكان له ما أراد ، وقد حقق رغبته بأيسر أمر .

على أن الأمة الأندلسية لم تجن خيراً من هذا الانقلاب ، الذى حققه الشعب القرطبي دون تدبر ودون تحوط . ذلك لأنه لم يقف عند القضاء على دولة بنى عامر ، بل بالعكس كان نذيراً بانهيار دعائم النظام والأمن ، اللذين تمتعت بهما الأندلس فى ظل الدولة المنقضية ، ودفع الأمة الأندلسية إلى معترك مروع من الفتن المضطربة ، والفوضى الشاملة ، التى انتهت بانهيار حكومتها المركزية ، وتجزئتها ، وواجهتها لأخطر مصير عرفت منذ قيامها فى شبه الجزيرة .

الكتاب الرابع

سقوط الخلافة الأندلسية
ودولة بني حمود

٣٩٩ - ٤٢٢ هـ : ١٠٠٩ - ١٠٣١ م

الفصل الأول

الخلافة في معترك الفتنة والفوضى

غداة الانقلاب . اقتسام السلطان . الشعب القرطبي . شخصية المهدي . اضطهاد البربر . تحامل العامة عليهم . نفي المهدي للفتيان العامرين . إخفاؤه للخليفة هشام وادعائه بوفاته . عيته وطفيلاته . هشام بن سليمان . سميح إلى خلق المهدي . القتال بين الفريقين . هزيمة هشام ومصرعه . تحريض المهدي على البربر والفتك بهم . سيرهم إلى قلعة رباح . يرشحون سليمان بن الحكم للخلافة . استنصارهم بسانشو غرسية أمير قشتالة . الحرب بينهم وبين الفتي واضح . هزيمته وفراره . تأليب المهدي للدفاع . سير البربر وحلفائهم النصاري إلى قرطبة . موقعة قنتش . هزيمة القرطبيين وتمزيق جوعهم . المهدي يظهر الخليفة هشام . فشل محاولته وفراره . مبايعة سليمان بن الحكم . المهدي وواضح يدبران محاولة جديدة . استنصارهما بأمرى برشلونة وأورقلة . سير المهدي وحلفائه للفرنج إلى قرطبة . اللقاء بينهم وبين البربر . هزيمة البربر وفرار سليمان . تجديد البيعة للمهدي . سيره لمطاردة البربر . هزيمته وارتداده إلى قرطبة . استعداده للدفاع . الوحشة بينه وبين واضح . انهار الفتيان به ومقتله . هود هشام المؤيد إلى الخلافة . واضح يتولى الحجابة . تمسك البربر بولاية سليمان . سير البربر إلى الزهراء واحتلالها . عيهم بأرض قرطبة . هشام يقدم الحصون الأمامية لأمر قشتالة . حصار البربر لقرطبة . واضح يحاول الفرار . ضبطه ومقتله . ابن وداة وابن مناو . هشام يحاول استرضاء البربر وسليمان . فشل المحاولة . اشتداد الحصار على قرطبة . مقتل حباسة بن ماكسن . هياج البربر . القتال بينهم وبين أهل قرطبة . هزيمة القرطبيين . اقتحام البربر للمدينة والفتك بأهلها . سليمان المستعين يسترد الخلافة . مصير هشام المؤيد . سليمان يتلقب بالظافر . تفكك عرى الدولة . توزيع الكور بين زعماء البربر . خلال سليمان وشعره .

توزيع محمد بن هشام الملقب بالمهدي على كوسى الخلافة ، مكان الخليفة هشام المؤيد ، في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٠٩ م) ، وانقضى عهد السلطة الثنائية — سلطة الخليفة الشرعي الإسمية ، وسلطة حاجبه والمتغلب عليه الفعلية — ليفسح مجالا لعود السلطة الموحدة . ولكن الظروف التي وقع فيها هذا الانقلاب الحاسم ، الذي أودى بين عشية وضحاها ، بسلطان دولة من أعظم الدول الأندلسية ، لم تكن تسمح لأية سلطة نظامية أن تثبت وأن تستقر ؛ فقد كان الخليفة الجديد ، شخصية مغامرة رخوة ، تحركها النزعات الوضيعة ، ولا تحمدها أية غاية مثلى ، وقد أطلقت سائر الأهواء المتوثبة من عقابها ، وأخذ كل حزب وكل فريق وكل طائفة ، تحاول أن تحصل نصيبها من

أصلاّب الدولة المنهارة . فقد كان هناك المروانية أو بنو أمية ، يرون أنهم أصحاب السلطة الشرعية ، وأصحاب التراث المتخلف عن مغتصبها ، بنى عامر ؛ وكان هناك الفتيان العامريون ، وأنصارهم من الصقالبة ، ومن إليهم من الجند المرتزقة ، وقد كانوا أولياء الدولة العامرية ، وكانوا من حيث العدد والعصية قوة يعتد بها ؛ وكان هناك البربر ، وقد كانوا عماد الجيش العامري ، وكان عددهم قد تضاعف في أواخر أيام المنصور وبنيه ، وتوافد كثير من زعمائهم إلى شبه الجزيرة ؛ ثم كان هناك أخيراً الشعب القرطبي ، أو ببساطة أخرى كتلة العامة والداهماء الذين أزرروا الخليفة الحديد والتفوا حوله ، وقد كانوا قوة خطيرة متقلبة ، كثيرة الأهواء والنزعات ، لا تؤمن عواقيها .

استقبل الشعب القرطبي ، ولاية الخليفة الحديد ، بمظاهر السرور والرضى ، وأقاموا الحفلات والولائم ، وظنوا أنهم قد أفلتوا من أغلال النظام العامري المرهق ، ليستقبلوا عهداً أكثر تسامحاً ، وأوسع آفاقاً ، وما دوراً أن القدر يتربص بهم ، وأن الأندلس سوف تجوز من تلك الساعة ، عهداً مليئاً بالحن والأحداث المؤلمة .

والواقع أن الخليفة الحديد لم يكن رجل الموقف ، ولم تكن جرأته التي تدرع بها لانزعاع السلطة من هشام المؤيد ، والقضاء على سلطان بنى عامر ، جرأة زعيم مقدم يقدر المسؤوليات التي أخذها على عاتقه ، ولكن جرأة مغامر متهور ، وزعيم عصاة غير مسئولة ، التفت حوله جموع الداهماء الصاخبة ، دون وعى ولا تدبر ، شأنها دائماً في كل انقلاب وكل حدث جديد . ومن ثم فإنه ما كاد يشعر باستقرار أمره ، وتمكن سلطانه ، حتى أطلق العنان لطغيانه وأهوائه ، وجمع حوله بطانة سوء ، أخذت تنكر للناس ، وتضطهدهم ، وتسومهم سوء الخسف ؛ وأبدى الموكلون بالقصر من رجاله نحو البربر بنوع خاص منتهى الشدة والفظاظة ، وكان المهدي ورجاله يخصون البربر بالبغض والزراية ، لأنهم كانوا عضد المنصور ، وسند نظامه الحديدى ، وكان أهل قرطبة ينساقون مع المهدي في هذه العاطفة ضد البربر ، وينظرون إليهم شزراً .

وبدا سخط المهدي نحو البربر في سوء معاملتهم ، والتشدد في دخولهم القصر ، فكانوا يمنعون من الركوب عند الدخول ، وينزع سلاحهم ، ويوجه إليهم قارص

الكلام ، ولم يفرق في ذلك بين أصاغرهم وزعمائهم ، حتى أن كبيرهم زعيم قبيلة صنهاجة ، زاوى بن زيرى بن مناد ، عند مقدمه إلى القصر ، مع جماعة من رجاله ، ردوا عند الباب بفظاظة ، وأهينوا ، فانصرفوا وقلوبهم تضطرم سخطاً . وسرت إلى العامة عندئذ ، موجة من التحامل ضد البربر ، فهاجمت بعض جموعهم دور البربر في ضاحية الرصافة ، ونهبوا بعضها ، وبادر صاحب المدينة يضبط الحال ورد الغوغاء ، وقتل ثلاثة منهم . وأسرع زاوى بن زيرى ، وجوس بن ماكسن ، وأبو الفتوح بن ناصر ، وغيرهم من زعماء البربر بالدخول على محمد بن هشام ، وأخبروه بما وقع ، فاعتذر لهم ، ووعدهم برد ما نهب ، وقتل عدد من الغوغاء ، ولكن البربر لم تهدأ ثأرتهم ، وبقيت نفوسهم على اضطرامها .

وكان من أعمال العنف التي قام بها محمد بن هشام ، أن نبى عدداً من الفتيان الصقالية العامرين . فغادروا قرطبة ، ولجأوا إلى أطراف الأندلس الشرقية ، وكان من تملكهم لبعض نواحيها ومدنها ما سندكر في موضعه . ولم يقبل منهم على مسألة محمد بن هشام ومصادقته ، سوى الفتى واضح صاحب مدينة سالم والثغر الأوسط ، فإنه بعث إليه كتاباً يؤكد فيه طاعته ، ويبدى ابتهاجه بمصرع عبد الرحمن المنصور ، فرد عليه المهدي بالشكر ، وبعث إليه أموالاً ومتاعاً ، ومرسوماً بولاية الثغر كله .

وعمد محمد بن هشام بعد ذلك إلى مطاردة الخليفة هشام المؤيد ، فحبسه في القصر أولاً ، وأخرج جواريه وفتيانه ، ودوابه المحبوبة ؛ ثم أخرجه بعد ذلك من القصر ، وأخفاه في بعض منازل قرطبة . وتوفي في ذلك الوقت رجل نصراني أو يهودي ، قيل إنه كان يشبه هشاماً شَبهاً قوياً ، فأعلن محمد بن هشام ، وفاة الخليفة ، وأحضر الوزراء والفتهاء فشهدوا بأنه هو الخليفة هشام المؤيد حقاً . ودفن هذا الخليفة المزعوم في اليوم السابع والعشرين من شعبان سنة ٣٩٩ هـ (١) . ولما شعر محمد بن هشام أن الأمر قد استتب له ، أطلق العنان لأهوائه ، وشهواته الوضيعة ، وانكب على معاقرة الخمر ، وبالع في الاستهتار والجون ، والمجاهرة بالفسق والفجور ، بصورة مثيرة أفقدته عطف الكثيرين واحترامهم ،

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٧ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٢ .

وبطش بكثير من الناس ، وفي مقدمتهم ولى عهده سليمان بن هشام ، فقد مجبه وسجن معه جماعة من قريش ، وأخرج من الجيش نحو سبعة آلاف جندي ، أقبلوا وقطعت أرزاقهم ، وأضخوا عنصراً من عناصر التوتّر والشغب ؛ وزاد في التحامل على البربر ، والتعريض بهم والطعن فيهم ، في كل فرصة وموطن ، حتى أصبح بغضه لهم ، وتربصه بهم ، من الأمور الذائعة ، وأخذ كل فريق يحتز من صاحبه ، ويتوقع منه الشر والغدر .

وكان هشام بن سليمان بن الناصر ، وهو والد سليمان ولى العهد المعتقل ، قد وجد على محمد بن هشام من جراء انحرافه وطفغياته ومجونه ، وخشي سوء العاقبة على بني أمية ، وانهيار أمرهم ، فأخذ يسعى في خلع محمد بن هشام ، وانضم إليه جماعة من الناقمين عليه ، وفي مقدمتهم جماعة العبيد العامريين ، وطوائف البربر ، ومن تغيرت نفوسهم على محمد بن هشام ، وحاصر الثوار محمد بن هشام في قصره ، فبعث إلى هشام القاضي ابن ذكوان ، وأبا عمر بن حزم ، يعاتبانه على تصرفه ، وأمر بالإفراج عن سليمان بن هشام ، ووقع بين الرسولين وبين هشام حوار شديد ، أعلن فيه أنه أحق من محمد بالعرش ، فانصرفا عنه . والتفت العامة من الرض الغربي حول محمد ؛ وبخرج محمد المهدي في جموعه لمقاتلة خصومه ، ودار القتال بينهما يومين متوالين ، ثم أسفرت المعركة عن هزيمة هشام وجموعه من البربر والعامريين ، وأسّر هشام وابنه وأخوه أبو بكر ونفر من الزعماء ، قتلهم المهدي جميعاً (١) . واثالث الدهماء على دور البربر ، فأعملت فيها التدمير والنهب حتى دخل الليل ، وكان ذلك في أواخر شوال سنة ٣٩٩ هـ (يونيه سنة ١٠٠٩ م) .

ودافع البربر عن أنفسهم ، ثم انسحب معظمهم إلى أرملاط (٢) ضاحية قرطبة ، ووقع القتال بقرطبة بين من تبقى منهم وبين العامة ، وحرص المهدي على قتلهم ، وجعل لرووسهم أثمناً ، ففتك العامة بكثير منهم ، ومن بينهم عدة من الزعماء ، ونهبوا دورهم ، واغتصبوا النساء وسبوهن ، كل ذلك في مناظر مثيرة من السفك والاعتداء العاثم ؛ واختفى كثير من زعمائهم . وتوجس المهدي من العواقب ، فأصدر للبربر أمناً ، ونادى الكف عنهم ، ونصحهم بتغيير زيهم اتقاء

(١) البيان المغرب عن ابن حيان ج ٣ ص ٨٤ .

(٢) وهي بالإسبانية Quadimellato

الأذى ، وكتب إلى البربر في أرملاط أماناً ، فلم يلتفتوا إليه ، وغادروا أرملاط وساروا شمالاً إلى قلعة رباح ، وهناك أخذوا ينظمون أنفسهم. ويتدبرون أمرهم . وكان ممن فر من بنى أمية عقب هزيمة هشام بن سليمان ومصرعه ، ولد أخيه سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، وكان إماماً للبربر ، فسار معهم ، ورشحوه منذ البداية لتولى الأمر مكان المهدي ، ولقبوه بالمستعين . وكان سانشو غرسية أمير قشتالة رقب تطور الحوادث في قرطبة باهتمام ، متأهباً لمظاهرة الفريق الخارج على الآخر ، ففاوضه سليمان وزعماء البربر في طليطلة على أن يمدّهم بالهند ، وتعهّدوا إليه بتسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود ، فقبل معاونتهم ؛ وفي أثناء ذلك حاول الفتى واضح صاحب مدينة سالم أن يعرقل مسير البربر ، فأمر مدن الثغر أن تمنع المؤن عن البربر ، ولقوا من جراء ذلك شدة وإرهاقاً . وأمدّه المهدي ببعض قواته بصحبة غلامه بليق ، فجمع جموعه وسار لقتال البربر ، ولجأ البربر من جانبهم إلى حليفهم سانشو ، فأمدّهم بالهند والمؤن الوفيرة . والتقى البربر وجيش واضح في مكان يسمى شرنبة على مقربة من قلعة النهر أو قلعة هنارس الحالية Alcalá de Henares فهزم واضح هزيمة شنيعة ، واستولى البربر على محلته وسلاحه ، وفرت فلوله صوب قرطبة . وكان ذلك في شهر ذى الحجة سنة ٣٩٩ هـ (١).

وارتاع المهدي لتلك الهزيمة ، وأخذ في تحصين قرطبة ، وحفر حول فحص السرادق ، وهو محلة البربر خندقاً ، ورتب الرجال على الأبواب والأسوار ، وأخذ ينظم قواته النظامية ومن العامة . وكان واضح قد أتاه منهزماً في أربعمئة فارس من الثغر ، انضمت إلى قواته . وسار سليمان بن الحكم من جهة أخرى في جموع البربر ، ومعها القوات القشتالية بتميادة سانشو غرسية ، صوب قرطبة ، وعسكروا بشرقها في سفح جبل يعرف بجبل قنتج أو قنتش وذلك في يوم ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ . وبرز واضح في جموعه من أهل قرطبة والثغر ، واشتبك الفريقان في القتال يوم السبت ١٣ ربيع الأول (٥ نوفمبر ١٠٠٩ م) ، واضطربت بينهما معركة شديدة ، وسرعان ما دب الخلل إلى جيش قرطبة ، فارتد منهزماً إلى الوادي ، وتبعه البربر بعنف . فضاقت بهم المسالك . وقتل منهم عدد جم

يقدره البعض بعشرة آلاف ، بينهم عدد كبير من العلماء والأئمة ، وقتل النصارى وحدهم نيفاً وثلاثة آلاف رجل ، وثبت واضح في رجاله حتى دخل الليل ، فانسل تحت جنع الظلام وفر هارباً إلى الثغر (١) .

ولما رأى المهدي هزيمة جنده ، سقط في يده ، وحاول أن ينقذ نفسه بحيلة خفيفة ، يدفع بها دعوى سليمان ، فأظهر الخليفة هشاماً المؤيد ، وكان قد أخفاه حسباً تقدم ، وزعم أنه مات ، وأجلسه في مكان بارز في شرفة القصر ، وبعث القاضي ابن ذكوان إلى البربر ، يخبرهم أن الخليفة هشاماً ما زال على قيد الحياة ، وأنه الإمام الشرعي ، وليس المهدي سوى نائبه وصاحبه ، فرده البربر بحفاء وسخريه ، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان . ولم ير المهدي أمامه سوى الفرار والنجاة بحياته ، فغادر القصر سراً ، واخترق قرطبة متنكراً ، ولحق بطليطلة . ودخل زاوي بن زيري زعيم البربر القصر ، ودخل سليمان بن الحكم في أثره في يوم الإثنين الخامس عشر من ربيع الأول سنة أربعائة ، وبايعه الناس بالخلافة ، وتلقب بالمستعين بالله ، واستقبله الشعب القرطبي القلّب بحماسة ، شأنه مع كل متغلب وظافر (٢) . ووكل سليمان بعض الفتيان الصقالية بالمحافظة على هشام المؤيد في بعض أجنحة القصر ، ونزل البربر في الزهراء اتقاء للاحتكاك مع العامة . ومع ذلك فقد كانت حوادث الاعتداء تتوالى عليهم في دروب قرطبة وأزقتها . وكان من أول أعمال سليمان أن أمر بإتزال جثة عبد الرحمن بن المنصور عن خشبتها ، فغسلت ودفن في دار أبيه ؛ ووفد سانشو غرسية إلى القصر ، فاستقبل بحفاوة وخلع عليه وعلى أصحابه ، ثم عاد إلى معسكره ، ووعد البربر بتسليم الحصون التي تعهدوا بتسليمها متى استقر سلطانهم ، ثم غادر قرطبة بعد أن ترك من جنده مائة أنزلوا في ربض منية العقاب .

أما محمد المهدي فما كاد يصل إلى طليطلة ، حتى أخذ يدبر أمره من جديد ، وكانت الثغور ما تزال باقية على طاعته ودعوته ، وانضم إليه واضح وأخذ الأمر بيده . ولما علم سليمان بما يدبره المهدي وواضح ، خرج في قواته من قرطبة ،

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠ ؛ ويقول ابن الخطيب إن النصارى قتلوا من أهل قرطبة ثلاثين ألفاً ، وهو رقم يحمل طابع المبالغة (أعمال الأعلام ص ١١٣) .

(٢) الذخيرة لابن يسام . المجلد الأول القسم الأول ، ص ٣٠ و ٣١ ؛ والبيان المغرب ج ٣

وصار صوب طليطلة ، ثم دعا أهلها إلى طاعته ، فأبوا . وانصرف سليمان بقواته إلى مدينة سالم ، فلقى نفس الفشل في استمالة أهلها ، فارتد عندئذ إلى قرطبة اتقاء لأهوال الشتاء (أواخر شعبان سنة ٤٠٠ هـ) . وفي خلال ذلك كله كان القتي واضح قد سار إلى طرطوشة من ثغور الثغر الأعلى ، واتصل بأمر برشلونة الكونت رامون بوريل وزميله أمير أورقلة الكونت أرمنجو ، واتفق معهما على أن يمدها بجيش لمقاتلة البربر في قرطبة ، فقبلا معاونته بشروط باهظة ، من تقديم الطعام والشراب ، وأن يتناول كل منهما في اليوم مائة دينار ، وأن يتناول كل جندي دينارين في اليوم ، وأن يستولى الجند النصارى على ما يغنونه من سلاح البربر وأموالهم ، وأخيراً أن يستولوا على مدينة سالم ، وقد احتلوا بالفعل في طريقهم إلى طليطلة ، بعد أن أخلاها واضح من المسلمين^(١) .

وسار الجيش الفرنجي برفقة واضح إلى طليطلة ، حيث انضم إليه المهدي في قواته ، وسارت القوات المتحدة صوب قرطبة . وكان سليمان المستعين قد وقف على أهبة خصومه ، ووفرة القوات الزاحفة عليه ، فاستنفر الناس لنصرته ، فلقيت دعوته فتوراً ، فحشد ما استطاع من جموعه ، وخرج مع البربر للملاقاة خصومه . وكان اللقاء على قيد نحو عشرين كيلومتراً من شمالي قرطبة في مكان يعرف « بعقبة البقر » ، وذلك في منتصف شوال سنة ٤٠٠ هـ (أواخر مايو سنة ١٠١٠ م) ، واحتل البربر بقيادة زعيمهم زاوى بن زيرى المقدمة ، ورابط سليمان بقواته في المؤخرة . واقتتل البربر مع الفرنج قتالاً شديداً ، قتل فيه كثير منهم ، وفي مقدمتهم الكونت أرمنجو (وتسميه الرواية العربية أرمقند) ، ولكن جانباً من فرسان الفرنج اخترقوا صفوف البربر ، فظن سليمان أن الهزيمة وقعت بهم فارتد منهزماً وكشف بذلك مؤخرة البربر ، فلما رأى البربر فرار سليمان بقواته ، ارتدوا لفورهم نحو الزهراء ، فأخذوا أهلهم وأموالهم وغادروها إلى الجنوب مسرعين ، وفر سليمان في بقية من صحبه شرقاً صوب شاطبة . وفي اليوم التالي دخل واضح ومحمد المهدي قرطبة ، وجدد المهدي البيعة لنفسه وعين واضحاً لحجابه^(٢) .

واعترز المهدي أن يقضى على البربر قبل أن يعودوا لمقارعتة . فجمع الأموال

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ و ٩٥ ؛ والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٢ .

من أهل قرطبة ، وأعطى الفرنج أعطيائهم ، وحشد كل ما استطاع من قواته ، وخرج لمطاردة البربر . وكان البربر قد وصلوا عندئذ إلى « وادي آره » أو وادي يارو^(١) . على مقربة من مربلة في طريقهم إلى الجزيرة الخضراء . وكان جيش المهدي يتكون من نحو ثلاثين ألف من المسلمين ، وتسعة آلاف من الفرنج . وهناك التقى الجمعان ، واشتبكا في معركة طاحنة ، دارت فيها الهزيمة على المهدي وحلفائه ، وقتل من الفرنج نحو ثلاثة آلاف ، وغرق منهم عدد جم ، واستولى البربر على كثير من أسلحتهم وخيلهم ومتاعهم^(٢) ، ووقعت هذه الموقعة ، في شهر ذي القعدة سنة ٤٠٠ هـ (يونيه ١٠١٠ م) ، وعلى أثرها ارتد المهدي إلى قرطبة ، وهناك غادره حلفاؤه النصاري عائدین إلى بلادهم . وسار البربر جنوباً إلى ناحية ريّة ، وهناك لحق بهم سليمان المستعين بمن معه . وأخذ الفريقان يدبران معاً استئناف الصراع للاستيلاء على قرطبة .

وعكف المهدي على تحصين قرطبة ، وحفر حولها خندقاً ، أقيم وراء سور ، وأخذ يستعد للدفاع ، ويحشد الجند توقعاً لمعاودة البربر الكرة . وكانت جموع من البربر في أثناء ذلك تغير على نواحي قرطبة من آن لآخر . وفي أثناء ذلك كان واضح قد ضاق ذرعاً بتصرفات المهدي وحماقاته ، وسوء خلقه من عكوف على الشراب والمجون . وكان الفتيان العامريون وفي مقدمتهم واضح جميعاً ينقمون على المهدي ما فعله بهشام المؤيد ، وبني عامر ؛ وكان قد وصل إلى قرطبة جملة منهم من شاطبة ، وفيهم بعض الفتيان البارزين مثل خيران وعنبر ، فأتمرروا على الغدر بالمهدي ، وأخرجوا هشاماً من محبسه بالقصر ، وأجلسوه للخلافة ونادوا بولايته ، وأتوا بالمهدي بين يديه ، فضرب عنقه ، واحتز رأسه ، وألقى بجسده من أعلى السطح ، ورفعوا رأسه على قناة طيف بها في الشوارع ، ووقعت هذه الجريمة في الثامن من ذي الحجة سنة ٤٠٠ هـ (٢٣ يوليه ١٠١٠ م)^(٣) .

وهكذا استرد هشام المؤيد الخلافة ، بعد سلسلة من الخطوب والأحداث المثيرة ، وكان يومئذ كهلاً في نحو السابعة والأربعين من عمره ، وكان قد مضى

(١) وبالإسبانية Quadario

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٦ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٣ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٠ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٦ ؛ والنخبة القم ص الأول ،

المجلد الأول ص ٣٢ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٩٦ و ٩٩ و ١٠٠ .

عليه مذولى الخلافة صبيهاً لأول مرة أربعة وثلاثون عاماً ، وفي تلك الفترة شهدت الأندلس طائفة من الأحداث الجسام ، لم تشهد مثلها من قبل : شهدت قيام الحاجب المنصور ودولته العامرية ، واختفاء سلطة الخلافة ، في ظل نظام الطغيان المرهق الذى فرضه بنو عامر ، ثم شهدت الثورة الغامرة التى أطاحت بالدولة العامرية وعود الخلافة الأموية فى ثوبها الباهت المهلهل ، على يد مغامرين مثل محمد بن هشام المهدي ، وسليمان المستعين ، وشهدت وفاة هشام المزعومة ، ثم بعثه ، وعوده إلى تولى الخلافة ، شجعاً من أشباح الماضى ، وألوبة فى يد واضح وزملائه الفتيان العامرين ، أصحاب الحول والسلطان ، بعد ابتعاد البربر ومصرع المهدي .

وتولى واضح بالطبع منصب الحجابة للخليفة الذى اصطنعه ، وسكنت الفتنة ، وهدأت الخواطر نوعاً ، وبعث الخليفة برأس المهدي إلى سليمان المستعين وحلفائه البربر ، وكتب إليهم يدعوهم إلى طاعته ، وأخذ يظهر فى شوارع قرطبة خلافاً لما كان عليه فيما مضى ، إظهاراً لهيبة الخلافة وسلطانها . ولكن البربر لم يقبلوا دعوته ، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان ، وكان البربر فى الواقع يضطرمون حقداً على أهل قرطبة لما أصابهم منهم من أنواع النكال ، ويزمعون الانتقام منهم بكل وسيلة . وحاول سليمان والبربر أن يحصلوا مرة أخرى على معاونة سانشو غرسيه أمير قشتالة ، وعرضوا أن يسلموه سائر الحصون الأمامية التى افتتحها الحكم والمنصور ، إذا ارتضى محالفتهم ومعاونتهم على استعادة قرطبة ، وخلع المؤيد ، ولكن سانشو لم يصغ إليهم فى تلك المرة ، معترفاً أن يوجه مطالبه إلى الخليفة القائم . وعندئذ عول البربر على السير إلى قرطبة ، فسارت جموعهم حتى وصلت إلى الزهراء غربى قرطبة ، فهاجوها وقتلوا معظم الحند الذين بها ، واحتلوها وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ (نوفبر سنة ١٠١٠ م) ، واستمروا بها بضعة أشهر حتى أواخر شعبان من تلك السنة ، ثم زحفت جموعهم على أرباض قرطبة ، يعيشون فيها تخريباً ونهباً وقتلاً ، ويجتنبون الاشتباك مع جند واضح ، وضع أهل قرطبة لهذا الاعتداء ، وزادت نفوسهم حقداً على البربر ، وتحرقاً للانتقام منهم ، وانتشرت جموع البربر فى نفس الوقت جنوباً ، حتى وصلت إلى أحواز غرناطة ومالقة وهى تنشر الخراب والدمار أينما حلت .

وفى تلك الأثناء وصل سفراء سانشو غرسية أمير قشتالة إلى قرطبة ، يطالبون بالحصون الواقعة على الحدود ، والتي افتتحها المسلمون منذ أيام الحكم حتى نهاية عهد بنى عامر . ولم ير هشام وواضح بدأ من إجابة سانشو إلى طلبه ، اتقاء لعدوانه من جهة ، واتقاء لتحالفه مع البربر من جهة أخرى . وعقد مجلس من الفقهاء والقضاة ، وكتب محضر رسمي بتسليم عدد كبير من الحصون إلى النصارى ، يقال إنها أربت على المائتين^(١) ، ومنها معاقل هامة ، كانت قواعد أمامية للمسلمين ، مثل شنت إشتين ، وقلونية ، وأوسمة ، وغرماج وغيرها ، وخسرت الأندلس بذلك خط دفاعها الأول ، وتركت حدودها الشمالية مفتوحة لغزوات النصارى . واستمر البربر على حصارهم لقرطبة ، وعيَّشهم في أرباضها الخارجية ، وكانت الحالة تسوء من يوم إلى يوم ، وكان الناس في قرطبة ، جيشاً وشعباً ، يزعجون مقارعة البربر ، والقضاء عليهم بكل ما وسعوا ، ويرفضون كل رأى أو مسعى يتجه إلى مسألتهم أو التفاهم معهم ، ولم يجد المؤيد وواضح بدأ من الانسحاق مع التيار العام ، واتخاذ كل وسيلة ممكنة للدفاع عن المدينة ، ولكن الموارد كانت تقل يوماً عن يوم ، حتى اضطر المؤيد إلى إخراج سائر نفائس القصر وتحفه ورياشه ، ليقتنى بثمنها الخيل والسلاح ، وفضلاً عن ذلك فقد أرقق القرطبيون بالمطالب والمغارم حتى ضاقوا ذرعاً ؛ وأخيراً شعر وواضح بأنه يواجه حالة مستحيلة ، واعتزم أن يغادر قرطبة سراً ، إلى بعض نواحي الثغر ، ولكن بعض أكابر الحند وقفوا على مشروعه ، فنهض أحدهم ، وهو على بن وداعة مع نفر من زملائه ، فعاتبوه على ما بدد من الأموال ، وما أساء من تصرف ، ثم قتلوه واحتزوا رأسه ، وطيف بها في الشوارع ، ونهبت دوره ودور أصحابه ، فوجد بها مال كثير معبأ كان يعتزم الفرار به . وهكذا كفر وواضح بدمه عن جريمته في اغتيال المهدي ، وهكذا أضحت الجريمة وسيلة ذائعة في بلاط قرطبة ، لاقتناص السلطان أو التخلص من صاحبه^(٢) .

وعلى أثر ذلك ولى المؤيد ابن وداعة شرطة المدينة ، فاستعمل الحزم والشدة ، فى قمع الشغب وصون النظام والأمن ، فهابته العامة ، وقلت حوادث الشغب ، وتولى تدبير الأمور للمؤيد رجل من موالى العامريين يسمى ابن مناو ؛ ثم جاءت

(١) أعمال الأعلام ص ١١٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٣ و ١٠٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٧ و ١١٨ .

إلى قرطبة كتب من أهل الثغور يعتذرون فيها عن عجزهم عن إرسال الأمداد ، وينصحون المؤيد إما بمصالحة البربر ، أو التفاوض مع أمير قشتالة ؛ فكتب هشام إلى زاوى بن زبرى يحثه على عقد الصلح ، ويبيعه بما شاء من مال أو ولاية ، فرد زاوى بأنه لا يستطيع مخالفة أصحابه ، وأنه مع ذلك لا يدخر وسعاً في العمل لتأليف كلمة المسلمين وحقق الدماء^(١) .

ثم بذلت محاولة مماثلة لدى سليمان بن الحكم والبربر ، إذ كتب أهل قرطبة على لسان هشام وابن مناو كتابين ، وجه أحدهما من هشام إلى سليمان ، وفيه يرجو العمل على إخماد الفتنة ، وتسليم الأمر إليه ، وعلى أن يغدو سليمان ولى عهده والقائم بأعباء الخلافة عنه ، ووجه الثانى من وزراء قرطبة إلى وزراء البربر ، فلم يحفل سليمان بكتاب هشام ، وقال للرسول بل إنه هو أمير المؤمنين والخليفة ، وأنه لا يعترف لهشام بصفة ما .

كل ذلك والأمر يشتد على أهل قرطبة . ودخل الوزراء وجوه الحند والفتيان على هشام ، وكشفوا له خطورة الحالة ، واشتداد ضغط البربر على المدينة وأرباضها ، وتفاقم الضيق والغلاء ، وقصور الثغور عن إنجاد المدينة ، وكون الشعب منقسم على نفسه ما بين راغب فى الكفاح ، وراغب فى الصلح ، فبكى هشام فيما قيل ، واعتذر لعجزه وقصوره ، وقال لهم افعلوا ما ترون .

وعجل باضطرام النار حادث وقع فى آخر ذى الحجة سنة ٤٠٢ هـ ، إذ تقدم جماعه من وجوه البربر وفى مقدمتهم حباسة بن ماكسن ابن أخى زاوى ، وكان من أشجع قادة البربر ، ومعه جماعة قليلة من الفرسان ، ونزلوا فى بقعه قريبة من الأسوار ، فراحم أهل قرطبة من وراء الخندق ، فاجتمع منهم عدد عظيم ، وانقضوا على حباسة وصحبه ، فدافعوا عن أنفسهم دفاعاً عظيماً ، ولكنهم غلبوا فى النهاية على أمرهم ، وأسر حباسة ، فلما عرفه القوم قتلوه بوحشية ، وقطعوا جسده لإرباباً لعظيم حقدهم عليه ، ولما قاسوه من شدة قتاله ونكايته ، فلما وقف أخوه حبوس وعمه زاوى على الخبر ، اضطرب البربر ، واستعدوا للقتال ، وفى اليوم التالى اشتبكوا مع أهل قرطبة فى عدة معارك ، وفنكوا بكثير منهم ،

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٧ و ١٠٨ .

واستمرت المعارك من ذلك الحين بين الفريقين بحالا ، وأهل قرطبة يخرجون من المدينة مرة بعد أخرى ، ويقاثلون البربر محاولين تحطيم الحصار المرهق ، والبربر من جانبهم ينزلون بهم أشد الضربات . وفي ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ (مايو سنة ١٠١٣ م) نشبت بين الفريقين معركة عامة ، وقاتل أهل قرطبة قتالا شديداً ، ولكنهم هزموا بعد معارك طاحنة ، وقتل منهم عدد جم ، وساد الاضطراب أرجاء المدينة ، وفتحت أبوابها ، وخرج القاضي ابن ذكوان مع جماعة من الفقهاء وساروا إلى معسكر البربر ، وطلبوا الأمان من سليمان وزعماء القبائل البربرية ، ففتح الأمان لقاء مبالغ عظيمة فرضت على المدينة ، ودخل البربر المدينة دخول الوحوش المفترسة ، فقتلوا كثيراً من سكانها ، ولم يفروا الأطفال والشيوخ ، وأوقعوا بها السلب والنهب ، وأحرقوا الدور ، واغتصبوا النساء والبنات ، وارتكبوا أشنع ضروب السفك والإثم ، وكانت محنة من أروع ما قاسته عاصمة الخلافة . وفي اليوم التالي دخل سليمان المستعين قصر قرطبة ، واستدعى هشاماً المؤيد وعنفه على موقفه ، فاعتذر بأنه مغلوب على أمره . وهنا تختلف الرواية في مصير هشام ، فالبعض يقول إن سليمان أخفاه حيناً ، ثم قتله ولده محمد بن سليمان ، والبعض الآخر بأنه فر من محبسه ، وقصد إلى ألمرية حيث عاش حيناً في خول وبؤس حتى توفي . بيد أننا نرجح الرواية الأولى ، وإن كان اسم هشام سوف يظهر بعد ذلك على مسرح الحوادث .

ولما استتب الأمر لسليمان ، وهذأت الخواطر نوعاً ، تلقب بالظافر بحول الله مضافاً إلى المستعين ، وانتقل إلى مدينة الزهراء بحاشيته وقواد البربر وجندهم ، فاحتلوها وما حولها ، ونزل على والقاسم ابنا حمود قائدا فرقة العلوية بشقندة صاحبة قرطبة ، وأخذ سليمان ينظم شئون الحكومة المضطربة . وكانت الفوضى قد سرت إلى جميع النواحي ، وتفككت عرى الدولة ، وقصر نفوذ الحكومة إلا عن قرطبة وما يجاورها ، وقبض البربر الذين رفعوا سليمان إلى العرش ، على السلطة الحقيقية ، فقلوا مناصب الحجابة والوزارة ، وسأثر المناصب الهامة ، ورأى سليمان لإرضاء لهم من جهة ، لهم وإبعاداً عن قرطبة من جهة أخرى ، أن

(١) راجع في سقوط قرطبة ومصير هشام ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٥١ ؛ رابن الأثير ، ج ٩ ص ٧٥ والمراكشي ص ٢٢ - ٢٥ ؛ وأبو الفدا ج ٢ ص ١٣٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١١٢ و ١١٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٨ - ١٢٠ .

يقطعهم كور الأندلس ، وكانوا ست قبائل رئيسية ، فأعطى قبيلة صنهاجة وزعمائها بنى زيرى ، ولاية البيرة (غرناطة) ، وأعطى مغراوة جوفى البلاد ، وبنى برزال وبنى يفرن ولاية جيان ومتعلقاتها ، وبنى دُمُرَ وازداجة منطقة شذونة ومورور ؛ وأقر المنذر بن يحيى التجيبى على ولاية سرقسطة والثغر الأعلى ، وكان قد انضم إلى سليمان ، وحارب مع البربر من أجل قضيته ، وولى بنى حمود الأدارسة ثغور المغرب ، فولى علياً بن حمود على ثغرسبته ، وأخاه القاسم بن حمود على ثغور الجزيرة الخضراء ، وطنجة وأصيلا ، وهكذا سيطر البربر على ولايات الأندلس الجنوبية والوسطى ، وأخذوا يحتلون في شتونها مكانة لها خطرها^(١) .

وكان الفتيان العامريون لما رأوا غلبة البربر على حكومة قرطبة الحديدية ، قد توجسوا من غدرهم ، وفر معظمهم إلى شرق الأندلس ، بعيداً عن سلطان الحكومة المركزية ، وأنشأوا هنالك في القواعد الشرقية ، حكومات محلية حسبما نذكر بعد . وقضى سليمان المستعين في الحكم للمرة الثانية نحو ثلاثة أعوام ، استمرت خلالها حال الاضطراب والفوضى في قرطبة وسائر أنحاء الأندلس . ولم تهدأ الخواطر ولم تطمئن النفوس . وغلب سلطان البربر ، واشتد طغيانهم وتحكمهم ، ولبت الأدهاء المتوثة تجيش في صدور الطامعين من زعمائهم ، حتى تمخضت غير بعيد عن انقلاب جديد في مصابر الخلافة .

وكان من أبرز صفات سليمان ، مواهبه الأدبية الرفيعة ، فقد كان أديباً متمكناً ، وشاعراً مطبوعاً ، قال فيه ابن بسام إنه «أحد من شرف الشعر باسمه ، وتصرف على حكمه » وأورد له القصيدة الآتية ، وهي الوحيدة التي عثر بها من نظمه ، وفيها يعارض قطعة الرشيد « ملك الثلاث الأنسات عناني » وفيها تبدو براعته ورقة خياله :

عجباً يهاب الليث حدّ سناني	وأهاب لحظ فواتر الأجفان
فأقارع الأهوال لا متهيباً	منها سوى الإعراض والمهجران
وتملك نفسي ثلاث كالدمى	زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لُحن لناظري	من فوق أغصان على كُثبان
هذى الهلال ، وتلك بنت المشتري	حسناً وهذى أخت غصن البان

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٣ - ١١٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٩ .

فَقَضَى بِسُلْطَانٍ عَلَى سُلْطَانِي	حَاكَمْتَ فِيهِنَّ السُّلُوَ إِلَى الصَّبَا
فِي عِزِّ مَلِكِي كَالْأَسِيرِ الْعَانِي	فَأَجْنَحُ مِنْ قَلْبِي الْحَمَى وَتَرَكْنِي
ذُلَّ الْهَوَى عِزُّ وَمَلِكٌ ثَانِي	لَا تَعْدِلُوا مَلِكًا تَذِلُّ لِلْهَوَى
وَبَنُو الزَّمَانِ وَهْنٌ مِنْ عِبْدَانِي	مَا ضَرَّ أَنِي عَبْدُهُنَّ صَبَابَةً
كَلَفًا بِهِنَّ فَلَسْتُ مِنْ مِرْوَانِ	إِنْ لَمْ أَصْعُ فِيهِنَّ سُلْطَانَ الْهَوَى
خَطْبُ الْقَلْبِ وَحَوَادِثُ السُّلْوَانِ	وَلِذَا الْكَرِيمُ أَحَبُّ أَمِّنَ الْفَهْ
عَاشَ الْهَوَى فِي غَبْطَةٍ وَأَمَانٍ ^(١)	وَلِذَا تَجَارَى فِي الْهَوَى أَهْلُ الْهَوَى

(١) ابن بسام في الذخيرة . المجلد الأول القمم الأول ص ٣٣ و ٣٤ ؛ والمراد كثر من ٢٥ .

الفضل الثاني

دولة بني حمود

ظهور البربر في الميدان . على والقاسم ابنا حمود . بنو حمود ونسبتهم . ولاية الثغور بين البربر والفتيان العامريين . استيلاء البربر على قرطبة باسم سليمان . خير ان العامري ينتزع المرية ويدعوا للمؤيد . على بن حمود يزعم أنه تلقى ولاية العهد من هشام . تحالفه مع خيران وعبوره إلى الجزيرة . سير القوات المتحالفة إلى قرطبة . القتال بينها وبين البربر . هزيمة البربر وسليمان . على بن حمود يدخل القصر . اشتداده في معاملة البربر . خيران يخرج عليه ويدعوا لعبد الرحمن المرتضى . انضمام الثغور الشرقية وسرقسطة لهذه الدعوة . القتال بين المرتضى وصنهاجة . اقتصار البربر ومقتل المرتضى . اضطهاد على لأهل قرطبة . مصرعه . أخوه القاسم يخلفه . جنوحه إلى سياسة اللين والتفاهم . غلبة البربر عليه . خروج يحيى بن على واستيلاؤه على الخلافة . التجاء القاسم إلى إشبيلية . خلع المعتلى وعود القاسم . اصطفاؤه للبربر . سخط أهل قرطبة . محاربتهم وهزيمتهم للبربر . سير القاسم إلى إشبيلية ثم إلى شريش . يحيى المعتلى يطارده ويأسره . استقرار المعتلى في الثغور الجنوبية . رد الأمر لبني أمية . خلافة عبد الرحمن المستظهر . وصف ابن حيان ليلاطه . عطفه على البربر . قتل القرطبيين بهم . فرار المستظهر ومصرعه . خلافة المستكني . اضطهاده للزعماء . تخله وفراره . يحيى بن حمود يحتل قرطبة . قتل القرطبيين بالحامية البربرية . رد الأمر لبني أمية . بيعة هشام المعتد بالله . وزيره حكم بن سعيد . سوء مسلكه ومصرعه . خلع هشام ومصريره . الإجماع على إبطال الخلافة والتخلص من بني أمية . استيلاء يحيى المعتلى على قرمونة . الحرب بينه وبين ابن عباد . هزيمة يحيى ومصرعه . خلافة إدريس المتأيد بالله . غزو إدريس وحلفائه لأحواز إشبيلية . الحرب بين زهير العامري وباديس أمير غرناطة . مصرع زهير . الحرب بين ابن عباد والبربر . هزيمة ابن عباد ومقتل ولده إسماعيل . وفاة إدريس وخلافة ولده يحيى . خروج حسن بن يحيى ومبايعته بالخلافة . مقتل الوزير ابن بقتة . مصرع حسن . محاولة الحاجب نجا ومصرعه . خلافة إدريس العالي . الثورة عليه وخلعه . خلافة محمد بن إدريس المهدي . طغيانه والسخط عليه . مصرعه . خلافة إدريس السامي . عودة إدريس العالي . خلافة المستمل . استيلاء باديس على مالقة . حكومة بني القاسم بن حمود بالجزيرة . استيلاء ابن عباد على الجزيرة . إنقراض دولة بني حمود . تفكك الأندلس وانقسامها .

لما قضى على دولة الأدرسة بالمغرب الأقصى أيام الحكم المستنصر ، ثم بعد ذلك أيام المنصور بن أبي عامر ، وأصبح المغرب ولاية أندلسية تخضع للحكومة قرطبة ، تفرق كثير من زعمائه في مختلف الجهات ، ولاذوا بالاختفاء ، بعيداً عن بطش السلطة الجديدة ، وأخذوا يرقبون الفرص لاستعادة سلطانهم ؛ وهاجر

عدد كبير منهم إلى الأندلس ، من البربر والمغاربة ، وانضووا تحت لواء الدولة العامرية في أواخر عهدها ، وعاونوا في توطيد سلطانها وتدعيم جيشها .
ولما انهارت الدولة العامرية ، وعم الاضطراب والفوضى في قرطبة ، ظهر البربر طرفاً بارزاً من أطراف المعركة ، التي اضطرت حول السلطان والخلافة ؛ ولما نجح بنو أمية في تحقيق ضربتهم الأولى على يد محمد بن هشام المهدي ، انحاز البربر للفريق المعارض ، لما نالهم من مطاردته واضطهاده ، وكانت الحصومة تضطرم في الواقع منذ بعيد بين الأمويين والبربر ، لاعتقاد الأمويين أن البربر كانوا أكبر عضد للمصور ، في اغتصاب السلطة والقضاء على سلطان بني أمية . ولما فشل البربر في محاولتهم الأولى للقضاء على رئاسة المهدي ، التفوا حول خصيمه سليمان المستعين ، ليكون مرشحهم الشرعي ، ووسيلتهم إلى انتزاع السلطة ، وانتهى الصراع بين الفريقين ، آخر الأمر بانتصار البربر ، واستيلاء مرشحهم سليمان على الخلافة ، وحصولهم على نصيبهم من أسلاب السلطة ، بتولى رئاسة الولايات والثغور الجنوبية .
وكان من بين الزعماء المغاربة ، الذين قادوا جموع البربر في معركة قرطبة المظفرة ، رجلان من عقب الأدارسة ، هما علي والقاسم ابنا حمود بن ميمون ابن حمود . ونحن نعرف أن الأدارسة يرجعون نسبهم إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ؛ وإذا ، فقد كان علي والقاسم ، وفقاً لهذا القول ، علويين من سلالة آل البيت . وهذا ما يقوله العلامة النسابة ابن حزم ، إذ يرجع نسبة علي والقاسم ، إلى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي^(١) ، ويقول أيضاً عبد الواحد المراكشي وابن عذاري ، وابن الخطيب^(٢) .

بيد أنه بالرغم من هذه النسبة العلوية ، وهذه الأرومة العربية العريقة ، التي ينتحلها بنو حمود ، فإنهم ، إذا تركنا مسألة النسبة والسلالة جانباً ، كانوا ينتمون في الواقع من حيث النشأة والعصبية والمصير ، إلى البربر ، وكان الطابع البربري غالباً عليهم ، حتى أنهم لم يكونوا يتكلمون العربية ، وإنما كانوا يتكلمون باللغة البربرية ، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك في حديثه عن علي بن حمود^(٣) .

(١) راجع جهرة أنساب العرب (القاهرة) ص ٤٣ و ٤٤ .

(٢) المراكشي في المنهج ص ٢٤ ؛ وابن عذاري في البيان المغرب ج ٣ ص ١١٩ ؛ وابن

الخطيب في أعمال الأعلام ص ١٢٨ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٢١ .

وقد رأينا أن سليمان المستعين حينما استرد الخلافة ، عقب انتصار البربر على أهل قرطبة ، خصص علياً والقاسم ، بولاية الثغور المغربية ، وندب علياً لحكم سبتة ، وندب القاسم لحكم الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا ، وذلك في أوائل سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) .

وفي الوقت الذي استولى فيه البربر ، على الولايات والثغور الجنوبية ، كان الفتيان العامريون ، منذ اضطرام الفتنة ، قد استقروا بشرق الأندلس ، واستولى كثير منهم على الثغور الشرقية ، وفي مقدمتهم مجاهد الذي استولى على دانية والجزائر الشرقية فيما بعد ، وخيران ، الذي استولى على ألمرية ومرسية . وكان خيران حينما استولى محمد بن هشام المهدي على الخلافة للمرة الثانية ، بموازنة واضح والحند النصاري ، وتولى واضح منصب حجابته ، قد عاد إلى قرطبة مع نفر من الفتيان العامريين ، وانضدوا إلى واضح ثم اشتركوا معه في تدبير اغتيال المهدي ، وإعادة هشام المؤيد إلى كرسي الخلافة حسبما تقدم . وكان أولئك الفتيان يعتبرون هشاماً إمام دولتهم بعد ذهاب المنصور . فلما قتل واضح واستولى البربر على قرطبة ، وانتزع سليمان المستعين الخلافة من هشام المؤيد ، غادر خيران ومعه عدة كبيرة من الفتيان قرطبة ، اتقاء بطش البربر ، وسار إلى شرق الأندلس ، وانضم إليه حال سيره كثير من الناقمين من بني أمية وغيرهم ، ثم زحف على ألمرية ، وكانت بيد أفلح الصقلبي ، فانزعها منه ، واستولى على كثير من الأماكن المجاورة ، واشتد بأسه في تلك الناحية ، ودعا لهشام المؤيد .

وكان تمزق الأندلس على تلك الصورة ، وانتثار السلطة بين الأمويين والبربر ، والفتيان العامريين ، مما يفسح المجال لأطباع الطامعين والمتغلبين ، وكانت تلك الأطباع تجيش في الواقع ، في صدور أولئك الذين رأوا في ضعف السلطة المركزية ، وذبوع الخلاف والفوضى ، فرصة يمكن انتهازها . وكان على ابن حمود الحسني ، قد ولي حكم سبتة ، وولي أخوه الأكبر القاسم ، حكم الجزيرة الخضراء ، لا يفصلهما سوى مضيق جبل طارق . وكان على يطمح إلى أكثر من حكم مدينة ، ويتطلع إلى الوثوب بحكومة قرطبة المضطربة المتداعية . وكان يرى في الفتيان العامريين خصوم سليمان المستعين حلفاءه الطبيعيين ، فكاتب كبيرهم خيران صاحب ألمرية ، وأظهر كتاباً زعم أنه تلقاه من الخليفة هشام المؤيد يوليه

فيه ولاية عهده ، ويطلب إليه أن ينقذه من أسر البربر وسليمان ؛ ويقول لنا ابن حيان ، إن هشاماً المؤيد لما رأى اضطراب أمره وتصرم دولته ، قد منح على ابن حمود ولاية عهده ، وأوصى إليه بالخلافة من بعده ، وأرسل إليه ذلك بسببة سرّاً ، وولاه طلب دمه ، واستكتمه السرحى حتى يحين الأوان لذلك (١) . فذاغت دعوة على ، ولباها بعض حكام الثغور الجنوبية مثل ، عامر بن فتوح الفائقى مولى الحكم المستنصر ووزير ولده المؤيد ، وكان يومئذ حاكماً لمالقة . وكتب إليه خيران أن يعبر إليهم . فعبر على من سبته إلى الجزيرة الخضراء فى أواخر سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٦ م) وسار فى أشياعه من البربر إلى مالقة ، فسلمها إليه عامر ابن فتوح ، ودعا له بولاية عهد المؤيد حالة ظهوره حياً ، وسار خيران فى قواته والتقى بعلى فى ثغر المنكب الصغير ، ما بين مالقة والمرية ، فجمع الزعميان قواتهما ونظما خطتهما للزحف على قرطبة ، وبويع على بن حمود على طاعة المؤيد . ثم سارت القوات المتحدة صوب قرطبة ، وانضم إليها خلال السير زاوى بن زبرى وجوس الصنهاجى فى قوة من بربر غرناطة . وكان سليمان المستعين ، قد ترامت إليه أنباء أولئك الخوارج عليه ، وزحفهم لقتاله ، فخرج من قرطبة للقائهم فى جند البربر ، والتقى الفريقان فى ظاهر قرطبة على قيد عشرة فراسخ منها ، ونشبت بينهما معركة شديدة ، انتهت بهزيمة سليمان ، وقتل عدد جم من أنصاره ، وكان سليمان وأبوه الحكم ، وأخوه عبد الرحمن ، بين الأسرى . ودخل على بن حمود قصر قرطبة فى الثامن والعشرين من محرم سنة ٤٠٧ هـ (أول يوليه سنة ١٠١٦ م) وبحث عن هشام المؤيد فلم يجده ، وكان الاعتقاد سائداً بأن سليمان أخفاه ولم يقتله ، فلما علم بأنه قُتِل ، أتى بسليمان وأبيه وأخيه وقتلهم بنفسه انتقاماً للمؤيد . ثم أعلن وفاة المؤيد ، ودعا إلى البيعة لنفسه ، فبويع بالخلافة وتلقب بالناصر لدين الله ، وكانت مدة خلافة سليمان الثانية مذ دخل قرطبة إلى أن قتل ثلاثة أعوام وبضعة أشهر ، وكانت أمه أوم لد تدعى ظبية ومولده فى سنة ٣٥٤ هـ (٢) .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٤ و ١١٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٦ و ١١٧ و ١١٩ و ١٢٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢١ .

وج ٤ ص ١٥٣ ، والمراكشى ص ٢٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩ ؛ ونفع الطيب ج ٩ ص ٢٢٤ ، وجذوة المقتبس ص ٢٠ .

وهكذا اختتمت الدولة الأموية حياتها بالأندلس بعد أن عاشت منذ عصر الإمارة حتى نهاية عصر الخلافة مائتين وثمانية وستين عاماً ، وانهارت دعائم الخلافة الأموية نهائياً ، بعد أن لبثت منذ عصر هشام المؤيد أربعين عاماً ، ستاراً للمتغلبين من بني عامر ، ثم شعباً هزيباً يضطرب في غمر الفتنة والقوضى .

ولما قبض على بن حمود على زمام الحكم ، اشتد في معاملة البربر ، وإخاد تمردهم وشغبهم ، وحماية السلطة المركزية من عدوانهم ، فهابوه ولزموا السكينة ، وقضى بمنتهى الشدة على كل نزعة إلى الخروج والعصيان ، وفك بالمعارضين له ، سواء في ذلك العرب أو البربر ، وأذل الزعماء واستأثر بالسلطة . وحاول من جهة أخرى أن يحسن معاملة القرطبيين ، وأن يقيم العدل ، ويقمع القوضى ، وكان من معاونيه في الحكم ، جماعة من أولياء الخلافة السابقين مثل أبي الحزم بن جهور ، وأحمد بن برد وغيرهما .

على أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة . ذلك أن خيران العامري ، لما دخل قرطبة مع علي بن حمود ولم يجد الخليفة هشاماً المؤيد على قيد الحياة ، خشي سطوة الناصر وغدره ، فغادر قرطبة ، معلناً الخلاف ، وسار إلى شرق الأندلس حيث يحتشد معظم الزعماء العامريين وأنصارهم ، وأعاد الدعوة لبني أمية في شخص مرشح جديد منهم ، هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن الناصر ، باعتباره أصلح من بقي منهم ، وكان قد فر خفية من قرطبة إلى جيان ، فاستدعاه خيران وبايعه وجمع كبير من أصحابه بالخلافة ، ولقبوه بالمرتضى ، وانضم إليهم في تلك الحركة المنذر بن يحيى التجيبي وإلى سرقسطة والشعر الأعلى ومعه قوة من المرتزقة النصاري ، وكذلك ولاية شاطبة وبلنسية وطراوشة وألبونت وغيرها . وأعلن المرتضى الخلاف على الناصر ، وسار في جموعه أولاً إلى غرناطة ليحارب جيش صنهاجة القوى ، فلقه أميرها زاوي بن زيري في قواته ونشبت بينهما معركة طاحنة استمرت أياماً ، وانتهت بهزيمة أهل الأندلس ، ومقتل المرتضى ، وتمزق جموعه ، وسقوط معسكره في أيدي البربر . وفي رواية أخرى أن المرتضى استطاع الفرار ناجياً بحياته ، فبعث خيران في أثره بعض أعوانه فقتلوه على مقربة من وادي آش ، وحملوا رأسه إلى خيران . وكان خيران والمنذر قد حقدوا عليه لما رأيا من حدته وصرامة نفسه ، وخشياً من غدره^(١) .

وسار خيران وللمندرفيمين بقى من أصحابهما ولحقهما بالمرية . وسار الإفرنج المرتزقة حلفاء المنذر إلى الشمال . قال ابن حيان « فحل هذه الواقعة على جماعة الأندلس مصيبة أنست ماقبلها ، ولم يجتمع لهم جمع بعد ، وأقروا بالإدبار ، وبأوا بالصغار » واستطاع أخ المرتضى ، وهو أبو بكر هشام بن محمد ، أن ينجو من الموقعة ، في بعض أصحابه إلى ألبونت ، حيث دعا لنفسه بالخلافة ، وأقام بها يرقب الحوادث (١) .

وتغفل معظم الروايات الإسلامية تاريخ هذه الموقعة ، ولكن الظاهر من سياق الحوادث ، وما ذكره صاحب البيان المغرب ، أن سير المرتضى من شرقي الأندلس صوب قرطبة ، كان في سنة ٤٠٩ هـ (٢) ، وأن الموقعة حدثت في أواسط هذا العام ، وفي خلافة القاسم بن حمود ، بعد مقتل أخيه على حسب ما يحى . وكان على بن حمود ، حينما ترامت إليه أنباء خروج المرتضى ومسيره لقتاله ، قد انقلب على أهل قرطبة خشية من غدرهم ، ولما آنسه من ميلهم إلى المرتضى ، وعاد فأطلق يد البربر ، واشتد على أهل قرطبة ، ونزع سلاحهم ، واعتقل كثيراً من أعيانهم ، وفي مقدمتهم وزيره أبو الحزم بن جهور ، وصادر أموالهم ، وهبت على القرطبيين ريح من الإرهاب والروع فلزموا السكينة حيناً (٣) . ولكن القدر كان يربص بعلي بن حمود ؛ ذلك أنه بينما كان يتأهب لقتال خصومه ، المحتجمين يومئذ في منطقة جيان حول راية المرتضى ، إذ ائتمر به نفر من فتيان القصر الصقلية من موالى بنى أمية ، وتسال ثلاثة منهم إليه وهو في الحمام وقتلوه ، وذلك في الثاني من ذى القعدة سنة ٤٠٨ هـ (٢٣ مارس سنة ١٠١٨ م) ، وكان سنه وقت مقتله خمس وخمسون سنة ، ولم يمكث في الخلافة سوى عام وتسعة أشهر .

فبعث زعماء زناتة إلى أخيه القاسم نبأ موته ، وكان يكبره ببضعة أعوام ، وكان يومئذ والياً لإشبيلية ، فحضر مسرعاً ، وبويع بالخلافة في الثامن من ذى القعدة ، أعنى لسته أيام من مقتل أخيه ، وتلقب بالمأمون ، وقبض على الفتيان

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٥ . وذكر ابن الخطيب وحده أن الموقعة حدثت بالفعل في سنة ٤٠٩ هـ (أعمال الأعلام ص ١٣١) .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩ .

الثلاثة الذين قتلوا أخاه وأعدمهم لوقته . وكان يحيى بن على ، ولد الخليفة القتيل والياً على سبته ، وولده الآخر إدريس والياً على مالقة ، فاختلف البربر في البداية على مسألة الخلافة ، ولكن أكثرهم انضم إلى جانب القاسم لأنه غلب أولاً ، وقدم عليه أخوه الأصغر .

وهكذا استتب الأمر للقاسم ، فعدل عن سياسة الشدة إلى سياسة اللين والمسألة ، وأحسن إلى الناس ونادى بالأمان وبراءة الذمة ممن تسور على أحد ، وأسقط كثيراً من المكوس . فهدأت الخواطر ، واطمأن الناس نوعاً ، وكانت حركة المرتضى قد وصلت خلال ذلك إلى ذروتها ، ووقعت الحرب بين جموع المرتضى وحليفه خيران والمنذر بن يحيى التجيبي ، وبين قوى صنهاجة على مقربة من غرناطة ، وانهزم أهل الأندلس وقتل المرتضى ، وبعث زاوى بن زيرى إلى القاسم بما وقع مع سهمه من الغنائم ، ومنها سراق المرتضى ، فسر القاسم لذلك ، وعرض سراق المرتضى على نهر قرطبة ليراه الناس^(١) . وعمد القاسم إلى استمالة خيران واستعطافه ، ولكنه بقي معتصماً بالمرية ، وأقطع زميله زهيراً العامري ولاية جيان وقلعة رباح ، محاولاً بذلك أن يعقد السلم مع الفتيان العامريين ، وأن يأمن خصومتهم وكيدهم .

واتخذ القاسم بطانة من السود ، وأسند إليهم مناصب الرياسة والقيادة ، ولكنه لم يتخلص من قبضة البربر وسيطرتهم عليه ، فضعف أمره وتكاثرت الصعاب من حوله . وكان ابن أخيه يحيى بن على والى سبته ، يقرب الفرصة للخروج عليه ، فاتفق مع أخيه إدريس والى مالقة ، على أن يتركها له ، لتكون قاعدة للعمل ، وأن يستقر إدريس مكانه في سبته . وأخذ يحيى يحشد أنصاره تبعاً في مالقة حتى اجتمع له جيش قوى . وفي أثناء ذلك كان عمه القاسم يشكو أمره إلى زعماء البربر ، ولكنهم عجزوا عن التوفيق بينهما ؛ وزحف يحيى في قواته على قرطبة ، وخشى القاسم العاقبة فأثر الانسحاب على الحرب ، وغادر قرطبة إلى إشبيلية في ٢٣ ربيع الثاني سنة ٤١٢ هـ (أغسطس سنة ١٠٢٢ م) ، وضبط البربر القصر حتى مقدم أخيه يحيى .

ودخل يحيى بن على بن حمود قرطبة بعد ذلك بأيام قلائل ، في مستهل جمادى

الأولى سنة ٤١٢ هـ . وبويع بالخلافة ، وتلقب بالمعتلى بالله ، وكان في الثانية والأربعين من عمره . واستقبل البربر والأندلسيون معاً رياسته بالاستبشار والرضى . وكان المعتلى فارساً بارعاً يتحلى بخلال الفروسية ، وبجانب العصبية ، ويؤثر العدل ، ويجزل العطاء لمن وفد عليه ، أومدحه بشعره ، فأحبه الناس ؛ وكان من وزرائه أبو العباس أحمد بن برد ، والكاتب محمد بن الفرضي ، ولكنه وقع مثل عمه القاسم تحت نفوذ البربر وإمرتهم ، فاستبدوا به ، وضيقوا عليه .

وكان القاسم بن حمود أثناء ذلك قد استقر في إشبيلية ، وتسمى بالخلافة ، وتلقب بالمستعلی ، وأخذ يرقب سير الحوادث . ومن الغريب أن القاسم وابن أخيه يحيى ، تهادنا وانفقا على أن يعترف كلاهما بصفة صاحبه . ويعلق الفيلسوف ابن حزم على ذلك بأنه لم يسمع بخليفتين تصالحا « وهو أمر ، لم يسمع في الدنيا بأشنع منه ، ولا أدل على إدارب الأمور » (١) .

على أن هذا الوضع الشاذ لم يدم طويلاً . ذلك أن البربر أعلنوا خلع يحيى المعتلى في الثاني عشر من ذى القعدة سنة ٤١٣ هـ ، ولم يكن قد مضى على خلافته سوى عام ونصف ، فبادر يحيى بمغادرة قرطبة إلى مالقة . وفي الحال تحرك عمه القاسم من إشبيلية تلبية لدعوة البربر ، ودخل قرطبة في الثامن عشر من ذى القعدة المذكور ، وجددت له البيعة وتسمى بأمر المؤمنين ،

ولكن القاسم لم يوفق في سياسته أيضاً في تلك المرة . ذلك أنه اصطفى البربر ، ومكنهم من أهل قرطبة ، فاشتدوا في معاملتهم ومطاردتهم ، وضاق أهل قرطبة في النهاية ذرعاً بتلك الحالة ، فثاروا بالبربر ، واستعدوا لقتالهم ، وأعلنوا خلع القاسم ، واستمرت المعارك حيناً حتى استطاع القرطبيون إرغام القاسم على مغادرة القصر ، وذلك في جمادى الثانية سنة ٤١٤ هـ (سبتمبر سنة ١٠٢٣ م) . فانقلب البربر إلى محاصرة المدينة بعد أن أغلق القرطبيون أبوابها . واستمر الحصار خمسين يوماً ، والمعارك في كل يوم تتجدد ، وأخيراً خرج القرطبيون واشتبكوا مع البربر في معركة كبيرة حاسمة ، وقاتلوا قتال اليائسين ، حتى هزموا البربر ومزقوا جموعهم ، وتفرقت بقايا البربر وانفضت عن القاسم ، فسار القاسم في نفر من صحبه إلى إشبيلية ، وكان بها إبنه محمد والحسن ، فأغلقت المدينة أبوابها دونه ،

(١) راجع نقت العروس ص ٨٠ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٣٢ و ١٣٣ .

وأخرج منها إبنائه ومن معهم من البربر ، وقام أعيان المدينة ، وعلى رأسهم قاضيا محمد بن إسماعيل بن عباد ، بضبط الأمور فيها ، وسار القاسم وصحبه إلى بلدة شريش^(١) . وفي تلك الأثناء كان يحيى المعتلى ، قد سار من مالقة إلى الجزيرة الخضراء ، وكانت بها أموال عمه القاسم وأسرت فاستولى عليها ، واستولى أخوه إدريس وإلى سبته ، على ثغر طنجة ، وكانت أيضاً من أعمال القاسم ، وكان يعدها ملجأ له وملاذاً يحمى به إذا ما ذهب سلطانه بقرطبة ؛ ولما انقلب القاسم في فلوله إلى شريش سار يحيى المعتلى لقتاله ، وحاصر شريش حتى سلمت ، وقبض على عمه وبنيه ، وحملهم في الأصفاد إلى مالقة ، وهناك أودعهم السجن ، وانفرد يحيى برياسة البربر ، وبسط سيادته على شريش ومالقة ، وسبته وطنجة من ثغور المغرب ، وبايعه البربر بالخلافة ، وسموه المعتلى بالله ، وبقي القاسم يرسف في صحبه ردحاً طويلاً من الزمن ، حتى قتل خنقاً في سنة ٤٣١ هـ ، وهو في نحو الثمانين من عمره^(٢) . وكان أهل قرطبة قد سئموا عندئذ حكم البربر وأشياءهم ، وأجمعوا على رد الأمر إلى بني أمية . وكان ثمة ثلاثة من المرشحين الذين اعتبروا أصلح من بقي من بني أمية لتولي الخلافة ، هم سليمان بن المرتضى ، ومحمد بن العراقي ، وعبد الرحمن ابن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله ، فقرّر القرطبيون أن يختاروا أحدهم بطريق الشورى ، وعقدت لذلك جلسة كبرى بالمسجد الجامع ، حضرها الوزراء والأكابر والخاصة والعامة . وحضر سليمان المرتضى ومحمد العراقي في البداية ، وكاد الاختيار يقع على أولهما ، وبدئ بالفعل في تحرير مرسوم البيعة ، لولا أن حضر عندئذ عبد الرحمن بن هشام في كبكة عظيمة ، ومن حوله طائفة كبيرة من الجند شاهرة السلاح ، فدخل المقصورة ، وعقدت له البيعة في الحال ، بين دهشة الحضور واضطرابهم . وذلك في السادس عشر من رمضان سنة ٤١٤ هـ (ديسمبر سنة ١٠٢٣ م) . ثم خرج من المسجد إلى القصر وقد اصطحب معه ابني عمه سليمان والعراقي ، فاعتقلهما لديه . ويصف لنا ابن حيان هذا الحفل الشهير ، وكان من شهوده ، بإفاضة ممتعة^(٣) .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٤ و ١٣٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٣ .

(٢) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥ و ١٤٤ ؛ والمراكشي ص ٢٩ .

(٣) راجع الذخيرة ، التكم الأول المجلد الأول ص ٣٥ و ٣٦ . ويقول لنا ابن حيان إن الحفل عقد في الرابع من رمضان ، والظاهر أن هناك تحريفاً ، لأنه يقول لنا بعد ذلك عند مقتل =

واتخذ عبد الرحمن لقب المستظهر بالله، وكان يوم جلوسه فتي في الثالثة والعشرين من عمره ، وندب لوزارة بعض القدامى من وزراء بني أمية السابقين مثل أحمد ابن برد ، وجماعة من الفتيان الطامحين الأتغار ، مثل أبي عامر بن شهيد ، وأبي محمد ابن حزم (وهو الفياسوف المستقبل) ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم ، وقد كانا على قول ابن حيان « من أكمل فتيان الزمان فهماً ومعرفة ، ونفاذاً في العلوم الرفيعة » . فقدمهم على سائر رجاله ، وأولاهم منتهى النفوذ والثقة ؛ ويورد لنا ابن حيان ثبت المناصب الوزارية والرئيسية يومئذ على النحو الآتي :

خدمة المدينتين ، الزهراء والزاهرة ، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة ، وخدمة الحشم ، وخدمة القطع بالناض والطعام ، وخدمة مواريث الخاصة ، وخدمة الطراز . وخدمة المباني ، وخدمة الأسلحة وما يجرى مجراها ، وخدمة الخزانة القبض والنفقة . وخدمة الوثائق ورفع كتب المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة . وخدمة الأنزال والنزائل ، وخدمة أحكام السوق .

ثم يعلق ابن حيان على ذلك بقوله : « وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل ، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل ، فلم يتحلوا منها بنائل ، ولا قبضوا منها مرتزقاً ، ولا نالوا بها مرتفقاً ، وغرهم بارق الطمع وسط بلد محصور ، وعمل معصوب ، وخراب مستول ، ومع سلطان فقير ، لا يقع بيده درهم إلا من صباية ، مستغل جوف المدينة ، أو نهب مغلول ممن تقلقل عنها ، يقيم منها رمة ، ويفرق جملته على من تكفه من جنده ودائرته ، ويتطرق إلى ما يقبح من ظلم رعيته ، فلم يلبث الأمر أن تفرى به فسفك دمه ، وانحسم الأمل من دولته » (١) .

تلك هي الصورة القوية التي يقدمها إلينا المؤرخ الأندلسي المعاصر عن بلاط المستظهر ، وظروف ولايته . والواقع أن هذا الخليفة الفتي كان يتمتع بخلال باهرة ، وكان ممكناً أن يكون معقد الآمال ، لو أتيح له من السلطان وحرية التصرف ما طاب ، ولكن الظروف عاجلته وغلبته على أمره ؛ وكان قد بدأ ولايته بأن أرسل إلى المدن والثغور يدعو إلى تأييد بيعته ، فلم تثمر دعوته أو لم يتسع

= المستظهر إن خلافته كانت سبعة وأربعين يوماً ، ومقتله في الثالث من ذي القعدة . وهو ما يرد تاريخ البيعة إلى السادس عشر من رمضان (راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥) .
(١) نقله في الذخيرة . القسم الأول المجلد الأول ص ٣٦ و ٣٧ .

الوقت لذلك ، وقبض على عدد من الوزراء والأكابر وصادر أموالهم ، وكان يرجو بإزالتهم تمكين نفوذه وسلطانه ، ثم قبض على عدد من أبناء عمه المروانية ، واعتقلهم بالقصر مع ابني عمه سليمان والعراقي ، وكانت هذه البوادر المكيدة تقضى على هيئته بسرعة ، وتذكى السخط عليه في صدور الخاصة والعامة معاً . ثم وقع حادث كان نذير الاضطرام . وذلك أنه استقبل عدة من الفرسان البربر فأكرم وفادتهم وأنزلهم بالقصر ، فغضب لذلك الكبراء ، وأوغروا صدور العامة قائلين لهم : إننا حاربنا البربر وقهرناهم ، وهذا الرجل يسعى في ردهم إلينا ، وتمكينهم من أمرنا . فهاجت العامة ، وزحفت جموعهم على القصر ، واقتحموه على غرة ، وقتلوا البربر حيث وجدوا ، وفتحوا المطبق وأخرجوا من كان به من المعتقلين ، ووثبوا إلى جناح الحرم ، وأدرك عبدالرحمن المستظهر أنه هالك ، فاختماً في أتون الحمام ، واعتدى الثوار على آل عبد الرحمن وحريمه ، وسبوا أكثرهن ، وكانت مناظر شنيعة مروعة (١) .

ولما اختفى المستظهر بالله ، ظهر ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الناصر ، وكان محتفياً خشية البطش به ، فأخذ إلى القصر ، وأجلس في مجلس الملك ، وبويع بالخلافة في اليوم الثالث من ذي القعدة سنة ٤١٤ هـ (١٧ يناير ١٠٢٤ م) ، وتلقب بالمستكفي بالله . وبحث عن المستظهر حتى عثر به في أتون الحمام في حالة مزرية ، فأخذ إلى حضرة الخليفة الجديد ، وأعدم أمامه ، وكانت إمارته مذولى حتى قتل سبعة وأربعين يوماً ، لم يحدث فيها حدث هام ، ولم يجاوز سلطانه مدينة قرطبة .

وكان عبد الرحمن المستظهر أديباً شاعراً من الطراز الأول ، وقد نوه ابن بسام بمواهبه الأدبية الرفيعة ، وأورد له طائفة من القصائد الحيدة (٢) . ومن شعره من قصيدة طويلة قالها في ذكر ابنة عمه أم الحكم بنت المستعين أيام خطبته لها :

حمامة بنت العبشميين رفرفت فطرت إليها من سراهم صقرا
تقل الثريا أن تكون لها يدا ويرجو الصباح أن يكون لها نحرا

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٨ و ٣٩ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٤٨ و ١٣٩ .

(٢) راجع الذخيرة . القسم الأول المجلد الأول ص ٤٠ - ٤٣ .

وإني لطعان إذا الخيل أقبلت جوانها حتى ترى جوانها شقرا
ومكرم ضيفي حين ينزل ساحتي وجاعل وفدى عند سائله وفرا
وكان المستكني يوم ولايته في الثانية والأربعين من عمره إذ كان مولده في
سنة ٣٦٦ هـ ، وأمه أم ولد تسمى حوراء . وكان عاطلا من الخلال الحسنة ،
ميالا إلى البطالة ، شغوفاً بالمجون والشراب ، عاجزاً سيئ الرأي ، وقد شبهه
ابن حزم ، في سوء خلاله ، وفي مجونه وفسقه ، وفي خضوعه لغانية خبيثة ،
بسميه المستكني العباسي ، وقد كان كلاهما في نفس السن ، وحكم كل منهما
نحو سنة وخمسة أشهر (١) .

ولم تقع خلال ولاية المستكني القصيرة ، أحداث ذات شأن ، وكان مما عمله
أن أمر بنحنيق ابن عمه محمد العراقي ، ونعاه للناس ، وندب لولاية عهده ابن عمه
سليمان بن هشام بن عبيد الله بن الناصر . وفي أيامه هدمت القصور الناصرية ،
وخربت قصور المنصور بالزاهرة ، فسادتها الوحشة والخراب .

واضطهد المستكني معظم الرجال البارزين من الساسة القدماء ، ومن المفكرين ،
وغادر كثير منهم قرطبة ، ولجأوا إلى بلاط يحيى بن حمود بمالقة ، وكان من
هؤلاء الوزير السابق والشاعر الاعم أبو عامر بن شهيد ؛ ووصف هؤلاء ليحيى
ابن حمود سوء الأحوال في قرطبة . ومع أن يحيى لم يكن متحمساً لفكرة السير
إلى قرطبة ، فإن الأنباء ترامت إلى القرطبيين بأنه يتخذ أهباته لاسترداد عاصمة
الخلافة ؛ وعلى أي حال فقد سئم القرطبيون ولاية المستكني العاطلة الماجة الفاسدة
ونادوا بخلعه . فدخل عليه الوزراء والكبراء ، وأغلظوا له في القول ، وطلبوا
إليه التخلي ، فاستعطفهم بلين القول ، ثم غادر قرطبة في نفس اليوم متنكراً في
زي امرأة . وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ
(مايو سنة ١٠٢٥ م) . وسار المستكني صوب الثغر في نفر من صحبه ، ووصل
إلى إقليج من أحواز قرطبة ، وهناك اغتاله بعض مرافقيه ، لاعتقادهم أنه يحمل
مالاً . وكان مقتله لسبعة عشر يوماً فقط من خلعه (٢) .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤١ ، وأعمال الأعلام ص ١٣٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٢ و ١٤٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٦ .

ومما هو جدير بالذكر أن محمد بن عبد الرحمن المستكني هو والد الأدبية والشاعرة الأندلسية
الكبيرة « ولادة » التي اشتهرت بروعة أدبها وشعرها ، والتي أوحى إلى الوزير الشاعر ابن زيدون =

ومضت بضعة أشهر ، والحكومة في قرطبة فوضى لا ضابط لها . وأخيراً قرر يحيى بن حمود أن يسير إلى العاصمة ، فقصده إليها في قواته ودخل القصر في الخامس عشر من رمضان من نفس العام (٩ نوفمبر سنة ١٠٢٥ م) ، وبقي بها إلى نهاية هذا العام ، ثم غادرها في أوائل المحرم سنة ٤١٧ هـ قاصداً إلى مالقة ، وترك بها وزيره أحمد بن موسى ، ودوناس بن أبي روح ، يدبران شئونها ، ومعهما حامية صغيرة من البربر ، بيد أنه لم يمض زهاء شهرين حتى تجهمت الحوادث كرة أخرى .

ذلك أن خيران وزهير الفتيين العامرين ، قصدا إلى قرطبة ، وأوعزا إلى القرطبيين بالتخلص من البربر ، فثار القرطبيون فجأة ، وفتكوا بالحامية البربرية ، وكانت زهاء ألف رجل ، وفر أحمد بن موسى وزميله دوناس إلى مالقة ، وكان ذلك في العشرين من ربيع الأول من سنة ٤١٧ هـ .

وأجمع القرطبيون على أن ذلك على رد الأمر لبني أمية ، وكان عميدهم في ذلك الوزير أبو الحزم جهـوّر بن محمد بن جهور ، واتفقوا على مبايعة هشام بن محمد ابن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ، أخى عبد الرحمن المرتضى . وكان عند مقتل أخيه في سنة ٤٠٩ هـ ، قد فر من قرطبة في نفر من صحبه ، ولجأ إلى مدينة ألبونت في شمال شرقي الأندلس ، واستظل من ذلك الحين بحماية واليها عبد الله بن قاسم الفهرى . وبعث إليه أهل قرطبة بالبيعة ، وهو بمقره بحضن ألبونت ، فتلقاها في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ ، وتلقب بالمعتد بالله ، وبقي بمقره بألبونت مدة سنتين وسبعة أشهر ، وهو يحطّبه له بقرطبة ، ثم قدم إليها في شهر ذى الحجة سنة ٤٢٠ هـ^(١) فجددت له البيعة ، واستمر في كرسي الخلافة عامين آخرين . وسر القرطبيون لمقدمه في البداية ، ولكنه ألقي زمام الأمور إلى رجل من الموالي يسمى حكم بن سعيد القزاز ، فاستأثر بكل سلطة ، وأطلقت يده في الأموال ، وكان أخرق عسوفاً ، فجمع حوله نفراً من السفهاء العاطلين عن كل إخلاص وحزم ، وأطلق العنان لغوايته وأهوائه ، فاضطربت الشئون وامتعض العقلاء ،

= المتيم بها طائفة من غرر قصائده . وقد لبثت ولادة عصره تخلب بجمالها وأدبها وشعرها ألباب المجتمع القرطبي الرفيع . وتوفيت في سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) (راجع الصلة لابن بشكوال رقم ١٥٤٠ ؛ وقلائد العقيان ص ٧٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٤٧ - ٤٤٩) .

(١) جنوة المقتبس ص ٢٦ و ٢٧ .

وزعماء البيوتات الكبيرة ، وشعروا بما نالهم على يده من ضروب الإهانة والنيل ، وأحاط هذا الوزير المستبد الماكن الخليفة برجاله ، وأبعد عنه الصحب وذوى الحجي ، ودفعه بالرغم من شيخوخته ، إلى تيار الشراب والمجون ، حتى ساءت الأمور إلى الذروة ، وفقدت الخلافة والحكومة ، كل عطف وهيبة ، وتهامس الناس في وجوب إزالة هذه الحالة ، والتخلص من أوزارها وعواقبها . والتفت جماعة الناقمين حول فتى من أبناء عمومة هشام ، هو أمية بن عبد الرحمن العراقي ، من أحفاد الناصر ، وكان فتى شديد التهور والجهالة ، ولكن بعيد الأطماع ؛ وفي ذات يوم تربصت تلك الجماعة الناقمة بالوزير حكيم بن سعيد وفتكت به ، وطافت برأسه في المدينة ، وتركوا جثته في الغراء (ذو القعدة سنة ٤٢٢ هـ - نوفمبر سنة ١٠٣١ م) . ثم سار أمية في جموعه إلى القصر ، والخليفة هشام عاكف على شرابه ونسائه ، فهبت العامة بعض أجنحة القصر ، ولولا أن زجرهم الوزير الشيخ ابن جهور ونصحهم بالكف عنه ، لما أبقوا على شيء . وخشى هشام المعتد على نفسه ، فبادر إلى الخروج من القصر مع ولده ونسائه ، وهو يناشد الجماعة أن يحقنوا دمه ، ولجأ إلى سباط الخامع واجتمع رأى الناس جميعاً كباراً وصغاراً على خاعه ، والتخلص حملة من بني أمية ، وإبطال رسم الخلافة ، وعلى نفي بني أمية وإجلالهم جميعاً عن المدينة ، وكان رائد الجماعة وناصحهم في ذلك أبو الحزم ابن جهور ، وكان هذا الوزير النابه يستأثر نظراً لماضيه التالد ، وأسرته العريقة ، ورأيه الناضج ، بحجة الشعب وثقته وتأييده ، وسرى فيما بعد أى دور خطير يلعبه ابن جهور في مصائر قرطبة .

وانتهى القوم إلى خلع هشام المعتد ، وإبعاده وأهله إلى أحد الحصون القريبة ، ثم غادره بعد أيام قلائل ، وسار إلى الثغر ، حيث التجأ إلى سليمان بن هود صاحب لاردة من أعمال الثغر الأعلى ، وقضى هنالك بقية أيامه حتى توفي في سنة ٤٢٨ هـ دون عقب ؛ وأبعد أمية بن عبد الرحمن عن القصر ، وكان يهيجس بتولى كرسى الخلافة مكان المعتد ، فلما رأى وعيد القوم ، اختفى وغادر قرطبة إلى حيث لا يعلم أحد . ونودى في سائر أحياء قرطبة وأرباضها بأن لا يبقى بها أحد من بني أمية ، ولا يأويهم أحد ، وتولى ابن جهور تنفيذ هذا الأمر بمنتهى الحزم . حتى أجلاهم عن المدينة ومحا رسومهم (١) .

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٥ - ١٥٢ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٨ - ١٤٠ .

وبخلع هشام المعتد ، تنتهى رسوم الدعوة الأموية بصورة نهائية ، وينقطع ذكرها إلى الأبد من منابر الأندلس والمغرب الأقصى .

• • •

ولنعد الآن قليلاً إلى الوراء لنتتبع مصاير دولة بنى حود فى جنوبى الأندلس ، وقد رأينا أن يحيى بن على بن حود الملقب بيحيى المعتلى ، بعد أن خلع عمه القاسم من الخلافة ، وأرغم على مغادرة قرطبة فى سنة ٤١٤ هـ ، سار إلى بلدة شريش ، فسار يحيى فى أثره ، وما زال به حتى هزمه وقبض عليه ، ثم قتل فى سجنه فيما بعد ، واستولى يحيى على سائر ما كان بيده من البلاد والثغور ، وانفرد برياسة البربر فى الأندلس . ثم عاد فدخل قرطبة مرة أخرى على أثر خلع المستكنى فى سنة ٤١٦ هـ . ولكنه غادرها بعد ذلك إلى مالقة ، التى غدت من ذلك الحين معقله وعاصمة ملكه ، فى أوائل سنة ٤١٧ هـ ، واستمر بها مدى حين .

وكان يحيى المعتلى يحنى بالأخص على مملكته الفنية ، من مطامع القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد ، الذى استقل برياسة إشبيلية ، حسباً تقدم . فسار بقواته إلى قرمونة حصن إشبيلية من الشمال الشرقى ، وانزعاها من يد حاكمها محمد ابن عبد الله البرزالى كبير بنى برزال ، واستقر بها يرقب الفرصة للوثوب بابن عباد وتحطيمه ، فسار البرزالى إلى ابن عباد وتحالف معه على قتال يحيى . وكان يحيى قد استسلم إلى لوه وملاذه ، وعكف على معاقرة الشراب والجون المستمر ، وجنوده تغير على إشبيلية من آن لآخر . ورأى القاضى ابن عباد أن يدحض دعوى المعتلى فى الخلافة أولاً ، فأظهر فى أواخر سنة ٤٢٦ هـ شخصاً زعم أنه هشام المؤيد ، وأنه كان مختفياً ولم يمت ، وبايعه بالخلافة ، ودعا الناس إلى الدخول فى طاعته . ثم سير ابن عباد إلى قرمونة بعض قواته مع ابنه إسماعيل ، ومعها طائفة من قوات البربر المتحالفة معه ، فطوقت المدينة ليلاً ، وكمن معظمها فى أماكن مستورة ، ووقف يحيى على الخبر فخرج فى قواته وهو ثمل ، واشتبك مع الهاجمين فى معركة حامية وكاد يوقع بهم الهزيمة ، أولاً أن ظهرت قوات ابن عباد من كمينها ، وأطبقت عليه ، فانهزم أصحابه ، وقتل فى المعركة واحتز رأسه ، وحمل سريعاً إلى ابن عباد فى إشبيلية (المحرم سنة ٤٢٧ هـ — نوفمبر سنة ١٠٣٥ م) ، واستمر فلك جند ابن عباد بالبربر أمام أسوار قرمونة ، ولم يقف إلا حينما تدخل محمد بن عبد الله

البرزالى ، وقد ساءه هذا الفتك الذريع بقومه ، فكف ابن عباد مرغماً ، ودخل البرزالى قرمونة ، واستولى على ما فيها من مال ومتاع ، وسبى نساء يحيى وجواريه (١) .

ولما قتل يحيى المعتلى على هذا النحو ، سارع وزيراه أبو الفوز نجا الصقلبي ، وأبو جعفر أحمد بن موسى بن بقتة البربرى ، باستدعاء أخيه إدريس لتولى الملك مكانه ، وكان واليا لسبته . وكان ليحيى ولدان حدثان هما إدريس وحسن ؛ وفى رواية أنه كان قد أوصى بولاية عهده أولده حسن ، ولكن حداثة سنه حالت دون ولايته . وهكذا بوبع إدريس بالخلافة فى مالقة ، قاعدة المملكة الحمودية وتلقب بالمتأيد بالله ، وعين ابن أخيه حسناً لحكم سبته وأعمالها ، وندب لمعاونته الحاجب نجا ، واختارت بولايته رندة والحزيرة ، وكان من حلفائه المعترفين ببيعته الفتى زهير العادري صاحب أمرية ، وجبوس بن ماكسن زعيم صنهاجة وصاحب غرناطة ؛ وقد سارا فى قواتهما لمعاونة إدريس على محاربة ابن عباد ، وانضم إليهما البرزالى صاحب قرمونة . وفى شهر ذى القعدة سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) سارت القوات المتحالفة إلى أحواز إشبيلية وعاثت فيها ، واحتلوا قرية طشانة ، ثم احتلوا «القلعة» ، الواقعة شرق إشبيلية ، وأحرقوا طر يانة الواقعة فى جنوبها ، ثم احتلوا حصن القصر ، وانصرف زهير بعد ذلك إلى أمرية .

وفى العام التالى توفى جبوس بن ماكسن ، وخلفه فى حكم غرناطة ولده باديس ، وبعث باديس وأخوه بلقّين إلى زهير يطلبان تجديد التحالف الذى كان بينه وبين أبيهما ، ولكن زهير أسار فى قواته إلى غرناطة ، والتقى بباديس وأخيه فى قرية من أحواز غرناطة تسمى «ألفنت» (٢) . والظاهر أنه وقع بين الفريقين نوع من سوء التفاهم ، واعتبر باديس أن زهيراً توغل فى أرضه بقواته أكثر مما يجب ؛ أو أن باديس وأخاه بلقّين ، قد وضعوا خطة للغدر بزهير . وعلى أى حال فقد عمل باديس على قطع طريق الرجعة على زهير ، ووضع له الكمائن فى المضائق . ووقع القتال بين زهير والبربر ، فهزم زهير وقتل ، ولم يعثر على جثته ، واحتوى باديس على معسكره ، واستولى على غنائم هائلة من الخيل والسلاح والمتاع ، وقبض باديس على كاتب

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٠ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٧ .

(٢) وهى بالإسبانية Daifontes ، وهى تقع على قيد نحو خمسة كيلومترات من شمالي غرناطة .

زهير أحمد بن عباس ثم قتله بعد ذلك . وحدثت هذه الواقعة في أواخر سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) (١) .

وكان القاضي ابن عباد ، المتغلب على إشبيلية ، بعد قتل منافسه يحيى المعتلى قد خلا له الجو ، واشتد بأسه ، وأخذ يطمح إلى التغلب على ما يجاور إشبيلية من المدن والمقاطعات . فبدأ بأن سير ولده إسماعيل في جيش زحف على قرمونة حصن إشبيلية ، من الشمال الشرقى ، وكان بها محمد بن عبد الله البرزالي ، فاستولى عليها ، واستولى كذلك على إستجة الواقعة في شرقها . فاستغاث البرزالي بإدريس المتأيد ، وباديس أمير غرناطة ، وهرعت الجند البربر من مالقة وغرناطة استجابة لدعوته . ونشبت بين البربر وبين جند ابن عباد الأندلسيين وقائع عديدة ، انتهت بهزيمة الأندلسيين ومقتل إسماعيل بن عباد ، وذلك في أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م) (٢) .

ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى توفي إدريس المتأيد في قلعة ببشر ، وكان قد نقل إليها مريضاً من مالقة . وكانت وفاته في السادس عشر من محرم سنة ٤٣١ هـ .

وعلى أثر وفاته بويغ ولده يحيى بالخلافة في مالقة ، وذلك بترتيب وزيره أبي جعفر ابن بقتة وسعيه . وتلقب يحيى بالقاسم بأمر الله ، وكان فتي حداثاً قليل الخبرة والحزم ، ولكن ابن بقتة سارع برفعه إلى العرش استبقاء لسلطانه الذى تأثل في ظل أبيه . بيد أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة . ذلك أن نجما الحاجب الصقلي ، وكان يومئذ بسبته ، لم يرعه هذا الاختيار ، فبادر بالدعوة إلى حسن بن يحيى المعتلى (ابن أخى إدريس) . وكان إدريس قد اختاره لولاية عهده ، وكان وقت وفاة عمه حاكماً لسبته والثغور المغربية ، فبويغ حسن بالخلافة ، وجهاز الحاجب جيشاً ، وسار بقواته مع حسن في أسطول يمم شطر مالقة ، ونزلت القوات إلى البر ، وحاصرت مالقة من البر والبحر ، ولم تمض أسابيع قلائل حتى اضطر يحيى إلى التسليم والتنازل عن الخلافة ، ثم سار إلى قارش ، وأقام بها .

(١) راجع في تفصيل هذه الحوادث : البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٠ و ١٩١ و ٢٩٣ ، والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٢٦٩ و ٥٢٧ و ٥٢٨ .
(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٩ .

وبويح حسن بن يحيى بالخلافة فى مالقة فى جمادى الثانية سنة ٤٣١ هـ ، وتلقب بالمستنصر بالله ، واعترفت بطاعته غرناطة وغيرها ، وعهد بتدبير الأمور إلى الوزير أبى جعفر بن بقنة ، وعهد إلى الحاجب نجا بحكم الثغور المغربية . وكان حسن أميراً حازماً ، قوى النفس ، فنظم الإدارة ، واستكثر من الجند ، وجبى الأموال . واستراب بوزيره أبى جعفر ، وكان يسرله نصرته ليحيى ، فدير مقتله ، وذلك فى يوم عيد الفطر سنة ٤٣٣ هـ (١) ، ثم أمر بقتل يحيى القاسم ، فقتل فى ربيع الثانى سنة ٤٣٤ هـ . وكانت أخته زوجة للمستنصر ، فما لبثت أن دبرت مقتله انتقاماً لأخيها ، وهلك حسن بالسهم فى جمادى الأولى سنة ٤٣٤ هـ (ديسمبر سنة ١٠٤٢ م) .

والروايات بعد ذلك متضاربة ، فمنها ما يقول بأن الحسن لم يعقب ذرية (٢) ومنها ما يقول إنه ترك ولداً صغيراً بسبته . وعلى أى فقد نهض الحاجب نجا على أثر وفاة المستنصر ، وعبر البحر فى قواته من سبته إلى الجزيرة ، وهنا يقال إنه نهض ليؤيد دعوة ولد الخليفة المتوفى ، ويقال من جهة أخرى إنه نهض ليستخلص تراث الحموديين لنفسه ، بعد أن اضطربت شئونهم . وسار نجا إلى الجزيرة وفيها ابنا القاسم بن حمود ، فخرجت إليه أمهما سبيعة ، وعنفته على مسلكه وعدم ولائه لسادته ، فاستحى منها ، وغادر الجزيرة ميمماً شطر مالقة . وكان معظم جنده من قبيلة برغواطة البربرية ، أخوال حسن بن يحيى ، فاستراؤوا منه ومن مقاصده واثمروا به ، وقتلوه فى الطريق . ثم ساروا إلى مالقة ، وكان حسن بن يحيى أيام خلافته قد قبض على أخيه إدريس ، وزجه إلى السجن ليأمن منافسته . فأخرجته الجند من سجنه وبويح بالخلافة . وتلقب بالعالى ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٤٣٤ هـ (يناير سنة ١٠٤٣ م) ، وأطاعته البربر فى غرناطة وقرمونة وجيان وغيرها . وهو المدوح بالقصيدة المشهورة ، التى نظمها عبد الرحمن بن مئانا القبدائى الأشبونى فى مدحجه ومطلعها :

البرقى لائح من أندرين ذرفت عيناك بالماء المعين
لعبت أسيافه عارية كخاريق بأيدي اللاعبين

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٠ ؛ والمراكشى ص ٢٦ .

(٢) المراكشى ص ٢٧ .

والصوت الرعد زجر وحنين وبقلبي زفرات وأنين
وأناجى فى الدجى عاذلتى وبك لا أسمع قول العاذلين^(١)
ومنها :

غيرتنى بسقام وضنى إن هذين لدين العاشقين
قد بدا لى وضح الصبح المبين فاسقنيها قبل تكبير الأذنين
إسقنيها مرة مشمولة لبثت فى دنها بضع سنين
مع فتیان كرام نجب يتهادون رياحين المحجون^(٢)
وكان العالى أميراً رقيق الخلال ، جواداً كثير الصلوات ، أديباً ينظم الشعر ،
ومع ذلك فقد كان يجمع حوله بطانة سيئة ، وصحابة من أراذل القوم . وكان ضعيف
الرأى ، متهاوناً فى شئون الحكم ، فسرى التفكك إلى سلطانه ، وفى أواخر
سنة ٥٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) ، ثار عليه ابن عمه محمد بن إدريس بن على بن حمود ،
فخرج إدريس فى صحبه من مالقة إلى حصن ببشتر ، وعاونوه باديس بن حبوس
أمير غرناطة بجنده ليسترد سلطانه . فغزا مالقة ولكنه لم يفز بطائل ، فارتد مع
أهله وصحبه إلى سبتة .

وبويع محمد بن إدريس فى شعبان سنة ٥٤٣٨ هـ . وتلقب بالمهدى ، وتوطد
أمره بمالقة ؛ ولكن بعض النواحي نكلت عن تأييده ، ولا سيما غرناطة ؛ وكان
أميرها باديس من أشد معارضيه ، وكان يشعر أنه أحق من غيره بزعامه البربر ؛
وأبدى المهدى عزمًا فى تنظيم الحكومة وإصلاح الأمور ، ولكنه كان طاغية
سفاكاً للدماء يسرف فى قتل مواطنيه البربر ، حتى كرهه معظمهم ، واجتمع
رأى معارضيه من الزعماء وعلى رأسهم باديس على وجوب خلعه ، والاعتراف
بطاعة محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء ، واتفق رأى البعض
الآخر ومنهم أبونور بن أبى قررة اليفرى صاحب رندة ، على الاعتراف بطاعة
إدريس بن يحيى العالى . وهكذا ادعى الخلافة ثلاثة من أمراء بنى حمود فى وقت
واحد ، وفى مناطق صغيرة متقاربة ، وهذا إلى الخليفة المزعوم الذى أقامه
ابن عباد صاحب إشبيلية باسم هشام المؤيد ؛ ويستعرض الفيلسوف ابن حزم هذه
الحالة وهو معاصر لها فى مرارة وتهكم ، ويصفها بأنها « فضيحة لم يقع فى العالم

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها فى نفع الطيب ج ١ ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .

إلى يومنا مثلها: أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها ، كلهم يتسمى بأمر المؤمنين ، ويخطب لهم في زمن واحد» (١) .

واستمر محمد بن إدريس المهدي في كرسي الخلافة زهاء ستة أعوام . ولما لم يرضه وسيلة للتغلب عليه ، لجأوا إلى الغيلة ، فدسوا عليه من قتله بالسهم ، وذلك في أواخر سنة ٤٤٤ هـ (أوائل سنة ١٠٥٣ م) .

فبويع من بعده ولد أخيه وهو إدريس بن يحيى بن إدريس بن علي بن حمود ، وتلقب بالسامي ، وأقام حيناً بمالقة ، ثم أصابته فيما يظهر لوثة ، فغادر مالقة ، وهام على وجهه في صفة تاجر ، وغادر البحر إلى شاطئ العدو ، فأخذ إلى سبتة ، حيث قتله حاكمها سواجات البرغواطي (٢) .

وكان إدريس بن يحيى العالى ، قد لجأ على أثر خلعها إلى سبتة ، فأقام بها في كنف سواجات ، وأقام كذلك حيناً في رندة ، في كنف حاكمها أبي نور بن أنى قرة ، فلما هلك السامي ، سار إلى مالقة واستقبله أهلها بحماسة ، ودعى له بالخلافة مرة أخرى ، واستمر في الحكم حتى توفي سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) بعد أن عهد بالخلافة لابنه محمد .

فخلفه ولده محمد ، وتلقب بالمستعلي ، وأقرت بيعته ألمرية ورندة ، ولكن معظم الزعماء البربر ، وفي مقدمتهم باديس صاحب غرناطة نكلوا عن طاعته . وفي سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، سار باديس في قواته إلى مالقة ، واستولى عليها وضمها إلى إمارته ، وغادرها المستعلي ، وسار إلى ألمرية ، ثم عبر منها البحر إلى مليلة فقبله أهلها حاكماً عليهم ، واستمر بها حتى توفي سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) والمستعلي هو آخر من حكم في مالقة من أمراء بني حمود .

وفي أثناء ذلك كان رأى الزعماء البربر ، وفي مقدمتهم باديس صاحب غرناطة وإسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة ، ومحمد بن نوح صاحب مورور ، وعبدون بن خزرون صاحب أركش ، قد اجتمع على البيعة لبني محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء . وكان يحيى المعتلى حينما خلع

(١) ابن حزم في رسالته «نقط العروس» ص ٨٣ . وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٧

و ٢٤٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤١ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤٢ .

عنه القاسم بن حمود، قد قبض على ولديه محمد وحسن، واعتقلهما بالجزيرة، فلما توفي يحيى، أفرج عنهما. وتولى محمد حكم الجزيرة، وذلك في الوقت الذى قامت فيه دولة المهدي في مالقة. ثم حاول محمد أن ينتزع الخلافة لنفسه، فسار في أنصاره إلى مالقة محاول انتزاعها من يد المهدي، ولكنه أخفق في محاولته، فارتد إلى الجزيرة، وتوفي بها في سنة ٤٤٠ هـ.

فخلفه محمد ولده وحكم الجزيرة فترة قصيرة؛ ثم خلفه ولده القاسم، وتلقب بالواثق، وكانت خلافته هزيلة ضيقة الرقعة والموارد، ولم يتح لها من البقاء سوى فترة يسيرة. ذلك أن ابن عباد صاحب إشبيلية اعزم أن يقضى على خلافة الحموديين بصفة نهائية، فبعث قواته إلى الجزيرة الخضراء فطوقها من البر والبحر واضطر القاسم سراعاً إلى التسليم، وغادر الجزيرة بالأمان مع أهله وصحبه (٤٤٦ هـ - ١٠٥٥ م) وسار إلى ألمرية حيث التجأ إلى حماية صاحبها المعتمد ابن صمادح، ولبت لها حتى توفي سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م).

وفي نفس الوقت كان باديس أمير غرناطة قد استولى على مالقة من يد المستعلى (٤٤٩ هـ)، وانهار بها سلطان الحموديين، وهكذا انقرضت دولة بني حمود من مالقة والجزيرة معاً، وانتهى بذلك سلطانهم بالأندلس بعد أن حكموا المثلث الإسباني الجنوبي، وثور العدة الشمالية، زهاء نصف قرن^(١).

* * *

وهكذا انحدرت إسبانيا المسلمة، في النصف الأول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) عقب انهيار دعائم الخلافة الأموية والدولة العامرية، إلى معترك مروع من التمزق والفوضى، واستحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة موحدة، تمتد من ضفاف دوبرة شمالاً إلى مضيق جبل طارق جنوباً، ومن شاطئ البحر المتوسط منذ طركونة شرقاً حتى شاطئ المحيط الأطلنطي غرباً، إلى أشلاء ممزقة، ورقاق متناثرة، ولايات ومدن متباعدة متخاصمة، يسيطر على كل منها حاكم سابق استطاع أن يحافظ على سلطته المحلية خلال الانهيار،

(١) راجع في تفاصيل الحوادث المتقدمة، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٨ و ٢٩١ و ٢٩٢؛

وابن خلدون ج ٤ ص ١٥٤ و ١٥٥؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٩٦ و ٩٧؛ والمراكشي ص ٣٧ - ٣٩، وأعمال الأعلام ص ١٤٢ و ١٤٣. وراجع بحثاً بالإسبانية للأستاذ المستشرق الفرناطى سيكودى لوثينا

عن دولة بني حمود عنوانه: *Los Hammudies, Senores de Málaga y Algeciras*, p. 47-53

أو متغلب من الفتيان الصقالبة أو القادة ذوى السلطان السابق ، أو زعيم أسرة محلى من ذوى الجاه والعصبية . وسيطر البربر من جانبهم على أراضي المثلث الإسباني الجنوبي ، وما كان منه بيد الدولة الحمودية ، وأنشأوا هنالك إمارات عدة ، ما لبثت أن نزلت إلى ميدان الصراع العام ، الذى شمل هذه المنطقة . وهكذا قامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى دول عديدة هي دول « الطوائف » ، وذلك منذ أوائل الربع الأول من القرن الخامس ، حتى الفتح المرابطى ، زهاء سبعين عاماً ، قضتها جميعاً فى سلسلة لا نهاية لها من المنازعات الصغيرة ، والخصومات والحروب الأهلية الانتحارية ، وكادت بتنايذا وتفرقها ومنافساتها ، تمهد لسقوط الأندلس النهائى . وقد كان من رحمة القدر ، أن اسبانيا النصرانية ، كانت فى نفس الوقت الذى انتشرت فيه وحدة الأندلس على هذا النحو الخطر ، تعاني من انقسام الكلمة ، وتعصف بها رياح الخلاف والتفرق ، فلم تتح لها فرصة للوثوب بالأندلس الممزقة ، إلى أن كان الوقت الذى بلغ فيه تنايذ الطوائف ذروته ، واشتد ساعد اسبانيا النصرانية كرة أخرى ، واستطاعت أن تضرب ضربتها القوية بانتزاع طليطلة ، أول قاعدة إسلامية كبيرة (١٠٨٥ هـ - ١٠٨٥ م) ؛ وعندئذ تطورت الحوادث بسرعة واتجهت الأندلس الجريح ، فى توجسها وانزعاجها ، إلى إخوانها المسلمين فيما وراء البحر ، بعدوة المغرب ، تستدعيهم لنصرتها . وكان أن تدفقت الحيوش المرابطية من المغرب على شبه الجزيرة الإسبانية ، وكان أن أنقذت دولة الإسلام فى الأندلس .

الكتاب الخامس

النظم الإدارية والحركة الفكرية
في عصرى الإمارة والخلافة

الفضل الأول

نظم الحكم

والأوضاع السياسية والإدارية والعسكرية والاقتصادية

في عصرى الإمارة والخلافة

- ١ -

تعاقبت خلال هذه الفترة الطويلة التى سردناها من تاريخ الأندلس ، على الأمة الأندلسية ، أنواع من نظم الحكم ، ومن الأوضاع السياسية والإدارية ، كانت تسير طوراً بعد طور مع مختلف الحوادث ، والحروب والانقلابات المتوالية . وبالرغم من أنه لم يفتنا أن نشير فى مختلف المواطن إلى تلك التغييرات المتوالية ، التى شهدتها الأمة الأندلسية ، فإنه يجدر بنا أن نتحدث عنها حديثاً خاصاً ، وأن نقدم منها إلى القارئ صورة مجمعة ممتسكة .

كانت الأندلس عقب الفتح ولاية تتبع إفريقية ، ويقوم باختيار حاكمها والى إفريقية . وقد استمر هذا الوضع نحو ثمانية أعوام فقط ، تعاقب فيها على ولاية الأندلس ثلاثة من الولاة هم عبد العزيز بن موسى ، وأيوب بن حبيب اللخمى ، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفى . غير أنه كان من الواضح أن هذا النظام لم يكن يلائم قطراً ضخماً كالقطر الأندلسى ، وخصوصاً بعد ما بدأت الغزوات الإسلامية لغاليس (جنوب فرنسا) ، وبدأت الأندلس تخوض الصراع مع مملكة الفرنج فيما وراء البرنيه ، ومع نصارى الشمال . ومن ثم فقد رأت خلافة دمشق أن تكون الأندلس ولاية مستقلة تتبع الخلافة مباشرة ، ويقوم الخليفة بتعيين واليها . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز هو الذى أصدر هذا القرار شعوراً منه بأهمية الأندلس السياسية والعسكرية والاجتماعية .

وكان أول ولاية الأندلس من قبل الخلافة ، هو السمح بن مالك الخولانى ، وقد ندبه عمر بن عبد العزيز لولايتها فى سنة مائة من الهجرة (٧١٩م) . بيد أنه

لما توفي عمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ) عاد الأمر في تعيين ولاية الأندلس إلى ولاية إفريقية ، ولكن بمصادقة الخليفة . وكان الوالى عادة هو قائد الجيش العام ، وإليه يرجع أمر الغزو في الشمال . ولما وقعت نكبة بلاط الشهداء في سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) ، أخذت الخلافة مرة أخرى بيدها تعيين والى الأندلس ، واختار الخليفة هشام بن عبد الملك لولايتها عبد الملك بن قطن . واستمر الأمر بعد ذلك حيناً يرجع إلى والى إفريقية ، وأحياناً إلى اختيار الجماعة ، أعني جماعة الزعماء والقادة في شبه الجزيرة ، وكان ذلك يحدث بالأخص حين تضطرب الأمور ، ويقع الخلاف بين مختلف القبائل والزعامات . ولما اضطربت الفتنة بين الشاميين والبلديين ، وأخذ الفريقان يتبادلان الرياسة ، ضعف أمر السلطة المركزية ، ولم تهدأ الأمور حتى عين أبو الخطار الكلبي والياً للأندلس (١٢٥ هـ) . ولكن أبا الخطار كان يمينياً فقال إلى اليمينية ، واضطربت الفتنة بين اليمينية والمضرية ، ولما تفاقم الأمر ، وخشى الزعماء عاقبة الفتنة والحرب الأهلية ، اتفقوا على تعيين يوسف بن عبد الرحمن الفهرى من المضرية للولاية ، وذلك دون موافقة أو مصادقة لامن والى إفريقية ، ولا من الخلافة ، وكان ذلك في سنة ١٢٩ هـ (٧٤٧ م) . واستمر يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والياً للأندلس زهاء عشرة أعوام ، وهو يزاول سلطة شبه مطلقة . وقد استطاع بعزمه وحزمه ، أن يعيد إلى الأندلس نوعاً من الاستقرار والسكينة . ولكن القدر كان يدخر للأندلس مصيراً آخر ، في ظل سلطة أخرى ، لم تكن تخطر ليوسف أو غيره من الزعماء المتطلعين إلى الرياسة . وذلك أن عبد الرحمن الأموى عبر إلى الأندلس في ربيع الآخر سنة ١٣٨ هـ (سبتمبر سنة ٧٥٥ م) ، وهرع في الحال إلى لوائه جمع من الصحب والأنصار ، ووقع الحدث الحسم في موقعة المسارة في العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (١٣ مايو سنة ٧٥٦ م) فهزم يوسف الفهرى وصحبه ، وأنتهت رياسته للسلطة ، وكتب النصر لسلي بن أمية ، فبويع عبد الرحمن الأموى في الحال بالإمارة ، وبعثت من ذلك التاريخ دولة بني أمية بالأندلس ، بعد أن سقطت بالمشرق قبل ذلك ببضعة أعوام .

ومن ذلك التاريخ تقوم الدولة الأموية في الأندلس ، وتستقر قواعدها تبعاً ، بعد معارك طويلة متعددة ، بينها وبين الزعامات المحلية والعناصر الثائرة . وقد

بقيت الدولة الأموية عسراً تنشح يشوب الإمارة ، وذلك وفقاً لما قرره مؤسسها عبد الرحمن الداخل . وبالرغم من أن بلاط قرطبة ، بلغ في عصر أمراء مثل الحكم ابن هشام ، وولده عبد الرحمن ، مبلغاً عظيماً من القوة والهاء ، وأضحى ينافس بلاط بني العباس في الأخذ بزعامة الإسلام ، فإن أمراء بني أمية لبثوا على مبدئهم من الاكتفاء بلقب الإمارة ، إلى أن كان عهد عبد الرحمن الثالث (الناصر) فعندئذ تغيرت أوضاع الغرب الإسلامي بتيام الخلافة الفاطمية في الضفة الأخرى من البحر ، على مقربة من الأندلس . وكان هذا الحدث الخطير في ذاته أول حافز للناصر على اتخاذ سمة الخلافة ، وصدر مرسومه بذلك في اليوم الثاني من شهر ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ (يناير ٩٢٩ م) وبذا تحولت الدولة الأموية من إمارة إلى خلافة ، وكان عبد الرحمن الناصر أول من تلقب من أمراءها «بأمير المؤمنين» .

وقد تميزت الخلافة الأموية بعدة خصائص ، أولها الاعتماد في توطيد سلطانها على الموالى والصقالبة ، وهي سياسة بدأت في عهد الإمارة منذ عبد الرحمن الداخل ، ووصلت إلى ذروتها في عهد الناصر ، وذلك حسبما فصلنا في موضعه ، وثانيها الاسترابة بالقبائل والزعامات العربية ، والعمل المستمر على إخضاعها ، والقضاء على سلطانها ونفوذها ، وذلك لما لقيه بنو أمية منذ البداية من معارضة هذه القبائل والزعامات ، وانتفاضها المتوالى ، وثوراتها المتعددة ، وثالثاً عطفها الواضح على أهل الذمة وهم النصارى واليهود ، وكفالة حرياتهم الدينية والاجتماعية ، وهذه السياسة أيضاً ترجع إلى عصر الإمارة ، حيث أنشئ منذ عهد الحكم بن هشام أو قبله بقرطبة ، منصب خاص لإدارة شئون أهل الذمة يعرف صاحبه «بالقومس» ، وقد كان للنصارى المعاهدين ، فوق ذلك قاض خاص ، وقد يكون أستمفهم في نفس الوقت ؛ وعين بعد ذلك للنصارى مطران خاص ، مركزه بمدينة إشبيلية . وقد استمر هذا التسامح نحو النصارى المعاهدين عسوراً ، وذلك بالرغم مما كانوا يدبرونه في بعض الأحيان ضد الحكومة المسلمة من الدسائس والمؤامرات ويعقدون من الصلات المريبة مع نصارى الشمال .

وبلغت الخلافة الأموية بالأندلس ذروة قوتها ونفوذها السياسى والأدبى في عهد الناصر وولده الحكم المستنصر . بيد أنه بوفاة المستنصر (٣٦٦ - ٩٧٦ م) وولاية ولده الحدث الضعيف هشام المؤيد ، تبدو طلائع ذلك الانقلاب الحاسم

الذى كان يدخره القدر لمصير الخلافة الأموية . ذلك أن محمد بن أبي عامر ، الذى أخذ يبزغ نجمه منذ أواخر أيام الحكم ، ما كاد يلى منصب الوزارة ، حتى أخذ يستجمع أزمة السلطة فى يده تباعاً ، ويحطم كل معارضة لسلطانه ، وانتهى الأمر بأن فرض ابن أبي عامر نفسه حاكماً مطلقاً للأندلس ، وأنشأ مدينة الزاهرة ، لتكون له قاعدة جديدة للحكم ، واتخذ سمة الملك ، وتسمى بالحاجب المنصور (٣٧١ هـ - ٩٨١ م) ، وبالرغم من أنه لم يتعرض بشئ للخلافة الأموية أورسومها ، فإن الخلافة لم تكن فى ظل حكمه سوى شيخ باهت ، واسم بلا مسمى . وهكذا قامت الدولة العامرية واستمرت فى ظل المنصور . ثم ولده عبد الملك المظفر ، فأخيه عبد الرحمن زهاء ثلاثين عاماً ، ثم انتهت بمصرع عبد الرحمن المنصور فى رجب سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) .

وهنا استعادت الخلافة الأموية سلطانها بتمام محمد بن هشام الملقب بالمهدي ، وتربعه فى كرسى الخلافة مكان الخليفة هشام المؤيد ، وانتهى بذلك عهد السطة الثنائية ، سلطة الخلافة الأموية الإسمية ، وسلطة بنى عامر الفعلية ، ولكن عودة الخلافة الأموية على هذا النحو لم يكن سوى بداية مأساة مروعة ، استمرت زهاء أربعين عاماً ، اضطربت الأندلس فيها بالفتن المدمرة ، وغدت الخلافة الإسمية ، والسلطة الفعلية ، غنماً متداولاً بين بنى أمية ، والفتيان العامرين ، والبربر ، وبين حمود ، وانتحل بنو حمود ألقاب الخلافة ، وقامت فى وقت واحد بالأندلس أكثر من خلافة فى قرطبة ، ومالقة ، وإشبيلية ، وغدت قرطبة والأندلس كلها مسرحاً لمعارك وحروب أهلية متوالية ، ودمرت خلال ذلك مدينة الزهراء الخلافة ، وعدة من أحياء قرطبة ، وسادت الفوضى كل جنات ، الأندلس ، واستمرت هذه المحنة زهاء أربعين عاماً ، ثم تمخضت فى النهاية عن مأساة جديدة . وهى تمزق الأندلس إلى ولايات ومدن عديدة مستقلة ، يحكم كل منها زعيم أو أمير مستقل ، وبدأ بذلك عهد الطوائف .

تلك خلاصة وجيزة للأوضاع النظامية ، وأنواع الحكم المتوالية ، التى عاشت فى ظلها الأمة الأندلسية زهاء ثلاثة قرون منذ فتح الأندلس فى سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) حتى قيام دول الطوائف ، فى الربع الثانى من القرن الرابع الهجرى .

الحجابه والوزارة

كانت حكومة الأندلس فى عصر الولاة ، هيئة إدارية محلية قوامها الحاكم (الوالى) وقادة الجيش . ولم تكن ثمة مناصب وزارية بالمعنى المعروف ، إذ لم يكن الوالى سوى رئيس مؤقت لإدارة الإقليم ، وقد كان الوالى فى معظم الأحيان هو قائد الجيش العام . ولم تظهر المناصب الوزارية إلا فى بداية عصر الإمارة منذ قامت الدولة الأموية بالأندلس ، على يد مؤسسها عبد الرحمن الداخل . وقد اقتبس الداخل لنظام حكمه ، من أنظمة الحكومة الأموية بالشرق ، وأنشأ منصب الحجابه ، ولكنه لم ينشئ مناصب الوزارة ، بل اكتفى بتعيين نفر من أخلص أنصاره كمعاونين ومستشارين ، يعاونونه فى القيام بأعباء الحكم ، ويبدون له النصيح فى مهام الأمور . وعين للجيش أيضاً قائده العام . بيد أنه كان يقود الجيش بنفسه فى مواطن كثيرة . وقد امتازت حكومة الداخل بالاعتماد على الموالى والاستراية بالعرب ، لما لقيه الداخل من خصومتهم ومناوأتهم . وقد غدت هذه الظاهرة فيما بعد ، ظاهرة الاستراية بالعرب ، من مميزات الحكومة الأموية بالأندلس ، سواء فى عهد الإمارة أو عهد الخلافة ، واتخذت أسطح مظاهرها فى عهد عبد الرحمن الناصر .

واتجهت الحكومة الأموية ، إلى جانب الاعتماد على الموالى ، إلى اصطناع الصقالبة ، واتخذ هذا الاتجاه طابعه القوى منذ عهد الحكم بن هشام ، وظهر الصقالبة لأول مرة بكثرة فى البلاط الأموى ، واحتلوا معظم مناصب القصر والخاص . غير أن الاعتماد على الصقالبة لم يمنع قيام الحجابه والوزارات القوية . فكان منصب الحجابه فى الواقع هو أهم المناصب التنفيذية ، وكان يليه فى معظم الأحيان رجال من الطراز الأول ، أحياناً من رجال السيف ، مثل عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث وعبد العزيز بن أبى عبدة حاجبا الحكم ، وأحياناً من رجال القلم مثل عيسى بن شهيد حاجب عبد الرحمن بن الحكم ، والحاجب جعفر المصحفى ، حاجب الحكم المستنصر ، وأحياناً يجمع الحاجب بين السيف والقلم مثل الحاجب عبد الكريم ، وهاشم بن عبد العزيز حاجب الأمير محمد بن عبد الرحمن .

وكان يعاون الحاجب، وهو بمثابة رئيس الوزارة، عدة من الوزراء، يتولون مختلف المناصب الوزارية. وقد بلغت الوزارة في ظل الحكومة الأموية الأندلسية شأواً بعيداً، وتعاقب في ولايتها جمهرة من أعظم الرجال، والمعهم خللاً، وكانت تضم عدة من أخطر مناصب الدولة، مثل منصب كبير الخالص. وكان يشغله على الأغلب فتان الصقالبة. وخطة الخيل. وخطة الكتابة أو الكتابة العليا، وكان يتولاها وزير من الكتاب الناهين. وخطة صاحب المدينة أو حاكم قرطبة، وصاحب المدينة بالزهراء، وكائناً من أهم المناصب الوزارية. وخطة المظالم، وكانت قبل عهد الناصر خطة مفردة تتضمن العرض والمظالم، ولكنها في عهد الناصر، قسمت إلى خطتين (٣٢٥هـ)، وجعل العرض خطة مستقلة بذاتها، وكذلك المظالم أضحت خطة مستقلة، وكان أول من ولها مستقلة محمد بن قلعس بن طلمس، وكان يتولى المظالم وزير، وقد ولها قبله أيام الناصر جماعة من الوزراء الناهين مثل أحمد بن حدير، وعبد الملك بن جهور. وخطة الشئون المالية. وخطة الشرطة، وكانت من أهم المناصب الإدارية المتعلقة بضبط النظام والأمن، وكانت قبل عهد الناصر تنقسم إلى مرتبتين: الشرطة العليا، والشرطة الصغرى، ولكنها منذ سنة ٣١٧هـ في عهد الناصر لدين الله، قسمت بحسب أهميتها إلى ثلاث مراتب: الشرطة العليا، والشرطة الوسطى، والشرطة الصغرى؛ وقد رتب رزق الشرطة الوسطى، وسطاً بين رزق العليا والصغرى، وكان أول من تقلدها سعيد بن سعيد بن حدير. وخطة القضاء، وتتبعها خطة الموارد، وكذلك خطة السوق أو الحسبة. وخطة الشورى، وكانت من الخطط العارضة، ومن المناصب ذات النفوذ العلمى والأدبى قبل كل شىء، وتسند عادة إلى من يعتبر في وقته عميد العلماء وشيوخهم، وكان أشهر من ولها رجال مثل بقى بن مخلد. وفي أيام المنصور بن أبى عامر، كان ثمة ديوان يسمى ديوان الندماء، كان يلحق به كل أديب وشاعر ممن يؤثرهم الأمير بصحبته ومجالسته. وفي أواخر الدولة العامرية، غلب الصقالبة في تولى الخطط الكبرى من حجابة ووزارة، وبدأ ذلك بنوع خاص في عهد عبد الملك المنصور. ولما انهارت الدولة العامرية استمرت هذه الظاهرة حيناً، وتولى أولئك الفتيان الحجابة للخلفاء الأخيرين من ببى أمية، وغلبوهم على أمرهم، ثم استبدوا فيما

بعد ، عند انهيار الدولة ، برياسة طائفة من المدن والولايات ، وكان من هؤلاء أمراء للطوائف ، مثل مجاهد العامري صاحب دانية ، وخيران العامري صاحب ألمرية . وظهرت في الدولة العامرية بدعة أخرى ، هي إسناد منصب الحجابة إلى الأطفال . فقد استصدر عبد الملك المنصور من الخليفة المحجور هشام المؤيد ، مرسوماً بتعيين ولده الطفل محمد في منصب الحجابة ، ولقب بذي الوزارتين ، وعين عبد الرحمن المنصور ولده الطفل عبد العزيز في منصب الحجابة ، وأسبغ عليه لقب سيف الدولة . وكانت هذه المهازل وأمثالها دليلاً على تصدع ذلك الصرح الإداري المحكم الذي شاده الأمراء والخلفاء من بني أمية ، خلال قرنين من الجهود المتوالية . وفي أيام الخليفة المستظهر العابرة (رمضان — ذو القعدة ٥٤١ هـ) استحدثت بالوزارة عدة خطط جديدة مثل : خطة خدمة المدينتين الزهراء والزاهرة ، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة ، وخدمة الحشم ، وخدمة موارد الخاصة ، وخدمة الطراز ، وخدمة المعالي ، وخدمة الأسلحة ، وخدمة الخزانة ، وخدمة الوثائق ، ورفع كتب المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة ، وخدمة أحكام السوق ، وهي خطط يصفها ابن حيان بأنها عبث وزخرف من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل .

الجيش ، نظامه وتكوينه

كان أول جيش إسلامي عبر إلى شبه الجزيرة لفتح الأندلس ، مكوناً من العرب والبربر ، وكان قائد الجيش الفاتح ، طارق بن زياد ، فيما يرجح بربرياً من قبيلة نفزة . وقد لعب البربر منذ البداية في تكوين قوى الأندلس الغازية والدفاعية أعظم دور ، وكان تدفقهم من الضفة الأخرى من البحر — من المغرب على شبه الجزيرة أسرع وأغزر من تدفق المتطوعة العرب ، وكانوا يؤلفون الكثرة في جيش الغزو . ولما نظم عبد الرحمن الغافقي جيشه الضخم لغزو بلاد الفرنج ، كان البربر من عناصره المختارة الغالبة ، وكانت القيادة دائماً بيد الضباط العرب ، وكان الخلاف الذي اضطرم منذ بداية الفتح بين العرب والبربر ، يعمل عمله المقوض بين صفوف الجيش ، وقد بدأ تكوين الجيوش الغازية المضخمة ، منذ عهد السموح بن مالك الحولاني وإلى الأندلس ، وكان أعظم هذه

الجيش الضخم الذى حشده عبدالرحمن الغافقى لغزو مملكة الفرنج . وبالرغم من أن البربر كان لهم فى إنجاح معظم الغزوات الشمالية أثر فعال ، فإنهم كانوا أيضاً فى بعض الأحيان عنصراً خطراً على سلامة الجيش ، لما كان يسودهم فى بعض الأحيان من البغض وعدم التعاون لقادتهم العرب . وكان أسطع مثل لذلك الخلاف المدمر ، ما حدث فى موقعة بلاط الشهداء (١١٤ هـ - ٧٣٢ م) من تحاذل البربر وتحلفهم عن القتال أمام الفرنج ، وإرغامهم هيئة الجيش على الانسحاب بعد مقتل قائده البطل عبد الرحمن الغافقى . ولما قامت ثورة البربر فى المغرب ، وهزم العرب فى منطقة طنجة ، وعبرت فلول الجيش المهزم وهم من الشاميين بقيادة بلج بن بشر القشبرى إلى الأندلس ، وذلك بدعوة الوالى ابن قطن ، ليستعين بهم على مغالبة البربر فى الأندلس ، رجحت كفة العناصر العربية فى الجيش مدى حين . ولكن جيش الأندلس ما لبث أن انقسم إلى قسمين ، معسكر الشاميين وهم أنصار بلج ، ومعسكر العرب والبربر المحليين . ولبت الحرب الأهلية اضطرم حيناً ، حتى قام يوسف بن عبد الرحمن الفهري فاستقر فى ولاية الأندلس ، وقام بإصلاح الجيش وتنظيمه ، ليعود كما كان جيشاً أندلسياً ، يضطلع بالغزو ورد هجمات نصارى الشمال .

وعنى عبد الرحمن الداخل بتنظيم الجيش أشد عناية ، وحشد له المتطوعة والمرزقة من سائر الطوائف . وبلغت قواته يومئذ نحو مائة ألف مقاتل . وهذا عدا الحرس الخاص ، الذى يتكون من الموالى والبربر والرقيقى ، وقد بلغت قواته نحو أربعين ألفاً . ووضع عبد الرحمن الداخل أيضاً نواة الأسطول الأندلسى بما أنشأ من قواعد لبناء السفن فى بعض الثغور النهرية والبحرية . ولكن بداية قيام الأسطول الأندلسى الفعلية ترجع إلى ما بعد ذلك بنحو نصف قرن ، حينما فاجأ النورمانيون الأندلس بغزو الثغور الغربية ، ثم بغزو إشبيلية ، والفلك بأهلها . وكان ذلك فى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٣ م) فى عهد عبد الرحمن بن الحكم ، فعندئذ أدركت الحكومة الأندلسية وجوب العناية بأمر الأسطول والتحصينات البحرية وبدئ بإنشاء السفن الحربية . وكانت أكبر دور الصناعة لإنشاء السفن فى مياه الوادى الكبير تجاه إشبيلية . ومن ذلك الحين يقوم الأسطول الأندلسى بدوره فى شئون

الغزو والدفاع ، وقد بلغت وحداته في عهد عبد الرحمن الناصر زهاء مائتي سفينة .

ومما تجدر ملاحظته أن الجيش الأندلسي ، قد تلقى خلال عهد الفتنة الكبرى التي شملت سائر نواحي الأندلس ، ولاسيما المنطقة الجنوبية ، واستمرت تضطرم زهاء ستين عاما ، منذ عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ) كثيراً من الدربة والتجارب المريرة في معاركه المستمرة مع جيوش الثوار ، وأضحى في أواخر هذه الحقبة في عهد عبد الرحمن الناصر ، من حيث العدد والكفاية قوة لها خطرها . وقد بذل الناصر جهوداً عظيمة لإصلاح الجيش وتقويته ، ومنه بالأسلحة والعتاد الوفير . وعنى في الوقت نفسه بأمر الأسطول ، فأنشأ له وحدات جديدة ، وجعل مركزه الرئيسي ثغر ألمرية ، وأنشأ بها أعظم دار للصناعة ، وبلغ الأسطول الأندلسي في عهد الناصر ، حسبما تقدم ، زهاء مائتي سفينة مختلفة الأنواع والأحجام ، وهذا عدا أسطول آخر خصص لشئون المغرب البحرية ، وكان الأسطول الأندلسي يومئذ من أقوى الأساطيل ، وكان يسيطر على مياه إسبانيا الشرقية والجنوبية .

وفي عهد المنصور بن أبي عامر ، بلغ الجيش الأندلسي المرباط ذروة القوة والضخامة ، وقد رأى المنصور أن يعتمد بالأخص في تكوين الجيش على حشود البربر ، فاستقدمهم من العدو ، وبذل لهم الأغطية السخية ، وكذلك حشد في جيشه كثيراً من المرتزقة النصارى ، ومعظمهم من المستعربين رعايا الحكومة الأندلسية ، واستطاع المنصور ، بما بذله من جهود عنيفة متوالية ، ومن أموال وفيرة ، أن ينشئ للأندلس قوة عسكرية هائلة لم تعرفها الأندلس في أى عصر سابق ، أو لاحق . وقد نقلت إلينا الرواية بعض أرقام عن الجيش الأندلسي المرباط في عهد المنصور ، من ذلك أن الفرسان بلغ عددهم إثني عشر ألف ومائة فارس من سائر الطبقات ، تصرف لهم النفقة والسلاح والعلافة ، وبلغ عدد الرجالة (المشاة) في الجيش المرباط ستة وعشرين ألف مقاتل . وكان عدد الجيش المرباط ، يتضاعف وقت الصوائف مراراً بما ينضم إليه من صفوف المتطوعة ، وقد بلغ عدد الفرسان في بعض الصوائف ، ستة وأربعين ألفاً ، وكان عدد المشاة يتضاعف أيضاً ، وقد يعدو المائة ألف أو تزيد .

الموارد الاقتصادية

وصنوف الجـباية

لما افتتح المسلمون الأندلس ، كان الشعب الإسباني المغلوب ، ما يزال يعيش فى ظل بقايا النظم الرومانية ، التى اتخذها القوط أساساً لتشريعاتهم ونظمهم الإدارية . وكان عبء الضرائب يقع معظمه على طبقات الشعب الدنيا ، ولا يكاد يقع شئ منه على عاتق الأشراف ورجال الدين ، ومن إليهم من الطبقات الممتازة . فلما افتتح المسلمون شبه الجزيرة ، فرضت الضرائب على قاعدة المساواة دون تمييز بين طبقة وأخرى ، وفرضت الجزية على من لم يعتنق الإسلام من أبناء الشعب المغلوب . وفى خلال الحقبة الأولى ، التى تميزت باستمرار الغزوات الإسلامية ، وما تقتضيه من حشد الجيوش المستمرة ، لم تكن موارد القطر المفتوح قد حققت كلها واستغلت . وقد كان من الواضح منذ البداية أن القطر المفتوح قطر زراعى قبل كل شئ . وكان خراج الأرض الزراعية ، والجزية ، وأخماس الغنائم ، هى المصادر الرئيسية للدخل ، وقد ازدهرت الزراعة بالأخص عقب الفتح لما حدث من توزيع أفضل للأرض ، وتحسين أحوال العاملين فيها . وكان يوسف الفهرى آخر الولاة ، أول من عدل نظام الضرائب القديم ، ففرض على كل ولاية ، أن تقدم ثلث الدخل ، ورفع الجزية عن توفوا من النصارى ، وقسم الأندلس من الناحية الإدارية إلى خمس ولايات حسبما أسلفنا ذلك فى موضعه . وكانت حكومة قرطبة الإسلامية تسيطر على أخصب وأغنى وديان شبه الجزيرة الإسبانية ، وكان أهم المحاصيل الزراعية هى القمح والزيتون والفاكهة وغابات الأشجار الخشبية ، وما تزال هذه المحاصيل إلى اليوم هى أهم موارد اسبانيا الزراعية . وكذا كان تربية الماشية مورداً من أهم موارد الدخل القومى . ولما استقرت الأمور ، واستطاع الفاتحون أن يضعوا أيديهم على موارد البلاد وثرواتها الطبيعية ، وأن يستغلوها بمقدرة وذكاء ، لم تبق الزراعة هى المورد الوحيد ، وإن لبثت دائماً هى المورد الرئيسى . ذلك أن شبه الجزيرة الإسبانية ، تضم ثروات متنوعة من المعادن ، كانت تستغل منذ أيام الرومان ، فكان يستخرج

بها الفضة والرصاص والحديد والذهب والزئبق ، والقصدير من أنحاء مختلفة ، في الشمال والجنوب ، فكانت الفضة والنحاس تستخرج في الشمال ، وفي جهة قرطبة ، وكورة تدمير ، وكان الزئبق يستخرج من جبال البرانس ، والقصدير بجهة أكشونة من ولاية الغرب ، وكان البللور يستخرج في منطقة لورقة ، والرخام من جبل قرطبة وباجة ومن جبال سيرا مورينا . وكانت تقوم إلى جانب الزراعة صناعات هامة ، مثل صناعة النسيج والملابس والأثاث والفخار والزجاج والورق^(١) ، وكانت التجارة تزدهر في نفس الوقت داخل شبه الجزيرة ، وخلال موانئها الشرقية والجنوبية ولاسيما مالقة وألمرية ، وتجي الدولة من المكوس التجارية ، سواء على التجارة الداخلية أو الخارجية أو على السفن الصادرة والواردة بمقادير عظيمة . ولم تأت أوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، في عصر عبد الرحمن ابن الحكم ، حتى كانت إسبانيا المسلمة ، قد بلغت مبلغاً عظيماً من الرخاء ، وتضاعفت مواردها من الدخل القومي ، وبلغت حصيلة الحباية من المكوس وحدها زهاء ألف ألف دينار في السنة ، وبلغت في عهد عبد الرحمن الناصر من الكور وانقرى خمسة آلاف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار . وبلغت من المستخلص (وهي الأملاك السلطانية) سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، وقد ذكرنا فيما تقدم ، في موضعه ، أن الناصر خلف عند وفاته في بيت المال عشرين مليوناً من الذهب ، هذا عدا ما أنفقه من الأموال الطائلة في مختلف الغزوات ، وفي مختلف المنشآت الباذخة التي أقامها ، وفي مقدمتها مدينة الزهراء الملوكية ، وهي مما يدل على ضخامة الموارد المالية للأندلس في عصر الخلافة . وفي أيام المنصور بن أبي عامر ، في أواخر عصر الخلافة ، حققت موارد الدخل زيادة عظيمة ، ووصل محصل الحباية وحده إلى أربعة آلاف ألف دينار (أربعة ملايين) ، سوى رسوم الموارث وسوى مال السبي والغنائم ، واستمرت هذه الزيادة في عهد ولده عبد الملك . ثم كان انهيار الدولة العامية ، وانهايار الخلافة الأموية ، واضطرام الفتنة في كل مكان ، فتحطمت موارد الدخل ، وكسدت التجارة والصناعة ، وغاضت أسباب الرخاء .

(١) راجع كتاب الأستاذ ليثي برودنسال : *L'Espagne Musulmane aux xème Siècle* ;

p. 176, 183 & 184 ، وكذلك نفح الطيب ج ١ ص ٧٨ و ٩٣ .

الفضل الثاني

الحركة الفكرية الأندلسية

في عصرى الإمارة والخلافة

- ١ -

لبثت الأندلس عقب الفتح ، رديحاً من الزمن ، بعيدة عن أن تكون مهداً لنشوء الحركة الفكرية . ذلك أنه خلال عصر الولاية ، لم تكن الأمور قد استقرت بعد ، ولم تترك مشاغل الغزو ، والخلافات الحزبية ، والانقلابات المتوالية في الرياسة ، كبير مجال لاتجاه الأذهان إلى التفكير والأدب ، ومن ثم فلما لا نجد في هذا العصر كتاباً أو شعراً أو مفكرين ذوي خطر ، وإن كنا نجد بعض الآثار الشعرية القليلة ، التي ترد على ألسنة بعض الولاة أو الزعماء .

ويمكننا أن نرجع الحركة الفكرية الأندلسية ، إلى عصر عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ هـ . ذلك أن هذا الأمير القوي اللامع ، منشئ الدولة الأموية بالأندلس ، كان أول شخصية بارزة ظهرت في ميدان التفكير والأدب والشعر ، ويمكن أن نعتبره بحق رائد النهضة الأدبية النثرية والشعرية ، التي تفتحت فيما بعد ، وازدهرت في عهد خلفائه ، ولنا فيما أوردناه من نماذج قليلة ، من نثره ، ومن نظمه ، ما يدل على براعته وتفوقه في هذا الميدان .

ومن بين أمراء بني أمية بالأندلس ، كان الرواد الأوائل في الحديث والفقه ، فقد كان الداخل ، فوق براعته الأدبية عالماً بالشريعة ، وكان ولده هشام بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) مبرزاً في الحديث والفقه . وفي عصر هذا الأمير ظهرت طلائع النهضة الأولى في ميدان التفكير والأدب ، وكان يغلب على هذه النهضة في البداية ، الطابع الديني قبل كل شيء ، وكان قد رحل في عصر الداخل جماعة من فقهاء الأندلس إلى المشرق ، ودرسوا بالمدينة على الإمام مالك وغيره من أقطاب المشرق ، واستقوا من علم مالك واجتهاده ، ونقلوا عنه كتابه (الموطأ) ، وكان في مقدمة هؤلاء فقهاء مبرزون ، مثل زياد بن عبد الرحمن ،

وعيسى بن دينار ، ويحيى بن يحيى الليثي ، وكان زياد بن عبد الرحمن عميد فقهاء الأندلس في وقته ، وكان الأمير هشام بن عبد الرحمن يوقره ويحله لعلمه وورعه وزهده ، وتوفي في سنة ٢٠٤ هـ^(١) . وكذا كان عيسى بن دينار ، وأصله من طليطلة ، وسكن قرطبة ، عالماً راسخاً ، وكان أستاذ الفتيا في وقته لا يتقدمه فيها أحد ، وكان ممن اتجهت إليهم الريبة في ثورة الربض فهرب واستخفى حيناً ، ثم عفا عنه الأمير الحكم وأمنه ، فعاد إلى قرطبة وتوفي سنة ٢١٢ هـ^(٢) . وأما يحيى بن يحيى الليثي فقد رحل كزميله إلى المشرق ، وسمع من مالك ، والليث ابن سعد ، وعبد الله بن وهب وغيرهم ، وعاد إلى الأندلس ليشغل بين فقهاءها مركز الصدارة ، وكان ذهنًا حرًا يعتز بحريته واستقلاله ، فلم يل قضاءً ، ورفض كل دعوة إلى توليه ، وتوفي في سنة ٢٣٤ هـ^(٣) . وعلى يد أولئك الفقهاء والرواد ، ذاع مذهب مالك بالأندلس منذ عصر هشام . وكان هشام نفسه كثير الإجلال لمالك ومذهبه ، فزاد ذلك في ذبوع المذهب ، وفي تمكين مكانته بالأندلس . وكان هذا بداية لنفوذ الفقهاء في شئون الدولة ، وهو نفوذ اشتد فيما بعد ، وكان له أثر عميق في تحريك القوى المعارضة ، التي انتهت باضطرام ثورة الربض ضد الحكم بن هشام ، في سنة ٢٠٢ هـ (٨١٨ م) ، وذلك حسبما أوضحنا في موضعه . وفي عصر الحكم بالذات ، تتخذ الحركة الفكرية طابعاً أوسع أفقاً ، وتظهر طوال النزعة الأدبية إلى جانب العلوم الدينية ، ويظهر الأدباء والشعراء إلى جانب الفقهاء والمحدثين . وكان في مقدمة من ظهوروا في تلك الفترة عبد الملك ابن حبيب بن سليمان السلمي ، وأصله من البيرة وسكن قرطبة ، ثم رحل إلى المشرق وسمع الكثير من علمائه . ولما عاد إلى الأندلس عمل مشاوراً مع يحيى ابن يحيى ، وسعيد بن حسان ، وكان حافظاً للفقهاء على مذهب المدنيين ، بيد أنه كان إلى جانب الفقه ، بارعاً في النحو والعروض والشعر ، حافظاً للأخبار والأنساب والأشعار ، متصرفاً في عدة فنون . وكتب عدة مؤلفات في الفقه والتاريخ منها « الواضحة » و « الجوامع » وكتاب في « فضائل الصحابة » ، وكتاب في « غريب الحديث » ، وكتاب « حروب الإسلام » ، وكتاب « طبقات

(١) راجع علماء الأندلس لابن الفرضي (مصر) رقم ٤٥٨ .

(٢) راجع علماء الأندلس رقم ٩٧٥ .

(٣) جذوة المقتبس للحميدي (مصر) رقم ٩٠٨ .

الفقهاء والتابعين» و «مصاييح الهدى» وغيرها ، وكان محمد بن عمر بن لُبابة يقول فيه : عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس ، ويحيى بن يحيى عاقلها ، وعيسى ابن دينار فقيها . وتوفى عبد الملك بن حبيب في سنة ٢٣٨ هـ (١) .

وفي عصر الحكم بن هشام تتخذ الحركة الفكرية ، التي غلب عليها الطابع الديني ، حتى ذلك الوقت ، طابعاً أدبياً واضحاً ، ويبدأ ظهور الكتاب والشعراء المبرزين ، وكان الحكم نفسه في مقدمة شعراء عصره وأدبائه ، وكان له نظم بارع أوردنا فيما تقدم طرفاً منه . ومن شعراء هذا العصر ، عباس بن ناصح الخزيري المصمودي ، وهو من أهل الجزيرة ، وقد رحل إلى مصر والحجاز والعراق ، وتلقى على علمائها ، ودرس الفقه ، ولقى الأصمعي وغيره ببغداد ، ثم عاد إلى الأندلس ، ومدح الأمير الحكم فندبه لقضاء الجزيرة ، وكان بارعاً في اللغة وشاعراً جزلاً ، يسلك في شعره مسلك العرب القديمة ، وكان له أيضاً حظ من الفقه (٢) . وكان ولده عبد الوهاب بن عباس بن ناصح أيضاً ، فقيهاً وشاعراً محسناً (٣) ، وكان من الكتاب والشعراء أيضاً حاجب الحكم وقائده عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث ، ومؤمن بن سعيد . وكان مؤثماً شاعراً مبرزاً كثير الشعر . وكان حاد النكتة والنادرة ، ومن شعره قوله :

حرمته ما عدا نظراً مضراً بقلب بين أضلاعي مقسيم
فعيني منك في جنات عدن مخلدة وقلبي في الجحيم (٤)

وبلغ الشعر في عصر الحكم ذروته ، على يد شاعرين كبيرين ، هما العلامة عباس بن فرناس ويحيى الغزال الحياتي . وكان أولهما عالماً بالفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية والموسيقى . وقد أشرنا فيما تقدم إلى مخترعاته العلمية ، وإلى محاولته اختراع طريقة لطيران الإنسان . وكان ثانيهما كذلك عالماً بالفلسفة والفلك ، وقد عاش كلاهما طويلاً بعد عصر الحكم ، وفيما أوردناه فيما تقدم من شعرهما دليل على براعتهما في هذا الميدان .

(١) راجع ابن الفرضي ، علماء الأندلس ، رقم ٨١٦ .

(٢) راجع ابن القرضي رقم ٨٨١ .

(٣) ابن الفرضي رقم ٨٨١ .

(٤) راجع جذوة المقتبس للحميدى رقم ٨٢٦ ، وقضاة قرطبة للخشي (مصر)

وفى عصر عبد الرحمن بن الحكم ، بلغت الحركة الفكرية الأندلسية الأولى ذروتها ، ففي ميدان الكتابة احتشد في بلاط الحكم عدة من أكابر الكتاب المبرزين ، وفي مقدمتهم الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، ومحمد ابن سليمان الزجالي ، وفي ميدان العلوم الدينية ظهر في عهد عبد الرحمن ، جمهرة من أكابر الفقهاء ، مثل محمد بن يوسف بن مطروح ، ومحمد بن حارث ، وعبد الأعلى بن وهب ، وبقى بن مخلد ، ومحمد بن وضاح ، وغيرهم ، وكان عميد هذه الجمهرة من الفقهاء بقى بن مخلد ، وهو من أهل قرطبة ، ودرس على علماء الأندلس وإفريقية ، وورع في الحديث والرواية ، وبمكتنا أن نعتبه رائد علم الحديث في الأندلس . وقد أنكر عليه بعض خصومه ما أدخله من كتب الاختلاف وغريب الحديث بالأندلس ، ووشوا به للأمير محمد بن عبد الرحمن . وقد أشرنا فيما تقدم إلى ما كان من مناظرته لخصومه ، وإلزامهم الحجة ، وإلى ما حباه به الأمير من عطفه وحمايته ، وقد كان ذلك من أسباب انتشار الحديث بالأندلس . ولبقى بن مخلد عدة مؤلفات فقهية . وله تفسير للقرآن ومسند للنبي ، وينوه العلامة ابن حزم في رسالته بعلم بقى وأهمية كتبه ، ويقول لنا إن تفسيره للقرآن لم يؤلف في الإسلام مثله^(١) . وسمع على بقى جمهرة من فقهاء الأندلس ، وكان ورعاً زاهداً ، وتوفي سنة ٢٧٦ هـ^(٢) .

وكان من أعلام الفقهاء في هذا العصر ، محمد بن عبد السلام الحشني وهو من أهل قرطبة ، ورحل إلى المشرق وسمع ، في البصرة وبغداد ومصر ، وكان فصيحاً جزل البيان ، بارعاً في اللغة ، ورواية الحديث ، وكان أنوفاً منقبضاً عن السلطان ، وقد رفض أن يتولى القضاء الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وتوفي في سنة ٢٨٦ هـ^(٣) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يتمتع به الأمير عبد الرحمن بن الحكم من المواهب الأدبية والشعرية ، وأوردنا فيما تقدم طرفاً من شعره . وكان من ألع شعراء عصره ، صديقه وشاعره عبد الله بن الشمر بن نخير ، وهو من أهل وشقة ، وكان

(١) راجع رسالة ابن حزم عن علماء الأندلس في فتح الطيب ج ٢ ص ١٣١ .

(٢) راجع ابن الفرضي رقم ٢٨٣ .

(٣) ترجمته في ابن الفرضي رقم ١١٣٤ . وهو غير محمد بن حارث الحشني صاحب « قضاة

قرطبة » المتوفى سنة ٣٦١ هـ

عالماً متمكناً وشاعراً محسناً . وله شعر جيد كثير وقد أخذ الناس من شعره^(١) . وكان من أبرز الظواهر الأدبية في هذا العصر ، انتشار اللغة العربية وآدابها بين طائفة المستعربين أو النصارى المعاهدين ، ونبوغ الكثير منهم فيها ، وبلوغهم مرتبة البراعة في كتابتها ، ويمكننا أن نذكر من كتابهم المبرزين في هذا العصر ، الأسقف جومث بن أنتنيان ، قومس أهل النمة ، وكان أديباً بارعاً ، وكاتباً مقتدرآ ، ومن كتاب الأمير عبد الرحمن .

وكانت الفتنة الكبرى في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٢٨ - ٢٧٣ هـ) وولده الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) عاملاً هاماً في اضطراب النهضة الأدبية ، والشعرية بنوع خاص . وكان من أبرز شعراء عهد الفتنة الأول عباس ابن فرناس ، وقد أوردنا قصيدته في موقعة طليطلة ، التي سحق فيها الثوار . وفي أواسط عهد الفتنة ظهر شاعر من أعظم شعراء الأندلس ، وأديب من أعظم أدبائها ، هو الفقيه أبو عمر أحمد بن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ) صاحب كتاب « العقد الفريد » الذي يعتبر من أعظم آثار الأدب الأندلسي . ويمكننا أن نعتبر ابن عبد ربه شاعر اللولة الروائية ، منذ عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن حتى عهد عبد الرحمن الناصر ، وقد ظهر بشعره في موقعة إستجة التي سحق فيها الناصر عمر بن حفصون ، وذلك في سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) ، وظهر بمدائح للأمير عبد الله ، ثم حفيده عبد الرحمن الناصر ، وقد كان معلماً في صباه ، وبأرجوزته في غزوات الناصر ومآثره . وقد أوردنا من نظمه فيما تقدم عدة من قصائده . وأما كتابه « العقد الفريد » فإنه يعتبر بمحتوياته وتنوعه ، من أمتع الكتب في الأدب العربي ، وبالرغم من أن موضوعاته ، يغلب عليها طابع الأدب المشرقي ، فإنه يعتبر عنواناً بارزاً للأدب الأندلسي في مرحلته الأولى . وقد انتقد بعضهم العقد الفريد لأنه « لم يجعل فضائل بلده ، واسطة عقده ، ومناقب ملوكه يتيمة ملكه »^(٢) ويعتبر العقد الفريد بطابعه المشرقي ، على التقيض من كتاب « الذخيرة » لابن يسام الشرنبني ، المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ، والذي يعتبر بمحتوياته وروحه ، مثلاً ساطعاً للأدب الأندلسي .

(١) ابن الفرضي رقم ٦٩١ .

(٢) راجع نفع الطيب ج ٣ ص ١٢٦ .

ومن شعراء عهد الفتنة وأدبائها البارزين سوار بن حمدون القيسي ، وسعيد ابن سليمان بن جودي ، وهما من زعماء الفتنة العرب ، وكان كلاهما إلى جانب فروسيته من أعلام البيان والنظم في وقته ، وقد نقل إلينا ابن الأبار نماذج من نظمهما (١) .

وكان من أعلام الأدب في تلك الفترة أيضاً محمد بن أضحى الهمداني ، وهو من زعماء العرب بكورة لبيرة . وكان بارعاً في الأدب ، خطيباً مفوهاً ، يخطب بين يدي الأمراء في المحافل ، وكان خلال الفتنة قد انضوى تحت لواء الأمير عبد الله ، ثم انضوى بعد ذلك تحت طاعة الناصر فيمن خضع من ثوار النواحي (٢) .

وكان الأمير عبد الله نفسه من ألمع شعراء عصره . وكان بارعاً في العربية ، حافظاً للغريب من الأخبار ، وقد نوه المؤرخ ابن حيان بشاعريته ، ورفيع أدبه ، وأوردنا نحن فيما تقدم نماذج رقيقة من شعره .

— ٢ —

وكان عصر عبد الرحمن الناصر ، من ألمع عصور الدولة الأموية بالأندلس ، وفيه زهت العلوم والآداب ، وظهرت جمهرة من أكابر الشعراء والعلماء . وكان من أعلام تلك الفترة ، إلى جانب عميدهم ابن عبد ربه ، صاحب العقد الفريد ، محمد بن عمر بن لبابة ، وهو من أهل قرطبة . وكان إماماً في الفقه ، متمكناً من حفظ الرأي ، والبصر بالفتيا ، وكان مشاوراً أيام الأمير عبد الله ، ثم انفرد بالفتيا أيام الناصر ، فلم يكن يشاركه أحد في الرياسة والقيام بالشورى ، وكان حافظاً لأخبار الأندلس ، وله حظ من النحو والشعر . وقد ولى الصلاة بالمسجد الجامع ، وتوفي في سنة ٣١٤ هـ . ومن مؤلفاته كتاب المنتخب في روايات مذهب مالك (٣) .

وقد حدثنا ابن حيان في المقتبس عن شعراء عصر الناصر الذين التفوا حول بلاطه ، وأشادوا بمدحهم ، فقال : إن « في مقدمتهم معلمة في الصبا أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه ، ويليهِ من نمطه عبيد الله بن يحيى بن إدريس ، وعبد الملك بن سعيد المرادي ، وإسماعيل بن بدر ، وأغلب بن شعيب ، وحسان بن

(١) راجع الحلة السيرة (طبعة دوزي) ص ٨٠ - ٨٧ .

(٢) الحلة السيرة ص ٩٨ .

(٣) ابن الفرضي رقم ١١٨٩ .

حسان [السناط] وغيره ، ومن كبار الطائرين عليه من المشرق ، طاهر بن محمد المهند البغدادي ، ومحمد بن حسين الطنبى الإفريقى ، وغيرهما ، أسلفوا فى الناصر لدين الله إحساناً كثيراً .

فمن قول أبى عثمان عبيد الله يحيى بن إدريس فى الناصر لدين الله ، وقد غزا الروم فى شهر رمضان ، وأدركه الفطر فى بلاد العدو ، فلم يتورع ، وصمد إلى لقايمهم ، وقد اجتمعوا :

يهنى الخلافة سعى خير إمام لله مسعاه وللإسلام
ملك تمكن فى المكارم والعلى كتمكن الأرواح فى الأجسام
عزم الرحيل مصمماً فى عيده لشفاء غلة سيفه الصمصام
يصل الترحل بالترحل دائماً فى الحل يحكمه وفى الإبرام
ليعز دين الله فى كنف العلى ويذب عن حرم الهدى ويحام
مستنجزاً وعد الإله بنصره فى شيعه الإشراك والإحرام
وقوله حينما نزل الناصر بجيوشه طابطة ، وارتباع الخلافة لمقدمه ، من قصيدة :

على أى فتح تقدما أتت لك فتوح الثغر فذاً وتوئما
تباشير ترى من فتوح تواتر رت كما تابع النثر الجمان المنظما
ومن نظم أبى الحسن جعفر بن عثمان المعروف بالمصحفى كتاب ولى العهد الحكيم بن الناصر لدين الله ، السامى الحل فى الاشتمال على متن البلاغة ، من النثر والنظم بالتبريز ، ما نظمته وقت انتقال الناصر لدين الله عن سرقسطة :

على أيمن الأوقات كان ارتحالك وفى أيمن الساعات كان احتلالك
تنقلت عن دار الشقاق مظفراً وقد صال بالخذول فيها صيالكا
وحاربت ذا السيف العريض بميمته أرت مستجيش الشرك كيف اغتيالكا
وأقفلت عنهم والمنايا صواب تسيل بها فى ساحتهم سجالكا
إذا ما القرى رام اغتلاق جفونهم فخطفه بالخوف عنها خيالكا
وإن ذهبوا للسير فى الأرض مذهباً تراءى لهم فى كل أفق مثالكا
هل الأجل المرهوب إلا صيالكا أم الأمل المرغوب إلا نوالكا
بقيت أمير المؤمنين مملوكاً فما الروضة الزهراء إلا جلالكا

وقال إسماعيل بن بلر في مديح الناصر وذكر غزوته للجزيرة الخضراء :
 تطوى المراحل لإدلاجاً وتنجيراً مشمراً في رضى الرحمن شميراً
 بدر الملوك الذى لإشراق سنته تجلو عن الدين والدنيا الدياجيراً
 من قد قضى الله في ماضى شبيبته لا يزال على الأعداء منصوراً
 قال ابن حيان : « والشعر فى الناصر لدين الله رحمة الله عليه ، كثير جداً ،
 محمول عن فحول يقدمهم ابن عبدربه ، وابن إدريس ، ومهند والطنبى ونمطهم...
 فى تجويد صناعتهم بفضل ما ألفوا لديه من التوسعة عليهم ، والإحسان إليهم ،
 فكل منهم كمل فيما صاغه فيه ديواناً بذاته ، عفى رسومها ، وغبض معينها من
 الليالى وانصرام الدولة ، وتسلسل الفتن البربرية ، والمطاولة على التواريخ الملوكية ،
 التى كانت له قاصمة وجامعة ، حتى مزقت كل ممزق بأيدى الجهال ، فهل من
 باقية » (١) .

وكان بين وزراء الناصر وحجابه ، عدة من أكابر الكتاب والأدباء ، مثل
 الحاجب موسى بن محمد بن حدير ، وقد كان من أهل الأدب والشعر ، فضلاً
 عن كونه من بيت رئاسة وجلالة (٢) وعبد الملك بن جهور ، وقد كان وزيراً
 جليلاً ، وأديباً وشاعراً محسناً ، ومن شعره :

إن كانت الأبدان نائمة فنفوس أهل الظرف تأتلف
 يارب مفترقين قد جمعت قلبهما الأقلام والصحف (٣)
 وكان من أعلام تلك الفترة أيضاً القاضى منذر بن سعيد البلوطى (٢٦٥ -
 ٣٥٥هـ) ، وكان بارعاً فى علوم القرآن والسنة ، وظهر فوق ذلك بفصاحته
 وجرالة شعره . وقد أشرنا فيما تقدم إلى موقفه الخطابى الرائع ، فى حفل استقبال
 سفارة قيصر الروم ، وما حباه به الناصر من أجل ذلك ، من عطف ،
 وتقدير ، وتوليه للخطابة والقضاء . ومن مؤلفاته « كتاب الإبانة عن حقائق
 أصول الديانة » .

وفى عصر الناصر ظهرت حركة دينية ، على رأسها أبى عبد الله محمد بن
 عبد الله بن مسرة الجبلى من أهل قرطبة . وكان مولده بها فى سنة ٢٦٩ هـ . وقد

(١) ابن حيان فى المقتبس - السمر الخامس - مخطوط الخزنة الملكية - لوحات ٢٧ و ٣١ هـ .

(٢) جذوة المقتبس رقم ٧٨٧ هـ .

(٣) جذوة المقتبس رقم ٦٢٦ هـ .

برع ابن مسرة في العلوم الدينية ، ولكنه جاهر ببعض الآراء المخففة ، في التأويل والقدر وغيرها ، فاتهم بالزندقة وغادر الأندلس . فأرأى إلى المشرق وذلك في سنة ٢٩٨ هـ ، ودرس هنالك على أيدى المعتزلة ، والكلاميين وأهل الجدل . ثم عاد إلى الأندلس وهو يخفى نخلته وآراءه الحقيقية ، تحت ستار من النسك والزهد . وكان يتخذ لنفسه غاراً يتعبد فيه على مقربة من جبل قرطبة ، حتى سمي بالجبل . واختلف إليه الطلاب من كل صوب . وكان يستهويهم بغزير علمه وبجزالة بيانه ، حتى ذاعت شهرته ، وتبعه الكثيرون من الصحب والتلاميذ . وقد اختلف في أمر ابن مسرة ، فبعضهم يسمو به إلى مرتبة الإمامة في العلم والزهد والورع ، ومنهم من كان يرميه بالزندقة وترويج البدع . وتوفي ابن مسرة بقرطبة سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) (١) . على أن تعاليم ابن مسرة لبثت بعد ذلك حية ذائعة ، طوال عهد الناصر ، وقام جمهرة من أهل السنة ، بمعارضة تعاليمه وإنكارها ، ووصل صوتهم في ذلك إلى الخلافة ، واضطر الناصر إلى أن يصدر باسمه بياناً في سنة ٣٤٠ هـ ، يستنكر فيه تعاليم ابن مسرة وتلاميذه ، ويرميهم بالمروق ، والخروج عن تعاليم السنة الحقيقية ، وقد أورد لنا ابن حيان هذا البيان الفريد في المقتبس (٢) ، وقد تحدثنا فيما تقدم عن ابن مسرة وحركته ، ولخصنا كتاب الناصر في شأنها .

وفي عصر الناصر بالذات ظهر شاعر من أعظم شعراء الأندلس ، هو أبو القاسم محمد بن هانيء الأزدي الإشبيلي ، وقد ولد بإشبيلية في سنة ٣٢٦ هـ ، وظهر منذ حداثة براءة شعره وروعة افتنانه ، ولكنه آثم بالكفر والزندقة . فغادر الأندلس ، ولحق بالبلاط الفاطمي بالمهدية ، والخليفة المعز لدين الله يتأهب عندئذ لفتح مصر ، فأغدق عليه المعز عطفه ورعايته . ولما سار المعز إلى مصر ، سار ابن هانيء للحاق به ، ولكنه توفي في طريقه في سنة ٣٦٢ هـ . وقد شبه ابن هانيء بالمثنوي في رصانة شعره ، وروعة افتنانه ، ومن أشهر قصائده قصيدته التي يصف فيها جيش المعز الذهاب إلى فتح مصر ، بتميادة جوهر الصقلي ، والتي يقول فيها :

(١) ابن الفرضي رقم ٦٤٢ .

(٢) وذلك في النسخة الخطية من السفر الخامس من المقتبس المحفوظة بخزانة القصر الملكي بالرباط بالمغرب وقد نقلناه منه ، ونشرناه في آخر الكتاب .

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع
غداة كان الأفق سد مثله
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له
إذا حل في أرض بناها مدائننا
تحل بيوت المال حيث محله
رحلت إلى القسطنطين أول رحلة
فإن يك في مصر ظمأ لمورد
ويعلمهم من لا بغار بنعمة
وكان من أعلام الشعر في عصر الناصر أيضاً الوزير جعفر بن عثمان المصنف،
الذي تولى الحجابة فيما بعد لولده الحكم المستنصر، وتوفي في سنة ٥٣٧٢ هـ في سجن
الزهراء، ضحية لمنافسه القوى محمد بن أبي عامر المنصور. وقد أوردنا من شعره
فيما تقدم في غير موطن.

وظهر في عصر الناصر عدد من أكابر الكتاب البلغاء، في مقدمتهم كاتب
الناصر الأثير عبد الله بن محمد الزجالي، وهو الذي أنشأ عن لسانه البيان الخاص
بمروق ابن مسرة الذي سبقت الإشارة إليه.

وكان الناصر نفسه عالماً أديباً، يهوى الشعر وينظمه، ويقرب الأدباء
والشعراء. وكان في مقدمة شعراء دولته وآثرهم لديه الفقيه ابن عبد ربه صاحب
العقد الفريد، وذلك حسبما أشرنا في موضعه.

وظهر في عهد الناصر عدة من أعلام المؤرخين الذين وضعوا أسس الرواية
الأندلسية. أولهم أحمد بن محمد بن موسى الرازي، وقد ولد الرازي سنة ٢٧٤ هـ
وتوفي سنة ٣٤٤ هـ. ومن تصانيفه «أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم
ونكباتهم»، وكتاب «الإستيعاب في أنساب أهل الأندلس»، وكتاب في «صفة
قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها». وقد كانت رواية الرازي مستقى خصباً
لمؤرخي الأندلس، وفي مقدمتهم عميدهم ابن حيان.

وظهر قرينه ومعاصره ابن القوطية، وهو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد
العزیز بن عيسى بن مزاحم؛ ويعرف بابن القوطية لانتسابه بطريق النسب إلى

سارة القوطية إبنة وتبزا ملك القوط . وقد ولد بقرطبة وتوفى بها سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧م) ، وكان راوية متمكناً حافظاً لأخبار الأندلس . وسير أمراثا وأخبار علمائها وفقهائها وشعراتها . وقد كتب تاريخه المسمى « تاريخ افتتاح الأندلس » . وكان فوق ذلك من أئمة عصره في اللغة والنحو ، وله في ذلك مؤلفات قيمة ، وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه ، وتؤخذ عنه .

ومن أعلام المؤرخين في ذلك العصر أيضاً أحمد بن موسى العروى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، وقد ألف كتاباً عنوانه « تاريخ الأندلس » .

واستمرت النهضة الفكرية ، التي ازدهرت في عصر الناصر ، وفي عهد ولده الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) وازدادت قوة وازدهاراً . وكان الحكم ، وهو الخليفة الأديب العالم ، رائد هذه الحركة الفكرية العظيمة . وكان من ظواهرها قيام جامعة قرطبة العظيمة ، واحتشاد أكارب الأستاذة بين عقودها ، وإنشاء المكتبة الأموية الكبرى ، التي بذل الحكم في إنشائها من الجهود العظيمة والأموال الزاخرة ما لم يسمع بمثله ، حتى بلغت محتويات هذه المكتبة الفريدة زهاء أربعائة ألف مجلد ، من مختلف أصناف العلوم والفنون . وكثرت المكتبات العامة والخاصة ، وبلغ شغف اقتناء الكتب أشده في ذلك العصر ، واحتشد حول بلاط الحكم ، جمهرة من أكارب العلماء ، في مقدمتهم الحافظ أبو بكر بن معاوية القرشي ، وأبو علي القالي ضيف الأندلس يومئذ ، والأديب المؤرخ محمد بن يوسف الحجاري ، وإمام النحو والرواية ابن القوطية ، وربيع بن زيد الفيلسوف والعلامة الفلكي النصراني ، وغيرهم . وظهر في تلك الفترة جمهرة من الشعراء المبرزين ، وكان في مقدمتهم طاهر ابن محمد البغدادي ، الوافد من المشرق إلى الأندلس ، وكان يعرف بالمهند . وكان شاعراً محسناً ، مدح الحكم المستنصر ، ثم مدح المنصور بن أبي عامر بعد ذلك ، وحظي لديه ، وقد اتهم بالغلو في بعض الآراء الدينية . ومن شعره قوله :

متى أشكر النعمى التي هي جنى	ففي ظلها أمسى وفي ضوئها أضحى
إذا قلت قد جازيت بالشكر نعمة	شفعت بأخرى منك دائمة السفح
فحمدى لا ينأى وفضلك لا ينى	وأرضى لا تصدى وأفقك لا يضحى ^(١)

ومنها محمد بن مطرف بن شخيص ، وكان من أهل الأدب البارع ، ومن

(١) راجع جذوة المقتبس للحميدى (مصر) رقم ٥١٥ ، وبغية الملتصق رقم ٨٥٩ .

أعيان الشعراء المجيدين ، كان متصرفاً في القول ، متقناً لأساليب الجدل والمزحل ، وكان من أخص شعراء بلاط الحكم ، وله شعر كثير ، ومن شعره في تهنئة الحكم بوفود جعفر ويحيى ابني حمدون ، وتقديم طاعتهم إليه ، قصيدة طويلة ، هذا مطلعها :

بأيمن لإقبال وأسعد طائر تبشير محتوم من الأمر واقع
توافت بملك من معد مقوض لملك إلى مهدى مروان راجع
فيا لك من بشرى سرور تضمنت بلوغ الأمانى عن سعود الطوالع
ومن قوله في الغزل :

فهل من شفيح عند ليل إلى الكرى لعل إذا ما نمت ألقى خيالها
يقولون لى صبراً على مظل وعدها وما عدت ليلى فأشكو مطالها
وما كان ذنبى غير حفظ عهداها وطى هواها واحتمالى دلالها^(١)
ومنهم محمد بن الحسين التيمى الطنبى ، أصله من طنبنة ، بلد بأرض الزاب بالمغرب ، وكان شاعراً محسناً ، وأديباً بارعاً من بيت أدب وجلالة ورياسة ، وكان من شعراء الحكم الأثريين . ومن شعره يهنيء الحكم بحلول عيد الأضحى :
نخلت بجوهر لفظها أن يلقطا لما رأيته من الجواهر أبسطا
يا أيها الملك المتوج بالمهدى نوراً على غسق الظلام مسلطاً
صل عيدك البهيج السنأ فى غبطة وازدد من الأعياد ألفاً مغبطاً^(٢)
ومنهم يحيى بن هذيل ، وكان من أهل العلم والأدب والشعر الجيد ، وتوفى سنة ٣٨٦ هـ ، ومن شعره :

لم يرحلوا إلا وفوق رحالهم غيم حكى غيش الظلام المقبل
وعلت مطارفهم بمجاجات الندى فكأنما مطرت بدر مرسل
لما تحركت الحمول تناثرت من فوقهم فى الأرض تحت الأرجل
فبكيت لو عرفوا دموعى بينها لكنها اختلطت بشكل مشكل^(٣)
ومنهم ، ومن أشهرهم يوسف بن هارون الرمادى القرطبي المعروف بأبي جنيش ، كان من أشهر شعراء الأندلس فى وقته ، واشتهر بالأخص بشعره

(١) جذوة المقتبس رقم ١٤٤ . وبغية الملتبس رقم ٢٧٦ ، والمقتبس ، قطعة أكاديمية التاريخ

ص ٥٤ و ٦٠ .

(٢) جذوة المقتبس رقم ٣٨ ، والمقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٤ .

(٣) جذوة المقتبس رقم ٩٠٧ ، وبغية الملتبس رقم ١٤٩٤ .

المجاني ، وكان سريع البديهة مشهوراً عند العامة والخاصة ، لسلوكه في فنون مختلفة من المنظوم . ومدح الرمادى الحكم المستنصر ، ولكنه وقع تحت طائلة غضبه لما صدر منه من شعر قاذف في حقه ، وأمر باعتقاله مع باقى الشعراء المجانيين ، حماية للناس من ألسنتهم ، وزج الرمادى إلى السجن مدة ، وكتب خلال اعتقاله كتاباً سماه « كتاب الطير » وصف فيه كل طائر معروف . ثم عفا عنه الحكم وأطلقه مع باقى إخوانه . وتوفى الرمادى فقيراً معدماً أيام الفتنة فى سنة ٤٠٣ هـ . ومن شعره قوله :

لا تنكروا غرر الدموع فكل ما ينحل من جسمى يصير دموعا
والعبد قد يعصى وأجلف، أنى ما كنت إلا سامعاً ومطيعاً
قولوا لمن أخذ الفؤاد مسلماً بمن على برده مصلوعاً^(١)
ونبغ فى تلك الفترة عالم من أعظم علماء اللغة بالأندلس ، هو أبو بكر محمد ابن الحسن الزبيدى النحوى الإشبلى . وقد وضع فى اللغة والنحو عدة كتب مشهورة منها « الواضح » و « لحن العامة » « وأخبار النحويين » ، كما وضع مختصراً لكتاب « العين » ، إلى غير ذلك . وكان فى نفس الوقت أديباً بارعاً ، وشاعراً محسناً ، وقد أورد لنا الحميدى شيئاً من نظمه ، وندبه الخليفة الحكم ، حسبما أسلفنا فى موضعه لتدريس اللغة لولده هشام ، وألزمه بالبقاء فى قرطبة ، ولم يأذن له بالرجوع إلى وطنه إشبيلية . وتوفى الزبيدى قرابة سنة ٣٨٠ هـ .^(٢)
وكان الخليفة الحكم المستنصر نفسه ، فوق تمكنه من العلوم الشرعية وتحقيق الأنساب ، أديباً ينظم الشعر الرائق . وقد أوردنا من قبل فى موضعه شيئاً من نظمه . ثم كان الانقلاب العظيم ، فى مصابىر الخلافة الأموية ، وتغلب محمد بن أبى عامر أو الحاجب المنصور على الدولة ، وكان من حسن الطالع أن المنصور بنشأته وخلالها العلمية اللامعة ، كان من أعظم رواد الحركة الفكرية ، وكان المنصور عالماً متمكناً من الشريعة والأدب ، بارعاً فى النثر والنظم ، وقد ذكرنا فيما تقدم شيئاً من نثره ونظمه . وكان يعشق مجالس العلماء والأدباء ، حتى أنه كان خلال الغزو ، يصطحب معه طائفة من الكتاب والشعراء ، ينتظمون فى مجلسه خلال

(١) الصلة لابن بشكوال رقم ١٤٩١ ، وجذوة المقتبس رقم ٨٧٨ .

(٢) جذوة المقتبس رقم ٣٤ .

السر ، وكان شاعره الأثر أبو العلاء صاعد بن حسن البغدادي المتوفى سنة ٥٤١٧ هـ ، وكان قد وفد من المشرق على الأندلس ، في أوائل عهد المنصور ، وكان عالماً باللغة والأدب والتواريخ ، فقربه المنصور ، وأغدق عليه عطفه ، وجمع له صاعد كتاباً سماه « بالفصوص في الآداب والأشعار والأخبار » فأثابه عنه المنصور بخمسة آلاف دينار ، وأمر أن يقرأه على الناس بمسجد الزاهرة^(١) .

بيد أن المنصور ، بالرغم من شغفه بالعلم والأدب ، لم يبد تسامحاً إزاء الفلسفة والفلاسفة ، أو بعبارة أخرى إزاء الأفكار الحرة . وقد كانت هذه النزعة الضيقة الأفق ، تمثل نفس التيار الذي يندفع فيه كل حاكم مطابق . وقد رأبنا فيما تقدم كيف طورد عباس بن فرناس ، في عهد عبد الرحمن بن الحكم ، واتهم بالزندقة لما أبداه من براعة علمية وفنية خارقة ، وكيف طورد تلاميذ ابن مسرة وطوردت تعاليمه في عهد الناصر ، وأصدر الناصر منشوره بتكفيره وتكفير تلاميذه ، وقد استمر هذا التيار الرجعي فيما بعد في عهد الطوائف ، حيث أحرقت كتب ابن حزم ، وفيما تلا بعد ذلك من عهود ، وذلك حسبما نذكره في موضعه .

وكان من أعظم شعراء الأندلس في عصر المنصور أبو عمر أحمد بن محمد ابن دراج القسطل . وكان كاتباً بليغاً من كتاب ديوان الإنشاء ، وشاعراً لامعاً في نفس الوقت . وقد نبغ في ميدان الشعر نبوغاً جعله عمدة شعراء عصره . وكان من شعراء المنصور المقربين ، وله فيه مدائح رائعة ، نقلنا بعضها فيما تقدم ، ولما توفي المنصور في سنة ٣٩٢ هـ ، تجول ابن دراج في أنحاء الأندلس ، ومدح بعض أمراء الطوائف ، مثل خيران العامري صاحب ألمرية ، ومبارك ومظفر صاحباً بلنسية ، والمنذر بن هود صاحب سرقسطة . وقد قال العلامة ابن حزم في حقه ، إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج ، وتوفي ابن دراج في سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م)^(٢) .

وكان من أكابر الفقهاء والحفاظ في عصر المنصور ، عبد الرحمن بن فطيس قاضي الجماعة بقرطبة ، وكان من أئمة المحدثين وكبار العلماء ، حافظاً متمكناً من الحديث ، عارفاً بأسماء الرجال ، وله مشاركة في مختلف العلوم ، وتقدم في

(١) كتاب الصلة لابن بشكوال (مصر) رقم ٥٤٠ .

(٢) راجع جذوة المقبولين للحميدى رقم ١٨٦ ، وبغية الملتصق للضبى رقم ٣٤٢ .

معرفة الآثار والسير والأخبار ، وكان جماعة للكتب ، وقد جمع منها ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس . تقلد قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ ، ومقروناً بولاية الصلاة والخطبة ، وذلك إلى جانب عمله في الوزارة ، وذلك أيام المظفر عبد الملك المنصور ، وكان مشهوراً في أحكامه بالنزاهة والصلابة في الحق ، ونصرة المظلوم ، وله مؤلفات كثيرة منها كتاب « أسباب نزول القرآن » و « كتاب في فضائل الصحابة » و « أعلام النبوة ودلالات الرسالة » و « مسند حديث محمد بن فطيس » وغيرها ، وتوفي ابن فطيس أثناء الفتنة البربرية في سنة ٤٠٢ هـ (١) .

* * *

ولما انقضى عهد الدولة العامرية ، وانهارت الخلافة الأموية ، واضطربت الفتنة بالأندلس ، انكشفت الحركة الفكرية ، وشغلت الأمة الأندلسية بما دهاها من أمر الفتن المتوالية ، وتعاقب الرياسات ، ومع ذلك ففي غضون الفتنة ، نجد من الخلفاء من يتذوق الشعر وينظمه . فقد كان الخليفة سليمان المستعين ، أديباً متمكناً ، وشاعراً مطبوعاً ، أشاد ابن بسام بأدبه وشاعريته . وقد أوردنا له فيما تقدم قصيدته الرائعة التي يعارض فيها شعر الخليفة الرشيد . وكذلك كان الخليفة المستظهر أديباً شاعراً من الطراز الأول ، وقد نوه ابن بسام بمواهبه الأدبية ، وأورد له طائفة من القصائد الحيدة .

وحتى في ظل الخلافة الحمدوية البربرية ، كان للأدب والشعر دولة ومكانة ، وكان الخليفة العالى خليفة مألقة أديباً ينظم الشعر . وكان من شعراء دولته الشاعر الكبير ، عبد الرحمن بن مقانن الأشبوني ، وكان أديباً بارعاً ، وشاعراً متقناً ، وهو الذى مدح العالى بقصيدته الشهيرة التى مطلعها :

السُّبُوقُ لائِحٌ مِنْ أَنْسَدَرِينَ ذُرِفَتْ عَيْنَاكَ بِالْمَاءِ الْمَعِينِ

ونكتفى بتلك الصورة الموجزة ، عن سير الحركة الفكرية الأندلسية ، في عهد الإمارة ، وعهد الخلافة . وقد ذكرنا فيما تقدم أثناء استعراضنا لتاريخ هذين العهدين كثيراً من تفاصيلها ، وأشرنا إلى كثير من أعلام الفكر والأدب ، ممن لم نر أن نعود إلى ذكره في هذا الفصل .

الوثائق والملحقات

وثائق تاريخية

- ١ -

كتاب الخليفة الناصر لدين الله

بشأن حركة ابن مسرة

(منقول عن السفر الخامس من كتاب « المقتبس » لابن حيان ، وهو المخطوط المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط لوحات ١٣ و ١٤ و ١٥) .

« وأنفذ الخليفة الناصر لدين الله إلى آفاق مملكته بشأن هؤلاء المبتدعة (يعنى تلاميذ ابن مسرة) كتاباً طويلاً قرئ عليهم بأمصارهم ، من إنشاء الوزير الكاتب عبد الرحمن بن عبد الله الزجالي ، نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن الله تعالى جلده ، وعز ذكره ، جعل دين الإسلام أفضل الأديان ، فأظهره وأعلاه ، ولم يقبل من عباده غيره ، ولا رضى منهم سواه ، فقال فى محكم تنزيله : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً ، فلن يقبل منه ... » الآية ، وقضى فى محتوم أمره ، ونفاذ حكمه ، أن تنسخ به الديانات ، وتختتم رسالته الرسالات ، فبعث محمداً خاتم النبيين ، وأكرم الأكرمين ، وأعز الخلائق على رب العالمين ، بأن كتب الصلاة والسلام عليه فى عرشه قبل أن يخلقه ، واصطفاه لأمانته قبل أن يكونه ، وأرسله بأفضل دبن سماه حنيفاً إلى خير أمة اختارها ... كما قال عز من قائل ، إذ عرفنا بفضل ما هدانا إليه من الدين ، وكرمنا به على سائر الأمم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ... الآية » . فله جل جلاله ، وتقدست أسماؤه ، الشكر على خصائص هذه الفضيلة ، والحمد بالمنة الجليلة ، فقد استنقذ من الغواية وهدى ، فأحسن الهداية ، وأبان الحجة ، وكفانا بواضح المناهج مؤنة الفكرة ، ونظم زمام الأمة ، وجمع وجوه السعادة العاجلة ، والنجاة الآجلة فى تأليف الجماعة ، واجتبا فيهم رعاية الفرقة ، حيث يقول عز وجهه ، لنبيه صلى الله عليه وسلم .. به وبعباده المخصوص بهداه ، ورأفة بسطها على خير .. وإعلاما لهم ... بتواصل الدين من قبله لأنبيائه ... وكرامته لاختلافهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا

إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... الآية . فخوف وحذر ، ونهى عن افتراق الكلمة ، ونبه على البعد ، ونفى الله الخبيث عنها ، وفضلها على ساير البلدان ، واستقر فيها الدين ، كهيئته يوم أكمله الله لعباده . ولما استوسقت الطاعة ، وشملت النعمة ، وعم الأقطار ، بعدل أمير المؤمنين ، السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبتغى خيراً ، ولا تأتمر رشداً ، من طغام السواد ، ومن ضعف آراهم ، ومن خشونة الأوغاد ، كتباً لم يعرفوها ، ضلت فيها حلومهم ، وقصرت عنها عقولهم ، وظنوا أنهم فهموا ما جهلوا ، وتفقهوا فيما لم يدركوا ، واستولى عليهم الخذلان ، وأحال عليهم بخيله ورجله الشيطان ، فزينوا لمن لا تحصيل لهم ، ولقوم آمنين لا علم عندهم ، فقالوا بخلق القرآن ، واستئثسوا ، وآيسوا من روح الله ، ولا يبأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، وأكثروا الخذل في آيات الله ، وحرّموا التأويل في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبريت منهم الذمة بقوله تقدست أسماؤه : « ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب ، وما أرسلنا به رسلاً فسوف يعلمون ، إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون . في الحميم ثم في النار يُسجرون . فهذا أبلغ الوعيد ، وأفظع النكال ، لمن جادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانی عطفه : ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ... » ثم تجاوزوا في الهتان ، وسلوا على أنفسهم ألوان الغفران ، فأكذبوا التوبة ، وأبطلوا الشفاعة ، ونالوا محكم التنزيل ، وغامض متن التأويل ، بتقدير عقولهم : فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراشخون في العلم ، يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب . فصاروا بجهل الآثار ، وسوء حمل الأخبار إلى القدح في الحديث ، وترك نصح السبيل ، فأساءوا الفهم عن العوام ، وأقدموا بمكروه القول في السلف الصالح ، واستبدلوا على نقلة الحديث ، ووضعوا من الكتب لوضعها ، وتابعوا شهواتهم فيها ، وتابعوا فيما ... وورطهم ، ورأوا للتخضع وحشة بحملها لزم الضلالة ، وداعية الهلكة ، والشنوذ عن مذهب الجماعة ، من غير نظر نافذ في دين ، ولا رسوخ في علم ، حتى تركوا رد السلام على المسلمين ، وهى التحية التى نسخت تحية الجاهلين . خلافاً على أدب الله تعالى ، وقوله جل جلاله : وإذا حييتم

بتحية ، فحيوا بأحسن منها أوردوها ، وقالوا بالاعتزال عن العامة وشدوا ...
وكشفوا بتكرارهم الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فلجوا في جهاتهم ،
وتأهوا في غيهم ، ونكسوا على رؤوسهم ، حقدأ على الأمة الحنيفة ، واعتقادأ
لبغضتها ، واستحلالا لدمائها ، وزرعأ إلى انتهاك حرمتها ، وسبي ذراتها ، قد
بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صلورهم أكبر ، لولا أن سيف أمير المؤمنين
من ورأئهم ، ونظره محيط . ولما صار غيهم فاشيا ، وجهلهم شايعا ، واتصل
بأمر المؤمنين من قدحهم في الديانة ، وخروجهم عن الحادة ، فأشغل نفسه ،
وأقضى مضجعه ، وأسهد ليله ، أغلظ أمير المؤمنين في الأخذ فوق أيديهم ،
وأوعز بإعازأ شديدا ، وأنذر إنذارأ فظيحا ، وعهد عهدأ مؤكدا شافيا كافيا ،
نظر به لوجهه تبارك اسمه ، وقدم فيه بين يدي العقاب الشديد ، وأمر بقراءة
كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرته ، ليفزع قلب الجاهل ، ويفت كبدا المستهتر
الحاير ، وينقض عزم العائد المعاجل ، ويضطر الغواة إلى الإثابة الصحيحة ،
التي يتقبلها الله منهم ، أويكشف عن الأذهان سراريهم فيكون عليهم شهيدا ،
ويأتهم عذاب غير مردود . ورأى أمير المؤمنين أن يشمل بنظره أقطار كوره ،
ويرسله في بلوه وحضره ، وأن ينفذ عهوده إليك ، وإلى سائر قواده ، وجميع
عماله بها ، يقرأ على منابر المسلمين ، ولا يحرم القاصي ما عم الداني من تطهير
هذا الرجز وتمحيصه ، وكفاية المسلمين شبهته وفنته ، فلم يحل الديار ، ولا تعقب
الآثار ، ولا استحق البلا على قوم ، ولا أهلك الله أمة من الأمم ، إلا بمثل ما
تكشف هذه الطغمة الخبيثة ، من التبديل للسنة ، والاعتداء في القرآن العظيم ،
وأحاديث الرسول الأمين ، صلوات الله عليه وسلم ، هذا عند وروده عليك في
قبلك ، ونشره في سماع رعيتك ، وتبع هذه الطائفة بجميع أعمالك ، وابتث
فيهم عيونك ، وطالب فيهم غورهم جهذك ، فمن تحلى منهم بما انتسب إليهم ،
وقامت عليه البيئات بذلك عندك ، فاكتب إلى أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم ،
وأسماء الشهود عاينهم ، ونصوص شهاداتهم ، لتعهد باستجلابهم إلى باب سده ،
لينكلوا بحضرته ، فيذهب غيظ نفسه ، ويشفي حنين صدره ، ولإنيك أن تهون من
أهل الريبة ، وتتخطاهم إلى ذوى السلامة والأحوال الصالحة ، فإن فرطت في
أحد الأمرين أو كليهما . فقد برى الله منك ، وأحل دمك ، ومالك ، فاعلمه ،
واعتد به لإنشاء الله تعالى .

كتاب الخليفة الناصر لدين الله

عن غزوة الخندق

(منقول من السفر الخامس من كتاب «المقتبس» لابن حيان ، وهو المخطوط المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط ، في حوادث سنة ٣٢٧ هـ) .

قال ابن حيان : وأما لفظ كتاب الفتح الوارد من قبل الناصر لدين الله إلى الحضرة بخبر هذه الغزوة من إنشاء عيسى بن فطيس الكاتب ، فإن الفصل الذى رفع فيه خبر هذه الواقعة ، وقع كما أثبتته هاهنا :

« واستعزم الله أمير المؤمنين ليلته ، واستخاره عن رحمته فى النهوض إلى مدينة شنت مانكش دار الكفرة ومجمع النصرانية ، إلى إلبها استركن عدو الله ، وضائق الحيل عليهم ، ووثقوا بحصاته ، ليعلمهم أن كلمة الله هى إظهار دينه ، ونصر أوليائه ، وإعزاز خلقائه ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولو كره المشركون ، فضم صاحب المقدمة عمال الثغور عندهم وفرسانهم وخيلهم ، واكتنف الجمع فى مجنبتى العسكر مع من والاهم ، وجرد الرجال من الخيول بأسلحتهم ، وصمد لجمع المشركين ، فاستقبلهم بنية صادقة ، ونفس صابرة ، وجموع كثيفة ، وكتائب تملأ القضا ، ومغائب تضيق عنها الشعاب ، وبصير فى سهل الأرض كالأكام ، تتألق عليهم سوايق الدروع ، فإذا تداعوا ، قلت موج تراكم ، وإذا وقفوا فكأنما النقع عليهم ليل مظلم . فلما قربت العساكر من محل الخنازير ، ثابوا فيما بينهم ، وثاروا إلى خيولهم ، وعلوا الشرايين ، ينظرون إلى كتائب دين الله ، بقلوب قد خلعها الذعر ، وقبضهم عن التقدم الوجل ، وجعلوا بينهم وبين المسلمين وادى بشرقه ، ثقة بوعورته ، وقلة مخاوضه ، فلم ترعهم إلا مقدمة الجيش وراعه ، قد سهل الله عليهم جوازه ، وتبعهم الأتقال ، وتحيز أمير المؤمنين كدية سامية ، يتطلع منها على عسكر المسلمين ، فأمر بالاضطراب فيها للعسكر ، وتقدمت الخيول بين يديه ، وقد تلاحقت جموع الكفرة ، وقدموا صلبانهم ، ووثقوا بشيطانهم الذى غرهم . وكان المسلمون على نشطة إلى لقاءهم ، فلم ينتظر أولهم إلى أن توافى آخرهم ، ولا فارسهم أن يقتعد براجلهم ، وتخطوا

الرماح إلى السيوف ، والطعن إلى الضرب ، وكروا في حومة المنايا ، كرم من يحصى حليله ، ويخشى بعد ساعة أن تسبي ذريته ، فلم ير المسلمون حرباً مثلها ، ولا شهدوا يوم وغى أطول من يومهم ذاك . ونصر الله تعالى يهون عليهم ما هم فيه ، حتى فضوا جموع المشركين (لوحة ١٤٣ أ) ، وزلزلوا ردوهم التي كانت أكاليل الجبال ، وردم الشعاب ، وضمهم إلى معسكرهم ، وأثارت سنابل الخيل من القتام ، ما غيب من كان في القلب عن يليه من يمين الحرب ويسارها . وكان محمد بن هاشم في وقتها حائناً سعيره قد طال به مدامها ، واستدارت حوله رحامها ، فكبا به فرسه ، ولم يعلم أحد بمصرعه ، فصار في أيدي الخنازير أسيراً ، فاستشفوا به الحياة بعد اليأس منها ، فجالدوا بنفوس قد عاودتها رمقها ، وانحاز المسلمون إلى معسكرهم ، قد قتلوا من أعلام المشركين وقوامهم وأهل البأس من فرسان الحرب ، ومن صبر لوقع السيف ، فكانت مصيبتهم بمن قتل منهم عظيمة ، فلما أصبح أمير المؤمنين لخلته ، أمر بحمل من عقر فرسه ، وصلة من أغنى في حربه ، وتعرض المشركون للحرب تعرض من قد تنخل لعدو قد أصابهم ، ونكايته قد فلفت قلوبهم . فلما كان في اليوم الثالث من احتلاله ، عهد أمير المؤمنين إلى صاحب العسكر بمصاحبتهم بالحرب ، وقد تلاحقت بهم المدود من أقصى بنبلونة وألبة والقلاع ، وأهل قشتيلة ، إلى مشركى قلمرية ، وكل صنف من أصناف العجم معهم ، وهتف على المسلمين بالخروج تحت راياتهم ، والتأهب للقاء عدوهم ، وأغدوا في نهوضهم ، ونزل صاحب العسكر ، فرتب تعيينهم ، فكشف الردء ، وضم إليها الرجال ، وألزم القلب بنفسه ، وميز فيه خيل الميمنة والميسرة ، وقدم إليهم المقاتلة ، وأقام بين يديه حملة الخيل عدة ، فلذا رأى في جهة من جهات الحرب خللا سده واستدركه ، أو فتقا رتقه ، حتى كانت أيدي المسلمين في الماقط عالية ، فنلظت الحرب واحتدمت ، وكان المنايا إنما قصدت فيها أعلام الكفرة وقوامهم ، فصرع قومس غرماج ، وابن أخى الخنزير ابن فردلند ، وشيخ النصرانية وعميدها ابن دخبر ، إلى العدد الجم من فرسانهم ، وأهل الصبر منهم ، وانجلت الحرب عن هزيمتهم ، وانكشف أجبل قد كانوا علوها ، وسدوا بالخيول والرجال ما بينها ، وظنوا أن لا غالب لهم ، فزلزلوا زلزالا شديداً ، وانصرف المسلمون بعد الظفر والسلامة في المنقلب ،

فباتوا بأنعم بال ، وأسكن حال . فلما ظن أعداء الله أن قد ملوا حربهم ، وتجددت لهم مدودهم ، رفعوا معسكرهم ، وقدموا صلبانهم ، وخرجوا بفارسهم وراجلهم فألقوا إلى ما يلي منهم العسكر ، سراع خيولهم ، فبادر المسلمون إليهم تبادر الأسود الضاربة ، فغادروا موقفهم ، وجالوا بسيوفهم ، حتى انفرج الموقف عن قتل عظيم من عظمائهم ، أعولوا عليه ، واستداروا حواله ، وانصرفوا قد أذلم الله ، ووهنهم ، وهون عليهم جمعهم ، ووفور مددهم ، في ضبط المعيشة ، وقلة التبسط ، ومصاحبة الحرب ومماساتها ، حتى كأنهم أهل حصن حوصروا فيه ، أو قل جيش لا يستطيعون الرجوع إليه . وأقام أمير المؤمنين ومن معه من جيوشه وحشده ، وأهل البصائر والحفايظ ، وبلغ أمير المؤمنين أقصى أمله من إذلال جميع المشركين ، والاحتلال بساحتهم ، وانحياز طاغيتهم في أعلى شاهق ، يرجو النجاة بنفسه ، فأمر بالرحيل وقد ضاعف النظر ، والعدو في ضبط ساقة جيشه لما توقع خروج الكفرة في أثره . وأصبح منتقلا ، فما أقدم أعداء الله أن ينظروا من الجيش إلا من بعد على رأس جبل ، ونهض يظأ بلادهم وطأة مثاقل ، حتى انصرف إلى نهر دويرة ، واستقبل عمارته من حصن مانكش التي اتصلت بنكاية أهله ، فلم يدع في جليقية حصناً إلا هدمه ، ولا معاشاً إلا انتسفه ، حتى انتهى إلى مدينة روضة ، وهي خالية على عروشها ، فأقام على هدمها ، وهدم حصن دبيلش معها ، يومين كانا أطول على أعداء الله من عامين ، لما غير فيهما من نعمهم ، وهدم من مساكنهم ، وقطع من شجرهم . وكان أمير المؤمنين يتر التقدم على نهر دويرة إلى شنت لإشتين وغرماج لنقص الزروع لديه وضيق (١٤٣ ب) العلف بإفساده . فرفع إليه من حضره من أهل مدينة الفرج وحصونها ، يشكون ما يلقونه من مشركي وادي أبيته ، ومعاقلها ، وترددوا عليه ضارعين إليه ، أن يجعل ممر الجيش المؤبد على حصونهم وعمارتهم ، وذكروا أن ذلك أنفع لهم ولأهل الثغور معهم ، من الإيغال في بلاد المشركين ، ونكاية من لا ينالهم بغارة ، ولا ينهض إليهم بقوة ، فصرف الجيوش عند ذلك إلى وادي أبيته ، فلم يدع فيها حصناً إلا هدم ، ولا قرية إلا هدمت ، ولا معاشاً إلا استقصى جميعه . فلما صار في آخره ولم يبق موضع يقوم الجيش بالتردد عليه ، أمر الأدلاء بالكشف عن أفضل الطرق إلى حصن أنتيشه ، وأرفقها بالمسلمين في منصرفهم برازح ظهورهم ، وأحوط عليهم في

طريقهم ، وأجمعوا على قصد حصن قشرب ، وأياسوا من الخروج على غيره ، فلما استقبل أمير المؤمنين لأمه ، وقطع بعض محلته ، استقبل شعراء لا يتخللها المتفرد بحمده ، ولا يتخلص منها الخف ، لو لم يكن أحد يعترضه . ثم أشرف على خنادق قفرة ومهاو تتقاذفه ، وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون وقدموا إليها ، وألقوا إلى ساقه الجيش فرسانهم ، فدارت عليهم الحرب ، وصرع فيها من جلة فرسانهم ، ومتقدمي رجالهم جملة ، لو أصيبت بحيث يترأى الجمعان لكانت سبب هزيمتهم ، ولا كنهم وثقوا بالوعد ، وانتظروا تقدم الحماة وترادف الأتقال ، فحامي أمير المؤمنين رجاله وخاصة عن المسلمين ساعات من النهار ، حتى تقدم أكثرهم ، وجازت الخندق لقتالهم ، إلا من ضعفت دابته ، أو ضعفت تعبته عن استنفارها . فلما رأوا الخلل تصاحبوا من قن الجبال ، وانخطوا من أعاليها انخطاط الأوعال ، فأصابوا من الأمتعة والدواب المثقلة ، ما لو أصابوا مثله في مجال حرب أو سهل من الأرض ، لما أنكر مثله عند مقارعة الرجال ، وتصرف الأحوال . وحامى صاحب العسكر عن كل من أجاز الخندق وخلص من مضايقة ، حتى أسهلوا ، واجتمع للأمير المؤمنين جيوشه وانتظمت جموعه ، وسلم الله رجاله ، فلم يصب منهم أحد . وفي ذلك دليل للسامع عن الوقعة أنها لم تدر بغلبة ، ولا ظفر المشركون أظفروا به فيها عن مساواة ولا كثرة ، ولكن ضيق المسالك ، ووعر الطريق ، وسوء فهم الدليل ، خلى لما جلبه إلى أقدار الله تعالى التي لا تصرف ، ومحنة التي لم يزل يمتحن بها أوليائه ، ليعظهم ، ويبتلى عبيده ليرهبهم ، وأمير المؤمنين ، شاكر لله تعالى على عظيم نعمه ، وواقف على تصرف محنته ، مستسهل ما اختص به في حب طاعته ، ضارع إلى الله في التقبل لقوله وفعله . وكتابه إليك ، وهو قافل بالمسلمين على أحسن أحوالهم ، وأسهل طريقهم ، وأجمعه بمعاشيتهم ، إن شاء الله . فأمر بقراءة كتاب أمير المؤمنين على الناس قبلك أثر صلاة الجمعة لبشكروا الله على ما أنعم به من نصر إمامهم ، وسلامة إخوانهم ، والصنيع الذي عمهم ، فإنه يحب الشاكرين ، ويزيد الحامدين . واعهد نسخته إلى عمال الكور حولك لإنشاء الله تعالى ، والله المستعان . وكتب يوم الإثنين لثمان خلون من ذى القعدة سنة سبع وعشرين وثلاث مائة .

ثبت المراجع

١ - مراجع أندلسية وإسلامية عامة

- تاريخ ابن خلدون المسمى « كتاب العبر » (بولاق) .
تاريخ الكامل لابن الأثير (الطبعة الأهلية ١٣٠٣ هـ) .
تاريخ الطبرى المسمى « تاريخ الأمم والملوك » (الطبعة الأهلية) .
تاريخ أبى الفدا المسمى « المختصر فى أخبار البشر » (الطبعة الأهلية) .
فتوح البلدان للبلاذرى (القاهرة ١٩٣٢) .
مروج الذهب للمسعودى (بولاق) .
نهاية الأرب للنورى (القسم التاريخى ومعظمه ما زال مخطوطاً) .
وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق) .
كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لطفى الدين المقرئى (الطبعة الأهلية ١٣٢٤ هـ) .
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى (طبعة دار الكتب) .
فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم المصرى (طبع لجنة ذكرى جب) .
يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر للثعالبي (القاهرة ١٩٤٧) .
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرئ (القاهرة ١٣٠٢ هـ) .
أخبار مجموعة فى فتح الأندلس لمؤلف مجهول (مدريد ١٨٦٧) .
تاريخ افتتاح الأندلس لأبى بكر بن القوطية (مدريد ١٨٦٨) .
البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى
(الجزء الأول الخاص بإفريقية والثانى الخاص بالأندلس المنشوران بعناية العلامة
دوزى (ليدن ١٨٤٨ - ١٨٤٩) والثالث المنشور بعناية الأستاذ ليثى بروفنسال .
بغية الملتبس فى تاريخ رجال أهل الأندلس لابن عميرة الضبى (ضمن المكتبة
الأندلسية) .
كتاب الصلة لابن بشكوال (ضمن المكتبة الأندلسية ، والقاهرة سنة ١٩٥٥)
قضاة قرطبة لأبى عبدالله الخشنى المنشور بعناية الأستاذ ربرا (مدريد ١٩١٤) .

المقتبس في تاريخ رجال الأندلس لابن حيان ، السفر الثالث المنشور بعناية الأب منشور أنتونيا (باريس ١٩٣٧) .

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني (المجلدات الثلاثة المطبوعة بعناية جامعة القاهرة) .

الحلة السيرة لابن الأبار القضاعي (القسم المطبوع بعناية العلامة دوزي) ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي (القاهرة ١٣٣٢هـ) ، جذوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) .

العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (طبع القاهرة ١٩٢٨ ، وكذلك طبعة لجنة التأليف والترجمة) .

المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية البلنسى (المطبوع بعناية وزارة التربية المصرية) .

أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت ١٩٥٦) .

الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٠٤ و ١٩٥٦) .

الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (القاهرة ١٣٠٦ هـ) .

نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى (الرباط ١٩٣٤) .

جهاز أنساب العرب لابن حزم (القاهرة ١٩٤٨) .

رسالة نقط العروس لابن حزم (المنشور بمجلة كلية الآداب بالقاهرة في

عدد ديسمبر سنة ١٩٥١) .

نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار لأحمد بن

عمر العذرى (منشور بعناية الدكتور عبد العزيز الأهواني — مدريد سنة ١٩٦٥) ،

طوق الحمامة لابن حزم (دمشق ١٣٤٩ هـ) .

معجم البلدان لياقوت الحموى (القاهرة ١٣٢٣ — ١٣٢٥ هـ) .

الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم

الحميرى (القاهرة ١٩٤٨) .

مختصر نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشرىف الإدريسى (طبع رومة ١٥٩٢) .

وصف الأندلس للإدريسى (المطبوع بعناية المستشرق سافدرا) .

المسالك والممالك لابن حوقل (المكتبة الجغرافية) .

المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب المسالك والممالك
للأبي عبيد البكري والمنشور بعناية المستشرق دى سلان .

مصادر مخطوطة

تاريخ ابن حيان : « المقتبس في تاريخ أهل الأندلس » ، مجموعة أوراق
مخطوطة من « السفر الأول » تشمل حوادث سنة ١٨٠ - ٢٣١ هـ ، عثر بها المرحوم
الأستاذ ليلى بروفسال ، ونقلت منها وقد ضاعت الآن .

تاريخ ابن حيان : « السفر الثاني » من المقتبس وهو يشمل حوادث سنة
٢٣٣ - ٢٦٧ هـ قطعة مخطوطة محفوظة بمكتبة جامع القرويين بفاس .

قطعة ثالثة مخطوطة من تاريخ ابن حيان محفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ
بملريد تتعلق بحوادث سنة ٣٦٠ - ٣٦٤ هـ . وقد نشرت أخيراً بيروت (١٩٦٥)
بعناية الأستاذ عبد الرحمن الحجى .

السفر الخامس من « المقتبس » وهو مخطوط الخزانة الملكية بالرباط ويتعلق
بعهد عبد الرحمن الناصر ، ويسرد حوادث الأندلس من سنة ٣٠٢ إلى سنة ٣٢٩ هـ
ويحمل رقم 87 .

إعتاب الكتاب لابن الأبار (مخطوط محفوظ بمكتبة الإسكوريال رقم ١٧٣١
الغزيرى) .

كتاب تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس لعلى عبد الرحمن الهذيل (مخطوط
محفوظ بمكتبة الإسكوريال رقم ١٦٥٢ الغزيرى) .

شذور مخطوطة لابن حزم نشرها الأستاذ ميغل آسين بلاثيوس في مجلة
الأندلس (سنة ١٩٣٤) .

٢- المراجع الأوربية

- رجعنا فيما يتعلق بالروايات الإسبانية اللاتينية إلى موسوعة الأب Enrique Florez الكنسية الكبرى وهى :
- España Sagrada (Madrid 1747—1886, 51 Tomos)**
وقد تضمنت الروايات التاريخية الآتية :
- Isidorus Pacensis Crónicon** رواية إيزيدور الباجى
Chrónicon Compostellanum رواية كومبستلا (اشنت ياقب)
Annales Toledanes الأخيار الطليطية
Chronicon Lusitanum الرواية اللوسيتانية البرتغالية
Chronicon Adefonsi الرواية الأدفونشية
Rodericus Toletanus : Historia Arabum. رواية رoderik الطليطلى (تاريخ العرب)
- Lucas Tudensis : Chronicon Mundi.** رواية لوقا التطيلى (تاريخ العرب)
Crónica General de España- (Ed. Pidal) تاريخ أسبانيا العام لألفونسو العالم
Padre Mariana : Historia General de Espana (Madrid 1855).
Conde : Historia de la Dominación de los Arabes en Espana.
F.J. Simonet : Historia de los Mozárabes de España (Madrid 1897).
Modesto Lafuente : Historia General de Espana (Barcelona 1889).
Julian Ribera : Disertaciones y Opúsculos (Madrid 1928).
R. Altamira : Historia de España y de la Civilización Espanola (Barcelona 1900).
R.M. Pidal : La España del Cid (Madrid 1947).
„ „ „ : La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo (Madrid 1959).
„ „ „ : Origenes del Espanol.
„ „ „ : Historia y Epopya.
Una Crónica anonima de Abd Al-Rahman Al-Nasir (Madrid-Granada 1950).
F. Codera : Embajadas de Principes cristianos en Córdoba en los ultimos anos de Al-Haquam II (B.R.A.H. XIII, 1886).
F. Codera : Embajadores de Castilla encarcelados en Córdoba en los ultimos anos de Al-Haquam II (B.R.A.N., XIV, 1887).
A.G. Palencia : Historia de la España Musulmana.

L.S. de Lucena : Los Hammudies Senores de Málaga y Algeciras.
(Málaga 1955).

Cardonne : Histoire de l'Afrique et de l'Espagne sous la Domination des Arabes.

Camille Julian : Histoire de la Gaule.

Dom Vissette : Histoire de Languedoc.

Reinaud : Histoire des Invasions des Sarrazins en France,

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Coquête des Almoravides (Ed. Lévy-Provençal 1932).

Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen-âge. (3e Ed).

Zeller : Histoire de l'Allemagne.

Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien.

Schlegel : Philosophie der Geschichte.

Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire.

Lane-Poole : The Moors in Spain.

Scott : Moorish Empire in Europe.

H. Ch. Lea : History of the Inquisition of Spain.

Creasy : Decisive Battles of the World.

Finlay : Byzantine Empire.

Hodgkin : Charles the Great.

Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis.

[Encyclopédie de l'Islam.

Bayle : Dictionnaire Historique et Critique.

Bouquet : Recueil des Historiens de la Gaule et de la France.

فهرست الوثائق التاريخية

للقسمين الأول والثاني

صفحة

٤٦	الخطبة المنسوبة لطارق بن زياد...
٥٥	معاهدة الصلح بين عبد العزيز بن موسى وتيودمير...
١٥٣	خطاب يوسف الفهرى إلى عبد الرحمن الأموى...
١٩٩	الأمان الذى أصدره عبد الرحمن الداخل للنصارى...
٢٤٥	كتاب الحكم بن هشام عن ثورة الربض...
٢٤٨	وصية الحكم بن هشام لابنه عبد الرحمن...
٢٨٣	كتاب عبد الرحمن بن الحكم إلى قيصر قسطنطينية...
٣٨١	عهد الناصر لا بن حفصون...
٣٨٧	كتاب الناصر عن فتح ببشتر...
٤١٠	أمان الناصر لمحمد بن هاشم التجيبى...
٤٣٠	كتاب الناصر عن اتخاذ سمة الخلافة...
٧١١ و ٤١٦	كتاب الناصر عن موقعة الخندق...
٤٢٣	كتاب الناصر إلى العمال بعمل الاستسقاء...
٧٠٨ و ٤٣٣	كتاب الناصر عن فتنة ابن مسرة...
٤٥٣	كتاب القيصر قسطنطين السابع إلى الناصر...
٤٩٨	كتاب الحكم المستنصر عن انتصاره على الأدارسة...
٥٨١	وصية المنصور بن أبى عامر لابنه عبد الملك...
٥٨٢	وصية المنصور بن أبى عامر لغلانته...
٦١٤	مرسوم الخليفة هشام المؤيد لعبد الملك المنصور بتسميته بالمظفر...
٦٢٦	مرسوم الخليفة هشام المؤيد بالله إلى عبد الرحمن المنصور بولاية عهده...

فهرست الشعر والشعراء

صفحة

- نصر بن سيار
أرى تحت الرماد وميض نار
عبد الرحمن بن أمية (الداخل)
سعدى وحزمى والمهند والقنا
شتان من قام ذا امتعاض
أيها الركب الميمم أرضى
تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
عباس بن ناصح الجزيرى
نكد الزمان فآمنت أيامه
الحكم بن هشام
رأيت صدوع الأرض بالسيف واقعاً
غناء صليل البيض أشهى إلى الأذن
قضب من البان ماست فوق كثنان
غريب بن عبد الله
يا أهل قرطبة الذين تواكلوا
موثمن بن سعيد
يطم على العنقاء في طيراتها
حرمته ما عدا نظراً مضراً
يحيى الغزال الجياني
لست تلقى الفقيه إلا غنيا
ياليت شعري أى شيء محصل
كأن الملوك الغلاب عندك خضعاً
وأعيد لبن الأطراف رخص
يانود يارود الشباب التي
- ١٤٤
٢٠٢
٢٠٢
٢٠٢
٢٠٣
٢٤٢
٢٤٦
٢٥٠
٢٥٠
٢٤٧
٢٥٢
٦٩٣
٢٥٣
٢٥٣
٢٥٣
٢٨٣
٢٨٥

صفحة

- عبد الرحمن بن الحكم
 إذا ما بدت لى شمس النهار
 ولقد تعارض أوجه لأوامر
 فكم قد تخطيت من سبب
 قتلتى بهواكا
 عباس بن فرناس
 ومؤلف الأصوات مختلف الزحف
 كأن قصور الأرض بعد تمامه
 أبو عمر ابن عبد ربه
 ألما على قصر الخليفة فانظرا
 نجا مستكناً تحت جناح من الدجى
 ألا إن إبراهيم لجة ساحل
 بدا الهلال جديداً
 هلال نماه البدر واختاره الفجر
 خليفة الله وابن عم رسول الله
 يا ابن الخلايف والصيد الصناديد
 قد أوضح الله للإسلام منهاجاً
 هاشم بن عبد العزيز
 سأرضى بحكم الله فيما ينوبنى
 سعيد بن جودى
 يا بنى مروان جدوا فى الحرب
 الأمير عبد الله بن محمد
 يامهجة المشتاق ما أوجعك
 ويحى على شادن كحمل
 يا من يراوغه الأجل

صفحة

- أحمد بن محمد الرازي
٣٨٦ تبدى لمراى العين مجسماً
إسماعيل بن بدر
٤٠٢ وقيدت زعيمتهم إليه
٦٩٨ تطوى المراحل لإدلاجاً وتنحيراً
أبو عثمان عبيد الله بن يحيى بن إدريس
٤٢٤ نعم الشفيق إلى الرحمن في المطر
٦٩٧ بهى الخلافة سعى خير إمام
٦٩٧ على أى فتح بعد فتح تقدمما
عبد الرحمن الناصر
٤٣٦ همم الملوك إذا ما أرادوا ذكرها
أبو الوليد بن زيدون
٤٤٠ خليلي لا فطر يسر ولا أضحي
محيي الدين بن عربي (نقلا عنه)
٤٤١ ديار بأكتاف الملاعب تلمع
منذر بن سعيد البلوطي
٤٥٥ مقالى كجحد السيف وسط المحافل
عبد الملك بن سعيد المرادى
٤٨٦ ملك الخليفة آية الإقبال
جعفر بن عثمان المصحفي
٤٦٣ إلا أن أياماً هفت بإمامها
٥٠٣ أطلع البدر في سحابه
٥٣٠ صبرت على الأيام لما تولت
٦٩٧ على أمن الأوقات كان ارتحالك
الحكم المستنصر
٥١٢ إلى الله أشكو من شمائل مسرف
٥١٣ عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت

صفحة

٥٣١

أبني أُمّية أين أقمار الدجى

٥٣٦

أليس من العجائب أن مثلى

٥٣٧

اقترَب الوعد وحن الهلاك

٥٥٢

أبو العلا صاعد بن حسن البغدادى

٥٦٣

يا حرز كل مخوف وأمان كل

جددت شكرى للهوى المتجدد

٥٥٧

أبو عمر بن دراج القسطلى

٥٥٨

هل الملك يملك ريب المنون

٥٦١

لك الله بالنصر العزيز كفيل

٦١٠

اليوم أنكص أبلّيس على عقبه

٦٢١

بدا ريح السعد واستقبل النجح

٦٢٩

إن كان وجه الربيع مبتسما

هو البدر فى فلك المجد دارا

٥٦٦

ما نقش على قبر المنصور

آثاره تنبئك عن أخباره

٥٧٥

عمرو بن أبى الحباب

لا يوم كاليوم من أيامك الأول

٥٨١

المنصور بن أبى عامر

رمىته بنفسى هول كل عظيمة

٥٨١

منع العين أن تذوق المناما

٦٢١

زمان جديد وصنع جديد

٦٢٨

ابن أبى يزيد المصرى

إن ابن ذكوان وابن برد

صفحة

- سليمان المستعين
عجباً يهاب الليث حد سناني
٦٥٤ عبد الرحمن بن مقانا
٦٧٣ البرق لائح من أندرين
عبد الملك بن جهور
٦٩٨ إن كانت الأبدان نائمة
محمد بن هانيء الإشبيلي
٧٠٠ رأيت بعبي فوق ما كنت أسمع
طاهر بن محمد البغدادي
٧٠١ متى أشكر النعمى التي هي جنتي
محمد بن مطرف بن شخيص
٧٠٢ بأيمن إقبال وأسعد طائر
٧٠٢ فهل من شفيح عند ليلي إلى الكرى
محمد بن الحسين التميمي الطنبلي
٧٠٢ بخلت بجوهر لفظها أن يلقطا
يحيى بن هذيل
٧٠٢ لم يرحلوا إلا وفوق رحالهم
يوسف بن هارون الرمادي
٧٠٣ لا تنكروا غزر الدموع فكل ما

فهرست الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية ومقابلها الإفرنجي

Alava	ألبّة	Aquitaine	أكوتين
	ألبّة والقلاع		بلاد أرغن . أرغن . الثغر الأعلى
Alava et Castella Vetula		Aragon	
Albacete	البسيط	Astorga	أستورقة
	شتمرية الشرق	Asturias	أشتوريش
Albarracín		Avenpace	ابن باجة
	شتمرية ابن رزين	Avignon	صخرة أبنيون
Alcaccer do Sal	قصر أبي دانس	Avila	آبالّة
Alcalá de Henares	قلعة النهر	Badajoz	بطلّوس
Alcántra	القنطرة	Baeza	بياسة
Alcázar	القصر	Baleares	الجزائر الشرقية
Alfonso Raimundez		Barcelona	برشلونة — برشونة
	أدفنش بن رمند	Beja	باجة
Algarve	كورة الغرب	Berbastro	بربشتر
Algeciras	الجزيرة الخضراء	Bermudo	برمند
Alicante	لقنت		بسكونية — بسكونس
Almeria	ألمرية	Bicsay – Viscaya	
Almodavar	المدور	Bobastro	ببشتر
Almodavar del Rio	حصن المدور	Burgos	برغش
Almoravides	المرابطون	Cabra	قبرة
Almunecar	المنكب	Calahorra	قلهرة
Alphonso - Alfonso		Calatayud	قلعة أيوب
	أدفنش ، أدفنش ، ألفنش	Calatrava	
Alpujurras	البشرات البشرية		
Alpuxarras			

Calatanazor	قلعة النصور	Fernando - Ferdinand	فرذلد
Carcassone	قرقشونة	Fernan Gonzales	فرنان غنصالص
Carmona	قرمونة	Froila	فرويلة
Carthage	قرطاجنة القديمة	La Frontera	ألفرنتره
Cartagena	قرطاجنة الأندلس	Galicia	جليقية
Castellon	قسطلونة	Garcia	غرسية
Castile— Castilla	قشتالة	Gaule	غاليس
Catalonia	قطلونيه	Gerona	جيرندة
Cataluna	قطلونيه	Gilbraltar	جبل طارق — جبل الفتح
Cardegna— Cerdana	شرطانية	Goths— Godos	القوط — الغوط
Ceuta	سبتة	Granada	غرناطة
Charlemagne	قارله — شارلمان	Gregorius	جرجر
Karl— Charles	قارله — شارلمان	Guadalajara	وادي الحجارة
Cintra	شنترة	Guadalete	وادي لكه
Colmbra	قلمرية — قلنبرية	Guadalquivir	الوادي الكبير — النهر الأعظم
Cordova Córdoba	قرطبة	Guadarrama	وادي الرملة
Coria	قورية	Guadiana	وادي يانة — وادي أنة
Corsica	قورسقة	Guadix	وادي آش
Cuenca	قونقة — كونكة	Huesca	وشقة
Daroca	دروقة	Ivica-Ibiza	جزيرة يابسة
Denia	دانية	Jaca	چاقا
Duero·Douro	نهر دويرة	Jaen	جيان
Ebro	نهر إبره	Jódar	شودر
Ecija	إستجة	Lamigo	لميقة
Elvira	إلييرة	Lausitania	الرتغال القديمة
Evora	يبرة — يافورة	León	ليون (جليقية)
Favila	فاقلة		

Lerida	لاردة	Navarra	بلاد البشكنس — نبرة
Lisbon-Lisboa	أشبونة — لشبونة	Niebla	لبلة
Lombardy	بلاد اللنبرد — أنكبردية	Normans	الأردمانيون — المجوس
Lopez	لب	Ocsonoba	أكشونبة
Lorca	لورقة	Orelus	أورالى
Lugo	لوك	Oria	أورية
Lyon	لوذون — لوطون	Orihuela	أوريولة
Madelin	حصن مادلين	Pallares	بليارش
Magerit	مجرط	Pamplona	بنبلونة
Majorca-Mallorca	جزيرة ميورقة	Pedro	بيطره
Málaga	مالقة	Pelagius-Pelayo	بلای — بلايو
Martos	مرتش	Priego	باغة
Mauretania	المغرب الأقصى	Pyrenees Pirineos	جبال البرنيه أو البرت أو البرتات
Medinaceli	مدينة سالم	Poley	بلای — بلى
Medina-Sidonia	شدونة	Rejio	ريه (كورة)
Mérlda	ماردة	Ramiro	ردمير — رذمير
Mertola	مارتلة — ميرتلة	Ramon Berenguer	رمند
Minorca	جزيرة منورقة	Rhône	نهر (وادی) رذونة
Monzon	منتشون	Roderic	لذريق — رذريق
Montimayor	منتيمور	Roncesvalles	باب شزروا — باب الشزرى
Montileon	منتلون	Ronda	رندة
Morón	مورور	Rueda	حصن روطة
Mozárabes	المستعربون أو النصارى المعاهدون	Salmanca	شلمنقة
Mula	مولة	Sancho	شانجه
Murcia	مرسية	San Esteban	سنت إشتين
Narbonne	أربونة	Santa Maria de Algarve	سنتمريه الغرب

Santarein-Santarem	شنترين	Toulouse	تولوشة
Santaver	شنت برية	Trujillo	ترجاله
Santiago	شنت ياقب	Tudela	تطيلة
Saragossa-Zaragoza	سرقسطة	Tudmir	تدمير
Sardegna	جزيرة سر دانية	Ubeda	أبدة
Sicilia	صقلية	Urgel	أرقلة
Ségovia	شقوية	Vacasorra	بقسرة
Seville-Sevilla	إشبيلية	Valencia	بلنسية
Sierra de Almaden	جبال البرانس	Valtierra	بالتيرة
Sierra Morena	جبل الشارات	Valladolid	بلد الوليد
Sierra Nevada	جبل شلير - جبل الثلج	Viguera	بقيرة
Tagus-Tajo	نهر التاجه أو التاجو	Villanueva	بلدة نوبه
Tanger — Tangier	طنجة	Viseu	بازو
Tarifa	جزيرة طريف - طريف	Xativa-Jativa	شاطبة
Tarragona	طركونة	Xenil-Genil	نهر شنيل
Toledo	طليطلة	Xeres-Jerez	شريش
Torrox	طرش	Xecunda	شقندة
Tortosa	طارطوشة	Zamora	سمورة

فهرست الموضوعات

(للقسم الثاني من الكتاب)

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الثالث — عبد الرحمن الناصر وقيام الخلافة الأندلسية

- الفصل الأول : ولاية عبد الرحمن الناصر وقيام الخلافة الأندلسية... ٣٧٢
الفصل الثاني : خلال الناصر ومآثره ... ٤٣٥
الفصل الثالث : غزوات المسلمين في غاليس وشمال إيطاليا وسويسره... ٤٦٤

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الرابع — ربيع الخلافة الأندلسية

- الفصل الأول : الحكم المستنصر بالله... ٤٨٢
الفصل الثاني : هشام المؤيد بالله... ٥١٧

الكتاب الثالث

الدولة العامرية

- الفصل الأول : الحاجب المنصور ... ٥٣٤
الفصل الثاني : خلال المنصور ومآثره ... ٥٦٨
الفصل الثالث : الممالك النصرانية الإسبانية خلال القرن العاشر الميلادي... ٥٨٨
١ — نشأة مملكة قشتالة ... ٥٩٠
٢ — مملكة ليون ... ٥٩٢
٣ — مملكة نافار ... ٥٩٩

صفحة

- ٤ — عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية... ٦٠١
٥ — تنظيم الساطات السياسية ٦٠٣
الفصل الرابع : عبد الملك المظفر بالله. ... ٦٠٧
الفصل الخامس : عبد الرحمن بن المنصور وسقوط الدولة العامرية ... ٦٢٢

الكتاب الرابع

سقوط الخلافة الأندلسية ودولة بني حمود

- الفصل الأول : الخلافة في معترك الفتنة والفوضى ... ٦٤٢
الفصل الثاني : دولة بني حمود ٦٥٦

الكتاب الخامس

النظم الإدارية والحركة الفكرية

في عصرى الإمارة والخلافة

الفصل الأول : النظم الدستورية والعسكرية الاقتصادية في عصرى

- الإمارة والخلافة ... ٦٨٠
الفصل الثاني : الحركة الفكرية الأندلسية في عصرى الإمارة والخلافة... ٦٩١
وثائق تاريخية

- ١ — كتاب الناصر بشأن فتنة ابن مسرة... ٧٠٨
٢ — كتاب الناصر عن موقعة الخندق ... ٧١١
ثبت المراجع ... ٧١٥
فهرست الوثائق التاريخية ... ٧٢٠
فهرست الشعر والشعراء ... ٧٢١
فهرست الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية ... ٧٢٦
فهرست الخرائط

- ١ — خريطة قرطبة الإسلامية ... ٤٤٩
٢ — الممالك الإسبانية النصرانية في القرن الحادى عشر الميلادى ... ٥٩٥

فهرست الكتب

الرواية - الروايات اللاتينية - ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٣
صفحة قرطبة وخطتها ومنازل الأعيان فيها ، لأحمد
ابن موسى الرازي ؛ ٧٠٠
العقد الفريد ، لأبي عمر بن عبد ربه ؛ ٢٢٤ ، ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٥١ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٧٠٠
كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني - ٥٠٥
كتاب الحشائش الطبية ، لديسقوريدس - ٤٢٣ ، ٤٥٤
كتاب الحكم المستنصر في الأنساب - ٥٠٤
كتاب الطير ليويسف بن هارون الرمادي ؛ ٧٠٣
كتاب «الفصوص» في الآداب والأشعار والأخبار
لصاعد بن الحسن البغدادي ؛ ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٧٠٤
كتاب في فضائل الصحابة لعبد الرحمن بن فطيس ؛ ٧٠٥
كتاب قضاة قرطبة ، لأبي عبد الله الحشني ؛ ٥٠٥
المآثر العامية ، أو أخبار الدولة العامرية ،
لابن حيان ؛ ٥٧١ ، ٥٧٧
مختصر ابن عبد الحكم ، للقاضي الأبهري ؛ ٦٠٥
لحن الدامة لأبي بكر الزبيدي ؛ ٧٠٣
مسند النبي لبق بن مخلد ؛ ٦٩٤
مسند حديث محمد بن فطيس ؛ ٧٠٥
المنتخب في روايات مذهب مالك لمحمد بن عمر بن
لبابة ؛ ٦٩٦
مطلع الأنفيس للفتح بن خاقان ؛ ٥٠٤
المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، لابن حيان ؛
٧ ، ٨ ، ٤١٥ ، ٥١١ ، ٥٧١ ، ٦٩٦ ، ٦٩٩
منظومة الشاعر سوذي عن ردريك ؛ ٩٧
موطأ مالك ؛ ٢٢٩
نزهة المشتاق ، في اختراق الآفاق ، للإدرسي ؛
٤٨
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب - ٩ ، ١٠
الواضح لأبي بكر الزبيدي ؛ ٧٠٣

الإحاطة في أخبار غرناطة ، لابن الخطيب ؛ ٩
أخبار كورة البيرة لمطرف بن عيسى النساني ؛
٥٠٥
أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم
لأحمد بن موسى الرازي ؛ ٧٠٠
أخبار النحويين لأبي بكر الزبيدي ؛ ٧٠٣
أسباب نزول القرآن لعبد الرحمن بن فطيس ؛
٧٠٥
الاستظهار المغالبة ، على من أنكر فضل الصقالبة ؛
٥٧٩
الإستيعاب في أنساب أهل الأندلس لأحمد بن موسى
الرازي ؛ ٧٠٠
أعلام النبوة ودلالات الرسالة ، لعبد الرحمن بن
فطيس ؛ ٧٠٥
أعمال الأعلام لابن الخطيب - ٩ ، ٤١٩
الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري - ٢٤
أنساب بني أمية لأبي الفرج الأصفهاني ؛ ٥٠٥
أنشودة رولان ؛ ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٢
البيان المغرب لابن عذارى المراكشي ؛ ٩ ، ٨٥ ،
٥١١ ، ٥٧٨ ، ٦١٣ ، ٦٢٠ ، ٦٦١
تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ؛ ٧٠١
تاريخ الأندلس لأحمد بن موسى العروى ؛ ٧٠١
تاريخ أوريوسوس ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤
تاريخ ألفونسو الحكيم ؛ ٤١٩
تاريخ الله أرى المعاهدين للمستشرق سيمونيت ؛
٢٦٨ ، ٣٨٣
تفسير القرآن لبق بن مخلد ؛ ٦٩٤
جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم القرطبي ؛
٥٠٤
الجوامع - حروب الإسلام - غريب الحديث -
فضائل الصحابة - طبقات الفقهاء والمحدثين -
مصاييح الهدى - الواضحة ؛ لعبد الله بن
حبيب السلمي ؛ ٦٩٢
الذخيرة في أسن أهل الجزيرة ، لابن بسام ؛
٩ ، ٦٢٠ ، ٦٩٥
رواية إيزيدور الباجي ؛ ٣٤ ، ٦٣ ، ٧٦ ،
٨٢ ، ٢٠٩

فهرست القبائل والطوائف والدول

ا - ب - ت

- الإباضية ؛ ٦٩ ، ١١٨ ، ٥٠١
 الإدارة ؛ ٤٢٦ ، ٤٩٢ ، ٤٩٦ - ٤٩٨ ،
 ٥٠١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧
 الأردمانيون ؛ انظر النورمانيون
 الأسالة ، المسالة ؛ انظر التصاري المهادون
 الإسبان ؛ ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢٣٨ ، ٤٤٢
 الأسرة الكارلية ؛ ٧٩ ، ٨٠ ، ١٧١
 الأسرة الميروثجية ؛ ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ١١٦
 الإسلام ؛ ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ،
 ٣١ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٤٤
 ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧ - ٦٩ ،
 ٨٣ ، ٩٢ - ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٦ ،
 ١٠٨ - ١١٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ،
 ١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٧٠ - ١٧٢ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ،
 ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣ ،
 ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٧٣ ، ٣٠٥ ،
 ٣٢٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤٢١ ،
 ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢ ، ٤٥٠ - ٤٥٢ ،
 ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩ - ٤٧٢ ،
 ٤٨٥ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥١٥ ، ٥١٩ ،
 ٥٦٩ ، ٥٧٣ ، ٥٨٤ ، ٦٠٧
 الأشراف ؛ ٦٠١ - ٦٠٥
 الآثار ؛ ١٧٢
 إفرنجي ؛ انظر الفرنج
 الآلان ؛ ٢٩ ، ٩٤
 آل البيت ؛ ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ٢٢٩ ،
 ٦٥٧
 الألمان ؛ ٤٥٠
 الألمانى ، قبائل ؛ ٧٨
 إمارة جليقية ؛ انظر ملكة جليقية
 إمارة قرطبة ؛ ١٨٤ ، ٢١٤ ، ٢٩٠ ، وانظر
 الخلافة الأندلسية

الإمامية ؛ ١٤٢

- إمارة قطلونية (وبرشلونة) ؛ ٥٤٣ ، ٦٠٩
 الإمبراطورية الجرمانية ؛ ٤٥٠
 الإمبراطورية الرومانية ؛ انظر الدولة الرومانية
 الأمويون ؛ انظر بنو أمية
 الأندلسيون ، ٢٤٥ ، ٢٩٠ ، ٤٩٥ ، ٦٦٣
 الأوس ؛ ٦٨
 إيباد ؛ ٦٨
 الإيفساليون ؛ ٤٥٠
 البابوية ؛ ٣٥٩ ، ٤٧٢
 البرانس ، قبيلة ؛ ٢٠٥ ، ٣٩٣
 البربر ؛ ١٧ - ٢٢ ، ٢٥ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٩ ،
 ٦٦ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨٤ ،
 ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٠ ، ١١٧ - ١٢٥ ، ١٣٥ ،
 ١٤٢ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ،
 ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٨٥ ، ١٩٤ ،
 ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ - ٢٠٦ ، ٢١٢ ،
 ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ،
 ٢٣٨ ، ٢٥٧ - ٢٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ ،
 ٢٩٠ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٣١ ،
 ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٦٠ ،
 ٣٧٥ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٤٢٦ ، ٤٤٠ ،
 ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠١ ،
 ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١٣ ، ٥١٨ ، ٥٣١ ،
 ٥٣٦ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ، ٥٤٥ ،
 ٥٤٦ ، ٥٥٣ ، ٥٥٧ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ،
 ٥٧٠ ، ٥٧٦ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٢ ،
 ٦٢٨ ، ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٣٧ ، ٦٤٣ -
 ٦٥٧ ، ٦٦٤ ، ٦٦٦ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ -
 ٦٧٤ ، ٦٨٣ ، ٦٨٦ - ٦٨٨
 البرجونيون ؛ ١١٥
 برغواطة ؛ ٦٧٣

البريطانيون ؟ ١٠٩

اليشكنس ؟ ٨٣ ، ١٣٣ ، ١٤٦ ، ١٧٣ ،

١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ،

٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥ ، ٢٤٢ ، ٢٥٦ ،

٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ،

٣٥٧ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ ،

٥٠١ ، ٥٣٩ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٩١ ،

البلديون ؟ ٦٧ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ٢٠٤ ،

٦٨١ ، وانظر المولدون

البيزنطيون ؟ ٢٤٥ ، ٤٥٦

بنو أبي عبدة ؟ ٢٠٥ ، ٣١٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ،

٣٤٧ ، ٥٧٤

بنو أسد ؟ ٦٨

بنو إسرائيل ، انظر اليهود

بنو أمية ؟ ٦٩ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ،

١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥١ ،

١٥٣ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٠ ، ١٨٦ ،

١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ،

٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٨ ،

٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٣٠٧ ،

٣١٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٤٤ ،

٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٧٣ ، ٣٨٣ ، ٤٢٨ ،

٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٨٢ ،

٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٥٠٥ ،

٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥٣١ ، ٥٤٤ ، ٥٥١ ،

٥٥٥ ، ٥٥٩ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٦٠٦ ،

٦١٣ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨ ،

٦٣٣ ، ٦٤٣ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٥٧ ،

٦٥٨ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٤ ، ٦٦٦ ،

٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٨١ ، ٦٨٦ ، ٦٩١ ،

بنو برزآل ؟ ٥٠١ ، ٥١٨ ، ٥٢٦ ، ٦٥٤ ،

٦٧٠

بنو بيسل ؟ ٢٠٥

بنو نجيب ؟ انظر بنو هاشم

بنو جفنة ؟ ٦٨

بنو الخليل ؟ ٣٠٤ ، ٣٣٩ ، ٣٨٩ ،

بنو جهور ؟ ٢٠٥ ، ٥٧٤

بنو حجاج ؟ ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،

بنو حذير ؟ ٥٧٤ ، ٦١٨

بنو حفصون ؟ ٣٢٠

بنو حمدان ؟ ٤٤٧

بنو حود ؟ ٦٧٣ ، ٦٥٤ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦ ، ٦٨٣ ،

بنو خزر ؟ ٤٩٣ ، ٤٩٤

بنو خلدون ؟ ٣٣١ ، ٣٣٢

بنو دانس ؟ ٣٠٥

بنو دمر ؟ ٦٥٤

بنو ذو النون ؟ ٣٠٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٩٠ ،

٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٣٦ ،

بنو رزين ؟ ٤٢٦

بنو رسم ؟ ٣١٤

بنو زروال ؟ ٤٢٦

بنو شويط (بنو الطويل) ؟ ٣١٩ ، ٣٤٢ ،

٤٢٦

بنو شهيد ؟ ٢٠٥ ، ٣١٢ ، ٣١٨ ، ٥٧٤ ، ٦١٨ ،

بنو عامر ؟ ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٩ ،

٦٤٣ ، ٦٤٩ ، ٦٥١ ، ٦٦٠ ، ٦٨٣ ،

بنو العباس ؟ ١٣٠ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ،

١٦٢ ، ١٨٥ ، ١٩٧ ، ٢٢٩ ، ٣١٤ ،

٣١٨ ، ٤٢٩ ، ٦٨٣ ،

بنو عصام ؟ ٤٢٥

بنو عمرو ؟ ٣٠١ ، ٣١٩

بنو عمرييل بن قيمات ؟ ٤٩٩

بنو غزوال ؟ ٤٢٦

بنو غومس ؟ ٥٦٢ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦٣٦ ،

بنو فطيس ؟ ٥٧٤ ، ٦١٨

بنو قسي ؟ ٢٣٨ ، ٢٥٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ،

٣١٤ ، ٣١٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ،

٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ،

٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٤٦٧ ، ٥٤٥ ،

بنو كلاب ؟ ١٣٥

بنو كنانة ؟ ٦٨

بنو لحم ؟ انظر لحم

بنو مدرار ؟ ٣١٤

بنو مطروح ؟ ٣٢٠

بنو مغيث ؟ ٢٠٥

بنو المنذر ؟ ٦٨

بنو هاشم التميميون ؟ ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٩٩ ،

٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤٢٦ ،

٥٥٠ ، ٥٤٩

٤٦٠ ، ٤٤٨ ، ٤٤٧ ، ٤٤٠ ، ٣٥١
 ٤٦٢ ، ٤٦٥ ، ٥١٩ ، ٥٧٥ ، ٦٣٨
 ٦٩٥ ، ٦٩١ ، ٦٨٤ — ٦٨١ ، ٦٦٠ ، ٦٥٩
 الدولة البيزنطية : ٥٤ ، ٢٨٢ ، ٤٢٦
 ٥٧٢ ، ٤٥٦
 الدولة الرومانية الشرقية : ١٤ ، ١٦ — ١٩ ،
 ٩٣ ، ٢٩
 الدولة الرومانية الغربية : ١٧ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦
 الدولة العامرية : ٤٤٠ ، ٥٧٩ ، ٦١٩ ، ٦٢٨
 ٦٣٤ ، ٦٣٦ — ٦٣٨ ، ٦٤٣ ، ٦٥٠
 ٦٥٧ ، ٦٧٦ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٩٠
 الدولة العباسية : ١٤٦ ، ٢٣٤ ، ٢٨٢ ، ٤٢٩
 ٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٥٧٢
 الدولة الفاطمية : ٤٢٦ ، ٤٥١ ، ٤٥٦
 دولة الفرس : ٩٢
 النميون : ٢٠٦
 ربيعة : ٦٨
 الرقيق : ٦٤ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٨٧
 الروم : ١٥ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥
 ٦٨ ، ١٠٧ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ — وانظر
 الرومان .
 الرومان : ٥١ ، ٥٦ ، ٧٠ ، ٩٥ ، ١٧٧
 ٣٨٣ ، ٦٨٩
 زناتة ، قبيلة : ٢٥ ، ١١٩ ، ١٥١ ، ٢٠٥
 ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٣١
 ٥٣٨ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨
 ٦٠٩ ، ٦٣٦ ، ٦٦١
 زويلة ، قبيلة : ١٦

س — غ

السكسون : ١١٦ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧٥
 ١٨٣ ، ١٨٨
 السوابيون : ٢٩ ، ٩٤
 الشاميون : ١٢٠ ، ١٢٣ — ١٢٦ ، ١٥١
 ٢٠٤ ، ٦٨٧ ، ٦٨١
 الشيعة : ١٤١ — ١٤٦ ، ٣٨٨ ، ٤٢٧ ، ٤٩٣
 ٤٩٤ ، ٤٩٨ ، ٥٠٠ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥
 الصفورية : ٦٩ ، ١١٨
 الصتمالية : ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٤٩ ، ٢٧٩

بنو يفرن : ٥٤٥ — ٥٤٧ ، ٦٥٤
 النابيون : ٥٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧
 تبع : ٦٨
 التروبادور : ٤٧٨
 تميم : ٦٨ ، ٥٧٧
 ثقيف : ٦٨

ج — ز

جذام : ٦٨
 جراوة : ٢٢
 الجرماني : ٦٣ ، ١٧٣
 الخلافة : ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٦
 ٢٢٨ ، ٢٤٢ ، ٢٥٩ ، ٣٥٤ ، ٤٠٩
 ٤٥٠ ، ٥٠١ ، ٦٢٠ ، ٦٩٧
 الحيشة (الأحياش) : ٦٨
 الحجازيون : ٧١
 الحورية : ١١٨
 حير : ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٥ ، ١٤٢
 خشم : ٨٧
 خزاعة : ٦٨
 الخزرج : ٦٨
 الخلافة (العامة) : ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٣
 ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢
 ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٧
 ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢
 ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٥ ، ٤٤٠
 ٤٥٤ ، ٥٤٠ ، ٥٤٦ ، ٥٥٥ ، ٦١٧
 ٦٢٢ ، ٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ٦٣٤ ، ٦٥٠
 ٦٥٨ ، ٦٦٩
 الخلافة الأموية : ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٤١
 ١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٩٦ ، ٤٢٩
 ٤٤٠ ، ٥١٦ ، ٥٢٤ ، ٥٤١ ، ٦٥٠
 ٦٦٠ ، ٦٦٧ ، ٦٨٠ ، ٦٨٢ — ٦٨٤ ، ٦٩٠
 الخلافة الأندلسية : ٤١٢ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢
 ٤٨٢ ، ٤٩١ ، ٥١٥ ، ٥١٩
 الخلافة العباسية : ١٧٠ ، ١٩٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤
 الخلافة الفاطمية : ٤٢٩ ، ٤٩٤ ، ٦٨٢
 الخوارج : ٦٩ ، ١١٧
 الدولة الأموية : ١٤٠ — ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٩٠
 ١٩٣ ، ٢٠٤ ، ٢٢٤ ، ٢٨١ ، ٣٤٤

ف - ق - ك

الفاطميون ؛ ٤٠١ ، ٤٠٩ ، ٤٢٥ - ٤٧٧ ،
٤٨٨ ، ٤٩٢ ، ٥٤٤ ، ٥٤٦

الفتيان الصقالبة (والعامريون) ؛ ٣٤٨ ،
٤٣٩ ، ٦١٦ ، ٦١٨ ، ٦٣٧ ، ٦٤٣ ،
٦٤٤ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥٤ ،
٦٥٨ ، ٦٦٢ ، ٦٧٧ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥

الفرس ؛ ٦٨ ، ٧٠

الفروسية الأندلسية ؛ ٢٧٤

الفرنج ؛ ٢٩ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٧٦ -

٨٣ ، ٨٩ ، ٩٣ - ٩٨ ، ٩٦ -

١٠٤ ، ١٠٦ - ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٣ -

١١٦ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٧ ،

١٥٥ ، ١٧٠ - ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ،

١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ،

٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ،

٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،

٢٥٩ ، ٣٦١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٦٤ ،

٤٦٥ ، ٤٨٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩

الفرنسيون ؛ ٤٥٠ ، ٥٤٨

الفهرية ؛ ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٨٦ ،

١٩٠ ، ١٩١

الفكيكج ؛ ٢٦١

القراطة ؛ ٥٤٤

قريش ؛ ٦٨ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣١ ، ٦٤٥

القشتاليون ؛ ٤٨٧ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٢٧ ،

٥٦٥ ، ٥٩١ ، ٥٩٨

قضاة ؛ ٦٨

القنوط ؛ ٢١ ، ٢٦ - ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ،

٣٥ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ - ٤٧ ، ٤٩ ،

٥١ - ٥٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٥ ،

٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٤ ،

١١٦ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ،

١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٢٢١ ، ٢٣٧ - ٢٣٩ ،

٢٣٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٨ ، ٢٩٥ ، ٥١٥ ،

٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٨٩

القيسية ؛ ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٩٠

كتامة ؛ ٣٣٩ ، ٤٩٧

٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٢ ، ٤١٣ ، ٤٤٨ ،

٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦١ ،

٤٨٣ ، ٤٩٨ ، ٥١٤ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ،

٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣١ ، ٥٣٦ ،

٥٥٦ ، ٥٦٩ ، ٥٧٩ ، ٥٨٤ ، ٦١٨ ،

٦٢٢ ، ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٤٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ،

الصليبيون ؛ ٤٧٩

صنهاجة ؛ ٢٥ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٣١ ،

٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٦٤٤ ، ٦٥٤ ، ٦٦٠ ،

٦٦٢ ، ٦٧١

الطوائف ، ملوك ودول ؛ ٢٠٥ ، ٢٨١ ،

٣٠٧ ، ٣٤٠ ، ٤٧٥ ، ٥١٦ ، ٦٧٧ ،

٦٨٣ ، ٦٨٦ ، ٧٠٤

العبيديون ؛ أنظر الفاطميون

العجم ؛ ٦٨

المراقبيون ؛ ٧٠

المغرب ؛ ١٤ - ١٦ ، ٢٠ - ٢٢ ، ٢٥ - ٢٧ ،

٣٣ - ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ - ٤٩ ،

٥٢ - ٥٤ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ - ٦٩ ،

٧١ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٧ ،

٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ - ١٠٣ ، ١٠٥ ،

١٠٩ - ١١١ ، ١١٤ - ١١٩ ، ١٢١ -

١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ،

١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،

١٧٧ ، ١٨١ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ -

٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ،

٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٩٢ ،

٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ،

٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٤٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ ،

٣٩١ ، ٤٢٩ ، ٤٤٨ ، ٤٥١ ، ٤٥٤ ،

٤٦٤ ، ٤٦٩ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ،

٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٢ ، ٥٠٤ ، ٥٠٧ ،

٥٠٨ ، ٥٣١ ، ٦٦٠ ، ٦٨٤ ، ٦٨٦ ،

٦٨٧ ، ٦٩٦

الغاليون ؛ ٩٥ ، ١٠٩

غسان ؛ ٦٨

الفسقروانيون ؛ ٢٦٦

غطفان ؛ ٦٨

غمارة ، قبيلة ؛ ٤٩٦ ، ٥٥٧

١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٥٣ ،
١٥٧ ، ٢٠٤ ، ٢٢٥ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ،
٦٣١ ، ٦٨١

المعزاة ؛ ٤٣١

منراوة ، قبيلة ؛ ٥٤٥ — ٥٤٧ ، ٥٥٨ ،
٦٥٤ ، ٦٠٩

مكذاسة ، قبيلة ؛ ٢٠٥

ملكة أراجون ؛ ٢٣٦ ، ٥٤٤

ملكة آرل ؛ ٤٦٨

المملكة الإسبانية النصرانية ؛ ٥٥ ، ٨٣ ، ٢٠٨ ،

٢٠٩ ، ٢١٣ — ٢١٥ ، ٢٢٠ — ٢٢٢ ،

٢٣٦ ، ٢٦١ ، ٣٥٣ — ٣٥٨ ، ٣٦٠ —

٤٦٥ ، ٣٦٢

ملكة أشتوريش ؛ ٣٦١

ملكة أكوئين ؛ ٢٠٩

ملكة جليقية ؛ ١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،

٢١٨ ، ٣١١ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٨٨

ملكة غرناطة البربرية ؛ ٢٠٦

ملكة الفرنج ؛ ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ،

٨١ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٧١ ، ١٨٣ ، ٢٠٩ ،

٢٣٤ ، ٣٦١ ، ٤٥١ ، ٤٦٥ ، ٦٨٠ ،

المملكة القوطية ؛ ٣٠ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٢ ،

٧٤ ، ٢٠٨

ملكة ليون ؛ ٢٦١ ، ٢٨٥ ، ٣٠٣ ، ٣٦١ ،

٣٦٢ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤١٣ ،

٤٨٤ ، ٤٨٩ ، ٥٢٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ،

٥٤٨ ، ٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ،

٥٩٤ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٦١١ ، ٦١٢ ،

٦٢٩

ملكة نافار (نبره) ؛ ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٩١ ،

٦٠٠ ، ٥٩٩

الموالى ؛ ١٢١ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،

٢٤٩ ، ٢٧٩ ، ٣٢٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ،

٤٦١ ، ٥١٤ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧

المولودون ؛ ٦٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٣٠ ،

٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩ ، ٢٩٢ ،

٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ،

٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ — ٣٣٠ ، ٣٣٢ ،

٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،

الكرسى الرسولى ؛ ٣٥٩

الكلاميون ؛ ٤٣١

ل — ي

لحم ؛ ٢٣ ، ٢٧ ، ١٢٣ ، ٣٣١

اللومبارد ؛ ١١٦ ، ١٧٣ ، ٤٥٠

المجر ؛ ٤٧١ ، ٤٧٩

المجوس ؛ انظر النورمان

مدغرة ، قبيلة ؛ ٢٠٥

مديونة ، قبيلة ؛ ٢٠٥

المروانية ؛ انظر بنو أمية

المستعربون ؛ انظر النصارى المعاهدون

المسلمون ؛ ١٦ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٩ ، ٤٢ ،

٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٦٢ ،

٦٦ ، ٦٧ ، ٧١ — ٧٥ ، ٨٠ — ٨٣ ،

٨٦ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ —

١٠٨ ، ١١٤ — ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ،

١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٦ —

١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٥ ،

٢١٠ — ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ،

٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٠ —

٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،

٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ،

٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٤٤ ،

٣٥٣ ، ٣٥٤ — ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ —

٣٦٣ ، ٣٨٣ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ — ٤٠١ ،

٤٠٣ — ٤٠٦ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ،

٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ،

٤٦٥ ، ٤٦٨ — ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ،

٤٨٤ ، ٤٨٦ — ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ،

٥١٥ ، ٥٢٧ ، ٥٣٩ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ،

٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٥٢ ، ٥٦٠ — ٥٦٦ ،

٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٥٩٠ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ،

٥٩٩ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٦ ،

٦٢٩ ، ٦٤٨ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٨٩

المصريون ؛ ٧١

مسمودة ؛ ٣٥٧ ، ٣٧٦ ، ٣٣٩ ،

٣٩٣

مضر ، المضرية ؛ ٦٨ ، ٨٥ ، ١٢٧ ،

٦٨٢ ، ٥٧٠ ، ٥١٥ ، ٣٨٣ ، ٣٨٢
٦٩٥ ، ٦٨٨
النصرانية ؛ ١٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤٤
٦٤ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠١ ، ١٠٦
١١٠ ، ١١١ ، ١٣٧ ، ١٦٩ ، ١٧١
٢٠٦ ، ٢٢١ ، ٢٣٤ ، ٢٦٧ ، ٣٠٥
٣٣٧ ، ٣٨١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٧ — ٤٥٩
٤٧٤
نفزة ، قبيلة ؛ ١٥٠ ، ٢٠٥ ، ٢٧٦
النورمان ؛ ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٧
٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦ — ٢٩٨
٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٤٧٩ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩
٦٨٧ ، ٥٩٥
هواره ، قبيلة ؛ ٢٠٥ ، ٣٣٩
حوازن ، قبيلة ؛ ٣٢٩
الهُون ؛ ٢٨
الوثنية ؛ ١٧
الوندال ؛ ١٧ ، ١٨ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٦٤ ، ٩٤
يُثرب ؛ ٦٨
اليمينية ؛ ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦
١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٤٤
١٥١ — ١٥٣ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥
١٦٦ ، ١٩٤ ، ٢٠٤ ، ٢٢٥ ، ٢٥٥
٣٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٨١
اليهود ؛ ٣١ ، ٣٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٥
٢٠٦ ، ٢٢٩ ، ٢٤٩ ، ٥٠٦ ، ٥١٥
٦٨٢ ، ٥١٦
اليهودية ؛ ١٧ ، ٣٢

٣٨٢ ، ٣٨٩ ، ٤٥٨ ، ٤٨٢ ، ٥١٤
٥١٥
النافاريون ؛ ١٧٣ ، ١٧٦ ، ٥٩٣
النصارى ؛ ٢٥ ، ٣٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٤
٦٢ ، ٦٦ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ١٠٥
١١٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦
١٨٧ ، ١٩٨ ، ٢١١ — ٢١٦ ، ٢٢١
٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٥٢
٢٤٩ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ —
٢٧٣ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ — ٢٩٤ ، ٢٩٦
٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦
٣١٠ ، ٣١٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٤٢
٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧
٣٥٩ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ — ٣٨٤ ، ٣٩١ —
٤٠٠ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ — ٤٠٧ ، ٤١٢ ،
٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ — ٤٢٥
٤٦٨ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٢
٤٨٤ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٤٩٨ — ٥٠٠
٥٠٢ ، ٥٠٦ ، ٥٢٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠
٥٤١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٤٩ ، ٥٦٠
٥٦٣ — ٥٦٥ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٧٣
٥٨٩ ، ٥٩٤ ، ٥٩٨ ، ٦١٣ ، ٦١٦
٦٤٩ ، ٦٥١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٩ ، ٦٩٧
نصارى الشمال ؛ ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤١
٢٦١ ، ٢٩٥ ، ٦٨٠ ، ٦٨٧
النصارى المعادون ؛ ٦٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٦
٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٦٨ — ٢٧٠ ، ٢٩٥

فهرست البلدان والأماكن

— ١ —

٣٩١ ، ٤٤٢ ، ٤٨٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٨ ، ٥٦٨

٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٩٤ ، ٦٠١ ، ٦٧٦ ، ٦٩٠

إستبة ؛ ٣٣٧

إستجة ؛ ٤٩ ، ٧٠ ، ١٢٢ ، ١٦٣ ، ٢٣٣ ، ٤

٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٤

٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٧٥

أسترقه ؛ ٥١ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ٢١٢ ، ٤

٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٩١ ، ٤

٥٤٢ ، ٥٥٢ ، ٥٦٢ ، ٥٩٨

أستورياس (أشتوريش) ؛ ٥١ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٤

٨٥ ، ١٣٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٤

٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٥٦٤ ، ٤

إسكتلندا ؛ ٩١

الإسكندرية ؛ ٢٤٥

أسكندناوة ؛ ٢٨ ، ٢٦٠ ، ٢٨٤

آسيا الصغرى ؛ ٥٤ ، ٩٢ ، ٩٣

أشبونة ؛ ٧٠ ، ٧١ ، ١٣٢ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٤

٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٣٠٦ ، ٣٥٤ ، ٤٨٨

إشبيلية ؛ ٣٤ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٤

١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ٤

١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٩٤ ، ٤

٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٤

٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٢٩٦ ، ٣٢٣ ، ٣٣١ ، ٤

٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٨ ، ٤

٣٤٩ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤

٤٩٧ ، ٥٢٢ ، ٦٦١ ، ٦٦٣ ، ٦٧٠ ، ٤

٦٧٢ ، ٦٧٦ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٧ ، ٧٠٣ ، ٤

أشبونة ؛ ٣٨٦

أصبهان ؛ ١٤٣ ، ١٤٤

الأصنام ؛ ١٢٠

أصيلا ؛ ٤٢٦ ، ٤٩٥ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨

إفريقية ؛ ١٥ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٣٨ ، ٤

٣٩ ، ٥٩ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٤

٩٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ٤

١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ٤

أبدة ؛ ٣٨٣ ، ٣٨٤

آبله ؛ ٢١٥

ابنيونش ؛ ٦١٢

أجدة ؛ ٧٠ ، ١١٥ ، ١٣٣

أراجون ؛ ٥٩١ ، وانتظر الثغر الأعلى

أربونة ؛ ٥٣ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٤

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٤ ، ٤

١٢٦ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ٤

١٧٠ ، ١٨٧ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٧ ، ٤

٢٥٠ ، ٤٦٤ ، ٤٧٤

الأردن ؛ ١٢٦

أوشدونة ؛ ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٣٦

أرقلة ؛ ٧٠ ، ١٣٣

أركش ؛ ٦٧٥

آرل ؛ ٩٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ٢٩٧ ، ٤٦٦

أرملاط ؛ ٤١٦ ، ٦٣٧ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦

إسبانيا ؛ ١٧ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٤

٥١ — ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٤

٧٠ ، ٧٢ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ٤

١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ٤

١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٥٥ ، ٤

١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، ٤

١٨٦ — ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ٢٠٧ —

٢٠٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٤

٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٦٢ ، ٢٩٠ ، ٣٥٣ ، ٤

٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩١ ، ٤١٤ ، ٤

٤٢٢ — ٤٢٤ ، ٤٣٥ ، ٤٤٦ ، ٤٦٩ ، ٤

٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٥٠٨ ، ٤

٥٤٤ ، ٥٥٩ ، ٥٦١ ، ٥٦٨ — ٥٧٣ ، ٤

٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٤ ، ٥٩٩ ، ٦٠١ ، ٤

٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨٩

إسبانيا المسلمة ؛ ١١١ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ٤

١٨٣ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٦١ ، ٤

٤٩ — ٥٢ ، ٥٠ — ٦١ ، ٦٤ ، ٦٩
 ٧٠ ، ٧٣ — ٧٥ ، ٨١ — ٨٦ ، ٨٧
 ٨٧ ، ٩٨ — ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٢
 ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٢ — ١٢٥
 ١٢٧ — ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٤٠
 ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ — ١٥٣
 ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٢
 ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨٣ —
 ١٨٥ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ —
 ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ —
 ٢١٤ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤
 ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢
 ٢٥٧ ، ٢٦١ — ٢٦٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨١
 ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩١
 ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧
 ٣٠٩ — ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨
 ٣٢١ — ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨
 ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤ — ٣٥٩
 ٣٦٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ — ٣٨٠
 ٣٨٢ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٨ ، ٤٠٤
 ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ — ٤٣١
 ٤٣٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٤٦ — ٤٤٨
 ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨
 ٤٦٠ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧ ، ٤٧٤
 ٤٨٢ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣
 ٤٩٧ — ٤٩٩ ، ٥٠١ — ٥٠٦ ، ٥٠٩
 ٥١٢ ، ٥٢١ ، ٥٢٨ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠
 ٥٤٣ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٩
 ٥٥٤ — ٥٥٩ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٨ —
 ٥٧٤ ، ٥٧٦ ، ٥٧٩ ، ٥٨٤ ، ٥٨٨
 ٥٨٩ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٥ ، ٦١٨
 ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠
 ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٣ ، ٦٥٠ ، ٦٥١
 ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٦٠ ، ٦٧٠
 ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٨٠ — ٦٨٤ ، ٦٨٦ —
 ٦٨٩ ، ٦٩٦ ، ٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٤

أنه ؛ ٥٥

أنيسون ؛ ١٠٥

١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٨٥ ، ٢٠٠ ، ٢٣١
 ٢٤١ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٩٥
 ٤٢٥ — ٤٢٨ ، ٤٧٤ ، ٤٧٨
 ٤٧٩ ، ٤٩٢ — ٤٩٤ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥
 ٥٦٤ ، ٦١٨ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٩٤

أفنيون ؛ ١١٥ ، ١١٦

إقريطش ؛ ٢٤٢ ، ٢٨٢ ، ٤٧٦

إفليش ؛ ٣٤٠

أكشوبة ؛ ١٢٦ ، ٢٥٧ ، ٣٠٦ ، ٣٣٩

٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٦٩٠

أكسفورد ؛ ٩١

أكوتين ؛ ٧٦ ، ٧٩ — ٨١ ، ٨٦ ، ٨٨

٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥ — ٩٨ ، ١١٣ ، ١١٥

١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٢٢٧

٤٧٦

آكي ؛ ٤٦٩

الأنديجا ؛ انظر الخندق ، وموقعة الخندق

ألبه والقلاع ؛ ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣١

٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٩٤

٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ —

٣٥٩ ، ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩

٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٧ ، ٤٨٧

ألبونت ؛ ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٨

إلبيرة ، وكورة ؛ ٥٠٠ ، ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٣٢

١٣٦ ، ١٥١ — ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٨

١٨٦ ، ١٩٤ ، ٣١١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨

٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٧٥

٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠

٣٧٩ ، ٣٢٩ ، ٣١٠ ، ٣٠٩

ألفونت ؛ ٦٧١

ألمانيا ؛ ٧٨ ، ٩٤ ، ٢٦١ ، ٢٨٤ ، ٤٥٦ —

٤٥٨

ألمرية ؛ ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٧ ، ٤٤٦

٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٩ ، ٦٥٣ ، ٦٥٨

٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٧١ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦

٦٨٨ ، ٦٩٠ ، ٧٠٤

أنتيب ؛ ٤٧٤

أنتيسة وحسن ؛ ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٤١٧ ، ٤٨٦

٥٣٨

الأندلس ؛ ١٧ ، ٣٨ — ٤١ ، ٤٦ ، ٤٨

باب قرطبة ؛ ٣٨٥
باب القنطرة ؛ ٤٤٨
باب الملك ؛ ٤٤٨
باب النخيل ؛ ٢٧٩ ، ٤٤٥
باب اليهود ؛ ٤٤٨
باجة ؛ ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،
١٣٤ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
١٨٦ ، ٢٠٩ ، ٢٤٢ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،
٢٦٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ ، ٣٢٣ ، ٣٣٠ ،
٣٣٥ ، ٣٣٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ،
٣٩٣
بادربورن ؛ ١٦٩ ، ١٧٤
بارى ؛ ٤٧٦
باريس ؛ ٧٨ ، ٩٠
بازو ؛ ٣٥٨ ، ٥٦٠ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧
باطقة ؛ ١٣٢
باغة ؛ ٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٦٩٠
باقاريا ؛ ٧٨ ، ٨٠
بالش ؛ ٤٠٤
بيشتر ؛ ٣٠٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥ ، ٣٣٦ ،
٣٣٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ ، ٣٨٨
بحاية ؛ ٤٩٤
بحر الزقاق ؛ ٤٢٧ ، ٤٩٢
البحيرة ؛ ٢٩٧
بحيرة چنيث ؛ ٤٦٩
بحيرة خندة ؛ ٤٢ ، ٤٤
بحيرة كونستانس ؛ ٤٧٢
البراجلة ؛ ٣٢٨
براقيا ؛ ٢١٩
بربشتر ؛ ٣٤٢ ، ٦١٢
البرتقال (ويرتقال) ؛ ٤٥ ، ٧٠ ، ٧١ ،
٢١٥ ، ٣٠٤ ، ٤٨٨ ، ٥٤٧ ، ٥٥٩ ،
٥٦٠ ، ٥٦٤ ، ٥٩٦
برجة ؛ ٢٦٥
برجدة ؛ ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٤ ،
٩٦ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ -
٤٧٣
بردال ؛ انظر بوردو
بردوليا ؛ ٣٥٥ ، ٣٥٦
برشلة ؛ ٥٣ ، ٧٠ ، ١٣٣ ، ١٦٨ ،

أوبيدو ؛ ٢١٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٥٤ ،
٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٥٩١
أوتون ؛ ٨٢ ، ٨٤
أوريا ؛ ٢٨ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٩٣ ،
١١٠ ، ٢٦٦ ، ٤٢٠ ، ٤٥٢ ، ٤٧٢ ،
٤٧٩
أوريولة ؛ ٥٠ ، ٥٥ ، ١٣٢ ، ٢٠٤ ، ٢٩٧
أوزوفه ؛ ٢٣٥
أوستراسيا ؛ ٧٩ ، ٩٦ ، ١٠٢
أوستريا ؛ ٨٠
أوصة ، وادى ؛ ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ،
٥٥٠ ، ٥٧٣ ، ٦٥١
أوسيز ؛ ١١٥
إيج مورت ؛ ٤٦٨
إيريا ؛ ٢٢٠ ، ٥٦٠
إيطاليا ؛ ٢٨ ، ٥٣ ، ٧٨ ، ٩٤ ، ١١٠ ،
٢٦٦ ، ٤٢٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ -
٤٧٠ ، ٤٧٣ ، ٤٧٦ ، ٤٧٩
إيكس ؛ ٤٦٨
إيكسلا شابيل ؛ ٢٣١

ب - ت - ث

باب الحنان ؛ ٤٤٨ ، ٤٨٥
باب الجوند ؛ ٤٤٨
باب الـ اهره ؛ ٥٤٠
باب السابط ؛ ٤٤٨
باب السدة ؛ ٣٧٥ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٤١٦ ،
٤٤٨ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٩٨ ، ٥٢٦ ،
٦٣٧
باب شيزروا (الشري) ؛ ١٧٧ ، ١٧٨ ،
٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٥٦
باب الشري ، موقعة ؛ ١٨٣ ، ١٨٦ ،
١٨٧ ، ٢٥٦
باب الصناعة ؛ ٤٤٨
باب طليطة ؛ ٤٤٨
باب عامر ؛ ٤٤٨
باب عبد الجبار ؛ ٤٤٨
باب العدل ؛ ٤٤٨
باب المطارين ؛ ٤٤٨

بلتيرة ؟ ٣٩٥	١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٨٦ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥ ،
بلد الوليد ؟ ٧٠	٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٩٤ ،
البلدة ، موقعة ؟ ٣٦٢	٣٤٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤١١ ، ٤٢٢ ،
البلقان ؟ ٢٧	٤٦٥ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٨ ، ٦١٠ ،
بلنتلة ؟ ٥٥	برغش ؟ ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٤٠٣ ، ٤٨٤ ،
بلغسية ، وكورة ؟ ٥٥ ، ٧٠ ، ١٣٣ ،	٥٦٣ ، ٥٧٣ ، ٥٩١ ، ٥٩٣ ، ٦٠٠ ،
٢٠٤ ، ٢٣٣ ، ٣٧٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩ ،	البرنيه ؟ انظر جبال البرنيه
٧٠٤ ، ٦٦٠	بروقانس ؟ ١١٥ ، ١٦٦ ، ٢٦٦ ، ٢٩٧ ،
بله نويه ؟ ١٥٤	٤٦٦ — ٤٦٨ ، ٤٧٠ — ٤٧٤ ، ٤٧٧ ،
البليار ؟ انظر الجزائر الشرقية	٤٧٨
بليارش ؟ ٣٤٢ ، ٣٤٣	بريتانيا ؟ ١٧٣ ، ١٧٥ ،
بيلوفا ؟ ٩٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ —	بريجور ؟ ٩٩
١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ،	برزيه ؟ ٧٠ ، ٧٤ ، ١١٥ ، ١٣٣ ،
٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٧ ،	بسطة ؟ ٧٠ ، ٥٤٣ ،
٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣٤٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ،	بسكرة ؟ ٤٩٤
٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٩٠ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ،	بسكونية ؟ انظر بلاد البشكنس
٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٨ ، ٤١١ ،	البصرة (بالعراق) ؟ ٢٣ ، ٢٤ ، ٦٩٤ ،
٤١٧ ، ٥٤٨ ، ٥٦٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٩ ،	البصرة (بالمغرب) ؟ ٤٢٦ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦ ،
٦٠٠	٤٩٧
البهو الذهبي ؟ ٤٨٣	بطلينوس ؟ ٧١ ، ٢٤٧ ، ٣٠٣ — ٣٠٧ ،
بواتو ؟ ٩٩	٣٢٣ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ،
بواتيه ؟ ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١١ ،	٣٩٣ ، ٤٠٩ ، ٥٦٤ ،
بورتو ؟ ٥٦٠	بغداد ؟ ١٧١ ، ٢٨١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٥٠٥ ،
بورقيلادي آرناس ؟ ٥٤٢	٦٩٣
بورردو ؟ ٩٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١١٤ ، ١٧٣ ،	بقصرة ؟ ٥٥
بوسير ؟ ١٤٦	بقيرة ؟ ١٨٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ،
بولونيا ؟ ٩١	بلاد البشكنس ؟ ٧٤ ، ١١٣ ، ١٣٣ ، ١٧٣ ،
بون : ٨٤	١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٧ ، ٢١٠ — ٢١٣ ،
بونتومو ، موقعة ؟ ٢١٦	٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٣٠ ،
بياسة ؟ ٣٧٦ ، ٥٢٦	٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٣٥٤ — ٣٥٦ ،
البيت الحرام ؟ ١٤١	بلاد الفرنج ؟ انظر فرنسا
بيت المقدس ؟ ٢٢٠	بلاد اللونبارد ؟ ٢٤٥ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ،
بيزانصون ؟ ٩٠	٤٧٣ ، ٤٧٥ ،
بيزنطية ؟ ٩٣ ، ٢٨٢	بلاد الخجوس ؟ ٢٨٤
البيضاء ، موقعة ؟ ٢٦٧	بلاط الشهداء ، موقعة ؟ ٥٩ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ،
بيطراثة ؟ ٣٩٩	١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ — ١١٤ ، ٢١٢ ،
بييمون ؟ ٤٦٨ — ٤٧١	٤٦٤ ، ٤٧٧ ، ٦٨١ ، ٦٨٧ ،
تارنت ؟ ٤٧٦	بلاى ، موقعة ؟ ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ،
تارانثير ؟ ٤٦٩	٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ ،

٤٨٤ ، ٥٣٠ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٤٧ —
٥٤٩ ، ٦١٠ ، ٦٤٨ ، ٦٥٤ ، ٦٦٠ ، ٦٦٩

النفر الأوسط : ٢٣٧ ، ٧١ ، ٢٤٠ ، ٣٣٧ ، ٣٩٦
٦٤٤ ، ٤٨٤ ، ٣٩٦

النفر القوطى (الفرنجى) : ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٧
٢٦٥ ، ٤٠٤ ، ٤٢٢ ، ٥٤٣

ج - خ

جاردر فرينيه : ٤٦٧
چاقه : ٣٤٢

جامع إستجة : ٣٠٤
جامع إشبيلية : ٢٧٩

جامع الزمراء : ٤٣٢
جامع شذونة : ٣١٤

جامع قرطبة : ٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٤ ، ٣٥٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢ ، ٤٣٨ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٩٧ ، ٥٠٧ ، ٥١٠ ، ٥٦٠ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ٦٦٤ ، ٦٦٩ ، ٦٩٦

جامع القيروان : ٢٢
جامعة قرطبة : ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ١٠٧

چان دى لايبور : ١٧٣
جبال الألب : ١١٥ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ — ٤٧٧ ، ٤٧٤

جبال البرنيه : ٣١ ، ٥٣ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨ — ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٥٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٦ ، ٣١٤ ، ٣٤٢ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٤٦٤ — ٤٦٦ ، ٤٨٧ ، ٦١٢

جبال بلنسية : ١٨٦ ، ٢٢٥
جبال چورا : ٤٦٩ — ٤٧١
جبال رندة : ٣٠٨

تاكرونا : ٢٢٧ ، ٢٥٢ ، ٣٠٨ ، ٣١١
تقاهرت : ٣١٤ ، ٤٢٦ ، ٤٩٤ ، ٥٥٨
تقديمير ، الأندلس ، وولاية : ٥٠ ، ٧١ ، ١٢٦ ، ١٨٦ ، ٢٢٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٨٢ ، ٢٩٧ ، ٣١١ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٧٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩ ، ٥٤٣ ، ٦٩٠
تدمير الشام : ١٤٩
تراقية : ٢٨ ، ٢٩
ترجاله : ٣١٨

تقطيلة : ٢٥٦ ، ٢٥٩ — ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٦٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٨ ، ٤١٠

تخطوان : ٤٩٢
تقلمسان : ٥٥٨ ، ٥٤٧

تقودة : ٣٥٦
تور : ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ٤٧٧
تور ، موقعة : انظر موقعة بلاط الشهداء

تورتور : ٤٧٤

تورنجن : ٤٥٧

تورنى : ٧٧

تورينو : ٤٦٩

تولوشة (تولوز) : ٢٩ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٩ ، ١٠٤ ، ٢٢٧

تولوشة ، موقعة : ٨٢ ، ٩٧

تونس : ١٢٦ ، ١٣٠ ، ٤٢٥ ، ٤٣٧ ، ٤٩٩

النفر الأدنى : ٢٤١ ، ٢٥٨ ، ٣٣٩ ، ٤٠٧
النفر الأعلى : ٧١ ، ٨٩ ، ١١٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٥ — ٢٤٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٩٩ ، ٣٩٥ ، ٣٩٠

٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٢١ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧

جليلة : ٢٩ ، ٥١ ، ٥٣ — ٥٥ ، ٧٠
 ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ١١٤ ، ١٢٣
 ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ —
 ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٩ — ٢٢١ ، ٢٢٨
 ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩
 ٢٦٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ —
 ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٩٢
 ٤٠٥ ، ٤١١ ، ٥١٢ ، ٥٤٢ ، ٥٤٨
 ٥٥٩ — ٥٦١ ، ٥٦٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٧
 ٦١٢
 جليلة الغربية : ٢١٨ ، ٢١٩
 جوة : ٤٦٩
 جوزني : ٥٦٦
 جويان : ٩٩
 جيان ، وكورة : ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٣٢
 ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٩٠ ، ٢٥٣ ، ٢٩٢
 ٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤
 ٣٣٠ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧
 ٦٥٤ ، ٦٦٠ — ٦٦٢ ، ٦٧٣
 جيرندة (جيرونه) : ١٣٣ ، ١٧٤ ، ٢٢٧
 ٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥
 ٤٢٢
 جيروند ، مقاطعة : ١٠٢
 الحيزة : ١٤٦
 الحجاز : ٢٣ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٤٢٩ ، ٦٩٣
 الحرة ، موقعة : ١٢٣
 الحرمين : ١٩٧ ، ٤٢٩
 حصن الأجم : ١٩
 حصن أرنيط : ٣٩٧
 حصن أشرس : ٣٢٠
 حصن أشكر : ٤١٥
 حصن أشكفيرش : ٤٠٣
 حصن أطله : ٤١٥
 حصن أنقيسة : ١٤٧
 حصن أندة : ٢٩٢
 حصن أنة : ٤٠٣
 حصن أوربولة : ٣٧٩
 حصن إيلاس : ٣٤٢
 حصن بالغش : ٣٩٩
 حصن بيشتر : ٦٧٤

جبال كازبريا : ٢١٦
 جبال المعد : ٢٠٥
 جبال مونشيس : ٦١٠
 جبال وادي الحجارة : ١٣٢
 جبال وادي الرملة : ٤٨٦
 جبل الأخوين : ٢٩١
 جبل أشيروغرة : ٣٠٧
 جبل أوراس : ١٧ ، ٢٢
 جبل بيشتر : ٣٠٧ — ٣٠٩ ، ٣٨٥
 جبل الشارات : ٥١ ، ٣٥٩ ، ٦٩٠
 جبل شمتان : ٣٣٠
 جبل طارق والنضيق : ٤١ ، ٤٠٩ ، ٥٢١
 ٦٥٨ ، ٦٧٦
 جبل العروس : ٣٧
 جبل قرطبة : ١٣٢ ، ٦٣١ ، ٦٩٠
 جبل قنشق : ٦٤٦
 جواوة : ٤٢٦
 جويبره : ٤١٦ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣
 جرمانيا : ١١٠
 جريزون : ٤٦٩
 جريزيفودان : ٤٧٠ ، ٤٧٣
 جريونوبل : ٤٧٠ ، ٤٧٣
 الجزائر الشرقية : ٢٥ ، ٣٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦
 ٢٩٧ ، ٣٤٦ ، ٤٢٢ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦
 ٤٧٥ ، ٦٥٨
 الجزائر البريطانية : ٢٦٢
 الجزيرة (المراق) : ٢٣ ، ٤٤٧ ، ٦٩٣
 الجزيرة : ٢٩٧
 الجزيرة الخضراء : ٤٠ ، ٤١ ، ٥٢ ، ٧٠
 ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٣٥ ، ١٦٠ ، ١٨٧
 ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٩٦ ، ٣٠٨ ، ٣١١
 ٣٢٥ ، ٣٣٦ ، ٣٧٧ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨
 ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٢١ ، ٥٥٧
 ٥٦٤ ، ٦٤٩ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩
 ٦٦٤ ، ٦٧١ ، ٦٧٣ — ٦٩٨
 جزيرة طريف : ٤٠
 الجزيرة العربية : ١٨ ، ٢٠٥
 جزيرة كاماراج : ٤٦٧
 جزيرة ليران : ٤٧٤
 جزيرة ميورقة : ٤٠٤

حصن مجرول ، وقلة ؛ ١٦١ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٥٢٨

حصن مدلين ؛ ٣٩٣

حصن مدنيش ؛ ٦١٠

حصن المدور ؛ ١٥٩

حصن مرتش ؛ ٢٧٢ ، ٣٧٥

حصن مسرة ؛ ٤٠٠

حصن المنار ؛ ٤٠٣

حصن منت بطروش ؛ ٣٤٣

حصن بمقصر ؛ ٦١٠

حصن منت سلود ؛ ٣٠٥ ، ٣٠٦

حصن منت شقند ؛ ٣٢٨

حصن منتشون ؛ ٣٤٢

حصن المتلون ؛ ٣٣٨ ، ٣٧٥

حصن منيشة ؛ ٣٢٣ ، ٣٣٠ ، ٣٦٧

حصن مورور ؛ ١٨٦

حصن موله ؛ ٥٥ ، ٣٤٢ ، ٥٢٨

حصن مولت ميور ؛ ٣٨٥

حصن يبة ؛ ٤٨٧

حصن موت ؛ ٣٣١

الحضرة ، موقعة ؛ ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٣٠١

حلب ؛ ٤٤٧

حصن ؛ ٧٠ ، ١٢٦

الحيرة ؛ ٦٨

حي العرب ؛ ٤٧٠

خراسان ؛ ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥

خليج بسكونية ؛ ٥١ ، ٢١٣

خليج سانت تروبيه ؛ ٤٦٧ ، ٤٧٠

خليج قادس ؛ ٤٢

الحنق ، موقعة ؛ ٣٤٠ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٩

٤٤٢ — ٤٥١ ، ٤٦٠ ، ٥٩٠ ، ٥٩١

خندق شنت منكش ؛ ٤١٧ — ٤٢٠

خونكير ؛ ٣٩٧

خيخون ؛ ٥١ ، ٨٥

د — ز

دار الروضة ؛ ٤٣٦

دار السكة ؛ ٤٤٧

دار الناعورة ؛ ٤٨٥

داسيا ؛ ٢٨

حصن برتيل ؛ ٤١٥

حصن بطرس ؛ ٣٠٦

حصن بيطرة ؛ ٢٩٨

حصن بلاي ؛ ٢٢٤

حصن البلدة ؛ ٢٩٢

حصن -الولا ؛ ١٩

حصن الحامة ؛ ٥٢٧

حصن دسة ؛ ٤٩٩

حصن روطه ؛ ٣٠٢ ، ٣٤٣ ، ٤٠٢ ، ٤١٢

حصن صمسطا ؛ ٢٥٨

حصن شبطران ؛ ١٦٦ ، ٤١٦

حصن الشط ؛ ٣٨٥

حصن شلويانية ؛ ٣٣٦

حصن شمستان ؛ ٣٧٦

حصن شنت إشتين ، وقلة ؛ ٣١١ ، ٣٧٦ ، ٣٩٤ — ٣٩٦ ، ٤٠٠ — ٤٠٢ ، ٤١٧ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٦١٣ ، ٦٥١

حصن شنت بجنث ؛ ٥٣٨

حصن شنت برية ؛ ٣٩١

حصن شنت مرتين ؛ ٦١٥

حصن شنت منكش ؛ ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٥٨٩

حصن شندلة ؛ ٣٩٢

حصن طرش ؛ ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٥٢١

حصن طلمنكة ؛ ٣١١

حصن غرمائج ؛ ٤٠٣ ، ٤٨٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥١٢ ، ٦٥١

حصن فراكسيه ؛ ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٤٧٤

حصن فرانكش ؛ ٢٥٧

حصن قرقشتال ؛ ٣٩٩

حصن قسطلونة ؛ ٣٣٠ ، ٣٤٠

حصن قشيل ؛ ٣٤٢

حصن القصم ؛ ٤٠٣ ، ٦٧١

حصن قلقة (وقلة) ؛ ٣٩٧ ، ٣٩٩

حصن قلهرة ؛ ٣٩٩

حصن كركبوليه ؛ ٣٣٠

حصن كركي ؛ ٣٠٥

حصن لورة ؛ ٣٧٧

حصن ماومندة ؛ ٤٠٢

ريوخا ؛ ٥٩١

الزباب ، بلاد ؛ ٥٥٧

الزاهرة ؛ ٤٣٩ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٤٠ ،

٥٥٦ ، ٥٧٥ ، ٥٧٩ ، ٥٨٤ ، ٦٠٧ ،

٦٠٩ ، ٦١٤ ، ٦١٩ ، ٦٣٠ ، ٦٢٤ ،

٦٢٩ ، ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨ ،

٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٨٣

نزهراء ، مدينة ؛ ٤٣٥ — ٤٤٦ ، ٤٥١ ،

٤٩٨ ، ٥٠٦ ، ٥١٣ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ،

٦٢٤ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥٣ ،

٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٩٠

زويلة ؛ ١٦

م-غ

الساباط ؛ ٣٥٢

ساقوا ؛ ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ،

سان برنار ؛ ٤٧٠ ، ٤٧٢ ،

سانتوني ؛ ٩٩

سان جالن ؛ ٤٧٢

سبانيا ؛ ٥٣ ، ٧٤ — ٧٨ ، ٧٨ — ٨٠ ، ٨٢ ،

٨٤ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠١ ،

١١٥ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٥ ،

٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢١٤ ، ٤٦٤ — ٤٦٦ ،

٤٧٧

سيرة ؛ ٢٦ ، ٢٣ — ٢٨ ، ٢٥ — ٢٨ ، ٤١ ، ٤٩ ،

٦٠ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ٤٠٤ ، ٤٢٥ —

٤٢٨ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ ، ٤٩٥ ، ٥٥٧ ،

٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٤ ،

٦٧١ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥

سبيلة ؛ ١٦

سجلماة ؛ ٣١٤

سردانية ؛ ٢٦ ، ٣٩ ، ٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٣٦٦ ،

٤٦٦ ، ٤٧٥

سرقطة ؛ ٥٣ ، ٧٠ ، ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٣٦ ،

١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٩ ، ١٧٤ — ١٧٦ ،

١٧٨ ، ١٨٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢١٨ ،

٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ،

٢٨٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣١٨ ،

لدا تماركة ؛ ٢٨٤ ، ٤٨٨

دانية ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ٤٧٥ ، ٦٥٨ ، ٦٨٦ ،

حدنة ؛ ٢٤

حدوقة ؛ ٣٤١

دمشق ؛ ٢١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١ ،

٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١١٢ ، ١٢٨ ، ١٤٦ ،

٢١٠ ، ٥٠٥

حوقية ؛ ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ،

دير أجون ؛ ٤٦٩

دير إسلونزا ؛ ٥٤٨

دير بالمودي ؛ ٤٦٨

دير ديزنتي ؛ ٤٦٩

دير خنان ؛ ١٤٩

دير سانتا روفينا ؛ ٧٢

دير سان خيرمو ؛ ٤٤٢

دير ساهاجون ؛ ٥٤٨ ، ٥٨٩

دير كلوني ؛ ٤٧٣

دير نوفاليس ؛ ٤٦٨ ، ٤٧١ ،

دياجورسا ؛ ٦٠٠ ، ٦١٢ ،

دياط الثغر ؛ ٢٣٥

الريضة ، قمة ؛ ٢٤٥ — ٢٤٧ ، ٢٥٠ ،

٢٥١ ، ٢٥٥

ريضة قرطبة ، الريضة ؛ ١٥٨ ، ١٧٣ ،

١٧٦ ، ١٧٧ ، ٤٥٢ ،

الريضة ؛ ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٣١٤ ، ٤٣٦ ،

٥٢٣ ، ٥٣٠ ، ٦٤٤

روندة ؛ ٢٢٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ،

٣٨٢ ، ٦٧١ ، ٦٧٥

رورية ؛ ٢٥٨

روسيون ؛ ٧٥

روضة ؛ ٥٤١

رومة ؛ ١٧ ، ٢٧ — ٢٩ ، ٣١ ، ٥٣ ،

٩٤ — ٩٦ ، ١٠٨ ، ٤٣٩ ، ٤٦٨ ، ٤٧٣ ،

رونشال ؛ ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،

الريف ، بلاد ؛ ٤٩٢ ، ٤٩٧ ،

الريفييرا ؛ ٤٧٨

رويه ، وكورة ؛ ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٥٢ ،

١٥٣ ، ٢٣٨ ، ٣٠٨ — ٣١١ ، ٣١٨ ،

٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،

٤٣٠ ، ٦٤٩

شرقية : ٦٤٦
 شريش : ٦٧٠ ، ٦٦٤ ، ٣١١ ، ٧٠ ، ٤٣
 شريش ، مرققة : ٢١٠ ، ٢٠٨
 شقندة : ٦٥٣ ، ٣٢٤ ، ٢٤٣ ، ١٣٥ ، ١٣١
 شقوبية : ٣٩١ ، ٢١٥ ، ١٣٢ ، ٧٠
 شلب : ٢٨٤
 شلمقة : ٣٥٧ ، ٢١٥ ، ١٣٢ ، ٧٠
 شلم : ٥٢٩ ، ٥٢٧ ، ٤٢٠ ، ٣٩١ ، ٣٥٨
 شلم : ٥٩٨ ، ٥٤١
 شلمط : ٣٤١
 شنت إشتين ، موقعة : ٥٩٤ ، ٥٨٩ ، ٣٩٥
 شنت برة : ٢٥٨ ، ٢٥٦ ، ١٦٦ ، ١٦٤ ، ٣٠٧ ، ٣٤٠ ، ٣٩٠ ، ٤٠٠
 شنترين : ٥٦٤ ، ٥٠٣ ، ٤٠٩
 شنتمرية الغرب : ٣٣٩ ، ٣٣٠
 شنت منكلش ، وموقعة : ٤٢٠ ، ٤١٨ ، ٣٦١ ، ٤٢٠
 شنت : ٥٩٨ ، ٥٧٣ ، ٥٤١
 شنت ياقب : ٢٨٥ ، ٢٥٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٥٨٩ ، ٥٧٣ ، ٥٦٠ ، ٥٥٩ ، ٥٤٢
 شنت : ٦٠٥ ، ٥٩٩
 شنت ياقب ، غزوة : ٥٦١
 شنت يوانش : ٦١٢
 صانص : ٩٠ ، ٨٢
 الصخرة : ٢٢٨ ، ٢١١ ، ٢١٠ ، ١١٤
 الصخرة ، موقعة : ٣٥٤
 صغلية : ١٣٠ ، ١١٩ ، ٣٩ ، ٢٦ ، ٢١
 صغ : ٣٥٩
 طبينة : ٧٠٢
 طرابلس : ١٥٠ ، ١١٩ ، ١٦ ، ١٥
 طرسونة : ٤٠٢ ، ٣٤١ ، ٢٦٥
 طرش : ٣٧٧ ، ١٥٣ ، ١٥٢
 طرسونة : ٢٢٥ ، ٢٠٠ ، ١٣٣ ، ٧٠
 طرس : ٢٩٩ ، ٢٦٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٠ ، ٢٢٦
 طرس : ٦٦٠ ، ٦٤٨ ، ٤٦٥ ، ٤٠٤
 طرف الفار : ٤٤
 طركونة : ٢٣٥ ، ٢٠٠ ، ١٣٣ ، ٧٠
 طرس : ٦٧٦ ، ٤٦٦ ، ٢٦٦
 طريانة : ٦٧١
 طشانة : ٦٧١
 طليبة : ٣١٨ ، ٢٩٤ ، ٢٣٩ ، ١٢٣
 طرس : ٤٠٧ ، ٣٩٤ ، ٣٤٥

٢٩٩ ، ٣٥٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٢ — ٣٤٠
 ٤٢٢ ، ٤١٨ ، ٤١٣ — ٤٠٥ ، ٤٠٢
 ٦٠٦ ، ٥٦٣ ، ٥٤٩ ، ٥٤٨ ، ٤٦٦
 ٦٦٠ ، ٦٥٤ ، ٦١٧ ، ٦١٢ ، ٦١٠
 ٧٠٤ ، ٦٩٧
 سرية : ٥٦٤ ، ٣٩٠ ، ٣٢٨ ، ٣٠٠
 سكسونية : ١٧٣ ، ١١٥ ، ١١٤ ، ٨٠
 سمقند : ١٤٥
 سمورة : ٣٥٨ ، ٣٤٥ ، ٢١٥ ، ١٣٢ ، ٣٦٠ ، ٤١٩ ، ٤١٤ ، ٣٩١ ، ٣٦١ ، ٤٢٠ ، ٥٦١ ، ٥٥٢ ، ٥٤٨ ، ٥٤١ ، ٤٢٠
 ٦١٢ ، ٥٩٠ ، ٥٧٣
 السند : ١٤٣ ، ١٤٠ ، ٩٦ ، ٩٢
 السوس : ١١٩
 سوسة : ١٩
 سوق العطارين : ٤٢٥
 سولسونة : ٢٣٥
 السهلة : ٢٠٥ ، ٧١
 سوراني : ٦٠٠ ، ٥٩١ ، ٣٤٢
 سويسرة : ٤٦٩ ، ٤٦٥ ، ٤٥٨ ، ٤٥٧ ، ٤٧٢ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥
 سيرا مورينا ، انظر جبل الشارات
 سيرا نقادا : ٣٧٦
 شاطبة : ٦٤٩ ، ٦٤٨ ، ٣٩٠ ، ١٣٢ ، ٧١ ، ٦٦٠
 شالون ، موقعة : ٨٤ ، ٢٩
 الشام : ٥٧ ، ٢٤ ، ١٨ ، ١٧ ، ١٥ ، ١٤ ، ٧٢ ، ٩٣ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٣٠ ، ٢٦٠ ، ٣١٤ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٥٤٤
 شبه الجزيرة الإسبانية ، انظر إسبانيا
 شبه الجزيرة العربية : ٢٠٥ ، ١٤١ ، ٦٩
 شذونة : ١٢٣ ، ٧١ ، ٧٠ ، ٥٢ ، ٤٢ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٦٢ — ١٦٤ ، ٢٦٣ ، ٣١١ ، ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٦٥٤
 شذونة ، موقعة : ٤٦
 شرطانية : ٤١٧ ، ١٨٦
 الشرق : ٢٣٤ ، ١١١ ، ٩٩

٤٥٩ ، ٤٥٢ ، ٤٠٩ ، ٣٩٢ ، ٣٨٩ ، ٣٢٨

الغرب ، ولاية ؛ ٤٨٩ ، ٤٨٨

غرناطة ؛ ٣٢٨ ، ٢١٣ ، ٢٠٤ ، ٥٠٠

٦٧٢ ، ٦٧١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٠ ، ٣٧٦ ، ٣٢٩

٦٧٦ ، ٦٧٤ ، ٦٧٣

ف - ك - ق

فارس ؛ ٧٢ ، ١٤٠ ، ١٤٥

فاس ؛ ٤٢٧ ، ٤٩٢ ، ٤٩٧ ، ٥٤٥ ، ٥٤٧ - ٥٥٨

٥٥٨

فولانس ؛ ١١٥ ، ٢٩٧

فاليه ؛ ٤٦٩ ، ٤٧٠

فج سراج ؛ ٤١٦

فج المركور ؛ ٢٩٩

فحص أندوجر ؛ ٢٩٢

فحص البلوط ؛ ٣١١

فحص سراج ؛ ٤١٦

فحص السراقد ؛ ٦٤٦

فحص مهران ؛ ٤٩٥

فحص الناعورة ؛ ٥٩٨

فراشدياوم ؛ ٤٧١

فرتش ؛ ٣٤١

فرنسا ؛ ١٧ ، ٢٨٠ ، ٢٩ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٥

٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ - ١٠٤ ، ١٠٨

١١٢ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٩

٢١٠ ، ٢٣٥ ، ٢٦٦ ، ٣١٤ ، ٣٥٧

٤٥٧ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩

٤٧٤ ، ٤٧٧ - ٤٧٩

الفرنثيرة ؛ ٤١ ، ٤٢ ، ٧١ ، ٢٠٦

فريجوس ؛ ٤٦٩

فريزيا ؛ ٨٠ ، ١١٤

الفسطاط ؛ ٥٧

فقييه ؛ ١١٥

فلاندر ؛ ٧٧

فلسطين ؛ ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٤٦ ، ٤٥٠

فناء النارنج ؛ ٢٧٩

فنجيط ؛ ٢٣٣

فيل دني ؛ ٢٢٧

قابس ؛ ٢٢ ، ١٢٠

قادس ؛ ٢٦٣

طاجير ؛ ٣٨٧

طلياطة ؛ ٢٦٣

طليطلة ؛ ٢٩ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٥٠ - ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧١

١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤

١٥٧ - ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٨٧

١٩٠ ، ٢٠٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٧ - ٢٥٦

٢٥٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٤ ، ٢٥٦

٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٨٥

٢٩١ ، ٢٩٣ - ٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٧

٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٢٩ ، ٣٤٥ ، ٣٥٦

٣٨٩ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤١٤

٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٨٦ ، ٥٢٩ ، ٥٤٩

٥٦٤ ، ٥٩٠ ، ٦٠٦ ، ٦٠٩ ، ٦١٢

٦٢٩ ، ٦٣٦ ، ٦٤٦ - ٦٤٨ ، ٦٧٦

٦٩٧ ، ٦٩٢ ، ٦٧٧

طنجة ؛ ١٦ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٨ ، ٤٠

٤١ ، ٤٩ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣

٤٠٤ ، ٤٢٥ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٥٤٦

٥٥٧ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٦٤ ، ٦٨٧

طولون ؛ ٤٦٩

الغامرية ؛ ٥٧٥

عدوة المغرب ، العدوة ؛ ٢٣١ ، ٢٤٥ ، ٢٦٤

٢٩٠ ، ٢٩٧ ، ٣٧٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٩

٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٩٢ ، ٤٩٦ - ٤٩٩

٥٧٠ ، ٥٤٦ ، ٥٣٨ ، ٥٠٢ ، ٥٧٠

٦٠٧ - ٦٠٩ ، ٦٢٨ ، ٦٧٥ - ٦٧٧

٦٨٨

للمراق ؛ ٢٤ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ١١٨ ، ١٤٥

٤٥٤ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤

حقبة البقر ؛ ٦٤٨

العليا ؛ ١٤٩

عين التمر ، موقعة ؛ ٢٣

غاليس (غاليا) ؛ ١٧ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٧٦

٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ١١٠

١١٤ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٧٢ ، ١٧٧

٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٤٥٨ ، ٤٦٤ ، ٤٦٧

٤٧٠ ، ٤٧٤ - ٤٧٦ ، ٦٨٠

الغرب ؛ ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٦

١٦١ ، ١٩٠ ، ٢٢٥ ، ٢٣٤ ، ٣٠٦

٦١٣ ، ٦١٥ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٤ ،
٦٢٥ ، ٦٢٩ — ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٦ —
٦٣٨ ، ٦٤٣ — ٦٥٧ ، ٦٥٤ — ٦٦٤ ،
٦٦٧ — ٦٨٩ ، ٦٨٥ — ٦٨٢ ، ٦٧٠ —
٦٩٤ ، ٦٩٦ — ٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٣

قرطبة القديمة ؛ ٤٤٢

قرقشونة ؛ ٥٣ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ،
١٠٤ ، ١٣٣ ، ٢٢٧

قرونة ؛ ٥٢ ، ١١٦ ، ١٦٢ ، ٢٧٧ ،
٣١١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ٣٧٧ ، ٣٨١

٦٧٠ — ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥

قسطلونة ؛ ١٩٠

قسطنطينية ؛ ١٦ ، ١٧ ، ٢٨ ، ٥٤ ، ٥٧ ،
٥٩ ، ٩٣ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ،
٢٨٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ،
٤٥٦ ، ٤٥٧

قشتالة ؛ ٥١ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢٦٤ ،
٣٩٤ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤١٥ ،
٤١٧ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٩ ،
٥٠٢ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٣١ ، ٥٣٨ ،
٥٤٩ ، ٥٥٢ ، ٥٦٢ — ٥٦٤ ، ٥٦٧ ،
٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ — ٥٩٤ ،
٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦١١ ، ٦١٣ ، ٦١٥

قصر أبي دانس ؛ ٤٨٨ ، ٥٥٩

القصر الزاهر ؛ ٤٣٥

قصر الزاهرة ؛ ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٨٤ ، ٦١٠ ،
٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٩ ، ٦٢٣ ، ٦٢٨ ، ٦٣٢

قصر الزهراء ؛ ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢ ،
٤٥٥ ، ٤٥٩ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٩٠ ،
٤٩٨ ، ٥٠٣ ، ٥٠٩ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ،
٥٩٤

قصر الفاتيكانيان ؛ ٤٣٩

قصر قرطبة ؛ ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ٢٤٤ ،
٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ،
٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٢ ، ٣٣٣ ، ٣٥٢ ،
٣٧٤ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤١٣ ،
٤١٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٣ ، ٤٥٨ ،
٤٨٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٣ ، ٥١٧ ،
٥١٨ ، ٥٢٢ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٤٠ ،

قاسترو مورش ؛ انظر حسن شفت اشتين

القاهرة ؛ ٥٠٥

قبرس ؛ ٢٣

القبر المقدس ؛ ٢٣٤

قبر القديس ياقب ؛ ٥٦٠

قبر المنصور ؛ ٥٦٧

قبره ؛ ٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٣٨

قرطبة ؛ ٥٦١

قرطاجنة القديمة ؛ ١٦ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٤٣٧

قرطاجنة الأندلس ؛ ١٠ ، ١٣٢ ، ٢٠٠

قرطبة ؛ ٣٣ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٦٣ ،

٦٤ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٩ ، ١١٣ ،

١١٦ ، ١٢٣ — ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣١ ،

١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ —

١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٨١ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،

١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ،

٢٠٦ ، ٢٢٤ — ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ،

٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ — ٢٤٤ ،

٢٤٧ ، ٢٥٥ — ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،

٢٦٧ — ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ،

٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ —

٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ — ٣٠٥ ،

٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ —

٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ —

٣٣٩ ، ٣٥٥ ، ٣٦٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ،

٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ — ٣٨٩ ، ٣٩١

٣٩١ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ،

٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤١٨ ،

٤٢٠ — ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ،

٤٣٥ — ٤٣٨ ، ٤٤٠ — ٤٤٢ ، ٤٤٧ ،

٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ،

٤٥٩ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٨٠ ، ٤٨٥ ،

٤٨٧ ، ٤٨٨ — ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥٠٠ —

٥٠٢ — ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٣ — ٥١٦ ،

٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٩ ، ٥٣٥ —

٥٣٧ ، ٥٤٣ ، ٥٤٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ،

٥٥٢ ، ٥٥٥ — ٥٥٧ ، ٥٥٩ — ٥٦١ ،

٥٦٧ ، ٥٧٢ ، ٥٧٥ ، ٥٧٧ ، ٥٨٠ ،

٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٩٣ ، ٥٩٧ ، ٦٠٧ —

قورية ؛ ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،
١٩٠ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٥٦٠
قوتة ؛ ٧٠ ، ٧١ ، ٣٠٧
القيروان ؛ ٢٠ - ٢٢ ، ٨٧ ، ١٢٠ ، ١٣٠ ،
١٦٢ ، ٤٩٩
كاماراج ؛ ٤٧٨
كانتاريا ؛ ١٣٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ،
٢١٤ ، ٣٦١ ، ٧٠٠
كانجاس ؛ ٢١٨
كندراتية شنت ياقب ؛ ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٣٦١ ،
٥٦٠
كربلاء ؛ ١٢٧
كرونية ؛ ٥٦١
كلاشينجو ؛ ٣٥٦
كلونية ؛ ٨٠
كوفانجا ؛ ٢١٠ ، ٢١١
الكوفة ؛ ١٢٧ ، ١٤٣ - ١٤٥
كويانسا ؛ ٥٧٣

ل - ي

لاردة ؛ ١٣٣ ، ٢٣٥ ، ٣٠٢ ، ٣٤٢ ،
٤١٠ ، ٦١٠ ، ٦٦٨
لاميجو ؛ ٥٦١ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧
لبلة ؛ ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٦٥ ، ٣٣٠ ، ٣٧٩ ،
٣٨٠ ، ٥٢٢ ، ٦٦٩
لزمة ؛ ٤٠٣
لقنت ؛ ٥٥ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٣٢ ، ١٦٠
لك ؛ ٧٠ ، ٢١٥ ، ٣٥٥
لوجدانيا ؛ ١٣٢
لوديف ؛ ٧٠
لورقة ؛ ٥٥ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ٣٢٣ ، ٣٣٠ ،
٣٩٩ ، ٥٤٣ ، ٦٩٠
لوزيتانيا ؛ ٧٠ ، وانظر البرتغال
لوس بانيوس ؛ ٥٢٧
لوشة ؛ ٣٢٠
لوطن (ليون فرنسا) ؛ ٥٣ ، ٨٤ ، ٩٠ ،
١٠٥ ، ١١٥
لونة ؛ ٦١٢
ليجوريا ؛ ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧١
ليون ، مدينة ؛ ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ،

٥٥٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣٥ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧ ،
٦٥٣ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٦ ،
٦٦٩ ، ٦٦٨
قصر مدينة سالم ؛ ٥٦٦
قصر معمودية ؛ ٤٩٦
القصر المؤنس ؛ ٤٤٣
قصر ناصح ؛ ٦٢٤ ، ٦١٤
قطاوية ؛ ٢٢٦ ، ٢٤١ ، ٢٥٧ ، ٣٤٣ ،
٤٥٧ ، ٥٤٤
قندمة ؛ ١٦
قلعة ألانية (الخش) ؛ ٣٠٤ ، ٣٩٣
قلعة أويينو ؛ ٣٥٩
قلعة أيوب ؛ ٣٤١ ، ٤٠٦ - ٤٠٨
قلعة بيدتر ؛ ٦٧٢
قلعة جلمانية ؛ ٣٠٤
قلعة حجر النسر ؛ ٤٩٢ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧
قلعة رباح ؛ ١٩٠ ، ٢٥٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ،
٣٢٨ ، ٣٣٩ ، ٣٧٥ ، ٦٣٠ ، ٦٣٦ ،
٦٦٢ ، ٦٤٦
قلعة رعواق ؛ ١٦٣
قلعة شنت منكش ؛ ٥٤١
قلعة ساردة ؛ ١٢٥
قلعة مزورنة ؛ ٤٠٣
قلعة مويش ؛ ٣٩٧
قلعة النور ، وموقة ؛ ٥٦٤ ، ٥٦٥
قلعة هنارس ؛ ٦٤٦
قلمرية ؛ ٧٠ ، ٧٥ ، ٢٤١ ، ٣٠٥ ، ٣٥٤ ،
٣٥٨ ، ٤١٧ ، ٥٤٧ ، ٥٦٠ ، ٥٧٣ ،
٥٩٧
قلهرة ؛ ٢٣١ ، ٢٩٨ ، ٣٥٦ ، ٣٩٧ ،
٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٨٧
قلورية ؛ ٤٢٧
قلونية ؛ ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٥٥١ ، ٦١٥ ، ٦٥١
قليانة ؛ ٤١٦
قمارش ؛ ٦٧٢
قناليش ؛ ٥٦٣
قنسرين ؛ ٧٠ ، ١٤٩
قنطرة استجة ؛ ٥٧٧
قنطرة قرطية ؛ ٧٥ ، ٢٢٨ ، ٢٧٨ ، ٥١١ ،
٥٧٦
قورسنة ؛ ٢٦٦ ، ٤٦٦ ، ٤٧٥

مرو : ١٤٤ ، ١٤٥
 المسارة ، موقعة : ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ،
 ١٦٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٦٨١
 مسجد أبي هرون : ٤٢٥
 مسجد بيشتر : ٣٨٦
 مسجد الزادرة : ٥٣٥ ، ٥٧٩ ، ٧٠٤
 مسجد الزهراء : ٤٣٨ - ٤٤٠
 مسجد سرقطة : ٤١١
 منايط : ٤٠٤
 المياة : ٤٩٣ ، ٤٩٤
 المشرق : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٧١ ، ٧٢ ،
 ٩٣ ، ١٣١ ، ١٤٢ ، ١٤٦ - ١٤٨ ،
 ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ،
 ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ - ٢٨٣ ،
 ٣١٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٧٨ ، ٤٩٩ ،
 ٥٧٩ ، ٦٨١ ، ٦٨٤ ، ٦٩٢ ، ٦٩٤ ،
 ٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٤
 مصر : ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٣ - ٢٥ ،
 ٧٢ ، ١٠٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ،
 ١٤٦ ، ١٥٠ ، ٢٤٥ ، ٤٩٤ ، ٤٩٩ ،
 ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٩
 مطوية : ٣٩٦
 المغرب : ٢٠ - ٢٢ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤١ ،
 ٥٤ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٢٢ ، ١٣١ ،
 ١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٧٠ ، ٢٤١ ، ٢٨١ ،
 ٣١٤ ، ٣٣٧ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ،
 ٤٣٩ ، ٤٩٢ - ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٤٩٩ ،
 ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥٤٤ - ٥٤٨ ، ٥٥٥ ،
 ٥٥٧ - ٥٥٩ ، ٥٧٠ ، ٦٠٩ ، ٦٥٦ ،
 ٦٦٤ ، ٦٧٧ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٧٠٢
 المغرب الأقصى : ١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٨ ،
 ٤١ ، ٦٦ ، ١١٨ - ١٢٠ ، ١٥١ ،
 ٤٠١ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٥٦ ، ٤٨٨ ،
 ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥١٢ ، ٥١٩ ، ٥٤٤ -
 ٥٤٧ ، ٦٥٦ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠
 المغرب الأوسط : ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٤٧
 المكتبة الأموية : ٢٨٢ ، ٥٠٤ - ٥٠٦ ،
 ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥٨٠ ، ٧٠١
 مكناسة : ١٦٤ ، ٥٥٧
 مكة : ٦٨ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٦٣
 ملقون : ٤١٦

٣٦١ ، ٥٣١ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٨ ،
 ٥٥٢ ، ٥٥٩ ، ٥٦٤ ، ٥٧٣ ، ٥٨٩ ،
 ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ،
 ليون ، القطر : ٥١ ، ٧٥ ، ١٦٩ ، ٢٦٥ ،
 ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ،
 ٤٠٦ ، ٤١٣ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٥٩ ،
 ٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٥٢ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ،
 ٥٩٧
 ماجلون : ٧٠ ، ١١٥ ، ١٣٣
 ماردة : ٥٢ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ،
 ١٣٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
 ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٨٢ ،
 ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٣٩ ، ٣٥٨ ،
 ٣٩٣ ، ٥٦٤
 ماسون : ٨٤ ، ٨٥
 مالة : ٥٠ ، ٥٥ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ٣٠٧ ،
 ٣٠٨ ، ٣١٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ،
 ٦٦٢ - ٦٦٤ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ ،
 ٦٧١ ، ٦٧٢ - ٦٧٦ ، ٦٨٣ ، ٦٩٠
 ماز : ١٧١
 المجلس الزاهر : ٤٥٣
 المجلس الشرقي : ٤٨٥ ، ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥١٣ ،
 مخارس : ٤١٦
 مخاضة الفتح : ١٩٠
 مدلين : ١٦٥
 مدينة الباب : ٨٨
 المدينة ، موقعة : ٣٢٨
 مدينة سالم : ٢٥٦ ، ٣١١ ، ٣٢٣ ، ٣٥٤ ،
 ٣٥٦ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٢٢ ، ٤٨٥ ،
 ٤٩٩ ، ٥٠٢ ، ٥١٢ ، ٥٢٨ ، ٥٣٧ ،
 ٥٣٨ ، ٥٦٢ ، ٥٦٥ - ٥٦٧ ، ٦٠٧ ،
 ٦٠٩ ، ٦١٢ ، ٦٤٤ ، ٦٤٦ ، ٦٤٨
 مدينة الذرج : انظر وادي الحجارة
 المدينة المنورة : ١٤١ ، ٢٢٩
 موبلة : ٦٤٩
 مرتش : ٢٧٢
 موج راط ، موقعة : ١٥٤
 مرسيابا : ٢٦٦ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٤ ،
 مرسية : ٥٠٠ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ٣٢٣ ، ٣٩٩ ،
 ٤٣٠ ، ٥٤٣ ، ٦٥٨

نهر دويرة ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢١٢ —
 ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٤١ ، ٣٠٦ ، ٣٥٤ ،
 ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٦ ،
 ٤١١ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ ، ٤٨٧ ، ٥٠١ ،
 ٥٤٨ ، ٥٥٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٤ ،
 ٥٦٥ ، ٥٧٣ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٦١٣ ،
 ٦١٥ ، ٦٧٦ ،
 نهر الرون ؛ ٥٣ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١١٤ ،
 ١١٦ ، ١٣٣ ، ٢٩٧ ، ٤٥٧ ، ٤٦٥ — ٤٦٧
 نهر الرين ؛ ٧٧ ، ٧٨ ، ٩١ ، ٩٥ ، ١٧١ ،
 ١٧٦
 نهر الزاب ؛ ١٤٥
 نهر شلب ؛ ٤٨٨
 نهر شنت مانكش ؛ ٤١٥
 نهر شيل ؛ ٣٢٣ ، ٣٣٧ ، ٣٧٧
 نهر الفرات ؛ ٩١ ، ١٤٥ ، ١٥٠
 نهر الفوشكة ؛ ٣٢٥
 نهر الثمين ؛ ٩٩ ، ١٠٠
 نهر الكريز ؛ ٩٩
 نهر الكاين ؛ ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٥
 نهر اللوار ؛ ٢٩ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٩٠ ، ٩٩ ،
 ١٠٠ ، ١٠٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦
 نهر الموزل ؛ ٧٧
 نهر منهو ؛ ٣١١ ، ٥٦٠ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧
 نهر النيل ؛ ٩١
 نهر نيني ؛ ٢٢
 نهر الوادي الكبير ؛ ٧٠ ، ٧٥ ، ١٥٤ ،
 ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٩٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٨ ،
 ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٣٢٥ ، ٤٢٢ ، ٤٨٨ ،
 ٤٨٩ ، ٥١١ ، ٥٣٥ ، ٥٧٦ ، ٦٣٢ ،
 ٦٨٧
 نهر وادي لكه ؛ ٤٢ ، ٤٤ ، ١٣٧
 نهر وادي ياره ؛ ٥٢١ ، ٦٤٩
 نهر وادي يانة ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ١٦٥ ، ٦٥٨
 نوستريا ؛ ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٦
 نيس ؛ ٤٧٠
 نيسابور ؛ ١٤٥
 نومانيا ؛ ٥٦٤
 نيمة ؛ ٧٠ ، ٧٤ ، ١١٥ ، ١٣٣ ، ٦٩٧
 هذان ؛ ٤٠

مليلة ؛ ٤٢٦ ، ٥٤٧ ، ٦٧٥
 منزل هاني ؛ ٦٣٦
 المنكب ؛ ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٦٥٩
 منورقة ، جزيرة ؛ ٢٥ ، ٢٦٢
 منية جعفر ؛ ٦٢٤
 منية العقاب ؛ ٦٤٧
 منية كنتش ؛ ٣١٥
 منية فاصح ؛ ٥٠٩
 منية الناعورة ؛ ٥٠٩
 منية نصر ؛ ٤١٦
 مورور ؛ ٣١١ ، ٦٥٤
 الموصل ؛ ١٤٥
 مون سني ؛ ٤٦٨
 مونساتو ؛ ٤٦٩
 المهديّة ؛ ٦٩٩
 ميرائه ؛ ٣٩١
 ميرتلة ؛ ٣٣٠
 ميزيا ؛ ٢٨
 ميورقة ، جزيرة ؛ ٢٥ ، ٢٦٥ ، ٥١١
 فاجرة ؛ ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٥٦٣ ، ٥٩٩
 فافار (نبرة) ؛ ٧٤ ، ٢١٠ ، ٣٠١ ، ٣٤٢ ،
 ٣٤٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦١ — ٣٦٣ ، ٣٩٩ ،
 ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٥٣١ ،
 ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ،
 ٥٨٣ ، ٥٩٠ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ،
 ٦١٢
 نكور ؛ ٤٢٦
 نهر أرون ؛ ٢٤٢
 نهر الإيزر ؛ ٤٧٠
 نهر بارباتي ؛ ٤٢ ، ٤٤
 نهر بارسباس ؛ ٣٥٥
 نهر يو ؛ ٤٧١
 نهر التاجه ؛ ٧٠ ، ٧١ ، ١٣٢ ، ١٦٥ ،
 ٢٤١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٨ ،
 ٣٩٣ ، ٤١٣
 نهر التيمز ؛ ٩١
 نهر الحارون ؛ ٢٩ ، ٧٤ ، ٩٠ ، ٩٣ ،
 ١٠٢ ، ١٠٣ ، ٢٦٢
 نهر الدانوب ؛ ٢٨ ، ٣٠ ، ٥٣ ، ٢٤٩
 نهر دجلة ؛ ١٤٥

وادی منبس ؟ ١٦٦	وادی الأحمر ؟ ١٩٠
وادی منی ؟ ٥٥٨ ، ٥٥٧	وادی آش ؟ ٢٠٤ ، ٣٣٦ ، ٣٧٦ ، ٦٦٠
ویدة ؟ ٣٤٠	وادی بلون ؟ ٣٣٨
ویدة ؟ ٥٤٧	وادی الحجارة ؟ ١٣٢ ، ٢٠٦ ، ٢٩٩ ،
وشقة ؟ ٧٠ ، ١٣٣ ، ١٧٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧	٣١١ ، ٣٥٤ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ،
٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ ،	٤١٦ ، ٤١٨ ، ٥٢٨ ، ٥٤٩
٣٠٢ ، ٣٤٢ ، ٤٠٧ ، ٤٨٧ ، ٦١٤	وادی الرون ؟ ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٧ ، ١٠٥
وستفاليا ؟ ١٦٩	وادی زارات ؟ ٥٥٧
یابرة ؟ ٧٠ ، ٣٩٢	وادی سیر ؟ ١٢٠
الین ؟ ٧٠	وادی سلف ؟ ١١٩
الیرکرین ؟ ٢٨	وادی سلیط ، وموقة ؟ ١٢٤ ، ٢٩٣ ، ٣٥٦
الیونان ؟ ٢٨	وادی قیس ؟ ١٦٠
	وادی ملویة ؟ ٤٩٣

فهرست الأعلام

— ١ —

ابن حزم ، أحمد بن سعيد الوزير ؛ ٤٣٨ ،
٥٣٩ ، ٥٥٣ ، ٥٧٤ ، ٦٣٥
ابن حزم ، الفيلسوف ؛ ١٢٩ ، ٢٥١ ،
٢٦٠ ، ٢٧٨ ، ٣٢١ ، ٣٤٩ ، ٥٠٤ ،
٥٠٦ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٥٣ ، ٦٥٧ ،
٦٦٣ ، ٦٦٥ ، ٦٦٧ ، ٦٩٤ ، ٧٠٤
ابن خلدون ؛ ٣٠٩
ابن حوقل ؛ ٤٣٩ ، ٤٤٧
ابن حبان ؛ ١٠٨ ، ١٢٩ ، ١٩٩ ، ٢٤١ ،
٢٦٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٩٩ ، ٣٠٨ ،
٣١٠ ، ٣٢٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ،
٣٧٨ ، ٣٩٥ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ،
٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٣١ ،
٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ،
٤٨٩ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ،
٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٣ ، ٥١٩ ، ٥٢٢ ،
٥٢٧ ، ٥٣٠ ، ٥٧١ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ،
٥٨٥ ، ٦٠٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨ ،
٦٥٩ ، ٦٦١ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٨٦
ابن خطاب (أحمد بن عبد الرحمن) ؛ ٥٤٣
ابن خلدون ؛ ١٧ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٦٨٩ ،
٦٩ ، ٨٣ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، ١٢٩ ، ١٩٧ ،
٢١٠ ، ٢١٥ ، ٣٣١ ، ٤٦١ ، ٤٨٧ ،
٥٣١ ، ٥٤٠
ابن خلكان ؛ ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٤٩
ابن دحية البلنسى ؛ ٢٨٤ ، ٢٨٥
ابن دراج القسطل ؛ ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٦١ ،
٦١٠ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٩ ، ٧٠٤
ابن ذكوان ، أبو العباس ؛ ٥٨٠ ، ٦٢٥ ،
٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣٦ ، ٦٤٥ ، ٦٤٧ ،
٦٥٣
ابن راشد ؛ ٣٩٣
ابن ذرى الحاجب ؛ ٦٣٧
ابن زيان ؛ ٨٨
ابن زيدون ؛ ٤٤٠

أبان بن عبد الله ؛ ٣٣٦ ، ٣٣٨
أبدال ؛ ١٧٢ ، ١٧٥
إبراهيم الإمام ؛ ١٤٣ - ١٤٥
إبراهيم بن حجاج ؛ ٣٣١ - ٣٣٤ ، ٣٣٧ ،
٣٧٧
إبراهيم بن شجرة ؛ ١٨٦
إبراهيم بن عثمان بن بشار ؛ انظر أبو مسلم .
أبلو ؛ الكونت ؛ ٢٥٦
ابن الأبار القضاى ؛ ٤٦٠ ، ٥١١ ، ٦٩٦
ابن أبي عمرو العريف ؛ ٥١٢
ابن أبي يزيد المصر ؛ ٦٢٨
ابن الأثير ؛ ٤٨ ، ١٠٦ ، ١٤٩ ، ٢١٥ ،
٣٢٢ ، ٤٦٣ ، ٥٨٤
ابن الأغلب ؛ ٢٣١ ، ٣١٨
ابن التياى النديم ؛ ٥٧٩
ابن الحجاب ، عبيد الله ؛ ١٠٦ - ١٠٨ ،
١١٣ ، ١١٧ ، ١١٩
ابن الخطيب ، لسان الدين ؛ ٣٤٤ ، ٤١٥ ،
٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٥١ ، ٥٠٤ ، ٥١٠ ،
٥١٩ ، ٥٢٥ ، ٥٦٧ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ،
٥٧٦ ، ٥٧٨ ، ٥٨٥ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ،
٦٥٧
ابن الزبير ، عبد الله ؛ ١٩ ، ٢١ ، ١٥٤
ابن الطريشة ؛ ٣٤٠
ابن العراف النديم ؛ ٥٧٩
ابن القرضى ؛ ١٢٩
ابن القط ، أحمد بن معاوية ؛ ٣٤٥ ، ٣٦٠
ابن القوطية ، أبو بكر ؛ ٦١ ، ١٢٩ ، ٢٤٣ ،
٢٧٥ ، ٣٢١ ، ٥٠٧ ، ٥٢١ ، ٧٠٠ ، ٧٠١
ابن يسام ؛ ٦٥٤ ، ٦٦٦ ، ٦٩٥
ابن بشكوال ؛ ١٠٨
ابن يقنة ، أبو جعفر ؛ ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣
ابن جليل ، سليمان بن حسان ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤

أبو بكر الأبهري ؛ ٥٠٥
 أبو بكر الزبيدي ؛ ٥٠٣ ، ٥٨٠
 أبو بكر بن معاوية القرشي ؛ ٥٠٧ ، ١٤٥٢١٠٧٠
 أبو ثور بن قسي ؛ ١٧٤ ، ٢٢٧
 أبو جعفر المنصور ؛ ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ،
 ١٦١ - ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ،
 ٢٣٤ ، ٢٥٠
 أبو حفص البلوطي ؛ ٢٤٥ ، ٢٨٢
 أبو صفوان ، حاكم سرقطة ؛ ٢٣٢
 أبو عامر بن شهيد ؛ ٦٦٥
 أبو عثمان : أنظر عبيد الله بن عثمان
 أبو علي القتالي ؛ ٤٥٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥٢١ ،
 ٥٧٩ ، ٧٠١
 أبو عمر بن أبي عمر ؛ ٤٠٧
 أبو عون عبد الملك بن يزيد ؛ ١٤٥
 أبو كعب بن عبد البر ؛ ٢٣٦
 أبو مسلم الخراساني ؛ ١٤٣ - ١٤٦
 أبو نصر الرازي ؛ ٣٨٥
 أبو نور بن أبي قرة اليفرنى ؛ ٦٧٤ ، ٦٧٥
 أبو هاشم عبد الله ؛ ١٤٣
 أبو يحيى التجيبي (الأنقر) ؛ ٣٤٠ ، ٣٤١
 أناذاجلد بن تيودمير ؛ ١٢٦
 أتيلا التتري ؛ ٢٩
 أجنهارت ؛ ١٧٢ ، ١٨١
 أچيكا ؛ ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣
 أحمد بن أحمد بن بقر بن محمد ؛ ٤٢٩
 أحمد بن اسحاق القرشي ؛ ٣٨٩ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩
 أحمد بن الأسعد ؛ ٤٩١
 أحمد بن البراء ؛ ٣٤١
 أحمد بن برد (أبو حفص) ؛ ٦١٠ ، ٦١٩ ،
 ٦٢٠ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٦٠ ،
 ٦٦٣ ، ٦٦٥
 أحمد بن خالد بن أمية بن عيسى بن شهيد ؛ ٤٦١
 أحمد بن زياد اللخمي ؛ ٣٧٤
 أحمد بن سهل بن محمد ؛ ٤٦١
 أحمد بن عباس ؛ ٦٧٢
 أحمد بن عبد الله (عم الناصر) ؛ ٣٨٤
 أحمد بن عبد الله (عامل ريه) ؛ ٣٠٨

ابن سالم ؛ ٢٩٩
 ابن شاذكر ؛ ٣٠٠
 ابن شكوح ، أمير البحر ؛ ٢٩٦
 ابن عبد البر ؛ ٢٩١
 ابن عبد الحكم ؛ ٤٧ ، ٥٧ ، ٥٧٧
 ابن عبد ربه ، أبو عمر ؛ ٢٢٤ ، ٣١٥ ،
 ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٣٤ ، ٣٥١ ، ٣٧٤ ،
 ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٦٢ ،
 ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٧٠٠
 ابن عربي ، محيي الدين ؛ ٤٩١
 ابن عذارى المراكشي ؛ ١٠٧ ، ٦٥٧
 ابن عطف ؛ ٣٧٦
 ابن عياش ، أبو عبد الله ؛ ٥٥٣ ، ٥٧٤ ،
 ٥٧٥
 ابن غالب ؛ ٢٠٤
 ابن غومس ؛ ٦٣٧
 ابن محمد القاضي ؛ ٤٥٠
 ابن مرة الجلي ؛ ٤٣٠ - ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٦٩٨ -
 ٧٠٠ ، ٧٠٤
 ابن مناو ؛ ٦٥١ ، ٦٥٢
 ابن ميمون ؛ ٢٠٦
 ابن هيرة ؛ ١٤٥
 ابن وضاح ؛ ٤٣١
 ابن وليد الكلبي ؛ ٤٧٤
 ابن يحيى أمير سرقطة ؛ ٤١٩ ، ٤٢٠
 ابن يضل ؛ ٤٢٦
 أبو الاصغ موسى بن خطاب ؛ ٥٤٣
 أبو الخطار الكلبي (حسام بن ضرار) ؛ ٦١ ،
 ١٢٥ - ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٦٨١
 أبو الشماخ زعيم اليمنية ؛ ٢٥٤
 أبو الصباح بن يحيى اليعصبى ؛ ١٥٣ ، ١٦٤ -
 ١٦٦ ، ١٩٤
 أبو العيش بن أيوب ؛ ٤٩٧
 أبو العيش الحنسي ؛ ٤٢٦
 أبو الفتوح بن ناصر ؛ ٦٤٤
 أبو الفرج الأصفهاني ؛ ٥٠٥
 أبو القاسم بن يوسف القهري ؛ ١٥٩ ، ١٦٠ ،
 ١٩٠
 أبو المطرف بن عون الله ؛ ٦١٣
 أبو المهاجر الأنصاري ؛ ٢٠

أحمد بن عبد ربه ؛ أنظر ابن عبد ربه
 أحمد بن عبد الملك بن شهيد ؛ ٤٦٢ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٥١١
 أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف ؛ ٤٦٢
 أحمد بن عيسى بن أبي عبدة ؛ ٣٨٦ ، ٣٤٧
 أحمد بن محمد بن أبي عبدة ؛ ٣٣٦ ، ٣٢٤ ، ٣٣٨
 أحمد بن محمد بن إلياس ؛ ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤٢٤ ، ٤٦١ ، ٤٦٢
 أحمد بن محمد بن حدير ؛ ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٩ ، ٤٤٧ ، ٤٦٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٩ ، ٥٧٤ ، ٦٨٥
 أحمد بن محمد الرازي ؛ ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٧٠٠
 أحمد بن محمد بن زياد ؛ ٣٧٨ ، ٤٦١
 أحمد بن محمد بن عيسى ؛ ٤٦١
 أحمد بن محمد القسطل ؛ ٥٠٣
 أحمد بن مسلمة ؛ ٣٧٧
 أحمد بن موسى ؛ ٦٦٨
 أحمد بن موسى العروى ؛ ٧٠١
 أحمد بن هاشم بن عبد العزيز ؛ ٣٣٢ ، ٣٣٨
 أحمد بن يعل ؛ ٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٥٩٣
 أدريان ، الإمبراطور ؛ ٥٠٨
 إدريس بن إدريس الحنفي ؛ ٢٤١
 إدريس بن عبد الله بن الحنفي ؛ ٦٥٧
 إدريس بن علي بن حمود المتأيد ؛ ٦٦٢ ، ٦٦٤ ، ٦٧١ ، ٦٧٢
 إدريس بن يحيى المعتلى (العالي) ؛ ٦٧١ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥
 إدريس بن يحيى بن أدريس (السامي) ؛ ٦٧٥
 الإدريسي ، الشريف ؛ ٤٨ ، ٤٩ ، ٤٤١
 أدلبرت ؛ ٤٧٣
 إديكو ؛ ٤١
 أرخنتا بنت عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣ ، ٢٨٧
 أرده نيو الأزل (ملك ليون) ؛ ٢٩٢ ، ٢٩٧
 أرده نيو الثاني ؛ ٢٩٢ ، ٢٩٨ ، ٤٠٠ ، ٥٨٩ ، ٥٩١
 أرده نيو الثالث ؛ ٤٨٤ ، ٤٥٩ ، ٤٨٦
 أرده نيو الرابع ؛ ٥٩٣ ، ٥٩٧ ، ٦٠٠ ، ٥٩٤ ، ٥٩٧
 أرده نيو الخامس ؛ ٣٧٥
 أرمانوس (ومانوس) ، القيصر ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤
 أرموزند ؛ ٢١٣
 أرمنجو ، الكونت ؛ ٦٤٨
 أرميخو الأسقف ؛ ٣٩٧
 أرزولد ؛ ١١٠
 أروزندا ؛ ٢١٨ ، ٢١٩
 أزنا ؛ ٢٥٦
 ازوار ؛ ٣٦٢
 اسحاق الموصل ؛ ٢٨١
 اسحاق بن إبراهيم ؛ ٣٣٠
 اسحاق بن محمد البرزالي ؛ ٦٧٥
 اسحاق بن محمد القرشي ؛ ٣٧٩
 اسحاق بن المنذر ؛ ٢٥١
 أسد بن الحرث ؛ ٣٠٧
 اسكندر سيثروس ، الإمبراطور ؛ ٢٨
 أسلم بن عبد العزيز بن هشام ؛ ٤٦١
 أسماء بنت غالب ؛ ٥٢٩
 إسماعيل بن بدر ؛ ٤٠٢ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٦٩٦ ، ٦٩٨
 إسماعيل بن الحبحاب ؛ ١١٩
 إسماعيل بن عباد ؛ ٦٧٠ ، ٦٧٢
 إسماعيل بن عبيد الله ؛ ١١٩
 إسماعيل بن لب ؛ ٢٩٩
 إسماعيل بن موسى بن ذى النون ؛ ٢٦٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٣
 أستاذ ، الكونت ؛ ٣٤٣
 آسورفراندز ؛ ٥٩١
 اصبح بن سلمة ؛ ٦١١
 أصغ بن عبد الله بن وائوس ؛ ٢٣٧
 الأصمعي ؛ ٦٩٣
 الأصيلي ؛ ٥٨٠
 أغلب بن شعيب ؛ ٦٩٦
 أفلح الصقلبي ، الوصيف ؛ ٣٤٨
 أفلح صاحب الخيل ؛ ٤٥١ ، ٥٠٠
 أفلح الفتي ، حاكم ألمرية ؛ ٦٥٨
 ألاريك ؛ ٢٨ ، ٣٠ ، ٤٤ ، ٧٨
 ألبرو القرطبي ؛ ٢٦٩ ، ٢٧١
 إلبيرة ، الراهبة ؛ ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧

أحمد بن عبد ربه ؛ أنظر ابن عبد ربه
 أحمد بن عبد الملك بن شهيد ؛ ٤٦٢ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٥١١
 أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف ؛ ٤٦٢
 أحمد بن عيسى بن أبي عبدة ؛ ٣٨٦ ، ٣٤٧
 أحمد بن محمد بن أبي عبدة ؛ ٣٣٦ ، ٣٢٤ ، ٣٣٨
 أحمد بن محمد بن إلياس ؛ ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤٢٤ ، ٤٦١ ، ٤٦٢
 أحمد بن محمد بن حدير ؛ ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٩ ، ٤٤٧ ، ٤٦٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٩ ، ٥٧٤ ، ٦٨٥
 أحمد بن محمد الرازي ؛ ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٧٠٠
 أحمد بن محمد بن زياد ؛ ٣٧٨ ، ٤٦١
 أحمد بن محمد بن عيسى ؛ ٤٦١
 أحمد بن محمد القسطل ؛ ٥٠٣
 أحمد بن مسلمة ؛ ٣٧٧
 أحمد بن موسى ؛ ٦٦٨
 أحمد بن موسى العروى ؛ ٧٠١
 أحمد بن هاشم بن عبد العزيز ؛ ٣٣٢ ، ٣٣٨
 أحمد بن يعل ؛ ٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٥٩٣
 أدريان ، الإمبراطور ؛ ٥٠٨
 إدريس بن إدريس الحنفي ؛ ٢٤١
 إدريس بن عبد الله بن الحنفي ؛ ٦٥٧
 إدريس بن علي بن حمود المتأيد ؛ ٦٦٢ ، ٦٦٤ ، ٦٧١ ، ٦٧٢
 إدريس بن يحيى المعتلى (العالي) ؛ ٦٧١ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥
 إدريس بن يحيى بن أدريس (السامي) ؛ ٦٧٥
 الإدريسي ، الشريف ؛ ٤٨ ، ٤٩ ، ٤٤١
 أدلبرت ؛ ٤٧٣
 إديكو ؛ ٤١
 أرخنتا بنت عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣ ، ٢٨٧
 أرده نيو الأزل (ملك ليون) ؛ ٢٩٢ ، ٢٩٧
 أرده نيو الثاني ؛ ٢٩٢ ، ٢٩٨ ، ٤٠٠ ، ٥٨٩ ، ٥٩١
 أرده نيو الثالث ؛ ٤٨٤ ، ٤٥٩ ، ٤٨٦
 أرده نيو الرابع ؛ ٥٩٣ ، ٥٩٧ ، ٦٠٠ ، ٥٩٤ ، ٥٩٧
 أرده نيو الخامس ؛ ٣٧٥

- إلييرة ، والدة ألفونسو الخامس ؛ ٢١١
 ألتاميرا ، أفانيل ؛ ٦٦ ، ٧٤ ، ٢١٢ ،
 ٢٢١ ، ٢٧٠
 ألفايدة ؛ ٨٠
 ألفونسو ، أمير ليون ؛ ١٦٩
 ألفونسو الأول ، دوق كانتبريا ؛ ١٣٨ ،
 ١٦٩ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ،
 ٣٥٤
 ألفونسو الثاني ، العفيف ؛ ٢١٨ ، ٢٢٠ ،
 ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ،
 ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥
 ألفونسو الثالث الكبير ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٢ ،
 ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ،
 ٣٤٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، ٣٩١
 ألفونسو الرابع ؛ ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩٣ ،
 ألفونسو الخامس ؛ ٥٦١ ، ٥٦٤ ، ٥٩٩ ،
 ٦١١ ، ٦١٣ ، ٦٢٩
 ألفونسو العالم (العاشر) ؛ ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٩٩
 ألفونسو القس (جد ابن حفصون) ٣٠٨
 الإقطاع ؛ ١٩٤
 أم الأصمخ أخت عبد الرحمن ؛ ١٥٠
 أم الحكم بنت المستعين ؛ ٦٦٦
 أمية بن إسحاق ؛ ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ،
 ٤٢٠ ، ٤٢١
 أمية بن الحكم ؛ ٢٥٨
 أمية بن عبد الرحمن ؛ ٢٣٧
 أمية بن عبد الرحمن العراقي ؛ ٦٦٩
 أمية بن عبد الغافر بن أبي عبدة ؛ ٣٣٢ ، ٣٣١
 أمية بن عبد الملك بن قطن ؛ ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٦٢
 أمية بن عيسى بن شهيد ؛ ٣١٣
 أمية بن معاوية بن هشام ؛ ٢٥٦
 أنزيموند ، الكونت ؛ ١٣٣ ، ١٣٧
 أنسلم ؛ ١٨١
 أنشودة زولان ؛ ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢
 أنجه الفرنجي ؛ ٤٢١
 أنزجو أريستا ؛ ٣٦٢
 أوباس ؛ ٣٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٢١١
 أوتو الأكبر ؛ ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٧٢ ،
 ٤٧٣ ، ٤٩١
 أوتو الثاني ؛ ٤٩١
 أودلاردو ؛ ٥٤٤
 أودو ، أمير أكويتين ؛ ٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ ،
 ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٣ ،
 ١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٣٧
 أورাকা ابنة طولة ملكة ناغار ؛ ٥٩٢ ، ٥٩٩ ،
 ٦٠٠
 أورাকা بنت فرنان كونشال ؛ ٥٩١ ، ٥٩٣ ،
 أورسيوس المؤرخ ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٥٠٥ ،
 أورليوس ؛ ٢١٨ ، ٢٢٠
 أوربة بنت موسى القسوي ؛ ٣٠٠
 الاوزاعي ، الإمام ؛ ٢٢٩
 أوغسطس ، الإمبراطور ؛ ٥٠٨
 أوليفر ؛ ١٨١ ، ١٨٢
 أولونخيو ، سان ؛ ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
 ٢٧٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٣
 إجلونا ؛ ٧١ ، ٧٢
 إيجهارد ؛ ١٨١
 إيزيدور الباجي ؛ ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٥ ، ٦٣ ،
 ٧٦ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٢٠٩
 إيفا ؛ ٣٤ ، ٤٤ ، ٦٠ ، ٦١
 إيمون ؛ ٤٧١
 أيوب بن حبيب اللخمي ؛ ٧٣ ، ٦٨٠
 أيوب بن عمر بن حفصون ؛ ٢٨٣
ب — ت — ث
 باديس بن حبوس ؛ ٥٠٧ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ،
 ٦٧٤ ، ٦٧٦
 باسيه ، المستشرق ؛ ١٨٢
 بين القصير ، الملك ؛ ١٣٣ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
 ١٧٤ ، ٢٣٤ ، ٢٦٦
 بين دى هرشتال ، محافظ القصر ؛ ٨٠
 بين بن شارلمان ؛ ٤٦٦
 بروس ، الدوق ؛ ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ،
 بدر الصقلبي ؛ ٣٤٧
 بدو القائد ؛ ٢١٨
 بدر مولى عبد الرحمن الداخل ؛ ١٥٠ ، ١٥٢ ،
 ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٧ ،
 ١٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢١٦

بوسون ؛ ٤٦٧ ، ٤٦٨ ،
 بون فيلي ؛ ٤٩٢
 بيدال ، المؤرخ ؛ ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ،
 ١٨٤ ، ٤٩١ ، ٥٦٥ ، ٥٨٦ ،
 بيرنجيه ؛ ٤٧٠ ، ٤٧٣ ،
 تاسيتوس ؛ ٢٨
 تدفيليا بن أدفونس ؛ ٢١٥
 تراچان ، الإمبراطور ؛ ٥٠٨
 التر وبادور ؛ ٤٧٨
 تريسا بنت برمودو زوجة المنصور ؛ ٥٨٣
 تريسا زوجة سانشو ملك ليون ؛ ٥٩٦
 تليد الفتي ؛ ٥٠٦
 تمام الفتي ؛ ٤٥١ ، ٤٥٢
 تمام بن عامر المقتني ؛ ٣١٣
 تمام بن علقمة الخمي ؛ ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ،
 ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٩٨ ،
 ٢١٦
 تميم بن معبد الفهري ؛ ١٣٥
 تود فاله ؛ ٨٠
 التيجاني ؛ ٥٧٠
 تيودورا ، القيصرة ؛ ٢٨٣
 تيودريك الأول ؛ ٢٩
 تيودريك الثاني ؛ ٢٩
 تيودريك الرابع ؛ ٩٨
 تيودوفرد ، دوق ؛ ٣٣
 تيودمير القوطي ؛ ٣٣ ، ٤١ ، ٥٠ ، ٥٥ ،
 ١٢٦
 تيودمير ، أسقف ليريا ؛ ٢٤٠
 تيودوسيوس ، الإمبراطور ؛ ١٧
 تيوفيلوس ، القيصرة ؛ ٢٨٢
 ثعلبة بن سلامة الجذائي ؛ ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٦
 ثعلبة بن عبيد الجذائي ؛ ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ،
 ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٩٨
 ثوبة بن سلامة الجذائي ؛ ١٢٧

ج - ح - خ

جانلون ؛ ١٨١ ، ١٨٢
 جاينجوس ، المستشرق ؛ ١٠ ، ٦٤

بدر بن أحمد الحاجب ؛ ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ،
 ٣٨١ ، ٣٩٥ ، ٤٦٠ ، ٤٦١
 برت ، ملكة برجونية ؛ ٤٦٥
 برمودو بن فرويلا ؛ ٢٢٠ ، ٢٢٦
 برمودو الثاني ؛ ٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ،
 ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ -
 ٥٦٥ ، ٥٨٣ ، ٥٩٨
 برنار ، القديس ؛ ٤٧٣
 برنهارت ؛ ٢٥٧
 بريهة بنت يحيى ، أم المنصور ؛ ٥٢١
 بسيل الثاني ، القيصرة ؛ ٦١٣
 بشر بن صفوان الكلبي ؛ ٨٢ ، ٨٣
 بشر بن مروان ؛ ٢٣ ، ٢٤
 بشرى العامري ، الفتى ؛ ٦٣٠
 بطرس ، ملك الصقالبة ؛ ٥٥٦
 بقب بن محمد ؛ ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٥١ ، ٦٨٥ ، ٦٩٤
 بكر بن وائل ؛ ٢٣
 بكر بن يحيى بن بكر ؛ ٣٣٠
 بكير بن ماهان ؛ ١٤٣
 بلاجيوس ، دوق كاننبريا ؛ ٣٣
 البلاذري ؛ ٤٨ ، ١٠٦
 بلايو (أو بلاجيوس) ؛ ٨٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ،
 ١١٤ ، ١٣٨ ، ٢٠٨ - ٢١٣
 بلايو بن برمودو ؛ ٥٦١
 بلايو ، القديس ؛ ٥٩٦
 بلج بن بشر القشيري ؛ ١١٩ ، ١٢٠ ،
 ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ٦٨٧
 بلقين بن جيسوس ؛ ٦٧١
 بلكتروود ؛ ٨٠
 بلكين بن زيري بن مناد ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤ ،
 ٤٩٩ ، ٥٤٥
 بليزاريس ؛ ١٨
 بليط الفرنجي ؛ ٤٠٤
 بليط الغلام ؛ ٦٤٦
 بهار ، الحارثية ؛ ٣٢٢
 بهلول بن مروان ؛ ٢٣١
 بهير ، الحارثية ؛ ٢٨٩
 بوبون ؛ ٤٧٣
 يوريل بن سونير ، الكونت ؛ ٤٩١ ، ٤٩١ ، ٥٤٤

الحباب بن رواحة الزهري ؛ ١٣٥ ، ١٣٦ ،
١٥٢

حباسة بن ماكسن ؛ ٦٥٢

حبوس بن ماكسن ؛ ٦٤٤ ، ٦٥٢ ، ٦٥٩ ،
٦٧٣

حبيب الخصى ؛ ٢٩٠

حبيب بن أبي عبدة الفهري ؛ ٧٢ ، ١١٨ - ١٢٠ ،
١٢٩ ،

حبيب بن سودة ؛ ٣٧٧ ، ٣٨١

حبيب بن عبد الملك ، ١٦١ ، ١٨٧ ،

الحجاج الثقفي ؛ ٢٤

حذيفة بن الأحوص القيسي ؛ ٨٣

الحمر بن عبد الرحمن الثقفي ؛ ٦٠ ، ٧٣ - ٧٥ ،

١٥٨ ، ٢١١ ، ٦٨٠

حزم بن وهب ؛ ٢٤٢

حسان بن حسان ؛ ٦٩٦

حسان بن مالك الكلبي ؛ ١٥٢ ، ١٩٨

حسان بن النعمان الغساني ؛ ٢١ - ٢٥

حداد بن اسحاق ؛ ٤٢٢

حداد بن شبروت ؛ ٥٠٦ ، ٥١٥

الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي ؛ ٥٤٦

حسن بن عبد الغافر بن أبي عبدة ؛ ٢٧٤

الحسن بن القاسم بن حمود ؛ ٦٦٣ ، ٦٧٦

الحسن بن كنون ؛ ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ -

٤٩٩ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥

الحسن بن علي بن أبي طالب ؛ ٦٥٧

حسن بن قنح ؛ ٦١٩

حسن بن يحيى المعتلي ؛ ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ،

الحسين بن علي بن أبي طالب ؛ ١٢٧ ، ١٤١ ،

١٤٣ ، ١٦٤

الحسين بن يحيى الأنصاري ؛ ١٧٤ - ١٧٦ ،

١٨٧ ، ١٨٨

حشاش ، أمير البحر ؛ ٢٩٦

الحصين العقيلي ؛ ١٣٣ ، ١٣٤

الحصين بن الدخن ؛ ٢١٤

حنص بن عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣ ، ٣٨٥ - ٣٨٨

حفص بن المرة ؛ ٣٢٩ ، ٣٣٦

حكيم بن حفصون ؛ ٣٨٦

حكيم بن سعيد القرزاز ؛ ٦٦٨ ، ٦٦٩

جدار بن عمرو المذحجي ؛ ١٥٢ ، ١٩٨

جرميجوري الثاني ، البابا ؛ ١٠٨

جرميجوريوس (جرجير) ؛ ١٦

جرمبولد ؛ ٨٠

الجزية ؛ ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٠

جعد بن عبد الغافر ؛ ٣٢٨ ، ٣٢٩

جعفر ، أم المؤيد ؛ راجع صبح أم المؤيد

جعفر بن دميان ؛ ٣٠٨

جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي ؛ ٥١١

جعفر بن عثمان المصحق ؛ ٤٦٣ ، ٤٩٧ -

٤٩٩ ، ٥٠٣ ، ٥١٠ - ٥١٢ ، ٥١٧ -

٥٢٣ ، ٥٢٦ - ٥٣١ ، ٥٦٩ ، ٦٨٤ ،

٦٩٧ ، ٧٠٠

جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي ؛ ٤٩٣ ،

٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ،

٥٤٥ ، ٥٧٥ ، ٧٠٢

جعفر بن عمر بن حفصون ؛ ٣٣٠ ، ٣٨٣ ،

٣٨٤

جعفر بن مقسم ؛ ٣٨٠

جهميلة المذراء ؛ ٢٥٧ ، ٢٥٨

جند سالفوس بن ألفونسو الثالث ؛ ٣٦٠

جنسريك ؛ ١٧

جهور بن عبد الله بن أبي عبدة ؛ ٤٦١

جهور بن عبد الملك البختي ؛ ٤٦٠ ، ٤٦١

جهور بن محمد بن جهور ، أبو الحزم ؛ ٦٦٠ ،

٦٦١ ، ٦٦٨ ، ٦١٩

جوذر الفقي ؛ ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٦

جوتم بن أنطونيان ؛ ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٣١٦ ، ٦٩٥

جوذر سالفوسانشيز ؛ ٥٩٦ ، ٥٩٧

جوزالفو كوثالث ؛ ٥٤٨

جوهر الصقلي ؛ ٤٩٢ ، ٦٩٩

جييون ، إدوارد ؛ ٤٤ ، ٩١ ، ١٠٩

جيرولدوس ؛ ٤٧٣

جيوم ؛ ٤٧٣

جيوم دي تولوز ؛ ٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٥٧

جيين دي تولوز ؛ ٢٦٥

الحاجب المنصور ؛ أنظر محمد بن أبي عامر

حارث بن بزيع ؛ ٢٩١ ، ٢٩٢

الحكم بن محمد ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٠

الحكم بن عبد الرحمن بن الحكم ؛ ٢٩٢

الحكم المستنصر ؛ ٣٧٨ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٩

٤٠٢ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢

٤٨٣ ، ٤٩٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٤

٤٩٦ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٢

٥٠٣ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥١٠

٥١٢ ، ٥٢٤ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٤٤

٥٤٥ ، ٥٦٩ ، ٥٧٨ ، ٥٨٣ ، ٥٩٤

٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦٥٠ ، ٦٥٦

٦٨٢ ، ٦٨٤ ، ٦٩٧ ، ٧٠٠ ، ٧٠٣

حكم بن منذر ؛ ٤٠٨

الحكم بن هشام ؛ ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧

٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥٢

٢٥٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٣

٢٩٩ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥

٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠

حلاوة . الحارثية ؛ ٢٥٤

حلل ، الحارثية ؛ ٢٢٤

حلورية أر حاورية ؛ أنظر لبيرة الراحبة

حمد بن بسيل ؛ ٣١٢

الحمدي ، أبو عبد الله ؛ ١٠٧

حنظلة بن صفوان الكلبي ؛ ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٥

١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٥

حنون بن أحمد بن عيسى ؛ ٤٩٨

حيوة بن ملامس الحضرمي ؛ ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٦

خالد بن أمية بن شهيد ؛ ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣

خالد بن حبيب ؛ ١١٩

خالد بن حميد الزناني ؛ ١١٩

خالد بن عثمان بن خلدون ؛ ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤

خالد بن الوليد ؛ ٢٣

الخشي ، أبو عبد الله ؛ ٣١٥ ، ٤٣١ ، ٥٠٥

خلف بن بكر ؛ ٣٩٠

خلف بن حسين بن حيان ؛ ٥٧٤ ، ٥٨١ ، ٥٨٢

خلف بن خليفة ؛ ٦١٩

خليفة بن مروان ؛ ١٦٣

خمين ، الملكة ؛ ٣٦٠

خمينو غريسيس ؛ ٥٩٩

خير بن شاكر ؛ ٣٢٤

خيران العامري ؛ ٦١٦ ، ٦٤٩ ، ٦٥٨ ، ٦٦٢

٦٦٣ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١

د - ز

داجويرت ؛ ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠

داود بن هلال ؛ ١٦٧

دحية الفسافي ؛ ١٦٨

دري بن عبد الرحمن الصقلبي ؛ ٣٩٠ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨

٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢

دوزي ، المستشرق ؛ ٦٣ ، ١١٨ ، ١٩٤ ، ٢٦٧

٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢

٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦

دواشديو الأسقف ؛ ٣٩٧

دوناس بن أبي روح ؛ ٦٦٨

ديبل الزعيم الشمي ؛ ٢٣٧

ديتوريندس ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٥٠٥ ، ٥١٥ ، ٥١٦

ديسم بن إسحاق ؛ ٣٣٠

ديسيوس ، الإمبراطور ؛ ٢٨

ذكاء الفتي ؛ ٥٠٣

الذلفاء ، أم عبد الملك المنصور ؛ ٦٠٨ ، ٦١٨ ، ٦٣٠

٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥

ذو النون بن سليمان الهواري ؛ ٣٠٧

راتبود ، زعيم فريزيا ؛ ٧٩

راجنفرد ؛ ٨٠

الرازي ، عيسى بن أحمد ؛ ١١٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠

١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥

١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠

١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣

رامون بوريل الثالث ؛ ٦١١ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩

راميرو الأول (رذمير) ؛ ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣

٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧

راميرو الثاني ؛ ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨

٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣

٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨

٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣

٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧

راميرو الثالث ؛ ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٥٣٨ ، ٥٤١

٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦

راميرو أباركا ؛ ٥٣٩

زيري بن مناد الصنهاجي ؛ ٤٩٣ ، ٥٠١ ،
زيلير ، المؤرخ ؛ ١١٠

س - ط

سابور الفتى ؛ ٥٠٧
ساجيتوس ؛ ٤٦٨
سارة القوطية ؛ ٦١ ، ٣٣١ ، ٧٠٠
سافدرا ، المستشرق ؛ ٥٦٥
سالم ، مول عبد الرحمن ؛ ١٥٠
سانشا ، دونيا ؛ ٣٤٣
سانشا ابنة طولة ملكة نافار ؛ ٦٠٠
سانشو زعيم نافار ؛ ٣٦٢
سانشو الأول ملك نافار ؛ ٣٤٢ ، ٣٤٣ ،
٣٦٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ - ٤٠٠ ، ٤٠٢
سانشو الثاني ملك نافار ؛ ٥٤١ ، ٥٤٧
سانشو الكبير ، ملك نافار ؛ ٦٠١
سانشو الأول ملك ليون ؛ ٤٢٣ ، ٤٥٩ ،
٤٨٤ - ٤٨٧ ، ٤٨٩ ، ٥٩٤ ، ٥٩٤ ،
٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٦٠٠
سانشو غرسية بن فرتون ؛ ٣٦٢ ، ٣٦٣ ،
٥٩٩
سانشو غرسية ملك نافار ؛ ٤٩٠ ، ٤٩١ ،
٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ،
٦٠٠ ، ٦٢٣
سانشو غرسية ، أمير قشتالة ؛ ٥٥١ ، ٥٥٢ ،
٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦ ، ٦١٠ - ٦١٣ ،
٥١٥ ، ٦٢٩ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٥٠ ،
٦٥١
سانشو غرسيس ملك نافار ؛ ٥٦٤
سياجريوس ؛ ٧٧
سترايون الجغرافي ؛ ١٧٣
سبيعة ، زوجة القاسم بن حود ؛ ٦٧٣
السري بن الحكم ؛ ٢٤٥
سموند ، المؤرخ ؛ ١١٠
سناندو ، الأسقف ؛ ٥٩٦
سعد الحادد ؛ ٥٥٠
سعد بن عبادة ؛ ١٦٨
سعدون للرعيي ؛ ٣٣٥

وائكة المؤرخ ؛ ٩١٠
ربيع بن تدلف القومس ؛ ٢٥١
ربيع بن زيد الأسقف ؛ ٢٤٣ ، ٢٥٥ ، ٤٣٨ ،
٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٥٠٧
رتشارد ملك النورمان ؛ ٤٨٨
رحميك ملك القوط ؛ ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ،
٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٧١ ،
٩٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩
ودريك الطليطل ؛ ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٧
وزق بن النيمان الفسافي ؛ ١٦
الرشيد ، هارون ؛ ١٧٤ ، ٢٣٤ ، ٢٨٩
الرماحس بن عبد العزيز الكتافي ؛ ١٨٧
روتلانس الكونت ؛ ٤٧٠
رولان ؛ ١٨١ ، ١٨٢
دوللو ملك النورمان ؛ ٤٨٨
دومانوس الثاني ، لقيصر ؛ ٤٨٤
ريان الفتى ؛ ٣٤٨
الرياحي (ارذبلش) ؛ ٣٧٥
ريشوندو الإلبيري ؛ أنظر ربيع بن زيد
ريكافود ؛ ٢٧١
رينو ، المستشرق ؛ ٤٧٩
ويوتيانوس ، الكونت ؛ ٣٥٥
زاو بن زيري بن مناد ؛ ٦١٨ ، ٦٤٤ ،
٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٢ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ،
٦٦٢
زخرف ، الحارثية ؛ ٢٣٠
زروال بن عمري ؛ ٤٩٩ ، ٥٠١
زرياب (أبو الحسن علي بن زافع) ؛ ٢٨١
زكريا بن عمروس ؛ ٣٠٩
الزهره (جارية الناصر) ؛ ٤٣٩
زهير العامر ؛ ٦١٦ ، ٦٦٢ ، ٦٦٨ ، ٦٧١ ،
٦٧٢
زهير بن قيس البنو ؛ ٢٠ ، ٢١
زياد بن أفلح ؛ ٤٨٩ ، ٥٩٧
زياد بن عبد الرحمن ؛ ٢٢٩ ، ٦٩١ ، ٦٩٢
زيادة الله بن مضر الطيني ؛ ٥٧٩
زيري بن عطية ؛ ٥٤٥ - ٥٤٧ ، ٥٥٧ - ٥٥٩ ،
٦٠٩

سعدون بن عامر السرنباقي ؛ ٣٠٥ ، ٣٠٦
 سعيد بن أبي هند ؛ ٢٢٩
 سعيد الجعفي (المطري) ؛ ١٦٣
 سعيد بن الحسين الأنصاري ؛ ١٨٨ ، ١٨٧ ، ٢٢٥
 سعيد بن الحكم الجعفي ؛ ٥١٢
 سعيد بن أيوب ؛ ٤٤٦
 سعيد بن حسان ؛ ٦٩٢
 سعيد بن سعيد بن حدير ؛ ٦٨٥
 سعيد بن سليمان بن جودي ؛ ٦٩٦ ، ٣٢٩
 سعيد بن عباس القرشي ؛ ٣٠٠
 سعيد بن عبد ربه ؛ ٣٥١
 سعيد بن عمرو العكي ؛ ٣٥١
 سعيد بن الأمير محمد ؛ ٢٩٢ ، ٢٩١
 سعيد بن محمد بن أبي السليم ؛ ٣٤٧
 سعيد بن مستنة ؛ ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨
 سعيد بن المنذر القرشي ؛ ٤٠٧ ، ٣٩٦ ، ٣٨٦ ، ٤٦١ ، ٤٦٢
 سعيد بن هذيل ؛ ٣٧٥
 سعيد بن يونس بن سعديل ؛ ٤٢٤
 السجاح ؛ أنظر عبد الله بن محمد بن علي
 سفيان بن عبد ربه ؛ ٢٧٥
 سكوت ، المؤرخ ؛ ٦٤
 سلمة بن علي بن أبي عبدة ؛ ٣٤٧
 السلمي القائد ؛ ١٨٧
 سليط بن عبد الله بن عباس ؛ ١٤٤
 سليمان بن الحكم المستعين ؛ ٤٤٠ ، ٦٤٦ ، ٦٥٠ ، ٦٥٢ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٥٩
 سليمان بن المرتضى ؛ ٦٦٤ ، ٦٦٦
 سليمان بن شهاب ؛ ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٢١٤
 سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية ؛ ٢٠٠
 ٢٢٣ - ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٤٦٥
 سليمان بن عبد الملك ؛ ٥٧ - ٥٩ ، ٧١ - ٧٣
 ٩٣ ، ١١١ ، ١٤٠ ، ١٤٣
 سليمان بن عبدوس ؛ ٣٠٠
 سليمان بن عثمان ؛ ١٦٥
 سليمان بن عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣ - ٣٨٦ ، ٣٩٨
 سليمان بن مرتين ؛ ٢٥٧ ، ٢٥٩
 سليمان بن هشام ؛ ٦٣٣ ، ٦٤٥
 سليمان بن هشام بن عبد الله بن الناصر ؛ ٦٦٧
 سليمان بن هود ؛ ٦٦٩
 سليمان بن وائسوس ؛ ٣١٣ ، ٣٤٧
 سليمان بن يقظان الكلبي ؛ ١٦٨ - ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٦
 ١٨٧
 السمع بن مالك الخولاني ؛ ٧٤ - ٧٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ٢٢٨ ، ٥٧٧ ، ٦٨٠
 ٦٨٦
 سواجات البرغواطي ؛ ٦٧٥
 سوار بن حمدون القيسي ؛ ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٦٩٦
 سوزي الشاعر ؛ ٥٧
 سيزيوت ابن وتيزا ؛ ٣١ ، ٣٤ ، ٤٤
 ٦١ ، ٦٠
 سيلو ، ملك جليقية ؛ ٢١٨
 سيمونيت ، المستشرق ؛ ٦٦ ، ٧١ ، ٧٠٨
 ٢٣٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢
 ٢٧٩ ، ٣٨٣ ، ٥٧٠
 شارل الأصابع ؛ ٢٦٥ ، ٣١٤ ، ٣٥٧ ، ٤٦٦
 شارلمان (كارل الأكبر) ؛ ١٧١ - ١٧٦
 ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ٢١٨
 ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ - ٢٣٥ ، ٢٤٢
 ٢٥٦ ، ٤٦٥
 شريط ؛ ٣٤٢
 شفاء ، الحارثية ؛ ٣٧٨
 شقنا بن عبد الواحد (الفاطمي) ؛ ١٦٤
 ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨
 شلدراند ؛ ١١٥ ، ١١٦
 شلدريك الثالث ؛ ١٣٣
 شمر بن ذي الجوشن ؛ ١٢٧
 شنجول ؛ أنظر عبد الرحمن المنصور
 شير ، الكفت ؛ ٣٤٣
 شير بن منفرد ؛ ٤٢٣
 شهيد بن عيسى بن شهيد ؛ ١٩٨
 صاعد بن الحسن البغدادي ؛ ٥٥١ ، ٥٥٢
 ٥٦٣ ، ٥٥٩ ، ٥٨٠ ، ٦٢٠ ، ٦٢٨ ، ٧٠٤
 صالح بن علي ؛ ١٤٦
 صبح أم المؤيد ؛ ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٢٠ - ٥٢٥

سعدون بن عامر السرنباقي ؛ ٣٠٥ ، ٣٠٦
 سعيد بن أبي هند ؛ ٢٢٩
 سعيد الجعفي (المطري) ؛ ١٦٣
 سعيد بن الحسين الأنصاري ؛ ١٨٨ ، ١٨٧ ، ٢٢٥
 سعيد بن الحكم الجعفي ؛ ٥١٢
 سعيد بن أيوب ؛ ٤٤٦
 سعيد بن حسان ؛ ٦٩٢
 سعيد بن سعيد بن حدير ؛ ٦٨٥
 سعيد بن سليمان بن جودي ؛ ٦٩٦ ، ٣٢٩
 سعيد بن عباس القرشي ؛ ٣٠٠
 سعيد بن عبد ربه ؛ ٣٥١
 سعيد بن عمرو العكي ؛ ٣٥١
 سعيد بن الأمير محمد ؛ ٢٩٢ ، ٢٩١
 سعيد بن محمد بن أبي السليم ؛ ٣٤٧
 سعيد بن مستنة ؛ ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨
 سعيد بن المنذر القرشي ؛ ٤٠٧ ، ٣٩٦ ، ٣٨٦ ، ٤٦١ ، ٤٦٢
 سعيد بن هذيل ؛ ٣٧٥
 سعيد بن يونس بن سعديل ؛ ٤٢٤
 السجاح ؛ أنظر عبد الله بن محمد بن علي
 سفيان بن عبد ربه ؛ ٢٧٥
 سكوت ، المؤرخ ؛ ٦٤
 سلمة بن علي بن أبي عبدة ؛ ٣٤٧
 السلمي القائد ؛ ١٨٧
 سليط بن عبد الله بن عباس ؛ ١٤٤
 سليمان بن الحكم المستعين ؛ ٤٤٠ ، ٦٤٦ ، ٦٥٠ ، ٦٥٢ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٥٩
 سليمان بن المرتضى ؛ ٦٦٤ ، ٦٦٦
 سليمان بن شهاب ؛ ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٢١٤
 سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية ؛ ٢٠٠
 ٢٢٣ - ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٤٦٥
 سليمان بن عبد الملك ؛ ٥٧ - ٥٩ ، ٧١ - ٧٣
 ٩٣ ، ١١١ ، ١٤٠ ، ١٤٣
 سليمان بن عبدوس ؛ ٣٠٠
 سليمان بن عثمان ؛ ١٦٥
 سليمان بن عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣ - ٣٨٦ ، ٣٩٨
 سليمان بن مرتين ؛ ٢٥٧ ، ٢٥٩

عبد الجبار بن المغيرة ؟ ٦٣٣ - ٦٣٥
 عبد الحميد بن بسيل ؟ ٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩ ،
 ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٣٦١ ، ٤٦٢
 عبد الحميد بن مقيث ؟ ٣١١
 عبد الرحمن الناصر ؟ ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ،
 ٢٩٥ ، ٢٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٣٢٩ -
 ٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ - ٣٤١ ، ٣٤٣ ،
 ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٦٣ ، ٣٧٣ -
 ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ - ٣٩٠ ، ٣٩٢ ،
 ٣٩٤ ، ٣٩٦ - ٣٩٩ ، ٤٠٨ ،
 ٤٠٩ - ٤١٢ ، ٤١٧ - ٤٢٩ ، ٤٣١ -
 ٤٣٩ ، ٤٤٦ - ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٦٣ ،
 ٤٧٢ ، ٤٨٢ - ٤٨٧ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ،
 ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥١١ - ٥١٦ ، ٥٣١ ،
 ٥٤٤ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٧٩ ، ٥٨٣ ،
 ٥٨٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ - ٥٩٣ ، ٥٩٩ ،
 ٦٠٠ ، ٦٠٦ ، ٦٦٩ ، ٦٨٢ ، ٦٨٤ ،
 ٦٨٥ ، ٦٨٨ ، ٦٩٠ ، ٦٩٥ - ٧٠١
 عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج ؟ ٣٣٤ ،
 ٣٣٨ ، ٣٧٧
 عبد الرحمن بن أحمد بن زكريا ؟ ٤٦١
 عبد الرحمن بن بدر ؟ ٤٦٠
 عبد الرحمن بن الحكم ؟ ١٩٧ ، ٢٣٨ - ٢٤٠ ،
 ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ - ٢٥٥ ، ٢٥٧ -
 ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ - ٢٨٤ ،
 ٢٨٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ،
 ٣٠٤ ، ٣١٢ - ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٤٦ ،
 ٣٥٤ - ٣٥٦ ، ٣٧٣ ، ٤٢٩ ، ٤٥٦ ،
 ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٨٤ ، ٤٨٨ ، ٥١٥ ،
 ٦٨٢ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧ ، ٦٩٠ ، ٦٩٤ ،
 ٦٩٥ ، ٧٠٤
 عبد الرحمن بن الحكم المستنصر (الطفل) ؟ ٥٠٢ ،
 ٥٢٠ ، ٥٢١
 عبد الرحمن بن المنصور ؟ ٥٥٣ ، ٥٦٢ ، ٥٨٣ ،
 ٦٠٧ ، ٦٠٩ ، ٦١٥ ، ٦٢٣ - ٦٢٣ ،
 ٦٣٢ ، ٦٣٥ - ٦٣٨ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧ ،
 ٦٨٣ ، ٦٨٦
 عبد الرحمن بن أمية بن شهيد ؟ ٣١٨ ، ٣٤٧ ،
 عبد الرحمن بن حبيب الفهر ؟ ١٢٠ ، ١٢٤ -

٥٢٩ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٥٤ - ٥٥٦
 صقر قریش ؟ ١٩٥ ، ١٩٦
 صمويل ، اسم ابن حنصون النصراني ؟ ٣٣٧
 الصميل بن حاتم ؟ ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ،
 ١٣١ ، ١٣٤ - ١٣٦ ، ١٥١ - ١٥٤ ،
 ١٥٦ - ١٦٠
 الضبى ، أحمد بن يحيى ؟ ١٠٧
 الضحاك بن قيس الفهر ؟ ١٥٤
 طارق بن زياد الليثي ؟ ٤٠ ، ٤٢ - ٤٥ ،
 ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٨٦ ،
 ٢١٠ ، ٥٢١ ، ٥٥٩ ، ٦٨٦
 لماولت المعافى ؟ ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤
 طاهر بن محمد البغدادي ؟ ٦٩٧ ، ٦٩٨
 الطبري ؟ ١٠٦
 طرسوس المجوسي ؟ ٦٣٣
 طرفة الفتي ؟ ٦١٦ ، ٦١٧
 طرفة بن لقيط ؟ ٢٥١
 طروب الجارية ؟ ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩
 طريف بن مالك ؟ ٤٠ ، ٤٨
 طلحة ملكة نافع ؟ ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ،
 ٤٠٨ ، ٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٥٩ ، ٥٩٢ ،
 ٥٩٣ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠

ع-غ

عاصم بن مسلم الفتني ؟ ١٩٨
 عامر بن أبي جوشن ؟ ٣٩٠ ، ٣٩١
 عامر بن عامر ؟ ٣٠٩
 عامر بن عمرو العبادي ؟ ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٢
 عامر بن فتوح الفائي ؟ ٦٥٩
 عامر بن كليب ؟ ٢٦٠
 عائشة بنت أحمد بن قادم ؟ ٥١٦
 عباس بن الوليد ؟ ٢٦٥
 عباس بن عبد العزيز القرشي ؟ ٣٧٥
 العباس بن عبد الله ؟ ٢٥١
 العباس بن عبد المطلب ؟ ١٤٣
 عباس بن فرناس ؟ ٢٥٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،
 ٢٩٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٦٩٣ ، ٦٩٥ ، ٧٠٤
 عباس بن ناصح الخزيري ؟ ٢٤١ ، ٢٤٢ ،
 ٢٥٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٦٩٣
 حيد الأعلى بن وهب ؟ ٢٧٦ ، ٦٩٤

عبد الرحمن بن هشام (المتفهر) ٦٦٥ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥
 عبد الرحمن بن وضاح ٣٩٩
 عبد الرحمن بن يوسف القهري ١٥٢ ، ١٣٦ ، ١٥٢
 ٢١٣ ، ١٥٩ ، ١٥٨ ، ١٥٤
 عبد الرحمن بن يوف بن أرمطيل ٤٩٥
 عبد السلام بن بسط الرومي ١٩٨
 عبد السلام بن يزيد بن هشام ١٨٩ ، ١٩٤
 عبد العزيز بن أبي عبدة ٢٥١ ، ٦٨٤
 عبد العزيز بن الناصر ٥٠٦
 عبد العزيز بن عباس ٣٠٩
 عبد العزيز بن عبد الرحمن التجيبي ٣٤١
 عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور ٦٢٧ ، ٦٨٦
 عبد العزيز بن مروان ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥
 عبد العزيز بن موسى بن نصير ٥٥ ، ٥٦
 ٥٨ ، ٧١ - ٧٣ ، ١٢٦
 عبد الغافر النعماني ١٦٠
 عبد الغافر اليعقوبي ١٦٦
 عبد الغافر بن عبد العزيز ٣٠١
 عبد القادر بن أبات ٢٢٧
 عبد الكريم بن مروان الغساني ١٥٨
 عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ٢٢٨ ،
 ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥١
 ٢٥٤ - ٢٥٦ ، ٢٧٤ - ٢٧٦ ، ٢٥٤
 ٦٨٤ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤
 عبد الله بن أبي عامر ٥١٥ ، ٦٢٩ ، ٦٣٣ ،
 ٦٣٤
 عبد الله بن أحمد بن محمد بن عيسى ٤٦١
 عبد الله بن أصغ ٣٨٠
 عبد الله البلنسي ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٤٦٥
 عبد الله بن النضر بن خير ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٦٩٤
 عبد الله بن بدر ٤٦٠ ، ٤٦١
 عبد الله بن حبيب ٣١٥
 عبد الله بن حجاج ٣٣١ ، ٣٣٢
 عبد الله بن خالد ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٦٤ ، ١٩٨
 عبد الله بن سعد بن أبي سريح ١٥ ، ١٦
 عبد الله بن طاهر ٢٤٥
 عبد الله بن عباس بن أحمد بن أبي عبدة ٤٦١

١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٥٠ ، ١٦٢ ، ١٧١
 عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة ١٢٩
 عبد الرحمن بن حبيب الصنعلي ١٨٥ ، ١٨٦
 عبد الرحمن بن حفصون ٣٨٣ ، ٣٨٤
 عبد الرحمن بن حدون بن أبي عبدة ٣٤٧
 عبد الرحمن بن رستم ٢٧٤ ، ٢٧٥
 عبد الرحمن بن رماحس ٤٨٨ ، ٤٨٩ ،
 ٥٠١ ، ٥٠٥
 عبد الرحمن بن سعيد بن مالك ٣٩٠
 عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبي ٣٤١
 عبد الرحمن بن عبد الله الخليلي ٣٨٩
 عبد الرحمن بن عبد الله الزجالي ٤٦٢
 عبد الرحمن بن عبد الله النفاق ٨١ ، ٨٤ ،
 ٨٥ ، ٨٨ - ٩٠ - ٩٦ - ١١٠ ، ١١٣ ،
 ٢١٢ ، ٦٨٧ ، ٦٨٦
 عبد الرحمن بن علقمة اللخمي ١١٤ ، ١١٥ ،
 ١٢٤ - ١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٣٧
 عبد الرحمن بن غانم ٣١٢
 عبد الرحمن بن فطيس ٧٠٤
 عبد الرحمن بن كثير اللخمي ١٢٨
 عبد الرحمن بن الأمير محمد ٢٩٩
 عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الناصر
 أنظر المرتضى بالله
 عبد الرحمن بن مروان الخليلي ٣٠٠ ، ٣٠٣ -
 ٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣٢٠ ، ٣٢٨ ، ٣٣٩
 عبد الرحمن بن مطرف التجيبي ٥٤٩ ، ٥٥٠
 عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) ١٣٦ ،
 ١٤٩ - ١٥٠ ، ١٥١ - ١٥٢ ، ٢١٤ -
 ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ،
 ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ،
 ٢٥٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ،
 ٣١٤ ، ٣٣٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ٤٣٦ ،
 ٤٤٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٤ ، ٤٨٤ ، ٥٠٤ ،
 ٥٠٨ ، ٥١٤ ، ٥٥١ ، ٦٠٦ ، ٦٨١ ،
 ٦٨٢ ، ٦٨٧ ، ٦٩٠
 عبد الرحمن بن مغيث ١٩٨
 عبد الرحمن بن مقاتا ٦٧٣ ، ٧٠٥
 عبد الرحمن بن هاشم ٤٠٩

عبد الله بن الأمير عبد الرحمن : ٢٨٩ ، ٢٩٠
عبد الله بن عبد الرحمن الناصر : ٤٠٢ ، ٤٥٠
عبد الله بن عبد العزيز المرواني : ٥٥٩ ، ٥٥١ ، ٥٥٢
عبد الله بن عبد الملك بن مروان : ١٩ ، ٢٣
عبد الله بن عمرو بن العاص : ٦٢٧
عبد الله بن عمرو بن مسلمة : ٣٩٠
عبد الله بن قادم الفهري : ٦٦٨
عبد الله بن قرقمان بن بدر : ٢٨٠
عبد الله بن كليب : ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥
عبد الله بن محمد ، الأمير : ٣٠٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥١ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٩٢ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٥٩ ، ٥٩٦
عبد الله بن محمد بن أبي حوثة : ٢٧٦
عبد الله بن محمد بن أمية : ٢٧٦
عبد الله بن محمد الزجال : ٤٦٠ ، ٧٠٠
عبد الله بن محمد بن علي (المنج) : ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ٢٠٢
عبد الله بن محمد بن لب : ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٦٣ ، ٣٩٨
عبد الله بن محمد بن مروان الخليلي : ٣٣٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣
عبد الله بن مروان : ١٩ ، ٢٣
عبد الله بن مسلمة : ٦٣٤
عبد الله بن المنصور : ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١
عبد الله بن موسى بن نصير : ٢٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٧١ ، ٧٣
عبد الله بن وهب : ٢٧٦ ، ٦٩٢
عبد الله بن يحيى : ٢٦٥
عبد الله بن يحيى بن إدريس الخالدي : ٣٥١ ، ٤٢٤ ، ٤٦١
عبد الملك بن أبي الجواد : ٣٣٠ ، ٣٣٩
عبد الملك بن إدريس الجزيري : ٦١٧
عبد الملك بن إدريس الخولاني : ٥٧٤
عبد الملك بن جهور : ٤٦٢ ، ٣٥١ ، ٦٦٥ ، ٦٩٨

عبد الملك بن حبيب : ٢٧٦
عبد الملك بن حبيب السلمي : ٦٩٢ ، ٦٩٣
عبد الملك بن سعيد بن أبي حمزة : ٤٠٤ ، ٤٢٦
عبد الملك بن سعيد المراسي : ٤٨٦ ، ٦٩٦
عبد الملك بن شهيد : ٣٥١ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥
عبد الملك بن عامر المعافري : ٥٢١
عبد الملك بن العباس القرشي : ٢٩٩
عبد الملك بن عبد الله بن أمية : ٣١٣ ، ٣٣٢ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩
عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث : ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٤٦٥
عبد الملك بن عمر بن مروان (المرواني) : ١٥٨ ، ١٦٣
عبد الملك بن عيسى بن سعيد : ٦١٧ ، ٦٢٠
عبد الملك بن قطن الفهري : ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ٦٨١ ، ٦٨٧
عبد الملك بن مروان : ٢٠ ، ٢٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧
عبد الملك بن المنصور (المظفر) : ٥٤٥ ، ٥٤٨ ، ٥٥٣ ، ٥٥٥ ، ٥٥٩ ، ٥٦٢ ، ٥٦٦ ، ٥٨١ ، ٦٠٧ ، ٦١٢ ، ٦١٤ ، ٦١٦ ، ٦٢٣ ، ٦٢٥ ، ٦٣٠ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٩٠
عبد الملك بن موسى بن نصير : ٥٦
عبد الملك بن هشام : ٢٢٨
عبد الملك بن يزيد الأزدي ، أنظر أبو عون
عبد الواحد الروطي : ٣٠٢
عبد الواحد المراكشي : ٦٥٧
عبد الواحد بن اسحاق التميمي : ٢٨١
عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني : ٢٧٤
عبد الواحد بن يزيد الهوار : ١٢٠ ، ١٢١
عبد الوهاب بن أحمد بن مغيث : ٣٠١
عبد الوهاب بن حزم : ٦٦٥
عبد الوهاب بن عباس : ٢٥٢ ، ٦٩٣
عبد الوهاب بن عبد الرؤوف : ٢٢٣
عبد الوهاب بن محمد بن بسيل : ٤٦١
عبدون عامل الكثر : ٢٤١
عبدون بن خزرون : ٦٧٥

عبد الله النخارية ، زرجة المنصور ؛ ٥٨٣ ، ٦٢٣
 عبيد الله المهدي ؛ ٤٢٥ ، ٤٢٦
 عبيد الله بن أبان بن معاوية ؛ ١٨٩ ، ١٩٤
 عبيد الله بن أحمد الزجالي ؛ ٤٦٠
 عبيد الله بن عبد الله البلنسي ؛ ٢٤٣ ، ٢٥٧
 عبيد الله بن عثمان ؛ ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧
 ١٥٨ ، ١٦٤ - ١٦٦ ، ١٨٩ ، ١٩٣
 ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٢٦
 عبيد الله بن قاسم ؛ ٤٩٠
 عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة ؛ ٣٢٥ ، ٣٢٦
 ٣٤٧
 عبيد الله بن يحيى بن إدريس ؛ ٦٩٦ - ٦٩٨
 عبدة ، والي إفريقية ؛ ١٠٦
 عبدة بن حميد ؛ ٢٣٩
 عبدة بن عبد الرحمن السلمى ؛ ٨٣ ، ٨٤
 عثمان بن أبي نعمة الخثعمي ؛ ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٧
 ١٠٣
 عثمان بن عفان ؛ ١٥ ، ١٨ ، ١١٨ ، ١٩٦
 عثمان بن عمرو ؛ ٣٣٠
 عثمان بن نصر ؛ ٣٧٩ ، ٣٨٠
 عثمان بن نصر المصمقي ؛ ٥١١
 العنزي ، أحمد بن عمر ؛ ٣٤١
 عروة بن الوليد الذي ؛ ١٣٤ ، ١٣٥
 عزرة بن عبد الله الفهري ؛ ٨٣
 العزيز بالله الفاطمي ؛ ٤٩٩ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥
 عصام الخولاني ؛ ٣٤٦
 عقبة بن الحجاج السلوي ؛ ١١٣ ، ١١٤
 ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ٢١٢
 عمقة بن نافع الفهري ؛ ١٥ ، ١٩ ، ٢٠
 عكاشة القزاري ؛ ١٢٠ ، ١٢١
 العلاء بن مغيث اليحصبي ؛ ١٦١ - ١٦٣
 ١٨٦ ، ٢١٥
 علي بن أبي طالب ؛ ١٨ ، ١٤١ - ١٤٣
 علي بن حود ؛ ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ - ٦٦١
 علي بن وداعة ؛ ٦٥١
 عمر بن حفصون ؛ ٣٠٣ ، ٣٠٧ - ٣١٠
 ٣١٧ - ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ - ٣٢٥
 ٣٢٨ - ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ - ٣٣٨
 ٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٦٢
 ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٣
 ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٦٩٥
 عمر بن الخطاب ؛ ١٤ ، ٢٣ ، ١٩٦
 عمر بن طلحة ؛ ١٦٦
 عمر بن عبد العزيز ؛ ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٢٢٥
 ٦٨٠ ، ٦٨١
 عمر بن عبد الله ؛ ١١٩
 عمرو بن العاص ؛ ١٤ ، ١٥
 عمرو بن أبي الحباب ؛ ٥٧٥
 عمر بن عبد الله بن أبي عامر (عسكلاجة) ؛
 ٥٢٨ ، ٥٤٥
 عمرو بن عمرو بن عمرو ؛ ٣٠١
 عمرو بن يوسف ؛ ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٣٠١
 عمريل بن تيمت ؛ ٥٠٠
 عنبر العامري ؛ ٦٤٩
 عنبدة بن سحيم الكلبي ؛ ٨٢ ، ٨٣
 عيسى بن أحمد بن أبي عبدة ؛ ٤٦١ ، ٤٦٢
 عيسى بن أحمد الرازي ؛ ٢٨٩
 عيسى بن الحسن بن أبي عبدة ؛ ٢٩٠ ، ٢٩١
 ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣١٢
 عيسى بن دينار ؛ ٢١٩ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧
 ٢٧٦ ، ٣١٥ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣
 عيسى بن سعيد (ابن القفاح) ؛ ٥٥٨ ، ٥٧٤
 ٥٧٥ ، ٦١٦ - ٦٢٠ ، ٦٣٠
 عيسى بن شهيد ؛ ٢٦٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥
 ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٢ ، ٦٨٤
 عيسى بن فطيس ؛ ٤١٦ ، ٤٦١ ، ٥١٢
 ٥٥٣ ، ٥٧٤
 عيسى بن قرقمان ؛ ٤٩١
 عيسى بن مزاحم ؛ ٦١
 عيسى بن مساور ؛ ١٥٣
 عيسى بن منصور ؛ ٤٩٠
 عيشون بن سليمان بن يقظان ؛ ١٧٦ ، ١٧٧
 ١٨٠ ، ١٨٧
 عيشون حاكم أرشدونة ؛ ٣٢٠
 غاتون ، الكونت ؛ ٢٩٢
 غالب ، أمير البحر ؛ ٤٢٧

عبد الله بن أبي عبدة ؛ ٢٤٣ ، ٢٥٧
 عبيد الله بن عثمان ؛ ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧
 ١٥٨ ، ١٦٤ - ١٦٦ ، ١٨٩ ، ١٩٣
 ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٢٦
 عبيد الله بن قاسم ؛ ٤٩٠
 عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة ؛ ٣٢٥ ، ٣٢٦
 ٣٤٧
 عبيد الله بن يحيى بن إدريس ؛ ٦٩٦ - ٦٩٨
 عبدة ، والي إفريقية ؛ ١٠٦
 عبدة بن حميد ؛ ٢٣٩
 عبدة بن عبد الرحمن السلمى ؛ ٨٣ ، ٨٤
 عثمان بن أبي نعمة الخثعمي ؛ ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٧
 ١٠٣
 عثمان بن عفان ؛ ١٥ ، ١٨ ، ١١٨ ، ١٩٦
 عثمان بن عمرو ؛ ٣٣٠
 عثمان بن نصر ؛ ٣٧٩ ، ٣٨٠
 عثمان بن نصر المصمقي ؛ ٥١١
 العنزي ، أحمد بن عمر ؛ ٣٤١
 عروة بن الوليد الذي ؛ ١٣٤ ، ١٣٥
 عزرة بن عبد الله الفهري ؛ ٨٣
 العزيز بالله الفاطمي ؛ ٤٩٩ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥
 عصام الخولاني ؛ ٣٤٦
 عقبة بن الحجاج السلوي ؛ ١١٣ ، ١١٤
 ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ٢١٢
 عمقة بن نافع الفهري ؛ ١٥ ، ١٩ ، ٢٠
 عكاشة القزاري ؛ ١٢٠ ، ١٢١
 العلاء بن مغيث اليحصبي ؛ ١٦١ - ١٦٣
 ١٨٦ ، ٢١٥
 علي بن أبي طالب ؛ ١٨ ، ١٤١ - ١٤٣
 علي بن حود ؛ ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ - ٦٦١
 علي بن وداعة ؛ ٦٥١
 عمر بن حفصون ؛ ٣٠٣ ، ٣٠٧ - ٣١٠
 ٣١٧ - ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ - ٣٢٥
 ٣٢٨ - ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ - ٣٣٨

غالب بن تمام بن علقمة ؛ ١٩٨
 غالب بن عبد الرحمن الناصري ؛ ٤٨٧ ، ٤٨٥ ، ٤٨٩ ، ٤٩٦ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥١٢ ، ٥٢٨ ، ٥٣٠ ، ٥٣٧ ، ٥٣٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٥٥ ، ٥٧٥ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠
 غرسى فرناندز ؛ ٥٦٣
 غرسية ، أمير نافار ؛ ٢٥٩ ، ٢٦١
 غرسية لإنجيز ؛ ٣٤٣ ، ٣٦٢
 غرسية الأول ملك نافار ؛ ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٥٧
 غرسية الثاني ملك نافار ؛ ٤٠٢ ، ٤٢٢ ، ٥٥٩
 غرسية ابن ألفونسو الثالث ؛ ٣٦١ ، ٣٦٠ ، ٣٩١
 غرسية ملك ليون ؛ ٣٩١
 غرسية سانشيز ، ملك نافار ؛ ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠
 غرسية سانشيز الثاني ، أمير قشتالة ؛ ٦٠٠
 غرسية سانشيز الثالث ، أمير قشتالة ؛ ٦٠٠ ، ٦٠١
 غرسية سانشيز الثالث ملك نافار ؛ ٦٠٠ ، ٦٠١
 غرسية فرناندز ، أمير قشتالة ؛ ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٥ ، ٥٤١ ، ٥٥٠ ، ٥٥٢ ، ٥٩٨ ، ٥٩٧ ، ٥٦٥ ، ٥٦٧ ، ٥٩٨
 غريب بن عبد الله ؛ ٢٤٧
 غريب بن مسعود ؛ ٤١٨
 غزاة البياض ؛ ٥٤٨
 غزاة العلة ؛ ٦١٥
 غزوة بنبلاوة (الناصر) ؛ ٤٠٠
 غزوة بنبلاوة (عبد الملك المنه ور) ؛ ٦١٢
 غزوة شنت ياقب ؛ ٥٦١
 غزوة قلاونية (عبد الملك المنصور) ؛ ٦١٣ ، ٦١٤
 الغزيري ، ميخائيل ؛ ٥٥
 الغمر بن يزيد بن عبد الملك ؛ ٢٠٢
 غياث بن علقمة ، اللخمى ؛ ١٥٣ ، ١٦٢ ، ١٦٣
 فاتن ، الفتى ؛ ٥٧٩ ، ٦٣٣
 فاطمة بنت الرسول ؛ ١٦٤
 الفاطمي ؛ أنظر شقنا بن عبد الواحد
 فافيلابن بلايو ؛ ١٣٨ ، ٢١٣
 فافيلابن والد بلايو ؛ ٢٠٧
 فافيلابن ، ملك القوط ؛ ٢٩
 فافيلابن ، الإمبراطور ؛ ٢٨
 فافيلابن ، ملك القوط ؛ ٣٤
 فافيلابن الفتى ؛ ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٦
 الفتح بن خاقان ؛ ٤٤١ ، ٥٨٤
 الفتح بن موسى بن ذى النون ؛ ٣٤٠ ، ٣٧٥
 فخر الحارثية ؛ ٢٧٨
 فرتون لإنجيز ؛ ٢٦٥
 فرتون بن لب بن موسى ؛ ٢٩٩
 فرتون بن غرسية ؛ ٢٩٨ ، ٣٦٢ ، ٥٩٩
 فرتون بن محمد الطويل ؛ ٤١٦
 فرتون بن موسى القسوى ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٢
 فرنان كوثالث (فردلند القومس) ؛ ٤٨٤ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٥٩٤ ، ٥٩٧ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠
 فرنان لينيز ؛ ٤٩١
 فرويلا ، أمير استورية ؛ ٨٧
 فرويلا ، أمير كانتابريا ؛ ٢١٤ ، ٢١٥
 فرويلا ، الكونت ؛ ٣٥٨
 فرويلا ابن ألفونسو الثالث ؛ ٣٦٠
 فرويلا الأول ؛ ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢١٩
 فرويلا ، ملك ليون ، ٤٠٠
 فرويلا بن برمند ؛ ٣٥٨
 فطيس بن أصبغ بن فطيس ؛ ٤٦٢
 فلورا ، الفتاة المنتصرة ؛ ٢٧٢ ، ٢٧٣
 فلورندا القوطية ؛ ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧
 فنل ، جورج ؛ ١١٠
 فون شليجل ؛ ١١٠
 فيدوكنت ؛ ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٨٨
 قارله ، قلدوس ؛ أنظر كارل الأكبر
 قارله بن بين ؛ ٢٨٩
 القاسم بن حود ، المستعل ؛ ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٦١ ، ٦٦٤ ، ٦٧٠ ، ٦٧٣ ، ٦٧٦
 قاسم بن حد ؛ ٥١٨
 القاسم بن محمد بن عبد الرحمن ؛ ٣٤٩ ، ٣٥٠
 القاسم بن محمد (الوائق) ؛ ٦٧٦

ف - ق - ك

لب بن حد بن لب ؟ ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٦٣
 لب بن موسى بن فرتون ؟ ٣٦٢
 لب بن موسى بن موسى ؟ ٢٩٩
 الليث بن سعد ؟ ١٠٦ ، ٢٧٦ ، ٦٩٢
 لوتبراند ، ملك اللومبارد ؟ ١١٦
 لوتبراند ، المؤرخ ؟ ٤٥٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٢
 لوقا للتطيل ؟ ٣٥
 لوقا للتجسس ؟ ٤١٩
 لويس بن شارلمان ؟ ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ،
 ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦ ، ٤٦٦
 لويس الرابع ؟ ٤٥٦
 ليوكريسيا ؟ ٢٩٦ ، ٣٠٣
 ليون الثاني ، البابا ؟ ١١٠
 ماردة أم المعتصم ؟ ٢٨٢
 ماسدي ، المؤرخ ؟ ٣٤ ، ٣٦ ، ٥٨٦
 ماركوس أوريليوس ؟ ٥٠٨
 ماريّا ، فتاة قرطبة ؟ ٢٧٣
 ماريّا ، والدة الناصر ؟ ٣٧٣
 ماريّا ، المؤرخ ؟ ٣٦ ، ٨٩ ، ٥٦٥
 مالك بن أنس ، الإمام ؟ ٢٢٩ ، ٢٧٦ ، ٦٩١ ، ٦٩٢
 مالك بن يزيد التجيبي ؟ ٢٣٦
 المأمون العباسي ؟ ٢٤٥ ، ٢٨٢ ، ٧٨٣
 ماييل ، القديس ؟ ٤٧٣
 مايور ، دونيا ؟ ٥٦٤
 متعة ، البحرية ؟ ٢٧٨
 المتقي ؟ ٦٩٩
 مجاهد العامري ؟ ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٦١٦ ، ٦٥٨
 محافظ القصر ؟ ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٦
 محمد ، للنبي العربي ؟ ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦ ،
 ١١٠ ، ٢٧٠ - ٢٧٣
 محمد بن الحسين ؟ ٤٥٩ ، ٥٩٢
 حد بن الحنفية ؟ ١٤٣
 محمد بن الخيزر بن خزر ؟ ٤٢٨ ، ٤٩٤
 محمد بن السليم ؟ ٢٧٤
 محمد بن السليم ، أبو بكر ؟ ٥١٢
 محمد للعراقي ؟ ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٧
 محمد بن القرضي ؟ ٦٦٣
 حد بن القاسم المرواني ؟ ٢٣٦

قاسم بن مطرف من ذئب النون ؟ ٤٨٧
 القاسم بن المنذر ؟ ٢٣١
 القاسم بن يوسف الفير ؟ ١٥٩ ، ١٦٠
 القاسم الفاطمي ؟ ٤٢٦
 قسطنطين الأكبر ؟ ٢٨
 قسطنطين السابع ؟ ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦
 قسطنطين الملكي ؟ ٤٩١
 قسي ، الكونت ؟ ٢٦٠
 قطن بن عبد الملك بن قطن ؟ ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦
 كابا ، وصيفة فلورنسا ؟ ٣٦
 كاردون ، المستشرق ؟ ١٠٥
 كارديناس ، المستشرق ؟ ٦٦
 كارل مارتل ؟ ٨١ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٦ -
 ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٤ -
 ١١٦ ، ١٣٧ ، ١٧١
 كارل الأكبر ؟ أنظر شارلمان
 الكاهنة ؟ ١٧ ، ٢٢
 الكرسي الرسولي ؟ ٢٥٩
 كريغ بن عثمان بن خلدون ؟ ٣٣١ - ٣٣٣ ،
 ٣٣٩
 كريزي ، إدوارد ؟ ١١٠
 كسيلة بن لمزم ؟ ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢
 كلثوم بن عياض القشيري ؟ ١١٩ ، ١٢٠ ،
 ١٢٣ - ١٢٦
 كاوتير الثاني ؟ ٧٨
 كلوثيس ؟ ٧٧ ، ٩٥
 كنانة بن سعيد ؟ ١٦٧
 كوديرا ، المستشرق ؟ ٥٦٥
 كوندلي ، يوسف ؟ ٣٦ ، ٩٩ ، ١٠٢
 كونراد ، ملك برخونة ؟ ٤٦٩
 ل - م
 لافونتي ، موديستو ؟ ٥٠٨ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ،
 ٥٩٧
 لامبجيا ؟ ٨٧ ، ٨٨
 لاين بول ؟ ٦٤
 لب بن الطريشة ، ٣٨٩
 لب بن زكريا بن عمرو ؟ ٣٠١

محمد بن إبراهيم بن حجاج ؛ ٣٢٤
محمد بن أبي جمعة ؛ ٥٨٠
محمد بن أبي سليمان الزجاجي ؛ ٢٧٦
محمد بن أبي عامر (المنصور) ؛ ٢١٥ ، ٢٠٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٨٤ ، ٤٩٦ ، ٥١٨ — ٥٣١ ، ٥٣٥ — ٥٦٦ ، ٥٨٧ — ٥٨٤ ، ٥٨١ — ٥٧٨ ، ٥٩٨ — ٦٠١ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ — ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٦ — ٦١٨ ، ٦٢٢ — ٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ٦٣٢ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨ ، ٦٤٢ ، ٦٥٠ ، ٦٥٦ ، ٦٥٨ ، ٦٦٧ ، ٦٨٣ ، ٦٩٠ ، ٦٩٣ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤

محمد بن عبد الرحمن التجيبي ؛ ٤٠٥
محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر ؛ ٦٦٦
محمد بن عبد السلام بن بسيل ؛ ٢٧٤
محمد بن عبد السلام بن كليب ؛ ٤٦١
محمد بن عبد السلام الحشني ؛ ٦٩٤
محمد بن الأمير عبد الله ؛ ٣٢١ ، ٣٣٢ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٧٣ ، ٣٨٠
محمد بن عبد الله الأشجعي ؛ ٨٤
محمد بن عبد الله البرازلي ؛ ٦٧٠ — ٦٧٢
محمد بن عبد الله بن موسى ؛ ٤٦١
محمد بن عبد الملك المنصور ؛ ٦٣٥
محمد بن عبد الملك بن أبي عبده ؛ ٤١٠
محمد بن عبد الملك بن شبريط (الطويل) ؛ ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٦٣
محمد بن عبد الوهاب ؛ ٣٠١
محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ؛ ١٤٤ ، ١٤٣ ، ١٤٤
محمد بن عمر بن لبابة ؛ ٣١٥ ، ٦٩٣ ، ٦٩٦
محمد بن القاسم بن حمود ؛ ٦٧٤ — ٦٧٦
محمد بن القاسم بن طملس ؛ ٤٦١ ، ٤٩٥ ، ٦٨٥
محمد بن لب بن موسى ؛ ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩
٣١٨ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٩٧
محمد بن محمد التجيبي ؛ ٤٩٧
محمد بن محمد بن أبي زيد ؛ ٣٧٤
محمد بن محمد بن ذي النون ؛ ٣٩٠
محمد بن مروان بن عبد الله بن بسيل ؛ ٤٦١
محمد بن مسعود ؛ ٣٨٧
محمد بن مطرف بن شخيص ؛ ٧٠١
محمد بن المنيرة ؛ ٦٣٣
محمد بن نوح ؛ ٦٧٥
محمد بن هاشم التجيبي ؛ ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢١
محمد بن هانيه الأزدي ؛ ٦٩٩
محمد بن هشام بن عبد الجبار (المهدي) ؛ ٦٣٠ — ٦٨٣ ، ٦٥٨ ، ٦٥٧ ، ٦٥١ — ٦٤٢ ، ٦٣٩

محمد بن إبراهيم بن حجاج ؛ ٣٢٤
محمد بن أبي جمعة ؛ ٥٨٠
محمد بن أبي سليمان الزجاجي ؛ ٢٧٦
محمد بن أبي عامر (المنصور) ؛ ٢١٥ ، ٢٠٥ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٨٤ ، ٤٩٦ ، ٥١٨ — ٥٣١ ، ٥٣٥ — ٥٦٦ ، ٥٨٧ — ٥٨٤ ، ٥٨١ — ٥٧٨ ، ٥٩٨ — ٦٠١ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ — ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٦ — ٦١٨ ، ٦٢٢ — ٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ٦٣٢ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨ ، ٦٤٢ ، ٦٥٠ ، ٦٥٦ ، ٦٥٨ ، ٦٦٧ ، ٦٨٣ ، ٦٩٠ ، ٦٩٣ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤
محمد بن أبي عبد الله بن عيسى ؛ ٤٢٤
محمد بن أحمد بن قابوس ؛ ٤٦١
محمد بن إدريس المستعل ؛ ٦٧٥ ، ٦٧٦
محمد بن إدريس ، المهدي ؛ ٦٧٤ — ٦٧٦
محمد بن إسماعيل بن عباد ؛ ٦٦٤ ، ٦٧٠ — ٦٧٢ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦
محمد بن إسماعيل بن موسى ؛ ٣٤٠
محمد بن أضحى الهمداني ؛ ٣٢٩ ، ٦٩٦
محمد بن أفلح ؛ ٤٩١
محمد بن بشير ؛ ٢٤٩
محمد بن تاجيت ؛ ٣٩٢
محمد بن تاكيت المصمودي ؛ ٣٣٩
محمد بن جعفر المصمقي ؛ ٥٢٨ ، ٥٢٩
محمد بن جهور بن عبد الملك البختي ؛ ٤٦١ ، ٥٧٤
محمد بن حارث ؛ ٢٧٦ ، ٦٩٤
محمد بن الحسن الزبيدي ؛ ٧٠٣
محمد بن حنين الطائي ؛ ٤٩٧ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨
٧٠١ ، ٧٠٢
محمد بن حفص بن جابر ؛ ٥٧٤
محمد بن رسم ؛ ٢٥٨ ، ٢٦٣
محمد بن سليمان الزجاجي ؛ ٦٩٤
محمد بن سليمان بن وانوس ؛ ٤٦١
محمد بن سعيد بن المنذر ؛ ٤٦١
محمد بن عباس بن محمد بن أبي عبدة ؛ ٣٦١
محمد بن عبد الرحمن ، الأمير ؛ ٢٥٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ — ٢٩٤ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧

نصر المظفرى ؛ ٦٣٤
 نظيف الفقى ؛ ٦١٩ ، ٦٣٤
 نود ، ملكة النورمان ؛ ٢٨٥
 نونيو ، الكونت ؛ ٣٦٠
 هادريان ، البابا ؛ ١٧٣
 هاشم الصراب ؛ ٢٥٨
 هاشم بن عبد العزيز ؛ ٢٧٤ ، ٢٩١ ، ٣٠٢ —
 ، ٣١٧ ، ٣١٥ ، ٣١٣ ، ٣١٢ ، ٣٠٩
 ، ٣١٨ ، ٦٨٤
 هاشم بن محمد التجيبى ؛ ٤٩٧
 هذيل بن الصميل ؛ ١٨٩
 هذيل بن محمد التجيبى ؛ ٤٩٧
 هرودلان ، أنظر رولان
 هروسوفيتا ؛ ٤٤٨
 هشام الفهرى ؛ ١٦٣
 هشام المصحق ؛ ٤٨٥ ، ٥٣٠
 هشام ، المعتد بالله ؛ ٦٦٨ — ٦٧٠
 هشام ، المؤيد بالله ؛ ٤٤٠ ، ٤٥٣ ، ٥٠٣ ،
 ، ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١٤ ، ٥١٧ — ٥٢٠ ،
 ، ٥٢٢ — ٥٢٦ ، ٥٣١ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ،
 ، ٥٥٤ — ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٣ ،
 ، ٥٨٥ ، ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ٦١٤ ، ٦١٦ ،
 ، ٦٢٣ — ٦٢٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٦ ،
 ، ٦٣٨ ، ٦٤٢ — ٦٤٤ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ —
 ، ٦٥٣ ، ٦٥٨ — ٦٦٠ ، ٦٧٠ ، ٦٧٤ ،
 ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٦ ، ٧٠٣
 هشام بن الحكم ؛ ٢٤٢
 هشام بن سليمان بن الناصر ؛ ٦٤٥ ، ٦٤٦
 هشام بن عبد الجبار بن الناصر ؛ ؛ ٦١٩ ،
 ، ٦٢٠ ، ٦٣٠ ، ٦٣١
 هشام بن عبد الرحمن الأموى ؛ ٢٢٠ ، ٢٢٣ —
 ، ٢٣١ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ ،
 ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ ، ٤٦٥ ، ٤٩١ ، ٦٩٢
 هشام بن عبد الرحمن بن الحكم ؛ ٢٦٤ ، ٣٣٠ ،
 ٣٣٢
 هشام بن عبد الملك ، ٦١ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ١١٢ ،
 ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٤٠ ،
 ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ٢٠٠ ، ٢٨١
 هشام بن عزرة الفهرى ؛ ١٥٧ ، ٦٦١ ، ١٦٣

منندو كونثال ؛ ٥٦٤ ، ٥٩٩ ، ٦١٠
 منوسة ؛ ٨٥ — ٨٩ ، ٢١٢ ، ٢١٣
 منينا ؛ ٨٧
 موجات ؛ ٢١٩ ، ٢٢٠
 مورنتوس ، الدوق ؛ ١١٥ ، ١١٦
 موسى بن أبى العافية ؛ ٣١٦
 موسى بن حنوش ؛ ٥١٦
 موسى بن ذى النون ؛ ٣٠٧ ، ٣٣٩
 موسى بن سالم الخولاني ؛ ٢٣٦ ، ٢٤٣
 موسى بن غلند ؛ ٣٠١
 موسى بن فرته بن قسى ؛ ٣٦٢
 موسى بن فرقوق ؛ ٢٢٥
 موسى بن محمد بن حدير ؛ ٣٥١ ، ٤٦٠ ، ٣٧٤ ،
 ٦٩٨
 موسى بن موسى بن قسى ؛ ٢٥٩ — ٢٦١ ،
 ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٤ ، ٣٠٩ ، ٣٠٠ ،
 ٣٥٧
 موسى بن نصير الخنمى ؛ ٢٣ — ٢٦ ، ٣٥ ،
 ٣٨ — ٤٢ ، ٤٥ ، ٥١ — ٦٠ ، ٧١ — ٧٣
 موسيتو ، موجيتوس ؛ أنظر مجاهد العامرى
 مؤمرة الجارية ؛ ٢٧٨
 مؤمن بن سعيد ؛ ٢٥٢ ، ٣١٥ ، ٦٩٣
 مونتيخار ؛ ٣٦
 مؤنس الكاتب ؛ ٤٩١
 مونيا ؛ ٢١٨
 ميسرة المدغرى ؛ ١١٩
 ميسرة الفقى الصقلبى ؛ ٢٥٩
 ميسور الصقلبى ؛ ٤٢٦ ، ٤٦١ ، ٥٠٩
 ميخائيل ، القيصر ؛ ٢٨٣
 ميشليه ، المؤرخ ؛ ١١٠
 ن — ي
 نجا الصقلبى ، أبو الفوز ؛ ٦٧١ ، ٦٧٢ ،
 ٦٧٣
 نجدة بن حسين الصقلبى ؛ ٤١٢ ، ٤١٣ ،
 ، ٤٢٠ ، ٤٥١ ، ٤٦١
 نصر الحصى ؛ ٢٥١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٥ ،
 ٢٧٧ ، ٢٨٩
 نصر بن سيار ؛ ١٤٤ ، ١٤٥ ،
 نصير الخنمى ؛ ٢٣

يحيى بن محمد بن عبد الرحمن ؟ ٣٤٩
 هشام بن محمد بن عثمان ؟ ٥١٨
 هشام بن المنذر ؟ ٣٢١
 هشام بن هذيل ؟ ٤٥٦
 هلال الميديوني ؟ ١٦٥
 هوج ، ملك بروقانس ؟ ٤٦٩ ، ٤٧٠
 هوريك ، ملك النومان ؟ ٢٨٤
 هونالد ، دوق أكوئين : ١١٤
 هونوريوس ، الإمبراطور ؟ ٢٨
 الهيثم بن عبيد الكلبي ؟ ٨٣ - ٨٥ ، ٢١١
 هيرود ؟ ٢٢٠
 واضح الفتى ؟ ٤٤٠ ، ٥٠٩ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ،
 ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٦ ، ٦٣٦ ، ٦٤٤ ، ٦٤٦ ،
 ٦٤٧ ، ٦٤٩ - ٦٥١ ، ٦٥٨
 الواقدى ، المؤرخ ؟ ١٠٦
 وانسوس البربرى ؟ ١٥١
 وتيزا ، ملك القوط ؟ ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٢ ،
 ٥١ ، ٦٠ ، ٢٠٨
 ودنا بن عطاف ؟ ٣٨٠
 الوليد بن الحكم ؟ ٢٥٩
 وليد بن خيزون ؟ ٤٨٥
 الوليد بن عبد الملك ؟ ٢٣ ، ٢٤ ، ٤٧ ، ٥٠ ،
 ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ١٤٠ ، ١٤٣
 وليد بن غانم ؟ ٣١٣
 وليد بن معاوية ؟ ١٨٩
 الوليد بن يزيد بن عبد الملك ؟ ١٣٠
 وثقة بن شانجه ؟ أنظر لإنجوارستا
 وهب بن عامر ؟ ١٣٦
 وهب الله بن حزم ؟ ٢٦٢
 ياسر ، الفتى ؟ ٤٥١ ، ٤٥٢
 ياقب ، القديس ؟ ٢٢٠ ، ٥٥٩ ، ٥٩٦
 ياقوت الحموى ؟ ٤٤١
 يحيى الغزال (يحيى بن الحكم) ؟ ٢٥٣ ،
 ٢٦٤ ، ٢٨٢ - ٢٨٥ ، ٢٩٣
 يحيى بن إبراهيم بن مدين ؟ ٢٧٦
 يحيى بن إدريس المتأبد ؟ ٦٧٢ ، ٦٧٣
 يحيى بن إسحاق ؟ ٣٨٠ ، ٤٦٢

يحيى بن حبيب ؟ ٢٨٤
 يحيى بن حريث الحناني ؟ ١٣١
 يحيى بن الحسين الأنصارى ؟ ١٨٨
 يحيى بن سلمة الكلبي ؟ ٨٣
 يحيى بن صفالة القيسي ؟ ٣٢٨
 يحيى بن عبد الرحمن التجيبى ؟ ٥٥٠
 يحيى بن عبد الله ؟ ٢٥٥
 يحيى بن عبد الله بن يحيى ؟ ٥٠٣
 يحيى بن علي بن حدون الأندلسي ؟ ٤٩٣ ،
 ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٣٩ ، ٧٠٢
 يحيى بن علي بن حود (المقل) ؟ ٦٦٢ -
 ٦٦٤ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ - ٦٧٢ ، ٦٧٥
 يحيى بن محمد التجيبى ؟ ٤٨٧ ، ٤٩٧ ،
 ٤٩٨ ، ٥١٢
 يحيى بن نصر القيسي ؟ ٢٣٦
 يحيى بن موسى بن ذى النون ؟ ٣٤٠ ، ٤٠٠
 يحيى بن نصر اليحصبي ؟ ٢٤٣
 يحيى بن هاشم ؟ ٤٠٢ ، ٤١٠ ، ٤٢٢
 يحيى بن هذيل ؟ ٧٠٢
 يحيى بن يحيى بن إسحاق ؟ ٤٠٥
 يحيى بن يحيى بن بكر ؟ ٣٣٩
 يحيى بن يحيى الليثي ؟ ٢٢٩ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٧٦ ،
 ٦٩٢ ، ٦٩٣
 يدو بن يعلى ؟ ٥٤٦ ، ٥٤٧
 يزيد بن الوليد ؟ ١٣٠
 يزيد بن عبد الملك ؟ ٨٢
 يزيد بن معاوية ؟ ٢٠ ، ١٢٣
 يزيد بن المهلب ؟ ٥٧ ، ٥٨
 يعقوب الحواري : أنظر ياقب القديس
 يعقوب بن أبي خالد التوزري ؟ ٣٩٩
 يعقوب بن كلس ؟ ٥٣٥
 ينقة بن وثقة ؟ ٢٦٠
 يوحنا ، حاكم قرطاجنة ؟ ٢١
 يوحنا الجورزبى ؟ ٤٥٦ - ٤٥٨ ، ٤٧٢
 يوحنا الثامن ، البابا ؟ ٣٥٩
 يوحنا الثاني عشر ، البابا ؟ ٤٥٩
 يوحنا زمسكى ، القيصير ؟ ٤٩١
 يوستنيان ، الإمبراطور ؟ ١٨

يوسف بن عمر الأزرق ؛ ١٣٤	يوسف العيسى ؛ ٢٢٥
يوسف بن محمد التميمي ؛ ٤٩٧	يوسف بن إسماعيل بن نغالة ؛ ٥٠٧
يوسف بن هارون البطليوسي ؛ ٤٩١	يوسف بن بخت ؛ ٢٧٤ ، ٢٢٦ ، ١٩٨ ، ١٥٢
يوسف بن هارون الرمادي ؛ ٨٠٣ ، ٧٠٢	يوسف بن عبد الرحمن الفهري ؛ ١٣٢ — ١٢٩ ،
يوليان ، الكونت ؛ ٢٦ ، ٣٣ — ٣٥ ، ٣٧	١٣٤ — ١٣٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ —
٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩	١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٨٦ ، ١٩٦ ،
٥١ ، ٥٢ ، ٦٠	٢١٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩

موسوعة الأندلس

تأليف الأستاذ محمد عبد الله عنان

تتضمن على سبعة مجلدات هي الآتية :

دولة الإسلام في الأندلس المجلدان الأول والثاني (الطبعة الرابعة)

دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي (الطبعة الثانية)

عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (مجلدان)

نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين (الطبعة الثالثة)

الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال (الطبعة الثانية)

ويلحق بهذه المجموعة كتاب :

لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكري
